موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

جزء عم

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-02-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الإله العظيم إذا قال عن شيء إنه نبأ عظيم فهو حقاً نبأ عظيم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من الجُزء الثلاثين، والسورة اليوم سورة النبأ.

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

كلمة (عمَّ) أساسها "عن" وهو حرف جر، و"ما" الاستفهامية، فإذا أضيفت ما الاستفهامية إلى حروف الجر حذفتْ ألفها، أما إذا أضيفت إلى ما المصدرية بقيتْ ألفها، لو أنني سألت واحداً متفوقاً: بِمَ نلت هذا النجاح المتفوّق؟ يقول لي: بما بذلت من جهدٍ، فـ (ما) الأولى استفهامية، أما الثانية مصدرية، فإذا جاءت حروف الجر مع ما الاستفهامية حُذفتْ ألفها، هذه قاعدة؛ عمَّ، إلامَ، فيمَ. يقول الله عزَّ وجل:

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)

الإله العظيم إذا قال: إنه نبأً عظيم، فهو حقاً نبأ عظيم، لأن الذي يصفه بالعظمة عظيم، ولو أن طفلاً قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فكم تقدِّر هذا المبلغ؟ ولو أن رجلاً غنياً قال لك: ثروتي كبيرة، فإنك تقدِّر كلمة (كبيرة) بالنسبة للقائل، فالطفل إذا قال لك: معي مبلغ كبير، فهو غير الإنسان التاجر الكبير، مليونير، فقال لك: ثروتي كبيرة، فحجم الكِبَر هنا يؤخذ بحسب القائل.

خسارة الآخرة نبأ عظيم يصعق فيه الناس :

ربنا عزَّ وجل العظيم، سبحان ربي العظيم..

(فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

[سورة الواقعة: 74]

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 33]

الإله العظيم يقول لك: هو نبأ عظيم، هذا اليوم - يوم الفصل - الإنسان يُصْعَق:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[سورة الطور: 45]

الإنسان يصعق في هذا اليوم؛ لأنه يكتشف أنه خسر الآخرة، فالإنسان حينما يخسر خسارة كبيرة في الدنيا يُصعق، فإذا ذهبت ثروته كلُّها، أو صُودِرَت أمواله، أو فَقَدَ بيته الوحيد، أُعطِي أمراً بإخلائه لخللٍ في البناء، ولا يملك مأوىً غيره، شيء من الدنيا إذا كان مهماً، وفَقَده الإنسان فجأةً يصعق، فكيف إذا اكتشف يوم القيامة أنه في ساعة واحدة خسر الآخرة؟

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر: 15]

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

الخسارة الحقيقية حينما نخسر الأبد، نربح الدنيا المحدودة، القصيرة، ونخسر الآخرة، فهذا نبأٌ عظيم يصعق فيه الناس.

لذلك المؤمن حينما يربح الآخرة يقول: لم أرَ شراً قط، وكل ما ساقه الله له من مصائب في الدنيا لا يراها شيئاً أمام هذا الفوز العظيم، وكل شيءٍ تَنَعَّم به الكافر في الدنيا، حينما يرى مكانه في جهنم يقول: لم أرَ خيراً قط.

فالغنى والفقر بعد العرض على الله، والعاقل كل العاقل، والعقل كل العقل، والنجاح كل النجاح، والذكاء كلّ الذكاء، والتفوق كل التفوق أن تربح الأبد، وأن تربح جنةً عرضها السماوات والأرض، والإنسان في الدنيا مُرْخى له الحبل، له أن يفعل ما يشاء، له أن يصلي أو لا يصلي، له أن يأكل المال الحرام أو أن يكسب المال الحلال، له أن يُطلق بصره أو أن يغضَّ بصره، له أن يصدق أو أنْ يكذب، له أن يُخْلص أو أن يخون، وله أن يقسو أو أن يرحم، فليفعل ما يشاء:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

كل شيء له حساب، في يوم الفصل؛ تقاس الأشياء بمقياسٍ واحدٍ إلهي، فهؤلاء يتساءلون..

زعم المنجِّم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأموات قلت: إليكما

إن صحَّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخسار عليكما

* * *

هذا التساؤل سوف يُحْسَم يوم القيامة..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

ما من حدثٍ أشد واقعيةٍ من النبأ العظيم :

البشر الآن مختلفون؛ هناك من يؤمن بالمادَّة فقط ولا شيء آخر بعد المادة، والدنيا هي كل شيء، والمال هو كل شيء، وطاعة الأقوياء هي كل شيء، وهناك إنسان عرف الله فرأى الحقيقة الدينية هي كل شيء، ورأى أن الله عزَّ وجل هو كل شيء، والسعادة كل السعادة في معرفته، وطاعته، والقرب منه، والشقاء كل الشقاء في الغفلة عنه، ومعصيته، والبعد عنه.

فهذا النبأ العظيم واقعٌ لا محالة، بل ما من حدثٍ أشد واقعيةٍ من النبأ العظيم، من يوم القيامة، من يوم الفَصْل، من يوم الطَّامة:

(فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

[سورة النازعات: 34]

من يوم القارعة..

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-2]

أسماء يوم القيامة كثيرةٌ جداً؛ يوم الفصل، ويوم الدين، ويوم الجزاء، والحاقَّة، والقارعة، وما إلى ذلك، لكن هذا الاختلاف لا يستمر، يحسمه الله عزَّ وجل عند الموت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

أكفر كفَّار الأرض حينما جاءه الموت قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

أيْ أن هذه الحقائق الكبرى التي جاء بها الأنبياء سوف يكشفها فيعرفها الخلق كلهم، ولكن عند الموت، وبعد فوات الأوان.

خيار الإيمان خيار وقت :

إذاً خيار الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب فتنتفع بإيمانك، وإما أن تؤمن في الوقت غير المناسب فتشقى بإيمانك، أما الإيمان حاصل لا محالة..

(كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

عند الموت..

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

يوم البعث والنشور. الآن هذا اليوم يوم الفصل، هذا اليوم يوم الدين، هذا اليوم يوم الجزاء، هذا اليوم يوم تسوية الحسابات، فما سبيل الإيمان به؟ هو إيمانٌ تحقيقي أم إيمانٌ تصديقي؟ هناك من يقول: أنه إيمان تصديقي لأن الله أخبرنا أن هناك يوماً عظيماً، يحاسب فيه الناس عن كل أفعالهم..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف: 49]

الإيمان بالله واليوم الآخر متكاملان :

أنت حينما تؤمن أيها الأخ الكريم أنه:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

يجب أن تكتفي بهذه الآية، لأن أعرابياً لقي النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني ولا تطل. فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

قال: كُفيت، فورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل. أيْ أصبح فقيهاً من آية واحدة فقط. أيها الأخ الكريم أنت حينما تؤمن أن كل كلمةٍ، وكل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل ابتسامةٍ، وكل صلةٍ، وكل قطيعةٍ، وكل غضبٍ، وكل رضاً، وأيّ موقفٍ، وأيّ عملٍ تعمله مسجلٌ عليك وسوف تحاسب عنه، وهذا هو الإيمان.

لذلك الإيمان بالله لا يكفي، فلا بدَّ أن تؤمن مع الإيمان بالله باليوم الآخر، هما فرعان من فروع الإيمان أساسيان، اقترنا معاً في أكثر آيات القرآن: آمن بالله واليوم الآخر، الإيمان بالله واليوم الآخر متكاملان، أي أنك إن لم تؤمن أن الله موجود، وكامل، وواحد، ويعلم، وسيحاسب، وسيعاقب فلن تستقيم على أمر الله.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

الإيمان باليوم الآخر إيمان تصديقي :

حينما تؤمن أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه أبداً، هذا النبأ العظيم يوم القيامة، يوم الدين، يوم الفَصْل، يوم الجزاء، يوم الدينونة، القارعة، الحاقة، الطامّة، الغاشية، إن آمنت باليوم الآخر أصبحت مَلَكاً، وأمّا هذا الذي يعصي، وهذا الذي يعتدي على أعراض الناس، وهذا الذي يقع في المعاصي والآثام، وهذا الذي يبني حياته على العدوان، فهذا إنسان لم يؤمن باليوم الآخر، ولو آمن لما فعل ذلك، إنك إن آمنت بإنسانٍ قوي يفعل ما يقول لا يمكنك أن تعصيه، هذا من بني البشر، من بني جلدتك، إذا كنت موظفاً في دائرة، ولك مديرٌ قويُّ الشخصية يعلم ما يفعله موظّفوه بالتفاصيل، ويحاسب ويعاقب، فإنّك تستقيم على أمره، تستقيم على أمر بشر، فكيف بخالق البشر؟!

هذا الإيمان باليوم الآخر إيمان تحقيقي أم تصديقي؟ الحقيقة هو عند جمهور العلماء إيمان تصديقي، لأن الله أخبرنا أن هناك يوم دين، يوم جزاء سوف نحاسب فيه، ولكن لو أعْمَلْتَ عقلك في الموضوع، مثلاً هل من الممكن لبلد أن ينشئ جامعة تكلّف ألوف الملايين، ويستغرق بناؤها خمسين عاماً، وبعد افتتاحها بسنتين يؤمر بتهديمها؟ هذا عمل غير معقول، فقس على ذلك إنساناً عاش ستين سنة، أربعين سنة إعداد؛ درس حتى نال دكتوراه، تزوّج، واشترى بيتاً، وفرش البيت، صار له عمل، هذا كله استغرق أربعين سنة، معترك المنايا بين الستين والسبعين في أحسن الأحوال، وأحياناً بالثمانية والخمسين يموت الإنسان، بالخامسة والخمسين، بالاثنين والأربعين، وبالثالثة والأربعين، بالتاسعة والخمسين، بالخمسين، أيُعقَل هذا؟! هكذا الحياة، تكون سنتين، ثلاثاً، أربعاً، عشراً، وانتهى الأمر؟! لا ثم لا.

واحد قوي، وواحد ضعيف، وتنتهي الحياة هكذا، القوي قوي والضعيف ضعيف، والغني غني والفقير فقير، والصحيح صحيح والمريض مريض، والمعمِّر معمِّر والقصير العمر قصير العمر بلا تسوية حسابات؟!! هناك ظالم ومظلوم، هناك مستغِل ومستغَل، هناك قاهر وهناك مقهور، تسمع بإنسان تمتَّع بصحة رائعة طوال حياته، وعاش مئة سنة، وإنسان آخر كله عللٌ وأمراض، وتنتهي الحياة هكذا بلا شيء؟! المعتدي نجا والمعتدى عليه سُحِق، الظالم نجا والمظلوم هُضِم حقه، بلا يوم حساب؟! العقل لا يقبل ذلك.

لذلك بعض العلماء الكبار، ومنهم ابن القيِّم قال: الإيمان باليوم الآخر عقلي، وتفاصيله نقليَّة، التفاصيل؛ ماذا يجري في هذا اليوم؟ الصراط المستقيم، الحوض، العذاب، الصُحُف نُشِرَت، الميزان نُصِبْ، تفاصيل هذا اليوم نقلاً، أما أصل هذا اليوم نؤمن به عقلاً..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ* كَلَّا سَيَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

من عظمة الله سبحانه أنه جعل هذه الأرض ممهَّدة لنا :

الآن أيها الأخوة قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً *إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

ما العلاقة بين قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

إلى آخر الآيات، وبين قوله تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

أيْ أنَّ هذا الخالق العظيم الذي جعل هذه الأرض ممهَّدةً لنا، لو جعلها كلها صَخْرِيَّة كيف نعيش عليها؟ لكن من رحمته سبحانه جعلها تُرْبَةً تُنبت الزرع والزيتون.

الأرض الممهَّدة كل شيء فيها خُلق خصيصاً للإنسان :

من فجَّر الينابيع؟ ومن أنزل الأمطار؟ ومن حرَّك السُحُب؟ ومن قنَّنَ هذه القوانين؟ بخار الماء، والتبخُّر، والهواء يحمل بخار الماء، وكل درجة حرارة يستوعب الهواء من بخار الماء ما يستوعب، فإذا انتقل بخار الماء إلى جبهةٍ باردة تخلى عن بعض ما فيه فكان المطر.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

هذه الأرض الممهَّدة؛ فيها معادن، فيها أشباه معادن، فيها نباتات، فيها أطيار، فيها أسماك، فيها حيوانات، فيها أنعام، كل شيء فيها خُلق خصيصاً للإنسان..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل: 5]

فهذه الآيات الدالة على عظمته:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

مهداً لكم، فالأرض مستقرة، لو أنها مضطربة هل يُبنى عليها بناء؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا*وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا*مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

[سورة النازعات: 31-33]

كل ما في الكون ينطق بآيات الله سبحانه :

أيها الأخوة، هذا موضوع كبير:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

مستقرَّة، ومتحركة، وذات حجم معتدل، وكثافة معتدلة، والجاذبيّة معتدلة، الإنسان إذا كان وزنه في الأرض ستين كيلو، لو كان على سطح القمر فوزنه عشرة كيلوات فقط، وزن معتدل، كثافة معتدلة، حجم معتدل، دورة معتدلة، دورة على محور مائل، لولا هذا المَيْل لما كانت الفصول، ولولا أن الدوران على محور لا يتوازى على مستوى الدوران لما كان الليل ولا النهار، فالليل والنهار آية، الشمس والقمر آية، والفصول آية، والاعتدال في الحرارة والبرودة آية، والأمطار آية، والرياح آية، والجبال آية، والصحارى آية، والبحار آية، والأنهار آية، والينابيع آية.

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

الأرض تدور، فالأرض لها طبقات، وكل طبقة لها كثافة، وكل كثافة لها عطالة خاصَّة بها، والكثافات متفاوتة، لو أنّ الأرض حينما تدور يجب أن تضطرب لما استقرّتْ عليها الحياة، ائتِ ببيضةٍ ليست مسلوقة دوّرها تضطرب، لأن فيها عناصر متفاوتة في الكثافة، فيها الصفار وفيها البياض، والكثافة تَعني أن العطالة مختلفة، والعطالة ما هي؟ هي أن الجسم المتحرِّك يرفض السكون، والساكن يرفض الحركة، فالجسم الكثيف عطالته عالية جداً، والجسم القليل الكثافة عطالته بسيطة، فالبيضة غير المسلوقة لا تدور بل تضطرب، أما المسلوقة فقد تجانست، فالعطالة أصبحت واحدة، والأرض فيها طبقات متفاوتة، الجبال أوتاد، الجبال ربطت هذه الطبقات بعضها ببعض، لذلك الجبل يُرى منه ثلثه فقط، والثلثان تحت الأرض، الجبال أوتاد، هناك آية تذكر أنّ الجبال رواسٍ، وآية أخرى الجبال مَصَدَّات، أما هنا فالجبال أوتاد.

الذكور شيء والإناث شيء وكل جنسٍ خصائصه وقدراته كاملة لمهمَّته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

نظام الزوجية، نظام الذكر والأنثى، شخصان متشابهان، لكن الرجل له بُنْيَة جسمية خاصة، أجهزة خاصة، له عقلية خاصة، الجانب العقلي مختلف، الجانب النفسي مختلف، الاجتماعي مختلف، القُدرات مختلفة. والله قرأنا كتاب في الجامعة " الفروق بين الجنسين " كتاب مشهور جداً، ثمانمئة صفحة، بعد أن تقرأه وتقرأ قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

تسجد لله تعظيماً لخلقه، بمئات القدرات الذكور شيء والإناث شيء، وكل جنسٍ خصائصه وقُدراته كاملة لمهمَّته، وهذا معنى قول الإمام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان، فكل خصائص المرأة؛ الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية كمالٌ لمهمتها، أما حينما تختلط الأوراق، وتتشبَّه النساء بالرجال، ويتشبَّه الرجال بالنساء، ويأخذ كلّ جنسٍ دور الجنس الآخر، يصير هناك معاناة كبيرة جداً، أما المرأة بكل خصائصها كاملةٌ لأداء مهمَّتها..

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

يقول لك بعضهم: المرأة كالرجل تماماً، لا، فهذا كلام غير صحيح، هي كالرجل؛ تشريفاً، وتكريماً، وتكليفاً، ومسؤوليةً، مكلَّفة أن تؤمن كما هو مكلف أن يؤمن، مكلفة أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والكتاب، والملائِكة، والنبيين، مكلَّفة بأركان الإسلام؛ بالصلاة، والصيام، والحجِّ، والزكاة، مشرَّفة كما هو مشرَّف، مسؤولة كما هو مسؤول، ومع كل ذلك:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

من آيات الله الدالَّة على عظمته أن الله عزَّ وجل جعل البشر أزواجاً :

قدرات الأنثى وخصائصها، وبُنْيَتُها، ونفسيّتها، وعلاقاتها، وعقلها أكمل شيءٍ لأداء مهمتها.

إن زوجي تزوجني وأنا شابة؛ ذات أهلٍ ومالٍ وجمال، فلما كبرت سني، ونثرتُ بطني، وتفرَّق أهلي، وذهب مالي قال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا "، لها دور التربية وله دور القيادة.

لذلك قالوا: " ما زاد في عقل الرجل ونقص في عاطفته كمالٌ في مهمته، وما زاد من عاطفة المرأة الجيَّاشة وضعفت قيادتها كمالٌ بحقِّها "، فهذه أسرة، مركب يحتاج إلى قائد، القيادة للزوج، والرعاية للزوجة.

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

من آيات الله الدالَّة على عظمته أن الله عزَّ وجل جعل البشر أزواجاً.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 22]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة الروم: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

النوم والليل من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً)

ما هذا النوم؟ لك أعصاب، ولك منافذ؛ العينان منفذان من العالم الخارجي إلى عالمك الداخلي، والأذنان منفذان من العالم الخارجي إلى عالمك الداخلي، وأعصاب الحِس منافذ، والأنف من المنافذ، والفم من المنافذ، هذه المنافذ ماذا يحصل لها في النوم؟ قال العلماء: الطريق العصبي عبارة عن خلايا عصبية، خلية واستطالة، وهناك تباعد بينها وبين الخلية الثانية، في النهار الخلايا متقاربة، فالسيَّالة العصبيَّة تستمر في سيرها، في الليل تتباعد، فإذا تباعدت انقطعت السيالة العصبية فكان النوم.

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً)

النائم كالميت تماماً، ترتاح أعصابه، ترتاح عضلاته، يرتاح نشاطُه الفكري، يستيقظ ليستعيد نشاطه مرةً ثانية.

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً*وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً *وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً)

الليل سَتر، وقت الراحة، وقت النوم، وقت اللقاءات، وقت الركون إلى البيت والأهل، كله في الليل.

النهار والكون من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

النهار طبيعته طبيعة عمل، بالعكس فالإنسان عنده ساعة بيولوجية، هذه الساعة البيولوجية في النهار ترتفع خلالها ضربات القلب، ويعلو الضغط، وبعض الغُدَد الصمَّاء تفرز كميَّات مضاعفة، هناك برنامج دقيق جداً متعلّق بأجهزة القلب، وبالدوران، والرئتين، والغدد الصماء كله في النهار، فإذا جاء الليل هبطت ضربات القلب إلى الثُلثين، والضغط هبط، والإفراز قلّ.

إذا سافر الإنسان لبلد بعيد يقول لك: مضى عليّ يومان لم أنم، لأنه مبرمج على البلاد القديمة التي سافر منها، إلى أن تأخذ الساعة البيولوجية خطّتها الثانية تحتاج إلى يومين، فالنهار معاش، والليل لباس، وقلبك، وشرايينك، وضغط الدم، والرئتان، والهضم، الهضم في الليل أضعف بكثير، والغدد

الصمَّاء، هذه كلها نشاطها يزداد في النهار ويضعف في الليل، لذلك الذي يسهر الليل وينام النهار هذا إنسان غير سوي، هذا يعاكس بُنْيَة جسمه..

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

قد تكون كلمة (سبعاً) للتكثير فقط، وفي الكون مئة ألف مليون مجرَّة، ومجرَّتنا مجرة معتدلة جداً، فيها مئة ألف مليون نجم، وهناك مجرَّة اسمها المرأة المُسَلْسَلَة، تزيد عن مجرَّتنا بثمانيةٍ وعشرين ضعفاً، وتبدو في المناظير نجماً واحداً، كلها، كل شيء ترونه في السماء هو درب التبانة، مجرتنا فقط، هناك في السماء نجم متألّق جداً اسمه المرأة المُسلسلة، وهو في الحقيقة مجرةٌ بأكملها، ويزيد حجمها عن حجم مجرتنا بثمانيةٍ وعشرين ضعفاً..

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

آيات أخرى دالة على عظمته سبحانه :

الآن الرقم وصل إلى عشرين مليار سنة ضوئيَّة، أي أنَّ بُعد بعض المجرات عنا عشرين مليار سنة ضوئيَّة، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فمن أذان المغرب وحتى أذان العشاء، فإذا قطع الضوء في كل ثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم قطع الضوء في هذا الدرس؟ النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة، وصلنا ضوءه بعد عشرين مليار سنة، أين هو الآن؟ النجم يسير بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، الله عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة:75-76]

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً)

هذه الشمس من خمسة آلاف مليون سنة مُتَأَلِّقة، مشتعلة، ويقدِّر علماء الفلك أنها تبقى متألّقة إلى خمسة آلاف مليون سنة أخرى، وترسل من الطاقة ما لا يوصف، سطحها تزيد حرارته عن ستة آلاف درجة، حرارتها في مركزها عشرين مليون درجة، لو أُلقيت الأرض فيها لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية، لسان لهبها يزيد عن مليون كيلو متر، هناك أناسٌ نظروا إلى الشمس يوم كُسوفها بالمناظير، وفقدوا أبصارهم كلها، من مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، لو حدَّقت في قرص الشمس لاحترقت شبكية العين.

(وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً* وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

هذه الأمطار، فقد ترى على الأرض مِن القمر الصناعي لطعة رمادية اللون فوق الشرق الأوسط، هذه كانت بالقُطر كلّه ببلدنا الطيب، وفي الأردن، وفلسطين، ولبنان، وتركيا، وشمال السعودية، فهي

منخفض، هي رحمة الله عزَّ وجل، كمية الأمطار كانت مئة وتسعين ميليمتراً في الأربعة وعشرين ساعة، مئتين، مئتين وخمسين، خمسين، ستين، سبعين، كلها خيرات لا يعلمها إلا الله، على القمر الصناعي بقعة رمادية اللون فوق الشرق الأوسط..

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر: 21]

كل شيء نأكله هو نبات أساسه الماء :

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

لا يعرف كلمة:

(المعصرات)

إلا علماء الجغرافيا، هذا الهواء يحمل بخار الماء، فمن الممكن أنْ يحمل هذا الهواء بدرجة ـ فرضاً ـ ثلاثين، كمية من بخار الماء معيَّنة، فلو مررنا بهذا الهواء الحامل لبخار الماء، وعرَّضناه إلى برودة، فالهواء ينكمش، فإذا انكمش الهواء تخلّى عن بعض الماء الذي فيه، لأن الهواء يستوعب بكل درجة كمية بخار ماء معيَّنة، وكأن هذا الهواء عَصَرَ ما فيه من بخار الماء وجعله مطراً:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً)

أساس الرزق هو الماء، فالأنهار والينابيع، والمزروعات والمحاصيل، والقمح والشعير، كل شيء تأكلونه هو نبات، هذا النبات أساسه الماء:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً)

الذي خلق هذا الكون العظيم لن يدع الإنسان سُدَىً بل سيحاسبه :

هذا الذي خلق السماوات والأرض، جعل:

(الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً* وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً* وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً* وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً* وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

هذا الإله العظيم هل خلق الكون عبثاً؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

بلا هدف؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

يَظْلِم فلا يُحاسَب؟ يعتدي فلا يحاسَب؟ يزني فلا يحاسَب؟ يأخذ ما ليس له فلا يحاسَب؟ يستعلي فلا يحاسَب؟ يتغطرس فلا يحاسَب؟ يسحق الآخرين فلا يحاسب؟ يبني مجده على أنقاض الآخرين فلا يحاسَب؟ يبني حياته على موتهم فلا يحاسَب؟ يبني أمنه على خوفهم فلا يحاسَب؟!! لا..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقاتاً)

هذا هو الجواب يقيناً، والذي خلق هذا الكون العظيم لن يدع الإنسان سُدَىً، بل سيحاسبه.

الله تعالى سيسأل الناس جميعاً يوم القيامة عما كانوا يعملون :

قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

لنسألنَّهم واحداً وَاحداً عما كانوا يعملون:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقاتاً)

لهم جميعاً، هذا المغزى، فجامعة كلّفتْ خمسين مليارا، وفيها مخابر، وقاعات تدريس، وحدائق، وملاعب، وسَكَن للطلاب، وأساتذة كبار، ومناهِج عظيمة، ووسائل إيضاح رائعة، وليس فيها نهاية العام امتحان؟! مستحيل، فلا بدَّ من امتحان، ولا بدَّ من فرز الطلاب إلى ناجحٍ وراسب، الناجحون؛ متفوقٍ وغير متفوِّق..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقاتاً)

الذي جعل:

(الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

الإيمان باليوم الآخر إيمانٌ عقلي وتفاصيله نقليَّة :

الذي فعل كل ذلك سوف يسألكم، وسوف يحاسبكم، وسوف يوقِفكم للحساب الدقيق.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[سورة الطور: 45]

لا بد أن يصعق الإنسان حينما يكتشف الحقيقة، فكل البطولة أن تكتشفها قبل فوات الأوان، أن تكتشفها وأنت صحيحٌ معافىً، أن تكتشفها وأنت في الدنيا، قبل أن تُكشَف وأنت بين يدي الله عزَّ وجل، لكنَّ فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

فرعون نفسه حينما أدركه الموت قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

فأهم شيء في هذا الدرس أن هذا الخالق العظيم، وهذا الكون يشهد بعظمته أنّ الإنسان لن يُترك سُدىً، ولم يُخلَق الخلق عبثاً، خلقهم ليحاسبهم، وخلقهم ليجزيهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه العلاقة بين هذه الآيات وبين..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

إذاً الإيمان باليوم الآخر إيمانٌ عقلي، وتفاصيله نقليَّة، وأكرِّر هذه الحقيقة: أصل الإيمان عقلي وتفاصيله نقليَّة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 16-30، كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-02-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

محور هذه السورة أن كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة النبأ، وفي الدرس الأول ذكرت أن هذه السور القصيرة هي سورٌ مكيَّة، محورها الواحد ترسيخ الإيمان في نفوس المؤمنين، لذلك حفلت هذه السور بآياتٍ كونيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل، ولكن في سورة النبأ قضية دقيقة هي: الربط، الربط بين كمال الخلق وكمال التصرف، فكمال الخَلْق يدلّ على كمال التصرُّف:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

معادن، أشباه معادن، صحارى، جبال، سواحل، بحار، بحيرات، أنهار، أطيار، أسماك، الورود أنواعها لا تعد ولا تحصى، مليون نوع من السمك في البحر، بضع مئات من أنواع الطيور، وكل خَلْقٍ:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

بحسب صنعة الله عزَّ وجل، فمحور هذه السورة أن كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف، كأن يسأل طالبٌ سؤالاً: أهناك امتحان؟ هذا سؤال ينبغي ألا يُسأل، جامعة، ممتدة إلى مسافات طويلة، أبنية كلّفت مئات الملايين، مخابر، مدرَّجات، حدائق، بيوت للطلبة، أرقى المدرسين، أرقى الوسائل، والطلاّب لا يمتحنون؟!! كلُّ هذه العناية والطالب السيِّئ كالطالب الجيِّد؟! والذي درس كمن لم يدرس؟! والذي التزم بنظام الجامعة كمن لم يلتزم؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)

يستحيل أن يكون هذا الكون بهذه العظمة دون أن يُسأل الإنسان :

هل عندهم شك فيه؟ هل هم في شكٍ منه؟ أيعقل أن يكون هذا الكون بهذه العظمة دون أن يُسأل الإنسان؟!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

هكذا قويٌ وضعيف، غنيٌ وفقير، صحيحٌ ومعلول، مُتَألِّقٌ وخامل، وسيمٌ ودميم، ظالمٌ ومظلوم، مستغِل ومستغَل، طويل العمر وقصير العمر، امرأةٌ وسيمة وأخرى دميمة، هكذا؟ تنتهي الحياة هكذا بحظوظٍ متفاوتة؟ بعطاءاتٍ مُتباينة؟ بقدراتٍ متباعدة؟ أيعقل هذا؟ كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

أنت إذا دخلت إلى شركةٍ من أرقى الشركات؛ شركة أجهزة حاسوبية، أيعقل أن تكون هذه الشركة بلا نظام محاسبة؟ بلا نظام مكافآت وعقوبات؟ بلا نظام ترقية محترم؟ كمال الخَلق يدل على كمال التصرُّف..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)

مثل هذا الشيء ينبغي ألا يُسأل عنه، لأنه أمرٌ بديهي..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

السؤال عن يوم إحقاق الحق وإبطال الباطل ينبغي ألا يُسأل :

أمة تعيش على أنقاض الأمم، وتنتهي الحياة هكذا؟ أمةٌ تقتل مئات الألوف، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان يبني وجوده على أنقاض الآخرين، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان يجمع ثروته على إفقار الآخرين وبؤسهم، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان عاش الناس كلّهم له، وإنسانٌ آخر عاش للناس كلهم كالأنبياء، وتنتهي الحياة هكذا؟ مثل هذا السؤال ينبغي ألا يُسأل..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)

عن هذا اليوم الذي ترتعد منه الفرائص، عن هذا اليوم الذي يصبح القوي ضعيفاً، والضعيف المظلوم قوياً، عن هذا اليوم الذي يكافأ فيه المُحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، عن هذا اليوم الذي يعود فيه هذا الإنسان الذي طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، يعود إلى حجمه الصغير..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)

عن يوم الدين؟ عن يوم الجزاء؟ عن يوم الدينونة؟ عن يوم تسوية الحسابات؟ عن يوم رَدِّ المَظالم؟ عن يوم إحقاق الحق وإبطال الباطل؟ فكمال الخَلق يدل على كمال التصرف.

للتقريب: لو أن إنساناً قال لشركة: أعندك القدرة على أن تنجزي هذا المشروع؟ يقول مندوب هذه الشركة: ألم تنظر إلى البناء الفلاني، والبناء الفلاني، والمشروع الفلاني، والمَعَمل الفلاني، والجسر الفلاني، أليست هذه كلُّها أدلةً على أن هذه الشركة بإمكانها أن تنجز هذا الموضوع؟

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ *الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

الله وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ويوم القيامة توزيع جزاء:

واللهِ أيها الأخوة ما من إنسانٍ يشك في يوم الدين إلا يُشَكُّ في سلامة عقله، ألا ترون الناس متفاوتون في الحظوظ، إنسان يشتهي أن يأكل لقمة، وإنسان يكاد يُتْخَم مِن كثرة الطعام، هذا التفاوت في الحظوظ لا بد من أن يُسوَّى يوم القيامة، بل إن الله جلَّ في علاه جعل الحظوظ في الدنيا موضع ابتلاء، وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، توزيع امتحان، وسوف توزَّع يوم القيامة توزيع جزاء.

إنسان امتُحن بالفقر، فصبر وتعفَّف، ورضي عن الله عزَّ وجل بما قسمه له، فنجح في الامتحان، وإنسانٌ آخر امتُحِنَ بالغنى ـ مثلاً ـ فرسب في الامتحان، لأنه طغى وبغى، واستعلى وتكبَّر، وأنفق المال على ملذَّاته السخيفة، وحرم منه الفقراء، رسب، إنسان امتحن بالفقر فنجح، وإنسان امتُحن بالغنى فرسب، يوم القيامة توزَّع الحظوظ توزيعاً آخر؛ توزيع استحقاق، توزيع جزاء، توزيع عَدل، فالذي نجح في امتحان الفقر سيغدو غنياً إلى أبد الآبدين، والذي رسب في امتحان الغنى سيغدو فقيراً إلى أبد الآبدين، مِن هنا قال سيدنا علي: الغنى والفقر بعد العرض على الله، وتوزيع الحظوظ في الدنيا لا قيمة له من حيث إنها مُنْقَطِعَة، أيامٌ تمضي، ولكن الخطورة توزيعها في الآخرة..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

البطولة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، البطولة أن يرضى الله عنك، الأرض فيها الآن ستة آلاف مليون إنسان، واللهِ لو أن ستة آلاف مليون أثنوا عليك، ورفعوك، وعظَّموك، ولم تكن عند الله مقبولاً، فأنت أكبر خاسر، ولو أن ستة آلاف مليون ذمُّوك وكنت عند الله مقبولاً، فأنت أكبر رابح، فابتغوا الرفعة عند الله.

من علامات المؤمن أنه عاش الآخرة قبل أن يصل إليها :

هذا اليوم يوم الدين، مثل ضربته اليوم في الخطبة: إنسان جاءته دعوة لزيارة بلد بعيد، لمجرَّد أنه قَبلَ الدعوة؛ تصوراته، أفكاره، خواطره، كتاباته، هواجسه، أحلامه فكأنّه صار في هذا البلد، هو لا يزال

في بلده ولكن قلبه، ونفسه، واهتماماته، وخواطره نُقِلت إلى هذا البلد. فلو أنّ إنساناً أراد العمرة ـ مثلاً ـ حينما يأخذ الموافقة، ويشتري بطاقة الطائرة، فقد أصبح كل تفكيره، وكل هواجسه، وكل خططه، وكل تأمُّلاته، وكل محاكماته، وكل ذاكرته صارت هناك في البيت الحرام.

فالمؤمن حينما آمن باليوم الآخر، وآمن بالآخرة، كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل كلامٍ يلفظه، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل غضبٍ، وكل صلةٍ، يقيسها بنظام الآخرة؛ هل هذا العمل يرضي الله؟ هل سأحاسب عنه؟ هل سأُؤَاخذ عليه؟ هكذا، فمن علامات المؤمن أنه عاش الآخرة قبل أن يصل إليها، عاش في الآخرة.

لو طُلِب إنسان للتحقيق، من ساعة أن يُطلب يقول لك: ما نمت الليل، ماذا سَأُسأل؟ ما الذي دعا إلى أن أُسأل؟ أربعة أيام، الوقت كلُّه يمضى في التفكير، ما الذنب الذي اقترفته حتى أسأل عنه؟ لعل هذا الذنب، لعل هذا الذنب، لعل هذا الذنب، هذا حالك مع إنسان، فكيف الحال مع الله العظيم؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

الذي لا شكَّ فيه واقعٌ لا محالة، خالق السماوات والأرض، أمم تعيش على أنقاض أمم، وينتهي الأمر؟ إنسان يترك خمسين مليونَ قتيلٍ في ألمانيا، في الحرب العالمية الثانية، وينتهي الأمر هكذا بلا سبب؟ مستحيل، إنسان يلقي قنبلة في اليابان يبيد بها ثلاثمئة ألف في ست ثوانٍ، أخذ قراراً، وألقى هذه القنبلة الذرية، وانتهى الأمر؟ ما من مشكلة؟ الكل يموتون دون تمييز؟ لا..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

كمال الخَلْق يدلُّ على كمال التصرُّف..

(الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

آيات تؤكد أن الله عزَّ وجل مستحيلٌ أن يخلُق الناس عبثاً :

لمجرَّد أن تشكّك في وقوع يوم الدين ينبغي أن تشكّك في عقلك، لأن الله عزَّ وجل مستحيلٌ وألف ألف مستحيل أن يخلُق الناس عبثاً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

لا يمتحنون؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 142]

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

في الحياة امتحانات، وابتلاءات، ومِحَن صعبة، فلا بدَّ أن تُمتحَن، فقد تخدَع بعض الناس لكل الوقت، وقد تخدع كل الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل، لذلك بدأت هذه السورة..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

لا بد من وجود يوم تسوى فيه الحسابات :

هذا شيء بديهي، لو أنّ سائلاً سألك: ما قولك الكل أكبر من الجزء؟ هذا سؤال لا يسأل، أيْ هل غرفة في البيت يمكن أن تكون أكبر من البيت؟ مستحيل، قطعة في السيارة يمكن أن تكون أكبر من السيارة؟ أيعقل أن يكون الجُزء أكبر من الكُل؟ تقول له: ما هذا السؤال؟ هذا شيء بديهي، هذا شيء مُسَلَّم به، مقطوعٌ به..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

هكذا الشعوب؛ شعوب غارقة في الفجور، غارقة في الزنا، غارقة في الخمور، غارقة في العدوان، قلوبٌ قاسيةٌ كالصخر، يُقتل الإنسان بلا ذنب، لأنه مسلم فقط، بالمئات، بل بمئات الألوف، وهؤلاء الذين يفعلون كل هذا يموتون وانتهى الأمر! وتنتهي الحياة هكذا؛ بظالمٍ ومظلوم، ومستغِلٍ ومستغَل، وقوي وضعيف، وغني وفقير، ولا يحاسب الإنسان عن ماله من أين جاء به، وفيمَ أنفقه؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ* كَلَّا)

أداة ردع ونفي..

(سَيَعْلَمُونَ)

تهديد.

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

الله عزَّ وجل لم يخلُق الكون عبثاً ولم يخلُق الإنسان سدىً:

سيعلم الإنسان عند الموت، وسيعلم يوم القيامة أن الله عزَّ وجل لم يخلُق الكون عبثاً، ولم يخلُق الإنسان سدىً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

وهذا هو الدليل:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً *إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

هذا اليوم الموعود، كلُّ متوقعٍ آت، وكل آتٍ قريب، لو أن الإنسان سأل نفسه سؤالاً مُحْرِجاً: هل بقي بقدر ما مضى؟ فهذه صفحات النعي أمامكم، الناس يموتون بين الستين والسبعين إذا سَلِموا من مرضٍ خطير، إذا سَلِم من الأمراض والأخطار فبين الستين والسبعين يموت، وكما ورد:

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

وإن لم يَسْلَم فبحادث وهو بالأربعين، بالثلاثين، بالخامسة والعشرين.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

في هذا اليوم تسوَّى الحسابات.

الآية التالية لو لم يكن في القرآن غيرها لكفتنا جميعاً :

واللهِ أيها الأخوة، القرآن بين أيدينا؛ ستمئة صفحة، نسمعه ليلاً ونهاراً، وكل شيء مُيَسَّر في القرآن، وإنّ أعرابياً جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني ولا تطِل (لا تطِل عليّ)، فتلا عليه قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه، قال: كفيت يا رسول الله، اكتفى بآية واحدة، آية وليست سورة، قال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل، واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفتنا جميعاً:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7]

قال: أيْ لو أن إنساناً ابتسم ابتسامة ساخرة، أو أعرض عن إنسان بلا سبب، أو تجاهله، أو داس نملةً..

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

((دَخَلت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ ربطتها، فلم تُطْعِمها، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشاش الأرض))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

فما قولكم فيما فوق الهرَّة؟ ألا تسمعون ما يجري في العالم مِن مذابح، من تقتيل جماعي، من تشريد، هؤلاء الذين اتخذوا هذه القرارات ألا يحاسبون؟!

حقيقة الصور لا يعلمها أحد:

قال تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

هذا ميقات دقيق لهؤلاء الذين نَسوا ما ذكِّروا به..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

(الصور) البوق، أما حقيقته فلا يعلمها أحد، هذا من شأن الآخرة، وهذا من الإيمان التصديقي الإخباري، لا تخض فيما لا يجدي، هذا شيء نعرفه بعد الموت، أما الله عزَّ وجل قال:

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)

أيْ الصور أداة من أدوات دعوة الأموات إلى البعث والنشور..

(فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

أفواج آكلي الربا، هؤلاء فوج، وأفواج الزناة، وأفواج الشاذِّين، وأفواج الطُغاة والظالمين، وأفواج المُقَصِّرين، وأفواج المؤمنين، وأفواج الصدِّيقين، وأفواج المُسلمين، وأفواج السابقين..

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

في اليوم الآخر كل شيءٍ في الكون يتغيَّر و هذا هو النبأ العظيم :

في هذا اليوم يغيَّر نظام الكون، كان في الكون شمس..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[سورة التكوير: 1]

تكوير وكان في الكون نجوم في الدنيا.

(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)

[سورة التكوير: 2]

وكان في الكون جبال شاهقة..

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[سورة التكوير: 3]

وكان للدنيا سماء..

(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً)

كل شيءٍ في الكون يتغيَّر، هذا هو النبأ العظيم..

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً* وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً* وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)

صور عما ينتظر المقصرون من عذاب يوم القيامة :

جبل قاسيون رآه الرومان هكذا، ورآه الإغريقيون، ورآه الآراميون، ورآه الفُرس، والأتراك، والمسلمون، ونراه نحن، الجبل جبل لا يتغير، أما يوم القيامة..

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)

أي صورة باهتة..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً)

فكِّرْ مليّاً، وانظر ونحن في الدنيا إلى عصابة سرقة؛ تأخذ الأموال، وتسهر في الملاهي، وتأكل ما لذَّ وطاب، وتقترف الكبائر، والفواحش، أما حينما يلقى القبض عليها، وتودع في السجن، انظر إلى هذا المجرم فلا يستطيع أن يرفع بصره من قُبح فعلته، فكيف به يوم القيامة..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً*لِلطَّاغِينَ مَآباً)

هذا الذي طغى وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، أيْ انحرف واعتدى وبنى وجوده على أنقاض الآخرين..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً)

تنتظرهم..

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

[سورة ق: 30]

(لِلطَّاغِينَ مَآباً* لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

حياتنا لا تستقيم إلا بمعرفة الله والخوف منه والإيمان باليوم الآخر :

قرأت خبراً مرَّةً: أن سفينة فرنسية راسية في ميناء بإفريقيا، وإذا بعشرة أشخاص أفارقة فقراء، يتسللون إلى السفينة ويختبئون في ثنيّات عنابرها، وبعد أن تُبْحِر إلى فرنسا، يكتشف رُبَّان السفينة أن في السفينة عشرة أشخاص قد تسللوا إليها، ببساطةٍ بالغة يأمر بقتلهم جميعاً، ونحن نتساءل: هل إذا تسلّل إنسان إلى سفينة يقتل؟! فأطلق عليهم النار واحداً واحداً، وألقُوا في البحر، وفي نيَّته أن هذا العمل لا يمكن أن يعلم به أحد، غير أنّ واحداً من العشرة أُطلِق النار عليه ولم يمت، فاختبأ في مكان سري، وانتظر حتى وصل إلى فرنسا، وخرج من السفينة، واتصل بأحد مخافر الشرطة وأبلغها الخبر، فتم الحكم على الربان بالإعدام، وعلى من أعانه على قتلهم بعشرين سنة مؤبَّداً، هكذا تقتل عشرة أشخاص، طبعاً ليس معهم هويات، وينتهي الأمر بهذه البساطة؟ لا، فهذا باطل وضلال وجور..

أيها الأخوة، من هو العاقل ومن هو الذكي؟ هو الذي يُدخِل اليوم الآخر في حساباته اليومية، وإليكم هذه الواقعة المؤلمة المُرّة: لدى أصحاب المخابز مادة تعين على نُضْج الخُبز، المادة الصحية ثمن الكيلو خمسة آلاف ليرة - هكذا قرأت في الجريدة - وهناك مادة مسرطنة سامة ثمن الكيلو خمس ليرات، فضبطوا فرَّاناً يستخدم هذه المادة السامة المُسرطنة، التي لها فعل المادة الأولى، ولكنها رخيصة جداً، يضع هذه المادة دون أن يعلم به أحد، ويأكل الناس هذا الخبز، ويأخذ ثمنه باهظاً، أفلا تحاسب؟ وكان العمل يتمّ سراً في الليل؟ أيمكن ذلك؟! ليروّج بضاعته ويحسنها يضع مادة مسرطنة في الخبز؟!! هؤلاء الذين يغشون المسلمين في طعامهم وشرابهم. بائع فروج مثلاً، يضع فروجاً ميتاً مع الأحياء؟! فيُطعم الناسَ لحماً ميتاً، وينتهي الأمر هكذا؟ هذا مستحيل، وأنْ تُوضَع كذلك في بعض المواد الغذائية مواد مسرطنة لكي يرتفع سعرها، لتكون زاهية اللون، والمادة ممنوع استعمالها! فالحذرَ الحذرَ، فإنّ الحساب عسير.

حياتنا لا تستقيم إلا بمعرفة الله والخوف منه والإيمان باليوم الآخر، والإنسان يصعب عليه أنْ يراقب إنساناً، يكاد يكون من المستحيل أن يراقب الإنسانُ الإنسانَ في كل أطواره، إنسان يعجن - الساعة الثالثة صباحاً - ووجد في العجين حيواناً، وقد فُرم مع العجين، ماذا يفعل؟ يكمل العجين، لا يراه أحدٌ، ولن يحاسَب؟ فحياتنا لن تستقيم إلا بالخوف من الله عزَّ وجل..

جوهر الدين أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً :

قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها. قال: ليست لي. قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب. قال له: والله ليست لي. ثم قال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: إنّها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟! فهذا الأعرابي، هذا البدوي وضع يده على جوهر الدين، هذا هو الدين أن تقول: أين الله؟ أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً، فلا بدّ أن تسأل: هل لي الحق أن آخذ هذا المبلغ؟ هل لي الحق أن آخذ هذه العمولة؟ هل لي الحق أن أجلس مع هذه المرأة، وأن أمتّع نظري بمحاسنها؟ هل لي الحق أن أفعل كذا، أن آخذ هذا المال، أن أقبل هذا المال؟ إن لم تحاسب نفسك حساباً عسيراً، فينتظر هذا الإنسان يومٌ عسير، حيث لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً)

تنتظرهم، وترصد حركاتهم وسكناتهم..

(لِلطَّاغِينَ مَآباً)

مصيرهم إلى النار، المجرم أين مصيره؟ إلى قصر؟ لا بل إلى السجن، في النهاية فهو مجرم قتل، وسرق، ثم ألقي القبض عليه، أين مصيره؟ مؤبَّد بالسجن وانتهى، لكنّ إنساناً طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، ونسي الدار الآخرة، ونسي أنْ يتعرف إلى الله، وأن يطيعه، فأين مصيره؟

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

دقيقة الألم ساعة وساعة اللّذة دقيقة :

دقيقة الألم ساعة وساعة اللّذة دقيقة، أحياناً بجلسة لطيفة مع أخوة تحبهم ويحبونك فتفاجأ بأن الساعة صارت الواحدة ليلاً، جلسوا الساعة السابعة، فإذا بها الساعة الواحدة، لأنهم في سرور، أما أنْ تجلس على كرسي تنتظر إنساناً فهذا صعب، ومِن أجل أنْ تعرف ذلك راقب في قاعة امتحان، تشعر أن الدقيقة ساعة، فكيف إذا كان في عذابٍ أليم؟ كيف؟

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

يقول لك: سُجِنْت ثلاثة أيام حتى كدتُ أخرج من جلدي، فكيف حال الذي دخل السجن، وبقي فيه عشرين سنة، كان مجرماً، وكيف مضتْ هذه السنوات العشرون؟ أما في جهنم فإلى الأبد..

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

على طول..

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

حِقباً وحقباً وَحقباً إلى ما شاء الله..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً)

الغبي يتغنّى بماضيه والأقل غباء يعيش حاضره لكن العاقل يعيش المستقبل :

إذا ذهب الإنسان إلى الحج، أو إلى العمرة، أو ذهب إليهما في أشهر الصيف، حينها يعلم ما هو الحَرّ، والإنسان هناك لا يشتهي إلا الماء البارد، لا يشتهي إلا مكيِّفاً، لا يشتهي شيئاً آخر، فالحرُّ لا يحتمل، فكيف إذا كان هذا في النار؟

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً *لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً)

ولكن هناك استثناء، فهم يذوقون شراباً، ولكنَّه ماءٌ يغلي يقطّع أمعاءهم..

(إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً)

ذق إنك أنت العزيز الكريم.

أخواننا الكرام، الغبي يتغنَّى بماضيه، والأقل غباء يعيش حاضره، لكن العاقل يعيش المستقبل، فما هو أخطر حدثٍ في مستقبلك؟ إنّه الموت. اليوم كنت في تشييع جنازة، قبر لا شيء فيه، تراب، وعميق، يوضع الإنسان في هذه الحُفرة، فإن كان كريماً، وكان عمله صالحاً أكرم في هذه الحفرة، فاتسعت مدَّ بصره، حتى أصبحت روضة من رياض الجنة، وإن كان لئيماً أسلمه عمله إلى هذه الحفرة، فكانت قطعة من العذاب، اقرؤوا كل صفحات النعي في الأرض، فماذا كُتِبَ عليه؟ وسيشيَّع إلى مثواه الأخير، كل بيوتنا المريحة، المرتبة، المطلية، المكيَّفة، المدفَّأة، المفروشة بالأثاث، غرف الضيوف، غرف الطعام، غرف النوم، غرف الاستقبال، المطابخ، الحمَّامات، هذه كلها مؤقَّتة، أما المثوى الأخير فتحت الأرض:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً* يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً* وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً* وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً* إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً)

(مآباً) أي مأوىً.

المؤمن واعٍ أما الكافر فما أدخَلَ يومَ الدين في حساباته إطلاقاً :

قال تعالى:

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

جمع حِقب، والحِقب المدة الطويلة جداً..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً)

ماءٌ يغلي..

(وَغَسَّاقاً* جَزَاءً وِفَاقاً *إِنَّهُمْ كَانُوا)

في الدنيا..

(لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

ماذا يقولون؟ العوام لهم كلمات مضحكة: ضع رأسك بين الرؤوس وقل يا قطاع الرؤوس، أهذه آية أم حديث؟ هذا كلام سخيف، كلام باطل، المؤمن واعٍ..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

ما أدخَلَ يومَ الدين في حساباته إطلاقاً، يغتصب بيتاً، يغتصب شركة، يأكل مالاً حراماً، يعتدي على أعراض الناس..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً*فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

المؤمن قبل أن يقوم بأي حركة يدخل اليوم الآخر في حساباته :

أيها الأخوة، لازلنا في هذه السورة الكريمة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

أي اليوم الآخر نسيه وما أدخله في حساباته - دقق - إنسان ذهب إلى لبنان -مثلاً - وهو في طريق الذهاب وجد تفتيشاً دقيقاً جداً يجري مع العائدين، الآن وصل إلى بيروت فرضاً، وجد بضاعة جميلة، غرفة نوم جميلة جداً، كيف يفكّر؟ ألا أستطيع أن أوصلها إلى دمشق؟ لا، هناك منع، وهناك تفتيش دقيق، فكل حاجة عرضت له يتذكر التفتيش الدقيق في الذهاب، معنى ذلك أنه كلّما ألقى نظرة على بضاعة، أو على حاجة، أو على جهاز، يفكر: لا أستطيع أن أدخله إلى بلدي، معنى هذا أنه أدخَل التفتيشَ على الحدود في حساباته الدقيقة، فكلّما ألقى نظرة على شيء يتذكر أن في الطريق تفتيشاً دقيقاً، وهذا الغرض لن يمر، عليه غرامة - مثلاً - وهذه حالة بسيطة، والمؤمن كلما همَّ أن يقول كلمة يجيب نفسَه قائلاً: هذه لا ترضي الله..

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْساً يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ))

[الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

همَّ أن ينظر نظرةً، هذه النظرة لا ترضي الله، همَّ أن يشتم إنساناً، همَّ أن يأكل مالاً حراماً، همّ أن يُذِل إنساناً، المؤمن الصادق قبل أن يتكلّم، قبل أن يقف موقفاً، قبل أن يدلي برأي، قبل أن ينظر، قبل أن يسمع، قبل أن يمتّع عينيه بمحاسن امرأةٍ، قبل أي شيء لا بدّ أنْ يفكر في يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الدينونة، يوم الحساب، يوم تسوية الحسابات، يوم الفَصْل، لذلك:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

لماذا دخلوا النار؟ وكانت النار مآبهم؟ ولبثوا فيها أحقاباً؟ و..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً)

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً)

مقطع من مقاطع هذه السورة الحديث عن أهل النار وسبب دخولهم النار :

كلّما عرضتَ عليهم أن يعرفوا الله قالوا: نحن مشغولون، يخوضون مع الخائضين، وهم مع الناس إمَّعة، والذي شاع في البيئة فهم مع البيئة، على أسطحة المنازل صحون وصحون، فمسلسلات ومسلسلات، فثياب فاضحة وثياب ضيقة، وأكل للربا..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً)

تعطيه الدليل فلا يقبل، تعطيه الآية فلا يقبل، حديث فلا يقبل، توجيه النبي فلا يقبل، آية كونية تدله على عظمة الله، يأتيك بمخترع حديث ليصرفك عن العظة والعبرة..

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً)

كأن الإنسان يوم القيامة يعرض عليه شريط لأعماله، الآن أحدث طريقة في التحقيق أن يصوَّر الإنسانُ، فمن أجل ألا يطول الحديث يُعرض عليه الفيلم..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً* فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

هذا مقطع من مقاطع هذه السورة، الحديث عن أهل النار، وسبب دخولهم النار:

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

لماذا لا يرجون حساباً؟ قال تعالى في وصف حالهم:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

الجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، والجهل يتبعه الانحراف، وتتبعه الغفلة عن يوم القيامة..

(فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 31-40 ، الفوز العظيم يكون بالنجاة من النار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-02-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الفوز بالنجاة من النار فوز عظيم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النبأ، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

الحقيقة أن الفوز بالنجاة من النار فوز عظيم.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: 185]

يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

لمجرد النجاة من النار فهذا فوز عظيم، اتقوا النار ولو بشق تمرة، قال رجل لسفيان الثوري: أوصِني: فقال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها - فترة محدودة - واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

تقوى الله أن تذكره فلا تكفره وتطيعه فلا تعصيه :

اللهُ عز وجل سمَّى هذا الفوز فوزاً عظيماً.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 60-61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

هؤلاء الذين اتقوا ربهم لمجرد أن يفوزوا بالنجاة من النار فهذا فوز عظيم.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

إنّ المتقي هو الذي اتقى أن يعصي الله، اتقى غضب الله، وسخطه، وعذابه في الدنيا والآخرة، فالتقوى هي الوقاية من شيء خطير، والفعل اتقى بمعنى وَقَى، فهؤلاء الذين اتقوا ربهم وقفوا عند كلامه، وعند

أمره، وانتهوا عما نهى عنه الله، وائتمروا بما أمر الله، فوجدَهم الله حيث أمرهم، وافتقدهم حيث نهاهم، وحرموا ما حرم الله، وأحلُّوا ما أحل الله، هذا معنى المتقي.

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أي أن تذكر الله فلا تكفره، وتطيعه فلا تعصيه ولا تغفل عنه.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

ليس في الدنيا من حقيقة نعيم الآخرة إلا الأسماء :

الفوز مُسعِد، وكل إنسان بحسب فطرته يتمنى أن يكون فائزاً فوزاً عظيماً، والفوز العظيم في الدنيا أن تكون غنياً، أو قوياً، أو في مرتبة عالية جداً، هذا فوز أهل الدنيا، لكن فوز أهل الإيمان فهو في طاعة الرحمن، والعمل الصالح، ومعرفة الواحد الديان، هذا معنى الفوز الأخروي.

قل لي: ما مقياس الفوز عندك أقلْ لك مَن أنت! أهل الدنيا فوزهم بالدرهم والدينار، أو بالمتع الحرفية، لكن فوز أهل الإيمان ففي معرفة الله، وطاعته، والعمل الصالح.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

نجوا من النيران، وسَعِدوا بالجنان.

(حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الحقيقة أنّ كل ما في الآخرة لا علاقة له بالدنيا، إلا في ذهنك، فإنّ الله عز وجل تقريباً للأذهان ذكر لنا أشياء نعرفها في الدنيا، وقد صحّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ليس في الدنيا من حقيقة نعيم الآخرة إلا الأسماء، فإنّ المسمَّى يختلف، نحن نرى في الدنيا بستاناً جميلاً، فيه أشجار وارفة الظلال، أرض خضراء ممتعة للعينين، وورود، وأزهار، ورياحين، وعصافير مزقزقة، نسيم عليل، هذه معلوماتنا عن الدنيا، وربنا عز وجل تقريباً لعقولنا قال:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ)

الفوز الدنيوي والفوز الأخروي :

أحياناً الإنسان يرى في مجلة صورةً لحديقة جميلة جداً، يُعتَنَى بها كثيراً، بساط أخضر، حوله ورود، وأشجار، وجدول من المياه الرقراق، فيقول: هذا منظر جميل جداً، يأخذ بالألباب، هذا كله تقريب لك.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كما أن النار مخيفة فالجنة جميلة، وكما أن النار خسارة ما بعدها خسارة فإنّ الجنة فوز ما بعده فوز، لو أن كل مصائب الدنيا طُرِحتْ على إنسان، وانتهت به إلى الجنة فهو الفائز الأول، ولو أن كل نعيم الدنيا كان بيد إنسان، وانتهى به الأمر إلى جهنم فهو الخاسر الأول، وهو ليس بشيء إطلاقاً.

فإذا نظر ناظر بعقله أن الله أكرمه حين أعطاه، أو أهانه حينَ زوى عنه الدنيا، إذا قال: أهانني فقد كذب، وإن قال: أكرمني فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

[سورة يوسف: 101]

من أدقِّ ما قرأت عن هذه الآية أنّ المُلْكَ ليس مَن ملك القصرَ الجميل، وليس مَن جمع المال الوفير، الملك مَن ملك نفسه عند الشهوة فضبطها وحملها على طاعة الله، قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الحشر: 16]

هذا هو الملك العظيم، أما الملك المادي فإنّ اللهَ يعطيه لمن يحب ولمن لا يحب.

الملك أن تملك نفسك عند الغضب والشهوة وأن تتماسك عند الضغوط :

الملك أن تملك نفسك عند الغضب، والشهوة، والمغريات، وأن تتماسك عند الضغوط، وهذا هو الفوز العظيم.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الحديقة لها أسوار تحيط بها، حديقة ليست عامة ولكنها خاصة بك، وما يزيد في متعتها أنها لك وحدك، لأنّ المكان العام قد يكون فيه ازدحام، وهو لكل الناس، أما الحديقة الخاصة فهي لصاحبها حصراً.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الفواكه من الصعب أن تصفها، لأنّ لكل فاكهة طعماً تتميز به، أنا أقول لك: لن تستطيع أن تصف طعم العنب دون أن تقول هذا عنب، ولا الكُمَّثْرى دون أن تقول كمثرى، فلكل فاكهة طعم متميز، وهو

محبب، فالتفاح والكمثرى والبرتقال أنواع منوَّعة، فهذه الحدائق لإمتاع الحس، وتلك الأعناب لإمتاع الذوق.

(وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

حُورٌ كاملات الخَلق، وهذا أيضاً مما أودعه الله في الإنسان، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران: 14]

في الآخرة الحور العين من أكمل ما خَلَق الله عز وجل :

لحكمة بالغة بَالغة لم يشأ الله عز وجل أن تكون المرأة كاملة في الدنيا، فما من امرأة إلا وفيها نقص، وهذا النقص هدفه تربوي، وهو أن تستعين بها دون أن تتعلق بها، تستعين بها على أمر دينك دون أن تجعلها قِبلتك، لكن التكليف يوم القيامة انتهى، فالنساء هناك كاملات الخَلق والخُلق، قد يعجبك في الدنيا خَلقُ امرأةٍ ولا يعجبك خُلقها وبالعكس، والكمال لله وحده، أما في الآخرة فالحور من أكمل ما خَلَق الله عز وجل، لذلك قال بعض أصحاب النبي لزوجته، وقد ألَحَتْ عليه في شيء من الدنيا، قال: (اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لبلغ نورُ وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهْونُ من أن أضحي بهن من أجلك).

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

كواعب أي شابات، مكتملات الخَلق، وهناك معانٍ تفصيلية لمعنى الكواعب.

(أَتْرَاباً)

أيْ: في سن متقارب، الفتاة ربما لا تألف مَن هو أكبر منها بكثير والرجل لا يألف من هي أكبر منه بكثير، فمِن دواعي كمال المتعة بين الزوجين أن يكونا في عمر متقارب.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

أي: مترعة ممتلئة، طبعاً في الجنة أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من ماء غير آسن، شراب مِن أعلى مستوى، والكأس مترعة ممتلئة، وهذا كله تقريب للأذهان، لأن اللغة لا بد لها من مسمَّيات، كلمة بحر تثير عندك خبرة، لو أنك ذهبت إلى البحر، وركبته، وسبحت فيه، ورأيت هيجانه، وجماله، ثم عدت، وسمعت بعدئذٍ كلمة (بحر)، فهذه الكلمة تثير عندك كل الخبرات.

ربنا عز وجل قرّب إلينا مفهوم الجنة بأسماء معلومة في الدنيا :

مرة أستاذ بالجامعة ذكّرنا أن كلمة كرسي يعلّق عليها كل إنسان ما في وسعه من الخبرات، فلو أن أستاذاً جامعياً يحمل أعلى شهادة، ولم يتح له أن يكون أستاذاً ذا كرسي في الجامعة، وسمع كلمة (كرسي) يبقى ساعات طويلة شارداً، متألماً لأنه لم يكن هو الأستاذ ذا الكرسي، وهو الأولى بهذا المنصب لعلوِّ شهادته وكفاءته، فذهنه عند موقع أستاذ ذي كرسي، ووازن بين شهادته العالية من دولة ذات سمعة عالية في العلوم، وبين أستاذ آخر يحتل هذه المنزلة، وليست شهادته في المستوى المطلوب يتألم، فهو يفكر مدة ساعة أو ساعتين في كلمة (كرسي)، وهو يقول في نفسه: أنا أولى بهذا المنصب من فلان.

يسمع كلمة (كرسي) إنسان حلاق عنده في الدكان كرسيان، يحتاج إلى كرسي ثالث، هل يشتري كرسياً ثالثاً، هناك ضريبة مالية، ويحتاج إلى موظف ثالث. إذا سمع بها حلاق فكّر في الموضوع ساعات طويلة، وقد يسمع كلمة (كرسي) إنسان يحتاج إلى كرسي حمام، تُرى من أين أشتري هذا الكرسي؟ وماذا أشتريه، مِن خشب أم من نوع آخر؟ يفكر تفكيراً ثالثاً، وقد يسمع كلمة (كرسي) إنسان متعب، فيقول: آه، لو أستريح على كرسي لبعض الوقت، فكلمة واحد قد تعلق عليها كل خبراتك!

ربنا عز وجل تقريباً لنا لمفهوم الجنة سمَّى بعض نعيم الجنة بأسماء معلومة في الدنيا، فعندنا حديقة، وبستان، وأشجار باسقة، وللزينة، وجميلة، ودائمة الخضرة، وذات أشكال مختلفة، وورود مختلف أنواعها، رياحين، ونباتات ذات رائحة عطرة، وأنهار، وينابيع، وشلالات، ونساء جميلات، وعصافير مزقزقة، وأطيار جميلة، هذه خبراتنا في الدنيا، فربنا عز وجل قرّب إلينا مفهوم الجنة فقال:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

الكأس مترعة، والفتاة مكتملة الخَلق، وهي في سنِّ مَن في الجنة، والحدائق لها خصوصية، وفيها من الفواكه ما لذّ وطاب.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

أسعدُ أناس الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها :

هذا إله عظيم، خالق السماوات والأرض يُغْرينا بما أعدَّه لنا في الآخرة، فهل ننصرف عن دعوته؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

أغرانا بهذه الجنة التي نعيش فيها إلى أبد الآبدين، فلا مرض بالدنيا، لا تعب في الفقرة فتصبح حياته جحيماً، لا التهاب في المفاصل، ولا ضعف في الرؤيا، أو ارتفاع نسب الشحوم الثلاثية في الدم، فيمُنَع من تناول الطعام اللذيذ، هذه حياتنا في الدنيا، كلها متاعب، وهموم، وأحزان، وقد تضعف همةُ الإنسان على الإمتاع بالحياة، فيملّ الأكل، والشرب، والذهاب، والسفر، والاختلاط، فهذه الحياة الدنيا، فيها هموم، وموت الأقارب، وأمراض شديدة جداً، فيها ذل، وقهر، وخوف، وحزن، أمّا هذه الجنة فأُعدَّت لعباد الله الصالحين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قد تكون غنياً فلا تنجب أولاداً، وقد تنجب الكثير من الأولاد وليس معك المال الكافي لتنفق عليهم، وقد تنجح في زواجك ولا تنجح في تربية أولادك، وبالعكس، أو تنجح فيهما ولا تنجح في عملك، وقد تنجح في عملك ولا تنجح في صحتك، هكذا الدنيا أرادَها الله أن تكون ذات إيجابيات وسلبيات، كي لا نتعلق بها، ونتخذها مطية لا قبلة، ممراً لا مقراً، وسيلة لا غاية، وأسعدُ أناس الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها همّاً، ومَن أخذ مِن الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخَذ مِن حتفه وهو لا يشعر.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

هناك متعة للعين بالحدائق ومتعة للفم بالأعناب، ومتعة حسية بالكواعب الأتراب، ومتعة غذائية بالكأس الدهاق.

من سعادة المرء أن يعيش مع أناس صادقين :

لاحظ الصفاء!

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

اللغو كلام لا معنى له، كله كذب، كلام غير واقعي، فيه دجل ومجاملات وتزوير.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

لا يكذبون، ولا يُكذب عليهم، واللغو هو الكلام الذي لا معنى له. مرة كنت في مركبةٍ عامة، والحافلة مزدحمة بالركاب، والساعة الثالثة بعد الظهر، صديق السائق يدعوه لتناول الغداء معه في البيت! كلام لا معنى له، أيترك هذا السائق المركبة ممتلئة بالركاب، وينزل معه إلى الغداء؟! هذا نمط من كلام فارغ، ومجاملات لا معنى لها، وكذب، ودجل، وتعبيرات لا تعني شيئاً، هذا الذي في الدنيا كذب وهُراء، هناك أناس يكذبون، كلما تنفسوا كذبوا مع النفس! وقد تجلس مجلساً كله كذب في كذب، كله نفاق.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

ليس ثمة كلام لا معنى له، ولا كلام فيه كذب، فهم لا يكذبون، ولا يستمعون إلى الكذب، أي لا يُكذب عليهم.

أخواننا الكرام: مجتمع الصدق مجتمع مقدس، أن تلتقي بإنسان صادق يعبِّر لك عن الواقع دون أن يزيد أو يحذف، أو يكثر أو يقلل، فمن سعادة المرء أن يعيش مع أناس صادقين.

((إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً....))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ]

الجنة والكأس الدهاق والبُعْد عن اللغو والكذب هي الفوز الكبير:

هذه الجنة التي هي في الحقيقة فوز كبير، مع الحدائق المنوعة، والكأس الدهاق، والبُعْد عن اللغو والكذب.

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ*إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

كل ما في الدنيا له حساب دقيق في الآخرة :

كل شيء بحساب دقيق، صلواتك، وغض بصرك، صِدْقك، وإعراضك عن النميمة، وبرك لوالديك، كل هذا محفوظ عند الله، كل صغيرة وكبيرة مسجلة عليك أو لك، حساب دقيق.

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

حساباً: أي عطاءً كبيراً، قال علماء اللغة: هذا عطاء إلى أن تقول: حسبي اكتفيت، خذ ما شئت. عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.....يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ

أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عَنْ أبي ذرٍّ]

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسَاباً)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

أما الدنيا فَلَكَ أنْ تتَصَوَّرَ طريقاً عريضاً وطويلاً جداً، ينتهي بحفرة مالها من قرار! عمق الحفرة مئة متر، والسيارات تتسابق على هذا الطريق، أول سيارة السباقة الأولى سقطت! ثم الثانية، ثم الثالثة! فما هذا السباق؟ الدنيا هكذا أغنى وأقوى إنسان يموت، ويوضع في القبر، الصحيح والمريض، والوسيم والدميم، والقوي والضعيف، ومن أصل عريق والصعلوك، كل هؤلاء إلى الموت! والموت قَطْعٌ للدنيا، نهاية، ما هذا السباق؟!!

يوم الحساب سيشهد علينا كلُّ شيءٍ:

أما في الآخرة:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)

هذا اليوم العصيب! حينما يُستدعَى إنسان في الدنيا للتحقيق في موضوع ما، ربما لا ينام الليل أياماً عديدة، وسيسأله إنسان، وبإمكانه أن يخفي عنه الشيء الكثير، أما إذا وقفنا بين يدي الواحد الديان ليحاسبنا على كل ما اقترفت أيدينا شهد عليك كلُّ شيءٍ، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ)

[سورة فصلت:20-21]

جاء مع كل نفس شهيدٌ، ملَكٌ يسوقها، ومَلَكٌ يشهد عليها، هذا العطاء الكبير! قال بعضهم: بغير حساب، وقال بعضهم: حتى تقول حسبي.

يوم القيامة لا يملك إنسان أن يقول كلمة واحدة :

قال تعالى:

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

هذا من الله.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ)

الرب هو الممد الذي يدبر أمر السماوات والأرض، يمد المخلوقات بما يحتاجون، ويربِّيهم، ويقودهم إلى طريق سلامتهم وسعادتهم، الموقف رهيب، وإنّه يوم عصيب وعسير.

(لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)

في الدنيا الإنسان يتفوّق، ويعترض، وينتقم، ويترجى، أما في هذا اليوم العصيب فلا يملك إنسان أن يقول كلمة واحدة.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ)

[سورة الأنعام:94]

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً)

اختلف علماء التفسير في تفسير كلمة الروح، ماذا تعني؟ قال بعضهم: جبريل، وقال بعضهم: مَلَكٌ عظيم، يأتي بَعد العرض اسمه الروح، وقال بعضهم: الروح الملائكة، ومن أدق ما قرأت عن هذه الكلمة (الروح) هي القرآن الكريم، هو المنهج، الملك معه عملك، والميزان إلى جانبك.

عملك بأيدي ملائكة كتبوا كل شيء والمقياس في تقييمك هو القرآن الكريم :

قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ)

الملائكة كتبتْ على هذا الإنسان كل حركاته وسكناته، كتبت عليه كل أنفاسه، وسجلت عليه كل شيء، وأعماله تقوم بمنهج الله عز وجل، بهذا القرآن الكريم الذي فيه الأمر والنهي، وفيه الحلال والحرام، والفرض والواجب، والحق والباطل، والخير والشر، هو المنهج، والمقياس، والميزان، فعملك بأيدي ملائكة مقربين، كتبوا عليك كل شيء، والمقياس في تقييمك هو القرآن الكريم.

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً)

أي: لا يتكلم بالشفاعة إلا من أذن له بالشفاعة، وقال صواباً.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

هذا اليوم واقع لا محالة، ونحن معه على موعد، وما هو إلا وقت يسير حتى نجد أنفسنا في هذا اليوم العصيب.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

كل متوقع آت، وكل آت قريب، لاحظ في حياتنا اليومية ننتظر رمضان، جاء رمضان وانتهى! سيأتي عيد الأضحى على أبوابه، سيأتي الصيف، يأتي الصيف وينتهي! بدأ عام ألفين، وانتهى، وألفين وواحد، وهكذا الزمن يمضي سراعاً.

إذا استعنت بعمل صالح خالص لله عز وجل نَقَلك هذا العمل إلى رحمة الله :

قال تعالى:

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

اليوم الموعود، والمورود، والممدود، وأخطر أيامك كلها اليوم المشهود الذي نحن فيه، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

يمكن أن تتخذ عملاً صالحاً يُرجِعك إلى الله، فإذا استعنت بعمل صالح خالص لله عز وجل نَقَلك هذا العمل إلى رحمة الله.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ)

من أراد النجاة، وسعادة الدنيا والآخرة، والفوز العظيم، وأن يكون في جنات الله يوم القيامة:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

اتّخذَ إلى الله عز وجل وسيلة يرجع بها إليه سالماً غانماً.

نحن بين الدعوة البيانية والتأديب التربوي والإكرام الاستدراجي ثم القصم :

من لم يشأ:

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً)

قال علماء التفسير: قريباً في الدنيا، وقال بعضهم: في الآخرة، وقد نجمع بين القولين، فإنْ لم يستجب الإنسان فقد قال الله لنبيه الكريم:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

[سورة المدثر: 11]

ذرني وإياه، أنا سأعالجه، فالإنسان إن لم يستجب للدعوة البيانية ساق له الله التأديب التربوي، وإن لم يستجب به ساق له الإكرام الاستدراجي، وإن لم يتأثر قصمه الله عز وجل! فنحن بين الدعوة البيانية، والتأديب التربوي، والإكرام الاستدراجي، ثم القصم.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

اتخذ عملاً صالحاً يبتغي به وجه الله، ينفق مما أعطاه الله من ماله، أو وقته، أو علمه، أو خبرته، أو يقدم خبرة للمسلمين، أو يزيل الكرب عنهم، أو يحل مشكلاتهم:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

المؤمن ينظر إلى عمله الذي بين يديه وهو نور يضيء أمامه الطريق :

إن لم تشأْ أيها الإنسان:

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

المؤمن ينظر إلى عمله الذي بين يديه.

(نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التحريم: 8]

المؤمن عمله الصالح يسعى بين يديه، وهو نور يضيء أمامه الطريق.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

قدم عملاً، قدم دعوة إلى الله، ترك كتابَ علمٍ، أو ولداً صالحاً، أنشأ مسجداً، أو ميتماً، أو معهداً شرعياً، أو أَمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، تعلم القرآن وعلمه، تعلَّمَ السنة وعلّمها، بَذَلَ جُهدَه، وأطعم الفقراء والمساكين، ورعى الأيتام، والبائسين، والنساء الأرامل، أنشأ جمعية خيرية، عمل عملاً طيباً يرجو به وجه ربه، فهذا العمل الطيب يراه المرء يوم القيامة بين يديه.

إنسان فقير جداً دخْلُه أربعة آلاف، يعمل مستخدماً في المدرسة، ورث أرضاً، عُرِض عليه ثمنُها بضعة ملايين، فلما قبض ثمنها الدفعة الأولى قيل له الدفعة الثانية عند التنازل، عندما جاء وقتُ التنازل قيل له: سوف تغدو مسجداً، قال: لا أوافق أن أقبض ثمنها، لأنني أولى منكم أنْ أقدمها لله! على فقره

الشديد قدمها هدية في أحد أحياء دمشق، هذا المسجد نور له، إنسان يعمر معهداً شرعياً، أو ينشئ مسجداً، أو يؤلف كتاباً، أو يخدم الناس، أو يطعم الفقراء.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

من قدّم ماله أمامه سرَّه اللحاقُ به :

أن تضع اللقمـة في فم زوجتك فهي لك صدقة! لقمة تطعمها فقيراً يوم القيامة تراها كجبل أحد.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

من قدّم ماله أمامه سرَّه اللحاقُ به.

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ)

لماذا قلنا: المرء المؤمن؟ بالمقابل يوم ينظر المرء المؤمن ما قدمت يداه من خير، فيسعد به، ويرقى، ويدخل الجنة بهذا الخير.

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

[سورة الحاقة: 25-32]

المؤمن الصادق يقيسُ أيَّ شيء يعرض عليه بمقياس الآخرة :

هذه حقائق أيها الأخوة: هذا كلام ربنا عز وجل، نحن في مثل هذه الدروس نشحن شحنة إلى الله عز وجل، يجب أن تحملنا هذه الشحنة على طاعة الله وطلب الجنة وعلى الاستعاذة بالله من النار، هذه الشحنة يجب أن تجعل الجنة هدفاً لنا.

أخواننا الكرام لو أن أحدكم أراد أن يسافر إلى بلد بعيد دخل إلى السفر وأخذ التأشيرة، أصبح هذا السفر إجازة ومعه ثمن البطاقة، لمجرد أن أخذ الإجازة للسفر إلى بلد بعيد عاش في هذا البلد في نفسه، هو لا زال في الشام! لكن أين سأنزل؟ أيّ ولاية سأزور؟ في أيّ مكان سأنام؟ ماذا سأشتري هناك؟ عاش هناك وهو لا يزال في بلده، والمؤمن الصادق حينما يؤمن بالجنة وبالنار يعيش مع أهل الجنة، فكلُّ عمل يعمله يرجو به وجه الله، وثوابه، والقرب منه، يرجو به مقعدَ صدقٍ عند مليك مقتدر.

أنت حينما تكون من أبناء الآخرة تعيش في الآخرة قبل أن تصل إليها، وهذه من علامة المؤمن الصادق، والمؤمن الصادق يقيسُ أيَّ شيء يعرض عليه بمقياس الآخرة، هل هذا يرفعني عند الله أم لا؟ هل يقرِّبني أم يبعدني؟ هل يرضى الله عني بهذا العمل أو يسخط عني؟ هذا هو المؤمن، يعيش بمقياس الآخرة.

بمقياس الدنيا القرض الربوي أكثر ربحاً، أقرضت مئة ألف فعادت إليك مئة وعشرين+ ألفاً، هكذا الحساب، أما ربنا عز وجل فيقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

بمقياس الآخرة القرض الحسن هو الذي يرضى الله عنه، وهو الذي يعين على أن يزداد المال، فلذلك المؤمن يؤمن بوعد الله ووعيده، ويعيش في الآخرة قبل أن يصل إليها، وهذه مشاهد مِن الجنة والنار.

مشاهد مِن الجنة والنار :

الدرس الماضي كان عن أهل النار:

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً *لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً *لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً *إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً *جَزَاءً وِفَاقاً *إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كِذَّاباً* وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً *فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

المحور الثاني:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً *حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً *وَكَأْساً دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً *جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً *رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً* يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً *إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

كل شيء يصحّح في الحياة قبل فوات الأوان :

نحن أحياء لأن كل شيء يصحَّح في الحياة، القلب ينبض ونتحرك، ولنا أيدٍ نعطي بها، وأعينٌ نغض بها طرْفنا، كل شيء يصحَّح قبل فوات الأوان، قبل أن يقول الإنسان:

(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

قبل أن نصل مع الله إلى طريق مسدود، قبل أن يأتي ملك الموت، وتتوقف التوبة.

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

أيها الأخوة، هذا كلام فيه شُحْنة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها جميعاً، وأرجو أن تحملنا على مزيد من الاستقامةِ، والعمل الصالح، حتى نستحقَّ أن نكون في جنّة الرحمن حيث نجد:

(حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً *وَكَأْساً دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-02-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة خلق الله تدلّ على عدالته وعلى دقة المعايير:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة النازعات، ونبدأ بقوله تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذه "الواو" أعربها بعضُهم واو القَسَم، وإذا جاء القسم في القرآن الكريم؛ فبالنسبة إلينا فشيءٌ عظيم، أما بالنسبة إلى الله جل جلاله فشيءٌ قليل، فإذا أردت أن تَنْسِب هذه الآية إلى الله فالواو تلفت نظرنا إلى هذه الآية، وإن أردت أن تنسب هذه الآية إلى قدرات الإنسان الضعيفة، فالواو واو القسم. على كلٍ ففي أكثر سوَر الجزء الثلاثين تبدأ السور بمجموعةٍ من الآيات الكونية، التي تدل على اليوم الآخر، وقد مرّ بنا هذا في سورة عَمَّ..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

معنى ذلك أن الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا قيمة له، لأن أساس الاستقامة أن تؤمن بأن هناك يوماً تسوّى فيه الحسابات، وأن هناك يوماً يؤخذ الحقُّ من القويّ ويُعطى للضعيف، وأن كل خللٍ في الأرض يسوّى يوم القيامة، فلذلك ربنا عز وجل يشير إلى عظمة خَلْقِهِ، لأن عظمة خلقه تدلّ على عدالته، وعظمة الخلق تدل على دقة المعايير، وكمال الخَلق يدل على كمال التصرُّف، وهذا شيءٌ مهمٌ جداً في السوَر التي تأتي في الجزء الثلاثين.

كواكب الكون ونجومَه تسير في مساراتٍ مغلقة :

أيها الأخوة، اختلف علماء التفسير في هذه النازعات، أهُم الملائكة تَنْزِعُ أرواح الكفار، فيغرقون في نار جهنم؟

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أي تَنْشَط إلى نزع أرواح الكفار، وهم يسبحون في السماوات والأرض، يعرجون إلى الله عز وجل في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، أم شيءٌ آخر؟ الحقيقة من أوجه تفسيرات هذه الآيات أن النازعات غرقاً هي الكواكب، تُنْزَع عن مسارها يوم القيامة، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

كل الكون هو كواكب تدور في مساراتٍ مُغْلَقَة، وانتظام الكون في انتظام هذه المسارات، ولأضرب لكم مثلاً بسيطاً: إنّ الأرض تدور حول الشمس في مسار مُغْلَق، ومعنى "مسار مغلق" أنها ترجع إلى مكان انطلاقها النِسْبيّ، كيف أن الإنسان يجري حول ملعب، هذا المَجْرى مُغلق، دائرة مغلقة، يجري خمس مرات، سبع مرات، عشر مرات، نقول: المسار مغلق، إذاً الكون كله يمكن أن تنتظمه حقيقة واحدة، أن كل كواكبه ونجومَه تسير في مساراتٍ مغلقة، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

أي أنها ترجع إلى مكان انطلاقها، وأن الكون كلَّه مُتَحَرِّك لو أن الكواكب لا تدور حول بعضها بعضاً في مساراتٍ مغلقة، ماذا حدث؟ طُبِّقَ مبدأ الجاذبية، فأصبح الكون كله كتلةً واحدة، لأن كل نجمٍ أكبر يجذب الأصغر، لكن مع هذه الحركة، ينشأ عن الحركة قوى نبذ تكافئ قوى الجذب، والمثل البسيط: املأ وعاءً من الماء وأدره في الهواء، تجد أن الماء لا يسقط، إذا كان هذا الوعاء في الأعلى، وفي الجهة السُفلى فراغ، فالماء لا يسقط، ما الذي يمنعه من أن يسقط؟ أنه في أثناء الدوران نشأت قوة نبذ نحو الطرف الآخر لمركز الدوران.

الكون متوازن توازناً حركياً :

أكثر الآلات التي تتولى تجفيف الملابس، على أي مبدأ تكون؟ دوران سريع، فماذا ينشأ من هذا الدوران السريع؟ قوة نبذ، فالماء يخرج من الثياب عن طريق قوة النبذ.

فربنا عز وجل جعل هذا الكون كله يدور في مسارات مغلقة، هذه المسارات ينشأ من خلال هذا الدوران السريع قوة نبذ، تكافئ قوة الجذب، فالكون متوازن، هذا يسمونه أعلى نوع من الميكانيك: التوازن الحركي، أي حركة مع توازن، كل متحرِّك والمحصلة استقرار.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

لنضرب على هذا مثلاً، هذه الأرض تسير في مسار مغلق حول الشمس، وهذا المسار ليس دائرياً، بل هو إهليلجيّ أيْ بيضوي، والشكل البيضوي له قطران، قطرٌ أعظمي، وقطر أصغري، فالأرض إذا وصلت إلى القطر الأصغر، هناك خطر أن تنجذب إلى الشمس، لأن المسافة قلّت بينها وبين الشمس، صغرت، حينما تقل المسافة بين الأرض والشمس تتغلب قوة جذب الأكبر، والشمس يزيد حجمها عن

حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، إذاً من السهل جداً أن تنجذب الأرض إلى الشمس، وتتبخر في ثانيةٍ واحدة، بثانية واحدة تصبح الأرض بخاراً، لأن أشعة الشمس تبلغ ستة آلاف درجة على سطحها، وعشرين مليون درجة في نواتها، في مركزها، فماذا ينشأ؟

تزيد الأرض سرعتها، مِن هذه الزيادة ينشأ قوة نابذة زائدة تكافئ القوة الجاذبة، فتبقى في مسارها، فلو وصلت إلى البعد الأعظمي، الشكل بيضوي، القطر الأطول، هنا تواجهنا مشكلة ثانية، لعل هذه السرعة العالية تجعلها تتفلّت من مسارها حول الشمس، وإذا تفلّتت غرقت في ظلامٍ دامس، وغرقت في بردٍ شديد يصل إلى درجة الصفر المطلقة، مئتين وسبعين تحت الصفر، وكان الموت، فلا بد لتبقى على مسارها أن تتباطأ سرعتها، تباطؤاً تدريجياً كي تبقى مرتبطة بالشمس، فمن أعطى الأرض سرعة إضافية كي تتفلّت من انجذابها للشمس، ومن أعطى الأرض سرعة متباطئة كي تنجو من تفلُّتها من مسارها حول الشمس؟ الله جل جلاله.

حينما يأتي اليوم الآخر ينتهي نظام الكون الرائع :

لكن هذه السرعة الزائدة، وذاك التباطؤ الزائد، يكون بشكلٍ تدريجي سماه علماء الرياضيات "التسارع"، تسارع الأرض في سرعتها بطيء، وتباطؤها بطيء، من أجل هذا تبقى الأبنية على حالها، ولو أن الأرض رفعت سرعتها فجأةً لتهدم كلُّ ما عليها، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

أيْ أن تنحرف من مسارها، وتُنزع مِن مسارها، فلو نُزعَت الأرض من مسارها لانتهت الحياة مِن على سطحها، وهناك عالم بعيد جداً عن أن يؤمن بالله، ومع ذلك قال: لو أن الأرض تفلّتت مِن مسارها حول الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى مسارها المُغْلَق، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، وقطر كل حبلٍ خمسة أمتار، وهذا الحبل الفولاذي المضفور يتحمل قوى من الشد تزيد عن مليوني طن. أي أن الأرض مربوطة بالشمس، بقوة جذب تساوي مليونين ضرب مليون مليون طن، لو أردنا أن نزرع هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس، لفوجئنا أن بين كل حبلين مسافة حبل واحد فارغ، فنحن إذاً أمام غابة من الحبال الفولاذية، ولتعطّلت الزراعة عندئذٍ، وتعطل البناء، والمواصلات، والضوء، أمام غابة، بين كل حبلين مسافة حبل فارغ، وهذا معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

رفعها بعمدٍ لا ترونها، الآن، ما معنى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

أي أن الله عز وجل حينما يأتي اليوم الآخر، حينما تنتهي الحياة من على سطح الأرض، الشمس كوّرت، والنجوم انكدرت، والنجوم كيف تنكدر؟ تُنْزَع من مسارها حول بعضها بعضاً، اختل نظام الكون، أو أن الله سبحانه وتعالى أنهى نظام الكون، فحينما تُنْزَع الكواكب من مساراتها حول بعضها بعضاً، تنتهي هذه الكواكب وتتناثر وتتفجَّر، وينتهي نظام الكون الرائع.

إعجاز الله تعالى في الكون :

قال تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

إذاً هذه النجوم حينما تنزع من مسارها حول بعضها بعضاً وتنتهي..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)

[سورة التكوير: 1-2]

أي انطفأت..

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أي أن هذه السُرعات الهائلة للنجوم هل فكرنا فيها؟ أكثر المجرَّات البعيدة سرعتها تزيد عن مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، بل إن سرعتها تقترب من سرعة الضوء وبنشاط دقيق بالغ، أي أن أدق ساعة في العالم تضبط كل عامٍ على مسير نجمٍ، على زاوية رصد نجم، فقد تقصِّر هذه الساعة بضع ثوانٍ، وقد تقدِّم بضع ثوانٍ، والنجم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، إذاً هي سرعة عالية مع دقةٍ بالغة:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

الأرض كما تعلمون تنطلق في رحلتها حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، فمنذ أن أذَّن المغرب حتى الآن قطعنا مئات آلاف الكيلومترات، وهذه حقيقة بديهية ثابتة، مقطوع بها، فسرعة الأرض حول الشمس ثلاثين كيلومتراً في الثانية.

أقرب نجم مُلْتَهِب إلى الأرض بُعدُه عنا أربعُ سنوات ضوئية :

قال تعالى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً* وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً)

أيْ أنك لا تستطيع أن تجعل بعض الأحجار تتحرَّك في الهواء، فهذا فوق طاقة البشر، وقبل أن أنتقل من قوله تعالى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أذكّركم بقوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

هذا النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، فالبُعدُ رقمٌ خياليٌّ، علماً بأنّ أقرب نجم مُلْتَهب إلى الأرض بُعدُه عنا أربعُ سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم ضرب أربعة وعشرين، في العام ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، في أربعة، هذا الرقم الكبير هو بُعدُ هذا النجم الذي هو أقرب نجمٍ على الإطلاق إلى الأرض ملتهب، فهذه المسافة لو قسمناها على مئة كيلو متر سرعة سيارة، لعرفنا كم ساعة تكفي كي نصل لهذا النجم بسيارتنا، ولو قسمنا على أربعة وعشرين، كم يوماً؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين، كم سنة؟ نحتاج إلى خمسين مليون سنة كي نصل بمركبةٍ أرضيةٍ إلى أقرب نجمٍ ملتهب للأرض.

النجوم والمجرات والكواكب من آيات الله الدالة على عظمته :

القفزة الواحدة، نجم القطب أربعة آلاف سنة، اليوم ذكرت في الخطبة: أن مرصداً عملاقاً اسمه مرصد "هابل" في أمريكا رصد سديماً اسمه عين القِط، وفي هذا السديم نجم تفجَّر، يبعد عن هذا النجم ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وقد رُصِدَ هذا النجم، والتقطت صورته، قال تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 37-38]

وهي صورةٌ حقيقيةٌ مأخوذةٌ من مِرْصَدٍ عملاق في أمريكا، وقد سُجِّلت هذه الصورة في الصفحة العالمية للكمبيوتر " الإنترنت "، والتقطها أحد الأخوة الكرام، واليوم تحدثت عنها في الخطبة ملياً، وأكثر من عشرين أخ حمل هذه الصورة، واطَّلع الأخوة المُصَلّون عليها، وردة بكل معاني هذه الكلمة، وردة جورية، وريقات حمراء اللون، وحولها وريقات خضراء، وفي الوسط الكأس..

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 37-38]

هذا النجم بُعدُه عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، أربع سنوات ضوئية نحتاج إلى خمسين مليون سنة كي نصل إليه، فكم تساوي ثلاثة آلاف سنة ضوئية؟ المرأة المسلسلة مليوني سنة ضوئية تبعد عنا، المرأة

المسلسلة حجمها يزيد عن حجم مجرتنا بثمانٍ وعشرين مرة، مجرَّتنا إحدى مجرَّات الكون، فيها ما يقرُب من مئة ألف مليون نجم، وفي الكون ما يقرُب من مئة ألف مليون مجرَّة، وفي كل مجرة ما يقرب من مئة ألف مليون نجم، المرأة المسلسلة مجرة، حجمها يزيد عن حجم مجرَّتنا بثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً من عندنا، وقد تجدون في السماء نجماً متألقاً يومض، فالذي يومض هو مجرة، وبُعدُه عنا مليونا سنة ضوئية، وأحدث رقم لمجرة تبعُد عنا عشرين مليار سنة ضوئية إن أرسلت ضَوْءَها إلينا، فهذا الضوء يبقى يسير في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة كي يصل إلينا، فإذا وصل إلينا فأين هو الآن؟ لا يعلم مكانه إلا الله، ولكنه كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة.

الله عز وجل لم يقسم بالنُّجُوم بل أقسم بمواقعها :

ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

لم يقسم بِالنُّجُومِ بل أقسم بمواقعها، هذا موقع نجم، أما هو فيمشي بسرعةٍ عالية، هذا على معنى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أما على قوله تعالى:

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً)

فأنت يمكن أن تأتي بسطح ثقيل، لوح بلور، وتأتي بكتلتين مغناطيسيتين بحجمٍ واحد، وأنت عالم كبير في الفيزياء، نعطيك كرة ثقيلة، ونقول لك: هل بالإمكان أن تضع هذه الكرة في مركز متوسط بين الكتلتين حيث لا تنجذب لا إلى هنا، ولا إلى هنا؟ أغلب الظن أن هذا فوق طاقة البشر، أن يضع كرةً حديدية بين كتلتين مغنطيسيتين بحجمٍ واحد، وقوة شحنٍ واحدة، فلو جعلنا كل كتلةٍ بحجم معيّن، لاحتاجت إلى حسابات رياضية معقدة جداً، لأن قوة الجذب تتناسب مع الحجم، مع مربع المسافة، فلو أعطيناه ثلاث كُتَل متفرقة، كل كتلة بحجم، فهذا أشدُّ صعوبة، فكيف ولو أعطيناه أربع كتل، أما كتلتان على سطح وكتلتان في الفراغ، فهذا أصعب وأصعب، ولو أعطيناه كتلاً عديدةً مختلفة الحجم وهي تتحرَّك في فضاء، ووضع هذه الكرة في مكانٍ متوسط حيث لا تنجذب لا إلى هنا ولا إلى هنا، فهذا فوق طاقة البشر، وهذا هو الكون، الكون مئة ألف مليون مجرة مع مئة ألف مليون نجم، كلها أحجام كبيرة، وصغيرة، ومتفاوتة، وكثافات متفاوتة، وهي كلها متحرِّكة، والمحصلة: نظام مستقر، توازن حركي، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

عدة تفاسير وردت حول هذه الآيات :

نظام الليل والنهار أساسه دورة الأرض حول نفسها، ونظام الفصول أساسه دورة الأرض حول الشمس مع محورٍ مائل، فتدبير أمر الفصول، وأمر الليل والنهار، وأمر الأمطار، هذه تجدها في قوله تعالى:

(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذا أحد التفاسير التي وردت حول هذه الآيات، هناك تفسيرٌ آخر يقول: النازعات هم الملائكة، تنشط إلى قبض أرواح الكُفَّار، وتسبح تعرِّج إلى الله عز وجل في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة..

(فَالسَّابِقَاتِ سَبْقَاً* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

تدبر أمر الخلائق بما تتلقى من أوامر من الله عز وجل، القرآن حمَّال أوجه، أنا وجدت أن أول تفسير هو أقرب إلى الانسجام مِن بين التفاسير، هذه النجوم التي في السماء، لو أنها نزعت من مسارها لانتهت، من أجل أن تعرف ماذا يعني أن يبقى النجم في مساره؟ إن الله يمسك، إنه إلهٌ عظيم..

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

[سورة فاطر: 41]

انتهت الحياة من على سطح الأرض، فلو أن الأرض خرجت عن مسارها، كما لو أن القطار خرج عن سكته لهوى في الوادي.

وصف دقيق ليوم الدين كما ورد في القرآن الكريم :

هذا القسم فأين جوابه؟

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقَاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقَاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً* يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

هذا اليوم العصيب، هذا يوم الدين، هذا يوم الراجفَة، هذا يوم الواقعة، هذا يوم الحاقَّة، هذا يوم الطامة الكبرى، هذا يوم الفَصْل، هذا يوم الدين، هذا يوم الدينونة، هذا يوم الجزاء.

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

الراجفة الأرض:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا*وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا*وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا*يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا*بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا*يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ*فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة:1-8]

الزلزلة الكبرى والزلزلة الصغرى :

ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ)

[سورة المزمل: 14]

الأرض تهتز، هذه الزلزلة الكُبرى، وهناك زلزلة صُغْرَى، زلزال في تركيا استمر ثوانيَ معدودة، وكانت شدته سبع درجات على سُلّم (رختر)، فخلّف وراءه خمسين ألف إنسان، مئتا ألف بلا مأوى، وخمسين ألف قتيل، في دقيقة وزيادة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ*يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

الأرض سوف تتحدث يوم القيامة لله عز وجل عما فعله هذا الإنسان :

أيها الأخوة، في هذا اليوم تُزَلْزَلَ الأرض زلزالها، وتخرج أثقالها، أيْ الإنسان، وقد دُفِن فيها من قبْلُ، ويقول هذا الإنسان: مالها، ما الذي حدث؟

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[سورة الزلزلة: 4]

تحدّث عما فعل فيها الإنسان، أقام حروباً، انتهك أعراضاً، شرَّد أُناساً، لا لسببٍ وجيه بل لسببٍ عِرْقِيّ، يقول: حرب تطهير عرقية، هذه الأرض سوف تتحدث لله عز وجل عما فعله هذا الإنسان، هذا المخلوق الأول..

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً*وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً*وَبَنِينَ شُهُوداً*وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً*ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ*كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً*سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً*إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ*فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ*سَأُصْلِيهِ سَقَرَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ*لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ*لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ*عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

[سورة المدثر: 11-30]

في اليوم الآخر الأرض تُزَلْزَل والنجوم تَنْكَدِر والشمس تتكوّر:

أيها الأخوة، في هذا اليوم يوم تهتز الأرض وتخرج هذا الإنسان الذي طغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى، تخرج هذا الإنسان الذي بنى مَجْدَهُ على أنقاض الآخرين، وبنى غِناه على إفقار الآخرين، وبنى أمنه على خوف الآخرين، وبنى حياته على موت الآخرين، هذا الإنسان الذي خَلَقَهُ الله ليسعد في الآخرة، خان الأمانة، ونسي مهمته، وفعل ما فعل..

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

الأرض تُزَلْزَل، والنجوم تَنْكَدِر، والشمس تتكوّر، وكل شيءٍ قد انتهى، أول كلمة هي الراجفة، والرادفة تتبعها هي السماء:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[سورة التكوير: 1-4]

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

البطولة أن تنجو في اليوم الآخر لا في الدنيا :

الإنسان أحياناً حتى في الدنيا يتجاوز حدوده، فينتهك حُرْمة القانون، ويتبجَّح، ويتعاظم، ويتغطّرَس فإذا وقع في يد العدالة لم يستطع أن ينظر إلى آلة التصوير حين يُصوَّر:

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ* أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

البطولة أن تنجو في هذا اليوم، لا أن تتيه على الناس بمالك، ولا بعلمك، ولا بسلطانك، ولا بمكانتك، ولا بقدرتك على الأذى، البطولة أن تنجو في هذا اليوم..

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

ساكنة سكون الخَوْف، والقلب مضطرب اضطراب الفزع والجزع.

(يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

أي نحن سوف نرد إلى الدنيا؟ فما الذي حصل؟ هم في رعب، وهم في دهشة..

(أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً)

طبعاً الإنسان قد يبقى عظاماً نخرةً فقط، أي عظماً هَشّاً، عظماً مَنْخوراً، قال: لا، أنتم حينما رَجَفَت الأرض، وتبعتها السماء، وأنتم تخافون، والأبصار خاشعة، لن تردوا إلى الدنيا.

(يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

الإنسان حينما يوضع في الحساب يندم أشد الندم :

العرب تقول: رُدَّ في حافرته، أي عاد من حيث أتى، توهّموا أن هناك عودةً إلى الدنيا، قال: لا، الذهاب إلى الآخرة، إلى يوم الجزاء، إلى يوم الحساب، إلى يوم الدين، عندئذٍ يقولون:

(قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

الإنسان حينما يُلْغِي إنسانيَّته، ويتَّبع شهوته، قد يستمتع إلى حين، وقد ينغمس في لذّاتٍ محرَّمة، ولكن حينما يوضع في الحساب يندم أشد الندم.

والآن نحن في الدنيا أيها الأخوة، لك أن تفعل ما تشاء فأنت مخيَّر، لك أن تصدق ولك أن تكذب، لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، لك أن تُخْلِص ولك أن تخون، لك أن ترعى ولك أن تُضيِّع، لك أن تفعل ما تشاء، ولكن اعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيءٍ تفعله مُسَطَّرٌ في صحيفتك وسوف تنشر هذه الصحيفة، وسوف تحاسب عن كل كلمةٍ، وعن كل حركةٍ وسكنةٍ قمت بها في الحياة الدنيا.

هؤلاء الذين دفنوا في باطن الأرض، حينما رجفت الأرض، وأخرجتهم للحساب توهَّموا، وكانت قلوبهم مضطربة من شدة الخوف، وأبصارهم خاشعة من شدَّة الخَجَل، توهموا أنهم مردودون إلى الأرض، إلى الحياة الدنيا مرةً ثانية، فلمّا علموا أنهم ذاهبون إلى الحساب، إلى الجزاء، حينما يكتشف الإنسان أنه ذاهبٌ ليُحاسب، ذاهبٌ ليحاسب حساباً دقيقاً عسيراً، ما شعوره؟

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية:25- 26]

إلى أين الذهاب؟ إلى الدنيا مرةً ثانية؟! لا، إلى يوم الدين، إلى الدار الآخرة، إلى الحساب.

الذي يؤمن باليوم الآخر لا يستطيع أن يعتدي على أحد :

أحدهم اضطر إلى أن يقترض مبلغ ثلاثمئة ألف ليرة، بحث في جهاتٍ عديدة، فلم تُنْجِدْهُ، عرض مزرعةً اشتراها وهي غالية الثمن، عرض أن يجعلها باسم من يقرضه هذا المبلغ، على أن يردَّها إليه بعد تسديد المبلغ، وقبِلها أحدُهم فأعطاه المبلغ ثلاثمئة ألف، وسجّل المَدين هذه المزرعة باسم الدائن، وبعد سنواتٍ عدة تمكن المدين من تأمين المبلغ، فذهب إليه ونقده الثمن، وقال: يرجى أن ترجع لي مزرعتي، قال له: كل واحد حقه وصل له. المزرعة ثمنها مليون، فلما رأى أن هذه المزرعة قد ذهبت وضاعت منه، تألّم أشد الألم، فطغى عليه الألمُ حتى أصابته أزمةٌ قلبيةٌ حادّةٌ، جعلته على شفير الموت، فجاء بابنه وأملى وصية عليه، قال فيها: حينما أموت، وحينما أوضع في النعش، اذهب بجنازتي إلى

محل الذي اغتصب مني هذه المزرعة، وأوقف هذه الجنازة، وادخُلْ إلى محله، وقدِّم له هذه الرسالة، فماذا في الرسالة؟

يقول له: لقد اغتصبتَ مزرعتي ظلماً، وأنا ذاهبٌ إلى دار الحق، فإن كنت بطلاً فلا تلحقني، يُروى أنه ردَّ لهم المزرعة بعد فوات الأوان.

هناك يوم حساب، فافعل ما تشاء، لكن الجاهل يعدُّ نفسه ذكياً حينما يأخذ ما ليس له، ويعدُّ نفسه ذكيّاً إذا اغتصب مالاً، أو عقاراً، أو دكاناً، أو شركةً، أو وكالةً، أو طلَّقَ امرأةً ظلماً وعدواناً، وقد أخذ كل ما عندها، هناك من يقول لزوجته: إن لم تكتبي لي هذا البيت طلقتُك، تكتبه له، وبعد هذا يطلّقها، أما هذا الذي يؤمن باليوم الآخر فلا يستطيع أن يعتدي على نملة، ولا أقلّ من نملة، ولا يستطيع أن يأكل درهماً واحداً حراماً، هذا هو الذي يؤمن باليوم الآخر، أما إذا كان الإيمان فيه ضعف، ويعد نفسه ذكيّاً، ويفعل العمل السيئ، فمن أقرَّ على عمله كان شريكه في الإثم كذلك.

ثم يقول الله عز وجل حينما يعلمون أنهم ذاهبون إلى يوم الدين، ليوم الجزاء:

(قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

مشكلة كبيرة جداً، أن نحاسَب على كل مالٍ اقترفناه، فالميّت حينما يوضع في نَعشِهِ ترفرف روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حِلّه وغير حله، فالهناء لكم والتبعة عليَّ.

فسر بعض المفسرين الراجفة والرادفة بأنهما الصعقة الأولى والصعقة الثانية :

إنّ أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ـ ورثوه حلالاً ـ ودخل هو بماله النار، وأندم الناس عالمٌ دخل الناسُ بعلمه الجنة ودخل هو بعلمه النار، وأندم الناس رجلٌ باع آخرته بدنيا غيره..

(أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ* فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

فاتني أن أقول لكم:

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

بعض علماء التفسير فسر هاتين الكلمتين (الراجفة والرادفة) بأنهما الصعقة الأولى، والصعقة الثانية، اللتان وردتا في سورة الزُمَر، النفخة الأولى والنفخة الأخرى..

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

هذه الصعقة الثانية:

(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

[سورة الزمر:68]

أول صعقة يصعق بها كل الخلائق، والصعقة الثانية عندما يوقفون ليوم الحساب.

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ*فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

الساهرة، مكان الحشر، ساحة كبيرة جداً، فليست هناك كتل، ومحاور، وتجمعات، هذا من جماعتنا اتركوه، فليس هناك شيء من هذا.

(فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُون)

[سورة الأنعام:94]

أحاديث شريفة تؤكد أن الإنسان يحاسب على كل شيء يوم القيامة:

المشكلة أن الإنسان يحاسب على كل شيء، ولا نصير له أبداً..

((لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشاً فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَّمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

((قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

هذه الصعقة الثانية:

(فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

في ساحة الحَشْر.

الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا ينفعنا إطلاقاً :

أيها الأخوة، سورة النازعات من سوَر الجُزء الثلاثين، وهي تُرَكِّز على اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر أساسيٌ جداً، بل إن الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا ينفعنا إطلاقاً.
وفي الدرس القادم إن شاء الله يحدثنا الله عز وجل عن أحد رؤوس الكفر، فرعون، كيف كان في الدنيا حيث قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

وكيف أصبح مصيره في الآخرة، ولذلك سُمِّيَ يومُ القيامة الواقعة، قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ*لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ*خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

فمن كان في الدنيا بمقياس البشر غنياً، أو قوياً، ولم يكن مستقيماً، كان في الآخرة في أسفل سافلين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 15-26

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-03-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق جاءت في القرآن بشكلٍ مباشر و قِصَصٌ هي تطبيقاتٌ لهذه الحقائق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة النازعات، وآيات اليوم:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى*إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى*اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى*فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى*فَكَذَّبَ وَعَصَى*ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى*فَحَشَرَ فَنَادَى*فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى*فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

أيها الأخوة الكرام، يمكن أن نقول: هناك مُنْطلقاتٌ نظرية، وتطبيقاتٌ عملية، هناك حقائق جاءت في القرآن بشكلٍ مباشر، وهناك قِصَصٌ هي في الحقيقة تطبيقاتٌ لهذه الحقائق، لذلك قالوا: الحق حقيقةٌ مع البُرهان عليها، حقيقةٌ مُبَرْهَنٌ عليها، أي حقيقة واقعية، حقيقةٌ يؤكّدها الواقع.

ولا يغيب عن أذهانكم أن الحق هو في الحقيقة نقلٌ عن الله، وحيٌّ، نقلٌ صحيح يؤيّده الواقع الموضوعي، يقبله العقل الصريح، ترتاح له الفطرة السليمة.

الله عزَّ وجل له كلام هو القرآن وله أفعال هي تأويل القرآن :

ربنا عزَّ وجل له أساليب عديدة ومنوَّعة في تعريف الناس بالحق، فقد تأتي الآيات النظرية، كأن يقول الله لك:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

في مواطن أخرى يأتيك بإنسانٍ لم يؤمن، طغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى)

لذلك قال بعض علماء التفسير في معنى قوله تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

تأويل الآيات في الأعم الأغلب وقوع الوعد والوعيد، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

فإن رأيت إنساناً مُرابياً دُمِّرَ ماله عن آخره، فتدميرُ مال هذا المرابي هو تأويل قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

وإن رأيت شاباً مستقيماً نشأ في طاعة الله، يخشى الله، يُطَبِّق منهج الله، ثم تلوت قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

الحياة الطيِّبة التي يحياها هذا الشاب المؤمن المستقيم هي تأويل قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

فالله عزَّ وجل له كلام هو القرآن، وله أفعال هي تأويل القرآن.

النبي عليه الصلاة والسلام قرآن متحرك :

قال بعضهم: لو لم يكن في الأرض إلا أفعال الله التي تتمثَّل بإكرام المستقيم، والدفاع عنه، ونَصره، وتأييده، وتوفيقه، وخذلان الكافر، وإهلاكه، أفعال الله وحدها كتابٌ وسُنَّة. هذا المعنى مستنبط من أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما وصفته السيدة عائشة قالت:

((إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ))

[مسلم عن سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ من حديثه الطويل]

وقد وصفه بعض العلماء بأنه قرآنٌ يمشي، القرآن آيات بين دفَّتي هذا المُصحف، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن متحرك، أي إذا تكلم فهو صادق، وإذا حكم فهو عادل، وإذا تصرَّف فهو حكيم، وإذا سئل أجاب فهو عالم، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، فربنا حدّثنا عن:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

هذا خلقه:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذا خلقه، ثم حدثنا عن اليوم الآخر:

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ*تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ*قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

هذا اليوم الآخر، الآن التطبيق العملي، فهناك حقائق نظرية، وهناك تطبيقات عملية، فأنت قد تحضر درس عِلم، وتستمع إلى تفسير آيات، وقد يكون لك جار أكل أموال اليتامى فدمَّره الله، فقصَّته حقيقة، قصته تنطبق على آية.

من قبل الهدى فهو في أعلى عليين ومن ردّ الحق فهو في أسفل سافلين :

فيا أيها الأخوة الكرام، الآن ندخل في صلب الآيات، إنسان اسمه فرعون، لو أنه قبِلَ الهدى لكان في أعلى عليين، فلما ردَّ الحق كان في أسفل سافلين، وكل إنسان يرفض الحق، ويتبع هوى نفسه، ويركب رأسه فله مصيرٌ وخيم، وهذا التاريخ بين أيديكم.

الذين وقفوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العُسْرَة، والذين نصروه وأيَّدوه، ونشروا دعوته، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، وكل إنسان يذهب إلى المدينة المنورة يقف أمام سيدنا الصديق متأدباً: يا خليفة رسول الله، يقف أمام سيدنا عمر متأدباً: يا أيها الفاروق، يذهب إلى البقيع فيقف أمام قبور أصحاب رسول الله متأدباً، أما أبو لهب وأبو جهل فماذا نفعل بهما؟ نلعنهما، لأنهما عارضا الحق.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

بطر الحق أن ترُدَّ الحق، وأن تظلم الناس، فيا أيها الأخوة، هنيئاً ثم هنيئاً ثم هنيئاً لمن كان في خندق الحق، ودافع عن الحق، ونشر الحق، وأعان أهل الحق، وأيَّد أهل الحق، وعزَّز أهل الحق، والويل ثم الويل ثم الويل لمن كان في خندقٍ آخر؛ يتربص بأهل الحق الدوائر فيكيد لهم، ويريد ليطفئ نور الله عزَّ وجل.

بربكم آياتٌ كثيرةٌ نقرؤها ولا ننتبه إليها، لو وقف رجل أمامكم في رابعة النهار، واتجه نحو قرص الشمس، ونفخ عليها بقصد إطفائها، ماذا تحكمون على عقله؟ رجل في رابعة النهار، الشمس ساطعة، وقف باتجاه قرص الشمس، وسحب نفساً طويلاً، ونفخه على الشمس بقصد إطفائها، هذا يحتاج إلى مستشفى المجانين، الله عزَّ وجل يقول:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة التوبة: 32]

أين نور الشمس من نور الله؟

(بِأَفْوَاهِهِمْ)

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، لذلك ما ضرَّ السحابَ نباحُ الكلاب، القافلة تمشي والكلاب تعْوي، ما ضرَّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر، ولو تحوَّل الناس إلى كنَّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام، ما أثاروه إلا على أنفسهم، وبقي الإسلام هو الإسلام، كالطود الشامخ.

في تاريخ هذا الدين العظيم، كم من فئةٍ أرادت أن تنهي هذا الدين؟ وأن تطفئ نور الله؟ أين هي؟ هي في مزبلة التاريخ، وأين الدين؟ شامخٌ كالجبل، لأنه دين الله.

دیننا دین الله والله عزَّ وجل بیده الخلق والأمر :

أیها الأخوة الكرام، أتمنى على أخوتنا الأكارم أن یستوعبوا هذه الحقیقة: لا تقلق على هذا الدین ولو تناهى إلى سمعك أن كل من في الأرض یحارب هذا الدین؛ في آسیا، وفي شمال آسیا، وفي جنوب شرقي آسیا، وفي بلاد الغرب، وفي أمریكا، لعلّه لیس من الخطأ أن نقول: هناك حربٌ عالمیةٌ مُعْلَنةٌ على الدین الإسلامي بالذات، إنه دین الله فلا تقلق علیه، والله عزَّ وجل بیده الخلق والأمر..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

ولكن اقلق على أن الله سمح لك أو لم یسمح أن تنصره، سمح لك أو لم یسمح أن تكون جندیاً مِن جنوده، سمح لك أو لم یسمح أن تساهم بشكلٍ أو بآخر في حل مشكلات المسلمین، وفي تأییدهم، وفي نصرهم بحكمةٍ بالغة.

في الدنیا جنة مَن لم یدخلها لم یدخل جنة الآخرة :

فیا أیها الأخوة، نحن مع طاغیةٍ مِن طغاة الأرض، إنه فرعون، ما مصیره؟ ما مصیر الأنبیاء والمرسلین؟ إنهم في أعلى علیین، وما مصیر أصحاب الأنبیاء والمرسلین؟ وما مصیر الصدِّیقین؟ وما مصیر الشهداء؟ وما مصیر الصالحین؟ وما مصیر أهل الإیمان؟ وما مصیر العلماء العاملین؟ هؤلاء الذین نذروا أنفسهم لله، أین هم؟ في أعلى علیین، یذكرهم المسلم كل دقیقة بخیر، وهم في جنَّة، وفي الدنیا جنة مَن لم یدخلها لم یدخل جنة الآخرة، هم في جنة القُرب.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ*إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[سورة المدثر: 38-39]

طُلقاء:

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ*عَنْ الْمُجْرِمِينَ*مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ*قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ*حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ*فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

[سورة المدثر: 40-48]

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

أضرب مثلاً للتقریب: رأیتَ إنساناً یُدَخِّن، تقول له: فلان أصیب بالمرض الفلاني بسبب التدخین، فلان بُتِرَت رجله بمرض الموات، فلان أصیب بسرطان في رئتیه، فلان وفلان، فأنت حینما تذكر له أشخاصاً عدیدین أدمنوا شرب هذه الدخینة فأتلفتهم، وأتلفت أعصابهم، فهذا تذكیر لهم، ومِن أندر ما

قرأت: أن رجلاً قسيماً وسيماً يرتدي ثياب رعاة البقر، كان يعلن عن بعض أنواع الدخان، فإذا هو يموت حتف أنفه بسبب الدخان، ثم قال وهو على فراش الموت: كنت أكذب عليكم، الدخان قتلني، فالموعظة: السعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

سيدنا موسى عليه السلام كليم الله :

الآن، دخلنا في صلب القصةِ، قصةِ الطاغية، قال:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى* إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

شيءٌ كبيرٌ جداً أن يكلّم اللهُ إنساناً، إن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كليم الله، ناداه ربه:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي*إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى*فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى*وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى*قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى*قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى*فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

[سورة طه: 14-20]

إلى آخر الآيات:

(نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

إذا أخلص الإنسان لله كان غنياً بالله قوياً به وعالماً به :

قال بعضهم: كن لي كما ترجو أرجا منك لما ترجو، ويضرب على هذه الحقيقة بشاهدٍ؛ سيدنا موسى، أراد أن يذهب ليقتبس ناراً، إلى..

(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى*فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى)

[سورة طه: 10-11]

هو ذهب ليأتي بقبسٍ مِن النار، فإذا ربنا جلّ جلاله يُكَلِّمه هناك، أنت حينما تُخْلِص فالله عزّ وجل ينقلك من حالٍ إلى حال، ومن مقامٍ إلى مقام، ومن مرتبةٍ إلى مرتبة، ومن درجةٍ إلى درجة، ومن توفيقٍ إلى توفيق، ومن نجاحٍ إلى نجاح، ومن عملٍ إلى عمل أطْيَب، ومن دعوةٍ إلى دعوةٍ أكبر، رأسمالِك الإخلاص، أنت فقير، وأنت ضعيف، وأنت لا تعلم، لكن الله غنيٌّ، وقديرٌ، ويعلم، فإذا أخلصت له، استفدت من الذّات الكاملة، وكنت غنياً بالله، قوياً به، وعالماً به، فالإنسان ما هو فيه لا يتناسب مع قدراته بل مع مطلبه العالي..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

ليس من السهل أبداً أن تدخل على طاغيةٍ وأن تعظه، والطغاة دائماً كلمة واحدة منهم تنهي حياة إنسان، والتاريخ يشهد بهذه الحقيقة.

ذات مرَّة، الحسن البصري وهو سيد التابعين، أدى واجب أمانة العلماء، فبلغ الحجاج ما قاله، فقال لمن حوله: يا جبناء واللهِ لأروينكم مِن دمه، وأمر بقتله، كلمة: اقتلوه، ائتوني به لأقتله أمامي، فجيء بالسَيَّاف، ومدَّ النِّطْع، وذهب الجند ليأتوا بالحسن البصري ليقطع رأسه في مكان حكمه، في قصره، يروي الرواة أن الحسن البصري دخل على الحجاج، فرأى السيَّاف واقفاً، والنطع ممدوداً، ففهم كل شيء، فحرَّك شفتيه بكلماتٍ لم يفهمها أحد، فإذا بالحجَّاج يقف له، ويستقبله، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيِّد العلماء، ومازال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه إلى جنبه، واستفتاه، وضَيَّفه، وطلب الدعاء منه، وشيَّعه إلى باب القصر.

السيَّاف كاد يصعق، والحاجب كاد يصعق، فتبعه الحاجب، فلما خرج من القصر قال له: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فُعِلَ فيك، جيء بك لتقتل، فإذا بالحجاج يكرمك، فماذا قلت بربك وأنت داخلٌ عليه؟ قال: قلت له: يا ملاذي عند كُرْبَتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

قصة الطاغية فرعون :

الأقوياء بيد الله، فعندما يسلمك ربنا عزَّ وجل لغيره كيف تعبده؟ قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

أنت حينما تعرف الله، وتستقيم على أمره، فأنت أقوى إنسان لأن الله معك، وإذا كان الله معك، فمَن عليك؟ ومَن يجرؤ أن يكون عليك؟ ومَن يستطيع أن يمد يده عليك؟ وإذا كان الله عليك فمَن معك؟ فكم مِن إنسانٍ نكَّل به أولاده، ونكلت به زوجته، ونكل به أقرب الناس إليه؟! لأنه لم يكن مع الله، كن مع الله تر الله معك، القصة من أولها إلى آخرها أنك إذا قلت: الله، تولاَّك الله، فإذا قلت: أنا، تخلَّى الله عنك.

فرعون الطاغية، المخيف، الذي ذَبَّح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، فرعون رأى رؤيا فيما تروي الكتب أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، فالقضية سهلة جداً، لم يسمح لامرأةٍ إسرائيليةٍ ولدت طفلاً إلا ويقتله، إن لم تُبَلِّغ القابلة تُقتَل مكانه، والله عزَّ وجل ذكر ذلك فقال:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص: 4]

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

الدين دين الله والله عزَّ وجل ذاتٌ كاملة :

مهمةٌ صعبةٌ جداً أن تدخل على طاغيةٍ جَبَّار، قتلُ الإنسان عنده لا يساوي شيئاً، فأن تدخل على هذا الطاغية الجبَّار وأن تنصحه، وأن تُذَكِّرَه بالله عزَّ وجل..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

(طغى)

أي جاوز الحد، وخرج عن العدل، وخرج عن الرحمة، وخرج عن الحكمة، ومِن أجمل ما قال بعض العلماء عن الشريعة: الشريعة عدلٌ كلها، رحمةٌ كلها، مصلحةٌ كلها، حكمةٌ كلها، أية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجَوْر، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست مِن الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل. ليست من الشريعة، الدين دين الله، والله عزَّ وجل ذاتٌ كاملة:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

لكن ما كل مَن يطغى يقول لك: أنا طاغية، لا، فماذا قال فرعون لقومه؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

أيُّ رشادٍ هذا؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

النفس تزكو بمعرفة الله وتطْهُر بالإقبال عليه وتتألَّق بالقرب منه وتسعد بالعمل الصالح:

قال تعالى:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)

أي أنَّ أكبر مهمةٍ أنت فيها؛ أن تزكّي نفسك، والدليل كلام خالق الكون:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

قد أفلح، بل إن الله عزَّ وجل حمَّلك أمانة عظيمة هي نفسك التي بين جنبيك، فإن زكيتها أفلحت، ونجحت، وسعدت في الدنيا والآخرة، وإن دسَّيتها شقيت في الدنيا والآخرة.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

النفس تزكو بمعرفة الله، تطْهُر بالإقبال عليه، تتألّق بالقرب منه، تسعد بالعمل الصالح:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هناك من يحمل هذه النفس فيعرفها بربها، يعرفها بمنهجه، يدفعها إلى العمل الصالح فتسعد بقرب الله عزَّ وجل.

الإنسان مخلوقٌ في الدنيا من أجل أن يتزكّى :

قال تعالى:

(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)

أي أنت مخلوقٌ في الدنيا من أجل أن تزكّى، والدليل قول الله عزَّ وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

أكبر رأسمالٍ لك قلبٌ سليم، نفسٌ زكية طاهرة، نفسٌ عفيفة، نفسٌ صادقة، نفسٌ رحيمة، نفسٌ حكيمة، نفسٌ وَقّافة عند منهج الله، نفسٌ محسنة، هذا في الأساس ثمن الجنة..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

تشعر بسعادة كبيرة جداً، الإيمان بالله يَرْدَع، ويمنع، ويحفظ، قال سينا عليّ كرَّم الله وجهه: يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، فأنت حينما تتصل بالله عزَّ وجل، تصبح إنساناً آخر:

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

هناك قِيَم جهادية هذه في الحرب أما في السِلم فالقِيَم دَعَوِيَّة :

بالمناسبة أيها الأخوة، ربنا عزَ وجل يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل: 125]

الغِلظَة، والكلمة القاسية، ليست مِن الدين في شيء، نحن عندنا منطق الإيمان، وعندنا منطق الجهاد.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

هذه قِيَم جهادية، هذه في الحرب، أما في السِلم فله قيَم دَعَوِيَّة، قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة فصلت: 33-35]

القضية قضية منهج دَعَوي ومنهج جهادي، في الجهاد مطلوب القوة والشدة والغلظة، هذا كله في الحرب، وهذه أخلاق الحرب، لكن في السلم، أخلاق السلم اللين، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل: 125]

قيَم الدعوة شيء وقيَم الجهاد شيءٌ آخر :

انتق أحسن الكلمات، وأحسن الألفاظ، وألطف العبارات، فهذا الذي يقول: أنا سأغلظ عليه، هو جاهل في منهج الدعوة. يروى أن شخصاً قال لأمير: سأعظك وأغلظ عليك، فكان الأمير أفقه ممن يعظه، قال له: ولمَ الغلظة يا أخي؟! لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ مني، أرسل موسى وهارون إلى فرعون، فقال لهما:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 44]

فقيَم الدعوة شيء، وقيَم الجهاد شيءٌ آخر، قيم الدعوة؛ اللين، والحكمة، واللطف، والمنهج الأيْسَر.

(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى *فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى)

أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين، كأنها كوكبٌ دُريٌّ، ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، هذه معجزة، فكأن الله عزَّ وجل يقول: هذا رسولي لأنه سيفعل شيئاً لا يستطيع أن يفعله أحد مِن الخَلق، أن تكون يدك كالمصباح المُنير، وأن تُلقِيَ عصاً فإذا هي ثعبانٌ مبين..

(فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى)

لكنَّ هذا الطاغية رَكِبَ رأسه، وأنكر، وجحد، قال تعالى:

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

[سورة النمل: 14]

الإيمان تصديق وطاعة والكفر تكذيب ومعصية :

يوم القيامة يقول أهل الكفر:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23-24]

(فَكَذَّبَ وَعَصَى)

الإيمان تصديق وطاعة، والكفر تكذيب ومعصية، التصديق داخلي، والطاعة سلوك خارجي، والتكذيب داخلي، والمعصية خارجية، إذاً هناك شيء داخلي؛ الإيمان ما أقرَّ في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدَّقه العمل، شيء داخلي قد استقر، وكلامٌ يعبِّر عنه، وعملٌ يؤيِّده، بالمقابل؛ الكفر تكذيب داخلي، وتكذيب قولي، ومعصية وعصيان.

فرعون منتفع بكفره منتفع بدعواه الباطلة لذلك لا يُنَاقش :

أيها الأخوة:

(فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى)

نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، وهذه معجزةٌ قاطعةٌ في دلالاتها، صاحب هذه المعجزة رسول الله، ومع ذلك فرعون كذَّب وعصى، قالوا: المُنْتَفِع لا يناقش، ففرعون منتفع بكفره، منتفع بدعواه الباطلة.

(فَكَذَّبَ وَعَصَى)

كذَّب بموسى عليه السلام، وعصى الله عزَّ وجل..

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

لم يكتفِ بأنه ردَّ الحق، بل أراد أن يطفئ نور الله، هناك إنسان فاسد مُفْسِد مُمْسِك، يدعو الناس إلى أن يمسكوا أيديهم، يبخل ويأمر الناس بالبخل، ينحرف ويأمرهم بالانحراف.

(فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

كيداً على سيدنا موسى، جمع السحرة، وعرض عليهم أن يكونوا مِن المقرَّبين إليه بشرط أن يدحضوا هذه المعجزة، لكن السحرة آمنوا في النهاية.

قصة إسلام عمير بن وهب :

أحد كُفَّار قريش اسمه صفوان بن أمية، لقي عُمَيْر بن وهب، قال عمير: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، وأولادٌ صغار أخشى عليهم العَنَت مِن بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه. فقال له صفوان: ديونك عليَّ بلغت ما بلغت ـ العرض مفتوح ـ وأولادك هم أولادي ما امتدَّ بهم العمر فاذهب لما أردت.

فسقى سيفه سماً، ووضعه على كتفه، وركب ناقته، وتوجَّه إلى المدينة ليقتل محمداً عليه السلام، طبعاً هو مغطَّى في دخول المدينة أن ولده أسير، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر فقال: " هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً "، فأمسكه بحمَّالة سيفه وقيَّده بها، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله هذا عمير جاء يريد شراً، فقال النبي الكريم: أطلقه يا عمر. فأطلقه. قال: ابتعد عنه. فابتعد عنه. قال: ادنُ مني يا عمير، فاقترب منه. قال له: يا عمير سلِّم علينا. فقال له: عمت صباحاً يا محمد. قال له: قل السلام عليكم. قال: لست بعيداً عن سلام الجاهلية، هكذا بغلظة. قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفدي ولدي. قال له: وهذا السيف الذي على عاتقك؟! أي لماذا أحضرته؟ قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ ما استفدنا منها. قال له: ألم تقل لصفوان: لولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت من بعدي ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها لقتلت محمداً وأرحتكم منه؟ فوقف عمير وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، لأن هذا الذي دار بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله. أما صفوان فكان بمكة ينتظر الخبر السار، وكان يخرج إلى ظاهر مكة كل يوم ليتلقَّى الرُكْبَان، فالخبر مسعد: أنه قُتل محمد، ثم سمع الخبر الآتي: لقد أسلم عُمَيْر.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 12]

بدأ الله بكلمة الآخرة لأن الكلمة الثانية أشد كفراً والأولى أقل :

قال تعالى:

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى*فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فرعون له كلمة قبلها فيها شيء من التحفُّظ، فرعون قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

أي في حدود علمي ليس في الدنيا إله غيري، هذا كلام كفر، ولكنه أقل من قوله:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

على وجه القطْع واليقين.

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

العلماء قالوا: بدأ الله بكلمة الآخرة، لأن الكلمة الثانية أشد كفراً، والأولى أقل..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

الحكمة من إبقاء جسد فرعون كدليل على كذبه :

وتبع سيّدنا موسى بقوته، وجَلَبته، وأسلحته، وجنوده، ورهبته، وطُغْيانه، وسيدنا موسى مع فئةٍ قليلةٍ مِن بني إسرائيل، فلما وصلوا إلى البحر..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

ليس هناك أمل أبداً، البحر مِن أمامهم، وفرعون مِن ورائهم بكل وزنه وثقله، ماذا قال سيدنا موسى؟

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 62]

أُمِرَ هذا النبي الكريم أن يضرب البحر، فإذا هو طريقٌ عريضٌ واسعٌ يَبَس، سار به موسى ومَن معه، وخرجوا مِن الضفَّة الثانية، فلما دخل فرعون، ووصل إلى وسط هذا الطريق اليبس، عاد البحر بحراً، فأغرقه الله، وكان مِن الممكن أن يأكله السَمَك، لكن لو أكله السمك لقال عُبَّاده: لقد صعد إلى السماء، لا:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

[سورة يونس: 92]

قذفه الموج إلى الشاطئ، وهو مُحَنَّط، وقد ذهب إلى باريس قبل سنتين أو ثلاث واستقبل في المطار كملِك، ورمموا بعض أجزاء من جسمه، لأن فيها فطور بدأت تنهش بجسمه، وأحد كبار علماء الرياضيات في أمريكا قرأ القرآن بنية أن يكتشف الأخطاء فيه، فلما وصل إلى قوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

[سورة يونس: 92]

قال: هذه أول غلط، له صديق بفرنسا اسمه موريس بوكاي، اتصل به هاتفياً وقال له: هذا غلط بالقرآن، فقال له: فرعون الذي غرق لا يزال جسمه محنطاً كما هو في متحفٍ في مصر، وقد جاء إلى باريس للترميم وعاد إليها،

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

وأحد الأخوة الأكارم قبل يومين أطلعني على صورته بشكل دقيق جداً، فرعون موسى الآن موجود في مصر، محنَّط في المتحف، هناك أدلّة علمية مِن ماء البحر ورماله، وبيض القواقع، ومن بعض الفطور تؤكد أنه مات غرقاً..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

قصص القرآن الكريم حقائق مبرهنٌ عليها :

في طريق الكفر، والضلال، والفجور، والعدوان، والطُغيان، والإباحية، وفي طريق الإيمان، والورع، والتقى، والعمل الصالح، هذا الطريق طريق ينتهي إلى جهنم وبئس المصير، وهذا الطريق طريق الإيمان ينتهي إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، ونحن أحياء، وقلبنا ينبض، وما دام القلب ينبض فأمامنا خيار، فهذا مسلك فرعون وهذا مسلك الصديق، الصديق أعان رسول الله:

((كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذاً بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ وَقَالَ إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثاً ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَثَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا لَا فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا))

[البخاري عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الصديق أعان، وأبو لهب عارض، أين الصدِّيق وأين أبو لهب؟ سيدنا عمر آمن ودعم، وأبو جهل عارض، أين عمر وأين أبو جهل؟ أين الثرى مِن الثريا؟!!

أيها الأخوة، قصص القرآن الكريم حقائق مبرهنٌ عليها، هذا دليل، وكل إنسان يسلك طريق فرعون مصيره معروف، وكل إنسان يسلك طريق سيدنا الصديق مصيره معروف:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-3]

سبحانك إنه لا يذل مَن واليت، ولا يعز من عاديت، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، العبرة بالنهايات.

ملخص الملخص أن العبرة بالنهايات :

أخواننا الكرام، العبرة مَن يضحك آخراً، قال بعض الحكماء: مَن يضحك أولاً يضحك قليلاً ويبكي كثيراً، ومَن يضحك آخراً يضحك كثيراً إلى ما شاء الله.

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون: 109-111]

وفي آية القرآن آية أخرى، قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

فملخَّص الملخَّص: الإنسان حينما يولد كل مَن حوله يضحك، وهو يبكي وحده، فإذا جاء أجله كل مَن حوله يبكي، فإذا كان بطلاً فليضحكْ وحده،

قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 27-33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-03-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن مأخوذٌ بصنعة الله والشارد عن الله مأخوذٌ بصنعة البشر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النازعات، ومع الآية السابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أي أأنتم أشد خلقاً أم الذي خلق السماوات والأرض؟ المؤمن مأخوذُ بصنعة الله، والشارد عن الله مأخوذٌ بصنعة البشر، المؤمن يحدِّثك عن المجَّرات وعن الكواكب، وعن الشمس والقمر، وعن الليل والنهار، وعن الجبال، وعن الأنهار، وعن البحار، وعن الأطيار، وعن الأسماك، مأخوذٌ بآيات الله، بصنعة الله، بروعة خلق الله عز وجل، بينما أهل الدنيا مأخوذون بصِناعات الكفار؛ بمركباتهم، بأجهزتهم، بما عندهم من وسائل سريعة، فنفس المؤمن مُمْتَلئة تعظيماً لله، ونفس غير المؤمن ممتلئة تعظيماً لأهل الدنيا، واللهُ عز وجل في هذه الآية يلفت نظرنا:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أيها الأخوة، لو وازنت بين هذه العين التي ترى صوراً لا نهاية لها، بحجمها الطبيعي، وبألوانها الدقيقة، وبحركاتها وسكناتها مباشرةً، وبين آلةٍ تصوِّر، شتانَ بين الجهازين، لو وازنت بين كُلْيةٍ صناعيةٍ، وبين كُلْيةٍ طبيعية، فشتانَ بين الصنعتين، الكليةُ الصناعية حجمها كبير، ويحتاج الإنسان أن يتمدد إلى جنبها ثمانِيَ ساعات، وفي النهاية لا تستطيع أن تصفي مِن دم الإنسان إلا ثمانين بالمئة، ويبقى بعض حمض البول في الدم، مما يزعجه ويحمله على سلوكٍ غير سوي، بينما الكُلْية الطبيعية بحجمها الصغير، بلا صوت، وأنت تعمل هي تعمل، وأنت نائم وهي تعمل، وأنت تعمل عملاً شاقاً وهي تعمل..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

موازنة بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان :

محرِّك صغير له صوت، يملأ الدنيا صَخَبَاً، بينما سحبٌ كالجبال تمرّ مَرَّ السحاب بلا صوت!! صنع الله الذي أتقن كل شيء، عوِّد نفسك أن توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان، فأعلى طبيب أسنان في الأرض من أجل أن يقلع السِن لابد من أن يضع المخدِّر، ووضع المخدر مؤلمٌ جداً، بينما الطفل الصغير يسقط سنه دون أن يشعر، دون أن يتألَّم، فإذا هو مع لقمة الطعام، هل عندك لطفٌ بهذه الطريقة، دقق واعتبرْ.

الدماغ البشري حينما يصيبه ألمٌ لا يحتمل، يفرز من تلقاء ذاته مادةً مخدِّرةً، هذا الغياب عن الوعي، الإنسان فإذا أصيب بحادث، والألم بلغ درجة لا تحتمل، الدماغ نفسه يفرز مادة مخدرة فيتخدر، ما هذه الصنعة؟

هذه العين، لو سافرت إلى بلدٍ في القطب الشمالي، والحرارة هناك سبعين تحت الصفر، ترتدي الثياب الصوفية، والجوارب، وكلَّ شيء، لكن هل تستطيع أن تغطي عينيك؟ لا تستطيع، لا بد أن تكون صفحة العين على مساسٍ مع الهواء الخارجي، وفي العين ماء، لمَ لا يتجمَّد الماء، وهو على اتصالٍ بجوٍ حرارته سبعون تحت الصفر؟! لأن في العين مادةً تمنع التجمد، مضادةً للتجمد..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

قرأت مرةً كلمة في موسوعة علمية مِن أرقى الموسوعات، العدد كان عن الطيران، الذي لفت نظري مقدِّمة صغيرة، يقول صاحبها: إن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان على وجه الأرض، لا ترقى إلى مستوى الطير، فقد يطير الطير ستاً وثمانين ساعة بلا توقُّف، وقد يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر في رحلةٍ من الشمال إلى الجنوب دون أن يضل الطريق، يعتمد على ماذا؟ على أي جهازٍ يعتمد؟ والعلماء حتى هذه الساعة في حيرةٍ مِن أمر اتجاه الطير إلى هدفه، بماذا يهتدي؟ بالتضاريس؟ كيف يهتدي في الليل؟ بساحة الأرض المغناطيسية؟ صنعوا له ساحة مضادةً، فسار وفق هدفه، أخذوه بعد الولادة إلى شرق الأرض، فعاد إلى مكان مسقط رأسه في شمالها، لَمْ يَدَعُوا افتراضاً إلا طبَّقوه، والطير يهتدي إلى هدفه، والعلم اليوم لا يعرف ما الذي يهدي الطير، ولكن الله أجاب عن هذا السؤال، فقال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

[سورة الملك: 19]

أي أنَّ ربنا عز وجل مباشرةً مِن دون واسطة يهدي الطير إلى أهدافها.

التوازن الحركي :

أنت اجعل لك جولاتٍ في الكون، ووازنْ بين الطير والطائرة، وبين الأرض والمركبة، مركبة فضائية، مِن أجل أن تقطع ثانية ضوئية واحدة، من أجل أن تقطع ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، كلّفتْ أموالاً أرهقتْ ميزانية أمريكا، مِن أجل أن يركب فيها اثنان، ويستطيعا أن يعيشا على سطح القمر بجو القمر، ركبا مركبةً فيها علم البشرية كلّه؛ الرياضيات، مع الفيزياء، مع الفلك، مع الكيمياء، مع الصحة، علم البشرية كله في مركبةٍ كلّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، من أجل أن نقطع بها ثانية ضوئيّة واحدة.

وهذه الأرض التي وزنها ستة آلاف مليون ملْيون مليون طن، هذه الأرض التي تسير حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، ولا تتأخَّر عن ميعاد وصولها ولا ثانية، دقةً ما بعدها دقَّة، بل إن بعض الساعات العِملاقة في الأرض قد تقدِّم ثانية أو تؤخِّر ثانية في العام كله، وبعض الكواكب تُضبَط ساعاتُ الأرض على حركتها..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

تبعد عنا بعض المجرات عشرين مليار سنة ضوئية، وبعض المجرات تزيد عن مجرتنا ثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً من بعدٍ سحيق، من بعد مليوني سنة ضوئية.

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

السماء بناها، كَوْنٌ، مئة ألف مليون مجرَّة، وهو أحدث رقم، وفي كل مجرة تقريباً، بشكل متوسط، مئة ألف مليون نجم، أي مئة ألف مليون نجم ضرب مئة ألف مليون مجرة، وكل نجمٍ له حجمٌ، وسرعةٌ، وكتلةٌ، وجاذبيةٌ وهو يسير في مسار مغلقٍ حول نجمٍ آخر، والمحصلة كونٌ يتحرك بسكونٍ مُطْلَق، هذا التوازن الحركي..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

خبرة الله قديمة لا تحتاج إلى تعديل ولا إلى تطوير بينما خبرة الإنسان حادثة :

أيها الأخوة الكرام، حينما قال الله عز وجل:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

وازن بين صنعة الله عز وجل وهو خَلَق الإنسان، منذ أن خَلَق الله سبحانه الإنسانَ مِن عهد آدم إلى يوم القيامة أطرأ عليه تعديل؟ فهل وجد اليد قصيرة فزاد طولها؟ أطرأ عليه تعديل؟ انظر إلى مركبةٍ صنعت في عام ألف وتسعمئة، ووازن بينها وبين مركبةٍ صنعت عام ألفين، الفرق شاسع جداً، فالمركبةُ القديمة

تدير محرِّكها مِن خارجها، أتذكرون ذلك؟ وتطلق البوق بطريقةٍ بدائيةٍ جداً، على الهواء، وتُشعَل مصابيحهُا بالكبريت، فيها شمعات، وعجلاتها ليس فيها هواء، فهي كتلة صلبة، ومحركها له حركة واحدة، هذه مركبةٌ صنعت عام ألف وتسعمئة، أما التي صنعت عام ألفين، هي شيء لا يصدَّق، فماذا تستنبط؟

إن خبرة الله قديمة لا تحتاج إلى تعديل، ولا إلى تغيير، ولا إلى تبديل، ولا إلى تطوير، بينما خبرة الإنسان حادثة، الصناعات كلها، كلّ سنة هناك تطوير، وتحسين، وتسريع، في شتَّى المجالات، فأنت عوِّد نفسك أنْ توازن بين العين وآلة التصوير، وبين الأرض ومركبة الفضاء، وبين الكُلية الطبيعية والكلية الصناعية، فلو دخلت إلى مستشفى لجراحة القلب، لرأيت القلب الصناعي بحجم كبير جداً، بحجم ثلاجة كبيرة جداً، وأنابيب، وأجهزة، وساعات، فشيء يحتاج إلى غرفة تقريباً، هذا القلب الصناعي، فإذا أجرى الإنسان عملية قلب مفتوح يوصل دمه بالقلب الصناعي، بينما قلبه الطبيعي لا يزيد عن قبضة اليد، يعمل ثمانين عاماً دون كَللٍ أو مَلل، يضُخ من الدم في عمرٍ متوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحابٍ في العالم، يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة من الدم باليوم الواحد، فأنت قد تستهلك في العام كله ألف لتر من الوقود السائل، ألف لتر، بينما قلبك يضخ في اليوم الواحد ثمانية آلاف لتر، له دسامات، وله شرايين، وله أوردة، وازن بين صنعة الله في خلقك، فإنّ الله أرادك أن تُوازن.

ربنا عز وجل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته :

قال تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أم الذي بنى السماء، انظر إلى تلوين العصافير، إلى تلوين الفراشات، شيء لا يصدق، فالمهندسون الجماليون، مهندسو الفنون الجميلة الذين يصممون الأشكال والألوان، يقتدون بالفراشات والأطيار في تلوين الآلات وتزيينها..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

وازن بين الطائر والطائرة، وازن بين العين وآلة التصوير، وازن بين الكُلية وبين الكُلية الصناعية، بين القلب الطبيعي وبين القلب الصناعي، وازن بين صنعة الله وصنعة البشر، لذلك ربنا عز وجل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته، قال:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

جولات بين صنعة الله وصنعة الإنسان :

هل اقتنى أحد سيارة فوجد بعد سنة سيارة صغيرة ولدتها الكبيرة، لا يوجد مثل هذا الشيء، أم أنَّكَ تشتري الفرس فتلد لك حصاناً صغيراً، تشتري البقرة فتلد لك بقرة أخرى، وهل هناك معمل يعمل بصمت ويأكل الحشيش والبرسيم، يعطيك مادة أساسية جداً جداً في حياة الإنسان، فيعطيك الحليبَ متوازناً، فيه فيتامينات، وبروتينات، ومعادن، ومواد سكرية، ومواد دسمة، وحموض، فهو غذاء كامل، انظر إلى الدجاجة، فهي تأكل من خشاش الأرض، تعطيك بيضة فيها كل شيء، فيها ستة عشر فيتاميناً، ومعادن، وأشباه معادن، ومواد أساسية، ومواد دسمة، ومواد بروتينية، لأن البيضة يمكن أن تصبح طيراً، إذاً هي كاملة في كل شيء، غذاء كامل، دقق، عود نفسك أن تسيح في جولات بين صنعة الله وصنعة الإنسان، ربنا وازَنَ ذاته العليّة مع خلقه، قال:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

ووازن ذاته العلية مع خلقه أيضاً فقال:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام: 62]

الآن الكمبيوتر، حَسْب معلوماتي القديمة جداً، يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة، والله عز وجل قال عن ذاته:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام: 62]

معنى ذلك لا يوجد وقت إطلاقاً، ألغي الوقت، كن فيكون، عالم مصري أراد أن يكتشف ما يجري داخل الذرة، فأراد أن يخترع مقياساً يصور ما يجري في داخل الذرة، بمقياس واحد من بضعة ملايين من الثانية، يقيس الفيمتو ثانية، فمن أجل أن يقرأ ما يجري من تفاعلات في ثانية واحدة، يجب أن يراه في أربعين سنة، موضوع نال به أعلى جائزة في العالم وهي جائزة نوبل في الكيمياء، فقضية الوقت وقضية الخلق، وقضية الذرة والمجرة والخلايا، فدقق واعتبرْ.

إعجاز الله في خلقه :

ذكرت مِن مُدة الغدة التيموسية، وهي عبارة عن كلية حربية، تنمو مع الجنين، وتضمر بعد عامين من الولادة، كُلّيةٌ حربية بكل معاني هذه الكلمة، تدخلها الكريات البيضاء المُقاتلة، تصطف على مدرجات كالمدرجات الرومانية، تتلقى دروساً في العناصر الصديقة والعناصر العدوة، دروساً عَبْرَ مناعة الأم،

وعبر الأمراض، وعبر عادةٍ خلقها الله في الطفل؛ بأنه يضع كل شيء في فمه كي يتعرَّف، بعد عامين تخرج هذه الكريات مِن مخرج امتحاني، هناك فاحصان يفحصان كل كريةٍ بيضاء، يعطيانها عنصراً صديقاً، فإذا قتلته تقتل، يعطيانها عنصراً عدواً، فإذا لم تقتله تقتل، ثم تتخرَّج هذه الخلايا وقد سُمِّيت الخلايا التائيّة، كانت همجية فأصبحت مثقفة، فتعرف الصديق من العدو، وهي خلايا مُقاتلة مع سلاح فتَّاك، فلو كان مع شخصٍ مدفعٌ ضد الطائرات، أهم شيء لصاحب هذا المدفع أن يعرف الطائرة الصديقة من العدوة، فهذه الكلية تضمر بعد عامين، وتكلّف الخلايا المثقّفة أن تعلم الأجيال اللاحقة، بعد ستين عاماً يضعف هذا التعليم، فينشأ ما يسمَّى بالخَرَفَ المناعي وهو حرب أهلية ضمن الجسم، فأكثر أمراض البشر في الستينات، عبارة عن هجوم كريات الدم البيضاء، التي هي في الأصل مكلفة أن تدافع عن الجسم، تهاجم أعضاء الجسم ومفاصله وأماكنه الحسَّاسة، فهذه الكلية الحربية من صممها؟

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

عَوِّد نفسك أن توازن بين صنعة الله عز وجل وبين صنعة البشر، وازن بين وردةٍ مِن البلاستيك، وبين وردةٍ طبيعية، وازن بين شرابٍ كيماويٍ مصنوعٍ يضرُّ أجسامنا، وبين شرابٍ طبيعيٍ ينفع أجسامنا..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

خبرة الإنسان خبرةٌ حادثةٌ متنامية لكن خبرة الله عز وجل خبرةٌ قديمة :

أي تعديل يطرأ على خلق الله عز وجل يسير نحو الأسوأ، فمثلاً الاستنساخ، ما هو؟ محاولة توليد جنين لا من نطفةٍ وبويضة، بل من نطفة أو بويضة فقط، قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)

[سورة الإنسان: 2]

فنشأت مضاعفات، ونشأ هَرَم مبكّر جداً، ونشأت أمراض، لأن الإنسان أراد أن يطوِّر صنعة الله عز وجل، فإذا طورها فنحو الأسوأ، وأكثر ما يعانيه البشر الآن مِن تغيير خلق الله، فهو يكافح أمراض النبات بالمواد الكيماوية، فإذا بالتربة تتملَّح، وإذا بأمراض النبات تستشري، الآن عادوا إلى المكافحة الحيوية، لما سمدوا الأرض بأسمدةٍ كيماوية، فإذا هناك أمراض للنبات كثيرة، فعادوا إلى السماد الطبيعي.

فعود نفسك من خلال هذه الآية أن توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان، صنعة الإنسان تنقصها الخبرة، بل إن خبرة الإنسان خبرةٌ حادثةٌ متنامية، لكن خبرة الله عز وجل خبرةٌ قديمة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

والبشرية اليوم كلما تاهت، وكلما انحرفت، وكلما ضلّت سواء السبيل، ترجع مقهورةً إلى أصل الدين، هناك جامعاتٌ في بعض البلاد المنحلّة، عادت إلى فصل الذكور عن الإناث، لأنهم وجدوا أعداداً مخيفةً من الأجنّة توضع في أطراف الحدائق، عادوا إلى فصل الذكور عن الإناث، هناك في بلد من بلاد الشرق الكبيرة حرّمت الخمر، لأسبابٍ صحيةٍ فقط، قبل أن ينهار هذا البلد، حرمت الخمر تحريماً كلياً، فكلما تقدّم العلم اكتشف أن أكمل حالةٍ هي التي شَرَعَها الله عز وجل.

الموازنة بين خلق الله وخلق البشر :

مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) وهو أليكسي كارينجي فيما أذكر، قال: إن أفضل نظام للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على امرأةٍ واحدة. على زوجته، هذا غض البصر، إذاً وازن بين خلق الله وخلق البشر، وازن بين جهازٍ صنعه ربنا عز وجل، وبين جهازٍ صنعه الإنسان.

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

رفع سمكها، المسافات بين النجوم مسافات فلكية، شيء لا يصدَّق، عشرين مليار سنة ضوئية، بين الأرض وبين بعض المجرات، يسير الضوء في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ثلاثمئة ألف ضرب ستين، بالساعة ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين، باليوم ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربع وعشرين، بالشهر ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربع وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بالسنة ضرب اثني عشر، الآن هذا الرقم الكبير، ضرب عشرين مليار، فما هذه المسافة؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

(رَفَعَ سَمْكَهَا)

المسافات في الفضاء الخارجي صعب على العقل أنْ يتصورها، فأقرب شيء لنا، أقرب نجم ملتهب لأرضنا بعده عنا أربع سنوات ضوئية، أما تلك المجرة فإنها تبعد عشرين مليار، عشرين ألف مليون أنا أريد أقرب نجم، أربع سنوات ضوئية، لو أردت أن تصل لهذا النجم بمركبة أرضية تحتاج إلى خمسين مليون سنة، فهل تصل؟!

معنى التسوية :

قال تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا)

السَمْك أي المسافات..

(فَسَوَّاهَا)

معنى، سواها، المعنى دقيق:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

أنت ممكن أن تبني مكاناً مِن جدران وسقف وأرض وباب، لكن لو أردت لهذا المكان أن تبيت فيه سيارتك، تحتاج إلى ماذا؟ تحتاج إلى قياسات، يجب أن يكون عرض هذا المكان بعرض المركبة مع فتح الأبواب، لو كان مِن دون فتح أبواب، فكيف تخرج من السيارة؟ لابد مِن فتح البابين، يجب أن يكون طول هذا المكان أكبر من طول السيارة، يجب أن يكون ارتفاع السقف أعلى من سقف السيارة، فحينما تتوافق أبعاد هذا المكان مع أبعاد السيارة، فأنت قد سوَّيته مع السيارة.

فمثلاً تفاحة، هذه مَن سوَّاها مع حاجة الإنسان؟ الله سبحانه! فحجمها معقول، لو كان حجمها بحجم السمسم فهي غير معقولة، تطلب من أخيك أن يقشِّر لنا هذه التفاحة، فكيف نقشرها، لو كان حجمها متر، كيف تحمل التفاحة؟ لو كانت بُنيتها كالفولاذ، كيف تأكلها؟ لو كانت كريهة، رائحتها كريهة، دقق: حجمها معتدل، ولونها جميل، وقوامها مناسب، وطعمها طيِّب، لكن لو ينضج هذا التفاح كله في يوم واحد، ماذا تفعل به؟ لو أن البطيخ ينضج في يوم واحد، ماذا نصنع به؟ حدثني أخ فقال لي: قد ضمنت حقل بطيخ، حمَّلت كل يوم منه سيارة خلال تسعين يوماً، فالبطيخ ينضج تباعاً على مدى أشهر الصيف، معنى مسوَّى مع الإنسان، البطيخ على الأرض والتفاح في الشجر، لو كانت الآية معكوسة، لو البطيخ على الشجر يصبح قاتل، لو بطيخة فلتت، تقتل الإنسان، انظر إلى التسوية كل فاكهة لها وقت، البطيخ ينضج في الصيف، لو كان في الشتاء النفس تنفر منه، أما في الصيف البطيخ محبب جداً، بالشتاء البرتقال، أكثره مواد فيها فيتامين " C "، مضادة للرشح، البرتقال والحمضيات تتوافق مع أمراض الشتاء، وفاكهة الصيف تتناسب مع حر الصيف، انظر إلى التسوية، التناسب، معنى ذلك أنه يوجد إله حكيم، هذه التسوية.

اللهُ جعل الليل ستراً وجعل النهار مشرقاً فالنهار يملأ القلب طمأنينة والليل يملؤه خوفاً:

قال:

(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً، جعل الليل سكناً، جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، الليل ستر، وفي الليل يأوي الإنسان إلى فراشه، يلتقي مع أهله، يجلس في بيته، ينقل أغراضه في الليل، فاللهُ جعل الليل ستراً:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

[سورة النبأ:10-11]

مَن جعل الليل مظلماً؟ لو كان الليل ستة أشهر، تنام وتفيق، وتنام وتفيق، وتذهب إلى عملك في الليل، وتعود في الليل، وتنام في الليل، وتستيقظ في الليل، شيء لا يحتمل، لو كان النهار ستة أشهر كما هو في القطب شيء لا يحتمل، أما الليل والنهار يتناسبان مع طاقاتك، وجهدك، ووقتك، لأن الليل والنهار تقريباً متساويان..

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً..

(وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

وجعل النهار مشرقاً، فالإنسان يسير في الغابة ليلاً، فيمتلئ قلبه خوفاً، إذْ كل شيء أمامه يظنه شبحَ إنسان هجم عليه، يأتي النهار يطمئن قلبه، فالنهار يملأ القلب طمأنينة، والليل يملؤه خوفاً، وأشد المدن صخباً تجدها بعد الساعة الثانية حيث يعمُّ الهدوء فيها، والناس آوَوا إلى بيوتهم، وقلَّت الحركة والصخب، وسكن الناس.

رحمة الله واسعة شاملة بأنْ ذلّل الأرض للإنسان :

قال تعالى:

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً:

(وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

من الممكن أن تذهب إلى منطقة في السويداء فتجد أرضها صخرية، وصخورها حادَّة، فهل هذه الأرض يمكن أنْ يعاش بها؟ آثار البراكين صخور ناتئة، وحادة، ومؤنَّفة لا يعاش بها، لكن رحمة الله واسعة شاملة بأنْ ذلّل الأرض للإنسان.

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا)

مَن جعلها مستوية هكذا؟ ومَن جعل تربتها ليّنة؛ تفلحها، وتزرعها، وتسقيها، وتبني عليها، فلو كانت الأرض كلها مائلة، فالأراضي المائلة متعبة جداً تحتاج إلى جدر استنادية، وإلى مدرجات، والتربة قد تذهب مع الماء، مَن جعلها مستوية في معظمها؟ الله جل جلاله، مَن جعل تربتها صالحة للزراعة؟ لو أن الأرض مِن صخر كلها، فماذا نأكل؟

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

ربنا عز وجل أمرُه كن فيكون :

مصر، ما قيمتها مِن دون النيل؟ صحراء، مصرُ هبَةُ النيل، قال سيدنا عمر لسيدنا عمرو بن العاص: صف لي مصر؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، مصر طولها شهر، أي طولها مسيرة شهر، وعرضها عشرٌ، أي عشرة أيام، يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات، مبارك الروحات، بحر، فيه أماكن عمقها ستون متراً، ويبلغ عرض النيل في بعض الأماكن أكثر من ألف متر، وهو أطول نهر في العالم، ومصر هبة النيل، ولولا نيلها لما عاش فيها أحد، فبينما هي يا أمير المؤمنين عنبرةٌ سوداء، في الشتاء التربة داكنة، إذا هي دُرَّةٌ بيضاء، عند طوفان النيل، ثم هي زبرجدةٌ خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء.

ما قيمة دمشق مِن دون بردى ونبع الفيجة؟ مَن يسكنها؟ ما قيمة الزبداني مِن دون ينابيعها؟ ما قيمة بلادنا مِن دون أنهارها؟ موت، مَن أخرج هذا الماء؟ فهذا نبع الفيجة، ومَن يصدِّق أن حوض الفيجة في التقدير العادي القديم يصل إلى حمص، على سيف البادية، فنصف لبنان فوق حوض الفيجة، ومِن قرية عين الفيجة إلى حمص قريباً منها، هذا امتداد الحوض نحو الشمال، وعرضاً من سيف البادية إلى أواسط لبنان، يعطينا في الثانية ستة عشر متراً مكعباً، وذلك في الأيام العادية، وفي الشام خمسة ملايين ونصف يشربون مِن هذا النبع، والله أكرمنا في هذه السنة بالأمطار إكراماً لولاه لاشتهينا كأس الماء.

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

مرة نظرت إلى صورةٍ مِن القمر الصناعي للأرض في منطقة الشرق الأوسط، حينما جاءت موجة الأمطار التي أكرمنا الله بها رأيت لطعة رمادية فوق الشرق الأوسط، قلت: سبحان الله!! كل هذا الخير،

وكل هذه البركات، وكل هذه الثلوج، وكل هذه الأمطار، وكل هذا الفرح الذي أصاب الناس، وكل هذا الأمل بموسمٍ زراعي جيد، من لطعةٍ رماديةٍ فوق الشرق الأوسط، هي المنخفض الجوي الذي غمر منطقتنا، فربنا عز وجل أمرُه: كن فيكون.

كل ما في الأرض مسخَّر لهذا الإنسان مِن أجل أن يعرف الله وأن يطيعه :

قال تعالى:

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

إذا أجدبت المرعى بالبادية، فربما لا تصدقون، سيكلف استيراد العلف للمواشي مئات ألوف الملايين، فتجد مرعى جيداً، وهذا المبلغ كله وفَّرناه بنزول ذلك المطر، والمرعى الذي أخصب..

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

لأن الأرض طبقات، وهذه الطبقات المتباينة في بُنيتها، والأرض حينما تدور، فإذا هي طبقات متباينة في بنيتها، وقد تضطرب في دورانها، فمن أجل ألا تضطرب جعل الله الجبال أوتاداً، يثبت بها طبقات الأرض، جعلها أوتاداً، وجعل للأرض رواسي أن تميد بكم، أيضاً مُعَدِّلات للدوران، وجعلها مصدَّات للرياح، وجعلها مخازن للماء، وجعلها أماكن للاصطياف، وجعل انحناءاتها أماكن تزيد مِن مساحة الأرض، مساحة ضلعي المثلث أكبر مِن قاعدته، فتزيد المساحات، ويعتدل الجو، ويكون الجبل مصداً للرياح، ومخزناً لمياه الأمطار، ووتداً في الأرض، ومِرساةً للأرض حينما تدور، هذه بعض فوائد الجبال..

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا*وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا*مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

كل ما في الأرض مسخَّر لهذا الإنسان، مِن أجل أن يعرف الله، ومن أجل أن يطيعه، ومن أجل أن يسعد بقربه في الدنيا والآخرة، فاعتبروا يا أولي الألباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 34-46

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-03-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّامة هي اسمٌ من أسماء يوم القيامة التي لا بدّ أن تأتي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النازعات، ومع الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

قال علماء اللغة: " إذا " الشرطية تفيد تحقق الوقوع، بينما " إن " الشرطية تفيد احتمال الوقوع أي:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر:1]

لا بد أن يأتي.

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

لا بد أن تأتي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات: 6]

قد يأتي وربما لا يأتي، لأنّ " إن " تفيد احتمال الوقوع، بينما " إذا " تفيد تحقق الوقوع، فهذه الطَّامة التي هي اسمٌ من أسماء يوم القيامة التي لا بد أن تأتي، وهذه الطامة تلغي كل شيء، الإنسان يسكن في بيت، يحتاج إلى إصلاح نوافذه، وإلى إصلاح بلاطه، وإلى إصلاح الكهرباء، فجاءت زلزلة جعلته أنقاضاً، وانتهى كل شيء، وانتهت قوائم التصليحات، وانتهت هموم الترميمات، وانتهى كل شيء، وأصبح البيت أنقاضاً، فخبر الزلزال يلغي كل شيء، وهذا تقريب للمعنى.

حينما يدرك الإنسان أنه ضيَّع الأبد فقد خسر خسارةً لا تقدَّر بثمن :

هذه الطامة تنسي الإنسان كل هموم الدنيا، وتوقعه أمام مشكلةٍ لا نهاية لها، وتجعله في مكانٍ كما ورد في بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بى إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب .))

[الحاكم عن جابر بن عبد الله]

حينما يدرك الإنسان أنه ضيَّع الأبد، فقد خسر خسارةً لا تقدَّر بثمن، خسر جنة عرضها السماوات والأرض، خسر الحياة الأبدية، خسر الجنة التي خُلِقَ مِن أجلها، خسر النعيم المقيم وهو في أسفل سافلين، في جهنم وبئس المصير، هذه هي المصيبة، يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

الشيء العجيب أيها الأخوة، أن هؤلاء المسلمين الذين يرتادون أحياناً بيوت الله، يصلون الصلوات، ويصلون صلاة الجمعة في المساجد، حينما تتعامل معهم بالدرهم والدينار، وكأنَّهم لن يصيروا إلى الدار الآخرة، وقد يأكلون المال الحرام، وقد يعتدون على بعضهم بعضاً، ولو أن الإنسان آمن أنه لا بد أن يقف بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن كل شيء لتغيَّر سلوكه مئة وثمانين درجة.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينْ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

يوم التغابن يشعر الإنسان أنه قد غُبن أي تعلق بدنيا زائلة وضيَّع الآخرة الباقية:

ما دام الإنسان يحاسَب عن كل أعماله،فكيف يقترف المنكرات؟ وكيف يتطاول على إنسان؟ وكيف يبتزُّ مال إنسان؟ وكيف يعتدي على عرض إنسان؟ وكيف يتفلَّت من منهج الواحد الديان؟ كيف؟

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

حدثني أخ من مصر، حينما ضرب الزلزال القاهرة، زوجته مِن شدَّة الهلع أمسكت حذاءً وظنته ابنها، وضمَّته إلى صدرها وولَّت هاربة. قال عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

أيها الأخوة الكرام، هذا اليوم، يوم الدين، الحاقة، الواقعة، الطامة، يوم الفصل، القارعة، هذا يوم لا بد أنْ يأتِيَ، وفي هذا اليوم يُسوَّى الحساب، وفي هذا اليوم يأخذ الضعيف حقَّه من القوي، ويأخذ الفقير حقه من الغني، وفي هذا اليوم يأخذ كل ذي حقٍ حقَّه، وهنيئاً لمن حاسب نفسه في الدنيا حساباً شديداً، ليكون حسابه يوم القيامة يسيراً، والويل لمَن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، فكان حسابه يوم القيامة

عسيراً، هذا اليوم يوم عظيم، يومٌ شديد، يوم التغابن، يشعر أنه قد غُبن، أي تعلق بدنيا زائلة وضيَّع الآخرة الباقية:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً*أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 103-105]

البطولة كل البطولة أن تدخل اليوم الآخر في حساباتك اليومية :

أيها الأخوة، الذكاء كل الذكاء، والعقل كل العقل، والفِطْنة كل الفطنة، والتوفيق كل التوفيق، والتفوّق كل التفوّق، والبطولة كل البطولة أن تدخل هذا اليوم في حساباتك اليومية، في بيعك وشرائك، في أفراحك وأتراحك، في إقامتك وترحالك، في أخذك وعطائك، في زواجك، في كل ما تتحرَّك به وتتحرك لأجله..

(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 281]

اتق الله، سيدنا عمر بن عبد العزيز عيَّن أحد كبار المستشارين اسمه عمر بن مزاحم، قال له: كن معي، وراقبني، فإذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان في جولةٍ تفقديةٍ مع أحد أصحابه، عبد الرحمن بن عوف، فرأيا قافلةً قد خيَّمت في ظاهر المدينة فقال: تعال نحرس هذه القافلة بعد أن جلسا لحراستها، فإذا طفلٌ رضيعٌ يبكي، فقام عمر إلى أمه وقال: أرضعيه، أرضعته ثم بكى، فقام إليها في الثانية: فقال: أرضعيه، فأرضعته ثم بكى، فقام إليها في الثالثة وغضب، قال: أرضعيه، فغضبت وقالت له: ما شأنك بنا؟ ما دخلك بنا إنني أفطمه، قال لها: ولمَ تفطمينه؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ـ التعويض العائلي لا يستحقه الغلام إلا بعد الفطام، فأنا أفطمه كي آخذ العطاء ـ يروي كُتَّاب السيرة أنه ضرب جبهته وقال: ويحك يا عمر، لقد أهلكت نفسك، كم قتلت من أطفال المسلمين؟

توزيع التعويض العائلي عند الفطام عذابٌ لهؤلاء الصغار، ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين؟ وصلى صلاة الفجر وهو يبكي، ولم يفهم أصحابه إطلاقاً قراءته في الصلاة من البكاء، ثم قال: رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟

المؤمن يخاف مِن هذا اليوم فلا يهمل عباداته ولا يعتدي على أحد :

المؤمن يخاف مِن هذا اليوم، يخاف أن يُسْأل عن ماله مِن أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ يخاف أن يسأل عن شبابه فيمَ أبلاه؟ يخاف أن يسأل عن عمره فيم أفناه؟ يخاف أن يسأل عن علمه ماذا عمل به؟ يخاف أن يعتدي على نملة:

((مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنْ صَدَقَةٍ لَأَكَلْتُهَا))

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

تمرة..

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

ما بال المسلمين يتوسعون في علاقاتهم ويأخذون ما ليس لهم، ويهملون عباداتهم، إذا كان سيدنا عبد الله بن رواحة، وهو صحابي جليل، عيَّنه النبي قائداً ثالثاً في مُؤْتة، وعين القائد الأول سيدنا زيداً، والثاني جعفراً، والثالث عبد الله بن رواحة، سيدنا زيد أمسك بالراية فقاتل بها حتى قتل، ثم أخذها سيدنا جعفر، فقاتل بها حتى قُتل، جاء دور ابن رواحة، تردد ثلاثين ثانية، ثلاثون ثانية تقابل ترديد بيتين مِن الشعر، فقد كان شاعراً، قال:

يا نفسُ إلا تـقـتلي تموتي　　هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيــت　　وإن تـوليتِ فـقد شقيتِ

* * *

فلما وصل الخبر إلى النبي قال:

((أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضى))

[الطبراني عن رجل من الصحابة من بني مرة بن عوف]

درجته هبطت لأنه تردد في بذل نفسه ثلاثين ثانية، فهذا الذي يتردد في صلاته، يتردد في أداء الحقوق، يلفُّ ويدور، ويحتال ويختال، ويأخذ ما ليس له، يقيم دعوى كيديّة، فهذا أين مكانه؟!!

الإنسان إذا شارف الخطر يُعْرَض عليه شريط حياته عملاً عَملاً فيراه في ثوانٍ معدودات:

أيها الأخوة الكرام:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

في هذا اليوم، قال تعالى:

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

شيء ثابت الآن علمياً أنّ الإنسان إذا شارف الخطر، يُعْرَض عليه شريط حياته عملاً عملاً، فيراه في ثوانٍ معدودات، كل واحد منا له عمل، قد يكون عمله إحساناً، قد يكون إساءة، وقد يكون أخذ بغير حق، كشخصٍ ركب مركبته، وعلى إشارة المرور ألمَّت به أزمة قلبية، فانكب على مقود السيارة، وكانت زوجته إلى جانبه، ومِن غرائب الصدف أن صديقه كان في مركبته خلفه، فصرخت، فنزل صديقه وحمله إلى مركبته وأخذه إلى أحد المستشفيات، وهو في العناية المشددة، قال: ائتوني بمسجلةٍ وشريط، فقال وهو يتوهَّم أنه يوشك أن يفارق الدنيا: المحل الفلاني ليس لي، هو لفلان، أنا اغتصبته اغتصاباً، والشركة الفلانية ليست لي، والأرض الفلانية ليست لي، يبدو أنه كان الأخ الأكبر، وقد أكل أموال أبيه كلها، وحرم أخوته فكانوا فقراء، ولعله عاد إلى الله وهو في هذه الأزمة الصعبة، وبعد أيامٍ لعل هذا الدم المتجمد وقد أخذ مميعات عاد سائلاً، وعاد طبيعياً كما كان قبل هذه الأزمة فقال: أين الشريط؟ أخذه وكسَّره وعاد إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر جاءته الأزمة القاضية، وكانت الأزمة الأولى إنذاراً مُبَكِّراً، وكل واحد منا له إنذارات مبكِّرة.

العقلاء والأذكياء من المؤمنين يفكِّرون في هذه الساعة التي لا بد منها :

يا أيها الأخوة الكرام، هذه الطَّامة، العقلاء والأذكياء من المؤمنين يفكِّرون في هذه الساعة التي لا بد منها، قال عز وجل:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً - من دون تطهير، أي من دون إزالة القلفة عن الحشفة - قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ! فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إذا سيق إنسان إلى المشنقة، وهو في السيارة أطلَّ من نافذتها فرأى امرأةً ترتدي ثياباً فاضحة، فهل يبالي بهذا المنظر؟ مستحيل، ذاهبٌ إلى المشنقة، الأمر أفظع من أن يعنيه منظر هذه المرأة.

ورد أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أماً رأت ابنها يوم القيامة فوقعت عينها على عينه قالت: يا بني ألم يكن لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحضني وطاءً، هل مِن حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ قال: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنما أشكو مما أنت منه تشكين "، وبكى عليه الصلاة والسلام.

هذا اليوم العظيم، يوم الطامة، وقد تأتي مصيبة ويكون لديك هموم كثيرة، فتصاب في صحتك، فتنسى كل هذه الهموم، فكيف بيوم القيامة؟ في جهنم إلى أبد الآبدين، وقد خسرت جنة رب العالمين؟ هذه هي المصيبة:

((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه]

مر النبي عليه الصلاة والسلام بقبرٍ، فقال لأصحابه:

((ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنقلون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

فما هي الدنيا؟ هناك شركات أرباحها السنوية تبلغ أربعمئة مليار دولار، وشركات أرباحها تفوق ميزانياتها ميزانيات مجموعة دول، فلو أن هذه الشركات لك، وكل هذه الأرباح لك، وكان يوم القيامة فلن تقدِّم ولن تؤخِّر شيئاً، قال تعالى:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج: 11]

يستطيع الإنسان أن يخدع كل الناس إلا رب العالمين :

أيها الأخوة الكرام:

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

الإنسان في الدنيا يدجِّل، ويكذب، وينافق، ويدَّعي ما ليس له، ويلقي على نفسه صفات الكمال، والنزاهة، وكل إنسان يتكلَّم بالفضائل والحكم، ويبيع وطنيّات للآخرين، ويزاود على الناس، ويقول: أنا لا أحد باستقامتي..

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ*وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

لك أن تخدع كل الناس لبعض الوقت، ولك أن تخدع بعضهم لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، هذا مستحيل، أما أن تخدع الله عز وجل..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

أما أن تخدع نفسك فلن تستطيع..

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

الجحيم يراها الكفار فهي مصيرهم ويراها المؤمنون لتتضاعف سعادتهم في الجنة :

ممكن بحسب القوانين النافذة لو تبرَّعت بأرضٍ لبناء مسجد أن تنظِّم هذه الأراضي وأن يرتفع سعرها، فأنت قد تقول: أنا تبرَّعت بأرض مساحتها خمس دونمات لمسجد، وقد يثني الناس عليك، ويرفعونك إلى أعلى عليين، وأحياناً يتبرَّكون بك، وأنت في نيَّتك أن التبرع بهذه الأرض للمسجد قد يرفع أسعار الأراضي التي حوله، فأنت أوَّل الرابحين، هذا يخفى على الناس، ولكن لا يخفى على الله عز وجل، فهو الذي سيحاسبك ويعلم السر وأخفى، وهو الذي سيحاسبك ويعلم النوايا، والبواعث الخفية، ويعلم كل شيءٍ عنك..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الحاقة: 18]

يا رب تعَلَّمت القرآن في سبيلك، قال: كذبت تعلمت القرآن ليقال عنك عالم وقد قيل، خذوه إلى النار، يا رب جاهدت في سبيلك؟ قال: كذبت، جاهدت ليقال كذا وكذا، وقد قيل كذا وكذا فخذوه إلى النار، أهل النار يرون إنساناً له مكانة كبيرة جداً في الدنيا، ألست فلاناً؟ يقول: نعم، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! يقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه، ابن آدم عظ نفسك فإن وعظتها فعظ غيرك وإلا فاستحْيِ مني.

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى*وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

الإنسان قد يكون ممَّن سرق من البيوت، فحينما يلقى القبض عليه، ويوضع في السجن، ويرى مَن سبقه من السارقين، وقد يُحْكَم بثلاثين عاماً، عندئذٍ يعرف كم كان أحمقاً حينما اعتدى على أموال الآخرين، هذا في الدنيا.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

قال علماء التفسير: هذه (الجحيم) يراها الكفار والمؤمنون، يراها الكفار فهي مصيرهم، ويراها المؤمنون لتتضاعف سعادتهم في الجنة، فلو أن شريكين أراد أحدهما أن يعمل في تجارةٍ محرمةٍ قانوناً، ورفض الثاني، فَفُكَّت الشركة، وسار الأول بمخططه، بعد حين ألقي القبض عليه، وأودع في السجن، فذهب شريكه ليزوره في السجن، فبماذا يشعر وهو يراه قابعاً في السجن؟ يشعر براحةٍ شديدة، قراره الحكيم أبعده عن السجن.

دخول النار شيء وورودها شيءٌ آخر :

المؤمن حينما يرى النار، دخول النار شيء، وورودها شيءٌ آخر، وإن منكم إلا واردها، المؤمن يرد النار، ولا يتأثر بوهجها، ولكن يرى مكانه فيها لو لم يكن مؤمناً، فتتضاعف سعادته في الجنة:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى*يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى*وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

فالناس فريقان:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى)

تجاوز الحد، أخذ ما ليس له، غَشَّ في بيعه، نظر إلى مَن لا تحل له، طغى، اعتدى على أعراض الناس، أو على أموالهم، أو على حياتهم، خرج عن منهج الله عز وجل، وتجاوز الحد الذي سمح الله به، وباع بربح فاحش، وحلف يميناً كاذبة، اعتدى على إنسان.

مصير من طغى وبغى نار جهنم :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى)

لماذا طغى؟ لأنه:

(وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فطغى، وخرج عن منهج الله عز وجل، فما مصيره؟ قال:

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

وبعد، فما مصير إنسان أسرف على نفسه في بعض المحرَّمات، فاستحق دخول السجون أو المستشفيات؟ نقول: هذا مكان مناسب لهذا الإنسان.

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

إنسان مريض، يتلوّى مِن الألم، أين المكان المناسب له؟ المستشفى، خذ إنساناً إلى نزهةٍ رائعة، وهو مصاب بالتهاب زائدة، وهو يصيح من الألم، هل يتأثر بجمال المناظر؟ هل يأكل طعاماً فيرتاح له؟ مستحيل، الإنسان الذي يعاني من التهاب زائدة حادٍّ مكانه الطبيعي المستشفى، وأنسب غرفة في المستشفى غرفة العمليات، وأفضل شيء يعالج به جسمه، ليس ملعقة يأكل بها، بل مشرطاً يفتح بطنه به، فالذي معه أمراض يحتاج إلى عمليات جراحية..

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى*وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

مأواه النار.

على الإنسان أن يحسب حساب الساعة التي سيقف فيها بين يدي ربه :

بالمقابل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

هذه الساعة التي يقف فيها العبد بين يدي ربه، يقول الله سبحانه لهذا العبد: لمَ فعلت كذا؟ لمَ اعتديت على عرض هذه المرأة، فجعلتها امرأةً بغيّاً وكانت امرأةً شريفة؟ لمَ اعتديت على مال هؤلاء الأيتام فنشؤوا فقراء، فقد كاد الفقر أن يكون كفراً؟ لمَ ظلمت زيداً وأكلت مال عُبيدٍ؟ لمَ أهملت أولادك فشبوا على معصية الله؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

خاف مِن فظاعة الوقوف بين يدي الله، وأن يسأله الله عن أعماله كلها، قال: تقف الفتاة يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه كان سبب انهياري.

تروي القصص أن إنساناً نشأ شارداً وله أم جاهلة، جاء ببيضةٍ قد سرقها، فأثنت عليه، فسار في طريق السرقة، إلى أن حُكِمَ عليه، طبعاً السرقات تطوَّرت إلى قتل، وحُكِم عليه بالشنق، فلما جاءه مَن يطلب منه أن يتمنى شيئاً قبل أن يشنق قال له: أريد أن أرى أمي، فجاؤوا له بأمه فقال: مدي لسانكِ كي أقبله، فمدت لسانها فقضمه بأسنانه فقطعه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي على الجرائم لما فقدت حياتي.

الإنسان بعد أن يتزوج تصبح له مسؤولية كبيرة جداً، مسؤولية تربية أولاده، وحينما يتحرَّك ينبغي أن يتحرك وفق أمر الله، ووفق سُنَّة رسول الله، ووفق منهج الله، أما هذا الذي يتحرك وفق هوى نفسه كالدَّابة المتفلّتة فمآله وخيم، مصيره الجحيم.

الإيمان هو أن تخاف مقام ربك :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

بإمكانه أن يأخذ هذا المال، أقسم لي أحد بورقةٍ كتبها لي: أعدت لورثةٍ عشرين مليون ليرة لا يعلمون عنها شيئاً، لماذا أرجعها؟ خاف مقام ربه، لماذا سيدنا يوسف قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

كم من إنسان تعرض له فتاةٌ، وبإمكانه أن يفعل معها الفاحشة فيقول: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، وكم من إنسان ترفَّع عن مالٍ حرام، وهو في أمس الحاجة إليه، حدثني أخ من أخواننا، عنده معمل ويعمل لديه مهندس، وقد وجد في أحد شوارع دمشق ثمانمئة ألف ليرة، وما زال يبحث عن صاحبها حتى وجده ونقده إيَّاها، لماذا ردَّها إلى صاحبها؟ لأنه خاف مقام ربه؟ هذا هو الإيمان، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن، لماذا تغض بصرك عن محارم الله؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا ترحم زوجتك؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا تربي أولادك؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا تعدل في الوَلَد؟ لأنك تخاف مقام ربك، " إن أحدكم ليعبد الله ستين عاماً، ثم يضارُّ في الوصية فتجب له النار "، نحن في هذه البلدة الطيبة، وهو بلد إسلامي، مئات الأسر عقيدتهم ألا يعطوا البنات شيئاً، بل يعطون الذكور فقط، فكم من إنسان يسيء في هبته ماله لأولاده، يعطي ابن الزوجة الجديدة ويدع أولاد الزوجة القديمة تملُّقاً لأمهم.

ثمن الجنة :

أيها الأخوة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

فالنفس تميل..

(فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

ما ثمن الجنة؟ حدثني أخ فقال: أنا والله لي دخل فلكي، فلدي مطعم فخم جداً يبيع الخمر، تاب إلى الله عز وجل، قال لي: فَقَلَّ الدخل للعشر، وأقل من العشر، لماذا ترك بيع الخمر؟ لأنه خاف مقام ربه، فكم مِن إنسان ترك مالاً وفيراً، ولذةً عريضة، وجاهاً كبيراً لأنه خاف مقام ربه:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

أي خاف هذه الوقفة التي سوف يقفها بين يدي ربه، لمَ فعلت كذا؟! يُروى في الحرب العالمية الثانية أن ضابطاً خان أمَّته، ولهذا البلد تقليد خاص، فلما جيء به للمحاكمة وقيل له: لمَ فعلت كذا وكذا؟ فأخذ مسدساً وأطلق على رأسه فمات، هذا جوابه، إنه موقف عصيب، خيانة عظمى..

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

إلى أبد الآبدين، لذلك فالإنسان حينما يرى مكانه في الجنة، مقامه في الجنة، يقول: لم أرَ شراً قط، كل ما في الدنيا مِن متاعب ينساها.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)

متى مرساها؟ السفينة أيان مرساها؟ أي متى تقف؟ أي متى الساعة؟!

علم الساعة عند الله وحده :

قال تعالى:

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)

أنت لا تعرف ذلك، أحد الأئمة الكبار رأى ملك الموت فسأله: كم بقي لي من عمري؟ فأشار له بخمسة أصابع، فهذا تشوَّش، يا ترى خمس سنوات، أم خمسة شهور، أم خمسة أيام، أم خمسُ ساعات، أم خمس دقائق؟ فسأل أحد العلماء الذين اشتهروا بتفسير المنامات، فقال: يقول لك ملك الموت إن هذا السؤال أحدُ خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)

أنت لا تعرف متى:

(إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)

لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو، ولا يعلم متى الساعة إلا هو؟ لكن تجد سؤالاً فيه ترف، كما سأل أحدُ الأعراب النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ))

[متفق عليه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

بدل أن تسأل متى الساعة، اسأل نفسك ماذا أعددت لها؟

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)

هؤلاء:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)

[سورة البقرة:10]

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة:171]

الدنيا ساعة وأمر الله لا بد وأن يأتي كلمح البصر :

قال تعالى:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا* كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

كل واحد منكم وأنا معكم، كيف مضى عمره؟ والله كلمح البصر، يقول لك: البارحة كنا في الابتدائي نلبس ما يُعرف بالصدرية، الآن عنده ثمانية أولاد، فكيف مضى هذا العمر الطويل؟ مضى كلمح البصر، الدنيا ساعة:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

لذلك فإذا جاءت الطَّامة، ولا بد أن تأتي، والزمن المتبقي لمجيئها ينقضي كلمح البصر، هذا معنى قوله تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

[سورة النحل: 1]

أتى وانتهى، ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معناها لم يأتِ، فما معنى هذه الآية؟ ربنا عز وجل لحكمةٍ يريدها يعبِّر عن المستقبل بصيغة الماضي، لأن هذا اليوم لا بد أن يأتي، وكأنه أتى، فإذا ركب شخصٌ مركبة - لا سمح الله ولا قدَّر - والطريق شديد الانحدار، وينتهي بمنعطفٍ حاد، ثم اكتشف أن مكابح السيارة لا تعمل، ماذا يقول: هلكنا، متنا، لم يمت بعد، بقيت دقيقتان، لا، فالمصير محتوم بالمئة مليون، فكل إنسان حينما يوقن أنّه إلى هلاك يستعمل الفعل الماضي، فلذلك:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

لا بد أن يأتي، وقد يأتي كلمح البصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة عبس 080 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين مقام الألوهية ومقام الرسالة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة عبس، والآيات الأولى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى*أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى*وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)

[سورة عبس:-10]

لا بدَّ قبل شرح هذه الآيات مِن مقدّمة، هناك مقام الألوهية، وهناك مقام الرسالة، فلا بد أن يكون هناك فرقٌ واضحٌ بين المقامين، لئلا تختلط الأمور، فيؤلَّه النبي عليه الصلاة والسلام، فلا بدَّ من تمايز مقام الألوهية عن مقام النبوّة، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ من أن يخطئ؛ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، فلا في أفعاله خطأ، ولا في أقواله خطأ، ولا في إقراره خطأ، والإنسان الوحيد الذي يعدُّ كلامه تشريعاً، وإقراره تشريعاً، وأفعاله تشريعاً، هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد عصمه الله عزَّ وجل مِن أن يخطئ، وأمرنا أن نأخذ منه، وأن ننتهي عما عنه نهانا، فقال تعالى:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

فكلامه تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، ولكن لئلا يختلط مقام النبوة والرسالة مع مقام الألوهية سُمِح للنبي عليه الصلاة والسلام بهامشٍ اجتهادي ضيقٍ جداً، يجتهد فيه؛ فإن أصاب أصاب، وإن اجتهد خلاف الأوْلى جاء الوحي فصحح له، ولماذا سُمِحَ له بجانبٍ اجتهادي؟ ليكون هناك فرقٌ بين مقام الإله ومقام النبيّ، ولئلا يُعْبَد النبي مِن دون الله.

تُرك للنبي هامشٌ اجتهاديٌ ضيِّقٌ ليكون فارقاً بين مقام النبوة ومقام الألوهية :

1 ـ لأنه لا معصية من دون تكليف :

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى هي أنه لا معصية من دون تكليف، لهذا المسجد أبوابٌ ثلاثة، ليس هناك باب مسموح الخروج منه وباب ممنوع، لو وُضِعتْ لوحة ممنوع وأخرى مسموح وخرج إنسان من الممنوع لكان عاصياً، فالحقيقة الأولى: لا معصية من دون تكليف.

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه أحد زعماء قريش، والشيء المألوف، والمعروف، والطبيعي، والمنطقي أن هذا إذا أسلم أسلم معه خَلَقٌ كثير، الناس متبوعون وأتباع، المتبوعون يتبعون الأعلام دائماً، فكل إنسان إذا سعى لهداية إنسانٍ متبوعٍ، فكل أتباعه سوف يقلّدونه، فحرْصُ النبي عليه الصلاة والسلام على هداية هذا الإنسان حرصٌ كبير، وهذا موقفٌ طبيعي، وصحيح، ومألوف، ومنطقي، وواقعي.

بربكم، لو أن أحداً مِن الأخوة الدعاة خُيِّرَ بين أن يلتقي برجلين؛ رجلٍ محبٍ، مستقيمٍ، تائبٍ، عابدٍ، سائحٍ، ورجلٍ منكرٍ، معترضٍ، مُعاندٍ، أيهما أهون عليك: أن تلتقي مع محبٍ، مع خاضعٍ، مع مؤمنٍ مستسلمٍ، أم مع منكرٍ، معاندٍ، فظٍ، غليظ؟ الأهون أن تلتقي مع إنسان مؤمن، والجلسة عندئذ مُريحة جداً. والنبي اجتهد لا لراحته، ولا لصالحه، ولكن لصالح الدعوة، فاختار الأصعب، واختار الأقوى، واختار الأشد، اختار الإنسان المتعِب، فكان مهتماً بهذا الإنسان، فجاءه أحد أصحابه الكرام، ابن أم مكتوم، وكان كفيف البصر، وقال: يا محمد يا محمد، والنبي عليه الصلاة والسلام انزعج منه، وأعرض عنه، وتغيَّر لون وجهه.

تماماً كما لو أن أستاذاً كبيراً في الرياضيات عنده ضيفٌ كبير، وهو حريصٌ على هدايته حرصاً لا حدود له، وهو منهمكٌ في المناقشة، دخل ابنه وقال له: يا أبتِ دلّني على حل هذه المسألة، فماذا يقول له؟ الآن اخرج، أنا لك دائماً، وكل وقتي لك، أمّا الآن فدعني، دعني وهذا الإنسان، هذا الذي حصل. لذلك قال بعض العلماء: إنّ الله عزَّ وجل عتب للنبي ولم يعتب عليه، وفرقٌ كبير بين أن تعتب له، وأن تعتب عليه، فلو دخلت الأم على غرفة ابنها، فرأته يدرس حتى الساعة الثانية فجراً، قد تصيح به: إن لجسمك عليك حقاً يا بني، قم إلى الفراش واسترح قليلاً، إنها الآن غاضبة، أفغاضبةٌ له أم عليه؟ له، فقال العلماء: إن الله عتب على النبي لأنه حمَّل نفسه فوق طاقته، لأنه اختار الأصعب، اختار الإنسان الأصعب، والأقسى، والمُعاند، والكافر.

2 ـ لأن النبي عليه الصلاة والسلام اختار الأصعب فقد عَتِبَ الله له ولم يعتب عليه :

الله عزَّ وجل وَصَفه فقال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

هذا وصف، وليس هذا تقييماً، أنا أقول لكم: فلان خرج، أما إذا قلت: بئس ما فعل، فأنا أُقيِّم، فأنا عندئذٍ أقيِّم، لو أنني قلت: خرج أو دخل، فهذا وصف، أما إن قلت: بئس ما فعل، نعم ما فعل، صار تقييماً، فالله عزَّ وجل قال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

الذي اجتهد فاختار المركب الصعب، لكن الوحي لفت نظره إلى أن هذا الذي تراه كبيراً، هذا الذي تراه قويّاً وتراه مَتْبوعاً، هذا الذي تعلّق آمالاً على هدايته، لعلم اللهِ فيه لا تضيِّع وقتك معه. الإنسان قد يجتهد، وقد يكتشف خطأ اجتهاده، قد يجتهد وقد يعلم أن اجتهاده لم يكن في محلّه، فالنبي عليه الصلاة والسلام لأنه ليس هناك تكليف، إذاً ليس هناك معصية، لا معصية مِن دون تكليف، ولأنه اختار الأصعب فقد عَتِبَ الله له ولم يعتب عليه.

3 ـ الوحي مستقلٌ عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام:

النقطة الثالثة هي أن الوحي شيءٌ مستقلٌ عن كيان النبي، لا يملك جلبه، ولا دفعه، ولا بيانه، ولا إخفاءه، كمثَلِ إنسان قابل شخصاً، وفي أثناء المقابلة تكلّم معه كلاماً قاسياً، فلو عاد هذا الإنسان إلى بيته، بماذا يحدِّث أولاده وأهله؟ بإمكانه أن يخفي الكلمات القاسية من هذا الذي قابله، ومعظم الناس يفعلون هذا، وقد يتكلّمون العكس، كنت قويّاً، وكنت جريئاً، لأنه ليس هناك من يكذّبه، فيتكلم كلاماً كما يحلو له، ولكن الإنسان من عادته أنْ يخفي النواحي السلبية، ويظهر الإيجابيات.

فالنبي عليه الصلاة والسلام أمينُ وحي السماء، فلا يمكن أن يخفي شيئاً جاءه بالوحي، وهذه الآية بالمقياس البشري ليست لصالح النبي، فكأن الله يعاتبه، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصطنع الوحي ويفتعله لما ذكر هذه الآية، ولأن الوحي شيءٌ مستقلٌ عن كيان النبي فلا يملك له جلباً، ولا دفعاً، لذلك جاءت هذه الآيات.

هناك شاهدٌ آخر يؤيده وهو أن الله عزّ وجل حينما سمح أن يذاع حديث الإفك بين الناس، وأن يرجف المرجفون في المدينة أن السيدة عائشة ارتكبت الفاحشة مع فلانٍ من الناس، وأن هذا الخبر شاع، وسار في المدينة كالنار في الهشيم، وأن النبي عليه الصلاة والسلام تألم ألماً لا حدود له، والنبي يعرف أن امرأته طاهرة، ولكن ليس معه دليل إثبات، ولا دليل نفي، ولحكمةٍ بالغة بالغةٍ بالغة تأخّر الوحي أربعين

يوماً، وهو في حيرةٍ مِن أمره، ولو أن الوحي مِن فعل النبي لقال بعد دقيقة، أو بعد ساعة، لقال آيةً برَّأ فيها زوجته، لكنْ هذا لم يحدث، ليعلم الناس أن هذا الدين أصله وحي السماء، أي أن الإله أنزل على هذا النبي قرآناً عن طريق الوحي، فنحن ديننا أساسه الوحي، فإيمان المؤمن بالوحي مهمٌ جداً، فهذا الوحي لا يملك النبيُّ له جلباً ولا دفعاً ولا توقيتاً، لذلك جاء في الوحي عتابٌ للنبي، وجاء في الوحي تبرئةٌ للسيدة عائشة، ولكن بعد مضيِّ أربعين يوماً، إذاً فالوحي مستقلٌ عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام.

إذاً تُرك للنبي عليه الصلاة والسلام هامشٌ اجتهاديٌّ ضيِّقٌ، ليكون هذا الهامش فارقاً بين مقام النبوة ومقام الألوهيَّة.

مرَّةً ـ والشيء بالشيء يذكر ـ في موقعة بدر اختار النبي موقعاً لتمركز أصحابه في المعركة، ولحكمةٍ بالغة بالغةٍ بالغة حَجَبَ الله عنه الموقع المناسب، حَجَبَهُ عنه وَحْياً، وحَجَبَهُ عنه إلهاماً، وحَجَبَهُ عنه اجتهاداً، وهناك موضوعاتٌ أقلُّ مِن هذا الموضوع بكثيرٍ جاءه الوحيُ فيها، أما هذا الموضوع فقد حُجِبِ عنه الوحي فيه، وحُجِبِ عنه الإلهام والاجتهاد، فاختار النبي موقعاً، فجاءه صحابيٌّ جليل، يكاد يذوب أدباً مع رسول الله وقال: يا رسول الله أهذا المكان وحيٌ أوحاه الله إليك؟ أي إذا كان وحياً أوحاه الله إليك ولا كلمة، أمّا أنّ هذا المكان رأيٌ ومشورة، هكذا سأل النبي. فقال عليه الصلاة والسلام: لا، إنه الرأي والمشورة. قال: يا رسول الله هذا ليس بموقع. بكل جُرْأة، وبكل أدب، فالنبي علّمنا كيف يكون أدب الإصغاء إلى الناصح، فلولا أن الله حجب عنه الموقع المناسب إلهاماً ووحياً واجتهاداً لما شرَّع لنا هذا الكمال؛ كمال أن تصغيَ إلى الناصح، كمال أن يكون للناصح فضلٌ عليك، فالحقيقة أنه ما مِن أحدٍ أكبر مِن أن يُنْقَد، وما مِن أحدٍ أصغر مِن أن يُنْقَد، علمنا النبي عليه الصلاة والسلام التواضع، وعلمنا الإصغاء للناصح، قال له: لا بل هو الرأي والمشورة. فقال: يا رسول الله هذا ليس بموقع، وعلّل السبب. فقال: جزاك الله خيراً، وأمر أصحابه أن ينتقلوا إلى الموقع المناسب.

نسيان النبي موَظَّفٌ في التشريع :

يقول الله عزَّ وجل:

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)

[سورة طه: 52]

إنّ الله لا ينسى، لكن النبي بشر ينسى كما ينسى البشر، ولكن نسيان النبي موَظَّفٌ في التشريع، فقد صلَّى الظهر يوماً ركعتين:

((صلّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعَشِيِّ الظُّهْرَ أو الْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَةٍ فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ، فَقَالُوا: أَقَصُرَتْ الصَّلَاةُ؟ وَرَجُلٌ يَدْعُوهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتْ؟ فَقَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ، قَالَ: بَلَى قَدْ نَسِيتَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَكَبَّرَ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَكَبَّرَ فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

النبي علَّم أصحابه على الجُرْأة وعلى الصدق لا على النفاق، فسأل أصحابه، وهنا استنبط علماء الحديث التواتر، فإذا بأصحابه الكرام يقولون: بل صلينا ركعتين يا رسول الله، فورد عنه أنه قال: إنما نسِّيت كي أسن.

إنّ الله عزَّ وجل وظَّف نسيانه في حكمٍ شرعي، وهو سجود السهو، ولولا أن النبي نسي فصلى الظهر ركعتين، لما سنَّ لنا سجود السهو.

إذاً هناك جانبٌ اجتهادي ضيقٌ جداً تُرِكَ للنبي، فإن أصاب في اجتهاده أصاب، وإن لم يُصِب وتَرَك الأوْلى، أو اتّجه اتجاهاً أصعب، يأتِ الوحي ليلفت نظره ويصحح اجتهاده، أما في النهاية فالنبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ مِن أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وقد أمرنا أن نطيعه استقلالاً، دون أن تعرض كلامه على القرآن.

أوامر العلماء والأمراء يجب أن تتوافق مع كلام النبي حتى تُطاع :

قال تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء: 59]

أولو الأمر هم العلماء والأمراء، أوامر العلماء والأمراء يجب أن تعرضها على كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فإن وافقتها فعلى العين والرأس، وإن لم توافقها فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وهذا منهج النبي عليه الصلاة والسلام:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

دخل صحابيٌ على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: أهلاً بمَن خبّرني جبريل بقدومه. قال: أوَ مثلي؟ قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء، وقد يكون الواحد منكم في الأرض في درجة دنيا اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو علمياً، وهو عند الله في درجةٍ عُليا، أمّا هؤلاء الذين نافقوا وكذبوا على الله وعلى الناس:

(فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[سورة الكهف: 105]

هم صَغارٌ عند الله:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

لعلَّ هذا الذي أعرضت عنه خيرٌ ألف مرَّة مِن الذي أقْبَلت عليه، وهذا درسٌ لنا ولسائر المسلمين، إنسان فقير طرق بابك، لعل الخير كله في هذا الإنسان، وإنسان كبير هو معرضٌ عنك، وأنت مقبلٌ عليه، فهذا الذي أقبل عليك يجب أن تضعه في قلبك، لا تدري أين الخير؟ قال له:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)

اللهُ عزَّ وجل يربي الأمة بعظيمها :

طبعاً المؤمن الداعية أديب مع الله، يستقبل كل الناس، ويَبَشُّ لكل الناس، ويرحِّب بكل الناس، ولا يفرِّق بين واحدٍ وواحد، فلعل الخير كله في أناسٍ لا تظنّهم أهلاً لدعوتك، وقد يخيب ظنك بأناسٍ تظنهم أهلاً لدعوتك، وهذا درسٌ علّمنا إياه ربنا جلَّ جلاله عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، واللهُ عزَّ وجل يربي الأمة بعظيمها.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

هو، ألا يتقي الله؟ فإذا قلت للمجتهد: اجتهد، أي: ثابر على اجتهادك.

((لا أمثِّل بهم فيمثِّلَ اللهُ بي ولو كنتُ نبياً))

[كنز العمال عن عائشة]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى)

فالله عزَّ وجل قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

وهذه واضحة..

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 8-10]

استغنى عن طاعة الله، استغنى عن درس العلم، استغنى عن معرفة الله، مشغول بدنياه، غارقٌ في ملذّاته، مقبورٌ في شهواته، هذا استغنى عن الحق فلا يعبأ لا بدرس علم، ولا بتفسير آية، ولا بحكم فقهي، ولا بسيرة صحابي، يعنيه الدِرهم والدينار، وتعس عبد الدرهم والدينار، وتعس عبد البطن، وتعس عبد الفرج، وتعس عبد الخميصة.

إن أردت الحقيقة فأقل شيءٍ في الدنيا يدلك عليها :

أما من استغنى، أي أن المعرض لو التقى بالأنبياء جميعاً، ولو صعد إلى السماء فيرى كل شيء، ولو رأى ما بعد الموت، فلن يؤمن، والذي أراد الحقيقة دلّتهُ بعرةٌ عليها، البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدلُّ على الغدير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ فإن أردت الحقيقة فأقل شيءٍ في الدنيا يدلك عليها، وإن لم تردها، لو كنت أكبر موظف في وكالة (ناسا) الفضائية، وترى كل يوم صور المجرات مما يذهل العقول ويبهرها فلن تؤمن. فالإنسان الذي لا يريد الحقيقة، وكان ذكياً جداً، مثله كمثل آلة تصوير غالية جداً، ولكن ليس فيها فيلم، فكل هذه المناظر التي تلتقطها لا تُطْبَع فيها، والإنسان الصادق، ولو كان متواضعاً في ثقافته، أو في اطلاعه، مثله كمثل آلةٍ فيها فيلم، أيّ منظرٍ يطبعه عليها، إن أردت الحقيقة كل شيءٍ يدلُّك عليها، وإن لمْ تردها لو التقيت مع الأنبياء جميعاً، ورأيت كل المعجزات، وصعدت إلى السماء فلن تؤمن، فالقضية قضية اختيار وقرار داخلي..

(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)

أيضاً هذا وصْفٌ للنبي بأنه حريصٌ على هداية الخلق، فإذا التقى بقويٍ أو بزعيمٍ، فإذا اهتدى لعل مَن تبعه يهتدي، لكن الله عزَّ وجل لفت نظره إلى أن هذا لا خير فيه.

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)

لا يستطيع أحد أن يهدي إنساناً لم يرد الهُدى :

يقول الله عزَّ وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

والله تعالى يقول:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

أي أنك لا تستطيع أن تهدي إنساناً ما أراد الهُدى، ثم إنك لست مسؤولاً عن هذا الذي لم يهتدِ:

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)

[سورة الرعد: 40]

أما دعوتك فإنها حق..

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

دعوتك حق، ولكن لأن الإنسان مخيَّر، وهو حرٌ طليق، فليس بإمكانك يا محمد أن تجبر أحداً على الهدى.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

توجيه الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

لست مسؤولاً..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

لن تسأل عن عدم هدايتهم، ولن تستطيع أن تهدي مَن لم يُرد الهدى، أما أنت في دعوتك فعلى الحق المبين..

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى*كَلَّا)

هذا هو توجيه الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام..

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

الدين مودعٌ في أصل فطرة الإنسان :

دقق في معنى تذكرة، أيْ: شيءٌ يذكّرك بشيء، ومعنى هذا أن الشيء السابق مرئيٌ مِن قِبَلك، فأنت إن ذهبت إلى بلد، وبعد حين أطلعك أحدٌ على صورةٍ لهذا البلد، فتقول: نعم واللهِ أعرفه، هذه الصورة تذكرة؛ تذكّرك بمشاهدتك لها سابقاً، والدين مودعٌ في أصل فطرة الإنسان، فأنت مبرمجٌ، ومفطورٌ،

ومجبولٌ على حقائق الدين ومنهجه، فإن عرفت اللهَ، وطبّقت منهجه ارتاحت نفسك، واطمأن قلبك، وسعدت في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

هكذا صُمِّمت، فأنت تحب العفّة، وأمَرَك اللهُ أن تكون عفيفاً، ففطرتك تطابق تكليفك، تحب الصدق، وأمَرَك الله أن تكون صادقاً، تحب الإنصاف، وأمَرَك الله أن تكون منصفاً، فتطابق أوامر الله مع فطرة الإنسان تطابقٌ تام، لذلك قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

[سورة الروم: 30]

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هو الشيء نفسه الذي فُطِرْتَ عليه، وهذا تطابق تام، لذلك الإنسان لا يرتاح، ولا يطمئن، ولا ينام قرير العين إلا إذا أطاع الله عزَّ وجل، وعرف سرَّ وجوده، وغاية وجوده.

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ*فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)

آيات الاختيار :

الإنسان مخيَّر..

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

(آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

[سورة الكهف:13]

هذه آيات الاختيار:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

أنت عليك أن تُبيّن، والإنسان حُرٌّ في أن يستجيب أو لا يستجيب، لأنه مخيَّر، أنت عليك أن تبيِّن، وأن توضِّح، وأن تأتي بالأدلة، وأن تأتي بالبراهين، وأن يكون كلامك منطقياً، فالإنسان إن لم يستجب فهذه مشكلته، وليست مشكلة مَن يدعوه إلى الله عزَّ وجل.

النبي لا ينطق عن الهوى مع أن معظم كلام الناس ينطق عن الهوى :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ*فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ* فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ* كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

أي أن هذا الوحي الذي جاء:

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مكرمة عن الخطأ، وعن الدَلَس، وعن المصالح، طبعاً كل كلام الإنسان ينطق عن الهوى أو لا ينطق، أمّا النبي عليه الصلاة والسلام فلا ينطق عن الهوى، مع أن معظم كلام الناس ينطق عن الهوى، والإنسان يبيع بضاعة، فمن دون أن يشعر يثني عليها ثناءً لا حدود له، هذا كلامٌ ينطلق مِن الهوى، أذكر لكم طرفة: ذات مرة دخلت إلى بائع ستائر، فألقى عليَّ محاضرة قال لي: كلما كانت الأطوال أكثر يكون أجمل، قلت له: كم تعني؟ قال: الحائط كم طوله؟ قلت له: ستة أمتار، قال لي: ثلاثة مع ثلاثة زائد واحد يبدو المنظر حينئذ جميلاً، محاضرة، هذا كلام منطقي، اخترت ثوباً، فبقياسه ظهر أنه خمسة، ثلاثة، مع اثنين، فقال لي: هذا المطرز مع الفرد أجمل يا أستاذ، أجمل بكثير، رأساً عكس الفكرة، إذاً هو ينطق عن الهوى، فلما وجد أنني تعلّقت بهذا الثوب - أحببته - وجاء طوله أقل بمتر من الضعف، فأعطى قاعدة ثانية، وقال: هذا المطرز على الفرد أجمل يا أستاذ بكثير، قلت له: مقبول، إذاً هو ينطق عن الهوى، وأكثر كلام الناس في علاقاتهم ينطقون عن الهوى.

كمال الله مطلق وكلامه مطلقٌ في كماله :

هذا الوحي من السماء:

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مكرمة أن يكون فيها مصلحة:

(مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

ملائكة..

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

هذا الكتاب لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، مكرمٌ عن أن يكون فيه مصلحة، أو هوى، أو خطأ، كلامٌ هو كلام رب العالمين، وكمال الله مطلق، وكلامه مطلقٌ في كماله. صحفٍ مكرمة عن كل زيف، عن كل عَيْب، عن كل خطأ، عن كل سطحيِّة..

(مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مِن كل ما يشوبها:

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

ملائكة كرام:

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ* قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

حيثما وردت كلمة (الإنسان) معرَّفةً بأل في القرآن فهو الإنسان قبل أن يؤمن :

بالمناسبة: حيثما وردت كلمة (الإنسان) معرَّفة " بأل " في القرآن فهو الإنسان قبل أن يؤمن..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار: 6]

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج: 19-20]

ورد في القرآن " فطرة" وورد "صبغة"، وكل مولودٍ يولد على الفطرة، لكن الذي اتصل بالله عزَّ وجل، يصطبغ قلبه بكمال الله عزَّ وجل، فكلمة الإنسان إن وردت في القرآن معرفة " بأل " فهو الإنسان قبل أن يؤمن، فهذا "الإنسان" إن لم يؤمن قُتِلَ، لُعِنً، وأهلك نفسه في الدنيا والآخرة:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

ما الذي حمله على أن يكفر؟ ألأنَ الله أوجده من عدم؟ ألأنّ الله كرَّمه؟

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

إعجاز الله في خلق الإنسان :

لماذا هو يكفر؟ ألأن الله تعالى قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

ألأنه خلقه، وألقى حُبَّه في قلب أمه وأبيه؟ ألأنه خلقه وشق سمعه وبصره؟! ما الذي حمله على أن يكفر، ألأن الله أوجده؟ ألأن الله خلقه في أحسن تقويم؟ ألأن الله أنعم عليه بنعمه الظاهرة والباطنة؟ ما الذي حمله على أن يكفر؟!!

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ)

أي أنّ الهيكل العظمي يضم عظمَ عُنق الفخذ، يتحمَّل ضغطَ مئتين وخمسين كيلواً، والعظم الثاني كذلك، أي أن الإنسان يمكنه أن يتحمل حِملاً يبلغ نصف الطن، ولكن هذا العظم ما أصله؟ ماءٌ مَهين، كيف أصبح الماء عنصراً متيناً، قوياً، كيف؟ كيف أصبح ميناء الأسنان ثاني أقسى عنصر في الكون بعد الماس؟ فمن أين جاءت هذه القساوة؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين:4]

ألأن في العين مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط؟ بكل واحد منا في شبكية العين لديه مخاريط وعصيات، واحدة منها للون الأبيض والأسود والثانية للألوان، مئة وثلاثون مليون مِن أجل صورةٍ دقيقةٍ جداً، من أجل أن تفرِّق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة للون الواحد، إذاً فاللون الأخضر درَّجته ثمانمئة ألف درجة، فالعين البشرية السليمة تفرِّق بين درجتين.

مِن أجل أن تشم كل الروائح، وأن ترى كل الصور والمرئيات، وأن تسمع أدقَّ الأصوات، وأن تمشي، فوازن بين كُليةٍ طبيعيةٍ وكذلك كليةٍ صناعية، ما أبعد الفرق بينهما؟ وبين آلة للتصوير وبين عين الإنسان.

الإتقان والدقة في خلقه سبحانه :

قال تعالى:

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ)

هل من المعقول أنّ نقطة ماء تصبح بعد تسعة أشهر طفلاً له جمجمة، دماغ، عين، حواجب، أجفان، رموش، قَرْنية، قزحية، جسم بلوري، خلط مائي، خلط زجاجي، أعصاب، شبكية، عصب بصري؛ ثمانمئة ألف عصب بغمد واحد، أمعقول هذا؟! معدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة، أمعاء دقيقة، عمر الخلية في الأمعاء ثمانٍ وأربعون ساعة، هذا شيء لا يصدق، كل واحد منا تتجدد زُغابات أمعائه كل ثمان وأربعين ساعة مرة، أقصر عمر خلية بالإنسان زغابات الأمعاء؛ ثمان وأربعون ساعة، وأطول عمر خمس سنوات، والإنسان يتجدد كلياً كل خمس سنوات، كلياً ما عدا دماغه وقلبه، لو تجدد دماغه، فيا لطيف، تجده يقول: والله كنت طبيباً، وقد مُحيت كل المعلومات من دماغه:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

لو كان بالتصنيع خطأ، وكان بالشعر أعصاب حس، ماذا تفعل؟ تحتاج لأن تذهب إلى المستشفى لتحلق، تخدَّر كاملاً لتحلق، وكانت أعصاب حس بالأظافر والشعر، لصرتَ كالوحش، أو تجري عملية جراحية فتخدر لكي تحلق، ولولا هذه المفاصل لأكل الإنسان كما تأكل القطّة، يضع الصحن على الأرض وينبطح، ويلعق بلسانه، ليس هناك طريقة ثانية.

(مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

عظام، وأعصاب، ولو أن هذه المثانة غير موجودة، فقط الكليتان والحالبان، لسال البول إلى الخارج مباشرةً، لا توجد مثانة، كل عشرين ثانية تخرج نقطتا بول، يحتاج إلى فوط صحية ماركة " الرجل السعيد "، لكن الله عزَّ وجل خلق لك مثانة، تبقى خمس أو ست ساعات وأنت بكامل راحتك، نظيف، مهفهف، مُعَطَّر.

آيات قرآنية تؤكد دقة خلق الإنسان :

قال تعالى:

(مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطفَةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَهُ)

(ألَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)

[سورة البلد: 8-9]

كل حرفٍ تنطق به؛ تسهم في صنعه سبعة عشرَ عضلة، فخلال ساعة كم كلمة تكلمت، وكم عضلة تحركت؟

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 10]

كل قال ابن عباس: الثديان، غذاء بارد في الصيف، دافئ في الشتاء، مُعَقَّم، فيه مناعة الأم، سهل الهضم، جاهز فوري..

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

[سورة البلد: 10-11]

كل ماذا ينتظر؟

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أكْفَرَهُ*مِنْ أيِّ شَيْءٍ* خَلَقَهُ مِنْ نُطفَةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

آلية الولادة :

كيف يكون هذا الطفل داخل الرحم، الذي حجمه يبلغ سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعباً، سوف يخرج؟ ولو قرأتم عن آلية الولادة لخشع قلبُكم، واقشعرَّ جلدكم، قال العلماء: أمر هرموني يأتي إلى عظم الحوض فيتَّسع، أمر هرموني ثانٍ يأتي إلى الطفل الجنين فينقلب، أمر هرموني ثالث.. هذا الرحم يتقلّص قبل الولادة تقلُّصاً لطيفاً، مُتَزَامناً، مبرمجاً، تقول لها القابلة: أنتِ لم يحِنْ وقت ولادتك، بعد خمس ساعات ستلدين، تقيس المسافة الزمنية بين التقلُّصين، ومِنها تعرف متى ستكون الولادة، فالرحم ينقبض انقباضاً لطيفاً، لأنه لو انقبض انقباضاً عنيفاً لقتل الطفل، فإذا خرج الطفل ينقبض انقباضاً شديداً جداً، فالرحم كالصخر، لأنه الآن مئة ألف شريان كانت فيه وانقطعت، فإذا انقبض انقباضاً شديداً أغلق كل الشرايين، ولو أن الانقباض كان قاسياً قبل الولادة وليِّناً بعدها لماتت الأم وطفلها، فإنْ كان قبل الولادة عنيفاً أمات الطفل، وإنْ كان بعد الولادة رخواً أمات الأم مِن النزيف:

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

يولد، فيفرحون، الحمد لله على سلامتك، ولو كان عنده ثقب مفتوح لاحتجتَ إلى مئتين وخمسين ألف ليرة لإجراء العملية، ثقب بوتال لو بقي مفتوحاً للزم إجراء عملية، فبين الأذينين هناك ثقب مفتوح لو لم يُغلق في أثناء الولادة لاحتجتَ إلى ربع مليون ليرة، ويصبح لون الطفل أزرق، وإذا لم يجروا له عملية يموت أمّا وهو سليم، رضع من ثدي أمه، وقد فرح الجميعُ، ثم ظهرتْ أسنانه ففرحوا، ثم قال: بابا، فطار عقل أبيه، بعد هذا دخل الحضانة، فقرأ الفاتحة، الأسرة كلها اختلَّ توازنها لأنه قرأ الفاتحة مثلاً، بعد هذا ذهب إلى المدرسة، وبعدها أخذ ابتدائية، وإعدادية، ثم الثانوية، وبعدها أخذ بكالوريا، وبعدها يريد أن يشتغل، فتوَمِّن له عملاً، ثم يريد أن يتزوج، فتزوج، ثم جاءه أولاد، ثم تقدم في السن، فزوّج أولاده، وزوّج بناته، ثم بدأت متاعبه الصحية، حتى صار عنده كيس أدوية:

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)

هذه رحلة لا بدَّ منها، وكل واحد يقف على المحطة الآن، وهذا القطار مِن البداية إلى النهاية، تجد أحدهم نزل من القطار في المحطة الوسطى وهذا بالرابعة، والآخر بالخامسة.

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ*كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

إلى الآن لم تتب إلى الله عزَّ وجل؟ إلى الآن لم تستقم؟ إلى الآن لم تصطلح مع الله عزَّ وجل؟!

إلى متى وأنت باللذات مشـغولٌ وأنت عن كل ما قدَّمت مسؤولُ

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لـعمري في المقام شنيـعُ

لـو كان حـبـك صادقاً لأطعته   إن المـحب لمن يحب يــطيعُ

***

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة عبس 080 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 24-42

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

كل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة عَبَسَ، ومع الآية الرابعة والعشرين، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

أولاً: اللام هنا لام الأمر، وكل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، وفي القرآن أمر تهديد، كقوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

وأما قوله تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

[سورة البقرة: 187]

فهذا أمر إباحة، لكن قوله تعالى في الآية التالية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور: 132]

فهذا أمر ندب، إلاّ أن تكون ثمة قرينة دالة على الوجوب.

الآية التالية مِن فقرات المنهج التفصيلي :

هنا الآية:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

المشكلة، بل هي أكبر مشكلة، أن هذا الدين العظيم، وهذا المنهج القويم، اخْتُزِلَ إلى خمس عباداتٍ شعائرية، بينما منهج الله عز وجل فيه مئات بل ألوف الأوامر والنواهي، هي منهج تفصيلي، مِن فقرات المنهج التفصيلي هذه الآية:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

تأكل في اليوم ثلاث وجبات، هل فكَّرت في الدقيق؟ هل فكرت في القمح؟ هل فكرت في الخُضراوات والفواكه؟ هل فكرت في كأس الماء؟ هل فكرت في نظام هذه المخلوقات؟ كيف تعرف الله من دون أن تتأمل في خلقه؟

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

فالإنسان إذا نظر إلى طعامه، المحاصيل والحبوب تنضج في يومٍ واحد، بينما الخُضار والفواكه تنضج في مدةٍ طويلة، قد تزيد على ثلاثة أشهر، لو أن الآية عُكِسَت فماذا يحصل؟ أيمكن أن نحصد القمح فنمسك كل يوم كل سنبلة على حدة نضجت أم لم تنضج؟ أما هذا البطيخ ينبغي أن تأكله طوال الصيف، إذاً ينبغي أن ينضج بالتدريج، فهذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته. لكن كيف يعرف من يريد قطع هذه الثمرة أنها نضجت؟ اللون كله أخضر، هل يمكن أن يفتح ما في داخلها؟ إنْ فعَل فلن تُبَاع معه، هناك خيطٌ في أعلاها إذا كان يابساً فقد نضجت، إذا انكسر بيده فالبطيخة ناضجة، إن لم ينكسر فالبطيخة لم تنضج بعد، هذه علامة من علامات نضج هذه الفاكهة.

منهج طعامنا طريقٌ إلى الله :

الإنسان إذا فكر فيما يأكل فقط يصل إلى الله، في القمح، القمح خمسة وأربعون ألف نوع، والقمح هو الغذاء الأول، وهو الغذاء الكامل، وهو الغذاء الطبيعي، ونحن الآن قلبنا هذا الهَرَم، كان طعامنا قبلاً حبوباً وخضاراً، وفواكه ولحوماً، لو كان لدينا هرم أو مثلث، نجد أن أكبر مساحة للحبوب، ثاني مساحة للخضار والفواكه، أصغر مساحة للحوم، حينما قُلِب هذا الهرم أو هذا المثلث نشأت أمراضٌ لا تعد ولا تحصى، فهذا القمح غذاء أساسي، الشعير، العدس، الحمص، هذه كلها حبوب تسمى في علم الزراعة محاصيل، تنضج في يوم واحد، وتخزَّن، ويمكن أن تكون غذاء استراتيجياً إن صح التعبير.

بينما الخضار والفواكه تنضج على فترةٍ طويلة، أكثر الخضار تأكلها طوال الصيف، لأنه على مدى أشهر الصيف تنضج هذه الخضار بالتدريج، وكذلك الفواكه، ولدينا شيء آخر: هذه الخضار وتلك الفواكه مبرمجة فيما بينها، فنحن فيما تعرفون نبدأ بقطف الكرز، ثم المشمش، ثم الإجاص، ثم التفاح، بالتسلسل، لو أن هذه الأنواع تنضج دفعةً واحدة لما استفدنا منها، فهي فيما بينها مُبَرْمَجة بتدبير الله سبحانه، والنوع الواحد مبرمج كذلك، وكل نوع من الفاكهة يضم من ثلاثمئة إلى خمسمئة نوع فرعي، فهذه الفاكهة حامضة، هذه سكرية، هذه تؤكل سريعاً، هذه تُشْحَن، هذه للتصدير، أنواع لا يعلمها إلا الله، كل هذا تودداً لهذا الإنسان، ألا ينبغي لهذا الإنسان أن يخطب ود الله عز وجل؟!

فمنهج طعامك طريقٌ إلى الله، والإنسان ينبغي أن يأكل بعد أن يسمِّيَ، وما معنى: بسم الله الرحمن الرحيم؟ أي أنت باسم الله تأكل هذه الفاكهة، لولا أن الله خلقها، وأمدها بالغذاء، وأنضجها لما أكلتها، وبالمناسبة، فثمن الفواكه والخضار، والحبوب والمزروعات التي تؤديها، ثمن خدمتها لا ثمنها، لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يصنعوا كأس حليبٍ لما استطاعوا، فهذا الكلأ بين أيدي الناس، هل بإمكان جهةٍ في الأرض أن تحول الكلأ إلى حليب، تشربه، تصنع منه لبناً، تصنع منه جبناً، تصنع منه سمناً؟ هذا الكلأ أمامنا، اعمل مزرعة برسيم، أو مزرعة فِصَّة، وحاول أن تجلب هيئات علمية راقية جداً تحوِّل هذا الحشيش الأخضر إلى حليب، أو هذا الذي تأكله الدجاجة إلى بيض يحوي خمسة عشر فيتاميناً، ثمانية معادن، بروتينات، شحوم، غذاء كامل، بدليل أن هذه البيضة تنقلب إلى كائن حي، إلى فرخ صغير، فما دامت هذه البيضة تنقلب إلى صوص، إذاً فيها من كل أنواع الخلق، فهل بإمكان جهة في الأرض أن تحوِّل هذا الذي تأكله الدجاجة وهي تأكل كل شيء، حتى القَذَر، وتقدِّم لك هذه البيضة؟!!

طعامنا الذي نأكله يمكن أن نصل إلى الله مِن خلاله :

هذا البستان يسقى بماء واحد، ويثمر الأنواع المتعددة، ونفضل بعضها على بعضٍ في الأُكُل، طعم الإجاص غير طعم التفاح، غير طعم الدراق، غير طعم المشمش، غير طعم الكرز، أنواع منوَّعة..

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

بستان فيه فستق حلبي، ثمن الكيلو ثلاثمئة وخمسون ليرة، وهناك فواكه أخرى رخيصة، مَن ميَّز هذه الطعوم؟ طعامك الذي تأكله يمكن أن تصل إلى الله مِن خلاله، هناك إنسان يأكل كما تأكل البهائم، يأكل ويشرب ولا ينتبه، ربنا عز وجل يلفت نظرنا:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

الطماطم (البندورة) بعضها قاسٍ جداً، بعضها ذو حموضة، بعضها كروي الشكل، بعضها محزَّز، بعضها للعصير، بعضها للتصدير، فهي أنواع منوعة، والبرتقال نوع للعصير، نوع لونه وردي، نوع سكري، حلو المذاق، أنواع منوعة، وكل نوع يأتي بعد نوع على مدار السنة، وفي فصل الشتاء تأكل الفواكه فيها أعلى درجة من الفيتامين(C)، يقاوم أمراض الشتاء، والبطيخ مناسب جداً في الصيف.
عند الإنسان عطش خلوي، وعنده عطش عادي، ولو شرب الإنسان ماء كثيراً، إن لم يأكل فاكهة فيها ماء كثير لا يرتوي خلوياً يرتوي هضمياً، لكنه لا يرتوي خلوياً، شيء دقيق جداً.

التفكر في الطعام والشراب منهج كامل موصل إلى الله عز وجل :

مادة التفكر هي الطعام والشراب، منهج كامل موصل إلى الله عز وجل، فهذا الصوص كيف يخرج مِن البيضة؟ ينمو له نتوء مؤنف على منقاره كالإبرة تماماً، يكسر بها البيضة، ثم يتلاشى هذا النتوء، ويعود إلى ما كان عليه بعد أن خرج مِن البيضة، أمعن النظر في حقائق الطعام والشراب.

فهذا النبات، منه شجرةٌ عملاقة، كيف يصعد الماء إلى الأعلى على عكس نظام الجاذبية؟ السوائل لو أطلقتها تسقط نحو الأسفل، هناك خاصة شعرية معقدة جداً، تجعل هذا السائل يصعد إلى الأعلى، هذه الشجرة فيها نُسُغ صاعد، ما الذي يجعل هذا السائل، النسغ الصاعد، لا يرجع؟ قال العلماء: هناك دسامات في الأوعية الصاعدة، عليها دسامات عدم رجوع، داخل النبات، فإذا وصلت إلى الأعلى توزعت في الورقة. الورقة قرأت عنها مرة مقالة: أن أعظم معملٍ على وجه الأرض لا يرقى إلى مستوى الورقة، وهذه الورقة تأخذ من الهواء الآزوت، وتأخذ من الشمس الطاقة الشمسية، وتتفاعل مع هذا النسغ الصاعد فتجعل منه نسغاً هابطاً، هذا النسغ الهابط يسري في أوعية، لو أن هذه الشجرة نَمَت لضاقت لمعة الأوعية، إذاً هذه الأوعية الهابطة فيها حلزون مقوٍّ، يقويها ويمنع التصاق بعضها ببعض، وفي الأوعية الصاعدة دسامات عدم رجوع، وفي الأوعية الهابطة نوابض قاسية تمنع ضيق لمعة الوعاء.

هذا النسغ النازل، سائل، تصنع منه الجذور، وتصنع منه الأغصان، وتصنع منه الأزهار، وتصنع منه الأوراق، وتصنع منه الثمار، هل بإمكان الإنسان أن يأتي بسائل يحقنه فيكون خشباً، يحقنه فيكون حديداً، يحقنه فيكون إسفنجاً، يحقنه فيكون شراباً؟ مستحيل، نسغٌ واحد؛ يصنع الجذر، والفرع، والغُصْنَ، والزهرة، والورقة، والثمرة، لا يزال علم النبات في البدايات، لا تزال النبتة كائناً يحيِّر العقول، كم نوعاً من الورقة ترون في الدنيا؟ تفاوت في الحجوم، تفاوت في الأشكال، تفاوت في الوظائف، على كلِ الورقة معمل، معمل مِن أعلى درجة، ولا تزال البحوث لمعرفة حقيقة هذا المعمل في البدايات.

أيها الأخوة، شجر يمتد جذره إلى ثلاثين متراً تحت الأرض، هذا الجذر يبحث عن الماء، الشجر الذي تزرعه كي تستفيد من ثمره جذوره عميقة جداً، أما الشجر الذي تزرعه كي تستفيد مِن خشبه، فجذوره قليلة جداً وسطحية، ليسهل قلع الشجرة واستخدامها.

النبات من أعظم آيات الله الدالة على عظمته :

لو ذكرت أنواع النبات، مرة قرأت مقالة عن نبات، نبات جميل جداً، يوضع في أصص، في البيت، له زهرة على شكل فم السمكة، فإذا جاءت بعوضة أو ذبابة ودخلت إلى البيت، تنجذب البعوضة أو الذبابة إلى هذه النبتة، فإذا وصلت غلى جوفها أطبقت عليها، هذا النبات خلقه الله خصيصاً كي يُنَقي بيتك من البعوض والذباب، وهناك نبات يعطيك سائلاً مرناً هو الكاوتشوك، ونبات آخر يعطي الفلّين، وهناك نبات يعطي سواكاً للأسنان، ونبات يعطي خلة لتنظيف الأسنان، ونبات يعطي ليفة تنظف بها جسمك، لها وجه خشن للرجال، ووجه آخر ناعم للنساء، أليس كذلك؟ هذا من صنع الله عز وجل، ونبات يعطيك أوعية بعضها كروي، وبعضها أنبوبي، أوعية كالنحاس تماماً، وهناك نبات يعطيك حبة مسبحة، كرة مثقوبة، تصنع منها سبحة، وهناك نبات يستعمل أساساً للأبنية، ويتوسع على الماء، بعض أبنية دمشق أساسها مِن الخشب، بناء المنزل في المرجة أساسه خشب، وعمره مديد، خشب تصنع منه النوافذ، فهذه لا تتأثر بالماء والهواء، والعوامل الجوية، خشب تصنع منه الأثاث، خشب تصنع منه الأدوات، هناك مئة نوع من الخشب، نبات حدودي بينك وبين جيرانك له لون جميل، وزهر جميل، لكنه شائك، وكذلك هناك نبات مظلة، يؤدي دور مظلةٍ تماماً، أوراقها دائمة الخضرة، كثيفة جداً، تحتها ظلٌّ ظليل على شكل دائرة نظامية دائمة على طوال العام، هذه مظلة، نبات يعطيك الفاكهة، نبات يعطيك الخضار والفواكه والمحاصيل، والحديث عن النبات يطول، بل هو من أعظم آيات الله الدالة على عظمته، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

عوِّد نفسك كلما جلست إلى المائدة تفكر في هذا الغذاء الذي تأكله، هذه المُنَكِّهات، هذه التوابل، هذه الخضراوات، هذه الحبوب، هذه الألبان، مشتقات الألبان، الشاي الذي تشربه، النعناع الذي تأكله، هذه الخضار كلها فيتامينات من صممها لتكون كذلك؟ أذكِّر ثانية: درسنا اليوم عن طعام الإنسان.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

الحكمة من تلف المحاصيل عند تخزينها لمدة طويلة :

تصور كل نبات متى يزرع؟ متى يحصد؟ كيف ومتى يُصَنَّع؟ كيف يخَزَّن؟ لو أن النبات لا يصيبه السوس لخَزَّنه الناس، واحتكروه، وجعلوا العالم نصفين، نصف يموت من الجوع، ونصف يموت من التخمة، فهذه المحاصيل تصيبها الآفة، لا تخزن أكثر من سنة أو سنتين، فلا بد أن تستهلكها لمنع الاحتكار، هذا أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

من أين يبدأ الطعام؟ من قوله تعالى فاقرأ:

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً)

هذه الأمطار الغزيرة لولاها لمُتنا مِن الجوع، والآن هناك بلد في إفريقيا، وشيء والله مؤلم جداً جِداً وهو شعبٌ مسلم، يموت من الجوع، وشعوبٌ تموت من البَطَر، ومن الترف، ومن التُخْمَة، وشعوبٌ تموت من الجوع، والمسلمون لا يتحركون لإنجادهم.

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

انظر إلى الأرض في الشتاء، تراب، ثم يأتي الربيع وتنشق الأرض عن هذه النباتات وهذه المحاصيل، فإذا هي حلة خضراء، ثم شققنا الأرض بالنبات شقاً، صببنا الماء من السماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً.

موضوع صببنا الماء صباً أيضاً درس كبير جداً، كيف أن الله عز وجل جعل الهواء يحمل بخار الماء، وكيف أن الله عز وجل جعل مناطق حارة، ومناطق باردة، وجعل المنطقة الحارة ضغطها منخفض، والمنطقة الباردة ضغطها مرتفع، وجعل من تفاوت الضغطين ما تنشأ عنه حركة رياح، والرياح تسوق السحاب، والسحاب محمَّل ببخار الماء، يواجه جبهةً باردةً فينقلب إلى مطر، ويُعْصَر عصراً، وهذا المطر يصبح ينابيع وأنهاراً.

أهمية الماء والبذور :

نهر الأمازون كثافته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، ينابيعه مِن أين؟ كله من أمطار السماء، من ماء السماء، انقلب إلى ينابيع وأنهار، وحول الأنهار قامت الحضارات، حضارة الرافدين حول دجلة والفرات، حضارة النيل، مصر هبة النيل، قال سيدنا عمر بن الخطاب: صف لي مصر يا عمرو؟ قال له: يا أمير المؤمنين مصر طولها شهر وعرضها عشر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، فبينما هي عنبرة سوداء، فإذا هي دُرَّة بيضاء، ثم هي زبرجدية خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء.

مصر هبة النيل، وفي حضارة الرافدين، وهنا في بلدنا الطيب أين التَجَمُّع السكاني؟ حول نهر العاصي، ونهر بردى، ونهر الأعوج، هذه الأنهار، الآن في العالم معركة مياه، كنا في معركة البترول، ثم دخلنا في معركة القمح، والآن نحن في معركة المياه، بل إن موضوع المياه هو الموضوع المُشْكِل في أيَّة مباحثات، موضوع المياه بالذات، لأن حياة الأحياء بالمياه:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

[سورة الأنبياء: 30]

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

فهذه البذرة، ائت بحبة فاصولياء، ضعها في قطن مبلل، كيف تنشق هذه البذرة عن رشيمٍ صغير، وعن سويقٍ صغير يأخذ غذاءه من مخزونها الغذائي؟ فإذا نما ساقُها، ونما جذرها، أَمْسِكْها فإذا هي فارغة، فمَن أعطاها أمراً بالإنبات؟ تتجه نحو الأعلى، قضية الإنبات وحدها شيء لا يصدق، هذه البذرة فيها رشيم كائن حي، هناك قمح أُخِذَ من الأهرامات قد خزِّن قبل ستة آلاف عام، زُرِع فنبت، الرُشيم كائن حي، لكن النملة حينما تخزن القمح تأكل الرشيم لئلا ينبت، فالرشيم كائن حي، وهناك بذور الغرام الواحد يحوي سبعين ألف بذرة، وكل بذرة فيها رشيم، وفيها سويق، وفيها جذير، وفيها مخزون غذاء، وهذا شأن كل بذرة، فقضية البذور وحدها قضيةٌ تلفت النظر.

النباتات الرعوية :

الآن مع النباتات الرعوية، كيف تنبت بذورها على شكل حلزون؟ تسقط مِن الأعلى فتُغرس في الأرض، زَرْعٌ طبيعيٌّ من دون أنْ تعمل فيه يد إنسان، قد تنمو الأحراش والرعويات بشكل مخيف دون أن يزرعها أحد، وهناك بذور طائرة تنتقل مِن قارةٍ إلى قارة، وهناك بذور لا تنبت إلا إذا أكلتها الزرافة، تأكلها الزرافة وتخرجها من أمعائها فتنبت في الأرض، والحديث عن البذور حديث طويل.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

يقول العلماء: هذه الفاكهة طعمها حامض، شكلها كمثري، أو شكلها كروي، لونها كذا، كل كلمة هي معلومات مبرمجة عليها هذه البذرة.

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً)

القمح هو الغذاء الكامل:

(وَعِنَباً)

الفاكهة:

(وَقَضْباً)

قالوا: القضب هو غذاء الحيوانات، أي هذه الفِصَّة والبرسيم، لأنها تحصد فتنبت، تحصد فتنبت، تحصد فتنبت ست مرّات، وهذه الحقيقة ربما لا تعرفونها، غذاء الحيوانات بشكل اقتصادي مربح جداً، تزرعه مرةً واحدة، وتحصده ست مراتٍ متوالية، كلما قضمته نبت مرة ثانية، سمي قضباً، قال تعالى:

(وَعِنَباً وَقَضْباً)

وقال بعضهم: القضب هو التمر، والعلماء على ترجيح أن القضب هو التمر، أو القضب هو النبات الذي تأكله البهائم، يقضب فينمو، ويقضب فينمو.

أهمية الزيتون والتمر للإنسان :

قال تعالى:

(وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً)

هذه الشجرة المباركة، وكلما تقدم العلم اكتشف أن أول غذاء ينتفع به الإنسان هو زيت الزيتون، يُخَفِّض الضغط، يخفض الكولسترول، يقوي الشرايين، بل إن عمر الإنسان من عمر شرايينه، لو أن الإنسان نجا من كل الأمراض العضالة، كيف يموت؟ يموت بتصلب الشرايين، وزيت الزيتون وحده يطيل عمر الشرايين إلى أعلى درجة، فقالوا: الإنسان عمره من عمر شرايينه، وزيت الزيتون يكافح السرطان، ويخفّف الضغط، ويخفف الكولسترول، يقوي الشرايين، ويجعلها مرنة، وقال تعالى:

(مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

[سورة النور: 35]

(وَعِنَباً وَقَضْباً)

إما التمر، وإما نباتٌ تأكله البهائم..

(وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً)

النخل مِن أطول الأشجار المُعَمِّرة، تعيش شجرة النخل ستة آلاف عام، وتعطيك الثمرة، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

التمر فيه مواد مهدئة، مواد مطهرة، مواد قابضة، مواد مُلَيِّنة، فيه ست وأربعون مادة غذائية، ولا يتلوث أبداً، وهو أحد الأسودين؛ التمر والماء.

الفاكهة ما يأكله الإنسان والأبّ ما يأكله الحيوان :

قال تعالى:

(وَحَدَائِقَ غُلْباً)

الآن أنواع الأزهار، وأنواع الرياحين، أنواع النباتات التي تعيش في المنازل، أنواع الأبصال، أنواعها بالألوف، وكل زهرة تسبِّح خالقها، وقد خلقت خصيصاً للإنسان، أعطى شخص للحمار فُلّة فأكلها، فقيل عنه: إن الذي أعطاه الفُلّة هو الحمار، الفُلّة لتُشمّ لا لتُؤكل.

(وَحَدَائِقَ غُلْباً)

أي كثيفة عظيمة:

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً)

الفاكهة ما يأكله الإنسان، والأبّ ما يأكله الحيوان، الآن قد يغيب عن أذهانكم أن هذا القمح غذاء أساسيٌ للإنسان، أما هذه الساق التي تحمل سنبلة القمح غذاءٌ أساسيٌ للحيوان، يعيش الحيوان على التِبْن فقط، فهذا من بقايا الحصيد، وهو غذاءٌ أولُ للحيوان، فيعيش الحيوان على التبن عمره كله، فهو غذاءٌ كامل، فهذه السنبلة غذاءٌ للإنسان، وهذه الساق التي يحملها غذاءٌ للحيوان:

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

من يأكل ولا يسميِّ الله عز وجل ولا يحمد الله على هذه النعم فهو كالدابة تماماً:

أنا طبعاً أذكر عناوين أبحاث، أما أنت فلديك منهج للتفكُّر، لديك منهج الفاكهة والأب، والحدائق والأزهار، والأبصال، والورود والرياحين، وكل نباتات الزينة، هذه وحدها موضوع، والأعداد بالألوف، وفي الزيتون والنخل، فوائد الزيتون وزيته، وفوائد التمر، وفي العنب والقضب، وفي الحب أي المحاصيل، وفي انشقاق الأرض عن النبات، وانشقاق السماء عن الماء، فالماء من السماء، والنبات من التراب، ثم يكون الحَبُّ والعنبُ والقضب والزيتون والنخل والحدائق الكثيرة.. وكلها فضل من الله وكرم.

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

وبعدُ فإذا فوَّت الإنسان على نفسه فرصة التفكُّر في خلق السماوات والأرض، فلم يفكر، فهو يأكل كالبهيمة تماماً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

[سورة محمد: 12]

تأكل الحشيش وكفى لأنها دابة، وكل إنسان يأكل وكفى، ولا يسميِّ الله عز وجل، ولا يحمد الله على هذه النعم، فهو كالدابة تماماً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

[سورة محمد: 12]

الحكمة من استنجاد الإنسان بأخيه :

الإنسان يأكل ويتفكَّر، يأكل ويتعلَّم، يأكل ويتقرَّب، يأكل ويسمِّي، يأكل ويشكر، يأكل ويحمد الله عز وجل، أما إذا لم يفكر الإنسان، وعاش شهوته، واستجاب لميوله ونزواته وغرائزه، وعاش لمُتَعِهِ وشهواته فقد جاء البلاء الأعظم:

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)

صوتٌ يصمُّ الآذان، أو صوت تصغي له الآذان، كلاهما صحيح..

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ُ)

الإنسان عادة يستنجد بأخيه، لأن أباه متقدمٌ في السِن، وأن ابنه ضعيفٌ لا يقوى على نجدته، أما الإنسان بمَن يستنجد؟ بأخيه، في هذا اليوم:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ُ)

أي زوجته..

(وَبَنِيهِ ُ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً - أي من دون اختتان، وقلفة أعضائهم موجودة، وقد رجعت إلى حالها يوم خُلق - قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

وصف دقيق لهول يوم القيامة :

نحن اليوم لو سيق إنسان إلى حبل المشنقة للإعدام وفي الطريق إلى المرجة ساحة التنفيذ، رأى فتاةً ترتدي ثياباً فاضحة، أيتأثر بهذا المنظر؟ مستحيل، هو في عالم آخر، في عالم الشنق، فقال:

((... الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

قد تقع عين الأم على ابنها يوم القيامة تقول: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ يجيبها ابنها ويقول: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، أي:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ُ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

له مشكلة أو له قضية غارقٌ في همومها، ولا يلتفت إلى أحد، في النهاية هؤلاء البشر صنفان:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)

مشرقة، متألّقة..

(ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)

الناس يوم القيامة رجلان :

لو أنّ طالباً نجح، وأبلغوه أنه نجح، ينتظر العلامات، وتكريم أهله، وتكريم الدولة له لأنه حصل على المرتبة الأولى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ*ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ*تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)

ظلمة، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

كم إنساناً؟ وكم ملة؟ وكم مذهباً؟ وكم طائفة؟ وكم ديناً؟ وكم عِرْقاً؟ وكم جنساً؟ وكم لوناً؟ وكم نِحْلَة؟ كل هؤلاء الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وألوانهم، وأجناسهم، وأديانهم، وانتماءاتهم، هم في النهاية رجلان؛ وجه مسفر، ضاحك، مستبشر، عرف الله في الدنيا، فاستقام على أمره، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجلٌ غفل عن الله، تفلّت من منهجه، أساء لخلقه، فشقي في الدنيا والآخرة.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)

العمل السيّئ يجعل الوجه أسود:

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

أخواننا الكرام، الوجه صفحة النفس، سعادتك تظهر على وجهك، وبراءتُك تظهر على وجهك، وعفّتك تظهر على وجهك، وصدقك يظهر على وجهك، الوجه صفحة النفس، وجهٌ صافٍ، مُشْرِق، بريء، طاهر، ووجه خبيث، مجرم، مذنب، عمله أمامه:

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ)

هم الذين لم يعرفوا الله:

(الْفَجَرَةُ)

وهم الذين عصوه في الدنيا، وتباهوا بهذه المعصية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكوير 081 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-14، كل شيء يتبدَّل وكل حال يزول

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الموت حدثٌ مستقبليّ وأعقل إنسان هو الذي يعدُّ لهذه الساعة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة التكوير، بسم الله الرحمن الرحيم:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ *وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ *وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ *وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ *وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

أيها الأخوة المؤمنون، العاقل يعيش المستقبل والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والغبي يعيش الماضي:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه الحارث عن زيد بن علي]

الموت سيأتي مستقبلاً، الموت حدثٌ مستقبليّ، وأعقل إنسان هو الذي يعدُّ لساعة الموت التي لا بد أنها آتية.

الكيِّس هو من ضبطحياته وفق منهج الله :

قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

أَتَى" فعل ماض، قال: فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، معناه لم يأتِ، فكيف أتى ولم يأتِ؟ أي حينما يخبر الله عن شيء يجب أن تأخذه وكأنه وقع، وحينما يُخبرُ عن شيء في الماضي تأخذه وكأنك تراه، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

ليس هناك إنسان في زماننا شاهد هذه الحادثة، لكنّ الله عز وجل أخبر عنها، إذاً كأنك تراها، والله عز وجل أخبر عن يوم القيامة، إذاً أتى يومُ القيامة فلا تستعجلوه، فمن هو العاقل؟ الكيس بتعريف النبي عليه الصلاة و السلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

إذاً: الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، ضبطها، وضبط دخله، وإنفاقه، وضبط بيته وأسرته، وضبط حواسه وأعضاءه، وضبط لهوه، فلهوُه شرعيٌّ، ضبط أفراحه، وضبط أحزانه، ضبط كل حياته وفق منهج الله:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه الحارث عن زيد بن علي]

الكيس من دان نفسه أيْ ضبطها:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

في بعض سفري أُطلِعتُ على لقطات نادرة، آلة تصوير في بناء يصوِّرون حفلاً، فحدث زلزال، المناظر لا تُصدق، الهرج والمرج، وانهيار الأبنية، نشوب الحرائق، ذعر الناس، وهناك لقطات نادرة في العالَم لبعض الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير، هذه نماذج مصغرة.

ليست البطولة أن نعيش الحاضر فالعالَم كله يعيش الحاضر :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

حدَّثني أخٌ قال لي: لما حدث زلزال في مصر، زوجتُه من شدة رعبها أمسكت ابنها وخرجت خارج البناء، فلما أصبحت في عرض الطريق نظرت إلى ما تحمله فإذا هو حذاء زوجها، فمن شدة الخوف أخذت حذاء زوجها على أنه ابنها، قال تعالى:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

فالبطولة لا أن نعيش الحاضر، العالَم كله يعيش الحاضر، العالم كله يعيش لحظته، ويستمتع بالطعام والشراب والنساء والأفلام، ويسهر إلى منتصف الليل، و يلهو ويغتاب وينِم، يفعل كل ما يحلو له، يأكل ما يشتهي، يذهب إلى أيِّ مكان يشتهيه، يجلس مع مَن يشتهي، هذا قد عطَّل فكره.

أخواننا الكرام، وإن كان مثلاً ذكرته سابقاً ولكنه يفيدنا الآن، أعيد فأذكره لكم: ركبتَ دراجة ووصلت إلى طريقين؛ طريق هابطة، وطريق صاعدة، فراكبُ الدراجة يرتاح في الطريق الهابطة من دون شك، والطريق الهابطة معبَّدة، ومزدانة بالأشجار والرياحين والحدائق، والنسيم عليل، كل شيء في هذا الطريق يدعوك إلى النزول، الطريق الصاعدة فيها أكمات، وفيها حفر، وفيها غبار، وكل شيء في هذه الطريق الصاعدة يدعوك إلى البُعد عنها، ولكن رأيت لوحة صغيرة مكتوب عليها هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف، وهو مِلكٌ لمن وصل إليه، وهذه الطريق الهابطة تنتهي بحفرة ما لها من قرار، الواقع يدعوك إلى الطريق النازلة، أما كونك إنساناً عندك عقل، وبيان صحيح، فالإنسان العاقل يرفض هذا الواقع المغري ويتجه في الطريق الصاعدة.

العاقل يستخدم عقله والحيوان يستخدم حواسه :

مثل آخر أوضح: لو أن طريقاً يمتد خمسين كيلومتراً، مكتوب في بدايته: الطريق مغلقة، والطريق سالكة، لكن بعد خمسين كيلو متراً الطريق مغلقة، إنسان يقرأ ويكتب، قرأ اللوحة، فوقف وما أكمل، لو كان مكانه حيوان لسلك، متى يقف الحيوان؟ عند القطع، الإنسان متى يقف؟ عند القراءة، هذا هو الإنسان، بفكره وعقله، والبيان الذي أمامه يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه الحيوان، بربك لو أنك ذاهب إلى حمص في أيام الشتاء، واستمعت بأذنك أن الطريق في (النبك) مغلقة بسبب تراكم الثلوج، هل تذهب؟ الطريق سالك من دمشق إلى دوما، إلى عدرا، الطريق كله سالك جاف، ولكن الخبر من (النبك) لا تُكمل، فالإنسان بطولته أن يؤمن بالغيب، عندنا شيء محسوس، وعندنا شيء معلن، بياناً فقط، الغيب خبر، والدنيا محسوسة، والعاقل دائماً يستخدم عقله، والحيوان يستخدم حواسه، الحيوان يخاف بعينه، بينما العاقل يخاف بعقله، مثل أوضح: إنسان عاقل يقرأ أن التدخين يسبب أمراضاً لا حصر لها، بدءاً من جلطة، ومروراً بضيق الشرايين التي تغذّي القلب، ثم بعض الأورام الخبيثة في الرئتين، ثم مرض الغرغرين، فالإنسان العاقل لا ينتحر بنفسه، أما الذي يعطّل عقله متى يدع الدخان؟ عندما يصاب بالمرض، أما العاقل فيدَع التدخين قبل أن يصاب بالمرض، إذاً النقطة الحساسة هنا هي أنه هل تستخدم عقلك لتصديق الخبر الإلهي وتنضبط أم تواجه الحقيقة المرة بعد فوات الأوان، مَنْ في ذهنك يعدُّ أكثر كفار الأرض؟ اختر واحداً من هؤلاء، الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هذا فرعون نفسه، وعند الموت سيؤمن بكل ما آمن به الأنبياء، ولكن بعد فوات الأوان.

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط :

أكثر كفار الأرض لا بد أن يؤمن عند الموت بكل ما جاء به الأنبياء، أو الذي رفع لواء الإلحاد في العالم الشرقي، الذي رفع لواء الإلحاد وقال: الدين أفيون الشعوب، عندما مات آمن بكل ما جاء به الأنبياء، إذاً خيارك مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن الآن بالخبر الصادق، وأن تعرض عن الدنيا المغرية، وإما أن يكون الإنسان كالذي دونه يخاف بعينه فقط، فعندنا إنسان يتحرك بالخبر، وإنسان يتحرك بالحواس، أكثر الناس متى يشتري الوقود السائل؟ عند موجة البرد القارس، أما هناك قلة قليلة من الناس يملؤون خزّاناتهم وهم مرتاحون، في أيام الحر، لا يوجد ازدحام، ويختار أفضل موزِّع، لا يقف بالمرصاد له، أما حينما تأتي موجة البرد، فمعظم الناس يتهافتون على شراء الوقود السائل، فالإنسان العاقل لا تكون أعماله ردَّ فعل، وحينما يرى الشيء يأخذ موقفاً، لا، يجب أن تخطط، فالعاقل يعيش المستقبل، وكما يروي بعض الأدباء في العصر العباسي أن سمكات ثلاث كنَّ في غدير، فمرَّ صيادان، نظرا إلى السمك في الغدير فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك - والقصة رمزية - فسمعتْ السمكاتُ قولهما، أما أكيسُهُنّ - أعقل واحدة - فإنها ارتابت وتخوفت وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماءُ من النهر إلى الغدير فنجت، أمّا الكيِّسة فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سَدَّه الصيادان، فقالت: فرّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت، تصنعت الموت، فطفت على وجه الماء فأخذها الصياد ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، بعد أن احترقت أعصابُها، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صِيدتْ، فالناس ثلاثة أشخاص؛ عاقل جداً، وأقل عقلاً، وعاجز غبيّ، فالعاجز تحرِّكه الأفعال، فكلُّ أعماله ردود فعل، يخاف بعينه إلى أن يرى الطريق مسدوداً فيرجع، يرى الطريق النازل أكثر راحة، لا يقرأ اللوحة، أما العاقل يقرأ ويفكر ويخطط ويرسم مستقبله بعيداً عن تأثير الواقع، والعاجز لا يفكر لا قبلاً ولا بعداً.

سورة التكوير فيها أخطر انقلاب في الكون :

هذه السورة سورة التكوير فيها أخطر انقلاب في الكون، كل شيء ترونه؛ الشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار والحيوانات والبشر، هذا كله سيتبدَّل، هناك انقلاب كوني كبير جداً، وما دام كل متوقَّع آتٍ، وكل آت قريب، فكل هؤلاء البشر من آدم إلى يوم القيامة سوف يقفون للحساب في هذا اليوم، فماذا يحدث في هذا اليوم؟ هذه الشمس التي تزيد حرارتها في مركزها على عشرين مليون درجة، وفي سطحها عن ستة آلاف درجة، والتي تزيد ألسنة اللهب فيها عن مليون كيلومتر، والتي إذا أُلقيت فيها الأرضُ تَبَخّرت في ثانية، هذه الشمس سوف تنطفئ، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

أيْ انطفأت، مع أن العلماء يقولون: مضى على تألُّق الشمس خمسة آلاف مليون سنة، ومع ذلك فإنّ انطفاء الشمس آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

مثلاً حريق وقع في غابات إندونيسيا لم ينطفئ إلا بعد أشهر، وهذه الشمس سوف تنطفئ، هذا حدث كبير جداً، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

"إذا " أداة شرط تفيد تحقق الوقوع، فلا بد لهذه الشمس أن تنطفئ، وكل حال يزول، أنا أقول لبعض الأخوة الأكارم: هل بالإمكان أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ مستحيل، ولن ينجوَ أحد ذات يوم، لا بد من يوم يستيقظ الإنسان على تبدُّل في جسمه لم يكن يعهده، فإذا كان هذا مرض الموت فسوف يتفاقم إلى أن تُعلن الوفاة، واعلموا أن ملك الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا، وقد سألت أحد الأخوة الموظفين في دفن الموتى: كم وفاة في دمشق يومياً؟ فقال لي: من ثمانين إلى المئة كل يوم، كم نعياً؟ بين عشرين وثلاثين نعياً يومياً تقرأ فيها، واعلموا أن ملك الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا، وسيتخطَّى غيرنا إلينا، أما في أحد الأيام فسيقرأ الناس نعي هذا الإنسان نفسه، يذهب ويخرج، يخرج هكذا ويرجع هكذا، وفي أحد الأيام يخرج هكذا ولا يرجع، يدخل إلى المسجد هكذا ويخرج هكذا، وفي أحد الأيام يدخل هكذا ليُصلّى عليه.

الناس رجلانرجل عرف الله فسعدورجل تفلت من منهج الله فشقي :

اعملوا لهذه الساعة، اجتهدوا لهذه الساعة، هيِّئوا لهذه الساعة، هيئوا العمل الصالح، هيئوا التوبة، هيئوا الإنابة إلى الله، هيئوا تحرير الدخل، هيئوا ضبط الإنفاق، هيئوا إقامة إسلامية في البيت، هيئوا تحجيب

البنات والزوجة، هيئوا ضبط اللسان، هيئوا ضبط النظر، هذه الساعة آتية لا بد منها، ما نجا منها نبي، ولا نجا منها ملِك، ألا ترون الملوك يموتون تحت سمعكم وبصركم، هل نجا منها قوي؟ هل نجا منها ضعيف؟ هل نجا منها غني؟ وهل نجا منها فقير؟ قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: 185]

فلا بد أن نموت، ولا بد من أن نحاسب، ولا بد من أن تُعرض أعمالنا على الله عز وجل، قال تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

[سورة آل عمران: 106]

الناس في النهاية رجلان؛ رجل عرف الله فاستقام على أمره، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل تفلت من منهج الله وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

هذه الشمس أين هي؟ كورت.

إعجاز الله يتجلى بوضوح في الكون :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

سقطت متناثرة، في الكون تقريباً مئة ألف مليون مجرة واليوم في موقع معلوماتي لإحدى أكبر وكالات الفضاء في العالم في الحادي والثلاثين من تشرين من عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين عرضت صورة في موقعها المعلوماتي، الصورة لا يمكن أن تشك إلا أنها وردة، وردة جورية، ذات وُريقات حمراء داكنة، وذات وريقات خضراء زاهية، في الوسط كأس أزرق، هذه الصورة هي صورة في جانب نجم اسمه عين القط يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن:37-38]

الشمس كورت أي انتهت، انطفأت، كما أن هناك قوة عظمى عملت على إيقادها، هذه الكتلة الملتهبة لا بد من قوة عظمى عمِلت على إطفائها، قوة عظمى أوقدتها، وقوة عظمى أطفأتها، قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

إذا كان هناك مئة ألف مليون مجرة، وفي كل مجرة مئة ألف مليون نجم، وإذا كانت بعض النجوم تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، فكم هذا الكون فسيح؟ فيه كل هذه النجوم، مثل بسيط، نحن في درب

التبانة، مجرتنا درب التبانة، بين الأرض والقمر ثانية ضوئية، بين الأرض والشمس ثماني دقائق، المجموعة الشمسية قطرها الزمني ثلاث عشرة ساعة، مجرتنا طولها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، فيها مئة ألف مليون نجم، وهناك مجرة اسمها المرأة المسلسلة، تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، حجمها ضرب مجرتنا بثمان وعشرين مرة، و تبدو نجماً واحداً، المرأة المسلسلة تبدو نجماً واحداً لأنها تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، هذا هو الكون.

وصف لبعض ما سيجري يوم القيامة في الكون :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

سقطت وانطفأت وتلاشت وانتهت، شيء سهل، تُطفِئ مئة ألف مليون ضرب مئة ألف مليون نجم متألق، وبعضها له أحجام مخيفة، هناك بعض النجوم أكبر من الشمس بملايين المرات، بالملايين، كل هذه النجوم تنطفئ وتسقط وتتلاشى، أخطر حدث، أخطر انقلاب كوني في هذه السورة، جبال كجبال هملايا ترتفع عن سطح البحر اثني عشر ألف متر، وثلثاها تحت الأرض، اثنا عشر ألف زاد أربعة وعشرون يساوي ستة وثلاثون ألف متر، ستة وثلاثون كيلومتر كتلة، أعلى جبال في العالم، هذه الجبال الصخرية تصبح كالعهن المنفوش، كالرمل، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

رمال، كانت جبالاً فأصبحت رمالاً، تحريك هذا الجبل، هل في الأرض قوة بإمكانها تحريك هذا الجبل المتواضع جداً جداً؟ أعني جبل قاسيون، فهل تحريك هذا الجبل قليل؟ كل جبال العالم ستزول، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

هذه الكتل الصخرية التي ثلثاها تحت الأرض وثلثها فوق الأرض، هذه الجبال تصبح كالعهن المنفوش، كالصوف المنتوف، تصبح هباء منثوراً، رملاً متحركاً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

كل ما يملكه الإنسان لا قيمة له حينما تكور الشمس وتنكدر النجوم وتسير الجبال:

قال تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

وبعدُ فهاكَ مثلاً: هناك أشياء ذات قيم غالية جداً، فرضاً محل تجاري في سوق رائجة، يقول لك: كل متر بثلاثة ملايين ليرة، هناك محلات في العالم أرقامها فلكية، أسواق رائجة جداً وسط العاصمة، وفي كل عصر هناك أشياء ثمينة، في عصر النبي أثمن شيء الناقة الحبلى لعشرة أشهر، الناقة كانت أول مال هناك، ناقة وفي بطنها مولود، وفي ضرعها حليب، اسمها العشار، فالإنسان متى يهمل هذا المال؟ إذا أصيب بزلزال، إذا كانت عنده مشكلة كبيرة جداً، المال لا قيمة له، في كل عصر هناك أموال، وهناك سيارات، وهناك بيوت فخمة جداً، أخبرني أخ كريم عندما كنت في القاهرة أن هناك بيتاً ثمنه عشرون مليون دولار، أي ألف مليون ليرة، شيء ثمين، لو أن صاحبة هذا البيت - له صاحبة تعمل في الفن - أصيبت بمرض عضال فما قيمة هذا البيت؟

وكل إنسان أيها الأخوة حينما تأتي المصيبة الكبيرة لا شيء له قيمة، لا بيت، ولا مركبة، ولا معمل، ولا شركة، ولا مكانة، ولا اسم، ولا لقب، هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

إنّ الله عز وجل ضرب مثلاً، وأراد أن كل عصر فيه شيء يشبه هذه العشار، الآن هناك سيارة ثمنها خمسة وعشرون مليوناً، فالذي يملك مثل هذه السيَّارة وأصيب بمرض عضال فأيُّ قيمة لها عنده، وهناك بيت ثمنه خمسون مليوناً، ومئة مليون، ومئة وثمانون مليوناً في دمشق، بيت كهذا البيت، ومركبة كهذه المركبة، ومزرعة رائعة جداً، إن أصيب صاحبها بمرض عضال فلا قيمة لها، وكلمة:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

أي أن هذا المال النفيس الذي يعتزُّ به العربي حينما تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، هذه الأموال لا قيمة لها إطلاقاً.

في هذا اليوم العظيمالأموال الثمينة عطلت والحيوانات كلها حشرت :

قال تعالى:

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

كل الحيوانات سوف تحشر في هذا اليوم، وقد قال بعض العلماء: ليقتص بعضها من بعض، هي ليست مكلفة، يقتص منها مرة واحدة وينتهي حسابها، هذه الشاة التي نطحت أختها سوف تحاسب، قال تعالى:

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

أي الأموال الثمينة عطلت، والحيوانات كلها حشرت، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

الماء فيه أوكسجين وهيدروجين، والأوكسجين أشد الغازات اشتعالاً، والهيدروجين أشد الغازات إعانة على الاشتعال، فبقدرة قادر الأوكسجين والهيدروجين يصنعان ماء، والماء تطفأ به النيران، لكن جرِّب أن تضع قطرة ماء في مدفأة، اللهب يزداد، فماذا حصل؟ هذه القطرة تحللت إلى أوكسجين وإلى هيدروجين فانفجرت، فما قولك في هذه البحار التي تساوي أربعة أخماس الأرض، المحيط الهادي، والمحيط الأطلسي، والمحيط العربي، هذه المحيطات الخمسة، وهذه البحار كلها تشتعل فجأة، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

أو مُلئت، هذا تفسير آخر، الحواجز بين البحار تحطمت، واتصلت البحار كلها، وملأت الأرض وغطّتها.

ربنا عز وجل أحياناً يقصد الكل ويذكر البعض :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

قال بعض العلماء: الجسم نبت مرة ثانية، وألحقت به نفسه، رجع الإنسان ليُحاسب، وقال بعض العلماء: أي المرابون مجموعة، والزناة مجموعة، والصالحون مجموعة، والعُبَّاد مجموعة، والعلماء مجموعة، والنساء العفيفات الطاهرات مجموعة، والزانيات مجموعة، أي كل مجموعة يألف بعضها بعضاً، قال تعالى:

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

طبعاً أحياناً ربنا عز وجل يقصد الكل ويذكر البعض، قال لك: العشار عطلت، قس عليها بيوتاً فخمة، من أندر الأموال، قس عليها مزارع فخمة جداً، قس عليها معامل، سمعت عن معمل أدوية يبيع بأربعمئة مليار دولار في السنة، هناك شركات عالمية ميزانيتها أكبر من ميزانية عشر دول، فإذا كان الشاب عمره اثنان وأربعون سنة، والآن معه من تسعون إلى مئة مليار دولار، هذا رقم مايكروسوفت، هذه الشركة الضخمة التي تسيطر على العالم كله في الكومبيوتر، مال ثمين عشار، المركبات عشار، الطائرات، شركة عندها مئتا طائرة، شركة طيران ضخمة لها ميزانيات دول، فشركات التغذية،

وشركات الطيران، والملاحة، هناك ناقلات نفط تتسع لمليون طن من البترول، في داخلها معامل، تأخذ المواد الأولية من أستراليا وتصنِّعها ستانلس، وتنقلها إلى الشرق الأوسط، في أثناء الطريق تُصنَّع، هذه البواخر الضخمة، والطائرات العملاقة، والشركات ذات التعددية العالمية، هذه كلها عشار، في هذا اليوم لا قيمة لهذه الشركات، ولا لهذه المؤسسات، ولا لهذه المباني الضخمة، ولا لهذه الصُّروح.

كل إنسان يعتز بما عندهأما يوم القيامة فلا قيمة لكل هذه الأشياء :

قال تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

قس عليها كل شيء، كل إنسان يعتز بما عنده، من بعض الأدعية قرأت أن النبي عليه الصلاة السلام يدعو بها:

((للهم اجعل حبَّك أحبَّ الأشياء إليَّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقر عيني من عبادات))

[كنز العمال عن الهيثم بن مالك الطائي]

يقول لك: هذه الأرض لا أبيعها ولا بمئة ضعف، هذا البيت لا أبيعه، هذه الشركة حياتي، كل إنسان يعتز بشيء، أما في هذا اليوم، يوم القيامة فلا قيمة لكل هذه الأشياء، هناك صناعات راقية جداً، محجوزة لسنة، لو قيل لك: تعالَ تملَّكها واخسر الآخرة، ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((.. فوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

النعم الحمراء غالية جداً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

الإيمان باليوم الآخر يمكن أن يكون عقلياً فقط :

الآن قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

أحد العلماء الكبار له رأي رائع، هو أن الإيمان باليوم الآخر يمكن أن يكون عقلياً فقط، وذكرت هذا اليوم في الخطبة، هناك من طغى وبغى، هناك من ظلم، هناك مَن سلَب ونهَب، هناك من قتَل، هناك من تجبَّر، هناك من استعلى، هناك من بنى مجده على أنقاض الآخرين، هناك من بنى عزه على إذلالهم، هناك من بنى غناه على إفقارهم، هناك من بنى حياته على موتهم، هناك من بنى أمنه على خوفهم،

ومات، وانتهى الأمر هكذا، وقد يكون موته بأحلى صورة، وبأضخم جنازة، وانتهى الأمر، وإنسان استقام وضحّى وقدّم وبذل، إنسان عاش الناسُ له، هذه الأهرامات شعوب بأكملها بنَتها، سخرة بلا مقابل، الأهرامات قبور، حضارة كلها قائمة على قبور، أنا دخلت إلى بعضها ورأيت بعض المتاحف، لكل إصبع للملك الميت غلاف ذهبي، الذهب الموجود في المقابر لا يصدِّقه العقل، كل شيء في هذه القبور كالأسطورة، فإنسان عاش الناس جميعاً له وأذِلوا وسُخروا، وهكذا تنتهي الحياة، إنسان عاش الناس له، وإنسان عاش للناس كالأنبياء، الأنبياء أعطوْا كل شيء، والأقوياء أخذوا كل شيء، وتنتهي الحياة هكذا بلا دار آخرة تُسوّى فيها الحسابات، ويُنصر فيها المظلوم، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تنتهي الحياة هكذا، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

لا يوجد حساب، إنسان قد يكون عنده زوجة، وأهلها ليسوا في البلد، فظلمها وقهرها، وأخذ أموالها ثم طلقها، وانتهى الأمر، ولا يوجد إله يحاسب، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

[سورة القيامة: 36-40]

بلى.

تعالى الله أن يخلق الخلق عبثاً :

قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

فتعالى الله أن يخلق الخلق عبثاً، مهلاً ألا يوجد الآن قوي وضعيف على الأرض، هذا هتلر من أجل نزواته الشخصية أشعل نار الحرب العالمية الثانية التي ذهب فيها خمسون مليون قتيل، هكذا تنتهي الحياة؟ انتحر وانتهى الأمر، أم هناك حساب؟ قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

بنت، قطعة من الجمال، بريئة، طاهرة كان يأخذها أبوها ويحفر لها حفرة، ويرميها في الحفرة، ويهيل عليها الرمل، وتقول: يا أبت، يا أبت، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

وفي العالم الآن يقال: تطهير عرقي، أي خمسة وثلاثون ألف امرأة مسلمة اغتصبت في البوسنة والهرسك، كم تسمعون في الأخبار من المقابر الجماعية في أوروبا، وفي بولونيا، وفي هذه البلاد التي تنتمي إلى الإسلام، كم؟ هذا الذي مات لا ذنب له، ما قتل، ولا سرق، ولا فعل، بل لأنه مسلم، تطهير عرقي، نقرأ بعض الأحاديث أن في آخر الزمان موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لِمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتِل، هذا القاتل في الحروب التي كانت حولنا، قناص، كلما مر إنسان يقتله، هكذا، دون أن يعرف من هو، أهذا ينجو، وليس مِن مشكلة أبداً؟ لا، وألفُ لا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

لا بد من يوم تردُّ فيه الحقوق لأصحابها :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ لَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فما القول فيما فوق الهرة؟ وأنا أذكِّر بهذه الكلمة: كل ما يشبه هذه الكلمة يُحمل عليها، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

كم مِن إنسان ضعيف أخذ مالُه، وكم مِن إنسان لا يحسن المرافعة فضاع حقه، وكم من إنسان أُخذت أرضُه، وكم مِن إنسان اغتصب بيته بقوة القانون، ويقول: أنا مستأجر، فهل من المعقول أن بيتاً ثمنه مليون تستأجره بمئة ليرة شهرياً؟! كيف بقوة القانون؟

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة المطففين:4-5]

قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)

وقس عليها كل شيء:

(بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

لا يمكن أن تنتهي الدنيا إلا بحساب دقيق :

أخواننا الكرام، لا يمكن أن تنتهي الدنيا هكذا إلا بحساب دقيق، بكل سنة يموت في العراق خمسمئة ألف طفل جوعاً ومرضاً، وهؤلاء الغربيون يعيشون في بحبوحة تفوق حد الخيال، هم يحاصرون هذا البلد، ألن يُحاسبوا؟! هناك دار آخرة، خمسمئة ألف طفل يموتون جوعاً ومرضاً كل عام، ولا أحد يفكر فيهم، هذه هي الموءودة بعينها:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

الفتيات اللواتي اغتصبن في البوسنة والهرسك، خمسة وثلاثون ألف فتاة اغتُصِبت، المقابر الجماعية التي تمت في أوروبا، في إفريقيا ذُبح خمسمئة ألف إنسان في ليلة، قبل سنتين أو ثلاث:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

قس عليها كلها، هناك إله موجود، وسيحاسب، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وقال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

بأي لحظة قد يقع الماكر في قبضة الله ويذوق عذاب النار إلى أبد الآبدين :

هذا المكر، مكر الإنسان الذكي، يظن نفسه ذكياً وليس مع الله ذكي، بأي لحظة قد يقع في قبضة الله عز وجل، ويذوق عذاب النار إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ* فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47-48]

هذا القرآن شفاء للنفوس، أنت كن مستقيماً وانجُ بجلدك، واحرص على ألاّ يتعلق بك حقُّ إنسان، وكن مع الله عز وجل، ولا تخش أحداً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

قد يقال للإنسان: لِم طلقت زوجتك؟ ماذا فعلت معك حتى طلقتها وشرّدتها؟ لماذا فعلت كذا؟ لماذا فعلت كذا؟

كل إنسان له باطن وظاهر لكن المؤمن سريرته كعلانيته وباطنه كظاهره :

قال تعالى:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

هناك أسرار، كل إنسان عنده ملفات، لكن بذكاء بارع يخفيها عن الناس، يظهر أحسن ما عنده، أما هذه الملفات لو نُشرت لفُضح صاحبها، هناك بعض البنوك في أمريكا إذا كان للمودِع حجم كبير يورِّطونه في فضيحة نسائية، فيصورونه، فإذا ما طالبهم بسحب الرصيد هدَّدوه بنشر هذه الصورة، فيخاف، هناك ملفات، فلو كُشفت هذه الملفات لكُشف الناس معها، قال تعالى:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

كل إنسان له باطن وظاهر، له سر وعلانية، لكن المؤمن - ونرجو الله أن يكون المؤمن هكذا - سره كعلانيته، وسريرته كعلانيته، وباطنه كظاهره، وخلوته كجلوته، ليس عنده ازدواجية، لكن أناساً كثيرين يتقنون التمثيل، لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وهم أمام الناس متألقون، فإذا كان يوم القيامة انكشفت الحقائق، ونُشرت الصحف، قال تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)

هذه القبة الزرقاء ذهبت لم يعُد ثمة نجوم، لكن الآن في الليل ترى قبة مليئة بالنجوم.

الآيات التالية تبين أن الجنة أمام المؤمنين وجهنم أمام الكافرين :

قال تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ* وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

إذا كان الإنسان محكوماً عليه بالإعدام، فإلى أن يُشنَق كلما وضع العسكري المفتاح في الباب بلغ قلبه الحنجرة، ويظن أنهم جاؤوا لتنفيذ الحكم، فيمكن أن يموت مليون موتة قبل تنفيذ الحكم، هكذا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

الجنة أمام المؤمنين، وجهنم أمام الكافرين، في هذه اللحظة:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

ماذا هيَّأت لهذا اليوم؟ أنا أنصح نفسي قبلكم، أن تفكر كل يوم ماذا هيَّأت لهذا اليوم؟ حينما:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ *وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ *وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ *وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

كل شيء يتبدَّل وكل حال يزول :

ماذا أحضرت لهذا اليوم؟ هل أحضرت تربية أولاد نشؤوا على طاعة الله، أم تركتهم هكذا هملاً، فانغمسوا في الرذائل؟ هل أحضرت زوجة مؤمنة دللتها على الله، أم استمتعت بها وتركتها هملاً؟ هل هيّأت صدقة جارية تنتفع بها في هذا اليوم؟ هل دعوت إلى الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نهيت عن المنكر؟ هل أطعمت الفقراء؟ هل رعيت المساكين؟ هل تكفلت بالأيتام؟ هل بنيت المساجد، ماذا فعلت؟ يا بشر!! لا جهاد ولا صدقة، فَبِمَ تلقى الله إذاً؟ قال تعالى:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

أنا واللهِ أتمنى على كل واحد من الأخوة الحاضرين أنْ يفكر تفكيراً جدياً بعمل صالح يلقى الله به، أما أنْ يعيش الإنسان ليأكل، يقولون: نحن نعيش كغيرنا، فهذه السورة فيها أخطر انقلاب في الكون، كل شيء يتبدَّل، وكل حال يزول، في هذا اليوم لا بد أن نصل إليه، مرة قرأت كتاباً عن قصص العرب، من أمتع الكتب، أربعة أجزاء، بعد أن أنهيت قراءته قلت: سبحان الله الأغنياء الذين قرأت عنهم هذا الكتاب كلُّهم ماتوا، والفقراء ماتوا، والأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والحمقى ماتوا، وكل أجناس الذين قرأت عنهم جميعهم تحت أطباق الثرى، ونحن، هذا الجمع بعد مئة عام لن تجد واحداً منا فوق الأرض، كلنا سنكون تحت الأرض، فنحن في وَهْمٍ، الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، نحن في زمن سينقضي، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه السورة، وسأتابع شرحها إن شاء الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكوير 081 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15-29 ، الإنسان مخلوق مكرّم ومكلّف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يلفتنا إلى خلقه العظيم وإلى كونه الذي صنعه بيده :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا مع نهاية الدرس الأول من سورة التكوير في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

وآيات اليوم، قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ *وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ *إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ *مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ *وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

إلى آخر الآيات.

أيها الأخوة الكرام، الشيء الذي يُستنبط من تسلسل آيات السورة الواحدة أن ربنا جل جلاله من حين إلى آخر يلفتنا إلى خلقه العظيم، إلى كونه الذي صنعه بيده من أجل أن يكون هذا الكون الذي هو صنعُ اللهِ عز وجل، والذي أتقنه وسيلة لمعرفة الله.

إذا أقسم الله بشيء من خلقه فليلفت نظرنا إلى قيمته وخطورته :

الله عز وجل حينما يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

أي يقسم، فالواو واو القسم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[سورة الفجر: 1-2]

هذه الصيغة صيغة قسم، والمُقسِم دائماً يقسم بشيء عظيم، فهذه الآيات الكونية التي هي ِمن خَلق اللهِ عز وجل، كيف يقسم الله بها وهو خالقها؟ هناك من يقول: إن هذه الواو إذا جاءت في القرآن الكريم ليست واو القسم، إنما هي واو لفت النظر، لأن الله عز وجل هو الأعظم، وهو الذات الكاملة، وكل شيء دونه، فإذا أقسم الله بشيء من خلقه فليلفت نظرنا إلى قيمته، وإلى خطورته، وإذا قال الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

هذا الشيء من خلقه، كن فيكون، وهناك معنى ثالث لطيف جداً هو أنه إذا قال إنسان لإنسان: والشمس في كبد السماء ساطعة، قلت له: أتقسم أن هذه الشمس ساطعة؟ يقول لك: هذه حقيقة صارخة لا تحتاج إلى قسم، شيء طبيعي جدا أن الشمس ساطعة، وأن كل الناس يرونها ساطعة، فهذا شيء بديهي مسلم به، لا يحتاج إلى قسم.

الآيات الكونية الصارخة الدالة على عظمة الله لا يحتاج إلى أن يقسم الله بها :

على كلٍّ لك أن تحمل قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أي هذه الآيات الكونية الصارخة الدالة على عظمة الله لا يحتاج إلى أن يقسم الله بها:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

وقال بعضهم: "لا" زائدة، أي أقسم، وعلى كلٍّ هذه الآية الكونية، إنْ قال الله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أقسم بها لعظمتها ولأنها من خلقه، هذا أوّلاً، وإن أقسم بها فليُلفِتَ نظرنا إليها ثانياً ولتكون أداة لمعرفة الله، وإن لم يقسم بها فلأنها من خلقه، فلا داعي لأنْ يقسم بها، وهذا ثالثاً.

الخنس: النجوم، وكلكم يعلم أن في الكون، طبعاً الرقم التقريبي الآن مئة ألف مليون مجرة، والعدد المتوسط في المجرة الواحدة مئة ألف مليون نجم، هذا ما علمه الإنسان اليوم، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

وقال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

ربنا عز وجل وصف النجوم كلها بصفة واحدة :

يكفي أن أنقل لكم أن في برج العقرب نجماً أحمر اللون متألقاً يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر، وهذا النجم المتألق الصغير يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، فيكفي أن أقول لكم: إن مجرتنا درب التبانة عدد نجومها يقترب من مئة ألف مليون، والمجموعة الشمسية التي نحن فيها هي هذه النجوم التي نتحدث عنها؛ المريخ والزهرة وعطارد والمشتري وبلوتو وغيرها، هذه النجوم كلها لا تزيد أقصى مسافة فيها على ثلاث عشرة ساعة، بينما طول مجرتنا مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، هناك مجرة اسمها المرأة المسلسلة أكبر من مجرتنا بثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً لأنها بعيدة عنا بعداً شديداً، مليونا سنة ضوئية تبعد عنا، بينما أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، فلو أن هناك طريقاً إليه وركبنا مركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون سنة كي نصل إلى أربع سنوات ضوئية، فكيف بنجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، فكيف إلى المرأة المسلسلة مليونا سنة، فكيف إلى أحدث مجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، هذا معنى قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

أما لماذا سميت الخنس؟ لأنها تخنس وتتراجع، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

[سورة الناس: 1-4]

فربنا عز وجل وصف النجوم كلها بصفة واحدة.

لولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

أي أنّ كل نجم في السماء يدور في مسار مغلق، والمسار المغلق دائرة أو شكل بيضوي، معنى مغلق أي أن هذا النجم ينطلق من هذا المكان ويرجع إلى المكان نفسه، صفة عامة مطردة في النجوم كلها، وأنها تدور في مسار مغلق، وما دام المسار مغلقاً أي أنها تعود إلى مكان انطلاقها النسبي، فالخنس تنطلق وترجع، تظهر وتختفي، تقترب وتبتعد، وهذه الخصيصة في الكون دقيقة جداً، ذلك لأن هناك في الكون قانون الجاذبية، هذا القانون أن كل كتلة تجذب الكتلة الأصغر إليها، وهذا الجذب متعلق بمربع

المسافة بين النجمين، متعلق بالكتلتين ومربع المسافة بينهما، لو أن هذه النجوم واقفة لوجَبَ أن يصبح الكون بأكمله كتلة واحدة، فما الذي يجعله مجرات ونجوماً وكواكب وأقمارً وكازارات ومذنبات؟ ولماذا الكون على وضعه الراهن؟ لأنه متحرك، والحركة ينشأ عنها قوة نابذة عكس القوة الجاذبة، فما دام هناك حركة فهناك قوة نبذ، امسك دلواً من الماء وأدِره هكذا، حينما يكون الدلو أو هذا الوعاء في الأعلى وفتحته نحو الأسفل، وقانون الجاذبية يدعو الماء إلى أن يسقط لماذا لا يسقط الماء؟ لأنه في أثناء الدوران نشأت قوة نابذة عكس القوة الجاذبة، وهذا مبدأ المجففات، كيف تجفف قماشاً؟ عن طريق التدوير السريع، فبهذا الدوران السريع الشيء ينطلق إلى المحيط، إذاً لولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أي هذه النجوم التي تسير في مسار مغلق، فبينما هي أمامك تختفي لأنها تسير، ثم تعود إلى مكان انطلاقها النسبي، هذا معنى كلمة " الخنس".

الشيطان ليس له على الإنسان سلطان إلا الوسوسة :

الشيطان بالمناسبة "من شر الوسواس الخناس"، لمجرد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يبتعد الشيطان، قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

إنّ الشيطان ليس له على الإنسان سلطان إلا الوسوسة، أنت بمجرد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ يبتعد عنك الشيطان، فلا تحتاج إلى وسيلة أخرى، لا إلى إنسان يفك لك هذا السحر، ولا إلى شيخ يخرج منك هذا الجنيِّ، هذه كلها خزعبلات وضلالات وترهات ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة الأعراف: 200]

وقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

النجوم من أضخم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

النجوم من أضخم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، والأرض نجم صغير جداً، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، هناك نجوم حجمها أضعاف الشمس بمئة ألف مرة، واللهِ هناك أرقام أيها الأخوة لا يمكن أن يستوعبها العقل، وهي حقائق مبرمة، وهذه النجوم الجواري الكنس تجري، والحركة تحتاج إلى طاقة، تحريك سيارة يحتاج إلى طاقة، والطاقة غالية جداً، فهذه الحركة المذهلة، من يحرك هذه النجوم؟ هناك مجرات تزيد سرعتها عن مئتين وأربعين ألف كيلومتر في الثانية، مجرات ضخمة جداً، من يحركها؟ من يعطيها هذه القوة؟ نحن عندنا في الفيزياء مبدأ العطالة، الأجسام ساكنة، فإذا تحَّركتْ معنى ذلك أنها تلقَّت قوة دافعة، فما هي هذه القوة التي دفعت النجوم إلى الحركة؟ الله عز وجل، الأجسام المتحركة ترفض السكون، والأجسام الساكنة ترفض الحركة، فهذا يحتاج إلى قوة كبيرة جداً، إطفاء الشمس يحتاج إلى قدرة هائلة، وتألقها يحتاج إلى قدرة فائقة، الآن تحريكها يحتاج إلى قوة كبيرة جداً، والشمس تجري لمستقر لها، فمن أعطاها هذه الحركة؟ أنتم أحياناً تستمعون في الأخبار إلى أن مركبة أُطلقت، قد يقول قائل: لمَ لا نطير إلى هذا الكوكب بطائرة عادية؟ لأن أقصى سرعة للطائرة لا يمكن أن تجعلها تخرج عن جاذبية الأرض، إلا في حالة نادرة جداً، أن يكون هناك وقود سائل، وأن يشتعل الوقود، وأن ينشأ عن الاحتراق ردُّ فعل عالٍ جداً، وأن تتجاوز السرعة كذا كيلومتر في الثانية، حتى تستطيع هذه المركبة أن تتحرر من جاذبية الأرض، فحتى يتمكن الإنسان من إخراج مركبة من جاذبية الأرض فتحتاج إلى سرعة كبيرة جداً جداً، وهذه السرعة لا تكون إلا بمحرك يقوم على الفعل وردّ الفعل، والاحتراق الشديد يولد قوة مندفعة بعكس جهة الاحتراق، وهذا ما يكون في المركبات الكبرى، من أجل أن نخرج من جاذبية الأرض، فإذا خرجنا من الجاذبية انعدم الوزن، فمعنى ذلك أن الوزن من آيات الله العظيمة، شيء له وزن، هذا الكأس تضعه فيستقر، قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

أن تكون الأرض مستقرة وهي متحركة وبلا صوت فهذا من فعل الله تعالى :

من جعل هذه الأشياء تستقر على الأرض؟ بفعل الجاذبية، لولا الجاذبية لانعدم قرار أيّ شيء، ورائد الفضاء قد يستيقظ في منتصف الليل فإذا هو في سقف المركبة، لأنه لا وزن له، ومن أصعب الأشياء

استخدام الحاجات، يريد أن يأخذ فرشاة أسنان فإذا هي في السقف، أنت في الأرض تضع حاجاتك على مكان فتستقر فيه، فهل مِن معقول أن يجد الإنسان حاجاته في السقف؟! هذا ما يحدث في أماكن انعدام الجاذبية فيما بين الأرض والقمر، لذلك قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

أيْ مَن جعل هذه الأشياء تستقر على سطح الأرض؟ إنه الله عز وجل، بل مَن جعل هذه الأرض مستقرة استقراراً دقيقاً، هذا المسجد بني قبل أربعمئة عام، لو أن هناك اهتزازاً خفيفاً لتداعى هذا المسجد، والدليل الزلازل، زلزال بسبع درجات على مقياس ريختر تهدّمت معه المدينة، وأصبحت ركاماً بعضُها فوق بعض، إذاً أن تكون الأرض مستقرة وهي متحركة وبلا صوت، فهذا من فعل الله تعالى، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ومظهر لعلمه ولقدرته ولقوته سبحانه :

بلا صوت، محرك ماء بسيط يعكّر على المتنزهين نزهتهم، مركبة بسيطة، حفر طريق أحياناً، يأتون بآلات تخرج الإنسان من جلده من ضجيجها، مع تخريشها لطبلة الأذن، وهذه الأرض تسير بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية، وتدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلومتر في الساعة، ومع ذلك من دون ضجيج، فالطائرة من أجل أن تطير وعليها ثلاثمئة راكب لها ضجيج يصم الآذان، بل إن مستوى ضجيجها يفوق الحدّ المقبول في الأذن، مئة وخمسة وعشرون ديسيبل، هذا لإقلاع الطائرة، والإنسان لا يحتمل فوق خمسة وسبعين ديسيبل، لذلك الذين يسكنون إلى جوار المطارات يصابون بضعف في السمع، فهذه الأرض المتحركة بلا صوت من نِعم الله سبحانه، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

أيها الأخوة، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، مظهر لعلمه، مظهر لقدرته، مظهر لحكمته، مظهر لرحمته، مظهر لقوته، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

تجري، والشمس تجري، والقمر يجري، والنجوم تجري، ولكن الجريان بحكمة بالغة، فالقمر يجري ويدور حول الأرض، وهناك تفاضل بسيط بين دورته ودورتها، ولولا هذا التفاضل لرأى الناسُ القمرَ بدراً كل حياتهم، أمّا إنْ يكون محاقاً ثم هلالاً ثم بدراً، فما الذي جعله بهذه المنازل؟ لأن هناك تفاضلاً طفيفاً بين دورته حول الأرض وبين دورة الأرض، فهذا التفاضل بقدرة قادر، وحكمة حكيم، وعلم عليم.

الله عز وجل اختار اللغة العربية لغة لكلامه :

قال تعالى:

(الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

الكنس، أي تختفي، لذلك حينما ينظر الإنسان إلى قبّة السماء، كل فصل في برج، ألم يقل الله عز وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج: 1]

هذه الأبراج الاثنا عشر التي نراها في كل فصل هي أبراج تظهر في فصل وتختفي، فهذا معنى الكنس، نجوم تظهر ونجوم تختفي، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

دقّقْ في هذه الصيغة، "السين" تفيد معنى الشيء الداخلي، تقول: همس، حس، أنس، لمس، وكل كلمة فيها السين فيها معنى الأنس، والشيء اللطيف الداخلي الذاتي، كل كلمة فيها راء فيها معنى التكرار، جرَّ، مرَّ، كرَّ، كل كلمة فيها قاف فيها معنى الصدم، طرق، لصق، كل كلمة فيها غين فيها معنى الغيبوبة، غاب، غرب، غيبة، غموض، شيء داخلي، طبعاً هذه الخاصة مما امتازت به اللغة العربية، أي هناك معانٍ لحروفها، ومن أطرف ما قرأت في هذا المقام أن الذي يغرق " غرق " فالغين غاب عن الأنظار، فوُضعت الغين، وتتالى سقوطه فوُضعت الراء، ثم وصل إلى القاع فوضعت القاف، وهذا من أسرار اللغة العربية، لأن الله عز وجل اختارها لغة لكلامه.

اتساع العربية في التعبير :

في اللغة العربية تنوع عجيب في المفردات، هذا يُعبر عنه بمقولة: اتساع العربية في التعبير، فكلمة "نظر" معروفة عندكم، لكن رأى تفيد معنى آخر، قد تكون النظرة ليست مادية، إنها رؤية قلبية، تقول:

رأيت العلم نافعاً، أما (نظر) شزراً، فهناك احتقار مع النظر، نظرت إلى السارق شزراً، أمّا (شَخَصَ) فهناك خوف مع النظر، قال تعالى:

(فإذا هِيَ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الأنبياء: 97]

هكذا، أما إذا تمطى، نقول: استشرف، نظر وتمطى، وإذا أمسك بيده قماشاً، نقول: (استشفَّه)، أما إذا اتّسعت حدقة العين نقول: (حدّق)، أما إذا ظهر ما تحت الجفن من لون أحمر نقول: (حملق)، ظهر حملاق عينه، أما إذا نظر مع المحبة، نقول: (حدّج)، وروي عن ابن مسعود أنه قال:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

أي ما أَحَدُّوا النظر إليْكَ، أمّا إذا كان مع النظر سرور نقول: "رنا"، رنوت إلى المنظر، أما الشيء ظهر و اختفى نقول: "لاح"، أما إذا نظرت وأعرضت، أُمِرتَ بغض البصر، رأيت الباب مفتوحاً، ووراءه امرأة فغضضت بصرك نقول: لَمَحَ، إذاً لاح، وحدج، ورنا، وبحلق، حملق، حدق، استشرف، استشف، نظر، رأى، نظر شذراً، شَخصَ هذه كلها كلمات دقيقة جداً تعبِّر عن حالات النظر، لذلك قال العلماء: العربية واسعة جداً في التعبير، فهناك:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

هذا يُسمى في اللغة ثنائيّاً مضعَّفاً، مثل: زلزل، وعسعس، وقلقل، ودمدم، هذه دمدم، وعسعس وزلزل صيغتها ثنائي مضعف يفيد التكرار، زلزل، عسعس، أي يختفي تدريجياً، وقال بعض العلماء: يأتي تدريجياً.

الليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

تكون في ظلام دامس لا ترى شيئاً، قبيل الفجر ترى خطاً أبيض في الأفق، هذا الخط يمتد ويزداد إلى أن ترى الأشياء أمامك، ثم الشمس ساطعة، يا سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

الليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله عز وجل، هناك نقطة دقيقة، وهي أن الإنسان عندما فحصوا أجهزته، وجدوا أن لها برنامجاً ليلياً، وبرنامجاً نهارياً، ضربات القلب، ضغط الدم، إفراز الهرمونات، اتساع الأوعية والشرايين، عملية الهضم، كل الأجهزة الدقيقة لها برنامج ليلي وبرنامج نهاري، لأن الله

جعل النهار معاشاً، وجعل الليل لباساً، فلا داعيَ أن تكون ضربات القلب مئة في الليل، بل هي في الليل خمس وستون، وأحياناً ستون، الرياضيون خمس وخمسون في الليل، القلب مرتاح، في النهار ثمانون، مئة وعشرة، الضغط في الليل أقل من الضغط في النهار، فالإنسان إذا سافر تختل ساعته البيولوجية، فهو في أمريكا وقد وصلها لتوه فهو مبرمج على سورية، هذا الوقت في سورية ليل، وفي أمريكا يميل نهار، فيميل نحو النوم، في الليل يستيقظ، ويسميها العلماء: الساعة البيولوجية، فلا بد له من يومين أو ثلاثة أيام حتى يبدأ برنامجاً جديداً يتأقلم مع نهار وليل أمريكا، فالله جعل الليل لباساً، وجعل النهار معاشاً، وأشياء دقيقة جداً في خلق الإنسان، فإذا أدخلتَ إنساناً إلى مغارة لا يرى فيها شيئاً، وفحصت أجهزته، لها نظامان، إذا كان النهارُ خارج المغارة فهناك نظام لأجهزته، وإذا كان الليل خارجها، فهناك نظام، لأنه في ظلام دامس، فهذا من عظمة خلق الإنسان، مبرمج برنامجين؛ برنامج نهاري فيه نشاط، وحيوية وتيقظ، وتنبه، وضغط، وضربات قلب، وإفراز هرمونات، وهناك نظام ليلي يعتمد على الراحة والسكون، وما إلى ذلك، بل إن من ألطف ما قرأت عن آلية النوم أن الأعصاب في الليل تتباعد، فالأصوات إذا مشت في هذه الأعصاب ترى فجوة لا تستطيع تخطيها، فالنائم لا يسمع شيئاً، أمَّا لو أنك كنت تمشي في بستان فرأيت ساقية عرضُها أعرضُ من قفزتك، فأنت لا تمشي، أما لو أن وحشاً تبعك لقفزتها، فإذا كان الصوت شديداً يستيقظ النائم، ومع الأصوات العادية لا تقفز، أما الصوت غير الطبيعي فيستجيب له ويستيقظ النائم.

الليل فيه حبْسُ نَفَس وفي الصباح يتنفس الإنسان :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

الحقيقة هنا يوجد جمال راع في التعبير:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

ظهر الصبح، كأن الليل فيه حبْسُ نَفَس، وفي الصباح يتنفس الإنسان:

(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

هذه التي أقسم الله بها أو لم يقسم أو أراد أن يلفت نظرنا إليها، قال عن هذا القرآن:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

سيدنا جبريل رئيس الملائكة، مقرب إلى الله، لا يعصي اللهَ ما أمره، ويفعل ما يؤمر، هذا الرسول الكريم، ذو قوة، كريم.

الضغوط على المؤمن تنقله من حال إلى حال ومن مرتبة إلى مرتبة:

يقول لك: حجر كريم، ألماس، الياقوت، صافٍ، نقي، غالٍ، قلت لواحد البارحة: ما أصل الماس؟ قال: تفضل، قلت له: الماس أساسه فحم، ومن شدة الضغط وشدة الحرارة أصبح ألماساً، قلت له: وكذلك المؤمن، كلما جاءته ضغوط شديدة وانفعل انفعالاً شديداً يزداد إيمانه، حتى يصبح كالماس، فالإنسان المؤمن لا يتألم من شدة الضغط، فالضغوط تجعل قطعة الفحم ألماساً، بل إن الماس الصناعي يأتون بالفحم ويضغطونه ويضعونه في حرارة عالية جداً فيغدو ألماساً، لكن ليس كالأصلي، أنا رأيت ألماسة في متحف في استنبول، قالوا: ثمنها خمسة عشر مليون دولار، أو مئة وخمسون فيما أذكر، كالبيضة تماماً، كأنها شعلة، ائتِ بقطعة مشابهة لها من الفحم، كم ثمنها؟ ليس لها ثمن، فالضغوط على المؤمن تنقله من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن مرتبة إلى مرتبة، ومن حيِّز إلى حيِّز، فرسول كريم كالحجر الكريم، صافٍ، نقي، غالٍ، والمؤمن غالٍ على الله كثيراً:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي، ابن ماجه عن سهل بن سعد]

لهوانها على الله أبى أن تكون عقاباً لأعدائه، أو إكراماً لأوليائه، فقد تجد مؤمناً فقيراً، لأن الله عز وجل يحبه، وفي الحديث:

((إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤمِنَ كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ مَرَاتِعَ الهَلَكَةِ))

[كنز العمال عن حذيفة]

قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

هذه مقولته هو، وقال تعالى:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر: 16]

المرء يُبتلى على قدر دينه وإيمانه :

هذا كلام غير صحيح:

(كَلَّا)

[سورة الفجر: 16]

أداة ردع ونفي، أي: يا عبادي ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، فالإنسان المؤمن إذا كان دخله قليلاً فلا ينبغي أن يشعر أنه هيِّن على الله، لا، أو مرضتَ، أو عندك مشكلة اجتماعية، أو مشكلة أسرية، فإنّ الله اختارها له، قضاء وقدراً، وليس من تقصيره، فلا ينبغي أن تجعله يتطامن، ويخجل، ويشعر بهوانه على الله أبداً:

((عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أحمد عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ]

المرء يُبتلى على قدر دينه وإيمانه، والابتلاء يعطي الإنسان قوة دافعة إلى الله، فما من محنة إلا ووراءها منحة من الله، وما من شدة إلا ووراءها شِدَّة إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

هو سيدنا جبريل، هذا كتاب كريم، كتاب لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، كتاب فيه حق صِرف.

(ذِي قُوَّةٍ)

إنّ الله عز وجل أعطاه قوة ليتلقى هذا الكلام منه عز وجل، وأن يوصله إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهو أمين وحي السماء، ومما يُسمَّى به سيدنا جبريل: أمين وحي السماء، فدينك حينئذٍ ليس من اجتهاد الناس، ولا من تأملاتهم، ولا من تصوراتهم، ولا من ثقافتهم الأرضية، دينك من عند الله، لذلك فإنّ الطرف الآخر يحلو له أن يسمِّيَ الدين تراثاً، ليس تراثاً، التراث من صنع البشر، والتراث ثقافة أمة، وعاداتها، وتقاليدها، ذاك هو التراث، أما ديننا فهو وحي السماء، والشيء المعصوم هو الوحي فقط.

العلم التجريبي يصيب ويخطئ أما الوحي الإلهي فحقٌّ صرف :

أضرب لكم مثلاً؛ أنت أمَام مذياع قديم، فتحتَ داخله فإذا فيه " لمبات" نزعت واحدة فانقطع الصوت، فقلت: هذه للصوت، هذا اسمه علم تجريبي، هي ليست للصوت، ولكنها وُضعت على طريق الصوت، فلما نزعتها وانقطع الصوت توهَّمتَ أنها للصوت، إنها على طريق الصوت، فعلمُ الإنسان علم تجريبي، يصيب ويخطئ، أما لو أنك توجّهتَ إلى مخترع هذا الجهاز لقال لك: هذه لسبعة عشر هدفاً، هي هكذا، فحينما تأخذ الحقيقة من الله مباشرة، هذا هو الوحي، وحينما تأخذ الحقيقة من التجارب، هذا اسمه علم تجريبي، فالعلم التجريبي يصيب ويخطئ، أما الوحي الإلهي فحقٌّ صِرف، الحقيقة قد نصل إليها عن

طريق التجربة، وقد نعرفها عن طريق الوحي، لكن مع الوحي هناك عصمة وصواب مطلق، أما مع التجربة فهناك خطأ وهناك صواب، وأحيانا التجربة لا تسمح لك أن تستفيد من هذا الخطأ، أنت أمام كرة حديدية يا ترى أهي قنبلة؟ لا، ليست قنبلة، احترت، تعال نجرِّب، لو أمسكتها وانفجرت خلال عشر الثانية لعرفتَ أنها قنبلة، ولكن لم يبق لك في الحياة وقت تنتفع بهذا الدرس، وهذا ما حصل للعالم الآن، فقد تركوا الدين، وانفلتوا، وانهاروا في إباحية واختلاط وزنى وشذوذ، وأصبح هذا الانحراف جزءاً من حياتهم، وبعدما عرفوا الحقيقة المرة لم يعودوا يستطيعون الخروج منها، فليس كل مَرة تستفيد من التجربة، في معظم الحالات التجربة مُرة، لن تسمح لك أن تستفيد منها، أما حينما تكون مع الوحي، فالوحي كله واضح، إنّه وضوح وتعلُّم من دون ثمن.

أيها الأخوة، فالوحي حق مطلق، وعصمة مطلقة، أما التجربة ففيها خطأ وفيها صواب، نصيب ونخطئ، فإذا أصبنا ربما لا نستطيع أن ننتفع من هذه التجربة، لذلك فعظمةُ هذا الدين من عند خبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

الوحي معصوم من الخطأ وهو يقدِّم لنا خبرات خالق الكون :

الخبير أنزل هذا القرآن، فأنت حينما تتبع هذا الكتاب فلن تخطئ، ولن تقع في شر عملك، ولن تقع في مطبٍّ، ولا تحتاج إلى أن تدخل محاكم، لأنه كتاب وقاية، وكتاب هداية، وكتاب منهج، فالوحي عصمة مطلقة، أما العلم فخطأ وصواب، مثلاً؛ العالم الشرقي قبل انهيار الاتحاد السوفيتي بسنتين أو ثلاث حُرمت فيه الخمر، بعد أن شعروا أن أربعة أخماس طاقاتهم ومواردهم تذهب إلى الفودكا، إلى الخمر، فحُرِّمت الخمر بعد تجربة مُرة، والتحريم كان شكلياً، وبعد أن تغلغلت في دم شاربيها لم يستطع القانون أن يمنع هذه المعصية، فمثلاً في بعض بلاد الغرب الانحراف بلغ درجة معقولة، الآن بعض الدول في أوروبا تعطي المخدرات وتوزعها في الطرق مجاناً على مدمنيها من أجل أن يأخذوا هذه المخدرات بحقن معقمة، لئلا تنتقل إليهم الأمراض، فالإدمان بلغ درجة مخيفة، ففي أمستردام قبل سنوات سارتْ مظاهرة تُعدُّ أكبر مظاهرة في العالم، مئات الألوف كلهم شاذّون يطالبون بحقوقهم المدنية، فبعد أنْ أطلقنا للإنسان شهواته فإنْ عرفوا بعدها الحقيقة فلن يجدوا طريقاً إليها، والآن الغرب يقتنع بانتهاء مجتمعه، ومجتمع الغرب في طريق الانحلال، والذين يقومون بإدارته نخبة من الجيل السابق، أما إذا ابتعد هذا الجيل السابق عن مراكز القيادة فالجيل اللاحق جيل منحلّ، حتى في البلاد التي تتحكم في العالم، فالذين يتحكمون في العالم ليسوا من أبناء هذه البلاد، بل هم ممّن هاجر إليها، وهم ذوو إمكانات

عالية جداً، فالوحي معصوم من الخطأ، والوحي يقدِّم لك خبرات خالق الكون، خبرات عالية جداً، إنه الخالق، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أما التجربة فقد تصيب وقد تخطئ، فإن أصابت فربما لا تنتفع بها، وهناك نقطة دقيقة جداً، الإنسان حينما يخطئ قد يتوهم أنه في أي لحظة يتوب، ثم لا تستطيع أن تتوب بعدئذ، وهناك معاصٍ لها قوة جذب قوية جداً، فحينما تنهار في هذه المعصية، وأنت تعلم علم اليقين أنك تنهار، وأنها مهلكة لا تستطيع أن تبتعد عنها، فما كل تجربة نافعة، مثلاً؛ في أمريكا رئيسها قبل سنتين قال: تواجه أمريكا خمسة أخطار مدمرة فأصغيتُ إلى أن سمعت بقية الخبر، تصورت خطر اليابان مثلاً، أو خطر أوروبا المتحدة، أو خطر الصين فرضاً، لا، ولكنه خطر المخدرات، وخطر تفكك الأسرة، والانحلال الأخلاقي، وشيوع الجريمة، هذه هي الأخطار، لأننا تركنا منهج الله عز وجل تفلَّت المجتمع، ولما قُطعت الكهرباء في نيويورك؛ طبعاً هناك المجتمع منضبط إلكترونياً وليس أخلاقياً، تَمَّتْ مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة، سُرق مليونا دولار في ليلة واحدة، فلما انقطعت الكهرباء انتهت الرقابة كلُّها، وكل شيء اسمه حاسوب أو قاعة مراقبة أو طريق مراقب، لم يعد له فائدة.

قانون الله عز وجل لا يعدل لأنه من عند خبير :

أيها الأخوة، الوحي معصوم، والوحي من عند خبير، أما التجارب الإنسانية فتصيب وتخطئ، وحينما تصيب ربما لا ننتفع من صوابها، لأن صوابها جاء متأخراً، وهذا حال العالم اليوم، فقد جاء الصواب متأخراً، والآن يفكرون في العالم الغربي بأن يخصِّصوا للطلاب جامعات، وللطالبات جامعات، بعد أن أصبح عدد اللقطاء يفوق حد الخيال، وفي بعض الشعوب في أوروبا أربعون بالمئة من اللقطاء، هذا إنسان وُلد في المستشفى ليس له أب ولا أم، عنده حقد على المجتمع، مريض نفسياً، هذا دَرَسَ وتعَلَّم وصار في منصب عالٍ جداً، وهو بهذه النفسية، فخاصِّيّة الوحي أنه معصوم، لكن العلم التجريبي يصيب ويخطئ، فكم من نظرية جاء بها العلماء ثبت بطلانها بعد التجربة،لذلك فلن تجد تعديلاً لقانون الله عز وجل، لأنه من عند خبير، وخبرة الله قديمة، قال تعالى:

(ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ*مُطَاعٍ)

سيدنا جبريل يأمر ملائكة دونه، وهو مطاع في أمره، مكين، قال تعالى:

(مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

أي أمين على وحي السماء، فلا يزيد كلمة ولا ينقص، قال تعالى والكلام موجَّهٌ للنبي:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ*ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ*فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

المجنون مَن عصى الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

مَن هو صاحبكم؟ هو رسول الله، نشأ بينكم، تعرفون صدقه وأمانته وعفافه واستقامته ونسبه، وحينما عرف ربه واستقام على أمره ودعا إليه لم يكُ هذا جنوناً، لأنّ المجنون مَن عصى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)

رأى جبريل عليه السلام ملء الأفق، هكذا يقول بعض المفسرين، قال تعالى:

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

هذا الوحي الذي ينقله جبريل ما هو متَّهم عليه لأنه أمين، قال تعالى:

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ*فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

الإنسان مخيّر والنبي الكريم ليس مسؤولاً عن عدم هدايته :

إذا أصيب إنسان فرضاً بمرض شديد، وأمامه مستشفى، وعلاجه في هذا المستشفى، تركه وذهب، نقول له: إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين؟ هنا العلاج، هنا الدواء، فالإنسان عندما ينصرف عن الدين نقول له: إلى أين أنت ذاهب، إلى المتع، إلى الملاهي، هناك موت، وحساب، وعذاب، هناك جنة إلى الأبد، ونار إلى الأبد، فإلى أين أنت ذاهب؟ فالإنسان حينما ينصرف عن الدين، عن درس علم، عن معرفة الحقيقة، عن طاعة لله، عن صلوات، إلى أين ذاهب؟ انظر إلى السيارات يوم الجمعة وقت صلاة الجمعة، هي متجهة إلى المصايف، هذا وقت صلاة جمعة، وقت فريضة:

((عَنْ أَبِي الْجَعْدِ يَعْنِي الضَّمْرِيَّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ فِيمَا زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي الجَعْدِ يَعْنِي الضَّمْرِيَّ]

قد نقول: إلى أين أنتم ذاهبون؟ إلى نزهة، إلى منظر جميل، إلى تناول طعام، تركتم فريضة الجمعة، قال تعالى:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ* إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

تذكرة، لأن الإنسان مخيّر، تذكرة، فأنت مخيّر، والنبي عليه الصلاة والسلام قال الله له:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

لأن الإنسان مخيّر، وقال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

كما أنك لست مسؤولاً عن عدم هدايتهم.

الاختيار لولا أن الله شاءه للإنسان لما كنت مختاراً :

قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

أنت إذا شئت أن تستقيم فكل شيء ميسّر أمامك، وإن أردت الحقيقة فكل شيء يدلّك عليها، إن أردت الوصول إلى الله فالطرائق إلى الخالق بعَدَد أنفاس الخلائق، إنْ أردت أن تستقيم فكل شيء ميسّر، دروس العلم، والدعاة إلى الله، والعمل الصالح، والتوفيق إن أردت الاستقامة، فكل شيء ميسّر لك، قال تعالى:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إياكم أيها الأخوة ثم إياكم ثم إياكم أن تفهموا هذه الآية فهماً جبرياً، افهموها فهماً تفضُّلياً، كيف؟ كل مكانتك أيها الإنسان لأنك مخيّر، ولولا الله شاء لك أن تختار لما كنت مختاراً، وكل ما تصل إليه من سعادة أبدية في جنة عرضها السماوات والأرض لأنك مخير، واخترت الحق على الباطل، والهداية على الضلالة، وطاعة الله على معصيته، هذا الاختيار لولا أن الله شاءه لك لما كنت مختاراً، لو كنت كالجماد، كالحيوان، كالصخر، كالجلمود، قال تعالى:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وما كان لكم أن تشاؤوا لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا، هذا المعنى.

فهذه الآية قد تُفهم فهماً جبرياً، وهذا الفهم الجبري عقيدة فاسدة، ما أرادها الله عز وجل، وقد تُفهم فضلاً تفضُّلياً، أي أن الله تفضل علينا ومنحنا حرية الاختيار:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

الإنسان مكرّم وهو المخلوقُ الأولُ المكلّفُ :

إنّ أبواب الجامع مفتوحة، وأبواب الملاهي مفتوحة، لك أن تصلي ولك أن تذهب إلى ملهى، لك أن تصدق، ولك أن تكذب، ولك أن تتقن، ولك أن تهمل، لك أن ترعى، ولك أن تسيِّب، لك أن تكون مخلصاً أو أن تكون خائناً، لك أن تتعرف إلى الله ولك أن تتعرف إلى الشياطين، إلى شياطين الإنس والجن، لك أن تقرأ عن أصحاب رسول الله ولك أن تقرأ عن الفنانين والفنانات الأحياء منهم والأموات، كل ذاك ممكن، أنت مخير، فلك أن تذهب إلى مسجد، ولك أن تذهب إلى ملعب، هذه الأبواب مفتوحة، وأبواب المساجد مفتوحة:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذه المشيئة التي تنعمون بها، والتي هي سبب سعادتكم الأبدية، إن هذه المشيئة شاءها الله لكم، وتفضّل عليكم، وشاءها لكم، ولولا هذه المشيئة الإلهية لما شئتم، ولكنتم كمخلوقات في درجة دنيا، هناك مخلوقات كثيرة، هو مخلوق، ولكن ليس له هذه المكانة العالية، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

فالإنسان مكرّم، وهو المخلوقُ الأولُ المكلّفُ، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانفطار 082 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-06 ، صور عن أهوال يوم القيامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-05-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

مشهد من مشاهد انقلاب الكون من وضعه الراهن إلى وضع آخر :

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الانفطار:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ* وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أيها الأخوة، مشهد آخر من مشاهد انقلاب الكون من وضعه الراهن إلى وضع آخر، فهناك تغييرات جذرية سوف تطرأ على هذا الكون العظيم يوم القيامة، فالسماء تنفطر أي تنشق، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

وقال:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[سورة الرحمن: 37]

آيات كثيرة تؤكد انشقاق السماء أما شكل هذا الانشقاق فالله أعلم به :

آيات كثيرة تؤكد أن السماء سوف تنشق، والذي يؤكد حتمية انشقاقها كلمة (إذا)، لأن إذا تفيد وقوع الشيء قطعاً وتفيد حتمية الوقوع، أما (إنْ) فهي لاحتمال الوقوع قال تعالى:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات: 6]

قد يأتي وربما لا يأتي، بينما إذا قال الله عز وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

نصر الله لا بد آت، وهو حتميٌّ الوقوع، فإذا انفطرت السماء لم تبْق هذه السماء على حالها ووضعها وسوف تنشق، أما كيف تنشق؟ وما صورة انشقاقها؟ وما طبيعة انشقاقها؟ فهذا غيب لا نعلمه، فالانشقاق واقع أما كيفية هذا الانشقاق فلا نعرف عنه مثقال ذرة من علم.

آيات كثيرة تؤكد هذا الانشقاق، أما شكل هذا الانشقاق فالله أعلم به، وعلى ذكر كلمة الله أعلم، الإنسان يكون في أعلى درجة من العلم، وهناك أشياء كثيرة لا يملك لها تفسيراً، فربنا عز وجل يقول:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

أي هذه السماء سوف تنشق، وسوف تنفطر، وسوف يختل نظامها، وسوف تغدو في حالة أخرى:

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

تمدد الكون و انكماشه وفق قانون سنَّه الله له :

ذكرت أن بعض النجوم تنفجر وأن هذا الكون في حياة مستمرة، يتوسع وينقبض:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)

[سورة الأنبياء: 104]

وهناك آية أخرى:

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات: 47]

فهذا الكون يتمدد وينكمش وفق قانون سنَّه الله له:

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

أي انفرط عقدها، هناك نظام بديع جداً يحكم الكواكب كلها، كل كوكب يسير في مسار مغلق، وهذه الحركة تجعل هذا الكوكب منفصلاً عن الكواكب الأخرى، لو توقفت هذه الحركة لأصبح الكون كله كتلة واحدة، لأن هناك حركة، وهذه الحركة ينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القوى الجاذبة، أي هناك قوانين جذب بين نجوم السماء عجيب جداً، وهذا معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

كل كوكب مربوط بمنظومة جذب مع الكواكب الأخرى وهذه المنظومة عجيبة جداً :

هناك ترابط بين الكواكب، إما بقوى تجاذب لا نراها بالعين، قالوا: إن الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذب تساوي مليون مليون حبل فولاذي، قطر كل حبل خمسة أمتار، وكل حبل يحتمل من قوى الشد مليوني طن، مليونان مضروبة بمليون مليون، هذه قوة انجذاب الأرض للشمس، فكل كوكب مربوط بمنظومة جذب مع الكواكب الأخرى، وهذه المنظومة عجيبة جداً:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

أي بعمد لا ترونها، إنما هي قوى الجذب، فكل كوكب منجذب إلى كوكب آخر بقانون الجاذبية، والقانون دقيق جداً، وعوامل الانجذاب الكتلة والمسافة، المسافة تلعب دوراً في الانجذاب، فكلما زادت ضعُفَ الجذب، وكلما نقصت زاد الجذب، والكتلة تلعب دوراً آخر بهذا الجذب، فالكتلة الأكبر تجذب الأصغر، ففي هذا الكون نظام جاذبي يجعل هذا الكون على وضعه الراهن، والكواكب لا يصطدم بعضها ببعضٍ، ولا تخرج عن مساراتها، فكل كوكب له مسار يسبح فيه، وهذه المسارات قد تكون إهليلجية، بيضوية، لها قطر أقصر، وقطر أكبر، فحينما يصل الكوكب إلى القطر الأصغر تقل المسافة بينه وبين النجم المركزي، فبدل أن ينجذب إلى هذا النجم الأكبر يرفع سرعته لتنشأ قوة إضافية نابذة تكافئ القوة الجاذبة، وهذا مِن صُنع الله عز وجل.

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

أي نظام هذا الكون انفرطت عقده، فهذه النجوم بدل أن تبقى في مسارات مغلقة تدور حول بعضها بعضاً، منضبطة في مساراتها، لا تحيد قِيد أنملة، ينفرط عقد هذا النظام، وتتفلت هذه الكواكب والنجوم، وتسبح في الفضاء الخارجي.

يوم القيامة ينفرط عقد هذا النظام وتتبعثر الكواكب والنجوم وتسبح في الفضاء الكوني:

قال بعض العلماء وهو ليس من المسلمين ولا تعنيه آيات القرآن الكريم: لو أن الأرض فرضاً خرجت من مسارها، وتفلتت من جاذبيتها للشمس، وخرجت في الفضاء الكوني ماذا نفعل كي نعيدها؟ لا بد من مليون مليون حبل فولاذي، وكل حبل قطره خمسة أمتار، فلو أن هذه الحبال الفولاذية كل حبل يقاوم من قوى الشد مليوني طن، لو أننا زرعناها في الأرض في الوجه المقابل للشمس، ماذا يحصل؟ يحصل معنا أن بين كل حبلين مسافة حبل واحد، إذاً نحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، وهذه الغابة تعيق

الحركة، وتعيق الزراعة، وتعيق البناء، وتعيق التنقل، ولأصبحت الأرضُ غابة مظلمة، لو أن هذه الأعمدة كانت مرئية قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

فنحن في الأرض، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

كل كوكب له مسار، فالله يمسك هذه الكواكب أن تخرج عن مسارها، وعن سكّتها، وعن الطريق المرسوم لها، أما يوم القيامة فينفرط عقد هذا النظام، وتتبعثر هذه الكواكب والنجوم، وتسبح في الفضاء الكوني بلا نظام، وبطريقة أخرى.

أيها الأخوة، لفتُ نظرنا لهذه المظاهر التي سوف تكون من أجلِ أن نقدِّر النظام القائم، أي الشيء يُعرف بضده، والأمور تُعرف بنقيضها، وربنا عز وجل كأنه يلفت نظرنا إلى هذا النظام البديع، النجوم الآن ليست متنافرة، النجوم متماسكة، النجوم منضبطة، النجوم كلها في مساراتها، وهي كلها وفق نظام دقيق، أرأيتم إلى هذه القوة التي تربط الأرض بالشمس، مليون مليون مضروبة بمليوني طن، هذه القوة الكبيرة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمتر كل ثانية، إذا حُرِّفت ثلاثة ميليمتر كل ثانية بقيت في مسار مغلق حول الشمس، أما لو أن الأرض تفلتت فمن ذا الذي يقوى على أن يعيدها إلى مسارها؟ الله جل جلاله:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

الزوال هنا أن تخرج عن مسارها، فالسماء تنشق، والكواكب تنتثر، أي النظام الذي يحكم السموات سوف ينتهي.

البحار من آيات الله الدالة على عظمته :

أحياناً بناء شامل سوف يُهدم؛ إما بقنبلة من داخله فيتهاوى على بعضه البعض، أو بآلة كبيرة جداً تقطعه من أساسه:

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)

[سورة النحل: 26]

أي هذا البناء انتهى، انتهت مهمته ودوره، ولا بد أن يُلغى، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

الحقيقة أن البحار من آيات الله الدالة على عظمته، البحار أربعة أخماس اليابسة، فيها تقريباً مليون نوع من السمك، ولا تجد في الأرض كثافة أنواع وأشياء صارخة إما في التوحش، أو في الجمال، أو في الرقة كحيوانات البحر، والأسماك تزيد أنواعها عن مليون نوع في البحر، ولها نظام عجيب، ولها طرائق خاصة في الحياة، وهذه البحار يصل عمقها أحياناً إلى اثني عشر كيلومتراً في خليج مريانا في المحيط الهادي، هذه البحار من أي شيء تتألف؟ من الماء، والماء ما تركيبه؟ أكسجين وهيدروجين، غاز من أعلى أنواع الغازات اشتعالاً، وغاز يعين على الاشتعال، اتّحدا مع بعضهما بعضاً فشكلا ماءً تُطفأ به النيران، هذا دليل على عظمة الله عز وجل، فإذا أراد الله عز وجل أن يفجّر هذه البحار يُلغي هذه العلاقة المُطفئة في الماء، فيتحد الأكسجين مع الهيدروجين، ويكوّنان انفجاراً، أين منه القنابل النووية اليوم؟! قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

يُبعث الناس من قبورهم ليُحاسبوا حساباً دقيقاً عن كل أعمالهم في الدنيا :

تصور عندما يُفجَّر بئر نفط! الألسنة تصل إلى أعلى السماء، وعندما تلتهب ناقلة بنزين ماذا يحصل؟ تصور هذه البحار التي هي أربعة أخماس اليابسة تتفجر، ماذا تكون المحصِّلة؟!! قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

لعل البحار تمتلئ فتطغى على اليابسة، أو لعل الحواجز بين البحار تتهدم، أو لعل ماء البحار يشتعل، كل هذه المعاني وردت في التفاسير، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

حينما أبعثر حاجات هذه الغرفة، وأقلّبها رأساً على عقب، وأجعل عاليها سافلها فقد بعثرت أشياءها كلّها، ومعنى بعثرت القبور أيْ أصبحَ ما فيها على ظهرها، أي يُبعث الناس من قبورهم ليُحاسبوا حساباً دقيقاً عن كل أعمالهم في الدنيا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أيها الأخوة، عالم من العلماء الأجلاء أتى ببرهان على أن الإيمان باليوم الآخر أصله عقلي، ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا فيها حظوظ متفاوتة، فمِن إنسان غني إلى إنسان فقير، ومن إنسان قوي إلى إنسان ضعيف، ومن إنسان ظالم إلى مظلوم، ومن إنسان طويل العمر إلى إنسان قصير العمر، ومن امرأة مُنحت مسحة من الجمال عالية إلى امرأة دميمة، فهناك تفاوت كبير في الحظوظ، والآن مع حركة البشر هناك من يظلِم، وهناك من يُظلَم، وهناك من يأكل حق أخيه، هناك من يَقتُل، وهناك من يُقتَل،

هناك من يُعتدى عليه، وهناك من يعتدِي، هناك من يَستغل، وهناك من يُستَغَل، هذا الوضع غير طبيعي، فلا بد أن تؤمن بيوم آخر، يوم القيامة، في هذا اليوم تسوَّى فيه الحسابات، ويؤخذ حق الضعيف من القوي، ويؤخذ حظ المظلوم من الظالم، وكل إنسان يُجزى بعمله.

الإيمان بالآخرة يعكس الموازين :

الحقيقة حينما تؤمن باليوم الآخر لا بد أن تنعكس عندك المقاييس رأساً على عقب، فتصور إنساناً لم يؤمن باليوم الآخر، يرى التفوق في ابتزاز أموال الآخرين، وفي السيطرة عليهم، وفي استهلاك جهودهم، وفي الهيمنة عليهم، وحينما يؤمن باليوم الآخر تنعكس موازينه، فيرى التفوق في رعايتهم وخدمتهم ونفعهم والتواضع لهم وإعطائهم حقهم، لذلك ترى بوناً شاسعاً بين المؤمن والكافر، المؤمن يعطي، والكافر يأخذ، المؤمن يعيش للناس، والكافر يعيش الناس له، المؤمن كل همِّه أن يقف عند منهج الله عز وجل، والكافر لا يعبأ بمنهج الله، ويتحرك وفق شهوته، لذلك صنَّف الله عز وجل البشرَ إلى نموذجين على اختلاف مللهم، ونِحلهم، وعلى اختلاف أعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، ودياناتهم، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

أي بنى المؤمنُ حياته على العطاء، وبناها الكافر على البخل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل: 8]

فأما مَن أعطى، وأما مَن بخل، أعطى واتقى أي اتقى أن يعصي الله عز وجل، والآخر بخل واستغنى عن طاعة الله، الأول:

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 6]

صدَّق أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة الانضباط والعطاء، والآخر:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 9]

فلما كفر بالحسنى استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على أن يأخذ ما عند الناس، لا أن يعطيهم شيئاً، لذلك أعطى الأنبياء كلَّ شيء، وأخَذ الأقوياء كلَّ شيء، وملَكَ الأنبياءُ القلوب، وملَك الأقوياء الرقاب، فكان سلاح الأنبياء الكمال، وسلاح الأقوياء البطش، فلذلك الإيمان بالآخرة يعكس الموازين.

إن لم تنعكس موازينك كانت حياتك معكوسة وفطرتك معكوسة :

بصراحة إن لم تنعكس موازينك كانت حياتك معكوسة، فطرتك معكوسة، فالمؤمن بالآخرة يستوي عنده التبر والتراب، أي المئة مليون تحت قدمه إذا كانت فيها شبهة، فلا يبحث إلا عن دخل حلال، ولا يفعل إلا فعلاً يرضى الله عنه، أمّا غير المؤمن فهو دابة متفلتة، لا انضباط له إطلاقاً، فالذي يعنينا من قول الله عز وجل:

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

معنى (بُعثِر)، أي بعثر ما فيها من مخلوقات، وخرجوا إلى ظاهرها ليُحاسبوا على أعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ*عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 9-10]

يوم الامتحان عسير على الكسول، لأنه لم يدرس، ويحاول أن يغشّ، فإذا به أمامَ مَن يردعه، وهناك مَن يكتب ضبطاً بحقه، فيحرمونه ستّ سنوات أحياناً، والامتحان عنده مشكلة، أما الطالب المجتهد فالامتحان متعة له، لأنه سوف يُعبِّر عن جهده بهذه الكتابات المنضبطة، إذاً:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ* وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

الإنسان حركته في الحياة تتلخص بشيئين شيء فعَلَه وشيء لم يفعله :

الإنسان حركته في الحياة تتلخص بشيئين؛ شيء فعَلَه، وشيء لم يفعله، فالشيء الذي فعله ليته لم يفعله، والشيء الذي لم يفعله ليته فعله، هذا هو الكافر، أمّا المؤمن فشيء فعله ليته فعلَ أضعافه، وشيء لم يفعله ليته ابتعد عنه أضعافاً:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أنت ماذا قدمت لله عز وجل؟ سوف تُعرَض على الله يوم القيامة، وسيقف كل إنسان بين يدي الله، ماذا فعلت من أجلي يا عبدي؟ هيئ الجواب مِن الآن، يا رب أنا اعتنيتُ ببيتي عناية بالغة وزيَّنته، فهل هذا الكلام مقبول عند الله عز وجل؟ يا رب أنا استمتعت بالحياة إلى أعلى درجة، وكان لي ذوق عالٍ في الطعام جداً، وكان لي رغبة في السفر والانطلاق، فهل هذا الكلام مقبول؟ ماذا فعلت؟ جئتُ بك إلى الدنيا كي تأتيني بعمل صالح، فما هو العمل الصالح الذي فعلتَه من أجلي؟ هل ربيت أولادك؟ هل أخذتَ بيد الناس إلى الله عز وجل؟ هل فهمتَ كلامي؟ هل عملتَ به؟ هل تعلمتَ القرآن؟ هل علّمته؟ هل كنتَ

وقافاً عند حدودي؟ هل آمنتَ برسلي؟ هل رعيتَ اليتيم؟ هل عطفتَ على الأرملة والمسكين؟ هل أنفقت من مالك الذي جمعته بكدك في سبيلي؟ هل أنفقت من علمك؟ ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟

وقد قيل: الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فلو أنك وقفت بين يدي الله عز وجل ليسألك: منحتك الكون، قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

منحتك الكون، منحتك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، منحتك زوجة وأولاداً، ذكوراً وإناثاً، وبيتاً ومأوىً، ماذا فعلت من أجلي؟ ماذا قدمت؟

ما الذي قدمناه في سبيل الله؟ سؤال ينبغي ألا يغادرنا ولا لثانية واحدة :

هذا السؤال أيها الأخوة الكرام ينبغي ألا يغادرنا ولا ثانية واحدة، ماذا قدمت في سبيل الله؟ إنسان قدّم علمه، وغيرُه قدّم ماله، وآخرُ قدّم خبرته، ورابعٌ قدّم جهده، ومنهم مَن قدّم النصيحة للمسلمين، وغيره نفع المسلمين باختصاصه وخبرته وعلمه، يا رب فعلت هذا في سبيلك، امرأة عمران ماذا فعلت؟

(رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً)

[سورة آل عمران: 35]

هل هناك أمٌ تقول: يا رب هذا الحمل الذي في بطني هو نذر لك، سأعتني به ليكون عبداً من عبادك الصالحين، واللهِ الأم إذا فعلت هذا، فنذرت ما في بطنها لله محرراً، وربّت أولادها تربية عالية جداً، واللهِ هذه هي الأم الأولى في الأرض، وهي الأمّ المثالية، أنت معك اختصاص لغة أجنبية، هذا الاختصاص ماذا فعلت به؟ هل وظّفته في نشر الحق؟ في ترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى اللغات الأجنبية؟ أنت رزقك الله مالاً، فماذا فعلت به؟ هل أنفقته على مُتَعك الدنيوية، أم خصصت منه للأيتام والفقراء والمساكين وطلبة العلم؟ هذه هي النقطة الدقيقة، اسأل نفسك كل يوم: ما العمل الذي سوف تعرضه على الله عز وجل؟

يا عبدي ماذا فعلت؟ يا رب علّمت العلم في سبيلك، فإن كنت صادقاً في هذا ومخلصاً قَبِله الله منك، وإلا يقال لك: كذبت، تعلمت العلم، وعلّمته ليقال عنك: عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار، يا رب قرأت القرآن، فإن كان صادقاً قبله الله منه، وإن لم يكن كذلك يقول: عبدي قرأتَ القرآن ليقال عنك: قارئ، وقد قيل، خذوه إلى النار، يقول: ماذا فعلت أنت في سبيلي؟ يا رب قاتلتُ الكفار والمنافقين، قاتلتَ ليقال عنك: شجاع، وقد قيل خذوه إلى النار.

هذا السؤال اليومي: ماذا فعلت في سبيل الله؟ هل احتسبت اختصاصك وحرفتك، وهل وظّفتها في الحق؟ مالُك هل أنفقته على كل محتاج ومسكين؟ علمُك هل بذلته أم لم تبذله؟ أولادك هل ربَّيتهم؟ هل كان يهمك طعامهم وشرابهم وشهاداتهم، أم كان يهمك إيمانهم واستقامتهم؟ هذا سؤال يومي؛ فما العمل الذي ادخرته لله عز وجل؟

مِن عظمة هذا القرآن أنه يخاطب العقل تارة والعاطفة تارة أخرى :

هناك أناس في الستين وفي السبعين يمضون سهراتهم في لعب النرد، ومتابعة المسلسلات، يقال: ماذا ادّخرت لله عز وجل؟ ماذا خبأت لليوم الآخر؟ هذا السؤال أيها الأخوة سؤال يوميّ، ما العمل الذي ادخرته لآخرتك؟

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

الآن يخاطب الله هذا الإنسان:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

بالمناسبة مِن عظمة هذا القرآن أنه يخاطب العقل تارة، والعاطفة تارة أخرى، والذين خاطبوا العقل فقط لم ينجحوا في دعوتهم، والذين خاطبوا العاطفة وحدها لم ينجحوا في دعوتهم، ولكن الدعاة الناجحين هم الذين وفّقوا بين العقل والعاطفة، فكانوا يخاطبون العقل تارة، والعاطفة تارة أخرى، لكن هذه الآية من أدقّ الآيات في القرآن الكريم، هناك آية واحدة يتوجه الله إلى عقل الإنسان وإلى عاطفته في وقت واحد، قال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

بالمناسبة ما هو الغرور؟ أن تعطي الشيء حجماً فوق حجمه، فقد يجد الإنسان علبة غالية على الرصيف، فيتوهم أن فيها حاجات ثمينة، فإذا فتحها وجدها فارغة، فيصاب بحالة غرور، اغترّ بها، وتوهم أن فيها قطعة ألماس، أو قطعة من الحليّ الثمينة، فإذا فتحها وجدها فارغة، فهذا الإحباط وخيبة الأمل هي الغرور، فالإنسان قد يغتر بالدنيا، وقد يعطيها حجماً أكبر من حجمها، وقد يظنها في أول حياته هي كل شيء، فإذا امتد به العمر رآها شيئاً، وليست كل شيء، فإذا كان على وشك مغادرتها يراها ليست بشيء.

اجلس مع شخص بالعشرينات، وآخر بالأربعينات، وآخر بالسبعينات فترى أن الدنيا عند الشاب هي له كل شيء، في بيوتها، ونسائها، ومركباتها، وشركاتها التجارية، حتى جعل ساحة نفسه كلها الدنيا، في الأربعين أو الخامسة والأربعين يهتم بالدين، وبقراءة القرآن، ومعرفة ربه، أما بالسبعين فيهتم بالآخرة،

فكان المال في أول حياته هو كل شيء، في وسطها شيء، في آخرها ليس بشيء، وقِس على ذلك كل شيء، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

قد يغتر الإنسان بالدنيا فيعطيها حجماً كبيراً وهي أقل من هذا بكثير :

أيها الأخوة، حقيقة مهمة جداً، كما قال الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

وقع في الغرور، قد يغتر الإنسان بالدنيا فيعطيها حجماً كبيراً، وهي أقل من هذا بكثير:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي وابن ماجة عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

بعض الأخوة الكرام يدخلون في تجارة كبيرة جداً، ويصابون بأزمات خارقة، يقول لي أحدهم: واللهِ أتمنى أن آكل خبزاً يابساً، وألا أكون في هذه التجارة، الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة، هناك تجارة متعبة وضاغطة، وقد تصيب صاحبها بمرض عضال:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

قد نغتر بالدنيا فنعطيها حجماً فوق حجمها، لكن ما معنى أن نغتر بالله؟ الأمر يختلف، أي ظننتَ اللهَ عز وجل بشيء، وهو ليس كذلك! هذا المعنى لا يستقيم مع الله عز وجل.

العقيدة الفاسدة تشلُّ حركة الإنسان :

ما معنى أن نغترّ بالله؟ الإنسان له عند قاضٍ دعوى، فتوهم أن هذا القاضي لو قدّم له هدية قبل الحكم لأصدر حكماً لصالحه، والقاضي أنزه وأعظم من ذلك، فلما اكتشف الحقيقة المُرَّة خسر خسراناً مبيناً، نقول: هذا المتهم اغترّ بالقاضي، أي ظن أنه يصدر حكماً لصالحه على بطلانه وهو ليس كذلك، اغتر الإنسان بالله أي ظن أنه لا يحاسب عباده أبداً ففوجئ بالعكس، ظن أن هذا المبلغ الذي أخذه سوف يُسامَح فيه، فإذا ربنا عز وجل يحاسبه عليه حساباً عسيراً، فيجب على الإنسان أن يعلم الحقيقة المرّة، ويجب أن يؤثرها على الوهم المريح، لأن معظم المسلمين يعيشون وهماً مريحاً باعتبار أنّ النبي سوف يشفع لهم، فيقترفون المعاصي والآثام، وهكذا يسمعون من بعض الدعاة؛ أن النبي سوف يشفع لهم على

كل أخطائهم، هذا فهْم ساذج وهذا الفهم يُقعِد الإنسان عن العمل، وهذه العقيدة الفاسدة تشلُّ حركة الإنسان.

يا فاطمة بنت محمد يا عباس عم رسول الله أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم:

((حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذه حقيقة، عوّد نفسك أن تكون مع الحقيقة المرة لا أن تكون مع الوهم المريح، إنسان في جيبه شيك بمئة ألف دولار، لكنه مزوّر، الأولى أن يعلم أنه مزور، أو ألا يعلم، دعه مرتاحاً، يظن نفسه غنياً كبيراً، ولو أبرز هذا الشيك، لاعتُقِل به، وفقَدَ حريته، وتلاشت كل آماله، لا، فالأولى به أن يعرف هذا في وقت مبكر حتى يسعى، فكم من مسلم يعيش أوهاماً ليست صحيحة.

المسلمون وقعوا في الأماني التي وقع بها اليهود :

قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

مستحيل، لقد فعلت اليهود هذا، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

وقال:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

كلها أماني، والمسلمون وقعوا أيضاً في مثل هذه الأماني، والله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

كل إنسان ينسى عقاب الله وحسابه فهذا إنسان اغترّ بالله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

قد يغتر الإنسان بأنّ الله لن يُحاسِب، يقول لك: لا تدقق، إنّ الله لن يحاسبك هذا الحساب الشديد، وإنّ الله لغفور رحيم، لمجرد أن تقول: إن الله غفور رحيم بسذاجة فأنت قد اغتررتَ بالله عز وجل:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ*وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة الزمر: 53-55]

فجأة يأتي العذاب، فكل إنسان ينسى عقاب الله، وينسى حساب الله، وينسى عدل الله، ويتحرك على مزاجه وعلى هوى نفسه، ويقول الله غفور رحيم، فهذا إنسان اغترّ بالله.

الله عز وجل عدلٌ يعطي كل ذي حق حقه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

ولْنضْرِبْ على هذا مثلاً؛ ابن والده أستاذ في الرياضيات، وفي شعبته، يقول: ليس من المعقول بأن يرسِّبني أبي، ولكنّ أباه نزيهٌ جداً، لم يدرس الابنُ فرسب، اغترّ بوالده، وظن أن أباه سيُحابيه، أو سيسرب له الأسئلة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

إنّ الله عز وجل عدلٌ، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وإنّ الله عز وجل يعطي كل ذي حق حقه:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

قال له: يا رسول الله عظني ولا تُطِل، قال له: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، قال: كفيتُ يا رسول الله، فقال النبي: فَقُهَ الرجل.

الاغترار بالله عز وجل أن تظن أنه لن يحاسب ولن يعاقب :

الاغترار بالله عز وجل أن تظن أنه لن يحاسب وأنه لن يعاقب، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

أي شاب متفلت، منحرف الأخلاق، يفعل كل شيء، ويأكل كل شيء، ويجلس مع من يشاء، ليس عنده قيد، وشاب مستقيم، مِن رواد المساجد، يخشى الله، ويتوجه إليه، ويخلص إليه، ويخطب ودّه، أيعقل أن يُعامل هذا كهذا، أو هذا كذاك؟ مستحيل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

وقال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

وقال أيضاً:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم:35-36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

الله عز وجل يُمهل ولا يُهمل :

إن لم تؤمن بهذه الآيات فأنت مغترّ بالله عز وجل، أن تغترّ به ألاّ تتيقن مِن عدله، أن تغترّ به ألاّ تتيقن أنه سيحاسب، وسيعاقب:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

أيعقل أن يحابيك الله عز وجل، وتظلم الناس، وتبتز أموالهم، فالقضية بهذه البساطة، إنسان عاش على أنقاض الناس، وجمع أموالاً طائلة من ابتزازهم، ومن استغلال غفلاتهم وجهلهم، فهل من الممكن

لإنسان له مهنة راقية، والناس يثقون به، أن يحتال عليهم ليأخذ أموالهم، فهل هذا ممكن؟ والأمر يتم هكذا من دون عقاب، من دون فضيحة؟!! مستحيل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

إلا أنَّ الله يُمهل ولا يُهمل، ويُرخي الحبل إلى أن يتوهم الإنسان الجاهل أن الإله لن يعاقب، ولن يحاسب، وفي لحظة واحدة يُشدُّ هذا الحبل، فإذا هو في قبضة الله عز وجل.

نقطة دقيقة جداً، معظم الناس الآن بحسب قوته يبتزّ أموال الناس، بحسب ذكائه، فإذا كان عنده مهنة راقية، ويوقن يقيناً قطعياً أن هذه الدعوى خاسرة يعِده أنه سيربحها، فيبتز أمواله لسنوات طويلة، والله عز وجل موجود ويعلم فهو:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما أسررتَ وما خفي عنك، فكل إنسان يغتر بالله، أي لا يقيم وزناً لمحاسبة الله له فهو إنسان لا عقل له ولا فطنة.

عظمة الخلق تدلّ على دقة المعاملة وكمال الخلق يدّل على كمال التصرف :

قال عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

إنّ عظمة الخلق تدلّ على دقة المعاملة، وكمال الخلق يدّل على كمال التصرف، هذه قاعدة، أنت دخلتَ إلى شركة ضخمة جداً، فما دامت ضخمة جداً، وإنتاجها عال جداً، معنى ذلك أن عندها حساب دقيق، عندها هيئة محاسبة، ووسائل دقيقة، وإيصالات، وصفحات، وأجهزة حاسوبية، فكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وهذا موضوع الدرس القادم إن شاء الله:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

فهذه الآية نقف عندها وقفة متأنية إن شاء الله في الدرس القادم، وسنعرف لماذا لا يغتر المؤمن بالله عز وجل، بل يربط بين عظمة الخلق، وعظمة الحساب الدقيق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانفطار 082 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 06-18، الاغترار بالله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-05-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرور بالشيء أن تراه بحجم أكبر من حجمه الحقيقي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الانفطار، والآيات الكريمة هي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

حيثما خوطب الإنسان في القرآن الكريم معرَّفاً بأل فهو الإنسان قبل أن يعرف الله، (ما غرك) تكلمت في الدرس الماضي عن الغرور، وقلت: أن تحسب الشيء أكبر من حجمه، وأن تظن أن هذا الشيء كبيرٌ، وهو ليس كذلك، وذكرت أن الإنسان في مطلع حياته قبل أن يعرف الله يظن المال كل شيء، فإذا عرف الله رآه شيئاً، أما إذا تعمَّق في المعرفة لم يرَه شيئاً.

أيها الأخوة، الغرور بالشيء أن تراه بحجم أكبر من حجمه الحقيقي، ولكن كيف نفسِّر الغرور بالله عز وجل؟ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أجاب عن هذا السؤال، فجهلُ الإنسان بربه جعله يغترُّ به، وجهله بعدالته جعله يغتر به، وجهله برحمته جعله يغتر به، فالغرور أن تتوهم أن الله على غير ما هو عليه، وأن تظن أنه لن يحاسب ولن يعاقب، أو أن تظن هذه الدنيا قويُّها قوي، وضعيفها ضعيف، وينتهي الأمر هكذا، هذه النظرة العبثية للكون لا تليق بالله عز وجل، ولا يليق بجلال الله أن يخلق الإنسانَ عبثاً، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الجهل والاغترار يلتقيان في مكان واحد :

آية ثانية، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

يأكل من مال حرام، و يحتال على الناس، ويبتز أموالهم، ويعتدي على أعراضهم ويقهرهم، و تنتهي حياته هكذا بلا حساب ولا عقاب، هذا اغترار بالله عز وجل، وهذا جهل وسوء ظن به، فالجهل والاغترار يلتقيان في مكان واحد.

يا أيها الإنسان ما الذي حملك على أن تتوهم أن الله عز وجل يستوي عنده المحسن والمسيء، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

جهلك بالله، وجهلك بأسمائه الحسنى، وجهلك بكماله قد يوقعك في ذاته العلية، آية واحدة لو عقلناها لملأت قلبنا يقيناً وإيماناً، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

الرابح الأول هو المستقيم على أمر الله :

إذا كنت مستقيماً على أمر الله فأنت الرابح الأول، وأنت الفائز، وأنت المتفوق، وأنت الفالح، وأنت السعيد، وأنت السليم، لكن الله عز وجل لحكمة بالغة بَالغة لا يواجه العبدَ بعمله إلا بعد حين، ليأخذ أبعاده، ويأخذ مساره الحقيقي، ويمكن لإنسان أن يعصي الله، وفي المدى المنظور لا يرى شيئاً، فيأكل الحرام، ويعتدي على أعراض الناس، ويكذب عليهم، ويتكبر ويتجبر، ويطغى ويبغي، إلى أمد معقول دون أن يشعر بشيء، فتأخير عقاب الله حمله على أن يغتر به، وحلمُ الله حمله على أن يغتر به أكثر وأكثر، ولكن الله عز وجل يأخذ مَن هَلك على بينة، و يعطي مَن تفوَق على بينة، بعد أن يأخذ أبعاده، وبتعبير آخر أن الله عز وجل من سياسته مع خلقه أنه يرخي لهم الحبل إلى أن يتوهموا أنه لن يحاسبهم، وفي لحظة واحدة يشدّ الحبل فإذا هم في قبضته، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

هذه آية قرآنية فيها تهديد ووعيد، وكل شيء مسّجل عليكم، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

الغُرور أن تتوهم أن الله له صفات لا تليق به :

الاغترار بالله سببه الجهل، والاغترار بالله سببه حلم الله عز وجل، والاغترار بالله سببه الشيطان، يقول لك بعضهم: لن يدقّق الله مع عباده، ولن يحاسبكم، فإذا جاء يوم القيامة يقول الشيطان عكس ما كان يقوله في الدنيا، قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

الشهوة إذاً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم)

ما الذي حملك على أن تغتر به؟ قال علماء التفسير: جهل الإنسان بالله حمله على أن يغتر به، وحلم الله حمله على أن يغتر به، والشيطان هو الغَرور الذي يدعو الإنسانَ إلى أن يغتر بالله، تماماً كما لو قال لك أحدهم: هذا القاضي بهدية بسيطة يحكم لك، فهذا الإنسان حملك على أن تغترّ بهذا القاضي النزيه، أو كطالب كسول قال لأحد زملائه: إن هذا المدرس بهدية بسيطة يعطيك الأسئلة، فلا تدرس، فهذا الطالب حمل زميله على أن يغتر بأستاذه، فلما جاء وقت الامتحان فوجئ هذا الطالب أن الأستاذ نزيه، وأن توهُّمه ليس صحيحاً، وفوجئ المُعمَّى عليه أن هذا القاضي نزيه، وأن توهمه ليس صحيحاً، هذا هو الغُرور، أن تتوهم أن الله له صفات لا تليق به، لا وألف لا، بل يليق به العدل، وتليق به الرحمة، ويليق به ألاّ يضيِّع على أحد عمله.

حلم الله يدعو بعض الناس إلى الغرور بالله لكن في لحظة واحدة يعاقبهم دون أن يشعروا:

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

يليق به قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة:7-8]

الشيء الواقع أيها الأخوة، أن حلم الله يدعو بعض الناس إلى الغرور بالله، لكن في لحظة واحدة يعاقبهم، دون أن يشعروا، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ*وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة الزمر: 53-55]

الله جل جلاله حين يفتح عليك أبواب الدنيا وأنت لست أهلاً لها فهذا اسمه استدراج:

إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، بل إن الله جل جلاله حين يفتح عليك أبواب الدنيا، وأنت لست أهلاً لها، فهذا اسمه استدراج، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف: 182-183]

الكيد هو التدبير، والمتانة في الفيزياء مقاومة قوى الشدّ، فهذا الإنسان مربوط بحبل مهما تحرّك فلن يفلت من قبضة الله عز وجل، وبشكل واقعي فالإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، خثرة دم لا يزيد حجمها على معشار الميليمتر المكعب، فإذا وقفت في أحد أوعية الدماغ أصيب بالشلل، وفي مكان آخر أصيب بالعمى، وفي مكان آخر فَقَدَ ذاكرته، فكل ما عند الإنسان يذهب بتجمّد خثرة لا تزيد عن معشار ميليمتر مكعب في أحد أوعية الدماغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

وفي الآية التي تليها تتمة للآية السابقة، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

هذا الإله الذي خلقك وفي أحسن تقويم سوَّاك، والتسوية شيء يضاف على الخلق، فأنت قد تبني بناءً من أجل أن تضع مركبتك فيه، أما تسوية هذا البناء فتعني أن يكون له عرض يسمح لك بفتح أبواب المركبة فإذا فُتحت أبواب المركبة من الطرفين براحة فهذا البناء مسوّى مع السيارة، ويجب أن يكون طوله متناسباً مع طول المركبة، فإذا دخلت وأمكنك أن تغلق باب هذا البناء معنى ذلك أن هذا البناء

مسوّى مع المركبة، وأن يكون ارتفاع البناء أيضاً مسوّى مع ارتفاع المركبة، فالبناء شيء، وأن يكون هذا البناء مسوّى مع المركبة شيء آخر.

الإنسان مخلوق في أحسن تقويم :

الله خلقك، ولو أن الإنسان خُلق ولم تكن أربطة ذراعه متناسبة مع وزنه، فإذا حمل الأبُ ابنَه انخلعت يده، فهذا الإنسان على هذا النحو مخلوق في أحسن تقويم، لكن غير مسوّى، ولولا أن لهذه اليد مفصلاً داخلياً لما أمكنك أن تأكل، فأنت مخلوق، لكن هذه اليد مسواة مع طعامك، وتصل إلى كل أطراف جسمك، لولا هذه الإبهام لما أمكنك أن تكتب، حاول أن تكتب بلا إبهام، حاول أن تخيط بلا إبهام، حاول أن ترتدي ثيابك بلا إبهام، حاول أن تصنع شيئاً بلا إبهام، تستغربون أن هذه الإبهام وحده سبب الحضارة الإنسانية، هذا فقط، لولا هذا الإبهام لن تستطيع أن تفعل شيئاً، بل إن الإنسان حينما يمشي على قدمين ويداه طليقتان، هاتان اليدان الطليقتان سبب بناء وإعمار الأرض، أما هناك من يمشي على أربع، ماذا يفعل؟ لا يمكنه إلا النباح أو نحوه فقط، أما الإنسان فيتحرك، ويبني، وينسج، ويصنع، ويحفر، ويخيط، ويقرأ، ويكتب، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ)

التسوية فيها تناسب، لو أن الله عز وجل أعطاك أعصاباً حسية في شعرك لما أمكنك أن تحلق رأسك إلا في المستشفى، وإلا بعملية جراحية، وإلا بتخدير، ولو أن الله عز وجل لم يضع في لُبِّ السن العصب الحسيّ لوصل النخر إلى كل السن ولقُلع من مكانه، ولابتلعته مع لقمة الطعام ولم تشعر، لكن هذه الأعصاب المؤلمة في الأسنان هي أجهزة إنذار مبكّر، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ)

ولو أن الإنسان لا يرى إلا بعين واحدة لما رأى إلا بُعدَين الطول والعرض، أما بالعينين فيرى بُعداً ثالثاً، ويقدِّر بالعينين المسافات، ويقدر بالأذنين مصادر الصوت، ولو أن الإنسان أُوكل أمرُ تنفُّسه له لكان أمام خيار صعب إما أن يموت وإما أن ينام، ولا يجتمع موت وحياة، لو أن أمر رئتيك موكّل إليك لعظمت المصيبة، ولكن الرئتين تخفقان بشكل دوري نوبي، وبطريقة بالغة التعقيد جداً، ولو أن القلب أوكله الله إليك لما أمكنك أن تفعل شيئاً إلا أن تهيئ قلبك للنبض، ولو أنه أوكل الهضم إليك لاحتجت بعد كل وجبة إلى أربع ساعات تتفرّغ فيها كي تهضم طعامك.

النوم والحركة والعضلات من نعم الله الكبرى :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

لو أنك مُنِعتَ النوم لكانت الحياة جحيماً، فالنوم نعمة، والحركة نعمة، لك هيكل عظمي مكسو بعضلات، والعضلات مكسوة بجلد يجعلك مقبولاً وجميلاً، وهذه من نعم الله الكبرى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

جعل لك زوجة من نفسك، امرأة تفكر كما تفكر، وتشعر كما تشعر، وتتألم كما تتألم، وتفرح كما تفرح، وتفهم كما تفهم، وتحب الله كما تحب الله، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

فهذه من نعم الله الكبرى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

جعلك معتدلاً، جعل شكلك مقبولاً، وجعل وزنك مقبولاً، وجعل حاجاتك مقبولة، يكفي أن يكون الهيكل العظمي ممتلئاً، الهيكل العظمي بالضبط شكله إسفنجي، فلو أنه أصم لكان وزن الإنسان ثلاثمئة كيلو، فكم يحتاج من الطعام والشراب حينئذٍ؟!! تحريك ثلاثمئة كيلو تحتاج إلى كمية طعام، أي لا بد أن يأكل في الوجبة الواحدة خمسة وعشرين رغيفاً حتى يمشي، جعل قوام العظم إسفنجياً خفيفاً.

كمال الخلق يدلّ على كمال التصرف :

الإنسان يمشي على قدم لطيفة، ولو لم يكن في هذه الأذن الداخلية جهاز توازن لكان لا بد من قاعات استناد كبيرة جداً، ولا بد لك من قاعات استناد عرضها أو قطرها أربعون سنتيمتراً من أجل أن تقف، والدليل من يستطيع أن يوقف ميتاً، مستحيل، تعطّل جهاز توازنه، أما إنسان وزنه ثمانون كيلواً فهو يمشي على قدمين لطيفتين، لولا أن جهاز التوازن عن طريق ثلاث أقنية نصف دائرية فيها سائل، وفيها أهداب، وآلية معقدة جداً لما استطعتَ أن تمشي على قدمين صغيرتين، لو أنك دخلت في حقل طيني وحمل حذاؤك كمية طين كبيرة ترى أن السير على القدمين أشغال شاقة، اللهُ جعلك لطيفاً، لباسك لطيف، الأرجل لطيفة، والحركات لطيفة، والبحث طويل، التفكر في خلق الإنسان لا ينتهي طوال العام، طعامك وشرابك ونومك وتفكيرك وذاكرتك، لو لم توجد ذاكرة لتبدَّل الإنسان تبدلاً كاملاً كل خمس سنوات، لو تبدل دماغه لنسي اختصاصه، تكون له كل خمس سنوات دكتوراه أو يعود جاهلاً، لكن

شاءت حكمة الله أن خلايا الدماغ نبيلة لا تتبدل أبداً، خلايا الدماغ وخلايا القلب، وما سوى القلب والدماغ فكل شيء فيك يتبدل كل خمس سنوات، لأن أطول عمر خلية خمس سنوات، وأقصر عمر خلية ثمانية وأربعون ساعة، خلية زغابات الأمعاء، فأنا أردت من هذه التفاصيل أن تعلموا أن كمال الخلق يدلّ على كمال التصرف، خالق عظيم، من خلقه ترى هذا العلم، وهذه الحكمة وهذه القدرة وهذه الرحمة وهذا الجمال، أيُعقل أن تُخلق سدى بلا حساب، أيعقل أن تُخلق عبثاً بلا جزاء، تبارك الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

جعلك معتدلاً، لو أن الإنسان كان وجوده على سطح القمر لكان وزنه عشرة كيلوات، إذا قفز قفزة يصبح في سقف الغرفة، لو كان على كوكب آخر وزنه خمسمئة طن، هناك كواكب كبيرة، ووزن الإنسان يتناسب مع حجم الكوكب، والأشياء ذات علاقة بالجاذبية، رائد الفضاء في القمر وزنه ستة كيلوات أو عشرة كيلوات، السدس، أما لو انتقل هذا الرائد الفضائي إلى كوكب عملاق لكان وزنه نصف طن، لكن من رحمة الله أن جعل وزنك ستين أو سبعين كيلواً، والوزن معتدل، قال تعالى:

(فَعَدَلَكَ)

الإنسان مكرَّم عند الله عز وجل خلقه في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم :

جعل النهار ثماني ساعات، وأنت طاقتك على العمل ثماني ساعات، فهناك تناسب بين دورة الليل والنهار وبين طاقتك على العمل، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

الخنزير خلقه الله عز وجل، والقرد خلقه الله عز وجل، والكلب خلقه الله عز وجل، لكنك مكرَّم عند الله عز وجل، خلقك في أحسن تقويم، وكرمك أعظم تكريم، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 21]

أنت في أحسن تقويم، وأجمل صورة، وكان من الممكن أن تكون في صورة أخرى، لو توسَّعنا قليلاً، أنت تأكل مما لذّ وطاب، وتحب الروائح الزكية، وتكره الروائح القبيحة، فمن برمجك على هذا؟ أليس هناك حيوانات تأكل الجيف، فالخنزير مثلاً أكلته المفضلة التي يسيل لها لعابه هي الجيفة، إنك إن مررت بجيفة كدتَ تخرج من جلدك من نتن رائحتها، بينما هذا الخنزير يقبل عليها ويأكلها بنهم، وهناك حيوانات تأكل البراز، وحيوانات تعيش في المجاري، وهؤلاء مبرمجون على هذه الروائح، يحبونها وكأنها عطر، فأنت أيها الإنسان من جعلك في هذا القوام، في أحسن تقويم، وجعل أذواقك في الطعام

والشراب أذواقاً عالية جداً، تحب رائحة الزنبق وتكره رائحة اللحم المتفسخ، من جعلك هكذا؟ هذا من تكريم الله لك.

في كل نظرة نرى آيات تدلُّ على وجود الله :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ* كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّين)

مع كل هذه الآيات الدالة على عظمته تُكذِّب بالدين ولا تعبأ بتوجيه سيِّد المرسلين قال تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[سورة الأعراف: 175]

واللهِ أيها الأخوة نحن محاطون بآيات من فوقنا ومن تحت أرجلنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وفي كل مكان وفي كل وقت، وفي كل نظرة آيات تدلُّ على وجود الله، الضوء مثلاً إذا سار في وسط شفَّاف كالهواء، ثم دخل في وسط آخر شفَّاف كالزجاج ينكسر، حقيقة يدرسها الطلاب في الثانوي، انكسار الضوء، ضع قلماً في كأس ماء تراه مكسوراً، فالضوء إذا سار في وسط شفاف ثم دخل في وسط آخر ينكسر، فهل تصدق أنه لولا هذه الظاهرة لما كان هناك نظَّارة، ولا آلة تصوير، ولا ميكروسكوب، ولا تلسكوب، ولا عدسات، وتطبيقات العدسات لا تعدُّ و لا تُحصى، إنسان ضعف بصره، استعمل نظارة، أراد أن يرى أشياء بتكبير عالٍ أخذ الميكروسكوب، أراد أن ينظر إلى النجوم العملاقة استعمل التلسكوب، التلسكوب عدسته يستغرق تبريدها أكثر من عشر سنوات، من أجل أن ترى نجوم السماء، كل هذا عن طريق انكسار الضوء، لولا انكسار الضوء لما كان هناك عدسات ولا تلسكوبات ولا ميكروسكوبات، ولا نظارات، وكل التطبيقات لا قيمة لها، ثم من قدَّم قانون الترسب، ممكن أن تنحل أملاحُ معدن، ثم تترسب هذه الأملاح، لولاها لما وُجد إنسان يقف، أنت أصلك من ماء مهين تأكل طعاماً ليِّناً، من أين جاءت قساوة العظام؟ وكيف أن عظم عنق الفخذ يحمل ثقلاً يزيد على مئتين وخمسين كيلواً، مِن أين جاءت لهذه الأسنان قساوتها؟ قساوة ميناء السن تأتي بعد الألماس، لولا الترسب لما كانت هذه الظواهر، اقرأ الفيزياء برؤية إيمانية، فلولا انكسار الضوء لما وجدت عدسات، ولولا الترسب لما وجد هيكل عظمي، فما دام أكلك ليِّناً بقيتَ أنت ليِّناً، كذلك تشرب الحليب فيصير عظماً، من أين جاءت هذه القساوة؟ من الترسُّب، الكالسيوم يترسب في بعض النسج العظمية فيشكل الهيكل العظمي، ولولا أن الماء عند التبريد يزداد حجمه لما كان على سطح الأرض كائنٌ حيّ، هذا نظام الماء والحديث عن قوانين الفيزياء والكيمياء لا تنتهي.

كل الآيات في السماء والأرض هي آيات دالة على وجود الله وعظمته :

قال تعالى:

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

كل هذه الآيات في السماء والأرض، والطعام والشراب، والأسماك والأطيار، والجبال والوديان، والصحارى والأغوار، والوحوش، هذه الآيات الدالة على وجود الله وعظمته ووحدانيته وكماله، ومع كل هذا:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

يقول لك: الدين لا يصلح لهذه الأيام، والدين انعكاس لضعف الإنسان أمام مظاهر الطبيعة، هكذا، هذا تكذيب قولي، أما أنا فقناعتي أن التكذيب العملي أخطر، لأنّ الذي يكذب بالدين قولاً تقنعه، أما الذي يكذب عملاً ففيه يكمن الخطر، يعمل للدنيا ولا يعبأ بالآخرة، يقول لك: أنا مؤمن، وتلك أفعاله تؤكّد عدم إيمانه، قال تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

يكذبون بالدينونة لله عز وجل، يكذبون بهذا الإله العظيم، وبالتالي يكذبون ويأبون الخضوع لأمره ونهيه، والإنسان أحياناً يستكبر أن يطيع الله عز وجل، والمكذبون استكبروا عن عبادته.

الملَكان يكتبان ما تفعل أما ما وراء ما تفعل ونيتك فهذه يعرفها الله وحده :

قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

أيْ أنّ الإنسان في الحياة المدنية لو وصل إلى علمه أنه مراقب، أو أنّ هاتفه مراقب، أو حركاته مراقبة، وكل شيء ينطق به مسجَّل عليه، كيف ينضبط؟ ينضبط انضباطاً لا حدود له، لكن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

وقال تعالى:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

[سورة ق: 18]

فما من كلمة تنطق بها، وما من حركة تتحرك بها أو تفكر في شيء إلا والله يعلمه، قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ*يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

الإنسان حينما يألف الشيء قد يبتعد عن حقيقته بسبب طول الألفة، كلكم في الصلاة يقول: السلام عليكم ورحمة الله، تسلم على مَن؟ على ملكَي اليمين والشمال، هذا الملك لا يفارقك إلا في حالتين ذكرهما العلماء، هو معك يسجِّل عليك كلّ شيء، قال تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ *وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ*يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

أما النوايا فلا يعلمها إلا الله، والملَكان يكتبان ما تفعل أما ما وراء ما تفعل ونيتك فهذه يعرفها الله وحده.

الناس رجلان برٌّ وفاجر :

في النهاية، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

إنّ القرآن الكريم واضح، وتقسيماته واضحة، والناس رجلان؛ بَرٌّ وفاجر، البر في نعيم القرب، والفاجر في جحيم البُعد، البر عَرف اللهَ فاستقام على أمره، والفاجر غفل عن الله فتفلّت من أمره، والبر أحسن إلى المخلوقات، والفاجر أساء، والبر لو زلّتْ قدمه لاستتر، والفاجر حينما يعصي اللهَ يفتخر، فالناس رجلان ونموذجان، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

الأبرار في نعيم القرب، في نعيم السلامة، في نعيم السعادة، في نعيم الأمن، في نعيم الرضا، في نعيم التسليم لقضاء الله وقدره، في نعيم الوعد العظيم بجنة عرضها السماوات والأرض، والفجار في جحيم، جحيم البُعد، جحيم الخوف، جحيم القلق، جحيم اليأس، جحيم الإحباط، جحيم الخوف من المستقبل، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

معنى ذلك أن كل هذه التقسيمات التي يأتي بها البشر لا أصل لها، تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، أبيض وملوَّن، دول الشمال ودول الجنوب، عرق صيني، عرق أبيض، وعرق ملوَّن، الشعوب السامية والأنجلوساكسونية، تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، وهي واقعة، ولكن عند الله لا يُؤخذ بها إطلاقاً:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخفِ اللَّهَ لَمْ يَعْصِهِ))

[كنز العمال عن عمر]

كل صفات الكمال في المؤمن لأنه اتصل بالله واصطبغ بصبغته :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

قرشي عريق جهل واغتر بالله، قال تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد: 2]

فهذه التقسيمات هي حقائق واقعة، ولكن ينبغي ألاّ نأخذ بها، فهناك إنسان أبيض وإنسان ملوَّن، وإنسان فقير وإنسان غني، وإنسان عرقه ساميّ وإنسان عرقه آري، فهذه التقسيمات لا معنى لها:

((رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللَّهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـــاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))

[الترمذي عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

ورُوي في الأثر: الناس سواسية كأسنان المشط. فالتقسيم الحقيقي لعباد الله: برٌّ وفاجر، ولا ثالث لهما، والمؤمن بر تقي، والفاجر خبٌّ شقي مارق محتال، وكل صفات الكمال في المؤمن لأنه اتصل بالله واصطبغ بصبغته، وكل صفات النقص بغير المؤمن لأنه انقطع عن الله.

الفرق بين اللذة والسعادة :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

طبعاً نعيم مطلق في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا ترى المؤمن في جنة القُرب، قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: 6]

عرَّفها لهم في الدنيا، لذلك قال بعض العلماء: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال أيضاً: بستاني في صدري، ماذا يفعل أعدائي بي، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟!! هذه جنة القُرب، فإذا مات دخل جنة الآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

إن نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، ذلك لأنني في درس سابق أو في خطبة سابقة بيَّنتُ أن هناك لذة وهناك سعادة، فاللذة طبيعتها حسية، متناقصة في تأثيرها، تنبع من خارج الإنسان، وتأتي من الخارج، وطبيعتها حسية، متناقصة في تأثيرها، تأتي من خارج الإنسان؛ من طعام، ومن شراب، ومن امرأة، ومن منظرٍ جميل، ثم إن هذه اللذة متناقصة في تأثيرها، تنتهي بكآبة، فلو بُنيتْ على معصية انتهت بهلاك وبعذاب أليم، بينما السعادة تنبع من الداخل، طبيعتها نفسية، متنامية في تأثيرها، تنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض، فالأبرار في نعيم، وإنّ البرُّ هو الذي عرف الله فاستقامت أعمالُه، فكان في نعيم.

الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا :

ثم قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

هم الذين عصوا اللهَ، وكانوا جهلاء، بل إنهم افتخروا بمعصيتهم:

(لَفِي جَحِيمٍ)

ولكن قد يبدو لك الفاجرُ غنيّاً، يأكل ما يشتهي، ويسكن أجمل بيت، ويركب أجمل مركبة، قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ* يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّين)

الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا، الناس في الدنيا قد يُخدَّرون بالشهوات، ولكنهم حينما يوضعون في قبورهم تستيقظ فطرهم، ويصبح بصرُهم حديداً ثاقباً، قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

وتنقطع عنهم شهواتهم، قال تعالى:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

[سورة سبأ: 54]

انتهت الشهوات، بيته ومركبته ومكانته ومركزه وأصدقاؤه ورحلاته ومجونه وسهراته وندواته كلها انتهت، قال تعالى:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ)

[سورة سبأ: 54]

البطولة أن تنجو في الآخرة من عذاب أليم وأن تكون من المقرَّبين :

قال تعالى:

(إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

في الدنيا والآخرة، نعيم القرب في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

جحيم البُعد، لكنّه يبدو صارخاً يوم القيامة، وقد يكون الفاجر في الدنيا مخدَّراً بلهوه وضلاله، قال تعالى:

(يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ *وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

فالبطولة أن تنجو في الآخرة من عذاب أليم، وأن تكون من المقرَّبين، وأن تكون ممن عرف اللهَ في الوقت المناسب، لأنّ كل الخلق سيعرفون الله عند الموت، ولكنها معرفة لا تغنيهم ولا تنفعهم، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

إذا قال تعالى: وما يدرك؟ فلن تعلم عنه شيئاً، أما إذا قال سبحانه: وما أدراك؟ فنحن الآن سندرك وسنعلم، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

آيات وأحاديث تبين اليوم الآخر حيث تتقطع كل العلاقات :

هذا اليوم تتقطع فيه كل العلاقات، قال تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

ذكرت لكم سابقاً أنّ عينَ الأم قد تقع على ابنها يوم القيامة فتقول له: يا بني جعلتُ لك صدري سقاءً، وحِجري غطاء، وبطني وعاء، فهل من حسنة يعود عليّ خيرها اليوم، فيقول لها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، فيوم الدين كما قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

يقول عليه الصلاة و السلام في الحديث المروي عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلاً يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُم فأقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ فَأَقُولُ: سُحْقاً سحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[مسلم عَنْ أبي حَازِم]

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فقَالَ: يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

فلو أنك التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا، وبذكاء وطلاقة لسان وقوة بيان انتزعت من فمه الشريف فتوى لصالحك، فلن تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام الذي روته أُمُّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[مسلم عن أُمُّ سَلَمَةَ]

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

وهو العدل الحق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المطففين 083 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01 – 06 ، معنى التطفيف وعقابه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-10-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التالية تتحدَّث عن نوع من علاقات الناس بعضهم ببعض :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

قال بعض علماء التفسير: هذه السورة تتحدَّث عن نوعٍ من علاقات الناس بعضهم ببعض، وقد جاءت بين السور المكية التي تتحدث عن الإيمان بالله عزَّ وجل، فلو دققت في موضوع هذه السورة لوجدته مغايراً لكل السور المكية التي جاءت قبلها والتي جاءت بعدها.

قال بعض علماء التفسير إن هذه السورة جاءت بهذا الشكل تأكيداً إلى أن التقصير في حقٍ صغيرٍ من حقوق البشر موجبٌ للهلاك، فكيف التقصير بأكبر حقٍ من حقوق الإله!! إذا طففت في الوزن أو في الكيل فهذا موجبٌ للهلاك يوم القيامة، فكيف إذا أنكرت الخالق؟ فحكمة مجيء هذه السورة في الجزء الأخير من كتاب الله حيث الحديث عن السماوات والأرض، والحديث عن اليوم الآخر، والحديث عن عظمة الله عزَّ وجل، وكُلُّكم يعلم أن السور المكية ترسِّخ الإيمان بالله عزَّ وجل، فكيف جاءت هذه السورة وسط سور عديدة تتحدَّث عن الله عزَّ وجل بينما هذه السورة تتحدث عن علاقة جزئية جاريةٍ بين الناس، ألا وهي التطفيف؟

قال بعض علماء التفسير: إذا كان التقصير اليسير في حقّ إنسانٍ يوجب الهلاك، فكيف بالتقصير الكبير في حق الله عزَّ وجل؟ ما حقُّ الإنسان عليك؟ لا شيء، حقُّه أن تعطيه بضاعة بهذه القيمة، فإذا قللت من نوع البضاعة، أو من وزنها، أو من كيلها، أو من حجمها فقد قصَّرت في حقِّه ولو كان هذا التقصير طفيفاً، أما حقُّ الله عليك وقد خلقك من نطفةٍ وسخَّر لك الشمس والقمر والنجوم فكيف تنكره؟! وكيف تجحد فضله؟ وكيف تعصي أمره؟ وكيف لا تنتظر حسابه؟ إنها مفارقة حادة، فإذا قصَّرت تقصيراً يسيراً في حق إنسان فهذا موجبٌ للهلاك، فكيف إذا قصَّرت في حق الله الذي خلقك ولم تكن شيئاً؟! هذا موجبٌ للشقاء الأبدي.

معنى التطفيف :

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

المطففون جمع مُطَفِّف، والمطفف اسم فاعل من طَفَفَ، وطفف ثنائي مضعَّف مثل زلزل، قلقل، عسعس، طفف.. فطفف بمعنى قلّل، والشيء الطفيف الشيء القليل.

أي لو أن الإنسان وزن وزنة ولم تتوازن العين بالعين فهذا مطفف، ومِنَ الذي يُذهِب العدالة أو يجرحها تطفيفٌ بتمرة، فإذا كنت قد بعت كيلو غراماً من التمر وكان الوزن أقل من الوزن الصحيح بتمرة واحدة فهذا مما يجرح العدالة، فالتطفيف له أمثلة كثيرة ولا سيّما في عصرنا.

فأنا بقدر الإمكان قد جمعت بعض الأمثلة التي نعانيها، والتي وصلت إلى علمي، والمخفي أعظم، بعض الأمثلة التي نعاينها، هذه سورة من كتاب الله:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

تعالج الأمثلة التي نعاني منها، وزيادة، مثلاً كم من الأبنية التي انهارت بسبب وضع المتعهّد إسمنتاً أقل من الكمية التي فرضها المهندس؟ فالمتر المكعب من الخرسانة المسلحة يلزمه وضع سبعة أكياس من الإسمنت، فقام هو بوضع خمسة فقط، وبعد فترة من الزمن انهار البناء، فإذا مات ثلاثون أو أربعون شخصاً، وكان ثمنُ كل بيت مليوناً فأصبح لا شيء، هذا الشيء الكبير مَن المسؤول عنه؟ وبرقبة مَنْ؟ برقبة المطفف، فالتطفيف قد يكون بالإسمنت، وهناك تطفيفٌ بالحديد كذلك، وهناك تطفيف بفترة صلاحية الإسمنت، فيكون قد مضى على انتهاء صلاحيته فترة زمنية طويلة فأصبح بلا مفعولٍ، ويبيعه بالسعر نفسه للإسمنت الجيد، فلدينا تطفيف عدد وتطفيف نوع، هذا النوع ليس بهذا السعر فهذا تطفيف بالأسعار، أحياناً الذين يشترون من الفلاّحين بعض الحاجات، يشتريها أحدهم بوضع ويبيعها بوضعٍ آخر، فقد ذكر لي شخص أن الجوز يشترى بالمنخل فيُنْخَل مع البائع أوقيتان فيضعهما عنده، ويحاسب الفلاح على الصافي، ويبيع الجزء الذي وضعه عنده لبائعي الحلويات، فهذا تطفيف، ويقول لك: هذا عرف ومصلحة، وهكذا الترتيب.

تقليل الكم وتخفيض النوع والغش وعدم الإتقان يدخل في هذه الآية :

كل عملية تنقيص وزن، أو تنقيص كيل، أو تنقيص نوع، وكل عملية غش، وكل عملية عدم إتقان، فقد وجدتُ أن تقليل الكم وتخفيض النوع والغش وعدم الإتقان يدخل في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً يقوم مصلّح السيارات بتوفير جزء من الوقت، فيسرع في إصلاح السيارة، فيسبب كارثة لأصحاب هذه السيارة، فلا يضبط عمله قبل أن يسلّم هذه السيارة لأصحابها، فيسبب حادثاً كبيراً يموت فيه خمسة أشخاص مثلاً، فهو مطفف لا يحاسب على هذا التقصير، ولكن يحاسب على موت هؤلاء الخمسة بسبب التقصير:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فبتقديره أنّه وفَّر الوقت ويتسامر مع ضيف يتسامر عنده، وقال لصانعه: ركب وشدَّ البراغي على الإطارات، وجاء صاحب السيارة فقال له: السيارة جاهزة فخذها، هذا مطفف، وأحياناً يوفِّر جهده فهو كذلك مطفف.

أحياناً الطبيب يعطي المريض إبرة من الماء المقطّر، فيأخذ من المريض أجرته خمسة وعشرين، وثمن الإبرة خمس عشرة ليرة، فقبض أربعين ليرة من جرائها، ولكن الماء المقطّر ثمن الإبرة منه عشر قروش، أو ربع ليرة، وقد أوقع المريض تحت الوهم، ويظن نفسه قد انتعش بهذه الإبرة وشعر بنشاط وهي إبرة من الماء المقطّر ولا قيمة لها، فهذا تطفيف وهو أحد أنواع السرقة. أحياناً أحد المحامين يعلم جازماً أن هذه الدعوى خاسرة، لأن كل القوانين والاجتهادات وآراء محكمة النقض ضد هذه القضية، ومع ذلك يقبل تسلُّم الدعوى، على نيَّة أن يتقاضى أجراً إلى أن يُفضَح الأمر، فتطول الفترة إلى خمس أو ست سنوات، ويكون قد ابتزَّ موكله ابتزازاً فاحشاً وحراماً، وهذا المحامي داخل في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً طبيب يأتيه مريضٌ، فلم يفهم مرضه ولم يستطع تشخيصه، وله زميلٌ مختصٌ بهذا المرض، فيعطي المريض مسكّنات على أن يراجعه بعد أسبوع مثلاً، فهذا التصرف كلّه ابتزاز، وهذا الطبيب داخل في مفهوم هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وكان عليه أن يرشده إلى زميله الطبيب المختص ليعالجه.

التقليل من التطفيف :

من التطفيف التقليل إذا قلّلت حقَّ هذا الإنسان شيئاً يسيراً فأنت مطفف، فإذا قلّلت الكمَّ، أو قللت النوع، أو قللت العدد، أو غششت، أو لم تتقن، فعدم الإتقان والغشّ والتقليل والإساءة من التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وأحياناً الطبيب يكلّف المريض بإجراء ثمانية تحاليل مثلاً، والمريض بحاجة إلى تحليل واحد، ويكون هذا الطبيب متفقاً مع محلل اتفاقاً شفوياً أن المطلوب من التحاليل هو المكتوب في أول القائمة وما تبقى من الثمانية غير مطلوب، وهذا الفرق نتقاسمه بيننا مناصفة، ويقول لك: الحياة شطارة، من قال لك إنَّها شطارة؟ هذه سرقة، فهذا المريض بحاجة إلى تحليل نسبة الكوليسترول فقط، فيكتب له الطبيب ثمانية تحاليل، ويزكي له محللاً لثقته به، وينصحه بالذهاب إلى مختبره. هذا المحلل حلّل أول مادة، وألقى الباقي في الحاوية، وطلب منه مئة وعشرين ليره سورية، في حين أن التحليل كلفه عشر ليرات، والمئة مناصفة، فيعدَّ هذا الطبيب نفسه ذكياً، وهو يصلي أيضاً:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أمثلة أخرى من حياتنا اليومية عن التطفيف :

يشتري صافياً، ويبيع قائماً، فأحياناً تكون للعبوة وزن كبير وهذا تطفيف أيضاً، أنت ماذا اشتريت؟ اشتريت صافياً، وكيف بعت؟ بعتَ قائماً، أحياناً يوزن شيء ثمين بورق سميك، أصبح سعر كيلو الورق بمئة وخمسين ليرة، فهذا تطفيف كذلك، لأنه باع الورق بسعر البضاعة المباعة.

أحياناً تكون أشياء توزن بالمثاقيل، والمروحة تشتغل، فهذه المروحة يتوجه هواؤها إلى كفة البضاعة فترجح:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً يقول لك: صلّح لنا هذه القطعة من الذهب، فتقص من طرفين وتلحم، هذا الوزن الذي نقص من القطعة ثمنه يساوي خمسين ليرة مثلاً، فهذا داخل في التطفيف، ويقول: هذا عرف، من قال بهذا؟ إذا كلفك أحد الناس بتصليح قطعة ذهبية، فمن الممكن أنْ تقص قطعة من هنا وقطعة من هناك وتلحمها، وهذا الفرق قد يكون حلقة في سلسلة يبلغ سعرها خمسين ليرة أو خمسة وعشرين، إن الله قال: تطفيف، ولم يقل تكفير، حتى لو كان ثمنها ليرة واحدة.

بعض المصلّحين يفتح خزان الوقود بالسيارة، ويأخذ منه صفيحتين لغسل المحرك، فيضع صفيحة من البنزين في سيارته، ويغسل المحرك بالصفيحة الأخرى، وثمن صفيحة البنزين أربعمئة ليرة، فهذا داخل في اسم:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

بائع الأقمشة عندما يشتري القماش يشتريه مرخياً، تجد القماش منحنياً على المتر، وإذا أراد بيعه يظل يشده حتى آخر مدى له، وهذا داخل في التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فأنت اشتريت القماش مشدود فبعه مشدوداً، وإذا اشتريته مرخياً فبعه مرخياً، وفي الشراء يُتساهل، فإذا زاد مقدارٌ فلا يدخل الزيادة في الحساب، ويقول لك: طول الثوب ثمانية وعشرون متراً فقط، وعندما يبيع الثوب نفسه يبيعه بطول ثمانية وعشرين متراً وأربعين سنتيمتراً، فهذا أيضاً داخل في التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

معظم مصالح العباد داخلة في هذه الآية :

أحياناً يكون هناك تعهد لتقديم طعام مثلاً لأناس فقراء، أو تقديم هدايا للذين يلتهمون الطعام، وتقدَّم نصف الكمية، بالتعهد يكون المقدار مئتا غرام من اللحم بالصرة مثلاً، ويقدم مئة غرام من اللحم فقط بدل المئتين، ويكون هذا التعهد لمئتي شخص أو لخمسمئة، فيكون الفرق كبيراً، هذا في قوت العباد، واسمه كذلك تطفيف، فأنت قد أخذت ثمن الصرة خمس ليرات أو عشر ليرات مقابل مئتي غرام من اللحم، أو مئة غرام، وليس خمسين غراماً، ويقول لمَن يعترض: من استلم مني رضي بذلك، لكن الله لا يرضى عن ذلك، فدخل في الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أكثر المطاعم إن طلبت أوقية من اللحم يعطيك مئة وخمسين غراماً فقط، لماذا؟ ونصف هذه الكمية المقدمة دهناً، وهذا الدهن يُمزج بالرئة الحمراء لتصبغ الدهن باللون الأحمر، فالرئة توضع مع الدهن، ويصبح كل لون اللحم أحمر، ويضع مئة وخمسين غراماً، ويقول لك: ثمن الأوقية أربعون ليرة، أو نحوها، فهؤلاء أصحاب المطاعم دخلوا في الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وحتى يربح صانع الطحينة ليرة واحدة زيادة عن السعر يضع فيها إسبيداج ويقول لك: هذه طحينة بيضاء أغلى بليرة ونصف، فهذا السبيداج يدخل في صناعة الدهانات، والطحينة طعام المسلمين، يدخل إلى المعدة، ويسبب أمراضاً خبيثة، ولا يُهضم، ويذهب إلى الكلية فيتعبها ويسبب لها التهاباً، ولكنه باع الكيلو غرام منها بإحدى عشرة ليرة ونصف، والسعر التمويني عشر ليرات، ولكن الأجود أغلى قليلاً، فوضع مادة الإسبيداج وباع بإحدى عشرة ليرة ونصف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الآية التالية تشمل كل مصالحنا :

كأن هذه الآية تشمل كل مصالحنا، فمعظم مصالح العباد الآن داخلة في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

ولقد قال لي أحد الأشخاص: إنَّهم يضعون في الزعتر نشارة الخشب، فالحليب إذا غُش بالماء فالماء لا يؤذي، أما النشارة فتؤذي وكذلك الإسبيداج يؤذي، وكذلك يضع أصحاب معامل السكاكر أصبغة البلاط في السكاكر بدلاً من الأصبغة الصحية، فهم كذلك دخلوا في الآية الكريمة:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وأصحاب محلات قطع الغيار يبيعونك قطعة مقلدة على أنها أصلية، فالغش تطفيف، وتقليل الكمية تطفيف، وهبوط النوعية تطفيف، وعدم إتقان الخدمة تطفيف.

وضع لك لتثبيت لوح زجاج مسمارين فقط، واللوح طويل فكسر لوح البلور من طرفه، وثمنه ثمانون ليرة، ولتثبيته يحتاج لأربعة مسامير تثبّت بشكل محكم، فإذا كان كذلك لم ينكسر البلور، وهذا داخل في التطفيف.

فالخلاصة هي أن ربنا عزَّ وجل يعلم أن هذا الموضوع حسّاس وله سورة بكاملها.

ترك المكافأةِ من التطفيف :

يخلط الزيت النباتي مع البلدي، هذا غش وتطفيف، ويخلط السمن الحيواني الرديء المستورد مع السمن البلدي، وهذا أيضاً تطفيف، ويوضع زيت الكاز مع البنزين فيسبب المتاعب للسائقين، وهذا أيضاً تطفيف، وهذا موضوع آخر، وقد جاء في المثل العربي: ترك المكافأة من التطفيف، فلو أردت أن أذكر شواهد أخرى على التطفيف في حياتنا اليومية لانتهى الدرس كله ولن ننتهي من ذكر الشواهد، إذاً إنْ لم يكن هناك خوفٌ من الله عزَّ وجلَّ فهذا الأمر جد خطير، قال الله سبحانه لموسى: يا موسى خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني.

فهذا الذي لا يخاف الله عزَّ وجلَّ يفعل كلَّ شيء، أي مهما كان الذنب خطيراً يفعله، هذا التطفيف الذي تحدثت عنه من تقليل كمية، أو من تخفيض نوعية، أو عدم إتقان، أو إهمال، أو توفير وقت أو جهد أو غش، هذا كله داخلٌ في التطفيف وخطره كبير.

هناك شيءٌ: ترك المكافأةِ من التطفيف، إذا خدمك إنسان خدمة، وأنت لم تكافئه فهذا من التطفيف، كلّفت إنساناً بعمل، وقدمه لك ولم يرض أن يأخذ ثمنه، له مصلحة، وله أولاد، وله وقت وجهد، وهو أحب أن يكرمك ولم يرض أن يأخذ ثمنه، فأنت عليك أن تكافئه بهدية، ترك المكافأةِ من التطفيف.

((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنْ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

[النسائي عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

متى لك الحق أن تقول للذي أسدى إليك معروفاً: جزاك الله خيراً؟ في حالة واحدة؛ إن لم تجد ما تكافئه به فادع له، فترك المكافأةِ من التطفيف.

إذا تركت المكافأة ولم ترد على الإحسان بإحسانٍ مثله، فإن أعارك أحدٌ شيئاً فأرجعه له متقناً، وهناك أشخاصٌ يزيدون، استعار كتاباً يجلده ولو بغلاف من النايلون، ولو بغلاف لونه أزرق، وأرجعه إليه مجلداً، إنّ هذا شجعك على العمل الصالح، أمّا هذا الذي يمنع الخير فهو الذي يُسيء لصانعي الخير، فإذا أسأت لصانع الخير فقد منعت الخير، وترك المكافأةِ من التطفيف.

التطفيف المعنويّ أيضاً يدخل في الآية :

هناك تطفيفٌ معنويٌّ أيضاً يدخل في الآية، الابن أحضر لزوجته غسالة، فالأم أقامت النكير عليه، لماذا؟ تقول له: إنها لا تستحق، هي صبية، وهي تستطيع أنْ تشتغل، فلا تعوِّدها الكسلَ، أما إذا الصهر أحضر لابنتها غسالة فإنها تقول: الله يرضى على فلان! الله يرضى عليه! أكرم بنتنا!! لماذا هذه التفرقة في المعاملة؟ أكثر شيء يقع في المرأة أنها تدلّل ابنتها، فإذا نامت متأخرة فلا مانع، ولا شيء عليها، أما إذا كان عندها كِنَّة في البيت، وكان رأسُها يتألم، ونامت باكراً فالويل لها، تقول لزوجها: هذه كسلانة، وإنها تتمارض، ولا تشكو من شيء، إنها مثل القردة، لماذا هذا الكلام؟!

إذا كان عندك صانع تعامله معاملة قاسية، أما ابنك فتخاف عليه من الهواء لماذا؟ وهذا أيضاً تطفيف، تنقصه حقه، ترك المكافأةِ من التطفيف.

هناك تطفيف ماديّ وتطفيفٌ معنويّ، وهناك تطفيف غش، وتطفيف عدم إتقان، وهناك تطفيف تنقيص وزن، وهناك تطفيف تنقيص كيل، وهناك تخفيض المستوى النوعي، هذا كله مِن التطفيف، الله عزَّ وجلَّ قال:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أما كلمة "ويل " فقد فسرها المفسرون بأنها الهلاك، الهلاك للمطففين، فإذا طففت بحق إنسان قليلاً فالويل لك، فكيف إذا تركت حق الله كله؟ لا تنسوا أن هذه السورة وردت في سياق السورِ المكية، كلها تتحدث عن حق الله عزَّ وجلَّ، فإذا قصرت في حق البشرِ قليلاً فالويل لك، فكَيفَ إذا تركتَ أو أنكرتَ أو جحدْتَ حق الله كلَّهُ؟!!

إذاً كلمة "ويل" أي الهلاك، ومرةً فسرتها لكم كما لو أن سائقاً يهبط بسيارته في طريق منحدر شديد جداً، على اليمين وادٍ سحيق وعلى اليسار وادٍ سحيق، وينتهي الطريق بمنعطف خطر، وشعر أن المكبح قد تعطل ولا زال منطلقاً، قد يضرب نفسه ويقول: انتهينا ومتنا. كلمة "ويل" أي تحقق الهلاك، وليس عنده شك ولا بنسبة واحد في المليون أنه انتهى، وقد رأى الوادي الأول والثاني، والسرعة مذهلة، والمنعطف خطير، وليس معه مكبح، فأصبح عنده يقينٌ قطعيٌّ، ولا مجال للشك إطلاقاً مِن أنه انتهى، أرأيتم الناس الذين في هذه الحالات، ومن دون وعي يستخدم أحدهم الفعل الماضي، فإنه يقولُ لك: هلكنا، قل سنهلك! لا، بل يقول لك: هلكنا، وقُضِي علينا، وبشكل لا شُعوري، هذه الفطرة، لقد أيقن بالهلاك.

كلمة (ويل) دعاءٌ من الله تعالى على هؤلاء المطففين وهذا الدعاء قرارٌ قطعي :

قال بعض المفسرين: كلمة "ويل" دعاءٌ من الله تعالى على هؤلاء المطففين، وقال بعضهم: دعاء الله قرار، إما أنهم هلكوا، وإما أن الله قضى عليهم بالهلاك، ودعاء الله عزَّ وجلَّ غير دعاءِ البشر، فدعاءُ البشر يُستجاب وربما لا يستجاب، لكن دعاء اللهِ قرارٌ قطعي..

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أي أن المطففين خسروا وهلكوا، وانتهى أمرهم، وكلٌ منا لا يزالُ حياً، وما دام الإنسانُ حياً فباب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

مَن همُ المطففون ؟

فيما يلي يبيِّن ربنا عزَّ وجلَّ مَن همُ المطففون، قال الله عزَّ وجلَّ:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

لكنَّ الذي ينبغي أن يُقال: الذين إذا اكتالوا من الناس، أي اشتروا منهم، اشتروا منهم كيلاً، أو اشتروا منهم وزناً، أو اشتروا منهم طولاً، قال الله عزَّ وجلَّ:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ)

أي بحكم احتكار الصنف، أو بحكم القوة المادية أو المعنوية، أو قوة المال أو الجاه أو السلطان، أي أن معك قوةً، ألزمت هذا المشتري أن تأخذ منه حقك كاملاً، يا أخي أريدها قائمة، الوزن غير مقبول، فلا يعبأ بكلامك:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ)

من معاني على الاستعلاء، استخدام ربنا الفعل (اكتال على) وعدم استخدامه (اكتال من) إشارةً إلى أن (اكتال على) بمعنى ألزم المشتري البائع أن يقدم له حقهُ كاملاً:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

حقهم بكامله، فإنه يدخل في هذه إن ادَّعيت يا أخي أن البضاعة عليها مصاريف، وأيضاً سافرنا سفرة ووجب عليك مصروفٌ، وقد خسرتُ في هذه الحالة، والحقيقة أنك سافرت لأمورٍ خاصةٍ بك، والسفر ليس له علاقة بالبضاعة ثم تغرِّمه مصاريف الرحلة والسفر، وإذا كان هناك مخالفات تحسبها، حتى مخالفة السيارة تحسبها عليه، فهذا من التطفيف، فكلمة "على" فيها قوة، أي:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

إذاً يريد أن يلزمه بمصاريف كل شيء، حتى حاجاتهِ اليومية، حتى طعامه الذي فيه بذخ، يقول لك: يا أخي إن هذا يدخل في المصروف.

عجب ربنا من المطففين الذين غاب عن أذهانهم أنهم سيقفون بين يدِي حاكمٍ عادل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

انظر كما يقول عامَّة الناس على سطح واحد صيف وشتاء في وقت واحد، أي إذا اشترى يستوفي حقه كاملاً، أما إذا باع فينقص هذا الحق إما كيلاً، أو وزناً، أو مساحة، أو طولاً، أو نوعيةً، أو غشاً، أو عدم إتقان، أو ينقص هذا الحق نقصاً معنوياً، ثم يقول الله سبحانهُ وتعالى:

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

أي كيف غابَ عن ذهنهم أنهم سوف يقفون بين يدِي حاكمٍ عدل؟ كيف غاب عن ذهنهم هذا اليوم العظيم، الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين؟ كيف غاب عنهم أنهم سيحاسبون على هذه الأعمال حساباً عسيراً؟ كيف غاب عنهم أنهم سيدفعون الثمن غالياً؟

((إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

هناك مجموعة آيات في غير هذه السورة تحضُّ على الاستقامة في التعامل مع الناس:

ربنا عزَّ وجلَّ هنا عجب:

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)

هؤلاء جميعاً، وكلمة "أولئك" تعني أناساً كثيرين، حتى إن بعضهم قال: حينما بُعِث النبي عليه الصلاة والسلام كانت مكةُ تضجُ بهذه الظاهرة، تطفيف الوزن والكيل، ولا تنسوا أن قوم سيدنا شعيب أهلكهم الله عزَّ وجلَّ بهذا الذنب وحده، قال الله تعالى:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن: 9]

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة الإسراء: 35]

هناك مجموعة آيات في غير هذه السورة تحضُّ على الاستقامة في التعامل مع الناس، لذلك فعلامة المؤمن ليست الصلاة، ولا الصوم، ولا الحج، ولا الزكاة، ولا قراءة القرآن، هي غير التعلُّق بمظاهر الدين، علامة المسلم أنه إذا عمل عملاً فكأن هذا العمل لنفسه، وعليه أن يتقنه إتقاناً شديداً، والشيء المؤكد أن الذي يتقن عمله يتفوق بين أقرانه، فقانون الله عزَّ وجلَّ جعله عامّاً، حتى لو أخذ به الكافر لتفوق بمقتضى هذا القانون، فمن أتقن عمله تفوق في أي مصلحة كانت، حتى لو جاء إنسان ملحد وطبَّق هذا القانون لتفوق، فلا تعجبوا إذا رأيتم الناس مقبلين على إنسان بمصلحة معينة، يقول لك: عمله متقن، وصنعته متقنة، حاجته نظيفة، بضاعته جيدة، وزنه صحيح، لا يغش، ولا يأكل مالاً حراماً، فالذي يطبق هذا القانون يغتني في الدنيا قبل الآخرة.

الورعُ علامة الإيمان :

قال الله تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ َإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ*أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ *يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

أي هذا اليوم العظيم الذي يحاسب فيه الناس جميعاً على أعمالهم، يقومون لهذا الرب بين يديه، فهنا ربنا عزَّ وجلَّ ذكر اسم الربوبية، لأن الرب لا يظلم عباده، لا يدع مظلوماً ولا يدع ظالماً، يأخذ حق المظلوم من الظالم:

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* كَلَّا َ)

(كلّا) أداة ردع، أي لا تفعلوا هذا، دعوا التطفيف واتركوه على الفور، حدثني أخ فقال: أنا أعمل ميكانيكياً، تصليح عُطل يكلف مثلاً ألفاً وخمسمئة ليرة، أفتح المحرك فلا أجد شيئاً، فقط تحتاج لوصل شريط، ويتقاضى الأجر المذكور، لكن بعد أن عرف الله عزَّ وجلَّ إنْ جاء الزبون طالبه بأجر قدره عشر ليرات فقط، فيقول الزبون: ما هذا؟ غير معقول! تصليحه يكلف ألفاً وخمسمئة حسب ظني، فيقول له: والله لم أجد أيَّ عطل في المحرك، لكن قبل التعرف على حقيقة الإيمان كان يلحم هذا السلك ويشغل المحرك فيشتغل، ويأخذ ألفاً وخمسمئة ليرة، هذه هي علامة الإيمان، إذاً علامة الإيمان الورعُ، رأس الدين الورع.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

رأس الدين النصيحة :

رأس الدين النصيحة، إذا قال لك أحد: انصحني، وأنت مؤمن، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لو لم تنصحه لخرجت من دينك، قال لك: أي القماش آخذ؟ وأنت عندك شيء كاسد فتقول: خذ من هذا، تعني الكاسد، وانظر إلى كلّ الباعة فهم ينصحون بالكاسد دائماً، إذا كان من النوعية أو اللون، أي شيء كاسد عنده ينصحه به، ويقول له: هذا أحلى، هذا اللون أجمل وأجود وأقوى وأمتن، وأنا ألبس منه، ويخيط منه بنطالاً للإيهام، ويقول: انظر فأنا ألبس منه، لكن الله عزَّ وجلَّ يحاسب، ولا يغفل، فرأسُ الدين النصيحة، رأس الدين الورع.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

هذه علامة الإيمان، أحيانًا يذهب إلى اللحام طفل، ويقول: أريد لحماً، والله الذي لا إله إلا هو لو لم تعطه حاجته كما لو كان أبوه واقفاً أمامك لما كنت مؤمناً، هذا هو الإيمان، ليس في الإيمان حل وسط، كأن تقول: هكذا تقتضي المصلحة، فهذا كلام مرفوض، هكذا قال أهل العرف، هذا أيضاً كلام مرفوض، المقياس هو أن تقول: قال الله تعالى، أو قال رسوله عليه الصلاة والسلام، أما قال أهل العرف فهذه الكلمة مطاطة يدخل تحتها الفسقة والفجار والمنحرفون. قال الله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

كلا.. أداة ردع أي دعوا التطفيف بكل أنواعه، ما قلَّ منه وما كثر، ما ظهر منه وما بطن، ما كان بالوزن، وما كان بالعدد، وما كان بالكيل، وما كان بالمساحة، وما كان بالأطوال، وما كان بالنوع، وما كان بالغش، وما كان بعدم الإتقان، وما كان مادياً، وما كان معنوياً، دعوا التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الحديثُ عن الفُجَّار :

قال تعالى:

(كَلَّا)

أداة ردعٍ من الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

الآن ربنا عزَّ وجلَّ بدَّل اسماً باسم، كان الحديثُ عن المطففين فأصبح الحديثُ عن الفُجَّار. قال المفسرون: الفُجَّار هم المطففون، وهذا تبديل توضيح لا تبديل تغيير، المطففون هم الفُجَّار، وكلُ مطففٍ فاجر:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

أي أن هذا الكتاب يكفي أن يقوده إلى السجن أي إلى جهنم، هذا الكتاب قيدٌ لهم، يؤخذ بهذا الكتاب، كل عمله مسجل، وهذا الكتاب الذي سجل به عمله كافٍ أن يقودهُ إلى النار، هذا معنى كلمة "سجين"، من الفعل سَجَنَ، أي هذا الكتاب من سماته أنه يسجن صاحبه في النارِ إلى أبد الآبدين:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

إذا كان الرجل عليه مأخذ خطي، وبذنب كبير، هذا المأخذ الخطي كافٍ لمحاكمته وإيداعه السجن، يقول لك: كتابُ إدانة أي يدين صاحبه:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

أي هذا الكتاب كافٍ إذا أصر صاحبه عليه ولم يتب منه أن يوردَهُ النار.

الفرق بين (ما أدراك) و (ما يدريك) :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)

ربنا عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم من عادته أنه إذا قال: وما أدراك، أنه يُدري به نبيه عليه الصلاة والسلام، وإذا قال: وما يدريك، أي أن هذا لا يعلمه أحد ولم يُعلمه الله لأحد، هنا قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[سورة القدر: 1-3]

إن قال الله عزَّ وجلَّ: وما أدراك فإنه سوف يدرينا، وإن قال:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب:63]

فهذه بعلم الله، ولا يطلع عليها أحداً أبداً، قال الله تعالى:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب:63]

هذه بعلم الله، كلمة (وما يدريك) فلا يُعلِمُها لأحد حتى الأنبياء، أما (وما أدراك) فالله عزَّ وجلَّ يُعلمنا بذلك.

كل تطفيف فعله الإنسان مسجَّل عند الله كتابة وصورةً وسوف يطلعه عليه يوم القيامة:

قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

مرقوم أي من الرَقم، أو من الرقْم، الرَقْمْ أي كتاب مرقَّم ومختوم يصعب تزويره، فالمالية تختم للتجار دفاترها، وترقمها، وتفقِّط الأعداد، فإذا باع التاجر بيعاً بمليون، وقطع الصفحة المسجل عليها مبلغ البيع ومادة البيع، وقال: لا بأس علينا، فلا يستطيع تمرير ذلك، لأن الأرقام متتابعة، ولا يخفى على المدقق أمر الإتلاف والتزوير، فكتابٌ مرقوم أي محدود ليس فيه زيادة ولا نقصان.

شيء آخر، الرَقم هو النقش، أي المخالفة مع صورتها، ففي بعض الدول تأتي للإنسان مخالفة، فإذا أنكرها يعرضون عليه صورة السيارة وهي في وضع المخالفة، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة، أليس ذلك رقم سيارتك؟ وفي الطريق كنت مخالفاً؟ فكتابٌ مرقوم بمعنى مرقَّم، وكتابٌ مرقوم بمعنى هناك رقم، أي فيه صور، أي أن كل شيء عملته التقطت له صورة، وسبحان الله فالصورة مُسْكِتة للشخص، فأحياناً يأخذ إنسان لشخص آخر صورة وهو في وضع مشين فهذه الصورة تكلّفه مئات الألوف، فهل تستطيع أن تقول: لا، ليست هذه صورتي؟

فربنا عزَّ وجل أبان ذلك، فكل تطفيف فعله الإنسان في الدنيا مسجَّل عند الله عزَّ وجلَّ كتابةً وصورةً، وسوف يطلعه على عملية التطفيف يوم القيامة.

آيات قرآنية تبين أن المعتدي والآثم هما من يكذبان بيوم الدين :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

هؤلاء الذين كذبوا بيوم الدين، هؤلاء الذين كذبوا بحساب الله عزَّ وجل، هؤلاء الذين استخفوا بأوامر الله ولم يعبؤوا بزجره ولا بنهيه:

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ* الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ*وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

انظر إلى هذا القانون الجديد، فهنا أسلوب حصر:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

المعتدي على حقوق العباد والآثم في معصية الله هؤلاء الرجلان عادةً يكذِّبان بيوم الدين، فإذا كذَّب المرء بيوم الدين دقق في عمله تراه معتدياً أثيماً، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

الاستقامة طريق الإنسان للإيمان بالله والإيمان بيوم الدين والإيمان بالحق :

ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

لذلك يكفي أن تستقيم حتى تؤمن بالله وتؤمن بيوم الدين وتؤمن بالحق، فهذا شيء عجيب، فالحق لا يحتاج إلى إذن ولا إلى فكر ولا إلى كتاب، الحق يحتاج إلى استقامة، فإذا استقمت آمنت به، وطبقّته، وملأ الحق قلبك، وأعجبت به، يجوز أن يستغرب أحدكم فيقول: ما علاقة الاستقامة بالإيمان؟ إنها علاقةٌ مصيرية، علاقةٌ ترابطية، علاقة سببٍ بنتيجة، ومَنْ يؤمن بالله يهد قلبه، من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، خذ هذه القاعدة: إذا لم يكن هناك شيء واضح لك فاستقم، فالإنسان أحياناً لأنَّه غير مستقيم تجده يجيِّر الحق لمصلحته، ويفسِّر القرآن وفق هواه، وهذا الذي ذكره الإمام الغزالي: التفسير بالرأي أي يؤول آيات القرآن الكريم لمصالحه، كأنْ يقول: الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

الله لم ينهَنا عن الربا بل نهانا عن أكله أضعافاً مضاعفة، هذا هو التفسير بالرأي، يريد أن يجيِّر الآيات لمصلحته، لأنَّه مُرابٍ وهذه الآية تغطي تصرفاته فيتشبث بتفسيرها، ويقول لك: لا، إنك لا تفهم معناها، وهذا هو تفسيرها، وقد سألت عنها، ومعي فتوى بذلك.

عندما ينكر الإنسان الحق أو يردّه فهو غير مستقيم، فلو أنه استقام على أمر الله لآمن به ولقي ثماره يانعةً.

علامة المنافق أو الكافر أنه لا يعبأ بقصص الأنبياء ولا بآيات القرآن :

قال تعالى:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

آية مثل الشمس، مثل القمر، مثل المجرات، يقول لك: الحديث لا يفيد، فلا داعي للتحدث فيه، ولو قلت له: سيدنا نوح، يقول لك: سيدنا نوح ماذا تريد منه الآن، فقد مات من آلاف السنين، وإن قلت له: سيدنا يوسف قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

[سورة يوسف:33]

فلا يتركك تتكلم، ويقول لك: هل هذا عصر سيدنا يوسف؟! فإن تكلمت معه عن التاريخ يرفضه، وإن تكلمت مستشهداً بالآيات يرفضها كذلك، لأنه معتدٍ أثيم:

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

يريد أن تحدثه في شيء جديد كالكمبيوتر، أو تكلمه عن مشروع تجاري ناجح، أو يريد دخلاً كبيراً أو سيارة فارهة، أو فيلا في مصيف، أو مركزاً أو مكانة مرموقة، أو حياة ناعمة، أو مباهج، فلا تعنيه سيرة سيدنا نوح أو سيدنا إبراهيم فهذه القصص ليست لها قيمة لديه، لا هذه القصص ولا تلك الآيات.

علامة المؤمن أنْ تراه مأخوذاً بآيات الله :

لو أخبرته عن وزن الحوت البالغ مئة وثلاثين طناً، فيقول لك: ماذا نريد منه!! فهذا يدل على عظمة الله عزَّ وجل، وهذا لا يهتم به، الأرض سرعتها في الثانية الواحدة ثلاثون كيلو متراً، أي أنها تسير في الساعة الواحدة مئة وثمانية آلاف كيلو متر، وقد مضى من وقت الدرس ساعة تقريباً أي أننا قد سرنا في هذا الفضاء مئة وثمانية آلاف كيلو متر:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

إنّ علامة المؤمن أنْ تراه مأخوذاً بآيات الله، وعلامة المؤمن أن تكون هذه الآيات الكونية ملء سمعه وبصره، وعلامة المنافق أو الكافر لا يعبأ بها، يقول لك: انظر إلى الطائرة الجامبو العملاقة، فوزنها ثلاثمئة وخمسون طناً، وتحمل ستمئة راكبٍ، وثمنها ثلاثمئة مليون دولار، فتجده مأخوذاً بسعرها، ومأخوذاً بمواصفاتها وبصوتها المنخفض، أو أنها ذات طابقين، ومأخوذ بأجهزتها.

إنّ المؤمن مأخوذ بالشمس، مأخوذ بالقمر، وبهذا الكون وما فيه من مجرات، وبهذه الثمار، وبهذه الفاكهة، وبهذا الماء العذب الفرات، مأخوذ بالجبال، مأخوذ بالبحار، مأخوذ بخلق الله عزَّ وجل، وكيف كان الإنسانُ نقطة من ماء مهين، ثم صار طفلاً، صار خلقاً سوياً، مأخوذ بمظاهر الكون..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

إذا رأيت أحدهم يقول لك: هذه أشياء قديمة لا تنفعنا، وهذه أشياء تجاوزناها، وهي ليست من روح العصر، وهذه الأشياء كانت لأناسٍ سُذَّج، وكل هذا كان حينما كانت البشرية في بدايتها، في طفولتها حيث أُخذت بها، أما الآن فنحن في عصر العلم يا أخي.

إذا سمعت أحدهم يقول هذا فاعلمْ أنه: معتد أثيم، وأنه يكذّب بآيات الله عزَّ وجل، وأغلب الظن أنَّه مطفف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الرَّان هو حجابٌ كثيف بين العبد وربِّه :

هذه علامة الناس، يريد المال من أي طريق، بطريق مشروع أو غير مشروع، يجوز أو لا يجوز، سواء كان كثيراً أم قليلاً، لا يهمّه إلا المال فقط، لذلك فقدتْ البركة، ولذلك أصبحت الأمراض كثيرة، مرض واحد يستهلك ما جنيته في العمر كله، والأسعار غالية، فثمن زرع كلية ستمئة ألف، وهذه الأسعار قبلَ سنتين، والآن هي أغلى بكثيرٍ، والدولار تضاعف، لقد كان سعره خمس ليرات، وقد تضاعف الآن، فمرض بسيط يستهلك عملَ خمس سنوات، لأن هناك تطفيفاً.

أما إذا كان المال حلالاً، ودون تطفيف فإنّ الله عزَّ وجل يبارك لك فيه، فتعيش في بحبوحة، وفي صحة تامة، وفي سرور وسعادة، وأنت في خير وعافية، فلذلك أنا أقول: درهم حلال أحسن من مئة حرام، فإذا حصلت على المئة بالتطفيف فمعنى ذلك أنّ هناك عقاباً أليماً في الدنيا قبل الآخرة، وإذا كان العقاب في الدنيا تذكيراً فهو نعمة، أما إذا كان في الآخرة فهو عقاب أليم.

نشب قديماً حريق في شارع بكامله، وفي الشارع سوقٌ تجارية، أحد التجار عنده بضاعة احترقت في يوم واحد، ثمنها ثلاثة ملايين ليرة، فهل هذا المال قليل؟ لقد قضى هذا التاجر في جمع المال عشرين سنة، واللهُ جمع هذا كله وأتلفه في يوم واحد، كذلك فالله يحبه لأنَّه يذكره في الدنيا قبل الآخرة.

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الذي أقوله دائماً هو نصيحة وذكرى، فكل معصية تسبب غشاوة بينك وبين الله، غشاوة فوق غشاوة فوق غشاوة حتى يصبح الرَّان، والرَّان هو حجابٌ كثيف بين العبد وربِّه:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أكبر عقابٍ للإنسان يوم القيامة أن يكون محجوباً عن الله :

هذا الكسب الحرام، هذا التطفيف، هذا الغش في البيع والشراء، هذا النقص في المكيال، هذا النقص في الميزان، هذا النقص في الكيل، هذا النقص في المساحة، هذه الخدمة غير المتقنة، هذا التدليس، هذا الكذب، هذا الختل والمخادعة، هذا كله تطفيف، أي أنَّ الإنسان لم يأخذ حقه منك، بل أخذ أقل من حقه، وجُرْتَ عليه وغَبَنْتَه، ولا أعتقد أن هناك مصلحة في الأرض إلا ولها علاقة بهذه الآية:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

بهذا الكسب السيّئ، وهذا الكسب للمال الحرام تجَمَّعت طبقات كثيفة بعضها فوق بعض، حتى صار راناً على قلب صاحبه، ولا يعي على خير:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

انظر إلى بلاغة القرآن الكريم، فماذا يفهم من هذه الآية؟ دائماً ابحثوا عن المعنى العكسي، إنْ كان هؤلاء الفجَّار، وهؤلاء المطففون، وهؤلاء الذين كذَّبوا بيوم الدين، وهؤلاء الذين اعتدوا وكانوا آثمين، وهؤلاء الذين قالوا: إنَّ هذه الآيات أساطير الأولين، فهؤلاء:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

والمعنى العكسي: فهل المؤمنون محجوبون؟ لا، إنَّهم يرون ربَّهم، مِن هنا استنبط عليه الصلاة والسلام:

((قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا))

[البخاري عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ]

وقال بعضهم: إنَّه إذا نظر المرء إلى الله عزَّ وجل نظرةً واحدة غاب خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظرة، فأكبر عقابٍ لهذا الإنسان أنَّه عن الله محجوبٌ:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

الفجار المطففون يوم القيامة محجوبون عن ربِّهم حجاب رؤيةٍ وحجاب تحقير :

أحد العارفين قال: إنّ أحد تلامذته قال له: إنَّه عصى الله مرةً، وانتظر عقاب الله عزَّ وجل طويلاً فلم يأته، وبحسب ما سمع منه أن كل معصية لها عقاب، فعصاه والعقاب لم يأتِ، فنادى ربَّه وقال: ربي لقد عصيتك فلم تعاقبني! قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذَّة مناجاتي!؟ أي أن الله عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

ألا يكفي هذا العذاب أنَّ الله سبحانه هو مصدر السعادة وهو محجوبٌ عنه.

إذا قال الأب لابنه: اخْرُجْ من هنا، ورفض الجلوس معه، والأهل يحيطون بالأب مسرورين، والحديث ممتع، والأكل طيّب، وهذا الابن محجوب، أليس هذا عقاباً نفسياً؟!! لذلك ابن القيِّم قال: هناك عقابٌ يوم القيامة نفسيٌّ، ربما زاد على عقاب الجسد. هذا وقت الحجاب:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

قال المفسرون: هناك حجاب رؤية، وهم محرومون من هذا الجمال، وهذه النظرة، وهناك حجاب تحقير، فإذا تجاوز إنسان حدَّه فينهر ويؤمر بالخروج من المجلس، أخرجوه من عندي، هناك حجاب عدم رؤية، وهناك حجاب تحقير، وهؤلاء الفجار المطففون يوم القيامة محجوبون عن ربِّهم حجاب رؤيةٍ وحجاب تحقير، ألا يكفي هذا؟!!

ألا يغار الواحد ويتألَّم بأن يكون مع المحجوبين؟ مع المحرومين؟ إذا ظهر اسم طالب غشَّ في الامتحان، وصدر قرار بحرمانه ثلاث دورات، وأذيع هذا القرار على الأشهاد، ألا يتألَّم؟ هذا ألم نفسي، فربنا عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ* ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

هذا يوم الدين، يوم القيامة، يوم الفصل، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وكل إنسان يأخذ حقَّه كاملاً، ويُعطى حقه كاملاً.

فهذه السورة والله الذي لا إله إلا هو تقطع الظهر، وتقصم الفقار، وليست هناك مصلحة من مصالح الأرض إلاَّ وهي داخلة تحت مظلة هذه السورة، وإذا كان التطفيف هذا عقابه فكيف يكون عقابُ التقصير بحقِّ الله عزَّ وجل؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المطففين 083 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 07 – 36 ، الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-11-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب هو صفحة أعمال الإنسان وكل إنسان له صفحة أعمال :

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ*الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ*كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ* ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ*كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

صار الكتاب هو صفحة أعمال الإنسان، وكل إنسان له صفحة أعمال، وفي التنظيمات الإدارية الحديثة كل موظّف له إضبارة، كتب الشكر في سجلّه صورةٌ عنها، وكتب العقوبات في سجلّه صورةٌ عنها، والتوبيخات والتحذيرات والإنذارات والمكافآت كلها هناك صور عنها.

صفحات هذا الكتاب مرقّمة ومضبوطة لا تُنسَى منه صفحةٌ واحدة :

إنسان عادي من الناس حينما نظَّم الأمور جعل لكل موظف سجلاً يشهد على أعماله الطيّبة وأعماله السيِّئة، ففي حالة الترفيعات أو البعثات أو المهمات يلقون نظرة على سجله. فإذا كان الإنسان نظَّم هذا التنظيم فليس عجباً أنّ رب العالمين جعل لكل إنسان كتاباً، وفي كتابه هذا أعماله كلُّها، صحيحها وفاسدها، الأعمال السامية والأعمال المنحطة، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وما من حركةٍ ولا من سكنةٍ، ولا من عملٍ صالح ولا عملٍ سيّئ، ولا مخالفةٍ ولا معصيةٍ، ولا صدقةٍ ولا زكاةٍ إلا في هذا الكتاب:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

إن طفح هذا الكتاب بالأعمال الصالحة يقود صاحبه إلى الجنة، وإن طفح هذا الكتاب بالأعمال السيِّئة قاد صاحبه إلى النار، فالآيات الأولى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

أي صفحاته مرقَّمة ومضبوطة لا تُنسَى منه صفحةٌ واحدة، ولا تضاف صفحةٌ تزويراً، ولا تنزع منه صفحةٌ واحدة، لا تزويراً ولا تستيراً:

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

ومرقوم أيضاً أعماله كلُّها مصوَّرة، فالخبر عن العمل شيء وصورته شيء أبلغ، فإذا ارتكب الإنسان مخالفة، وقيل له: أنت خالفت، وهذه المخالفة بكتاب رسمي هذا خبر، أما إذا قدِّمت له صورةٌ وهو يخالف فالصورة أبلغ، مرقومٌ في صفحاته، ومرقومٌ في صوره.

من علامة المكذبين أنَّهم لا يعبؤون بآيات الله عزَّ وجل ولا بقوانينه :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ*الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

هذا الترابط المستمر بين التكذيب بالدين والعمل السيِّئ:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أي أن من علامة المكذبين أنَّهم لا يعبؤون بآيات الله عزَّ وجل ولا بقوانينه، ولا بنظمه، ولا بآياته القرآنية، ولا بتشريعاته.

غير المؤمن محجوب عن رؤية الله عز وجل حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة :

قال تعالى:

(قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

كلُّ عملٍ سيِّئ يشكل غشاوةٌ تلقى على القلب، ثم غشاوة فوق غشاوة، إلى أن يصبح الرَّان، أي غشاوةٌ سميكةٌ لا يمكن خرقها..

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ*كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

هؤلاء محجوبون حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة، لذلك فإنّ المؤمن يرى الله عزَّ وجل رأي العين يوم القيامة أما غير المؤمن فمحجوب عن رؤيته حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ*ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ*ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

القرآن الكريم فيه توازن، أي أنه إذا بثَّ في نفوسنا الخوف والوجل والذعر في الوقت نفسه يطمئننا إلى أنَّ المستقيم المحسن المؤمن له عند الله مصيرٌ سعيد، فربنا قال:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى*لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

[سورة الليل: 14- 15]

هذه النار لا يصلاها الناس اعتباطاً، لا يصلاها إلا الأشقى.. فهذا تركيب حصري قصري، الأشقياء وحدهم يصلون النار.

الإنسان إما أن يكون براً وإما أن يكون فاجراً شقياً :

كذلك هنا ربنا عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

فقد يكون مَحْضَرُ الجريمة مودع في القصر العدلي، وفي القصر العدلي زنزانة، وقد ينتقل منها إلى السجن، لكن في الجامعات سجل للطلاب الأوائل، فكتاب الأبرار، أيْ من مكانه تعرف مضمونه، مكانه في عليِّين، أي في الجنة، يحفظ كتاب الأبرار في عليين، فإذا كان الكتاب في الجنة فأين صاحبه؟ في الجنة قطعاً:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الناس رجلان برٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هيّنٌ على الله))

[ابن أبي حاتم عن حذيفة]

فالإنسان إما أن يكون براً وإما أن يكون فاجراً شريراً شقياً، الأبرار جمع بَر، وهناك بر، فهذه الكلمة مثلثة، ومعنى مثلثة أيْ أنّ الباء تكتب وتلفظ بالضم والفتح والكسر، البُر القمح، والبَر العمل الصالح وكذلك اليابسة، والبر الإحسان:

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

[سورة الطور:28]

البر الإحسان، بالبِرِّ يستعبد الحر، والبَر اليابسة، والبَر أيضاً الإنسان الطيِّب، والبُر القمح، والأبرار جمع بَر، أي الإنسان الطيِّب، الطاهر، النقي، المحسن، صاحب الوفاء، صاحب المروءة، صاحب الحلم، الذي يعفو، الذي يرحم، المنصف، المتواضع، ليس فيه كِبر، ليس لديه استعلاء، ليس عنده حقد، ولا حسد، هذا هو البَر، كتاب الأبرار أي سجل أعمالهم في الجنة منشور.

أبواب الأعمال الصالحة التي لا تحتاج إلى إنفاق واسعة جداً لا تُحصى ولا تُعدّ :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

كذلك هذا الكتاب مرقوم، صفحاته مرقّمة، وصفحاته مصوَّرة، كل عمل صالح فيه صورته، أي كأنَّ هذا الكتاب ينطق بعمل الإنسان في الدنيا، في اليوم الفلاني وفي التاريخ الفلاني أغاث إنساناً، في اليوم الفلاني عاد مريضاً، في اليوم الفلاني دعا إلى الله، في اليوم الفلاني كان براً بوالدته، في اليوم الفلاني أنقذ غريقاً، في اليوم الفلاني دفع من ماله لبناء مسجد، فهذه الأعمال الطيبة من صلاة، من صوم، من حج، من زكاة، من حضور مجالس علم، من دعوة إلى الله، من ذكر لله، من معاونة للناس، من إنفاق أموال، من بناء مساجد، من بناء دور للأيتام، من إصلاح بين زوجين، من إصلاح بين شريكين، فالأعمال الصالحة لا تُعدُّ ولا تحصى واسعة جداً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّكم لن تسعوا بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم))

[البزار في مسنده]

أي أنَّ أبواب الأعمال الصالحة التي لا تحتاج إلى إنفاق واسعة جداً لا تُحصى ولا تُعدّ:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

هذا الكتاب المرقوم:

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

ورد في بعض الأحاديث: أن الإنسان يوم القيامة ينظر إلى لقمة أطعمها في سبيل الله فيراها كجبل أحد، لأن العظيم يكافئ على الصغائر فكيف بالكبائر؟ فصغائر الأعمال يكافئُ عليها، أما جلائل الأعمال فيكافئُ عليها وزيادة، فقد قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

لو قرأنا القرآن الكريم لشعرنا أن الله سبحانه وتعالى يطمئننا :

قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

هذا وعد إلهي وقال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

(وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ)

[سورة آل عمران:115]

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

[سورة الأنفال:60]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة البقرة:143]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

[سورة التوبة:115]

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء:124]

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

[سورة محمد:35]

إذا عرفتَ الله عزَّ وجلَّ فأنت موعود بالخير في الدنيا والآخرة :

لو قرأت القرآن الكريم لشعرتَ أن الله سبحانه وتعالى يطمئننا، وقد قال الله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خير، أي إذا عرفتَ الله عزَّ وجلَّ فأنت موعود بالخير في الدنيا والآخرة، اطمئن فلن تلد الأيام إلا الخيرات، أما أهل الدنيا فلن تلد الأيام لهم إلا المصائب، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ليس هذا الكلام للمؤمنين، لا، هذا الكلام لمن أدار ظهره للدين، هذا الكلام لأهل الدنيا، لمن آمنوا بالدنيا، لمن جعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم، لمن تنافسوا عليها، وعصوا الله من أجلها، هذا الكلام لمن لم يبالِ بوعد الله ووعيده، قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فقراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

كتاب الأبرار في أعلى درجات الجنة :

إذاً ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

أي هذا الكتاب في أعلى درجات الجنة..

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

قال بعض المفسرين: المقربون هم الملائكة، وقال بعضهم: المؤمنون، أي هذا الكتاب خاضع للنشر، أي منشور، فإذا عمِل الإنسان عملاً طيباً، فهذا العمل الطيب ينشر في جريدة، أجل الأعمال السيئة تبقى محفوظة في سجلات في المحاكم، وفي دوائر الشرطة، وفي بعض الأماكن الخاصة، أما الأعمال الطيبة فتُنشر، فهذا الكتاب:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ *كِتَابٌ مَرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ*إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

المطلق على إطلاقه، الأبرار جمع بَرّ، وهو الإنسان الطاهر الطيب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس رجلان برٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هيّنٌ على الله))

[ابن أبي حاتم عن حذيفة]

بمجرد أن نتوب توبةً نصوحاً فإننا ندخل في النعيم :

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

في نعيمٍ منذ أن عرفوا الله، يبدأ هذا النعيم منذ التوبة النصوح، وهذا الكلام موجَّهٌ لنا جميعاً، بمجرد أن تتوب توبة نصوحاً فإنك تدخل في النعيم، نعيم القرب، نعيم الطمأنينة، نعيم الثقة بالله عزَّ وجلَّ، نعيم أنك من عباده المخلصين، نعيم أنك بأعين الله عزَّ وجلَّ:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

نعيم الحفظ الإلهي:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

[سورة يوسف: 64]

نعيم أن الله يدافع عنك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

نعيم المودة مع الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

هذا هو النعيم، نعيم القرب، نعيم التجلي الإلهي، نعيم الثقة بالله.

الإنسان إذا عرف الله عزَّ وجلَّ يهون عليه كلُّ شيء ويحتقر كلَّ شيء سواه :

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتَّق الله، من هاب الله هابه كل شيء، من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عن مالنا كنا له ومالنا.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـا

ولذ بحمانا و احتمِ بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـا

وعن ذكرنا لا يشغلنَّك شاغلٌ وأخلص لنا تلقَ المسرة و الهنـا

* * *

هذا النعيم في قلب المؤمن ما لو شُقَّ عليه وعاينه الناس لحسدوه جميعاً، وكما قال أبو يزيد البسطامي: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

حتى إن بعضهم يفسر قوله عليه الصلاة والسلام:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف]

أي الآن في الجنة قبل أن يموت، أي في سعادة وأي سعادة أعظم من أن ترى أنك قد اهتديت إلى الله، ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وأن فتك فاتك كلُّ شيء وأنا أحبُّ إليك من كل

شيء.

أي إذا كان معك دفتر شيكات مفتوح ضع أي رقم ووقع، فإنه يُصرف، فهل هذا مثل واحد معه قليل من النقود؟ هذا دفتر وقلم، فتضع رقماً بمئة مليون يُصرف، ألف مليون يُصرف، مئة ألف مليون يُصرف، وبالعملة الصعبة أيضاً، ودفتر شيكات، وليس شيكاً واحداً، وهذا شخص آخر معه قليل من الليرات وسعيد بها، فكيف بصاحب الشيكات؟ والإنسان إذا عرف الله عزَّ وجلَّ يهون عليه كلُّ شيء ويحتقر كلُّ شيء سواه.

المؤمن يسعد بالله عزَّ وجلَّ والله معه أينما كان :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون: 1-2]

قال بعض المفسرين: اللغو كلُّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ، كلُّ ما سوى الله لغو، لأنه سوف يُلغى، البناء يلغى إما بالموت أو يوم القيامة يلغى، الأبنية الشامخة متى تلغى؟ إما بموت صاحبها أو بزلزال أو يوم القيامة، الشمس تكوَّر، النجوم تبعثر، الجبال تسيَّر:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 26-27]

إذاً:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

حتى لا يقع الإنسان في وهم، إذا كنت باراً فيجب أن تكون في نعيم، أنا أحياناً ألتقي مع أخ مؤمن يقول لي: إني مسرور جداً، والله كأنني أعيش في جنّة، صدقت، هذا هو الإيمان، أما خلاف ذلك لست مؤمناً، من علامة إيمانك أنك سعيد في كلِّ الظروف، وأنت وسط الأزمة، وأزمات العصر الحديث كثيرة جداً، أزمات السكن، وأزمات دَخْل، أزمات أعمال، أزمات مواد أولية، وأزمات كثيرة جداً، فإذا كنت مؤمناً فأنت سعيد في كلِّ الظروف، لأن السعادة لا تأتيك من الخارج، بل تأتي من الداخل.

أهل الدنيا يسعدون بالمال، يسعدون بوسائل الرفاه، يسعدون بالبيوت، يسعدون بالدخل الكبير، يسعدون بالطعام اللذيذ الشهي، يسعدون باللباس الأنيق، يسعدون بالمكانة الاجتماعية، لكن المؤمن يسعد بالله عزَّ وجلَّ، والله معه أينما كان.

حسن الظن بالله ثمن الجنة :

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

فلو شاهدت عيناك من حسننـا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمُت غريباً و اشتياقاً لقربنـــا

ولو لاح من أنوارنا لك لائـحٌ تركت جميع الكائنات لأجلــنـا

فما حبنا سهلٌ ولكن من ادعى سهولته قلنا له: قد جهلتـــنـا

* * *

قال ابن الفارض:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضى لوقفت متمهلاً ولم أتوقـــف

أو من كان من يرضى بخــدي موطئاً لوضعته أرضاً ولن أستنكفِ

* * *

لو قال تيهاً محبوبه.. وهو الله عزَّ وجلّ، لو قال: تيهاً قف على جمر الغضى، وهو أشد أنواع الجمر حرارةً، إنّ الإسلام كله محبة، الإسلام له جسد وله روح، الجسد الصوم والصلاة والحج والزكاة، وهذه الأوامر والنواهي هذا هو الجسد، فكما قال صلى الله عليه وسلم: إن للإسلام مناراً وضياءً، المنار البناء، أما الضياء فهو النور المنبعث من هذا المنار، فالأحوال القلبية والشعور بالقرب من الله عزَّ وجلَّ، والشعور بالطمأنينة، بالرضى، بالراحة، الثقة بالله عزَّ وجلَّ، المؤمن واثق من الله عزَّ وجلَّ لا يخيب ظنه بالله عزَّ وجلَّ، حسن الظن بالله ثمن الجنة.

ربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل صفحة الوجه صفحةً للنفس :

قال عليه الصلاة والسلام:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه الأحوال إذا وجدت سعد الإنسان، أما إذا لم توجد، فالإسلام يصبح شيئاً عادياً، يصلي بملل، ويؤدي الزكاة بثقل، ويقوم بالعبادات دون شوق وحرارة، لذلك تجد بعض الناس يقول لك: إن هذا الشخص تديّن، وبعد فترة انقلب على عقبيه؛ فلت وشرد وضاع، طبعاً لأنه لم يتصل بالله عزَّ وجلَّ الصلة الحقيقية، فإنه تدين تديُّناً شكلياً، وهذا الشيء الشكلي مملٌّ، وبعدئذٍ ينتهي:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ*تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

هناك وجه شقي وهناك وجه منعَّم، سبحان الله سيدنا عثمان بن عفان كان على المنبر يخطب، فدخل رجل فقال: أيدخل علينا رجلٌ وأثر الزنى بين عينيه؟ فقال له الصحابة: أوحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا ولكنها فراسة صادقة، إنّ عمل الإنسان يظهر على وجهه، هناك وجه بريء، وهو وجه مقبل، وهناك وجه مضيء كمصباح متألق، وكذلك هناك وجه ضوءه خفيف، وهناك أيضاً وجه ضوءه قد انطفأ، وهو وجه فيه شقاء، فيه حقد، كل صفات النفس منطبعة على صفحة الوجه، وربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل صفحة الوجه صفحة للنفس:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لو كان حسن الخلق رجلاً يمشي في الناس لكان رجلاً صالحاً، ولو كان سوء الخلق يرى رجلاً يمشي في الناس لكان رجل سوء))

[الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود]

((اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي))

[أحمد عن عَائِشَةَ]

الوجه الحسن: طبعاً هذا الحديث ليس له علاقة بمواصفات الجمال، فأيُّ وجه أقبل على الله عزَّ وجلَّ تألَّق النور فيه، فسيدنا بلال له وجهٌ يأخذ بالألباب.. نور، أي وجهٍ إذا أقبل على الله عزَّ وجلَّ تألق بنور الله.

طعام أهل الجنة رحيق مختوم أما أهل النار فشرابهم وطعامهم من غسلين :

قال تعالى:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

الآن بالمعنى المادي في الدنيا؛ إذا رأيتَ شخصاً يعتني كثيراً بأكله وصحته، واستيقظ من نومه بعد نوم عميق، ثم أكل إلى أن شبع، وترفَّه في الحمامات تجد وجهه مشرقاً، وكأن الدماء تجري في وجهه، أما إذا كان الواحد متعَباً مهموماً تجد حول عينيه دائرة سوداء، وغضوناً واصفراراً، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟!

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)

النعيم له نضرة:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)

قال العلماء: الرحيق شرابٌ نفيس، أما مختوم فله معنيان؛ أول معنى: أن هذا الشراب صنع خصيصاً لهم، وفي زماننا إذا كانت قارورات الشراب غالية جداً فهي مختومة، وتفتحها بمفتاح، لأنها خاصةٌ بك، لا أن تقول للبائع: املأها لنا، فالشراب المختوم أغلى، فهذا لم يقربه أحد، وصنع خصيصاً لك، ولم تقترب منه يدٌ، لأنه مختوم، وبعضهم قال: كلمة مختوم تعني له عقابيل، أي ينتهي برائحة طيبة، فإذا شرب الإنسان كأساً من الماء فيه ماء الزهر، في أثناء الشرب لا يشعر برائحتها، ولكن حينما ينتهي من الشرب خلال ثانية تفوح عليه رائحة ماء زهر، فقال العلماء: هذا الشراب النفيس ختامه مسك، إما أنه مختوم بمادةٍ هي المسك، والختم مسك، أو أنه إذا شربت منه تفوح عليك رائحة المسك، وهذا هو الشراب النفيس، أما أهل النار فشرابهم وطعامهم من غسلين، أي شيء لا يحتمل كراهته طعماً ورائحة، قال تعالى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

[سورة الغاشية: 6]

التنافس على الآخرة يسعد الناس و التنافس على الدنيا يشقيهم :

قال تعالى:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ*خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

هذه الآية سبحان الله كلما قرأتها أشعر بمشاعر خاصة، فلو أن الناس تنافسوا في هذا الطريق لسعدوا جميعاً، وإذا تنافسوا على الدنيا لشقوا جميعاً، ويمكن أنْ أقول لك بكلٍّ بساطة: كل المآسي البشرية من

التنافس على الدنيا؛ على مستوى الأمم، وعلى مستوى الشعوب، التنافس على النفط، وعلى مواطن النفوذ، وعلى المناجم والثروات الباطنية، والتنافس على المغانم، فما يشهده العالم من حروب في العصور الحديثة كله بسبب التنافس على حطام الدنيا، الدنيا جيفة طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له، لو تصورت تنافس الناس في طريق الإيمان لرأيتَه شيئاً لا يوصف، أي كل إنسان يجب أن يخدم أخاه ويؤثره في الدنيا، إنسان أخذ محلاً تجارياً واسعاً، وله أخ ليس له محل، فيقول له: تعال وخذ نصفه، تكون قد حُلّت المشكلة، عندك بيت زائد عن حاجتك أعطه لمَن لا بيت له، فلو أن الناس تنافسوا في الآخرة لسعدوا جميعاً لكن تنافسوا على الدنيا فشقوا جميعاً، وربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

ففي هذه الموضوعات تنافسوا، وفي هذا المجال تنافسوا، وتنافسوا في معرفتكم بي، افتخروا بمعرفة الله، بقراءة القرآن، بفهم كتاب الله، بالعمل الطيب.

من أجل سنوات معدودة نضيِّع آخرة أبدية لا تنتهي :

يقولون: إنّ سيدنا عمر كان يزور امرأة أرملة، فيقدم لها الطعامَ والشرابَ، يطرق بابها فتقول له: والله لقد أتى شخص قبلك، ثم يبكر ساعة فيأتي رجل قبله، فذات مرة صلى الصبح وذهب فرأى سيدنا الصديق قد سبقه.

فأنت تصور خمسة أشخاص عاشوا في بيت مؤمنين كيف يعيشون ويتنافسون؟ إذا كانت التفاحة كبيرة آثر بها غيره، وكذا المكان الجيد بالغرفة والثاني أيضاً يقابله بمؤاثرة، فإذا كانت حياتنا مجموعة مؤاثرات ومجموعة عطاءات فالحياة تبدو سعيدة جداً..

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

ما الذي يحصل الآن؟ تنافسٌ على جمع الدرهم والدينار، من أجل أن يجمع ثروةً طائلة يبيع دينه كلّه، يضع القيم كلها تحت قدمه، يضع المبادئ السامية تحت قدمه من أجل لعاعةٍ من الدنيا، كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام لا تدوم، فأنا أسمع قصصاً غريبة، فهناك شخص أجرى تحسينات في بيته إلى درجة قصوى لم يترك شيئاً إلا وأدخله لتحسين بيته، وهو في بحبوحة، وبعد ما انتهى بشهر جاءته المنية، فلو أنَّ الدنيا جاءت بالحلال لكانت شيئاً حسناً، لكن أنْ تعصي الله من أجلها، وهي غير باقية فهذه هي الخسارة الكبيرة، تعصي الله من أجلها فتبيع دينك، وتبيع الآخرة بأكملها من أجل سنوات معدودة!!

من يستطيع أن يركّز وضعه وهو قبل الأربعين سنة على حسب حياتنا المعاصرة؟ فالإنسان من أجل أنْ

يأخذ شهادة، وأنْ يشتري بيتاً حتى تخرج عيونه بالطول والعرض، وما أكثر الخطأ في أساساته، إلى أنْ يستقر، أو إلى أنْ يشتري عيادة، أو إلى أنْ يشتري معدات طب الأسنان لعيادته فيصبح في سنّ الأربعين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

وذلك قبل هذه الأزمات القلبية المعاصرة، أما الآن فأصبح بالأربعينات معترك المنايا، وهو في عمر الثانية والأربعين توفى، وفي الثانية والثلاثين جاءته الجلطة، ففي الثانية والخمسين، أو الرابعة والخمسين، أو التاسعة والأربعين، ونحو ذلك، فتابعوا الأخبار أزمات كبيرة جداً، فمن أجل سنوات معدودة نضيِّع آخرة أبدية لا تنتهي فو الله إن هذه لخسارة كبيرة.

التسنيم إما أن تكون شراباً خالصاً للمقربين وإما أن تكون شراباً ممزوجاً للأبرار :

قال تعالى:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَّامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ*وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)

هذا الشراب ممزوج بشراب آخر من تسنيم، والتسنيم كما وصفه الله عزَّ وجل:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)

العلماء استنبطوا أنَّ التسنيم نبعٌ يشرب منه المقرَّبون، يشربونها صرفاً، لكن هذا الشراب؛ الرحيق المختوم يشرب منه الأبرار ممزوجاً مع التسنيم، كما لو أعطينا شخصاً قطعة مذهبة، وشخصٌ آخر أعطِي قطعة من الذهب الخالص من عيار أربعة وعشرين، فالأولى مذهبة مطلية بالذهب، أما تلك فمن الذهب الخالص، فمن هنا يستنبط أن التسنيم شرابٌ نفيسٌ، نفيس للمقربين، وبعضهم أيضاً استنبط أنَّك في الجنة إما أن تسعد بتجليات الله عزَّ وجل، وإما أن تسعد بما فيها من طعامٍ وشرابٍ وجنَّاتٍ وثمارٍ وحورٍ عين.. إلى آخره من النعيم، فإما أن تسعد به، وإما أن تسعد بجنته، وإما أن تسعد بهما معاً، فهؤلاء الأبرار يسعدون برحيقٍ مختومٍ ممزوجٍ بتسنيم.

التسنيم من سَنَمَ، أي المكان العالي، فبعضهم قد أعطاها تفسيراً مادياً، أي المياه المنصبة من مكانٍ مرتفع كالشلال، وبعضهم وجهها توجيهاً آخر، أي النعيم بذات الله عزَّ وجلَّ وهو أرقى درجات القرب. والأبرار ينعمون بما في الجنة من حورٍ عين وما فيها من فواكه مما تلذُّ به الأنفس والأعين، وفوق ذلك فهي ممزوجة بتسنيم، فالتسنيم إما أن تكون شراباً خالصاً للمقربين، وإما أن تكون شراباً ممزوجاً للأبرار.

لا يحيط بالله إلا الله عزَّ وجل :

بالمناسبة، كل ما ذكر عن الآخرة لا ينبغي لنا أن نزيد عليه شيئاً، لأن الآخرة غيبٌ لم يرها أحدٌ، ولا نعرف عنها إلا في حدود ما ذكر الله عزَّ وجل عنها، فالبحث في كيفيَّتها وفي كُنهها وفي حقيقتها بحثٌ غير مُجدٍ، فإذا وُعِد الطالب المتفوِّق بقصر فخم جداً، وهو صادر من أعلى جهة في الدولة، فالطالب بدلاً من أن يضيّع الوقت في السؤال والبحث عن ماهية القصر، وما به من الغرف وعددها، وكم طابقاً، وبأي منطقة يقع؟ وهل له حديقة أو مسبح؟ فبدلاً من أن تفكر في مواصفات القصر فاشتغل حتى تنال القصر، فأيُّهما أبلغ؟ أن تفكر في مواصفاته أم أن تَجِدَّ حتى تناله؟

لذلك ليس للإنسان أي حق في أن يفصِّل، أو يضيف إضافات على ما جاء في كتاب الله، ونحن فيما يتعلّق بالجنة نبقى في حدود ما ذكر الله عزَّ وجل فقط، لأن الشيء المجدي أن تكون أهلاً للجنة، أن تجتهد في الدنيا حتى تدخل الجنة، هذا هو الشيء المجدي، أمَّا أن تفكِّر في شيء غائبٍ عنك فهذا عبثٌ، فالآخرة لا نعرف عنها إلا ما ذكره الله عزَّ وجلَّ، لكن الله عزَّ وجلَّ تعرف عنه كل شيء من خلال الكون، فيمكنك أن تعرف عن الله الشيء الكثير الكثير ولكن لا يحيط بالله إلا الله عزَّ وجل، لا يعرف الله حقَّ المعرفة إلا الله:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

لكن من خلال الكون قد تعرف عنه الكثير الكَثير إذاً:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ*خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

وهذا الرحيق المختوم من صفاته أيضاً أنَّ مزاجه من تسنيم، أي أن هذه السعادة في الجنة وهذا التمتُّع بما في الجنة من عطاءات ممزوج بالتجلي الإلهي، كما لو دُعِيتَ إلى حفلة أو إلى وليمةٍ فاخرة، وصاحب البيت أجلسك إلى جنبه ورحَّب بك، ومن حين لآخر يلتفت نحوك قائلاً: أهلاً وسهلاً، شرَّفتنا يا أخي، والله البيت استنار بقدومك، فهو يأكل طعاماً طيباً كثيراً، وبالإضافة إلى الطعام النفيس هذا الإكرام الترحيبي، فأحياناً الإنسان يأكل وينصرف فهذا إطعام، أما الإطعام مع الترحيب ففيه إكرام.

الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل وهذا هو ملخص الآيات :

إذاً فربنا عزَّ وجل في الآخرة بالإضافة لِمَا في الجنة من فواكه وثمار وجنَّات وأنهار، وأنهار من عسل وأنهار من لبن، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، بالإضافة إلى كل ذلك هناك تجليَّات الله عزَّ وجل. المقربون مشغولون بالله عمن سواه، الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل، وهذا هو

ملخص الآيات، أي مزاجه من تسنيم، هذه العطاءات ممزوجة بشراب من نوع راقٍ جداً وعالٍ ويُكرَم أيضا بتجليات الله عزَّ وجل، أما المقربون فهم يشربون من هذه العين صرفاً:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ* إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)

سبحان الله**!!** قد ضربت يوماً مثلاً بسيارات النقل العام قديماً، الذاهبة لحي المهاجرين، فكانت تقف في ساحة المرجة، وتقف باتجاه الشرق، ففي أيام الصيف الحارة يصعد الناس إلى السيارة ليركبوا، فتجد على اليمين شمساً، وعلى اليسار ظلاً، إذا أعمل الراكبُ فكرَه قعد في جهة الشمس، وإذا عطل فكرة دون إعمال قعد في جهة الظل، وهذه السيارة خلال دقائق ستدور دورة حول ساحة المرجة فستنعكس الآية، فمن قعد في هذا الظل تنعَّم فيه دقيقتين، وظل لمدة ثلث ساعة حتى يصل إلى الموقف الأخير تلفحه الشمس، في شهر آب الحار، ومن قعد متعرضاً للشمس دقيقتين، إلى أن دارت السيارة حول الساحة تنعّم بالظل إلى آخر الخط. فإذا صعد شخص إلى السيارة، وجلس في الظل، ورأى من يجلس في الشمس، فقد يضحك عليه، ويتهمه بالجنون، ويقول له: لِمَ لم تقعد هنا؟ ولكن بعد أن تدور السيارة دورة واحدة تنعكس الآية، وتظهر له الحقيقة سافرة.

المؤمن يضحي بسمعته أمام الناس حفاظاً على سمعته أمام الله عزّ وجل :

الكفار الآن يضحكون من المؤمنين، ويستهزئون بهم، ويسخرون منهم، فالمؤمن لا يحضر الحفلات المختلطة، ولا يذهب إلى الأماكن الجميلة الموبوءة، ولا يحب الاختلاط، ويعصِّب سريعاً، ويقولون عنه: إنه جلف، فلا يصافح ولا يسلّم على النساء، ولا يروي نكته لفتاة، مثلاً، ويضحكون لتصرفاته، لأنها بلهاء بنظرهم، فقال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)

يقولون: هذا لا يفهم شيئاً، فمن البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى البيت، ولا يقول إلا الله، ويقرأ القرآن، ويقولون له: روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت، فهذا يحفظونه، فأهل الدنيا كلّهم يحفظون هذا الحديث ويأخذونه على غير ما حمله النبي الكريم، روِّحوا القلوب باللهو البريء، أي إذا مزح الإنسان مع أهله، وكان لطيفاً وذكر طرف يلطف مجلس أهله فلا مانع، فإن القلوب إذا كلّت عميت، لا أن يبل قلبه بمعصية، أو بمسلسل ساقط، أو يبل قلبه بحفلة مختلطة، فبهذا لم يبل قلبه بل نَجَّس قلبه، فبدلاً من أن يبلَّ قلبه نجسه، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

هذا صاحبنا الذي حدثناك عنه هل رأيته؟ يقول هذا سخريةً وغمزاً ولمزاً.

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ*وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقَلَبُوا فَكِهِينَ)

أحياناً يجلس الرجل مع أهله، ويقول: والله اليوم التقينا مع شخص، وعند دخول فتاة لم يصافحها، وضحك الناس عليه، فهو يرى هذا الشيء مضحكاً، وقصة تروى.

إذا كان أحد المؤمنين قد خشي الله عزَّ وجل، أو لم يقترف معصية، أو خجل، يقولون: لماذا وضع نفسه في موقف حرج؟ لأن رضى الله غالٍ عليه، ولم يرد أن يخرِّب ويفسد علاقته مع الله عزَّ وجل، فضحى بسمعته أمام الناس حفاظاً على سمعته أمام الله عزّ وجل فقد قال:

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ*وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقَلَبُوا فَكِهِينَ)

يوم القيامة تدور الدائرة وتنعكس الآية فمن كان يظن أنه في سعادة يصبح في شقاء أبدي:

أي أن الكافر لا يكفيه أنه كافر بل يريد حمل الناس كلهم على كفره، والمنحرف يريد أن يجعل كل الناس منحرفين، فإذا التقى أحدهم بشخص مستقيم ينكر عليه استقامته، ويقول له: أنت تشدِّدها كثيراً، فليس الأمر بهذه الدرجة، يجب أن تكون وسطاً، كلمات مبهمة ولكن لها معانٍ خطيرة، وقد قال ربنا عزَّ وجل :

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

هؤلاء ليسوا أوصياء عليهم، كل إنسان ينصِّب نفسه وصياً على الناس يكون أحمق، من أنت؟! له رب، له رب يثيبه على عمله، ويقدِّر الليل والنهار وكل حال، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

فهؤلاء الذين ينصِّبون أنفسهم أوصياء على الناس وينتقدونهم على استقامتهم وعلى تمسّكهم بالدين، وعلى ورعهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

ركعتان، إذاً:

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ*فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

فقد دارت الدائرة، دارت دورة فانعكست الآية، ولقد دارت الدنيا وجاءت الآخرة، فمن كان يظن نفسه في سعادة فقد أصبح في شقاء أبدي، والذي تحمَّل الدنيا قليلاً جاءت الجنة فسعد بالله سعادةً أبدية.

الأمور بنتائجها :

قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

طبعاً ليس ضحك الشماتة ولكنه ضَحِك الحبور، فحينما كنتُ أصلي، وحينما كنتَ تراني أخاف الله عزَّ وجل، وأحرص على طاعته، وحينما كنت أجلس مجالس العلم كنتَ أنت تستصعب القعود، وتقول لنفسك: أما أنا فأقعد في محل وثير وأرائك لأرتاح، وأسهر وأمزح.. لكن المؤمن يؤثر مجلس العلم، جالساً على ركبتيه، ولا يجد أرائك مريحة، ويقعد ساعة من الزمن يستمع إلى الحق، وغيره مضطجعٌ على أريكة وثيرة يشاهد مسلسلاً تلفزيونياً، ويتناول الشاي والقهوة، ويحضرون له الموجودات في الثلاجة والبراد من الفواكه والتفاح، بينما الآخر في المسجد، فشتَّان بين الاثنين، هذا يمهِّد لنفسه في الآخرة ليسعدها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبَّ مهينٍ لنفسه وهو لها مُكرم))

[السيوطي عن أبي البحير]

فالأمور بنتائجها، فإذا دخل إنسان إلى الجامعة يجد المقاعد عرضها أربعون سنتيمتراً فقط، ومن الخشب، وظهرها يتخذ زاوية قائمة دون أي تزويق، وأغلب الظن أنه يجد برداً في الشتاء، وحراً في الصيف، وكنا ندرس في الجامعة اليوم الدراسي اثنتا عشرة ساعة في اليوم الواحد، والمحاضرات متلاحقة، فإذا جاء يوم الأربعاء أصيب الإنسان بالملل، فإذا درس طالب بالجامعة خمس أو ست سنوات، وحصل بعد ذلك على الشهادة العليا، وتخصص ثم رجع إلى بلده، فإنه يقبع خلف مكتبه إن كان طبيباً، ويتقاضى من كل مريض عطاءً ينسيه أتعاب أيام دراسته، فيحصل في اليوم على أكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف ليرة، وهذا دخل وفير يرضيه.

إذا تعب الإنسان في الدنيا وبذل جهداً كبيراً سعد في الآخرة إلى أبد الآبدين :

فبالطبع هو قد درس اثنتي عشرة سنة، وتحمَّل المشاق، فأين كنت أنت تجلس حينها؟ أما أماكن اللهو فمريحة جداً والكرسي فيها وثير ومريح، وفي هذه الأماكن ترفيه كبير، كذلك الدنيا والآخرة، فإذا تعب الإنسان في الدنيا هكذا، وبذل جهداً كبيراً سعد في الآخرة إلى أبد الآبدين:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-9]

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ)

إنه سؤال، لكنَّه يبدو سؤالاً محرجاً: يا أيها الذين كفروا هل كنتم رابحين؟ لا واللِه، هل كنتم فائزين؟ هل كنتم أذكياء؟ لا واللهِ، لقد كانوا حمقى، فبعض الناس ذكاؤهم جزئي، فيمكن أن تجد إنساناً له اختصاص ذكي، ولكنه في الاختصاص الشمولي كان أحمق.

إذا اعتبرنا أنّ الذكاء نوعان؛ ذكاء جزئي، فكل واحد في عمله وبخبراته واختصاصه وشهاداته ومهنته ذكي وفذّ وخبير، فهذا ذكاء جزئي، ليس له نتائج باهرة، أما الذكاء الشمولي فأن تكون الدنيا والآخرة أمامك هكذا مبسوطتان، فمن آثر دنياه على آخرته كان غبياً بمقياس الذكاء:

(هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

الجواب: نعم، فكل إنسان دفع ثمن عمله غالياً.

مخافة الله والاستقامة على أمره هذا هو الدين كله من دون تعقيد :

طبعاً هذه السور في الجزء الثلاثين من القرآن، جعلها الله عزَّ وجل قصيرة، لأنَّها ترسِّخ قواعد الإيمان، ففي النهاية العلوم الدينية كثيرة جداً، لكن كل هذه العلوم إن لم تُبْنَ على معرفة الله أولاً، وعلى الاستقامة على أمر الله ثانياً، وعلى العمل الصالح ثالثاً فإنها لا تُجدي، وأساس الدين هذه الطهارة النفسية، وهذا العمل الطيِّب.

تاجر تأتيه ألف بالة يبيعها، فهو منهمك بين استلامِ الطرود وبين فكّ البالات وأخذ المتراج، وبين شحن البضاعة، وبعد ذلك كان ربحه مئتين من الليرات، فهل هذا معقول؟ يقول لك: حجم العمل مليون ليرة، والربح مئتان فقط، فهذه تجارة خاسرة، فالإنسان في الدنيا عندما يكون حريصاً على أشياء ثانوية، ويهمل الأشياء الأساسية فهذا غير رابح، ولو حصَّل من العلوم الفرعية الكثيرة، لكن لم يحصِّل تطهير النفس وتزكيتها، فالخلاصة خسارة، أما الإنسان عندما يعرف جوهر الدين وهو معرفة الله أولاً، والاستقامة على أمره ثانياً، فمهما حصَّل مما تبقى عليه فهذا جيد، لأنه حصَّل على الجوهر، وأدركه، واغتنى به.

سيدنا عبد الله بن عمر عندما سأل بدوياً، وقال له: بعني هذه الشاة، فقال: ليست لي، فقال له: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، وخذ ثمنها، فقال: والله إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت له: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟

هذا البدوي لا يعرف شيئاً من تفريعات الدين، لكن يعرف مخافة الله، والاستقامة على أمره، هذا هو الدين كله من دون تعقيد، فإذا قلت: أين الله في كل أعمالك فأنت ديِّن، وإذا كنت متجاهلاً لله عزَّ وجل في علاقاتك التجارية؛ في بيعك وشرائك، لكنك تصلي الصلاة بأوقاتها، والعبادات تامة، وهناك مخالفات، وأكل مال حرام، وهناك معاصٍ فأنت ما عرفت من الدين شيئاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

[البيهقي عن مسروق مرسلا]

يكفيك علماً أن تخشى الله، والدين منابعه صافية جداً، انظر إلى المياه؛ مياه بردى في جنب النبع ذي الماءِ الفرات المتلألئ الصافي، وانظر في المصب، فيه بقدر ما يأتي من مياه إلى النبع، روافد من مياه آسنة، فشتان ما بينهما، أصبح في الدين خرافات وضلالات وانحرافات ومبالغات كالنهر الآسن. فإذا كنتَ تريد الدين الصحيح فعليك بينابيعه الأولى، وارجع إلى الينابيع الرقراقة، وأحد أكبر هذه الينابيع كتاب الله عزَّ وجلَّ، ودع عنك ما هناك من قصص يتداولها كثير من المسلمين ليس فيها وأضاليل وخرافات، ما أنزل الله بها من سلطان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانشقاق 084 - الدرس (1-2): تفسير الآيات01-14 ، الموت وأهوال يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-11-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى في السور المكية

يصوِّر لنا أهوال يوم القيامة:

سورة الانشقاق، وسميت سورة الانشقاق لأنها بدأت بقوله تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

الله سبحانه وتعالى كما مرَّ بنا في السور المكيَّة يصوِّر لنا أهوال يوم القيامة، وكيف يحدث في هذا اليوم من تبدُّلاتٍ جذريةٍ في الكون، إلا أن هذه السورة فيها ظاهرةً جديدة، لنستمع معاً قليلاً:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ*وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ*وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ*وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ*وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ*وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[سورة التكوير: 1 – 13]

جواب الشرط:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

[سورة التكوير: 14]

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

[سورة الانفطار:1-5]

الله سبحانه في هذه السورة ترك لقارئ القرآن أن يتصوَّر جواب الشرط كما يريد :

أكثر سور هذا الجزء يأتي جواب الشرط متأخراً، لكن هذه السورة التي تبدأ بقوله تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ*وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ*وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

فما بعد الشرط يأتي كلامٌ جديدٌ مستأنف:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

أين جواب الشرط؟ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة ترك لقارئ القرآن، لهذا المؤمن، أن يتصوَّر جواب الشرط كما يريد، أحياناً في فن القصة تنتهي القصة عند العقدة، وقارئ القصة يتخيَّل نهايتها كما يشاء، فربنا عزَّ وجل يقول:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

أي تشققت، وهذا من علامات يوم القيامة.

كل ما في الكون يستمع لله ويستجيب إلا الإنس والجن لأنهما مخيران :

ثم قال تعالى:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

معنى أذنت أي استمعت لربها، بمعنى أنها خضعت له، استمعت لربها واستجابت له، فماذا يفيد هذا المعنى؟ هناك من يستمع ولا يستجيب، وهناك من يستمع ويستجيب.

في الكون كله نوعان من المخلوقات تستمع؛ قد تستجيب وقد لا تستجيب إنهما الإنس والجن لأنَّهما مخيَّران:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

إنّ الإنسان حمل الأمانة، ومن مقتضيات الأمانة أن يكون مخيراً، ومن مقتضيات الأمانة أن يرسل الله له رسلاً، أن يخلق له كوناً معجزاً، أن يهبه عقلاً نيراً، كونٌ معجز وحواس يلتقط بها معطيات هذا الكون، فكرٌ يحاكم ويدرك، فعليه أن يعرف الله من خلال الكون والحواس والعقل، وإذا غفل عن الله عزَّ وجل أرسل الله له الأنبياء، وأنزل إليه الكتاب، وبعث في كلِّ زمانٍ من يدعو إلى الله عزَّ وجل في كلِّ عصرٍ واحدٌ يسمو به.

إذاً الحجة قائمة، لكنّ السماوات والأرض أذنت واستجابت، والإنسان قد يأذن، بمعنى قد يستمع، وربما لا يستجيب، واليهود قالوا:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة: 93]

الإنسان مخيَّر ومسيَّر :

الإنسان قد يستمع إلى الحق، وقد يستجيب، وربما لا يستجيب:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43- 44]

هو مخيَّر، قد يستجيب وربما لا يستجيب، وقد يهتدي وربما لا يهتدي:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

أنت أيُّها الإنسان مخيَّر ومسيَّر، مسيَّرٌ لما اخترت، معنىً دقيق جداً، أي أنت حينما تقف على الإشارات الضوئية أنت مخيَّر، قد تستجيب، وتقف عند الإشارة الحمراء، وربما لا تستجيب، فإن لم تستجب وتابعت المسير، والإشارة حمراء فقدْت اختيارك، وليس لك وقتها خيارٌ في قبول العقوبة أو رفضها، كنت قبل أن تخطو مخيَّراً، والإنسان مسيَّر ومخيَّر، مسيَّر لما اختار، مسيّرٌ لدفع ثمن اختياره، والإنسان مخير لا سمح الله ولا قدَّر أن يأكل مالاً حراماً أو أن لا يأكل، فإذا أكل مالاً حراماً فليس مخيّراً في أن يقبل المصيبة التي سيعاقبه الله بها أو لا يقبل، فَقَدَ اختياره الآن، وبعد أن اختار السوء فقدْ فَقَدَ اختياره، والطالب مخيَّر أن يكتب الوظيفة أو لا يكتب، فله كل الاختيار أن يسهر مع أهله، وأن يسمُر معهم، وأن يبقى في الطريق، وأن يلهو مع أصدقائه، أو أن يدخل إلى غرفته فيعكف على كتابة الوظيفة، لكن غداً حينما يصدر قرارٌ بفصله ستة أيام، لأنه ترك الوظيفة فليس مخيراً في قبول هذا القرار أو رفضه، لقد صدر القرارُ، وهو ملزمٌ.

القول بأن الإنسان مسيَّر تسييراً مطلقاً هذا افتراءٌ على الله عزَّ وجل :

الإنسان مخيَّر ومسيَّر، مخيَّر في أن يأكل مالاً حلالاً أو حراماً، إذا أكل مالاً حراماً فَقَدَ اختياره، وقد يحترق محله التجاري، وقد تصادر أمواله، وقد يدفع مبلغاً فوق طاقته، وهذا ثمن اختياره السيّئ، فالإنسان مخيَّر.

أما إذا قال الإنسان: إنه مسيَّر تسييراً مطلقاً فهذا افتراءٌ على الله عزَّ وجل، فسيدنا علي رضي الله عنه سأله رجل: أكان مسيرُنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقدر؟ فقال: ويحك، لعلّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاسماً، إنَّ الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يُطَع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء عبثاً، ولم ينزِّل القرآن لعباً.

فالاختيار تماماً كطريق عليه في المقدمة لافتة مكتوب عليها ممنوع المرور، لكن السائق بإمكانه أن يسير، ولكن لسيره ثمن، فإذا نهى الله عزَّ وجل عن شيء، وإذا نفى شيئاً آخر، وإذا نفى أي: أن هذا الشيء لا يمكن أن يحدث كأن الطريق موضوع فوقه قطع مكعبة من الإسمنت كبيرة جداً لا يمكن لسيارة أن تخترقها، هذا هو النفي، أما النهي أي أنك مخيَّر، إما أن تسير فتدفع الثمن، أو أن تستجيب فتنجو، فالسماء والأرض والكواكب والنجوم والصخور والهواء والمياه والبحار والجبال والتراب كلٌّ هذه المخلوقات مسيّرةً مئة في المئة:

(ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

[سورة فصلت: 11]

لا خيار لهما، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

معنى أذنت أي استمعت لأمره، واستجابت له، فانشقَّت، وحُقَّ لها أن تفعل هذا، لأنَّها ليست مختارة، أما الإنسان فقد يستمع إلى الحق، ولا يستجيب له، ربما يستجيب، وهذا هو الصدق، فالنبي الكريم قال:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمئة وَخَيْرُ الْجُيُوش أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[الترمذي عن ابن عباس]

لو كانت أمة سيدنا محمد تعدُّ اثني عشر ألفاً، وهم صادقون كصدق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لم يُغلبوا أبداً، فكيف غُلِبوا وهم ألف مليون؟ لأنهم ليسوا على الطريق الذي سار عليها أصحاب رسول الله.

الإنسان قد يستمع للحق وربما لا يستجيب لكنَّ الصادق هو الذي يستجيب :

الإنسان قد يستمع للحق وربما لا يستجيب، لكنَّ الصادق هو الذي يستجيب، من كان صادقاً في طلب الحق.

أحياناً تطرق باب إنسان مرة واحدة فإذا لم يفتح لك تعود أدراجك منصرفاً، وآخر يقرعه مرتين، وإنسان ثالث يقف خلف الباب ربع ساعة، وإنسان رابع يصلي ثم يعود، وإنسان خامس يقرع الباب ثم يغيب ساعة ويعود، أعرف شخص وقف على باب بيت ست ساعات في أيام الشتاء، له مع صاحب البيت دين كبير وسيأتي متأخراً عند العشاء، انظر إلى إصراره في طلب الشخص! لو أننا صدقنا في طلب الله عزَّ وجل لكنا في حالٍ غير هذه الحال.

لقد وصف ربنا عزَّ وجل نبياً عظيماً بأنَّه كان من الصادقين، مع أنَّ الصدق الذي نعرفه نحن في معجمنا ألاّ يكذب، هذه صفةٌ يجب أن تتوافر في أقل مؤمن، فأقل مؤمن على وجه الأرض لا يكذب فكيف يوصف بها نبيٌّ عظيم؟ إنا وجدناه صادقاً، وكان من الصادقين، أي كان طلبه في معرفة الله نابعاً من تصميم عالٍ جداً، كما فعل النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

لكن عامة الناس:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الحج: 11]

تنبع قيمة أعمال الإنسان من كونه مخيَّراً :

بعض الأشخاص لأدنى ضغط يترك الدرس، لأدنى فكرة ليست ثابتة يقول لك: لا أريد الحضور، إغراء بسيط كأن يخطب فتاة فلا يأتي الدروس في المسجد بعد ذلك، فقد تلهى فهذا ليس صادقاً، فيمكن أنْ يحضر الدروس وهو في بحبوحة، وإذا لم تكن هناك بحبوحة بل كان لديه ضغط يقول لك: مشغول، وليس عندي فراغ، أريد الالتفات الآن لمستقبلي.

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

إنّ الله عزَّ وجل يُسمعنا الحق، فإما أن نستجيب وإما ألاّ نستجيب، لكنَّ السماوات والأرض والشمس والقمر والجبال والنجوم والبحار والصحارى وذرَّات الهواء وحبَّات المطر هذه ليس لها خيار إطلاقاً تستجيب لأمر الله:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ *وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

أذنت له أي استمعت له ونفَّذت مشيئته وليس لها إلا ذلك، أما الإنسان الذي يستمع للحق وينفّذ فله أجر كبير، لأن في إمكانه ألاّ ينفّذ، فلما يحضر أحدكم مجلس علم فله أجر كبير، وبإمكانه أن يمكث في بيته ولا يأتي، ولا يتجشَّم مشقَّة ركوب سيارتين تحت المطر ليحضر الدرس، فبإمكانه ألاّ يأتي، وبإمكانه أن يأتي، إذاً فهو مخيَّر، إذاً عمله له قيمة، من أين تنبع قيمة الأعمال؟ لأن الإنسان مخيَّر. معك مئة ليرة ممكن أن تتناول بها الطعام في أحد المطاعم مع أصدقائك وممكن أن تدفعها صدقة، هذه ممكنة وهذه ممكنة، أما الجماد فليس له خيار.

لا يوجد مجال للاختيار يوم القيامة :

إذاً:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

أي حُقَّ لها أن تفعل هذا لأن هذه وظيفتها، ليس لها خيار:

(ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

[سورة فصلت: 11]

لا يوجد مجال للاختيار يوم القيامة:

(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ*وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ*وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

مدّت أي أصبحت منبسطة، لا تلَّ ولا جبلَ ولا وادي:

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

[سورة المرسلات: 10]

وهناك آية أخرى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[سورة التكوير: 3]

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

[سورة طه: 107]

أي منبسطة:

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ *وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

ألقت كلَّ الناس الذين كانوا في بطنها، كانوا في بطنها فألقتهم على ظهرها، وتخلت أي بالغت في إخراج ما في بطنها، أجل بالغت فلم تبق أحداً.

أهوال يوم القيامة :

أحياناً الإنسان يقول له: أعطني كل شيء معك، فيقلب له جيبه لآخر مدى، هذه مبالغة:

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

أي هؤلاء الذين دفنوا في بطنها سوف تلفظهم إلى ظهرها، وإذا لفظتهم إلى ظهرها أصبحوا أمام الحساب:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

هكذا جاءها الأمر، استمعت لأمر ربّها، ونفَّذت أمره وحُقَّ لها ذلك، هذه وظيفتها منذ الأزل؛ يا أيها الإنسان، أما جواب الشرط فهو في أهوال يوم القيامة، هول الموقف بين يدي الله عزَّ وجل، هول الحساب، هول النار، هول الصراط المستقيم، هول:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[سورة التكوير: 10]

هول:

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً*اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:13 – 14]

هذه أهوال يوم القيامة.

الحكمة من جعل الحلال صعباً والحرام سهلاً :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

معنى كادح أي من بذل جهداً شاقاً فبدا عليه، أحياناً تجد يداً خشنة، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم رأى أحد أصحابه ذا يدٍ خشنة من آثار العمل الشاق،فأمسك يد هذا الصحابي وقال: إنَّ هذه اليد يحبها الله عزَّ وجل، فمن له مصلحة صعبة يكسب منها رزقاً حلالاً يعين بها أهله فهذه اليد يحبُّها الله عزَّ وجل. فمعنى كادح أي عمل عملاً تبدو عليه آثار التعب، أحياناً تجده مخدوشاً أو فيه حروق، أو يده خشنة، قالت أعرابية لمست يد أبيها، فرأتها خشنة:

هذه كفُّ أبي خشَّنها ضرب مسحاةٍ ونقلٌ بالزبـيل

* * *

قال: ويلكِ لا تستنكري هذه اليد، يقول الأب: إن هذا العمل خير له من أن يجرَّ ذيله إلى وجه لئيم، وخيرٌ له ألف مرة من أن يقف على باب اللئيم.

قيل: ما الذل؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده، ألم يقل الإمام عليٌ كرَّم الله وجهه: والله، مرّتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

فالإنسان يكدح في الدنيا، والأعمال أكثرها شاقة، سبحان الله! الأعمال الحلال شاقة، وهذه حكمةٌ بالغة، لو أن الكسب الحلال أيسر من الكسب الحرام لتحوَّل الناس إلى الحلال لا حباً في الله عزَّ وجل، ولكن

ابتغاء السهولة، لكنَّ حكمة الله اقتضت أن يكون الكسب الحلال متعباً، والكسب الحرام سهلاً، يمكن أنْ تعمل سنة بكاملها، ولك خمسة شركاء وتربحون مئة ألف، وبعد أن توزع الأرباح يكون نصيبك في الشهر الواحد ثمانمئة ليرة فقط.. هذا كسب حلال.

الكسب الحلال متعب ولكن له ثمراته :

يمكن أن توقِّع توقيعاً، وأنت طبيبٌ شرعيٌّ فتقول: إن هذه الوفاة طبيعية، وتكون الوفاة غير طبيعية، وتأخذ على هذا التوقيع خمسمئة ألف، لم يكتب إلا (الوفاة طبيعية) ووقع، ويكون الميت ترك تركة تبلغ خمسة ملايين، وأعطوه نصف المليون ورجوه طي هذا الموضوع، فهذا الكسب سهل جداً، أن يكتب كلمة: "تبيَّن بعد فحص الجثة أن الوفاة طبيعية"، التوقيع: فلان. واسمحوا لنا بنصف المليون، الكسب الحرام سهل جداً ولكن معه انهيار داخلي، أما الكسب الحلال فمتعب، ولكن له ثمراته.

أحياناً تعمل المرأة في البيوت من أجل أن تطعم أولادها فو الله عملها هذا مقدَّس، وهناك امرأة تعرض مفاتنها على الناس، وتكسب رزقاً أكثر من هذه بمئات المرّات، فهناك عمل من الخارج قذر متعب، كأعمال فيها دخان وغبار ونحوهما، ولكن دخلها حلال، وهناك أعمال من الخارج أنيقة جداً، ولكنها قذرة من الداخل، والعبرة أن تكون نفسك من الداخل نظيفة، وليكُن عملك بعدئذٍ أيّ عمل، لو بأيام الشتاء القارسة لك عمل متعب؛ شحم وزيوت وبذلة عمل ملطخة، واللهِ هذا مقدَّس عند الله عزَّ وجل لأنك من الداخل نظيف، وهذا كسب حلال، لأنك تقدِّم خدمات مقابل أجر معتدل ونصيحة للمسلمين، فهذا عمل شريف، ولو كان المظهر الخارجي في أثناء العمل متعباً أو غير مريح، فهناك أشخاص لهم أناقة ظاهرة في عملهم، ولكن عملهم مبني على الغش وعلى الاحتيال وعلى المخاتلة، مبني على كسب المال حرام، مبني على إيقاع الأذى بالناس، مبني على سلب الناس أموالهم، ولو كانت الغرفة التي فيها مكتب العمل فخمة، لكن هذا العمل من الداخل قذر، ومن الخارج أنيق، وهناك أعمال من الداخل نظيفة جداً، ومن الخارج ليست على ما يرام، فهناك كدح، والحياة فيها كدح:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

أما كلمة (إنسان) فلا تعني أنَّه مؤمن، أيّ إنسان، فالذين تركوا ثروات طائلة ألم يبذلوا جهداً طائلاً في الحياة؟ هذا ترك كذا ألفاً، وترك بنايتين، بدأ من الصفر كعامل حتى حصَّل هذه الثروة، ألم يبذل جهداً كبيراً جداً؟ إذاً هو كادح، لكنّه كدح له ثمار إيجابية، وهناك كدح له ثمار سلبية، وعلى كل حال:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

كلمة (ملاقيه) لها معنيان :

الإنسان الذي صار صاحب ثروة طائلة يمكن أنّه لم ينم الليل، أو ينام في المحل، أو ينام على ديوان خشبي، حتى جمَّع هذه الثروة، فإذا لم يعرف الله عزَّ وجل فكل هذا الكدح لا قيمة له:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

كلمة (ملاقيه) لها معنيان: المعنى الأول أن هذا العمل سوف تلقى جزاءه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

افعل ما يحلو لك فكل شيء بسعره، كل عمل سوف تلقى جزاءه، وأعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌ به:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

إنَّك سوف تلقى جزاء هذا العمل. المعنى الثاني: هذه الهاء تعود على الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

ليجزيك على عملك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وعلى كلٍ فالمعنيان يلتقيان في مفهومٍ واحد، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 104]

شتَّان بين همِّ المؤمن وهمِّ غير المؤمن :

كل الناس يتعبون ويعرقون وينصبون ويصابون بالهم والحزن، لكن شتَّان بين همِّ المؤمن وهمِّ غير المؤمن، انظر صباحاً إلى النّاس وقد انطلقوا من بيوتهم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

هذا ذاهب في سفر يعقد صفقة، وهذا ذاهب إلى وظيفته، وهذا يريد أن يشتري بيتاً، وهذا سمع أن هناك محلاً للبيع رخيصَ الثمن، فهو ذاهب ليراه، كلُّ واحد يمشي في خط. وهنيئاً لمن انطلق من بيته يبحث عن عملٍ صالح، أو يبحث عن رضاء الله عزَّ وجلَّ:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

تقرير حقيقة، أيْ أن الحياة متعبة، حياة فيها جهد، لكي تأكل صحناً من السلطة تشتغل فيه ربع ساعة، اغسل البندورة وقسمها، ونقِّ البقدونس وافرمه، وضع الليمون، وأخرج البذور من الليمون، وضع الملح، تحتاج إلى ربع ساعة من العمل، فالحياة متعبة.

لكي تسكن في بيت مريح تشتغل أربعين عاماً في عمل مُضْنٍ، ولكي تأخذ الشهادة، ويقول الناس عنك: مثقف، وتأخذ لك راتباً لن يكفيك خمسة أيام، تشتغل ليلاً ونهاراً، وتظل عدة سنوات وأنت تدْرس في الجامعة، وامتحانات، وإرهاق أعصاب، وتوتر، وسؤال يأتي لم تتوقعه، وأحياناً لم تنم الليل، وأحياناً يصيبك ألم لا يحتمل لكي تأخذ الشهادة المتواضعة جداً:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

معنى كلمة (فملاقيه) :

لكن..

(فَمُلَاقِيهِ)

إذا استيقظ شخص قبل الفجر، وصلّى قيام الليل، ثم صلّى الصبح في جماعة، واستمع إلى مجلس العلم، وقرأ القرآن، وغضَّ بصره، وأحسن إلى أمهِ وأبيهِ، فإذا كان يسكن في حيّ بعيد، وأمه وأبوه يسكنان في المهاجرين، وهو ساكن في المخيم، ركب الحافلة الأولى، ثم الثانية ليصل إليهما، وزارهما وقالت له: اعمل كذا، احضر لي الحاجة الفلانية، هذا جهد شاق وليس سهلاً، لكن ملاقيه، اعتنيت بأولادك، فأنت ملاقيه، جلست مع زوجتك ساعات تنصحها وتفهمها حتى صلّت أو حتى اقتنعت بالصلاة، أو حتى تحجَّبت، فملاقيه، لك صديق أكرمته وعاونته حتى أتيت به إلى المسجد وسمع الدروس واستجاب، وكان كل حين يسألك سؤالاً وأجبته عن أسئلته حتى استقام تماماً فهو في صحيفتك، فملاقيه، فلو ساهمت في إنشاء مسجد حتى توسَّع فاستراح المصلّون فيه فهذا الجهد، فملاقيه، وربما لو كان الأمر لك شخصياً لما بذلتَ مثل هذا الجهد، فأحياناً تكون هناك عقبات كبيرة جداً، هي فوق طاقة الإنسان، فتنصرف عنه، أما إذا كانت لله فإنك تندفع لتحقيقها، وهذا الجهد لك، فأنت ملاقيه.

جلست ساعة وربع الساعة في مجلس علم، وقد ترى شخصاً جسمه متعباً أو متقدماً في السن، ولا يستطيع أن يقعد، وليس له محل يستند عليه، لكنه قعد دون أن يستند، فملاقيه، هذا التعب ملاقيه، كان بإمكانك أن تظل في بيتك قاعداً على أريكة مريحة جداً، وديوان عريض، والوسائد على يمينك ويسارك، مادّاً رجليك في راحة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

فالدروس كلها في معرفة الله، وفي فهم كتاب الله، وفي الاستقامة، وفي الكسب الحلال، وفي العمل الصالح، كلُّ هذه الجهود سوف تلاقيها.

الجهد الكبير كله محسوبٌ عند الله عزَّ وجل للمؤمنين فقط :

قال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

كُلْ تمرةً، ودقق في النواة تجد هناك خيطاً بين الفِلقتين، هذا الخيط الصغير اسمه الفتيل، وضع النواة على رأس لسانك، وقم بتحريكها تجد لها نتوءاً صغيراً مثل رأس الدبوس، هذا هو النقير:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

فكل شيء محسوب، لكن عندما تجد إنساناً يمشي في طريق الإيمان وهو متعب، يريد أن يرضي أمه وأباه، وأن يؤمِّن لزوجته حاجاتها، وأن يعتني بأولاده ويربيهم، ويرغب في أن يكون أولاده مؤمنين، ويريد إتقان عمله حتى لا يشينه أمر وهو مسلم، وأن يحضر في موعد الوظيفة تماماً، وإذا كان مراجعاً من المراجعين يلبس زياً دينياً، واضعاً لفة على رأسه فتأخر لخدمته ساعة بعد الدوام، يعاني مشقة في دوامه، وفي وظيفته، وفي عمله، وفي تجارته، وفي بيته، ومع أهله وأمه، وله أخوة يسكنون في أماكن بعيدة، فهذا الجهد الكبير كله محسوبٌ عند الله عزَّ وجل. لكن الشقاء لا لهؤلاء، ولكن لمن كان يسعى بجهدٍ كبير، ويعرق، وينصب، ويكدح، والنهاية إلى جهنَّم، هذه هي المشكلة، فالمؤمن رابح مهما بذل من جهد، ومهما انضبط، ومهما شعر أن في الحياة جهاداً، لكن المربح معه، فالحياة مؤقَّتة، والسعادة أبدية، والجنة سرمدية، لكن إنساناً آخر يهلك طوال حياته، كشخص ذهب إلى دولة أجنبية، وعمل في المطاعم ليلاً ونهاراً، وترك عياله وأولاده إلى أن أسس مشروعاً، وجمَّع ثروةً، وأرسل أول مبلغ، وطلب من أهله شراء أرض، وفي السنة الثانية بعث مبلغاً آخر لتعمير الأرض، ثم بعد ذلك أمدّهم بمال لفرش البيت وتأثيثه بالأثاث الفخم، وطلب إنشاء حديقة، وما زال في أوامره: اعملوا واتركوا، وهو راجع بعد عشرين سنة من التعب، وبعد أن أمَّن بيتاً فخماً وفرشه، وفي أثناء تناوله الطعام في المطار، وبعد أنْ أكل لقمتين من الطعام، وفجأة سقط مفارقاً للحياة، مسكين على هذه الحياة، تعب مُضنٍ، والثمرة صفر.

المؤمنون كدحهم مأجور وسيرون نتائج كدحهم لكن غير المؤمنين كدحهم إلى دمار :

الكدح موجود عند المؤمنين وعند غير المؤمنين، لكن شتَّان بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، فالمؤمنون كدحهم مأجور، وسوف يرون نتائج كدحهم، لكن غير المؤمنين كدحهم إلى دمار، وإلى لا شيء، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ*فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

أي أن ربنا عزَّ وجلَّ هكذا ترتيبه، فإذا أخذ الإنسانُ كتابه بيمينه، معنى ذلك أن أعماله صالحة وطيبة:

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

قال بعض المفسرين: إن ما في كتابه من أعمالٍ سيئة قبل الإسلام يعفو الله عنها، وهذا معنى قوله تعالى:

(حِسَاباً يَسِيراً)

أي الإسلام يَجُبُّ ما قبله، الكتاب فيهِ كلِّ شيء، لكن بعد أن أسلم، وعرف الله عزَّ وجلَّ، واستجاب له، وتاب إليه توبة نصوحاً، فالذي وقع قبل هذا التاريخ يعفى عنه، ولهذا:

((عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ قَالَتْ قُلْتُ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً قَالَ ذَلِكِ الْعَرْضُ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

أي فيما سبق التوبة، ما سبق الإسلام، هذا معفو عنه، بعد التوبة والإسلام أعماله كلّها جيدة واستقامة وعمل صالح وتوبة.

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الآن إذا قرع الابن الباب، وهو ناجح فقد يثير في البيت كثيراً من هجمته وفرحته، فيريهم شهادته، لا يترك إنساناً إلا ويريها له..

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

وإذا نقل الزوج إلى وظيفة أعلى فيدخل البيت بطريقة تأخذ العقل، ببشاشة ومرح، وأين الأكل، ويمزح مع زوجته ومع أولاده، لأنه فرح:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

إذا اشترى صفقة رابحة، أو باع بيعةً فيها ربح كبير، أو حقق نجاحاً خارج البيت، فدخوله البيتَ فيه سرور، ويمكن لأهل البيت أنْ يروا أثر الفرحة عليه، ويقولون: حتماً هناك شيء، ليس هذا من عادته، طليق، عيناه زئبقيتان، تلمعان، ابتسامته عريضة، مرح:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

نسأل الله أنْ يجعلنا من هؤلاء، وكما قال سيدنا عليّ: الغنى والفقرّ بعد العرض على الله. فإذا تمَّ العرض على الله، وأوتي الإنسان كتابه بيمينه، وحوسب حساباً يسيراً، عندئذٍ:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الحياة الدنيا مدرسة :

الآن تعب، وبعده سرور، وطّن نفسك أن الحياة الدنيا مدرسة، فيها جدّ ودوام، وانتباه ووظائف، وامتحانات ومذاكرات، ومذاكرات فُجائية، وفيها مذاكرات شفهية، ووظائف كتابية، وعقوبات، وإخراج، وتعهدات، لكن بعد الشهادة يضع يده على المريض ثم يقول: عليك خمسون ليرة، وتخطط مئة وخمسون، مئتان، عنده خمسون زبوناً، معنى ذلك في اليوم يحصل على ألفي ليرة، تساوي راتب الموظف في الشهر كلّه، ويحصلها الطبيب في يوم واحد، لكنه عانى الكثير حتى أخذ الشهادة، أخذ بكالوريوس، وأخذ دكتوراه، وأخذ بورد، وتعب، ورجع إلى بلده، فالإنسان إذا تعب الآن فغداً:

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً *وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أيْ مِن السعادة أن يطرق الإنسان باب أهله ويحمل لهم خبراً سارّاً جدّاً، فإذا اشترى لزوجته قطعة من الحليّ تكرمةً لها فدخوله البيتَ لا يكون دخولاً عادياً.

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الذي يؤتَى كتابه وراء ظهره يدعو على نفسه أن يهلك :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

قال المفسرون: من شدة الخجل لا يستطيع أن ينظر للذي يعطيه الكتاب، وقال بعضهم الآخر: من شدة ازدرائه واحتقاره، فهذا الذي يعطيه الكتاب لا يحب أن ينظر إلى وجهه، هذا أو ذاك، فإما خجلاً وإما ازدراءً:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً)

أي يقول: وا ثبوراهُ، أي لقد هلكت، الأعمق من ذلك أن هذا الذي يؤتَى كتابه وراء ظهره يدعو على نفسه أن يهلك:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

قال الشاعر المتنبي:

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافيَا وحسبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانـيَا

* * *

أي أنت في حالةٍ تتمنى معها الموت، فما هي هذه الحالة؟ إنها أشدُّ من الموت.

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافيَا وحسبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانـيَا

* * *

فهي حالة لا تحتمل، شيءٌ لا يطاق أن تكون في حالةٍ تتمنى معها الموت، وأن يكون الموت أحبَّ إليك من الحياة، كذلك هذا الذي يؤتَى كتابه بشماله يوم القيامة يدعو ثبوراً، يدعو ربّه أن يهلكه، أي أن يفنيه، أن يدمره.

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الجنة :

قال:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً)

لذلك:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الحاكم وتعقب عن جابر]

(فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

فالفرق فرق بسيط..

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أما هذا الثاني:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

معظم الناس يقبعون في بيوتهم في انبساط وسرور، وتجد الواحد منهم يتمطَّى ويتمدد، ومزحه ثقيلٌ أحياناً، ولا شيء عنده حرامٌ، وإذا جاءت امرأة أخيه جلس معها، وإذا جاءت رفيقة زوجته يدعوها للجلوس معه، مدَّعياً: عندي المكان أدفأ لكم:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

مسرور مبسوط، ليس لديه شيء حرام، لاح له مبلغٌ من المال حلال أو حرام يأكله، يجوز أو لا يجوز يأكله، دُعِي إلى حفلة لا يجوز الذهاب إليها فيقول: لا أتركها تذهب من يدي:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أي ليس عنده قيود ولا حدود، وليس عنده شيء محرَّم، ولا يخشى حساباً ولا عذاباً ولا شدّةً يوم قيامة، ولا يخشى أن يغضب الله عزَّ وجل، يقول لك: يفرجها الله، هل سنعيش عمرين؟ العمر الذي سنعيشه واحد.

من كان عبداً لفرجه ولبطنه ولديناره موضوع الموت لا يخطر بباله على الإطلاق :

إن كنت كما قال أحد الشعراء الجاهليين:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيّتي فدعني أبادِرْها بما ملكت يدي

* * *

إنّ معظم الناس يقوم بإعداد الترتيبات للذهاب إلى النزهة في أثناء يوم الجمعة، فصلاة الجمعة لا ترد على باله من الأساس، فالنزهة هي كل ما في باله، فلا شيء عنده محرَّم، شهوته هي إلهه، شهواته وسروره وبسطه:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

عبدٌ لفرجه ولبطنه وللباسه ولدرهمه وديناره:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ*فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً*وَيَصْلَى سَعِيراً *إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

كان مكيّفاً، له مقعده الخاص، وله قعدته الخاصة، وله أكلته الخاصة، والكل في خدمته، وهمّه الأوحد أنْ يُسَرَّ ويعطي نفسه ما تشتهي، فإذا تكلَّم صهره بكلمة يقيم قيامته، ويثور عليه، هكذا تتكلم معي؟! ولا يقول هذا صهري، حامي عرضي، يجب أن أداريه، فلا يهمه، وإذا اشتكت ابنته المتزوجة يقول لها: تعالَيْ إلينا، واقعدي عندنا، واتركيه وحيداً، يقوم بتحريضها:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً*إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

موضوع الموت لا يخطر بباله على الإطلاق، ومعنى "لن يحورَ" أي لن يعود إلينا.

المؤمن البطل هو الذي يفكر في الآخرة و بوقوفه بين يدي الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

ظنَّ أن هذه الدنيا فيها كل شيء، يقول: الجنة هنا والنار هنا، فما معنى الدنيا هنا؟ أي أنّ مَن معه مال فهو في الجنة والفقير في جهنم، هذه فلسفته، أما الآخرة فهي خارج حسابه.

الآن يجب أن نكون واقعيين، فمن يُدخلِ الآخرة في حسابه اليومي فيمكن أن يأتيه خاطر في الشهر مرة، أو بالأسبوع مرة، أما الذي تكلَّم بكلمة، أو باع بيعة، أو كلما حلف يميناً فالآخرة في باله باستمرار؟ هذا هو المؤمن؛ كلما تحرَّك حركة، أو تنفس نفساً، أو كلما نظر نظرة، فهذه النظرة لا ترضي الله، فيغض عنها بصره، ولكن الذي ظن أن لن يحور يقول: لا أستطيع أن أصلي الظهر، وبإمكاني أن أنظر أيّ نظرة، وليس بإمكاني أن أقرأ القرآن في الصباح الباكر، فهذا هو الخسران المبين.

وخلاصة القول: لا تعصِهِ في النهار.. يوقظْك في الليل، أيْ يكون لك معيناً دهرك كله.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأنّ العلم نــورٌ ونور الله لا يهدى لعاصـي

* * *

فالمؤمن البطل هو الذي في كل حركة وكل سكنة وكل نظرة يفكر في الآخرة، يفكر في وقوفه بين يدي الله عزَّ وجل، فالموت لا يرحم أحداً.

كل إنسان يفكر في الموت يومياً يكون ذكياً وعاقلاً :

أحد أعلام الأمة الكبار رأى ملك الموت، فقال له: يا ملك الموت كم بقي من حياتي؟ فأشار له بيده خمس، فلما استيقظ امتلأ قلقاً، هل يا ترى خمس أشهر أم خمس سنوات، خمسة أسابيع، خمسة أيام، خمس ساعات، فالتقى بإمام المفسرين ابن سيرين فقال له: ما تفسير هذه الرؤيا؟ قال له: قال لك ملك الموت: إن سؤالك أحدُ خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله. فأشخاص توفوا، فيا ترى عندما توفى أحدهم ألم

يكن خاطراً بباله أن غداً سيحضر إلى البيت حلوى قطائف عصافيري؟ هذا ممكن، أوَ ما خطر بباله أنه في العطلة الصيفية سيذهب هو وأولاده إلى المصيف في اللاذقية، كل ذلك قد يكون لكنه مات..

فقد ذكرت لكم أني قد التقيت بشخص يعمل مديراً لثانوية، وقال لي بفمه: والله مللت، أريد أن آخذ استيداعاً لخمس سنوات، أو إعارة إلى الجزائر، وكنتُ أستمع له، وكان يوم الخميس، والساعة الحادية عشرة، فقال: وسأبقى في الجزائر خمس سنوات، ولا آتي إلى الشام في الصيف، وأقضي الصيف في فرنسا، وأتملى منها، وفي العطلة الصيفية الثانية أذهب إلى إنجلترا، والثالثة إلى إيطاليا، ثم أرجع إلى الشام، فأفتح محلاً وأتقاعد، وأضع أولادي في المحل لإدارته، وأعيش باقي حياتي في رفاهية.

واستمعت إليه، وجاملته فيما يقول، وأن الله كريم، وذهبت إلى البيت لتناول طعام الغداء، ونزلت بعد ذلك إلى شغل لي في أسواق دمشق، وبينما كنتُ راجعاً وجدت نعوته على الجدران، والله الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه، وتكلم معي في أشياء تحتاج إلى عشر سنوات لتحقيقها، وفي اليوم نفسه كان غادر الحياة، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

فالموت لا يدخل في حسابه على الإطلاق، لا الموت ولا الآخرة، فالواحد له بيت يسكنه، فهل سأل نفسه يوماً في أي غرفة سيغسِّلونه؟ فإذا فكّر في ذلك فلن ينزعج منها، لأنّها واقعة لا بد منها، فهل يغسَّل في المطبخ؟ فالمطبخ صغير، والحمام صغير، ففي أي غرفة، فهو سيغسَّل في هذا البيت، كيف ستطبع ورقة النعي؟ وهل سيكتب فيها والد الفقيد؟ فهو لا يعرف من سيموت قبل الآخر، هيِّئْ لك مشروع نعي ولو ضقت منها، وبادِرْ لعمل مشروع شاهدة: هذا قبر المرحوم فلان الذي توفي في: وضع نقطتين وخطين وألف وتسعمئة، فلا نعرف متى؟ مشروع شاهدة، مشروع نعي، هذه أشياء ذات فائدة عظيمة، اذهب لزيارة مقبرة، اتبع جنازة، انظر عندما يضعونه في القبر، لق وضعوا عليه التراب بالمغرفة، أما أنت فقليل من الغبار تثور من أجله على أهل البيت، أو قليل من الغبار على حلَّتك تثور ثورة كبرى، أما الميت فيضعون التراب بالمغرفة فوقه، وبعد أن يمهدوا التراب أخذوا بالأجر عظَّم الله أجركم:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

كل إنسان يفكر في الموت يومياً يكون ذكياً وعاقلاً، عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
((أي الناس أكيس؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم للموت استعدادًا))

[الحارث عن علي]

مَنْ عَدَّ غداً مِنْ أجَلِهِ فقدْ أسَاءَ صُحْبَةَ الْمَوْتِ :

إن النور إذا دخل الصدر انفسح، قيل: هل لذلك من علم يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله، هذا هو العقل، يقول: أنا ما زلت صغيراً، فالموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، تجد نعياً كُتِبَ عليه: الشاب، فإذا نظرت تجد ليس له زوجة فهو لم يتزوج بعد، والد الفقيد، وأخو الفقيد، تتبَّع هذه صفحات النعي، الشابة، فتاة مخطوبة، وعرسها بعد أسبوعين، وزوجها مهندس كبير، كان يراقب مشروعاً أخرج رأسه من النافذة، وكان أحد العمال يلقي بقالب من البلوك فوقعت فوق رأسه فمات، وكانوا قد أعدوا للعرس من الحلويات أكثر من خمسمئة كيلو غراماً، وقد وضعت كلها للمعزِّين، وتعزية النساء، أجلسوا العروس بلباسها الكامل، فالعرس لم يتم:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

فيجب أن تؤمن أن الموت قريب قريب، وأذكركم:

((مَنْ عَدَّ غداً مِنْ أجَلِهِ فقدْ أسَاءَ صُحْبَةَ الْمَوْتِ))

[تخريج السيوطي عن أنس رضي الله عنه]

غداً فقط، إذا قلت: غداً إن شاء الله سوف أشتري شمسية، فالأمطار ستكون غزيرة هذه السنة، فإذا لم تقل: إن شاء الله، وقلت: غداً سآخذ شمسية من عند بائع أعرفه، فأريدها أن تكون أجنبية وممتازة، وبهذا تكلّم نفسك، فعندما تعدّ غداً من أجلك فقد أسأت صحبة الموت، فأنت لا تعرف ما هو الموت إذاً؟!

لي صديق نام في الساعة الحادية عشرة، ويظهر أن زوجته مسَّت يده في الساعة الواحدة فوجدتها شديدة البرودة، فوجدته قد مات دون إذن أو إنذار، نام نوماً طبيعياً في الساعة الحادية عشرة، فأصبح جثة هامدة، فاعتبروا رعاكم الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانشقاق 084 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 16-25 ، آيات باهرات على وجود الله سبحانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-11-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

الشفق حمرة الأفق قبل شروق الشمس وبعد غروبها :

وصلنا إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ*فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ*فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً *وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً*وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً*إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً *إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً* فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

ما هو الشفق؟ قال بعض العلماء: الشفق حمرة الأفق قبل شروق الشمس وبعد غروبها. لماذا أقسم الله تعالى؟ أوْ لِمَ يقسم؟ لماذا لفت نظرنا إلى الشفق؟ إنْ أقسم فبالنسبة إلينا، وإن لم يقسم فبالنسبة إليه، هناك آياتٌ فيها قسم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس:1]

هناك آياتٌ "فلا أقسم"، وبعض المفسرين قالوا: إن هذه - لا - زائدة لتوكيد القسم، على كلٍ إنْ كان هناك قسمٌ فبالنسبة إلينا، وإن لم يكن هناك قسمٌ فبالنسبة إليه سبحانه وتعالى، على كلٍ ما هذه الآية العظيمة الظاهرة التي هي الشفق.

الشفق دليلُ وجود الهواء ووجود السحب وبخار الماء وهو دليل كروية الأرض :

بالمناسبة ليس في سطح القمر شفق، لماذا؟ لأنه ليس على القمر هواء، وحيث لا يكون هواء فلا شفق، فكأن الشفق إشارة إلى هذه الكتلة الهوائية الضخمة التي تصلُ إلى عشرات بل مئات الكيلو مترات، في القمر ليس هناك هواء، إذاً ليس هناك شفق، وفي الأرض هواء، فهذا الهواء له مهمة في نثر الضوء، لولا الهواء لكانت حالة الأرض إحدى حالتين؛ إما أشعة الشمس، وإما ظلامٌ دامس، وعن طريق الهواء هناك أشياء ثلاثة: هناك أشعة الشمس، وهناك ضياءٌ، وهناك ظلامٌ دامس، فلما ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

أي هذه الحمرة التي تبقى في الجوّ بعد غياب الشمس، أو هذه الحمرة التي يتلوَّن بها الهواء قبل شروق الشمس، أمّا إذا كان في السماء سُحبٌ فالشفق له ألوانٌ تأخذ بالألباب، وأجمل منظر هو منظر الغروب في أيام الخريف والربيع، إذْ يتلون الشفق بألوان ساحرة، إذاً فالشفق دليلُ وجود الهواء، والشفق دليل وجود السحب وبخار الماء، والشفق دليل كروية الأرض، ولو كانت الأرض مكعبة، أو على شكل متوازي مستطيلات، أيْ لها حروف، وبالحروف تغيب الشمس فجأةً، وتشرق فجأةً، لكن هذا الشكل الكروي يجعل الشروق تدريجيّاً، عند الفجر ظهور الخط الأبيض في الأفق، هذا الخط يزداد ويزداد معه الضياء إلى أن تضيء الأرض، وبعدئذٍ تشرق الشمس، هذه من رحمة الله بنا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

[سورة الفرقان: 45]

كذلك تغيب الشمس، أيْ يغيب قرصها، وتبقى الأرض مضيئة، ويظهر الشفق عند الغروب، وهذا الشفق يتضاءل ويتضاءل حتى يغيب، فإذا غاب دخل وقت العشاء.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ مَا لَمْ يَحْضُرْ الْعَصْرُ وَوَقْتُ الْعَصْرِ مَا لَمْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبْ الشَّفَقُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوْسَطِ وَوَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ مَا لَمْ تَطْلُعْ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَأَمْسِكْ عَنْ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

الآية التالية تتضمن آيات عدة :

فلما قال ربّنا عزَّ وجلَّ:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

هذه آية تنطوي بها آيات، ينطوي بها الهواء، ينطوي بها السحاب، تنطوي بها كروية الأرض، على كلٍ لو وقف أحدنا أمام غروب الشمس لرأى بعينيه كيف أن هذا القرص يغيبُ شيئاً فشيئاً، فغياب القرص شيئاً فشيئاً هو ما يعبَّر عنه بسرعة الأرض في دورانها حول نفسها، وسرعة الأرض في دورانها حول نفسها تزيد على ألف وثمانمئة كيلو متر في الدقيقة، حينما ترى أشعة الشمس ثابتة متحركة، دقق في أشعة الشمس تجدها ثابتة، غب عنها خمسة دقائق تجدها انتقلت من مكان إلى مكان، ما هذا الوضع الدقيق؟ ثابتة متحركة كعقرب الساعة انظر إليه تجده ثابتاً، دعه ترَةُ قد انتقل، فمن عيَّر هذه الحركة؟ ومن عيَّر هذه السرعة؟ ومن جعلها على شكلٍ ثابت متحرك؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إنّ الشمس حينما تغيب فإنها تغيب من مكانٍ معين، ولكن هذا المكان ليس ثابتاً، بل يتنقل من الصيف إلى الشتاء، والآن في الشتاء ترى أنَّ أشعة الشمس تدخلُ إلى صدر الغرفة، إذاً هي مائلة، وليست عمودية، ولو صعدت إلى الجبل وحدّدت بحسب بعض النقاط علامة لشروق الشمس الآن، ثم اصعد بعد ستة أشهر تجدْها قد انتقلت إلى مكان آخر، وكذلك الغروب، فالغروب متنقل، والشروق متنقل، وهذا الشفق أيضاً متنقل، فلمّا قال ربنا عزَّ وجلَّ:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إنه آية كبيرة.

الشفق القطبيّ :

لو دققت في الكتب العلمية لرأيت مصطلحاً علمياً اسمه الشفق القطبيّ، ما هو الشفق القطبيّ؟ قال العلماء: هناك كهارب ونوياتٌ تخرج من الشمس، وتتجه نحوَ الأرض على مسافة خمسة وستين ألف كيلو متر من سطح الأرض، فتصطدم بالمجال المغناطيسي، وهذه الأشعة الكونية تنعكس عليها أشعة الشمس، فتبدو كأنها شفق، وهذا الشفق يرى من القطبين بشكلٍ واضح، بل يرى من المناطق القريبة من القطبين، وقالوا في وصف هذا الشفق: إنّه حزامٌ يمنع عن الأرض الأشعة الكونية المؤذية، وكلما تقدم العلم اكتشف لآيات القرآن الكريم معنىً جديداً.

قد يُفهم من هذه الآية أنّ هذا الشفق حمرة الأفق قبيل الشروق، وحمرة الأفق بُعَيْد الغروب، والشفق يعني الهواء، والشفق يعني السحاب وبخار الماء، والشفق يعني كروية الأرض، والشفق يعني تبدل غروب الشمس وتبدل شروقها، والشفق يعني أنَّ هناك أشعة كونية تحمي الأرض من تأثيرات الإشعاعات الضارة هذه تقبع على مسافة خمسة وستين ألف كيلو متر حيث ينعدم الهواء، هناك آلات تصوير صورت هذا الشفق القطبيّ على شكل ستائر مسنّنات، وفي الكتب العلمية هذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، ولكن المجال هنا لا يتسع لتفصيلاتٍ أكثر مما ذكرت..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إذاً الشفق آية كبيرة، أما القمر فليس فيه شفق، وبالصور التي التقطها روَّاد الفضاء حينما وقفوا على القمر فكان ظلُّ المركبة الفضائية ظلاماً دامساً، والمكان الآخر أشعة شمسٍ قاتلة، سبحان الله.. فالشفق جهاز تبريد وجهاز تكييف.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

الشفق والليل آيتان من آيات الله الدالة على عظمته :

لا شك أن الإنسان أحياناً يمر بسوق مزدحم في الساعة الثانية عشرة ليلاً، تجد المحلات كلها مغلقة، والطريق فارغة، ويكون إلى جانب بيته مدرسة ثانوية أو إعدادية، وطوال النهار ضجيج، وفي المساء سكون، سِرْ في الطرقات في الساعة الثانية ليلاً لا حركة ولا ضجيج ولا صوت ولا صخب، فربنا عزَّ وجلَّ جعل من هذه آية، كيف أن كلَّ هذه المخلوقات تحتاج إلى النوم، يكون الابن طوال النهار في حركة مستمرة، وفي الليل ينام..

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

أي وما احتوى، فالليل يقِلُّ فيه النشاط البشري، بل ينعدم نشاط الحيوانات كذلك، وكلُّ المخلوقات تأوي إلى أوكارها، وإلى أماكن نومها، وإلى بيوتها، فلو لاحظت الدواب أو الأغنام أو الأبقار أو الأنعام التي سخرها الله لنا بعد غياب الشمس تأوي إلى أماكن مبيتها، فربنا عزَّ وجلَّ جعل من هذه آيةً ثانية..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

لو كان بيتك على طريق عام، والضجيج لا يحتمل، ففي الساعة الثانية ليلاً تجد هدوءاً تامّاً، حيث كلُّ إنسان قد أوى إلى فراشه، فمَن خلقَ الحاجة إلى النوم؟ بل ما تعريف النوم؟ هو نوعٌ من أنواع الموت، لذلك:

((عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا قَامَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[متفق عليه عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ]

عندما يستيقظ الإنسان صباحاً فليعلمْ علمَ اليقين أن الله سبحانه وتعالى منحه يوماً جديداً في حياته، ليكون فرصة ليسعد بها إلى أبد الآبدين..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

ربنا عزَّ وجلَّ أقسم لنا بالقمر :

قال بعض علماء التفسير: إن هذا القسم يشبه قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

لأن الليل يتنقل من نصف الكرة الأول إلى نصفها الثاني، إذاً كلُّ ما على الأرض يحويه الليل، والبحرُ في الليل له وحشة، وكذا الغابات والجبال والطرقات، فأكثر الأماكن أنساً تكون في الليل لها وحشةٌ سكونٍ رهيب.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

ربنا عزَّ وجلَّ أقسم لنا بالقمر، وليس على الأرض كلها رجلٌ لا يعرف القمر، والقمر واحد، سواءٌ أقسم ربنا عزَّ وجلَّ أم لم يقسم بالقمر، فما في هذه الآية؟ القمر تابع من توابع الأرض مساحته تعادل كما يقول العلماء مساحة أمريكا الشمالية والجنوبية، والقمر يبعد عنا ما يزيد عن ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، فلو أنَّ للقمر قطارٌ سريعٌ لاحتجنا لنصل إليه إلى مئتي يوم، ومئتان تقسيم ثلاثين يساوي سبعة أشهر، فسبعة أشهر تركب قطاراً سريعاً كي تصل إلى القمر، والقمر لا يعدُّ في الفضاء، لكن هو في الفضاء، والعلماء الذين قالوا: غزونا القمر أو غزونا الفضاء، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

[سورة الرحمن: 33]

قال تعالى:

(مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الرحمن: 33]

الآية التالية تثبت العمد لكن السماء مرفوعة بغير عمدٍ ترونها :

والآن قد اكتشفت مجرة بُعْدُها عنا اثنا عشرة ألف مليون سنة ضوئية، أما القمر فيبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، ودائماً في القياس هناك وحدات قياس، نقيس الذهب بالغرامات، ونقيس القماش بالأمتار، ونقيس المسافات على الأرض بالكيلو مترات، فما هو متر السماء؟ وما الوحدة القياسية للسماء؟؟ قالوا: السنة الضوئية أي عشرة آلاف مليون مليون كيلو متر، هذا هو متر السماء، وبيننا وبين القمر ليس سنة ضوئية؟ بل ثانية ضوئية، أي بَدَلاً من السين ثاء، ثانية ضوئية واحدة، لذلك لا يُعدُّ القمر إلا تابعاً من توابع الأرض. فالقمر مرتبط بالأرض بجاذبية، وهذه الجاذبية محيِّرة، هل يمكن أن تتصوَّر أنَّ بناءً مؤلَفاً من عشرة طوابق بلا أعمدة؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

لكن ترونها، إذاً هناك عمد، فهذه الآية تثبت العمد، لكن السماء مرفوعة بغير عمدٍ ترونها، فقد قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

لذلك قال العلماء: إنَّ القمر مرتبطٍ بالأرض بقوةٍ جاذبيةٍ تساوي كبلاً من الفولاذ قطره خمسون كيلو متراً، لكنَّ لطف الله عزَّ وجل جعل قوة الجذب هذه المتمثّلة بكبل من الفولاذ قطره خمسون كيلو متراً، هذه القوة موجودة لكنّها غير مرئية، هذه الأعمدة موجودة ولكنّها غير مرئية، وليست حاجباً، لا حاجب رؤية، ولا حاجب تنقُّل الهواء، لذلك القمر له أثر على الأرض، والأرض لها أثر على القمر، فما أثر القمر على الأرض أو في الأرض؟

أثر القمر على الأرض وأثر الأرض على القمر :

قال العلماء: لولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، ولكان الليل ساعتين والنهار ساعتين، فما الذي يخفف من سرعة الأرض حول نفسها؟ القمر، أثر القمر في الأرض أنه بطّأ سرعتها، وجعل دورتها حول نفسها أربعاً وعشرين ساعة.

أما أثر الأرض في القمر فهي أنّها جذبته ولولا جاذبيتها لسار في خطٍ مستقيم ولبعُد عنها، فالقمر إذاً مرتبط بها.

وهناك أثر آخر للقمر في الأرض وهو المدُّ والجزر، فالمدُّ والجزر لا يلمح في اليابسة، مع أنَّ حقائق علمية تثبت أن اليابسة ترتفع قليلاً مقدار خمسة عشر سنتيمتراً باتجاه القمر حينما يقابلها، ولكن هذا يتم بتجارب دقيقة، والإثبات حول هذه الحقيقة يحتاج إلى توضيح لا يحتمله هذا المكان، ولكنَّ الماء لأنه سائل ومتحرِّك ومرن يرتفع حينما يقابل القمر الأرض، فيرتفع تقريباً عشرين متراً، لذلك فالموانئ الكبرى في المحيطات مصممة على المد والجزر، وقد يكون البحر في حالة الجزر ولا يحتمل بواخر ضخمة، فتدخل البواخر إلى الميناء في حالات المد، وتخرج منه قبل أن ينتهي المد، إذاً فالبحر يرتفع إلى ما يساوي عشرين متراً، وينخفض عشرين متراً بين النهار والليل، أو بين دورة القمر بين شروقه وغيابه، أما اليابسة فترتفع خمسة عشر سنتيمتر، أما البحر فيرتفع وينخفض، وظاهرة المد والجزر معروفة، ولا يجهلها أحد، ويراها الإنسان رأي العين إذا سافر إلى مدن تقع على المحيطات، كالمحيط الأطلسي والهادي والهندي.

شيء آخر، القمر يدور حول الأرض دورةً كل ثمانية وعشرين يوماً، أما هو فيدور حول نفسه دورةً كل ثمانيةٍ وعشرين يوماً، أي أن نهاره أربعة عشر يوماً، وليله أربعة عشر يوماً، ودورته حول الأرض

في ثمانية وعشرين يوماً، لكن سبحان الله! فالإنسان أحياناً يرى القمر يوم خمسة عشر من الشروق تماماً، فيشرق مع المغرب في اليوم الخامس عشر، وفي اليوم السادس عشر يشرق بعد خمسين دقيقة ونصف الدقيقة من غياب الشمس، وفي اليوم الذي بعده يشرق بعد خمسين دقيقة ونصف دقيقة من اليوم الأول، وكل يوم يتأخَّر شروقه خمسين دقيقة ونصف دقيقة، بعد أربع أو خمس أيام يظهر القمر في السماء بُعيد منتصف الليل، بعد خمسة أيام أُخر يظهر في السماء قبيل الفجر إلى أن يغيب تماماً، فما سرُّ هذا الشروق المتأخِّر؟!

سرّ الشروق المتغير :

هذه آية من آيات الله.. هذه الأرض وهذا القمر، فلو أنَّ القمر دار حول الأرض بسرعة الأرض حول نفسها لثبت القمر في جهةٍ ما من جهات الأرض، هذه الأرض تدور حول نفسها، فلو أن دورة القمر حول الأرض كانت بسرعة الأرض حول نفسها لصار القمر مقابلاً لمكانٍ واحدٍ في الأرض، ولحرم منه سكان الجهة المقابلة، لكن هذا التفاضل في السرعة بين سرعة القمر في دورانه حول الأرض وبين سرعة الأرض في دورانها حول نفسها، فتفاضل السرعتين جعل أهل الأرض كلّهم يتمتَّعون بالقمر، فشروق القمر متأخِّراً خمسين دقيقة ونصف كل يوم عن اليوم الذي سبق هذا معناه أنّه يدور حول الأرض والأرض تدور حول نفسها وبين السرعتين تفاضل، هذه آية من آيات الله، لولا أن هناك إلهاً حكيماً قديراً قدَّر كلَّ شيء لزالت الفائدة من القمر.

هناك شيء آخر؛ قالوا: لو أن القمر اقترب من الأرض إلى مئة ألف كيلو متر، فهو يبعد عنا ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر:49]

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

لو أن القمر اقترب من الأرض، وكان على بعدٍ يساوي مئة ألف كيلو متر فماذا يحصل؟ قد يقول أحد الناس لا يحصل شيء، نقول له: يزداد المد والجزر أربعة وستين ضعفاً، فإذا كان المد ارتفاعه عشرين متراً، فنضرب عشرين في أربعة وستين، أي يرتفع الماء حوالي ألف متر، أي أن المدن الساحلية كلّها، ومعظم ما حولها إلى ارتفاع ألف متر ينغمر بمياه البحر، فبيروت مثلاً على البحر، أما ظهر البيدر فارتفاعه حوالي ألفي متر، فتقريباً عند عالية يصبح كل هذا بحراً، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى مسافة مئة ألف كيلو متر، لتضاعف المد والجزر أربعة وستين مرة، أي ألف ومئتا متر لغرقت جميع

المدن الساحلية، وإلى ارتفاع ألف ومئتا متر تقريباً، فبعض الجبال الساحلية يبلغ ارتفاعها ألفاً ومئتي متر، أو ألفاً وخمسمئة، فبلودان ألف وخمسمئة، أي لوصل الماء إلى بلودان من البحر، هذا إذا اقترب القمر من الأرض إلى مسافة مئة ألف كيلو متر.

جُعل القمر تقويماً في السماء بسبب تنوعه وتغيره من حال إلى حال :

هناك أشياء كثيرة عن القمر، والشيء الذي يُحيِّر العقول كيف أن القمر يُرى بدراً حيناً، وحيناً آخر لا يُرى، وحيناً ثالثاً يُرى بين بين، وكيف يكون محاقاً، ثم عُرجوناً، ثم بدراً؟ هذه الأرض وهذه الشمس إذا كان القمر في الجهة المقابلة للشمس يأخذ ضوءه من الشمس بكامله، فالقمر له وجهان أحدهما منيرٌ والآخر مظلمٌ، والأرض هنا والشمس هناك، إذا كان القمر في الجهة المقابلة للشمس نراه بدراً، فإذا كان في جهة الشمس لا نراه إطلاقاً، لأن القمر هنا، والشمس هناك، والأرض هنا، وجهه المظلم نحونا، والمنير نحو الشمس، فلا نراه، وإذا انتقل القمر إلى هذا المكان فهذا الوجه المنير وهذا المظلم، نحن نرى نصف القمر تقريباً، أي كنصف البرتقالة، إذاً تنوّع القمر من البدر، إلى وضع متوسِّط نصف دائري، إلى هلال، إلى محاق، هذا بتقدير قديرٍ حكيم، فهذا تقويم في السماء:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

لذلك، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ:

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبي داود عن قتادة]

أي هو خير لنا، ولكنه يرشدنا إلى الله عزَّ وجل، فلا أدري إذا كان التوضيح لكم كافياً، فكيف يشرق القمر كل يوم متأخراً خمسين دقيقة؟ لولا تفاضل السرعتين لاستفادت جهة واحدة من القمر، وبقيت جهات الأرض الأخرى محرومةً منه، أما هذا التفاضل بين سرعتي القمر والأرض فقد جعلت القمر يعُمُّ الأرض كلها، ويراه جميع من في الأرض.

تنقُّل القمر حول الأرض من جهة الشمس إلى جهةٍ مقابلة إلى جهةٍ ثالثة ورابعة جعل القمر لا يبدو أبداً، أي محاقاً، ثم يبدو هلالاً، ثم يبدو نصف دائرة، ثم يبدو بدراً، إذاً جُعل القمر تقويماً في السماء.

الجاذبية من آيات الله الدالة على عظمته :

الحقيقة لو كان الإنسان يزن وهو على الأرض ستين كيلو غراماً، ووقف على القمر لكان وزنه عشر كيلوات فقط، ولو أمسك إنسان كرة، وألقاها في الأرض بكامل قوته، وكانت الكرة حديدية لارتفعت خمسة أمتار، ولو ألقى هذه الكرة على سطح القمر لاندفعت إلى ثلاثين متراً، إذاً الجاذبية شيء عظيم، وبعض المفسرين فسَّر قوله تعالى:

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

أي انعدمت الجاذبية، فما الذي يجعل الأشياء مرتبطة بالأرض؟ الجاذبية، فأي شيء إذا تركته يسقط، فما هو السقوط؟ أي انجذاب هذا الشيء إلى الأرض، فما وزن الشيء؟ هو قوة انجذابه إلى الأرض، لذلك فالبحار في المحيط الجنوبي وفي نصف الكرة الجنوبي الإنسان بنظرة ساذجة يتساءل كيف متعلقة؟ أي إذا سافر شخصٌ إلى الأرجنتين فهل يجد السماء من تحته، والأرض من فوقه، كيف ينظر هذا؟ لو سافر شخص إلى بلاد تقع في نصف الكرة الجنوبي تبقى السماء نحو الأعلى، والبحر نحو الأسفل، إذاً ما تعريف السماء؟ هي جهةٌ مقابلةٌ لمركز الأرض، أينما ذهبت على سطح الأرض ترى السماء سماءً والأرض أرضاً، فالأرض هي كرة، لذلك هذه القوة التي ربطت كلَّ ما على الأرض من ماء ومن هواء ومن أشياء بالأرض هي قوة الجذب القوية واللطيفة، ولا تراها، فارتباط القمر مع الأرض بقوة الجذب الهائلة، لكن ليست حبالاً أو أعمدة، قوة جذب لطيفة، قوية ولطيفة بآن واحد تخترقها، هذه السارية هي حاجب تحجب الرؤية، ولا يستطيع الإنسان أنّ يخترقها، لكن ما قولك لو كان الجامع مبنياً على سواري قوى خفية غير مرئية، ولا يوجد حواجز على الإطلاق، هذا شيء ليس بطاقة البشر، هكذا الجاذبية...

لذلك فإن الأرض ساكنة سكوناً مطلقاً، فإذا كانت الأرض ساكنة سكوناً مطلق وهي متحركة، فهذه آيةٌ كبيرة، هي متحركة وتنتقل مسافة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، فهذه السرعة الدقيقة، وهذا السير على خط ثابت يفسِّره قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

ومعنى "تَزُولاَ"، أي أن السماوات والأرض وكل الكواكب في السماء والنجوم والأجرام لها مسارات دقيقة لا تحيد عنها، كقطار له سكة لو حاد عنها يحتاج إلى آلات ضخمة حتى ترجعه إليها.

الهواء في الأرض نعمة كبرى :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

[سورة فاطر: 41]

هذا شيء مستحيل إذاً، واللهُ عز وجل عندما أوضح لنا هذه الآيات فالشفق يدل على وجود الهواء، يقول العلماء: إن بعض الكواكب ليس فيها هواء فما هو السبب؟ قالوا: لأن قوة الجذب خفيفة، وقوة الجذب الضئيلة تجعل الطبقات الهوائية تتفلت من على هذا الكوكب وتهجره، لذلك فحجم الأرض مناسب جداً، وهذا الحجم يعني جاذبية بحجم معين، وهذه الجاذبية ربطت البحار والهواء بالأرض ربطاً نهائياً.

قال العلماء: القمر يقدِّم إلى الأرض أشعة وحرارة تساوي واحداً على مئة وخمسة وثمانين ألف جزء من أشعة الشمس وحرارتها، أي أنه لطيف، وفي الليالي البيضاء المقمرة يُرى الطريق، حتى الحرارة كما بينت قبل قليل مِن أن القمر يقدم لنا حرارة مقدارها واحد على مئة وخمسة وثمانين ألف جزء من أشعة الشمس وحرارتها.

كما قلت قبل قليل أيضاً لولا الأرض لسار القمر في خطٍ مستقيم مبدئياً، ولكان له مدار طويل حول الشمس، ولكن الأرض واقترابها منه جعلته يرتبط بها، ولولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، ولصار الليل ساعتين والنهار ساعتين، وهذا لا يحتمل.

إنّ سرعة القمر حول الأرض ثلاثة آلاف وخمسمئة كيلو متر في الساعة، ولو تصورنا أن مدفعاً أطلق من على سطح القمر فلا يحتاج ضارب المدفع إلى أن يغلق أذنيه، إذْ لا صوت له، والقمر ليس فيه هواء، فما دام لا هواء فيه فليس له وسط ينقل الصوت، لذلك فإنّ الهواء في الأرض نعمة كبرى، فكلامي مسموع بسبب الهواء، ولولا الهواء لما سَمِعَ أحدٌ من كلامي شيئاً.

أهمية الهواء في الأرض وفوائده :

إذاً فلا بد من وسطٍ مرنٍ ينقل الصوت، وينقل الحرارة، وينقل البرودة، التكييف مركزي، أي هواء بارد، تدفئة مركزية، أي ماء ساخن لامس الهواء فجعله ساخناً، والغرفة دافئة، فلو أن الإنسان فكّر في الهواء فقط كيف ينقل الصوت والحرارة والبرودة والضوء لكفى ذلك دليلاً على الله، لكن على سطح القمر لا صوت يسمع، ولا برودة تنتقل، ولا حرارة، وفي النهار ثلاثمئة وخمسون درجة، وفي الليل مئتان وخمسون درجة تحت الصفر، إذاً ما دور الهواء على سطح الأرض؟ دور ملطِّف، الهواء جهاز

تكييف يحتفظ بالحرارة ويخفف البرودة، لذلك تجد الدرجات معقولة ما بين عليا عشرين ودنيا ثلاث، أو خمس وعشرين وعشرة درجات، أو عشرين وخمسة وثلاثين، فالدرجات معقولة جداً بين الليل والنهار بفضل الهواء، فهذه كذلك إشارات دقيقة جداً، أنَّ الهواء ينقل لكَّ الصوت، ينقل لكَ الحرارة، ينقل لكَ البرودة، وينقل لك الضوء، ويلطّف الجوّ، ويجعل درجات الحرارة متقاربة، وهذا كلّه بفضل الهواء، فلذلك ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

ومعنى "وسق" أي ما احتوى، ومعنى "اتسق" أي إذا تمَّت استدارته وأصبح بدراً.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

هذا جواب القسم:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

الإنسان مجموعة أيام كلّما انقضى منه يومٌ انقضى جزءٌ منه :

ما معنى هذه الآية؟ فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

((لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ" حَالاً بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[البخاري عن مجاهد]

فأنت شاب ليس لك خيار في الموضوع، لا بدَّ أن تصبح كهلاً، ولا بدَّ أن تصبح شيخاً، بمعنى التقدُّم في السنّ، ولا بدَّ أن تدخل القبر، ولا بدَّ أن تُبعَث، ولا بدَّ أن تقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ولا بدَّ أن تحاسَب على أعمالك، تكون نطفةً، ثمَّ جنيناً، ثمَّ مولوداً، ثمَّ طفلاً، ثمَّ شاباً، ثمّ رجلاً، ثمَّ كهلاً، ثمَّ شيخاً، ثمَّ ميْتاً تحت التراب، ثمَّ مبعوثاً حياً، ثمَّ واقفاً للحساب، ثمَّ إلى الجنّة أو إلى النار:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

فلا بدَّ من أن تمروا بهذه المراحل، يقول لك الواحد باللغة الدارجة: بلمح البصر ولّى الصيف، وبلمح البصر ولّى الشتاء، فالإنسان يدخل الجامعة يستكثر الأربع سنوات، بلمح البصر انتهت الدراسة الجامعية، ثم هو قد تزوج، وجاء له أولاد، وزوجهم وأصبح جدّاً:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

أي نحن نسير في اتجاه إجباري، وبسرعة ثابتة، ليس لنا خيار فيها، والأيام تدور، والسنوات تمر، والليل والنهار يُبلِيان كلَّ جديد، ويقربان كلَّ بعيد، والإنسان مجموعة أيام، كلّما انقضى منه يومٌ انقضى جزءٌ منه:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

حالاً بعد حال، وهذا تفسير أوّل.

الإنسان ينتقل من حال إلى حال كل يوم لذلك عليه أنْ يتعلق بالله عزَّ وجلَّ :

وهناك تفسير آخر:

(طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

أيضاً حالاً بعد حال، قد ينتقل المرء من الفقر إلى الغنى إذا كان شاكراً، أو ينتقل من الغنى إلى الفقر، وقد ينتقل المرء من الرخاء إلى الشدة، أو من الشدة إلى الرخاء، ومن الصحة إلى المرض، أو من المرض إلى الصحة، أي كلُّ حالٍ يزول، فالإنسان لا يطمئن للدنيا، اليوم أنت شابّ وليس فيك من بأس، وفي خلال دقائق توقفت الحركة، وأصبح يحتاج إلى زحّافة، يريد من يحمله إلى المرحاض، أحياناً يبكي:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

وعلى الإنسان أنْ يتعلق بالله عزَّ وجلَّ، لا أنْ يتعلق بالدنيا، ويضع ثقته كلها بالله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدَيِ اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ))

[الترمذي عَنْ أبي ذرٍّ]

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

الشفق أي الهواء والسحاب وبخار الماء وكروية الأرض وتبدل غروب الشمس.

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

كل شيء وجميع الكائنات يحتويها الليل، وتسكن في الليل.

حسبنا الكون معجزة فالكون قرآنٌ صامت والقرآن كونٌ ناطق :

قال تعالى:

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

هذا التابع له فضل على الأرض في الجاذبية، وفي المد وفي الجزر، والأرض لها فضلٌ عليه - مجازاً فالفضل لله عزَّ وجل - في ارتباطه بها، والقمر بُعدُه عنا مناسبٌ جداً:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

من دون قمر يصبح النهار ساعتين، والليل ساعتين، وبوجود القمر يكون الليل والنهار أربعاً وعشرين ساعة.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

سبحان الله**!** كأنَّ الله سبحانه وتعالى يعجب منهم، فما الذي يمنعكم أن تؤمنوا؟**!!** لقد أعطيتكم فكراً، وأعطيتكم كوناً، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف الله فدونك الكون، حسبكم الكون معجزة، الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، الإمام محمد عبده يقول: إن لله في أرضه كتابين؛ الكون والقرآن..

ليس في الأرض شيء أهم من معرفة الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما الذي يمنعهم من الإيمان، والمرءُ مشغول بماذا؟ هل في الأرض شيء أهم من معرفة الله عزَّ وجل؟**!** ما دمت سوف تكون مع الله إلى أبد الآبدين، حينما يدفن الإنسان في قبره يقول الله له عزَّ وجل: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحيُّ الذي لا يموت*.

فما دام الله سبحانه وتعالى إليه المصير، وإليه المنقلب، إلى أبد الآبدين، فما هذا الكلام إذْ تدّعي أنك مشغول، لماذا لا تحضر معنا؟ يجيب بأنه مشغول، وعندهم الآن موسم، أو حتى يرتاح بالي، بالك لن يرتاح أبداً:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

هل يوجد إنسان يأخذ الدكتوراه من دون جامعة؟**!** في البيت وحدي وأنا مستلقٍ على السرير أخذتها، هذا لا يصح أبداً، فالعلم يؤتى، ومعرفة الله تحتاج إلى أن تحضر مجلس علم، فكيف تعرفه؟ وكيف تعرف آياته؟ وكيف تعرف أوامره؟ وكيف تعرف الحلال والحرام؟ وكيف تعرف الطريق إليه من دون أن يعلّمك أحد؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما الذي يشغلك؟

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين - فلماذا تكون مشغولاً برزقك؟ - لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً .))

[ورد في الأثر]

الله عزَّ وجل خلق الكونَ كلَّه شهادةً له فلا عذر لغير المؤمن يوم القيامة :

كنا نخوض ونلعب، فلا عذر، لأنّ الله عزَّ وجل خلق الكونَ كلَّه شهادةً له، خلقك من نطفة ثم سوَّاك بشراً سوياً، والقبر أمامك فما الذي يمنعك من أن تؤمن به؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

فإذا وضع الأبُ ابنه في أحسن مدرسة، وفيها أحسن أساتذة، وأحضر له كتباً جديدة، وأقلاماً ودفاتر، وجميع اللوازم من أعلى مستوى، وخصَّص له غرفة مدفأة شتاءً، ومكيّفة صيفاً، ومكتباً، وإضاءة مناسبة ومكتبة، وقدَّم له نفقات كبيرة، وأحضر له أساتذة خصوصيين، ودخل عليه ذات مرة فرآه لا يدرس، فقال له: يا بني لمَ لا تدرس؟ ما الذي يمنعك أن تدرس؟ هل قصَّرت بحقك؟ هل هناك شيء لم أقدِّمه لك؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

كتاب الله، قد حدثتكم اليوم في الخطبة كيف أن ربنا عزَّ وجل خلق غدّة دمعية، وهذه الغدة تفرز مادة قلوية من أجل تطهير القرنية، ومن أجل تسهيل عمل الأجفان - المسّاحات - وكيف تعمل هذه المسّاحات، أيْ الأجفان عن طريق حركة لا إرادية من أجل أن ترتاح، فلم يكلّفك فيها عملاً، فلو كلّفك فيها لوجدتَ أنّك وأنت تتكلّم تقول لمن أمامك: انتظر سأمسح عيوني، وتقوم بمسحهما، ثم تقول لمحدثك: أكمل، أما الله فقد جعل لك هذه الأجفان نعمة كبرى، فحركة الأجفان حركة نوبية لا إرادية مع مادة قلوية تذيب الرمل، فلو دخلت حبة من الرمل في العين لأذابها الدمع، وهذا الدمع خرج من الغدة الدمعية بشكل معيَّر دقيق، نظَّف القرنية، وسهَّل عمل الأجفان، ثم انتهى إلى قناةٍ دمعيّةٍ لا تُرى بالعين لشدة دقتها.

هذا الدمع له وظيفة أخرى، وهي ترطيب الأنف، فالأنف سطوح متداخلة، والهواء يمر عبرها، والله جعل هذه السطوح ساخنة، أرقى جهاز تسخين، وجعل هذه السطوح أيضاً مغطّاة بطبقة مخاطية لزجة

رطبة حتى الغبار العالق في الهواء والمواد الغريبة كلها تعلق عليها، وإذا استطاعت ذرة من الغبار أن تنتقل عبر الفراغات، وهذا مستحيل فجعل منها أشعاراً تلتقطها، سطوح ساخنة متداخلة عليها طبقة لزجة رطبة وأشعار في الفراغات من أجل أن يصل الهواء إلى الرئتين ساخناً نقياً، فلو نام الإنسان على ظهره فسيتنفّس من فمه، وكأنَّه عطّل جهاز التسخين، وعطّل جهاز التعقيم، فتنكشف اللثة، وهذا مرض يسمى - البوريه - أي انكشاف اللثة، يصاب برشوحات دائمة، ويأتيه الهواء بارداً مؤذياً ومعبّأ بالغبار أو الأجسام الغريبة. إذا ازداد الدمع فهو البكاء، ومعنى البكاء أن الغدد الدمعية تفرز كميَّات من الدمع تزيد عن طاقة تصريف الدمع بالقنوات الدمعية فيسيل ويفيض الدمع.

ذكر الله في القرآن الكريم أن البكاء هو فيضان الدمع :

ربنا عزَّ وجل ذكر في كتابه الكريم:

(تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ)

[سورة المائدة: 83]

هذه الأشياء كشفها العلم الآن وكذلك موضوع الغدد الدمعية والتنظيف والتصريف، ولكن الله سبحانه وتعالى في موطنين من القرآن الكريم ذكر أن البكاء هو فيضان الدمع، قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أليس هناك آياتٌ باهرات؟ في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، ربع مليون شعرة، ولكل شعرة شريان ووريد وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

المجرات والشمس وكل ما في الكون آيات باهرات على وجود الله سبحانه :

في المعدة خمسة وثلاثون مليون عصارة هاضمة تفرز مقدار ليتر ونصف، أيْ بقدر قِنِّينة بقين من حمض كلور الماء عند كل وجبة طعام:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

الشمس بُعدُها عنا مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وهناك شموس حجمها يزيد عن حجم الشمس بثلاثين مليون مرة، والشمس بينها وبين الأرض من الفرق مليون وثلاثمئة ألف مرة، وهناك كازارات شدة إضاءتها وحجمها يزيد على شمسنا بثلاثين مليون مرة.

وفي الكون توجد بقع سوداء - الثقوب السوداء - وهذا الشيء لا يصدَّق، إذا دخلتها الأرض انضغطت إلى حجم البيضة، الأرض كلها، ففيها قوى ضغط تزيل الفراغات البينية بين الذرات، فكل شيء تراه ثقيلاً وصامتاً فيه فراغات هائلة بين ذراته، هذه القوى الضخمة في البقع السوداء تجعل الأرض بكاملها بيضة، وهذه الأرض لو أُلقيتْ في الشمس لتبخَّرت كلها في ثانية واحدة، الأرض كلها:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

المجرَّات أعرف رقماً عن المجرات أن هناك حوالي عشرة آلاف مليون مجرة، أحدث مقالة قرأتها قبل يومين مليون ملْيون مجرة في الكون، هذا في حدود مراقبتنا ومراصدنا، وفي حدود تكهُّناتنا مليون مليون، وأحد المراصد أمريكا اسمه بالومار كشف منها ألف مليون، والباقي لم تُكشف، فالعين المجردة لا ترى إلا ثلاث مجرَّات فقط؛ هي المرأة المسلسلة، ومجرّتان، ومجرتنا فقط، قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

فما هناك آية في هذا الكتاب إلا وتنطق بالكون؟ بل الكون كله في الكتاب.

الكافر من صفاته أنه يكذّب بالحقّ ويؤمن بالباطل :

قال تعالى:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)

إنّ الكافر من صفاته أنه يكذِّب بالحقّ ويؤمن بالباطل.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

معنى يوعون أي يخبِّئون من نوايا شريرة للنبي صلَّى الله عليه وسلم ولأصحابه الكرام:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ*فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

قال بعض علماء البلاغة: هذه استعارة تهكُّمية، كأن تقول مثلاً: فلان رسب عن جدارة، وأحرز درجة عالية في الرسوب، أو تقول لإنسان: قمّة في الغباء، فالغباء ليس له قمة، وهي استعارة تهكُّمية.

وبعضهم قال: لا، بل هي على حقيقتها، ربما كان العذاب عذاب النار الذي يحرق الجلود أهون من عذاب النفس:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

ثم قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

ما معنى "غير ممنون"؟ أي غير منقطع، وغير منقوص، وغير محسوب.

قال بعض المفسرين: غير ممنون، ليس ممتناً عليهم، ولكنَّ هذا التفسير مرفوض، لأنَّ لله المنة والفضل دائماً، فيمكن ألاّ يكون لإنسان على إنسان مِنَّة، أما ربنا عزَّ وجل فله المِنَّةُ والفضلُ على عباده جميعاً، فإذاً معنى غير ممنون أي غير مقطوع وغير منقوص وغير محسوب عليهم، أيْ بغير حساب، فلا أحد من الناس يأخذ إلا بحساب، أما إذا أعطى ربنا عزَّ وجل أدهش، وهو المعطي فلا يسأل، وهو الكريم فلا يبخل، وهو الحليم فلا يعجز.

ملخص سريع لما ورد في درس اليوم :

درسنا كله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

تذكروا الشفق القطبي، هذا السور الذي وضعه الله في الفضاء الخارجي على بعد خمسة وستين ألف كيلو متر ليقِيَ الأرض من الأشعة الكونية الضارة، أو الشفق تلك الحمرة التي تكون بعد الغروب أو قبل الشروق، تعني الهواء، تعني السحاب، تعني البخار، تعني كروية الأرض:

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

وما حوى:

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

تمَّت استدارته:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

ليس لك خيار، فأنت الآن شاب، لكنك سائر في طريق الكهولة، وبعد الكهولة الشيخوخة، فإذا رأيت إنساناً يمشي متمهلاً فلا تنتقده، فسوف تكون كذلك:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ *فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

أي بما يخبئون في نفوسهم من نوايا شريرة:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

أي غير منقوص، غير مقطوع، غير محسوب، أي بغير حساب أو تقنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البروج 085 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-11، السماء وأهوال اليوم الموعود.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-11-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

المقياس على الأرض يتلاشى في السماء :

قد لا يستطيع العقل تصوره فالله عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

إذاً المقياس على الأرض يتلاشى في السماء، أي أن محيط الأرض أربعون ألف كيلو متر هذا لا يذكر في السماء إطلاقاً، مهما بدت لك القارة واسعة الأبعاد، فالاتحاد السوفيتي مثلاً يشغل أكبر دولة في العالم من حيث الامتداد، أي مسافات شاسعة، فالإنسان إذا نظر إلى سورية على الخارطة يجدها مسافة صغيرة جداً، اركب من دمشق إلى حلب تقول لقد مللنا حتى وصلنا بخمس ساعات، فما قولك في دولة لها مسافات شاسعة وجميع القارات الخمس تشكل خمس الأرض، فاليابسة خمس الأرض، وجميع المقاييس التي على وجه الأرض تتلاشى في السماء فلا قيمة لها، والزمان في الأرض لا زمان له في السماء أي أنه صفر، والمكان في الأرض لا مكان له في السماء صفر، وقد يكون وزن الأرض.. هذه فكرة جديدة.. يوجد في السماء بقع سود يوجد فيها ضغط شديد جداً، والعلماء قدَّروا أن الأرض لو دخلت في هذه البقعة السوداء لانضغطت حتى تصبح كالبيضة، فمن يصدق ذلك الأرض بحجمها الكبير ببحارها وبأنهارها وجبالها وقارَّاتها تصبح كالبيضة! قال بعض العلماء في السماء يوجد بعض النجوم المضغوطة، السنتيمتر المكعب يزن مئة مليون طن، إذاً لو دخلت الأرض في بعض هذه البقع السوداء لانضغطت.

وبالمناسبة فالماء لا ينضغط، أي لو جعلنا متراً مكعباً من الماء في متر مكعب من الحديد الفولاذي السميك وأنزلنا على متر مكعب من الماء مكبساً فوقه مئة طن، أو ألف طن لا ينضغط الماء ولا سنتيمتر ولا ميليمتر فالماء لا ينضغط، والأرض بأكملها تنضغط وتصبح كالبيضة فما هذه القوى الضاغطة في هذه البقع السود؟ شيء لا يوصف.

الإنسان يجب أن يفكر بالسماء حتى يعرف من هو الله عزَّ وجلَّ :

الآن، إذا أراد الماء مجازاً أن يتمدد لا توجد في الأرض قوة أرضية تستطيع أن تحول بينه وبين التمدد، وهل يوجد أكثر من المحرك المصنوع من أرقى أنواع المعادن من خلائط في منتهى المتانة والقساوة، فإن نسي أحدنا الماء في أيام الصقيع في المحرك من دون مادة مضادة للتجمد فالمحرك يتشقق فما معنى ذلك؟ إن الماء إذا تمدد ليس في الأرض كلها قوةٌ تمنع تمدده لا فولاذ ولا صخر، الصخر يتفتت، أساساً أحد عوامل تفتت التربة تمدد الماء في أثناء الصقيع، فالماء إذا تجمد تمدد ثم يتفتت الصخر. وأحياناً تلاحظ في منطقة جبلية صخوراً متشققة فقد تسرب الماء إلى داخلها وأصبح صقيعاً تمدد الصخر كلَّه فأحدث هذا التشقق، وحتى الآن إحدى الطرق لتقطيع الصخر إدخال ثقوب فيه وإدخال ماء ثمَّ تبريده يشق الصخر، فالماء لا يمكن أن يتمدد، الأرض بما فيها وما عليها ومن فيها لو دخلت هذه البقعة السوداء في الفضاء لأصبحت كالبيضة، ما هذه القِوى! شيءٌ لا يعلمه إلا الله.

ما هذه القوى المتجاذبة في الفضاء؟ القمر كما قلت في الدرس قبل الماضي مربوط بالأرض بقوة جاذبية تعادل كبل فولاذي قطره خمسون كيلو متر، أي قطر الفولاذ من دمشق مثلاً إلى بلودان أو إلى قرب النبك، فهذه ثخانة القطر الفولاذي، أما ربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

الإنسان يجب أن يفكر بالسماء حتى يعرف من هو الله عزَّ وجلَّ، وحتى يعرف إذا كان الإله أمر بأمر كيف ستكون استجابتك؟ من أجل أن تعرف إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ لمن تصلي، ومن تخاطب؟ تقف بين يدي من؟ إذا قرأت القرآن فيجب عليك أن تعرف هذا كلام من؟ كلام رافع السماء بلا عمد.

والسنة الضوئية كما تعرفون وقد تحدثت عن هذا كثيراً تعادل عشرة مليون مليون كيلو متر أي ما يقطعه الضوء في سنة واحدة يعادل عشرة مليون مليون كيلو متر، والشيء الغريب أننا عندما نرى نجماً في الفضاء ونرصده، فهذا المكان مكان وجوده حينما أرسل ضوءه إلينا الضوء بينما النجم استمر في الطريق، أما ضوء القمر فيصل بثانية، وضوء الشمس بثماني دقائق، وضوء أقرب نجم إلينا أربع سنوات ضوئية وأربعة الأعشار، وأقرب مجرة بعدها عنّا اثنا عشر ألف سنة ضوئية، وهذه الأرقام قد لا يصدقها العقل.

إعجاز الله في الكون :

إذا ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

كلكم يعلم أنَّ الأرض تدور حول الشمس وهذه الدورة بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، وفي دورانها حول الشمس تطوف حولها وتمرّ على مجموعة نجوم، وهذه المجموعات من النجوم تسمى الأبراج، فكلكم يعلم مثلاً برج العقرب، برج الجدي، وهناك بروج كثيرة، أي هذه المجموعات من النجوم على شكل عقرب، وهذه على شكل جدي، وهذه على شكل حمل، وهكذا، فربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

أحد هذه الأبراج برج العقرب، وفي أحد هذه الأبراج الذي هو برج العقرب نجم لامع أحمر اللون متألق اسمه قلب العقرب، فهذا النجم يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما. وبعض العلماء قالوا: في السماء المرئية مليون مليون مجرة وهذا أحدث رقم ومن أحدث مصدر، مليون مليون مجرة، في كلِّ مجرة أكثر من مئة ألف مليون نجم:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

وفي كلِّ نجم من هذه النجوم الكبيرة يسع مليون أرض، أي النسبة بين الشمس والأرض مليون وثلاثمئة ألف، أي الشمس التي نراها صباحاً وظهراً لو أنَّ جوفها مفرَّغ لاتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، ففي هذه المجرات بعض النجوم يتسع إلى ثلاثين مليون شمس، شمسنا تتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، وبعض النجوم في المجرات يتسع إلى ثلاثين مليون شمس من شمسنا فما هذه الأحجام؟!! ربّنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

على الإنسان ألا يؤجل انصياعه لله إلى الغد :

فهل فكرت فيها؟!! وهل نظرت إليها؟ وهل عرفت مبدعها؟ وهل فكرت في خالقها؟ وهل نظرت إلى عظمة الله من خلالها؟ وهل خشعت بين يديه؟ وهل انصعت لأمره؟ أم بقي الإنسان متمرداً؟!

إلى متى أنت في المعاصي تسير مرخى لك العنانُ

عندي لك الصلح وهو برّي وعندك السيف والسنانُ

ترضى بأن تنقضي الليالي وما انقضت حربك العوانُ

***

إلى متى أنت باللّذات مشغول   وأنت عن كلِّ ما قدمت مسؤول

***

إلى متى؟!!

فيا خجلي منه إذا هـو قال لي   أيا عبدنـــا ما قرأت كتابنـــا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى؟   أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا ؟

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً؟   وتنظر ما به جـاء وعدنـــا ؟

***

إلى متى؟!!

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

هذه ساعة الصفر متى ستكون؟ ساعة التوبة الكاملة، ساعة الانصياع الكامل لله عزَّ وجلَّ، ساعة العزوف عن المعاصي كلّها صغيرها وكبيرها متى؟ سوف أفعل هذا غداً.. قال عليه الصلاة والسلام:

((هلك المسوفون))

[ورد في الأثر]

سوف أفعل هذا في مطلع الصيف، بعد أن أؤدي الامتحان، وبعد أن أتزوج أتوب، وما يدريك أن تصل إلى الزواج وأنت حيّ من يعلم ذلك؟!!

المجرات والنجوم وما فيها من آيات الله الدالة على عظمته :

توجد أرقام ومعلومات سبحان الله لولا أنَّ الدرس:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

فالحديث عنها شيء غير معقول قد يبدو هذا لبعض الناس، وفي بعض المجرات يحدث فيها انفجار، فالمجرات والنجوم تأخذ أرقاماً وحروفاً، فهذه المجرة التي رمزها (m 84) يحدث فيها انفجار وهذا الانفجار يعادل قوة انفجار قنبلة هدروجينية مضروبة بواحد أمامه ستة وأربعون صفراً، والآن تكلمنا قبل قليل عن الرقم المذهل مليون مليون واحد أمامه اثنا عشر صفراً، وإذا كان واحد وأمامه ستة وأربعون صفراً ضعف انفجار القنبلة الهدروجينية فهذا انفجار يحدث في مجرة اسمها (m 84).

ومرصد ببعض الدول الأجنبية اسمه (بلومار) فهذا المرصد حتى الآن رصد ألف مليون مجرة، وبكل مجرة من هذه المجرَّات تقريباً رصد مئة وثلاثين ألف مليون نجم، وقد رصد صور، أما العين المجردة هذه لا ترى إلا ثلاث مجرات فقط، الأولى اسمها المرأة المسلسلة والثانية اسمها ماجلان

الكبرى، والثالثة اسمها ماجلان الصغرى، ففي هذه العين المجردة لا نرى إلا ثلاث مجرات فقط، وأما في المرصد الذي قطر عدسته اثنا عشر متراً، واستغرق صنع العدسة حوالي اثنتي عشرة سنة، وتبريدها خمس سنوات، أي سبعة عشر عاماً حتى صنعت هذه العدسة كي ترصد هذه المجرات الواسعة، أي علّم ربنا عزَّ وجلَّ الإنسان ما لم يعلم، قال الله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

أي إلا بما شاء هو، ربنا عزَّ وجلَّ سمح لنا أن نعرف حتى الآن هذه الحقائق، وما يدرينا أنَّ هناك حقائق أخرى لا نعرفها نحن الآن؟

وصف السماء :

يوجد شيء آخر؛ النجوم العملاقة كما قلت قبل قليل قد يزيد حجم النجم منها على ثلاثين مليون شمس من شموسنا هذه العملاقة، هذه ذات لون أحمر، ويوجد لون أبيض أقلُّ إضاءةً، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

مثلما أقول لك الآن: هل تقدر أن تعطي السيارة وصفاً ينطبق على جميع السيارات قديمها وحديثها، منذ أن صنعت أول سيارة وحتى آخر طراز، الكبيرة والصغيرة، الشاحنة وغير الشاحنة والسياحية، ذات المصادر المتعددة والبلدان المتنوعة والطاقة المتعددة وصف واحد يجمع فيه كلّ السيارات من دون استثناء، أي أقدم سيارة وأحدث سيارة، أكبر سيارة وأصغر سيارة، وحتى اللعب وصف واحد؟

قال لي واحد: إنها مريحة، قلت له: الفراش مريح، فهل تسمى السيارة الفراش؟ قال: لا، قال لي: يوجد فيها فخامة. قلت له: القديمة لا يوجد فيها فخامة فما تسميها إذا لم يكن فيها فخامة؟ إلى أن توصلت أنا وهو إلى كلمة الحركة، السيارة شيء يتحرك فهذا الوصف الذي يجمع جميع أنواع السيارات، فربنا عزَّ وجلَّ أراد أن يصف السماء فماذا قال؟ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

أي بخار الماء يتصاعد إلى السماء فيرجع أمطاراً وهذا شيء جميل.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

هذه الأمواج التي تبثها الإذاعات لولا طبقة في السماء تعيدها إلينا لما كان هناك اتصال لاسلكي على وجه الأرض..

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

الحكمة من جعل الله عزَّ وجلَّ الكون متحركاً و ليس ثابتاً :

ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

بمعنى آخر: أنّ كل كوكب في السماء يدور حول مدار معين في مدار معين، وكل أفلاك السماء، وكل نجوم السماء تدور، ومعنى الدوران أن تعود حيث كنت قبل قليل، والآن نحن في هذا التاريخ بعد سنة بالضبط بهذا التاريخ تكون الأرض قد رجعت إلى موقعها الحالي، فالأرض الآن تمشي، الأرض والشمس والقمر والمجرات والمجموعة الشمسية، كل كوكب في السماء يدور، فلماذا الله عزَّ وجلَّ جعل الكون متحركاً ولم يجعله ثابتاً فيكون أهدأ؟ لو أن الكون ثابت لتجمَّع كلّه في كتلةٍ واحدة، طبعاً لوجود الجاذبية، النجم الأكبر يجذب الأصغر وهكذا الكون كلُّه يتجمع بكتلة واحدة، فلماذا جعله متحركاً إذاً؟ من أجل أن تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى الدوران ويبقى الانفصال مع الدوران، إذاً لمَ الحركة؟ الحركة فيها بركة، فلولا الحركة لا يوجد ليل ولا نهار، ولا يوجد صيف وشتاء وخريف وربيع، لا يوجد بروج تراها في السماء، فلولا أنَّ الأرض تدور حول الشمس لما رأيت بروج السماء:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

من نتائج دورة الأرض حول الشمس، أن سكان الأرض يرون البروج في السماء، طبعاً الخبراء في النجوم، في الصيف يوجد بروج ترى، والحقيقة في كلِّ شهر يوجد برج، ففي السماء اثنا عشر برجاً فلكل شهر برج نراه نحن في سمائنا الدنيا، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

كلمة الرجع صفة مشتركة لكل ما في السماء :

الآن سأستطرد استطراداً بسيطاً، لمَ ربنا قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

أي كلمة الرجع صفة مشتركة لكل ما في السماء، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أيضاً الباطل أنواع، فالباطل الاعتقادي أنواع، والباطل السلوكي أنواع، وباطل فئات الأرض أنواع، أي أن الباطل أنواع لا تعد ولا تحصى، أي بين نقطتين لا يمر سوى مستقيم واحد، أما الطرق المنحنية والملتوية والمنكسرة يمر مليون خط منحنٍ بين نقطتين، ولذلك فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

[سورة الأنعام: 153]

ضمير صراطي مستقيماً مفرداً:

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

خطوط الانحراف كثيرة:

((تفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة.))

[ابن عدي عن عوف بم مالك]

طبعاً علينا أن نلزم ما عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام، فمن ينجو منهم يا رسول الله ما أنا عليه وأصحابي.

الله عزَّ وجلَّ يعطي وصفاً للباطل يشمل كلّ باطل من دون استثناء :

بين نقطتين لا يمكن أن يمر سوى مستقيم واحد لكن يمر مليون خط منحن، إذاً الباطل كثير والباطل الاعتقادي كثير، في الهند يوجد المئات من الديانات كلها ديانات فيها شرك بالله عزَّ وجلَّ، تأليه الشمس، وتأليه البقرة، والإنسان يموت فيحرقونه، والبقرة إذا نفقت تدفن دفناً، فالبقر يدفن والإنسان يحرق، وهذا باطل، ويوجد مذاهب كثيرة في الأرض باطلة لا يعلمها إلا الله، ويوجد تصرفات باطلة، وكسب رزق باطل، وتعامل مع الناس باطل، ومعتقد باطل، وقيم باطلة، وتصورات باطلة، والآن مثلما قال ربنا عزَّ وجلَّ:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

والآن ربنا عزَّ وجلَّ يعطي وصف للباطل يشمل كلّ باطل من دون استثناء؟ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أي أن هذه الصفة المشتركة التي تجمع بين كلِّ أنواع الباطل، كل أنواع الباطل زاهقة، ولو قال: زاهقة، اسم فاعل، أنت قد تقول: فلان كاذب: أي أنت قد جربت عليه كذبة واحدة، أما إذا كان كثير الكذب، فهذا يسمى كذوباً، على وزن فعول، كذلك ربنا عزَّ وجلَّ ما قال: إن الباطل كان زاهقاً معنى زاهقاً يزهق مرة واحدة يمكن أن يتجدد أما:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

إذا ربط إنسان مصيره مع الباطل فمعنى ذلك أنه معه مزهوق أيضاً، أي زاهق ومزهوقٌ معه، أما إذا ربط الإنسان مصيره مع الحق الذي لا يحول ولا يزول يكون في منتهى الذكاء والكياسة، وإذا ربطت مصيرك مع شيء باطل شيء هو مبدأ، هو شخص، هو سلوك، هو تصرف.

(كان) في القرآن الكريم لها معنى آخر :

قال تعالى:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أما الإنسان إذا ربط نفسه مع الحق، كن للحق عبداً فعبد الحق حر:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

[سورة القصص: 88]

كان، فمعنى (كان) معنى دقيق جداً، وجدت في القرآن الكريم أربعمئة وأربع وعشرين (كان)، فالإنسان يقول لك أحياناً: الجو ممطرٌ! بعدئذٍ تقول: كان الجوُّ ممطراً، أي أنت نقلت هذا الحدث أو الإسناد إلى زمن ماضٍ، لكن إذا قرأت قوله تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

[سورة الكهف: 45]

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

[سورة النساء: 32]

هذه (كان) أصبح لها معنى آخر وليس معناها الماضي، معناها الكون العام والوجود والاستمرار، أي هذا الشيء الذي ربط بهذا الشيء مع فعل (كان) مترابط معه وجودياً بحيث لو زال هذا الشيء لزال الأصل.

ترابط الزهوق مع الباطل ترابطاً وجودياً :

قال:

(وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

أي علمه شيء ثابت وأزلي وقديم وسرمدي، مثلاً إذا رأيت ضوءاً أخضر فهل من الممكن أن تفصل الأخضر عن الضوء؟!! ضوء أخضر هل بإمكانك أن تفصل اللون الأخضر وحده عن الضوء؟!! مستحيل، فلما ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أي أن يكون الباطل زهوقاً فهذا شيء ثابت فيه، الزهوق مترابطٌ مع الباطل ترابطاً وجودياً، حيث كان الباطل فهو زهوق:

(وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

أي العلم والحكمة شيء ثابت وقديم وأزلي وسرمدي، لا زلنا في السماء ذات البروج، ربنا عزَّ وجلَّ لما حدثنا عن السماء ذات البروج فإن بعض العلماء قالوا: إنَّ أقرب نجم إلينا بعده عنا أربع سنوات ضوئية، وهنا توجد نقطة دقيقة جداً أي أن هذا النجم عندما تقول أربع سنوات ضوئية أي انطلق الضوء منه، فبالطريق يستمر أربع سنوات، ونحن اليوم رأينا النجم بالمرصد، فهل تصدقون أنَّ هذا النجم كان قد أصدر ضوءً قبل أربع سنوات والآن في مكان آخر قد يكون انفجر، وقد يكون تحول، وقد يكون زال؟!!

عندما صعدوا على القمر هل تظنون أنهم تبعوا القمر بالضوء؟ ضوءه كاذب، الضوء الذي تراه، فالقمر سائر في الفضاء وأنت تذهب إليه يجب أن تصل إلى مكان وصوله بعد أربعة أيام، فهناك حسابات دقيقة جداً، فهذا النجم يصل ضوءه إلينا بعد أربع سنوات من انطلاق الضوء منه، وهذه الفترة الزمنية معقولة.

أما مجرة المرأة المسلسلة فبعدها عنا مليونا سنة ضوئية، أي إذا خرج منها الضوء يستمر سائراً في طريقه إلينا مليوني سنة ضوئية، فإذا رأينا هذه المجرة مجرة المرأة المسلسلة هذه الرؤية قبل مليوني سنة وهي الآن أين تكون؟ لا يعلم مكانها الآن إلا الله، فالذي نراه في المرصد اليوم كان قبل مليوني سنة، ونحن كل تاريخنا الميلادي ألف وتسعمئة وأربع وثمانين، وكل التاريخ البشري المقروء سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، فما نراه اليوم عن هذه المجرة هو ما قبل مليوني سنة.. فما هذه العظمة؟!!

الزمن هو البعد الحركي للأجسام والجسم الثابت ليس له زمن :

شيء آخر، بعض الكازارات قد كشفوا أن بعدها عن الأرض اثني عشر ألف مليون سنة، أعطيكم أرقاماً متسلسلة، القمر ثانية ضوئية واحدة، والشمس ثماني دقائق، وأقرب نجم أربع سنوات، وأقرب مجرة مليونا سنة، وأبعد مجرة من نوع الكازارات اثنا عشر ألف مليون سنة، والأغرب من ذلك أن المجموعة الشمسية تدور حول مركز المجرة فما سرعتها؟

نحن قبل قليل قلنا إن الأرض تمشي ثلاثين كيلو متر في الثانية، والدرس قد بدأ من نصف ساعة تقريباً أي ثلاثين دقيقة، فثلاثون في ستين ثانية أي ألف وثمانمئة ثانية وكل ثانية ثلاثون كيلو متر فنكون قد قطعنا مسافة في الفضاء تقدَّر بأربعة وخمسين ألف كيلو متر وهذه سرعة الأرض حول الشمس، فما قولكم في سرعة المجموعة الشمسية حول مركز المجرة؟ مئتان وخمسون كيلو متر في الثانية وهي سرعة المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، فكم تستغرق المجموعة الشمسية في دورانها حول مركز المجرة حتى تصل إلى ما كانت عليه قبل كذا سنة؟ قال: مئتان وخمسون مليون سنة تستغرقها المجموعة الشمسية في دورانها حول مركز المجرة. فما سرعة بعض المجرات؟ قال: سرعة المجرات تقترب من سرعة الضوء، أي حوالي مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، الأرض ثلاثون كيلو متر، والمجموعة الشمسية مئتان وخمسون كيلو متر، وبعض المجرات الضخمة سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية.

فلو أن الشيء سار بسرعة الضوء لانقلب ضوءً أي لصار ضوءً، ومن صفات الضوء أن كتلته صفر وحجمه لا نهائي، فلو أن إنساناً سار بسرعة الضوء لانقلب إلى ضوء، ولذلك فالصورة تجميد الزمن، والزمن هو البعد الحركي للأجسام، والجسم الثابت ليس له زمن، أما المتحرك فله زمن أي:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

بمجرد أن تعصي الله عزَّ وجل مطيعاً لإنسان فهذه علامة الرسوب في الإيمان :

هذا الذي أدركه الإنسان في هذا العصر والشيء الذي يجهله أكثر مما يعلم، والله الذي لا إله إلا هو قلت قبل يومين كلمة في نفسي كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد جهلاً به، كيف؟ فإذا كنت عرفت شيئاً من عظمته فأنت لم تعرف شيئاً عنه بالمرة وما بقي عليك مما تجهله أضعاف مضاعفة مما عرفته، فالآن نحن نريد أن نستفيد من هذه الحقائق، الآن إذا قال ربنا عزَّ وجل لك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

يا موسى أتحب أن أجلس معك؟ قال: كيف ذلك يا رب؟! قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني؟ صلِّ، فعندما تصلي استحضر هذه العظمة وهذه الصور عن الكون، تقف أنت بين يديه، عندما يأتيك أمر من البشر يتناقض مع أمر إلهي قم بالموازنة بين المخلوق والخالق، فهل من المعقول أن يستمع جندي لكلام عرِّيف ويعصي أمر قائد الفرقة؟ يكون أحمقاً، لو تعارضوا يمشي مع قائد الفرقة، فالقائد يقدر أن يضع العريف في السجن، فهل من المعقول أن يطيع إنسان مخلوقاً في معصية الخالق؟ يكون لا يعرف الخالق، فبمجرد أن تعصي الله عزَّ وجل مطيعاً لإنسان فهذه علامة الرسوب في الإيمان.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

حجم خوفك من الله بحجم علمك :

لكن ما هذه المناسبة بين:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

وبين:

(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

أي يوم القيامة، فلو دارت حرب بين فئتين وغلبت فئة منهم، وكانت حرباً واسعة وغلبوا عدوَّهم وغنموا قلم رصاص مثلاً، فلا يقارن هذا بذاك، فأنت تتكلم عن النصر وهناك شيء يتناسب معه، فربنا عزَّ وجل يقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

أي بقدر ما في السماء من عظمة يكون ما في هذا اليوم الموعود من هول وانسجام وتوافق فهذا عطف، فنحن في الأدب لا ينبغي أن نعطف اسماً على فعل، ولا فعلاً ماضياً على مضارع، فالأقوى أن يكون هناك انسجام في العطف فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

والله الذي لا إله إلا هو أنا اعتقادي أن الذي سمعتموه عن المجرات شيء صغير جداً وقليل جداً عن الحقيقة، فالإنسان معرفته متواضعة وعلمه في الحقيقة جهل، وكلما رأيت إنساناً متكبِّراً اعتبره جاهلاً فالعالم متواضع.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

إذاً من الذي لا يخاف من الله؟ الأحمق، الجاهل، أي حجم خوفك بحجم علمك.

بقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في هذا اليوم من هول :

مرة قال لي شخص: إني لا أخاف من الله. قلت له: معك حق. وعندما قلت له معك حق فانتبه لي كأنه انتصر، فقلت له: أحياناً الطفل الرضيع يمر أمامه ثعبان فيلمسه، ولا يخاف منه لعدم وجود الإدراك، فعلى قدر الإدراك الإنسان يخاف، أما أن يكون أبوه يقفز قفزاً من الثعبان، نقول إن الطفل لا يخاف وهل الطفل لا يخاف فهو أحسن من أبيه، الطفل لا يوجد عنده إدراك. لذلك عندما الإنسان لا يخاف من الله تعالى يكون أحمق، ورأس الحكمة مخافة الله، ولو أن الله أكرمنا بمعرفة الأنبياء نراهم أشدَّ الناس خوفاً من الله، وهؤلاء المقصرون علام هم مطمئنون؟ هذا شيء غريب.

يقول سيدنا عمر: عجبت لثلاث: لمُؤملٍ والموت يطلبهم، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ؟!!

فإنه لا يعرف، كيف هو مطمئن، هذه أنا سميتها طمأنينة بلهاء، فعندما الإنسان يطمئن وليس هو بمستقيم، يطمئن وليس متحققاً من دخله، مطمئن وليس مطيعاً لله عزَّ وجلَّ، هذه طمأنينة بلهاء.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

فبقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في هذا اليوم من هول، لا على المؤمن، ولكن على أهل العصيان والفسوق والفجور، لأن هناك حساباً دقيقاً.

(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

قال بعض المفسرين: هاتان الكلمتان جمعتا الكون كله، هذا الشيء إما أن يكون شاهداً أي كائناً مدركاً أو مشهوداً، فالكائنات الحية كلها، والجمادات ما يَرى وما يُرى:

(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

كما قال الله عزَّ وجلَّ:

(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

[سورة الحاقة: 38- 39]

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

ليس القرآن الكريم كتاب قصص ولكنه كتاب عبر :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ *وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

ثلاث آيات:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)

الآن الله عز وجل أشار إلى قصة جعلها تسلية لهؤلاء الذين يُضطهدون في سبيل الله، هؤلاء الذين يتحملون الصعاب لا لشيء إلا لأنهم عرفوا الله عزَّ وجل وخافوا منه فلم تأخذهم بالله لومة لائم، فليس القرآن الكريم كتاب قصص ولكنه كتاب عبر، فربنا عز وجل كأنه يسلي أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين لاقوا من أذى قريش وتعنُّتها وإخراجها لهم من بلادهم، ومحاربتها لهم وتعذيبها إيّاهم، كأن الله سبحانه تعالى من طرفٍ خفي، وبطريقةٍ غير مباشرة يسلّي أصحاب النبي المعذبين قال:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

فتفصيلات القصة لا تهمنا كثيراً، لكن يهمنا أنَّ هناك قوماً ظالمين حفروا أخاديد في الأرض وملؤها ناراً مشتعلة، وجاءوا بالمؤمنين وعذبوهم في هذه الأخاديد، على مرأى منهم ومسمع من أصواتهم.

القلب القاسي بعيد عن الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

أي أوقدوها وأضرموها حتى اشتعلت وألقوا فيها المؤمنين حتى احترقوا، ووقفوا يتأملون في تعذيبهم كأنهم يتشفوْن منهم، ولذلك فالرومان كان لديهم استعدادات ضخمة جداً، كانوا يأتوا بإنسان يضعونه بالساحة العامة، ويخرجون إليه وحوشاً ضارية، وكانوا يتلذذون بمشاهدة موت هؤلاء بين أنياب هذه الوحوش طبعاً القلب القاسي بعيد عن الله عزَّ وجلَّ:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)

أي الله سبحانه وتعالى سيهلكهم:

(النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

مرة قال لي شخص عن شخص آذى آخر، قلت له: الله يعينه، أنا أحببت أنّ أتكلمها بشكل غير واضح، قال لي: والله معه حقّ فإنه تعبان كثيراً، قلت له: الله يعين الثاني وليس الأول، الذي أصابه بالأذى، كيف سيقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! أما الأول الله عالجه ونفد أما المشكلة مع الثاني:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ*إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

أي قاعدون ينظرون إلى هؤلاء المعذبين لينقعوا غليلهم كما يقول الأدباء.

الإنسان الذي يتحرك ويغلط أفضل من الذي لا يتحرك ولا يغلط :

قال تعالى:

(وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

يشهدون عذابهم بأنفسهم، من غير المعقول ملك يصدر أمراً بقتل إنسان، ويحضر ساعة قتله إلا أن يكون في قلبه ألم شديد منه، إذ عليه أن يصادق على الحكم وانتهى فيقتلونه، أمّا أن يحضر قتله، فقد يكون عنده غيظ، امتلأ منه غيظاً، أراد أن يشفي غليله برؤيته وهو يتعذب.

(قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أحياناً المؤمن تأتيه بعض المتاعب، فإذا كانت المتاعب جاءت بسبب تقصير، لا تقل هذه لله أنا احتسبتها لله، فهذا تقصير منك، موظف تأخر، فحاسبوه على تأخره لا يعتبرها لأنَّه مؤمن فعلوا معه هكذا، هذا تقصير، أما إذا أنت قمت بواجبك الكامل، ولسبب أنّك مؤمن، تحمَّلت بعض المشاق فهذا احتسبه عند الله عزَّ وجلَّ، وهذا ألم مقدّس وهذه مصيبة مقدسة، وهذه تصيب العظام من الناس، وهذه المصيبة بالذات تصيب من كان طموحاً لرضوان الله عزَّ وجلَّ، طبعاً إذا الإنسان لم يتحرك فلن يغلط، وإذا كان سكونياً لا أحد يقترب منه، فما دام هناك حركة، إذاً يوجد محاسبة ومسؤولية ولذلك فالإنسان الذي يتحرك ويغلط أفضل من الذي لا يتحرك ولا يغلط، هذا قدَّم شيئاً للمجتمع، فهؤلاءِ ذنبهم الوحيد أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، قال هذا أسلوب بلاغي، اسمه تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب

* * *

يوجد فيهم عيب واحد الحقيقة من شدة خوض الحروب وشجاعتهم سيوفهم مثلمة، والنبي الكريم استخدم هذا الأسلوب، فقال:

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة، فهو أفصح العرب، فهذا تأكيد المدح بما يشبه الذم، فلان كريم؟ نعم كريم ولكن يوجد له قصة، هذا مع أنه كريم إلا أنه شجاع، هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم.

العزة كلُّها محصورةٌ بالله عزَّ وجلَّ :

يوجد أسلوب آخر اسمه تأكيد الذم بما يشبه المديح، فلان بخيل، إلا أنه إنصافاً له نقول: إنه لئيم، أي مع أنه بخيل إنه لئيم، أي تأكيد الذم بما يشبه المدح.

(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أحياناً لو العزيز وقفنا عندها أشهراً لا ننتهي منها، الذي لا ينال جانبه، فإذا غلط طبيباً غلطة، تفتح له هاتفاً وتعمل له تنبيهات، لماذا لم تسألني عن الحساسية، أخذت إبرة أصبح معي صدمة ذهبنا إلى المشفى في الليل، هكذا الأصول أيها الدكتور؟! هذا الشأن الكبير تلاشى، عندما يقدم لك صانع قطعة يوجد فيها عيب وتنبهه إلى العيب تجده انكمش، أما الله سبحانه وتعالى لا ينال جانبه، في أعماله كلها حكيم، في كلِّ تصرفاته رحيم، لطيف وعليم، قدير، لا ينال جانبه أي عزيز قال الله تعالى:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون: 8]

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)

[سورة فاطر: 10]

أي العزة كلُّها محصورةٌ بالله عزَّ وجلَّ، سبحانك إنك لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، الذي يعادي الله عزَّ وجلَّ له عذابٌ مهينٌ في الدنيا، وعذاب مهين غير أليم، يوجد عندنا عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كل ما في السموات والأرض ملك لله وحده خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً :

والله هذه الآية لوحدها تكفي:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كلُّ ما في السماوات، وكلُّ ما في الأرض، وما على الأرض، وما بين السماء والأرض ملكه، فما معنى ملكه؟ أي ملكه خلقاً، وملكه تصرُّفاً، وملكه مصيراً، هو خلقه، وهو الذي يسيِّره كما قلنا في الدرس الماضي وإليه مصيره:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً الزوج يقول لك: زوجتي ليس لها أحد أي مقطوعة، من الذي يقدر أن يكون حامياً لها؟!! اقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً البائع يكون عليه ضغط يغش البضاعة، يضيف قليلاً من الماء إلى الحليب، يقرأ الآية هذه:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

سيدنا رسول الله اللهم صلي عليه رأى أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه، يضرب غلاماً له مرَّ به، فقال: اعلم أبا ذر أنَّ الله أقدر عليك منك عليه:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

تكلم بما شئت لكن الله على كل شيء شهيد :

شريكان الله يرى، أو أخان، أو جاران، أو موظفان، يأتيك مراجع تكون معاملته بالدرج الثاني، وأنت جالس مرتاح، وتقول له: تعال غداً، فهل تعرف من أين أتى هذا الشخص؟ قم وتحرك واجلبها له، يقول لك: لم تُوقَّع من المدير، لكن:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

تكلم بما شئت لكن الله على كل شيء شهيد، إن كنت تؤمن بالآية تنضبط وتستقيم:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كل شيء، هذه كلمة شيء تشمل كل شيء، كلمة شيء أوسع كلمة تعني عن كلِّ شيء:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أي حتى الإنسان إن أدَّب ابنه يجب أن يتقي الله لأنه لا أحد يقدر أن يمنعه من ذلك، فهل يقدر أن يستغيث بأحد؟ أب يربي ابنه، يجب أن يرى أن الله تعالى على كل شيء شهيد، فهذا الذنب لا يستأهل الضرب، هذا الذنب بحجم يريد تأديباً من نوع معيّن، أحياناً يغضب الأب من زوجته فيصب كل غضبه على ابنه حتى يجذب نظرها، فما ذنب هذا الصغير؟ تحدثُ كثيراً في بعض الأحيان:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

حاسب نفسك فالله يراك في كل حركة وسكنة :

الله يراك إذا غضبت، وإذا قصَّرت، وإذا كان يشتغل على الساعة، جاء فوجد المعلم لم يأت، هو جاء في الساعة الثامنة والثلث وكتبها الساعة الثامنة، اقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قال له: اطلع إلى السفر واصرف، فهذا كتب شيئاً كان وشيئاً لم يكن، مصروف الفندق مثلاً مئة وثمانون ليرة في الليلة، هذا هو أقل سعر، وأنت دفعت ثمانين فقط والله على كل شيء شهيد، أحياناً تصلح عند شخص سيارتك، يقول: هنا كان يوجد قطعة تالفة فرميناها ووضعنا أخرى جديدة فأنت لن تنبطح وتراها من تحت تقول له: ما الثمن؟ يقول لك: مئتا ليرة ثمنها، ومئتان أجرة أي أربعمئة ليرة، يكون هو وضعها ولكن صلحها ولم يغيرها بأخرى:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

إيّاك، حاسب نفسك فإنها آية قطيعة جداً تدور مع الإنسان، ومع الموظف، والصانع، وأصحاب المصالح، والزوج، والزوجة، والشركاء، والمدرسين، والمحامين، والأطباء، والمهندسين، والقضاة، وتدور مع كلّ مصلحة:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً يأتيك زبون ساذج، يقول لك: هذا زبون مدهن، وبعد هذا لبسناه البضاعة تلبيساً، يوجد فيها عيوب وبأسعار غالية، شقف ونتف أعطاها له:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

معصية الله عزَّ وجلَّ كلّها خسارة وطاعة الله عزَّ وجلَّ كلّها ربح :

قال لي شخص: أنا كان عندي سيارة فبعتها ويوجد فيها عيب خطير ولبَّستها لشخص بسعر غالٍ، والله قال لي هذا الكلام وهو مزهو، أنا شعرت أنَّ هذا يوجد أمامه شيء، وذهب واشترى سيارة جديدة، كان في طرطوس فجلب سيارة أخرى، في اليوم السادس من ركوبها عمل حادثاً:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أي عندما الإنسان يظن نفسه كسب في معصية الله فهذا منتهى الحمق والغباء، فمعصية الله عزَّ وجلَّ كلُّها خسارة، وطاعة الله عزَّ وجلَّ كلُّها ربح:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ*إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

هؤلاء الذين فتنوهم وعذبوهم واضطهدوهم وأحرقوهم ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، بعض المفسرين قالوا: عذاب جهنم هو نفسه عذاب الحريق، قد يقول قائل: إذا كان عذاب جهنم هو نفسه عذاب الحريق فلِمَ قال الله عزَّ وجلَّ:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله :

العطف كما قال بعض علماء النحو: يقتضي المغايرة، فهل تقول جاء أحمدُ وأحمد هل هو نفسه أحمد؟ غير معقول، إن قلت: جاء أحمدُ وأحمد، يكون أحمد هذا غير أحمد هذا، أي اثنان اسمهما أحمد وأنت ناسٍ كنيتهما، جاء أحمد الذي أنت تعرفه وأحمد الثاني الذي هو أحمد، مادام يوجد عطف إذاً يوجد مغايرة، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

بعضُ العلماء استنبط من هذه الآية أنَّه يوجد عذاب نفسي، ويوجد عذاب جسدي، فهناك عذاب الحريق، وعذاب نفسي، ويوجد أحاديث تؤكد هذا المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

أي إنَّ كلام الله حق، ومن لم يخف من وعيد اللهِ فهو أحمق، والعبرة ما سيكون بعد الموت، وقد قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: الغنى والفقر بعد العرض على الله.

بعد العرض على الله لك أن تقول أنا غني أو فقير، أما في هذه الدنيا لا قيمة للمال إذا كثر ولا عبرة للمال إذا قلّ، العبرة للعمل الصالح، ونستطيع أن نستنبط من هذه الآيات الترابط بين:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ*وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

فبقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في يوم القيامة من هول، والشيء الآخر أنَّ الله على كلِّ شيءٍ شهيد، هذه الآية اجعلها شعاراً لك في كلّ حركاتك، وفي كلّ سكناتك، وفي بيتك، من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

الفكرة الثالثة: أنَّ الباطل زهوق، فإذا الإنسان ربط نفسه مع الباطل فهو هالكٌ مثل الباطل، أما إذا ربط نفسه مع الحق، فالحق أبديٌّ سرمدي، حتى لو جاء الموت تنتقل إلى حياة أجمل وأسعد وأكرم.

رحمة الله بعباده :

قال الله تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت: 30-31]

أخ كريم بعث لي رسالة هذه الرسالة بمثابة تفكُّر شخصي، قال لي: إن عنده حساسية تجعله يكثر من العطاس، أي يوجد عنده نوبات عطاس شديدة جداً، احتاج إلى إجراء عملية في أسفل البطن، أكثر شيء أهمَّه أنه كيف سيواجه هذا العطاس والجرح مفتوح، لا بدَّ من تمزق الجرح، وجرحه لم يلتئم، قال هذا الأخ وهو صادق، إنَّ كلّ إنسان مؤمن صادق والمؤمن لا يكذب وليس له مصلحة بأن يكذب، قال: منذ أن أجريت العملية وحتى تمَّ الشفاء التام لم أعطس ولا عطسة واحدة، وبعد أن التأم الجرح عدت إلى ما كنت عليه، تفسير ذلك أنَّ هذا رحمةٌ من الله به وحكمة، أي الله عزَّ وجلَّ ابتلاه بهذه العملية وأعانه عليها، وأعانه عليها بأنه منعه عن العطاس، فكثير من المرات يكون معه علة خطيرة بجسمه، يطلب الذهاب إلى الحج، والأطباء يتحفظون ويقولوا له: لا يمكن لأن مرضك خطير، يتناقض معه ركوب طائرة مثلاً والازدحام الشديد والحرّ، كلّه يصيبك بنكسات، سبحان الله، الله عزَّ وجلَّ يجمد له صحته على أحسن وضع، فيذهب إلى هناك فلا يحسّ بشيء، لا بآلام، ولا بقلق، ولا بخوف، ولا بضعف، قوة فقط، فلما يرجع يعود إلى ما كان عليه، وأحياناً الله يشفيه شفاءً تاماً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البروج 085 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 12-22 ، بطش الله تعالى ومكانة القرآن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل إذا أراد أن يأخذ العصاة أخذهم أخذاً شديداً :

وصلنا في الدرس الماضي في سورة البروج إلى قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

قد يبدو لقارئ القرآن أن كل سورةٍ في كتاب الله فيها مجموعة مقاطع، وقد لا يبدو لمن يقرأ القرآن قراءة سريعة أن هناك علاقة بين هذه المقاطع، ولكن لو تعمقنا في فهم هذه السورة لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ* إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أي أن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن الله إذا أراد أن يأخذ العصاة أخذهم أخذاً شديداً، سيدنا موسى سأل الله عزَّ وجل فقال: يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتى أحبه بحبك؟

قال: يا موسى أحبُّ عبادي إلي تقي القلب، نقيُّ اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبَّني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، فقال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك؟!

قال: ذكرهم بآلائي، الآيات الكونية كما كان في الدرس الماضي والسماء ذات البروج، ونعمائي، وهذه النعم الكبيرة التي منَّ الله بها علينا، وبلائي.

في هذه الآية مناسبةٌ للحديث عن بطش الله الشديد :

في هذه الآية مناسبة للحديث عن بطش الله الشديد، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

وهذه الآية مطبقة في كل زمانٍ وفي كلِّ مكان، وتحت سمع الناس وبصرهم، آيةٌ ثانية ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام:65]

هذا من بطش الله الشديد، وأن تذوق القرية التي كانت آمنة مطمئنة والتي كان رزقها يأتيها رغداً من كل مكان أن تذوق الخوف والجوع هذا من بطش الله الشديد، وربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ ثالثة يقول:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

ليست أخبار الزلازل والفيضانات والمجاعات والبراكين والصواعق عنا ببعيد، وهذا من أخذ الله الشديد، وهذا من بطش الله عزَّ وجلَّ، الله سبحانه وتعالى قد ينزل بطشه بجماعاتٍ وقد ينزل بطشه بأفرادٍ، ألم تسمع بإنسانٍ فقد ثروته كلها وأصبح يتكفف الناس، هذه قصص كثيرة.

على المؤمن أن يعطف على من ألمت بهم المصائب وأن يرحمهم ويقدم لهم المساعدة:

قال لي رجل: إن بيتي مساحته مع الحديقة ألفٌ وخمسمئة متر، وهناك موظفان خاصّان للحديقة، وعندي ثلاث سيارات واحدة للسفر وواحدة للمدينة وواحدة للمعمل، وقال لي: ما دخل بيتي الطعام إلا بكمياتٍ كبيرة، رأيته في بعض الدكاكين في أحد أحياء دمشق ينام على طاولة التفصيل، ويأكل طعاماً من العلبة التي فتح منها الطعام ولا صحن في دكانه، ثم بكى وقال: لقد طردني أهلي خارج المنزل، وكيف كان من قبل؟

أي عندما الإنسان يرى أشخاصاً ألمَّت بهم المصائب، بالإضافة إلى أنه ينبغي له أن يعطف عليهم وأن يرحمهم وأن يقدم لهم المساعدة، وينبغي له أن يستنبط من هذه الظواهر المؤلمة حكمة، أن تقول: والله لا يستأهل، هذا كلام فيه شكٌ في حكمة الله عزَّ وجلَّ، وأن تقول - الله لا يقيمه - كذلك فيها شماتة، لا تقل هذا الكلام ولا ذاك، ولكن قل كما قال سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة المائدة:118]

فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

إنّ حرف مشبه بالفعل معناه التوكيد، أي إذا قلت: الله غفورٌ رحيم، وإذا قلت: إن الله غفورٌ رحيم، التركيب الثاني فيه توكيد، إذا قلت: الشمس ساطعة، وإذا قلت: إن الشمس ساطعة، فالتركيب الثاني فيه توكيد، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

معنى البطش :

ما هو البطش؟ الأخذ بالعنف، وربنا حليم وكريم يمد للناس مداً لكنه إذا أخذهم:

(فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 42]

الذي لا يخاف من الله فهو أحمق، ألا نرى بأعيننا ما يحل ببعض الناس من أمراضٍ وبيلة ومن أمراضٍ عضالة؟ ألا نرى بما يحل ببعض الناس من فقرٍ مدقع؟ ألا نرى ما يحل بالناس من مصائب قد لا تحتمل..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فالبطش شدة الأخذ والأخذ بالعنف وبالقوة، يا موسى ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، والبطش من بلاء الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هذا البطش نسب إلى الله عزَّ وجلَّ، لم ينسب إلى اسم التسيير نسب إلى اسم الربوبية، الله رب العالمين، ومعنى رب أي مربٍ، والمربي لا بدَّ من أن يكون عالماً ورحيماً في وقتٍ واحد، فالذي يربي شيئاً يحتاج في تربيته إلى علم، ويحتاج في تربيته إلى عطف، فالله سبحانه وتعالى عليمٌ بنا ورحيمٌ بنا ومع ذلك بطشه شديد.

نسب البطش إلى الله تعالى وإلى اسم الربوبية بالذات معنى هذا أن البطش لا بدَّ منه :

أحياناً الطبيب يكون طبيباً لامعاً جداً وماهراً جداً ومع ذلك يقول: لا بدَّ من بتر الرجل وإلا فهذا المرض سيتفاقم، نقول: إن الطبيب قطعها، قد يقطعها مجرم وقد يقطعها حادث لا نقول إن الحادث هذا كان رحيماً، أما إذا قلنا إن الطبيب قطعها، فحينما تنسب قطعها إلى الطبيب والطبيب يتمتع بالعلم والرحمة، إذاً لا بدّ من أن يكون قطعها فيه حكمةٌ بالغة.. إن بطش ربك؛ نسب البطش إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى اسم الربوبية بالذات هذا يعني أن هذا البطش لا بدَّ منه، وهو عين الحكمة، وهو في النهاية رحمة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

البطش وحده الأخذ بالعنف، فكيف إذا وصف البطش بأنه شديد، إذا قلنا: إن لله بطشاً، كلمة بطش وحدها تعني الأخذ بالعنف والقوة، فكيف إذا وصفنا هذا البطش بأنه شديد؟ هذا شيء يجذب النظر، إن

بطش ربك لشديد، هذه اللام يعربها النحاة لامٌ المزحلقة، أي أصلها لام التوكيد، أساسها لبطش ربك شديدٌ، دخلت عليها إنْ فزحلقنا اللام إلى خبر إنَّ، أساسها لام التوكيد.

إذاً الله سبحانه وتعالى في قوله (إنّ) يؤكد، والبطش هو الأخذ الشديد، وهذا البطش وصف بأنه شديد، لكن هذا البطش الشديد مضافٌ إلى رب العالمين، ورب العالمين عليمٌ وحكيم ورحيم، إذاً هذا البطش لا بد منه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

يذكرني هذا التفسير بقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

أربع توكيداتٍ في هذه الآية، والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا، اللام لام التوكيد، ونهدينهم النون نون التوكيد الثقيلة، (سبلنا وإن) إن: حرف توكيد:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

لا بدّ للإنسان من حين إلى آخر أن يتعرف إلى الله عن طريق الكون :

اللام لام المزحلقة أي لام التوكيد، إذاً عندما يتجه الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ ويتمنى أن يتقرَّب منه، فليطمئن أنَّ الله سبحانه وتعالى لا بدَّ من أن يهديه إلى السبيل الصحيح:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أي الإنسان من حين إلى آخر لا بدَّ من أن يتعرف إلى الله عن طريق الكون، عن طريق الكون يعظمه..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

وفي الدرس الماضي كان معظمه على:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

التعرُّف إلى الله من خلال الكون يورث عظمة لله في النفس، تعظيماً لله في النفس:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

معرفة الله من خلال النعم تورث المحبة، يا داود.. ذكّر عبادي بإنعامي عليهم، فإنَّ النفوس جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

تمام النعمة الهدى :

إذا نظرت إلى نعمة البصر ونعمة السمع ونعمة الإدراك السليم، والعقل والحركة، تقضي حاجتك من دون أن تكلّف أحداً بذلك، ونعمة الزوجة والأولاد والبيت، أي المأوى إذا لك مأوى فهي نعمة، وأنّك تملك قوت يومك، ونعمة السمعة الطيبة، وأنّك تعرف الله عزَّ وجلَّ، فسيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة، قال: الحمد لله ثلاثاً، على هذه المصيبة، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، فنعمة الدين هي النعمة الكبرى والنعمة العظمى، ولذلك فسَّر المفسرون قوله تعالى:

(وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)

[سورة الفتح: 2]

أي تمام النعمة الهدى، إذا كان الإنسان في بحبوحة، وله منزل متسع، وله زوجة وأولاد، وعمل يدرُّ عليه دخلاً جيداً، ولم يكن مهتدياً، فهذه ليست نِعمة، قال الله تعالى:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

[سورة الدخان: 25-27]

أما النِعمة إذا أتممتها بالهدى، إذا كنت مهتدياً، فالزوجة نعمة، إذا كنت مهتدياً فالمال نعمة والأولاد نِعمة، أما إن لم يكن الإنسان مهتدياً فقد يدفع ابنه إلى معصية، وقد يدفع ابنه إلى الفجور، فيأتي يوم القيامة هذا الابنُ ويقول: يا ربّ لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي لأنه كان سببي، فهل يعدُّ الولد نعمةً من دون هدىً؟!! لا، هذه الزوجة التي يفتخر زوجها بجمالها، ويسمح لها بالخروج بأبهى زينة هل تسمَّى هذه الزوجة نعمة؟!! لا، لأنها يوم القيامة تقوده إلى جهنم، هذا المال الذي جمعه من حرام، يُحشر الأغنياء أربع فرقٍ يوم القيامة، فريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، حسابه يسير، بمعنى سريع، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، فهذا الذي يحاسب، هذا يقال قفوه فاسألوه، هل ترك فرض صلاةٍ؟ هل قصَّر في حقِّ جيرانهِ؟ هل قطع رحمه؟ هل قصر في حق أولاده؟ هل قال من حوله: يا رب قد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا؟ هل هل؟؟ النبي الكريم رأى أنَّه يوجد عنده قائمة أسئلة طويلة جداً، انتظر، انتظر قال: تركته وما زال يسأل ويسأل.. هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

الإنسان يجب أن يعرف أنه إذا فكر بالمنعم فقد أحبّ الله عزَّ وجلَّ :

الإنسان يجب أن يعرف أنه إذا فكر بالمنعم فقد أحبّ الله عزَّ وجلَّ.

يا داود؛ ذكّر عبادي بإنعامي عليهم، فإنَّ النفوس جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وإذا فكر في البطش، في بطش الله عزَّ وجل، إذا فكر في النِقم، إذا فكر في المصائب، والبلايا، والرزايا، والمحن، والنكبات، والأمراض، والفقر، والذل، ففي هذا يخاف من الله عزَّ جلَّ.

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هناك أشخاصٌ فقدوا أموالهم، فإذا الله عزَّ وجلَّ وقَّف عمل الكليتين فجأةً، وهذا مرض شائع جداً، هبوط مفاجئ في عمل الكليتين، فما الحلّ؟ الحل هو الغسيل في الأسبوع مرتين وكلّ مرة خمس ساعات أو ستاً، وأن تقف بالدور، قال الطبيب لي: هذه اليدَّ تتحمل عشر مرات، فالشريان الموجود فيها يتحمل عشر مرات، وفي اليد الثانية عشر مرّات كذلك فصارت عشرين، وبالرجل عشرة أي ثلاثين، والرابعة عشر فصارت أربعين، ففي حدود فتح الشريان وأخذ الدم كله منه وتصفيته بجهاز حديث ثم إرجاع الدم إلى جسم الإنسان تستغرق من الوقت ست ساعات، وكل مرة تكلّف مبلغاً لا بأس به، تكلف بالشهر ستة آلاف أو خمسة آلاف أو أربعة آلاف، أو تقدّم وثيقة أنك معفى من دفع ثمن التصفية.. وفي الأسبوع مرتان ويبقى بالمئة عشرون من البولة في الدم وتسبب ضيقاً بالنفس وبالمشاعر ونرفزة سريعة جداً وتسبب ضيقاً وانحطاطاً عامين في الجسم..

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

حجم معرفتك بالله هو نفسه حجم خوفك منه :

من يتحمل آلام الأورام الخبيثة؟ فالأورام الخبيثة لها آلام في البطن لا تحتمل:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هناك رجل كان يعتدي على الأعراض في بعض القرى، وكلما بلغه أن هناك إنساناً مسافر يتسور البيت ويعتدي على زوجته، فالله عزَّ وجلَّ أصابه بمرضٍ خبيث في عضوه.. أي الله عزَّ وجلَّ له موعظة كبيرة جداً:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

لا بد أن تخاف من الله خوفاً شديداً، يجب أن تخاف من الله بقدر علمك به، بالضبط إن حجم معرفتك بالله هو نفسه حجم خوفك منه، لذلك أشد الخلق خوفاً من الله هو سيدنا رسول الله.

وسيدنا عمر قال: والله لو أنزل الله في كتابه أنه معذب رجلاً واحداً لظننته أنا، من شدة الخوف. قال:

يا ليت أم عمر لم تلد عمر، ماذا فعل سيدنا عمر؟ قال: والله لو تعثّرت بغلة في العراق - وهو في المدينة - لحاسبني الله عنها، لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟ إذا قال: يا ليت أم عمر لم تلد عمر، يقول هذا الكلام حقيقة، أي هو خائف جداً:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أنا والله الذي لا إله إلا هو شيءٌ واحدٌ يثير عجبي، أن إنساناً تجاوز الأربعين وهو يعصي الله عزَّ وجلَّ، فما الذي ينتظره؟!!

((بادِرُوا بالأعمال سبعاً: هل تُنْظَرون إلا فقْراً مُنْسياً، أو غِنى مُطغياً، أو مَرَضاً مُفسِداً، أو هَرَماً مُفنِداً، أو موتاً مُجْهِزاً، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرُّ غائب يُنْتظَرُ، والساعة؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ))

[الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكّر قدرة الله عليك :

والذي لا يخاف من الله أحمق، والذي لا يخاف من الله غبي وشقي، اعلم أبا ذر أن الله أقدر عليك منك عليه.

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكّر قدرة الله عليك، نقطة دم كرأس الدبوس إذا تجمدت في أحد شرايين الدماغ، فمعنى ذلك شلل، أو جنون، أو فقد ذاكرة، أو فقد بصر، أو سمع، نقطة دم، بالنخامية وهي غدة وزنها نصف غرام بالضبط، هذه الغدة مسيطرة على جميع الغدد في الإنسان سماها العلماء ملكة الغدد، فلو تعطلت، بعض الغدد من بعض وظائفها إحداث توازن في السوائل في الجسم، فلو اختلت لكان على الإنسان أن يشرب في اليوم الواحد عشر تنكات من الماء وعليه أن يخرجها بولاً، إذاً عليه أن يبقى إلى جانب الصنبور والمرحاض طوال اليوم، لو اختلت بعض الغدد في الجسم، فماذا تفعل الكوليرا هذا الجرثوم؟!

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أحياناً عن طريق زلازل، أو صواعق، أو فيضانات، أو براكين، أو عن طريق لمس الإنسان للإنسان، أو عن جراثيم والكوليرا أخطر ما فيها أن الإنسان عندما يشرب ماء تنفذ السوائل من أمعائه إلى شرايينه عن طريق الامتصاص، جرثوم الكوليرا يعكس الآية، جميع ما في الجسم من ماء ينفذ إلى الأمعاء عبر غشاء الأمعاء، فالإنسان يفقد ماء جسمه في ساعتين أو ثلاث يخرج أربعين مرةً أو خمسين ماء ثم يموت من الجفاف، جرثوم لا يرى:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

ومرض الطاعون أوقف جيشاً بكامله، عندما احتل نابليون عكا، الذي حال بينه وبين احتلالها الطاعون:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

إذا ارتكب الإنسان الفاحشة فالأمراض الجنسية وحدها أكبر عقاب من الله عزَّ وجلّ :

قال تعالى:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

[سورة المدثر: 31]

الله عزَّ وجلَّ له جنود لا ترى بالعين، جراثيم وفيروسات والآن له جنود موجودون في أمريكا، مرض اسمه - الهربس - هذا مرض جنسي ناتج عن الانحلال الأخلاقي، مرض حياتي لا شفاء منه يصيب الإنسان بنوبات من الحُمى والإنتان والقشعريرة، وهذه النوبات تأتي في الأسبوع مرتين أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، أو في اليوم مرتين إذ ليس لها قاعدةً، هذا المرض ليس له دواء، وهذا المرض انتقل إلى قطر عربي بسبب أنهم اشتروا دماً من أمريكا:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فإذا الإنسان ارتكب الفاحشة، فالأمراض الجنسية وحدها أكبر عقاب من الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 22]

ذهب رجل إلى بلد وارتكب الفاحشة وله زوجة وأولاد، فرجع معه مرض ويخجل أن يتكلم مع زوجته، فمعنى ذلك أنه خانها، يغادر ويرجع ويتطبب خلال ست سنوات، وقال لرجل آخر: لقد احترق قلبي على هذه الغلطة..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

آيات قرآنية تبين عذاب الله سبحانه للضالين من عباده :

عندما تكون أخلاق الإنسان نظيفة وبدنه نظيفاً فإنه يكون سعيداً، فهذه الآية يجب أن تترك فينا أثراً بليغاً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الشعوب، الشعوب الضالة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

قال الله تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام:65]

كل شيء بيد الله سبحانه :

من آيات الله عزَّ وجلَّ:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أعرف شخصاً في أوج شبابه، له بيت، وله سيارة، وعمل يدر عليه أرباحاً طائلة، لكنه لا يعرف الله أبداً، ذهب إلى بلد عربي، ونزل في مسبح فجاءته جرثومة إلى عصبه السمعي فأتلفته، قيل لي: إنه دخل البيت، وارتمى على الأرض، وصار يبكي كالأطفال، يقول: أصبحت أطرشاً.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

سمعك بيده، بصرك بيده، يقول: أخي حدث انزلاق في الشبكية، فبيد مَنْ الشبكية؟ عمل عملية جراحية معقدة جداً أعطوها أربع تبشيمات في الشبكية ألصقوها، لكنه مهدد في كل لحظة أنّ تسقط الشبكية فيفقد بصره:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أمثلة واقعية تبين بطش الله تعالى :

الله عزَّ وجلَّ قادر أن يسلب للإنسان بصره، وأن يسلب له سمعه، ويسلبه صحته، وقوته، وإن كان سلبه عقله فأقرب الناس إليه يترجون أولي الأمر أن يكون له مكان في مشفى الأمراض العقلية، يكون بيته وهو اشتراه وزوجته تترجى وتتغطى وتذهب تريد مكاناً لزوجها وتقول: أهلكنا، فلم ننم الليل البارحة، فإذا أعطى الله الإنسان عقلاً متزناً فهو بنعمة، وإذا سلب منه عقله، لم يعد له مكان في البيت أبداً، إذ فقد مكانه في البيت، وفقد مكانه في العمل.

رجل تزوج امرأة جيدة ومستقيمة، ومتدينة ومستورة، فلم يعجبه هذا الشكل، أمرها أن تختلط مع أصدقائه حتى أخرجها من دينها، آلام في عينه لا تطاق من طبيب إلى طبيب، آخر شيء استقر عند طبيب لا بدَّ من قلعها، قلعت عينه ووضعت في كفه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

شخص آخر حصل على شهادات عليا، ووصل إلى أعمال راقية جداً، وعاش في بحبوحة كبيرة فقد بصره، ففي أول أسبوعين أو ثلاثة، يقول له المساعد: إنَّ المعاملة هذه مضمونة يقول له: موافق ثم يوقع، فبعد أسبوعين أو ثلاثة أو شهرين أعفي من منصبه، زاره صديق لي وهو صديقه أيضاً، قال له: والله يا فلان أتمنى أن اجلس على الرصيف وأتكفف الناس ولا أملك شيئاً من حطام الدنيا وأن يرد الله لي بصري:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

رجل يقطن في بعض أحياء دمشق وعنده رغبة كل يوم مساءً في الصيف طبعاً على طريق الصالحية أن يتمشى ذهاباً وإياباً، ولا يفعل شيئاً ولكنه يمتّع نظره بالجمال، إن الله جميلٌ يحب الجمال، نصحه جارٌ له وهو صديقٌ لي، نصحه نصائح كثيرة، قال له: أنت رجل ولك بنات وشباب، قال له: لا أعمل شيئاً، أنا أنظر فقط، هذا الإنسان أصيب بمرض اسمه ارتخاء الجفون، وإلى الآن موجود، إذا كان يريد أن يراك يمسك جفنه ويقول: أهلاً وسهلاً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

كلما همّ الإنسان بمخالفة الله عزَّ وجلَّ عليه أن يذكر الآية التالية :

في الدنيا يوجد أشياء لا تحتمل، ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، البصر غالٍ، والسمع غالٍ، والصحة غالية، والحركة غالية جداً، وتوجد أمراض تكلُّس المفاصل يصبح الإنسان قطعةً واحدة، لا حركة ولا سكنة ملقى على ظهره، أي على سرير وإذا الإنسان ظل ملقى على ظهره أياماً طويلة، يتعفن اللحم، أي يتحلل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

وكلما همّ الإنسان بمخالفة الله عزَّ وجلَّ يذكر هذه الآية:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

شيء مخيف، مدينة تقع على سفح بركان في إيطاليا اسمه بركان فيزوف، ثار هذا البركان، وقذف هذا البركان رماداً بركانياً حرارته خمسمئة درجة غطّى المدينة بأكملها بارتفاع ثمانية أمتار، عرفوا خلال

ساعات أن المدينة جمدت وطبعاً مضى عليها عشرات السنين ومئات السنين، وقبل عشرين أو ثلاثين سنة وهم ينقبون في هذا المكان وجدوا حفرة، وبعد ذلك وجدوا آثار مدينة ضخمة، وهذه الفراغات حقنوها بجبصين سائل فرأوا أماً تعانق ابنها في الفراغ، الأم فنِيَت لكنها تاركة فراغاً فقط، هناك مقالات في مجلات علمية حول هذا الموضوع شيء مذهل، مناظر الخوف والهلع، كان هذا أثناء تناول طعام الغداء، وصف العلماء ما كان على الموائد، كان يوجد جوز وعنب على المائدة، وجاء هذا الرماد فالإنسان يموت إما احتراقاً أو اختناقاً، حتى أن بعض النساء في القصور كانت تبحث عن حليِّها لتأخذه وتغادر، المساجين في السجون، إنها مدينة رومانية عريقة بالحضارة جمدت ألف عامٍ والآن هناك مقالات مطولة وصور مذهلة عن آثار هذه المدينة، وأيضاً هناك مدينة أغادير في المغرب في ثلاث ثوانٍ بالضبط أصبحت قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، ويوجد فيها فندق يبلغ ارتفاعه ثلاثين طابقاً – Holiday inn - هذا الفندق هبط كلّه وبقي منه متر واحد فقط، وبقيت اللوحة الكبيرة التي كتب عليها عنوان الفندق، إلى الآن إن ذهبت إلى هذه المدينة تجد على الأرض لوحة كبيرة مكتوباً عليها اسم الفندق هذه اللوحة كانت مثبَّته على الطابق رقم ثلاثين.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

الذي يبطش البطش الشديد هو نفسه الخالق الذي يبدئ ويعيد :

قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

يوجد على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، وتوجد مصائب طبيعية، كالزلازل والبراكين، وتوجد مصائب إنسانية، فكثيراً ما حدثت غزوات تمت من شرقي آسيا، هولاكو وتيمورلنك، سألوا مرة تيمورلنك: من أنت؟ قال: أنا غضبة الرب.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

إنه الذي يبطش البطش الشديد هو نفسه الخالق الذي يبدئ ويعيد، أي يبدأ الخلق ثم يعيده هذا الطفل يكبر، يكون جنيناً، أصبح رضيعاً، ثم طفلاً، ثم صبيّاً، ثم شاباً فرجلاً فكهلاً فشيخاً، ثم توفي، ابنه يكبر وهكذا.. فكل واحد منا له دورة، جاء ابنه مكانه:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

دورة الكائنات :

الحيوانات كذلك:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

والنبات كذلك، فمن عنده بستان، هذه الشجرة حطب يابس جاء الربيع فأزهرت وأورقت، ثم أثمرت وأينعت وقطفت، ثم أوراقها سقطت وعادت حطباً، ثمَّ أزهرت، فأورقت، فأثمرت ثم أينعت، فقطفت، فسقطت أوراقها:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

هذا الورق المتساقط يدخل في التراب ويتحلل ويصبح غذاءً للتراب، كل شيء تنتجه النباتات يتحلل ويصبح في خدمة نمو النباتات:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

قال لي شخص عنده بستان: أغلى شيء السماد الطبيعي، يصبح للأشجار المثمرة نكهة لذيذة جداً، سبحان الله هذا السماد أي روث البهائم، أكلت وهضمت وأخرجت الفضلات والفضلات ساهمت في بناء التربة مرةً ثانية:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

دورة، الإنسان له دورة إذ يولد ووزنه ثلاثة كيلوغرام، والآن وزنه اثنان وسبعون، أربعة وسبعون، أو ستة وسبعون أو ثمانية وسبعون، اطرح ثلاثة من ثلاثة وثمانين فيصبح وزنك ثمانين كيلو من أين جاءت هذه الزيادة؟ من الغذاء، من الطعام والشراب، يموت ويوضع في التراب فتفتح القبر فتجد عظاماً، فأين بقية الجسم؟ غدت تراباً:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

التكفير غير المغفرة :

هذا الإنسان، والحيوان كذلك، والنبات أيضاً، الآن في أحدث النظريات المجرات تنفجر وتصبح رماداً ثم بعد ملايين السنين تتجمع وتصبح مجراتٍ جديدة.

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

فمن الذي يبدئ ويعيد؟ من الخالق؟ هذا بطش الخالق، بطش رب العالمين.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

أي خفنا كثيراً والله لكن:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

انظر إلى القرآن المتوازن:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

الغفور بمعنى الشافي، هناك فهم ساذج لهذه الآية، أن فلاناً ارتكب ذنباً فقال: اسمح لي. قال له: اذهب لا شيء عليك. ليس هكذا، هذا معنى ساذج للمغفرة، المغفرة شفاء، أي هذا الذي ارتكب الذنب نفسُهُ مريضة، أقبل على الله بعد التوبة فجاء النور الإلهي فشفى نفسه من هذا المرض، أي إذا غفر لإنسان شفيت نفسه بنور الله، الصلاة طهور، أي بها يطهِّر الإنسان من ذنوبه، وهذه هي المغفرة، التكفير غير المغفرة، التكفير حينما يفنى الإنسان، وتفنى هذه الذاكرة، حينما يبعث مرةً ثانية لا يذكر من أيام جاهليته شيئاً، أما في الدنيا فلو تاب الإنسان واستقام وأقبل وطهرت نفسه فبذاكرته أعماله في الجاهلية وهذه أحياناً تنغِّص عليه سعادته، بعد التوبة والاستقامة والعمل الصالح والإقبال والطهر والسمو، فبذاكرته ما فعله في الجاهلية، الآن غفر له لكنه إذا مات وفني جسمه فهذه الذاكرة تحللت، إذا بعثه الله مرةً ثانية، لا يذكر من أيام جاهليته شيئاً، هذا هو التكفير، ولذلك فالأنبياء لا يفنون، والشهداء لا يفنون، لأنهم فعلوا عملاً يغطي على كل شيء إن كانوا شهداء، وإن كانوا أنبياء أطهاراً مطهرين منذ الولادة وحتى الوفاة.

الله عز وجل غفور ودود :

قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

أحياناً الإنسان يعفو عنك، هذا غفور، يقول لك: سامحناك يا أخي، اسكت لا تتكلم ولا كلمة، وليس كذلك فالله عزَّ وجلَّ غفور ودود، ودود أي محب، أنت استغفرت، هو يشفيك ويمنحك شيئاً من مودته، من أسماء الله الودود، من أسماء الله المُقيت، الهواء والماء والخبز مقيت، لكن الودود جعل لك أزهاراً، شاهدت مجلداً مؤلفاً من ثمانية عشر جزءاً، كل جزء عرضه ثمانية سنتيمترات، كل ورقة فيها رسم لزهرة غير التي تليها، أنواع منوعة، ماذا نسمي هذه الورود والرياحين والألوان والأشكال والروائح الشذية تحت اسم ماذا؟ تحت اسم الودود، الألوان تحت اسم الودود، جمال الطفل تحت اسم الودود.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف: 46]

تنوّع الطعام تحت اسم الودود، الفواكه تحت اسم الودود، فصل الربيع تحت اسم الودود:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتودد إلينا بهذه النعم المنوعة، بهذه الأزهار وبهذه الأطيار والأسماك والرياحين والمناظر والهواء العليل يتودد إلينا.

معنى الودود :

قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

فالودود لها معنى عام، أي هذه النعم التي تزيد عن حاجتنا، فالإنسان يأكل خبزاً وقمحاً وما شاكل ذلك، هذه هي حاجته الأساسية لكن أيضاً جعل له موالح، وجعل له شاياً وقهوة، فهذا من خلق الله عزَّ وجلَّ، جعل له فواكه منوعة، ومسرَّات منوعة، فهذه كلها تحت اسم الودود.

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

على المستوى الجماعي، أما على المستوى الفردي فكل إنسان عندما يستقيم على أمر الله ويتوب إلى الله توبة نصوحاً فالله عزَّ وجلَّ يعامله معاملة تفتنه، ما هذه المعاملة؟ لطف وتيسير أمور وشعور بالراحة والسرور.

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

العرش المُلك، أي بتعبير آخر الكون، صاحب الكون، الإنسان يكون صاحب مزرعة فيمشي بالعرض، يقول لك: هذه مزرعة لي، أنت تقول: الملك لله مزرعة فلان..

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

أمر الله هو النافذ ولا تستطيع جهة في الأرض أن تحول بينه وبين ما يريد :

كلُّ هذا الكون بمجراته، أحدث رقم مليون مليون مجرة، كشفوا منها ألف مليون، بالمجرة يوجد عشرة آلاف مليون، ويوجد ثلاثة عشر مليوناً، ومئة وثلاثون ألف مليون في كل مجرة، وبعض النجوم يزيد حجمه عن الشمس ثلاثين مليون مرة، ثلاثين مليون مرة زيادة عن حجم شمسنا، وشمسنا زيادة عن أرضنا مليون وثلاثمئة مرة، والأرض معروفة أربعة أخماسها بحر:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

المجيد أي العظيم، السامي، العالي، العليّ:

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ* فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي أمره هو النافذ، لا تستطيع جهة في الأرض أن تحول بينه وبين ما يريد:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي إذا كنت مع من هو:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أقوى بكثير من أن تكون مع الذي لا يستطيع أن يفعل ما يريد، سيدنا داود قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

المغزى من قصة سيدنا يوسف أنّ الله فعال لما يريد :

بيد الله عزَّ وجل، فالله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي أمره هو النافذ:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

[سورة الأنعام: 18]

أنت تريد وأنا أريد، عبدي أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد. الله سبحانه وتعالى:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

ربنا يعلمنا، سيدنا يوسف ماذا أراد به أخوته؟ تعلمون القصة الطويلة مغزاها في كلمةٍ واحدة، قال تعالى:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 21]

إخوته جميعاً أرادوا به كيداً، وضعوه في غيابة الجب، الله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

فجعله عزيز مصر.

قصص بليغة جداً تؤكد أن كل شيءٍ بأمر الله فأمره هو النافذ :

سيدنا موسى:

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى*أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 38-39]

سيدنا موسى رُبِّي في قصر فرعون، كان يخاف من طفلٍ من بني إسرائيل يقضي على ملكه، فأمر بقتلهم جميعاً.. الذي سوف يقضي على ملكه رباه في قصره:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

[سورة القصص: 8]

هذه القصص بليغة جداً.. كل شيءٍ بأمر الله، أمره هو النافذ.. فالواحد لا يظن أنَّ باجتهاده أو بذكائه يفعل ما يريد.. لا يفعل الله إلا ما يريد، وأنت ضمن إرادته.

ربنا عزَّ وجلَّ كنَّى بكلمة (فرعون) عن قوم فرعون :

قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ*فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

الدليل:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)

من هم؟ قال:

(فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

من فرعون وثمود؟ ففرعون اسم فرعون، وثمود اسم قوم، فكيف جمع الله اسم رجل مع اسم قوم؟ قال: هذه إشارة إلى أنَّ قوم فرعون ذابوا في فرعون، ذابت شخصيتهم كلها في فرعون، فإذا قلنا فرعون، نعني بهذه الكلمة قوم فرعون فقد قال الله تعالى:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر: 9-11]

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

أي إن هؤلاء ذابوا جميعاً، ذابت شخصيتهم ولم يبق في هذا المجتمع إلا فرعون، فربنا عزَّ وجلَّ كنَّى به عن قوم فرعون.

الله عز وجل

محيطٌ بدقائق أعمال الكفار فأعمالهم كلها تحت إشرافه ومراقبته :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ *فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

أي أهلكهم الله عزَّ وجل وهذا تأكيد قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

والمقصود بالذين كفروا كفَّار قريش، أي على الرغم من كلِّ هذا، قومك يا محمد يكذِّبونك، ولم يقل يكذبونك:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

هذه في الظرفية، أي هم في حالةٍ من التكذيب، هم غارقون في كل أنواع التكذيب، أي كما قال أحدهم: لم أر أشدَّ صمماً من الذي يريد ألا يسمع، قال الله تعالى:

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الزخرف: 22]

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

معنى محيط هنا، أي محيطٌ بدقائق أعمالهم، أعمالهم كلها تحت إشرافه ومراقبته.

سمو القرآن الكريم وفضل قراءته :

أحياناً الإنسان يعمل عملاً ويظنُّ أنَّ فلاناً لا يراه، فلان يصوره، يريه شريطاً، فيقول أعوذُ بالله، كلُّ الذي فعلته مسجلٌ عليك، ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

أي كلّ أعمالهم وكلّ حركاتهم وكلّ سكناتهم وجميع تصرفاتهم وتجاوزاتهم وطُغيانهم، كلُّه في علم الله عزَّ وجلَّ وفي قبضته:

(وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

المعنى الثاني: والله قادرٌ عليهم في كلِّ لحظة من لحظاتهم أن يهلكهم:

(وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

أي لا حدود لعلوه، ولا حدود لسموه، وشرفه، وعظمته:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

أي لو أنكم جعلتم هذا الكتاب كتابكم الأوحد، فالقرآن غنىً لا فقر بعده، من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، من تعلم هذا الكتاب فهو أمانٌ له من الخرف، لا يخرفُ إنسانٌ قرأ القرآن وتعلمه، قارئ القرآن لا يحزن أبداً، لا يوجد داعٍ أن يحزن فكله قوانين واضحة، وهذه القوانين بمنزلة مقدمات، ونتائج حتمية.

لا يحزن قارئ القرآن لأنه يرى أموره كلها بيد الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

الحياة:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وابشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

لا يحزن قارئ القرآن، يرى أموره كلها بيد الله عزَّ وجلَّ، وهو الرحيم، الحنون، اللطيف، السميع، البصير، القدير، الغني، المحب.

من نعمة الله عزَّ وجلَّ أنه حفظ لنا كتابنا :

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

بعضهم قرأ: في لوح محفوظٌ، أي بل هو قرآنٌ محفوظٌ في لوحٍ، إذا قلنا محفوظٌ في لوحٍ، أي من الزيادة والنقصان، وإذا قلنا:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

أي اللوح محفوظ من الزيادة والنقصان، وإذا كان محفوظ للقرآن من التبديل والتغيير، إما أن تكون محفوظ صفة للقرآن:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

أي محفوظٌ من التبديل والتغيير، وإذا قلنا في لوحٍ محفوظٍ فمن الزيادة والنقصان.

أحياناً يصورون بعض الخرائط على أفلام صغيرة، يضعونها في أماكن أمينة حتى لو احترقت مثلاً يقول: عندنا صور مايكرو فيلم لكل هذه المصورات.. فربنا عزَّ وجلَّ، هذا الكتاب، أي القرآن الكريم في لوح محفوظ، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبدل، ولا يحرّف، ولا يغيّر، ولا أي شيء يطرأ عليه. قال الله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر: 9]

ومن نعمة الله عزَّ وجلَّ أنه حفظ لنا كتابنا، وهذا الكتاب حفظ لنا لغتنا، فلا يوجد بالعالم أمة أطفالها الآن يقرؤون في الصف العاشر ما كتبه شعراءٌ قبل ألفٍ وخمسمئة عام بفضل كتاب الله، أما اللغة الإنكليزية، ما كتبه شكسبير في عام ألف وستمئة تقريباً الآن يترجم ترجمة إلى اللغة الإنكليزية، هذه اللغة تبدّلت، وتغيَّرت، وتطورت، لكن الله عزَّ وجلَّ حفظ القرآن فحفظ لنا لغتنا، مئة مليون إنسان يتكلمون لغة واحدة هذا شيء من فضل الله عزَّ وجلَّ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطارق 086 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-8 ، حقائق عن السماء وخلق الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

السماء شيءٌ عظيمٌ جداً ولا يعرف عظمتها إلا أولو العلم :

سورة اليوم سورة الطارق، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

الله سبحانه وتعالى ذكر في مطلع هذه السورة السماء، ومنهم من يقول إنَّه أقسم بالسماء، وقد حدثتكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى في قرآنه العظيم مرةً يقول أقسم، حينما يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

ومرةً يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

يمكن أن نفهم أن هذا الشيء الذي أقسم الله به بالنسبة إلينا لأن السماء شيءٌ عظيمٌ عظيم، ولا يعرف عظمتها إلا أولو العلم، ولذلك قال الله عزَّ وجل:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

الأنبياء رأوا من ملكوت السماوات والأرض ما جعلهم يخضعون ويعظّمون الله تعالى :

نحن نعرف عن السماء بقدر ما توصل إليه العلم، وكلّما زاد العلم في معرفته للسماء كان فهمنا لهذه الآية أعمق وأكبر، لكنَّ الأنبياء رأوا من ملكوت السماوات والأرض ما جعلهم يخضعون ويعظّمون الله سبحانه وتعالى.

فالسماء، نحن إذا ركبنا سيارة وتجاوزت سرعتها المئة شعرنا باضطراب، فإذا ركبنا طائرة، فسرعة الطائرة التجارية تسعمئة كيلو متر في الساعة أو ألف ومئتا كيلو متر، يركب الناس اليوم طائرةً أسرع

من الصوت تقلُّهم من أوروبا إلى أمريكا في ساعتين وأكثر، الإنسان الذي ذهب إلى القمر ركب أسرع مركبة على وجه الأرض وتبلغ سرعتها أربعين ألف كيلو متر في الساعة، فالطائرة التجارية تسعمئة، وبعض الطائرات ألف ومئتان، وبعضها ألف وستمئة وخمسين، أما أن يركب الإنسان مركبة سرعتها أربعون ألف كيلو متر في الساعة فهذا شيءٌ جديد، وبقيت هذه المركبة تسير في الفضاء الخارجي أياماً ثلاثة حتى وصلت إلى القمر.

ماذا قطعت من الفضاء الخارجي؟ قطعت ثانية ضوئيةً واحدة، ما يقطعه الضوء في ثانية قطعه الإنسان في ثلاثة أيامٍ على متن مركبةٍ سرعتها أربعون ألف كيلو متر في الساعة، وهذا المشروع كما يقول بعض العلماء كلَّف أربعة وعشرين ألف مليون دولار، واسمه مشروع أبولو، وماذا قطع الإنسان؟ ثانية ضوئيةً واحدة.

فما قولك بالشمس!! الشمس تبعد تسعين مليون ميل ويقطعها الضوء في ثماني دقائق، فلو أردت أن تصل إلى آخر نجمٍ من نجوم المجموعة الشمسية يحتاج الضوء إلى ثلاث عشرة ساعة، فإذا أخذنا الأبعاد بالزمن فقطر المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، والشمس ثماني دقائق، والقمر ثانية، أقرب نجم إلى الأرض من غير المجموعة الشمسية أربع سنوات ضوئية ويوجد أربعة آلاف سنة، فمجرة درب التبَّانة قطرها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، والقمر ثانية، وعرضها خمسة عشر ألف سنة ضوئية، هذا درب التبَّانة ومن هذه المجرة يوجد مليون مليون مجرة، وبعض المجرات بعدها عنا اثنا عشر ألف مليون سنة ضوئية، فعندما يقول ربنا عزَّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ)

كل إنسان يفهم هذه الكلمة بحسب ما يعرف عن السماء.

معنى كلمة (السماء) :

لذلك قال بعضهم: نحن نفهم الأشياء كما نحن عليها، وليست كما هي عليها بل كما نحن عليها، يجوز للإنسان أن تكون معلوماته عن السماء محدودة فإذا قرأ:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

يتصور الفضاء الذي فوق رأسه وهذه هي السماء، وبعضهم قال: كلُّ ما علاك فأظلَّك فهو سماء، أما سيدنا رسول الله اللهم صلّي عليه سأله بعض الصحابة: يا رسول الله لو حفرت تحت قدمي هذا هل أرى السماء؟!! قال: نعم، فمعنى ذلك أنَّه اللهمَّ صلِّ عليه رأى أنَّ الأرض كرة وأن السماء هو ما يحيط بالكرة، وأن الكرة إذا ثقبتها من طرف، نظرياً طبعاً، لا بدَّ من أن تصل إلى الطرف الثاني، فقال هذا

الصحابي الجليل: يا رسول الله لو حفرت تحت قدمي هذا هل أرى السماء؟!! قال: نعم، فكل إنسان بحسب ما يعرف عن السماء يعظِّم ربَّ السماء، بعض المجرّات اثنا عشر ألف مليون سنة ضوئية، وبعض النجوم حجمها ثلاثون مليون ضعف عن شمسنا، وبعض الكازارات فيها قوة انفجار تعادل واحداً أمامه ستة وأربعون صفراً عن أكبر قنبلة هيدروجينية فجِّرت على وجه الأرض، فعندما يقول ربنا:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِق)

أي أن هذه آيةٌ عظيمة لنا، نحن نعيش في جو الأرض ولكن روَّاد الفضاء رأوا الأرض كرة جميلة، رأوا بعض القارّات من القمر، بعض الأماكن خُضراً، وبعضها بيضاً بفعل السحب، وبعض الأماكن زرقاً فالأرض كرة، ولو أن إنسان أثار الغبار في غرفته تحت ضوء الشمس فرأى ذرةً عالقةً في ضوء الشمس قال: هذه تشبه الأرض بالنسبة إلى الكون، ذرة، فقد تجد الهواء يحمل ذرات الغبار، وتحت أشعة الشمس يرى الإنسان هذه الذرات فما الأرض إلا ذرةٌ بالنسبة لجو الغرفة، لذلك عندما يقول ربنا عزَّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِق)

بعض الحقائق عن السماء :

على الإنسان أن يعرف ماذا تعني كلمة السماء، مرة قمت بإجراء حساب بسيط، أقرب نجم إلينا يبعد عن الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية، فلو كان هناك طريق معبَّد إليه فنحتاج إلى سبعة وعشرين مليون ملْيون مليون سنة بسيارة حتى نصل إليه، فهذا أقرب نجم، لذلك هذه الآيات لا يعقلها إلا العالمون، لا يعقلها إلا من فكَّر في ملكوت السماوات والأرض:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

حركة الكواكب، لكل كوكب فلك، ونظام التجاذب، ونظام العطالة، والقوة النابذة، والقوة الجاذبة، والكتل واختلافها، فهذه بعض الحقائق عن السماء، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِق)

ماذا في السماء؟ السماء فراغ ويوجد فيها نجوم، وهذه الآية شملت الفراغ والنجوم معاً، قال: الطارق الله سبحانه وتعالى عرَّفه:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

على قدر تفكرك في السماوات والأرض تعظِّم رب السماء :

قال: هذا النجم، هذه الألف واللام ألف الجنس، لا يقصد بهذه الكلمة نجماً معيناً، إنما جنس النجوم، تقول مثلاً التفاح ذو قيمة غذائية عالية، أي تفاحة هذه، المعنى جنس التفاح، إذا قال الله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

أي نجمٍ؛ فالسماء فيها فضاء وفيها نجوم، وكلمة (والسماء والطارق) شملت الفضاء والنجوم والكواكب السابحة في هذا الفضاء، أما هذا الفضاء أين حدوده؟ هذا لا نعلمه ولا أحد يعلمه، فهو شيء قد لا يصدقه العقل، هذا النجم أو هذه المجرة التي قال عنها العلماء تبعد عنا اثني عشر ألف مليون سنة، فالشيء الذي لا يصدق أننا حينما رأيناها اليوم أي وصل إلينا ضوؤها اليوم، منذ متى خرج منها هذا الضوء؟ منذ اثني عشر ألف مليون سنة، اليوم رأيناها لكن أين هي الآن؟ لا يعلمها إلا الله لأنها متحركة، إن قلنا: هذا النجم يبعد عنا اثني عشر ألف مليون سنة، أي هذا الضوء الذي وصل إلينا اليوم كان قد صدر منه قبل اثني عشر ألف مليون سنة، والآن المركبات الفضائية مثل الصياد تماماً عندما يصوب البندقية على طائر يبعدها باتجاه حركته، يحسب المسافة إذا أطلق هذه الرصاصة يجب أن تصل إلى مكان وصل إليه بعد زمن الإطلاق، فالكواكب متحركة كلُّها، ومن يصدق أن بعض المجرات حركتها تقترب من سرعة الضوء، مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، من يصدق أن حركة الشمس في دورانها حول نجم في المجرة تستغرق دورتها مئتي مليون سنة؟ أرقام الفلك تكاد لا تصدق لعظمتها ولكنها واقعة، ولكن العلماء الذين رصدوا هذه النجوم وأجروا هذه الحسابات حينما وصلوا إلى هذه ما كان يعنيهم أن تكون تلك الحقائق في خدمة الإيمان ولكن هذا الذي حصل، والسماء والطارق، ولذلك فسيدنا علي رضي الله عنه يقول: في القرآن آيات لم تفسّر بعد، فعلى قدر معرفتك تفهم هذه الآية وعلى قدر تفكرك في السماوات والأرض تعظِّم رب السماء، ولذلك، لا عبادة كالتفكر، تفكر ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين عاماً:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

نحن نعرف ما يسمح الله لنا به وما سوى ذلك فموكولٌ إلى علم الله عزَّ وجل :

ما معنى كلمة: الطارق؟ نقول: طرق الباب، أي ضربه فأحدث بهذا الضرب صوتاً وجلبة ومنها المطرقة، طرق الطريق أي سمع وقع أقدامه على هذا الطريق، طرق بمعنى ضرب. والطارق

الضارب، وسمي الطريق بهذا الاسم لأن الإنسان يطرقه، ثم سمي هذا الذي يسير في الطريق طارقاً، ثم سمي هذا الذي يسير في الطريق ليلاً هو الطارق، ثم صار كلُّ شيءٍ يأتيك يسمى طارقاً، وفي بعض الأدعية: اللهم إنا نعوذ بك من طوارق الهم، فصار الطارق كل شيء ينتابك، فإذا عممناها ووسعناها كل شيء يطرق هذه النفس، يصل إليها من شيءٍ مادي أو معنوي. فربنا عز وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

إذا قال: وما يدريك، فالله سبحانه وتعالى سوف يدريك، لكنه إذا قال: وما أدراك فهذا شيءٌ لا يستطيع الإنسان أن يحيط به، نحن على كوكبٍ من هذه الكواكب فأنَّى لنا أن نعرف حقيقة النجوم وعددها ومساراتها؟ إننا نعرف ما يسمح الله لنا به، وما سوى ذلك فموكولٌ إلى علم الله عزَّ وجل.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

انظر إذا كان هناك ظلام دامس فالنجم قد يثقب هذا الظلام فيكشف حقيقته، والضوء يثقب الظلام نقول: قطع السكون هذا الصوت، وثقب الضوء هذا الظلام.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

هذا هو القسم أين المقسم به؟ المقسم به:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

التناسب بين القسم وبين موضوعه تناسب ضروري :

ما موضوع القسم؟

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

قال بعضهم: يجب أن يكون هناك تناسب بين القسم وبين موضوعه، بين المقسم به وبين المقسم عليه:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

جواب القسم:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

ما هو الحفظ؟ من معاني الحفظ الرعاية والعناية، ومن معاني الحفظ الرقابة والرصد، فيا ترى أيُّ المعنيين في هذه الآية أقرب إلى السياق:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

(لمَّا) في القرآن الكريم لها ثلاثة معانٍ :

ما هذا التركيب؟ وما معنى لما؟، (لمَّا) في القرآن الكريم لها ثلاثة معانٍ:

1 ـ (لمَّا) حرف نفي تنفي الماضي ويمتد هذا النفي إلى الزمن الحاضر :

المعنى الأول: ربنا عز وجل يقول:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

إذاً (لمَّا) حرف نفي تنفي الماضي ويمتد هذا النفي إلى الزمن الحاضر، أي إذا قلنا لما يحضر المدرِّس، أي لم يحضر، وإلى الآن لم يحضر لكن حضوره متوقع، فهذا معنى (لمَّا) بالضبط والآية واضحة:

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

أي حتى الآن لم يدخل الإيمان في قلوبكم.

2 ـ(لمَّا) حرف وجود لوجود :

المعنى الثاني من معاني (لمَّا) قال تعالى:

(فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة: 76]

قال: هي حرف وجود لوجود، أي تبيّن وجود شيء لوجود شيءٍ آخر، متى بخلوا؟ لما آتاهم من فضله.

3 ـ (لمَّا) بمعنى إلا :

المعنى الثالث، والذي تعنيه هذه الآية حرف استثناء، وإن مخففة، وهي حرف نفي، أي ما من نفسٍ إلا عليها حافظ، لم يعد هناك خلوة، وأي خلوة هذه، كل نفسٍ عليها من الله رقيب وما من نفسٍ إلا والله رقيبٌ عليها، وما من نفسٍ إلا والله يرصد حركاتها وسكناتها:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

إن أي ما، (إن كل نفس لمّا): إلا، بمعنى إلا عليها حافظ.

أحد مراتب الإيمان أن تشعر أن الله يراقبك فلم تعد هناك خلوة :

هل هناك فرق بين لها حافظ وعليها حافظ؟ هناك فرق كبير، إذا قلنا: لها حافظ، أي هذا الحفظ حفظ الرعاية، وإذا قلنا: عليها حافظ، فهذا حفظ الرقابة، إذاً فالإنسان تحت رقابة الله عزَّ وجلَّ، وبعض الصوفيين قالوا: هذا مقام المراقبة، أحد مراتب الإيمان أن تشعر أن الله يراقبك، فلم تعد هناك خلوة، قال رسول الله صلى الله عيه وسلم:

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

يا ترى نحن كفهم تطبيقي لهذه الآية، هل يحس أحدنا في خلوته وفي جلوته، في بيته وفي غرفته، وفي عمله وحده ومع الناس أن الله عليه حافظ؟ أي رقيب، فكأن رقابة الله عزَّ وجلَّ مستمدةٌ من عظمة الخلق، كما قلت قبل قليل لا بدَّ من انسجامٍ بين المقسم به والمقسم عليه، بين القسم وموضوع القسم:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

المقسم عليه هو:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أي أن هذه الآية ينبغي أن تأخذ منا مأخذاً كبيراً، إذا شعر الإنسان أن الله شهيدٌ عليه ورقيبٌ عليه وبالمرصاد انتهت المشاكل كلها، لماذا انتهت؟ لأنه سوف يستقيم، وإذا استقام سوف يقبل على الله عزَّ وجلَّ، وإذا أقبل عليه سعد به، فهذا قانون إن رأيت الله رقيباً خشيته واستقمت على أمره، وإن استقمت على أمره أقبلت عليه وسعدت بقربه، هذا هو كلُّ الدين، وإن رأيته بعيداً لا يرى تصرفاتك ولا يطَّلع على خائنة الأعين، يعلم خائنة الأعين.

الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :

أي إذا الإنسان دخل بيت صديقه وتركه في الغرفة وحيداً وخرج، وشعر هذا الضيف أن هناك حركةً أمام الباب فنظر، طبعاً المؤمن لا ينظر لعلها تكون امرأةً أو أخته أو أمه، هو نظر، مَن علِم بهذا النظر؟ لا يعلم إلا الله، امرأة أمام طبيب يفحصها نظر إلى مكانٍ من جسمها لا تشكو منه، من يعلم هذا؟ الله سبحانه وتعالى، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فالذي يعلمه الله لا يمكن لمخلوقٍ على وجه الأرض أن يحاسبك عليه، لكن الله يحاسبك عليه هو وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالإنسان إذا آمن بهذه الآية ومدلولها ومضمونها أن كل نفسٍ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أعمالها كلها مكتوبة على صفحة، حركاتها، ونياتها، ونوازعها، وما تضمر وما تبطن، وما تسر وما تعلن، وما تقول وما تفعل، كله تحت رقابة الله عزَّ وجلّ:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة المجادلة: 6]

إذا بلغت هذه المرتبة فأنت مؤمن، لأنك استقمت حتماً، فالإنسان أمام الناس هل يفعل فعلاً يستحي منه أو يخجل، فإذا كنت تجلس أمام إنسان ممكن أن تضع يدك في أنفك؟ تخجل، فإذا كنت أمام إنسان عادي تخجل أن يفعل شيئاً لا يليق، فكيف إذا كنت تحت رقابة الله عزَّ وجلَّ؟!!

(إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)

[سورة الأحزاب:52]

الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى :

ما العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به؟ كيف أنّ النجم يثقب الظلام ويكشف أسرار الليل وكذلك الله عزَّ وجلَّ يكشف ما كمن في هذه النفس، وما أضمره الإنسان في نفسه، كما أنَّ النجم يثقب الظلام كذلك الله عزَّ وجلَّ يكشف خبايا النفوس، ويكشف خواطرها ونوازعها وميولها ونياتها وما تعلن وما تضمر.

(إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أي كأن آية:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

شملت الكون كله، السماء أي الفضاء، والطارق النجم، والكون فضاءاً ونجوماً، وأشكالها وحجومها وأبعادها وقوامها ومادتها، فهذا نجم غازي، وهذا ملتهب، وهذا نجم بارد، وهذا صلب، وهذا كبير، وهذا صغير، وهذا مفتت، وهذا غير مفتت، هذا سرعته ثلاثون كيلو متر في الثانية مثلاً أي سرعة الأرض حول الشمس، والشمس مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية حول مركزها في المجرة، وسرعة النجوم وأحجامها وأشكالها كلها منطوية بكلمة:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

هذا الكون، الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف طرفاً من علمه فكّر في الكون، علم هائل، وهذه الأرض بميل محورها، ما هذا الميل؟! قبل ميل المحور بدورانها تشكل الليل والنهار، ولولا دورانها لما كان ليلٌ ونهار، وإذا كانت لا تدور فمعنى ذلك أن النهار ثابت والليل ثابت، وإذا النهار

ثابت أي الحرارة مئتان وخمسون فوق الصفر فهذه حياة مستحيلة، وإذا الليل ثابت فالحرارة ثلاثمئة وخمسون تحت الصفر، أيضاً فالحياة مستحيلة، بدورانها تشكّل تنوع الليل والنهار على سطحها. لولا الهواء، الهواء جهاز تكييف، أيضاً والحرارة ترتفع إلى درجة قاتلة وتهبط إلى درجة قاتلة، أما الهواء فيعدل الحرارة، إذاً الهواء من آيات الله، والهواء ينقل الصوت والحرارة والبرودة والضوء ويفعل انتثاراً للضوء، فالهواء له ميزات كبيرة جداً.

لا يستخفُّ برقابة الله عزَّ وجلَّ إلا الجاهل والأحمق فنحن مراقبون من قبل المولى :

الآن إذا كان المحور ليس مائلاً فكل منطقة على وجه الأرض لها فصلٌ ثابتٌ إلى أبد الآبدين، فهذه المنطقة صيف، وهذه ربيع، وهذه شتاء، وهذه خريف، لكن بميل المحور تبدَّلت الفصول على وجه الأرض فأصبح لكل منطقة في الأرض صيف وشتاء وخريف وربيع، ومن تبدُّل الفصول أمكن للنبات أن ينمو، وأن يثمر وأن نأكل منه، إذاً ميل المحور لو مال المحور تسعين درجة حتى أصبح موازياً لمستوي الدوران، كأن الأرض لا تدور، فالدوران هكذا، والشمس من هنا، ونصف الكرة يتمتع بأشعة الشمس دائماً، ونصفها الثاني محرومٌ من أشعة الشمس دائماً، فآيات دقيقة جداً، فهذه:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِق *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

بقدر ما في هذه الآيات من عظمة، فهناك رقابة الله علينا من حساب، لا يستخفُّ برقابة الله عزَّ وجلَّ إلا الجاهل والأحمق والغبي، فنحن مراقبون من قبلِ المولى عزَّ وجلَّ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

توجد آيات أخرى قال الله تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الانفطار:10-12]

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)

[سورة الأحزاب:52]

رأس الحكمة مخافة الله :

هذه آية ثالثة، كلٌّ هذه المعاني تتلاقى مع هذه الآية:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

لذلك شخص سأل شيخاً عن معصية الله عز وجل، فقال له هذا الشيخ – وهو إبراهيم بن الأدهم - مقولة غير مقبولة إطلاقاً، قال: اعصِ الله ما شئت ولكن إذا عصيت الله فاحرص على ألا تسكن أرضه،

قال له: وأين أسكن إذاً؟ قال له: تسكن أرضه وتعصيه؟ قال له: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه، قال له: وماذا آكل إذاً؟ قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه!! قال له: هات الثالثة، قال له: إذا أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكانٍ لا يراك فيه، قال له: وما في الأرض من مكانٍ إلا وهو يراني فيه! قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك!! قال له: هات الرابعة، قال له: إذا أردت أن تعصيه، وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، قل له: لا أريد أن أموت، قال له: هذا لا يكون، قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمنع نفسك عن ملك الموت!!! قال له: هات الخامسة، قال له: إذا مت وجاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار، فلا تذهب معهم، قال له: لا أستطيع، أعاد له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمنع نفسك عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم!!!! قال له: كفيت.

فمن يعصي الله؟ الجاهل، لا يعصي الله إلا إنسان ليس عنده معرفة بالله، أنا أضرب مثلاً دائماً، أحياناً يوجد شق بالجسر، يرى الشق مهندس، فيقول لك: البناء خطر، يجب أن يخلى فوراً، يراه دهَّان، يقول لك: هذا الشق يحتاج إلى معجون، أسويه لك إن شاء الله، بين كلمة يحتاج إلى معجون، وبين كلمة بناء خطر يجب أن يخلى فوراً مسافة كبيرة، لماذا يجب أن يخلى فوراً؟ لأنه صار هناك قلق من هبوط البناء، فما الذي أعلم بالهبوط؟ العلم، بقدر علمك بقدر خشيتك، وبقدر علمك بقدر خوفك من الله عزَّ وجلَّ، ولذلك رأس الحكمة مخافة الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((...أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له...))

[متفق عليه عن أنس]

أكثر خلق الله خوفاً من الله رسول الله :

كيف مقدار خوف المؤمن من الله؟ أكثر خلق الله خوفاً من الله رسول الله، في معركة بدر بعد أن قتل صناديد الكفر، وكانوا في القليب، اللهم صلِّ عليه خاطبهم قائلاً: يا فلان يا فلان، سماهم بأسمائهم واحداً واحداً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وآذيتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس- أعادها لهم مرةً أخرى - فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا!! إنهم أصبحوا جيفاً أتكلّمهم؟! قال: ما أنتم بأسمع لي منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني، قرأت حول هذه القصة إضافةً قال بعضهم: يا رسول الله مَثّل بهم، إنهم أخرجونا وقتلوا أخواننا وعذبونا، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أُمَثّلُ بهم فيمثّل الله بي ولو كنت نبياً، كان عند النبي خادم أرسله في حاجة فأبطأ

كثيراً، فقال له حينما عاد: أين كنت؟ فقال له: كنت في مكان كذا وكذا، وكان النبي غضبان فقال عليه الصلاة والسلام: والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك.

سمع من السيدة عائشة أنها قالت عن أختها صفية رضي الله عنها أنها قصيرة، فقال:

((يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

[أبو داود عن عائشة]

كم كان عليه الصلاة والسلام يراعي خاطر الناس، فما واجه أحداً بما يكره، فأشدكم لله خشية أنا، قال:

((...أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا الحديث يجعلنا نتساءل لو أن إنساناً اعتزل، ونأى بشعب، أو ببيته:

((...أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أي لا رهبانية في الإسلام.

قيمة العمل في الإسلام :

أحياناً يوجد هروب من الحياة، ويوجد مواجهة لمشكلاتها، فالهروب ليس بطولةً، ليس بطولةً أن تجلس في صومعةٍ في رأس الجبل وتعبد الله، ولكن البطولة أن تعبده وأنت في السوق، وأنت في زحمة الحياة، وأنت تبيع وتشتري، فالمؤمن يألف ويؤلف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف، فهذه البطولة، البطولة أن تتزوج وأن تأخذ بيد زوجتك إلى الله، البطولة أن تنجب أولاداً وأن تنشِّئهم في طاعة الله، هذه هي البطولة، فالأسلوب الأول أسلوب هروب من الحياة، ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزود منهما معاً فإن الأولى مطيةٌ للثانية، الآخرة تحتاج لإنفاق، إذاً يجب أن تكسب المال من وجه حلال، والآخرة تحتاج إلى العمل الصالح، إذاً يجوز أن يكون تأسيس أسرة عملاً صالحاً، فالنبي الكريم اللهم صلِّ عليه له أحاديث كثيرة يمجِّد فيها العمل، فالإنسان إذا عمل عملاً صالحاً وحفظ ماء وجهه من السؤال فهذا العمل عبادة، يقول سيدنا عمر: إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني. ومما يروى أن سيدنا عمر رأى رجلاً يقرأ القرآن في النهار فقال: إنما أُنزل هذا القرآن ليعمل به، أفتخذت قراءته عملاً؟ اقرأه في الليل، والصحابة الكرام كانوا فرساناً في النهار رهباناً في الليل، وقيمة المرء ما يحسنه، فيجب أن يكون لك حرفة أو اختصاص أو عمل تنفع به المسلمين، وأن تكون مع هذا

العمل متقياً لله وعالماً بأمر الله وداعية إلى الله، وسيدنا الصديق كان بزازاً أي كان تاجر أقمشة، وسيدنا أبو عبيدة كان جزّاراً، كان أمين هذه الأمة.

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هنا النظر ليس نظر رؤية ولكن نظر تفكُّر، ليس الأمر الإلهي في النظر هنا نظر رؤية، العين هذه لا ترى مم خلق، ولكن الفكر يرى:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

السبب والمسبب :

ما قال الله عزَّ وجلَّ: من ماءٍ مدفوقٍ، إذا كان مدفوقاً أي بإرادتك دفقه أو عدم دفقه، لكن الدفق جاء على وزن اسم الفاعل، أي الماء دافق أي ليس بإرادتك أن تدفقه أو ألا تدفقه، هذا الماء أي أكثر من ثلاثمئة مليون مليون حيواناً منوياً يدفق الإنسان، والبويضة تحتاج إلى حيوان منوي واحد، حكمة الله عزَّ وجلَّ لا حدود لها، أي الإنسان يخرج منه هذا الماء ما دام حياً، لكن الله لحكمةٍ بالغة أودع في مبيض المرأة عدداً محدداً من البويضات، كل شهر تخرج بويضة من المبيض فإذا بلغت المرأة سن اليأس فمعنى ذلك أن البويضات انتهت، في السابع والثلاثين، أو في الثماني والثلاثين، أو في الواحدة والأربعين، أو في الثالثة والأربعين، أو أربعين، لها عدد محدود، فلو كان المبيض ينتج بويضات كما ينتج الإنسان هذا الماء ما دام حياً فمعنى ذلك أن الحمل يكون في السبعين للمرأة أو في الثمانين، يكون عمرها خمساً وثمانين وهي في الشهر الرابع، إذ لم يعد هناك إمكانية لأن تربي ابنها، انظر إلى حكمة ربنا عزَّ وجلَّ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

أما دقة الآية فليس هذا الماء الدافق هو الذي خلق الإنسان، الخالق هو المسبب، مسبب الأسباب، هذا الماء هو السبب، ولكن ربنا عزَّ وجلَّ هكذا جعل الترتيب، أن هناك ذكراً وهناك أنثى، وتزاوجاً وحيوانات منوية ومبيضاً ورحماً وتكوّناً، لكن ربنا عزَّ وجلَّ لحكمةٍ بالغة يريد أن يقول لنا: أنا الخالق، وهذا آدم خلق بلا أب ولا أم، ولا ذكر ولا أنثى، ولا بحيوانات منوية ولا مبيض ولا رحم، إذاً استنبط العلماء أن الماء الدافق هو سببٌ لكن الخالق هو الله عزَّ وجلَّ، الخالق هو المسبب والماء هو السبب، والدليل أن آدم عليه السلام خلق بلا أبٍ ولا أم.

كم حالة توجد؟ إذا كان الإنسان يأتي من أب وأم، عندنا هناك أربع حالات: إما أن يأتي من أبٍ وأم شأنه كشأن ألوف الملايين من البشر، وإما أن يأتي بلا أب ولا أم وهو سيدنا آدم عليه السلام، وإما أن

يأتي من أمٍ بلا أب كالسيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وإما أن يكون أم وأب ولا تنجب هذه الأم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدير)

[سورة الشورى: 49-50]

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً مع وجود الأب والأم قد لا يحدث الإنجاب، وأحياناً يكون ملك لا يترك مكاناً في العالم لكي ينجب ولداً فلا يستطيع، فالطب كله في خدمته، وحصل هذا:

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

بأب وأم لا يوجد إنجاب، فإنسان بلا أب ولا أم، وإنسان من أم بلا أب، وربنا عزَّ وجلَّ كلما حدثنا عن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة السلام مهد لنا الحديث عن سيدنا يحيى، امرأة عاقر لا تنجب، تجاوزت سن اليأس ومع ذلك أنجبت، أي كما يدخل إنسان من غرفة معتدلة، إلى غرفة حارة.

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ*خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

طبعاً السيدة حواء من سيدنا آدم، بعض العلماء قالوا: هذا الماء الدافق، معصَّب، أي مركز الإثارة العصبية من الصلب من الظهر، ومركز الخروج من عظمي الحوض، الترائب، وبعضهم فسَّر هذه الآية، أن البويضة تخرج من مكان قريبٍ من صدر المرأة من عظام الترائب، وأن الماء يخرج تعصيباً، أي المؤثر العصبي، من مكانٍ في الصلب، أي في الظهر، فهذا الماء الدافق:

(يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ*إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

أي هذه العظمة أن هذا الحيوان يوجد له رأس مكور وله عنق حلزوني وله ذنَب، يتحرك فإذا وصل إلى البويضة، فالبويضة يوجد حولها مئتان وخمسون مليون حيوان، فتنتقي هذه البويضة أقوى هذه الحيوانات فكيف تنتقي هذا الحيوان المنوي؟! ترقق الجدار الذي هو تجاهها، فيدخل الحيوان ويتخلى عن ذنبه وعن عنقه، ويحدث التلقيح، والتلقيح كما تعلمون هذه الخلية المذكرة، والخلية المؤنثة عبارة عن سائل اسمه هيلولة، ونواة، وبالنواة فيها المورِّثات، والمورثات ثلاثة وعشرون زوجاً، تحمل خمسة آلاف مليون صفة، تحمل هذه المورِّثات فتجد أن هذا الابن إذا كان الأب له في أكتافه شعر كثيف، فالابن كذلك وحجم الجمجمة وشكلها وخطوطها وملامحها ولون العينين ونوع الحاجبين ونوع الأنف ونوع الجبهة ونوع الخد ونوع الشعر وطول العنق وطول الإنسان ولون الجلد، فخمسة آلاف مليون صفة تحمل هذه المورِّثات، هذه المورِّثات المذكَّرة تتزاوج مع المورِّثات المؤنثة.

من آمن بالله حق الإيمان صدَّق ما جاء به القرآن :

الآن إذا كان في هذا التزاوج تباعد نسبي، فالأقوى يغلب الأضعف. ولو فرضنا بالخلية المذكرة الكبد قوي، وبالخلية المؤنثة الكبد ضعيف، فيأتي الجنين ذا كبدٍ قوي لأن الأقوى غلب، أما إذا وجد قرابة بالنسب فهذا الضعف يزداد. ولذلك: اغتربوا لا تضووا، لا تضعفوا، أي أن الإنسان إذا تزوج امرأة بعيدة عنه نسباً فهذا من عوامل قوة النسل وتغلُّب الصفات القوية على الصفات الضعيفة:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ*إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

الحقيقة الإيمان باليوم الآخر له علاقة بالإيمان بالله، ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأن من آمن بالله حق الإيمان صدَّق ما جاء به القرآن، فهذا الخلق المعجز من الممكن أن يعيده الله كرةً أخرى:

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

فالحقيقة لكن متى:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

أهمية الإخلاص في النية :

ورد أن بعض قراء القرآن يقفون يوم القيامة ويقولون: يا رب لقد قرأنا القرآن في سبيلك، يقال: كذبتم قرأتم ليقال عنكم كذا وكذا وقد قيل، العلماء، قرَّاء القرآن، المجاهدون:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

أي ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة آل عمران: 132]

لعل تفيد الترقُّب، أي إذا كان هناك إخلاص ترحمون، وإذا لم يكن هناك إخلاص، هناك من يبتغي الدنيا بالدين:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

جميع النيات غير المشرِّفة سوف تظهر على حقيقتها، فالإنسان يخلص، يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل، دينك ديْنك يا بن عمر إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، درهمٌ أنفق في إخلاص خير من مئة ألف درهم أُنفقت في رياء، فالإنسان ينتبه إلى الإخلاص:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

جميع النيات التي لا ترضي الله سوف تنكشف على حقيقتها في هذا اليوم، فالإنسان يحاول أن ينقّي سريرته من الشرك، ومن النيات التي لا ترضي الله عزَّ وجلَّ:

((مَنْ أصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أصْلَحَ اللَّهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ أصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطارق 086 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 09- 17، الإعجاز في خلق الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

السر ومعانيه :

يهمس في أذن صديق شيئاً، نقول: هذا سرٌ بينهما، هذا سر، ربنا عزَّ وجل قال:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

ما هو الأخفى؟ إذا إنسان همس في أذن صديقه شيئاً، ما هو الذي أخفى من السر؟ هو نية القائل، فقد يكون كلامه غير صحيح، وقد يكون فيه كذب، وقالوا: السر ما يسرُّه الإنسان في نفسه دون أن ينطق به، لم يحكه لأحد فهذا سر، فما الذي هو أخفى؟

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

المعنى الأول السر ما تسرُّ به لإنسان وليس شخصٌ ثالث يعلم ذلك، المعنى الآخر للسر ما بقي في سريرتك، وما بقي في نفسك يعلمه الله فإذا في نفسك خداع فتعهّد قلبك:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

الإنسان في الدنيا يوكّل محامياً ويدفع سند كفالة فيخرج من الحبس، فكيف أخرجوه وقد دهس شخصاً؟ بعث إنسان بسند كفالة فأفرج عنه، توجد وسائط وأساليب، ولكن الله عزَّ وجل يوم القيامة:

(فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

آلية المطر وكيفية تشكلها :

توجد أشياء تحل بالمال، ولكن في الآخرة لو أنَّك تملك ملء الأرض ذهباً لا تستطيع أن تفتدي نفسك من عذاب الله، ملء الأرض ذهباً لا تستطيع فلا تنحل بالمال، الآن بأي شيء، فالآن يقولون - الدراهم مراهم - هذا كلام وليس هو بآية أو حديث، ولكن الناس عندهم كل شيء ينحل بالنقود، فهناك بعض الحكم وهي غير صحيحة كقولهم: اتق شرَّ من أحسنت إليه، فيقول: لا أريد أن أفعل خيراً أبداً فهذه

الحكمة تقول اتق شرَّ من أحسنت إليه. هذا الكلام باطل، فرسول الله يقول: اصنع المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

لا يوجد إنسان يخلِّص إنساناً، فليس هناك وجاهة أو واسطة، ولا توجد معاملة خاصة، ولا يوجد استثناء، أو يقول أحد أنا معي استثناء، ولا فلان بن فلان:

(فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

الله عزَّ وجل أمرنا قبل قليل أن ننظر ممّ خُلقنا، أن ننظر إلى قِوامنا الحالي ثم مم خلقنا، بعد قليل قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

هل فكّرت في السماء؟

يصعد بخار الماء إليها فترجعه ماءً نقياً زلالاً مقطراً عذباً فراتاً، فلو ركب إنسان في البحر وأصابه العطش فيموت من عطشه، فهناك قصص كثيرة، فباخرة غرقت نجا ستة منها على قارب للنجاة وقد ماتوا عطشاً وهم على سطح البحر. إذاً لولا أن الله سبحانه وتعالى رتَّب آليّة المطر، شمسٌ تبخِّر البحر، فيصعد بخار الماء إلى السحاب، فينتقل من مكان دافئ إلى مكان بارد وتحدث شرارة كهربائية عن طريق البرق فتنعقد حبَّات المطر على ذرَّات من الكبريت ناعمة جداً، وتسقط الأمطار عذبة حلوة طيِّبة المذاق.

الصفة الوحيدة في السماء التي تنطبق على كل نجم أنَّ هذه النجوم ذات رجع :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

هذه آية، وبعضهم قال: في السماء طبقة تعيد الأمواج اللاسلكية، ولولاها لما أمكن حدوث اتصال لاسلكي في العالم، ولا أمواجٌ إذاعية، عرفوها الآن:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

وبعضهم قال: إنَّ الصفة الوحيدة في السماء، التي تنطبق على كل نجم أنَّ هذه النجوم ذات رجع، أي تتحرَّك في مسارات دائرية أو بيضاوية، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، والشمس تدور حول مركزٍ لها في المجرة، والمجرة تدور، وكل ما في الكون يدور ويعود إلى ما كان، نجم القطب هو نجم الشمال الآن، لكن في عهد الإغريق كان نجم الشمال هو نجم النسر الواقع، وسوف يكون هذا بعد آلاف السنين لأن محور الأرض المائل يدور حول نفسه كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، فكل

خمسة وعشرين ألف سنة يتبدَّل نجم الشمال من نجم القطب إلى نجم النسر الواقع، ولو سألتني عن صفة واحدة أصف لك السماء كلّها أقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

صفة واحدة وصف الله لنا بها الأرض تنشقُّ فيخرج القمح فتأكله :

كل شيء يرجع إلى ما كان، وبعضهم قال: لا، الغبار في المجرّات والذرّات العالقة تدخل في مناطق سود ذات ضغط مرتفع جداً فتنكمش وتغدو أجراماً سماوية، ثم تتفلّت من هذا الثقب وتدور بعد مئات آلاف الملايين تنفجر وتعود رماداً أو تراباً أو ذرّاتٍ صغيرة، إله وصف لك السماء يقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

فإذا فهمتها فدورة المجرَّات من الوضع السائل إلى الوضع الصُلب، أو تفهم كل شيء يدور حول مدار بيضوي أو دائري ويعود إلى ما كان عليه، ويرجع إلى ما كان عليه، أو تفهمها أن السماء تعيد لك الأمواج اللاسلكية، أو تفهمها بشكلٍ مبسَّط أن السماء تعيد لك الأمطار ولكن المعنى الأول البسيط هو الأقرب للسياق:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

الأمطار خيراتها ملموسة:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات: 22]

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

صفةٌ واحدة وصف الله لك بها الأرض تنشقُّ الأرض فيخرج القمح فتأكله خبزاً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج الشعير فتأكله الدواب طعاماً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج الحمّص فتأكله طعاماً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج العدس، وتنشقُّ الأرض فتخرج شجرة التفّاح، والكمثرى، والدرَّاق، والعنب، والبلح، والتمر وكلُّ ما تأكله إنما هو من قوله تعالى:

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

لو أن الأرض لا تنشق والنبات لا ينبت لما كنا أحياء أساساً :

صفة ولو أن الأرض لا تنشق، والنبات لا ينبت، لم نكن نحن في هذا المسجد، وما كنا أحياء أساساً ولولا أن:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

لما كنّا على قيد الحياة لمتنا، يموت النبات فيموت الحيوان ويموت الإنسان، فبموت النبات يموت الحيوان، وبموت الحيوان والنبات يموت الإنسان:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

(إنَّه) هذا اليوم، أو هذا القرآن:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

ما معنى (فصل)؟ قد سمعت في الأخبار أن في الكويت ظهرت صحون طائرة هبطت وعطّلت مراكز الكهرباء، وبين مصدّقٍ ومكذّب، فهناك مقالات تثبت وجود كائنات من كواكب أخرى تركب صحوناً طائرة سريعة الحركة ولها إشعاعات عطّلت كل شيء، وبعضهم يقول إنّها أقمار صناعية تجسسية من معسكر كبير لمعسكر آخر، فأنت احسب الآن الجواب الشافي لا تعرفونه لكي تفهموا قوله تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

ما جاء به القرآن الكريم قولٌ فصل :

فهل يا ترى وجه المرأة عورة؟ أو الربا بنسب قليلة مسموح به أم محرَّم؟ فهناك خلافات بين المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين، فسيدنا عيسى ابن الله أم رسول الله؟ ويوجد خلافات بين الأديان السماوية وغير السماوية، توجد خلافات عقائدية بين البشر، توجد خلافات في هذا اليوم:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ *إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي أن ما جاء به القرآن الكريم قولٌ فصل. مثلاً قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

هذا كلام الخبير، فإذا أردتم أن تخالفوه فخالفوه، فإذا خالفتموه ستشتكون، وقوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

هذا قول فصل، فإذا أردتم المخالفة فخالفوا فتفلّس في نهاية المطاف وقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

قول فصل فانظر إذا أردت كيفما تشاء فيصبح بيتك في جهنَّم، فانظر فهذا قول فصل، كلام خبير، كلام عليم خبير الذي خلق النفس الإنسانية يعرف:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي في كل الموضوعات الخلافية بين بني البشر، جميع الموضوعات الخلافية بين الأديان السماوية والأديان غير السماوية.

القرآن الكريم يحسم الخلافات بين الأديان السماوية :

الهنود يعتقدون أن البقرة مقدَّسة، الكلام الفصل في كتاب الله، الخلافات بين الأديان السماوية القرآن يحسمها:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

[سورة النساء: 171]

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 30]

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

الخلافات بين بني البشر، الخلافات بين الأديان السماوية وغير السماوية، الخلافات بين الأديان السماوية، والخلافات في الديانة الواحدة..

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

كلّ موضوع فيه خلاف على الإنسان أن يعود للقرآن ليحسمه :

بعضهم قال: الله عزَّ وجل لم يحرِّم الربا، فقد قال الله:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

حرَّم الأضعاف المضاعفة، أما ضعف واحد فلا مانع أن يأخذ في المئة خمسة أو ستة أو عشرة فلا شيء في ذلك، فهذا يزعم هكذا ولكن يوم القيامة:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

يقول له الله عزَّ وجل: كذبت، هل فهمت من كلامي هذا؟ إنَّك فهمت هذا الفهم لمرضٍ فيك. ولو قلت لأحدهم لمَ لا تصلي؟ فيقول لك: الله لم يأذن لي ولم يسمح الآن لي بالصلاة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

والله لم يشأ، يفهم الآية فهماً مريضاً..

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

ففي كل موضوع فيه خلاف، الله عزَّ وجل أنزل في هذا الكتاب حسمٌ للخلاف، يقول لك: إطلاق البصر يربّي الذوق الجمالي، فقل له: كذبت، فقد قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

الفائز من يتمسك بما قاله الله عزَّ وجل تمسُّكاً عظيماً :

لو قال لك: الاختلاط يهذّب المشاعر. فقل له: كذبت، الله سبحانه وتعالى يقول غير ذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا الله عزَّ وجل فصل في موضوع، فما معنى فصل؟ هذا تعبير قضائي كأن تقول: القاضي فصل في هذه القضية، أي أعطى حكماً وانتهى الأمر، وحكمه غير قابل للنقض، حكم نقض، محكمة النقض، فحكمه غير قابل للطعن أبداً:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

فإذا كنت مؤمناً بعظمة هذا القرآن، وعظمته من عظمة الله عزَّ وجل، فالذي قاله الله عزَّ وجل يجب أن تتمسَّك به تمسُّكاً عظيماً..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

هذا هو الفائز:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة الأعلى: 15-16]

كل قضية عالجها الله وأعطى فيها حكماً فهذا الحكم هو الحق وما هو بالهزل :

قال تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

جاءك خطيبان أحدهما غني فاسق والآخر لا يملك شيئاً ولكنّه مستقيم:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

هذا هو الفصل، وإن أردت أن تجرِّب جرِّب الآخر وسترى، سترى أخلاقه الشرسة تنصب على ابنتك وغناه له لا لغيره:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي إن كل قضية ربنا عزَّ وجل عالجها وأعطى فيها حكماً، فهذا الحكم هو الحق وما هو بالهزل.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

الكيد هو التدبير، الكيد هو التدبير بالخفاء، وهو سلاح الضعفاء، القوي لا يكيد، يبطش، أما الضعيف فيكيد، وهذا الكيد تدبير خطة في الخفاء، فما الذي يفسدها؟ أن تكشف، إذا أناس دبَّروا خطة في الخفاء وكشفت فانتهت الخطة بهذا..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

لا يعرفون أن الله متطَّلعٌ عليهم.

الصلح مع الله سهل جداً يحتاج لساعة صدق وساعة صفاء :

قال عمير بن وهب لأمية بن خلف: والله لولا ديونٌ ركبتني، وأولادٌ صغار لذهبت إلى محمدٍ وقتلته، يقول له ذلك في ظاهر مكة، في مكانٍ ليس فيه أحد، سرٌ بينهما، فقال له أمية بن خلف: أما ديونك فعليَّ كائنة ما كانت - أي مهما بلغت - وأما أولادك فهم أولادي، فامض لما أردت - اذهب - فأمر أن تعدَّ راحلته وأن يُسمَّ سيفه، وانطلق عمير بن وهب إلى المدينة، والظاهر لكي يفتدي ابنه الذي قد وقع أسيراً في معركة بدر:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

ووصل إلى المدينة فرآه سيدنا عمر، قال: هذا عدوّ الله عمير بن وهب جاء يريد شراً، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، لكن لا يعلم، ولكن شكله لم يعجبه، فأخذه للنبي عليه الصلاة والسلام، أخذه مقيّداً، قيّده بحمَّالة سيفه وقاده إلى النبي، وقال له: يا رسول الله هذا عدو الله عمير. فقال له: أطلقه يا

عمر. فأطلقه، قال له: ابتعد عنه. فابتعد، فقال له: أدنُ مني يا عمير، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقال له: جئت أفتدي ابني. فقال له: ولم هذا السيف؟! قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ - لم نستفد منها - فقال له: ألم تقل لأميّة بن خلف: لولا ديونٌ ركبتني، ولولا صغارٌ أخاف عليهم لمضيت وقتلت محمداً. فقال لك: أما ديونك فعليّ بلغت ما بلغت وأما أولادك فهم أولادي، فانطلق لما أردت. فصعق وقال له: والله هذا الذي دار بيننا لا يعلمه أحدٌ إلا الله وأنت رسول الله.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

وأسلم - فاسمعوا ماذا قال سيدنا عمر - قال: دخل عمير بن وهبٍ على رسول الله والخنزيرُ أحبُّ إليَّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إليَّ من بعض أولادي.

الصلحة بلمحة، فالصلح مع الله سهل جداً، يحتاج لساعة صدق، ساعة صفاء وتدعو قائلاً: يا رب تبت إليك، فينتهي كل شيء ويرد الله عليك بقبول توبتك: وأنا قد قبلت.

كيد الله تدبيرٌ مضاد من نوع المشاكلة :

قال تعالى:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*مَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ*وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ *الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ* إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ *إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيدهم منتهٍ لأن الله يعلمه، فالكيد ما الذي يفسده؟ الحليب ما الذي يفسده؟ الحمض، فلو وضعنا قليلاً من الحمض فيفرط الحليب ولا تجد لبناً أو جبناً، والكيد ماذا يفسده؟ أن يكشف، وعن الله مكشوف، إذاً أي كيدٍ لأهل الحق يخفق..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيد الله ليس ككيد البشر، كيد الله تدبيرٌ مضاد:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

من نوع المشاكلة، مثلاً ربنا عزَّ وجل قال:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

الرد على السيئة بالعقاب هل يسمّى سيئة؟ لا بل يسمى حسنة لكنّها مشاكلة.

كيد الله مُحكَم وكيد الكفار مخفِق :

مثلاً قوله تعالى:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

هل يسمى هذا عدواناً؟ لا، لكن مشاكلة، هل يقال: الله ماكر؟ لا، حاشا لله، وهناك مكر وكذلك كيد، فهل يقال: الله عزَّ وجل ماكر، أو كائد؟ لا، لا يشتقُّ اسم من هذا الحدث، لكن هذا الكيد الذي قاله الله عن نفسه ردٌ على كيدهم، كيده محكم لأنّهم لا يعلمونه، وكيدهم مخفِق لأنّه مكشوفٌ عند الله عزَّ وجل:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

فعندما تبع كفار قريش محمداً عليه الصلاة والسلام إلى غار ثور، فبين أن يروه وعدم رؤيتهم له حركةٌ قليلة، قال سيدنا الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطن قدمه لرآنا. وقفوا أمام رؤوسهم.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

وعندما تبع سيدنا سراقة محمداً ليقتله غاصت قدما فرسه في الرمل، أول مرة والثانية والثالثة:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

الله سبحانه وتعالى يعلم السرّ وأخفى :

عندما تبعوا رسول الله ليقتلوه بغار ثور رأوا الحمام فقالوا: هذا هنا قبل أن يولد محمد، فعشش الحمام والعنكبوت، على موضوع المشاكلة:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

الله سبحانه وتعالى لا يُسمَّى كائداً، ولا يسمَّى ماكراً، ولا يُشتقُّ من هذين الحديثين اسمان لله عزَّ وجل فلله الأسماء الحسنى، ولكن مثل قاضٍ رفعت له قضية قتل والقاتل ظالم، فأمر بقتل القاتل، فهل يسمَّى القاضي قاتلاً؟ لا، أما حكمه فعادل، ردَّ على هذه الجريمة بجزاءٍ عادل، فلا يسمَّى القاضي قاتلاً لأنه حكم بالعدل، وكذلك عندما يكيد إنسان لأهل الحق فالله عزَّ وجل يدافع عن الذين آمنوا، كيدُ الكفار مكشوفٌ عند الله، أما كيد الله التدبير المضاد لهؤلاء الكفار فناجحٌ مئة في المئة، لذلك قالوا: لا تجوز على الله حيلة.

فأنت تعامل إلهاً سميعاً بصيراً، فسيدنا عمر قال: لست بالخب، ولا الخبُّ يخدعني. انظر لهذا الموقف الرائع منه، فلا هو من البساطة والسذاجة بحيث يُخدع، ولا هو من الخبث بحيث يَخدع، لا يَخدع ولا

يُخدع، فإذا كان سيدنا عمر لا يُخدع، فالله سبحانه وتعالى الذي يعلم السرّ وأخفى لا تجوز عليه حيلة، فإذا كاد إنسانٌ لأهل الحق كان كيده ضعيفاً مكشوفاً فاسداً. أما تدبير الله له تدبيرٌ متين محكم ناجح:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

فلو قال ربنا: إنهم يكيدون كيداً وأنا أدبِّر لأوليائي خطة تحميهم من هذا الكيد، فليس فيها بلاغة، هذه اسمها مشاكلة، مثلاً قال الشاعر عندما قالت جماعة تقترح على الشاعر طبخة ليطبخوها له:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت: اطبخوا لي جبة وقميصا

* * *

ما ينقص هو الجبة والقميص، فهذه مشاكلة.

كيد الله ردٌّ على كيد البشر :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

فبدلاً من أن يقول: وأنا يا عبادي أدبِّر لهؤلاء الذين يكيدون لأوليائي خططاً دقيقةً تحميهم من عدوانهم، لا، فقد قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

من باب المشاكلة:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

فيها بلاغة أكثر، لا تقل: الله كائد، ولا الله ماكر، فلا يشتقُ اسمان من الكيد والمكر، فكيد الله ردٌّ على كيد البشر.

الكفار مهملون إلى أن يحين الوقت لغلبتهم :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

فمهل يا محمد، النبي لا يمهل، الله الذي يمهل الفعل بيده، هذا إكرامٌ له، أي أنا يا محمد - اللهمّ صلّ عليه - لا أسوق لك الشدائد لضعفي، لا، ولا لهوانٍ لك عندي، لا، أنت حبيبي كما يقولون، ولكن أسوق

هذه الشدائد لأمتحن أتباعك، فإذا كانوا صادقين كانوا مؤهَّلين للنصر، فالأمر بيدك أنت مهّلهم، وليس: أنا سأمهلهم:

(إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

أي إلى أن ينضج الذين معك وإلى أن يمتحن صدقهم وإلى أن تظهر همَّتهم وإلى أن يظهر ثباتهم، فالكفار مهملون إلى أن يحين الوقت لغلبتهم:

(إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

في الخندق الكفار قاموا بترتيب خطة جهنمية، فجمعوا عشرة آلاف مقاتل للقضاء نهائياً على محمد وأصحابه في حرب إبادة، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، وبقي للإسلام قضية ساعات وسينتهي، إلى أن قال أحدهم: أيعدُنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته..

(إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيد عظيم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فربنا عزَّ وجل عن طريق صحابي جليل أسلم وقتها وهو نعيم بن مسعود قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أنا أسلمت يا رسول الله، ماذا أفعل مُرْني؟ فقال له: خذّل عنا ما استطعت. فذهب لقريش وتكلّم بكلام لهم، وبكلام لليهود فأوقع بينهم العداوة، وهبَّت رياحٌ قلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم، وكفى الله المؤمنين القتال. هذا كيد الله عزَّ وجل. اجتمعوا ليجتثوا الإسلام، فالله أرخى لهم الحبل لآخر لحظة، حتى بدا لبعض المسلمين أن الإسلام انتهى.. فأي إسلام هذا، وأي نبي ورسول هو، فقال: صاحبكم، ولم يصبح رسول الله.. ولكن في آخر لحظة جاء نصر الله عزَّ وجل وكاد الله للكفّار وعادوا مخفقين وحبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.

كن مع الله ترَ الله معك :

فرعون كاد لسيدنا موسى، فتبعه إلى البحر ليقضي عليه، وفتح البحر فعبر سيدنا موسى وأصحابه، وتبعهم فرعون، وخرج سيدنا موسى من البحر من الطرف الآخر، ثم عاد البحر بحراً..

(إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

خطّتهم أعرفها أما خطتي لا يعرفونها، لذلك كن مع الله تر الله معك، ولذلك إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك؟ ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيَّته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيَّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطَّعت أسباب السماء بين يديه.

إذا كنت في كل حالٍ معي   فعن حمل زادي أنا في غنى

***

فهذه الآية آية عظيمة كثيراً:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

كيدهم مكشوف، وكيدهم فاسد ومخفق:

(وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيدي هو المتين، إن كيدي متين.. لأنّه إله، ما يُعدُّه لهم لا يعرفونه:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

أمهلهم.. الأمر بيدك يا محمد، هو الأمر لك إلى أن ترى أن أصحابك صاروا صادقين مخلصين ينتهي أمرهم، وهذا الذي حصل.. فلمن كانت الغلبة؟!!

آيات قرآنية تؤكد أن المتقي لا ينتظر من الله إلا كل خير :

آية واحدة إن صدَّقت بها حُلَّت كل مشكلاتك..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

فجرِّب، إن المتقي هو الفائز وهو الرابح والناجح، والسعيد في الدنيا والآخرة، والمتقي لا ينتظر من الله إلا كل خير.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك: 22]

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

هذا الذي يستقيم على أمر الله ويخشى الله، لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة.

كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب :

قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

إذا كنت مع الباطل فأنت زاهق مع الباطل، وإذا كنت مع الحق فأنت باقٍ ولذلك:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ *يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ *إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ* يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ* فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ* وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ *إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ *وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ *إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

كلمة (فلينظر) هذه اللام لام الأمرٌ، وينظر فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، الأمر إلهي والفعل المضارع إذا سُبق بلام الأمر يساوي فعل الأمر، فكلمة (فلينظر) أمرٌ إلهي، وكل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب.

إعجاز الله في خلق الإنسان :

الذي يظن أن الأوامر محدودة؛ الصوم والصلاة والحج والزكاة وانتهى الأمر، هو لا يعرف كتاب الله، (فلينظر) أمر إلهي، من الذي عليه أن ينظر؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان معرَّف بأل، هذا الإنسان المعهود الكامل يقف على قدمين، فيه جهازٌ عصبي وفيه عظام، وعضلات، ودماغ، ونخاع شوكي، وعمود فقري، وقلب، ورئتان، وكبد، وكُليتان، ومثانة، وأمعاء دقيقة وغليظة، وفيه شرايين، وأوردة، وخلايا سمعية، وسمع، وبصر، وشم، وذوق، ونطق، وشعر، ورأس، ومفاصل، هذا الإنسان:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

ما أصله؟ هذا الماء الذي نعرفه جميعاً هو أصل الإنسان، كيف انقسم بعضه فصار عظاماً، وبعضه صار عضلاتٍ، وبعضه صار أوردةً، وبعضه صار أعصاباً، فكيف تخلّق القلب؟ كيف تخلّقت أغشيته الثلاثة وكيف انقسم إلى أذينين وبطينين؟ وكيف اتصل بالرئتين وكيف خرجت منه شبكةٌ متناهيةٌ في الدقة هي الشرايين والأوردة؟ وكيف غطّت مساحة الجسم كلّها شبكة أعصاب؟ كيف من هذا الماء المهين؟! كأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها الإنسان انظر إلى دقة تكوينك ثم انظر إلى أصلك، هل يعقل أن هذا الماء المهين هو وحده أصبح إنساناً سوياً:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من منا ليس له أعصاب إذا أمسك دبوساً في أي مكان غرسه لا على التعيين يحس بالألم، فماذا يستنتج؟ يستنتج أن هناك شبكةً عصبيةً متناهيةً في الدقة تغطي كل ذرةٍ في سطح الجلد، فلو غرس الدبوس نفسه في مكانٍ آخر لخرج الدم فما معنى ذلك؟ أن هناك شبكة من الشرايين والأوردة متناهية في الدقة موزّعة على سطح الجلد، كيف الإنسان يتثاءب؟ وكيف يسعل؟ وكيف يعطش؟ هذه آليات بيولوجية، من صممها؟ يتعذَّر الآن زرع الرئة لاستحالة السعال، فلولا السعال لمات الإنسان، من جعل زغابات تتحرك نحو الأعلى باستمرار وتدفع كل شيء في الرئة نحو الأعلى، من جعلها كذلك؟ من جعل هذه الأسناخ الرئوية لو نشرت لأصبحت مساحتها مئتي متر مربع؟ من جعل هذا الشعر الذي على رؤوسنا، ربع مليون شعرة لكل شعرة وريد وشريان وعصب وغدة دهنية وغدة صبغية من جعل كل هذا؟

خلق الإنسان أكبر دليل على وجود الله سبحانه :

من جعل المفاصل؟ مفصل الرأس دائري، مفصل اليد أنسي، ومفصل الرجل وحشي، من جعل العظام بعضها مجوفاً وبعضها مستقيماً؟ ومن جعل عظم الفخذ له عنق، هذا العنق يتحمل مئتين وخمسين كيلو ضغط؟ لو الإنسان حمل خمسمئة كيلو فعنقا عظمي الفخذ يحتملان ذلك فمن صمم هذا التصميم؟ من جعل في العظم عصباً حسياً، من؟ حتى إذا صار للإنسان كسر لألمه الشديد يبقي رجله كما هي، وهذا ثلثا العلاج؟ من جعل الطحال مقبرة لكريات الدم؟ ومن جعل في كل ثانية يموت مئتان وخمسون مليون كرية حمراء تذهب إلى الطحال ويتحللوا إلى عواملها الأولية..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان كيف يفكر وكيف يتذكر؟ فيه ذاكرة شمية، وذاكرة ألوان، وذاكرة سمعية، وذاكرة أرقام، كيف يتصور؟ وكيف يتخيل؟ كيف يحاكم؟ وكيف يفكر بالأساس؟ وكيف يطرح الفرضيات؟ وكيف ينتقل من المحسوس إلى المجرد؟ وكيف يستنتج القوانين والمفاهيم؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان السوي، مم خلق؟ كيف اكتسب علمه؟ وكيف الإنسان عرف أن في قلبه ثقباً مفتوحاً ثقب بوتال، هذا الثقب من فتحه في القلب؟ الطفل بالرحم، في الرحم لا يوجد هواء، ولا هناك رئتان، ولا نَفَس، من فتح ثقباً مؤقتاً بين الأذينين؟ لأنه لا يوجد رئتان، فلما تمت الولادة هكذا قال الأطباء قال: تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب في الوقت المناسب، ربنا عزَّ وجلَّ حتى يعلمنا بكل مليون طفل يجعل واحداً منهم ثقب قلبه مفتوح يعيش عشر سنوات وعمليته الجراحية تكلف سبعين ألف ليرة سورية، واحتمال نجاحها في المئة ثلاثون، ولإغلاق هذا الثقب، يد من تدخلت وأغلقت هذا الثقب:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الحكمة من خلق الحركات اللاإرادية :

انظر إلى الطفل، يغريه عصا يركبها، والبنت تغريها لعبة تحتضنها من الذي خلق هذه النوازع الأنثوية في البنات، ونوازع الرجال في الذكور، من؟ كيف علامات الذكورة تظهر ولماذا يخشن الصوت؟ ولماذا ينمو شعر اللحية عند الرجل ولا ينمو في المرأة؟ إذاً معنى ذلك يوجد مخطط، لماذا لا تفقد المرأة شعرها كلياً؟ من الذي يتحمل أن تصبح زوجته بدون شعر نهائياً؟ يخف شعرها، لكنها لا تفقد شعرها كلياً، يوجد مخطط:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان كيف ينام؟ ما هو النوم؟ لماذا القلب لا إرادي؟ والرئتان لا إراديتان؟ فلو أن ربنا عزَّ وجلَّ كلفنا بالتنفس فقط لم يعد نوم إطلاقاً، يصبح في حاجة ماسة للنوم، وإذا نام الإنسان يموت، فكيف ربنا جعل حركة الرئتين حركة نوبية تتم بتنبيه نوبي من غاز الفحم في البصلة السيسائية، كيف؟ مرة خطر في بالي خاطر لو أن الله عزَّ وجلَّ عطل هذا المكان مكان التنبُّه اللاإرادي للتنفس، تصورت حياة الإنسان مستحيلة، لا يوجد حل وسط، ينام فيموت، يصحو فيموت، إذ يموت تعباً، وإذا نام يموت اختناقاً، بعدما خرجت من الدرس قال لي شخص وهو طبيب: إن هذا مرض وموجود، فسألته: ما علاجه؟ قال لي: لا علاج له، ولكن الآن توجد حبوب تأتي من دولة أجنبية ثمنه غالٍ كثيراً، تأخذ كل ساعة ستة، سبعة، ثمانية، إلى السابعة من الحب وسمّى لي طبيباً مشهوراً أصيب بهذا المرض فاستعمله

شهرين، فيقوم بضبط أربع منبِّهات يقوم بضبطها في الساعة التاسعة، لأنَّه إذا لم يصح من نومه يموت، أخذ الحبة فيعيد ربط المنبه للساعة العاشرة، وأخذ حبة الساعة العاشرة فيعيد ربطه للساعة الحادية عشرة، والساعة الثانية عشرة، والساعة الواحدة كذلك، حضر ابنه وهو طبيب من دولة أجنبية فسهروا فرحانين بقدومه، وسهروا وتعشّوا، وناموا وقد ضبطوا المنبهات فلم يستيقظوا عليها، وعندما صحوا صباحاً وجدوا الأب قد مات. من الذي أراحك من التنفُّس؟!!

السمع والبصر وغيرها من آيات الله الدالة على عظمته :

من الذي أراحك من خفقات القلب؟ من أراحك من آلية الهضم، من؟ إذا كان الواحد هو الذي يضبط طعامه بنفسه، على أن يتركوه خمس ساعات لهضم الطعام، ويتتبع سير الطعام من المعدة للبنكرياس ثم بعد ذلك إلى المرارة، ثم العصارة والإنزيم الفلاني، ويصيح قائلاً: توقف توقف لقد جعلتني أغلط، فمن يتحمل أن يهضم طعامه فقط، فأنت ما عليك إلا أن تأكل وتمشي، وتأكل وتنام، كل واضحك، أما الطعام على الله هضمه، آلية معقَّدة جداً، ساعة إفرازات من الفم وإفرازات من المعدة وإفرازات من الإثني عشر وإفرازات المرارة، والبنكرياس، والحركات اللولبية، مواد تحرِّك الأمعاء، ومواد محولة من شيء إلى شيء والامتصاص، من؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان السوي الذي هو ملء السمع والبصر، الذكي، الذي يتحرّك ويفكّر ويحاكم ويتصوَّر ويسمع، وإذا تكلم أحد معه من الهاتف يقول له: فلان، لقد عرفتك، كيف عرفته على الهاتف؟ عندك ذاكرة للأصوات، فعندما سمعت صوته وازنت بين صوته وكل الأرشيف الموجود في دماغك وقلت: فلان.

وإذا أعطاك أحد عطراً تقول: هذه الرائحة الفلانية فلديك ذاكرة للمشمومات، كذلك وعندك مركز قيادة آلي، تذهب من الدكان إلى البيت من دون تفكير، تمشي مع شخص وتتكلّم معه تسليه ويسلّيك وأنت ماشٍ على الطريق، قيادة آلية وأنت مستريح.

حتى أعمالك اليومية، فإذا إنسان له مصلحة بعد فترة تنقلب أعماله إلى أعمال آلية، إذا أراد أحد أن يحلق ذقنه في الصباح هل يفكّر؟ من دون تفكير، يستطيع أن يحكي مع إنسان وأن يفكّر بموضوع آخر وهو يقوم بالعملية بمنتهى البساطة، انتقلت من مركز التفكير الإرادي إلى مركز التسيير الذاتي، حلاقة الذقن، تناول الطعام، ارتداء اللباس عملية معقَّدة، لكن تقوم بها بشكل لا إرادي، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان ينظر، من جعل بالعين مادة مضادة للتجمُّد؟ الإنسان الذي يعيش بفلندا في أيام الشتاء قد تهبط الحرارة لأربعين تحت الصفر، أعلى درجة وصلت في فلندا ثمانية وخمسين تحت الصفر، في الصنبور يتجمَّد الماء، من وضع في ماء العين مادة مضادة للتجمُّد؟ لو الله نسي هذه فقط، وجاءت موجة من الصقيع فاستيقظ الناس صباحاً والكل عميٌ ليلاً ذهبت أبصارهم كلّهم، لو الله نسي هذه فقط، ولكن لا ينسى شيئاً؟

الأذن والجلد والشعر من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

من جعل ثقباً بين الأذن وبين تجويف الفم، نفير أُوستاج، إذا سمع أحدنا صوتاً قوياً يفتح فمه فلا يحدث شيء لتوازن الضغط بين فمه وبين أذنيه، فمن جعل هذه الفتحة؟ فإن لم تكن هناك فتحة فأدنى صوت يحدث نصاب بالصمم، من جعل هذا الثقب؟ من جعل غشاء الطبل بهذه الحساسية البالغة؟ عشرون هزة بالثانية الواحدة أنت تسمعها، فمعنى ذلك جزء بالعشرين تحسُّ بها ثم يعود الغشاء إلى وضعه الصحيح ثم يهتزُّ مرة ثانية.

كل حرف تنطق به تسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، فلو الكلمة من خمسة أحرف في سبع عشرة فتتحرَّك تسعين حركة عضلة، فإذا كان الدرس ساعة من الزمن فكم كلمة في هذا الدرس قلتها؟ قم بعدِّهم، فهل كنت تعلم أن كل حرف يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة؟ ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من جعل الجلد له مسامات؟ من جعل أن لكل شعرة عضلة؟ من جعل شعر الرأس يطول وشعر الحاجبين لا يطول؟ من الذي جعل في الأنف شعراً وفي الفم لا يوجد شعر، من الذي جعل شعراً في ظاهر اليد وفي بطنها لا يوجد شعر؟ من جعل الأظافر؟ لماذا لم يضع الله للشعر أعصاباً للحس؟ فتقول: والله ذاهب إلى المشفى. لماذا؟ سوف أقوم بإجراء عملية حلاقة، يحتاج لتخدير كامل، أو يصيح مولولاً، من أعفاك من أعصاب الحس في الشعر؟ وعملية تقليم الأظافر، وإلا أصبح كل واحد منا كالوحش، لماذا ألغى ربنا أعصاب الحس من الشعر وألغى أعصاب الحس من الأظافر؟

من وضع العين في هذا المكان بالذات؟ لماذا الحاجبان؟ لماذا الجفنان؟ لماذا الغدة الدمعية؟ لماذا الأهداب؟ لماذا؟؟ لماذا القرنية والملتحمة والقزحية والشبكية؟ لماذا هذه المطابقة المعقَّدة جداً؟

الأسنان والعظام من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

إذا كان الشخص جائعاً وعلى وشك الموت من الجوع ورأى خطراً ينسى جوعه، فمعنى ذلك أن الوجود لم ينته بعد، فإذا كانت السيارة ليس فيها وقود تتوقَّف عن السير، أما الإنسان الجائع فلا يقف، فبإمكانه أن يعمل عشرين ساعة، فما هو الجوع إذاً؟ قيل هو نقص بعض المواد للمخزون في الكبد لا في الدم، فلو فحصنا دم جائع تجد أن النسب كاملة، الجوع إشعار للإنسان بأن المخزون نقص قليلاً بالمستودعات، أما بالشرايين نسب الغذاء ثابتة:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

انظر إلى الإنسان وأصله.. قليل من ماء مهين، مئتين وخمسون مليون حيوان منوي، يطلع منه الأسنان أقسى من الماس!! فميناء الأسنان أقسى من الماس، حتى العظام يتحمّل العظم مئتين وخمسين كيلو من ماء مهين!! فربنا يقول لك: انظر لوضعك الحالي، وأنظر إلى أصلك:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

آيات أخرى دالة على عظمة خلقه سبحانه :

أصلك ماء، فهل الماء يصنع عظماً، أو يصنع في العين أربعمئة ألف عصب ضمن زمرة واحدة، أحياناً تجد في الجمجمة محجر العين فيه ثقباً، من هنا يخرج العصب البصري أربعمئة ألف عصب ضمن عصب واحد قطره مليمتر واحد، من جعل في الشبكية مئة وثلاثين مليون عصيّة؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

العين الصحيحة تشاهد ثمانمئة ألف لون، فإذا أخذنا اللون الأخضر فقط ودرجناه ثمانمئة ألف درجة العين تفرِّق بين درجتين.

قال لي شخص: الكلب يملك حاسة للشم مليون ضعف من حاسة الإنسان، والفأر يملك حاسة سمع ستة عشر ضعفاً من حاسة الإنسان، والصقر يملك حاسة بصر ثمانية أضعاف من حاسة الإنسان. فعلى رأي داروين أن الفأرة كانت إنساناً، فبحسب تصوّره المريض أن المخلوقات تطوّرت من الأبسط للأعقد، فعين الإنسان أبسط من عين الصقر بكثير، وأذن الإنسان أبسط من أذن الفأر، وشم الإنسان أقل بمليون مرة من شم الكلب، فهذه نظرية باطلة.

الحكمة من خلق الأبناء :

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

مم خلق؟ خلق من ماءٍ، الله عزَّ وجل قادر أن يخلق البشر كلَّهم دفعةً واحدة، ويموتون دفعةً واحدة، لكن جعل لك ابناً من صلبك لترى كيف تم الخلق تحت سمعك وبصرك، فلا تحتاج لمعلِّم، ماءٌ مهين، بعد تسعة أشهر جاءها المخاض للزوجة ولدت طفلاً له عيون، وله آثار حواجب، وله أهداب وأجفان، ووجه مستدير وعظام وآثار شعر ورقبة وحركة بسيطة ويتثاءب، يسعل، يعطس، أليس كذلك؟ يمص، يخرج إذاً الطريق مفتوح، وليس مغلقاً، يتحرَّك، يبكي، يضحك، إذا حرَّكت يدك ينظر إليها، إذا أشعلت له ضوءً ينظر، كائن تعرفه جيداً كان ماء مهيناً نزل من بطن أمه، لا تعلمون شيئاً، يعلم شيئاً واحداً وهو منعكس المص، فالمص عملية معقَّدة، يضع فمه على حلمة الثدي ويحكم الإغلاق ثم يشفط، من علّمه ذلك؟ لا تعلمون، هذه يعلمها الإنسان من دون معلِّم حفاظاً على حياته، وبعد السنة يمشي ويتوازن، قبل ثلاثة أشهر ضعه في أحضانك واجعله يميل فإنه يميل معك، ولكن بعد ثلاثة أشهر إذا أملته عشر درجات يرجع كما كان فجهاز التوازن اشتغل عنده، إذا نام يحس على نفسه أنه نام يخاف، اشتغل جهاز التوازن، وبعد ذلك إذا رأى صورة رجل في المجلة يقول بابا، ليس عنده إلا بابا، ولكن بعد فترة يقول: هذا عم، أصبح هناك شخص آخر غير أبيه وبعد كذا سنة يقول: هذا رجل، فأول شيء كل إنسان أبوه، بعد ذلك هناك أبوه وعمه، وبعد ذلك هناك رجل، أي مفهوم الرجل. هكذا مفاهيمه، أنت لو راقبت كيف ينشأ عنده التفكير، إذا كان يمشي الطفل مستنداً على أريكة وتوجد في الطرف الثاني لعبة وهو يزحف زحفاً قبل أن يمشي، ثم إذا أراد أن يمشي للعبة لا يستطيع أن يمشي رأساً فتجده يرسم خطة مطوَّلة، يمشي على أطراف الحوائط إلى الطرف الثاني، فهذه المرحلة أعقد المراحل، توضّع عنده الهدف والوسيلة، له هدف هو اللعبة ومشى بعكس هدفه على الحوائط حتى وصل إليها، أنت فكّر في الطفل وكيف ينمو تفكيره وكيف تنمو حواسه ومداركه، يقول لك: بابا أح، أي أن يده قد احترقت، لكن بعد ذلك يقول: احترقت يده، صار عنده فعل، وفاعل، ومفعول به، وضمائر، تنمو.

خلق الإنسان من ماء مهين وسبب تسميته مهيناً :

قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان مغرور بنفسه يدَّعي تكبراً أن معه دكتوراه؛ طبيب، أو مهندس، أو محام لامع، أو تاجر كبير ولا يرى أن ربه قد خلقه من ماء مهين، الله سمّاه مهيناً لأنَّه خرج من عورة، ودخل في عورة، وخرج من عورة، ثلاث محلات، وسماه مهيناً فالإنسان يستحي به، ومنه خلق الإنسان، من جعل لهذه الغدة البروستات وهي المذهلة بعظمتها، وهي واقفة على مفترق للطرق، طريق الحالب، وطريق الخصيتين، إذا أراد البول أن يمر تغلق طريق الخصيتين وتفتح طريق المثانة، هذا البول حامضي فتفرز مادة قلوية من أجل أن تتعادل مع المادة الحامضية حتى لا يؤثِّر البول بالمجرى، والآن الماء الثاني يريد المرور، فتغلق طريق المثانة لأن ماء المثانة نجس، فترسل مادة مطهِّرة، ثم مادة معطِّرة، وبعد ذلك مادة سكريّة، حتى تسبح فيها الحيوانات المنوية، فهذا الذي معه تضخُّم في البروستات، فالغدة قاعدة على مفترق الطرق تفتح هذا الطريق وتغلق هذا الطريق، فإذا فتحت طريق البول تفرز مادة قلوية، وإذا فتحت طريق الخصيتين تفرز مادة معقّمة، ومادة مطهِّرة معطَّرة، ومادة سكرية، تشتغل ثمانين سنة من دون أن تكل ولا تمل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الشرايين والمفاصل من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

من جعل للشريان الأبهر دسّاماً لو تعطّل يموت على الفور؟ هذا الدسام يسمح للدم بالمرور إلى الأعلى ثم يغلق، ثم يعاود الفتح والإغلاق، طبيب جرّاح فتح فلم يجد سوى كرية من اللحم صغيرة، خاف فلم يستطع أن يعرف ما هي حكمتها، ففتح قلب الحيوان فوجد شيئاً مشابهاً لها قصّها فلم يجد فيها حياة، فقال: هذه الوريقة عندما تفتح مع الشريان وحتى لا تشكّل مع جدار الشريان سطحاً تلتصق به فيوجد كرة بظهرها تشكّل نقطة تماس فترجع ولا تلتصق، كرية بين العشر ميليمتر تشكل بين الوريقة وبين جدار الشريان نقطتي تماس لا سطحي تماس:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من جعل للإنسان إكسسوار، كل إنسان يقوم بإجراء عملية بقلبه يأخذون من رجله شرياناً كبيراً وفرعياً، من خلق هذا الشريان؟ فأول شيء يقومون بإجرائه فتح رجله ويأخذون هذا الشريان الاحتياطي من رجله، ويربطونه بقلبه، من جعل هذا؟ من جعل إذا شريان بالدماغ سد يفتح آخر بدلاً منه؟ الله سبحانه وتعالى، من جعل الجمجمة لها مفاصل ثابتة؟ لولا هذه المفاصل لكسرت بأتفه ضربة؟ انظر إلى جمجمة الخروف تجد فيها خطوطاً منكسرة وكالزجاج، هذه مفصل ثابت فعندما يتلقى الإنسان صدمة تتداخل بين بعضها وتمتص الصدمة بذلك، من جعل بين الدماغ والجمجمة سائلاً مثل أجهزة مص

الصدمات بالسيارة الزيتية، فإذا وقع الإنسان يأتي السائل ويأخذ الصدمة من جهة ويقوم بتوزيعها على كامل السطح، تكون من جهة سنتيمتراً فيوزعها فتصبح ربع المليمتر، من جعل الرحم بقرار مكين؟ بالوسط الهندسي تماماً بالمرأة؟ من؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

السبب والمسبب :

هذا أكبر درس لنا، ربنا عزَّ وجل يأمرنا:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

هذا الماء الدافق ألا يخرج بضغط؟ هل يوجد شيء يخرج باندفاع من دون ضغط؟ من خلق العضلات للانقباض وضغط السائل؟ من؟ دافق لا مدفوق، دافق رغم أنفك، لا رأي لك بتدفقه:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

هذا الآن كشفوا أن المركز العصبي الآمر لهذه العملية في الظهر، والترائب أعلى الرجلين، أصول الرجلين يقال لها ترائب، فيخرج أمراً من الصلب، وتنفيذاً من الترائب..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

خلقه من ماء دافق، رأساً:

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

أين الدنيا؟ لا قيمة لها، مركز الثقل الآخرة:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

خلقه حتى لا يظن أن الماء هو الذي يخلقه، الماء سبب أما الخالق فهو الله عزَّ وجل، والدليل إذا كان ذكر وأنثى قد لا ينجبان وهما موجودان، وهناك حيوانات منوية ومبايض، ويجعل من يشاء عقيماً، فسيدنا آدم بلا ذكر وبلا أنثى ولا حيوان منوي ولا بويضة ولا شيء، والسيدة حواء من رجل، وسيدنا عيسى من أنثى هذه كل الأحوال، إما من رجل وامرأة، أو من غير رجل وامرأة، أو من رجل، أو من امرأة، فالخالق هو الله عزَّ وجل، هذا الماء سبب لكن المسبب هو الله، اللهم يا مسبب الأسباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (1-3): تفسير الآيات01- 03 ، التنزيه والتعظيم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم كل مشتقات كلمة (سَبِّح) :

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى*وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى*فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

هذا هو المقطع الأول، فكلمة: سَبِّحْ فعل أمر، وفي القرآن الكريم كل مشتقات هذا المصدر. المصدر من سَبِّحْ: سبحان، قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء: 1]

وفي آيات كثيرة:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد: 1]

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الجمعة: 1]

فجاء المصدر في:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء: 1]

وجاء الفعل المضارع:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الجمعة: 1]

وبقي فعل الأمر:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

التسبيح هو التنزيه :

ما معنى سبّح؟ فالأمر سَبِّحْ، والماضي سَبَّح ومن دون تضعيف سَبَحَ، فإذا قلنا سَبَحَ فلان في الكلام أي أكثر منه، وإذا قلنا: سَبَحَ فلان في الماء أي عام وانبسط، وإذا قلنا: سَبَحَ فلان في الأرض أي غاص في

أعماقها، إذاً السبح فيه معنى الجولان ومعنى التحرك وفيه معنى البعد، سَبَحَ القوم أي انتشروا، أما سَبَّحَ أي قال: سبحان الله، ومعنى سَبَّحَ: صلّى، فماذا تعني:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

قال بعضهم: التسبيح هو التنزيه أي نزّه ربك عز وجل عما لا يليق به. فأنت موجود والله سبحانه وتعالى موجود ولكن وجوده غير وجودك، أنت من عدم وإلى عدم، ولكن الله سبحانه وتعالى أزلي أبدي قديم، فإذا قلنا سبّح الله أي نزّهه عما لا يليق به من صفات البشر، إذا قلت:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ*إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

معنى: سَبِّحْ: أي فسَّر هذه الآية تفسيراً يليق بذاته العلية:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 3.]

معنى سَبِّحْ أي نزّه مكر الله عن مكر الخلق، لأن مكر الخلق شرير لكن مكر الله لصالح الخلق.

حيثما وردت كلمة العلم في القرآن والسنة فإنما تعني العلم بالله :

إذا قلنا:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة السجدة: 13]

فإذا قلنا:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي وجه هذه الآية توجيهاً يليق بذاته الرحيمة، التسبيح هو التنزيه، من يسبح الله عز وجل؟ هو الذي عرفه، إذاً كان في معنى التسبيح معرفة الله عز وجل، أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: وماذا صنعت في أصل العلم؟ فقال هذا الأعرابي: وما أصل العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ فقال عليه الصلاة والسلام: رأس الدين معرفته، حيثما وردت كلمة العلم في القرآن والسنة فإنما تعني العلم بالله:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي نزّهه عما لا يليق به، ومتى تستطيع أن تنزّهه عما لا يليق به؟ إذا كنت تعرفه، وإذا جاءك خبر سيء عن إنسان، فمَنْ ينفي هذا الخبر؟ من يعرفه، فإن كنت تعرفه تنفي عنه النقص، و إن كنت تعرفه تنفي عنه ما لا يليق به.

لا يستطيع رجل أن يُسَبِّحَ الله عز وجل إلاّ إذا عرفه :

إذاً لا يستطيع رجل أن يُسَبِّحَ الله عز وجل إلاّ إذا عرفه، لكن سبحان الله حينما تفرّغ هذه الكلمات من مضمونها، حينما يكون الناس في آخر الزمان، وهذه الكلمات العظيمة حينما تفرّغ مضمونها فيفهم الناس من:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أن تمسك مسبحة وأن تقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، والقلب ساه ولاه ليس هذا هو التسبيح، فالتسبيح هو التنزيه:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

هل نزّهت الله عز وجل عما لا يليق به، كيف أنزهك يا رب؟ يقول لك الله عز وجل: هل عرفتني؟ يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، فليت شعري ماذا أدرك من جهل الله عز وجل، وماذا فاته من عرف الله؟ إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي تعرّف إلى الله عز وجل كي تستطيع أن تسّبحه. فإذا قرأت:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 8]

فإذا كنت مسّبحاً فتقول: ألهمها فجورها أي ألهمها أن عملها هذا فجور، وإن لم تعرف الله عز وجل تقول: الله ألهمها الفجور، ألهمها أن تفعل الفجور ثم حاسبها عليه وأدخلها النار. فإن كنت مسّبحاً تفهم قوله تعالى: ألهمها فجورها أي ألهمها أن عملها فجور، أي قيّم لها عملها، أي ضيّق نفس الإنسان حينما فعل السيئات فألهمه أنه فجور، وإن كنت لا تعرف الله عز وجل تفسّر ألهمها فجورها بأن الله سبحانه وتعالى ألهم النفس أن تفعل الفجور.

أصل الدين معرفة الله :

إن كنت تسبح الله عز وجل فتقرأ قوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات: 96]

فتبحث عن تتمة الآية في السورة فتجد قوله تعالى:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات:95- 96]

لذلك تقول: لا هذه الآية سياقها في التنبيه لعبادة الأصنام:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات:95- 96]

إذا كنت تعرف الله عز وجل وتسبحه وقرأت قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

[سورة الأنبياء:23]

تقول: لا يسأل عما يفعل لعدالته، عدله يُسكت الألسنة، وإن كنت لا تعرفه تقول: لجبروته، من يستطيع أن يسأله؟ وشتان بين المعنيين، لذلك التسبيح هو التنزيه، والتنزيه لا يكون إلا بالمعرفة، و لذلك فمعرفة الله أصل ديني هكذا قال عليه الصلاة والسلام: معرفة الله أصلُ ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والفقر فخري، والقناعة حسبي، واليقين قوتي، والعلم سلاحي، والفقر ردائي، والرضا غنيمتي، وجُعلت قرة عيني في الصلاة، أصل الدين معرفته، المعرفة رأس مالي.

معانٍ أخرى كثيرة لكلمة (سبح) :

كلمة سبّح: إذا قلنا لطالب خذ شهادة عالية، فماذا يُفهم من هذا الأمر؟ أي اذهب إلى إدارة الجامعة وقدم استدعاء وقل امنحوني دكتوراه أم معنى خذ شهادة عالية أي ادرس؟ هذا الأمر ينطوي به أمر آخر، كلمة: سبّح: أمر إلهي ينطوي به أمر آخر وهو اعرف الله عز وجل كي تنزّهه، وكي تسبحه، وكيف تنزّهه، إن لم تعرفه فعندما يمضي جزء كبير من وقتك في معرفة الله، فمن أجل ذلك خلق الإنسان، خلقت السموات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، هذا أمر إلهي: سبّح أي نزّه، والتنزيه أن تقول: الله سبحانه وتعالى وجوده غير وجودنا، وسمعه غير سمعنا، وبصره غير بصرنا، وحلمه غير حلمنا، وفعله غير فعلنا، نزّهه عما لا يليق به، هذا معنى؛ وهناك معنى آخر يضاف إلى التنزيه هو التعظيم، سبح القوم أي انتشروا، سبح المرء في الكلام أي أكثر منه، سبح المرء في الماء أي عام وانبسط، سبح المرء في الأرض، سبحت الخيل أي: أسرعت. هناك معانٍ أخرى كثيرة لكلمة (سبح)، أي الجولان في ملكوت السموات والأرض، والتفكر في عظمة الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[سورة يونس: 67]

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: أين أنتم ذاهبون؟ وإلامَ منصرفون؟ وما الذي يشغلكم؟ وما الذي ينجيكم؟ وماذا تستهدفون؟ فَأَنَّى تُؤْفَكُون، يقول الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

[سورة غافر: 63]

اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

إن لم تفكر بآيات الله سوف تنصرف عنه إلى سواه. إن لم تفكر بالآيات التي بثها الله في الأرض، والتي بثها الله في السماء، وفي خلق الإنسان، وفي الحيوان، وفي النبات، إن لم تفكر بآيات الله؛ سوف تؤفك عنه، أي سوف تنصرف إلى سواه؛ إلى الدنيا.

فكلمة: سبّح: فعل أمر ينطوي به فعل أمر آخر، كأن تقول: خذ درجة علمية عالية، أي ادرس فهذه الدرجة لا تؤخذ أخذاً من عند البائع. يدرس الطالب، ينتسب في الجامعة إلى أن يستحق النجاح، يعطى عندها هذه الدرجة. فكلمة: سبّح أي اعرف الله كي تستطيع تنزيهه وكي تستطيع تعظيمه، لذلك اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة:

((اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس وأحمد عن عمرو بن ميمون]

بادروا بالأعمال الصالحة:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

إذاً: سبّح: أي اعرف الله من أجل أن تعظّمه، ومن أجل أن تنزهه. وقال عليه الصلاة والسلام:

((حسن الظن بالله ثمن الجنة))

[ابن عساكر عن أنس]

كل من ظن بالله السوء لا يعرفه، الذي ظن أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده ليعذبهم لا يعرفه، والذي ظن أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وليسوا كُمّلاً لا يعرفه. فهذا رسوله، يجب أن يكون هذا الرسول نموذجاً للكمال الإنساني، والذي ظن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا عبثاً لا يعرفه:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

[سورة ص: 27]

الإنسان بين أمرين إما أن يعرف الله سبحانه وتعالى وإما أن يجهله :

الذي يظن أننا خُلقنا عبثاً كقوله تعالى:

(أفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

[سورة ص: 27]

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

[سورة الأحزاب: 1.]

الإنسان بين أمرين: إما أن يعرف الله سبحانه وتعالى، وإما أن يجهله، فإذا عرفه عرف كل شيء، وإذا لم يعرفه لم يعرف شيئاً، وهو أشد الناس خسارة يوم القيامة. فسبح تعني: نزّه، ونزّه تحتاج إلى معرفة، قال الأعرابي: جئتك لتعلمني من غرائب العلم، قال: وماذا صنعت في أصل العلم؟ قال: وما أصل العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ وهو أصل العلم، لذلك فالإمام الغزالي ـ رضي اللّه عنه ـ قال: حيثما وردت كلمة العلم؛ فإنما تعني العلم بالله تعالى. لأن العلم بالله له ثمن باهظ، وله مقابل هذا الثمن نتائج مذهلة، نتائج العلم المادي أنه يبقى في الدماغ، فقد يحمل الإنسان أعلى شهادة، وقد يكون بخيلاً، وقد يكون قاسي القلب ودنيئاً، وقد يعرف الإنسان ربه فتسمو نفسه.

التفكر في ذات الله ممنوع ومحظور :

ثمن العلم بالله المجاهدة، جاهد تشاهد، ونتائجه باهرة، فلا يبقى العلم بالله في الدماغ، بل ينقلب إلى حلم، وإلى سمو ورحمة وحنان وعطف وإنصاف وعدالة ورقة قلب، ولذلك: " علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ".

لماذا (سبّح اسم) ولم يقل الله عز وجل: سبّح الله؟ لأن كلمة (الله) اسم الذات، ولا نستطيع أن نتعرف إلى ذاته، لكن نستطيع أن نتعرف إلى أسمائه، ولأن الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى.

إذا أردت أن تعرف علمه فدونك الكون، وإذا أردت أن تعرف قدرته فدونك الكون، وإذا أردت أن تعرف رحمته فدونك المخلوقات. انظر كيف خلق الله في قلب الأمهات تلك الرحمة. اذهب إلى مستشفى الأطفال زيارةً، وشاهد كل أب وكل أم كيف يحرصون على ابنهم المريض؟ فمن أودع الرحمة في قلب الأمهات والآباء؟ الله سبحانه وتعالى.

رجل شديد عتيد يبكي، لأن الطبيب قال له: معه التهاب سحايا، قد لا يبكيه شيء؛ فبكى! إذا أردت أن تعرف رحمته فدونك الخلق. فهذا الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، وتستطيع أن تعرف كل أسمائه من خلال الكون. ولذلك ربنا عز وجل قال: (سبّح اسم)، ذاته لا تعرفها، تفكروا في المخلوقات، ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا.

عندما يأتي الإنسان بميزان بقال مكتوب عليه (2) كغ، ويحاول أن يزين فيه شاحنة ثلاثين طناً، فيصبح هو والأرض سواء! وعندها لا يتهم أن مصنع الميزان سيء، بالطبع لا، بل إنك استعملته بغير ما أعدّ له. وعندمّا يفكر العقل البشري في ذات الله، ولا يفهم شيئاً ليس هذا عجزاً في العقل، ولكن سوء استعمال له. فالتفكر في ذات الله ممنوع محظور فتهلكوا.

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأعراف: 143]

كل أسماء الله الحسنى نستشفها من خلال الكون :

إذا ألقينا في فرن لصهر الحديد ورقة سيجارة، وقلنا ماذا حلّ بها؟ من الوهج تبخرت نهائياً، لم يبقَ لها أثر! تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا.

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي تبحَّر في أسمائه الحسنى، ابحث عن اسم اللطيف، مرّ السحاب في السماء يؤكد اسم اللطيف، حينما يسقط سن الطفل في فمه، تعرف من خلال ذلك اسم اللطيف، مهما أوتي طبيب الأسنان من براعة لا بد من إبرة المخدر، ووضع الإبرة في اللثة يؤلم ألماً شديداً، أما ربنا عز وجل لطيف فلا يُحس الطفل بشيء إلا في فمه قطعة عظم، فالسن نزعه الله له بشكل لطيف، الهواء لطيف بيننا، وسيلة لنقل الضوء، وسيلة لنقل الحرارة، وسيلة لنقل البرودة، نقل للصوت؛ خفيف. كيف ترى طائرة في الجو! معنى ذلك: الهواء شيء له قيمة يحملها، وإذا مدّ أحدهم يده أثناء سير السيارة، يشعر بقوة كبيرة تدفعها نحو الوراء، إذاً هو شيء لكن لطيف. يمكن أن تعرف اسم اللطيف من الهواء؛ من سير السحاب، من استقرار الأرض، فالأرض لا تضطرب فليس لها صوت، وليس لها عادم دخاني يملؤها سواداً، وإنما حركة لطيفة بدون صوت، إذا أردت أن تعرف اسم اللطيف، فانظر إلى الثمار والفواكه، فترى معملاً بدون صوت تكون خشباً؛ تزهر؛ تورق؛ تثمر بلا صوت، إذا أردت أن تعرف اسم القوي قال: هناك ثقوب سود في الفضاء الخارجي، إذا دخلت الأرض إلى أحد هذه الثقوب تصبح كالبيضة بالضبط حجماً، أي

عشرة آلاف مليون مليون طن وزن هذه البيضة، لأن الضغط شديد جداً، اسم القوي، إذا أردت أن تعرف اسم العليم فاقرأ شيئاً عن خلق الإنسان،ثلاثة عشر مليون عصية في الشبكية في المليمتر المربع. كل أسماء الله الحسنى تستطيع أن تستشفها من خلال الكون.

مهما عرفت عن قدرة الله فالله أكبر ومهما عرفت عن لطفه فلطفه أكبر :

إذاً:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أقرب اسم للإنسان هو الرب، أي المربي العليم والحكيم، والمربي عطوف، والمربي غني، إمداد بالطعام والشراب، في الدرس الماضي في سورة الطارق ربنا عز وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ *يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

هذه نعمة الإيجاد:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ *وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

هذه نعمة الإمداد. أوجدك من ماء مهين، وأمدك بالطعام والشراب عن طريق هذه الخاصة، خاصة نزول الأمطار وإنبات النبات:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

لماذا سبّح اسم ربك؟ لأنه أعلى. أعلى اسم تفضيل؛ أي لا نهاية لعلّوه ولا نهاية لقدرته، بعضهم قال: كلمة الله أكبر الصلاة مفتاحها الطهور، وتحريمها التكبير، وحلّها التسليم، ما معنى كلمة(أكبر)، بعضهم قال: أكبر من كل شيء، وبعضهم قال: أكبر مما أعرف فمهما عرفت عن قدرة الله فالله أكبر، ومهما عرفت عن لطفه فلطفه أكبر، إذاً:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي لا نهاية لعلوه، فهذا الإله العظيم يُزهَد به؟! يُنصرف عنه؟! يعصى؟! سبحان الله.

الخالق له إرادة نافذة في الخلق أما المخلوق فيفعل لإرادة الخالق :

قال تعالى:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

الخالق غير المخلوق، فالخالق له إرادة نافذة في الخلق، أما المخلوق فيفعل لإرادة الخالق، فالله عز وجل خلقك، ولو شاء لما خلقك، أعطاك السمع والبصر، ولو شاء ما أعطاك السمع والبصر، أعطاك هذا الفكر:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

شخص وصل لمنصب عالٍ جداً قبل أربعين عاماً فأصبح وزير عدلية في الحكم العثماني، ثم تقدم به السن حتى إذا خرج من بيته لا يعرف كيف يعود، فتخبر زوجته مخافر الشرطة ليبحثوا عنه.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

هناك رجل أعرفه كان يحضر معنا هنا، توفي ـ رحمه الله ـ قبل وفاته بأسبوع ركب سيارته من معمله متجهاً إلى بيته فضاع عنه بيته، وبقي ساعة ونصف يدور حتى ذهب إلى بيت ابنه يسأله: أين بيتي يا بني؟!

أنت منفعل بإرادة الله عز وجل. أعطاك فكراً، ولو شاء لما أعطاك. أعطاك قوة. قطعة دم أقل من ميليمتر مكعب تتجمد في شريان في الدماغ. فهو شلل كامل؛ لا يوجد حركة مطلقاً. لي قريب أصيب بالشلل، فبقي في فراشه لا يتكلم ولا يتحرك. يده كقطعة لحم على بطنه لا يستطيع الحركة.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

من أعطاك القوة؟ من أعطاك البصر؟ من أعطاك السمع؟ فإذا أصابك طنين في الأذن تتضايق وتقول: معي التهاب يلزمني طبيب أذن، وإذا كان هناك غباشة في العين، ذبابة طائرة أمام عينك، فهناك بروتين داخل العين يتحرك مع النظر، فتتضايق من الذبابة الطائرة. أما إذا أغلقت القناة الدمعية فهذا شيء لا يحتمل. وإذا كان الإنسان قد جرحت يده، وانكشفت الأعصاب الداخلية، فإذا أكل سلطة يتضايق، أصبح هناك ألم. آلام الأسنان لا تستطيع أن تنام في الليل، وأثناء قلع الضرس ترى خيطاً أرفع خيط مرّ في حياتك، وهو خيط عصب السن، وهو الذي أقلقك طوال الليل!

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

فهو الخالق، أيعبد غير الخالق؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، (الذي خلق) أي حينما قال الله عز وجل:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

ما هي التسوية؟ خطر في بالي مثل، وأنا في طريقي إليكم: لو أن إنساناً عنده سيارة وعمّر مرآباً، فإذا كان أضيق من السيارة لا تدخل، وإذا كان أقصر من طولها لا يغلق، وإذا كان بمثل حجم السيارة فلا يفتح الباب، وإذا كان له رصيف ارتفاعه كبير لا تصعد السيارة، أو تعمل رصيفاً آخر يكون أعرض أو أطول. يعني أن تجد مرآباً يتناسب مع الحجم، تدخل إلى داخله، وتفتح الباب فيفتح، والرصيف مكسور، أي هناك تسوية؛ تناسب.

كل ما في الكون مدروس من لدن حكيم خبير :

ربنا عز وجل قال:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الشمس بعدها عن الأرض بقدرٍ مدروس:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

لو اقتربت لاحترقت الأرض، ولو ابتعدت لتجمدت! بُعد القمر عن الأرض بحسبان، فلو اقترب نصف المسافة لتضاعف المَّد ستين ضعفاً. أي لأصبح المَّد والجزر مئة وعشرين متراً، ولغمرت معظم مدن العالم الساحلية.

حجم الأرض تقدير حكيم عليم مسوٍّ. سرعة الأرض حول نفسها مسوّاة تتناسب مع طاقة الإنسان. اثنا عشر ساعة نهار، واثنا عشر ساعة ليل، فلو دارت أسرع، ولو ألغي القمر لدارت الأرض حول نفسها دورة كل أربع ساعات. معنى ذلك أن النهار ساعتان، والليل ساعتان، فهذا فتح المحل، والآخر أغلقه. والأول فتح، والثاني ذهب لينام؛ فوضى:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

حجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان. دورتها حول نفسها تتناسب، دورة الأرض حول الشمس تتناسب(36) يوماً، والفصول تتناسب، والإنسان بحاجة لماء. فالماء موجود، والهواء له نسب ثابتة، فهناك نسب ثابتة؛ نسبة الأكسجين إلى الآزوت مسواة، أي مدروسة من لدن حكيم خبير.

كل شيء خلقه الله تعالى مذلل لخدمة الإنسان :

الجبال؛ فهناك جبال تكفي لتخزين المياه العذبة، ولولا الجبال لما خزّنت المياه العذبة. وهناك صحارى كافية لتحريك المنخفضات الجوية، وهناك سهول كافية لتأمين طعام البشر، وهناك بحار كافية لتخزين

المياه. فلو جعلت طبقات الأرض كتيمة سطحية، والنفوذة تحتية فلا يوجد آبار إطلاقاً، كيف تكون الآبار؟ الطبقة الكتيمة تحتية، والنفوذة سطحية.

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

إذا أردت بروتيناً فهناك غنم فيقال مثلاً: فلان مثل الغنمة، أي وديع (وذللناها لكم) وإذا أردت دجاجاً فهو مذلل، وإذا أردت الركوب من جهة إلى جهة:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: 8]

الآن يوجد صواريخ وطائرات جامبو، وسيارات فارهة جداً.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

كلام إله:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

من الذي خلق البترول؟ ومن الذي أعطاه هذه القوة الانفجارية؟ من خلق الحديد؟ ومن خلق الدماغ البشري ليخترع المحرك الانفجاري؟

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

الله عز وجل خلق فسوى :

واسعة جداً، أي أن كل شيء يناسب شيئاً، فلو كانت الحرارة في الأرض مئة فوق الصفر لا أحد يعيش، أو مئتان تحت الصفر لا أحد يعيش، ولو كان محور الأرض أفقياً، أي موازياً لمستوى الدوران، فتبقى الأرض واقفة، فالأرض تدور هكذا، والشمس من هنا، فالنصف الأول للكرة شمس إلى الأبد، والآخر ظلام إلى الأبد. ولو كان المحور قائماً على مستوى الدوران؛ فالفصول ثابتة، فالمحور مائل قليلاً، فهناك ليل ونهار، وهناك اختلاف الليل والنهار:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة آل عمران: 19.]

واختلاف الفصول أيضاً بميل المحور:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

أنت تحتاج إلى خشب كي تشعله، فهناك أشجار تتخذ منها وقوداً، وتحتاج إلى خشب كي يكون في السقف، جعل الله أشجار الحور لهذه المهمة، وتحتاج إلى خشب لصنع الأثاث، فجعل الله خشب الزان لهذه المهمة، وتحتاج خشب للبيتون فهناك خشب الشوح، وإلى خشب الزان يكسر المسمار لها فائدة، خشب الشوح يختلف عن الزان، وعن السنديان، وعن الكندي، وعن المشمش، وعن الزيتون، فالله عز وجل خلق فسوى، فلو جعل لك طعاماً واحداً تملّه، فالأطعمة متنوعة، والفواكه متنوعة، فلو جعل المرأة تنجب ما دامت حية فهذا شيء لا يحتمل..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

أي ليس لها حدود.

الكون كله مجال للبحث في الآية التالية :

لو جعل الماء ينكمش إذا تجمد فتنتهي الحياة من على سطح الأرض، فكل ما في الأرض ينكمش إذا تجمد عدا الماء؛ العنصر الوحيد الشاذ الذي إذا تجمد زاد حجمه، فقلّت كثافته، فطفا على وجه الماء. فلو أن الماء إذا تجمد زادت كثافته، وانكمش كلما تجمد المحيط غاص في الأعماق إلى أن تتجمد المحيطات كلها، فينعدم التبخر، وتنعدم الأمطار، وينعدم النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

هناك تسوية:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الحيوان يمرض؛ فالله جعل له حشائش خاصة به. فالكون كله مجال للبحث في هذه الآية:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

مثلاً: التربة فيها مواد. فلو جئنا بماء وحللنا فيه السكر والملح، ومادة صابونية من مشتقات الصابون، وحللنا فيه ملح الليمون، وجئنا بأنابيب شعرية، فهل يعقل أن بعض الأنابيب يمتص الملح فقط؟! مستحيل. أو أنبوب آخر يمتص الماء مع السكر؟ مستحيل. أنبوب ثالث يمتص الماء مع ملح الليمون؟ مستحيل. هذه المواد ذابت في الماء، وأصبح المحلول منسجماً، والأنابيب غير عاقلة.

النباتات من آيات الله الدالة على عظمته :

أرض واحدة مزروعة، تفاحاً، وكمثرى، ودراقاً، وخوخاً، وعنباً، و طعم هذا يختلف عن ذاك، مع أن الأرض واحدة، والمواد واحدة، فالماء حلّ هذه المواد. فكيف أخذ التفاح الطعم السكري، وأخذ الخوخ الطعم الحامضي، والدراق أخذ هذا الطعم مع الماء الكثير، وأخذ التمر هذا الطعم الحلو، والبرتقال الحامض شيء، والحلو شيء، والليمون شيء:

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[سورة الرعد: 4]

هدى هذه الجذيرات، أي الأشعار الماصة في الجذر؟ أن تختار البوتاس والحديد والفسفور والكالسيوم، والجذر الآخر اختار هذه المواد:

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

أي وضع المواد الكافية لنمو النبات، وهدى الجذور لاختيار حاجتها من هذه المواد، أما في عالم الإنسان فهذه مستحيلة أن تخلط الملح مع السكر مع ملح الليمون في بناء واحد، وتضع أنابيب رفيعة جداً، وتتوقع أن يخرج من أنبوب ماء وسكر فقط، وماء وملح فقط، مستحيل..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الجذور من أضخم الموضوعات للتفكر :

مثل آخر: هذه البذرة؛ انظر إلى الجذور فهي من أضخم الموضوعات للتفكر، في غرام من البذور فيه سبعون ألف بذرة، كم هي متناهية في الدقة هذه البذور؟! ومع ذلك يرسمون على الغلاف وردة حمراء، وعلى غلاف آخر صفراء، وعلى غلاف آخر وردة مطبقة. فهذه البذور يخرج منها ورد مطبق، وهذه ورد أصفر، وهذه ورد أحمر، وهذه نرجس. من سيّر هذه البذرة حتى صار هذا النبات بهذا الشكل؟ له أوراق خاصة وجذع خاص، وله أشكال وألوان، وله طباع. فيقال: هذا يلزمه ماء كثير كل يوم، وهذا يلزمه في الأسبوع مرة واحدة، وهذا يحتاج إلى شمس، وهذا يحتاج ظل، وهذا يحتاج خيالات شمس، وهذا يلزمه حرارة، وهذا نبات في الغرف، وهذا تحت السماء، وهذا نبات يعيش في هذه البلاد، وهذا على السواحل له طباع، فكل هذه الطباع والألوان في هذه البذرة.

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كيف أن أسماك السلمون تأتي من منابع الأنهار في أمريكا وتهاجر من منابع الأنهار إلى أواسط المحيط الأطلسي وتموت. كيف أن هذه المخلوقات الجديدة تعود إلى مسقط رأسها هناك، قال: تتجه أسماك السلمون من المحيط الأطلسي غرباً نحو أمريكا، وبعض الأسماك يأخذ زاوية نحو نهر الأمازون، لأنها ولدت في ينابيع نهر الأمازون، وبعض الأسماك تتجه نحو مصب الميسيسيبي لأنها ولدت في ينابيع نهر الميسيسيبي. من وجه هذه الأسماك وجهتها؟ هناك أسماك في نهر النيل تخرج من منبعه إلى مصبه، وتتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق، ثم شمالاً على جانب إسبانيا، ثم تعبر بحر المانش، ثم شمالاً نحو بحر الشمال، وتعود كرّة ثانية إلى ينابيع النيل، من هداها؟

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه: 49-5.]

النحل من آيات الله الدالة على عظمته :

هذه النحلة؛ من علّمها أن تبني هذه الخلية؟ ومن علّمها الشكل المسدس؟ هذا الذي لا يترك فراغات بينية أبداً، من علمها؟ من علّم بعض النحلات أن تقف على الباب حارسات، ولا تسمح بدخول النحل إلى الخلية إلاّ إذا نطق بكلمة السرّ؛ وإلاّ تقتل. لأن النحلة التي تنسى كلمة السرّ تقتل! من علّم هذه النحلة أن تهوّي الخلية؟ تقف النحلات على بابي الخلية وتفعل بأجنحتها هكذا، فإذا كان هناك حرّ تعمل تهوية، وإذا كان برد تغلق الأبواب، فيصبح الجو دافئاً. من علمها؟ من علّم النحلة أن للملكة طعاماً خاصاً، وهناك وصيفات خاصة بالملكة؟ تذهب الوصيفات لإحضار غبار الطلع ممزوجاً برحيق الأزهار هذا طعام الملكة الخاص، من علمّها؟ من علّم النحلة أن تقتل كل حشرة غريبة في الخلية؟ فإذا كانت هذه الحشرة فأرة لا تستطيع جرها ولا قتلها، فتغطيها بمادة شمعية تحفظها من الفساد، من علمّها ذلك؟ من علّم النحلة أنها إذا كانت محمّلة بالرحيق تعطي النحلات الآخر ما جمعته من رحيق، وتعود تواً إلى امتصاص الرحيق تارة أخرى من أجل كسب الوقت، فإذا كان آخر الموسم دخلت النحلة إلى مكانها في الخلية ووضعت الرحيق. من علّم النحلة أن ترقص؟ فمن نوع الرقصة تعرف النحلات الباقيات بُعد الأزهار عن النحلة، أي رقصة معينة واحد كيلومتر، رقصة أخرى أكثر من ذلك. فالنحلات يعرفن قبل أن يخرجن من الخلية بُعد الزهر عن الخلية من طبيعة رقص النحل!

من أعلم الملكة أنها سوف تلد ذكراً، تقف في مكان خاص للذكور تضع الذكر. وهناك امرأة معها دكتوراه في أمراض النساء والتوليد، وتزوجت وحملت، فهذه الدكتورة في أمراض النساء؛ هل تعرف

نوع المولود؟ ملكة النحل تعرف قبل أن تلد؛ ماذا سوف تلد؟ لذلك تقف في مكان النحلات العاملات تلد الأنثى، وتقف في مكان الذكور تلد الذكور وهكذا.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه: 49-5.]

أمثلة كثيرة حول هذه الآية:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الأشياء المذهلة في خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات :

الطيور؛ فترى سنونو يعشش في أحد بيوت الصالحية، تذهب مثلاً إلى حارة الحنابلة في أحد البيوت العربية ترى سنونو معششاً. يأتي موسم الشتاء فيهاجر هذا السنونو إلى الجنوب، إلى بلاد أفريقيا. وأما في موسم العودة إلى الشمال. من أعلم هذا الطائر أنه يجب أن يأخذ هذه الزاوية ليصل فيها إلى دمشق؟ فإذا انحرف من أفريقيا درجة واحدة أصبح في مصر، ولو انحرف درجة أخرى أصبح في بغداد. فمن أعطاه الزاوية من أفريقيا ووصل إلى دمشق؟ ولو أخذ زاوية إلى المهاجرين فيرجع هذا السنونو إلى هذا البيت في الحنابلة الحارة الثالثة إلى عشه، ويكون قد قطع آلاف الكيلومترات من علّمه؟

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

أحياناً يمرض الحيوان فيأكل بعض الحشائش فيشفى، والشجرة تستهلك أوراقها فهي بحاجة إلى الماء، والماء حيوي لها. فإذا منعت عنها السقي تصفر أوراقها، أوراقها غير مهمّة تضحي بها من أجل بقائها، ثم تيبس عيدانها، وعيدانها غير مهمّة من أجل أن تبقى، ثم ييبس جذعها، وجذعها غير مهم من أجل أن تبقى، كل هذا حفاظاً على جذرها. لو لم يكن هناك خالق؛ فمنع عنها الماء فجف جذرها فماتت. تستهلك أوراقها ثم أغصانها، ثم أغصانها الكبيرة، ثم تستهلك ماء جذعها وتبقى محافظة على حياة جذرها. من علمها ذلك؟ من هدى هذا النبات إلى هذا؟

حللوا ورقة خضراء فوجدوها لها مسام، وهذه المسام تبقى مفتوحة شتاءً مغلقة صيفاً، فالشتاء فيه رطوبة مفتوحة. في الصيف هذه المسام تقترب من بعضها بعضاً فتغلق، ولذلك تحافظ الأوراق على نضارتها في الصيف، لأن المسام مغلقة. فمن هداها إلى ذلك؟ الله سبحانه وتعالى، قالوا: هناك غشاء بين الخلايا وبين الدم، فتصور مجموعة أبنية على اليمين، ومجموعة أبنية على الشمال، ومن الأرض حتى أعلى طابق غشاء يمنع دخول كل ما في الشارع إلى البناء؛ غشاء. فهذا الشارع فيه دم والأبنية الخلايا، وهذه الخلية بحاجة إلى غطاء، فتفتح فتحة أمام مادة البوتاس، فتذهب هذه المادة عبر الغشاء إلى الخلية، فإذا أخذت الخلية حاجتها، أغلق هذا الثقب، وكأن عقلاً كبيراً يخطط لتغذية الخلايا، فالدم فيه

كل شيء، فتأخذ البنكرياس حاجتها، والمرارة حاجتها، والكبد حاجته، والغدد الدمعية حاجتها، واللعاب حاجته، فكل عضو يجري فيه الدم يأخذ حاجته، وهنا يوجد مفرزات قلوية، أو هنا مفرزات غير قلوية، وهنا حامضية؛ حمض كلور الماء؛ مادة مهادنة. فهذه المواد التي تفرزها الغدد الصم من أين تأتي بالمواد الأولية؟ من الدم. فمن الذي يقول يا بنكرياس خذ من الدم مادة كذا وكذا؟ هو الذي خلق فسوّى، وقدر فهدى. هناك أشياء مذهلة في خلق الإنسان، وفي خلق الحيوان، وفي خلق النبات.

الله عز وجل هدى الكائنات لكل ما تحتاجه :

نقار الخشب طائر يعيش على دود ضمن أشجار الصنوبر، والغريب أن له منقاراً يزيد عن اثني عشر سنتمتراً، يقف هذا الطائر على جذع شجرة، ويثقب الجذع حتى يصل إلى الدودة التي تقع داخل الجذع ويأكلها. فهل عنده أشعة ليزر، أو أشعة تحت الحمراء ليعرف مكان الدودة؟ من الذي هداه إلى مكانها بالضبط؟ الله سبحانه وتعالى، النحل حينما تشرع النحلات ببناء البيت الشمعي السداسي، تبدأ بعض النحلات من هذه الجهة، وبعض النحلات من هذه الجهة، فيجتمعن على مسدس نظامي بينهما. فإذا أتيت ببلاطين وقلت للأول من جهة اليمين أن يبدأ، والآخر من جهة اليسار، فهل من الممكن أن يلتقوا على بلاطة نظامية؟ نصف بلاطة، أو ثلاثة أرباع. أما هذه النحلات فقسم يبدأ من هنا، وقسم من هنا فيجتمعان على مسدس نظامي، بدون أن يأخذوا قياسات مسبقة، فهل أخذوا عرض الخلية وقسموه؟ مستحيل؛ وإنما هناك تخطيط..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الإنسان عندما يأكل فوق حاجته يتراكم الشحم في جسمه، فيعمد إلى التنحيف، فيذوب الشحم الذي كان آخر ما توضع في جسمه. فمن أعطاه التوجيهات هذه، وأين آخر مكان توضع فيه الشحم؟ فهذا أول مكان يذوب منه الشحم، فهذا التخطيط تخطيط من؟ الشحم مدخرات غذائية، أحدهما دخل مكاناً وأصبح هناك مجاعة، فهذا الشحم ذاب كله، أو سيارة فيها بنزين وكل غلافها مهيأ لمستودعات احتياط، وكلما انتهى مستودع يفتح الآخر وهي ما زالت تمشي، فانتهى الشحم، فالجسم يستهلك اللحم، وانتهى اللحم يستهلك العظم، وكل هذا والدماغ هو هُو حفاظاً على هذا الدماغ، وهو الفكر المفكر. فالشحم يذوب، واللحم يذوب، والعظم يذوب، ويبقى الدماغ هو هو:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

[سورة مريم: 4]

الكون كله آيات على عظمة الله سبحانه :

غلام دخل على بعض الخلفاء، نظر الخليفة إليه فغضب، فالتفت إلى حاجبه وقال له: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فقال هذا الغلام: أيها الأمير إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ولكنه شرفني. أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم. فهذا تفكير علمي، أول شيء الشحم، ثم اللحم، ثم العظم، ثم الدماغ.

من الحقائق التي لا تصدق عن الدماغ، أن خلايا قشرة الدماغ تستعصي على السرطان حتى الآن. فلم تظهر في العالم كله حالة سرطان في خلايا قشرة الدماغ، مركز المحاكمة، والتذكر، والرؤية، والسمع، والبصر، والتخيل. قال له: أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي يدكم فضول أموال، فإن كانت لعباده فعلام تحبسونها عنا ونحن عباده؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، إن الله يجزي المتصدقين. وإن كانت لنا فعلام تحبسونها عنا؟ فقال الخليفة: والله ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة عذراً. إما أنها لكم أو لنا، أو لعباد الله..

على كلٍّ:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

لو نظرت إلى وكر النمل تجد مادة بيضاء ناعمة جداً على مدخل الوكر، إذا أخذتها وحللتها تجد أنها مجموعة رشيمات القمح. فالنمل يعرف أن في القمحة كائناً حياً إذا أصابته رطوبة نما، وإذا نمت القمحة في وكر النملة خربته. فأول ما يفعله النمل أنه يأخذ رشيم القمحة ويبقيه جانباً. من هدى النملة إلى هذه الحقائق في النبات؟ وإذا أخذ عدساً فبعض الحبوب لها رشيمان، فيأخذ رشيمين من الطرفين حتى لا يبقي مادة حية تنمو في وكره.

ولو دخلت إلى بيت فراشة فراقب بعد لحظات تدخل فراشة أخرى تحاول أن تدخل، فهذه الفراشة المؤنثة، وهذا ذكرها يتفقدها، من هداها؟ فالكون كله آيات.

التناسب في خلقه سبحانه :

الله عز وجل قال:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 2.]

آيات ما أكثرها في الكون فأنى تصرفون؟ فأنى تسحرون؟ أفلا تبصرون؟ أفلا تتذكرون؟ أفلا تعقلون؟ قليلاً ما تشكرون. فالإنسان إذا كان عاصياً لله فهو جاهل جهلاً قبيحاً، فصار:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كلمة (خلق فسوّى) هو التناسب بين الإنسان والجو الخارجي. حرارة من خمس وثلاثين أو أربعين أو خمسين، أما أن تصبح ثمانين أو مئة تحت الصفر فلا يمكن. وهناك هواء، وماء، وطعام، وشراب، ومعادن، وأخشاب، ونار، وحديد، ووقود:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

البيضة مثلاً كل يوم هناك بيضة، فلو كانت كل شهر لأصبح ثمنها خمساً وعشرين ليرة سورية، أو كانت شجرة التفاح تحمل خمس تفاحات فقط، فيصبح ثمن الكيلو مئتي ليرة، فالكمية مناسبة، والحجم مناسب، والطعم مناسب.

والتفاح بكل ما فيه لو كان مرّاً لا أحد يأكلها، أو كانت ذات طعم طيب لكنها بلا غذاء لا يستفاد منها، أو لو توفر فيها كل شيء لكنها قاسية كالصخر فتحتاج لمطحنة بحص حتى تأكلها. إذاً هناك طعم ورائحة، وقوام ومرونة، وجمال ولون ونكهة:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

وقطافها سهل، فلو كانت الشجرة شاهقة، أو مع الأرض مشكلة، فهي واسعة جداً.

التنزيه والتعظيم يحتاجان إلى معرفة والمعرفة رأس الدين :

الكون كله خلق فسوّى، والمخلوقات كلها قدّر فهدى. فهدى الجذور والخلايا، وتغذية الخلايا. فالعين تحتاج إلى مادة قلوية تأخذها من الدم، فمن أعلمها أن هذه المادة تفيد الدمع؟ الله سبحانه وتعالى، شيء أغرب من ذلك، أن جميع خلايا الجسم تتغذى عن طريق الشرايين والأوردة إلا منطقة واحدة في الجسم خلاف هذه القاعدة، وهي قرنية العين لأنها شفافة. فلو عمل ربنا شبكة شرايين في القرنية فكأنك تمشي وراء منخل، لكن ربنا جعل قرنية العين تتغذى بطريقة خاصة؛ طريقة الحلول. أول خلية تأخذ غذاءها وغذاء كل الخلايا، وينتقل الغذاء من خلية إلى أخرى عبر أغشية الخلايا حفاظاً على شفافية العين. من وضع في العين مادة مضادة للتجمد؟ الله سبحانه وتعالى. لذلك هذه الآيات؛ تفكرك في اليوم مما يؤكد لك هذه الآيات:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

فكر بأسمائه، وإياك أن تفكر بذاته! ومعنى سبح: أي نزّه وعظّم. نزّه عمل سلبي، وعظّم عمل إيجابي. والتنزيه والتعظيم يحتاجان إلى معرفة، والمعرفة رأس الدين، والهدف الأسمى من الحياة.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

لا نهاية لعلوه، ولا لكماله، ولا لرحمته، ولا لقدرته، فهو الأعلى سبحانه، أم كنت من العالين، لما وصف بعض المخلوقات أنهم من العالين، فربنا هو الأعلى الذي خلق، فهذه مشيئته، فأنت ليس لك مشيئة في الخلق. لو لم يخلقك الله فمن أنت؟ لا شيء!

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

وللدرس القادم:

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 3 -8 ، التيسير.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

شيءٌ واحدٌ ينتَظِمُ الخلائق كُلّها :

أيها الأخوة الكرام، الأفعى تسْتطيعُ في الظلام الدامس أن تصِلَ إلى الفأرة وتأكلها، فمن هداها إلى ذلك؟ وضَعوا مادَّةً شَمْعِيَّة على عَيْنَيْها، ووضَعوا لها في غُرْفَةٍ فأرةً فاتَّجَهَتْ إليها رأساً إلى أنْ اكْتَشَفوا أنَّ هناك حُفْرَتَيْن صغيرتين في رأسِها تتحَسَّسان إلى الأشِعَّة تحت الحمْراء، فلما غُطِّيَت هاتان الحُفْرَتَان لم تهْتدِ إلى فريسَتِها! وبعضُ أنواع الدبابير تحفِرُ حُفْرَةً في الأرض وتصْطادُ جُنْدُباً، وتغْرز فيه سُماً في مكانٍ خاصٍ فتُخَدِّرُهُ لِيَكون طعاماً طازجاً لِصِغارِها، وتأتي الأنْثى فتَبيض إلى جانب هذه الطعام الطازج، ثمَّ تموت الأنْثى ويموت الذكر ويبْقى هذا الطعام الطازج إلى جانب هذه البُيوض الصغيرة التي حينما تخْرج من هذه البيْضات فتأكُلُ من هذا الطعام، قال تعالى:

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

وهذا الحَيوانُ المَنَوي دخل في بُوَيْضَة ولقَّحَها وانْقسَمَت إلى آلاف الأقْسام في أيام، فمَن هدى بعض هذه الخلايا المُنْقسِمَة لِتَكون عموداً فقْرياً؟ ومن هدى قِسْماً آخر من الخلايا لِيَكون قلْباً؟ ومن هدى قِسْماً ثالثاً من الخلايا لِيَكون عضَلاتٍ؟ وقِسْماً رابعاً لِيَكون عِظاماً؟ وهذا سائِل شفاف في العَيْن؟ وتلك خلايا عَصَبِيَّة وجِلْدِيَّة وشَعْر ومَعي وأمْعاء؟ شيءٌ واحدٌ ينتَظِمُ الخلائق كُلّها قوله تعالى:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كُلُّ ما في الأرض يُنْبئنا إلى زوال العالم :

قال بعض المُفَسِّرين: المَرْعى يُطْلَق على كُلِّ نباتٍ تُنْبِتُهُ الأرض، فهو سبحانه وتعالى أنْعم علينا بِنِعْمة الخلق والإيجاد، وأنْعَم علينا نِعْمَةً أُخْرى هي نِعْمَةُ الإمْداد، فما قيمة الإيجاد لولا الإمْداد؟ قال تعالى:

(والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى)

المرْعى إذاً مُطْلق النبات، ثمَّ قال تعالى:

(فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

معْنى غُثاءً أيْ جَعَلَهُ يابِساً، ومعْنى أحْوى أيْ مُسْوَداً، فالنبات ينتقِلُ من الخُضْرَةِ إلى الاصْفِرار ثم إلى الاسْوِداد، فَأَوْراق الأشْجار مثلاً بعد فصْل الخريف تُصْبِحُ سوْداء اللَّوْن، قال تعالى:

(والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى)

شيءٌ آخر يُسْتَنْبط من تسَلْسُل هذه الكلمات، وهي أنَّ الحياة إلى فناء، مِن خُضْرَةٍ نضِرَةٍ إلى اصْفِرارٍ وذُبول، وإلى موتٍ واسْوِداد، وهكذا حياة الإنسان؛ من شباب واندِفاع وأحْلام إلى كُهولةٍ وشَيْخوخة ومَوْت، وكُلُّ ما في الأرض يُنْبِئنا إلى زوال العالم، غُروب الشَّمْس، ومجيءُ الخريف، وسُقوط أوْراق الأشْجار، قال تعالى:

(والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى)

البشارة الأولى أنْ يا محمد سوف نُقْرِئك القرآن أما أنت فلا تنْسى :

جاءَتْ أوَّلُ بِشارَةٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يرْوي بعضُ كُتاب السيرة أنَّ هذه السورة من أحَبِّ السُّوَر إلى سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحينما قرأ سبِّح اسم ربِّك الأعلى قال: اجْعَلوها في سُجودِكم ونحن في الصلاة نقول: سبحان ربِّيَ الأعلى، فقد كانت هذه السورة مِن أحَبِّ السُّوَر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، الآن جاءَت البِشارة الأولى، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى)

أيْ يا محمد سوف نُقْرِئك القرآن، أما أنت فلا تنْسى، بعضهم فَسَّرَ اللام: لا ناهِيَة، والبعض الآخر: نافِيَة، أيْ أنت لا تنْسى خبر، وفي تفْسير آخر إياك أن تنْسى، إذا قال الله عز وجل: لا تنْسى نهْياً، أيْ عليه أن يبْتَعِدَ عن أسْباب النِّسْيان:

شَكَوْتُ إلى وكيعٍ سوء حِفْظي فأرْشَدَني إلى ترْك المعاصي
وأنْبأني بأنَّ العلم نـــورٌ ونور الله لا يُهْدى لِعاصي

* * *

لا تعْصِهِ في النهار يوقِظك في الليل، قد ينْسَى المرْء بعض العِلْم بالمَعْصِيَة فالمعاصي تُنْسي، فَكِتاب الله عز وجل مهما يكون واضِحاً لَدَيْك، إذا خالَفْتَهُ تنْساهُ، وتُصْبِحُ في حِجابٍ عنه، لذلك الآية تحْتمل الوَجْهَين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: القرآن ذو وُجوه؛ له وُجوهٌ عديدة، سَنُقْرِؤُك فلا تنْسى؛ هذه بِشارةٌ لك يا محمد عليه الصلاة والسلام، حِفْظُهُ علينا بل عَدَّ بعضهم هذا مُعْجِزَةً لِرَسول الله عليه الصلاة والسلام، الإنسانُ الأُمِيّ يقرأ القرآن مرَّةً واحدة ثمَّ يحفظه؛ إنَّ هذا فوق طاقة البشَر، فهذا المُتَعَلِّم

يعود إلى القرآن لما ينْسى ثمَّ ينْسى، كيف حفظ النبي عليه الصلاة والسلام القرآن من أوَّلِهِ إلى آخره لِأوَّل مرَّة؟ قالوا: هذه بشارة، وهي مُعْجِزة إنْ كانت اللام هنا نافِيَة، بِمَعْنى خبر.
وإنْ كانت اللام هنا ناهِيَة، فهذا تأديبٌ لنا عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام؛ أيْ لا تفْعل شيئاً تنْسى معه القرآن الكريم، لو أنَّك خالَفْتَهُ لَنَسَيْتَه.

النبي عليه الصلاة والسلام كان شُغْلُهُ الشاغِل الله فلِذلك لا ينْسى كلامه :

شيءٌ آخر في موضوع النِّسْيان، هناك قانون لو تتبَّعْنا موضوع النِّسْيان في عِلْم النفْس، الإنسان يتذكَّرُ الشيء الذي يهْتَمّ به، هذه قاعِدَة، فلو أنَّ خطيباً أخذ رقم هاتِفِ خطيبَتِهِ، أنا أجْزِمُ أنَّهُ يحْفظهُ أوَّلَ مرَّة، ولا ينْساه أبداً، التاجر الذي عليه دَيْن ذاكِرَتُهُ هي الدَّفتر، فالشيء الذي تُحِبُّهُ وتهْتَمّ له وتطْمحُ إليه لا تنْساه، ولو وعَدَك إنْسان بوَظيفة عالِيَة وأعْطاك رقم هاتِفِه فأغْلبُ الظنّ أنَّكَ تحْفظهُ من دون كِتابة، وإنْ كنتَ مالِكاً لِمَحَلٍّ تِجاري تعرفُ ما تمْلكُ مِن بِضاعَةٍ مادَّةً مادَّة، تقول للغُلام: اِصْعَد للسقيفة على الرفِّ اليمين بَقِيَتْ لنا قِطْعَة فأنْزِلها، ما هذه الذاكرة؟! هذا تأكيد أنَّ الشيء الذي تُحِبُّه ويَعْنيك لا تنْساه، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان شُغْلُهُ الشاغِل الله، فلِذلك لا ينْسى كلامه، فإنْ كانت على سبيل النفي فهذه قانون وبُشْرى، ولا ينْسى إلا من كان غير مُهْتَمٍّ بِهذا الشيء، يُمْكن أن تسأل عن عُنوان شَخْصٍ وأنت لا تنْوي أن تُراسِلَهُ، فإذا بك تنْساهُ، فالنِّسْيان والتَذَكُّر موضوع ضَخْمٌ جداً يحْتاج إلى تَوَسُّع، ولكن مُلَخَّصُهُ أنَّ هناك علاقة عِلْمِيَّة بين التَذَكُّر وبين الاهْتِمام، وقُلْ لي ماذا تذْكر أقل لك بِماذا أنت مُهْتَمّ؟ قال عليه الصلاة والسلام عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

أيْ قد تنْسى، والمُفَسِّرون في هذه الآية لهم مذاهب شَتى، بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى لِحِكْمَةٍ بالِغَة قد يُنْسي نَبِيَّهُ شيئاً، وهذا يحْدث، قال عليه الصلاة والسلام:" اللهم إنِّي بشرٌ أنسى كما ينسى البشر" حينها يكون النِّسْيان من الله عز وجل، كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى ألْقى على المؤمنين أمَنَةً نُعاساً يغْشى طائِفَةً منهم، هذا النُّعاس الذي أصابَهُم هو رحْمَة بهم، وكذلك قد ينْسى الإنسان شيئاً رحْمَةً به، والمؤمن يتَذَوَّقُ هذه الآية، قد ينْسى موْعِداً نِسْياناً قطْعِياً فلو ذهبَ إلى هذا المكان لَكَان شَرّ كبير، يُنْسيهِ الله هذا المَوْعد، ويَمْحوهُ من ذاكِرَتِهِ نِهائِياً، ولا إثْمَ عليه.

مشيئة الله ليس فوقها مشيئة ولا شيءَ يحدُّها أو يُعطِّلُها أو يمنَعُها :

قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

أيْ إلا ما شاء الله أنْ يُنْسيك إياه فإنَّكَ تنْساهُ لأنَّك بشرٌ، المعْنى الثاني دقيقٌ جداً، أنَّ إرادة الله عز وجل ومشيئَتَهُ لا يُمْكن أنْ تُقيَّد، هذا الموضوع يقودنا إلى موْضوعاتٍ أُخْرى؛ أحَدُهم سَمِع أنَّك إذا سافَرْتَ وتَصدَّقْت فإنَّ الله سبحانه وتعالى يحْميك في هذا السفر، فأنت إذا تصَدَّقتَ بِمِئَة لسرة قبل السفر فهل عَطَّلْتَ مشيئة الله عز وجل؟! لا يُمْكن أن يحْدُثَ شيء؟! لا، ما دُمْتَ معه فإن شاء الله لا يحْدثُ شيء، لكِنَّك إنْ دَفَعْتَ الصَدَقَة ونسيتَهُ وانْحَرَفْتَ في السفر، ولو دفعْتَ هذه الصدقة، مشيئة الله مُطْلَقة، قد يقول لك إنسانٌ أنا زكَّيْتُ عن مالي، وله طُمأنينة قاطِعَة أنَّ مالهُ لا يتْلف، فإذا به يفاجئ أنَّهُ تلف! فأنت إن دفعت الزكاة وأيْقَنْتَ أنّ المال لن يُتْلف، وأخذْتَ حُرِّيَتَك بأشْياء ثانِيَة؛ معْصِيَة، إنَّك لن تُقَيِّد مشيئة الله بهذه الزكاة، لا، مع أنَّك زَكَّيْتَ تأتي المُصيبة، لا تُمنعُ المصيبة إلا إذا كنتَ معه، حينها يحْفظك ويحْميك، فإذا دَفَعْتَ جُزْءً من مالك، هل بهذا المال تتعطَّلُ مشيئةُ الله عز وجل؟ لا، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

مشيئة الله ليس فوقها مشيئة، ولا شيءَ يحدُّها أو يُعَطِّلها أو يمْنَعُها، فهذه بشارة؛ نُقْرئك فلا تنْسى أيْ إياك أن تنْسى، وسَنُقرئك فلا تنْسى أيْ أنَّك مُهْتَمّ وهذا قانون، فهذه الآية بشارةٌ من الله أنّ حِفْظ القرآن علينا وليس عليك، وقانون لأنَّك مُحِبٌّ ومُهْتَمٌ ومُولَّهٌ بنا فلا تنْساه، ومُعْجِزة إلا ما شاء الله، أيْ إلا أن تكون مشيئة الله قد قرَّرَتْ أنَّ النِّسْيان ضروري، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني))

[رواه مسلم في الصحيح عن يحيى بن يحيى]

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ينْسى فَمَن نحن؟ لكن نِسْيان النبي عليه الصلاة والسلام لِحِكْمَةٍ بالغة، وإذا كان المؤمن مُستقيماً على أمر الله يُنْسيهِ شيئاً يكون في ذلك الخير الكثير وقد يُنْسي أعْداءه كذلك، وفوق هذا وذاك النِّسْيان نِعْمة من نِعَم الله عز وجل، فَمن منا إلا وأخطأ مع إنسان خطأً إذا ذَكَرَهُ ذابَتْ نفْسهُ خجلاً، فَلَو أنَّ هذا الشُّعور يسْتَمِرّ لانْقَلَبَتْ حياتنا جحيماً، لكن حِكْمة الله عز وجل أنَّ الإنسان ينْسى، فهذه المُشْكِلَة تنْساها بعد أسبوع، وتلك بعد أسْبوعَيْن، وهذه بعد شهْر، فالنِّسْيان أكبر نِعَم الله عز وجل على بني البشر.

الشيءُ المُعْلَن معْلَنٌ أما الشيء المَخْفي فهذا هو الذي يعْرِفُهُ الله عز وجل :

ثمَّ قال تعالى:

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

كما قلتُ لكم في درْسٍ سابق أنَّهُ تبارك وتعالى يعْلم السِرَّ وأخْفى، فالجَهْر من باب أخْفى، والآن في المطارات هناك قوْس إذا مَرَرْتَ ضِمنه فإنَّهُ يتحَسَّس للمعادن كالسلاح وغيره، فهذا الشيء مَخْفي ويتحسَّسُ له هذا الجِهاز فكَيْف إذا أظْهر هذا المعْدن ولم تُخْفِهِ، فهل يحتاجون إلى هذه الآلة؟! يأخذونك فَوْراً، فإذا كانت الأشياء المخْفِيَّةُ تُكْشَف فالأخرى المُعْلَنَة من باب أوْلى، فالشيءُ المُعْلَن معْلَنٌ أما الشيء المَخْفي فهذا هو الذي يعْرِفُهُ الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

في الدرْس الماضي قال تعالى:

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

ما خَفِيَ عن صاحِبك، وقد يُخْفى عنك أنت فلا تعْلم ما سيكون، كما قال الإمام علِي كرَّمَ الله وجْهَهُ؛ علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا معنى أخْفى، وإنَّهُ يعلم الجهْر وما يخْفى، فالجَهْر معْروف، ولكن ما يخْفى عن الناس يعْلَمُهُ الله وما يخْفى عنك يعْلَمُه الله عز وجل، لأنَّهُ يعلم ما يخْفى فمَشيئَتُه مطلقة.

الله عز وجل يحب أن نسْتَقيم اسْتِقامَةً خالِصَةً من أجْله :

مثلاً سمِعَ أحدهم بمَجْلس العِلْم أنَّ الإنسان إذا اسْتقام على أمْر الله يُوَفِّقُهُ الله بحَياته فاسْتقام لا حُباً بالله، إنما حُباً بِنَجاحِهِ في تِجارَتِهِ، يُلْغي كُلَّ المُحَرَّمات التي كان يرْتَكِبُها في تِجارَتِهِ وهو ينتظر التوفيق من الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

جاء هذا الإنسان لِيُطَبِّقَ ما سمِعَ ففوجِئ رغْم اسْتِقامته! ما السبب، تأتي هذه الآية:

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

ربنا يعْلم سِرَّ هذا الإنسان، أنَّهُ اسْتقام كَوَسيلةٍ من وسائِل الرِّبْح، لا حُباً في الله، ولا بما عنده، ولا بتَجَلِّياته ونجاتِهِ من عذابه، ولأنَّ الله يعْلم السِرَّ وأخْفى عندئذٍ ربنا عز وجل يُؤَخِّر عنه التوفيق مُعالجَةً له، وكأنَّ الله عز وجل يقول: يا عبدي اسْتَقِم من أجْلي لا من أجل أن ترْبح، واسْتَقِم اسْتِقامَةً خالِصَةً من أجْلي، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

[سورة الزمر: 11]

مخْلِصاً، فلما الإنسان يأتي بآية من كتاب الله وهي قانون؛ مثلاً قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 97]

فإذا كان قد طبَّقَها من غير إخْلاصٍ وحُباً في سلامته، وحُباً في حياةٍ في الدنيا كاملة ومُرَفَّهَة، فإن طُبِّقَتْ هذه الآية بهذه النِيَّة فإنَّ هذه الآية لن تُطَبَّقَ على هذا المُطَبِّق لأنَّ مشيئة الله عز وجل لا تحُدُّها مشيئة.

البشارة الثانية التيسير :

مَثلاً النائب في المجْلس النيابي له حصانة لكنّ الذي منَحَهُ الحصانة ينْزعها منه أحْياناً إن أساء اسْتِخْدامها، فهناك مشيئةٌ فوق مشيئته، فمَشيئَةُ الذي منحَ الحصانة قد تُنْزَعُ منه، ثمَّ قال تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

وهذه هي البشارة الثانية، التَّيْسير فاليُسْرى مُطْلَقَة، فالأصل أنَّ الله سبحانه وتعالى حينما خلق الدنيا وخلق البشر على هذه الأرض، وضَعَ لهم أهْدافاً، فالهَدَفُ من خلْقِهم أن يتعرَّفوا عليه من طريق الكَوْن، ببَساطة فِكْرِهِم، فإذا عَرَفوه استقاموا على أمْره، وإذا اسْتقاموا على أمْره أقبلوا، فإذا أقبلوا عليه شعروا بلَذَّة القُرْب، فعَمِلوا الأعْمال الصالحة لِيَزْداد إقْبالهم عليه، فإذا عملوا أعْمالاً صالحة أهَّلَتْهُم هذه الأعمال لِيَكونوا إلى الأبد في مقْعد صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر، فهذا هو التخْطيط الإلهي لِخَلْق الإنسان، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

إذا تطابقتْ أهْداف العَبْد مع الهَدَف الذي خُلِقَ من أجْله تيَسَّرَتْ أمورُهُ :

إذا تطابقتْ أهْداف العَبْد مع الهَدَف الذي خُلِقَ من أجْله تيَسَّرَتْ أمورُهُ، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

هذا العذاب لا معْنى له،

وقال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف: 96]

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة فصلت: 30]

وقال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة يونس: 62]

التيْسير في هذه الآية هو تيْسيرُ دَعْوة :

الأصل في الحياة أنَّ الإنسان إذا سار وفْق الأصول التي رَسَمَها الله عز وجل وباتِّجاه الهَدَف الذي رسمَهُ الله له، فإنَّ حياته تنقلبُ يُسْراً لا عُسْراً، إلا أنَّه من شذَّ عن هذا الهدف وخرج عن هذا الطريق وأبْطأ في سُرْعَتِه فإنّ الله سبحانه وتعالى يتَّخِذُ من التَّعْسير عِلاجاً له، لأنَّ مُعْظَمَ الناس في هذه الحياة مُنْحَرِفون والله سبحانه وتعالى يَتَوَلى مُعالَجَتَهُم عن طريق أمْوالهم أو أولادهم أو نِسائِهم أو أنفسهم أو إتْلاف مالهم، فَيَبْدو للساذج أنَّ الحياة كلُّها نَصَب وتعب، ولا راحَة لأحد! وسبحان الله هل خلقنا الله للعذاب! كما يقول بعضهم، هبْ أنَّك الْتَقَيْتَ بِصَفٍّ مُتَخَلِّف عقْلِياً ووجدْتَ كُلَّ الطلاب مُضَيَّق عليهم، فتقول ما هذا التدريس؟! هذه حالة اسْتِثنائِيَّة خاصة بهذه الشُّعْبَة، أما الأصل أنَّ الطالب كرامته وافرة وكذا راحته، ولذلك فمن السذاجة كما قلنا أنْ يظنّ الإنسان لما يعالج ربنا عز وجل بعض عباده بالتضْيِيق عليهم بالأموال والأولاد، وداخل ذلك يظنُّ أنَّ الحياة كلُّها عذاب! لا، الحياةُ كُلُّها يُسْرٌ لِمَن عرف الله عز وجل، فأوَّل شيء في هذه الآية أنَّ هذه بِشارة لسيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ألم يقُم صلى الله عليه وسلم وحْدَهُ داعِياً، فما مضى رُبعُ قرْنٍ حتى تغَيَّر وَجْهُ الدنيا، فهذا هو التيسير، وهذا هو العطاء الذي لا ينتهي، وهذا هو معنى قوله تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء:113]

رجلٌ واحد خِلال خمس وعشرين سنة يُبَدِّلُ وجْهَ الأرض ويُبَدِّلُ الشقاء سعادة، والقلق طمأنينةً، والفقر غِنىً، قال له: يا عَدِيّ لعلَّ الذي يمْنعك من الدُخولِ في هذا الدين ما ترى من فقْرهِم وحاجَتِهم! وأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلَّ الذي يمْنعُك من دُخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثْرة عَدُوِّهِم! وأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالمرأة البابِلِيَّة تَحُجُّ على بعيرها لا تخاف، ولعلَّهُ إنما يمْنعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين أنَّك ترى المُلْكَ والسُّلطان في غيرهم، فوَ الذي نفْسُ محمَّدٍ بيَدِه لَيوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالقُصور البابِلِيَّة مُفَتَّحَةَ للعرب، هذا كلُّه وَقَع! ونُيَسِّرُك لليُسْرى، طبْعاً التيْسير في هذه الآية هو تيْسيرُ دَعْوة، فالإسلام انتشر رغْمَ كُلِّ العقبات و الصُعوبات ورغم أنَّ زُعماء قُرَيْش وَقفوا له كالطَّوْد الشامِخ فما اسْتطاعوا، وتآمروا عليه فما اسْتطاعوا، وحاربوه فما اسْتطاعوا، قال تعالى:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال:30]

النبي عليه الصلاة والسلام كان التيْسير طبيعَةَ من طبائِعِهِ :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

[سورة الطارق: 15-17]

فهذا أوَّلُ شيء أنَّهُ بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، فمادام يدْعو إلى ربِّه فإنَّ الله تعالى يتولى تيْسير أُموره في الدعْوة.

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان التيْسير طبيعَةَ من طبائِعِهِ، بعض الأحاديث الشريفة تُثبت ذلك، منها:عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا]

وكان إذا خلا ببَيْتِهِ فهو ألْيَنُ الناس ضحاكاً بساماً، وكانت الجاريَة تأخذ بيَد رسول الله فتنْطلق به حيث شاءتْ، وكان إذا دخل بيْته لفَّ ثوْبه حتى لا يُوقِظ أهْله، وكان إذا سجد اعْتلى ظهْره الحَسَن والحُسَين، فكان يُطيلُ السجود حتى لا يُزْعِجهما، وكان يقول لهما: نِعْم الجمَلُ جَمَلُكما، ونِعْمَ الحِمْلُ حِمْلُكما، وكذا في لِباسٍ فقد لبسَ العمامة والقلنْسوة والصوف والقطن والكتان والبُرد اليماني، والبُرد الأخضر، وجُبَّةً وقِباءً وقميصاً، وكان يلْبسُ خُفاً أو نعْلاً ورداءً وإزاراً وسراويل، وكان يلْبسُ ما تيسَّر له من اللِّباس،

ولذلك قال علي رضي الله عنه: لا يكون الرجل قيِّمَ أهْلِهِ حتى لا يُبالي أيَّ ثوْبَيْه لبس، إذا كنت يسيراً في المُعاملة تكْتسب هَيْبَةً في المُعاملة، وإذا كان هناك تشْديد على أُمور تافِهَة تُنْتَقَصُ من مكانتك، أما إذا غَضِبْتَ لِمَعْصِيَة ارْتُكِبَتْ في البيت فاغْضَبْ ولا حرج فهو غضَبٌ لله عز وجل.

طعام النبي صلى الله عليه وسلم :

أما في طعامه فهذا رجل قال: لي صديق كان من أعظم الناس في عَيْني، وكان رأسُ ما عَظَّمَهُ في عَيْني صِغَرُ الدنيا في عَيْنَيْه! فكان خارجاً عن سلطان بطْنه، فلا يشْتهي ما لا يجد، ولا يُكْثِر إذا وجد، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يردُّ موْجوداً في الطعام، ولا يتكلَّفُ مفقوداً وما عاب طعاماً قطُّ في حياته، وكان يأكل الحلوى والتمْر والرُّطب والعسل ونقيعُ التمْر، وبعضُ الفَسَقَة يشْربون النبيذ على أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام شربَ النبيذ، وقد كذبوا!

فالنبي عليه الصلاة والسلام ينْبُذُ بعض التمْرات في إناء الماء ويشْربُهُ صباحاً كَشَرابٍ حُلْوٍ؛ من المساء إلى الصباح تمْراتٍ يضعُها في إناء، هذا هو النبيذ الذي شربهُ النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل القثاء والخبز شعيراً أو غيره، والخبز بالخل فقط، وقد دُعِيَ إلى وليمة كانت بالخُبْز والخل! عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((نِعْمَ الْأُدُمُ أَوِ الْإِدَامُ الْخَلُّ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا]

وقال عليه الصلاة والسلام: نِعْمَ الإدام الجوع، وعندها تأكل أيَّ شيءٍ وتراهُ طيِّباً، وكان يقول لو دُعيتُ إلى كُراعٍ لأجَبْتُ - رجلاً خروف فقط - وكان يأكل القديد، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

وكان يأكل الدباء أي اليقْطين، وكان إذا لم يجد طعاماً بالبيت يقول: هل عندكم من شيء؟ يُقال له: لا، فيقول: إني صائِمٌ! لا يردُّ موْجوداً في الطعام، ولا يتكلَّفُ مفقوداً وما عاب طعاماً قطُّ في حياته، وكان ينام على السرير، وعلى الحصير، وعلى الفِراش، وينام على المِطاء - لوح خشب - دخل عليه عمر رضي الله عنه ورآهُ نائِماً على الحصير، وقد أثَّر الحصير على خَدِّهِ الشريف، فَبَكى عمر، فقال له: ما يُبْكيك يا عمر؟! فقال: رسول الله ينام على الحصير، وكِسْرى مِلِكُ الفُرْس ينام على الحرير! فقال له: يا عمر، إنما هي نُبُوَّةٌ وليْسَت مُلْكاً، أما ترْضى أن تكون الدنيا لهم، والآخرة لنا.

النبي عليه الصلاة والسلام كان في أعْماله يُسْرٌ :

كان يقول عليه الصلاة والسلام: فيما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الدين أساسه يُسْرٌ، لا تُشَدِّدوا على أنفسكم فَيُشَدَّدَ عليكم، قيل لبني إسرائيل: اذْبحوا بقرة! فقالوا: ما لونها؟ صفراءُ فاقعٌ لونها، وما هي؟ مِن سؤال إلى آخر حتى أصْبحت البقرة التي أُمِروا بِذَبْحِها منعدمة إلا عند واحدة، فَطَلَبَت ملأها ذَهباً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

[سورة المائدة:101]

وقال صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هل ألبس هذه الكنزة الأجنبيَّة؟ وهل وهل؟؟ قال عليه الصلاة والسلام: إنَّ المنبتَّ لا أرض قطع، هذا الذي يُكلّفُ ناقته فوق ما تسْتطيع لا أرض قطع، ولا ظهْراً أبقى، أصابها الإعْياء فَقَعَدَتْ فقعَدَ معها! والآن سيارات، إذا كَلَّفْتها ما تُطيق تنقطع عن السَّيْر، لقد كان عليه الصلاة والسلام في أعْماله يُسْرٌ، وكان يقول:

((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

وكان يقول: كما عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْهمَا]

وكان يقول عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ))

[أحمد عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ]

أحدهم قرأ حديثاً ولُغَتُهُ ضعيفة فقال: المؤمن كيسُ قُطْنٍ، فقيل له: ما معنى كيسُ قطن؟ فقال: هَيِّنٌ لَيِّنٌ! والحديث المؤمن كيِّس فَطِن حَذِر! وقال عليه الصلاة والسلام عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُؤْمِنُ مُؤْلَفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ))

[أحمد عَن أَبِي هُرَيْرَةَ]

هناك شخْصٌ فظّ غليظ، وإنَّ أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِمِ الذي له حِقْدٌ بقَلْبه، والنبي عليه الصلاة والسلام التقى برَجُلٍ فقال له: ما اسمك. فقال: حَزْن، فقال له: بل أنت سهْل، وجاريَة صغيرة قال لها: ما اسمك؟ فقالت: عاصيَة، فقال لها: بل أنت جميلة، كان يُؤثر اليُسْر في الأمر كُلّه، وإنَّ من المعْروف أنْ تلقى أخاك بوَجْهٍ طلْق.

معان متعددة للآية التالية :

قال تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

هي بِشارة على أنَّ هذا الدين سوف ينتشر، وسوف تعْلو رايَتُهُ في الآفاق وسوف يصِلُ إلى الشرق والغرب، وسوْفَ تُفَتَّحُ لكم البلاد، فهذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني، فقد كان عليه الصلاة والسلام يؤثرُ اليُسْر في الأمر كُلّه.

والمعنى الثالث، أنَّكَ إنْ أحْبَبْتَهُ، وأحْبَبْتَ النبي عليه الصلاة والسلام وصَلَّيْتَ عليه يُحْدِثُ في نفْسِك انْقِلابات لم تكن تعْرِفُها، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الأعراف: 157]

لا بدّ من الإيمان الحقيقي لا الشكْلي :

الإنسان قبل معْرفته بالله عز وجل وصُحْبَتِهِ لِرَسول الله عليه الصلاة والسلام تكون نفسُهُ عبارة عن مجْموعة مُيول، تراهُ مُصِراً عليها، هذا الإصْرار على بعض الشهوات يزول وهذه الأغلال والشهوات التي تُقَيِّد صاحبها تزول بِمُجَرَّد أن تتوب إلى الله عز وجل وتعرف الله، تجد أنَّ تلك القوة التي كانت

تمْنعك عن الامتناع عن الدخان قد زالت! كلُّ شيء لم تستْطع ترْكه يُتْرَكُ بِسُهولة، أنا لا أستطيع غضَّ البصر، ولا أستطيع أن لا أغضب، اِسْتَقِم وسَتَرى! لكن لا بد من الإيمان الحقيقي لا الشكْلي، إذا اسْتَقَمْتَ اسْتِقامَةً حقيقيَّة وغَضَضْتَ بصرك وحَرَّرْتَ دخْلك وبررْتَ والديك وصَلَّيْتَ وذَكَرْت، تجد أنَّ أخْلاقك تغيَّرَتْ تغَيُّراً جذْرياً، وهذا ما تعْنيه هذه الآية:

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الأعراف: 157]

الصادق هو الذي يعرف هذا الكلام، تشْعُرُ وكأنَّ جبلاً أُزيحَ عنك، فالمؤمن خفيف الظل والمحْمل والهموم، فَهُمومه كُلُّها عند الله عز وجل، قال: من جعل الهُموم هماً واحِداً كفاهُ الله الهُموم كلَّها، دَبِّرْ أن لا تُدَبِّر، إذا كنت معي فأنا في حمْل زادي في غِنى، ليس لي إلا أنت يا ربّ وسَتَرى، كُنْ كما أُريد ولا تُعْلِمْني بما يُصْلِحُك، وأنت تريد وأنا أريد فإذا سَلَّمْتَ لي فيما أُريد كَفَيْتُك ما تريد، وإن لم تُسَلِّم لي فيما أُريد أتْعَبْتُك فيما تريد، ثمَّ لا يكون إلا ما أريد، شَرْعُهُ يُسْرٌ.

المنْهياتُ أخطر من المأمورات :

اسْمعوا هذه القِصَّة، جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام أعْرابي يطْلب منه مسألة فأعْطاه، وقال له: يا أعْرابي أأحْسَنْتُ إليك؟ فقال: لا، ولا أجْملت، فغَضِبَ المسلمون غضَباً شديداً وقاموا إليه، فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أنْ كُفوا عنه ثمَّ دخل منْزله، وأرْسل للأعْرابي عطاءً زائِداً وقال له: يا أعْرابي أأحْسَنْتُ إليك؟ فقال: نعم، وجزاك الله من أهْل وعشيرةٍ خيراً - فمَن بدا جفا، وليس معنى بدا سكن البادِيَة، ولكن من ابتعد عن مجالس العِلم، طبعاً يُصبح كلامه قاسياً، فإذا حضر مجالس العِلم أصبْح ليِّناً - فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنَّك قلتَ ما قلت به من ألَمٍ منك فلما كان الغد، جاء الأعْرابي فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ هذا الأعْرابي قال ما قال، فَزِدْناهُ فَزَعَمَ ما زَعَم أنَّهُ رَضِيَ، أفَهكذا يا أعْرابي: فقال: نعم، جزاك الله من أهْل ومن عشيرةٍ خيراً - القِصَّة انتهتْ - اِلْتَفَتَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أصْحابِهِ لِيُعَلِّمَهُم فقال: إنَّ مثَلي ومثلُ هذا الأعْرابي كَمَثَلِ رجلٍ له ناقةٌ شَرَدَتْ عليه فَتَبِعَها الناس فلم يزيدوها إلا نُفوراً، فناداهم صاحبُ الناقة أنْ خَلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرْفُقُ بها وأعْلم منكم بها، فَتَوَجَّهَ إليها صاحب الناقة بين يدَيْها، فأخذ لها من زمامها فرَدَّها هوْناً هوْناً حتى جاءت واسْتناخت وشدَّ عليها رحْلها، واسْتَوى عليها، وإني لو تَرَكْتُكم حيثُ قال الرجل ما قال فقَتَلْتُموه دخل النار! هكذا كان يُعالِجُ أعْداءَهُ صلى الله عليه وسلم، وشَرْعُهُ صلى الله عليه وسلم يُسْرٌ في يُسْر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لأنَّ المنْهِياتُ أخطر من المأمورات، قال تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

وقال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

وقال تعالى:

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

[سورة الحج: 78]

لو تتبَّعْنا أمور الشرْع لَوَجَدْنا أنَّ الشرْع كُلَّهُ يدور على الآية التالية :

الوُضوء في حال غِياب الماء، أو وُجود الأذى في الماء شُرِعَ التَيَمُّم والنبي صلى الله عليه وسلم تيَمَّمَ مرَّةً بِمَسْح اليَدَيْن إلى المِرْفَقيْن، ومرَّةً بِمَسْح اليَدَيْن فقط، والصلاة قاعِداً تجوز، ومُضطجِعاً تجوز، وبالإيماء تجوز، فهل هناك يُسْرٌ أكثر من هذا؟! المُهِمّ أن لا تنقطع عن الصلاة، وكذا في السفر شُرِعَ قصْرُ الصلاة في عَدَد ركعاتها، وقصْرُ الصلاة في الخوف نوعٌ آخر، فَقِبْلَةُ الخائِفِ هي جِهَةُ أمْنِهِ، وقِبْلَةُ المُسافر هي جِهَةُ دابَّتِهِ، والحائض لا تُصَلي تيْسيراً لها، والمريض والمُسافر لا يصومان، والحج من اسْتطاع إليه سبيلاً، والزكاةُ يُمكنُ أن تُقدّم عَيْناً أو نقْداً حتى أنَّ الفُقهاء قالوا: إذا تَزَوَّجَ الشابُ امْرأةً وكانت صغيرةً وخاف عليها أنْ يتْرُكها في البيت وحْدها له أنْ يُصَلي الأسْبوع الأوَّل كُلَّهُ في البيت لا في المسْجد رأْفَةً بها، وكذا الطلاق هو من التيْسير إذا اسْتحالَتْ الحياة الزَّوْجيَّة، والخُلْعُ من التيْسير إذا كانت الكراهِيَّةُ شديدةً للمرأة أنْ تطلب الخلع، فلو تتبَّعْنا أمور الشرْع لَوَجَدْنا أنَّ الشرْع كُلَّهُ يدور على قوله تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -19 أهمية الذكر وطريق التزكية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-01-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى في درس اليوم سُبقت بآيتين يتصل معناها بهما اتِّصالاً وثيقاً :

أيها الأخوة الكرام، وصلنا في سورة الأعلى إلى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى*سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى*الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى*ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى*بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى*إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

لكن هذه الآية سُبقت بآيتين يتصل معناها بهما اتِّصالاً وثيقاً، فقال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى*وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى *فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

التذكير بآلاء الله ونعمائه صِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله :

هذه الآية الأخيرة لها علاقة بما قبلها، فما قبلها قوله تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى)

عبءُ الحفظ ليس عليك، ولكن علينا، أنت لا تنسى وإنَّك مُوَفَّقٌ لغايتك، سنُيَسِّرُك لليسرى، الآن بعد حفظْتَ فلا تنْسى، وبعد أنْ بشَّرك الله عز وجل بتَيْسير دعْوَتِكَ؛ الآن فَذَكِّر إن نفعت الذكرى! وهو أمرٌ لسيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينسحب بالتبعيَّة على كلِّ مؤمن فذكِّر، بماذا؟ بِعَظَمَةِ الله، وعدالته، وبِيَوْم الحساب وبأوامره ونواهيه، وبالدعوة إلى العمل الصالح، وبِحِفْظ الأمانة والعهْد، طبْعاً الفِعْل إذا حُذِفَ المفعول به أضمر! لو قال الله عز وجل: ذَكِّر الناس بِعَظَمَتي لصار التذكير محْدوداً، لكن فَذَكِّر بِكُلِّ شيء! سواء عليك أعَرَفْتَ الناس بالله أم ذَكَّرْتَهم باليوم الآخر، أم حَذَّرْتهم من عذاب النار، أم حَمَّسْتَهم للعمل الصالح، أم وقَّيْتَهُم من المعصية؛ كُلُّ هذا تذْكير.

سيّدنا موسى فيما يُرْوى عنه أنه قال مرَّةً في المُناجاة: يا ربّ أيُّ عبادك أحبُّ إليك حتى أُحِبَهُ بِحُبِّك؟ قال: يا موسى أحبُّ العباد إليّ تقِيُّ القلب نقيُّ اليَدَيْن، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أَحَبَّني وأحبَّ من أَحَبَّني

وحَبِّبَني إلى خلقي، فقال: يا رب، إنَّكَ تعلم أنَّني أُحِبُّك، وأُحِبُّ من يُحِبُّك، فَكَيْفَ أُحَبِّبُك إلى خلقك؟! قال: ذَكِّرْهم بآلائي، ونعْمائي، وبلائي! والفقرة الأخيرة من هذا الحديث القدسي: تُوَضِّح هذه الآية؛ أيْ ذَكِّرْهم بآلائي فإذا حَدَّثتَ إنْساناً عن المَجَرَّة، وعن الشمس والقمر، وعن المُذنَّبات والمسافات في الكون؛ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

هذا باب من أبواب التذكير وصِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله؛ ذَكِّرْهم بآلائي فإن ذَكَّرْتَهُم بالأرض وجاذِبِيَّتِها وحجْمها، وكُرَوِيَّتِها، ودَوَرانِها حول نفْسِها، ومَيْل مِحْوَرِها، ومائِها وبَرِّها وجبالها وأنْهارها، وإنْ ذَكَّرْتَهم بالنبات؛ أنواعه وأصْنافه وزُهوره وأشْجاره والمحاصيل والغابات، أشْجار الأخْشاب والزينة والحدود والفاكهة، والأشجار الدائمَة الخضْرة والمُتساقطة الأوْراق، والحِكْمة من خلْقِها، وطريقة قطْفِها وحصادِها.

التذكير بالبلاء أيضاً صِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله :

وكذا إنْ ذَكَّرْتَهُم بالحيوانات؛ مليون نوع من السمك في البحار وأشْكالها؛ الأسْماك الكبيرة والصغيرة، والأسماك التي تنْشر بُقْعَةً من الزيت حوْلها، وأسْماك الزينة، والأسماك الحِبْرِيَّة تنشر بقعة من الحبر تخْتفي بها، وأسْماك القاع، كل هذا ضِمْن فَذَكِّر إن نفعت الذكرى، وكذا لو ذَكَّرْت الإنسان بِخَلْقه؛ كيف أنه خُلِقَ من ماء مهين، وعضلاته وشرايينه وأعْصابه، وأوْرِدَته وأجْهزته المُتَعَدِّدة، كيف يُحاكم ويُفَكِّر ويتذكَّر؟ وكيف ينْبض قلبه؟ وكيف يتنفَّس؟ وكيف يهضم الطعام؟ وكيف يلقي الفضلات؟ فالتذكير بالآلاء هذه فقْرة، والتذْكير بالنَّعْماء، هذا الهواء الذي نسْتنشقه ما سرُّ ثبات نِسَبِهِ؟ الأوكسجين إلى الآزوت نِسَبٌ ثابتة، مع أنَّ بني البشر يتنفَّسون منذ آدم وحتى قِيام الساعة، والنبات يتنفس؛ فمن جعل هذه النِّسْبة ثابتة؟ ومن خلق حركة الرِّياح، جعل قطبين وخط اسْتواء، وصحارى، وجُزر، يقول لك: مُنْخَفَض مُتَمَرْكز فوق قُبْرُص، قُبْرُص لها وظيفة كبيرة في أمطار الشرق الأوسط، من خلق هذه النِّعَم؟ هذه كلها نِعَمٌ، وكذا البلاء؛ ذَكِّرْهم بالفيضانات والزلازل، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام: 65]

الأمراض النفسية والهم والحزن والقلق، وأنواع الأمراض؛ الأمراض المُسْتَعْصِيَة والمُزْعِجة، الفقر والضيق والإهانة، وهناك عذاب عظيم وآخر مهين، ذَكِّرْهُم، إذاً يا محمد ذَكِّر ويا أيها المؤمن ذَكِّر.

اختلف العلماء في تفسير كلمة (إن) بالذات :

لكنّ الآية تقول:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

اختلف العلماء في تفسير كلمة (إن) بالذات:

1 ـ كلمة (إنْ) شَرْطِيَّة أيْ إنْ نفعت الذِّكرى فَذَكِّرْ بِشَرْطِ أنْ تنْفَع :

بعضهم قال: هذه إنْ شرْطِيَّة، أيْ لا تُذَكِّر إلا إنْ نفعت الذكرى، من هذا التفسير يُستنبط أقْوال كثيرة فسَيِّدُنا علي قال: ما من أحدٍ مُحَدِّثٌ قوما حديثاً لا تبْلُغُهُ عُقولهم إلا كان عليهم فِتْنَة، هناك أثرٌ عن علي رضي الله عنه:

((قالَ عَلِيٌّ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ))

[البخاري عن علي رضي الله عنه]

فإن كانت كلمة إنْ شَرْطِيَّة، أيْ إنْ نفعت الذِّكرى فَذَكِّرْ، بِشَرْط أنْ تنْفَع لذلك قالوا: من تكلَّم بالحِكْمَة لِغَيْر أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهْلها فقد ظلمهم، فهذا معنىً.

2 ـ كلمة (إنْ)ظَرْفية بِمَعْنى حيْثُ أيْ فَذَكِّر حيث تنْفعُ الذِّكرى :

هناك معنى آخر، وهي أنَّها بِمَعْنى حيْثُ، أيْ فَذَكِّر حيث تنْفعُ الذِّكرى أيْ كلما وجدْتَ فُرْصَةَ ذَكِّرْ، وكلما وجدْتَ وسيلةَ ذَكِّرْ، وكلما وجدْتَ قلباً واعِياً ذَكِّرْ، جُلوسك مع الناس فرصة للتذكير، وكذا إنْ زارك شخْصٌ، وإذا خدمْتَ شخْصاً خِدْمَة، وأبْدى لك اهْتِماماً كبيراً فقَلْبُ هذا الشخْص مُهَيَّأً فما عليك إلا أنْ تُذَكِّره، إذاً ذَكِرْ حيث وجدت فرصة وقلباً واعِياً ووسيلةً! هذا المعنى الثاني من معاني إنْ، فالمعنى الأول شَرْطي أما المعنى الثاني ظَرْفي.

3 ـ بِمَعْنى (إذْ) فالذِّكرى تنْفع دائِماً :

المعنى الثالث:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

بِمَعْنى: إذْ، فالذِّكرى تنْفع دائِماً قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

بمعنى إذْ كنتم مؤمنين.

4 ـ بمَعنى (قد) أيْ ذكِّر فقد تنْفعُ الذّكْرى :

المعنى الرابع: بمَعنى: قد، أيْ ذكِّر فقد تنْفعُ الذّكْرى.

إذاً فُسِّرَت بمَعنى إن الشرطية، وبمعنى حيث الظرفيّة، وبمعنى قد التي تُعرب حرف تحقيق إن جاءت قبل فعل الماضي، وتُعْرب حرف تقليل إن جاءت قبل فعل مضارع، وبمعنى إن الدالة على الثبوت، فأكبر مهمّة في الحياة أمام المؤمن أن يُذَكِّر عباد الله عز وجل بالله تعالى وعظمته عن طريق آلائه ونِعَمِهِ ونِقَمِهِ، فإذا ذكّرْتهم بآلائه يُعَظّمونه، وإذا ذكّرْتهم بنِعَمِهِ يُحِبُّونه، وإذا ذكّرْتهم ببَلائه يخافونه، فلا بد أن يجتمع في قلب المؤمن الخوف والمحبّة والتعظيم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني بحبّ الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي))

[رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس]

وهناك حديث آخر: "أنا جدّ كل تقي، ولو كان عبْداً حبشِياً ".

من أمر بمَعْروف فلْيَكُن أمرهُ بالمعْروف :

الآيات التي قبلها، ها قد أقْرَأناك فلا تنْسى، وها قد يسَّرْناك لليُسْرى، فَذَكِّرْ التذكير مبْني على هاتين الآيتين، أو على هذين السَّبَبَيْن، فإذا الإنسان زَوَّدوه بخُبراء، وأعْطَوْهُ دعْماً كافٍ ولم يتحَرَّك! نقول له: لم لا تتحرَّك؟! ها قد أقْرَأناك فلا تنْسى، وها قد يسَّرْناك لليُسْرى فَذَكِّر إن نفعت الذّكْرى، هذه الآيات إذا أردْنا أنْ نسْحَبَها قليلاً للمؤمن، ها قد عرفْتَ شيئاً من كتاب الله، وها قد يسَّرْنا لك عملك في الدنيا، فلماذا لا تُذَكِّرُ بنا؟! قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة: 152]

أبعد الناس عن الهداية في الأرض فرعون! قال تعالى حكاية عنه:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

ومع ذلك قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

فالإنسان لا ييأس، ذكروا أنَّ رجلاً أراد أنْ يعظ أخاه بِقَسْوة فقال له: ولم القسْوة يا أخي؟! لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرّ منك؛ أرسل موسى إلى فرعون! من أمر بِمَعْروف فلْيَكُن أمرهُ بالمعْروف.

أهمية الذكر كما ورد في القرآن والسُّنة :

قال تعالى:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران: 159]

هذه الآية دقيقة جداً وينبغي أن تكون في قلب كلٍّ منا، وهل نؤاخذ بما نقول؟ قال له:

((فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!!))

[الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

لا يستقيم إيمان عبْد حتى يسْتقيم قلبه، ولا يسْتقيم قلبه حتى يسْتقيم لِسانه، فهذا الإنسان لا بد أن يكون ذاكراً لله عز وجل، دخل على سيّدنا عمر بن عبد العزيز وَفْدُ الحِجازيين يتقدَّمُهُم غُلامٌ صغير لا تزيد سِنُّه عن أحدى عشْرة سنة فَغَضِبَ سيّدنا عمر وقال: يا غُلام اجْلِس! ولْيَقُمْ من هو أكبر منك سِناً، فقال هذا الغُلام الصغير: أصلح الله الأمير، المرءُ بِأصْغَرَيْهِ قلبه ولسانه، فإذا وَهَبَ الله العبد لِساناً لافِظاً، وقلباً حافِظاً فقد اسْتَحَقّ الكلام! ولو أنَّ الأمر كما تقول لكان من هو أحقّ منك في المجْلس.

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني - موطِنُ الشاهد - وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

من أعطاه الله إمْكانيات التذكير به فهذا فضْلٌ كبير منه :

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((.. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ..))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فإذا أعْطاك الله إمْكانيات التذكير بالله عز وجل فهذا فضْلٌ من الله عليك كبير، إذا أراد ربُّك إظْهار فضْلِهِ عليك، خلق الفضْل ونسَبَهُ إليك، والإنسان لا ينسى أهله وزوجته وأولاده وجيرانه وزملاءه وكل من يُصادف؛ فَذَكِّرْ إن نفعت الذكرى، فذكِّر حيث نفعت الذكرى، أي في الوقت المناسب وفي القلب المناسب وبالكلام المُناسب، قال تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

[سورة الشرح: 7-8]

ذكِّر إذْ نفعت الذكرى فالذِّكرى تنْفع دائِماً، وذكِّر بمعنى (قد) فقد تنْفع الذِّكرى، العوام يقولون كلمة: اضرب هذه الطينة بهذا الحائط، إذا لم تُلصق تكون عبرة، فَهَمُّ المؤمن أن يدْعوَ إلى الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

ثمَّ قال تعالى:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

ربنا عز وجل قال: الأشقى ولم يقل الذي لم يخْش، بهذه البلاغة صار الذي لا يتذكر هو الأشقى، والأشقى على وزْن الأفعل وهو اسم تفْضيل، أي الأشقى إطْلاقاً؛ الأشقى في الدنيا والأشقى في الآخرة، وفي تفكيره وفي حياته الزوجيّة ومع أولاده وتِجارته وتعامله ووظيفته، وفي خريف عمره، وساعة موته والبرزخ والآخرة، قال تعالى:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

الذي يتذكر هو صاحب القلب الحيّ؛ وعلامة حياة القلب الخشية.

آيات قرآنية تبين حال القلب الميِّت الذي لا يذكر ولا يخشى :

القلب الذي ينبض بالحياة هو الذي سيتذكّر، أما القلب الميِّت فلا يذكر، وربُّنا سبحانه يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

[سورة النحل: 21]

ويقول تعالى:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

[سورة المنافقون: 4]

ويقول تعالى أيضاً:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ)

[سورة المدثر: 50]

ويقول تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الجمعة: 5]

الخشية أخصُّ ثمار العلم :

هذا القلب الذي لا يذكر هو قلب ميِّت، علامة الحياة الخشية، أخصُّ ثمار العلم الخشية؛ فإن لم تكن الخشية فالعلم إن وجد فلا قيمة له، سيَذَّكَّر من يخشى؛ هذا الذي ينطوي على قلب حيّ علامة حياته الخشيَة فهو يذكر، وهذا الذي يعرض عن الحق هو الأشقى، ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار: 13-14]

بعضهم يفهم هذه الآية أنّ إطْلاقها يبْقى مطلقاً، في نعيمٍ في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هناك نعيم، ففي زواجه نعيم، وبين حَيِّه وجيرانه هناك نعيم، وله في الدنيا نعيم قبل الآخرة لأنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

هذا الإطلاق على إطْلاقه، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يقول:

((الناس رجلان رجل بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله))

[الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر]

فلا يوجد حلّ وسط إما أن تكون سعيداً وإما أن تكون شَقِيّاً، إما أن تكون سعيداً بِمَعْرِفَتِه والصلة به، وإما أن يكون المرء شَقِيّاً بالابتعاد عنه والجهل به:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

تبْديل الكلمات بالآيات إعْجاز، بِحَسْب تفكير الإنسان الساذج يقول: سيَذَّكَّر من يخشى ويتجنَّبُ من لا يخْشى! لما ربنا قال: الأشقى، فُهِمَ من هذا أنَّ الذي لا تنْفعه الذكرى هو الأشقى قاطبة.

كلّ عطاء ينتهي بالموت ليس بِعَطاء :

ثمّ قال تعالى:

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)

فالكُبرى في أمدها، إنَّ أهل النار لَيَبْكون وإنهم ليَبْكون الدم، ولو أنّ السُّفن أُجْرِيَت في دموعهم لَجَرَتْ النار الكبرى في مُدَّتِها إلى الأبد، أكبر رقمٍ يتصَوَّرُهُ ذِهْنُك ضَعْهُ صورة واجعل المخرج لا نهاية يكون العدد هو الصفر ألف ألف ألف ألف...! فأنت إذا كَسَبْتَ أكبر رقم إلى لا نهاية يصبح لا شيء، لو أخذت قلم حِبْر ووضعت حاقَّتَه على كيس طحين فكم من ذرة ستلصق به؟ إذا كل ذرة طحين مليون ملْيون سنة، فكم في الكيس من مليون سنة؟ وكم في الكيسين؟ وكم لو قدرنا الموجود في القطر السوري؟ فالأبد أطول، ويصْعُب تصوّره، لما ربنا عز وجل قال:

(خالدين فيها أبداً)

[سورة الجن: 23]

لذلك كلّ عطاء ينتهي بالموت فهو ليس بِعَطاء، الكريم لا يفعل هذا، مادام ينتهي بالموت فهو لا يُسمى عطاءً، سيدنا علي يقول: فلْيَنظر عاقل بِعَقْله أنَّ الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ من قال: أهانه فقد كذب، ومن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعْطاه الدنيا، لو أنَّ الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شَرْبة ماء، الدنيا جيفة طُلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسْعى من لا عقل له! إنَّ أكْيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، وأحْزَمَكُم أشَدَّكم اسْتِعْداداً له، ألا وإنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والتَّزَوُّد بِسُكْنى القبور، والتأهُّب بِيَوْم النشور، فالعطاء في الدنيا لا يُسَمى عطاءً:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً *وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

[سورة الفجر: 15-20]

ولذلك قال ربنا عز وجل:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

جَهَنّم صعبة وأصعب ما فيها الخلود فيها :

قال تعالى:

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

ثمَّ هذه للترتيب غير الزمني لِتَرْتيب الرتبة، دُخول النار صَعْبٌ جداً والأصعب من ذلك البقاء فيها إلى الأبد، الذي يصلى النار الكبرى، والأصعب من هذا أنه لا يموت فيها ولا يحيى! لا يموت فَيَسْتريح، ولا يحْيى فَيَسْتريح، لا يموت فَتَنْزاح عنه هذه العذابات ولا يحْيى فَيَرْتاح منها، جَهَنّم صعبة وأصعب ما فيها الخلود فيها:

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى *ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

الذي لا يخاف من كلام الله فَمِن كلام من سَيَخاف؟! إذا كانت هذه الآيات التي هي من خالق الأرض والسماوات لم تخلق في نفسه خوفاً فَمِما يخاف إذاً! لذلك قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

الفلاح أيْضاً مُطلق، نجح، وتَفَوَّقَ، سَعِد، الناس لهم مقاييس للنجاح، فَمَن حصَّل دخْلاً كبيراً قالوا: فلان نجح في حياته! وكذا ومن حصَّل منصِباً عالِياً، ومن كان ناجحاً في بيْتِهِ وأولاده ومع زوْجَتِهِ هذه كلها مقاييس البشر، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

تطْهير النفس وتحْلِيَتها هو التَزَكي وهذا هو الفلاح :

ربنا عز وجل يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

الذي نجح وأفلح وسعِد وتفَوَّق وحقَّقَ الهدف، وسعِدَ إلى أبد الآبدين هو من تزَكّى، اُنظر إلى حال الناس في هذه الأيام، من مِن الناس يعْنيه أمر نفسه؟ الناس جميعاً يعْنيهم أمر دُنياهم؛ بيْتُهُ واسع ومُزَيَّن، ومَرْكب نقْل مُريح وفخْم، ويحْتاج إلى دخْلٍ كبير، ولا بد أنْ يسَرّ بالحياة، ولبسٌ جيّد ومظهر لائق، ووقت فراغ غَنِيّ بالنزهات والسهرات! من الذي يعْنيه أمْر نفسه؛ قد أفلح من تزكى! كُلّ هذه المظاهر

الماديَّة تنْتهي بالموت مهما عَلَوْتَ في الدنيا، ومهما كَثُرَ مالك، مهما غُصْتَ في نعيمها، يأتي الموت فَيَسْلُبُك كُلّ هذه المُتَع والمسرات والنعيم في ثانِيَة واحدة، لكن الفلاح والنجاح أن تتزَكى، ما معنى تتزَكى؟

قال بعضهم: قد أفلح من تزكى؛ أيْ مَن طَهَّرَ نفسه من الأدران الخبيثة لأن أمْراض الجسد تنتهي بالموت! لكن خَطَرَ أمراض النفْس يبْدأ بالموت، واحدٌ مُتَكَبِّر وحقود وحسود لئيم، يُحِبّ ذاته، ويقبل أن يبني مَجْدَهُ على الآخرين، وثَرْوَتَهُ على فقْر الآخرين، وأن يبني نفسه على إتْلاف الآخرين، وهو في الدنيا مُخَدَّر، الناس نِيام إذا ماتوا انتَبَهوا، فهذا الذي تزكى طَهَّر نفسه من كُلّ الأدران والمُيول المُنْحَرِفة ومن كُلّ الشهوات والنقائِص فقد أفلح، ومن معاني التزكية أيضاً التَحَلّي بالكمال والتخلّي عن الانحرافات، فلا بد من تحْلِيَة وتَخْلِيَة، فالصباغ قبل أن يغمس القماش في الدهن يقوم بِتَنْظيفه، فإن كان في القُماش مواد زَيْتِيَّة فالصِّبَاغ لا يعْلق ولا يؤثر فيه، فلا بد من تحْلِيَة وتَخْلِيَة، لا بد من تطْهير النفْس من الأدران، ثمّ تَحْلِيَتِها بالكمال، فالتطْهير والتَّحْلِيَة هو التَزَكي، وهذا هو الفلاح، لأنَّهُ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، هذا الجُمود الكبير الذي يبْذِلُهُ الإنسان في الدنيا كي يُطَهِّرَ نفسه من كُلّ دَرَنٍ وعُجْبٍ وشِرْكٍ واسْتِعْلاء وكِبْر وحِقْد وضغينة وأثَرَة وحُبِّ الذات؛ هذه الجُهود يرى ثَمَرَتَها عند الموت قال تعالى:

(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 58]

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ)

[سورة الحجر: 46]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

[سورة الحاقة: 19]

الجَوْهر أنْ تعْرفَ الله وأن تكْسَبَ حياتك :

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات: 17]

هذه الآية واضحة ولكن هل أنت في مُسْتَواها؟! هل لك رؤيَة تنطبق على هذه الآية؟ إنْ كانت لك رؤية خِلاف هذه الآية... فإذا رأيتَ إنْساناً حَقّقَ دخْلاً كبيراً جداً فهل تقول: هذا هو الفالح! أين الآية إذاً؟! قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص: 79]

من لم تكن له رؤية مُطابقة لِهذه الآية فحالُهُ خطيرة ولو فَهِمَها وحفِظَها وقرأها وتلاها في الصلاة، ليستْ العِبْرة أن تقرأ الآية إنما أن تعيشَها وأن تكون في مُسْتواها، أن تنطبق رؤيتك عليها؛ قد أفلح من تزكى، لذلك سيّدنا الصديق ما ندم على شيء من الدنيا فاته قطّ! فالحياة مُؤَقَّتَة، فإذا اختار الله لك أن تكون مُوَظَّفاً ودَخْلُك محْدود فارْضَ بهذا، المُهمّ أن تكون صِحَّتُكَ طيِّبَة، وإيمانك جيّد، وحياتك مُسْتَقِرَّة وهادئة، كل متاع الدنيا ليس هو جوْهر الحياة؛ الجَوْهر أنْ تعْرِفَ الله، وأن تكْسَبَ حياتك.

فَلَيْتَكَ تَحْلـو والحياةُ مريـرَةٌ وليْتَكَ ترْضى والأنام غِضاب

وليْتَ الذي بيني و بينك عامـرٌ وبيني و بين العالمين خراب

إذا صَحَّ منك الوَصْل فالكُلّ هَيِّنٌ وكُلُّ الذي فوق التراب تُرابُ

* * *

طريق التزْكِيَة :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

كيف تزْكو النفْس؟ إذا ذكَرْتَ اسم الله فَصَلَّيْت، هذا طريق التزْكِيَة، فعلى الإنسان أن يعرف أسْماء الله الحُسْنى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْماً مئة إِلَّا وَاحِداً لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هل عَرَفْتَ رحْمَتَهُ ولُطْفَهُ وقُدْرَتَهُ وحِكْمَتَهُ ورأفته؟! ماذا عرفْتَ عنه إذاً سبحانه؟! إذا رأيْتَ بلاءً تقول: والله شيءٌ مُحَيِّر! أنت إذاً لا تعرف الله، وتقول: فلان يمشي على الطريق المُستقيم وكُلّ يوم مُصيبة، وفلان طريقه مُعْوَجَّة ومُرْتاح، كان هذا دليلاً على عدم معْرفَتِك لله تعالى! كأنَّك تشُكُّ في حِكْمتِه وعدالته، قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

لا تزكو النفسُ إلا بمعْرِفة الله والإقبال عليه :

لذلك لا تزكو النفسُ إلا إذا ذكر صاحبها اسم ربِّهِ فَصلّى، فَمَنْ ذكر اسم ربِّهِ فقط لا تزْكو نفْسُهُ، فلا بد من معْرِفة الله والإقبال عليه، فالمعْرفة من دون تَحَرُّك لا قيمة لها، قال تعالى:

(ففِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات: 50]

المعْرِفَة تحْتاج إلى تَحَرُّكٍ نحو الله عز وجل، حسناً ما هي العقبات التي تقف بين الناس كي يُحَقِّقوا النجاح والفلاح؟ وبين أنْ يُحَقِّقوا هذا الفلاح والتَفَوُّق؟! وبين أن يُزَكوا أنفسهم؟ وبين أن يذكروا اسم ربِّهم فَيَتَّصِلون به؟ ما العقبات؟! قال تعالى:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

تُؤثِرون الدنيا العاجلة على الآخرة الباقِيَة، تُؤثِرونَ عَرَضاً سخيفاً قليلاً تافِهاً ومُؤَقَّتاً على جنَّةٍ عَرْضُها السماوات والأرض، فالله عز وجل عَرَّفَ الفلاح وطريقهُ وبيَّنَ عَقَباتِهِ، عَرَّفَ الفلاح وهو التَزَكي؛ تطْهيرُ النفْس من الأدْران وتَحْلِيَتُها بالكمال تهْيئاً لها لِتَكون في جِوار الله عز وجل إلى أبد الآبدين، وطريق هذه التزْكية أن تعرف الله وأن تتصِلَ به، والعَقَبَةُ هو الدنيا، الدنيا هي رأس كلِّ خطيئة، وحُبُّكَ الشيء يُعْمي ويُصِمّ.

الآخرة خير وأبقى :

ثمَّ قال تعالى:

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ربنا عز وجل يُقدِّم لكم هذه النصيحة! لو قُلتَ لِشَخْصٍ هل تقبل ألف ليرة بالشَّهْر أم خمسة آلاف دفعة واحدة ولا يوجد بعدها شيء؟! فهذا الخِيار يجْعله يرى للبعيد وتراهُ يُقدِّم الدفعة الشهرية على الدفعة الواحدة المُنْتَهِيَّة!! والآخرة خيرٌ وأبقى، ليس فقط أبقى بل هي خير، كلام ربِّ العالمين، فإذا لم يُصَدِّق شخْصٌ هذا الكلام يكون أحْمقاً، والآخرة خير وأبقى إلى الأبد، مثلاً شخصٌ مُعْتنٍ ببيْتِهِ مُرَتِبٌ لِحالِهِ فلما ينتهي من ترْتيبه يأتيه الأجل، يُدْفن، يحزن عليه أهله ثم قليلاً فقليلاً ينسَوْن الميِّت! معنى ذلك أنَّه هناك فناء، إنَّ أكيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لِما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ثمَّ قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

ليس هذا الكلام شيءٌ جديد ولم يُذْكر من قبل، هذه الحقائق أزليَّة وأبديَّة لم تكُن في القرآن فَحَسْب بل في التوراة الإنجيل وصُحُف إبراهيم وموسى، جاء في الإنجيل: أنا الطريق والحق والحياة، فَكُلّ غُصْنٍ لا يثبتُ فيَّ يُقْطع ويُلْقى في النار، أنا الكَرْمَةُ الحقيقيَّة وأنتم الأغْصان؛ هذا عن سيّدنا عيسى، فلو قرأت التوراة والإنجيل قبل التحريف وكما أُنْزل لَرَأَيْتَ تَطابُقاً بين التوراة والإنجيل والقرآن:

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

بعض ما في صُحف إبراهيم وموسى :

صحابيٌّ جليل سأل النبي عليه الصلاة والسلام؛ فعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قلتُ: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ فقال: كانت أمْثالاً كُلَّها: أيها المُبْتلى المغْرور، لم أبْعَثْك لِتَجْمَعَ الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثْتُك لِتَرُدَّ عني دَعْوة المظلوم، فإني لا أرُدُّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغْلوباً على عقْله أنْ يكون له ساعاتٌ يُناجي فيها ربَّهُ، وساعةٌ يُحاسِبُ فيها نفْسَهُ، وساعةٌ يتفكَّرُ فيها في صُنْع الله، وساعة يخْلو فيها لِحاجتِهِ للمطْعم والمَشْرب، وعلى العاقل أن لا يكون مُسافراً إلا لِثَلاث: تَزَوُّدٌ لِمَعاد، أو شُغْلٍ لِمَعاش، أو لَذَّةٍ في غير مُحَرَّم، وعلى العاقل أن يكون بشيراً في زمانه، مُقْبِلاً على شَأنه، حافِظاً لِلِسانه، ومن حسَبَ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعْنيه، قلتُ: يا رسول صلى الله عليه وسلَّم، فما كانت صحف موسى عليه الصلاة والسلام؟ فقال: كانت عِبَراً كُلّها؛ عَجِبْتُ لِمَن أيْقَن بالموت كيف يفْرح، وعجِبْتُ كيف أيْقَنَ بالنار ثمَّ هو يضْحك، وعَجِبْتُ لِمَن أيْقن بالقَدَر ثمَّ هو ينْصَب، وعَجِبْتُ لِمَن يرى الدنيا وتَقَلُّبَها ثمَّ يطمئِنُّ إليها، عَجِبْتُ لِمَن أيْقن بالحِساب غداً ثمَّ لم يعْمل! قُلتُ: يا رسول الله أوْصِني؟! قال: أوصيك بِتَقْوى الله تعالى فإنَّها رأسُ الأمر كُلِّهِ، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: عليك بِتِلاوة القرآن وذِكر الله تعالى فإنَّهُ لك ذِكْرٌ في السماء ونورٌ لك في الأرض، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: إياكَ وكَثْرَةَ الضحِك فإنَّهُ يُميتُ القلب، ويذْهَبُ بنور الوجه! فقلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: عليك بالجِهاد فإنَّهُ رَهْبانِيَّةُ أُمَّتي؟ فقلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: أحِبَّ المساكينَ وجالِسْهُم، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: اُنْظر لِمَن هو تحْتك ولا تنْظر لِمَن هو فوْقَكَ فإنَّهُ أجدر أن لا تزْدَري نِعْمَةَ الله عليك، قلت: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: قُلْ الحق ولو كان مُراً، قلتُ: يا رسول زِدْني؟ فقال: لِيَرُدَّكَ عن الناس ما تجده في نفْسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي - أي تغْضب عليهم - وكفى بِكَ عَيْباً أن تعْرف من الناس ما تجْهَلُهُ من نفْسك، ثمَّ ضرب بيَدِهِ على صدْري وقال: يا

أبا ذر لا عقل كالتدْبير، ولا ورعَ كالكَفّ، ولا حُسْن كَحُسْنِ الخُلُق، هذا بعض ما في صُحف إبراهيم وموسى، فربنا عز وجل يقول:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى*إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

الحق قديم فَمُنذ أن خلق الله الأرض ومن عليها هذا هو الحق وهو الطريق المُستقيم، فَمَن سار عليه سعِد ومن حاد عنه شَقِيَ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1 ـ16، موقف المؤمن وموقف الكافر يوم القيامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-01-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

للاستفهام معانٍ كثيرة

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم: سورة الغاشِيَة، قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

هل حَرْف اسْتِفْهام، وحرف الاسْتِفهام في اللغة يعْني طلب العِلْم بِمَجْهول، هذا هو الاسْتِفْهام، قد تسأل إنْساناً: ما اسْمُكَ؟ كم معك من نُقود؟ أين تسْكن؟ كيف حالك؟ فالاسْتِفْهام طَلَبُ العِلْم بِمَجْهول لكنَّ الاسْتِفهام يخْرُجُ عن الاسْتِفْهام وعن هذا التعْريف إلى معانٍ كثيرة:

1 ـاِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

[سورة المائدة: 91]

هذا اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر؛ هل أنتم مُنَفِّذون لِكَلامي؟

2 ـاِسْتِفهامٌ بِمَعْنى النَّهْي :

وهناك اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى النَّهْي، قال تعالى:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

[سورة الأحزاب: 37]

قال تعالى:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[سورة الرحمن: 60]

3 ـ اسْتِفْهامٌ بِمَعْنى التَّسْوِيَة

وهناك اسْتِفْهامٌ بِمَعْنى التَّسْوِيَة قال تعالى:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يس: 6]

4 ـ استفهامٌ بِمَعْنى الإِنْكار :

وهناك استفهامٌ بِمَعْنى الإنْكار قال تعالى:

(أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الأنعام: 40]

وقال تعالى:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[سورة الزمر: 64]

5 - اسْتفهامٌ بِمَعْنى التَّشْوِيق :

وهناك اسْتفهامٌ بِمَعْنى التَّشْويق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الصف: 10]

6 ـ اسْتِفهامٌ بِمَعْنى الاسْتِئْناس :

وهناك اسْتِفهامٌ بِمَعْنى الاسْتِئْناس، قال تعالى:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه: 17]

هل المولى عز وجل لا يعْرف ما بيَمينه؟! هذا من قبيل الاسْتئناس كي يستأنس سيّدنا موسى بالله عز وجل.

7 ـ اسْتِفهامٌ بِمَعْنى التَّقْرير :

وهناك اسْتِفهامٌ بِمَعْنى التَّقْرير قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[سورة الشرح: 1]

أيْ لقد شرَحْنا لك صدْرك.

8 ـ اسْتفهام بِمَعْنى التَّهْويل :

وهناك اسْتفهام بِمَعْنى التَّهْويل، قال تعالى:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

وقوله تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

[سورة القارعة: 1-3]

9 ـ اسْتفهامٌ بِمَعْنى التعظيم :

وهناك اسْتفهامٌ بِمَعْنى التعظيم، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

10 ـ اسْتفهام بِمَعْنى التعجُّب :

هناك اسْتفهام بِمَعْنى التعجُّب، قال تعالى:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً)

[سورة الفرقان: 7]

11 ـ استفهامٌ بِمَعنى الوعيد :

وهناك استفهامٌ بِمَعنى الوعيد قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

وقوله:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[سورة الفجر: 6]

الاسْتِفهام في الآية التالية يُعْطي أربعة معانٍ في وقتٍ واحدٍ :

الاستفهام في التعريف الدقيق: طلب العلم بِمَجْهول وقد يخرجُ الاسْتفهامُ عن هذا التعْريف إلى معانٍ كثيرة، فَرَبُّنا سبحانه وتعالى حينما يقول:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

قال المفسرون: هذا الاسْتِفهام يُعْطي أربعة معانٍ في وقتٍ واحدٍ؛ معْنى التَّعَجُّب، ومعْنى التعْظيم، ومعْنى التَّشْويق، ومعْنى التَّقْرير في قوله تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

أمَّا كلمة (أَتَاكَ) فيُروَى أن النبي عليه الصلاة والسلام سمع صحابيّاً يتلو هذه الآية:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

فقال عليه الصلاة والسلام: "بلى لقد أتاني"، لأنه رأى بأنه معنِيٌّ بهذه الآية، ورُبَّما يَظُنُّ المؤمن بأنه ليس معنيًّا بها، بل إن كل آية تعني النبي عليه الصلاة والسلام تعني كل مؤمن بالتبعية؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

قد يقول قائل: وما فضلُ النُبُوَّة إذاً؟ نقول له: النبُوَّةُ مقام، والنبوة علم، لكن التطبيق يجب أن يكون دقيقاً، هل يُسمَح لممرِّضٍ أن لا يُعَقِّم الإبرة؟! يجب أن يسلك الممرض وهو يَحقِن إبرةً كما يسلك أعلى طبيب في الدنيا، تعقيم دقيق، واعتناء، وبُعدٌ عن العظم، هذا لابدَّ منه. فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فكلمة (هل أَتَاكَ)، قال عليه الصلاة والسلام: "بلى لقد أتاني".

هناك معنيان لكلمة الْغَاشِيَةِ :

أيُّها الأخ الكريم:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

الْغَاشِيَةِ، ما هي الْغَاشِيَةِ؟ الْغَاشِيَةِ يوم القيامة، ولِمَ سُمِّيت الْغَاشِيَةِ؟ هناك معنيان لكلمة الْغَاشِيَةِ:

1 ـ معنى الْغَاشِيَةِ الشيء يحلُّ بأرضٍ ما :

المعنى الأول: أن الشيء الذي يغشى بمعنى يَحُلُّ، غشيهم كربٌ: أي حلَّ بهم كربٌ، قال تعالى:

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

[سورة النجم: 16]

أي حلَّ بها و ما حلَّ من تجلّيات، غشيَ القومَ أي نزل بديارهم، قال الخليفة المنصور لأبي حنيفة وقد زاره مرَّةً: يا أبا حنيفة لِمَ لا تتغشَّانا؟ أي زُرْنا، فأجابه أبو حنيفة: ولِمَ أتغشَّاكم وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه؟ وهل يتغشَّاكم إلاَّ من يخافكم على شيء؟ إذاً معنى الْغَاشِيَةِ: الشيء يحلُّ بأرضٍ ما، هذا المعنى الأول، أي يوم القيامة يحلُّ بالناس.

2 ـ المعنى الثاني هي الغشاء وهو السِّتر :

المعنى الثاني: هي الغشاء وهو السِّتر.

بجمع المعنيين يبدو أن يوم القيامة تُنسي الإنسان كلَّ شيء. إذا نزل واحدٌ إلى مركز المدينة، وكان يريد أنْ يسأل عن أسْعار البلاط أو كان يريد أنْ يشتري آجر، وعليه إنجاز مُعاملة بالماليَّة، مطلوبٌ منه براءة ذِمَّة، أو عليه أنْ يُراجع المُختار من أجل هَويَّة ابنه، هذا الإنسان أصاب ولداً بالسيارة، هذه القائمة كلها تُنْسى، ويدخل في موضوعٍ آخر ما كان في باله، وموضوع كم أدفع دِيَّة هذا الغُلام؟ يا تُرى هل هناك سِجْن أمْ لا؟ وتجده ارْتَعَدَتْ فرائِصُه وتغَيَّر لَوْنه، ودخل في موضوع آخر لم يكُن في حسابه! معنى غَشِيَهُ الهَمّ أي أنْساهُ الهَمّ كل شيء حلَّ به، وكان هذا الهَمّ غِشاء له عنه لِكُلِّ شيء، أبْعَدَهُ عن كُلِّ شيء:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

لِكُلِّ واحدٍ منا بُنودٌ كثيرة، تَحْسين بَيْته، ووضع معاشه، وتحسين دخله، ومكانته الاجتماعِيَّة، وشِراء مَرْكبة، والذهاب إلى البلد الفُلاني، وله مشْروع شِراء فِيلّا بالمَصْيَف، لكن إذا حلَّ يوم القيامة كلّ ما سِواها لا قيمة له، مَن مِنَ الناس يحْسب حِساباً لِهذا اليوم؟ يحسِبون لكلِّ شيءٍ حِسابه، يقول لك: هذه البضاعة يغلو ثمنه، وهذه ستُفْقد، ماذا عن يَوْمَ القيامة ألا ينْبغي أنْ يُحْسَبَ له كُلّ الحِساب؟!

الله تعالى لم يصِف الغاشِيَة بل وصف حالة الناس فيها وهذا من أساليب الإعْجاز البياني:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

أي ألم يأتِك حديث الغاشِيَة؟ وأيضاً ما أعظم يوم الغاشية! للتعظيم، وأيضاً لقد جاءك حديث الغاشِية للتقرير:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

ربنا عز وجل لم يصِف الغاشِيَة بل وصف حالة الناس فيها، هذا من أساليب الإعْجاز البياني إذْ لم يَصِف الغاشِيَة وإنما وصف حالة الناس فيها، أوَّل شيء أنَّها تَحِلُّ، وإذا حَلّت فلا محيص عنها، لا مهْرب ولا منْجاة، ماذا يفْعل الإنسان؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

[سورة الانشقاق: 16]

الحياة مراحل، يولدُ فَيَفْرح أهْله بهذا المولود، يُقيمون الدعوات والأطعمة، تأتيهم الهدايا، يمْشي فيفْرحون بِمَشْيِهِ، تظهر أسنانه وبعدها يتكلّم ثمّ يدخل المدرسة، ويتخرّج منها، ويدْخُل الإعْدادي، يتخرَّج منها ويدْخل الثانوي، ويتَخَرَّج ويدْخل الجامعة ثمّ يتخَرّج، يبْحثون له عن عيادة إنْ كان طبيباً، أو عن مكْتب إنْ كان مُهندساً، أو عن مكْتبٍ إن كان مُحامِياً، يُصْبِحُ مُحامِياً، ويصبح من الذين لَدَيْهم بطاقة زيارة للعيادة للشُّهْرة، إنْ كان قاضياً وإن كان تاجِراً ثمَّ يتزوَّج لأن هذا من حاجَتِهِ، يتحَقَقُ طموحه في الحياة، يُنْجِبُ أوْلاداً ويدْخل في عالم ثاني ترْبِيَتهم وتعْليمهم، ثمَّ يكْبرُ أوْلاده ويتزَوَّجوا، ويُزَوِّج بناته، ويسْأل عن الصِّهْر، ثمَّ يكْبر سِنُّه وتُصبح معه أعْراض، فإذا به يُنْعى في الطُّرقات قال تعالى:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

[سورة الانشقاق: 19]

ولا يبْقى إلا العمل الصالح، ماذا أكَلْتَ؟ وماذا صنعْتَ؟ وما لبِسْت؟ كان بيْتُكَ عالِياً أو سافِلاً؟ كبيراً أم صغيراً؟ كِسْوَتُهُ عالِيَّة أمْ درجة ثانِيَّة؟ عندك سيارة فَخْمة صغيرة أمْ كبيرة؟ لن يبْقى إلا العمل الصالح! فالإنسان الذكيّ والمُوَفَّق هو الذي يُعْنى بالعمل الصالح، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

الحياة كلُّها مراحل وآخر مرحلة الموت :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

هذه آخرُ مرحلة، والحياة كلُّها مراحل، يتقاعد وهي آخر مناسبة في حياته ثمَّ الموت، آخر مُناسبة الموت، ثمّ يوم القيامة هذه لا بدّ أنْ نصِلَ إليها جميعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما روي عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

إنَّ أكْيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، وأحزمكم أشَدَّكم اسْتِعْداداً له، ألا إنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والتزوُّد لِسُكْنى القُبور، والتَّأهُبَّ لِيَوْمِ النُّشور.

سُئِلَت السيّدة رابعة العَدَوِيَّة: ما الإنسان؟ فقالت: هو بِضْعَةُ أيام، كلما انْقضى منه يومٌ انْقضى بضْعٌ منه:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

تغْشى الناس، قال تعالى:

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة الدخان: 11]

هذا من معاني الغاشِيَة، تُغَشِّيهم عن كُلِّ شيء، أيْ تسْتُرُهُم عن كُلِّ شيء، وبالحياة اليَوْمِيَّة هناك مصائِبٌ تُنْسي الإنسان كُلَّ شيء.

الحكمة من اخْتيار الله عز وجل الوَجْهَ وعدم اخْتيار اليَدَيْن :

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

لِمَ اخْتار الله عز وجل الوَجْهَ ولم يخْتَر اليَدَيْن؟! لأنَّ أحْوال النفس كُلّها تنْطبِعُ على الوَجْه، لو نظرْتَ لِيَدِ إنْسانٍ خائِف، لا تجد شيئاً، انْظر لِيَد إنْسانٍ حاقِدٍ، لا شيءَ عليها أما لو نظرْتَ في وَجْهِهِ لرأيْتَ السُّمَّ! الخوف يبْدو في الوجه، وكذا الشَّفَقة والمكْر والخِداع والسُّخْرِيَة والكِبْر والإعْجاب والحِقْد والتشَقَّي والمحَبَّة، كُلُّ أحْوال النفس تنْطبع على وَجْه الإنسان لذلك لو أنَّ الوَجْهَ الحَسَنَ رَجُلٌ لكان رَجُلاً صالحاً:

((إبْتَغوا الخير عند حِسان الوُجوه))

[ابن أبي الدنيا والدارقطني عن أبي هريرة]

((اتَّقوا فِراسة المؤمن فإنَّهُ ينظر بنور الله))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

وينطق بِتَوْفيق الله. فربنا عز وجل اِخْتار من الإنسان وَجهه، لذلك الوجه هو وَجْهُ النفْس أي هو تعبير عما في النفْس من اِنفِعالات ومشاعر. لذلك كرَّمَ الله عز وجل الإنسان بالوَجْه فقال عليه الصلاة والسلام: فيما ثبت عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنْ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ))

[مسلم عَنْ جَابر]

خَاشِعَةٌ، الخُشوع في اللغة السكون، قال عليه الصلاة والسلام وقد نظر إلى إنْسانٍ يُصلي وهو كثير الحرَكة:

((لو خشع قلبُ هذا لَخَشَعَتْ جوارحُهُ))

[أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف]

بِمَعْنى لَسَكَنَتْ جوارحه. فالخُشوع هو السكون، لكنَّ السكون في هذه الآية بِسَبَبِ الذلّ والخِزْي والعار، إذا نظرْتَ إلى مُجْرِم، تجده يضعُ بصره في الأرض، ويسْكُنُ، أما البريء عَيْناهُ زِئبَقِيَّتان تتحرَّكُ يَمْنة ويسْرة، ووجْهُهُ طافِحٌ بالبِشْر، وعلى فَمِهِ اِبْتِسامة ويتحرَّكُ بِحُرِّيَّة، لكنَّ الذليل المُجْرِم الذي اقْتَرَفَ الإثم، ووقع في الفضيحة تراهُ خاشِعاً، لا خُشوعَ الخُشوعِ! ولكن خُشوع الخِزْي والعار، أيْ السُّكون.

كلُّ ما في الكون خلقه الله من أجلنا :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ *وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

لو أحْسنَ شخْصٌ لآخر ثمَّ خانه، يكفي أنْ ينظر إليه فلا يسْتطيع هذا الخائِن أنْ ينظر إليه، تراهُ يتلافى النظر إلى وَجْهِهِ! يضعُ بصره إلى الأرض. خلقْتُ لك ما في الكون من أجلك لِمَ عَصَيْتني؟

((إنِّي والإنس والجِنّ في نبأ عظيم أخْلُقُ ويُعْبدُ غيري! وأرزُقُ ويُشْكرُ سِواي! خيري إلى العِباد نازل، وشَرُّهُم إليَّ صاعد! أتودد إليهم برحمتي، وأنا الغني عنهم! ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر ما يكونون إلي!))

[رواه البيهقي والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

كلُّ ما في الكون من أجلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[سورة لقمان: 20]

وقال تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[سورة النحل: 5]

نعم الله علينا لا تعد ولا تحصى وموقف الكفار منها يوم القيامة موقف الخزي والعار:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الزوجة تَوَدُّدٌ من الله إليك، والأولاد الذين في البيت تَوَدُّدٌ من الله إليك، وهذا الشراب العذبُ الفُرات الذي ساقهُ الله سحاباً ونزل أمْطاراً، واسْتَوْدَعَتْهُ الجبال، وخرج ينابيع وساقه الله إليك، وما أنت له بخازنٍ هكذا قال الله عز وجل:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 21]

هذه الأزهار خُلِقَت لِمَن؟ وهذه الطيور خُلِقَت لِمَن؟ هذه الأشياء الجميلة خُلِقَت لِمَن؟ قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

عندما يكون الإنسان في الدنيا وكأنَّهُ نائِم، الناسُ نِيامٌ إذا ماتوا انْتَبهوا. يكون في الدنيا غافِلاً، في سَكْرة الشهوات، فإذا جاء الموت اِسْتَيْقظ قائِلاً: ماذا فعلْتُ بِنَفْسي؟! خُلِقْتُ في الدنيا كي أعْرف الله فما عَرَفْتُهُ، وكي أعْمل صالحاً فما فعلتُ، وكي أسْتقيم على أمْره فما اسْتَقَمْتُ على أمْره، هذا المَوْقف، مَوْقِفُ الخِزْي والعار لا يحْتملُهُ الإنسان، إحْسانٌ من الله مُنْقطع النظير، وجُحود من الإنسانٌ مُنْقطع النظير!! ما المَوْقفُ؟!!

المُجْرِم وَجْهُهُ خاشِع يوم القيامة خُشوع الذلّ والندم والعار :

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

خُشوع الذلّ والندم والعار:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

كنت عند قاضٍ صديقٍ لي، وقف الأشْخاص الذين سوفَ يُحَقِّقُ معهم واحداً تِلْوَ الآخر، فما كان من أحدٍ منهم إلا وعلى وَجْهِهِ كآبَة وغَبَرة ونظرُهُ في الأرض إلى أنْ دخل إلى الغُرْفة شابٌ ولكن وضْعٌ آخر، وجْهٌ طافِحٌ بالبِشْر، وواثِقٌ من نفْسه فقلْتُ في نفْسي: لا شكَّ أنَّ هذا الشاب ليس مُتَّهَماً ولا علاقة له بهؤلاء المُتَّهَمين، فلما وصل إليه سأله: هل كان تصْليح الساعة جيِّداً؟ فَعَرفْتُ أنَّهُ كان مُكَلَّفاً بِتَصْليح ساعته! لأنَّهُ بريء. فالمُجْرِم وَجْهُهُ خاشِع يوم القيامة، أما المؤمن كما قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ*لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

في الآية التالية معانٍ كثيرة :

قال تعالى:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

في هذه الآية معانٍ كثيرة:

1 ـ معْناها الأول عاملة ناصبَة في الدنيا والمرْدود لا شيءَ في الآخرة :

عاملَة في الدنيا، عمِلَ عملاً لا قيمة له وضع كُلَّ طاقاته في الدنيا فجاء الموت فإذا هو صِفْر اليَدَيْن، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)

[سورة الكهف:103]

وقال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

هو في خُسْرٍ ولو كان معه ألف مليون، ولو عنده معْمل ناجح جداً بضاعَتُهُ رائِجَة، ودخْلٌ كبير، وهو في خُسْرٍ ولو كان مُوَفَّقاً في زواجِهِ لا بدّ من يومٍ تُفارق فيه زوْجَتَك، في خُسْرٍ ولو كان ذا مكانةٍ اجْتماعِيَّة فلا بدَّ من يومٍ تُفارق هذه المكانة، إنَّ الإنسان لفي خُسْرٍ ولو كان بيْتُهُ جميلاً، لابد من يوم تُغادِرُهُ أُفُقِياً، تدخله قائِماً وتخْرُجُه قائِماً إلا مرَّةً واحدة تخْرج منه أُفُقِياً ولا تعود إليه، ألَيْسَ هذا حقّاً؟ إذاً كما قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

فقوله تعالى:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

عاملة اِنْغَمَسَ في الدنيا حتى أذنيه، أما هذا العمل لا علاقة له بالآخرة، ولما جاء الموت رأى نفسه صِفْر اليدين، لو أنَّ الواحد اشْتَغَلَ عشر سنوات بالأعْمال الشاقة حتى جَمَّع مئتين أو ثلاثمئة ألف ليرة، ثمَّ وجد أنَّ هذه العُمْلَة كُلُّها مُزَوَّرة! بماذا يُحِسّ؟ هذا الشعور سماه العلماء الإحْباط، وهذا ادّخر مالاً

حتى اشْترى بيْتاً ووقع عقْداً فإذا ببَائع البيت لا يمْلكه، ماذا يُحِسّ الإنسان بهذه الخسارة التي ألمَّتْ به؟ أوّلُ معنى عاملة في الدنيا ناصِبَةٌ في الدنيا بذل جُهْداً شاقاً يقول الله عز وجل في الحديث القدْسي:

((عبدي خلقت لك ما في السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعيني رغيفٌ أسوقه لك في كل حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

[ورد في الأثر]

ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تصَدَّقْتَ فأبْقَيْتَ، وما سوى ذلك ليس لك، مُحاسَبٌ عليه كيف اكْتَسَبْتَهُ وفيهم أنْفَقْتَهُ.

(عَامِلَةٌ ناصِبَة) معْناها الأول: غارِقة في الدنيا في أعْمالٍ مُضْنِيَة، وهي تركض وراء أملٍ كالسراب عَمِلَتْ وتعِبَتْ، ولا مرْدود لهذا العمل ولا لِهذا التَّعَب وجاءَها الموت وهي صِفْر اليَدَيْن، ورأتْ مصيرها إلى النار، وقالتْ كما في قوله تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ*هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ*خُذُوهُ فَغُلُّوهُ*ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ*ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ*إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ*وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ*لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ)

[سورة الحاقة: 28-37]

وقال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 27]

2 ـ المعنى الثاني عامِلَةٌ في الدنيا شَقِيَّةٌ في الآخرة :

المعنى الثاني، عامِلَةٌ في الدنيا، ناصِبَةٌ في الآخرة، أيْ شَقِيَّةٌ في الآخرة قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رُب نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة))

[السيوطي عن أبي البحير]

الدنيا ليْسَت مِقياساً، إنَّ الله يُعْطي الدنيا لِمَنْ يُحِبّ ومن لا يُحِبّ، والآخرة لا يُعْطيها إلا من يُحِبّ، لو أنَّ الدنيا تعْدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً منها شَرْبَةَ ماء.

3 ـ المعنى الثالث عامِلَةٌ في الدنيا مَنْصوبٌ عملها يوم القيامة أمام عَيْنَيْها :

المعْنى الثالث: عامِلَةٌ في الدنيا مَنْصوبٌ عملها يوم القيامة أمام عَيْنَيْها، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:14]

هذه هي أعْمالك، لا يوجد فلسَفَة ولا تبريرات، قال تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس: 65]

الإنسان في الدنيا يتَفَلْسَف ويكون ممن اقْتَرَفَ آثاماً كبيرة، قَصَدْتُ كذا وكذا، أما في الآخرة فالواقع غير هذا، وتَزْوير الحقائِق غير مَوْجود، والتكَلُّم بِخلاف الواقع غير موجود، كُلُّ هذا غير موجود، قال تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس:65]

عاملةٌ ناصِبَةٌ في الدنيا والمرْدود لا شيءَ في الآخرة، عاملةٌ في الدنيا شَقِيَّةٌ في الآخرة، ويُنْصَبُ عملها يوم القيامة أمامها ويُقالُ لها: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

الأمور ليسَتْ بِأشْكالها ولا بِظواهِرها ولا بالكلام ولكن بالعمل :

قال تعالى:

(تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً)

سبحان الله، الإنسان إذا كان بيده الحلُّ والعقد كما يقولون إذا قال كلمة يصدِّقها الناس، وإذا سرَّب حقيقة شاع هذا الخبر في الناس فترتفع الأسعار أو تهبط، إنهم يُصدِّقون كلام البشر والله سبحانه وتعالى خالق البشر، خالق الكون، رافع السماء بلا عمد، من بيده ملكوتُ كلِّ شيء؟ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً، منْ مِنَ الناس يُصدِّق هذا الكلام حقيقة؟ ما من مسلم على الأرض إلاّ ويقول: صدق الله العظيم، ولكن على مستوى الواقع منْ مِنَ الناس يُصدِّق هذا الوعيد من الله عز وجل وينتهي عن المعاصي ويقول: إني أخاف الله رب العالمين، مَنْ مِنَ الناس من يترك صفقةً فيها شُبهة ويقول إني أخاف الله رب العالمين، منْ منَ الناس يترك امرأةً لا تُرضي الله عز وجل، ويقول إني أخاف الله رب العالمين، مَن من الناس يترك بيتاً فخماً لشبهة الربا ويقول إني أخاف الله رب العالمين، مَن من الناس من يستغني عن مبلغ كبير لأن كسبه ليس حلالاً ويقول إني أخاف الله رب العالمين، هذا هو الواقع، أما أن تقول هذا حق فهذا كلام بكلام والأعمال هي التي تنطق وأما الأقوال فلا قيمة لها، قل ما شئتَ وتعلَّموا ما شئتم فو الله لن

تُؤْجَروا حتى تعملوا بما علمتم، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، منْ مِنَ الناس يصدِّق هذا الكلام؛ تقول صدق الله العظيم، فهل أنت مصدق فعلاً بهذا الكلام، علامة تصديقك لهذا الكلام أن تنتهيَ عن كل معصية نهى الله عنها قولاً واحداً، فالواحد لا يلبِّسْ على نفسه، هناك كتاب اسمه تلبيس إبليس، لا يتوهَّم الواحد أنه تقيٌّ وفي بيته معاصٍ كثيرة، لا يتوهَّم أنه مؤمن بالآخرة وهو لا يعمل لها، ولا يتوهم أنه يخاف من جهنم وهو في طريقها، قد يقول قائل: أعوذ بالله من عذاب جهنم! وهو يسير في طريقها، وقد يقول قائل: اللهم ارْزقنا الجنَّة ويسير في طريق مُعاكِسٍ لها، وقد يقول قائلٌ إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين، وهو لا يخافه عَمَلِيّاً فالأمور ليسَتْ بأشْكالها ولا بظواهِرها ولا بالكلام ولكن بالعمل، الصحابة عملوا ففتحوا الأرض، ونحن اِكْتَفَيْنا بالكلام وليْسَتْ كلمتنا هي العُليا.

إذا لم يُدافع الله عن العبد فهذا علامة عدم الإيمان من ذاك الشخْص :

قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

[سورة النور: 55]

هذا وعْدٌ إلهي:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ)

[سورة التوبة: 111]

هناك اِحْتمالان: أما هؤلاء الذين وعدهم الله لم يُنَفِّذوا ما عليهم من طاعَةٍ لله، هذا الاحْتمال الصحيح الوحيد، أما أنْ يبْطُل وعْد الله فَهُوَ شيءٌ مُستحيل، زوال الكون أهْون على الله من أنْ لا يَفِيَ بوَعْدِهِ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

فإذا لم يُدافع الله عن العبد فهذا علامة عدم الإيمان من ذاك الشخْص. قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

انْظر إلى هذا الإدِّعاء! الإمام الشافعي رحمه الله اِسْتنبط من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعَذِّبُ أحْبابه، لو أنَّهم صادِقون في دَعْواهم لما عَذَّبهم الله عز وجل.

وُعود الله تعالى مُحَقَّقة مئة بالمئة فاسْعَ أنْ تكون أهْلاً لها :

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين)

[سورة النمل: 79]

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[سورة يونس: 9]

وقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

وقال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وقال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

هذه هي وُعود الله عز وجل، فالإنسان يحْتاج إلى أنْ يكون أهْلاً لِهذه الوُعود قال تعالى:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

[سورة الكهف: 27]

وُعود الله تعالى مُحَقَّقة مئة بالمئة، فاسْعَ أنْ تكون أهْلاً لها واقْطِفِ الثِّمار.

موقف الذين تركوا طاعة الله في الدنيا يوم القيامة :

قال تعالى:

(تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ)

العَيْنُ الآنِيَة: هي التي بلغتْ حرارتها الأوْج، أوْ أنَّ الذي يُسقى منها لا يستطيع اِحْتِمالها إلا آناً يسيراً، أو أنَّهُ يشْربها مُتَأنِّياً من شِدَّة حرارتها، أو أنه لا يحْتملها إلا آناً قصيراً، أو أنها بلغت النِّهاية في الحرارة، ثمَّ قال تعالى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

شَوْكٌ ينْبتُ في الصحْراء لا تسْتسيغُهُ الإبل لِشِدَّة قسْوَتِهِ ومرارَتِه، هذه صورةٌ مُنْتَزَعَة من الصحْراء تقْريباً للأذْهان، هذا طعامهم وهذا هو شرابهم وذاك هو مكانُ إقامَتِهم، ثمَّ قال تعالى:

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

لا يَسُدُّ الجوع ولا يُنَمِّي صِحَّة الإنْسان، هؤلاء الذين تركوا طاعة الله في الدنيا، وقالوا: إلى حين ذاك المَوْعِد يُفْرِجُها الله، وهذا الدِّين مضى وَقْتُهُ، ومن قال لك أنَّ هناك آخرة، هل خرج واحِدٌ ميِّت وقال لك: هناك آخرة، وهؤلاء الذين قالوا في الدنيا: الله لن يُحاسِبَ أحداً، وهل يُعْقل أنَّ هذا الإله العظيم يُحاسب هؤلاء البشر؟ كُلُّهُم مُذْنِبون، هؤلاء الذين قالوا: نحن نفْعل ما نشاء، والنبي عليه الصلاة والسلام يسْجد تحت العَرْش ولا يرْفعُ رأسهُ حتى يُدْخِلَ الله كُلَّ أُمَّتِهِ الجنَّة، إنَّ القائل لِكُلِّ هذا مَوْقِفُهُم يوم القيامة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ*عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ*تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً*تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ*لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ*لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

موقف المؤمن الذي كان في الدنيا خائِفاً من عذاب الله ومن معْصِيَة الله :

القرآن الكريم يذكر كُلَّ الفئات، لذا قال الله بعد هذا:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

كان مُسْتقيماً في الدنيا، قال تعالى:

(آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات: 17]

وقال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة:24]

هذا هو الذي كان في الدنيا خائِفاً من عذاب الله، ومن معْصِيَة الله، وقد يسْخر عليه بعض الناس.

صور من القرآن الكريم عن أحوال الكفار يوم القيامة :

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

[سورة المؤمنون:104]

وقال تعالى:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ*قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ*رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ*قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي*إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون:105-111]

بعد هذا الوصف قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الفَوْزُ العظيم أنْ تصِلَ إلى يوم القيامة سليماً مُعافى من عذاب الله عز وجل :

فقوله تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

هذا هو الفوْزُ العظيم، يقول الإمام عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وجْهه: الغِنى والفقْر بعد العَرْض على الله، قال تعالى:

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب:71]

هذا هو الفَوْزُ العظيم والذكاء والنجاح والفلاح والتَّفَوُّق والتَّوْفيق والعقْل، أنْ تصِلَ إلى هذا اليوم سليماً مُعافى من عذاب الله عز وجل، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران:185]

وجْهُ المؤمن كالكَوْكب الدُّريّ :

ثمَّ قال تعالى:

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

المؤمن له سَعْيٌ في الدنيا، صَلَّيْنا وصُمْنا واشْتَغَلْنا ورَبِحْنا وسكنَّا ببُيوتٍ وتنَزَّهْنا، لك سَعْيٌ كبير بالدنيا، أين سَعْيُك ومُؤاثرتك وعملك الصالح والمال الذي بذَلْتَهُ في سبيل الله؟ والوقت الذي صَرَفْتَهُ في طاعة الله؟ وأين الأمر بالمعْروف والنهيُ عن المُنكر؟ أين معاونة الضعيف؟ أين برُّ الوالِدَين؟ وعيادة المريض؟ وصحبة الأكارم وأهل الحق؟ أين حُضور مجالس العِلم؟ تجدهُ لِسَبَبٍ تافِهٍ يقول لك: والله لا وقْتَ عندي! لماذا وُجوهٌ يومئذٍ ناعمة؟ لِسَعْيها راضِيَة، هذا الوَجْهُ الناعم والمُتألِّق والوضيء المُشرق، سَبَبُهُ أنَّ صاحبهُ كانَ مُستقيماً وكان عملهُ صالِحاً، أقْبل على الله فسَعِدَ بِقُرْبه فتألَّقَ وَجْهُهُ قال تعالى:

(رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

[سورة الفتح: 29]

وجْهُ المؤمن كالكَوْكب الدُّريّ، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

عَلامة المؤمن أنه في نفسه صغير وفي عَيْن الناس كبير :

قال تعالى:

(فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً)

[سورة الإنسان: 11]

وجْهُ المؤمن في الدنيا مُتألِّق ومُنير ومُشْرق، تعْرفهم بسيماهم:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

قد يرْضى الناس عنك ولا ترْضى عن نفسك، وقد لا يرْضى الناس عنك ولكنَّك ترْضى عن عملك الصالح، فأنت مع السعداء، لذلك عَلامة المؤمن أنه في نفسه صغير وفي عَيْن الناس كبير، أما الكافر ففي نفس الناس صغير وفي نفْسه كبير، قال تعالى:

(وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 104-105]

هم صغارٌ عند الله، لأنْ يسقُط الإنسانُ من السماء إلى الأرض فتَنْكَسِرَ أضْلاعُهُ أهْوَنُ من أن يسْقط من عَيْن الله.

أكبر عَدُوّ للإنسان هو الجهل لأنَّهُ يدْفع الثمَنَ باهِظاً :

ذكر لي أخٌ قِصَّة، أنَّ بَدَوياً معه حُجَّة لأرْضٍ فجاء للمدينة والتقى بمَكْتب عقاري وقال: أريد أنْ أبيع هذه الأرض، فصاحب المحلّ بأسلوبٍ ذَكِيّ أوْهَمَهُ أنَّ هذه أرْضٌ لا قيمة لها، وبِصُعوبَةٍ حتى أقْنَعَهُم بِبَيْعِها بِثَمَنٍ بخْسٍ، فقال: مئة وخمْسين ألف ريال، وهي ثمنها مليون ونِصْف!! شيدوا بناءً على هذه الأرض بِثلاثة وعشرين طابقاً كانوا شُركاء ثلاثة، الشريك الأوّل وقع من أعْلى طابق إلى الأرض فجاء هشيماً، الشريك الثاني رَكِبَ سيارَتَهُ وعمل حادِثاً أخْرجوه قِطَعاً من سيارته، الشريك الثالث رأى مصير شريكَيْه بِعَيْنَيْه وعرف أنَّ هذا المصير بِسَبَبِ هذا الخِداع فَبَقِيَ يبْحث عن هذا البدوي شهْراً بكامله إلى أنْ وصل إليه وقال: خُذْ خمسمئة ألف ريال وسامِحْني فهذا حَقُّك، وأنت مُسامحْ بالخَمْسين ألف التي هي حِصَّتي فقال له: والله لو لم تسارع بهذا لكُنْتَ مثل أصْحابك!! الله عز وجل عِقابه أليم وشديد، قال تعالى:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

إذا جاءك طِفْلٌ صغير وكنتَ بائع لحْم، المؤمن يرى أنَّ الله ينظر إليه، التجار يقولون لك: هذا زبونٌ غشيم! ألْبِسْهُ هذه، هو بهذا يبيعُ الهَمّ، عِلمُك أنَّ الله تعالى عقابه شديد حينها تَرْتَدِع، أكبر عَدُوّ للإنسان هو الجهل لأنَّهُ يدْفع الثمَنَ باهِظاً:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

ولو كان دخْلُكَ مُتواضِعاً، ولو كان بيْتُك مُتواضِعاً، إذا كنت راضياً عن سَعْيِكَ فأنت أسْعد الناس، ولو كان بيْتُك ضَخْماً ودخْلُكَ كبيراً من طريقٍ غير مشْروع كنت غير راضٍ عن نفْسِك، لأنّك مُنْهارٌ داخِلِياً، وبك اخْتِلال توازن مما يجْعَلُك شَقِيّاً رغْمَ كثْرة المال.

العِبْرة أنْ تعْرف النفْسُ أنَّها مُسْتقيمة على أمر الله :

العِبْرة أنْ تعْرف النفْسُ أنَّها مُسْتقيمة وأنَّ مالها حلال، وأنَّها لمْ تبْني مجْدها على أنقاض الآخرين، ولا غِناها على فقْرِهِم، ولا أمْنها على قَلَقِهم، ولا حياتها على مَوْتِهم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول:

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مُتَفَقٌ عَلَيْه عن عبد الله بن عمر]

فما قوْلك بما هو فوْقَ الهرَّة؟! إذا كان النبيّ الكريم سليمان عليه السلّام لا يدوسُ على نمْلة فما قوْلك بما فوْقَ النَّمْلة؟ قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة النمل:18]

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

درجة ممتازة، أعْلى نوعٍ، كلامُ الله ربِّ العالمين، فيها ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر قال تعالى:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة:17]

وصف للجنة :

ثمَّ قال تعالى:

(لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)

الكلام البذيء غير موجود، مُناقشاتٌ فارغة غير موجود، ومُشاحنات غير موجودة، ودَجَلٌ غير موجود:

(لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)

لو أنَّ شخْصاً سمعَ كلاماً غير منْطِقي وغير واقِعي يقول لك: اِنْهَزَّ بدني الكلامُ المُزَوَّر والباطل والدَّجَل، هذا مما يهُزُّ الأعْصاب، من صِفات الجنَّة أنَّك لا تسْمع فيها لاغِيَة، كلامٌ باطِل ولاغٍ لا تسْمعه، ثمَّ قال تعالى:

(فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

عُيونٌ من الماء الرَّقْراقة والجميلة، ثمَّ قال تعالى:

(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)

السُّرُر جمْعُ سرير، مُرْتفعة وقال بعض المُفسِّرين: إذا أردتَ الصعود عليها تهْبط لِعِنْدك، تجْلس عليها ثمَّ ترْتفع، ثمَّ قال تعالى:

(وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

أكْلٌ جاهِز، ولا يحْتاج لإعْداد، ثمَّ قال تعالى:

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

هذه الوسائد المُريحة من الريش، كُلُّها جاهِزة، ثمَّ قال تعالى:

(وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

أيْ أفخر أنواع السجاد، أحْياناً ترى سجادة تأخذ العقل ألوانها متناسقة وبراقة ومُتألِّقة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (2-3): تفسير الآيات17-20 الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-01-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك علاقة وارْتِباط بين آيات كُلِّ سورة :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

أمر، ما علاقة هذه الآية بِتِلْكَ الآيات من قوله تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ*وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ*عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ*تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً*تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ*لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ*لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ*وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ*لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ*فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ*لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً*فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ*فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ*وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

[سورة هود: 1]

ما معنى أُحْكِمَت آياته؟ أيْ تعلَّقَ بعْضُها بِبَعْض، هناك علاقة وارْتِباط بين آيات كُلِّ سورة.

العلاقة المُحْكَمَة بين المقْطع الأوَّل والثاني من السورة التالية وبين مقْطعِها الأخير :

ما العلاقة بين هذه الآيات الكَوْنِيَّة في قوله تعالى:

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

وبين الوُجوه الخاشِعة، والوُجوه الناعمة؟ الحقيقة أنَّ الله تبارك وتعالى إذا وَصَفَ لنا أهْلَ الجَنَّة ثمَّ وَصَفَ لنا أهْلَ النار، أوْ العكس، ما الذي يُجْزي من ذلك إنْ لم يُبَيِّن لنا طريق النار وطريق الفوز بالجنَّة؟ بعد أنْ وصَفَ عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنَّة، بَيَّن الله سُبْحانه وتعالى طريق النجاة من عذاب النار والفَوْز بِنَعيم الجَنَّة، كيفَ؟ الإيمان أساسُ الاستقامة والإخْلاص والعمل الصالح، سُئل عليه الصلاة والسلام: ماذا يُنَجِّي العبْد يوم القيامة؟ قال: الإيمان بالله والعمل الصالح، فهو أساس الاستقامة

والإخْلاص والعمل الصالح والعِبادة، الإيمان أساس كُلِّ شيءٍ في عالم الدِين، كيف يُؤْمن؟ الله سُبحانه وتعالى لا تُدْركه الأبصار، لا بد إذاً من أجْل أنْ نعْرِفَهُ من التَّفَكُّر بآياته، فإذا فكَّرْنا بآياته عَرَفْنا الله عز وجل، فإذا عرفْناه سبحانه وتعالى اسْتَقَمْنا على أمْره وأطعْناهُ وأخْلصْنا له، إذاً هناك علاقةٌ مُحْكَمَة ومتينة بين المقْطع الأوَّل والثاني من هذه السورة وبين مقْطعِها الأخير، المقْطَعُ الأوَّلُ وصْفٌ لأحْوال أهْل النار والمقْطعُ الثاني وصْفٌ لأحْوال أهْل الجَنَّة والمقْطعُ الثالث بيانٌ لِطَريق الفوْز والنجاة، طريق النجاة من عذاب النار والفَوْز بِنَعيم الجنَّة.

النَّظر الذي أمرنا الله عز وجل به في هذه الآية ليس نظر العَيْن ولكِنَّهُ نظرُ الفِكْر :

ربُّنا عز وجل، قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

أفلا ينْظرون؟ الحقيقة أنّ كلمة ينظر هنا لا تعْني نظَرَ العَيْن، إنَّ الأغنام تسْتطيعُ أنْ تنظر إلى الجمل وتَحيد عنه في طريقِها إذا نظرَتْ إليه ورأَتْهُ، وأيُّ دابَّةٍ من دواب الأرض تنْظر وترى، انظر إلى نمْلَةٌ تسيرُ على الطاولة وضَعْ يدك أمامها، تَقِفُ ثمَّ تُغَيِّرُ مسارها، معنى ذلك أنَّ النَّمْلة رأتْ، والدليل أنها غَيَّرَتْ مسارها، فالنَّظَر الذي أمرنا الله عز وجل به في هذه الآية ليس نظر العَيْن ولكِنَّهُ نظرُ الفِكْر، قد تُطْعِمُ دابَّة حشيشاً ولا يرى إلا أنَّهُ غِذاءٌ يبْحث عنه، لكن الإنسان إذا نظر إلى التُّفاحة يرى من خِلالها عظَمَة الله، وكذا إذا شربَ كأساً من الماء، وإذا نظر إلى ابنه وهو يعلم أنَّ أصلْهُ نُطْفَة يرى صُنْعَ الله في خلقِه، إذا نظر إلى الجبل والسهْل والبحْر والشجَر والورد كان هذا تفكُّر، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَت.

الحقيقة أنَّ الإنسان الأعْمى القلب هو الذي يمُرُّ على هذه الآيات ولا يرى من خِلالها الله عز وجل، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الإبل، قد يقول قائِل لماذا اخْتار الله عز وجل من بين آلاف الحيوانات ومن بين ملايين الآيات الجَمَل؟ لأنَّ الله عز وجل يُخاطِبُ بهذا القرآن العظيم العَرَب، وهم سُكانُ الصحْراء، والجَمَل يحْتَلّ المكانة الأولى في الصحْراء يعيشون معه، ويحْتلّ جُزءاً من اهْتِمامهم، ألَمْ يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

ماذا يعْني هذا الحديث؟ أنَّ حُمُر النِّعَم شيءٌ ثمينٌ جداً، ونفيسٌ جداً.

الحكمة من اختيار الله الجمل من بين آلاف الحيوانات ومن بين ملايين الآيات :

الإنسان العرَبِيُّ في الصحْراء يعُدّ الجملَ أثمَنَ ما في الصحْراء، لذلك ربنا عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

الحَجْم المُتناسب، لو أنَّ حجْمَ الإبِل أصْغر من ذلك لما تناسبَ مع رمال الصَّحْراء، ومع الكُثبان الرَّمْلِيَّة، ومع المسافات الشاسِعَة التي على الجَمَل أن يقْطَعَها؛ فالحجْمُ مُناسب، يتحمل العطش، وهذه الصحْراء كما تعْلمون قاحِلة لا نبات ولا ماء! لا بد من أنَّ هذا الحيوان الذي سَخَّرَهُ الله لِخِدْمَةِ الإنسان أنْ يتحمَّل العطش، فالجَمَلُ كما تعْلمون يتَحَمَّلُ العَطَش إلى دَرَجَة عاليَة، عشْرة أيامٍ، وفي الأحْوال العادِيَّة يشْرب في الأربعة أيام مرَّةً واحدة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى زَوَّدَهُ بِمُسْتَوْدعات ماءٍ في جَسَدِهِ يستَهْلِكُها رُوَيْداً رُوَيْداً، فالله تعالى قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

الوسيلة المجدية في الصحراء، البَدْوُ يُسَمون الجمل عَطا الله، أيْ عطاء الله عز وجل، وتعْلمون أنَّ المناطق القاحِلة في العالم تُساوي سُدُسَ اليابِسَة واليابِسَةُ تُساوي خُمْسَ الكرة الأرضية، والجمل هو الوسيلة الوحيدة للتنَقُّل في الصحارى وحتى الوقت الحاضر لا يُسْتخدم إلا الجمل في نقْل الحاجات والمُعِدَّات، حتى بعض الجُيوش في العالم تسْتخدم الجمل حتى هذا التاريخ لأنَّهُ الوسيلة الأمينة والمُجْدِيَة والفعالة في الصحْراء.

شفتي الجمل، قال بعض العلماء: كلُّ ما في الجَمَل مُتْقَنُ التَّصْميم، كي يتَحَمَّلَ البيئة القاسِيَة في الصحْراء، تحُسُّ أنَّ وراء الجَمَل خِلقة مُبْدَعَة وإلهٌ عظيمٌ، قالوا: شفتا الجَمَل مَطاطِيَتان قاسِيتان قساوة مع مُرونة تسْتطيعان أنْ تلْتَهما الشَّوْك الذي يخرق نعْل الحِذاء! هناك بالصَّحْراء شَوْكٌ لو وَضَعْتَ قَدَمَكَ عليه لاخْتَرَقَ النعْل إلى رجْلِك، وهذا الشَّوْك كأنَّهُ إبَرٌ فُولاذِيَّة تسْتطيعُ شفتا الجَمَل أنْ تلْتَهِمَهُ في الصحْراء، فما هذه القُدْرة التي منَحَها الجَمَل وَزَوَّدَها به، شَفَتا الجَمَل تجْمعُ الطعام من دون أن يفْقِد فَمُ الجَمَل رُطوبته، لأنَّ الماء في الصحْراء نادِر، والماءُ شيءٌ نفيسٌ في الصحْراء، فَكُلُّ تصْميمات الجَمَل بِشَكْل أنْ لا يستَهْلِكَ الرُّطوبة التي في جَسَدِهِ، لذلك الشَّفَتان المُتباعِدتان المطَّاطِيَّتان تلْتَهِمُ الأعْشاب وَفَمُهُ مُغْلق، حِفاظاً على الرَّطوبة في فَمِهِ.

خلق الجمل من آيات الله الدالة على عظمته :

يأكُلُ الجَمَلُ نباتاتٍ لا يلْتَفِتُ أيُّ حيوانٍ إليها، مهما كان النبات قاسِياً وشَوْكِياً وحاداً وجافاً ومُؤَنَّفاً يأكله الجمل لأنَّهُ يعيش في الصحْراء، والصحْراء تحْوي الشَّوْك، والشَّوْكُ أوْراقٌ إبَرِيَّة، كُلُّ هذا التَّصْميم من

أجل الحِفاظ على الرُّطوبة، ففي المناطق الاسْتِوائِيَّة الأوراق كبيرة جداً لأنَّ الرُّطوبة موجودة، لكنَّ في الصحْراء الرطوبة نادِرَة جداً فالنبات الذي ينْبُتُ في الصحْراء ترى أوْراقهُ كالإبَر ومُؤَنَّفَة، كُلُّ هذا من أجل الحِفاظ على الرُّطوبة.

معدة الجمل، مِعْدَةُ الجمل لها أربعة أجْواف، فَهُوَ من الحيوانات المُجْتَرَّة، فَلَو أنَّك حَرَمْتَ الجمل الطعام أمداً طويلاً فإنَّهُ يهْضِمُ الطعام الذي كان قد أكله، وقد ركَّبَ الله في ظهْره مُسْتَوْدعاً غِذائِياً يكْفيه عَشَرات الأيام بل ما يُعادل الشَّهْر، ذلك السَّنام، السِّنام رَكَّبَهُ الله تعالى في الجمل لأنه يقْطعُ مسافات طويلة بلا طعامٍ ولا ماء في طريقه الصحْراوي، كما قُلتُ قبل قليل يسْتطيع الجمل أنْ يسْتغْني عن الماء أربعة أيامٍ في الأحْوال الطبيعِيَّة، وعشْرَة أيامٍ بالأحوال القاسِيَة، لذلك سيّدنا خالد رضي الله عنه اسْتَخْدَمَ الجِمال في معْرَكَة اليَرْموك ونقل بها الجَيش من العِراق إلى الشام في عَشْرة أيام دون أنْ تشْرب قطْرَةً واحدة.

بول الجمل وروثه، لو تتبَّعْتَ الأجْهزة التي ركَّبَها الله في الجَمَل، بَوْلُهُ كثيفٌ جداً لأنْ لا يسْتهلك الماء، رَوْثُهُ قليل جداً لأنه لا يسْتهلك الماء.

تعرق الجمل، وهو لا يتعَرَّق، لو كان يتعرَّق والحَرّ شديد لَفَقَدَ ماء جِسْمه، يعتمد للحفاظ على حرارة جِسْمِهِ بعَكْس الحرارة عن طريق وَبَرِهِ، الإنسان يتعرَّق والتعرُّق يُحافظ على حرارته، لكنَّ الجمل لا يتعرَّق أبداً حِفاظاً على الماء في جَسَدِهِ.

سرعة الجمل وحمولته، الجمل يسْتطيعُ أنْ يسبق الحِصان، يصْمُدُ على المسافات الطويلة وبالأحْمال الثَّقيلة كما قلتُ قبل قليل: مُصَمَّمٌ ومُهَيَّأٌ للصحراء ويسْتطيعُ حَمْلَ مئتي كيلو غراماً والسَّيْر بهما أربعين كيلو متراً لِمُدَّة ثلاثة أيام مُتواصِلَة دون تَوَقُّفٍ ودون طعامٍ وشراب!

قيام الجمل وقعوده، شيءٌ آخر، وهو أنَّ ربنا عز وجل لفتَ نظرَنا إلى الجمل إلى سَفِناته، هذه السَّفِنات، تلك الدوائر المُتَقَرِّنَة من جلده الموجودة في بطْنه وفي يَدَيْه ورِجْلَيْه، من أجل أن يسْتوي عليهما قاعِداً، فالجَمَلُ إذا جلس على الأرض جلسَ جلسَة نِظامِيَّة من أجل أنْ يستطيع صاحِبُهُ أنْ يُحَمِّلَهُ، فلو جلس على الأرض كما يجْلس الحِصان أو البقرة أو الدابة لما أمْكَنَهُ تحْميلها كيف يُحَمِّلُهُ صاحبه وهو عالٍ؟ يحْتاجُ إلى سُلَّم فإذا صعد السُّلَم وابْتَعَد الجمل رمى صاحِبَهُ ودقَّ عُنُقَهُ، لذلك ربنا عز وجل جعل الجمل ينْفَرِدُ بهذه الجِلْسَة، جِلْسَة نظامِيَّة، كيفَ ينْهض وله هذه القوائِم الطويلة؟ لو نهضَ بدْءاً بِقوائِمِه الخَلْفِيَّة لَوَقَعَ الحِمْلُ على الأرض، ولو وقفَ بدءاً بِقَوَائِمِهِ الأماميّة لَوَقَعَ الحِمْل خلفَهُ، لكنَّ الله سُبحانه وتعالى جعل له ذاك الرأس الكبير وذلك العُنُقَ الطويل كي يكون مُتوازناً في قِيامه وفي قُعودِهِ.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

طريق الإيمان يكون بالتفكر في آيات الله :

رموش الجمل، الجمل يستطيعُ أنْ يُغْلِقَ رُموشَ عَيْنَيْه وأنْ يرى طريقه دون أنْ يدخُل الرَّمْل في عَيْنَيْه، مُزَوَّدٌ برُموشٍ دقيقة مُتشابكة تسمْحُ له بالرؤيا ولا تسمْح للغُبار الدخول لِعَيْنَيْه لأنَّ الصحْراء مملوءَةٌ بالعجاج.

أنف الجمل وأذنيه، الجملُ من بين الحيوانات التي تسْتطيعُ إغْلاق أُذُنَيْها وأنْفِها، إذا هَبَّت الرِّياحُ العاتِيَة وأثارَتْ الغُبار الدقيق فإنَّ الجمل يسْتطيعُ أنْ يُغْلِقَ أُذُنَيْه وأنْفَهُ وأجْفان عَيْنَيْه مع رؤية الطريق من دون تعثُّر.

خف الجمل، الجملُ مُزَوَّدٌ بِخُفٍّ يُعينه على السَّيْر في الرَّمْل، اِذْهَب إلى ساحِلِ البحْر وامْشِ على قدَمَيْكَ على أرْضٍ رَمْلِيَّة ثمَّ تذكَّر مِقْدار المَشَقَّة التي تُعانيها في السَّيْر على الرَّمْل! لكنَّ الجمل مُزَوَّدٌ بِخُفٍّ مَرِنٍ وبِظُفْرٍ يدْفَعُ عنه الأحجار إذا سار على الرَّمْل.

(كَيْفَ خُلِقَتْ)

شيءٌ آخر وهو أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ بهذه الصِّفات؟ كيْفَ تَمَّ خلْقُها، ألَيْسَ الجمل في أصله نُطْفَة؟ ألَم يتَكَوَّن الجمل في رَحِمِ أُمِّهِ؟ يدُ من صاغَتْ هذا الخلق؟ يدُ من جعلتْ له أربعة أجْوافٍ هضْمِيَّة؟ يدُ من جعلتْ له مُسْتَوْدعاتٍ للماء في بطْنِه؟ يدُ من جعلتْ سنامهُ؟ يدُ من جعلتْ رقَبَتَهُ طويلة؟ يدُ من خلقتْ هذه السَّفِنات؟ يدُ من جعلتْ هذه القوائِمِ العالِيَة؟ يدُ من جعلتْ هذه الخصائِص؟ هذه الشَّفَة المطاطِيَّة التي تحْتمِلُ أقْصى أنواع الشَّوْك، لِمَ لا يعرقُ الجمل؟ لم لا يُغْلِقُ رموشَ عَيْنَيْه؟ كيف يغلقُ أُذُنَهُ وأنْفَهُ؟ يدُ من؟

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

فَرَبُّنا عز وجل في هذه السورة بَيَّن لنا طريق الإيمان، طريق الإيمان أنْ تُفَكِّر في آيات الله عز وجل، فإذا فَكَّرْتَ في آياته تعالى عَرَفْتَهُ، وإذا عَرَفْتَهُ اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ، وإذا اسْتَقَمْتَ على أمْره أقْبَلْتَ عليه، وإذا أقْبَلْتَ عليه اصطبغتْ نفْسُك بالكمال فصِرْتَ صالِحاً لأنْ تسْعَدَ بِقُرْبِهِ إلى أبد الآبدين:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

إعجاز الله في الكون :

شيءٌ آخر فيما يخصّ توازن الرَّقَبَة مع الرأس، والقِيام مع القُعود والقُعود المُنتظم، هذا مبْني على عِلْم الحَرَكة والثقالة، فهذا الإله العظيم الذي خلقهُ، خلقُهُ مَبْنِيٌّ على عِلْم وحِكْمَة، لذلك تتعرَّفُ إلى العليم والقدير والخبير من خلال الجمل، أسْماء الله الحُسنى تسْتطيعُ أنْ تعرف طرَفاً منها من خِلال خلْقِهِ:

(أفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

الوقتُ لا يتَّسِعُ والمقامُ كذلك وطبيعة الدَّرْس الديني لا تتسِع لِتَفْصيلاتٍ عن الجمل أفاض بها العلماء، الآية الثانية:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

أوَّلاً كما قلنا من قبل في قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِق)

[سورة الطارق: 1]

السماء فضاء وكواكب، هذا الفضاء الذي لا حُدود له، هل فكَّرْنا فيه؟ قال تعالى:

(فلا أقسم بمَوَاقِع النُّجُوم)

[سورة الواقعة: 75]

كلمة ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة هل يُمكننا استيعابها؟ ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة بُعْدُ مجَرَّة أخرى، مئة وخمسون ألف سنة ضوئيَّة طولُ مَجَرَّتِنا، خمسة عشر ألف سنة ضَوْئيَّة عرض مَجَرَّتِنا، ثلاث عشرة ساعة أقصى بُعد بين المجموعة الشَّمْسِيَّة، الشمسُ ثمانِيَ دقائق والقمرُ ثانِيَة، فإذا كان بُعد القمر ثانِيَة وصعد الإنسان للقمر وركِبَ مرْكَبَةً تسير بِقدْر أربعين ألف كيلو متر في الساعة، ووصَلَهُ بعد ثلاثة أيام، وكَلَّفَتْ هذه الرِّحْلة أربعة وعشرين ألف مليون دولار، وقد قطع الإنسان في الفضاء الخارجي ثانِيَةً ضَوْئِيَّةً واحدة، فَكَيْفَ لو كُلِّفَ بِقطْع ثماني دقائق؟! بعدُ الأرض عن الشمس مئة وستُّة وخمسون مليون كيلو متر، فَكَيْفَ لو كُلِّفَ أنْ يقطع المجموعة الشَّمْسِيَّة؟ فَكَيْفَ لو كُلِّفَ أنْ يقطع عرْضَ مَجَرَّة خمسة عشر ألف سنة ضَوْئيَّة طولها؟ كيف لو كُلِّفَ أن يصِل إلى نجم القطب؟ أربعة آلاف سنة ضَوْئِيَّة.

المجرات والنجوم من آيات الله الدالة على عظمته :

مرَّةً وَضَعْتُ حساباً بسيطاً فقُلْتُ: إذا كان الضوء ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ضربناهم في ستين، والناتج في ستين، والناتج في أربعة وعشرين، والناتج في ثلاثمئة وخمسة وستين، قسَّمناهم على مئة وهي سرعة سيَّارة تسير بمئة كيلومتر في الساعة، ثم قسَّمناهم على أربعة وعشرين بليون، على ثلاثمئة وخمسة وستين، الناتج: سبعة وعشرون مليون ملْيون سنة، فإذا كان هناك طريق مُعبَّد إلى نجم القطب فلا بدَّ لك من سبعة وعشرين مليون ملْيون سنة حتَّى تصل إلى نجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، فكيف لو كُلِّفتَ أن تصل إلى بعض المجرات البعيدة التي استغرق ضوؤها كي يصل إلينا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، رأينا مجرَّة بُعدُها عنَّا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، العلماء يقولون هذا

المنظر كاذب، هذا المنظر هو شكل المجرة عندما كانت هنا قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، ذهبت إلى مكان آخر، فربُّنا عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

نظام الجاذبية تصميم مَنْ؟ أن الكواكب تتجاذب بحسب كتلتها ومربَّع المسافة بينها، هذا النظام من صمَّمه؟ قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

نظام الجاذبية :

بنظام الجاذبية كل شيء تتركه يقع على الأرض، لماذا يقع على الأرض؟ لأنه مربوط في الأرض بالجاذبية، ولو كنت في الفضاء الخارجي وتركتَه هناك يبقى هناك، لا وزن له، في مناطق انعدام الجاذبية لا يوجد وزن، رُوَاد الفضاء سبحوا في الفضاء بدون وزن وما سقطوا، ومعنى وقع؟ أي أن هذا الشيء مربوط بالأرض بطريق التجاذب، هذا نظام الجاذبية من صمَّمه؟ فإذا كان تجاذب في الكون فلماذا لا يتجاذب الكون بعضه ببعض فيصبح كتلة واحدة؟! ما دام الأكبرُ يجذب الأصغرَ، لا بدَّ أن تجذب الشمس المشتري وزحل وأورانوس والمريخ، أن تصبح المجموعة الشمسية كتلة واحدة، وهذه الكتلة الضَّخمةُ تنجذب إلى أكبر نجم في المجرَّةِ، وتصبح المجرة كلُّها كتلة واحدة، والمجرات تنجذب إلى بعضها فيصبح الكونُ كلُّه كتلة واحدةً، لا بدَّ مِن أن يقع هذا، الحركة فيها بركة، بهذه الحركة تنشأ القوّةُ النابذةُ التي تكافئ القوَّةَ الجاذبة، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

كيف هذه الحركة والتجاذب والاستقرار؟ من أصعب الأشياء النظام مع حركة، أنتَ مهما كنتَ ماهراً في الرياضيات وجِئْتَ بقطعتي مغناطيس تضع الأولى على الأرض وتُعلّق الثانية بخيط، وتضع مسماراً في الفضاء بينهما في المكان المُنَصَّف تماماً، وأن يبقى المسمارُ عالقاً في الفضاء بفعل تساوي التجاذب بين القطعتين مع حساب وزنه وجذب الأرض له هذا الشيء فوق طاقة البشر، فكيف الأرض لها مسار لا تزيح عنه، افتح أي تقويم، الفجر على الساعة الخامسة وسبع دقائق، معنى ذلك أن الأرض لها مسار حول الشمس على مستوى ثواني، هناك تجاذب، تجذب القمر والقمر يجذبها، وتجذب الشمس والشمس تجذبها، فلولا الحركة لأصبح الكون كتلة واحدة، من المصمِّم؟ الله سبحانه وتعالى، فربنا قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

هذا الشكل الكُروي رائع جدّاً، لا نهاية لخطوطه وحجمه محدود، الشمس كرةٌ والأرض كرة وزحل كُرَةٌ والكواكب كلها ذات أشكال كروية.

مبدأ العطالة :

تصوّر أن الكواكب مكعبة الحجم، مكعب متوازي مستطيلات، فأنسب شكل للكواكب الشكل الكروي، قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

[سورة الزمر: 5]

لو كانت الأرض مكعبة أو الشمس مكعبة أو القمر مكعب له حروف لاختلف الأمر اختلافاً بيِّناً، الفضاءُ سعتُه والكواكب والمجرّات بكثافتها ونظام التجاذب وعدم تجمع الكون في كتلة واحدة، ونظام الحركة والحركة متفاوتة وبسرعات عالية، فالأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلو متر في الساعة عند خطِّ الاستواء، وتدور أيضاً حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومتر في الساعة، والشمس تدور حول مركز في المجرَّة وتستغرق دورتُها أكثر من مئتي مليون سنة، سرعات متفاوتة، بعض المجرات سرعتها قريبة من سرعة الضوء - مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، والمُذَنَّبات وغيرها:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

فكَّرتُم فيها؟! هذا طريق الإيمان ومعرفة الله عز وجل، فإذا كان الكون ساكناً رفض الحركة، لذلك الآن يبْعثون قَمَراً صِناعِياً يعطونه حركة ابْتِدائِيَّة بسُرعة ثماني أو تسع سنوات، لا يحْتاج الأمر لِمُحَرِّك، يكفي أنْ تضَع كَوْكَباً بالفضاء الخارجي في مكان انْعِدام الجاذِبِيَّة وتعْطيه سُرْعة مُعَيَّنة، نَظَرِياً هذه السرعة ينْبغي أنْ تبْقى إلى أبد الآبدين؛ وهذا هو مبْدأ العطالة، فالجِسْم المُتحَرِّك يرفض السكون، والجِسم الساكن يرفض الحَرَكَة، إذا ركبت سيارةً وأنت واقفٌ، ثمَّ تَوَقَّفَتْ فجأةً تجد نفْسَكَ قد وَقَعْتَ، لماذا؟ لأنَّك ترْفض التَوَقُّف، والسيارة وقفتْ مما يجْعلك تقع، وإذا كان الإنسان في السيارة على المقعد الخلفي وتَحَرَّكت به السيارة يشْعر المقعد الخلفي يدفعه إلى الأمام، لأنه يرفض الحركة، وحدث تضاد بالجهة، فهذا المبْدأ من خلقه، والشكْل الكُرَوي والفضاء والذرات والتجاذب ومبدأ العطالة؟!!

الليل والنهار والشمس والقمر والضوء من آيات الله الدالة على عظمته :

إلى الآن وَتَعْريفُ الضوء صعْب؛ نُجَيْمات دقيقة جداً تنْطلق من أجْسام هي الضوء، قالوا: إذا صار الجِسْم يمْشي بِسُرْعَة الضوْء صارَ ضَوْءاً، ما معْنى الضَّوْء؟ أيْ حجْمُهُ لا نِهائي، وكُتْلَتُهُ صِفْر، أشِعَّةُ الشمْس لا توزن، هذا الضوْء المُنْبعث من هذه المصابيح لا يوزن، وما دام هناك فضاء فالضوء ينْتشر فيه إلى ما لا نهاية، فالضوءُ كُتْلَتُهُ صِفْر، وحجْمُهُ لا نِهائي، فإذا سار أيُّ جِسْم بِسُرْعَة الضوء صار ضوْءً، ما كُنْهُ الضوْء؟ الله أعلم، من خلق الضوء؟ ومن خلق الليل والنهار؟ والشمْس والقمر؟ قال:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

هذه الكواكب لها قِوامٌ، هذا الكَوْكَب غازي، فالشمْس ليستَ صلبة بل غازات تتفاعل تفاعُلاً مُسْتَمِراً ومُتَسَلْسِلاً، زُحَل غازات والمَريخ جسم صُلب وكذا الأرض، لذلك لكُلِّ كوكب كثافة مُعَيَّنة، قالوا: هناك كواكب السنتِمِتْر مكعب فيها بألف ملْيون طنّ! الأرض كثافتُها واحد، وهناك كواكب أكثر وهناك أقلّ، الشَّمْس مثلاً أكبر من الأرض بمِلْيون وثلاثمئة ألف مرَّة ولكن وزْنُها أكبر من الأرض بثلاثة آلاف وثلاثمئة مرَّة، إخْتِلاف الأحْجام واخْتِلاف قِيام الكواكب والكثافات، قال تعالى:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

هناك موْضوعات تقْترب من أنْ تكون فلْسَفِيَّة، موضوع الزمن مثلاً، ما هو تعْريفه؟ قالوا: الزمن هو البُعْد الحَرَكي للأشْياء، شيءٌ له طول وعرض وارْتفاع وله بُعد رابع هو الزمن!

الجبال أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

رَبُّنا عز وجل قال:

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

هناك كتابٌ مُتَرْجَمٌ عن الجبال وعن الأرض مكْتوب فيه بالمُقَدِّمة قال: إنَّ أغْلب الصُّوَر على سطْح الأرض كالبحار والجبال والتِّلال والبُحَيْرات والكُتَل الجليديَّة والسُّهول الخضْراء والمُسْتَنْقعات والصحارى إنما صَنَعَتْها قُوَّةٌ جبارة غيرُ مَرْئِيَّة، فَهُناك نِظامٌ يعْجزُ المرْء عن تَصَوُّر مداه ودِقَّتِه! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

عَرَفوا الآن أنَّ هناك طبقات على سطْح الأرض، حِجار وتراب ورمال وجليد ونباتات، هذه لو أُزيحَتْ لَرَأيْنا أنَّ للقارات جِسْماً، وهذه القارات مُسْتَنِدَة إلى مادَّةٍ صَخْريَّة اسمُها البازلْت، وتحت البازلْت هناك طبقة ثالثة، هي قاعدة الأرض القِشْرَةٌ مُتَجَمِّدَة، وهذه السطوح الصَّخْريَّة تتحَرَّك بالسنة بِنِسْبَة واحد سُنتِمِتْر أو اثنين، تَحَرُّك تطاحُن أو تَحَرُّك تباعد، فإذا تحَرَّكَت الكُتَل السَّطْحِيَّة من القِشْرَة الأرضيَّة تَحَرُّكَ تباعد تأتي البراكين وهذه المادَّة السائِلَة التي في جَوْف الأرض تخْرُج من هذه الشُّقوق وتُكَوَّنُ الجبال، هناك برودِيسْيا جبل كُوِّنَ على هذه الطريقة، أيْ انْزياح الطبقة الصلبة من الأرض ويُمطر هذا السائِل ويتجَمَّد ويُشَكِّل الجبل، وفي المُحيط الأطْلسي سِلْسِلَةٌ من الجبال، تبْدأ من الشمال إلى المحيط المُتَجَمِّد الجنوبي بارْتِفاع قدْرُه ألف وخمسمئة متر، في سلاسل جَبَلِيَّة ضِمْن البحْر:

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

هناك جِبال بُرْكانِيَّة، أيْ البراكين السائِلَة تصْنَعُه وفي سَنَة سبع وستين أو أكثر كانت هناك جزيرة بِكامِلِها تَشَكَّلَت من براكين، فالصفائح القارِيَّة تتباعد عن بعْضِها ومن تباعُدِها تنْشأ الجبال البُرْكانِيَّة وقد تتطاحَن، لأنَّ هذه الصفيحة التي في الأرض تأتي تحت هذه الصفيحة ويحْدُث اِلْتِواء ويظْهر الجبل، فَمِنْ تباعُدها تنْشأ الجبال البركانِيَّة ومن تقارُبها تنْشأ الجبال التوائِيَّة، وهناك ضُغوطٌ باطِنِيَّة في الأرض تدْفَعُ بعض القارات إلى أعْلى وتُشَكِّل الجِبال، هذه بعضُ النَّظريات لكنَّ الله سُبْحانه وتعالى وحْده يعْلم كيفَ نُصِبَتْ هذه الجِبال؟ ومن تصْميم الجِبال حِكْمَةٌ بالغة! نُلاحظ إلى جانب السواحل هناك سلاسل جَبَلِيَّة وهذه الأخيرة تُوَفِّرُ المِصَدَّات التي تمنعُ المُنْخَفضات من التَّبَعْثُر في القارات، وهذه السلاسل الجَبَلِيَّة تُشَكِّلُ فُروقاً في الحرارة بين سُفوح الجبال وبين قِمَمِها، وهذا يُشَكِّلُ تيارات من الهواء، موضوع الجبال موضوعٌ كبير.

سبب اسْتِقْرار الأرض تَوَزُّع الجِبال على سَطْحِها :

ربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

معنى الوَتَد أنَّ للجبل قِسْمٌ ظاهِرٌ وله قِسْمٌ مغْروسٌ في الأرض، العلماء قدَّروا أنَّ القِسْم غير الظاهر يُعادِل ثُلُثي القسم الظاهر! مثل السِنَّ تماماً هذان الثُّلُثان يرْبطان طبقات الأرض بِبَعْضِها البعض، فإذا حصل اضْطِراب في باطن الأرض فإنَّ هذه الكُتَل مُثَبَّتَة ببعْضها البعض عن طريق الوَتَد الذي هو الجَبَل، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

آيةٌ ثانِيَة، قال تعالى:

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

[سورة النازعات: 32]

الأرض تدور ودَوْرَةُ الأرض بِسُرْعَةٍ بالغة فلَوْ لم يكُنْ هناك توازُن في تَوْزيع الثِّقالة والكُتَل على سطْح الأرض لحصل اضْطِرابٌ! قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

لو تَحَرَّكَتْ الأرض بِسَنْتِمِتْر واحد لتهَدَمَ هذا البناء، اسْتِقْرار الأبْنِيَة بِسَبَب اسْتقْرار الأرض، واسْتِقْرار هذه الأرض بِسَبب تَوَزُّع هذه الجبال على سَطْحِها.

عَلاقة الاسْتِقْرار بالرواسي :

قال تعالى:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

[سورة لقمان: 10]

أيْ لِكَيْ لا تميد بكم، الآن تجد قوالب لِعَجَلات من أعلى مُسْتوى ويُثَبِّتون العَجَلة بإحْكام ويضَعونها على مُحَرِّك وتدور ويضعون لها قطعة رصاص بِمَكانٍ مُعَيَّن، فإذا بهذه القطْعة تُحْدث اختلالاً بالدَّوران، كذلك هذه الجِبال حينما أوْدَعَها الله عز وجل ووضَعَها في هذه الأماكن التي بَثَّها على عِلْمٍ من أجل أنْ تكون الأرض مُسْتَقِرَّة، لو تَخَيَّلنا انْتِقال جَبَل من مكانٍ إلى مكانٍ لاخْتَلَّ اسْتِقْرار الأرض، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الرعد: 3]

كلمة رواسِيَ وأنْهاراً تعْني أنَّ الجبل مُسْتَوْدَعٌ للمياه، هذه الأنهار لها ينابيع والينابيع مُسْتَوْدعاتُها في الجبال، وهناك آيةٌ ثانِيَة:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

[سورة الحجر: 19]

أيْ شَكْلُها كُرَوي وخُطوطها كُلُّها مُسْتَمِرَّة، أما أيُّ شكْلٍ آخر فإنَّ الخطوط تنْتهي عند الحرْف لكنَّ الكرة خُطوطها لا تنْتهي، وقال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

فَعَلاقة الاسْتِقْرار بالرواسي، وقال تعالى:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً)

[سورة المرسلات: 27]

حِكْمَةُ ذِكْر آية الماء الفُرات مع القِمَم الشامِخَة هو أنَّ الجبل مُسْتَوْدعُ المياه وربنا عز وجل قال في آياتٍ أُخْرى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 22]

الأرض وما فيها من تضاريس من آيات الله الدالة على عظمته :

الآن يقول ربنا عز وجل:

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

الحِكْمَة من أن الأرض فيها جبال وفيها هِضاب وفيها تِلال وسُهول وبوادي وصَحارى وسَواحِل وبِحار وخُلْجان وجُزُر كبيرة وصغيرة، وهناك قارات من كُلِ النواحي، لكنَّ هناك قانوناً اكْتَشَفَهُ بعض العلماء، قال: كُلُّ نقطة من اليابِسَة إذا رَسَمْتَ خطَّ العرْض لها ومَدَّدْتَهُ حول الكُرة، وأخَذْتَ النقْطة المُقابلة لهذه النُّقْطة تراها بحْراً، كُلُّ نقطة على اليابسة يُقابِلها بحر، وهذا تصْميمٌ عجيبٌ! هل يُعْقَل أن تكون الأرض قِطْعَة من الشَّمْس اِنْفَصَلَتْ عنها وتَبَرَّدَتْ وصارَتْ هكذا! ما هذا النِّظام والقانون! شيءٌ آخر وهو قارات الأرض كما تقول بعض الكُتب هِضابٌ عُظْمى من الصَّخْر ترْتَفِع من ثمانِية إلى عشرة كيلومتر وهو أقْصى ارْتِفاعٍ لها تقْريباً، وسلاسلُ الجِبال التي صَوَّرَها الله عز وجل وألْقاها بعْضُها فوق سطح الأرض، وبعْضُها في أعْماق البِحار، لذلك الآن هناك خرائط لِجِبال البِحار، تجد سلاسل جَبَلِيَّة وتِلالاً وَوِدْياناً حتى في أعْماق البِحار هناك وِديان سحيقة، وادي مرْيانة في المحيط الهادي عُمْقُهُ بِقَدْر ارْتِفاع جَبَل إيفرست أعلى نقْطة بالعالم، ثمَّ إنَّ القارة لها رصيفٌ، والرَّصيف القاري يمْتَدُّ مئة وستون كيلومتر في البحْر، فَقَارَّةُ آسْيا لها رصيفٌ لو انْحَسَرَ البحر تكْبر قارة آسْيا من كُلِّ الجهات مئة وسِتِّين كيلومتر، لو رأيت أوقيانوسيا من دون بحر أكبر من حجمها الحقيقي بمئة وستّين كيلو متر من كلّ الجهات تقريباً،

هذا الرَّصيف القاري تصْميمُ من؟! كُلُّ الجبال التي تَرَوْنها تجدون فيها قواقِع وأحافير ورسوم حيوانات، أشْكال نباتات، فالأرضُ كُلُّها كانت مُغَطَّاة بالبَحر، هذه الجبال المُرْتَفِعَة؛ جبلُ قاسْيون فيه أحافيرُ أسْماك ونباتات فهذه الأرض كم عُمْرُها؟ وكم اسْتَغْرَقت من الوقْت حتى صارتْ صالحة للسُّكْنى؟ لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

الإنسان لا يسْتطيعُ أنْ يعرف الله إلا إذا فكَّر في مخْلوقاته :

تَصَوَّر أرْضاً لا تُرْبة فيها! كيف تعيش؟ وأرْضٌ كلها صَخْريَّة، نموت من الجوع نحن والحيوانات! لكن من فتَّت التراب وأعْطى الماء هذا القانون بِحَيْث إذا تَجَمَّد تَوَسَّع، كُلُّ عناصر الكَوْن تنْكَمِش إذا تَجَمَّدَتْ إلا الماء إذا بردَ تَوَسَّع، لذلك يسهم الماء في تفْتيت التربة وجعْلِها صالحة للزراعة، ومن الذي وضع في التراب هذه الكائِنات الحَيَّة، عندما ألْقَوا قُنْبُلَة ذرِّيَّة على هيروشيما وناكازاكي باليابان أصْبَحَتْ الأرض لا تُنْبِت، هذه الكائِنات الحَيَّة التي لا يعْلَمُ عددها إلا الله من خلقها؟ وإلى الأرض كيف سُطِحَت، من الذي جعل بالمدينة جبل، هذا الجَبَل يُؤَمِّن لك مُسْتَوْدعات للمياه وأنْهار وثلْج، وهو إذا ذاب غَذى هذه المُسْتَوْدعات، من فوق منطقة باردة ومن تحت منطقة حارَّة، ومن اخْتِلاف الحرارة تنْشأ تيارات هوائِيَّة، كلُّ الجبال فيها نسيمٌ مهما كان الحرّ بالمدينة، ثمَّ مسألة تصميم الجبال مع السواحل هناك جِبال داخِلِيَّة لها هدف، وهذه السواحل لها فَتَحات؛ مثلاً فتْحةُ حمْص كُلُّ المنخفضات الجوِيَّة تأتي من هذه الفتْحَة ولدَيْنا فتْحَة ثانِيَة بالجولان أيضاً، هذه الفَتْحات تُؤَمِّن المُنْخَفضات والأمْطار وما شاكل ذلك، هذا التصْميم تصْميمُ من؟

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

هذه الآيات أنا ما أردْتُ منها أنْ أغْرِقَ الأخوة المُسْتَمِعين بِمَعْلومات، ولكنَ أردْتُ من هذه المعْلومات أنْ تكون نماذج، فالإنسان لا يسْتطيعُ أنْ يعرف الله إلا إذا فكَّر في مخْلوقاته، فالارْتِباط بين المقْطع الأول والثاني والأخير في هذه السورة ارْتِباط دقيق جداً، طريق النجاة من عذاب النار والفوْز بِنَعيم الجنَّة هو قوله تعالى:

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

عظمة الله عز وجل تتجلى من خِلال آياته :

الأوروبيِّون فكَّروا وتوَصَّلوا لِحَقائِق مُذْهِلَة عن المَجَرَّات ولماذا ما عَرَفوا الله عز وجل؟ إذا بَقِيَ الإنسان في الكون ولم ينتقل إلى الله عز وجل ما اسْتفاد من هذا العِلم، أحدُ العلماء قال: كلُّ إنسانٍ لا يرى قوَّةً في هذا الكون هي أقوى ما تكون، عليمَةً هي أعْلم ما تكون، رحيمَةً هي أرحم ما تكون فهو إنسانٌ حيٌّ ولكنَّهُ ميِّت، يُمكن أن يكون عالم جيولوجْيا وعالم طبقات وعالم فلك وعالم نبات قد شاهَدَ أشْياء ما شاهَدْناها لكن إذا كان هدفهُ الشَّهْوة والشُّهْرة والمال والمجْد فما اسْتفاد منها شيئاً، رآها ولم يرَها، أما المؤمن إذا نظر إليها ينتقل منها إلى خالقها الله، هذه القارات هي كُتَلٌ صَخْرِيَّة هائِلَة، قارة آسْيا هي كُتْلَة صخْرِيَّة بِكامِلِها مُسْتَنِدَة إلى سطْح صخْري وهذا السطْح مُستنِدٌ إلى سطْح ثالث، لو كان هناك اخْتِلافٌ بالكثافة عَكْسي لغارَتْ القارات في أعْماق الأرض، أو الطبقة السُّفْلى أشدُّ كثافة والعُليا أقلُّ منها كما لو وضَعْتَ الفِلِّين فإنّه يطفو في الماء لأنّ كثافته أقلّ من الماء، من صَمَّم هذا التصْميم بحيث تكون هذه القارات قاعِدَتها أشدّ كثافةً؟ وبالأعْماق هناك مائع ناري، هناك براكين تنطلق من مئة وستين كيلومتر من الأعْماق، حقول النَّفْط أعْماقها ثمانية كيلو متر، فهذه الكُتَل الصَّخْرِيَّة كم أوْزانها؟ تجد جبلاً عُمُره ثلاثون سنة وما تغيَّر شكْلُهُ، وهناك الصخور الثمينة مثل الرخام، هناك رخام ثمنه للمِتْر خمسة آلاف شَفاف أصله كِلس، الكوارتز أصله رمْل، وبعض الأحْجار الكريمة أصْلها فحم، الألْماس أصله فحْم، قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

معنى ذلك هناك ثَرَوات هائِلَة تحت الثرى، نفْطٌ وغازٌ طبيعي وفحْمٌ ومعادن وحديد وأورانيوم وألمنيوم ونحاس، من صَمَّمَ هذا التصْميم؟ الله سبحانه وتعالى، أنا ما قصَدْتُ أنْ أعْطِيَ بحْثاً مُتكامل، فالبحث المتكامل يضْطرنا للصُوَر والسبورة والبيانات والرسومات إنما قصَدْتُ أنْ أُبَيِّن عظمة الله عز وجل من خِلال آياته، فقد أتَيْتُ بأفْكارٍ مُتباعدة وغير مُنتظمة لا على قصْد الحصْر إنما على قصْد بيان عظمة الله عز وجل، فالإنسان إذا لم تكن له جلساتٌ مع الله يوْمِيَّة يتفَكَّر فيها في آيات الله فلن ينْجُوَ من عذاب الله ولا يفوز بِنَعيم الجنَّة، فَسُبْحانه بعد أنْ حكى لنا عن نعيم أهل الجنَّة وعذاب أهل النار قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

مُلَخَّص الدرس أنَّ الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون :

نحن لنا أمورٌ أخرى كالسمك أحْياناً تأكل السمك تجد فيها خطأ هو جهاز ضغْط تعْرفُ به على أيِّ عُمْقٍ في البحر هي، وهذه سمكات تطْفو على سطْح البحْر لها أكْياس هوائيَّة تُفَرِّغُها، وهي تعْرف أين السطح دائِماً، لها أجْهزة وأساليب، فإذا الإنسان أكل السمك ولم ير إلا أنَّهُ سمكٌ طيِّب فقط ولم يتفكَّر في هذا!! قالوا: لولا أنّ السمك الكبير يلْتَهِمُ السمك الصغير لَتَلاشى الماء وبَقِيَ السمَكُ في البِحار!! فالتفكّر دائِماً، نظر إلى ابنه كيف رُزِق السمْع والبصر وضحك وكائِنٌ حيّ بكامِلِه، فالقصْد ليس الآية بما حوَتْ عليه، هذه نموذج، القصْد أنْ تُعْمِلَ عقْلَكَ وفِكْرَكَ في هذه الآيات اُنظر إلى التسلسل الابن، السماء، الجِبال، الأرض، حَرَكة دائِريَّة، من الإبل إلى السماء إلى الجبال إلى الأرض، هذه كُلُّها أشْياء نَحْياها وتُحيط بنا، هناك آية عن الجبال وهي قوله تعالى:

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

[سورة النحل: 81]

تجد قرب الجبال ركود الهواء وحرّاً، إذا كانت مدينة خلْفَ جبلٍ تجد جَوَّها دافئاً، لماذا مَكَّة حارَّة؟ لأنَّها مُحاطة بالجبال، فهيَ مَسَدُّ الرِّياح، هناك آية قرآنية أُحِبُّ أنْ تسْمعوها لأنَّ لها علاقة بمَوْضوعنا قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

فالإنسان إذا لم يفكِّر بهذه الآيات فهو كالأنعام بل أضَلّ! لأنَّ الأنعام ليْسَت مُكَلَّفة بالأمانة ومعْرفة الله عز وجل، مُكَلَّفَة بِخِدْمة الإنسان وقد خَدَمَتْهُ فإذا جاء أجلها فهي إلى الجنَّة، أما الإنسان فهو مُكَلَّف أنْ يعرف الله عز وجل، فهذا الدرس مُلَخَّصه أنَّ الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة المرسلات: 44]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (3-3): تفسير الآيات21-26 أهمية التذكير بوعد الله سبحانه ووعيده.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-02-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم ترابط بين مقاطع السورة مقْطعاً مقْطعاً :

أيها الأخوة الكرام، وصلنا في الدرس الماضي في سورة الغاشِيَة إلى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

بيَّنْتُ لكم في الدرس الماضي أنَّ القرآن الكريم أُحْكِمَت آياته ثمَّ فُصِّلَتْ فلا بدَّ من ترابطٍ بين مقاطع السورة مقْطعاً مقْطعاً، وذَكَرْتُ وَقْتَها أنَّ الله سبحانه وتعالى سَيَّر في المقْطَع الأوَّل أحْوال أهْل النار، وفي المقْطع الثاني أحْوال أهل الجنَّة، وبَيَّنَ في المقْطع الثالث أنَّك إذا أرَدْتَ أنْ تفوز بالجنَّة وتنْجُوَ من عذاب النار فَعَلَيْك بالإيمان، وطريق الإيمان التَّفَكُّر في آيات الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى ضَرَبَ بعض الآيات كَمَثَلٍ لا على سبيل الحصْر بل على سبيل المثال، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

المقْطَعُ الأخير، ما علاقته بالمقاطع الأولى؟ لو أنَّ أهْل الجنَّة كما وَصَفَهم الله عز وجل يسْعدون إلى أبد الآبدين، وأهْل النار كما وَصَفَهم الله عز وجل يشْقَوْنَ إلى أبد الآبدين، وأنَّ الآيات مَبْثوثة في كُلِّ مكان، في أنْفسكم، وفي طعامكم، وفي شرابكم، وفي النبات، وفي الحيوانات الأهْلِيَّة وغير الأهْلِيَّة، وفي الجبال والبحار، وفي السُّهول والصحارى، وفي الطيور والأسماك، إذا كان أهل الجنَّة كذلك والآيات كذلك وأهْل النار كذلك وهذا الإنسان لا يُفَكِّرُ فيها فماذا يجب عليك أنْ تفْعَلَهُ أنت؟!

فِعْلُ (ذَكِّر) يسْتلزم أنَّ في النَّفْس شيئاً كامِناً إذا ذَكَّرْتَ به الإنسان يذْكُرُهُ وهو الفطرة :

قال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

الإنسان لا يفكِّر، هل تتْرُكُهُ على حاله؟ لا بُدَّ من التَّذْكير، ما معنى فذَكِّرْ؟! حينما تقرأ صفْحَةً من كتاب قد لا تذْكُرُها فإذا جاءَكَ صديقٌ أو زميل وذَكَّرَكَ بها تذْكُرُها، لا بدَّ من أن تكون قد قرأتها، فَفِعْلُ (ذَكِّر)

يسْتلزم أنَّ في النَّفْس شيئاً كامِناً، إذا ذَكَّرْتَ به الإنسان يذْكُرُهُ فلولا هذا الشيءُ الكامن، ما معنى قوله تعالى:

(فذَكِّرْ)

لم يقُل الله تعالى: (عَلِّمْ) إنما قال: (ذَكِّرْ)، معنى ذلك أنَّ شيئاً كامِناً جئتَ أنت أيها النبيّ فَذَكَّرْتَهُ به فَذَكَرَهُ، ما هو هذا الشيء الكامن؟ الفِطْرَة، حينما خلق الله الإنسان خلقهُ بِفِطْرَةٍ لا ترْتاحُ إلا إذا عَرَفَتْهُ، مثلاً السَّمَكة طبيعتها وشَكْلُها وزعانِفُها وأكْياسُ الهواء فيها، بُنْيَةُ السَّمَكَة من ألفها إلى يائِها مُهَيَّأةٌ لِتَكون في الماء فإذا وَضَعْتَها في الماء ترْتاح، وإذا خَرَجَت منه تحَرَّكتْ واضْطَرَبَتْ وماتت فالإنْسان إذا عرف الله عز وجل عاد إلى فِطْرَتِهِ، ربنا عز وجل خلق الإنسانَ ضعيفاً فإذا عرف الله عز وجل اِطْمَأنَّ وإذا انْقطع عنه اضْطَرَبَ فَحَياةُ الذين لا يسْتقيمون على أمْر الله مُضْطَرِبة، وحياتُهم قَلِقَة وفيها نَغَص قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

بعض علامات الإيمان :

إذاً كلمة (فَذَكِّر) معناها يوجد بالنَّفْس شيءٌ كامِنٌ، وهو الفِطْرة السليمة التي فطَرَ الناس عليها، وهو تلك الاسْتِعْدادات والإمْكانات والخصائص التي إنْ عرفتَ الله عز وجل تفاعَلَتْ وعَمِلَتْ وأبْدَعَتْ، فعندما يكون الإنسان غير مُسْتَقيم وبعيداً عن الله عز وجل تُصبحُ حياته قَلِقَة، وفيها اضْطِرابٌ، ورُدود فعله عنيفة جداً، وغير منطِقي، يُحبُّ أنْ يأخذ ما له وما ليس له، يخافُهُ الناس، يكْرَهُهُ الناس، فإذا عرف الله عز وجل وهو ضعيفٌ اِطْمَأنَّتْ نفسه بِقُوَّة الله، وإذا عرف الله عز وجل وهو الهلوع توازَنَتْ نفْسُهُ بِعَدالة الله، إذاً ربنا عز وجل لما قال لِنَبِيِّهِ الكريم: فَذَكِّرْ، كان ذلك دليلاً أنَّ في النفْس البشَرِيَّة شيئاً كامناً مُهَيَّئاً للإيمان، ومن كان صادِقاً يعْرِفُ ما نقول! قال ابن عطاء الله الإسكندري: لا يعْرِفُ ما نقول إلا من اقْتفى أثر الرسول، من آمن إيماناً صحيحاً يقول لك: كنت في جَهَنَّم، وقد أصْبَحْتُ في الجَنَّة، يقول لك: ليس في الأرض أسْعَدَ مِنِّي! يقول لك: أنا مُطْمَئِنّ، لا يرى إلا الله ولا يخْشى إلا الله، يُصْبِغُ الله عليه طُمأنينةً وسكينةً وتوازُناً وهُدوءاً وحِلْماً وبصيرةً وحِكْمَةً وفِراسَةً، هذه علامات المؤمن، لذلك من علامات الإيمان أنَّ المؤمن يكْرَهُ أنْ يعود في الكُفْر كما يكْرَهُ الرَّجُل أنْ يُلْقى في النار، هذه بعْضُ علامات الإيمان، فالنبي الكريم الله سبحانه وتعالى قال له: فَذَكِّر فالله خلق العباد كلَّهم على فِطْرةٍ سليمة وعلى بُنْيَةٍ واحدة، لا فرق بينهم، ولا فرْق بين أبْيَضِهم وأسْوَدِهم، ولا غَنِيِّهم وفقيرهم، كلُّهم يخاف، فإذا

عرف الله اطْمَأنَّ، كُلُّهم له قلبٌ هَلوعٌ فإذا عرف الله أصبح جسوراً، كُلُّهم يُحِبُّ المادَّة فإذا عرف الله زَهِدَ فيما سِواها، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-21]

إذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إلى النبي وهو قِمَّة العِلم فهُوَ مُوَجَّةٌ للمؤمنين بالتَّبَعِيَّة :

كلمة (فذكّر) تعْني أنَّ شيئاً في النَّفْسِ مُسْتَقِرّ، مُهِمَّةُ النبي أنْ يكْشِفَ عنه، أنْ يُفَجِّرَهُ كما يقول علماء النَّفْس، في الإنسان أشْياءٌ كامنة، البيئَة الراقِيَة تُفَجِّرُها:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

قبل أنْ نصِل إلى كلمة (إنّما أنت مُذكّر)، الأمْرُ لِمَن؟ بِحَسَبِ ظاهِرِ الآية الأمْرُ مُوَجَّهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام؛ يا محمّد ذكّر، يا داود ذكّر عبادي بِإنْعامي عليهم فإنَّ النفوسَ جُبِلَتْ على حُبِّ من أحْسن إليها، وبُغْض من أساء إليها، ولكِنَّ علماء التفْسير: اِستِناداً إلى قوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

فإذا كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم مأموراً أنْ يُذَكِّر، فَنَحْنُ أيْضاً مأمورون أنْ نُذكِّر، فإذا فَهِمْنا أنَّ الفِعْل ذكّر أنه للنبي عليه الصلاة والسلام، النبي قِمَّةُ العِلْم، ما من إنْسانٍ على وَجْه الأرض أعْلم من رسول الله، الآن تجد شَخْصاً يأخذ خمسين حديثاً ويَتَعَمَّق فيها فإذا به يأخذ دُكْتوراه بالشَّريعة، إذا فَهِمْتَ كلام النبي فأنت تَحْتَلّ أكبر مكانة عِلْمِيَّة في الأرض، فَمَن هو النبي؟ سيِّدُ العلماء والعُلماءُ كُلُّهم عالَةٌ عليه، فإذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو قِمَّة العِلم فَهُوَ مُوَجَّةٌ للمؤمنين بالتَّبَعِيَّة، إذاً يجب عليك أنْ تتعَلّم قبل أنْ تُذكِّر، إذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إليك أيها المؤمن ينبغي أنْ تفْهَمَ كتاب الله وهو أصل العِلْم، وأنْ تكون عالِماً، وينبغي أنْ تفهم سنَّة رسول الله وهي أعْلى تفْسيرٍ وفَهْمٍ لِكَلام الله، فإذا فَهِمْتَ آيةً وذاكَرْت بها في البيت وتأثَّرْتَ بها، انْقُلْها إلى الآخرين ولا تجْعل حَدِيثَكَ في أمورٍ سخيفة قال عليه الصلاة والسلام: " إنَّ الله يُحِبُّ معالِيَ الأمور، ويكْرَهُ سَفْسافَها ودَنِيَّها"، راقب نفسَكَ! ما الموْضوعات التي تخوضُها مع أصْدِقائِكَ وزُملائِك وجيرانك ومع أرْباب مصْلحتك، في بيْتِكَ مع أوْلادك وَزَوْجَتِك.

((ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا قاموا عن أنتن من جيفة))

[الطيالسي والبيهقي والضياء عن جابر]

كَلِمَة (فَذكِّر) إذا وُجِّهَتْ للمؤمنين تَنْطوي على دَعْوَةٍ للتَّعَلُّم وهو غير الاسْتِماع :

كَلِمَة (فَذكِّر) تَنْطَوي إذا وُجِّهَتْ للمؤمنين على دَعْوَةٍ للتَّعَلُّم وهو غير الاسْتِماع، قد يأتي رجُلٌ إلى مجْلس العِلم ويسْتمع إلى الدرْس ويخرج ونفْسه مُمْتَلئة بهذا الدرس، ولكن قُلْ له بربِّك: ماذا تَكَلَّم المُدَرِّس؟ هل تذْكر أيةً واحدة أو تَوْجيهاً واحداً؟ ما الذي اسْتَفَدْتَهُ؟ إنْ كنت تسْتَمِعُ العِلم ولا تحْفَظُهُ ولا تُرَكِّزُه ولا تتعَمَّقُ في فهْمِهِ فَكَيْفَ تسْتطيعُ أنْ تتعمَّق فيه وتنْقُلهُ للغَيْر؟! فالتَّذْكير الذي في هذه الآية في الأساس مُوَجَهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إذاً هي أيضاً مُوَجَّهَةٌ لِكُلِّ مؤمن فالمؤمن يجب أنْ يتعلَّم قبل أنْ يُذَكِّر وأصْل العِلْم كلام الله، والأصل الثاني سُنَّةُ رسول الله، أعْلى فَهْمٍ لِكِتاب الله، وأدَقُّ تفْسير لِهذا الكِتاب، المقْصود بهذا الأمر النبي عليه الصلاة والسلام أوَّلاً، وكل من آمن به ثانياً، لذلك قد تُسأل هذا السؤال: أنت كم رجل؟ تقول: ما هذا السؤال؟! أنا رجل واحد، نقول لك: إنْ هَدَيْتَ إنساناً فأنت رجلان، وإنْ هَدَيْتَ رجلان فأنت اثْنَيْن، وإنْ هَدَيْتَ ثلاثة فأنت ثلاثة، وإنّ إبراهيم كان أمَّةً، بهذا العُمُر المديد كم من إنْسان اتَّجه في اتِّجاهِك وتأثَّر بأفْكارك وبأخْلاقك وبِقِيَمِك، أقرب الناس أوْلادك وزَوْجَتُك، قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ خَيرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

((لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم له بصاع))

[العسكري في الأمثال عن جابر بن سمرة]

خيرُ كَسْبِ الرَّجُل وَلَدَهُ، (فَذكِّر)! هل ذَكَّرْتَ أوْلادك؟! هل ذَكَّرْتَ زَوْجَتَك؟ وما الموضوعات التي تخوضُها مع زَوْجَتِك في الطعام، وفي السَّهْرة، عند الاسْتِيْقاظ، وعند النوم، دُنيا، أثاث المنزل، مشاكل الجيران، فُلان وعِلان، فَذَكِّر للنبي أوَّلاً وللمؤمنين ثانياً، فهذا الأمر مُوَجَّهٌ إلينا أيْضاً.

من الذي يُذَكِّر؟ كلَّ إنْسانٍ، هل في الأرض كُلِّها إنْسانٍ أبعد عن الدِّين من الذي قال: أنا ربكم الأعلى، والذي قال: ما علمت لكم من إلهٍ غيري! ومع ذلك قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43]

حجْمُكَ عند الله بِحَجْمِ من اهْتَدَوا على يَدَيْك :

هذا الكلام له أبعاد وهو أنَّ كُلّ إنسان له إمْكانِيَةُ الهُدى بما فيهم فِرْعَوْن فلا تيْأس من الناس، الإمام مالك رضي الله عنه رأى رَجُلاً في الطريق مُلْقى على قارعة الطريق وزبد الخمر على شَفَتَيْه ويقول: الله، هذا الإمام الكريم أبى وكَبُرَ عليه أنْ يخرجَ هذا الاسم من فمٍ مخْمور! القِصَّة مُطوَّلة فما إنْ مَسَحَ فمَهُ وأكْرَمَهُ وأخذهُ إلى البيتْ، عالجَه بما يسْتَحِقّ فلما آوى إلى فِراشِهِ رأى في المنام أنّ الله سبحانه وتعالى قال له: يا مالك، طَهَّرْتَ قلبهُ من أجلنا فطَهَرْنا قلبه من أجلك، ذَهَبَ إلى المسجد صباحاً، رأى رجُلاً يبْكي في صلاته ولم يألف هذا الوجه من قبل، فقال له: من أنت يا أخي؟! قال: إنَّ الذي هداني أخْبَرَك بحالي! لا تيْأس من الناس، ولا تيْأس من شارب الخمر ذكِّرْهُ، وكذا إنْ كان آكلاً للرِّبا، كُلُّ إنسانٍ له إمْكانِيَةُ الهُدى بما فيهم فِرْعَون، لكن بالحِكمة وليس بالقسْوة! قال أحدهم للآخر أريد أنْ أنْصَحَك بالقَسْوة، فقال الآخر: ولِم القسْوة؟! لقد أرسل الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مِنِّي أرسل موسى إلى فرعون، وقال له:

(فقُولا لَهُ قوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43]

حجْمُكَ عند الله بِحَجْمِ من اهْتَدَوا على يَدَيْك، وما أحْدَثَ رجلٌ أخاً في الله إلا أحْدث الله له دَرَجَةً في الجنَّة والكلام لا يؤثِّر، الفعل هو الذي يؤثِّر، قدِّم خدماتك للناس، عاونهم في شؤونهم، قدِّم لهم خبراتك، أعطهم من مالك أو أقرضهم إذا اضطر الأمر، قدِّم لهم شيئاً من خبراتك في الحياة، عندئذٍ إذا ذكَّرتَهم يذكرون وقد يبكون ويتأثَّرون، الكلام وحده لا يساوي شيئاً كله كلام بكلام، لكن المؤمن الصادق يحاول أن يبذل ممَّا آتاه الله حتَّى يستميل قلوب الناس، يجب أن تفتح قلب أخيك قبل أن تفتح عقله، افتح قلبه بالإحسان ثم افتح عقله بالحقائق:

(فذَكِّرْ)

أنت المعني بهذه الآية ومن على وجه الأرض من المؤمنين معنيٌّ بالتذكير.

التُّؤَدَة خيرٌ في كُلِّ شيء إلا في عَمَلِ الآخرة :

كلمة (ذكّر) تعني أن في الإنسان فطرةً كاملة كما أن السمكة لها كل مقوِّمات الحياة في الماء، فإذا وضعتَها في الماء استقرَّتْ وارتاحت وسُرَّتْ، فإذا أخرجتَها من الماء اضطربتْ وماتت، فحينما يقول الله عز وجل: (ذكّر)، يعني في الإنسان فطرة سليمة فإذا أيقظتَ كوامنها وذكَّرته بأصله وعرفتَه بربِّه عاد إلى فطرته فسعِد سعادةً كبرى، الأمر موجَّهٌ إلى النبي أوَّلاً وإليكم بالتبعية، من يُذكِّر؟ كُلَّ إنسان

بالحِكْمة والموعظة الحَسَنة، من أمر بالمعْروفٍ فلْيَكُن أمره بالمعْروف، كيفَ نُذَكِّر؟ ذَكَّر من الثلاثي المُضَعَّف، مثلاً غَلَقَ الباب لكن غَلَّقَ الباب أرْصَدَهُ، كسر العود أما كَسَّر العود أي بالغ في كسْره، قطع اللَّحْم أما قطَّع اللَّحْم بالغ في التقطيع، مزَّق الورق جعلها قِطَعاً صغيرة، فالفِعْل الثلاثي إذا ضَعَّفْنا عَيْنَهُ يُفيدُ المُبالغة، فَرَبُّنا عز وجل قال: (فذَكِّر) أيْ أكْثِرْ من الذِّكْر، لا إسراف في التَّذْكير والخير ولا خير في الإسراف، التُّؤَدَة خيرٌ في كُلِّ شيء إلا في عَمَلِ الآخرة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 41]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران: 102]

التذكير يكون في كل وقت :

قال تعالى:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

[سورة الحج: 78]

ذَكِّر صباحاً ومساءً ولَيْلاً ونهاراً، وفي أيام الرَّخاء وفي أيام الشِّدَّة، وفي البحْبوحة وفي الصِّحَة وفي المرض، هذه الشَّدَّة تعْني المُبالغة في التَّذْكير من الذي تُذَكِّر؟ ومن يُذَكِّر؟ وكيف تُذَكِّر؟ ما موضوعات التَّذْكير، تذْكيرُ الإنسان بأصْله، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

[سورة يس: 77]

ذَكِّرْهُ بأنَّ الجِسْم وهذه المكانة وهذه القُوَّة وهذا المال شيءٌ منَّ الله به عليك، ألمْ يأتِ عليك حينٌ من الدَّهْر لم تَكُن شيئاً مذْكوراً؟ كُلٌّ مناً له تاريخُ ميلاد، لو فَرَضْنا أنَّ أحداً منَّا موْلودٌ سنة ألفٍ وتِسْعِمئة وخمس وثلاثين، سنة ألفٍ وتِسْعمئة وثلاثين، من يعْرفك؟ أنت لا شيءَ؟ طيِّب، سنة ألفَيْن وخمسُمئة! ذِكرى، إنْ كنت ممن عرف الله عز وجل قد تبْقى ذِكْراك في القلوب، وإلا فلا، مرَّةً سألْتُ طُلابي فقُلْتُ لهم: من يذْكُر لي اسم غَنِيٍّ عاش في الشام سنة ألف وثمانمئة وخمْسٍ وثمانين؟ فكَّروا وفكَّروا حتى عجَزوا عن الجواب، فقُلْتُ لهم: وأنا مثْلُكُم لا أعْرف.

موضوعات التذكير :

يا بُنَيَّ ماتَ خُدامَ المال وهم أحيْاء والعلماء باقون ما بَقِيَ الدَّهْر، أعْيانهم مفقودة وأمْثالهم في القلوب موجودة، إذاً الموضوعات، ذَكِّرْهُ بأصْلِهِ لم التكبر، ذَكِّرْهُ بمَصيره، كيف سيَكُون تحت الثَّرى، يا ابن آدم إنَّك تسير على ظَهْري، وسوف أضُمُّك إلى بطْني، الأرضُ القائِلة، ذَكِّرْهُ بآلاء الله فالإنسان مُحاط بآيات مُذْهِلة، ليستْ الآيات التي حَوْلَهُ بُرْهاناً مُقْنِعاً، لكنها برهان قاطع على عظمة الله، الماء يعطيك درساً، من جعله عذباً فراتاً وكان من قبلُ مِلحاً أُجاجاً؟ الله سبحانه وتعالى، من نصب الجبال وأقام السهول وفتَّت التربة وجعلها ممتلئة بالأحياء الدقيقة كي ينبت النبات؟ من جعل الماء يتمدَّد إذا تجمّد كي يعين على تشكيل التربة؟ من جعل البحار ومن جعل القطبين والصحارى والسهول؟ من خلق النبات؟ من أعطانا مليون نوع من السمك ومن صمَّم آلاف الأنواع من الطّيور، وبثَّ فيها من كل دآبة؟ ذكّرهم بآلاء الله وبأصلهم كي يتواضعوا وبمصيرهم كي يخافوا، وذكّرهم بآلاء الله كي يعظّموه وذكّرهم بنعمه كي يحبُّوه، يا داود ذكّر عبادي بإنعامي عليهم فإن النفوس قد جُبِلت على حبٍّ من أحسن إليها، ذكّرهم بالمثانة، فكل عشرين ثانية ينزل من كليتيه نقطةٌ إلى المثانة ولولاها لاحتاج الإنسان إلى فوط طوال النهار، ولأتعبته فأين كرامتك؟ إن كانت للإنسان رائحة قبيحة؟ وإفْراغ المثانة؛ هو أنَّ ربنا عز وجل جعل لها عَضَلات ضاغِطة فإذا أردْتَ أنْ تُفْرغَها أفْرَغْتها في دقيقةٍ أو نصْفُها، ولولا هذه العضلات لاحْتَجْتَ إلى عشْر دقائق كي تُفرغها، ومن منَحَها أنْ تمْنَعَ كُلَّ رائِحَة كريهة تخْرج من المُستقيم! من أعْطاك السمْع والبصر وهذه الذاكرة والقُدْرة على المُحاكمة، قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

رجل دخل عليه ابنه فقال له: منْ أنت؟! فقَدَ ذاكِرَتُهُ، الإمْكانات الفِكْرية هل هي قليلة؟ هذه المفاصل والعضلات والعِظام، ومن الذي جعل عضلات الحَوْض يرْتَكز عليه الفخِذ؟ ومن جعل لِعَظم الفخذ عُنُقاً؟ ومن جعل هذه القطعة في الفخذ أقْصى شيءٍ في الإنسان؟ هذه الأخيرة تحْتمل وزن مئتين وخمْسين كيلو، فالإنسان لو وُضِع فوقه خمسمئة كيلو فإنَّ العضلات تحْتمِلُها! ذَكِّرْهم بآلاء الله، وبهذا الطّفْل الذي أمامك، كان من نطفَة من ماءٍ مهين، وأعْطاهُ هذه الصورة الحَسَنَة، وألْهَمَهُ هذا الكلام اللّطيف، علماء نفْس الأطّفال اكْتَشَفوا صِفات للطُّفولة منها البراءة، والصفاء، والانْفِعال.

آيات قرآنية للتذكير :

إذا رأيْتَ واحداً أشْرك بالله فَذَكِّرْهُ بقول الله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

ذكره بقوله تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

وذكره بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

وذكره بقوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 55]

وذكره بقوله تعالى:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الزمر: 63]

وقوله تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

تذْكيرٌ بالتوْحيد، إذا رأيْتَه مائلاً إلى الدنيا ذكره بالموت، رأيْتَهُ ليس مُحِباً لله ذكِّرْهُ بآلاء الله، ذكِّرْهُ بعذاب الله وبالأمراض الوبيلة، والفقر، والشِّقاق الزَّوْجي، هناك مصائبٌ لا يعْلمها إلا الله.

حجم النبي الكريم أنه يذكِّر الناس بالله فقط :

إذاً أصبح التَّذْكير من الفطرة، ومُوَجَّهٌ، وعرفتَ من يجب أنْ تُذَكِّر؟ وكيف؟ ومن يُذَكِّر؟ وما الموضوع الذي تُذَكِّرُ به؟ قال الله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

أي أن النبي مذكِّر وقد يكون بيده الأمر، مذكِّر وبيده الأمر، مذكِّر وبيده النفع والضُّرُّ، أمَّا حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

أي أنت مذكِّر فقط، هذا هو القصر، أي أن حجم النبي الكريم أنه يذكِّر الناس بالله فقط، فإذا أحبُّوه وعاملوه شعروا بالسعادة، هذا كل ما في الأمر، أما أن تقول: وليٌّ من الأولياء يصلي العصر في مكَّة، والعشاء في المدينة، والغداة في الأقصى، وهو في دمشق، لِم لمْ يهاجر النبي هكذا؟ سُئِل الجنيد: منْ وليُّ الله، أهو الذي يمشي على وجه الماء أم هو الذي يطير في الهواء؟ قال: لا هذا ولا ذاك، وليُّ الله تجده عند الحلال والحرام، وقَّافاً عند الحرام ملتَزماً بالحلال، هذه هي الولاية، أمَّا أنه تُنسبُ لأشخاص أعمال خارقة للعادات فوق إمكانات البشر وتظن أن الولاية هكذا، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

سيد الخلق وحبيب الحق مذكِّر فإن أصبح حجمه أكثر من هذا صار تأليهاً :

اللهم إنما بشر ينسى كما ينسى البشر، قال تعالى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأعراف: 188]

قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام:15]

قال تعالى:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام:50]

هذا نبي يخاف الله إن عصاه عذاب يوم عظيم، ولا يعلم الغيب، ولا يملك لنا ولا لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الأحقاف:9]

سيِّد الخلق وحبيب الحق ولكن الفعل بيد الله عز وجل، إنما أنت مذكِّر هذا حجمك، أكثر من هذا صار تأليهاً.

حجم المرشد :

غلاة النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وكل فئة تُغالي وتتجاوز الحدَّ الذي نصَّ الله عليه تنسب بعض صفات الألوهية للبشر، فذكِّر إنما أنت مذكِر فقط، لذلك قال الصوفيون: لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ومن لا يدلُّك على الله مقاله، هذا هو حجم المرشد، وأكثر من هذا لا يوجد، يذكِّرك بالله فإذا حصل احتكاك ومعاملة تحبُّه، لأنه ملتزم ومطبِّق، أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكِّر الله بهم،فإذا رأيت النبي الكريم في المنام تبقى شهراً غارقاً في السعادة، فهذه النفس اشتبكَت مع نفسٍ عالية جدّاً تتلقى من الله تجلّيات عالية، هذه بعض معاني الشفاعة، اتصال النفس برسول الله في حياته وبعد مماته، هذا بعض معاني ما يحدث للمؤمن من سرور، فإذا جلس في مجلس علم فالنبي الكريم جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، فقال سيدنا حنظلة: نكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا أهلنا نسينا، سيدنا الصديق كان رقيقاً وحكيماً قال له: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله وهاك نص الحديث:

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيراً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ]

انتهى الكلام أن المؤمن في حضرة النبي الكريم يحس بمشاعر لا يحسُّها وهو بعيد عنه، هذه وظيفة من وظائف النبي والدعاة إلى الله.

أعْلى مقامٍ للإنسان أن يكون عبداً لله :

علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، هذه حال المؤمن، إذا اقتربت منه شعرتَ بالسعادة وإذا استمعتَ إليه يملؤك علماً، أمَّا أنه يمشي على الماء أو طار في الهواء، لا يعْلم الغيب إلا الله، الوليُّ من تجده عند الحلال والحرام هو كالبشر وليس فوق البشر، وليس عنده إمْكانات فوق البشر، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

((إنما أنا بشرٌ أرْضى كما يرْضى البشر وأغضب كما يغضب البشر))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

قال تعالى: قل لا أعلم الغيب، إذا جَمَعْتَ هذه الآيات تعْرفُ حجْم النبي عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد الله ورسوله، أشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأشْهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أعْلى مقامٍ للإنسان أن يكون عبداً لله، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

[سورة المائدة: 77]

الإنسان مُخَيَّر ومُسْتَقِلّ في اخْتياره عن النبي :

حتى لا يقع الإنسان بمُبالغات ويعْطيك للأنبياء والأولياء حجماً أكبر بكَثيرٍ من حجْمِهم الحقيقي، ربنا عز وجل قال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

حتى الإنسان مُخَيَّر، ومُستَقِلّ في اخْتياره عن النبي لذلك قال الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 272]

قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

ذاك نظر بِشَخْصٍ فاهْتَدى! هذه ليْسَت لِرَسول الله فما بالك لِمَن هو دونه إذا أقنعه وجاء بأدلّة منطقيّة، ذكّره بالجنّة وحذّره من النار، عمل محاكمة فاهتدى، لو أنَّ النبي يمْلكها لنَظَر إلى عَمِّهِ أبي لَهَبٍ فاهْتَدى قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

آيات قرآنية وأحاديث شريفة تؤكد أن الإنْسان مُخَيَّر :

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار - أنْظر إلى دِقَّة البلاغة النَّبَويَّة - أنا لا أغني عنك من الله شيئاً ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

((حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

هذا يعْني أنَّ الإنْسان مُخَيَّر، قال تعالى:"

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

قال تعالى:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

[سورة الكهف: 29]

التلازُم بين الكُفْر وبين أنْ تُعْرِضَ عن الحقّ :

الله عز وجل طمْأنَ النبي عليه الصلاة والسلام أنَّه ليس عليك إلا التَّذْكير، وعلَيْك أنْ تُبَيِّن لهم كُلَّ شيء حتى يخْتاروا الهداية، أما إذا ظَنَنْتَ أنَّكَ ستُجْبِرُهم على شيءٍ فهذا ليس بإمْكانك، ولا يعْني أنَّهُ مُخَيَّر ليس له تَبِعَة لِعَمَلِهِ، هذا اِهْتَدى وذاك ما اهْتَدى حُرٌّ، لكي لا تقع في هذا الوَهْم تذكَّر قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

لكن من تولى وكفر لا يعفى من المسؤوليَّة، هناك سَوف يلقى تَبِعَة عملِهِ إلا من تولى وكفر، هناك تفسيرات لهذه الآية:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

من توّلّى أيْ من أدار ظهْره للحق، هذا هو الكُفْرُ، وهناك تلازُمٌ بين الكُفْر وبين أنْ تُعْرِضَ عن الحقّ، أحْياناً يُلْقي المُدَرِّس درْساً قيِّماً والطالب مشْغولٌ برَسم خُطوط سخيفة على دفْتَره، فهذا الطالب مُوقِن بوُجود المُدَرِّس صَوْتاً وصورةً وحجْماً، ومع ذلك يُعْتَبر هذا الطالب كافراً بالمُدَرِّس، ليس معنى كافر أنَّهُ أنْكَرَ وُجوده ولكن زاهِدٌ بِعِلْمِهِ ومُعْرِضٌ عنه، فصار معْنى الكُفْر الزُّهْد بما عند الله، والإعْراض عنه تعالى لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

الكُفْر هو الإعْراض وهو أنْ تُديرَ وجْهَكَ للشَّرْع ولِعِقاب الله ووعيدِهِ ووعْدِهِ وجَنَّته:

يُصَلي ويُنفِقُ من ماله ومع ذلك وَصَفَهم الله عز وجل بأنَّهُم كفروا بالله ورسوله، فالكُفْر هو الإعْراض، وهو أنْ تُديرَ وجْهَكَ للشَّرْع ولِعِقاب الله ووعيدِهِ ووعْدِهِ ولِجَنَّتِه، لذلك:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ *إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

ولكن من تَوَلى وكَفَر لا ينْجو من تَبِعَة عَمَلِهِ، (إلا) هنا بمعنى بَيْدَ، بَيْدَ أنّه من تَوَلى وكَفَر:

(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

هناك عذابٌ أليم، وهناك عذابٌ عظيم، وهناك عذابٌ مهينٌ، وآخر إلى أبدِ الآبدين، وهناك مَسٌّ بالعذاب، أحْياناً يضَعُ الإنسان تياراً على يَدِهِ فإذا به يُمَسّ قال تعالى:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ)

المَسُّ غير العذاب المُسْتَمِرّ، فالإنسان الذي لا يخاف الله أحْمَقٌ وغَبِيٌّ وعديمُ الإدْراك، الله سبحانه وتعالى قال:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

كُلَّما فَكَّرْتَ في عذاب الله فهو أكبر :

قلتُ اليوم بالخُطبة كلمة: أنَّكَ لا تجدُ مُسْلِماً يقرأ القرآن إلا ويقول بعد الانْتِهاء من قِراءَتِهِ: صدق الله العظيم، ولكِنَّك إذا تَفَحَّصْتَ عَمَلَهُ لم تَجِدْهُ مُصَدِّقاً لِكِتاب الله! لماذا؟ لأنَّهُ يعمل للدنيا ويرتكب المعاصي والموبقات، وكأنَّ الحياة هي كُلُّ شيء، ولا شيءَ بعد الحياة، لا حِساب ولا عذاب ولا سُؤال ولا جَهَنَّم، يعيشُ في الدنيا على أهْوائِهِ، يُعْطي لِنَفْسِهِ هَواها ويَتَمَنى على الله الأماني، هذا الإنسان بالذات عَمَلُهُ لا يُصَدِّقُ كتاب الله، قد يكون في لِسانه مُصَدِّقاً ولكن عَمَلُهُ لا يُصَدِّق، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ*إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

ما هي العَذابات في الدنيا؟ الإنسان يفْقِدُ سمْعَهُ وعقْلَهُ، ويدخلُ إلى مُسْتَشْفى الأمراض العَقْلِيَّة، وهذا يفْقِدُ أهلهُ، وذاك مرضٌ عُضال، والآخر يفْتَقِر يشتهي رغيف الخُبز، هذا حدث في الحُروب السابقة، يكون له ابنٌ عاق، كُلُّ هذه العذابات معْقولة ومقْبولة ومُحْتَمَلَة، لكنَّ ربنا عز وجل قال:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

كُلَّما فَكَّرْتَ في عذاب الله فهو أكبر، لذلك قد يُطِلُّ الإنسان حين مَوْتِهِ يُفْتَحُ له بعضُ أبواب النار، فَيَقول: لم أرَ خيراً قطّ! كُلُّ هذا العُمُر المديد الذي أمْضاهُ في النعيم والمباهج والمَسَرات والطعام الساخن، حينما يُفتَح له بعض أبواب النار يقول: لم أر خيراً قط في حياتي، وإذا فُتِح باب من أبواب الجنة للمؤمن يقول: لم أر شرّاً قط، تكون حياته كلها عذاباً وأمراضاً، هذه الحياة الأبدية التي لا نهاية لها يُستغنَى عنها ويُزهَد بها ويُستخفُّ بحقِّها، ولا يستخفُّ بها إلا أحمق، كلام الله خالق الكون الذي خلقنا من نطفة ولم نكن شيئاً يقول:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشَدُّ وعيداً من هذه الآيات :

قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

واللهِ إذا عاملت إنساناً قاسياً جدّاً وأبصرت عقابه الأليم فإنك تخاف من معْصِيَتِه، إذا كان لك خِبْرة مع إنْسانٍ قاسٍ لا يَرْحَم إذا قال فَعَلَ، فلا تُعانِد من إذا قال فعَل وتعْصِي أمْره، وتُطيعُهُ طاعَةَ عَمْياء، فلو قال لك: اللّبن أسْود، قُلْ له: أسْود فاحِم! لأنَّك رأيْت عذابه الأليم، فإذا كُنْتَ تُعامِل إنْساناً من جِلْدَتِك ومن بني آدم وسوفَ يموت وهو بيَد الله عز وجل، إذا حَذَّرك وأنْذَرَك وبَطَشَ تُطيعُهُ طاعَةَ عَمْياء، ألا

يسْتَحِقُّ الله عز وجل خالقُ هذا الكَوْن وخالقُ الشَّمْس والقمر، وخالقُ البحار والجِبال، ألا يسْتحِقُّ الله عز وجل أنْ تُطيعَهُ؟! وأنْ تُصَدِّقَ كِتابه؟ وهذا الكونُ كُلُّهُ شهادَةٌ له، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ*إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشَدُّ وعيداً من هذه الآيات، أحْياناً يكون عندك ضُيوف فتُشيرُ لابنك أنْ تَهَدَّأ! ثمَّ تُحاسِبُهُ حِساباً يسيراً، قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

سوف يعود الناس إلى الله عز وجل ويُسْألون عن كُلِّ حَرَكَةٍ وسَكنةٍ وعن كُلِّ دِرْهَمٍ اكْتسبوه وفيما أنْفَقوه، وعن شبابهم فيما أبْلَوْهُ، وعن عِلْمِهم ماذا عَمِلوا به:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

الحِساب على الله عز وجل فإذا كان الإنسانُ في مَحَلٍّ وخالفَ تعْليماتٍ مُعَيَّنة، ثمَّ يؤْخَذُ إلى الجِهَة التي خالفَ تعْليماتها ويُعْرَضُ عليه شريطٌ صورة وصَوْت بِكُلِّ حركاته وسكناته وقيامه، ماذا يَحِلُّ به؟ يتمنى الأرض أنْ تنْشَقَّ وتبتلعَه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفجر 089 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 14 أهمية التفكر بآيات الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-02-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

بعض أقوال المفسرين في هذه الآيات الأربع التي افتتح الله بها سورة الفجر :

سورة اليوم هي سورة الفجر الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

هذه الآيات التي افتتح الله سبحانه وتعالى بها سورة الفجر، اختلف المفسرون في تفسيرها، من أقوال المفسرين مثلاً: الفجر معروف، الليالي العشر هي الليالي العشر من ذي الحجة، وبعضهم قال: الليالي العشر من محرم، والشفع والوتر، نوعان من الصلاة، الصلاة ذات الركعات الأربع هي الشفع، والصلاة ذات الركعات المفردة هي الوتر، والليل إذا يسر، أي يسري، هذه بعض أقوال المفسرين في هذه الآيات الأربع التي افتتح الله بها سورة الفجر.

ولكن بعض المفسرين اختاروا لهذه الآيات معاني تجعلها جميعاً في موضوع واحد، فمثلاً لو أن أحداً قال لك: ساعةٌ وعقارب وميناء وعجلات، قد تقول: يا أخي معنى العقارب جمع عقرب وهي حشرةٌ سامة، والميناء هي مكانٌ على البحر يستقبل السفن، والعجلات عجلات السيارة أو القطار، أما حينما قال لك القائل: ساعة وعقارب وميناء وعجلات، إذا بحثت عن معانٍ أخرى لهذه الكلمات، بحيث تغدو جميعاً في موضوع واحد، تقول الساعة وعقاربها وميناؤها وعجلاتها، فبعض المفسرين توخياً لوحدة الموضوع الله سبحانه وتعالى يقول لك:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

ما علاقة الفجر بالليالي العشر والشفع والوتر، والليل إذا يسر؟ أول آيةٍ كونية وآخر آيةٍ كونية، وبينهما آياتٌ لا علاقة لها بالكون، فإذا قلنا وبالله المستعان، والفجر، هذا الفجر الذي نعرفه جميعاً، ما الذي يظهر عظمة الفجر؟ الليل، اركب قارباً بين مدينتين أو بين مدينة وجزيرةٍ ليلاً، تحسُّ بالوحشة بل والخوف، ادخل في غابةٍ ليلاً تحسُّ بالوحشة والخوف، يأتي الفجر فترى به كلَّ شيء تستريح نفسك للفجر وتستأنس به و يأتي بعد طول انتظار.

الفجر له معانٍ كثيرة :

الفجر له معانٍ كثيرة، معناه الضيِّق الذي جاء في هذه الآية أن الأرض كرة وهي تدور حول نفسها دورةً معتدلة بسرعةٍ تساوي ألفاً وستمئة كيلو متر في الساعة، هذه الدورة المعتدلة حول نفسها مع وجود الشمس، طبعاً سطح الأرض يسير باتجاه الشمس فيتخلى عن ظلمته ويستقبل ضياء الشمس، ولولا دوران الأرض حول نفسها لما كان فجر، ولولا أن شكل الأرض كرةٌ لما كان هذا الفجر الذي يأتي بالتدريج، ولو أن الأرض مكعب وكانت تدور حول نفسها تأتي الشمس فجأةً، ولا يخفى عليكم ما بإشراق الشمس المفاجئ من أضرار، وما لغياب الشمس المفاجئ من أضرار، مجيء الليل بالتدريج ومجيء النهار بالتدريج، فكلمة (والفجر) تعني أن الأرض كرة، وكلمة (والفجر) تعني أن الأرض تدور حول نفسها، وكلمة (والفجر) تعني الشمس، لو أن الأرض تدور حول نفسها وليس هناك شمس، فما قيمة هذا الدوران؟ لا معنى للدوران من دون شمس، ولا معنى للنهار من دون الليل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)

[سورة يس: 37]

الليل آية والنهار آية، أي من حكمة الله عزَّ وجلَّ أن إشراق الشمس هذه الآية الكبيرة، ومن آياته الشمس، ما كان لك أن تعرفها لولا الليل، حينما تستقبل ضوء الشمس تعرف قيمته بعد أن غاب عنك، وحينما تستقبل دفء الشمس تعرف قيمتها بعد أن حلَّ بك البرد، البرد يظهر لك قيمة الشمس، والظلام يظهر لك قيمة الشمس، ودورة الأرض حول نفسها من معاني الفجر، وكون الأرض كرةً هو الذي يسبب هذا الانسياب اللطيف التدريجي لضوء الشمس، فربنا عزَّ وجلَّ حينما قال: (والفجر)،أي هذه آية كبيرة تجذب النظر، هل فكرنا فيها؟ هل جلسنا جلسةً صباحيةً بعد صلاة الفجر لنفكر في الفجر، ومن آياته الله سبحانه وتعالى أقسم بالفجر، قال: والفجر، فربنا عزَّ وجلَّ يوجه نظرنا في هذه الآية إلى بعض آياته.

خَلَقَ الله سبحانه كل شيء بقدر :

قال تعالى:

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

كلكم يعلم أن للأرض تابعاً وهو القمر، والقمر يدور حول الأرض دورةً كل شهر، وإذا جمعنا دوراته الاثنتي عشرة تشكل هذه الدورات سنةً قمرية كلكم يعرفها هي رجب وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة وذي الحجة وغيرها، هذه الأشهر القمرية إذا وازنّاها مع الأشهر الشمسية، الأرض تدور حول الشمس دورةً كل اثني عشر شهراً دورة، بين السنة القمرية والسنة الشمسية فرقٌ هو (ليال عشر)، الجو العام جو كون:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

أي القمر يدور حول الأرض، وينشأ من دورته سنةٌ قمرية، والأرض تدور حول الشمس وينشأ من دورانها سنةٌ شمسية، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية (ليال عشر) هو الفرق، كلكم يعلم أن رمضان في كل عام يقترب عشرة أيام، بعض المفسرين في سورة الكهف فسر قوله تعالى:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

[سورة الكهف: 25]

لو حسبت الفرق بين السنوات الثلاثمئة الشمسية والقمرية لرأيت الفرق بينهما تسع سنوات بالضبط، فهذا النظام الكوني، من جعل هذا التفاضل بين دورة القمر ودورة الأرض حول الشمس، هذا التفاضل مدروس دراسة دقيقة، أي كل شيء بقدر.

الإنسان يعرف الله سبحانه وتعالى من خلال الفكر :

بعضهم فسر قوله تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

أي السمع والبصر والشمُّ والإحساس وهذه الحواس الخمس، وبعد الأرض عن الشمس، وبعد القمر عن الأرض، وبعد الشمس عن بقية الكواكب، كل هذه المسافات مدروسة بدقةٍ بالغة وبحكمةٍ منقطعة النظير، ولذلك فربنا عزَّ وجلَّ متابعةً للسياق العام لا يمنع أن نقول عشرة ذي الحجة أو عشرة من محرم، ولكن تفسير آخر يؤكِّد ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض ويجعلها متناسقةً في موضوعٍ واحد:

(وَالْفَجْرِ)

هذا النظام الذي ينطوي على شمس وعلى أرضٍ وعلى دورةٍ وعلى شكلٍ كروي وعلى أشعةٍ ذات دفءٍ وذات ضوءٍ وما إلى ذلك:

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

فكر أيُّها الإنسان بهذا النظام البديع الذي جعله الله على نمطين، سنة قمرية وسنة شمسية وجعل بين السنتين تفاضلاً هو (ليال عشر) بالضبط كما وردت في هذه السورة:

(وَالشَّفْعِ)

أي الزوج، الأرض والقمر شفعٌ، والشمس وحدها وتر، لأن الارتباط دقيقٌ جداً بين الشفع والوتر والليالي العشر والفجر، فالإنسان إن لم يجُل فكره في هذه الآيات كيف يعرفه؟ فالإنسان يعرف الأشياء بحواسّه، تعرف الحرارة بحاسّة اللمس، يقول لك: الطفل مفتّر، عندك حاسة هذه معرفة مبكّرة، ترى الشيء بعينك، تسمع صوته بأذنك، تحسُّ وجوده بيديك، فالإنسان مزوَّد بحواس يتعرَّف بها على الأشياء، ولكنّه كيف يعرف الله سبحانه وتعالى؟ لا يعرفه إلا من خلال الفكر، الله سبحانه وتعالى بثَّ كوناً معجزاً وخلق فكراً دقيقاً، فإذا أعملت هذا الفكر في هذا الكون عرفت الله عزَّ وجل، وإذا عرفت الله عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدّتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء، عندما يذكر ربنا عزَّ وجل يذكر عناوين بعض الآيات الكونية، ألا تعرفون أو ألا تستنبطون معي أنَّه لا بدَّ من التفكُّر بها، أن هذه الموضوعات موضوعات للتفكُّر، أنَّك إذا أردت أن تعرف الله فهذه آياته.

الإنسان إذا فكَّر في مخلوقات الله عرف الله :

إذا قال لك أحد الأشخاص: هل ترغب بغرفة نوم؟ فتقول له: طبعاً، فأنا أبحث عن غرفة متقنة جداً، فقال لك: يوجد لديك هذان النجَّاران، عرض عليك شخصين واحداً أسمر اللون والآخر أبيض، فقال لك: انتق أحدهما. وأنت تريد أن ترى صنعتهما أولاً، فأنت تطلب الصنعة وأن ترى غرفة نوم صنعها الأول وغرفة نوم صنعها الآخر، فتتفحَّصها وترى دقة الصنع، والانسجام في الألوان والمتانة، فأنت لديك مقاييس، فهل تعرف النجَّار من شكله؟ لا، بل من صنعته. كذلك ولله المثل الأعلى، الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، لا يدرك بالحواس، ولكن يدرك عن طريق التفكير، فالإنسان إذا فكَّر في مخلوقات الله عرف الله:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

آيات، حيثما التفتَّ وجدت آية، في حياتك اليومية ملايين الآيات، إذا دخلت إلى بيتك تجد آلاف الآيات، فابنك آية، وكأس الماء الذي تشربه آية، وهذا الطعام الذي تأكله آية، وهذه الفاكهة التي تتفكّه بها آية، وهذا الدفء الذي تنعم به آية، وهذا الفراش الذي تنام عليه من صوف، من خلق الصوف؟ آية، هذا القطن الذي حُشيت به وسادتك آية، وهذا الإسمنت وهذا الحديد الذي أُقيم به بناؤك آية:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد: 25]

الأدوات في المطبخ آية، غاز الاشتعال الذي تستخدمه آية، بنتك آية، طباعها آية، طباع ولدك آية، زوجتك آية:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الليل والنهار آيتان من آيات الله الدالة على عظمته :

لماذا تستهلك هذه الآيات استهلاكاً رخيصاً؟! إن استهلكت هذه الآيات استهلاكاً لم تعرف قيمتها ولم تعرف قيمة الذي خلقها لك، ولكنَّك إذا تفكَّرت بها وعبرت منها إلى الله عزَّ وجل رأيت الله من خلالها، عندئذٍ تكون قد أفلحت ونجحت في حياتك.

ربنا عزَّ وجل ليس من باب المصادفة وليس من نافلة القول أن يبدأ معظم هذه السور في الأجزاء الأخيرة من كتاب الله التي نزلت بمكة المكرَّمة حيث بدأ النبي الكريم ينشر دعوة الإسلام، ليس غريباً أن تكون هذه السور طافحة بآيات الله:

(وَالْفَجْرِ)

وحده آية، لاحظ حتى الحيوانات حينما تشرق الشمس تستيقظ، وحينما تغيب الشمس تعود إلى أوكارها، إلى مأواها، هذا الإشراق تدريجي، ومجيء الليل تدريجي وهذه آيةٌ كبرى من آيات الله:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

الليل يسير، الليل يسير من خلال دورة الأرض حول نفسها، انظر كيف أن ربنا عزَّ وجل جمع هذه الآيات بآيةٍ في أول الآيات وآيةٍ في آخرها، الأولى هي الفجر، والثانية والليل إذا يسر، أي يطلع الفجر من هنا، ويأتي الليل من هناك.

الآيات القرآنية الكونية أكثر من أن تحصى :

في ساعةٍ من ساعات النهار ولتكن ساعة الفجر، انظر إلى شرق الأرض تر ضياءً، انظر إلى غربها تر ظلمةً، جاء النهار من هنا، وذهب الليل من هنا، مساءً تعكس الآية، ترى الغرب مضيئاً والشرق مظلماً، أقبل الليل، الليل والنهار آيتان من آيات الله، والشمس والقمر آيتان من آيات الله، وشكل الأرض آيةٌ من آيات الله، وهذا الجو الذي ننعم به آيةٌ من آيات الله فأين تذهبون؟! ما الذي يشغلكم عن التفكُّر بآيات الله؟

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات:21]

(وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

فالآيات القرآنية الكونية أكثر من أن تحصى.

تسمية العقل حجراً لأنَّه يحجز صاحبه عن الأغلاط والانحراف :

بعد ذلك يقول الله عزَّ وجل:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

الحجر قال بعض المفسرين: هو العقل، لِم سمي العقل حجراً؟ لأنّه يحجر صاحبه عن الأغلاط، فضع قطعة من اللحم أمام هرّة وهي جائعة فماذا تفعل؟ تثب عليها وتأكلها، العلماء قالوا في عالم الحيوان إثارة واستجابة فقط، أما في عالم الإنسان إثارةٌ ومحاكمةٌ واستجابة، قد تكون جائعاً واللحم في المطعم معروضٌ أمامك ولا تأكله لأنَّه ليس لك، وقد تكون جائعاً والطعام في بيت صديقك، لم يدعُك إلى الطعام فلا تأكل فهناك شيء يمنعك، وما الذي يمنعك عن أن تأخذ مالاً ليس لك؟ هو الحجر أي العقل، وما الذي يمنعك عن أن تنظر إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك؟ هو الحجر العقل، وما الذي يمنعك عن أن تقبل مبلغاً غير مشروع؟ هو الحجر العقل، ما الذي يمنعك عن أن تستقلَّ بزوجتك وتنسى أمَّك؟ هو الحجر العقل، فعندما سمى ربنا عزَّ وجل كلمة العقل حجراً لأنَّه يحجز صاحبه عن الأغلاط، وعن الطغيان، وعن الفساد، وعن الانحراف، وعن التردي في المعاصي، ولذلك:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

سمّاه الله حجراً، وسمَّاه الله لبّاً:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: 21]

وسمّاه الله عقلاً، قال: يا رسول الله أأعقلها أم أتوكَّل على الله؟ قال:اعقل وتوكَّل.

((تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذَّرَّة في جنب أُحُدٍ))

[الحكيم عن طاوس عن ابن عباس مرفوعًا]

وقد قال عليه الصلاة والسلام: قِوام الرجل عقله.

الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل فجعل له فكراً يستطيع أن يرى به الأخطار قبل أن تقع :

مثل قد خطر في بالي: الحيوان لا يخاف إلا إذا رأى الخطر بعينه، هذا مستوى متدنٍّ من الحياة النفسية، لا يتّقي الخطر إلا إذا رآه بعينه، ولكن الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل فجعل له فكراً يستطيع أن يرى به الأخطار قبل أن تقع، وهذا تكريم الله عزَّ وجل، فإذا عطَّل الإنسان فكره ولم يُعمله في الكون وواجه الأخطار عند الموت فإذا هو من أهل الجحيم، نقول له: أين عقلك؟ أين فكرك؟! العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، ولذلك فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

أكاد أُخفيها، حتى يظهر الإنسان وعقله، فإذا واجه الإنسان انهداماً في الطريق فجأةً إما ينجو أو لا ينجو، وإذا كانت هناك إشارات ولافتات وشاخصات على الطرق تدل على وجود تحويلة مثلاً، أو هناك منحدر خطر، أو منعطف خطر، هذه الإشارات إن لم تستخدمها، وإن لم تعبأ بها، وإن لم تنظر إليها لا يسمّى الإنسان عاقلاً، ولا يسمّى مفكّراً:

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

الخطر، خطر الآخرة لا يُرى الآن بالعين، فالناس الآن يستوون في هذه الحياة، المؤمن وغير المؤمن، المؤمن ساكن في بيت يأكل ويشرب وله عمل، وهذا المرابي يسكن في بيت ويأكل ويشرب وله عمل، والذي لا يبالي بطاعة الله يعيش كما يعيش المؤمن، والذي يعتدي على حقوق الآخرين يعيش كما يعيش المؤمن، الخطر لا يُرى بالعين ولكن الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل عليه أن يرى الأخطار قبل وقوعها، وأن يرى أن لهذا الكون إلهاً ويستحيل على الله عزَّ وجل أن يدع الناس هكذا هملاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الحياة من دون آخرة لا يستقيم معناها ولا تكمُل :

تجد جامعة فيها أبنية فخمة شاهقة، وحدائق غنَّاء، ومدرّجات تتسع للألوف، ومخابر فيها أدقّ الأجهزة، وفيها إدارة حازمة، وفيها سجلات وأرشيف دقيق، ومكتبة غنيّة بالمجلدات والمؤلّفات وأمّهات الكتب،

وملاعب ومساكن للطلاب، وهذه الجامعة ينقصها شيءٌ واحد هو الامتحان، ولولا الامتحان لكان إنشاء الجامعة عبثاً، أما الامتحان فهو الذي يقيِّم الطلاب، وهو الذي يكشف الذي بذل جهداً والذي لم يبذل جهداً، فالامتحان هو الذي يكشف مؤهَّلات الطلاب، ولذلك فالحياة الدنيا بلا آخرة لا معنى لها، ولا تكمل، وليس الكمال في الجامعة أن ينجح جميع الطلاب، لا، الكمال في الجامعة أن تأتي النتائج متوافقةً مع المقدِّمات، فيجب أن لا ينجح الطالب الكسول، والذي بذل جهداً يجب أن ينجح، والنجاح درجات فهناك امتياز وجيِّد جداً وجيّد وكذلك مقبول، فالروعة في النظام الجامعي لا أن ينجح جميع الطلاب، لا، الروعة أن تأتي نتائج الجامعة متوافقة مع جهد الطلاب، فمادام هناك حساب دقيق، ومادام هناك ميزان دقيق، ومادام هناك تقييم دقيق فهذا شيءٌ جميل.

والأرض فيها قوي وفيها ضعيف، فيها غني وفيها فقير، فيها صحيح وفيها مريض، فيها إنسان أُتيح له كلُّ شيء وإنسان لم يُتح له شيء، إذا كانت الحياة الدنيا هي كل شيء نقول: الخلق فيه نقص، ما ذنب هذا الذي حُرِم من نعمةٍ معيَّنة، ما ذنب هذا الذي حُرِم نعمة الأولاد، لمَ حُرِم هذا وأُعطي هذا؟ لمَ كان هذا قوياً وهذا ضعيفاً، لمَ كان هذا غنياً وكان هذا فقيراً؟ الحياة من دون آخرة لا يستقيم معناها ولا تكمُل، يأتي يوم الدين يحاسب الغني على ماله، من أين اكتسبه وفيم أنفقه، يحاسب الفقير أصبرت لوجه الله؟ هل دعاك فقرك إلى كسب مالٍ حرام أم تعففت؟ يحاسب القوي ماذا صنعت من أجل هؤلاء الضعاف الذين كانوا تحت رعايتك؟، يحاسب الضعيف هل أعنت الناس على حاجاتهم؟ فكل إنسان عندئذٍ يحاسب، فحينما تأتي النتائج في الآخرة متوافقة مع المقدمات في الدنيا فهذه هي العدالة، ولذلك لا يمكن أن يستقيم معنى الحياة إلا بالإيمان باليوم الآخر.

عندما يعرض على الإنسان مبلغ كبير جداً من أجل أن يخون ضميره إن كان طبيباً مثلاً، أو كان محامياً ويقول إني أخاف الله ربَّ العالمين، معاذ الله أن أفعل هذا، فإذا بقي هذا المتعفف فقيراً وانتهت الحياة وليس بعد الحياة حياة ألا يُعدُّ هذا أحمق؟ لكن إذا كان هناك يومٌ آخر وكان هذا التعفف غالي الثمن وقبض هذا الذي قال: إني أخاف الله ربّ العالمين قبض سعادةً أبديةً لا تنتهي نقول: هذه هي العدالة، هذا الذي قال: إني أخاف الله ربّ العالمين، هذا المتعفف عن المال الحرام، هذا الذي أبى أن يخون ضميره، أبى أن يعمل خلاف قناعته، نقول له:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

معظم الآيات قرن الله فيها الإيمان بالله واليوم الآخر :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ*وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ*وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات: 15-21]

لو اتبَّعتم كتاب الله من دفته إلى دفته، من البقرة إلى الإخلاص، لوجدتم أن معظم الآيات قرن الله فيها الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله فقط لا يكفي>

الآخرة هي دار القرار :

لهذا الكون خالق، فلمَ الفقر؟ ولمَ الضعف؟ لمَ هناك أزمات طاحنة والله غني؟

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 18]

(وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة المنافقون: 7]

لم شحُّ الأمطار؟ ولم شحُّ الإنتاج الزراعي؟ و لم هذه الآفات التي تصيب الزرع لم؟ أما هذه معالجات، هذه حياةٌ مؤقتة، حياة جدٍ واجتهاد، حياة كسبٍ، حياة اختيارٍ، والآخرة هي دار القرار، ولذلك فالإمام الشبلي رضي الله عنه قال: قرأت أربعمئة ألف حديث، ثم استقر على حديثٍ واحد، رأى فيه علم الأولين والآخرين، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها، أي الموت أمامنا، لا يوجد يوم إلا فيه جنازة أو جنازتان أو ثلاث، أي هذا الذي مات أنا لن أكون مثله، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا. انظر إلى هذه النعوات في الطريق، أنا اليوم سمعت ثلاث جنائز، فالموت تخطّى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، هذه هي البطولة، البطولة أن تأتي هذه الساعة وأنت أبيض الوجه، وأنت طاهر القلب، ليس في قلبك غلٌ لأحد، وليس في مالك كسبٌ من حرام، وليس في سلوكك معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

لا يعصي الله إلا إنسانٌ عطّل فكره وهذا ملخص الملخص :

عندما يفكر الإنسان في الموت كل يوم خمس دقائق، فأنت عود نفسك على ذلك، هذا التفكير ليس من باب التشاؤم، العوام يظنونه تشاؤماً، لا، فالمؤمن يرى الموت بين عينيه كلَّ يوم، فإذا كان الموت بين عيني الإنسان انضبط سلوكه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

أي هذه الآيات الكونية ألا تكفي أصحاب العقول، يا أصحاب العقول أين العقول؟ عقلُ الإنسان أن يحجزه عن معاصي الله، لا يعصي الله إلا أحمق، لا يعصي الله إلا غبي، لا يعصي الله إلا إنسانٌ عطّل فكره، فلذلك:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

إذا لم يبال الإنسان في هذه الآيات،فما قيمته؟ قال لي رجل التقى مع شخص أجنبي حدَّثه عن الله قال له: أنا مؤمن بوجوده، قال له: بالآخرة؟ قال له: لا أؤمن بها، بعد ذلك قطع عليه المناقشة، قال له: هذه الموضوعات كلها لا تعنينا، ولا تهمنا، ولا تمتعنا، يعنينا شيء واحد، بيتٌ كبير وسيارة كبيرة ودخلٌ وفير، هذا ملخص الملخص قال الله تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

[سورة المنافقون: 4]

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

[سورة الجمعة: 5]

حال أهل الدنيا :

ربنا عزَّ وجلَّ قال لما بعرض الإنسان عن الله عزَّ وجلَّ، لا يفكر بآيات الله، ولا يعبأ بها، ولا تعنيه، ويجعلها وراء ظهره، والآن حدث الناس بالدنيا تجد آذاناً صاغية، حدثهم عن أسعار العملات، وحدثهم عن موضوعات التجارة، وعن موضوعات البيوت، عن أحدث جهاز للتسخين في البيت، وعن التدفئة

المركزية، وكل شيء له علاقة بالرفاهية، ومتع الحياة تجد آذاناً صاغية، أما حدثهم عن الدار الآخرة فيتثاءبون، يعتذرون، لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

حضارة الفراعنة :

إذا لم يفكر الإنسان بهذه الآيات وقال: هذه لا تعنيني، يعنيني الطعام والشراب، والدخل الوفير والزواج، والبيت المريح، وتجارةٌ رائجة، ومشروعٌ ناجح، ومزرعةٌ جميلة، نقول له:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ*وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي*وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ*الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

فرعون، والمقصود بكلمة فرعون في هذه الآية فرعون موسى، وفرعون ذي الأوتاد، هذه الأهرامات قال معظم المفسرين: الأهرامات، تأمّل صنعها شيءٌ يكاد يفوق حد التصور، ارتفاعٌ شاهق، أحجارٌ كبيرة، حتى أن بعضهم قال لي: إنَّ في الأهرام شقاً، فتوجد دراسة رائعة جداً هندسية بحيث لا تدخل الشمس منه إلا في يومٍ واحدٍ من أيام السنة، هو يوم وفاة (ميلاد)؛ من دفن في هذه الأهرام، فهل يمكن أن تعمل شقاً ضيقاً جداً بحيث لا يسمح للشمس إلا أن تدخل فيه في العام مرةً واحدة، فهذا أرقى أنواع الهندسة، حتى الآن الفراعنة حينما حنطوا الموتى لا يعلم سرَّ تحنيطهم أحد، في الأهرامات قمح زرع فنبت، وكان قد خزن أكثر من سبعة آلاف عام، وفي الأهرام قبور وفيها أجسادٌ محنَّطة، أي قبل سنتين أو أكثر قرأت في الأخبار أن فرعون موسى نقل إلى باريس ليتلقى العلاج، أليس هو محنطاً؟ أصابه بعض التعفن فنقل إلى باريس وتمت معالجة جسده المحنط، وأعيد إلى مصر، ما هذا العلم؟ إنسان قبل آلاف السنين هو هو، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

قال: هذه عاد الأولى اسمها إرم، قبيلةٌ كانت جبارةً تعيش بين حضرموت والرَبع الخالي، وكانت خيامها على أعمدة وكانت مسيطرة على المنطقة كلها.

الله عزَّ وجلَّ وصف قوة عاد وبطشها وجبروتها وهيمنتها بهذه الكلمات الموجزة :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

هؤلاء حينما لم يفكروا في هذه الآيات، ولم يعبؤوا باليوم الآخر، والتفتوا إلى شهواتهم وانغمسوا مع ملذاتهم، أصابهم العمى، فطغوا وفسدوا، عندئذٍ استحقوا الهلاك، فجاءت آية الله عزَّ وجلَّ قاطعة:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

الله عزَّ وجلَّ وصف قوتها وبطشها وجبروتها وهيمنتها بهذه الكلمات الموجزة:

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

ففي كل عصر يوجد دولة في العالم متفوقة جداً، يقول لك: هذه معها أسلحة ذرية، ومعها قنابل إذا ضربتها على المدن مات الناس فقط، الآن أحدث قنبلة إذا ألقيت على مدينة مات جميع سكانها وتبقى البيوت كما هي والأجهزة كما هي وكل ألوان الرفاهة في المدينة، بيوتها وقصورها ومزارعها ومصانعها وأماكنها العامة وحدائقها كما هي لا يموت إلا الإنسان هذا أحدث ما اخترعه العقل البشري التدميري، هذه الدولة عندها أسلحة كيميائية إذا وضعت في ساحات القتال أصيب الناس بالهوس وبعض الأمراض الوبيلة النفسية، وعندها أسلحة جرثومية وحارقة وخارقة ونفسية، أي أن هذا وصف ربنا:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

كل فريق قوي في الدول العظمى يظن أن بيده نهاية العالم كما كانت عاد :

ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: 24]

الآن كل فريق قوي في الدول العظمى يظن أن بيده نهاية العالم، فلذلك جعلوا خطاً مباشراً بين واشنطن وموسكو وسموه خطاً أحمر حتى لا يحصل سوء تفاهم فيدمرون بعضهم، وهم يظنون أن نهاية العالم بيدهم:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

[سورة يونس: 24]

أمرنا لا أمرهم، (ليلاً أو نهاراً) الأرض كروية، لأن هذا التدمير الشامل سيكون على أناسٍ ليلاً وعلى أناسٍ نهاراً:

(أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

الآية التالية لها خاص ولها عام :

ربنا عزَّ وجل قال:

(ألَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

هذه الآية بالطبع لها خاص ولها عام، فخاصّها ينصبُّ على عاد، وعامُّها ينصبُّ على أيّة جهةٍ قويةٍ في الأرض تزعم أنّها أقوى قوةٍ في الأرض، وأن لا أحد يقف في وجهها.

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

معنى جابوا أي حفروا في الجبال بيوتاً كالجيوب، فليس معنى جابوا أحضروا، لا بل من الجيب، يوجد قصر بالبتراء في الجبل، قاعة الملك حجمها وقد رأيتها بعيني ثلاثون متراً عمقها، وثلاثون متراً ارتفاعها، وثلاثون متراً عرضها، محصورة في الجبل مكعب كامل ضخم، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والزخارف، ولم يوضع في هذا البناء حجر واحد، نحتٌ من الصخر، هذا شيء فوق طاقة الإنسان:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

فإذا دخلت إلى البتراء وتعمَّقت فيها رأيت بيوتهم ومساكنهم وحماماتهم ونواديهم، وأماكنهم العامة ومدَّرجاتهم:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

الأوتاد أي الأهرامات.

العلاقة بين الطغيان وبين تجاوز الحق :

لكن ربنا عزَّ وجل لمَ سمّى عاداً عاداً، وثموداً ثموداً، ولم يسمّ أهل مصر بل قال: وفرعون، استنبط بعض المفسرين أن هؤلاء جميعاً ذابوا في فرعون ولم يبق لأحد شخصية في حضوره، كقوله تعالى:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

لذلك فالله لم يعطهم اسماً، بل كنّى عنهم بفرعون، أما ثمود وعاد فلها وضعٌ آخر.

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ*وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ*وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ*الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

يوجد علاقة بين الطغيان وبين تجاوز الحق، فأحياناً الإنسان يطغى على زوجته، لها حدود وله حدود، حينما يطغى على حقوقها يفسدها ويفسد معها، يفسدها قهراً ويفسد معها ظلماً:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

إذا طغيت على حق من يشتري من عندك فرفعت عليه السعر، أو أعطيته بضاعة سيّئة، فهذا طغيان، والطغيان كلمة واسعة جداً تلخَّص بكلمةٍ واحدة: تجاوز الحد، إلى هنا حدُّك، تجاوزته، ينبغي أن تعطي هذا الإنسان حقّه، أحجمت عن إعطائه حقَّه طغيت عليه.

فالطغيان في هذه الآية يعني بالضبط تجاوز الحد وهذه كلمة واسعة جداً، فقد تؤخذ على مستوى أسري، تجاوز الحد في معاملة الابن طغيان، وفي معاملة الأجير طغيان، وفي معاملة الجار طغيان، وفي معاملة الشاري طغيان، وفي أيّة معاملة، أنت مدير دائرة وعندك موظّفون قد تتجاوز الحد في معاملاتهم فهذا طغيان، وكل طغيان فساد، علاقة فاسدة، أي علاقة سيّئة.

العلاقة بين الطغيان وبين الفساد :

الطغيان يسبب الفساد، فساد ذات البين، فساد الطاغي، فساد الظالم، فالفساد أيضاً كلمة عامة:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص:83]

فإذا الإنسان انتقد بيتاً وقال لصاحبه: هذا بيتٌ صغير، كيف تسكنه؟ فأنت كرَّهته به بهذا القول، فحزن وتبرَّم وضاقت نفسه، وأفسدت علاقته مع بيته، إذا ذكرت له امرأة تفوق زوجته أفسدت علاقته مع زوجته، إذا رغّبته في الدنيا أفسدت علاقته بربه، إذا حملته على معصية أفسدت علاقته بآخرته، فالعلاقات كلّها قد تفسد، قد تفسد علاقة الإنسان بعقله فيُعطّله ولا يستخدمه، أو يسخِّره لشهواته، وقد تفسد علاقة الإنسان بربه لا يطيعه، يحتال على الناس، يظلمهم، يعتدي عليهم، يطغى عليهم، وقد تفسد علاقات المجتمع فتبنى على النفاق وعلى الدجل وعلى الكذب، ولذلك فهناك علاقةٌ بين الطغيان وبين الفساد،

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

هذه عاد وثمود وفرعون عندئذٍ:

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

كلمة صب معناها الغزارة، فأحياناً تفتح الصنبور ينزل منه خيط من الماء، أما إذا صببت على هذا الشيء دلواً من الماء تقول: صب. أي الصب بمعنى الغزارة، والسوط بمعنى اللذع، أي عذابٌ مؤلمٌ غزير، عذابٌ مؤلمٌ وغزير في وقتٍ واحد، وهذا يستفاد من معنى:

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

كل حركة وسكنة يفعلها الإنسان تحت المراقبة الإلهية :

قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

أي إن كل حركاتك وسكناتك، وخواطرك، ونياتك، وطموحاتك، وما تنوي أن تفعله وما تفعله، وما تكنُّه وما تسرّه وما تعلنه، مرصودٌ من الله عزَّ وجل أي مراقب مراقبة دقيقة، أنت تحت المراقبة الإلهية.

إذا الإنسان ظنَّ أنّه تحت المراقبة البشرية لا ينام الليل، فكيف إذا كنت تحت الرقابة الإلهية، الذي يعلم السر وأخفى؟ قل ما شئت يعرف بواطنك، ويعرف نياتك، ويعرف خلفيّات القول، وطموحاتك من هذه الدعوة، ومن هذا اللقاء، والذهاب، والنزهة، والسفر، ويعلم كلّ شيءٍ عنك وأنت تحت رقابته:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

لذلك إذا كانت الزوجة عرفت هذه الآية لا تظلم زوجها، وإذا عرف الزوج هذه الآية لا يظلم زوجته، وإذا عرف صاحب العمل أن هذا العامل مضطرٌ كيّ يعمل عندك فإذا عرفت الضرورة التي تحمله على العمل عندك واستغلّيت هذه الضرورة وخفَّضت الأجر ورفعت أوقات الدوام إن ربك لبالمرصاد، وإذا شعرت أن هذا الشاري بحاجة إلى هذه الحاجة فهي حاجة ماسة، فرفعت السعر وأخفيت العيب وبعتها بسعرٍ مرتفع إن ربك لبالمرصاد، والله هذه الآية فقط تكفي.

والله الذي لا إله إلا هو لو تذوّقنا معنى هذه الآية وحدها تكفي ولانتظمت علاقتنا ببعضنا، علاقة العمل، وعلاقات الوظيفة والبيت والجيران، وأيّة علاقةٍ في الحياة إن ربك لبالمرصاد، الله يرى من الظالم، كثيراً ما أقول للزوجين إن ربك لبالمرصاد، إن كنت تظلمها وتعتدي على حقّها إن ربك لبالمرصاد، وإن كانت تهمل حقك وتعتدي على حقك إن ربك لبالمرصاد، إنّ أخذه أليمٌ شديد:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

الإنسان يجب أن ترتعد فرائصه من هذه الآية، والذي لا يخاف أحمقٌ.

أعلى الناس عند الله منزلة أخوفهم من الله عزّ وجل :

أعلى الناس عند الله منزلة أخوفهم من الله عزّ وجل:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

إذا كنت في جلسة وشعرت بوجود آلة للتسجيل فستنضبط أكثر، فتتوسل إلى صديقك أن يمحو ما سجل عليها من كلامك فلا يمحوها لك ولو من باب المزاح، فبوجود المسجلة تجد نفسك منضبطاً، وإذا كانت هناك صورة وصوت فالانضباط يكون أكثر وخاصة إذا كان تحت الرقابة الإلهية المستمرّة في خلوتك وجلوتك في بيتك، ولذلك من لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، هل تصلّي في البيت صلاةً متقنة فيها خشوع، كما لو تصلّي إماماً في المسجد؟ إن ربك لبالمرصاد، هل تخفي عيوباً في البيت وتظهر للناس الفضائل؟ إن ربك لبالمرصاد، لذلك عندما يتحقق الإنسان بهذه الآية ينضبط، ويصبح سرّه كجهره، فلا تجد عنده ازدواجية، فله موقف واحد، باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، ونياته كما يقول، لذلك:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

الإيمان عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع، فهذا الذي يستفاد من هذه الآية، فإذا الإنسان فكّر في:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

وتعرَّف إلى الله من خلالها واستقام على أمره وعمل صالحاً سعد إلى أبد الآبدين، وإذا أعرض عن هذه الآيات ولم يعبأ بها واتّبع شهواته وأهواءه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

يوجد ارتباط دقيق جداً، إذا الإنسان قرأ القرآن من دون تفكُّر، من دون تدبُّر يجد مقطعاً ليس له علاقة بالآخر:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ *أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

رأساً انتقل من الآيات الكونية إلى قصّة، هذه القصة تعني إن هذا الإنسان إذا لم يفكّر في الآيات ولم يعبأ بها ولم يستقم على أمر الله ولم يعمل صالحاً، هذا مصيره كمصير عاد وثمود وفرعون تماماً، وهذا المصير المحقق، فإذا فكّرت في هذه الآيات تنجو من هذا المصير الأسود.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفجر 089 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15 -30 وصف لحال أهل الجنة وحال أهل النار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-02-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يمكن أن تكون الدنيا مقياساً لمحبة الله عزَّ وجلّ َ:

وصلنا في درس الجمعة الفائت في سورة الفجر إلى قوله تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي*كَلَّا)

يتضح معنى هذه الآية من توضيح كلمة كلا، (كلا) لا تقابل (نعم) كما يتوهَّم بعض الناس، كلمة (كلا) أداة ردعٍ وزجرٍ، فقد يقول لك قائل: هل أنت جائع؟ تقول له: لا، (لا) حرف نفي، إذا قال لك: هل أنت مذنب؟ تقول له: كلا، تردعه وتزجره عن هذا الظن، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

يقول هو، هذه مقولته وهذا تفكيره وهكذا جرى في خلده وهكذا توهم وتصوّر، إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، أي إذا قدَّر الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ مالاً وفيراً، أو صحة جيدة، أو زوجةً جيدة، أو أولاداً كثيرين ذكوراً وإناثاً، أو تجارةً عريضة، أو دخلاً كبيراً، أو منصباً لائقاً، إذا أعطى الله عزَّ وجلَّ عبده بعض ما في الدنيا من مالٍ أو صحةٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو ما شاكل ذلك، فهذا الإنسان قد يظن وقد يتوهم وقد يعتقد أن الله أكرمه بهذا، لا، ليس هذا إكراماً، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، لا يمكن أن تكون الدنيا مقياساً لمحبة الله عزَّ وجلَّ، فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً عليه الصلاة والسلام أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، أي إذا آتى الله الإنسان المال وعمل سياحة حول العالم ودفع في هذه السياحة مئتي ألف، يقول لك: الله يحبني، أطلعني على ملكه، هذا كلام مرفوض ليس صحيحاً، هذا كلامٌ فيه وهمٌ كبير، ما الذي يوضح هذه الآية؟ كلمة (كلا)، الله سبحانه وتعالى يزجر قائل هذه الكلمة ويردعه:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء :

الإنسان يبتلى بالمال، قد يتوهم الفقير أن الله سبحانه وتعالى لو أعطاه المال لفعل الخيرات في كل اتجاه، وفي كل جانب، فإذا آتاه الله المال بخل به وحاسب على الدرهم والدينار وأصبح حريصاً، إذاً هذا المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء، ومعنى ابتلاء أي يمتحن الإنسان بالمال، فإن كان معدنه ذهباً كان على المال متواضعاً وكريماً، وإن كان معدنه خلاف ذلك أصبح على المال بخيلاً ومتكبراً، فالمال ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، ولذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة: إن الأغنياء يحشرون يوم القيامة أربع فرق؛ فريقٌ جمع المال من حرام و أنفقه في حرام يقال: خذوه إلى النار حسابه يسير -لا بمعنى أن الله عزَّ وجلَّ يسامحه بل بمعنى أن وقت الحساب قصير جداً - خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال - تجارةٍ مشروعة - وأنفقه في حرام - على المعاصي - فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام - مثلاً كان عنده ملهى أو كان مرابياً كبيراً - وأنفقه في حلال - تزوَّج واشترى بيتاً - فيقال خذوه إلى النار - ما دام في الكسب أو الإنفاق بندٌ هو حرام فالمصير إلى النار - وفريقٌ جمع المال من حلالٍ وأنفقه في حلال هذا الذي يحاسب - وهذا الذي يقال له: قفوه فاسألوه، هل ضيَّع فرض صلاة؟ وهل تاه بماله على عباد الله؟ وهل قال جيرانه: يا ربي قد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا - النبي الكريم بما أوتي من بلاغةٍ معجزة، قال: فما زال يسأل ويسأل أي رأى أمامه أسئلة طويلة جداً، تركهم وهم يسألونه وتحول عنهم:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

ابتلاه بالمال، ماذا فعل بالمال؟ هل تقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ وكفى عياله؟ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

أم أنفق المال بطراً وكبراً وإسرافاً وتبذيراً ورياء الناس؟ هل تقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بالمال كما قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: حبَّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

يدنا على المال هي يد الأمانة :

الكفار إن أمسكوا المال أمسكوه بخلاً وتقتيراً، وإن أنفقوه أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، فالمال ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، ويدك على المال هي يد الأمانة، أعرابيٌ كان يقود قطيعاً من الإبل سُئل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي. قالوا: هذه أوجز إجابةٍ في اللغة العربية.

إذاً فالذي بيدك ليس لك، إن لِله ما أعطى وله ما أخذ، هذا الابتلاء بالمال لينظر كيف تعملون؟ تنفق المال على الملذات أم على القربات؟ فأبواب الخير المفتَّحة عن طريق المال لا تعدُّ ولا تحصى، ما عبد الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر:

((أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

في المال ابتلاء؛ رب درهم سبق ألف درهم، درهم أنفق في إخلاص خير من مئة ألف أنفق في رياء. فالله عز وجل يعطيك المال فماذا تفعل؟ هل تعمل سياحة حول العالم تنفق مئات الألوف ولك أقارب أيتام يحتاجون إلى ليرة واحدة؟ فالله امتحنك بالمال ولم تنجح، يبلغ مسمعك أن شخصاً ابنه يعاني من مرض عضال وهو بحاجةٍ ماسةٍ إلى عملية جراحية وتملك هذا المبلغ، هل تقول: ليس لي دخل به، كل منا له رب يعينه، أم تبادر وتنفق هذا المال ابتغاء مرضاة الله؟ ألك أختٌ لها زوجٌ فقير قد يحل الخلاف بينهم بمبلغ يسير فتنفقه من مالك تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل؟ ألك صانعٌ تُؤلّف قلبه بمبلغ في العيد تجلبه إلى الدين وتكرمه، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

من عاش تقياً عاش قوياً :

الإنسان قد يبتلى بالزوجة، هذه الهدية من الله عزّ وجل كيف تعاملها؟ هل تظلمها؟ يبتلى بها هل تكتفي أن تقدم لك كل حاجتك ولا تُعنى بأمر دينها، ولا بأمر وجهتها إلى الله عزَّ وجل؟ هل يعنيك منها أن تقوم بواجباتك؟ أم يعنيك منها أن تهديها إلى الله عزَّ وجل؟ الإنسان يمتحن بالزوجة، والإنسان يمتحن بالأولاد، وبالحواس الخمس، هذه العين ماذا فعلت بها؟ هل نظرت بها إلى عورات الناس، أم إلى مالا يرضي الله؟ أم نظرت بها إلى آلاء الله وسبَّحت بها الله وحده؟ يمتحن الإنسان بالأذن؛ هل استمعت بها إلى الحق أم استمعت بها إلى الغناء؟ يمتحن الإنسان بهذا الفكر، أو هذا الذكاء الذي منحه الله إياه، هل تستخدم هذا الذكاء لمعرفة الله أم للإيقاع بين الناس؟ فالفكر يمتحن به، والعين يمتحن بها، والأذن، واليد، فهل عاونت بهذه اليد مسكيناً أم بطشت بها؟ والرجل، هل تمشي عليها إلى طاعة، إلى مسجد، إلى مجلس علم، إلى عيادة مريض أم تمشي عليها إلى معصية؟ والإنسان يمتحن باللسان، وهل يوفق

بين الناس أم يوقع بينهم العداوة والبغضاء؟ هل يستخدمه في النميمة والغيبة والفحش والمزاح الرخيص أم يستخدمه في تذكير الناس بالله عزَّ وجل؟ هذا هو اللسان.

مبدئياً لا أعتقد ولا أومن أنَّ عيناً غضَّت عن محارم الله، الله سبحانه يفجعه بها، ولساناً كان رطباً بذكر الله يفجعه الله به، وأذناً استمعت إلى الحق وأعرضت عن الباطل يفجعه الله بها، من عاش تقياً عاش قوياً، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر؛ هذه كلمة، قالها أحد العلماء القدامى وعاش سبعةً وتسعين عاماً وهو متمتعٌ بكامل صحته ونشاطه، ظهره مستقيم، بصره حاد، وسمعه مرهف، وأسنانه في فمه، كان قوياً، فلما قال له تلامذته: يا أستاذنا وسيدنا ما هذه الصحة التي منَّ الله بها عليك؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، والدعاء النبوي الشريف: ومتعنا اللهم بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا، وعقولنا، ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، فالإنسان يبتلى لينظر كيف تعملون، قال الله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

الله سبحانه وتعالى يمتحن كل إنسان ليرى صدقه من كذبه :

إذا أحد الأشخاص عرض عليك قطعة من الذهب، إن كانت ذهباً ثمنها ثلاثة آلاف، وإن كانت من التنك ثمنها ثلاثون ليرة، أو ثلاث ليرات بالأصح، يوجد محك عند الصياغ من الماس يحكون به هذا الذهب، فإن بدا خطٌ أبيض فهو تنك، والله سبحانه وتعالى يحكُّ معادن الناس، إما أن يبدو هذا المعدن ثميناً، وإما أن يكون هذا المعدن رخيصاً لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

على زعمه هو:

(فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

هو يقول: الله أكرمني، الله يحبني أعطاني الدنيا، وأعطاني بيتاً واسعاً، وزوجة تروق لي، فإذا قلتَ صالحة أصبحت نعمة، أما إذا أعطاه زوجة تروق له، ولم يهدها إلى الصراط المستقيم، ولم يقوِّم سلوكها ولم تكن هذه الزوجة نعمة بل هي نقمة:

(فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

ولو التقيت بمعظم الناس إذا شعروا أنهم يملكون شيئاً من حطام الدنيا يفوق به الآخرين تراهم يظنون ويتوهمون ويتصورون أنهم مكرَّمون عند الله، مع أن الله سبحانه وتعالى أعطى قارون ما لم يعط أحداً، قال الله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص:76]

الدنيا دار ابتلاء :

لذلك إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترَحٍ لا منزل فرح، دققوا في هذه الكلمات، هذه خطبة لرسول الله، فمن عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، الدنيا دار ابتلاء، ولذلك يجب أن تعتقد أن كل شيءٍ في يديك امتحانٌ وابتلاء، فالزوجة ابتلاء، والمال ابتلاء، والسمع ابتلاء، والبصر ابتلاء، والفكر ابتلاء، واليد ابتلاء، وكلُّ شيءٍ أعطاه الله لك إنما هو ابتلاء:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

فيوجد أشخاص أسوأ من ذلك قال الله تعالى:

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى*أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى*ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)

[سورة القيامة: 33- 35]

الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي عرفه واستقام على أمره وعمل صالحاً تقرباً إليه:

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 25-33]

لا تفرح بالمال، افرح إذا أنفقته في طاعة الله، لا تفرح بالجاه، افرح إذا سخرتّه لخدمة الضعيف، لا تفرح بالزوجة التي تروق لك، افرح بزوجةٍ مؤمنةٍ عرفتها إلى الله عزَّ وجل، لا تفرح بأولادٍ تعتز بهم افرح بأولادٍ ينفعون الناس من بعدك، هؤلاء الأولاد صدقةٌ جارية لا ينقطع خيرها.

إذاً ليس عطائي إكراماً، إنما هو ابتلاء، كأن الله عزَّ وجل يقول: يا عبادي عطائي لكم في الدنيا ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، السبب: لأن هذا العطاء سوف ينتهي بالموت، إذاً ليس عطاءً، كل عطاءٍ ينقطع لا يسمى عند الله عطاءً، أما عند البشر قد يسمى عطاءً، لكن ما دام هذا العطاء ينتهي بالموت، فالصحة تنتهي بالموت، ونعمة الزوجة تنتهي بالموت، والمال الوفير، أحد أكبر أغنياء العالم كان يقرض الحكومة البريطانية، له مستودعاتٌ للذهب وكان كثير الترحال والتنقل والأسفار دخل إلى بعض مستودعاته فأغلق الباب عليه خطأً، صاح، علا صوته، استنجد، استغاث، من غير جدوى، إلى أن مات جوعاً، وهو بين سبائك الذهب، فجرح يده وكتب على الحائط (أغنى رجلٍ في العالم يموت جوعاً) المال ليس إكراماً، أعطاه لقارون، فهل يحبه؟ والجاه ليس إكراماً، أعطاه لفرعون فهل يحبه؟ ولكن الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي عرفه واستقام على أمره وعمل صالحاً تقرباً إليه.

من ظنَّ أنه مهانٌ عند الله فهذا من وسوسة الشيطان :

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

كان دخله محدوداً، هذا الدخل المحدود لم يتح له أن يأكل ما يريد، ولا أن يلبس ما يريد، ولا أن يسكن حيث يريد، ولا أن ينفق على عياله ما يشاء دخله محدود، في ساعة الغفلة يظن أن هذا تقتيرٌ من الله عزَّ وجل، بسبب أنه مهانٌ عند الله، هذا من وسوسة الشيطان.

فهناك طبيب جاءه مريضان، الأول ميؤوسٌ منه مرضه عضال لا شفاء له، والثاني معه التهاب حاد في المعدة، فربما شدد تشديداً كبيراً على المريض الثاني، وأعطاه قائمة بالممنوعات، وقال للأول: كل ما شئت، فظن هذا الثاني أن الطبيب لا يحبه، إنما قتَّر عليه لهوانٍ له عنده، ولأنه أباح للأول أن يأكل ما يشاء فهو مكرمٌ عنده، مسكين، الثاني أمله بالشفاء كبير، ومرضه ليس خطيراً، وشفاؤه وشيك، ولذلك شدد عليه، العبد إذا ضايقه الله عزَّ وجلَّ بماله، وبدخله، وبصحته، وأولاده، وزوجته، وظنَّ أنَّه مهانٌ عند الله فقد وقع في غلطٍ كبير:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

هكذا تقولون؟ إذا أردت أن أعالجه، وأن أرفعه، وأن أطهره، وأن أقربه، وأن أعطيه الآخرة المديدة الأبدية، يقول هذا الإنسان إنني أهينه! متى كان الدواء فيه إهانةٌ للإنسان؟ متى كان مكبح السيارة إهانة لمحركها؟ من أجل سلامتها، مكبح السيارة لا بد منه لضمان سلامتها، وكذلك الأمراض والآلام والمتاعب والأحزان والهموم، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

المؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر :

الله سبحانه وتعالى غنيٌ عن تعذيبنا، وإذا عذبنا لمصلحتنا، ليردنا إليه، وليحملنا على طريق الحق، والدنيا لا قيمة لها عند الله عزَّ وجل، إذا قيست الدنيا بالآخرة لا قيمة لها، إن رأى الأبُ بيد ابنه لعبةٍ تلهيه عن الامتحان، ووضع هذه اللعبة وكسَّرها تحت قدمه، وقد يكون ثمنها عشر ليرات، لكن الأب يرى أن نجاحه في هذه الشهادة وتدرُّجه في مراقي العلم والمستقبل الذي ينتظره أغلى بكثير من ثمن اللعبة ولذلك يحطمها ليريح ابنه منها ويزيحها من طريقه حتى تصفو وجهته إلى الدراسة، فهذا يفعله الأب أحياناً، وهكذا يفعل الله عزَّ وجل ولله المثل الأعلى، فحينما يرى أن العبد يتعلق بهذا الشيء، قد انصرف إليه، وقد التفت إليه، وقد آثره على صلاةٍ أو على طاعة عندئذٍ ينزعه منه لا لهونٍ له عليه ولكن معالجة له.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

فيقول هو، هذه مقولته، هذا توهمه، هذا خطؤه، هذا تصوره. أي إذا كان أحدهم في دمشق بمركز المدينة، ولم يكن في جيبه نقود إطلاقاً، وفي البيت عنده آلاف مؤلفة، وذهب إلى بيته مشياً على قدميه، هل يحس بالإهانة؟ لا، عنده مال، لأسبابٍ خاصة نسي أن يحضر المال معه، فذهب إلى البيت سيراً على قدميه فليس ذلك إهانة، وإذا منع الطبيب مريضه عن نوعٍ من الطعام، هل يرى نفسه مهاناً عند الطبيب؟ لا، لذلك الذي أرجوه أن يكون هذا المعنى واضحاً في أذهانكم، ليس عطائي إكراماً، وليس منعي إهانة، عطائي ابتلاء، ومنعي اجتباء أي تقريب ومعالجة. إن الله ليحمي صفيه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، إن الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة، ما أصاب عبدٌ مصيبة إلا بإحدى كلتين؛ بذنبٍ لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجةٍ لم يكن الله ليبلّغه إياها إلا بتلك المصيبة. أي لا بد منها، فكلما ازداد عقلك فهمت على ربك، الآن طبيب الأسنان إذا كان عنده طفل يعالجه، يبكي ويصيح، ويحرك يديه ورجليه، وقد يسبُّ الطبيب، أما الراشد فيجلس بهدوء، ولو كان في الوخز ألم، يتجشم الألم وفي نهاية الجلسة يصافح الطبيب ويشكره ويعطيه أجره، لماذا فعل الراشد هذا؟ وفعل الصغير هذا؟ الراشد لأنه راشد، والصغير لأنه جاهل، فالمؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر ورضى.

الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ :

هذه الآية، استنبط منها العلماء شيئاً آخر، أن الإيمان كله نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ابتلاك الله بالنعم فعليك أن تشكرها، وإذا ابتلى الله الإنسان بالنقم عليه أن يصبر، ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب: 21]

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءت الأمور على ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا جاءت على غير ذلك قال: الحمد لله على كلِّ حال، وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَجَباً لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

في الطائف، لما ردّه أهل الطائف شرَّ رد، توجه إلى الله عزَّ وجل وقال:

((اللهم إني أشكو إليك ضعفَ قوتي، وقِلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني، إلى بعيدٍ يتجهّمني، أم إلى عدو ملّكته أمري، إنْ لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي...))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

أي إذا الإنسان فهم على الله تصرفاته فقد أحرز معظم الإيمان، دققوا في هذه الكلمة: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر، نفسه هي المصيبة، أي إن لم تحدث المصيبة في نفس الإنسان موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الشكر ذهب الإيمان، وربنا عزَّ وجلَّ قال: كلا، زاجراً ورادعاً، هؤلاء الذين يدَّعون أن العطاء إكرام والمنع إهانة، لا، لا هذا ولا ذاك، رفض الله عزَّ وجل مقولتهم، وتفكيرهم، وتوهمهم، واعتقادهم، قال: لا.

رعاية اليتيم :

قال تعالى:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

أنتم إذا كنتم أصحاب أموالٍ طائلة تحبسونها عن الناس لا تكرمون اليتيم، إذاً هذا المال الذي بين أيديكم ليس إكراماً لكم إنما هو امتحانٌ كشفكم على حقيقتكم:

((أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى))

[أحمد والبخاري عن سهل بن سعد]

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة تنازع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول الجنة تريد أن تدخل الجنة قبله. الفقهاء في موضوع مال اليتيم لهم بحوث رائعة جداً، فمن كان وصياً على مال أيتام لا ينبغي له أن يأكل من هذا المال شيئاً إذا كان غنياً، ومن كان غنياً فليستعف، ولا ينبغي له أن ينفق على الأيتام من صلب المال، وارزقوهم فيه، ولم يقل الله عزَّ وجلَّ وارزقوهم منه، يجب أن ترزقهم من ريع المال لا من صلب المال، ويجب أن تستثمره لئلا تأكله الزكاة، وهذا المعنى ورد في بعض الأحاديث، فإذا كان الوصيُ فقيراً عليه أن يأكل بالمعروف، كيف فهم الفقهاء كلمة المعروف؟ قال: علِى الوصي أن يأكل من مال اليتيم أجراً يماثل أجر المثل أو حاجته أيهما أقل. قام بعمل أجر المثل أربعة آلاف حاجته في الشهر ألفان يجب أن يأخذ حاجته لا أن يأخذ أجر المثل، قام بعمل آخر بمال اليتيم فربح ألفاً وأجر المثل ألف، حاجته ألفان يجب أن يأخذ هنا أجر المثل، لذلك:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

النبي صلى الله عليه وسلم حضنا كثيراً على رعاية اليتيم، رأى مرةً في بعض الأعياد صبياً ينزوي في جانب الطريق حزيناً كئيباً، فقال له: مالك يا غلام؟ فقال له: دعني يا رجل لقد مات أبي وليس عندي شيءٌ أرتديه في العيد. فقال له: أتحبُّ أن يكون محمدٌ أباك، وفاطمة أختك وعليٌّ؟ فانتبه هذا الصبي أن هذا رسول الله، وأكرمه حتى قبضه الله عزَّ وجل.

وجاء سيدنا الصديق وأكرمه من بعده حتى قبضه الله عزَّ وجل، فإكرام اليتيم شيءٌ لا يعلم أجره إلا الله، فهذا ردٌ على قول هؤلاء أن الله الذي أعطانا المال يحبّنا فقال لهم: كلا، أيعطيكم المال ولا تفعلون به خيراً، إذاً ليس هذا بدافع الحب ولكن ابتلاءٌ لكم وامتحان.

كلمة التحاض على طعام المسكين فيها معنى التكافل الاجتماعي :

قال تعالى:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

لمَ لم يقل الله عزَّ وجل: ولا تطعمون المسكين؟ قال: لأن كلمة التحاض على طعام المسكين فيها معنى التكافل الاجتماعي، أي إذا كان أناس ماتوا جوعاً فكل المسلمين آثمون، هناك أقطار عربية غنية جداً

فدائماً أربعة أضعاف الطعام يلقى في القمامة في الولائم، وأناسٌ يموتون الآن جوعاً في إفريقياً، طبعاً هذا إثم كبير يقع به المسلمون:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

أي إذا مات إنسانٌ جوعاً قال الفقهاء: أثم أهل البلدة كلهم، والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائعٌ وهو يعلم.

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

النبي الكريم قال:

((شر الطعام طعام الوليمة يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء))

[مسلم عن أبي هريرة]

يقول لك: والله عملنا خميساً على روح والدنا ودعونا الأقرباء والأهل المترفين، هذا ليس على روحه إنه مباهاة، إن كنت تنوي أن تطعم الناس على روحه أطعم الفقراء، كان هناك رجل في هذا البلد أي من علماء الشام الأفاضل، فكان إذا دعا عليَّة القوم يطعمهم طعاماً خشناً ويقول: والله إن هذا الطعام يحبونه ويشتهونه لأنهم لا يأكلونه أبداً، وإذا دعا الفقراء يطعمهم أطيب الطعام ويقول: هؤلاء يحبون هذا الطعام لأنهم لا يأكلونه، ولا تحاضون على طعام المسكين، النبي الكريم حثنا على إكرام الضيف قال: الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم، فكلمة: تحاضون، يفهم منها التضامن الاجتماعي، أي لو أن قريةً وجدت فيها أسرة فقيرة لو أصابها ضرٌ بسبب الفقر فإنّ أهل البلدة كلُّهم يأثمون، إطعام هذه الأسرة من فروض الكفاية، فإذا قام بها البعض سقط عن الكل، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع، فكأنَّ الله سبحانه وتعالى يردُّ على هؤلاء، أنتم تعدّون المال إكراماً وتفعلون هكذا بالأيتام والمساكين!!

الغلول نوعان :

قال:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً)

أي أكلاً تاماً لا تدعون شيئاً لغيركم:

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تَعِسَ عبدُ الدِّينار، وعَبْدُ الدِّرهم، تَعِسَ عَبْدُ الخميصة))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

تأكلون التراث أي الإرث، فالمنازعات الآن بين الأسر، والعداوات، والمحاكمات، والقضاء مثقل بمشكلات الإرث، كلُّ طرفٍ يحبُّ أن يأخذ كل الإرث وحده وأن يحرم الباقين، ولا يرضى المرء أن يأخذ ماله، يريد أن يأخذ ماله ومال غيره، علامة المؤمن أنه يكتفي بما له، وكلُّ شيءٍ يؤخذ من الإرث قبل توزيعه فهو غلول، الغلول نوعان: ما يؤخذ من غنائم الحرب قبل توزيعها، وما يؤخذ من الإرث قبل توزيعه، تأخذ ساعة وتقول: هذه من رائحة أبي، غلول، سجّادة، غلول، شيء ثمين، قطعة أثرية، قطعة جميلة، فأي شيء تأخذه قبل توزيع التركة فهذا غلول.

(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

أنتم مكرَّمون بالمال؟! هذا ادعاؤكم، كلاّ زجرٌ وردع:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دكّاً)

دكّت بمعنى دقَّت وتهدمت، دكاً دكاً، ليس هذا توكيد بل هو استغراق كأن تقول: قرأت الكتاب باباً باباً، أي إنّك تريد أن تقول إنّي قرأته بشكلٍ دقيق باباً باباً، استغرقت كلَّ أبوابه قراءةً.

إذا وقفت بين يدي الواحد الديَّان لا تستطيع أن تلفّق الحقائق :

قال تعالى:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دكّاً)

أي إذا جاء يوم القيامة:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)

هذا بحث طويل بين العلماء قديماً وحديثاً، كيف يجيء الله عزَّ وجل؟ فبعضهم قال: هذا مجاز، فإذا قلت: يد الله فوق أيديهم أي يد القوة، وإنَّ الله يستمع إلى دعائهم، هذا استماع العلم لا استماع كالاستماع البشري، على كلٍ مجيء الله عزَّ وجل في هذه الآية كأن يأتي أعلى إنسان في بلد ليشهد محاكمة، عندئذٍ يسود الصمت وتضطرب القلوب ويرهب الحاضرون، هذا الذي بيده مقاليد الأمور حضر بنفسه ليشهد المحاكمة:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً)

البطولة الآن، قد يكون لك في الدنيا ألف لسانٍ ولسان، تكلّم في الدنيا ما تشاء، قد يكذب الإنسان، وقد يدجّل، ويزوِّر الحقائق، ويقول ما ليس واقعاً، ويأكل مال أخيه ويقول: أنا أحبُّه وهذا حرصٌ مني على ماله، أنا سأستثمره له، قد يقول هذا، هذا كلام، ولكنَّك إذا وقفت بين يدي الواحد الديَّان لا تستطيع أن تلفّق الحقائق، هذه نصيحةٌ لوجه الله، أيُّ عملٍ تعمله في الدنيا تصوَّر أنَّك واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل يوم القيامة وسائلك عن هذا العمل: لمَ فعلته؟ فهل تستطيع أن تكذب هناك؟ وهل تستطيع أن تدجِّل، أو تلفّق، أو تتكلّم بكلام غير صحيح؟!!

الكافر يأخذ آيات الله لعباً وهزواً :

قال:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً *وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

وجيء يومئذ بجهنم، ما قولك أن ينصب حبل المشنقة في قاعة المحكمة كي يرى المجرم مصيره، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان، كان في الدنيا يأخذ آيات الله لعباً وهزواً، وكان يسخر منها أحياناً، وكان يقول: هذا القرآن ليس لهذا الزمان، بل هذا لأهل الصحراء، والآن عصر علم، وعصر التكنولوجيا والفضاء والإلكترون، وكان يعيش على أهوائه ويعطي نفسه هواها، ويتمنّى على الله الأماني، أما يوم القيامة حينما يجيء ربك والملك صفاً صَفاً:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ)

وجيء، والله كان قد حضر مجلساً للعلم فيما مضى والأستاذ تكلّم عن جهنَّم، هذه هي، فهذا الكلام صدق، فقد كنا لا نعتقد فيها، من الآن الذي يهتم ويعتقد بجهنم ؟ يعتقدون بالتجارة وأسعار العملات والبضاعة الأجنبية النفيسة والبيوت الفاخرة والديكور والأثاث المريح، يعتقدون بالأجهزة الصوتية من نوع كذا، وهذا له بعد ثالث، وهذا هاتف تلفزيوني، وهذا فيه محطة تليستار، يعتقدون بمنجزات العلم التي تدغدغ أحلام الناس، من يعتقد ويؤمن بجهنَّم الآن؟ من يصدِّق أن بعد الموت عذاباً أبدياً لا نهاية له.

باب التوبة مفتوح وكلُّ شيءٍ يصلَّح مادام في الحياة بقيّة :

قال تعالى:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

وجيء كلمة، وأنى له الذكرى، أي لا تنفعه الذكرى، تذكَّر أو لم يتذكَّر، اتعظ أو لم يتَّعظ مضى وقت الاتعاظ، عندما يرتكب الإنسان جريمة شنعاء ويحاكم محاكمةً عادلة، ويساق إلى حبل المشنقة، والناس مجتمعون ليشاهدوا شنقه، فلو أحبَّ أن يبكي يبكي، أو يضحك فليضحك، أو يحب أن يصبر فليصبر، وإذا أحب أن لا يصبر فلا يصبر، يحب أن يرفع صوته فليرفع صوته، يحب أن يتوسَّل فليتوسَّل، يحب أن يسكت فليسكت فسيَّان الأمر، لا بدَّ من تنفيذ الحكم فيه. فالآن الباب مفتوح، والآن في الأمور يسر، فباب التوبة مفتوح، كلُّ شيءٍ يصلَّح مادام في الحياة بقيّة، ومادام هذا القلب ينبض كلُّ شيءٍ له حل، فإذا توقَّفت دقَّات القلب خُتم العمل ورفعت الأقلام وجفَّت الصُحف، وإذا تذكَّر الإنسان يقال له:

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

لا تنفع ليت، يا ليتني حرفٌ لا يعني شيئاً، أي الحسرة، والألم، والحزن، فهذه نصيحة لوجه الله قبل أن تقدم على عمل في الدنيا، علاقة مالية فيها شبهة الربا، توقَّف هل ترضي الله؟ ماذا أقول لله عزَّ وجل إذا سألني لمَ فعلت هذا؟ يا ربّ مضطر فأنا بحاجة إلى غرفة الضيوف ذات الموديل الحديث فلا أملك مثلها، أي شيء مضطر؟! فكلمة مضطَّر تعني فقد الحياة، الخوف من فقد الحياة أو فقد أحد الأعضاء، قبل أن تعتدي على الآخرين، وقبل أن تعتدي على أعراضهم، وأن تأخذ من أموالهم، وأن توقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن تغتاب، وأن تنقل حديثاً سيّئاً فتوقع بين أسرتين، وقبل أن تفعل هذا كلّه تذكَّر الواحد الديّان الذي يسألك عن كلِّ أعمالك، البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، كلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون.

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً *وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

سيدنا على رضي الله عنه يقول: الغنى والفقر بعد العرض على الله، فلا تسمِّ نفسك الآن غنياً، ولا تسم نفسك فقيراً، فقد يكون الفقير أغنى الأغنياء يوم القيامة، وقد يكون أغنى إنسان في العالم الآن أفقر الفقراء يوم القيامة، الغنى والفقر بعد العرض على الله، بعد أن تنجو من هول هذا الموقف، أما إذا لم تنج من هول هذا الموقف، فما قيمة المال اليوم؟ لن تأخذ منه شيئاً:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى*يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

الحياة الأبدية لا فناء فيها ولا موت ولا شيخوخة ولا مرض ولا هم ولا حزن :

هذه هي الحياة الأبدية التي لا فناء فيها ولا موت ولا شيخوخة ولا مرض ولا هم ولا حزن:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الزمر: 34]

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

هذه هي الحياة، لذلك العاقل دائماً أمام الحياة الأخروية ملء سمعه وبصره، فهي داخلة في كل حساباته، وأي علاقة في هذه الحياة الدنيا تبعده عن الدار الأبدية يبتعد عنها، وأي عمل يقرِّبه من الآخرة ومن رضوان الله يفعله.

آيات قرآنية تبين حال أهل الجنة :

قال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

أتمنّى على الله عزَّ وجل ألا يقول أحدنا هذه الكلمة، أن يقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

هكذا يقول، وهذا موقف، هذا مشرِّف، أتمنى لكلٍّ منا يوم القيامة أن تنطبق عليه هذه الآية:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

أتمنى أن يكون كلٌ منا ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

الإنسان حينما يكون عمله صالحاً في الدنيا تنتظره سعادةٌ لا يعلمها إلا الله :

الإنسان حينما يكون عمله صالحاً في الدنيا تنتظره سعادةٌ لا يعلمها إلا الله:

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فإنا منحنا بالرضا مــن أحبنـا

ولذ بحمانا واحتم بجنــابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـــا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغـل وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنـا

*** * ***

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنـا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـــا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمـــت غريباً واشتياقاً لقربنـا

****

البطولة أن تأخذ كتابك بيمينك والخزي والعار لغير ذلك :

البطولة أن تقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 19-24]

والخزي والعار لهذا الذي يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

لم أعرف، شُغِلنا بجمع الدرهم والدينار، شُغِلنا بحطام الدنيا، ظننا أن كل شيء في المرأة فظهر أنه ليس فيها شيء، فطبعاً بعض الناس همّهم شهوتهم، وقبلتهم نساؤهم، الهانم لا تريد ذلك فستغضب، ولو عصيت الله فلا شيء، أما الهانم فهو ماشٍ خلفها، ولذلك فالله عزَّ وجل يقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 19-24]

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)

لهذه الآية معنيان، المعنى الأول أنَّ عذاباً كعذاب الله لم يكن في الدنيا، فأشدُّ أنواع العذابات عذاب الله:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)

ومهما سمعت عن ألوان تعذيب الإنسان للإنسان فإنَّ عذاب الله أشد:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

مهما قيل لك إنه لا يمكن لهذا السجين أن يهرب، وثاق شديد ولا يوثق وثاقه أحد.

المعنى الآخر، أن هذا العذاب لا يعذّبه أحدٌ، إنما يعذّب نفسه ندماً:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الحاكم وتعقب عن جابر]

إما أن تفهم هذه الآية على أن العذاب الذي يعذّبه الله عزَّ وجل ليس في الأرض عذابٌ مثله، وأنَّ الوثاق الذي يوثقه الله عزَّ وجل ليس في الأرض وثاقٌ مثله. والمعنى الآخر أن هذا العذاب، إذا شخص بلغه نبأ في منتهى الألم ودعوناه بعد دقيقة للخروج إلى نزهة في بلدة بلودان، يقول لك: اتركني بهمّي، لم يحبسه أحد هو الذي حبس نفسه، من شدة الألم والهم قبع في البيت، من قيَّد وثاقه؟ لا أحد هو قيَّد نفسه، بل ألمه قيَّده.

فيوم القيامة، من معاني هذه الآية أنَّ شدة الندم وشدّة الألم وشدّة الحرقة تجعل صاحبها يتعذَّب عذاباً ذاتياً فضلاً عن عذاب الله المادّي، ولا يُنكر عذاب الله المادي إلا كافر، ولا بدَّ من عذاب جهنَّم، ولكنَّ عذاب النفس قد يفوق عذاب جهنَّم. إذا أخذ أحد الطلاب قلماً ليس له، وادَّعى الذي فقد القلم أنَّه قد فُقد له قلم، وهذا مثل من واقع الطلاّب، وأغلق الباب وفُتِّش الطلاّب طالباً طالباً، وهذا الذي أخذ القلم سرقةً له

مكانته في الصف، مرموقٌ من قبل رفاقه، أخرج القلم من جيبه، قبل أن نضربه، بماذا يُحسُّ هذا الطالب؟ يحسُّ أن الأرض ليتها تنشقُّ وتبلعه، ويحسّ بقشعريرة وبعرق، ويصبغ وجهه بالحمرة والخجل، هذا هو العذاب النفسي، قبل أن نعذّبه، وقبل أن نضربه، وقبل أن نفصله، فإنه فقد اعتباره، وكذلك يوم القيامة عذاب جهنَّم حق، ولا بدَّ من عذاب النار، ولكن قد يكون عذاب النفس أشدّ من عذاب النار.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ *وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

وصف النفس التي عرفت ربّها واستقامت على أمره في الدنيا وأعدَّت لهذا اليوم عُدَّتها:

أما هذه النفس التي عرفت ربّها والتي استقامت على أمره في الدنيا، والتي حسبت لهذا اليوم حسابها، والتي أعدَّت لهذا اليوم عُدَّتها:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

فالله راضٍ عنك وأنت راضية عن ربّك، أعطاك فأجزل وأكرمك وبالغ في إكرامك:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

الله، فمعظم الشواهد الموجود على القبور في مقبرة الباب الصغير عليها هذه الآية، لكن البطولة أن يكون هذا الذي في القبر تنطبق عليه هذه الآية تماماً، فالآن كل القبور تقريباً مكتوب على الشواهد هذه الآية:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

إذا كان آكل ربا فلا علاقة له بهذه الآية، وإذا كان شارب خمر فلا علاقة له بهذه الآية، إذا كان آكلاً مالاً حراماً فلا علاقة له بهذه الآية، إذا لم يكن له عمل صالح فلا علاقة له بهذه الآية:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1 - 2 معانٍ يستقيها الإنسان من سورة البلد.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

للمُفسِّرين في تفسير هذه الآيات مذاهب شتى وهذه المذاهب مُتكاملة وليْسَت مُتناقِضَة:

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة البلد وهي تبدأ بقوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ*يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ*ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ*أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ*وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ)

يقول الإمام عليٌّ كرَّم الله وجْهَه: القرآن حمَّال أوْجُه، لذلك للمُفَسِّرين في تفسير هذه الآيات مذاهب شتى، وهذه المذاهب في التفسير مُتكاملة وليْسَت مُتناقِضَة.

الله سبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسِم وإما أنْ لا يُقْسِم :

قد مرَّ بنا من قبل أنّ الله سُبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسِم، قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

وقوله تعالى:

(وَالْفَجْرِ*لَيَالٍ عَشْرٍ *الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[سورة الفجر: 1-4]

وإما أنْ لا يُقْسم قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

وقال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*مَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

وقال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

[سورة التكوير: 15]

فهو سبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسم وإما أنْ لا يُقْسِم.

الله تعالى لا نِهائي ولا حُدود لِقُدْرته وقوَّتِه وعظمَتِه أما الكَونُ فمحْدود :

إذا أقسَم كان هناك معْنى عظيم من قسَمِهِ، وإنْ لم يُقْسِم كان هناك كذلك معنى عظيم من نفْي القَسَم، فهذا الشيء مهما بدا عظيماً وكبيراً ومُعْجِزاً بالنِّسْبة إلى الله فهو من خَلْقِهِ، ومن إبْداعه، ومُحيطٌ به، وهو ذَرَّةٌ من خلْق الله، ولذلك إذا أراد الله عز وجل أنْ ينْسِبَ الأشْياء إليه يقول: فلا أقْسِم، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

إذ هناك بين المَجَرَّتَين ثمانية عشر ألف مليون سنة ضَوْئِيَّة، هذه المسافات التي يصْعُبُ على العقْل تَصَوُّرها قال فيها سبحانه وتعالى: لا أقْسِمُ بها، لأنَّ الله تعالى لا نِهائي ولا حُدود لِقُدْرته وقُوَّتِه وعظَمَتِه، والكَونُ محْدود، والله غيرُ محْدود، فإذا أراد الله تعالى أنْ ينْسِبَ هذه الأشْياء إليْنا يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

من أنْتُم أمام الشَّمْس، سِتَّة آلاف درجة على سطْحها، وفي أعْماقِها الدرجة بالملايين، فلو أُلْقِيَت الأرضُ في الشمس لَتَبَخَّرَتْ في ثانِيَةٍ واحدة أكبر من الأرض بمِلْيون وثلاثمئة ألف مرَّة، والشَّمْس نجْمٌ مُتَوَسِّط، هناك كازارات يزيدُ حجْمُها عن حجْم الشَّمْس بملايين المرات، وهناك نجْمٌ اسمهُ قلْبُ العَقْرَب تدْخُل فيه الشَّمْس والأرض مع المسافة بينهما.

إذا أقسَمَ الله ببَعْض الآيات فَهُوَ يَنْسِبُها إلى الإنسان وإذا لم يُقْسِمْ فهو ينْسِبُها لعظمته هو:

إذا قال الله تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

أيْ اُنْظر أيها الإنسان إلى عِظَم هذه الآية، ومن أنت أمامها؟ قال تعالى:

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)

[سورة الإسراء: 37]

وقال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*نَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

صَارَ واضِحاً أنَّ الله تبارك وتعالى إذا أقْسَمَ ببَعْض الآيات فَهُوَ يَنْسِبُها إلى الإنسان، وإذا لم يُقْسِمْ فهو يَنْسِبُها إلى عَظَمَتِهِ هو، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هناك معْنى ثالث يُسْتَنْبط من هذه الآية: أنَّ هذا الشيء إنْ رأيْتُموهُ عظيماً جداً فهو بالنِّسْبَة إليَّ صُنْعُهُ يسير، فأحْياناً حامِلَة النَّفْط، كيفَ صَنَعوها؟! تحْملُ ثلاثمئة ألف طنّ، ومن أيِّ معْدَنٍ صُنِعَتْ؟ وما سُمْكُ المعْدن؟ وما قُوَّةُ مُحَرِّكِها؟ مئة وعشرون حِصاناً قُوَّةُ مُحَرِّكِه تُعادِل تحْريك الدَّقَّة لهذه الحاملة! قلما يكون الإنسان أمام طائِرة ويراها ضخْمَة، فالله تعالى يقول: إنَّ هذا الصُّنْع الذي يبْدو لك كبيراً، هو يسيرٌ عَلَيَّ، إذاً لا أُقْسِمُ به، المعْنى الأوَّل: إنَّني أعْظم منه، أما المعنى الثاني: صُنْعُهُ يسيرٌ:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

عدة وجوه لفهم وتفسير الآيات التالية :

بعضُ المُفَسِّرين قال: البلد هي مكَّةُ المُكَرَّمة والبلد الحرام، فإذا سمعْنا الآيات وَجَبَ أنْ نسير في تَتِمَّة هذه الآيات وهو من روح التفسير:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ البلد الحرام:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

مما يزيدُ حُرْمَتَهُ أنَّك فيه حُرْمَةٌ على حُرْمَة:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

سيدنا إبراهيم وابنه إسْماعيل:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

أيْ في مَشَقَّةٍ وضَعْف، وإما أنْ نفْهَمَ الآيات فهْماً آخر، وهو أنْ نسير بعُموم اللَّفْظ، البلد هي الأرض وما فيها فالصَّحْراء غير المدينة، ترى في البلْدَة الطعام والشراب والفاكِهة والفنادق وبائع الزهور وتحْتاج إلى حقائِب، مِن معاني البلد المكان الذي تتواصل فيه حاجات الإنسان، فأكبرُ بلدٍ هي الأرض، فيها معادن قاسِيَة نسْتعْملها لِقَسْوَتِها، وأخرى نستَعْمِلُها لِمَتانَتِها، وفرْقٌ بين القساوة والمتانة، القساوة تَحَمُّل قِوى الضَّغْط، والمتانة تحمُّل قِوى الشدّ، وهناك معادن ثمينة تسْتعْملها كَقِيَم مثل الذهب والفِضَّة، وهناك معادن تسْتخْدِمها لِبَعْض الصِّناعات كالرصاص والنحاس، وهناك أشْباه المعادن، وهناك التربة والجبال التي هي أماكن المُتْعَة، والأنهار والبحار التي هي وسائل الإمْطار، والبُحَيْرات والأزهار والأطْيار والأسْماك والحشائِش التي هي مصادر الأدْوِيَة، وجميعُ ما يحْتاج إليه الإنسان في الأرض، فالحيوانات بأنواعِها اللبونة والأليفة، والعناصرُ وحْدها بالمِئات، لِكُلِّ عُنْصُرٍ خواص كيميائِيَّة وفيزْيائِيَّة، وكُلُّ معْدنٍ له طريقةٌ للحُصول عليه وتصنْيعِهِ وتطْريقه، ليسَت الأرضُ كما يتوَهَّمُ الناس كَوْكَباً اِنْشَقَّ عن الشَّمْس بِحُكْم سُرْعة الدَّوران، الأرضُ فيها بُذور بكُلِّ أنواع النباتات، زينيَّة، وأشْجارٌ للزينَة، وللثِّمار وللأخْشاب المتينة وتلك خشنِة والأخرى سهْلة التَّصْنيع، الحور والشوح والسِّنْديان وغيرها، فالأخْشاب مُنَوَّعة، والأشْجار مُنَوَّعة، والثِّمار مُنَوَّعة، وهناك المحاصيل والشُجَيْرات والغابات، وهناك نبات لِعالَم المُتْعَة كالوُرود والأغْصان وهي أنواعٌ مُنَوَّعة.

1 - المعنْى الأول لِكَلمة البلد يشْمُلُ الأرض وما فيها :

المعنْى الأول لِكَلمة البلد يشْمُلُ الأرض وما فيها، وبعضُ المُفَسِّرين قالوا: وما عليها وما يتَّصِلُ بها، فالشَّمْسُ لها علاقةٌ بالأرض فلولا الشمس لما قامتْ حياةٌ على وَجْه الأرض والقَمَرُ له علاقةٌ بالأرض، فلولاه لما قامت حياةٌ على سطْح الأرض، وكذا الهواء والحرارة درجتُها وتَوَزُّعُها، والرِّياح سحابٌ وأمْطار، إذاً كلُّ ما حوْل الأرض وما في باطِنها وما عليها من ثَرَواتٍ ومياهٍ وطاقةٍ ومعادن:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هذا المعنْى أخذهُ المُفَسِّرون من مُطْلَق الآية، البلد مكانٌ في الأرض تتواصل فيها حاجاتك، الأرض بِأكْمَلِها، فالصحْراء ضروريَّة للحياة في الأرض فلوْلاها لما عاش الناس على السواحل لأنَّ الصحْراء

تستقبل المُنْخَفَضات فمن تَنَوُّع الحرارة والبُرودة تنشأ الرِّياح، وينْشأ معها السحاب والأمطار والثلوج والنبات والحيوان والإنسان، فهي جُزْءٌ أساسِيٌّ من هذا البلد، وكذا القُطْبَان جُزْءان أساسِيَّان من هذا البلد، وكذا المنْطقة الاسْتِوائيَّة والمَداريَّة والباردة والمُعْتَدِلَة جُزْءٌ من هذا البلد، وكَوْنُ الأرض كُرة من صُنْع الحكيم العليم جُزْءٌ من هذا البلد، ودَوْرتها حول نفْسِها بِسُرْعة حكيمة جُزْءٌ من قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

وهناك رُخامٌ لا يتأثَّر بأشِعَّة الشَّمْس، لو سُلِّطَتْ عليه الشمْس عشْر ساعات مُتواصِلة ثمَّ مَشَيْتَ عليه لرأيْتَهُ بارداً! من الذي خلق هذا الرُّخام؟ هناك موادٌ حَساسة إذا سُلِط عليها الضوء انْطَلَقَ عليها إلِكْترون وهي تُسْتَخْدَمُ للتَّصْوير، فَمَن خلق هذه المادة؟ وهذه الجراثيم، والفَيْروسات والعُصَيَات والبكْتيريات والأحْياء الدقيقة ووحيدة الخَلِيَّة، والحيوانات الهلامِيَّة الفِقريَّة والثَّدْيِيَّة واللَّبونة والأهْلِيَّة والدَّلولة والمُتَوَحِّشَة، هل هناك حاجة من حوائج الإنسان ناقصة في هذا البلد؟! من طعامٍ إلى شرابٍ إلى مُتَع، المُكَسَّرات هل هي أشياءٌ أساسِيَّة؟ لا ولكنَّها كمالٌ في الخلق، وكذا الأزْهار والتوابل والمناظر الجميلة.

2 - المعْنى الثاني البلد هو البيْتُ الحرام :

المعْنى الثاني: البلد، الذي هو البيْتُ الحرام، الله سبحانه وتعالى يقول:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

ما معْنى قِياماً؟ الخَيْمَة، هل تقوم بدون عمود؟! قال عليه الصلاة والسلام:" الصلاة عماد الدِّين من أقامها " فالإنسان قِيامُهُ الحقيقي ليس بهَيْكَلِهِ العَظْمي وعضَلاته المفْتولة والمشْدودة ولا بالغِذاء الجيِّد الذي يتناوَلُهُ، ولا بالراحة التي يأخذها، ولا بدَخْلِهِ الكبير، ولا ببَيْتِهِ الفخْم، ولا بمَرْكَبه الوطيد، إنما قِيامُ الإنسان بمَعْرِفَة الله عز وجل، لأنَّ هذا العطاء ينْفذ ويميل إلى الموت، كُنْ من شِئْتَ فلا بدَّ من الموت، والموتُ إنْهاءٌ لِهذا العطاء، وكُنْ أغْنى الأغْنِياء فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، وكن أقْوى الأقْوِياء فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، وكُن رفيع الشأن في الحياة فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، فالقِوام لا بدَخْلك ولا بصِحَّتِك ولا بِكَثْرَة أوْلادك ولا ببَيْتِك ولا بِكَثْرة تِجارتك، إنما هو بمَعْرِفَة الله التي تُبيحُ لك الخُلود إلى الأبد، إما أنْ تعْرف الله فَتَخْلُد إلى الأبد، وإما أن تغرق في الدنيا فَتَشْقى إلى الأبد.

الحكمة من اتخاذ الله بيْتاً له في الأرض :

ربنا عز وجل قال:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

طبْعاً إذا ذَهَبَ الناس إلى البيْت الحرام سِياحَةً لا يشْعرون بِشَيْء! ذهب أحدهم فقال: سبحان الله! والله ما شَعَرْتُ بِشَيْء، الله عز وجل تَعَبَّدَنا بهذه الأوامر، أوامرٌ غير معْقولة! طواف وسعْي وتقْبيل للحجر وحلْقُ الشَّعْر ولُبس لباس الإحْرام، كذا سبحان الله على جهْله! الله عز وجل تَعَبَّدَنا بهذه الأوامر، الله عز وجل يقول:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

هل هناك آيةً أوْضَحُ منها، ذلك أن الكعْبة والشهْر الحرام والهَدْي والقلائد إنَّما شُرِّعوا لِتَعْلموا أنَّ الله يعْلَمُ، حتى يحْصل لكم العِلم بالله عز وجل، هذه هي حكمة اتخاذ الله بيْتاً له في الأرض.

السَّعْي له معنى وكذا الطواف وتقبيل الحجر الأسود له معنى :

معنى البيْت الحرام أنَّ هذه البُقْعَة ليْست كباقي البُقع، هذه بيْتُ الله، مثلاً السفارة إذا دخلها الإنسان يُعَدُّ لاجِئاً إلى الدولة التي هي صاحِبَتُها لأنّ السفارة تُعَدُّ جزءً من أرض الدولة التي تُمَثِّلُها، وكذلك البيْتُ الحرام - مع الفارق - يُعَدُّ بيْتُ الله، وهذه الأرض التي أنت عليها ليْسَتْ لِزَيْدٍ أوْ عُبيد، إنها لله وهي بيْتُهُ، ولذلك فالإنسان إذا بَدَتْ له ملامحُ مَكَّة يقول: اللهمَّ إنَّ هذا البلد بلَدُك، وهذا الحرَمَ حَرَمُك، وهذا الأمْنَ أمْنُك، اللهمّ أنا عبْدك ابن عبْدك وابن أمتك ناصِيَتي بيدك ماضٍ فِيَّ حُكمُك عدْلٌ فيّ قضاؤُك، فالله تعالى اتَّخَذَ في الأرض بيْتاً له، فإذا أردْتَ أنْ تتَّصِلَ به إتّصالاً مُكَثَّفاً ومُحْكَماً، فهذا معْنى من معاني البيت الحرام، وأنت هناك تُحسّ أنَّ الله يسْمَعُكَ - الله يسْمعك في كُلِّ مكانٍ وهذا لا شكَّ فيه - فإحْساسُك هناك إحْساسٌ آخر ومُتَميِّز، إنْ قُلْتَ له يا رب: اِهْدِني واهْدِ بي، تُحِسّ أنَّ الله سبحانه وتعالى اِسْتَمَعَ إلى هذا الدُّعاء لأنَّك في بيْتِه وليس بيْتُهُ قريباً من بيتك فقد قطعْت الأمْيال الكثيرة حتى وصَلْتَ إليه:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ بالكعْبة المُشَرَّفَة وبالبَيْت الحرام وبيْتُ الله، لماذا يصْطَفُّ الناس لِيُقَبِّلوا الحجر الأسْود؟! النبي عليه الصلاة والسلام قَبَّلَهُ وبكى كثيراً فقال له سيّدنا عمر: يا رسول الله أتَبْكي؟! قال له: يا عمر، هنا تُذْرف العَبَرات، الحجرُ الأسْود يمين الله في أرضِه، من فاوَضَهُ فَكَأنَّما فاوَضَ كفَّ الرحمن، والإنسان أحْياناً تكون والِدَتُه في خاطِره دائِماً لكنَّه إذا أكَبَّ على يدَيها وَقَبَّلَها يحْصل شيئان: المعنى الحاصِل والأمر الثاني هو الاتِّصال المادي وهذا يزيد المعنى وُضوحاً وجلاءً وعُمْقاً، حينما تطوف حول الكعْبة وتدْعو بالأدْعِيَة المأثورة أو بأيِّ دُعاءٍ شِئتَ ماذا تشْعر؟ أنَّك تطوف حول البيت والطواف قبل العكوف، أحْياناً تطوف إلى أنْ تسْتَقِرّ على الحقيقة فَتَعْكُفُ عليها، فالسَّعْي له معنى وكذا الطواف وتقبيل الحجر الأسود له معنى، قال تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

إذا علِم الإنسان أنّ الله يعْلم فقد انْتهى المقْصود :

لكن سبحان الله حينما كان الذهاب إلى الحج مشْياً على الأقْدام - تعْلمون كم هناك مِن المشْي من الشام إلى مكّة المُكَرَّمة من مشَقَّة - أشْهُراً وكانوا يرْكبون على الجِمال، ويبْدو أنّ الثواب على قدْر المَشَقَّة، فهذا الذي مشى شهْرين حتى وصل إلى البيت الحرام بماذا يشْعر هناك؟ شُعورهُ يكون أضْعافاً مُضاعفة على من رَكِبَ طائِرَةً ولم يشْعر بِشَيء؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى جعل الثواب على قدْر المشَقَّة، اِلْبِس ثَوْبَ الإحْرام فإنَّك لا تعْرف قيمة المخيط من الثِّياب حتى تلبسهُ! قِطْعَتان من القِماش، تُحِسُّ بِقيمَة الثَّوْب، وتُحِسُّ أنَك والناس في مُسْتوى واحد، لا فضْل لأحَدٍ على أحَدٍ، الناس كُلُّهم في هذا البيت، ليس هناك رُتَبٌ ولا ألْقاب ولا حُظوظ اجْتِماعِيَّة، ولا درجات ولا دَرَكات، العِباد في بيْت الله، ربنا عز وجل قال:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

فإذا علِمْتَ أنّ الله يعْلم فقد انْتهى المقْصود، فلماذا يكذب الإنسان؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، ولماذا يعْتدي على أخيه؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، ولماذا يعْتدي على مال أخيه؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، فإذا علِمَ أنَّ الله يعْلم فالإيمان قَيْدُ الفَتْك، إذْ لا يُعْقَل للمرء وهو على مرْأى من رجال الأمن أن يرْتَكب مُخالفة للقانون، فإذا علِمْتَ أنَّ الشرطي يُراقِبُك وأنَّك إنْ تجاوَزْتَ الإشارة فسوف يُقَدَّم في حقّك ضبْطاً قد يكون مُتْعِباً

لك، سواءً مادِياً أو معْنَوياً، فليس من المعْقول الإقْدامُ عليه، وإذا كان الحج حصل بِشَكْلٍ كما رسمهُ الله عز وجل، تعود من هذا البيت الحرام وأنت توقِنُ أنَّ الله يعْلم:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

الكعْبة مكانٌ وفيها تَجَلِّياتٌ خاصَّة :

لن تسْتطيع أنْ تقْتَرِفَ إثماً ولا أنْ تعْصِيَ ولا أنْ تُخالف ولا أنْ تُقصِّر:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

لو أنّ الكعْبة مكانٌ فقط فالله عز وجل في كُلِّ مكان، لكنَّ الكعْبة مكانٌ وفيها تَجَلِّياتٌ خاصَّة، من دخلها صادِقاً مُخْلِصاً تجلى الله على قلبه بِبَعْض هذه التَجَلِّيات بِحَسَب إخْلاصه وإنابَتِهِ وشَوْقِهِ، ومُلَخَّصُ المُلَخَّص أنَّ الذي تُحَصِّلُهُ في بلدك من اسْتِقامة وعملٍ صالح تجده هناك حاضِراً وجاهِزاً، فإذا كان للإنسان إساءات كبيرة، يطوف بالبيت ولا يحُسّ بِشَيْء، أنا شَبَّهْتُهُ تماماً كالسائح أدْخَلْناه إلى قصْر ثقافي، فإذا كان هناك إهْمال بالواجبات الدِّينِيَّة وتقْصيرٌ أو إساءةٌ للناس، فهذا الأخير إذا ذهب إلى الكعْبة الحرام فهو بِمَثابة سائِحٍ لا أكثر ولا أقلّ، وإذا كان مُسْتقيماً على أمر الله فإنه يشْعُر براحَةٍ وطُمأنينة، أما إذا كان له عملٌ صالحٌ وتضْحِيَةٌ كبيرة وبذل جزءً كبيراً من ماله وصِحَّتِهِ يرى الجزاء هناك، وكأنَّ الله يسْتقْبِلُه، هناك لا يُضافُ شيء ولكنَّ هذا البيْت العتيق لك عما عندك، ليس كيساً مملوءً يُفْرَغُ في خزائِنِك ولكنَّهُ مِصْباحٌ يكْشِفُ لك ما عندك! وهذا معنى من معاني هذه الآية.

هذا البلد الذي جعله الله للناس قِياماً يزيدُهُ قُدْسِيَّة وحُرْمَةَ أنَّ النبي الكريم فيه :

قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

استُنبط من هذه الآية شيئان: مكَّة تُمَثِّلُ قُدْسِيَة الله عز وجل، إنها جلال فإذا ذَهَبْتَ إلى المدينة فالجمال، وليس معْقولاً أنْ تقِفَ أمام قبْرٍ وتُخاطِب صاحب القبْر وتُحِسُّ أنَّهُ يسْمعك لكِنَّك إذا ذَهَبْتَ إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام وقُلْتَ له: السلام عليك يا سَيِّدي يا رسول الله، من زار قبْري بعد موتي فكأنَّما زارني في حياتي، حياتي خيرٌ لكم، ومماتي خيرٌ لكم، السلام عليك يا سيّد الرسل والأنبياء ويا من وصفه الله بالخُلُق العظيم - كلُّ ما تعْرفه من أوصافٍ لِهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قُلْها هناك - معْرِفَتُك لِرَسول الله تبْدو في هذه اللحْظة إذا كنت تمْتَلِك هذه المشاعر وأنت في بلَدِك ربما تقْطع عليك العبرات لِسانك، أشْهَد أنَّكَ بلَّغْت الرِّسالة وأدَّيْتَ الأمانة ونصَحْتَ الأمة وكَشَفْتَ الظلمة وأزَلْتَ الغُمَّة وجاهَدْتَ في الله حقّ الجهاد، فأنت دَخَلْتَ في ضِيافته صلى الله عليه وسلَّم، فَهَل يُعْقل أنْ تخرُجَ من مقامه صلى الله عليه وسلَّم كما دَخَلْتَ؟ ليس هذا معْقولاً على الإطْلاق:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

فهذا البلد الذي جعلته للناس قِياماً يزيدُهُ قُدْسِيَّة وحُرْمَةَ أنَّك فيه، آيةٌ أخرى عن البيت الحرام، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)

[سورة آل عمران: 96-97]

هذا الكلام هو كلامُ ربِّ العِزَّة فما الذي بدا لك من آياته البيِّنات؟! هذا سؤال، هناك أشْخاص من أهل العلم قدْر ما دفعوا في بلدهم وجدوا من الآيات البيِّنات.

ديننا دينٌ معْقول وعِباداتنا مُعَلَّمة وليْسَتْ طُقوساً :

يا أيها الأخوة الأكارم، إنَّ القَضِيَّة تبْدأ من هنا، من بلَدِك هناك لا يُضافُ شيءٌ ولكن يُحَرِّكُ لك ما في نفْسك، إنها عَمَلِيَّة كشْف مخْزونة، إلى أنْ يَنْعقد للتوبة هناك، فإذا حصل خُشوعٌ وتوبة تُضافُ لهذا العمر الثاني صفْحَةٌ جديدة، كأنَّ الله تبارك وتعالى قبِلَ التوبة وتاب عليك وقال: سَنَنْظُر ماذا ستَفْعَل! هناك معنى من المعاني التي أخَذْتُ لُبِّي، إذا كان هناك طالبٌ علَّموه أنْ يَعُدّ إلى العَشَرة، وأخذه أبوه إلى دَوْلَة أجْنَبِيَّة في العطلة الصَّيْفِيَّة ودخلا إلى مُتْحَفٍ فيه أكبر عالم بالرِّياضِيات في الأرض - أينشتاين - وَدَخَلْتَ لِغُرْفَتِهِ الخاصَّة، مقعدٌ وطاولة وسُبورة وأخَذْنا هذا الطِّفْل الصغير وأقْعَدْناه على هذا الكُرسي

هل تزْداد معْلوماته؟! يبْقى هذا الطّفل الصغيرُ صغيراً، وهذا العالم عالماً كبيراً، لكن متى يسْتفيد هذا الطّفل بهذا العالم؟! إذا اِهْتدى بسيرَتِه، وعكف على الكُتب ودَرَسها وحَلَّلها، وسَهِرَ الليالي، وإذا سار هذا الطّفْل بسيرة هذا العالم يسْتفيدُ منه، فإذا كنت ممن قبَّل الحجر الأسْود، فما الذي حصل؟ هذا التَّقْبيل رمْزٌ وخَلْفَ هذا الرمز معنى كبيرا! أنت عاهَدْتَ الله عز وجل على طاعَتِهِ، فإذا حصل العهْدُ والتوبة وأصبحتْ هناك صفْحة جديدة فأنت والله قد قبَّلْتَ، فإذا عاهَدَ شخْصٌ على أنْ يستقيم وأنْ يفتح مع الله صفْحة جديدة، وما تمَكّن أنْ يُقبِّل الحجَر فكأنَّهُ قبَّلَهُ، وآخر قبَّلَ الحجر وزاحم بِمِنْكَبيْه الناس وآذاهم ورجع كما جاء فو الله ما قبَّلَهُ! ديننا دينٌ معْقول وعِباداتنا مُعلَّمة، ليْسَتْ طُقوساً! تدخل إلى الحرم النبوي الشريف فتجد المِحْراب الذي صلى فيه رسول الله، مكْتوبٌ في أعْلاه هذا المِحْراب الذي صلى فيه رسول الله، يُمكِنُ أنْ يُتاحَ لك أنْ تُصَلي فيه ركْعتين وذلك في أوْقاتٍ مُعَيَّنة، ماذا حصل؟ - لا شكَّ أنَّهُ مكانٌ مُقدَّس - لو صَلَّيْتَ ألف ركعة خلفَ هذا المقام وأنت مُقيمٌ على المُخالفات بقيتَ أنت أنت والنبي هو النبي، فلا بدّ أنْ نُحَرِّرَ عُقولنا من الأوْهام، وقد تجد من يقول: أنا صَلَّيْتُ بِمُصلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فإذا كنت تتَّبِعُ سُنَّتَهُ في حياتك فَهَنيئاً لك، أما إذا كنت مُخالِفاً لِسُنَّتِهِ ومُتَّبعاً لِهَواك فصلاتك في مُصلاه لا تزيدك ولا تُنْقصك! ولو ألف ركْعَة، لقد كان يجْلس إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلَّم كبير المنافقين! فلما حَضَرَتْهُ الوفاة قال: أعْطوني قميص رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا قميصي أعْطوه إياه، وما يُغني عنه قميصي من الله شيئاً، الآن اسْتَقَرَّ في جَهَنَّم حجر كان يهْوي فيها سبعين خريفاً! كُلُّ هذا من أجْل أخْذ الدِّين بِشَكْلٍ عميق، فإذا صَلَّيْتَ في ِمُصلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وإذا كنت تتَّبِعُ سُنَّتَهُ في حياتك فَهَنيئاً لك! فقيل لهذا الرجل: لمَ طَلَبْتَ القميص؟! فقال: إذا جاءَني الملكان في القبر وقالا لي من ربُّك أقول: الله ربي وما دينك؟ أقول: ديني الإسلام، ومن نَبيُّك؟ أقول: هذا قميصُه! يمكن أنْ تقف على بعد متر من مقام النبي وتخْشع وتبكي وتُحِسّ أنَّك ذبتَ كالشَّمْع ولم تمْلك عبراتك ولو لمَسْتَ شباك النبي، وقد يأتي إنسان ويقترب من هذه النافذة ويُقبِّلُها ويظُنُّ أنَّهُ نال كُلَّ شيء، فهذا نحاس وبركَةُ النبي باتِّباع سُنَّتِهِ كما فعل هؤلاء الصحابة الكرام.

المؤمن المُتأدِّب مع الله عز وجل يعلم أن هناك طلبات لا بدّ لها من موجِبات :

هناك حديثٌ مرَّ معي يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

فإذا كان من أمَّة محمَّد اثنا عشر ألف مؤمن من نمط صحابة رسول الله الكرام لن تستطيع دُوَل الأرض أنْ تقف في وَجْههم، والآن حينما تُقام الصلاة في المسجد الحرام فهناك أكثر من نِصْف مليون في كُلِّ صلاة، هاتوا لي رجالاً كأصْحاب النبي وخُذوا كُلَّ ما وعد الله به المؤمنين، فقد وَعَدَهم بالنَّصْر قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

[سورة الحج: 38]

هذا وعْدٌ وقال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 29]

الاسْتِخْلاف والتَّمْكين والطُمأنينة والنَّصْر، فالقَضِيَّة أنَّ الله هو هُو ووُعوده وقوانينه هي هِي فلا تبدُّل ولا تغْيير ولا تجْديد، آياته هي هي، كُنْ في مُستوى هذه الآيات وخُذ ثِمارها، ولذلك فالدعاء الذي يُؤثِّرُ في نفْسي:" اللهم إني أسألك موجبات رحْمتك وعزائِمَ مغْفِرَتك " أبٌ ملِكٌ قال لابنه: أطْلب وتمنّ! قال: أحِبُّ سيارة، وطائِرَة خاصَّة وقصراً، فقال الأب: كلُّ هذا سهْلٌ، فقال الابن: اِجْعَلْني رئيس جامعة، فقال الأب: هذه تحْتاج إلى جُهْدٍ منك خُذْ دُكْتوراه وخُذْ عهْداً مني أنْ تكون رئيس جامعة، ليس كُلُّ طلَبٍ يُنَفَّذ إذْ هناك طلبات لا بدّ لها من موجبات، فالمؤمن المُتَأدِّب مع الله عز وجل يقول: " اللهم إني أسألك موجبات رحْمتك وعزائِمَ مغْفِرَتك " هذا من الدعاء المأثور.

آياتٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بهذا البلد الذي فسَّره العلماء بمَكَّة المُكَرَّمة :

آياتٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بهذا البلد الذي فسَّره العلماء بمَكَّة المُكَرَّمة قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

المثابة في اللغة: العَوْد، تقول: ثاب إلى رُشْدِهِ أيْ عاد فالإنسان إذا جاء الكعبة ورجع إلى الله تائِباً ومُنيباً، فهذا الشعور أيَحُسّ أنَّهُ قد حصل؟ يُكَلِّفُ نفسه ويغادر ويتجشَّم مشاق السّفر، فهل هذه الآيات كلامك؟ إنها كلام ربِّ العالمين، إنْ حَصَلَ لك نصيبٌ منها نقول لك: هنيئاً، هل رأيْتَ الآيات البيِّنات؟ وهل حَصَلَ لك العِلْمُ أنَّ الله يعْلم؟ وهل كان لك هذا البيتُ مثابَة، عَوْدَةً وإنابة ورَجْعَة، قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

هذه المعاني كُلُّها مُسْتَوْحاة من كلام الله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

آيةٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بالبَيْت الأمين :

هناك حاجات مادِّيَّة للناس، فالله جعل الأنهار والينابيع والبحار والأمطار والثُّلوج والوِدْيان والبُحَيْرات، والرؤوس والخُلجان، والناس لا بدَّ لهم من الهواء فَجَعَلَ الله تعالى الهواء بِنِسَبٍ ثابِتَة، وإلى الطعام والشراب فَجَعَلَ نباتات من محاصيل وخضْراوات وأشْجاراً مُثْمِرَة وفواكِه، وهم بحاجة إلى النَّسْل فَجَعَلَ الله الزواج، وجعل الذَّكَر والأُنْثى والطُّفولة، فنِظام الطُّفولة ونظام الخلق، هذه كُلُّها حاجات، وهناك حاجات عقْلِيَّة وروحِيَّة جعل الله الكعْبَة البيْتَ الحرام تَلْبِيَةً لهذه الحاجات الروُّحِيَّة، فالحياةُ الدِّينِيَّة عن طريق هذا البيت، وأنت في مُصَلاك يجب أن تتجِهَ إلى هذا البيت لأنَّهُ بيت الله تعالى، وهذا البلد بلد الله، وهذه الكعْبة رمْزٌ من رُموز الله في الأرض. آيةٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بِالبَيْت الأمين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج: 32]

منافع، وقد جذب نظري كلمة أجل مُسَمىً، فالإنسانُ إذا سُرَّ هناك فلمَ لا يُقيمُ بالبَيْت الحرام؟! خطر ببالي شُعور وهو أنه إذا زار مُوَظَّف صغير المُدير العام، واتَّفَقوا على خُطَّة عَمَل، وقال له: عليك مآخذ؟ فقال الآخر: وما هي؟! قال: كذا وكذا، فقال: دعني وما قلت، فقال: عليك واجبات، قال له: أعاهدك على القيام بها، ودعْ هذه المآخذ، ارجعْ إلى بلدك حتى تنفِّذ العهد، فكل إنسان له في بلده عملٌ صالح يقتات منه يستطيع أن يجعله عملاً صالحاً وليس هناك حرفة في الأرض تستعصي على العمل الصالح؛ طبيب ومهندس ومحامٍ ومدرِّس وصيدلي وخبير وتاجر ومزارع، فإذا نصحت المسلمين في كل ما تُسأل عنه، تعلم أن هناك طبيباً مختصّاً بهذا المرض، فإنك لابدَّ أن تفيد هذا المريض وتقول له: اذهبْ إلى فلان فهو أقدر مني لمرضك، فالعمل هذا عمل صالح، والمحامي لا يتسلَّم دعوى إلا إذا علم أن موكِّله على حق، ففي سبيل إحقاق الحق له عند الله أجر كبير، والمدرِّس إذا علّم الطلاب ووجَّههم وغرس فيهم حبَّ الحق والفضيلة قلب صنعته إلى عمل صالح، والتاجر إذا باع الناس سلعة جيِّدة بأسعار معقولة ولبَّى حاجاتهم ووفَّر لهم هذه الخدمات فقد قلب عمله إلى عمل صالح، فهذا العهد مع الله عز وجل وهذه التجلّيات وهذا الخشوع وهذا البكاء وهذا التوسُّل وهذا الترجِّي وهذه الرحمات التي يتجلَّى الله بها على قلب المؤمن إلى أجل مسمًى، والآن وقت التنفيذ انطلق ونفِّذ الذي عاهدت الله عليه،

وكل إنسان بعمله، فربنا عز وجل لما جعل هذه الزيارة والحج فهو لقاء في أعلى مستوى مع الله عز وجل وعهد وتوبة وصفحة جديدة وعزيمة وطموح، ويعود المرء إلى بلده لينفِّذ بنود هذا العهد بنداً بنداً، وفقرةً فقرةً.

معانٍ يستقيها الإنسان من سورة البلد :

قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

هذه الشعائر قال تعالى:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الحج: 37]

التقْوى، هذا النور الذي يُقْذَفُ في قلوب الحجاج والمُعْتمرين، ربنا عز وجل قال:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

بعضهم قال: البلد هي الأرض ولك أنْ تمْشي في هذا الطريق إلى مسافاتٍ شاسِعَة، إنْ كنت عطشان أو جوعان أو نعْسان أو أردْتَ تصليح سيَّارتك وكان أمامك بلدة فَستَجِدُ فيها مُبْتَغاك، فالبلد المكان الذي توجد فيه حاجاتك، فالصحْراء في خِدْمَتِك وكذا الجبال والقطْبَان والحرّ، فلكَ أنْ تفْهَمَ البلد الأرض وما توافر فيه من حاجاتك أساسِيَّةٍ وفَرْعِيَّة إلى أقصى الحُدود، ولك أنْ تفهم البلد البَلَد الحرام والكعبة المُشَرَفة وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى جعلها قِياماً للناس وأمْناً، وشَهدوا منافع لهم منها، وكانت سَبَباً لِعَوْدَتِهم إلى الله عز وجل، وسبباً في عِلْمِهم أنَّ الله يعْلم، هذه المعاني التي يسْتقيها الإنسان من كلمة:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 2 - 7 افتقار الإنسان إلى الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة الكرام، نُتابعُ السورة التي بدأناها في الماضي، وهي سورة البلد، قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

وضَّحْنا في الدرس الماضي أنَّ هذا الشيء الذي أقسَم الله به له معْنيان: إما أن تعْني الأرض كُلَّها وما توافر فيها من حاجات الإنسان، صغيرها وكبيرها، وجليلها وحقيرها، أو أنْ تعْنِيَ مكّة المُكَرَّمة، وقد تمَّ الحديث عن هذا في الأسبوع الماضي بِفَضْل الله تعالى، قال تعالى:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

إنْ فسَّرْنا البلد الأرض فأنت أيها الإنسان تسْكن على سطْح الأرض وترى بِعَيْنَيْك السماء وما فيها والأرض وما فيها، وما بين السماء والأرض ترى المشارق والمغارب، وترى أنواع النباتات والحيوانات، وترى رِزْقَكَ الكريم، وأنَّه سبحانه وتعالى خلق لك من نفْسِك زوْجةً تسْكُنُ إليها، وترى أوْلادك بين يدَيْك، ترى الجبال والأنهار والبحار والطيور والأسْماك:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ وأنت على الأرض وهذه الآيات التي يذكرها لك ليسَتْ بعيدة عن سَمْعِكَ وبصَرِك! إنها بين يدَيْك وتعيشُها كُلَّ يوم.

مِمَّا يزيد حُرْمَةَ الكعْبة أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فيها زادَها حُرْمَةً على حُرْمَة :

إنْ فسَّرْنا البلد مكّة المُكَرَّمة، والبلد الحرام التي جعلها الله مثابةً للناس وأمْناً، ومنع فيها المُنازعات والحُروب وسَفْك الدِّماء والصَّيْد، وجعلها مثابةً إليه وعَوْدَةً إليه وآمِنَةً:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

ومما يزيدُ حُرْمَتَها أنَّكَ فيها يا محمَّد! ففي آياتٍ أُخْرى يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

بعضهم فَسَّر هذه الآية بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعَذِّبُ أُمَّةً تُحِبُّ رسولها، فما دامتْ محبَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام فيهم فلن يُعَذِّبَهم الله تعالى، ومِمَّا يزيد حُرْمَةَ الكعْبة أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فيها زادَها حُرْمَةً على حُرْمَة، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

ومواقِعُ النجوم مسافات قد لا يسْتطيعُ العقْلُ إدْراكَها، عَشْرَةُ آلاف مليون سنة ضَوْئِيَّة! حينما لم يُقْسِمِ الله تعالى بهذه الآية الكبيرة، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

أقسَمَ بِعُمُرِهِ الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر 72]

ما هذا العُمُر؟ ثلاثٌ وستون عاماً أفاضَتْ على البَشَرِيَّة هُدىً وسعادَةً للأرض بِأكْمَلِها سادَتْها الفضيلة والسعادة، والتوحيد، إنه إنْسانٌ واحد قلبَ المقاييس كُلَّها، جاء الحياة فأعْطى ولم يأخذ، وقدَّسَ الوُجود كُلَّهُ، ورعى قضِيَّة الإنسان، وزكى صِياغة العقْل، ونهْنه غريزة القطيع، وعاش واحِداً بين الجميع، وكان بإمْكانه أن يعيش واحداً فوق الجميع، ولذلك استحَقَّ النبي الكريم صلى الله عليه وسلَّم وهو سيِّد البشر أن يُقْسِمَ الله عز وجل بِعُمُرِهِ الثمين:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر 72]

للآية التالية ثلاثة معانٍ :

فإذا قال الله عز وجل:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ مِما يزيد هذا البلد الحرام -الذي جعله الله مثابة للناس ومنافع وجعل فيه آياتٍ بَيِّنات والهدي- أنَّكَ فيه يا محمّد.

وبعض المُفَسِّرين قالوا:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ أنَّ هؤلاء المُشركين الذين لا يسْتحِلون في الأشهر الحُرُم سفْكَ دَمٍ، ولا قِتالاً ولا صيداً فَكَيْفَ يسْتحِلون أنْ يؤْذوك؟! وكيف يسْتحِلون أن يُخْرِجوك؟

وبعض المُفَسِّرين قالوا:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هذه بُشْرى للنبي عليه الصلاة والسلام في أنَّ الله سبحانه وتعالى سَيَفْتَحُ عليه مكَّة، وسَتَكون حِلاً له ساعَة من نهار، إنَّ الله عز وجل حَرَّمَها منذ أن خلق السماوات والأرض وإلى قِيام الساعة إلا ساعَةً من نهار أحلَّها لِنَبيِّهِ عليه الصلاة والسلام، فهذه ثلاث معانٍ يعْنيه قوله تعالى:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

نظام التوالد والحكمة منه :

يا أيها الإنسان هذه الآيات بين يديْك وتحت سَمْعِكَ وبصَرِك، ترى النِّعَم إذ تأكل الطعام، وتنام على فِراش، وتتنَسَّم الهواء العليل، وأمْتَعَكَ الله بعَيْنَيْن ورزقك أُذُنَيْن:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

كُلُّ حاجاتك مَيْسورة لك في الأرض تراها بعَيْنِيك، أنواع المعادن وأشْباهُها، وأنواع المزْروعات وطبيعة الأرض بِتُرْبَتِها، وأنواع الأخْشاب، وأنواع الحديد والنحاس.

لكنَّ الآية الثالثة، الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وخلق فيها من كُل زَوْجَيْن اثنين، فلولا نِظام التوالد على مُسْتوى الإنسان والحيوان والنبات لانْقَرَضَتْ المخْلوقات، فكيف رَتَّب الله سبحانه وتعالى نِظام التوالد؟! لو وَقَفْنا عند الإنسان! كيف جَهَّزَ الله سبحانه وتعالى المرأة بأَجْهِزَة خاصة برَحِمٍ ومِبْيَضَيْن وثَدْيَيْن؟ وخصائِص تُعينُها على الحمْل والولادة والرضاع؟ وكيف جعلها مرْغوبةً عند الرجل؟ وكيف زرع في قلب الرجل هذا المَيْل نحوَ الأُنْثى؟ ومن زرعَ فيها مَيْل التطلُّع وإظْهار ما عندها؟ من الذي جعل الزوجة سَكَناً للزوْج؟ أليس الله سبحانه وتعالى إنه قادر على أن يخلق العباد كلهم دفعةً واحدةً؟ هو قادر، لماذا جعل نظام التَّوالد؟

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

العلماء يقولون: هو حفظ النوع، فالغريزة التي أودعها الله فينا هي من أجل حفظ النوع، ولولاها لانْقَرَض النوع البشري من على سطح الأرض.

نِظام التوالد هو الذي يحْفظ لنا حياتنا :

قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

من زرع مَيْل حُبِّ النساء للبنين؟ تريد أن تكون أماً وتحْرص على ذلك مع أنَّ الولادة والحَمْل وَهْنٌ على وهن، فالله سبحانه وتعالى يُشير إلى هذا النظام البديع في قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

فنِظام التوالد، سواءٌ على مُستوى الإنسان أو على مُسْتوى الحيوان، هذه الدجاجة من ألْهَمَها أنْ تجْلس على البيض، عِشْرين يوماً، وأن تُدافع عنها دِفاعاً مستميتاً؟ ومن أخبرها أن تجلس عليها في فصْل الربيع لا في فصْل الشتاء؟ فَمَن ألْهَمَها هذه العادات والتصرُّفات؟! ألَيس الله سبحانه وتعالى، وهذه الطيور كيف تتوالد؟ عن طريق البيض والولادة، فالأسْماك تبيض بيضاً، والحيتان تَلِدُ ولادةً، ففي الأسْماك مِبْيَض فيه ألوف الملايين من البيض، وفي المُستقبل تصبح هذه البيضة سمَكَة، وبعض الأسماك يُغادر أعالي الأنهار في أمْريكا مُتَّجِهاً إلى المُحيط الأطْلسي، وبعدها تعود الأسماك إلى مسْقط رأسِها لِتَضَعَ البيض هناك وتموت، فكلُّ حيوانٍ له طريقة في الولادة، وكُلُّ حيوانٍ جَهَّزَ الله ذَكَرَهُ وأُنْثاه بصِفاتٍ وعادات وأجْهزة وطِباع مُتباينة، فلولا هذا التفْريق والتمييز بين الذكر والأنثى لانْقَرَضَتْ الحيوانات! ولو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الحيوان الذي نأكله ثمَّ أكلْناهُ وانتهى الأمر، وبهذا انتهت حياة الإنسان فَنِظام التوالد هو الذي يحْفظ لنا حياتنا، والحيوان الذي نأكله ونركَبُهُ، والذي نسْتَخْدِمُهُ في اسْتِخْدامات شتى.

التوالد في النبات :

النبات كذلك فالذرة، هذا العَرْنوس كما يقولون في نِهايتِهِ خُطوط دقيقة، من مِنْكم يُصَدِّق أنَّ كل خيْطٍ من هذه الخُيوط هو أُنبوب مُفَرَّغ يتَّصِل بِحَبَّةٍ من حبات العَرنوس، وأنَّ غُبـار الطَّلع يَمُرّ في الأنبوب إلى ذرَّة الذرة، وفي داخل الأنبوب أهْداب وأشْعار تتَحَرَّكُ حَرَكَةً مُستمرَّة نحو الأسفل، من أجل أن تنقل حبات الطلع غُبار الطلع عبر هذا الأنبوب الدقيق الذي لا يُرى بالعَيْن، فمن جعل هذا النِّظام؟ ومن خلق في القمْح رشَيْماً، فهذا الموضوع يحْتاج إلى سنوات للإحاطة به، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة النجْم: 45]

نِظام التوالد في النبات من حمص وقمح وأشْجار مُثمرة، والرِّياحُ لواقح فلولاها لما انعَقدَتْ الثِّمار، من مِنْكم يُصدِّق أنَّ مُهمَّة إنتاج العسل في النحْل مُهمَّة ثانَويَّة بينما مُهمَّتُهُ الأساسية تلْقيحُ النباتات، النحْل يقوم بأخطر وظيفةٍ في الأرض وهي تلْقيح النباتات المُؤنَّثة والمُذكَّرة، ولولا هذه الحشرات وفي مُقدِّمَتِها النَّحْل لما انعَقدَت الثِّمار، والله سبحانه وتعالى يجعل بعض الثِّمار كالصَّنَوْبر والتين لا يُثمر إلا إذا لقَّحَتْهُ يدُ إنْسان، فالإنسان أحْياناً يُلقِّحُ أشْجار التين كي تُثمر، ولولا أنَّهُ يشتري أشْجاراً مؤنَّثة من التين كي يُلقِّحَها على أشْجارٍ مُذكَّرة لما انْعَقدَت الثِّمار ولما أكلتُم هذه الفاكِهَة، فربنا عز وجل حينما قال:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

نِظامُ التوالد والتكامل واللّقاح على مُسْتوى الإنسان والحيوان والنبات ولولا هذا النِّظام لما كنا نحن جميعاً على مُستوى سطْح الأرض، ولما أكلنا قمْحاً ولا خُبْزاً ولا طحيناً، ولا فاكِهَةً ولا لحْماً، فكُلُّ ما نتمتَّعُ به في حياتنا بِفَضْلْ:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

نظامُ التوالد والتكاثر والانقِسام والوراثة في الخلايا مُوَحَّدة :

لو دَقَّقْتُم في خلْق الإنسان، الجنين وهو في بطْن أمِّه كيفَ يتغَذى؟ وكيف يُصفي دَمَهُ؟ وكيفَ يُخَزِّنُ السُّكَّر؟ فالعلماء قالوا: المشيمة - وهي الخلاص الذي يرْميه الناس بعد الولادة - وهي قِطْعة من اللَّحْم مُمْتَلِئة بالدِّماء، من منكم يُصدِّق أنَّ هذه المشيمة تقوم بِدَوْر عَشْرة أجْهِزَة مُعَقَّدَة في الإنسان، فهي أوَّلاً تقوم بِدَوْرِ الرئتين لأنَّ رئتي الجنين مُعَطَّلتان إذْ ليس في الرحِمِ هواء والجنين لا يتنفَّسُ إنما دمُ الجنين يذهب إلى بُحَيْراتٍ من الدَّم في المشيمة ويتبادل وإياها الأكْسجين بِحَيْث يُعْطيها غاز الفحْم ويأخذ منها غاز الأكْسجين، والإعْجاز في كُرياتِ دمِ الجنين التي لا تختلط بِكُرَيات دَمِ المشيمة التابِعَةِ للأمّ، لذلك فزمرة الأمّ تكون زمرة، وقد يكون ابنها له زمرة أخْرى فهذه المشيمة تقوم بِدَوْر الرِّئتين للجنين، ثمَّ إنَّ هذه الأشْعار الدَّمَوِيَّة وهذه الشرايين الدمويَّة التي يُدْلي بها الجنين إلى المشيمة فيها أشْعار ماصَّة تمْتَصُّ الغِذاء من المشيمة، فهي تقوم إذاً بِوَظيفة الجِهاز الهَضْمي فالمشيمة تُؤمِّنُ للجنين كلَّ أنواع الطعام والمواد الغذائية والسكريات والنشَويات وما إلى ذلك، فَهُوَ يأخذ حاجته من المشيمة عن طريق أشْعارٍ ماصَّة مُتَّصِلَة بِشَرايين الجنين، فالمشيمة تقوم بِدَوْر جهاز الهَضْم للجنين، قال تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

ثمَّ إنَّ هذه المشيمة قد تأتيها الشُّحوم والدُّهون بِحَيْث لا تسْتطيع أن تصِلَ إلى شرايين الجنين، فالمشيمة تُحَوِّل بعض الدهون والشحوم إلى مُرَكَّباتٍ أبْسط، فالمشيمة تقوم بِدَوْر الكَبِدِ، كما تقوم هذه المشيمة

بدَوْر الطّحال فَهي مُستَوْدع للغذاء والدم لِصالح الجنين، والمشيمة تُفْرِزُ بعض الهرْمونات المُتَعلّقة في بُنْيَةِ الجنين، تَوْجيهُهُ نحو الذكورة والأنوثة، والصِّفات الثانَوِيَّة والفرْعِيَّة، هذه كُلُّها تتوَلاها هُرمونات تُفْرِزُها المشيمة، فهذه القطعة التي يرْميها الناس في الأرض، مَنْ مِنْكم يُصَدِّق أنَّها كائِنٌ مُعْجِز؟ رئتان ومعدة وأمْعاء، وغُدد صماء، وكبد وطحال، وغدة نُخامِيَّة تُفْرِز هرمونات، لو دَقَّقنا في خلق الله كيف تُصْبحُ هذه النطْفة إنْساناً سَوِياً هذا عند الإنسان وفي كُلِّ حيوانٍ، النِّظامُ مُوَحَّد، نظامُ التوالد والتكاثر والانقِسام والوراثة في الخلايا مُوَحَّدة، فهذه الأنظمة لا يتَّسِعُ المقامُ لِشَرْحِها مُفَصَّلةً ولكن يكْفينا قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

لولا هذه الآية لما كنا نحن الآن، ولما جلسْنا في هذا المكان، ولما كان لنا أهل وأوْلاد، وهذه الآية لا يسْتقِلّ بها الإنسان فَحسْب بل النباتات والحيوانات فالله تعالى خلق فَسَوى وقدَّر فهَدى، وجعل الحياة مُسْتَمِرَّة، كيف جعلها مُسْتَمِرَّة؟ عن طريق هذا التكاثر، كُلُّ هذا إذا فهِمْنا البلد الأرض وما فيها من حاجات، وإذا فهِمْنا أنَّ البلد، هي البيت الحرام، وبيْتُ الله الذي اتَّخَذَهُ الله تعالى لِنَفسه بيتاً ودعانا لِزيارته وأن نؤمَّهُ ونَحُجَّهُ، يكون قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

فسيّدنا آدم وذُرِّيَتَهُ، وقال بعضهم الآخر: سيّدنا إبراهيم الذي بنى هذا البيت وذرِّيَّته، وقال بعضهم الآخر: سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم الذي هو سيّد البشر وذُرِّيَّتَهُ، فَلِمَ التنكير في هذه الآية، ووالدٍ وما ولد، وما قال: والوالد الذي ولد قال هذا تنْكير التعْظيم وتنْكير العجَب.

طبيعة الحياة مجْموعة صُعوبات وهذه لِحِكْمَة أرادها الله عز وجل :

ثمّ قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

هناك كَبَد، وهذه حال أيْ خُلق الإنسان في مَشَقَّة، هناك حِكْمَةٌ بالغة وهي أنَّ الإنسان يكون في بادئ الأمر نُطفَة تُلقِّحُ بُوَيْضَة ينقسِمان في أنبوب بين المِبْيَض والرحِمِ إلى عَشْرَة آلاف جُزَيْء، فهناك مَشَقَّة أن تعْلَقَ هذه النطْفة على جِدار الرَّحِم، وهذه مَشَقَّة وصُعوبة، وكثيراً ما تُسْقِطُ النِّساء، وهناك نِساءٌ لا تعْلق هذه النطْفة المُلَقَّحَة على جِدار الرَّحِمِ ولذلك تنْغَمِسُ فيه، وينْمو لها أرْجل لِكَيْ تمْتَصَّ الغِذاء، ويُنْصَحُ للمرأة في هذا الوقت الحَرِج بعد الحَمْل بأيامٍ أنْ تعْتَنِيَ عِناية فائِقَة بحَرَكَتِها لِكي لا يسْقط الحَمْل، والولادة مَشَقَّة كبيرة، حَمَلَتْهُ وَهْناً على وَهْن، ووَضْعُهُ فيه صُعوبةٌ فائِقَة إذْ تتَحَرَّكُ عِظام

الحَوْض، وتتنَبَّهُ عضلات الرَّحِم تنَبُّها دوْرياً كي يخرج هذا الجنين من ضيق الرَّحِم إلى سَعَةِ الدنيا فلا بدّ من عِظامٍ تتَحَرَّك بأوامر زَمَنِيَّة ولا بدَّ من برْمَجَةٍ لهذه العَمَلِيَّة فقبل يوْمَيْن ينْقلبُ الغُلام، وبعد يوم يتَّسِعُ عظمُ الحَوْض، هُرْمونٌ يذْهب إلى الكبد لِيَطْرَحَ كَمِّياتٍ كبيرة من الدم في الشرايين، وهُرْمون آخر يصْنع الحليب، قضِيَّةٌ لا نُحِبُّ أنْ ندخل في تفاصيلها قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

ينزل إلى الأرض فإذا به يبْكي، كيفَ أنَّهُ يسْتنشِقُ الهواء؟ وكيف سَيَتَناوَلُ الغِذاء؟ وكيف سَيَلْتَقِمُ الثَّدْي؟ وكيفَ سَيُخْرِجُ ما في أمْعائِهِ؟ وهكذا تبدأ الصُّعوبات في الجنين صُعوبَةٌ بعد صُعوبة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

تنْتشر حرارته ويتغَيَّرُ مِزاجُهُ، ويتألَّم ويبْكي ويحارُ أهْلُهُ فيه، وإذا أراد أنْ يمْشي تلقَّى صُعوباتٍ أُخْرى، فإذا كَبِر دخل المدْرسة فهُناك صُعوبات المدْرسة والتعلُّم والوظائِف والمُعَلِّم، فالصُّعوبات تُلاحق الإنسان منذ أن تلقَّحَ البُوَيْضَة بالحيوان المَنَوي إلى أن يموت، أذْكر أننا كُنا بِجَنازة فلما دخلْنا المقْبرة ما وَجَدْنا أين ندفنه! أزْمَة قُبور، فَربنا عز وجل قال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

طبيعة الحياة مجْموعة صُعوبات وهذه لِحِكْمَة أرادها الله عز وجل، ولذلك إنَّ هذه الدنيا دار الْتِواء لا دار اسْتِواء ومنزل تَرَح لا منزلُ فرَح، فَمَن عَرَفَها لم يفْرح لِرَخاء، ولم يحْزن لِشَقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقْبى، فَجَعَل بلاء الدنيا لعَطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوَضاً، فَيَأخذ لِيُعْطي ويُعْطي لِيُجْزي، وأوْحى ربُّك إلى الدنيا أن تَكَبَّري وتَمَرَّري وتَضَيَّقي وتَشَدَّدي على أوْلِيائي حتى يُحَبوا لِقائي.

للآية التالية معنيان :

1 ـ طبيعة الحياة فيها مَشَقَّة لِحِكْمَةٍ بليغة أرادها الله وهي أنْ يُكْشَفَ الإنسان على حقيقته:

المعنى الأول قال المُفَسِّرون: فيه تسْلِيَةٌ لِرَسول الله، ألم يُعان من كُفارِ قُرَيْش ومُعارَضَتِهم صلى الله عليه وسلم، وتآمُرهِم وتكْذيبهم إياهُ، وإخْراجِهم إياهُ من مكَّة المُكَرَّمة، فَحينما عانى النبي صلى الله عليه وسلَّم ما عانى سلاهُ الله عز وجل وقال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فإذا أراد الإنسان أن يكون طبيباً، فَمَرْتَبَتُهُ الاجتماعِيَّة مقبولة، يحْرص أكثر من ثلاثين عاماً، فَهَل بَقِيَ في حياته بِقَدْر ما مضى؟! متاعب الدِّراسة وشِراء الأجْهزة، فالحياة مملوءَةٌ بالصُّعوبات، هذا إذا كان مُتَفَوِّقاً في دِراسَتِهِ وعلى مُسْتوى عالٍ من الذكاء، وإن تَخَرَّج دخل في متاعب أُخْرى في عدم إيجاد العَمَل، فربنا عز وجل لِحِكْمَةٍ بالغة كما قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

جعلها مجموعةَ من الصُّعوبات وجعل لِكُلِّ شيءٍ ثمناً، وجعلَ كسْبَ الحلال مُتْعِباً، قال عليه الصلاة والسلام:

((من بات كلاً في طلب الحلال، بات مغْفوراً له))

[ابن عساكر عن المقدام بن معد يكرب]

حِكْمَةٌ بالغة في جعْل الحياة صعْبة، وهذا الذي يتَزَوَّج، بعد الزواج إذا عاد إلى البيت ووجد حرارة ابنه مُرْتَفِعَة لا ينام الليل قلقاً على ابنه، يخْطُر في باله مرض عُضال، ويخْطُر في باله موتُ ابنه، إذاً مع أنَّ الطفل نِعْمَةٌ كبيرة إلا أنَّهُ يجْلبُ لأُمِّه وأبيه مجموعةً من المتاعب، وكذا بعد الزواج قد لا يكون وفاقٌ بين الزوْجَيْن، وقد تكون الزوْجَة عنيدة، ولا يتلاءم طبْعُها مع طبْعِهِ، وقد تنشأ مُشاحنات فما حِكْمة ذلك؟ قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

كُلُّ أنواع السيارات بأنواعِها بالطريق المُنْحَدِر تنْطلقُ بِسُرْعة، ولكنّ بالطريق الصاعِد يُمْكِنُكَ أن تعْرف السيارة الجيِّدَة من غير الجيِّدة، فلوْلا الطريق الصاعد لما عَرَفْتَ الجيِّدة من غيرها، ولذلك فصُعوبة الحياة تكْشف مَعْدن الإنسان، لولا الأزمات لما ظهر الحِلْم، فلا يظْهر الحِلْم إلا في الأزْمات، وأما الصبر فكيف يكْشِفُ الله عز وجل عبْدَهُ الصبور من عبْدِهِ اللجوج؟ بضائِقَة مُوَحَّدَة على الاثنين. ذكر لي صاحِبُ مصْنع فقال: هل تعْرِفُ المِقْلاة التي يوضعُ فيها الزيْتُ الحامي؟ فقال لي: أنا جالسٌ فيها، إذْ لا توجد موادٌ في المعْمل ولا بدّ أنْ أدْفع أُجور العُمال والضرائب، والإنتاج أصبح زهيداً:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

هذه المتاعب كُلّها من أجل أن نرْقى في الجنَّة، فلا جنَّة بلا متاعب، بها يظْهر يقينه بالله وصبْره وحِكْمته فهذا هو المعنى الأول.

2- خلق الله الإنسان بحاجَةٍ إلى ملايين الأشْياء ووَفَّرَها له حتى تظْهر يدُ العِناية الإلهيَّة:

المعنى الثاني أنَّ خلْقَ الإنسان بهذه الصُّعوبة وتوفير كُلِّ حاجاتِه، فلوْلا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الحاجة وخلق ما يُلَبيها لما عَرَفْتَهُ، ولو أنّ الله عز وجل خلقنا كالخشب الأصم بلا أجْهزة فلا حاجة للطعام والشراب والنوم، أنت مُحْتاج للنوم فَخَلَقَ لك صوفاً وقُطْناً لِتنام عليه، وأنت مُحْتاجٌ للطعام فَخَلَقَ لك طعاماً وفواكه وثِماراً وحُبوباً وبقولاً، وأنت مُحْتاجٌ إلى سائِلٍ تُحَلّلُ فيه هذه المواد فَخَلَقَ الماء وجعله عذْباً فُراتاً، وأنت بحاجَة إلى مواد قاسِيَة تصْنع بها حاجاتِك فَخَلَقَ لك الحديد، وأنت بحاجة إلى أرض تزْرَعُها فتنبُت فَخَلَقَ لك التربة ولم يجْعلها صخْراً، وخلق لك المواد النفْطِيَّة الخشب كي تُشْعِلَهُ فهو سبحانه خلق البرْد والطاقة والجوع والطعام والعطش والماء، ومن أجل الاستْمرار خلق الذَّكَر والأنْثى نِظامٌ مُتكامل، فالإنسان خُلِقَ بحاجةٍ إلى أشْياء كثيرة، وكُلُّ هذه الحاجات وفَّرَها الله سبحانه وتعالى من أجل أنْ تعْرِفَهُ، فلولا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق في هذا البلد الأرض كُلَّ حاجات الإنسان لكانت حياته شقاءً في شقاء، ولكنَّ هذا الشقاء تلاشى فهذا هو المعنى الثاني.

الإنسان كلما نظر إلى ضَعْفه ازداد قُوَّةً عند الله وكلما نظر إلى قُوَّتِه ازداد ضعْفاً عند الله:

المعنى الأول هو أنَّ طبيعة الحياة فيها مَشَقَّة لِحِكْمَةٍ بليغة أرادها الله عز وجل وهي أنْ يُكْشَفَ الإنسان على حقيقته وأنْ يظهر الكريم واللئيم والحليم والشحيح، وكُلُّ هذه المعادن التي ينطوي عليها البشر إنما تنْكشِف لأن الإنسان خُلق في كبد ومشقَّة، فالإنسان لو أراد أنْ يأكل وجْبَةً واحدة لاحتاج هذا إلى إعْداد وإلى ذهابٍ إلى السوق، وكذا إذا أردْتَ النُّزْهَة، أما المعنى الثاني فهو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بحاجَةٍ إلى ملايين الأشْياء، وهذه الأشياء كُلُّها وَفَّرَها له حتى تظْهر يدُ العِناية الإلهيَّة، وحتى يبْدُوَ للبشر أنَّ لهم خالقاً مُرَبِّياً عليماً خبيراً قديراً غَنِياً، والإنسان كلما كان أعْقَل نظر إلى ضَعْفِهِ وافْتِقاره إلى الله عز وجل بكُلِّ شيء، فلو كُنْتَ مُدَرِّساً نقول لك: لو شُرِدْتَ الذاكرة لما بقيتَ في التدْريس ساعَةً، يُجامِلونك أسبوع ثمَّ يجْعلونك مُتقاعِداً إذا كان لك خمسٌ وعشرون سنة، فإذا كنت تكسبُ قوتك من التدْريس فلولا هذه الذاكرة التي منَّها الله عليك لما كنت كاسِباً لِقوتِك، وكذا لو كنت كبيراً، فهذه القُدْرات المُخَزَّنَة في ذاكرتك الله سبحانه وتعالى يسْتطيع أنْ يسلُبُها منك في ثانِيَة، هذه المُسْتَشْفَيات التي تمتلئ بأناسٍ فقدوا عُقولَهم ألَيْسوا بشراً؟ وهذا البيت الذي اشْتَرَيْتَهُ، والذي رَتَّبْتَهُ وأحْسَنْتَ اخْتيار مَوْقِعِه، وفرَشْتَهُ بأجْمَلِ الأثاث، لو سَلَبَ الله لك عقْلَكَ لما أبْقاك أهْلُكَ في بيْتِكَ ساعَةً فَعَلامَ التكَبُّر؟ لو أن نقطةً من الدم تَجَمَّدَتْ في بعْض شرايين الدِّماغ لَفَقَدْتَ الحَرَكة وأصبَحْتَ عِبْئاً على الناس، هو مُحْتَرَمٌ بِقَدْر ما هو خفيف الظِلّ، جلس في الفراش وخدمهُ أهْلُهُ، واضْطروا إلى أنْ يُنَظِّفوه

في فِراشِه فبعد أُسْبوعٍ يبْدأ الملل، لي قريبٌ أُصيبَ بالفالِجِ فكانت خِدْمَتُهُ في الأسْبوع الأوّل من أرْقى الخَدَمات! وفي الأسْبوع الثاني تَململَ، وفي الأسْبوع الثالث أصبح هناك غِياب عن البيت، يسْأل عن فُلان فإذا به ليس في البيت، وفي الأسْبوع الرابع بدأ أوْلاده يغيبون عنه، فإذا أفْقَدَ الله لك الحَرَكَة أو الذاكرة أو نِعْمة البَصَر والسَّمْع والتوازن، إذ هناك جِهازٌ مُعَقَّدٌ جداً في الأُذُن لو اخْتَلَّ لما اسْتَطَعْتَ المَشْيَ وَحْدَك:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فالإنسان كلما نظر إلى ضَعْفه ازداد قُوَّةً عند الله، وكلما نظر إلى قُوَّتِه ازداد ضعْفاً عند الله.

اختلاف المؤمن عن غير المؤمن :

ثمَّ قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

هنا يختلف المؤمن عن غير المؤمن، فالمؤمن يرى افْتِقاره الدائِم إلى الله عز وجل، ولا يعتز بِقُواه العَضَلِيَّة، إذْ يعلم أنَّ الله تعالى يستطيع أن يسْلبَها منه في ثانِيَة، ولا يعْتَز بحِدَّة بصره، ولا برهافة سمْعه ولا يتباهى بذَكائِه، فكم من شخْصٍ عاد إلى بلده وهو يحمل شهادة الدكتوراه فإذا به يفْقِدُ عقْلَه ويُصبح في الطرقات! فالله سبحانه وتعالى قدير على أنْ يسلب صاحب الذكاء ذكاءه وصاحب القوّة قوّته، ويستطيع أن يحرم هذا الإنسان كُلّ الطعام بمَرَضٍ عُضال في الأمعاء، فالإنسان تحت رحمة الله، وكُلُّ جهازٍ من أجْهِزَتِهِ يعْمل بِقُدْرة الله فلو عَطَّل الله تعالى الأجْهِزة تنْقلب حياة الإنسان جحيماً، والله جلسْتُ مع إنْسانٍ، شَعَرْتُ أنَّ له هُموماً لو وُزِّعَتْ على أهْل بلَدٍ لَكَفَتْهُم، فَكُلْيَتاهُ مُعَطَّلتان عن العمل، وعليه أنْ يذهب إلى المُستشفى مرَّتين كُلّ أُسبوع ويدفع المبالغ الطائلة، وينتظر دَوْرَهُ الساعات الطويلة، ويجْلس تحت الكُلْيَة الاصْطِناعِيَّة أربع أو خمْس ساعات، ولم يعد يحتمل!

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فالإنسان لو دخل بيْت الخلاء وخرج، النبي الكريم كان يقول دعاء:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي))

[ابن ماجه عن أنس بن مالك]

لو تعَطَّلَتْ هذه الكُلْيَة فما العمل؟! تصبح الحياةُ جحيماً، وكذا لو تعطَّلت بعض الأجهزة، فهذه الآية:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

فالمُتَكَبِّر أحْمق، والمُعْتَدّ بِقُوَّتِهِ غَبِيّ، فمن أنت؟ مهما كان الإنسان عظيماً فقد يسْلِبُهُ الله شيئاً من صِحَّتِهِ فَيُصْبِحُ عاجزاً، والقِصَّة المشْهورة وهي أنَّ أحد المُلوك سأل وزيرهُ وقد طلب كأس ماءٍ فقال له الوزير:

يا أمير المؤمنين بِكَم تشْتري هذا الكأس لو مُنِعَ عنك، فقال الأمير: بِنِصْفِ ملكي، فقال الوزير: وإذا مُنِعَ إخْراجُهُ، فقال الأمير: بِنِصفْ مُلْكيَ الآخر، فقال الوزير: إنَّ مُلْكَكَ يعْدِلُ هذا الكأس من الماء:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

الله قادرٌ علينا في الدنيا والآخرة وفي أيَّةِ لحْظةٍ من لَحَظاتِ حياتنا كيْ يُرينا ضعْفنا :

إذا كان تحت يَدِكَ غُلامٌ يعْمل في مَحَلِّكَ فلا تظْلِمْهُ ولا تسْتعْل عليه، ولا تسْتغِلّ حاجتك منه وتُخَوِّفْهُ بالطَّرْد، فعن أحد أصْحاب سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يضْرب غُلامه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: اِعْلَم أبا ذرّ أنَّ الله أقْدر عليك منك عليه، فإذا كان لأحدنا زوْجة جيِّدة فلا يسْتعل عليها، فإن كانت بلا أهْل ومقطوعة، فأقلُّ كلمة تزعجها، وقد كان أحدهم يأتي دائِماً في الساعة الثانِيَة صباحاً، فقال له أهله: نحن أهْلك وأحق بالسَّهر معك، فقال لزوجته: اِفْتَحِي الدُّرْج وخُذي حاجاتك ومع السلامة!

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

أحْياناً المال يكون عَدواً للإنسان، وهو يُعْطي عظمة فارغة، وتضَخُّماً لا قيمة له، فالله قادرٌ عليك في الدنيا وفي الآخرة، وفي أيَّةِ لحْظةٍ من لَحَظاتِ حياتك، كيْ يُرِيَكَ ضعْفَكَ، وهذا الإنسان يقول:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

أنا أقَمْتُ عُرْسي بالفُندق الفُلاني، ودَفَعْتُ ثمانين ألف ليرة، أنا أقمت حفْلةً كَلَّفَتْني كذا. ربنا عز وجل قال:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

فُلانٌ لا يَعُدُّ ماله ولكنَّهُ يزِنُها بالميزان.

الإنسان مرْزوقٌ من الله عز وجل إذ يسوق الناس إليه :

ثمَّ قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

حينما جمع هذا المال، ألَيْسَ الله يراهُ كيف جمعَهُ ومن أين؟! بالكَذِب والحرام والغِشّ والربا والغصْب، ألا يعْلم أنَّ الله يراهُ بالمِرْصاد، وهناك معنى آخر أَيَحْسَبُ الإنسان وقد جمع هذا المال أنْ لم يرهُ أحدُ، وأنَّ جمْعَهُ للمال تمَّ بِفَضْل الله، وتوْفيق الله ونِعْمته، كم من إنْسانٍ مُتَّقِدٍ ذكاءً ولا يمْلكُ قوتَ يومِهِ:

ولو كانت الأرزاق تجْري مع الحِجا هَلَكْن إذاً مِن جهْلِهِنَّ البهائِمُ

* * *

فالإنسان مرْزوقٌ من الله عز وجل، إذ يسوق الناس إليه، فلو أنَّهُ صَرَفَهُم عنه فماذا يفعل؟ يُغْلِقُ المحلّ ويضَعُهُ بِرَسْم التسْليم، فمن جعل الناس يُقْبِلون عليه؟! كسْبُ المال بِفَضْل الله، والشيءُ الآخر أنَّ الله تعالى يعْرف كيف كسِبْتَ هذا المال؟ فإذا قلتَ: أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً فهذا كلام لا يقوله إلا الجاهلون، ولذلك إنْ أنْفَقوهُ أنْفَقوهُ إسْرافاً وتَبْذيراً، وإنْ منعوه مَنعوه بُخْلاً وتقْتيراً،

أحبُّ ثلاثاً وحُبي لِثلاث أشَدّ: أُحِبُّ الطائعين، وحُبي للشاب الطائع أشدّ، وأُحِبُّ المتواضِعين، وحُبي للأغنياء المُتواضِعين أشدّ، وأُحِبُّ الكُرماء، وحُبي للفقير الكريم أشدّ، وأبغضُ ثلاثاً وبُغْضي لِثلاث أشدّ؛ أبغض العُصاة وبُغضي للشيخ العاصي أشدّ، وأبغض المُتَكَبِّرين، وبُغْضي للفقير المُتَكَبِّر أشَدّ، وأبْغضُ البُخلاء وبُغْضي للغني البخيل أشدُ،

قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً *أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

كيف جمع المال؟ وكيف أنْفَقَهُ؟ وبِأيِّ أُسْلوبٍ صار إليه؟ عن طريق الكذب أو الغِشّ أو الخِداع أو السرِقة والاغْتِصاب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -20 خلق الإنسان ولوازم الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى رقيبٌ على كُلِّ إنسانٍ وهو لِكُلِّ إنْسانٍ بالمِرْصاد :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي في تفسير سورة البلد إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ* فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الله سبحانه وتعالى بعدما حَدَّثنا عن هذا الإنسان الغافل الذي يحْسَبُ أنْ لن يقْدر عليه أحد يظُنُّ أنَّهُ لا حِساب ولا مسْؤولِيَّة ولا جزاءَ، وأنَّ القَويَّ يأكل حقَّ الضعيف وقُضِيَ الأمر، وأنَّ الضعيف يُؤْكَلُ حقُّه! هذا الذي يحْسَبُ أنَّهُ لن يقْدِرَ عليه أحدُ، يُنْكِرُ الله سبحانه وتعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

[سورة البلد: 6-7]

أيْ أنَّ الله تعالى رقيبٌ على كُلِّ إنسانٍ وهو لِكُلِّ إنْسانٍ بِالمِرْصاد، فَيَرى كيف كَسَبَ المال؟ وكيف أنْفَقَهُ؟ ومن أين جمعهُ؟ وكيف تاهَ على عِباد الله؟!!

العين من آيات الله الدالة على عظمته :

ثمَّ يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

فَهَل فَكَّرْتَ أيُّها الإنسان في هاتَيْن العَيْنَيْن؟ أوَّلاً هذه العَيْن وضَعَها الله عز وجل في مغارة سَماها العلماء الوَقْد، على طرفِها عظْمُ الأنف وفي أعْلاها نُتوء الجبْهَة، ونُتوء الجبْهَة يحْميها من الصَّدمات، ومن أشِعَّة الشمْس الحادَّة ومن التعرُّض لها، وهذه العَيْن موْضوعةٌ على وسائِد شَحْمِيَّة ودِهْنِيَّة وهذه الوسائد تقيها الارْتِزاز، وهذه العَيْن خلقها الله عز وجل في رَحِمِ الأمّ، فهناك الضَّوْءُ مُنعدِمٌ، والعَيْنُ لا ترى إلا بالضَّوْء وكأنَّ الله سبحانه وتعالى أعدَّ الإنسان وجَهَّزَهُ بما يحْتاجه بعد خُروجِهِ من بطْن أُمِّهِ فأيَّ طبيعَةٍ عَمْياء شَكَّلَتْ هذا الجنين؟! هذا كلامٌ لا يقْبَلُهُ عَقْلٌ! فالضَّوْءُ ترى به العَيْن، وكذا الأذُن تسْمَعُ

عن طريق الصوت، فلا سمْعَ بلا صَوْت ولا نظر بلا ضوء، قال بعض العلماء: هذه العَيْن التي أوْدَعَها الله في الإنسان مُؤَلَّفَةٌ من طبقاتٍ ثلاث: الطبقةُ الأولى: هي الطبقة القرْنِيَّة المتينة، والطبقةُ الثانِيَة: هي الطبقة المشيمِيَّة التي تُؤَمِّنُ تغْذِيَة العَيْن بمئات ألوف الشرايين والأوعِيَة والشَّعْريات، والطبقة الثالثة: هي الشَّبَكِيَّة التي تتلقى الإشْعاعات الضَّوْئِيَّة، فصار لدينا طبقة قرنِيَّة ومشيمِيَّة وشبَكِيَّة، وهذه الطبقات على مُسْتوى العَيْن كَكُرَة، أما في مُقَدِّمة العَيْن فَشَيْءٌ لا يُصَدَّق، أوَّلاً الطبقة القَرْنِيَّة والتي هي في مُقَدِّمَة العَيْن شَفافَةٌ تماماً، وليس في جِسْم الإنسانِ نسيجٌ مهما كان نوْعُهُ إلا ويَتَغَذى عن طريق الشَّعْريات إلا قَرْنِيَّةُ العَيْن فَمِن أجل أنْ تكون شَفافة مئة بالمئة فَهِيَ تتغَذى بِطَريقَةٍ فريدة، وهي طريقة الحُلول، فالقَرْنِيَّة الأولى تأخذ الغِذاء وتُعْطيهِ جارَتِها عن طريق الحُلول لا عن طريق الشَّعْريات من أجل أنْ تكون قَرْنِيَّة العَيْن شَفافة مئة بالمئة، وقد َشَبَّهها بعضُهم ببلورة الساعة، وقد يظن أحدُنا أن قرنية العين طبقة شفَّافة، إنها خمس طبقات شفافة الطبقة، فالوسطى تتألف من خمسين صفيحة شفَّافة متراكبة بعضها فوق بعض لتُؤَمِّن الرؤية الصحيحة، ولا يعلم سرَّ تكوُّنها من خمس طبقات إلا الله تعالى، وهذه قرنية العين، فماذا بعد القرنية؟ بعدها سائل اسمه الخلط المائي، حجمه لا يزيد عن سنتيمتر واحد مكعب، وهذا السائل يؤَمِّن توازن كرة العين، ولولا هذا السائل لفقد الإنسان رؤيته، فمن منَّا يُصدِّق أن هناك آلاف الشرايين المائية التي تبدِّل هذا السائل الذي يقع خلْف القرنية باستمرار، وهو الذي يقوله العوام: المَيَّاه الزرقاء! له كثافة مُعَيَّنة يحْفظ بها توازن قَرْنِيَّة العَيْن، فلو ازْداد ضغْطه أو قلّ لانْعَدَمت الرؤية.

المُطابقة في العين يعْجَزُ عنها أكبر علماء الأرض :

ماذا يأتي بعد هذا السائِل، أو الخلطُ المائي؟ تأتي القُزَحِيَّة وفلان عَيناه زرْقاوان، وفلان عينان عَسَلِيَّتان، وهذا سَوْداوان، القُزَحِيَّة فتْحَةٌ بعد القَرْنِيَّة تضيقُ وتتَّسِع، فمِن أجل أن تضيق هذه الفَتْحة أو تتَّسِع، من منا يُصَدِّق أنَّ هناك عضلات دائِريَّة، وهناك عضلاتٌ شُعاعِيَّة، فالعَضلات الشُّعاعِيَّة تتَّصِل بعَصَبٍ، والعضلات الدائِريَّة تتَّصلُ بعَصَبٍ آخر، عَصَبٌ وُدِّي وعصَبٌ نظيرُ الوُدِّي، فمِن تأثير هذين العَصَبَيْن تُفْتَحُ هذه الفتْحَة، فالإنسان إذا دخل إلى غُرْفَةٍ مُظْلِمَة، وكان بيَدِهِ مرآة، لو نظر إلى عَيْنَيه قبل أنْ يدخل إلى هذه الغرفة لرأى حَدَقَتَهُ صغيرةً صغيرةً، فإذا دخل إلى الغُرْفَة رآها تتَّسِعُ من دون حَوْلٍ منه ولا قوَّة ومن دون إرادةٍ، فاتِّساعُ الحَدَقَة وضيقُها يتِمُّ بِشَكْلٍ لا إرادي، وبِتَوازُنٍ عجيبٍ بين عَصَبَيْن يعْمَلان عملاً مُتكامِلاً، الواحد مُرْتَبِطٌ بالنوم فإذا اشْتَدَّ تأْثير هذا العَصَب تَضيقُ الحَدَقَةُ شيئاً فشيئاً ويضْعُفُ النور، والآخر يتَّصِف بالنَّشاط والحَيَوِيَّة، وعلى كُلٍّ فالعَيْنُ تزيدُ وتنْقُصُ بِحَسَبِ شِدَّة الضوء،

فهذا الذي نعْرِفُهُ من قبل، ولكنَّ العلماء اِكْتَشَفوا أنَّ فتْحَة القُزَحِيَّة تكْبر وتصْغُر بعامِلٍ آخر وهو بُعْد الإنسان وقُربه عن الشيء المرئي، فلو ابْتَعَد الشيء كثيراً تزْداد الفَتْحة كي تأخذ الكَمِيَّة الكبيرة من الضوْء وإذا اِقْتَرب تضيقُ الحَدَقة، تطابُقٌ يعْجز عنه الإنسان يجْري في العَيْن من حيثُ فَتْحَةُ القُزَحِيَّة ضيقاً واتِّساعاً بِحَسَبِ شِدَّة الضوء، فالإنسان إذا أمسك آلة تصْوير وأخْبروه أنَّ هذه الآلة بِحَسَب الضوء تضيقُ فتْحَتُها أو تزْداد بِشَكْلٍ أوتوماتيكي تراهُ يعْجَبُ عجَباً شديداً ما هذا الاخْتراع العجيب؟! وهذه آلاتٌ نادرة، لكن مُعْظَمُ الآلات أنت الذي تُقرِّر كم تكون الفَتْحَة بِحَسَب شِدَّة الضوء، لكنَّك إذا اطَّلَعْتَ على آلة تصْويرٍ تعْمل ذاتِياً لَدُهِشْتَ! فكَيْفَ يفوتُك أنَّ هذه العَين التي تحْمِلُها تتَّسِعُ حَدَقَتُها وتضيقُ بِحَسَب شِدَّة الضَّوْء أو بِحَسَب قُرْبك من الشيء المرْئي وأنت لا تشْعر، وكيف تَتِمُّ هذه الآلِيَّة؟! بِشَكْلٍ مُعَقَّدٍ جداً! مجْموعة عضلاتٍ دائِرِيَّة بعْضُها أكبر من بعض، ومجموعة عضَلاتٍ شُعاعِيَّة كُلُّها مُتشارِكة، يأتمر بعضُها بِعَصَب، فإذا تقلَّصَت العضلات الدائِرِيَّة ضاقتْ فتْحَةُ العَين وإذا انْطَفَأتْ اِتَّسَعَتْ، فسبْحان الخلاق العليم، ماذا بعد القُزَحِيَّة؟ يأتي جِسْمٌ بِلَّوْري هو العَدَسَةُ في العَيْن، وليْس في الكون كُلِّهِ عَدَسَةٌ تُشْبِهُ هذه العَدَسَة إطْلاقاً، إنَّها عَدَسَةٌ مَرِنَة يُحيطُ بها جِسْمٌ هُدْبي له مئة وعشرون عضَلَة مربوطة بِأطْراف العَدَسَة، وهذه العضلات إذا تقلَّصَتْ شَدَّتْ الجِسْم البِلَّوْري فقلَّ احْتدابُه، وإذا اسْتَرْخى ازْداد اِحْتدابُه، الجِسْم البِلَّوْري، لماذا كان هذا الجِسْمُ البِلَّوْري مَرِناً؟ ولماذا يزْداد اِحْتدابُه ويَقِلُّ أو يتقطَّع؟ لأنَّ الإنسان إذا كان الشيء الذي يراهُ بعيداً عنه فقد يقعُ الخيال قبل الشَّبَكِيَّة أو بعْدَها، فَمِنْ أجْل أنْ يقع خيالُ كُلِّ شيءٍ أمام عَيْنَيْك على الشَّبَكِيَّةِ تماماً لا بدّ من مُطابَقة، وهذه المُطابقة يعْجَزُ عنها أكبر علماء الأرض، إذاً نحن نعْجَزُ عن فَهْمِها فكَيْفَ بِصُنْعِها؟!!

إعجاز الله في خلقه :

المُطابَقةُ شيءٌ لا يُصَدَّق فحينما تبْتَعِدُ الكُرة، وحينما يقْذِفُ اللاعِبُ الكُرَةَ بعيداً، فالمسافة ازْدادَتْ، فلَو أنَّ الجِسم البِلَّوْري صلبٌ فلا يرى الكرةَ إلا في حالةٍ واحدة وعلى مسافةٍ واحدة، أما إذا ازْدادَتْ أو قَلَّتْ فتنْعَدِمُ الرؤية وتُصْبِحُ ضبابِيَّة غير دقيقة، لكنَّ الجِسْم البِلَّوْري حينما تبْتَعِدُ فكأنَّ هناك عقْلاً عظيماً قاسَ المسافة بينك وبين الكُرة ثمَّ ضغط على العضلات الهُدْبِيَّة التي تقلَّصَتْ وضَغَطَتْ على الجِسْم البِلَّوْري فازداد اِحْتدابُهُ فوَقَعَ الخيال على الشَّبَكِيَّة، فيا تُرى هل رأيْتَ الشيء قبل أنْ تحْسَبَ المسافة؟ أم حسِبْتَ المسافة قبل أنْ ترى الشيء؟ هذا شيءٌ لا يسْتطيعُ العقْل تصْديقهُ إلا أنَّهُ واقِعٌ، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد: 4]

هذا العمل المُعَقَّد ـ أنا أقول لكم ـ لو أعْطَيْنا عَدَسَة مرنَة لِدُكْتور في الضوء وأمْسَكْنا شمْعَةَ وَحَرَّكْناها حركةً عَشْوائِيَّة وقلنا لهذا الدكتور: أنت بِكُلِّ ما أوتيتَ من عِلْمٍ وفَهْمٍ اِضْغَط على هذا الجسم من أجل أنْ يكون خيال هذه الشمْعة باسْتِمْرار يقول لك: لا أعرف، وإذا عَرَفْتُ فلن أسْتَطيعَ مُتابَعَة الحركة، كَيْفَ يتِمُّ التطابقُ في العَيْن؟ هذا الجِسْم البِلَّوْري بعد الأرْبعين يفْقِدُ بعض نشاطه وتقِلُّ مُرونته فَنَحْتاجُ إلى هذه النَّظارات! وقبل الأربعين ترى الشيء قريباً وبعيداً ولكن بعد هذه السِنّ يُصبح أقلّ مرونة ويتصلَّب، فلا تسْتَطيع أنْ ترى الأشياء القريبة والكلمات الصغيرة، هذا الجِسم البِلَّوْري قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

المخاريط والعصيات والحكمة من وجودها في العين :

هذه القَرْنِيَّة المتينة من أمْتَن الأنْسِجَة، فأحْياناً اللَّحام بسِكِّينه الحادَّة لا يسْتَطيعُ قطْعَ القَرْنِيَّة التي هي شفافة ومُؤَلَّفة من خمْس طبقاتٍ مُتراكِبَة وبينها خمْسون صفيحة، وبعدها خلْطٌ مائي بِكَثافَةٍ مُعَيَّنة وبِنِسَبٍ مُعَيَّنة يتِمُّ تجْديدهُ باسْتِمْرار عن طريق آلاف الشرايين المائِيَّة، وبعد هذا الخلْط المائي قُزَحِيَّةٌ تكْبر وتصغُر بِعَمَلِيَّة لا إرادِيَّةٍ فوق طاقة البشر، وتتأثَّرُ بالضَّوْء والمسافة، وبعْدها تأتي العَدَسَة المَرِنَة المُحاطة بِمِئة وعشرين عَضَلَة تضغط وتسْتَرْخي بحيث يقعُ الخيال على الشَّبَكِيَّة دائِماً، وبعد هذا الجِسْمُ البِلَّوْري يأتي الخلْطُ الزُّجاجي، وكُلُّها أوْصافُ شفافة يخْتَرِقُها الضوء إلى أنْ يصل إلى مكانٍ اسمُهُ الشَّبَكِيَّة، وإلى بؤرةٍ ضَيِّقَةٍ جداً اسمُها البؤرة الصَّفْراء، يجْتمع هناك مئة وثلاثون مليون مخْروط وسبْعَة ملايين عُصَيَّة! لمَ المخاريط ولمَ العُصَيات؟ المخاريط من أجل اسْتِقْبال الألوان والإضاءة الشديدة، والعُصَيَّات من أجل اسْتِقْبال اللَّوْن الضعيف والألوان البيْض والسَّوْد، فهي لا ترى إلا الأبيض والأسود والرَّمادي مع الضوء الباهت، وفي المخاريط ترى الإضاءة الشديدة مع الألوان، مئة وثلاثون مخْروطاً وسبْعَةُ ملايين عُصَيَّة.

القُدْرة على الإبْصار ترْتفعُ من واحد إلى خمسمئة إلى خمْسة آلاف إلى عشْرين مليون ضِعْف، والعلماء اكْتَشفوا أنَّ هناك حيوانات كثيرة كالقِطط والكلاب ليس في شَبكاتها إلا العُصَيَّات! فهي لا ترى إلا الأبْيض والأسْود قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

فلو أنَّك ترى الأبيض والأسْود والرماديّ فقط فما قيمة هذه الأزهار؟ وزُرْقة السماء والبحْر؟ وما قيمة هذه الألوان الزاهِيَة؟ كُلُّ هذه الألوان التي خلقها الله في الأرض المُمْتِعَة الجميلة لا قيمة لها لو حُذِفَتْ من شَبَكِيَّة العَيْن المخاريط وبَقِيَتْ العُصَيَّات، سَترى ولكنَّك ترى الأبيض والأسْود فقط! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في ثمانِيَ عشرة آية ذكر السَمْع والبصر :

والله الذي لا إله إلا هو لو فَكَّرْنا في العَيْنَيْن وحدهما لذابت نُفوسُنا خَوْفاً وخُشوعاً وتعْظيماً، يا رب لمَ خَلَقْتَ لنا عَيْنَيْن؟ فماذا لو خلقْتَ لنا عيْناً واحدة كما خَلَقْتَ لنا قلْباً واحِداً؟! بالعَيْن الواحِدة لا ترى إلا المُسَطَّحات، أما بالعَيْنيْن فترى الحُجوم، وبالعَيْن الواحدة ترى الطول والعرْض، وبالعَيْنَيْن نرى الطول والعرض والبُعْد، والتَّجْربة سهْلة في هذا، فلو حاوَلْتَ أن تضع الخيط في الإبرة بعَيْنٍ واحدة لأدْخَلْتَ الخيط عن بُعْد عشرة سنتمتر ظناً منك أنَّك تُدْخِلُهُ في الثُقب!! لكن بالعَيْنَيْن تكْشِفُ المسافة التي هي العُمْق، ولولا العيْنان لما قدَّرْتَ المسافات فأربع أخْماس حركاتنا مشْياً أو ركضاً أو قِيادَةً، ألم نجْعل له عيْنين؟ وبالمُناسبة فالله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في ثمانِيَ عشرة آية ذكر السَمْع والبصر، وفي سبْعَة عشرة آية حصْراً ذكر السَّمْعَ قبل البصر! والشيء الثابت عِلْمِياً أنَّ حاسَّة السَّمْع تتشَكَّلُ قبل حاسَّة البصر، وأنَّ الجنيـن يسْمعُ بعض الأصوات وهو في بطْن أمِّه، وأنَّهُ يسْتجيبُ للأصْوات بِحَركاتٍ وهو في بطْن أمِّه ولكنَّهُ لا يسْتجيبُ للضَّوْء إلا بعد الولادة، ولذلك في سبعة عشرة آية قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

[سورة المؤمنون: 78]

وفي آيةٍ واحدة قال تعالى:

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

[سورة السجدة: 12]

لأنَّ الضَّوء سُرْعَتُهُ ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانيَة أما الصوت فَسُرْعَتُهُ ثلاثمئة وثلاثون في الثانِيَة، أنت ترى البَرْق قبل أنْ تسْمع الرَّعد مع أنَّهما يخْرُجان في وقْتٍ واحد، ترى البرْقَ أوَّلاً وتسْتَمِعُ إلى البرْق ثانِياً، ربنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا.

هناك أمْرٌ آخر، وهو أنَّ ربنا ركَّز على السمْع والبصر في القرآن بشكل واضح بخلاف الشمِّ والإحساس والحرارة والضغط والبرودة والألم والذوق، لقد ذُكِرت ولكن بشكل قليل.

مَنْفَذُ القلب هو السمع و البصر مُغْلَق بحبِّ الدنيا :

قال بعضهم: إن السمع والبصر هما نافذتان تطلُّ بهما على العالم الخارجي وعن طريقهما تتلقَّى الحالة الراهنة المرئية والمسموعة، ومن خلال السمع والبصر ومن خلال هذا التقرير تستطيع التكيُّف في الحياة، ومن خلال السمع والبصر تُكتَسب المعارف، فلا نطق بلا سمع ولا كتابة بلا بصر، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة البقرة: 6-7]

منفَذُ القلب ختمه حكماً، لأن مَنْفَذَ القلب هو السمع و البصر مُغْلَق بحبِّ الدنيا، هذا عن قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

وهناك أشياء كثيرة في العين، فهذه الأجفان التي تعمل بشكل دقيق، ست عشرة حركة في الدقيقة، مع عشرين إلى ثلاثين فوهة من فوهات الغدد الدَّمعية مُركَّزة في أعلى الأجفان من أجل تطهير العين وتسهيل حركة الأجفان وتعقيمها وجعلها برَّاقة جميلة، وهناك قناة دقيقة جدّاً هي القناة الدَّمعية التي تصرِّف الدمع الذي ينهمر من الغدد، فإن كان الدمع المنهمر أكثر من طاقة التصريف فاض الدمع، وهذا الذي قاله الله تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

[سورة المائدة: 83]

بالسمع والبصر والأفئدة تُكتَسب المعارف :

البكاء ليس هطول الدمع ولكن البكاء فيضان الدموع، وهذه القناة الدمعية لو أنها سُدَّتْ لأصبحت حياتُنا لا تُطاق فلا بدَّ من مسح هذا الدمع كل دقيقة لئلا يحفر الدمع طريقاً في الجلد فيلتهب الجلد لأن الدمع مادة قلويَّةٌ مُذيبة فلو أن إنساناً دخلت في عينه حبة رمل لذابت بعد ساعات، من خلق هذه المادة التي تذيب هذه الحبَّات وتذيب كل شيء، حتَّى أن هناك بعض المواد أكثر صلابة من الرمل وتذيبها هذه المادة وتسهّل حركة الأجفان، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

من منا يشكر اللهَ على عينيه؟! هذه الحواجب التي تحجُب الشمس وأشعَّتها الحادَّة وتعيق العرق عن العين وتجعل الإنسان في منظر حسن قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

هذا المكان المحمي وهذه الوسائد التي تستريح عليها العين وهذه العضلات الجانبية والعُلوية والسُّفلية والإنسية والوحشية والمائلة لتحريك العين، وهذا العصب البصري من ثقب له في قعر العين حفرة، لابدَّ من مهندس، فحينما ترى ثقباً كبيراً في جسم السيارة يمرّ فيه خيط كهربائي، فلا بدَّ من مهندس، قبل تركيب الكهرباء في السيارة قد صممَّ هذا الثقب ليمرَّ فيه هذا الخيط، كذلك في قعر العين ثقب يمرُّ فيه العصب البصري فيه خمسمئة ألف عصب بصري، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

معنى ذلك فبالسمع والبصر والأفئدة تُكتَسب المعارف.

لا بد للعين من أربعة أشياء حتَّى تبصر :

ربنا عز وجل قال عن هذا الإنسان الذي يقول: لن يقدر عليَّ أحدٌ، هذا الذي يرى نفسه فوق البشر، هذا ألم نجعل له عينين؟ هو الذي صمَّمهما، فالإنسان إذا اغتنى أو أصبح ذا شأن بفضل ماله، يرى نفسه فوق الناس ويقول كما قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

يقول أحدهم: كلّفني زواج ابنتي في الفندق ثمانين ألفاً في حفلة واحدة، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

لماذا حسب ذلك، لأنه لم يفكّر في عينيه، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

السياق في الآيات، لماذا قال الله تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

ولماذا يظن أنه لن يقدر عليه أحد؟ لأنه لم يفكّر في عينيه:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

هناك شيء آخر، وهو أن العين لا بدَّ لها من أربعة أشياء حتَّى تبصر وإلا لا ترى، لا بدَّ من شدَّة ضوء، فبدون الضوء لا ترى العين، ولا بدّ من طول الجسم الكافي فهناك حجم إذا قلَّ لم تبصره العين، ولا بدَّ من وقتٍ كافٍ يبقى فيه الخيال في الشبكية، ولا بدّ من طول موجةٍ بحدٍّ أدنى حتَّى ترى العين، ولذلك نحن لا نرى الأشعَّة فوق الحمراء ولا تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية، فإذا وضعتَ مرآة داخل

وعاء فيه ماء صاف ووضعت الوعاءَ في الشمس فإنه يرى سبعة ألوان في الحائط، فموضوع الألوان موضوع حيَّر العلماء، فما اللون الأبيض؟ هو ضوء سُلِّط على شيء فعكسَه كله، فما دام أن هذا الشيء عكس الضوء كله فهو أبيض، وما هو اللون الأسود؟ شيء امتصَّ الضوء كلَّه، ومادام أنه امتصَّ الضوء كلَّه فهو أسود، وإذا امتص بعضه وردَّ بعضه فهو رمادي، وإذا امتصه كلَّه عدا الأزرق فهو الشيء الأزرق والشيء الغريب أنك تقول إن هذا الشيء أخضر، وليس هو الأخضر، إنه امتصَّ الألوان كلَّها إلا الأخضر فلا لون بلا ضوء، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن)

فلولا ضوء الشمس فما قيمة هذه العين؟! ولولا العين فما قيمة ضوء الشمس.

اللسان أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْن*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن)

طبعاً، القرآن حمَّالُ أوجه، أي ألم تر هذه السموات والأرض بعينيك، وألم تر بعينيك الشمس والقمر، ألم تر الجبال والصحارى والسهول والبحار والأنهار، ألم تر الأزهار والأشجار، ألم تر الطيور والأسماك؟ وألم تر نفسك في المرآة؟ ألم تر ابنك؟

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن)

هناك آيات كثيرة في الأرض، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

تملك العينين وإن كنتَ لم تر هذه الأشياء، أي لم تر حقيقتها قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْن*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن)

لِمَ لمْ تسأل باللسان؟ فالسؤال نصف العلم، ومفتاح العلم السؤال، وهذا اللسان يلفظ ثمانية وعشرين حرفاً، وفي كل حرف تسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، اللسان مؤلَّف من سبع عشرة عضلة، تأخذ أوضاعاً معيّنة فيظهر حرف الدال، وهذا يعرفه علماء التجويد فمخارج الحروف وصفاتها وقوَّتها وهمسها وصفيرها وشدَّتها ورخاوتها وعلوّها، وما شاكل ذلك؛ فهذا اللسان الذي ينطق، إذا كان كل حرف سبع عشرة عضلة، والكلمة فيها خمسة حروف فينتج حوالي ثمانين حركة عضلة، فكم حركة عضلة ساهمت في صنع هذا الدرس؟!

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن)

بالبيان يتصِّل الإنسان

قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

أحياناً الطفل يبكي، فتظن أنه جائع فلا يأكل، أو تظن أنه يحتاج إلى تغيير الملابس فتجده نظيفاً، وتحتار لبكائه، وبعدها تجد دبوساً في رجله، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

بالبيان يتصِّل الإنسان، فالآن هناك اتصال بيننا، اتصال لغوي، حتى أن تعريف اللغة: هي أداة اتصال بين أفراد النوع، وهذا تعريف اجتماعي، وهناك تعريف نفسي: فاللغة أداة يعبِّر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره، وهناك تعريف بيولوجي أن اللغة مقاطع صوتية يعبَّر بها عن الفكر والعاطفة، فاللسان شيء ثمين، وفوق أنه أداة للتكلم فهو أداة للذوق، الحلو في المقدِّمة والمرُّ في المؤخِّرة والحامض والمالح على الأطراف، وهناك تسعة آلاف حُلَيْمة، وكل حُلَيْمة فيها مئة وتسعون بؤرة تتلقَّى المواد الكيماوية، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أبردوا بالطعام فإن الحار لا بركة فيه))

[رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر]

لأن الطعام الحار يضعِف خلايا الذوق، فهذا هو اللسان فيه حُلَيْمات والحليمات فيها كؤوس والكؤوس نهايات عصبية تتأثَّر كيميائياً بالطعام، وهناك أربعة أطعمة: حلوٌ و مُرٌّ وحامض ومالح، فمن امتزاج الأطعمة نحصل على آلاف الطعوم ومن تداخل الروائح تنشأ النكهات ولو لم يكن ثمة لسان لأكل الإنسان تبناً وشبع، ولكن باللسان يعرف الطعام ويفرق بين السمن الطبيعي والسمن الحيواني، ويقول: هذا التفاح ليس له نكهة، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

كل ما أمرنا به الله تعالى متفق مع الفطرة وكل ما نهانا عنه متفق مع الفطرة :

الطفل عندما يُولَد لا يعلم شيئاً، وكل المعارف والخبرات والمنارات والحقائق والمفاهيم تنشأ مع الطفل إلا منعكَساً واحداً يُولد معه وهو منعكس المصِّ، فبمجرد ما يُولد الطفل يضع فمه على ثدي أمِّه ويحكم إغلاقهما ويسحب الهواء فيأتي مع الهواء الحليب، من علَّمه ذلك؟ قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

فبعضهم قال: النجدان طريق الخير والشر، أي الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ من دون تعقيدات ومن دون كتب تفسير، فالسرقة حرام بالبديهة، والكسب والعمل حلال، والزواج حلال والزنا حرام، وشرب الشاي حلال وشرب الخمر حرام، فالخير واضح والشَّر واضح، الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات فالإنسان له حاسة يدرك بها الحق من الباطل والخير من الشر من دون أن يتعلَّم شيئا إطلاقاً، فهذا بالفطرة، ولذلك الإسلام دين الفطرة، فكل ما أمرنا به الله تعالى متفق مع الفطرة، وكل ما نهانا عنه متفق مع الفطرة، فالأجانب الذين لا يعلمون عن الدين شيئاً يقولون: بعد الانحرافات هناك شعور بالكآبة، هذا عذاب النفس وعذاب الضمير، هذا شعور بالبعد وإحساس بالمعصية فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

وبعض المفسِّرين قالوا: النجدان الثديان، هدية ثمينة، أوَّلاً بمجرَّد ما يبكي الطفل جوعاً فالحليب جاهز، لا يلزمه غليٌ ولا تعقيم، أو نسينا شراء الحليب، أو ليس هناك غاز لتسخين الحليب، فكل هذه المتاعب ملغاة:

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

حليب يتوافق مع أجهزة الطفل ومع قدرته على الهضم ونموِّ عظامه وأنسجته يوماً بيوم وساعة بساعة.

كلمة (النجدين) لها تفسيران إما طريق الخير والشر أو الثديين :

لو أخذنا حليب الأم يوميّاً وحلّلناه، فكل يوم له تركيب، أما علب الحليب فيقولون: من الشَّهر الأول إلى الشهر الثالث ملعقتان، ومن الثلاث إلى الست ثلاث ملاعق، أمَّا على مستوى الأم فكل يوم هناك تركيب جديد، ثمَّ هناك اتِّصال لاسلكي بين الطفل وأمِّه، ثم إن الحليب ساخن في الشتاء بارد في الصيف، ومُعَقَّمٌ وفيه مناعة تامة، فإذا تلقَّى الطفل ثدي أمه فإن احتمال التهاب الأمعاء قليل جدّاً لأن مع الحليب مناعة الأم، والأم أخذت اللِقاحات ضدَّ كلِّ الأمراض فهذه المناعة كلها في الحليب، وحليب الأم يُهضَم في ساعة ونصف، بينما حليب البقر يحتاج إلى ثلاث ساعات بالضبط، نصف الوقت تماماً.

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الآن حالات سرطان الثدي تزداد أربع مرات عند النساء اللواتي لا يُرضعن أولادهنَّ، فإذا أخذنا مئة امرأة ترضع أولادها ومئة أخرى فاحتمال مرض سرطان الثدي في اللواتي لا يرضعن أولادهن أربع مرات، هذه قرينة:

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

أي الثديين، هذا التفسير قاله مجموعة من التابعين منهم سعيد بن المسيِّب، النجدان هما الثديان، وإذا قلنا: هما الخير والشرُّ فهناك تناسب، ألم نجعل له عينين يرى بهما الآيات ولساناً يسأل به عن ربِّه وشفَّتين ليسكتَ عن الباطل، وخير وشرٌّ واضحٌ للعَيان، فعليه أن يسلك طريق الخير ويبتعد عن طريق الشر، وإذا فهمنا العينين كنعمة كبرى أنعمها الله علينا واللسان للنطق والذَّوق والشَّفتين لالتقاط الثديين، فالنجدان هما الثديان، طبعاً هذه الآيات لا على سبيل الحصر بل على سبيل المثال.

من أوجَه التفاسير لهذه الآيات أن تعتق رقبتك من الشهوات :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

ماذا ينتظر وماذا يفعل؟ وما الذي يحجزه عن اقتحام العقبة؟! وما الذي يؤخِّره، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ)

من أوجَه التفاسير لهذه الآية، أن تعتق رقبتك من الشهوات، تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الفرج إذا استطعتَ أن تعتق نفسك من الشهوات فقد اقتحمتَ العقبة، بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبة واحدة، بَيْنَ أن تكون شقيّاً أو سعيداً عقبة واحدة، بينَ أن تكون في الجنَّة أو تكون في النار عقبة واحدة، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ)

وقال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

فاقتحام العقبة أن تكون حُرّاً من الشهوات، وأن تنضبط وأن تستقيم على أمر الله وأن تلزم شرع الله.

هناك معنى آخر إن لم تستقِمْ على أمر الله فلا زال بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبةٌ كبيرة:

فكُّ رقبة لها معنى آخر، إذا اشتريتَ عبداً وأعتقتَه لوجه الله فهذا عملٌ يرقى بك وقد يقودك إلى طريق الخير، ومعنى أعتقتَه أي جعلتَه مؤمناً فاستحقَّ العتق، وهذه الآية مستمرَّة، أي إذا كان هناك إنسان عبد لشهواته وأنتَ أقنعتَه وأفهمتَه وفسَّرتَ له بعض الآيات وأكرمتَه وأعنتَه حتَّى جاء معك إلى المسجد

واستقام على أمر الله وصار حُرّاً من الشهوات، أنتَ بهذا قد فكّكْتَ هذه الرقبة، أعتقتَها من النار، وقال بعضهم: عتقُ الرقبة أن تشتريَها بمالك وتعتقَها، أمَّا فكُّها فأن تُسهم في عتقها، فإذا أخذْتَ حُلِياً من أمك وأعطيتَه لزوجتك، فزوجتُك عبدٌ للمظاهر، فإذا عرفَتْ ربَّها فقد تحرَّرتْ، فهذا المعنى الواسع للآية، وهذا المعنى مستمِرٌّ ولا علاقة له بوجود العبيد، ثم إذا كان هناك عبيد فاشترِهِمْ بمالك وأعتِقْهم، عجبتُ لِمَنْ يشتري العبيد بماله ليعتقهم لِمَ لا يشتري الأحرار بمعروفه، فباب الآية مفتوح وواسعٌ جدّاً كأن هذه الآية تقول: إن لم تستقِمْ على أمر الله فلا زال بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبةٌ كبيرة، تقول: أنا الحمد لله مؤمن، ولا يكفي هذا، هل اقتحمتَ العقبةَ؟ فضبطتَ أمورَك، واستقمتَ على أمر الله، وأزَلْتَ المعاصي والمخالفات، إن لم تكن مستقيماً فالعقبة قائمة، والإقبال ممنوع والطريق مسدود والمعصية حجاب كثيف، قال الله تعالى:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

بعد الاستقامة صار الطريق أمامك مُعَبَّداً، والآن نريد أن نمشيَ في هذا الطريق، قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ*يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ*أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)

الاستقامة والعمل الصالح :

صارت الاستقامةُ تعبيداً للطريق، والعمل الصالح سيرٌ في هذا الطريق قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

فالاستقامة سلبية أما العمل الصالح فإيجابي، فالاستقامة امتناع، أما العمل الصالح فتضحيةٌ وبذلٌ، فربنا عز وجل قال:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ*أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

فإذا أطعمتَ إنسانا أكرمَكَ الله، ولكن إذا أطعمتَ هذا الإنسان وهو جائع فلك أجرٌ مضاعف قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ*أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)

إذاً العقبة هي الاستقامة قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[سورة التكوير: 27-28]

إذا لم تحصل الاستقامة فالعقبة قائمة.

لا بدَّ مع الاستقامة من عمل صالح لأن العمل الصالح يرفع الإنسان :

قال تعالى:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ*أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

ولا بدَّ مع الاستقامة من عمل صالح، لأن العمل الصالح يرفع الإنسان، و به تلقى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[سورة الأحقاف: 19]

وقال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 32]

قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

أي مجاعة.

يجب أن تكون الاستقامة والعمل الصالح على أرض الإيمان :

قال تعالى:

(يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ)

إطعام الجائع عمل عظيم، أما اليتيم فعمل أعظم لأنه لا كافلَ له، ومقربة أي قرابة، وبعضهم فسَّرها بالأقرب نسباً أو إيماناً أو فقراً، ففي توزيع الصدقات يجب أن تُرَاعى هذه العوامل الثلاثة، الأقرب نسباً له حقٌّ عليك، والأقرب إلى الإيمان أولى من الأبعد عن الإيمان، والأقرب فقراً الذي يحتاج إلى الطعام والشراب أولى مِنَ الذي يحتاج إلى غرفة إضافيَّة يتوسَّع بها:

(يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ*)

المسكين الذي لا شيء له أما الصدقات للفقراء والمساكين، فما الفرق بين المسكين والفقير؟ ليس الفقير من تَرُدُّه اللقمة واللقمتان إنما الفقير الذي لا يجد حاجته، هو الإنسان الذي دَخْلُه أقلُّ من مصروفه بكثير، فهذا هو الفقير، أما المسكين فلا شيء له إطلاقاً، صار كالتراب أو لصق بالتراب، فالشرط الأول الاستقامة والشرط الثاني العمل الصالح والشرط الثالث الإيمان، أن تكون هذه الاستقامة والعمل الصالح على أرض الإيمان، فهناك أشخاص كثيرون بدافع الوجاهة والمكانة أو أنه كبير الأسرة يعمل

الصالحات ولا يبتغي بها وجه الله، لكنَّ المؤمن هو الذي يبتغي بعمله وجه الله، ثم يُضاف إلى هذين الشرطين، قال تعالى:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الإيمان شرط والاستقامة شرط و العمل الصالح شرط، وإذا أردتَ أن تُلَخِّصَ الدين كلَّه، فهو إيمان وعمل صالح واستقامة.

الصبر عمل سلبي والمرحمة عمل إيجابي فيجب أن نتواصى بالصبر والمرحمة :

ربُّنا سبحانه وتعالى لخَّص القرآن الكريم كلَّه في آية، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

العمل الصالح مبنيٌّ على الاستقامة، أماَّ عمل صالح من دون استقامة فيكون كَمنْ فتح صنبوراً على وعاء لا قعر له، فمتى يمتلئ هذا الوعاء؟! لا يمتلئ، المخالفة الصغيرة ثقبٌ صغير والمخالفة الكبيرة ثقبٌ كبير، وكلما كبرت المخالفة كبر الثقب، فإن ضُرِب الإناء وراء ظهره كان الإناء لا قعر له، فربنا عز وجل قال:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

الصبر معالجة إلهية، نصف الإيمان صبر، قال تعالى:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الصبر عمل سلبي والمرحمة عمل إيجابي، فيجب أن نتواصى بالصبر والمرحمة، وأن يُصَبِّر بعضُنا بعضاً وأن يرحم بعضنا بعضاً قال تعالى:

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

إنهم السعداء، وهذا من لوازم الإيمان، فلوازم المؤمن أنه يوصي أخاه بالصبر ويوصي أخاه بالمرحمة.

الكفار هم الأشقياء في الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

إنهم كما قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الشمس والقمر والمجرَّات والبحار والسهول والطيور والأزهار وآيات هذا الكتاب، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

هم الأشقياء في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ)

أي عليهم نار بشكل مستمر لا يستطيعون منها فراراً. هذه السورة، سورة البلد متكاملة وفيها ترابط وفيها مقدِّمات وموضوع وخاتمة، وكلُّ مقطع فيها يشير إلى فقرة أساسية في الحياة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشمس 091 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 7 آيات دالة على الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

التناسب بين القسم والمقسم عليه :

سورة اليوم سورة الشمس، الله سبحانه وتعالى يقول: بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أين جواب القسم؟ قد أفلح من زكاها، ما هذا الجواب الذي أقسم الله عز وجل من أجله بـ:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

المقسم عليه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لا بد من أن يكون هناك تناسب بين القسم والمقسم عليه، هل يُعقل أن تقسم بالله عز وجل لموضوع تافه أو سخيف، أو لموضوع مالي لا يزيد عن قروش، أن تقسم بالله والله وتالله وبالله غير معقول. لا بد من تناسب بين القسم والمقسم عليه، فالله سبحانه وتعالى كما قلت من قبل مرات كثيرة إذا أقسم بالنسبة إلينا وإن لم يقسم فبالنسبة إليه.

الشمس من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

هذا المجلس ما كان له أن ينعقد لولا نعمة الشمس لأن الشمس إذا انطفأت أصبحت الأرض قبراً جليدياً للأحياء وانخفضت الحرارة إلى درجة ثلاثمئة وخمسين تحت الصفر، فربنا عز وجل قال في آيات كثيرة عن الشمس:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

معنى من آياته أي علامات دالة على عظمة الله عز وجل، الآية الدليل والآية العلامة، من آيات عظمته عز وجل الشمس:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

[سورة فصلت: 37]

الشمس سبب والله المسبب، فربنا سبحانه وتعالى يقول: (والشمس) أي هل فكرتم في هذه الآية؟ وهل وقفتم عندها؟ وهل دققتم فيها؟ وهل تأملتم في ظاهرتها؟

الذي يفكر في الشمس لا بد من أن يعرف الله عز وجل :

هذا الذي يفكر في الشمس لا بد من أن يعرف الله عز وجل، لأن الناس يفكرون بالدرهم والدينار. فإذا فكرت بالدرهم والدينار فقد تحصل الدنيا أو لا تحصلها، ولكنك إذا فكرت بهذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل فسوف تعرف المسبب من خلال السبب، وسوف تعرف الخالق من خلال المخلوق، وسوف تعرف الله سبحانه وتعالى عن طريق هذه الآية الكبيرة.

أي الإضاءة التي صنعها الإنسان تكلف باهظاً، إضاءة البيت تحتاج لمئات الليرات في الشهر. وإضاءة شارع طويل قد لا تحتمله نفقات الدولة، وطريق طوله ثلاثمئة كيلومتر لا يُضيء، بل يُضيء طريق قصير، فإضاءة طريق طويل وإضاءة مدينة بأكملها لا يعلم إلا الله كم تستهلك من أجل أن تُضيء، فلو تصورنا أن الشمس لا تشرق كيف يكون حال الأرض؟ إذا أردت أن تعرف الشيء فتصور عدمه واختفاؤه وربنا عز وجل يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

لكن من أجل أن يكون قريباً من أذهانكم، لو أن هناك إلى الشمس طريقا مُعبداً وأنت تركب سيارة سرعتها مئة كيلومتر فلن تصل إلى الشمس قبل مئتي سنة أو أكثر، وهل يستطيع عمر الإنسان أن يوصله إلى الشمس؟ فكم هي المسافة، إذا أطلقنا قذيفة باتجاه الشمس وسارت القذيفة كيلومتراً في الثانية فإن هذه القذيفة سوف تصل بعد سبع سنين وعلى الرغم من هذه المسافة الطويلة فإن أشعة الشمس تبعث الدفء في الجسم بل إنها إذا زادت تصيب الإنسان بمرض قاتل اسمه ضربة الشمس. ما هذه الطاقة التي تختزنها الشمس؟ إن الأرض لا يصيبها من الشمس إلا واحد على ملياري جزء من طاقتها، والله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة ذكر الشمس، ذكر الشمس في اثنتين وثلاثين آية من كتاب الله.

الإنسان أحياناً يتعلق بالسبب ويجب أن يتعلق بالمسبب :

ربنا عز وجل في قصة الملكة بلقيس قال الهدهد:

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ*أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

[سورة النمل: 24-25]

الإنسان أحياناً يتعلق بالسبب ويجب أن يتعلق بالمسبب، ينبغي أن يفكر بالذي خلق الشمس، ربنا قال:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[سورة لقمان: 29]

والعلماء قالوا: عمر الشمس خمسمئة مليون سنة وإنها ستستمر - وهذا رجمٌ بالغيب - إلى خمسين ألف مليون سنة قادمة. هذه الشمس تتسع إلى مئة وتسع كرات أرضية أما جوف الشمس فيتسـع لمليون وثلاثمئة كرة أرضية، أي أن الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة مرة، وبعدها عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر. أما حرارتها على سطحها فتزيد عن ستمئة درجة وأما في أعماقها فتزيد عن عشرين مليون درجة بحيث لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة، منذ خمسة آلاف مليون سنة وإلى فترة لا يعلمها إلا الله، في علم الله:

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة الأنعام: 96]

بعد الشمس عن الأرض بُعدٌ دقيق وفيه حكمة بالغة :

هنالك حسابات دقيقة لو أنها ابتعدت لبردت الأرض، ولو أنها اقتربت لاحترقت، ولو أنها اقتربت لذابت الكتل الثلجية في القطبين ولارتفع مستوى البحر تسعين متراً فغمر معظم المدن الساحلية وما حولها من تلال. إذاً بعد الشمس عن الأرض بُعدٌ دقيق وفيه حكمة بالغة.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

فربنا عز وجل، هذه الشمس التي سخرها الله لنا، هذه الكرة الهائلة من الغاز، وحتى تعرفوا كيف تصدر هذه الطاقة المستمرة؟ يجري فيها تفاعل كتفاعل القنبلة الهيدروجينية تماماً تفاعل مستمر يعطي هذه الطاقة ألسنة من اللهب تزيد عن نصف مليون كيلومتر، أي نصف مليون كيلومتر طول بعض

ألسنة اللهب التي تصدر من الشمس، وهناك صور حقيقية لهذه الألسنة في حالة الكسوف الكامل، وربنا عز وجل يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

في كل يوم تفقد الشمس من كتلتها ثلاثمئة وستين ألف مليون طن، من يعوض هذه الكتلة المفقودة؟ الله سبحانه وتعالى. فالشمس تنشر طاقة في الثانية الواحدة تعادل إحراق أكثر من مليون طن من الفحم الحجر، ذلكم الله رب العالمين، ذلكم الله القوي القدير العليم، إذا وقف إنسان فرضاً على سطح الشمس وكان وزنه على الأرض خمسة وستين كيلو غراماً لصار وزنه ألفاً وسبعمئة كيلو غراماً لتفاوت الجاذبية، وكما قلت قبل قليل لو انطفأت الشمس لأصبحت الأرض قبراً جليدياً ولهبطت الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين تحت الصفر.

يجب ألا يكون عمل الإنسان قبراً له :

عندما يقول ربنا عز وجل:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

أي يا عبادي فكروا في هذه الآية ودققوا فيها وتأملوا، ولا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن آيات الله. فلا يك عمل الإنسان قبراً له، ولا تك شهوة الإنسان قبراً له.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر: 22]

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 101]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ*وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 105-106]

ربنا عز وجل جعل الكون تجسيداً لأسمائه :

ومع ذلك فالشمس نجم متوسط، فهنالك نجوم تكبرها بآلاف المرات ولكن لبعدها الشديد تُرى نجوماً صغيرة متألقة، وما شمسنا إلا نجم متوسط، ولا تنسوا أن في مجرتنا أكثر من ألف مليون نجم، وفي الكون رقم تقديري حديث أكثر من مليون مليون مجرة.

الشمس تبدو كبيرة لقربها منا، فربنا عز وجل جعل الكون تجسيداً لأسمائه، اسم العليم يتضح من الشمس، واسم الحكيم، واسم القدير، واسم المعطي، يتضح من الشمس، قد يرتفع سعر البيت خمسون ألفاً إذا كانت تدخله الشمس، فهذا المبلغ الذي دفعه صاحب البيت ثمن ماذا؟ إنه ثمن أشعة الشمس، وشيء ثمين جداً أن تبعث الدفء، وتبعث الحرارة، وتطهر، وتعقم، وينتظم الكون، وتعرف الأوقات، وقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقي مقالة عن الشمس فقال: سلِ الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً وضربها ديناراً ومن علقها في الجو ساعة يدب عقرباها إلى قيام الساعة؟ ومن الذي آتاها معراجها وهداها أدراجها وأحلها أبراجها ونقل في سماء الدنيا سراجها؟ الزمن هي سبب حصوله ومشعب أصوله وفروعه وكتابه بأجزائه وفصوله، ولد على ظهرها، فلولا الشمس لما عرفنا الزمان، ولعب في حجرها وشَابَ في طاعتها، فلولاها لما اتسقت أيامه ولما انتظمت شهوره وأعوامه ولا اختلف نوره وظلامه.

عندما يقول ربنا عز وجل: (والشمس)، أي يا عبادي يجب أن يكون لكم جلسات تتفكرون فيها بالشمس، هذه الآية الكبرى الدالة على عظمة الله.

كلمة ضحاها تعني شيئين :

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

قال بعض المفسرين: (وضحاها) قَسَمٌ ثانٍ، الشمس آية، وضحاها آية ثانية، فكلمة ضحاها تعني شيئين:

1 ـ الأرض تدور حول نفسها ولولا دورانها حول نفسها لما ظهرت الشمس :

تعني أن الأرض تدور حول نفسها ولولا دورانها حول نفسها لما ظهرت الشمس لأن ضحى بمعنى ظهر.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

فلو أن الأرض واقفة فالذين في الطرف الآخر لا يرون ضحاها فهي ليست آية لهم، ولكن الأرض تدور وبدورانها تظهر الشمس بشكل يومي، ولكن هذا الدوران بمحور مائل، فلو أن محور الأرض موازٍ لمستوى دوران الأرض حول الشمس لكان وقوفها لدورانها، إن دارت هكذا الأرض والشمس من هنا فالطرف الذي لا يقابل الشمس يبقى مظلماً لسبب الدوران وحده ولكن الدوران مع محور، لو أن المحور هكذا قائمٌ على مستوى الدوران لكان هذا المكان صيفاً إلى أبد الآبدين ولكان هذا المكان شتاءً أو

خريفاً وهذا المكان شتاءً إلى أبد الآبدين، لتثبت الفصول، دوران وميل محور لدرجة دقيقة بحيث تتبدل الفصول ولو أن المحور مائل لهذه الدرجة الدقيقة ثلاث وثلاثون درجة، والأرض لا تدور حول الشمس لبقيت الفصول ثابتة.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

إذاً من دورة الأرض حول الشمس ومن دورتها حول نفسها ومن ميل محورها كان هذا الذي ترون أنه صيفٌ، وشتاءٌ، وربيعٌ، وخريفٌ. يأتي الشتاء فيأتي الربيع ثم يأتي الصيف، ويأتي الصيف فيأتي الخريف وبعده الشتاء.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة آل عمران: 190]

هناك أيام يكون الليل طويلاً وأيام يكون الليل قصيراً وهي من آيات الله عز وجل. فـ (الشمس وضحاها) معنى (ضحاها) أن دورة الأرض حول نفسها وحول محور مائل ودورتها حول الشمس هي التي تسبب الليل والنهار المختلفين والفصول الأربعة الجوالة.

2 ـ الشمس تَظهر عن طريق دورة الأرض حول نفسها وهي نفسها تُظهر حقيقة الأشياء:

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

المعنى الآخر أن الشمس تظهر عن طريق الأرض، والشمس تُظهر الأشياء، فلو ذهبت إلى بلدة ووصلتها ليلاً ودخلت أحد فنادقها وكان في الغرفة نافذة تُطل على منطقة واسعة جداً في الليل ماذا ترى؟ هل ترى الجبال الخضر؟ وهل ترى السهول؟ وهل ترى القرى القابعة على سفوح الجبال؟ كل هذا لا تراه في الليل ولكن تراه في النهار، فالشمس تَظهر عن طريق دورة الأرض حول نفسها وهي نفسها تُظهر حقيقة الأشياء، إذ لا تتضح الأمور إلا في النهار. ولا تعرف حقيقة اللون إلا تحت ضوء الشمس، فكثير ممن يشترون القماش يعرفونه تحت ضوء الشمس حتى يتأكد من لونه الصحيح.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

فالشمس آية وضحاها آية ثانية.

الطريق الوحيد الموصل إلى الله أن تفكر بآياته والطريق الآخر طريق الجهل :

ربنا عز وجل قال:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

ولا يوجد طريق آخر، الطريق الوحيد الموصل إلى الله عز وجل أن تفكر بآيات الله والطريق الآخر طريق الجهل.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

تغيب الشمس في الأيام البيض من الغرب، فإذا القمر في الشرق يتلوها بحجم كبير وبدرٍ وسيم يطلع فيضيء بما يعادل واحد على ثماني عشرة مرة من إضاءة الشمس، (والقمر إذا تلاها) في الشروق أي إذا ناب عنها في الليل كان ضوءه لطيفاً يفيد ولا يؤذي، إذ يرى المار طريقه ولا يتأذى من شدة الإضاءة لأن الليل سكنٌ.

الشمس والقمر أداتان للحساب وتقويمان يشيران للساعة واليوم :

شيء آخر إذا كانت الشمس ساعة يومية، فالقمر تقويم شهري، والجميع يقول: الشمس أشرقت، الشمس علت. فالآن ضحى، والآن اقترب وقت الظهيرة. وقاربنا من أذان العصر. اقتربت من المغيب، والشمس ساعة سَاعة في كبد السماء، والقمر تقويم شهري كذلك في كبد السماء، الشمس والقمر أداتان للحساب وتقويمان يشيران للساعة واليوم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

لولا القمر لصار النهار ساعتين، ولولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، فالقمر له علاقة بالمد والجزر، ولو اقترب القمر أكثر من هذا لتضاعف المد والجزر ستين ضعفاً أي إلى مسافة ألف ومئتي متر، كل هذه الأماكن يغمرها في ساعات معينة وينحسر عنها في ساعات ثانية ولكن الشمس والقمر بحسبان.

بعد القمر عن الأرض يجعل المد والجزر لا يزيد عن عشرين متراً، والمد والجزر له فوائد كبيرة في الملاحة ولا يزال الإنسان عاجزاً عن فهم الفائدة الكبرى للقمر، وكلما تقدم العلم يكشف بعض الفوائد، أما القمر فآية كبرى من آيات الله، وحينما صعد على سطحه رواد الفضاء وجدوا تربة القمر تشبه

الزجاج إنها تربة رمادية عاكسة، فهذا القمر البدر الجميل بفضل هذه التربة التي صنعت خصيصاً ليكون مصباحاً عاكساً للأرض.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

في المرتبة، وفي الإضاءة، وفي الدوران، وفي الحركة.

الحكمة من أناللّه عز وجل ثبت إشراق الشمس ولم يثبت هطول المطر :

قال تعالى:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)

معنى تجلت: ظهرت. ما الذي أظهرها؟ أنك على سطح الأرض، والأرض دارت فأصبح مقابلاً لها، وهذه لها علاقة بالضحى، ولولا أنك تدور على سطح الأرض لما رأيت الشمس:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)

النهار يُظهر أشعة الشمس ونستفيد منها. ولم يسمع أحد في حياته أن الشمس في أحد الأيام لم تشرق؟ ليس هناك دعاء شروق الشمس، فالله عز وجل ثبتها فلا يقلق الإنسان على شيء، فالله عز وجل هو الذي خلق الخلق، وكان بالإمكان أن تكون كمية الأمطار ثابتة طوال آلاف القرون- أي منطقة الشام مثلاً كمية الأمطار فيها تقدر بألفي ميليمتر- كيف أن الشمس تشرق كل يوم، كل يوم من دون قلق، فالله عز وجل ثبت إشراق الشمس ولم يثبت هطول المطر كي يكون العباد على صلة بالله عز وجل، ولو أنه لم يثبت شروق الشمس لأصبحت الحياة فوضى، فاليوم أشرقت واليوم ما أشرقت، واليوم عطلة فجائية لعدم شروق الشمس، إن هذا شيء مستحيل. ربنا عز وجل لحكمة بالغة ثبت شروق الشمس ولم يثبت هطول المطر من أجل أن يكون للعباد سببٌ للدعاء: اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، إذاً عندما يعطي ربنا عز وجل فهو القدير، ولما خلق الإنسان خلقه لحكمة بالغة كما أنه ثبت شروق الشمس وكان بالإمكان أن يخلق الإنسان بلا مرض إطلاقاً، فلماذا المرض إذاً؟ من أجل أن يكون هنالك اتصال وثيق بين العبد وربه:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، وخلقه ضعيفاً، وخلقه هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، وخلقه من عجل.

النهار والليل من آيات الله :

قال تعالى:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

تكون الأرض مشرقة والجبال واضحة وكل شيء متألق ظاهر وصارخ يأتي الليل فيغشى كل هذه الأشياء:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

إذا غطاها، فأين الشمس؟ قال عليه الصلاة والسلام: يا سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل؟ يكون الإنسان في منطقة جميلة جبال ووديان ومناظر رائعة فتغيب الشمس فكل هذه المناظر غابت وانمحت وانسدلت ولم يبقَ منها شيء، فينام الإنسان في الليل وتضيق نفسه، ثم يصير في أنس، سر في غابة ليلاً تخف وسر فيها نهاراً تطمئن، واصعد جبلاً ليلاً تخف واصعد نهاراً تطمئن. فالنهار والليل من آيات الله.

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

نظام التجاذب وحده أعظم دليل على عظمة الله :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

بعض العلماء قالوا: هذه الـ (ما) بمعنى والسماء ومن بناها؟ هل سألت هذا السؤال؟ هل فكرت في خالق الكون؟ السماء أوسع، والشمس نجم، والقمر كوكب، والأرض كوكب، أما السماء ففيها مليون مليون مجرة، وفيها نظام رائع جداً؛ نظام التجاذب، والآن إذا سألنا أستاذ رياضيات مثلاً عن كتلتين مغناطيسيتين متساويتين حجماً إذا أردنا أن نضع كرة حديدية في مكان بينهما بحيث لا تنجذب هذه الكرة لا إلى هذه الكتلة ولا إلى هذه الكتلة طبعاً سيأخذ خطاً بينهما ويأخذ منتصفه على مستوى الميليمترات وقد يكون على مستوى أعشار الميليمتر، فلو وضعت في مسافة أقرب نصف ملم لانجذبت إلى إحدى الكتلتين، ولو أتينا بثلاث كتل بحيث تشكل هذه الكتل مثلثاً متساوي الأضلاع فأين المكان الذي ينبغي أن توضع الكرة الحديدية بحيث لا تنجذب هذه الكتلة لا إلى هذه الكتلة ولا إلى تلك؟ نأخذ منصفة الزوايا، مركز تقاطع منصفات الزوايا فهنا تستقر الكرة، وإلى الآن القضية سهلة، فإذا كان هذا المثلث مختلف الأضلاع فسوف تحتاج إلى حسابات صعبة جداً، وقد لا تهتدي إلى مكان استقرار الكرة، فإذا كان المثلث مختلف الأضلاع والكتل مختلفة الحجم فصار الحساب أصعب بكثير، فإذا كان بعض هذه الكتل متحركة، فالحساب مستحيل. وإذا كان هناك ألف كتلة وكل كتلة لها حركة مستقلة عن الثانية

ولها مدار وعليك أن تحقق استقراراً بين كل هذه الكتل، فهذا لا يستطيعه بشر ولكن هذه المجرات؛ المليون مليون مجرة وفي كل مجرة عشرة آلاف مليون نجم، وكل هذه النجوم متفاوتة بالحجم مختلفة بالمسافات، وكلها متحركة والمحصلة استقرار.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

هذه عظمة الله عز وجل، نظام التجاذب وحده أعظم دليل على عظمة الله.

التجاذب يتبدل بحسب الكتل ويتبدل بحسب المسافات :

كما تعلمون فإن التجاذب متعلق بالمسافة أي بمربع المسافة والكتلة، وكلما كبرت الكتلة ازدادت الجاذبية، فالإنسان على الأرض وزنه ستون كيلو غراماً وعلى القمر وزنه عشرة كيلوغرامات، فالقمر أصغر، فأنت كتلة والقمر كتلة، وعلى الشمس وزنه ألف وسبعمئة كيلو غراماً، فالتجاذب يتبدل بحسب الكتل ويتبدل بحسب المسافات.

الأرض تدور حول الشمس، والمدار بيضوي ومعنى بيضوي أي للشكل البيضوي مركزان، أي هناك قطر أقصى وقطر أدنى فإذا وصلت الأرض للمسافة الدنيا، فلو أنها حافظت على سرعتها، فالمسافة بينها وبين الشمس قلت، إذاً التجاذب ربما انجذبت الأرض إلى الشمس وارتطمت بها وانتهت الحياة. فأين حكمة الله عز وجل؟ فالله عز وجل في هذه المنطقة التي تصغر فيها المسافة بين الأرض والشمس تزداد سرعة الأرض لينشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة وبهذا تستقر الأرض في مسارها حول الشمس، والمسار ليس دائرياً بل بيضوياً، والحكمة الثالثة أن الله سبحانه وتعالى لو رفع هذه السرعة فجأة لتهدم كل شيء على سطح الأرض، تقول هنا كانت مدينة اسمها باريس، فلو أن هذه السرعة ازدادت أو ارتفعت فجأة، فلما قال عز وجل:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

العملية لا تكلف أكثر من ازدياد السرعة فجأة كل شيء على سطح الأرض يُهدم.

الكون وما فيه من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

أي من بناها؟ من بنى هذا البناء؟ من جعل هذا النظام؟ من أجل مطار صغير لا بد من خبراء ومهندسين وتسيير للطائرات لئلا ترتطم طائرتان مع بعضهما، ولكل طائرة خط، مطار صغير لولا وجود قيادة موحدة وأوامر مركزية لحدث تصادم بين الطائرات، وهذا الكون المليء بالنجوم والمجرات، ألا يحدث فيه تصادم واحد؟

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

إذاً:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

بمعنى من بناها؟ وهناك معنى آخر؛ (ما) مصدرية، والسماء وهذا البناء الرائع الذي بنيت على أساسه، أي والسماء وبنائها، هذا البناء المحكم المطلق على إطلاقه وبنائه القوي، وهنالك منطقة في الفضاء اسمها الثقوب السود، من منكم يصدق أن الأرض بأكملها لو دخلت إلى هذا الثقب لأصبحت كالبيضة، الأرض بأكملها تُضغط وتزول كل الفراغات البينة بين ذراعها وتصبح الأرض كالبيضة وهي بوزنها الحقيقي، تصور بيضة وزنها كوزن الأرض، ما هذه القوة؟ مع أن متراً مربعاً من الماء حتى هذه الساعة لا يستطيع بنو البشر ضغطه لو وضعت فوق هذا الماء ألف مليون طن لا يُمكن ضغطه ولا ميلي واحد.

الماء السائل العذب الفرات الماء لا ينضغط وإذا أراد أن يتمدد لا يستطيع أقسى معدن أن يحول بينه وبين تمدده، ضعه بأقسى أنواع الفولاذ وجمده داخل الفولاذ يتشقق الفولاذ، فإذا دخلت الأرض في هذا الثقب الأسود ما هذه القوى الهائلة في هذا الثقب؟ إنها تصبح كالبيضة بوزنها الحقيقي، (والسماء وما بناها) ما هذا البناء العظيم؟

الأرض وما فيها من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من جعلها ممددة؟ ومن جعلها منبسطة؟ ومن جعل فيها تربة؟ ولو أننا وصلنا إلى أرض صخرية هل تستقيم حياتنا إن كانت الأرض صخرية؟ ماذا نأكل؟ ومن جعل سطح الأرض تربة؟ يوجد أماكن في العالم قليلة الأرض صخرية، وهنالك في منطقة قبل حلب كلها صخر، ومنطقة في الجنوب بالمحافظات الجنوبية كلها صخور لا تربة فيها.

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من جعلها ممهدة؟ ومن جعلها منبسطة؟ ومن جعلها صالحة للزراعة؟ ومن جعل الطبقة الكتيمة في الأسفل والطبقة النفوذة في الأعلى؟ فلو أن الكتيمة في الأعلى والنفوذة في الأسفل لما كانت هنالك ينابيع، لكن ربنا عز وجل مثلاً يقول لك: ليبيا تعيش على بحر من الماء العذب، والله عز وجل هذه الطبقات نفوذة وجعل تحت الطبقات النفوذة طبقات كتيمة فجمعت الماء.

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من هيأها؟ ومن رتبها؟ ومن نظمها؟ ومن مهد لك الحياة فيها؟ ومن جعل الينابيع والأنهار الوديان؟ وهذه تربة كلسية تنبت فيها نباتات معينة، وهذه تربة الحديد فيها مرتفع يصلح لبعض أنواع الفاكهة. من نوّع التربة؟ نوعها في البنية، ونوعها في العمق، ونوعها في الإرواء:

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

النفس الإنسانية لها قوانين :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

فكلمة (ما) تصلح من طحاها والأرض وطحيها، ونفس ومن سواها والنفس وتسويتها، أي سترى شيئين؛ التسوية والمسوي، التسوية مع المسوي والبناء مع الباني.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

هذه النفس تخاف وتتعرف إلى الله كي تطمئن، من جعل هذه النفس تمرض ولأنها تمرض تتعرف إلى الله فتطمئن؟ من جعل هذه النفس تحب من أحسن إليها؟

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

من جعلها تحب التملك كي تحافظ على مكتسباتها؟ فالنفس الإنسانية لها قوانين: تحب السلامة، وهذا دافع كبير كي تنجو من عذاب الله، وتحب السعادة فهذا دافع آخر، وتحب من أحسن إليها وهذا دافع ثالث، تخاف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

ضعيفة تحب أن تكون في حماية القوي، فالنفس غير بنية الجسم وغير الأجهزة، والجهاز العصبي والعظمي والقلب والأوردة والشرايين والرئتان والأمعاء وجهاز الهضم والغدد الصماء والدماغ والعضلات غير هذا البناء المحكم وغير ما قيل في الدرس الماضي.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

النفس لها قوانين فالنفس البشرية تخاف وترجو وتطمع وتحب وتكره وتستعطف.

التسوية كمال الخلق :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

معنى سواها أي جعلها على أكمل وجه، ففي درس سابق قبل شهر على ما أذكر:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

ضربت وقتها مثلاً كراج سيارة قد يكون بناؤه متقناً وقد يكون أضيق من عرضها فهو غير سوي، وقد يكون على عرضها تماماً فلا يستطيع السائق أن يفتح الباب ويخرج من السيارة، فما معنى كراج؟ أي سوي تسعني أبعاده وعمقه وارتفاعه والرصيف والباب فكله مسوى كي يكون مكاناً لهذه السيارة، فالتسوية كمال الخلق:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

أي ربنا عز وجل جعل هذا المفصل ولولا هذا المفصل لاضطر الإنسان أن يضع الصحن على الأرض وأن يأكل منه بلسانه كالقطة ولا يوجد طريقة ثانية:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

لك مفصل، ولك أصابع، ولك إبهام، ولك عينان وأذنان وأنف ولسان وفم، (ونفس وما سواها) كلمة نفس تعني بناء الجسم وتعني قوانين النفس، فمن أودع في الإنسان هذا الفكر؟ الإنسان لا يفهم شيئاً من دون سبب وهذا مبدأ السببية في الفكر، ولا يفهم شيئاً من دون غاية، من له تعامل مع الآلات لو رأى

ظاهرة في الآلة لا يفهمها إلى أن يعرف غايتها، في الفكر نجد مبدأ السببية مبدأ عدم التناقض ومبدأ الغائية، فمن أودع هذا الفكر، وهذه الأنظمة، وهذه القوانين؟

الله عز وجل ألهم الإنسان عن طريق الملائكة أن هذا العمل فجور وأن هذا العمل تقوى:

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أروع تفسير لهذه الآية: أن الله عز وجل ألهم الإنسان عن طريق الملائكة أن هذا العمل فجور، وأن هذا العمل تقوى، فعندما يسير الإنسان في الطريق الصحيح ترتاح نفسه، وينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويتوازن، ويُسرَ، ويتفاءل، ويسعد، ألهمها تقواها.

فإذا انحرف شعر بالضيق وشعر بنداء ملائكي: يا عبد الله:لا تفعل، إياك أن تفعل إذا كانت أذنه صحيحة تسمع النداء، وإذا كانت أذنه غير صحيحة يحس بضيق وانقباض، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أي إذا فجرت عرّفها بأنه فجور، إما من ضيق النفس أو من الإلهام، وإذا اتقت عرفها بتقواها، فالقسم الإلهي بـ:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

جاء الجواب:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فالفالح أو الذكي أو المتفوق أو الذي ينجو أو العالي في نظر الناس الذي زكى نفسه وهذا هو الذكاء.

الذكاء والفلاح والنجاح والتفوق هو أن تزكي نفسك :

قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

بماذا أثنى الله على نبيه الكريم؟ بالخلق العظيم:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

فالذكاء والفلاح والنجاح والتفوق هو أن تزكي نفسك لأنك إذا زكيت نفسك عشت في رحاب الله إلى أبد الآبدين، في سعادة لا توصف في مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهناك دفعات على الحساب في الدنيا سرور وطمأنينة وتفوق في الأعمال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

فالذي يزكي نفسه أي يؤهلها لدخول الجنة، والجنة ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، هكذا قال عليه الصلاة والسلام. فالدنيا بكل ما فيها من جمال طبيعي ومن مال ومن مباهج ومن عز ومن غنى ومن طعام لذيذ ومن شيء تتوق إليه النفس وكل ما فيها لا يعادل أن يغمس مخيط في مياه البحر فبمَ يرجع؟!

متاع الدنيا ومتاع الآخرة كما ورد في القرآن الكريم :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

آية ثانية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

آية ثالثة:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

الله تعالى لا يعطي الآخرة إلا لأحبابه :

ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 70-71]

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة القصص: 14]

هذا عطاء الله الكبير:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، قد يعطيها لأعدائه وقد يعطيها لمن لا يطيعه، ولكن الآخرة لا يعطيها إلا لأحبابه:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

أمراض تفتك بالنفس فتجعل الحياة جحيماً وتجعل الجنة مستحيلة عليها :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

التزكية لها بحث طويل إن شاء الله أوسعُ فيها في الدرس القادم، كيف يزكي الإنسان نفسه وكيف يتخلص من أمراضه النفسية؟ من الكبر ومن الأثرة ومن حب الذات والحسد والاستعلاء والحقد والبغضاء، وهذه الأمراض التي تفتك في النفس فتجعل الحياة جحيماً وتجعل الجنة مستحيلة عليها:

((لا يدْخُلُ الجنة مَنّ كان في قلبه مثقالُ حبَّة من كِبْر))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

ولذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ)

[سورة الشعراء: 88]

فلو ترك إنسان ألف مليون وثمانية أولاد أطباء:

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 89]

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

[سورة الكهف: 46]

من زكى نفسه يُعد فالحاً وذكياً وناجحاً :

إذا الإنسان تفقه بمعنى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن إنساناً فهم هذه الآية وصدقها لحلت كل مشكلاته ولسعد في الدنيا والآخرة، فالإنسان قد يرى الفلاح في جمع المال، وقد يرى الفلاح في النزهات مثلاً، وفي الاستمتاع بالمتع الدنيوية، وبأن يكون رفيع الشأن في الدنيا، هكذا قد يرى الفلاح ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

الذي نجح والذي ارتقى والذي يُعد فالحاً وذكياً وناجحاً هو من زكى نفسه:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

هذا هو المقسم عليه:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

فإذا كانت الآيات في نظرك عظيمة فجواب هذا القسم أن تزكي نفسك، كيف؟ وما الطريق؟ وما السبب؟ وما الوسيلة؟ هذا ما سيشرح في درس قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشمس 091 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 7 - 15 النفس البشرية وأمراضها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

كل الأديان والدين الإسلامي بشكل خاص جوهره السيطرة على الذات أو على النفس :

وصلنا في الدرس الماضي في سورة الشمس إلى قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

ربنا سبحانه وتعالى قبل ذكر النفس ذكر الشمس وضحاها، وذكر القمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وذكر الليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، وذكر الأرض، وبعد هذه الآيات الكبيرة ذكر النفس، وقد تكون النفس أعظم من كل هذه الآيات، ورد في الأثر أن: " ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن "، ربما كانت النفس الإنسانية هي المقصودة من تسخير السموات والأرض:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

وسخر لكم السماوات والأرض، والسماوات والأرض وما فيهن مسخرة لهذه النفس الإنسانية، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

كيف سوى ربنا سبحانه وتعالى هذه النفس؟ نحن اليوم نُعنَى بالجسد، والحضارة الغربية بأكملها وبكل أنواعها مَعنية بالجسد، والجسد مصيره إلى ما تعلمون، فكل هذه الجهود الجبارة التي تبذل من أجل العناية بهذا الجسد تنتهي عند الموت، وعند الموت سيواجه الإنسان نفسه التي دساها وأهملها ولم يسمُ بها ودنسها وسوف تعذبه إلى أبد الآبدين، حتى إن بعضهم لخص الحضارة القائمة على الدين بأنها حضارة تسيطر على ذات الإنسان المؤمن المنضبط، وفسر بعضهم الحضارة المادية بأنها سيطرة على المادة، لكن الأديان والدين الإسلامي بشكل خاص جوهره السيطرة على الذات أو على النفس.

فرق دقيق بين الفطرة والصبغة :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

كل الآلات التي تخطف الأبصار وكل هذه المخترعات الحديثة هدفها ترفيه هذا الجسد والجسد مصيره التراب، فربنا عز وجل في هذه الآية وجهنا إلى النفس. فالإنسان يعتني بجسده، ويرتدي ثياباً جميلة، ويعتني ببيته، وبأثاثه، ولكن أين العناية بنفسه؟ سيدنا عمر كان يقول: تعهد قلبك، فالناس الآن يتعهدون أمورهم المادية ويخجلون من بيت ليس فيه نظام، ويخجلون من أثاث قديم، ومن بيت طلاؤه قديم، ومن بيت مدخله غير مرتب، أما النفس التي ينطوون عليها فقد تركوها، تركوها هملاً. فإذا جاء الموت تظهر عورة النفس وسوف تعذب صاحبها إلى الأبد، فربنا عز وجل جذب النظر إلى هذه النفس.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

كيف سواها؟ لقد فطرها فطرة عالية، لقد خلقها تحب الكمال، وأن تحب الكمال شيء وأن تكون كمالاً شيء آخر، وأن تحب العدالة شيء وأن تكون عادلاً شيء آخر، أن تحب العدالة فهذه فطرة وأن تكون عادلاً فهذه صبغة، فرق دقيق بين الفطرة والصبغة، أن تحب معالي الأمور فهذه فطرة، فهذه الفطرة العالية هي التي تعذب صاحبها، لماذا يحس الإنسان بوخز الضمير؟ ولماذا يحس بالضيق إذا انحرف وإذا اعتدى واستعلى وبنى مجده على فقر الآخرين؟ فما تفسير هذا الضيق؟ إن الفطرة السليمة التي فطر عليها الإنسان هذه الفطرة التي تتجه نحو الكمال، فإن وجدته استرحت وإن قصرت عنه تعذبت، هذا قانون عام ينطبق على النفس التي خلقها الله عز وجل.

النفس تذوق الموت ولا تموت لأن النفس خالدة :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

ما هذه التسوية؟ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه. فإذا رأى نفسه في الآخرة قد أساء إلى عباد الله والله عز وجل سبقت له منه الحسنى إنه يتعذب عذاب الخجل، الفطرة الأولى أن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، الفطرة الثانية أن النفس تحب الكمال فإذا حادت عنه تعذبت وإذا بلغته استراحت لذلك، الناس نيام، الإنسان في الدنيا مخَّدر بالشهوات فإذا اقترب الموت ذهبت عنه هذه الشهوات وظهرت حقيقته كما رآها رأي العين فتعذب بها.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من نفس ومن روح ومن جسد، فالنفس هي ذات الإنسان، مَن فلان الفلاني؟ نفسه هي التي تحب وهي التي تكره والتي تغضب وترضى وتقصر وتحس أنها خالدة لا تموت أبداً، وربنا عز وجل يقول:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة العنكبوت: 57]

فرق كبير بين أن تقول كل نفس تموت وبين أن تقول:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة العنكبوت: 57]

النفس تذوق الموت ولا تموت، النفس خالدة.

أمراض النفس أخطر بكثير من أمراض الجسد :

قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

الإنسان مخلوق من نفس هي ذاته هي التي تسعد وهي التي تتعذب، وكلها أعين وآذان وأحاسيس، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها داخل الجسد فترى من خلال نافذتين هما العينان، وتسمع من خلال الأذنين، وتنتقل عن طريق الرجلين، وتبطش وتحس باليد، وتحاكم بالفكر، فالجسد وعاء للنفس تتحرك به، وترى به، وتسمع به، وتدرك به، وتحس به، وتسيء به، ولكن هذا الجسد يتحرك بالروح التي أودعها الله فيه. فالحركة تعبير عن ذات الإنسان وبقوة الله، والعين ترى بقوة الله ترى بالروح، والأذن كذلك، وحقيقة الموت انفصال النفس عن الجسد، عن الروح، والروح قوة الله المحركة، فلو نزعت المأخذ من الكهرباء لآلة تتوقف فوراً وهي كما هي، من الذي جعلها تقف؟ انقطاع القوة المحركة، انقطاع الطاقة؟ فالروح التي أودعها الله فينا إذا مات الإنسان تنقطع فوراً فإذا انقطعت عرجت النفس إلى بارئها إن كانت مؤمنة وبقيت رهينة إن كانت فاسقة، والروح هي قوة الله عز وجل قطعت عن هذه النفس. فالأمر الخطير أن النفس هي نفسك لا جسدك، والناس الآن يقلقون على أجسادهم وعلى قلوبهم ويخافون من تسرع في القلب ومن بعض الأزمات القلبية وفاتهم أن أمراض النفس أخطر بكثير لأن أمراض الجسد كلها تنتهي بالموت وأمراض النفس كلها تبدأ بعد الموت، وبعد الموت هناك أبدٌ لا ينقطع إلى أبد الآبدين، فأيهما أخطر أن تُعنى بهذا الجسد الفاني أم أن تعنى بهذه النفس الخالدة؟

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

خلقها على فطرة سليمة كصفحة بيضاء إما أن يكتب على هذه الصفحة كلام جميل تفخر به وإما أن يكتب على هذه الصفحة كلامٌ بذيء تخجل منه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى أودع في هذه النفس حبّ الشهوات :

هذه النفس جعلها تحب الكمال وحبها للكمال هو الذي يعذبها إذا حادت عنه، وجعلها تحب من أحسن إليها، وجعل لها جسداً في خدمتها تتحرك به، وصيرها خالدة تذوق الموت ولا تموت، وجعل الروح قوة محركة لها:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

وشيء آخر الله سبحانه وتعالى أودع في هذه النفس هذه الشهوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

والله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة أودع في هذه النفس هذه الشهوات، لماذا؟ فلولا هذه الشهوات لا ترقى النفس إلى ربها، وكيف ترقى؟ إنها تبذل ما هو غالٍ عليها، حينما تبذل المال ترقى. لولا أن الله عز وجل أودع فيها حب المال فما قيمة الصدقة؟ وما قيمة الزكاة وما قيمة المساعدة؟ ولولا أن الله عز وجل أودع فيها حب المال فما قيمة ترك المال الحرام؟ قد يكون المبلغ مغرياً جداً ومع ذلك تقول: إني أخاف الله رب العالمين، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أودع في نفس الإنسان الجنس الآخر فما قيمة غض البصر؟ وما موقف سيدنا يوسف حينما قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

لولا الشهوات التي أودعها الله فينا لما كانت جنة ولا نار :

لاحظوا أيها الأخوة أن هذه الشهوات التي أودعها الله فينا لا يمكن أن نرقى إلى الله إلا بها، وطريقنا إلى الله شهوات حيادية، يمكن أن تكون قوة دافعة إلى الله عز وجل ويمكن أن تكون قوة دافعة إلى جهنم، والشهوة هي هي، وحب النساء طريقك إلى الله عز وجل، وكيف ذلك؟ غض البصر، تحس أنك تعارض نفسك وتنهاها عن الهوى فهذه طريق، وإذا سلكت الطريق التي شرعها الله عز وجل أيضاً فهذا طريق آخر إلى الله، وحب المال طريق إلى الله عز وجل، دافع يدفعك إلى الله عز وجل بإنفاقه أو بالترفع عن المال الحرام.

إذاً لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فينا لما كانت جنة ولا نار، أولاً الفطرة سليمة جعلك تحب الخير، وتحب الرحمة، والعدالة، والإنصاف، والحلم، وجعلك تحب من أحسن إليك وجعل فيك نقاط ضعف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

[سورة الأنبياء: 37]

هذه النقاط وإن كانت نقاط ضعف في الإنسان إلا أنها لمصلحة إيمانه ولمصلحة سعادته وهي تعينه على معرفة الله، وهي تعينه على التوكل على الله وعلى الالتجاء إلى الله.

الشهوات حيادية لكنها مِحَك للإنسان وبها تكشف النفس على حقيقتها :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

خلقها على فطرة عالية وخلقها تحب من أحسن إليها وخلقها ذات قوانين وأودع فيها الشهوات، وهذه كلها دوافع إلى الجنة، بها ترقى إلى الله عز وجل وبها تنحدر إلى جهنم:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

لكن المدنية اليوم في العالم كله لا تعنى إلا بالجسد، بيت مريح ومركبة مريحة وطعام نفيس وثياب أنيقة فهذه أشياء تجذب ضعاف العقول، ولكن إذا جاء الموت انقطعت فجأة كل هذه المكتسبات التي حصلها الإنسان في الدنيا، كل المال تنتهي وظيفته عند الموت، فإن مات الإنسان وترك آلاف الملايين وإن مات ولا يملك شروى نقير فكلهما سيّان، وأمراض الجسد تنتهي عند الموت بينما أمراض النفس تبدأ عند الموت ولذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

من الذي سوى هذه النفس؟ جعلها تخاف وجعلها تغضب، بهذه الفطرة تصبر أو لا تصبر، وترقى أو لا ترقى، وتصدق أو تكذب، وتخلص أو تخون، وتحلم أو تنتقم، وتعفو أو لا تعفو، فهذه الشهوات حيادية لكنها مِحَك لها، بهذه الشهوات تكشف النفس على حقيقتها.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

النفس البشرية مخيرة وليست مكرهة :

الإنسان عنده استعداد أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، وعنده استعداد أن يكون رحيماً أو قاسياً، وأن يكون كريماً أو بخيلاً، وأن يكون ودوداً أو مجافياً، وأن يرقى أو يَسْفُل، وأن يسمو أو ينحط، وأن يقوى أو يضعف، هذه كلها في متناول يده عن طريق هذه الشهوات التي أودعها الله فينا:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

و شيء آخر الله سبحانه وتعالى من معاني:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

إضافة إلى الفطرة السليمة وإضافة إلى حب من أحسن إليها وإلى الشهوات التي أودعها الله فيها كذلك جعلها مختارة، فالنفس البشرية مخيرة وليست مكرهة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

الله عز وجل أعطى النفس الاختيار وجعلها مسؤولة :

إضافة إلى كل ذلك جعل ربنا سبحانه وتعالى معاملته لهذا الإنسان في ضوء موقفه هو:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر: 38]

أعطاها الاختيار وجعلها مسؤولة، " أكان مسيرنا إلى الشام ـ هكذا سأل أحدهم سيدنا علياً كرم الله وجهه ـ بقضاء من الله وقدر؟ قال: ويحك لو كان قضاءً لازماً حتماً إذاً لبَطَلَ الوعد والوعيد ولانتفى الثواب والعقاب ولكان أنزل القرآن لعباً، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً، أعطاك اختياراً وجعلك مسؤولاً "، وأعطاك شهوات مزروعة في نفسك، وهذا ليس عيباً فيك إنما هو لمصلحتك ولسعادتك الأبدية، فهل ترقى أم تسفل بها؟ وأعطاك نفساً تحب الخير وتحب الرحمة وتحب العدالة وقد يكون

المرء غير ذلك، في بحث آخر إن اللصوص إذا اجتمعوا ليقتسموا ما سرقوه يقسمونه بالعدل لِأنهم في الأصل يحبون العدل؟ لا بل هذه الفطرة، أي إنسان على وجه الأرض من أقصى الأرض إلى أقصاها، من شمالها إلى جنوبها فطرته هي هي، إذا أساء لمن أحسن إليه يعذب أشد العذاب من دون أن يعذبه أحد، فلذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

بذل الوقت وبذل الجهد والمال وصون النفس عن المحرمات هذا كله يرقى بالإنسان :

جعلك حراً وجعلك مسؤولاً ومعاملته لك مرتبطة بموقفك منه:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

ومن الأسوأ إلى الأحسن:

(حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

من الأحسن إلى الأسوأ:

(حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

إنها القوانين، وأنت مفطور فطرة سليمة تحب المحسن وتكره المسيء، وأنت حر مسؤول، عندك شهوات حيادية ترقى بك، إذ زرعت فيك لترقى بك، ولولا هذه الشهوات كيف السبيل إلى التقرب إلى الله عز وجل؟ مستحيل، إنه فعل شيئاً عاكس نفسه التي تريد ميل النظر، وعاكس هذا الميل وارتقى إلى الله عز وجل، وآثر امرأة صالحة على امرأة جميلة نبتت في منبت سوء.

((إياكم وخضراء الدمن، قيل: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[العسكري في الأمثال والديلمي عن أبي سعيد رضي الله عنه]

فبماذا ترقى؟ جاءك مبلغ كبير فقلت: إني أخاف الله رب العالمين هذا فيه شبهة، بماذا ترقى؟ لا ترقى إلا بترك المحرمات ونيل الطاعات ومخالفة الشهوات التي لا ترضي الله عز وجل واتباع ما شرعه الله لك، أحياناً الإنسان يسأل سؤالاً ساذجاً: لماذا أودع الله عز وجل في أنفسنا هذه الشهوات لو لم يودعها فينا لاسترحنا وأرحنا؟ لا، هذا كلام ساذج، فلولا هذه الشهوات لما كانت جنة، بها ترقى بغض البصر وبإنفاق المال، وأن تقوم من فراشك وأنت مستريح، وأن تشد رجليك مع أخ تساعده في حاجة، ولا

ترقى إلا بالعمل الصالح، والعمل الصالح يحتاج مالاً وجهداً ووقتاً، فبذل الوقت وبذل الجهد والمال وصون النفس عن المحرمات هذا كله يرقى بالإنسان.

الله تعالى أعطانا حرية الاختيار و

جعل علاقتنا معه واضحة تماماً :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

جعلك على الفطرة السليمة تحب الخير، زرع فيك الشهوات من أجل سعادتك، أعطاك حرية الاختيار وجعلك مسؤولاً عن أعمالك كلها:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

جعل علاقته معك واضحة تماماً:

(لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الأعراف: 56]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 97]

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

بعد الفطرة و الصبغة و قوة التمييز إذا انحرفت يلهمك الله أنك منحرف :

جعل علاقته معك واضحة جداً وفوق كل ذلك جعل في نفسك طبيعة تملكها أنت وهي أنك تميز بين الخير والشر، أعطاك هذه القدرة، فهذه طاقة:

((الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات))

[البخاري عن النعمان بن بشير]

استفت قلبك ولو أفتاك المفتون وأفتوك، أنا أذكر لكم أن أي إنسان عنده بفطرته السليمة حاسة سادسة تنبئه أن هذا العمل صحيح وهذا غير صحيح، ولذلك فإن كل المنحرفين معذبون نفسياً لأن فطرتهم

تحاسبهم، فوق هذا وذاك لقد أعطاك قوة إدراكية موجهة وهي الفكر، أعطاك قوة إدراكية وجعل لها سلطان المنطق وسلطان الفكر، وفوق هذا وذاك أعطاك كوناً هو تجسيدٌ لأسمائه الحسنى، كل أسمائه الكامنة في ذاته مجسدة في هذا الكون، ترى من خلال الكون رحمته وعلمه وقدرته وحكمته ولطفه وإبداعه وعدله، أبداً، هل بقي شي لك عليه؟ شيء بقي عليه أنه أرسل لك أنبياء وأنزل معهم كتباً من عندك، ما الذي بقي؟ فطرة سليمة وشهوات لمصلحة الرقي وقوة إدراك للتمييز بين الخير والشر وفكر مسيطر عنده قدرة على التوجيه وكون معجز وأنبياء دعاة وكتب:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

وبعد كل هذا فبعد الفطرة وبعد الصبغة وبعد قوة التمييز وقوة الفكر والكون والضياء والأنبياء والقرآن وإذا انحرفت ألهمك أنك منحرف:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

النفس التي سواها الله تعالى قد تفوق كل الآيات السابقة :

إذا رشدت ألهمك أنك مصيب؛ يشرح الله صدرك، وإذا استقمت تحس براحة لا توصف، وتحس بأن جبلاً كان جاثماً على صدرك فانزاح عن كاهلك، وإذا وقعت في خلل وانحراف في نية سيئة تحس بالضيق:

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

[سورة التوبة: 25]

كل شيء ذكرناه:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

إن هذه النفس التي سواها قد تفوق كل هذه الآيات السابقة.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا *وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

فعلى تسوية النفس هنالك أشياء كثيرة، دعونا من الجسد ومن دقة العين ودقة الأذن ودقة الفكر والسمع والبصر والذوق والغدد الصماء والجملة العصبية والدماغ دعونا من هذا الجسد المعجز الذي هو أعقد آلة في الكون وتعالوا إلى النفس التي لا تزال ذلك المجهول، هناك كتاب ألّف عنوانه "الإنسان ذلك المجهول" ومحوره كله أن غلط العصر الأكبر أن الناس اتجهوا إلى الجسد على حساب النفس، رفاهية مادية وشقاء نفسي.

نجح في حياته وحقق الهدف الذي خلق من أجله هو الرابح الأول في الحياة:

سألت أحد الأطباء: هل تستطيع أن تلخص لي الأمراض التي تصيب القلب بكلمات؟ قال: نعم راحة جسدية وتوتر نفسي. أما أجدادنا فتعب جسدي وراحة نفسية، وكل هذه الأدوات التي أحالت حواسنا إلى راحة واسترخاء ووفرت أعصابنا، وجعلت التدابر والتناقض والتباعد والحسد والحقد والخوف على زوال الدنيا ولهاث وراءها، وهذه كلها توترات عصبية أرهقت القلب والإنسان ذلك المجهول، الغلطة الكبرى التي ارتكبتها أوربا أنها اعتمدت رفاهية الجسد على حساب النفس.

وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام على أن حياتهم كانت خشنة وطعامهم خشن حفنة من الطحين يأكلونها، وكأس حليب يشربونه، وجمل يركبونه غير مكيف ومع ذلك كانوا سعداء. وكان الواحد منهم كالكوكب الدري إن أتيح لإنسان أن يجلس معهم طار سعادة والآن ترى الرفاهية في قمتها والناس في حضيض الشقاء.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

ومع ذلك مع وجود الأنبياء والكتب المقدسة والكون المعجز الذي هو تجسيد لأسماء الله تعالى وهذا الفكر العظيم وهذا الضياء وهذه القوة المميزة والفطرة السليمة وحب المحسن وحب الخير وهذه الشهوات التي أودعها الله فينا إذا انحرف الإنسان:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

طالب يأخذ علامات عالية في الشهادة الثانوية، يقول لك: صرت طبيباً ولم يدخل كلية الطب بعد، فاستخدام الفعل الماضي مكان الفعل المضارع أو الأمر أو المستقبل معناه في اللغة تحقق الوقوع. والإنسان في الدنيا إذا زكى نفسه ولو كانت حياته متواضعة وخشنة وعمله صغير ومكانته الاجتماعية صغيرة قد أفلح ومعنى أفلح فاز، فاز بماذا؟ مطلقة، هذا مطلق النجاح فلا داعي أن تقول فاز بمَ؟!! هذا الإنسان نجح في حياته، ونجح في وجوده، وحقق الهدف الذي خلق من أجله، هذا الإنسان هو الرابح الأول في الحياة.

ربنا عز وجل عندما أغفل المفعول به أعطى معنى الفلاح المطلق :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أحياناً الإنسان يركب سيارة وتتعطل المكابح فجأة والطريق منحدرة وتنتهي بمنعطف خطر، يقول لك: انتهينا، بثانية يقول لك: انتهينا، حينما يشعر أن هذا الحادث مصيري فيستخدم الفعل الماضي لا الفعل المضارع (قد أفلح). هذا الذي عرف ربه قد أفلح وهذا الذي استقام على أمره قد أفلح، وهذا الذي عمل الصالحات قد أفلح، وهذا الذي قال إني أخاف الله رب العالمين قد أفلح، أفلح بماذا؟ جميع أنواع النجاة مقيدة؛ نجح بعمله ويكون في بيته شقياً، ونجح بزواجه ويكون بعمله شقياً، ونجح بدراسته ويكون عنده خمسون علة في جسمه، فكل أفعال النجاح نستخدمها مقيدة، أما إذا قلت: فلان نجح بكل شيء فيكون قد حقق التكامل البشري، فربنا عز وجل عندما أغفل المفعول به أعطى معنى الفلاح المطلق، أي:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فاستخدام الفعل الماضي أي تحقق الوقوع واستخدام (قد) هذه تزيد من تحقيق الوقوع، (قد) حرف تحقيق (قد أفلح)، والآن لنصغ إلى الله عز وجل من الذي أفلح؟ قال:

(مَنْ زَكَّاهَا)

الـ (ها) على من تعود؟ على النفس.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

والحقيقة إذا اعتقدت قيمة أخرى أن المال هو كل شيء فما أشد الضلال، وإذا اعتقدت أن الشهوات هي كل شيء فما أبعد الضلال.

الهدف الأكبر من الخلق :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

كيف يزكيها؟ ولماذا يزكيها؟ سؤال كيف ولماذا ومتى؟ متى؟ في الدنيا، ولماذا؟ لأن هذه النفس الإنسانية خلقت لتسعد بالله عز وجل، خلقت السموات والأرض من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، أنت مخلوق من أجل أن تسعد بالله عز وجل، هذا هو الهدف الأكبر من خلقك، خلقت لتعرف الله فما معنى تعرفه؟ أي تسعد بقربه إلى أبد الآبدين في جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لكنك لن تستطيع أن تسعد بالله وأن يكون لك مقعدَ صدق عند مليك مقتدر إلا إذا كنت مؤهلاً لهذا المنصب.

التأهيل في الدنيا، والجزاء في الآخرة، فما هو التأهيل؟ زكاها يجب أن تزكي نفسك لكي تصبح مؤهلة لأن تكون في كنف الله إلى الأبد، وربنا عز وجل بعدما ذكر النفس وما سواها وألهمها فجورها وتقواها قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

وقد نجح نجاحاً مطلقاً هذا الذي توجه إلى نفسه فزكاها.

كلمة (زكاها) لها ثلاثة معانٍ :

ما معنى زكاها؟ لها ثلاثة معانٍ:

1 ـزكاها أي طهرها من الأمراض التي سوف تعذبه إلى أبد الآبدين :

المعنى الأول: طهرها من الحقد والحسد والكبر والضغينة والأثرة وحب الذات والاستعلاء واللؤم والبخل والنفاق والمحاباة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

هنالك أمراض تصيب النفس لا تعد ولا تحصى، وهذه الأمراض كلها أعراض الإعراض، تُعرض فتظهر عليها هذه الأعراض، فلان لئيم! عجيب ذلك، لا، العجيب إذا كان كريماً يكون عجيباً، وإذا كان مقطوعاً عن الله وكان كريماً فهذا هو العجيب، وإن كان مقطوعاً عن الله فلا بد من أن يكون لئيماً، ولا بد من أن يكون بخيلاً وقاسياً ويحب ذاته وحدها، ولكن هنالك أذكياء نقول هذا ذكاء مصلحة فإذا وضع في موقف حرج وإذا ضيقت عليه ظهر لؤمه على حقيقته. فالإنسان إن لم يكن له صلة بالله عز وجل فلا بد من أن يشكو من معظم هذه الأمراض، وهذه اسمها أعراض الإعراض:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أي من طهر نفسه من هذه الأمراض، فلو كنت تسكن أفخم بيت وأنت لئيم فهذا هو الشقاء بعينه لأن البيت ينتهي عند الموت ولكن اللؤم سيبدأ فعله المؤلم بعد الموت إلى الأبد، ولو كان عندك ألف مليون فعند الموت تنتهي أما البخل فيبدأ بعد الموت.

مثلاً تجد رجلاً غنياً جداً وتقام عليه دعوى النفقة، إذا مات هذا الغني ترك المال وبقي هذا الموقف اللئيم الذي وقفه إلى الأبد يعذبه، فمعنى زكاها أي طهرها من الأمراض التي سوف تعذبه إلى أبد الآبدين وهذا هو المعنى الأول.

2 ـمعنى (زكاها) أي سما بها :

معنى (زكاها) أي سما بها لأن الإيمان فيه تخلية وتحلية، وتطهير وتعطير، فالمعنى الثاني لا يكفي أن تكون مستقيماً بل يجب أن تكون رحيماً كريماً ودوداً لطيفاً حليماً هذه هي الصبغة، فالصبغة عندما يتخلق الإنسان كقطعة معدن كانت موضوعة في ثلاجة ضعها في الشمس تفقد شيئاً وتكسب شيئاً آخر إذ تفقد برودتها وتكسب الحرارة.

فالإنسان إذا اتجه إلى الله عز وجل يتخلص من أدرانه وأمراضه النفسية ويكسب الكمالات الإلهية.

3 ـالمعنى الثالث الزيادة والنمو :

المعنى الثالث الزيادة والنمو، فلا ينبغي لك أن تبقى في مرتبة واحدة بل لا بد من أن ترقى، والمغبون من تساوى يوماه، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

أول معنى الطهارة من كل أمراض النفس، والمعنى الثاني التحلي بالكمالات الإلهية، التخلق بأخلاق الله، والمعنى الثالث الرقي والنمو، فما معنى زكّى؟ متى؟ هي في الدنيا ثمن الجنة، ثمنها لمقعد صدق عند مليك مقتدر، ثمنها السعادة الأبدية التي لا تنقضي:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فضل الصلاة :

متى؟ في الدنيا، هذا طريقها الصلاة، الصلاة نور والصلاة طهور، فبالصلاة تشفى من كل أمراضك، وبالصلاة تتحلى بالكمال، وتتقلب في معارجه، ولذلك الصلاة معراج المؤمن، الصلاة ميزان، من وفى استوفى، فلا خير في دين لا صلاة فيه، الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد ترك الدين، وبين الرجل والدين ترك الصلاة، أساس الدين الصلاة:

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 31]

إنها صلة بالخالق وإحسان بالمخلوق هذا التعريف المختصر للدين، إذاً إذا قلنا:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أي قد حقق النجاح المطلق لا في الآخرة فحسب بل في الدنيا، فمن هذا؟ هذا الذي زكى نفسه وطهرها من الأمراض النفسية وحلاها بالكمالات الإلهية وجعلها تنمو مع الأيام، فمن هو الإنسان؟ إنها بضعة أيام كلما انقضى منه يومٌ انقضى منه بضعٌ.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

معنى كلمة (أفلح) :

لذلك إذا كنت أنت أيها الأخ الكريم مطبقاً لهذا الكتاب العظيم، أي إن لم تكن في هذا الطريق فأنت في خسارة كبيرة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لقد اشترى أرضاً فازداد ثمنها ثمانين ضعفاً! إنه خاسر، وله دخل يومي يعادل ثلاثين ألفاً، وكل عملية بثمانية آلاف، وعنده خمس عمليات في اليوم وعيادته تكتظ بالناس:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 2]

حسابه في المصرف ثلاثة آلاف مليون:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 1-2]

كلام الله الذي خلق السماوات والأرض:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 1-2]

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

شيء خطير جداً أن تمشي في طريق مسدود، ومعنى قد أفلح؛ لو تخيلنا عشرة أشخاص عطشى على وشك الموت، وهناك نبع وهؤلاء العشرة توجه كل واحد منهم إلى المكان الذي ظن أن فيه ماء فتسعة ماتوا وواحد وصل إلى النبع فقط فهذا (قد أفلح).

إمبراطور اليابان بعث سبعة طلاب إلى فرنسا في أول النهضة اليابانية، فواحد منهم أحضر شهادة وستة طافوا في متاحفها وملاهيها وحدائقها وشوارعها وما درسوا، فأعدم الستة، فهذا الذي عرف مهمته في الحياة من هذه البعثة وحقق الهدف وضعه في منصب عال وأكرمه إكراماً شديداً.

الخاسر الأكبر :

معنى (قد أفلح) أي هذا الإله العظيم خلقك لهدف محدد، فإذا عرفته وكنت في اتجاهه وبالسرعة المناسبة فقد أفلحت، إلا في حالات نادرة، فهناك إنسان هدفه معرفة الله ولكنه سائر في طريق لا يؤدي إلى ذلك فهذا يتأدب ويُعالج، وآخر هدفه معرفة الله وهو على طريق معرفة الله ولكن سرعته بطيئة فهذا له مصائب دفع، ومصائب ردع، ومصائب كشف، إنها أنواع المصائب:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

من هو الخاسر الأكبر؟ الذي دس نفسه أو وضعها في التراب أو وضعها في الوحل في وحول الشهوات، وآثر ما يفنى على ما يبقى، وفضّل المال ومتع الدنيا والنساء والطعام: تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الدرهم والدينار، جعل نفسه عبداً لعبيد الله حباً بالمال وحباً بالشهوات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

ومعنى دساها وضعها في مكان لا يليق بها، خلقت من أجل أن تعرفه فاستهوتك النساء، وخلقت من أجل أن تعرفه فعشت فقيراً لتموت غنياً أي بخيلاً، ومن أجل أن تعرفه فغرقت في شهوة تافهة لا قيمة لها فجعلت عملك قبراً لك من الصباح إلى المساء في العمل التجاري وحسابات، فهو لا يصلي ولا يفعل خيراً، يأتيه الموت فجأة وهو صفر اليدين:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

خاب وخسر وشقي.

الجنة هي استمتاع بذات الله :

هذه الآية خطيرة جداً إنها آية مصيرية، فأنت على الطريق الصحيح تعرف الهدف الذي خلقت من أجله لتسعد بالله، وأحدنا إذا دخل إلى غرفة دافئة في أيام البرد، وإلى غرفة مكيفة في أيام الحر، وشرب من الماء العذب كأساً إثر العطش الشديد، ورأى منظراً جميلاً، وتناول طعاماً طيباً يستمتع به، فبماذا استمتع؟ بمسحة من جمال أودعها الله هذه المخلوقات، فما قولك أن الجنة هي استمتاع بذات الله:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

إنكم سوف ترون ربكم في الجنة، ينظر الإنسان إلى ربه فيغيب خمسين ألف سنة من نشوة النظرة، أنت خلقت لهذه السعادة العظمى فأنا صرت في الثمانين وقد ضعف بصري فلا شباب ولا شيخوخة

معك، ولا حر ولا قر، ولا خوف ولا قلق، ولا حزن ولا مشكلة، ولا مشاحنة ولا قلق على المواد الأولية أن تنتهي، وعلى المياه، وكل شيء متوفر، وفوق هذا وذاك كل نظرة إلى الله عز وجل يغيب فيها الإنسان خمسين ألف عام من النشوة.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ*هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ* لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ* وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ*أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

[سورة يس: 55-60]

هذا هو الهدف فهل أنت في طريق هذا الهدف؟ هل تزكي نفسك؟ هل تقول إن هناك أمراضاً، هناك مؤمن صادق لاحظ بنفسه غيبة فقال: هي مرض خطير فيجب أن أراقب نفسي، فأنا أنقل حديثاً سيئاً لإنسان ما ورأى أنه يخطف بصره بعض المناظر في الطريق هي مخالفة.

ثمن السعادة هو أن تزكي نفسك في الدنيا :

هل عندك رقة مع الله وهل عندك ورع:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

(قَدْ أَفْلَحَ)

إنه فلاح مطلق ونجاح مطلق، الآن أنت إنسان عادي ولكنك عرفت الله فكأنك في الجنة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أنت مخلوق لتسعد بالله عز وجل لكن هذه السعادة لها ثمن وهو أن تزكي نفسك، متى؟ في الدنيا عن طريق الاختيار والمسؤولية والشهوات التي أودعها الله فيك، وعن طريق كل هذا الكون وهذا الفكر.

أكبر خسارة في الدنيا تبقى محدودة أما خسارة الآخرة فهي خسارة أبدية :

قال تعالى:

(وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أي حبط عمله وشعر بالخسارة الكبرى، والإنسان في الدنيا قد يخسر ولكن أكبر خسارة تبقى محدودة أما خسارة الآخرة فهي خسارة أبدية. والآن ربنا عز وجل أراد أن يبين لنا صورة من صور الخسارة قال:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

أي بطغيانها الباء للسببية لأنها كانت طاغية، والطغيان تجاوز الحد المعقول وتجاوز الحق:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

طغت فكذبت، فالتكذيب ملازم للطغيان، فإذا تجاوز إنسان حده مع شريكه فلا بد أن يكذب بحقائق الدين، فما دام هناك طغيان فيحصل تكذيب، وإذا تجاوز حده مع زوجته فهو طغيان، ويخلق تكذيباً ويتجاوز حده مع زبائنه فكذلك:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

ما هو هذا التكذيب؟

عقاب الاشتراك في القتل :

قال تعالى:

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هؤلاء سألوا سيدنا صالحاً ناقة تخرج لهم من الجبل وعلقوا إيمانهم على هذه المعجزة، وفي القرآن الكريم قانون وهو أن قوماً إذا طلبوا من نبيهم معجزة خارقة وتحققت ولم يؤمنوا استحقوا الهلاك. لأن هذا آخر سهم، ومعنى ذلك أنه لا رجاء من إيمانهم، فهؤلاء طلبوا ناقة تخرج من الجبل، فمن فعل هذا فهو نبي، فلما خرجت هذه الناقة كذبوه وأرادوا أن يعقروها فقال الله عز وجل:

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا*فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

أي احذروا أن تقتلوها فهذه ناقة الله:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

فهل من المعقول إذا قوم سيدنا صالح قوم ثمود عددهم عشرة آلاف إنسان أن يشتركوا بقتل ناقة؟ لا، لكنهم رضوا بقتلها. وسيدنا عمر استنبط من هذه الآية، أن أهل قرية لو اجتمعت على قتل رجل واحد لقتلوا جميعاً به. الذي قتله واحد لكنهم دفعوه جميعاً، وهذا هو الاشتراك في القتل، فربنا عز وجل قال:

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هو الذي عقر الناقة:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

أي تآمروا على قتلها فاستحقوا الهلاك وهو آخر سهم.

العدالة في عقاب الله سبحانه :

قال تعالى:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

هذا فعل ثنائي مضعَف مثل زلزل، قلقل، عسعس، جرجر، كل فعل ثنائي مضعَف فيه تكرار زلزل، عسعس، قلقل، القلقلة (دمَ) أي أهلك:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

أي هلاك بعد هلاك، هلاك بعد هلاك متلاحق، زلازل متلاحقة، صواعق متلاحقة، براكين متلاحقة:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

لكن القرآن الكريم مُعلل:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ)

هناك عدالة:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

أغادير مدينة على الساحل الأطلسي من أجمل المدن الساحلية ومن أفسق المدن دمدم عليها ربهم بذنبهم في ثلاث ثوان أصبحت حجراً فوق حجر، وبعد أسابيع جاءت الجرافات وسوتها، فجعلتها أرضاً مسواة.

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

الآن هناك فنادق وأبنية شاهقة أصبحت أرضاً مستوية.

للآية الأخيرة تفسيران :

قال تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

فهذا الإنسان لا يخاف عقبى عمله، بعضهم فسرها أن الله سبحانه وتعالى أمره هو النافذ ولا أحد في الكون يحاسبه فهذا معنى، والمعنى الثاني هذا العاصي لا يخاف عقبى عمله، وهذا الزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم والطاغي الذي يطغى على حقوق الناس لا يخاف عقباها عجباً له.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

هذا مثل مجسد:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا*إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

لأنها طغت كذبت.

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هو الذي عقر الناقة:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

اشتراكهم في الإثم والرضا والدفع:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الليل 092 - الدرس (1-1): تفسير الآيات 1-21 التيسير والتعسير.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-04-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى في السور المكيـة يقسم ببعض الآيات الكونية :

أيها الأخوة الكرام:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى*فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى*وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

الله سبحانه وتعالى في هذه السور المكيـة يقسم ببعض الآيات الكونية، وآية اليوم هي الليل:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

يغشى أي: يغطي، فالليل يغطي وجه الشمس، والليل يغطي النهار، والليل يستر كل شيء فلا ترى فيه شيئاً، ترتاح فيه طاقاتنا العصبية، وما منا واحد إلا ويعرف قيمة النوم، فلو بقي بلا نوم يومين متتابعين لاختل كيانه، واختل توازنه.

الليل نظام إلـهي تسكن فيه الخلائق والنهار كذلك نظام إلـهي ولكنه حركة وانطلاق

فالله سبحانه وتعالى جعل الليل سكناً، فحينما يُغشي الليلُ النهار، أو حينما يُغشي الليلُ ضوء الشمس، أو حينما يُغشي الليلُ كل شيء في أحد نصفي الكرة الأرضية عندئذ تسكن حركة كل شيء، فإن لم يكن ليل فماذا يحصل؟ تنقلب حياتنا إلى فوضى، فهذا نام عشر ساعات، وذاك بدأ يعمل، وهذا بدأ بالنوم عندما بدأ غيره بالعمل، وينعدم الزمن فكيف نحسب الأيام؟ لا ليل ولا نهار، ولكن ضياء مستمر، أو ظلام مستمر، تصوروا لو فقدت الأرض دورانها، ولو بقي الليل سرمداً إلى يوم القيامة، أو بقي النهار سرمداً إلى يوم القيامة فماذا يحصل؟ ينعدم الزمن، ولما عرفنا عدد السنين والحساب، ولما عرفنا أعمارنا، ولما عرفنا النظام، لاختلفنا على العمل وعلى ساعات العمل، ولكن الليل نظام إلهي تسكن فيه الخلائق، والنهار كذلك نظام إلهي، ولكنه حركة وانطلاق، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

[سورة النبأ: 10-11]

النهار لكسب الرزق جعله مضيئاً وجعله واضحاً، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

فيا أيها الإنسان الكريم؛ يا أيها المؤمن: هل فكرت في هذه الآية؛ في الليل كيف أنه رحمة لنا، وأنه نظام لحياتنا، وسكنٌ لأعصابنا، وأنه آية من آيات الله على دوران الأرض حول نفسها، ولولا القمر لأصبح الليل أربع ساعات، إذاً الأرض والقمر وحجم الأرض وسرعة دورانها تسهمان في هذا التوقيت المناسب، فالليل ثماني ساعات، أو عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة، وهذا الوقت مناسب لراحة الأجسام، أيْ هو توقيت بين طاقة الإنسان وحاجته إلى النوم، وبين دورة الأرض حول نفسها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

الليل والنهار آيتان من آيات الله عز وجل :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سُبْحَانَ اللَّهِ أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ))

[أحمد عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ]

لقد ظهر النهار، وظهر فيه كل شيء، وتوضحت معالم الأشياء، وتوضحت معالم الأرض، وتوضحت حاجاتنا، ودخل النور إلى بيوتنا فاستغنينا به عن ضوء الكهرباء وعن ضوء الشموع.

(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

وقد يقول قائل: لماذا كان (يغشى) فعلاً مضارعاً، والفعل (تجلّى) ماضياً؟ لأن النهار هو التفات نحو الشمس، والشمس مضيئة دائماً، بينما الليل هو ابتعاد عن وجهها، أو دورة الأرض حول نفسها، حيث تأتي هذه النقطة معاكسة لضوء الشمس إذاً الليل يغشى، والفعل المضارع فيه معنى الاستمرار، ولكن الشمس ساطعة مشرقة دوماً، فإذا كانت هذه النقطة على سطح الأرض في الجهة المعاكسة كان الليل، أما (تجلّى) فيعني أنّ الشمس ساطعة دائماً، فالليل والنهار آيتان من آيات الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

[سورة فصلت: 37]

ومن آياته أيضاً اختلاف الليل والنهار، اختلاف طولهما وثبات دورانهما، وهما أيضاً آيتان من آيات الله عز وجل.

الفروق بين الذكر والأنثى :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

هذا النظام البديع في كون الخلائق كلها ذكراً أو أنثى بادٍ في هذه النطفة التي لقحت هذه البويضة، فلا يمكن أن تكون ذكراً أو أنثى إلا بها، فكيف أصبح الذكر ذكراً والأنثى أنثى؟ وكيف أصبح الرجل له صفات خاصة؛ بدءاً من هيكله العظمي، وله جمجمة كبيرة، وله حوض ضيق، وعضلات مفتولة، وصوت خشن، وشعر في أماكن خاصة لا ينبت لدى المرأة، وله شكل معين، وطباع معينة، وأجهزة معينة، وقدرات في فكره معينة، ونفسية معينة، وطموحات معينة، ويتقن أعمالاً معينة، والمرأة لها هيكل عظمي آخر، ارتفاع في الحوض، وصِغَر في الجمجمة، ولها أجهزة خاصة من أجل الحمل والولادة، ولها شكل خاص، وعضلات خاصة، لها توضُّع شحم خاص تحت الجلد، ولها نبرة خاصة، وعقلية خاصة، وطبع خاص، وطموحات خاصة، وأهداف خاصة، (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)، نطفة من مني يمنى، تلقح بويضة فإذا هما مخلوقان متباينان؛ ذكر وأنثى.

وفي بعض العلوم الحديثة تِبيان مُفصَّل للفروق الدقيقة بين الذكور والإناث؛ ذاكرة المرأة أقوى من ذاكرة الرجل، لكن محاكمة الرجل أقوى من محاكمة المرأة، والعاطفة تغلب على المرأة، بينما العقل يغلب على الرجل، واللحظة الآنية تغلب على المرأة، لكن الهدف البعيد يغلب على الرجل، والرجل يحب القيادة، بينما المرأة تحب أن تنقاد إلى زوجها، وهذا كلام عام، فلا يمنع أن ترى امرأة مترجلة، أو رجلاً مخنثاً، فهذه حالات خاصة، لكن الأصل في الزوجين أنهما متباينان في الطباع، والعادات، والتفكير، ونمط الحياة، ونمط السلوك، والنفسية، والرغبات، والطموحات، والشكل، والبنية، وفي الأعضاء.

الآية التالية تحتمل وجوهاً كثيرة في التفسير :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

هذا المعنى الأول، وبعضهم فسر الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، في هذه الآية أنهما آدم وحواء، والبشر كلهم انحدروا من هذين المخلوقين، وكلمة (ما) في الآية:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

تعني خَلْقَ الذَّكرِ والأنثى أيْ عظمة خلْق الذكر والأنثى، ولكنّ المعنى الثاني، ومَنْ خلق الذكر والأنثى، فكأن الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

ومَن خلق الذكر والأنثى؟ ومن خطّط للذكر والأنثى؟ ومَن صمّم الذكر والأنثى؟ ومن ابتدع الذكر والأنثى على غير مثال سابق؟ وبعضهم قال: ومن خلق من ذكر وأنثى، والمقصود بمن هنا المؤمنون؛ الأنبياء، والصالحون، والصديقون، وكأن الله سبحانه وتعالى أقسم بعباده المؤمنين، وهذه الآية تحتمل وجوه كثيرة؛ أولاً: خلق الذكر والأنثى. ثانياً: ومن خلق الذكر والأنثى. ثالثاً: وما خلق من ذكر وأنثى، و(مِنْ) هنا للتبعيض، أي خلق مِن ذكر وأنثى صالحين، فأقسم بذاته، أو أقسم بعباده الصالحين، أو أقسم بهذه الآية الكبرى من آياته سبحانه.

والمجال يضيق عن التفصيل في الفروق بين الذكر والأنثى، وليس هذا منحصراً في الإنسان، لكنه ينسحب على الحيوان أيضاً، وعلى كل مخلوق ذو روح؛ ذكر وأنثى، فللذكر طباعه، وللأنثى طباعها. الناقة والجمل، الهرة وذكرها، طباع مختلفة، وهذا باب كبير من أبواب التفكير، لأن الفروق بين الذكر والأنثى لا على مستوى الإنسان فحسب بل على مستوى مخلوقات الله كافة. وربما ينسحب ذلك إلى النبات، فهناك نبات مذكر ونبات مؤنث، ولا تنعقد الثمرة إلا إذا تم التلقيح بين المذكر والمؤنث.

السعي في هذه الحياة هو نشاط الإنسان وحركته اليومية :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

وهذه هي موضوعات القسم.

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

لكن أين جواب القسم؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي إن سعيكم في هذه الحياة هو نشاطكم، وحركتكم اليومية، انظر إلى الطرقات في الساعة الثامنة، وانظر إليها في الساعة الخامسة، تزدحم بالمارة، كلٌّ إلى عمله، وهذا إلى مكتبه، وهذا إلى دائرته، هذا إلى أرضه، وهذا إلى عقد صفقة، وهذا إلى بيع أرض، وهذا إلى شراء بيت، وهذا إلى قراءة كتاب، وهذا إلى اقتناء حاجة، وهذا إلى إقامة دعوى، وهذا إلى صلح، وهذا إلى تعلم آيات الله، وهذا إلى حفظ

القرآن، وهذا إلى حضور مجلس علم، وهذا إلى طلاق زوجته، وهذا إلى اغتصاب مال جاره، وهذا إلى الكيد برفقائه:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

ولو نظرت إلى الناس صباحاً في المدن المزدحمة لوجدت أنه ما من واحد منهم إلا وله مسعىً ونشاط يستقل به عن أخيه:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

سعي البشر متباين ومتفرق في نتائجه مختلف في حقيقته :

ولكن ربما لا يبدو هذا المعنى كافياً، لكونه جواباً لقسم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

فلو قلت لكم مثلاً: واللِه العظيم إنّ الأرض غير السماء، طبعاً الأرض غير السماء، واللهِ العظيم إنّ هذا غير هذا، طبعاً هذا شيء بديهي، فما المقصود إذاً من كلمة:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

قال بعضهم: إن سعيكم متباين متفرق في نتائجه، مختلف في حقيقته، هذه بديهة مُسلَّم بها لا يختلف فيها اثنان، لأن كل إنسان له في الحياة طريق، وله فيها مطلب، وغاية، ومبعث، ونية، ودافع، وحاجة، ونمط، ومعنى شتى أي مفترق، لكن الذي يريده الله عز وجل كجواب لهذا القسم العظيم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي شتان بين سعي وسعي، وشتان بين عمل وعمل، وشتان بين اتجاه واتجاه، وشتان بين نشاط ونشاط.

آيات قرآنية تبين أن سعي البشر متباين :

قال تعالى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

فسعي يودي إلى المشنقة، وبعدها إلى جهنم وبئس المصير، وسعي آخر يؤدي إلى عز الدنيا والآخرة، فهل يجتمعان؟ شتّان بينهما، سعي يؤدي إلى سعادة في البيت، وسعادة في الحياة، وسعادة بعد الممات، إلى ما لا يعلم إلا الله، إلى الأبد، وسعي آخر يؤدي إلى خزي في الحياة الدنيا، وإلى عذاب عظيم مهين

أليم، ثم إلى جهنم وبئس المصير، فهذا هو المعنى، أي إن هذا السعي غير ذاك السعي، فلا يجتمعان، بل لا يمكن أن يجتمعا في موازنة.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة محمد: 14]

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر:9]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

ليس في الأرض إنسان يستحق أن يكون قبلتك :

هذا هو المعنى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي لمختلف، وهذا الذي يبتغي مرضاة الله عز وجل، والذي يخشى الله، ويخاف مقام ربه، ويقول: هذا حرام، إني أخاف الله رب العالمين، معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، لا أفعل هذا ولو قطعت إرباً إرباً، فهل هذا الإنسان المنضبط المحب الخائف الذي يرجو رضاء الله عز وجل كالإنسان الذي يأكل المال من أي جهة ولا يعبأ أحرام هو أم حلال؟ ويبني مجده على أنقاض الآخرين، ويبني غناه على فقرهم، ويبني أمنه على خوفهم، فهل هذا مثل ذاك؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

لِيقيِّمْ كلُّ واحد نفسَه، ما الذي أبغيه من حياتي؟ يقيّم سعيه، إلى ماذا يسعى؟ إلى الدنيا الفانية التي تنتهي بالموت أم إلى آخرة باقية؟ أم يسعى إلى إرضاء إنسان ما، وليس في الدنيا إنسان يستحق أن ترضيه، وليس في الأرض إنسان يستحق أن يكون قبلتك.

هل تسعى لإرضاء إنسان مخلوق أم لإرضاء الخالق؟ هل أنت عبد لله أم عبد لعبد الله؟ هل تنضبط بالشرع أم تنضبط بالهوى؟ هل تحكم نفسك أم تحكمك نفسك؟ هل يقودك الهوى أم يقودك العقل؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

ليس ثمّة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

في الأرض اتجاهان اثنان لا ثالث لهما :

لكن هذا الاختلاف ظاهر بين سعي الناس جميعاً، فإذا كان على الأرض ستة آلاف مليون إنسان، فهناك إذاً ستة آلاف مليـون سعي، وستة آلاف مليون اتجاه، وستة آلاف مليون هدف، واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يصنف كل هذه الأهداف، وكل هذه النشاطات، وكل هذه الاتجاهات في طريقين اثنين لا ثالث لهما؛ فما هذان الطريقان؟ قال عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لا يمكن أن يكون أحدنا إلا منضوياً تحت أحد هذين التصنيفين، فالطبيب يسعى لجمع المال، والتاجر كذلك، وكذا المهندس، والعامل، والصانع، والفلاح، وزارع الأرض، والموظف، ومن يملك مهنة راقية، وصاحب الخدمات، فاختلاف المهن كلها لها هدف واحد؛ أن تكسب منها رزقك، وهذا اختلاف كثرة ووحدة تنوُّع، وربنا عز وجل قال:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

مع أن السعي مختلف جداً، ولكن كل هذا السعي لا بد أن ينضوي تحت هذين الاتجاهين الكبيرين، ما هما؟

الإنسان خُلِق في هذه الدنيا ليعطي فاللهُ يعطينا لنعطي :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

يا الله على روعة القرآن! أعطى ماذا؟ أغفل الله المفعول به:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

مطلق العطاء، مجرد العطاء، أن تعطي من مالك، وأن تعطي من وقتك، وأن تعطي من جهدك، وأن تعطي من خبرتك، وأن تعطي من رأيك، وأن تعطي من سمعتك، ومن مكانتك، وأن تعطي الناس:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

فأنت خلقت في هذه الدنيا لتعطي، فاللهُ يعطيك لتعطي، قال عز وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص: 77]

إنما أعطاك لتعطي، فعطاؤه من أجل العطاء لا من أجل أن تأخذ العطاء وتحرص عليه، فتمنعه عن الناس.

العطاء لا بد له من أساس وهو التقوى :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

إنّ البلاغة في الإيجاز، وهذا إيجاز، ولنتصوّر غنيّاً أعطى ماله، وآخر خبرته، ورعايته، ووقته، وجهده، وعطفه، فقد تحتاج هذه الزوجة إلى عطف منك، ولو أنها لا تروق لك فلا بد من أنك تعطف عليها ولا بد أن تشعرها أنك تحبها أو تحترمها على الأقلّ.

أعْطى، أعطى العفو، وأعطى المحبة، والمال، والوقت، والجهد، لك مكانة عند فلان، وأخوك المؤمن له عند فلان ذاك قضية، فاذهب إليه وارجُه أن يحلها لك، وعندئذٍ تكون قد أعطيتَ من وجاهتك.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

لكن هذا العطاء لا بد له من أساس وهو التقوى، أي اتقاء ما نهى الله عنه، والاستقامة على أمره، أعطى واستقام على أمر الله، اتقى أن يعصي الله، واتقى مغبة المعصية، اتقى أن يخرج عن أمر الله، وأيُّ العطاء من دون أن يتقي الإنسانُ معصية الله لا قيمة له، إنه ذكاء اجتماعي، إنه دفعة مقدمة يقبضها في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق، أعطى واتقى، والعطاء كالماء ينصب في برميل، أما اتقى فتعني الاستقامة، وكأنها قعر البرميل، فلو صببت على البرميل ماءً ولا قعر له فمتى يمتلئ البرميل؟ لن يمتلئ، إذْ لا بد من عمل صالح مبنيّ على الاستقامة، هذه الآية تلخّص الدين بأكمله، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدِّقْ بالهدف العظيم النبيل الذي خلقت من أجله.

الهدف العظيم النبيل من كل مصيبة يسوقها الله عز وجل :

لقد خلقت لهدف نبيل، هو معرفة الله، خلقت للسعادة، وللرحمة، وللتنعم في جنة عرضها السماوات والأرض إلى الأبد، خلقت لهذا، فمن صدَّق بهذا الخبر العظيم واستقام على أمر مولاه العظيم وأعطى ممّا آتاه الله، فالجزاء إذاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

ما هي اليسرى؟ هو الشيء الذي يسرك بدءاً من لحظة التوبة وإلى الأبد، فإذا أعطيت واستقمت وآمنت فعرفت الله أولاً، واستقمت على أمره ثانياً، وفعلت الصالحات ثالثاً، فسوف ييسرك الله سبحانه وتعالى لليسرى في بيتك، وعملك، وصحتك، وزوجتك، وأولادك، ومكانتك، وكلما ازداد العمر يوماً ازددت سعادة وقناعة وتبصرة ومكانة وعلماً، فإذا جاء الموت بدأت السعادة الكبرى التي وُعِدت بها، وعند الموت يحس الإنسان أن كل عطاء أعطاه الله إياه في الدنيا ما هو إلا دفعة صغيرة من الحساب، دفعة تشجيعية.

إنّ الله سبحانه وتعالى يعطيك طرفاً من السعادة في الدنيا، فإذا غمرك بها قعدت عن طلب المزيد، فتأتيك بعض الأحوال اللطيفة، وبعض التجليات التي تنعشك، لكن إذا جاء الموت عرق المؤمن لشدة الخجل الذي ينتابه من عظم مكانته عند الله، وعظم ما أعد الله له، فإذا فُتِحتْ أحد أبواب الجنة يقول المؤمن: لم أرَ شراً قط في حياتي، ويرى كل هذه المصائب والمضايقات الذي ساقها الله له إنما من أجل أن يصل إلى هذا المقام، قال أحدهم للرسول الكريم: يا رسول الله ادع الله أن يرحمني، فقال عليه الصلاة والسلام: يا رب ارحمه، فقال الله عز وجل: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه، هذا هو الهدف العظيم النبيل من كل مصيبة يسوقها الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أيّما هدف على وجه الأرض لا يُحقَّق إلا بالله :

ليس هناك حظ، ولا أعطني حظاً وألقني في البحر، هذا كلام فارغ، فلان يده خضراء، هذا كلام فارغ، لا يوجد إلا هذه الآية، فهو إما تيسير أو تعسير، والتيسير له أسباب، والتعسير له أسباب، وهذا هو قانون التيسير والتعسير، أو قانون التوفيق وعدم التوفيق، وبعض العلماء قال: آية واحدة لو عقلها الناس لكانت حياتهم غير هذه الحياة الضنك، قال تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود: 88]

أيُّ توفيق هذا؟ فأيُّما هدف على وجه الأرض لا يُحقَّق إلا بالله، وإلا إذا شاء الله.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أي بهذا الهدف العظيم، وقال بعضهم: بالجنة، أو صدق بهدف الله من خلقه، خلقهم ليسعدهم، كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وعرفتهم بي، فبي عرفوني، من صدق بهذا الهدف النبيل، واستقام على أمره، وعمل الصالحات تقرباً لله استحق اليسر، أليس هذا ممَّا يسرُّك؟ عبدي كن لي كما تريد أكن لك كما تريد، كن لي كما تريد ولا تعلمني بما يصلحك. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمّاً وَاحِداً هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

((من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس))

[الديلمي عن قدامة بن عبد الله بن عمار]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

قانون التيسير :

اليسرى في العمل، واليسرى في الزواج، واليسرى في الصحة، واليسرى مع الأولاد، واليسرى مع الجيران، واليسرى مع المستقبل، فهناك أشخاص يخافون المستقبل، لا، فسنيسره لليسرى، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خير، لا تقلقوا، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن لم تتغيروا فلن يغير الله، هذا قانون التيسير، لا يوجد زهر ولا أحجار نرد. لقد قلب له الدهر ظهر المجن، هذا كلام شيطاني، أيُّ دهر هذا؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ويقولون أيضاً: سَخِرَ القدر منه، أيْ قدُرُ الله عز وجل، لا إله إلا الله، هذه مصيبة حقّاً، فهم يقولون على الله ما لا يعلمون، يقولون: أثّر عليه السحر، أيّ سحر؟ ألقوا الماء في طريقه فسحروه، هذه كلها

خرافات ما أنزل الله بها من سلطان، لا شيطان، ولا جن، ولا إنس، ولا سحرة، ولا طقوس، ولا كتابات، ولا تشاؤم، يوم الأربعاء يتشاءم الناس منه، ورقم ثلاثة عشر كذلك يتشاءم الناس منه. لا رقم، ولا يوم، دخل شخص المحل وقف البيع، أو أنّ البيعة ألغيت، ويتشاءم صاحب المحل من هذا الرجل، هذا غلط، كله جهل بجهل، اقرأ حظك هذا الأسبوع، برج الحمل لك عدو بالمرصاد، أيُّ عدو هذا؟

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

هذا توفيق من الله وهذه أسبابه، أو هذا تعسير وهذه أسبابه، فاليسرى ما يسرك في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

البخل وأشكاله :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

ما دمتُ بخير فالناس لا يعنونني، لا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[رواه الطبراني والبزار عن أنس]

واسمع الحديث الثاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحاً لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم))

[كنز العمال عن حذيفة]

هذا هو القرآن الكريم:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

بَخِلَ بماله، بَخِلَ بوقته، فلماذا خلقت في الدنيا؟ أو بَخِلَ بخبرته، يخاف أن يعطي الخبرة لصانع فينافسه في العمل، فيبخل عليه ولا يعلمه، إذاً بَخِلَ بالعلم، بَخِلَ أن يكلم فلاناً من أجل فلان، وبَخِلَ بجاهه، وبَخِلَ بكل شيء، و(بَخِلَ) من دون مفعول به، مطلقة، فمجرد البخل والإمساك والحرص، وأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، فهؤلاء هم البخلاء.

معنى كلمة (استغنى) :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

إنّ الذي نجى من مرض البخل فهذا من المفلحين، (وأما من بَخِلَ)، مطلقاً، هناك شخص تستشيره بشيء يقول لك: لا أعرف، تعال إلى المكتب، لا يستطيع أن يتكلم إلا في المكتب لأن هناك أجرة.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

فلا رازق إلا الله، ومعنى اسْتَغْنَى أيْ استغنى بما عنده من مال عن رحمة الله، واستغنى بالشهوات عن الآخرة، واستغنى بنظرية ابتدعها عمَّا قاله الله عز وجل في كتابه، واستغنى بتقاليد وعادات جاهلية عن سنة النبي المطهرة، ثم استغنى بنفسه عن ربه:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

(أعْطَى) يقابلها (بَخِلَ)، (وَاتَّقَى) استقام على أمر الله ويقابلها (اسْتَغْنَى)، استغنى عن هذا الشرع، تقول له: هذا حرام، فيقول لك: تكلم كلاماً واقعياً، ولا يعبأ بالشرع، ولا يعبأ أكان هذا الدخل حلالاً أم حراماً، فاستغنى عن رحمة وتجليات الله، واستغنى عن الآخرة عن الجنة، واستغنى عن توفيق الله، وعن حفظ الله، وعن رعاية الله، فكلمة (اسْتَغْنَى) مطلقة أيضاً.

اليسرى وعد والعسرى وعيد :

قال تعالى:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

فلم يرَ إلا الحياة الدنيا، أما ما وعد الله به المؤمنين في جنة عرضها السماوات والأرض فهذه كذَّب بها، قال لك: أنا إنسان واقعي، ليس بحالم ولا غيبي، أما هذا العطاء الكبير الذي وعدنا الله به فقد كذّب به، الحسنى الجنـة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هذا كلام الله خالق السماوات والأرض، فإنْ وجدت شخصاً بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، وكانت أموره ميسرة، وهو سعيد في حياته، فهذا شيء مستحيل، فما دام قد بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فلا

بد أن تكون أموره معسرة من سيِّئ إلى أسوأ، قد يعطيه الله المال ويضيق عليه، قد يعطيه اللهُ المالَ، ويشقيه نفسياً، قد يعطيه الله الصحة ويجعله قلقاً، فلا بد من شقاء، ولا بد من العسرى، ولا بد أن تجري الأمور على غير مراده، وعلى عكس ما يشتهي، ولا بد من الضيق، والضياع، والخوف، والذعر، والسأم، والضجر.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هذا وعد إلهي، فاليسرى وعد والعسرى وعيد.

لا قيمة للمال يوم القيامة :

هذا الذي تنكّب الحقَّ وأدار ظهره له لماذا؟ إنه يبتغي الدنيا، والدنيا عنده ممثلة بالمال، ولماذا المال، ولماذا لم يختر ربنا إلا المال؟

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

لأن المال هو القيمة المطلقة للأشياء، فبالمال تشتري بيتاً، وتتزوج، وتسافر، وتقتني سيارة، ويعظمك الناس، وتأكل أشهى الطعام، فالمال قيمة مطلقة، فإنْ أُعطِي الإنسان مبلغاً ضخماً حَلَّ كل مشاكله به:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

كن هذا المُعرض لا يغني عنه ماله إذا جاء الموت، فأين ماله؟ هذه الأموال الطائلة، وهذه البيوت، وهذه الوسائل المريحة في بيته إذا جاء ملك الموت ماذا تنفعه؟ هل غير القبر أمامه؟ وهل غير المثوى الأخير أمامه؟ وهل له غير هذه الحفرة الصغيرة؟

ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد انقضى رزقه، وانقطع أجله، ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، فيقول هذا الملك: فيم الفزع، وممَّ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً؟ وإنّ لي فيكم عودة، ثم عودة حتى لا أبقي فيكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم، فإذا حمل على النعش رفرفت روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه، فالهناء لكم والتبعة عليَّ.

يقف عبدان يوم القيامة بين يدي ربهما، فيقول للأول:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك

قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

إن الغنى والفقر بعد العرض على الله.

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة فريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، فيقال: قفوه واسألوه.))

[ورد في الأثر]

فهذا يحاسب، هل تاه بماله على عباد الله؟ وهل أنساه المال فرض صلاة؟ وهل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا، وقد قصر في حقنا.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 25-33]

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

أشد الناس ندماً يوم القيامة :

الأصدقاء ثلاثة؛ صديق يتركك عند البيت، وصديق على شفير القبر، وصديق يدخل معك في القبر، أمّا في البيت فالأهل، والنساء، والأموال، مكتبه، بيته، فراشه الوثير، مكتبته الغنية، مكتبه التجاري، سيارته الفارهة، كل هذا يتركه، يسير معه أولاده الذكور، ويودعونه على شفير القبر، ولا يدخل معه في القبر إلا عمله، فلذلك إن كان كريماً أكرمه وإن كان لئيماً أسلمه، كل ذلك بحسب عملك، لذلك في أول ليلة

يبيت فيها العبد في القبر يقول الله عز وجل: عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

هذا المال لمن؟ إنّ أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأندم الناس من باع آخرته بدنيا غيره أو بدنياه، فأما من باع دنياه بدنيا غيره فهو أشد الناس ندماً.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى* إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

لكن الإنسان مخير، لأنّ الله يبين له الطريق الصحيح وأنت حر، ولكنك إذا أعرضت عن الله عز وجل واخترت الضلال:

(وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)

الدنيا والآخرة بأيدينا خَلْقاً وتصرُّفاً.

الدنيا والآخرة خلقاً وتصرفاً وتسييراً بيد الله سبحانه :

أحد الخلفاء وهو في الحرم المكي سأل عن عالم كبير، فقيل له: هذا فلان أبو حازم، قال له: يا أبا حازم، سلني كل حاجتك؟ فقال له: واللهِ إني لأستحيي أن أسأل في بيت الله غيرَ الله، فلما التقى فيه خارج الحرم، قال له: يا أبا حازم سلني عن حاجتك، قال: واللهِ ما سألتها من يملكها، أأسألها من لا يملكها، فلما أصر عليه قال: حاجتي أن تنقذني من النار، قال: هذه لا أملكها، فقال له: إذاً حاجتي ليست عندك.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

ابتغوا الرفعة عند الله، إنّ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[أبو الشيخ عن أبي الدرداء]

من اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، ومن اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

إنّ الدنيا والآخرة خلقاً وتصرفاً وتسييراً بيد الله، وهذا الذي أعرض عن الله لا يزال في قبضة الله وهو لا يشعر:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

سبعة أشياء تنتظر المعرضين؛ لا بد من غنىً مُنْسي، أو فقر يطغي، أو مرض يفسد الحياة، أو هرم يضعف الشخصية، أو موت ينهي الحياة، أو الدجال، أو الساعة.

الله تعالى لا يسأل عما يفعل سكوت القناعة واليقين بعدالته لا سكوت الخوف من جبروته:

قال تعالى:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

أنتم أحرار، وأنتم مخيرون لذلك:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

فقط، هم قوم جاءهم أنبياء، وكتب، ودعاة، وحقٌّ مبذول للناس جميعاً:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى*وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)

ربنا سبحانه وتعالى في آخر السورة يقول:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى)

هذا كلام خالق الكون، أي يا مَن أعرض عن الله، ويا مَن تنكب طاعة الله، وأدار ظهره للحق، وتعلق بالدنيا، وجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه، ونسي الآخرة:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى)

لكنه ليس كما يقول بعض الجهلاء من أن الله عز وجل لا يسأل عما يفعل، قد يطيعه العبد طوال حياته ثم يضعه في جهنم، هذه الآية لها معنى آخر، لفرط عدالته لا يسأل عما يفعل، سكوت القناعة والرضى واليقين بعدالته لا سكوت الخوف من جبروته، والدليل هذه الآية الثانية:

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

لو كان الله يدخل الطائع النار لكانت هذه الآية غير صحيحة:

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

حصراً، والشقي الذي شقي ببُعده عن الله، والذي شقي بالانحراف والسقوط في وَحَل الدنيا، والذي شقي بهواه وشقي بالدنيا، الأشقى الأشد شقاوة، الأشقى هو الذي يصلى النار.

الأشقى له صفتان صفة عقلية وصفة نفسية :

من هو الأشقى؟ الأشقى له صفتان، صفة عقلية، وصفة نفسية، فالذي كذب وتولى، فبعقله كذب الحق، وبنفسه اتجه إلى الدنيا وأدار ظهره للحق، فوصْفُ الله له بليغ، جاء بكلمتين:

(الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

والتكذيب نوعان؛ تكذيب لساني، وتكذيب سلوكي، والتكذيب السلوكي أخطر، أمّا اللساني فأنْ تقول: ليس هناك آخرة، أنا لا أؤمن بالآخرة، فهذا تكذيب باللسان، لكن الذي يقول: أنا أؤمن بالآخرة، ولا يسعى لها، وفي الأثر: قيل لأحد الناس: هل عرفت الرب؟ فقال: ما شاء الله، قال: فماذا صنعت في حقه؟ ما الموقف العملي الذي وقفته من أجل الله، شخص مريض مرضاً شديداً، وعرف الدواء، فماذا يفعل؟ هل يبقى مكتوف الأيدي؟ إذاً إما تكذيب باللسان، وهذا نادر في العالم الإسلامي، فلا تجد في المليون واحداً يقول لك: ليس هناك آخرة، هذا التكذيب نادر جداً، ولكن التكذيب الشائع أنك تقول: هناك آخرة ولا تعمل لها، هناك جنة ولا تسعى لها، هناك نار ولا تتقيها.

إذا زرت طبيباً، وكتب لك وصفة، وأثنيت على علمه، ولم تشترِ الدواء، فعدم شرائك الدواء دليلُ عدم ثقتك بعلمه، ومهما أثنيت عليه بلسانك فقد أخذت موقف التكذيب، لأنّ المرض موجود، والآلام حاصلة، ومعك وصفة دواء، ولم تشتره، بل ذهبت إلى طبيب آخر.

معنى ذلك أنك تكذب علمه عملياً لا قولياً، وقد تكون لبقاً معه، فتقول له: أنت من أندر الأطباء، والمعول عليه ألاّ تكذّب بالآخرة عملياً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

لها سعي خاص، فالذي كذب وتولى هو الأشقى، وهو الذي يصلى النار.

المحسن يخلف الله عليه أضعافاً مضاعفة والممسك يتلف الله ماله :

قال تعالى:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى*الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

فهذا هو الذي عرف الله عز وجل، وأراد التقرب إليه، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً))

[متفق عليه وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالمحسن يخلف الله عليه أضعافاً مضاعفة، والممسك يتلف الله ماله، وما أكثَر الوسائلَ التي يتلف اللهُ بها المالَ، أخطاء صغيرة تدفعك إلى دفع مئات الألوف، فالمفلح هو:

(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

لكن هذا العطاء ليس رداً للجميل، قد يفرح شخصٌ إذا قدم لك هدية، وبعد حين رُزِقَ مولوداً، فذهبت إلى السوق، وبحثت عن هدية وقدمتها له ردّاً لجميل سابق، فهذه الهدية لا تدخل في هذه الآية، لأن العطاء الصحيح مَصْدَرُهُ:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى)

لم يكن هذا العطاء رداً على عطاء سابق، كلا، إنما هو مبادرة وابتداء، وما لأحد عند هذا المعطي من نعمة تجزى:

(إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى*وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

الدنيا دار عملٍ والآخرة دار جزاء :

إنّ المؤمن في الدنيا تحت المعالجة، قد يُحمِّله اللهُ أكبرَ عبء ممكن، حتى يُكسبَه أكبر أجر ممكن، ويعطيَه أكبر سعادة ممكنة، لذلك الإمام الغزالي لخَّصها بقوله: ليس بالإمكان أبدع مما كان، وقال بعضهم: " اللهم لا تخفف حملي ولكن قوِّ ظهري"، فإن خُفِّف حملُك قلَّ أجرُك، إذاً لم يُخفِّف الحملَ، ولكنه أعطاك قوة لتحمل هذا الحمل، والإنسان في الدنيا في فترة معالجة، ودفع، وتشويق، وتطهير، وتعطير، لكن في الآخرة فترة سعادة كبرى، فَسَمَّوا الدنيا دارَ عملٍ، والآخرةَ دارَ جزاء.

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى* إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى*وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

قال: يا رب هل أنت راض عني؟ فقال: يا عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك؟ فلا بد من أن ترضى، إذا رآك يئست أعطاك، وعطاءُ الله حكيمٌ، وإذا غلب عليك اليأس طمأنك قليلاً، وتسترخي وتقعد عن طلب المزيد فيثيرك إلى أن تطلب الأعلى، والدنيا كلها مُعالَجة، وأما الآخرة فهي دار نعيم واستمتاع، ربنا عز وجل يعلم ماذا أعدّ لعباده الصالحين من خيرات لا يحصيها اللسان؛ جنة عرضها السماوات والأرض، ونعيم مقيم في جنات وهم مكرمون، لذلك قال سبحانه:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

فلا بد من أن ترضى رضاء لا يوصف، أما الآن فأنت في المعالجة، إذا دخل طالب كلية الطب، والمنهاج كبير، ولغات أجنبية، وتشريح، والدوام ثلاث وأربعون ساعة، وعملي ونظري، ومذاكرات، وأطروحة، لكن بعد أن يتخرج، ويكون في العيادة خمسون شخصاً، وكلُّ شخص معاينته بمئتي ليرة، خمسة آلاف ليرة تقريباً في اليوم.

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

الإنسان في الدنيا في دار تكليف وفي هو في الآخرة في دار تشريف :

أما الآن فهو لا يرضى بمتاعب كثيرة، هذا مثلٌ واضح، ولله المثلُ الأعلى، إذا درس شخصٌ دراسات عليا، وتعب ونال شهادة عليا، ثم في وقت قليل يأخذ أرباحاً ضخمة، هذا نمط، فالإنسان في الدنيا يتعب، ويتعرف إلى الله، ويجلس ساعات على ركبتيه ليعرف الله عز وجل، وساعات ليقرأ القرآن، ويمشي مع أخيه ساعات يبتغي مرضاة الله عز وجل، فكأن الله يقول له:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

لا بد أن ترضى، لكنك الآن في دار عمل، والجامعة مكان غير مريح، والمقعد غير مريح، لكن بعد التخرج كلُّ شيء مريح، فهذه كلها أمثلة، والدنيا كذلك، هي دار عمل، دار تكليف، والآخرة دار تشريف، ولو فرضنا أنّ طالباً أخذ الدرجة الأولى على مستوى القطر، فأمامه حفلة تكريم، وهدايا، ورحلة، وسياحة، فهو الآن يتشرف، أما قبل هذا فقد كان مكلفاً بالدراسة، فالإنسان في الدنيا في دار تكليف، وفي هو في الآخرة في دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فكلُّ الخير مدخَّر لك في الآخرة.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

الرصيد يوم القيامة، أما في الدنيا فهي دفعات على الحساب، وإذا صرت في يأس أتتك دفعة على الحساب فتنتعش فيها، وتميل إلى الدنيا فتأتيك مشكلة، فتندفع بها إلى الله عز وجل، ثم تسترخي فتأتيك مشكلة ثانية، وهكذا إلى أن تستقيم وجهتك إلى الله عز وجل.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

إنّ الدنيا دار عمل:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

وسيطالعنا في سورة قادمة:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الضحى 093 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 11 آيات دالة على عظمة الله ومشاعر تنتاب المؤمن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-04-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب نزول سورة الضحى :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الضحى، وهذه السورة لها مكانة خاصة لأنها متعلقة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقد تتعلق بكل مؤمن له تجربة مع الله عز وجل من نوع تجربة النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أنزلت هذه السورة قال: الله أكبر، لذلك بعض قراء القرآن الكريم يقولون حينما يقرؤون هذه السورة: الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*)

ولد النبي عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة، فرأى مجتمعاً فاسداً وثنياً، يأكل القويُّ منه الضعيفَ، يأتي الفواحش، ويقطع الرحم، ويسيء الجوار، ويعبد الناس بعضهم بعضاً، ويعبدون آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، ففكر في هذا المجتمع الفاسد، وفكر في هذه الأوثان، وفي تلك الأصنام، فرأى أنها باطل في باطل، ففكر في خلق السموات والأرض، ونظر في ملكوت الله فعرف ربه. وحينما كان طفلاً صغيراً كان أصدقاؤه يدعونه إلى اللهو فيقول: لم أُخلَق لهذا، وكأنه في صغره صلى الله عليه وسلم عرف المهمة الكبيرة التي أنيطت به، فعبد الله عز وجل السنوات الطويلة، وكان في غار حراء يخلو الليالي الطويلة، وَمَن منا يستطيع أن يذهب إلى رأس جبل فيقبع في مغارة أياماً بلياليها، فكم أنسه بالله شديداً.

وما زال يعبد الله عز وجل ويفكر في ملكوت السموات والأرض، ويتقرب إليه بالعمل الصالح، ولا يعرف من هو، ولا ما سيكون، ولا من سيكون، ولا أنه سيكون نبياً، ولا رسولاً، ولا أنه سيد خلق الله، كل هذا لا يعرفه، ولما بلغ الأربعين وقد عرف الناس صدقه وأمانته وعفافه وطهارته ونسبه، جاءه الوحي، قال تعالى له:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق: 1]

قال: ما أنا بقارئ، فقال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق الآية: 1-5]

جاءه الوحي فكان هذا الوحي غذاءً لروحه، عرف أنه مشمول بالعناية الإلهية، وأنه مقصود بالرعاية الربانية، وعرف أنه مصطفى، وأنه مقرب إلى الله عز وجل، وعرف الطريق لهداية الناس، بعثه الله نبياً ورسولاً، فبدأ يدعو قومه، وبدأ الوحي ينزل عليه، وفجأة انقطع عنه، وبانقطاع الوحي أصابه غم وحزن شديد، وشعر أن الله تركه وكأنه قلاه، وتخلى عنه، فجاءت هذه الصورة مبدوءة بقوله تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

من شدة فرحه صلى الله عليه وسلم حينما جاءه جبريل بعد انقطاع طويل قال: الله أكبر، فرحاً بالوحي المتجدد، وبرحمة الله المستمرة، وبمكانته الثابتة.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

* * *

هذه السورة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل مؤمن له مع الله تجربة :

هذه السورة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل مؤمن له مع الله تجربة، يعبده، ويطيعه، ويحبه، ويتفانى في خدمة خلقه، ويصلي له، ويتهجد له، فإذا أصابته جفوة، وأنكر قلبه، وشعر أن صلاته شكلية، وأن إقباله على الله أصبح صورياً، ضاق بالدنيا وضاقت به الدنيا.

فأحبابنا اختاروا المحبة لنا مذهباً   و ما خالفوا على مذهب الحب شرعنا

فما حبنا سهل وكل مــــن   ادعى سهولته قلنا له قد جهلتـــنـا

فأيسر ما في حب الصب قتـلـه   وأصعب من قتل الفتى يوم هجــرنا

* * *

إذا كان المؤمن قد عوده ربه على الصلة به، والتجلي على قلبه، والسعادة بقربه، ثم انقطعت عنه هذه الأحوال، وأنكر قلبه، ثم عادت له تلك الصلات، وتلك الأحوال، وتلك القربات يكاد قلبه يطير فرحاً. هذا الذي يحصل لبعض المؤمنين بشكل بسيط جداً إذا قيس بما حدثَ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرب شديد إثر نزول الوحي من جديد، فربنا سبحانه و تعالى يقول:

(وَالضُّحَى)

يقسم بالضحى أي يقسم بالنهار، وإن أجمل ما في النهار وقت الضحى، لا تنظروا إلى الضحى في المدينة، فالمدينةُ شوَّهت الضحى، وشوهت الليل، ولكنك إذا خرجت إلى أماكن بعيدة عن المدينة حيث

الطبيعة الجميلة، وحيث الجبال الخضراء، وحيث الأشجار والعصافير، فإذا ذهبت إلى هناك، ووقفت في وقت الضحى تذوقتَ معنى قول الله عز وجل:

(وَالضُّحَى)

أي أجمل وقت في النهار ليس شديد الحر بل يجمع بين برد الليل وضياء النهار.

(وَالضُّحَى)

أقسم الله سبحانه وتعالى بالضحى.

في الكون اثنينية واللهُ هو الواحد :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

أيْ إذا سكن، وأجملُ ما في الليل سكونُه، وأجملُ ما في النهار ضُحاهُ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا محمد، والضحى الذي يمثل فضلي، وعطائي، وجمالي، ولطفي، والليلِ وما فيه من سكون وهدوء وراحة وسكينة، والضحى والليل، وكيف أن الضحى لا تعرف قيمته إلا بالليل، وكيف أن الليل لا يُعرَف سكونه إلا بضجيج النهار وصخبه، واللهُ سبحانه وتعالى خلق من كل شيء زوجين اثنين، فهناك الليل والنهار، والحر والقر، فلولا البرد لمَا عرفنا قيمة الحر، ولولا الحر لمَا عرفنا قيمة البرد، وهناك الحلو والمر، والخير والشر، والحق والباطل، والأمانة والخيانة، والشجاعة والجبن، ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين، وكأن في الكون اثنينية، واللهُ هو الواحد.

(وَالضُّحَى *وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

إنّ الله سبحانه وتعالى أقسم بهما لنبيه المصطفى مؤكداً له أن صاحب هذا الفضل العميم، وصاحب هذا الجمال الأخّاذ، وصاحب هذا اللطف المستديم لا يمكن أن يتركك، لا يمكن أن يتخلى عنك، لا يمكن أن يدعك بلا وحي، لا يمكن أن يأخذ بيدك في أول الطريق ثم يتركك.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

اطمئن يا محمد، اطمئن إلى مكانتك عندي، واطمئن إلى أن هذا الوحي لن ينقطع، وإلى أنك معنيٌّ بلطفنا.

نعمة القرب من الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*)

كذلك حال المؤمن، فبعضهم وقع من غير قصد في مخالفة فأنكر قلبه، وانقطعت صلته، وتوجس خيفة، وخاف أن يعاقبه الله عز وجل، وانتظر العقاب فلم يحدث له شيء، وقف يصلي، وناجى ربه في صلاته، وقال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ، ألم أحرمك لذة مناجاتي.

أحياناً تنقطع الأحوال، وتنقطع الصلة، وينكر المرء قلبه لا لذنب اقترفه ولكن لحكمة إلهية، ومن هذه الحكمة أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرفه بتلك النعمة العظمى نعمة القرب، ولا تعرف هذه النعمة إلا بزوالها ولو مؤقتاً، من ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا قطع تجليته على عبده المؤمن، ضاقت عليه الأرض بما رحبت.

ومن حكمة الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرِّف عبده أن نعمـة القرب عظيمة عند هذا العبد، فلذلك عندما انقطعت صلته بالله عز وجل لم يحلُ له شيء، ولم يطمئن إلى شيء، ولم يرُق له شيء، لأنه فقَد حبيبه.

إنّ الطفل الصغير إذا ضيع أمه في الطريق لن يصرفه عن هدفه الألعاب التي نثرت في الواجهات، ولا الأطفال الذين حوله، لأنه فقَدَ أمَّه، وهو يبكي، ولا يريد إلا أمه.

هذه السورة كما قلت قبل قليل خاصّة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها بالتبعية لكل مؤمن له مع الله أحوال، وله صلته بالله، وله من الله تجليات على قلبه، وله من الله سعادة إذا غابت عنه وانقطعت وأنكر قلبه، فإنه يتفاعل مع هذه السورة وكأنه معنيٌّ بها.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

كأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع بين تلك الآيات الدالة على عظمته وبين المشاعر التي تنتاب المؤمن.

من كانت له عند الله مكانة وصلة وإقبال فهذا هو أثمن ما في الوجود :

هل يعقل يا حبيبي أن يكون فضلي عميماً، وأدعك في منتصف الطريق؟! هل يعقل ممَّن خَلَق الضحى، والليل إذا سجى، وما فيه من رقة وجمال وفضل ونعمة، هل يعقل لهذا الخالق العظيم أن يدعك وشأنك، وأنت المحب وأنت الوفي؟!

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

معنى (ما ودَّعك)، في قراءة (ما وَدَعك) بمعنى ما تركك، ومعنى قلى أي: ما أبغضك الله عز وجل، ماذا فعلت؟ فكلك إحسان للمخلوقات، وحرص على طاعة الله، وكلك شوق إلى صلة الله عز وجل:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

من ذاق عرف، ومن كانت له عند الله مكانة وصلة وإقبال فهذا هو أثمن ما في الوجود، وما سوى ذلك سراب بقيعة.

فليتك تحلو و الحياة مريـرة وليتك ترضى والأنام غضـاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـراب

* * *

هذه أحوال المؤمن، إذْ لا بد له من صلة بالله عز وجل، ومن ساعة يرقى بها إلى الله عز وجل، ومن ساعة يناجي فيها ربه، ويمرغ وجهه في عتبة بابه عز وجل، ولا بد للمؤمن أن يكون متذللاً لله عز وجل.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيـها

* * *

فلو شاهدت عيناك من حسـن نا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمتَّ غريباً واشتياقاً لـقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائـح تركت جميع الكائنات لأجـلنا

فما حبنا سهل و كل من ادعى سهولته قلنا له قد جـهلتنا

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فإنا منحنا بالرضى من أحـبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابـنـا لنحميك مما فيه أشرار خلـقنا

* * *

عظمة الكون تدل على كمال الله عز وجل :

إنّ التدين من دون هذه الأحوال جسد بلا روح، ومعرفة أحكام الدين من دون إقبال على الله عز وجل جسد بلا روح، وحينما فهمَ الدين أنه عبادات فقط، وأعمالاً تؤدَّى من دون محبة لله ورسوله، ومن دون إقبال على الله والتفات إليه واتصال به، ومن دون هذه التجليات التي تغمر قلب المؤمن فيذوب لها، فمن دون هذا كله أصبح الدينُ جسداً بلا روح. ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

من هاتين الآيتين اللتين أقسم الله بهما، ومن جواب القسم يتضح أن عظمة الخلق تدل على عظمة الخالق، وأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

إنّ عظمة الكون تدل على كمال الله عز وجل، وليطمئن الإنسان إلى الله عز وجل، فإنّ الله سبحانه وتعالى لن يتر المؤمنين أعمالهم، ولن يضيعهم، والعاقبة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، قال الله تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

[سورة المائدة: 12]

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 160]

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

المؤمن مطمئنأن الله سبحانه وتعالى لن يصيبه إلا بما كتب له من الخير :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 54]

ليطمئن المؤمن المستقيم ذو العمل الطيب إلى مكانته عند الله عز وجل، ليطمئن أن الله سبحانه وتعالى لن يصيبه إلا بما كتب له من الخير، قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

وليطمئن إلى قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وعود الله سبحانه وتعالى للمؤمنين :

ليطمئن إلى وعد الله عز وجل، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أوفى بعهده من الله، وليطمئن إلى قوله تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف: 32]

وليطمئن إلى قوله تعالى:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

[سورة آل عمران: 158]

ليطمئن إلى أنّ الله سبحانه وتعالى هو كل شيء، فمن عرفه فقد عرف كل شيء، ومن لم يعرفه فقد ضل عنه كل شيء، والله سبحانه وتعالى أحَبُّ إلينا من كل شيء.

ابن آدم اطلُبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، لتطمئن أيها إلى أن الله سبحانه وتعالى إذا كنت له كما يريد كان لك كما تريد.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

ما ودعك أي: ما تركك في نصف الطريق، وما دام قد أخذ بيدك إلى أول الطريق فلا بد أن تكون في نهاية الطريق.

الله تعالى يطلب من عبده أن يتعلّق بالآخرة ويعمل لها فهي خير له من الأولى :

قال تعالى:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى* وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

هذه الكلمات واضحة، ولكن مع هذه الكلمات إيحاءات، فهل شعرتَ أيها الأخ الكريم بهذه الإيحاءات؟ إنّ الله سبحانه وتعالى في عليائه، رافع السموات بغير عمد، من بيده ملكوت السموات والأرض يقول لك: يا عبدي وللآخرة خير لك من الأولى، فتعلَّق بالآخرة، واعمل لها فهي خير لك من الأولى، قل متاع الدنيا قليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النساء: 77]

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

[سورة النساء: 78]

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة القصص: 60]

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وإن الله يحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وإن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة.

الدنيا لمن يسعى لها والآخرة للمتقين :

فهل أنت يا أخي الكريم مصدِّق قول الله عز وجل:

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فهل ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا؟ دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم فرآه مضجعاً على حصير وقد أثر في خده الشريف، فبكى عمر، فقال: يا عمر ما يبكيك؟ فقال سيدنا عمر وقد هاله الموقف: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير، فقال: يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً، أنا لست ملكاً ولكنني نبي، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا.

أما يرضى أحدنا أن تكون له الآخرة ولو كان في الدنيا معذباً، لأن الدنيا زائلة، أما يرضى أحدنا أن تكون له جنة عرضها السموات الأرض ولو كان دخله في الدنيا محدوداً، ولو كانت الوظيفة في الدنيا متواضعة، ولو كان قد حُرم من الدنيا أشياء فلا بد من حكمة بالغة:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فهل أنتم مصدقون ذلك؟

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

كما قلت قبل قليل: الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمن بالتبعية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إذا لاح للمؤمن مقامه في الجنةعندئذ يذوب خجلاً لما أعد الله له من نعيم مقيم :

ربنا سبحانه وتعالى ألا نصدقه:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

متى نعرف ذلك إذا لاحت لنا الآخرة، ولاح للمؤمن مقامه فيها، وظهرت له أعماله الطيبة معروضة عليه، عندئذ يذوب خجلاً لما أعد الله له من نعيم مقيم، قال تعالى:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ*هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)

[سورة يس: 55-56]

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً*وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

[سورة عم: 31-33]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ* إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

وصف الله تعالى للمتقين يوم القيامة :

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

ويصفهم الله عز وجل فيقول:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق:9]

يوم القيامة هذا العطاء الكبير، وهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض، هذه الجنة التي لا تزول ولا تحول إلى أبد الآبدين، وهذا الذي أعده الله لعباده أيستغنى عنه؟ أيزهد به؟ أيضعه الإنسان وراء ظهره؟ أيلتفت إلى الدنيا وحدها؟ أينافس على جمع الدرهم والدينار؟ عند الموت لا يأخذ معه شيئاً:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

المؤمن لا يعرف قيمة عمله إلا حين تلوح له الجنة :

هذا الذي يدرس الليالي الطوال، ويسهر حتى لا تكحل عينه بنوم، بعد التخرج والتفوق، وبعد أن يحتل مركزاً مرموقاً، وتأتيه الأموال من كل طريق ألا يرضى حينئذٍ؟ هذا مثل من أمثلة الدنيا، إنه يرضى ويرضى. وكذلك المؤمن يغض بصره، ويحفظ فرجه، ويترفع عن كل معصية، ويطيع الله في كل شاردة وواردة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويسهر الليل، ويستيقظ لصلاة الفجر، ويساعد الضعيف، ويطعم الجائع، ويجلس على ركبتيه الساعات الطوال ليتعرف إلى الله عز وجل، وإذا دعي إلى عمل صالح لبَّى مسرعاً، وإذا دعي إلى عمل طيب وافاه، وهذا المؤمن لا يعرف قيمة عمله إلا حين تلوح له الجنة، فيقول: لم أر شراً قط في حياتي.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى* أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، ووزع بعض الغنائم على المؤلفة قلوبهم، وجد عليه بعض الأنصار وعلى رأسهم سيدنا سعد بن عبادة:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ

الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

أما ترضى أن تعطى الدنيا لمن أبغض الله عز وجل، وتكون الآخرة لمن أحبه الله سبحانه وتعالى.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه يتيماً لئلا يكون لأحد من خلقه عليه حق :

قال بعضهم:

كن عن همومك معرضا ... وكِل الأمور إلى القضا

و ابشر بخير عاجل ... تنسى به ما قد مضى

فلربَ أمر مسخط ... لك في عواقبه رضى

ولربما ضاق المضيق ... ولربما اتسع الفضا

الله يفعل ما يشاء ... فلا تكوننَّ معترضا

الله عودك الجميل ... فقس على ما قد مضى

* * *

هذا يجب أن يعرفه كل مؤمن، فإنّ الله عودك الجميل، ألم يهدك إليه؟ ألم يعرفك به؟ ألم يدلك على أهل الحق؟ ألم تسعد به؟ اللهُ عودك الجميل فقس على ما قد مضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

اليتيم الذي لا أب له، بعضهم اجتهد وقال: لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه يتيماً لئلا يكون لأحد من خلقه عليه حق، لا حق عليه إلا حق الله عز وجل:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

قد يكون الطفل يتيماً، ويتاح له من الرعاية والعناية والرفق والإكرام ما لم يتح لمن له أب شديد قوي.

من معاني (اليتيم) :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

من معنى اليتيم أيضاً تقول: درة يتيمة، ومعنى درة يتيمة أي لا مثيل لها، فآواك بأصحابك، أنت فرد لا مثيل لك، أنت سيد المخلوقات، أنت سيد ولد آدم، أنت يتيم لا بمعنى أنك ليس لك أب، ولكن بمعنى أنه لا مثيل لك في كمالك، ولا مثيل لك في عطفك.

((عن عبد الرحمن بن عثمان القرشي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان رضي الله تعالى عنهما فقال: يا بنية أحسني إلى أبي عبد الله فإنه أشبه أصحابي بي خلقا))

[الطبراني عن عبد الرحمن بن عثمان القرشي]

وهذا الموقف الكريم أيضاً حيث قال:

((يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

[الواقدي وابن سعد وابن عساكر عن عبد الله بن الزبير]

من هو أبوه؟ إنّه أبو جهل، ألدُّ أعداء الإسلام، فاليتيم بالمعنى الآخر لا مثيل له، كأن تقول: درة يتيمة، والمعنى الأول: ألم يجدك يتيماً لا أبا لك، فألهم الناس أن يعطفوا عليك، وأحاطك بالعطف والأمن والرعاية حتى من أعدائك.

واليتيم بالمعنى الآخر الدرة التي لا مثيل لها، فآواك بأصحابك، وبعضهم يقول: لماذا لم يترك النبي عليه الصلاة والسلام ذرية من الذكور؟ بعضهم اجتهد وقال: لو أن للنبي عليه الصلاة والسلام ابن من الذكور، وأساء إلى الناس لسرت البغضاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن ليس من ذريته الذين عاشوا ذكرٌ، لتكون محبته خالصة في نفوس أصحابه والناس جميعاً.

من معاني (الضال) :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

معنى الضال هنا الغافل عما سيكون، أنت غافل عن أنك ستكون نبياً مرسلاً، أنت غافل عن أنك ستكون سيد ولد آدم، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)

[سورة طه: 52]

لا يضل أي لا يغفل، الضلال هنا معناه الغفلة، والنبي عليه الصلاة والسلام غافل عن مقامه، غافل عن مرتبته عند الله عز وجل، غافل عن نبوته القادمة، غافل عن رسالته، والمعنى الآخر للغفلة هو عدمُ العلم، ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان؟ ما كنت تعرف أن قرآناً سينزل عليك، وما كنت تعرف ما بهذا الكتاب من حقائق وتشريعات.

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

والمعنى الثالث أن الضال هنا، أي وجدك في قوم ضالين فهداهم الله بك، ومعنى الضلال أيضاً هو الطلب، فلان نشد ضالته فهو ضال، أي يبحث عن شيء ضائع منه. والنبي عليه الصلاة والسلام يبحث عن طريق يهدي به الناس، ويبحث عن أسلوب ينقذهم به من الظلمات إلى النور، وعن طريقة تهديهم إلى ملكوت السموات والأرض، وعن أسلوب يرفعهم من وحل الشهوات إلى سمو الطاعات، فهداه إلى ذلك، وأنزل عليه كتابه، هذا المعنى الرابع، والمعنى الخامس:

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

أي ضائعاً بين قومك فهداك إليه، قد كان قومك لا يعرفون مقامك قبل البعثة، فهداك إليه، وعرفهم بك، والمعنى السادس الضلال الحيرة، كنت حائراً في الطريق الذي يناسب هؤلاء الضالين فهداك إلى الطريق، والمعنى الذي يجمع المعاني المادية والمعنوية، أن الشجرة الوحيدة في الصحراء تسمى ضالة وهي يهتدي بها القوم.

كنت وحيداً فريداً في عظمتك، كنت وحيداً فريداً في سموك، فاهتدى بك الناس جميعاً، ويقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام ضاع عندما كان صغيراً في شعاب مكة، فسخر الله له أبا جهل، وعثر عليه يلعب ببعض الأوراق والأغصان في شعاب مكة، فردَّه إلى أهله.

الغنى الحقيقي :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ)

فالله سبحانه وتعالى يذكّر النبي عليه الصلاة والسلام بالنعم التي أغدقها عليه، لقد كان يتيماً فآواه، وكان ضالاً فهداه:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

معنى عائلاً أي فقيراً فأغناه الله عز وجل بخديجة، وأغدقت عليه من عطفها، ومن مالها، لذلك كان وفياً لها أشد الوفاء، فحينما فتح مكة دعاه أصحابه ليبيت عندهم فقال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، كلما كان يذكر خديجة تقع الغيرة في قلب عائشة رضي الله عنها، تقول له: ألم يبدلك الله خيراً منها؟ فيقول: لا والله، لا والله، صدقتني حين كذبني الناس، وواستني حين أساء إلي الناس، واللهِ ما أبدلني الله خيراً منها، كان وفياً لها، وبعضهم قال:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أي ربَّاك بما قسمه الله لك، والغنى له معنيان؛ فإما أن تكون غنياً حقيقةً، وإما أن تكون راضياً عن الله عز وجل، فهذا هو الغنى بعينه، ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، فإنْ رضيت عن الله فأنت الغني، وإن رضيت بما قسم الله لك من الدنيا فأنت الغني، وهذا هو الغنى الحقيقي، وبعضهم قال:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أي فقيراً بمعرفتك له فأغناك بمعرفته، كنت مفتقراً إليه فملأ قلبك معرفةً به، كانت نفسك متشوقة إليه فملأها من تجلياته، فهي معان ثلاثة؛ إما أنه جعله غنياً حقيقة، فقد جاءه سيدنا أبو بكر فأعطاه كل ماله، فقال: يا أبا بكر ماذا أبقيت لك ولأهلك؟ قال: الله ورسوله. كانت جفنة سعد تدور معه حيثما دار.

المؤمن غناه بعمله الطيب و باستقامته و بيقينه برحمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

إنَّ الدنيا لم تكن تعدل عند النبي عليه الصلاة والسلام جناحَ بعوضة، جاءه رجل من سادة العرب، وقد رأى وادياً من الغنم، فقال: يا محمد لمن هذا الوادي؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: هو لك، لا أهزأ بك، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر. لقد كان غنياً في

نفسه، غنياً بمعرفته بربه، وكذلك المؤمن غناه بعمله الطيب، وغناه في استقامته، وغناه في يقينه برحمة الله عز وجل.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى *وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

إذا كان أحد من الحاضرين مؤمناً وكان فقيراً فإن الله عز وجل أغناه، كان بلا مأوى فآواه الله ببيت، بلا زوجة فزوّجه الله، وجعل له ذرية، كان بلا عمل فيسَّر الله له عملاً مريحاً، فإذا قرأتَ هذه الآيات ينبغي أن يذوب قلبك محبة لله عز وجل:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى *وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

قراءة هذه الآيات تجعل قلب المؤمن يذوب محبة لله عز وجل :

قال لي أحد الأشخاص وهو من أصحاب الملايين، عندما كنتُ أضع الخبز في الزيت، وأضعها بالزعتر، يبادرني والدي بصفعة ويقول لي: أكثرت، يجب أن تمسها مسّاً رقيقاً، فجعله الله غنياً حين كبر.

فإذا كان الإنسان فقيراً، ثم جعله الله غنياً، ولم يتأثر بهذه الآية فهو كالصخر، ميت القلب، إذا كان بلا مأوى وصار له مأوى، يملك مفتاح بيت، وغرفة نوم، وغرفة جلوس، وغرفة طعام، مطبخاً فيه أنواع من الطعام، ولديه أدوات كهربائية، دافئ في الشتاء، مبرد في الصيف، فليقرأ هذه الآية وسيتأثر بالغ التأثر، ثم صار له أصهار يحترمونه، وأولاد يحفون به، وله مكانة اجتماعية، لا يشكو شيئاً، ولا يشعر بالنقص ولا بالحرمان، ألا يتأثر بهذه الآية.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

كان صانعاً في محل، ويحاسَب حساباً عسيراً، وإذا تأخر يُلام ويُعنَّف، صار صاحب محل، يجلس خلف مكتب، فغضَّ بصرك عن محارم الله، وتواضعْ لله عز وجل، وتذكَّرْ كيف كنت في الماضي.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

كنت تدخل إلى دور اللهو فمَنَّ الله عليك بمجالس العلم، وهذه نعمة كبرى، كنت تقضي الليالي الطويلة في اللعب بالنرد فمنَّ الله عليك فأصبحت تمضي الوقت في قراءة القرآن، كنت تتحدث للناس بكلام لا معنى له، كلام فاحش، مزح بذيء، فمنَّ الله عليك بمعرفته فأصبحت تعرِّف الناس بالله عز جل، فإذا قرأت هذه الآيات فعليك وعلى كل مؤمن أن يذوب قلبه محبة لله عز وجل.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

حق اليتيم :

إذا قرأتها أنت فلها معانٍ، وإن نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام فلها معانٍ، والنبي يتفاعل معها بمعانٍ خاصة به، وأنت إذا قرأت هذه السورة ربما تفاعلت معها بمعان خاصة بك، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

كنت يتيماً فإذا رأيت يتيماً فلا تقهره، ومعنى لا تقهره أي لا تظلمه ولا تمنعه حقه، أحسِنْ إليه، وفي قراءة: " فلا تكهر"، والكهر هو الاحتقار.

((عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ فَوَ اللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ...))

[مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ]

هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

أحاديث شريفة تؤكد مكانة من يعطف على يتيم :

قال النبي عليه الصلاة والسلام، ومن كلام داود عليه السلام:

((كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك كما تزرع تحصد))

[الطبراني والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة]

وفي الأثر:" أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي فقلت: من هذه يا جبريل، قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فلم تتزوج من أجلهم، تريد أن تدخل الجنة قبلي تنازعني لأنها عطفت على الأيتام.

عَنْ سَهْلٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً))

[البخاري عَنْ سَهْلٍ]

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول اللّه تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة: ربنا أنت أعلم، فيقول اللّه تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة، فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً))

[ذكره القرطبي عن ابن عمر]

عَنْ مَالِكِ بْنِ الحَارِثِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ ضَمَّ يَتِيماً بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ وَمَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِماً كَانَ فَكَاكَهُ مِنْ النَّارِ يُجْزِي بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً مِنْهُ مِنْ النَّارِ))

[أحمد عَنْ مَالِكِ بْنِ الحَارِثِ]

وليس اليتيم من بلغ أربعين سنة، فعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:

((حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ))

[أبو داود عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ]

فإذا كان الشخص كبيراً ووالده متوفًّى فلا يقل: أنا يتيم، لا، فاليُتْم ما كان دون سن البلوغ.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

لأنك كنت يتيماً فاذكر يتمك السابق، واللؤماء قد يسيئون للضعفاء، وقد كانوا من قبل ضعفاء، ولا يذكرون كيف كانوا.

إجابة السائل فرض على العلماء :

قال تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

لا تنهر، أي لا تزجر السائل، رُدَّه ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يمنعن أحدكم من السائل إذا سأله أن يعطيه وإن رأى في يديه قلبين))

[الديلمي عن أبي هريرة]

والقلب هو السوار، وقال إبراهيم بن أدهم:

((نعم القوم السُّؤَّال - جمع سائل - يحملون زادنا إلى الآخرة "، وقال إبراهيم النخعي: " السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء، السائل بريد الآخرة))

[ذكرهما القرطبي في تفسير قوله تعالى: فأما اليتيم فلا تقهر...]

أيْ ينقل لك أعمالك الصالحة إلى الآخرة، وقال عليه الصلاة والسلام:

((ردوا السائل ببذل يسير أو برد جميل))

[ذكرهما القرطبي في تفسير قوله تعالى: فأما اليتيم فلا تقهر...]

وفهم بعض المفسرين أن قوله تعالى:

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

من يسألك العلم، من يسألك عن قضية في كتاب الله عز وجل، ومن يسألك عن حديث شريف، عن آية، وعن قضية فقهية.

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

وتواضعْ لمن تعلّم، إنّ إجابة السائل فرض على العلماء، والسلام سنة لكن رده فرض، وكان أبو الدرداء يقول: "مرحباً بأصحاب الحديث "، هؤلاء الذين يحدثون الناس كان يبسط لهم رداءه، ويقول لهم: مرحباً بأحبة رسول الله.

الله تعالى يطلب من نبيه الكريمأن يهدي الناس وإذا سأله أحد أن يجيبه ويتواضع له :

يروى أن النبي وقع في قلبه أن الله سبحانه وتعالى اتخذ إبراهيم خليله، واتخذ موسى كليمه، وأعطى سليمان ملكاً، فماذا أعطاني الله عز وجل؟ فقال الله عز وجل: ألم أجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك، ألم أشرح لك صدرك.

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

لو أردنا أن نقابل هذه الآيات الثلاث بتلك الآيات الثلاث:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى*وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى*وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

فيغلب على معنى الآية أن الذي يسألك عن قضية دِين، وعن قضية تتعلق بالله عز وجل، كنت ضالاً فهديتك، فإذا سئلت فاهدِ الناس، وإذا سألك أحد فأجبه وتواضع له.

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

كنت فقيراً فاغتنيت.

الآية التالية لها عدة معان :

الآن إذا اغتنيت حدِّث الناس بهذه النعم:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

هذه الآية لها عدة معانٍ، المعنى الأول، عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((الحمد رأس الشكر، فما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده))

[رواه الديلمي في مسند الفردوس]

والحمد حالة نفسية، والشكر عمل، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

[سورة سبأ:13]

الشكر له حدان؛ حد أعلى وحد أدنى، فالحد الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، فكيف شكرك ابن آدم؟ علم أن هذا مني فشكرني، والحد الأعلى: (اعملوا آل داود شكرا).

المعنى الثاني نعمة الله القرآن الكريم.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فليكن موضوع حديثك القرآن الكريم، قال تعالى:

(أخواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[سورة آل عمران: 103]

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ)

[سورة آل عمران: 103]

والمعنى الثالث للنعمة النبوة، فمهما حدثت الناس عن نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وعن علمه، ورحمته، وكرمه، وعلو مقامه فهذا موضوع مناسب للحديث.

النعم التي طالبنا الله تعالى بالحديث عنها :

حدِّث الناس عن القرآن، وحدِّثهم عن نبوة النبي العدنان، أو حدِّثهم عن نعم الله، فإما أن تحدِّثهم عن نعم الله، وإما عن قرآنه الكريم، وإما عن نبيه العظيم، لتكن هذه النعم موضوع الأحاديث. قال بعض الأصحاب الكرام: إذا أصبت خيراً فحدِّث به الثقة من أخوانك، وإذا أكرمك الله عز وجل بقيام ليل، وقرأت آيات كثيرة وتفاعلت معها، ومنَّ الله عليك بمعانٍ لم تكن تعرفها من قبل، فهذه نعمة عظيمة، حدِّثْ بها من تثق به من أخوانك، ولا يسمَّى هذا كبراً ولا فخراً ولكنه حديث بنعم الله، فلعل هذا الأخ يتشجع، ولعله يغار منك، ولعله يتخذك قدوة.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

حدِّثهم عن نعم الله، بعضهم فهم هذه الآية فهماً خاطئاً، كأنْ يقول: ذهبنا إلى النزهة، والكلفة مئتان وخمسون ليرة، فالله عز وجل هكذا قال:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فليس هذا هو المقصود:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

نعمة البصر، ونعمة الشمس، ونعمة القمر، هذه نعم الله، ونعمة الهواء، ونعمة الماء، ونعمة البيان، ونعمة الذاكرة، ونعمة اليدين، ونعمة الخلق، والطعام، والشراب.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

بعض المعاني الخاصة لهذه الآية :

ونعمة الله هي القرآن الكريم، حدِّثهم عن كلام الله، ونعمة الله نبيه العظيم، حدِّثهم عن النبي الكريم، هذه آية دقيقة، وإذا تجلى الله على قلبك فيما يتعلق بالآخرة، فحدِّث به بعض من تثق به من أخوانك، صليت صلاة متقنة، أو جلست إلى ذكر الله، فشعرت بشعور عالٍ، أُلهمتَ بعض المعاني، حدِّث بها من تثق من أخوانك:

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ: مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

وإليكم بعض المعاني الخاصة لهذه الآية:

((عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَآنِي رَثَّ الثِّيَابِ فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالاً فَلْيُرَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ))

[النسائي عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ]

وفي الحديث:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

ارتدِ ثياباً جديدة، ولا تجلب لنفسك الاحتقار، لأن الله وسَّع عليك دون أن تتكبر بها، أو تزهو بها، وتختال على خلق الله بها:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، دُعي رجلٌ إلى حفل، وجاء بثياب رثة مهجورة، نظر الناس إليك نظرة ازدراء، وهو يملك المال، فهذا ليس من السنة، لأن الله آتاك المال، فدع ثياب جديدة للمناسبات الرسمية، لئلا تُتّهم بأنك لا تعرف الأناقة، ولئلا تدع مجالاً لأهل الدنيا أن ينتقدوك.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فحدثهم عن آيات الله، وحدث عن النبي الكريم، وإذا أصابك خير من طرف الآخرة كذلك، لا من طرف الدنيا فحسب، فحدِّث به الموثوقَ من أصحابك، وإذا وسَّع الله عليك فليرَ اللهُ أثرَ هذه النعم عليك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشرح 094 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 8 حمل الدعوة وعبء الهدى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-04-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا تأمل الإنسان ما في الكون من آيات أورثه تأمله خشية في قلبه تدفعه إلى طاعة الله:

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الشرح أو الانشراح، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ*وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ*الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ*وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ*فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا*إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا*فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ*وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

قبل شرح هذه الآية الأولى لا بد من مقدمة، إذا الإنسان فكر في آيات الله الكونية ملياً، واستنبط منها أن لهذا الكون إلهاً عليماً، رحيماً، عادلاً، قوياً، غنياً، إذا فكر في آيات الله، واستنبط هذه الحقائق توَّلد في قلبه خشية تدفعه إلى طاعة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

إذا تأملت ما في الكون من آيات أورثك تأملك خشية في قلبك تدفعك إلى طاعة الله عز وجل، فإذا أطعت الله عز وجل ماذا يحصل؟ يحصل في النفس ثقة بأن الله راض عنا، بهذه الثقة تقبل النفس على ربها، فإذا أقبلت على ربها اشتقَّت من كماله، عندئذ تصطبغ النفس بالكمال الإلهي.

كلما ارتقى الإنسان في سلم الكمال اتسعت دائرة اهتمامه :

كلما ارتقت النفس في سلَّم الكمال اتسع اهتمامها بالآخرين، فلو أن الإنسان صعد إلى قمة جبل قاسيون ماذا يرى؟ يرى مدينة دمشق منبسطة، يرى المزة والميدان، لأنه ارتفع، فإذا ركب طائرة قد يرى مسافة تزيد عن مئة كيلو متر، فإذا صار على ارتفاع أربعين ألف قدم رأى ما هو أوسع. وروّاد الفضاء رأوا الأرض والقارات والبحار وبقية الكواكب، فكلما ارتقى الإنسان في سلم الكمال اتسعت دائرة اهتمامه.

الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه اهتموا بالبشر، والمؤمنون قد يهتم بعضهم ببعض، فكلما ضعف إيمان المرء تقلصت دائرة اهتمامه، وغير المؤمن لا تعنيه إلا ذاته؟ فهذا سؤال دقيق، انظر إلى نفسك

ما الذي يعنيك، إن كان لك أخ مؤمن لا يجد مأوى هل تهتم له؟ هل تتمنى أن تقدم له كل ما تملك من أجل أن تيسر له عمله؟

النبي عليه الصلاة والسلام لشدة إقباله على الله اشتقَّ من الله كمالاً يعد قمة الكمال البشري، واللهُ سبحانه وتعالى ألقى في قلب الأمهات رحمة، والذي في قلب جميع الأمهات من الرحمة لا يعدل جزءاً يسيراً من رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران: 159]

هذه الرحمة التي في قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام مشتقة من رحمة الله، قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

[سورة الكهف: 58]

أرحم الخلق بالخلق هو النبي عليه الصلاة والسلام فهو أرحم بنا من أنفسنا :

أنت يا محمد فبما رحمة من الله لنت لهم، الشيء الثابت أن أرحم الخلق بالخلق هو النبي عليه الصلاة والسلام، هو أرحم بنا من أنفسنا قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة: 128]

قال له سيدنا أبو ذر الغفاري لسيدنا عمر رضي الله عنهم: إنّ الناس يشكون شدتك، فبكى، وقال: واللهِ يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، حينما فكر النبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بربه من خلال آيات الكون، ومن خلال الشمس والقمر، والليل والنهار، والحيوان والنبات، وخلق الإنسان، حينما فكر بآيات ربه تولد في نفسه خشية عظيمة، هذه الخشية حملته على طاعة الله عز وجل. طاعة الله عز وجل ولّدت في نفسه ثقةً جعلته يقبل على الله عز وجل، وهذا الإقبال العالي اشتق الكمال المتناهي، لذلك أكمل البشر هو المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

لكماله العالي الذي اشتقه من كمال الله عز وجل تألم على الخلق، وقد رآهم في ضياع، وفي بعد عن الله، وفي جهالة عمياء، وفي ضلال مبين، رأى قويهم يأكل ضعيفهم، ورآهم يقترفون الآثام، ويأتون الفواحش، يقطعون الرحم، ويسيئون الجوار، ويخونون الأمانة، رآهم في هلاك وفي ضياع، إنّ هذه

الرؤية وهذا الكمال الذي انطوى عليه قلبه الشريف بسبب إقباله على الله، وبسبب استقامته، بسبب خشيته، بسبب تفكره بآيات الله جعله يفعم قلبه بالهم والحزن.

هداية البشر وتعريفهم بربهم كان من خلال النبي محمد عليه الصلاة والسلام :

النبي عليه الصلاة والسلام بدأ يقلق، كيف السبيل إلى هداية البشر؟ كيف السبيل إلى إنقاذهم مما هم فيه؟ كيف السبيل إلى تعريفهم بربهم وهم غافلون؟ كيف السبيل إلى إنقاذهم؟ ما الطريق إلى هدايتهم؟ ماذا أعمل؟ ماذا أقول؟ كيف أهديهم؟ إلى أن نزل عليه الوحي، حينها عرف أنه مكلف بهدايتهم، وأن الله سبحانه وتعالى ناصره، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعله هادياً لهذه الأمة، وكما قلت لكم في درس سابق: امتلأ قلبه فرحاً حينما رأى أول الطريق، لم يحدث شيء حينما اقترب أجله، وتوعكت صحته، ونظر إلى أصحابه نظرة وهم في الصلاة، ابتسم حتى بَدَتْ نواجذه، وقال: حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، هذا نهاية الطريق.

أما حينما جاءه الوحي كان هذا بداية الطريق، انشق الطريق، وأضاء بصيص الأمل، وعرف مهمته، وعرف الطريق إلى الله والطريق إلى هداية الخلق، فحينما انقطع الوحي، وظن أن ربه قد قلاه، وأنه قد ودّعه، وتركه، وشمت به الأعداء، نزل قوله تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 1-5]

قال بعض المفسرين: هذه الآية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

أرجى آية في كتاب الله:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 1-5]

سبب ضيق النبي عليه الصلاة والسلام :

الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

حصل انشراح الصدر، من له مصلحة أو صنعة أحياناً يصبح الطريق أمامه مسدوداً، وتضيق نفسه ويغتم، ويشعر بالضجر، فإذا انفتح له طريق الحل شعرَ بالراحة، هذا مثل بسيط، النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرشده الله إلى أول الطريق شرح صدره، أما كلمة:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

شرح الصدر فيه معنىً عكسي، معنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام متضايقاً، فما الذي كان يضايقه؟ الآن جاء دور الموازنة، قل لي: ما الذي يضايقك؟ أقل لك: من أنت؟ قد يأسف الإنسان على الدنيا فله صغار عند الله، قد يأسف الإنسان على مال فاته، أو على امرأة فاته الزواج منها، أو على بيت سُبق إليه، أو على وظيفة لم تتح له، أو على شيء من حطام الدنيا، فإنْ كان الألم والحزن والأسف على الدنيا فهذا شأن معظم البشر، مع أن سيدنا الصديق رضي الله عنه مما أثر عنه أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط.

ما دام النبي عليه الصلاة والسلام قد شرح الله صدره فما الذي كان يضايقه؟ وما الذي كان يؤلمه؟ وما الذي كان يحزنه؟ كان يحزنه ضلال البشر، وكان يحزنه ضياعهم وانحرافهم، كان يرى نهايتهم أنهم هالكون، كان يرى شقاءهم الذي ينتظرهم، فهذا الذي كان يحزنه، فأين أنت يا أخي من هذه المشاعر؟!!

النبي عليه الصلاة والسلام كانت نظرته إنسانية :

نيرون قال: من بعدي الطوفان، وهناك أشخاص كثيرون إذا تحققت لأحدهم مصالحه يقول كما قال نيرون: مِن بعدي الطوفان.

فما دام دخله وفيراً، وبيته متسعاً، وحاجاته متوافرة فالناس لا شأن لهم عنده، هذه صفات أهل الدنيا، وصفات المعرضين عن الله عز وجل، لكن المؤمن يعنيه أخاه المؤمن، فكلما ارتقى إيمانه اتسعت دائرة اهتمامه، إنّ عامة الناس يعنيهم أبناؤهم فحسب، فإن كانوا أكرم من ذلك فيعنيهم أخوتهم الذكور والإناث، وإن كانوا أكرم من ذلك فقد يعنيهم قرابة ثالثة، وإن كانوا أكرم من ذلك فيعنيهم أبناء حيهم، وقد تعنيهم أبناء مدينتهم، وقد يعنيهم وطنهم، وقد تعنيهم أمتهم. لكن قمة ذلك أن تعنيهم الإنسانية جمعاء، لذلك هناك دول متقدمة تحقق لشعبها مستوىً معاشياً جيداً، ولكن على حساب شعوب أخرى، وهذه نظرة ليست إنسانية لأنهم يسببون آلاماً لا نهاية لها لبعض الشعوب، ويحققون لأفرادهم مستوىً معاشياً رفيعاً، وهذه نظرة قاصرة، ونظرة لا تليق بالإنسان، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت نظرته إنسانية، قال تعالى:

(طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه: 1-2]

كان النبي عليه الصلاة والسلام متواصل الأحزان، كان الحزن يغلب عليه، لماذا؟ كيف تريد من أمٍّ أن تضحك ولها ابن معذب، ولها ابن مسافر، ولها ابن ذو عاهة، كيف تريدها أن تكون مسرورة؟ معظم الأمهات إذا كان أبناؤها مقدمين على امتحانٍ قريب تراهنّ مهمومات أكثر منهم، وذلك لِما في قلب الأم من الرحمة والحنان والعطف؟ وفي قلب النبي عليه الصلاة والسلام من الرحمة ما لا يصفه الواصفون لذلك حينما شرح الله عز وجل صدره للإسلام، وبيَّن له طريق الهداية أصابه سرور بالغ، فقال له تعالى مسليّاً إياه وممتناً عليه:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

كنت في ضيق فمنّ الله عليك وشرح صدرك.

لا يعرف الإنسان انشراح الصدر إلا إذا كان مغتماً :

الإنسان أحياناً يقول له الطبيب: الحمل عند الزوجة غير طبيعي، وقد تكون الولادة عسرة، وفي الصور المبدئية هناك تشوه في الجنين، منذ أن قال الطبيب هذه الكلمة الهم بدأ يأكل قلب هذا الزوج، كيف سيكون هذا المولود؟ أيكون مشوهاً؟ أيكون مشلولاً؟ يفقد بعض حواسه؟ فإذا وضعت الزوجة المولود سليماً يشعر أن كابوساً أزيح عن صدره، ويشعر أن جبلاً كان جاثماً على صدره وأزيح، هذه أمثلة مبسطة.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى الناس في ضلال، وفي ضياع، وفي شقاء، وفي هلاك ضاق صدره واغتم، وضاقت عليه الأرض، فلما نزل قوله تعالى مسلياً إياه، وممتناً عليه، ومبيناً له طريق الهدى، قال ربنا عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذه الهمزة للاستفهام الإنكاري، ولم حرف نفي، ونفي النفي إثبات، لذلك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

معناها لقد شرحنا لك صدرك، ألست بربكم؟ قالوا: بلى، معناها أنت ربنا، نفي النفي إثبات:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

ما معنى الشرح؟ قال بعض المفسرين: الشرح هو التوسعة والانبساط، وضده الضيق والقبض، ولا يعرف الإنسان انشراح الصدر إلا إذا كان مغتماً، وقالوا: وبضدها تتميز الأشياء.

معان متعددة لكلمة (شرح الصدر) :

ربنا سبحانه وتعالى لحكمة بالغة يقلب العبد بين الغم والفرح، وبين الهم والانشراح، ولا يعرف الانشراح إلا من أصيب بالهم، ولا يعرف الفرح إلا من أصيب بالحزن، والنبي عليه الصلاة والسلام أصابه الحزن، وأصابه هم وغم، وأصابه انقباض، ثم شرح الله صدره بالإسلام.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

وبعضهم قال: شرح الصدر انشراحه وتوسعته بالعلم والمعرفة، وبعضهم قال: شرح الصدر اتساعه بمكارم الأخلاق، وبعضهم قال: شرح الصدر توسعته بأعباء النبوة، وتلقي المعارضين، وبعضهم قال: شرح الصدر لمهام الدعوة التي كلفه الله بها، لذلك بعض العلماء قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذا إكرام، أي شرحنا لك أنت صدرك إكراماً لك وتقديراً لهمومك الشديدة، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: نعم وينفسح، قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت، لذلك قال بعضهم: زيارة القبور تشرح الصدور، لماذا؟ لأنها تذيب حب الدنيا من النفس، فإن كان للمرء عمل طيب واستقامة طيبة وزار القبور رأى مكانه في الآخرة، ورأى هذه الحياة الأبدية، ورأى خلاصه من هذه المتاعب الأرضية، لذلك:

((عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ]

مستريح من أعبائها، لأنك في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، وأنت في دار عمل، والآخرة دار جزاء.

الحمل النفسي أشد ثقلاً من الحمل المادي :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذا الغم والهم والضيق والحزن، هذا الذي أتعبك يا محمد والذي أقلقك لقد زال عنك، لقد بان لك الطريق فقم واصدع بما تؤمر.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

الوزر هو الحمل، فأيُّ حمل هذا؟ إنه الحمل المعنوي، أحياناً قد يمرض الابن مرضاً شديداً، وقد يسمع الأب كلمات يائسة للأم فتراها تشعر أن في قلبها حملاً لا تقوى على حمله، وأحياناً قد يجلس الإنسان ويقول: ليس لي أرجل أقف عليها، ماذا على كاهله؟ لا شيء.

إنّ الحمل النفسي أشد ثقلاً من الحمل المادي، فقد يحمل الإنسان ثلاثمئة كيلوغرام ويرفعها على ظهره، ويسير بها، ولكن قد تسمع خبراً مؤلماً يجعل الإنسان يقعد ولا تقوى رجلاه على حمله، وقد يبرك:

(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

إنّ أحمال الدنيا ثقيلة، فكيف بهذه الأحمال المقدسة، ولو أن قائداً في معركة رأى العدو قد أحاط به من كل جانب، وأن الأمل في النجاة صار قليلاً، وأن المصير مؤلم، وأنه لا مفر من الاستسلام، فماذا يشعر؟ يكاد قلبه ينفطر، هذا هو حمل القلب، ولو أن طياراً عرف أن هناك خطراً كبيراً في الأجهزة، وأن هذا الخلل سوف يتفاقم، وأنه لن ينجو هو وركاب الطائرة، فبماذا يشعر ربان الطائرة؟ ولو أن ربان باخرة شعر أن العواصف تجتاح باخرته، وأنها صدَّعت شقها الأيمن وأن الماء يتسرب إليها بماذا يشعر؟ هذه أحمال النفس، وقد لا يقوى الإنسان على حملها، لذلك ربنا عز وجل جعل حمل الدعوة وزراً ثقيلاً، قد ينوء به المرء، ولكن الله سبحانه وتعالى أمد النبي عليه الصلاة والسلام بطاقة لتحمل هذا العبء.

إحاطة النبي بأصحاب مخلصين في مستوى دعوته و هذا من إكرام الله له :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

أزحناه عنك عندما ظهر لك الطريق، عندما رسمنا لك الهدف أعنَّاك على هداية القوم، فلانت قلوب بعض الناس إليك، وسارعوا إلى الإيمان بك، وصدقوك، حينما أسري بالنبي عليه الصلاة والسلام، وعاد من الإسراء والمعراج، وبدأ يحدث بما رأى ارتد كثير من الناس على أثر هذه الأخبار، فلما جاء بعضهم إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا له: يزعم صاحبك أنه أسري به إلى القدس، وعرج به منه إلى السماء!! فقال: هو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن كان قال ذلك فقد صدق، لقد صدَّقناه على خبر السماء، أفلا نصدقه على خبر الأرض. ومن إكرام الله بالنبي عليه الصلاة والسلام أنه أحاطه

بأصحاب مخلصين في مستوى دعوته، فعرفوا قدره، وعرفوا قيمته، وعرفوا سموه، وعرفوا هدفه النبيل، فآثروه على أنفسهم، وفدوه بأموالهم وأبنائهم، وقدموا له كل شيء، لقد قدّم له سيدنا الصديق ماله كله، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، كان أحدهم يدافع عنه ويقول: صدري دون صدرك، ونحري دون نحرك، فما هذه التضحية والفداء؟ ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

يا أخي الكريم اطمئن لكل آية في كتاب الله، وإن كان في ظاهرها توجيه إلى النبي عليه الصلاة والسلام فإنّ لك منها نصيباً، ولا يمكن لمؤمن على وجه الأرض إلا أن يكون له من هذه الآية نصيب، وبقدر إيمانه على قدر مكانته، وعلى قدر كرامته، ومهما ضاقت بك الدنيا فلا بد أن يشرح الله لك صدرك، ومهما احلولكت دونك الخطوب فلا بد أن يشرح الله لك صدرك، ومهما ضاق بك الأمر فلا بد أن يشرح الله صدرك.

((قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا شَاءَ أَقَامَ وَمَا شَاءَ أَزَاغَ))

[أحمد عن شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ]

حمل الدعوة وعبء الهدى ونقل الرسالة خطير وثقيل :

لا تعرف الانشراح إلا بعد الضيق، ولا تعرف الشبع إلا بعد الجوع، ولا تعرف الري إلا بعد العطش.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)

فإذا وضعت على الناقة حملاً ثقيلاً، ودعوتها للمسير سمعتَ صوت أضلاعها وكأنها تنوء بهذا الحمل، فحمل الدعوة وعبء الهدى ونقل الرسالة خطير وثقيل، إنسان وحيد جاءته الرسالة، ومضى على تبليغها للناس ربع قرن، فإذا بالهدى قد عم الأرض، ولما قبض النبي عليه الصلاة والسلام كان مبتسماً، رأى أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد. لذلك عندما يقف الإنسان أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام الشريف يجب أن يقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدتِ في الله حق الجهاد.

ألك من هذا نصيب؟ ألك رسالة أيها الأخ الكريم؟ أم الطعام والشراب وتأمين الحاجات، هذه كلها هموم الناس، ألك رسالة في الحياة؟ أتشعر أنك خلقت لهدف نبيل؟ أتشعر أن الله سبحانه وتعالى جاء بك إلى الدنيا لتتعرف إليه أولاً، وتُعرِّف به ثانياً، وتعمل الصالحات ثالثاً، أتشعر بهذه الرسالة؟ إن كنت كذلك فلا بد أن يشرح الله صدرك.

إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها ودنيها، وما استرذل اللهُ عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، ومعنى استرذله أي رآه سخيفاً، ورآه شهوانياً، ورآه متعلقاً بالدنيا، حيث جعلها أكبر همه ومبلغ علمه، ورآه أرضياً لا سماوياً، وإذا فاته من الدنيا شيء ندب حظه وأخذ في البكاء.

قال بعض الفقهاء: من بكى في الصلاة على شيء فاته من الدنيا فإن صلاته فاسدة، فلا ينبغي أن تبكي على الدنيا إن أقبلت أو أدبرت.

النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذاته وفني في محبة ربه فرفع اللهُ تعالى ذكرَه :

إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لن يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ*)

قال بعض الشعراء:

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم تَرَهَا تُنال إلاّ على جسرٍ من التَّعب

* * *

نظر إلى حياته الماضية، وكيف كانت مشحونة بالمتاعب والهموم، الهموم الشريفة المقدسة، وكيف كان قلقاً على نفسه، وكيف كان يخاف عدم الإخلاص، وكيف كان يخدم الناس، ويبلغ رسالة الله عز وجل، فهذه النظرة تسعده إلى أبد الآبدين.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذاته، وفني في محبة ربه فما الذي حصل؟ لقد رفع اللهُ سبحانه وتعالى ذكرَه.

حيثما ذُكِر الله عز وجل ذُكر معه النبي صلى الله عليه وسلم :

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، في الشهادة، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي الصلاة، وفي القرآن:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 1]

حيثما ذُكِر الله عز وجل ذُكر معه النبي صلى الله عليه وسلم، فهل من مقام أعلى من هذا المقام؟ ادْخُل الحجرة النبوية المطهرة فلن تشعر أن في الدنيا أحداً عظيماً إلا صاحب هذا المقام، فما هذا الشأن الرفيع؟ بعد ألف وخمسمئة عام من وفاته صلى الله عليه وسلم، إذا وصلت إلى قبره اقشعر جسمك، وتشعر أنك تريد البكاء، مع أنّكَ لم تلتق به، ولم تره بعينك، ولم تصاحبه، لكنك سمعت عن كماله، وعن تواضعه، وعن لطفه، وعن رأفته، حتى إنه كان يصغي الإناء للهرة، وفي الأثر: أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.

وروي أيضاً: أول من يمسك بحلق الجنة أنا فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فلم تتزوج من أجلهم.

كان يعطف على الأرملة واليتيم، وكان يجلس جلسة العبد، وكانت المرأة الضعيفة تستوقفه في الطريق، فتكلمه فيقف معها طويلاً، ويستمع إليها، وقد رُوي أن امرأة جاءته فقالت: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا صغيرة ذات مال وأهل، فلما كبرت سني، ونثرتُ بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، فجعل النبي يبكي.

معان متعددة للآية التالية :

كان في قلبه رقة لذلك:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

1 ـ المعنى الأول أي قرنت اسمك مع اسمي يا محمد :

فإنّ اسمك يا محمد اقترن مع اسمي، ومعنى رفعنا لك ذكرك أيضاً: الإنسان له ذكر، رافقْ إنساناً ساعات يحدثك في التجارة، فهذا ذكره، وإنسان يحدثك بالبيوت فهذا ذكره، والمنحط يتحدث لك عن

النساء فهذا ذكره. فكلما التقيت بإنسان فله ذكر معين، في التجارة، في الصناعة، في الرحلات، في ألوان الطعام، في موضوعات كثيرة، أما النبي عليه الصلاة والسلام فترَّفع عن هذه الموضوعات، ورفع الله له ذكره، فجعل ذكره مقدساً.

كان حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه، والذين هم عن اللغو معرضون، وكل ما سوى الله لغو.

المعنى الأول (رفعنا لك ذكرك) أي قرنت اسمك مع اسمي يا محمد.

2 ـ المعنى الثاني جعلنا ذكرك عالياً وسامياً :

المعنى الثاني جعلنا ذكرك عالياً، سامياً، اجلس مع الناس فبماذا يتحدثون؟

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[أبو داود عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

تلك موضوعات تبعث في النفس اليأس والحسد والغيرة والحقد والضغينة والبغضاء واليأس من رحمة الله، اجلس مع مؤمن فإنه يحدثك حديثاً آخر، فترتاح له، وتستبشر، وتطمئن، وتفرح، وقد تمضي ساعات طويلة ولا تشعر بالوقت.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

جعلنا ذكرك عالياً، وحديثك مقدساً، وجعلناك تهتم بمعالي الأمور لا بسفاسفها، هذا هو المعنى الثاني.

3 ـ المعنى الثالث أنّ الله تولى البيانَ عنه :

والمعنى الثالث أنّ الله تولى البيانَ عنه، قال تعالى:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

قالوا: يا رسول الله إنك تغضب فإذا كنت غاضباً أنأخذ عنك؟ فأمسك النبي عليه الصلاة والسلام بلسانه، وقال: والذي بعثني بالحق لا ينطق إلا بالحق. هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق، في غضبه وفي سروره، وفي حزنه وفي فرحه، وفي السراء والضراء.

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

ما من مؤمن إلا وله من آيات الله نصيب :

قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

كما قلت لكم قبل قليل: ما من مؤمن إلا وله من آيات الله نصيب، مع أن هذه الآية في ظاهرها خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنك يا أخي الكريم إذا نسيت ذاتك وأنكرتها فمن أنت؟ أنت عبد من عباد الله، تحدث عن ربك وعرِّف الناس به فلا بد أن يرفع الله ذكرك على قدر إيمانك، وعلى قدر كرامتك، وعلى قدر إخلاصك، ولك من هذه الآية نصيب. والذكر الحسن شيء نفيس في المجتمع، أن تقابل الناس وهم يثنون على أخلاقك فهذه ثروة طائلة هذه:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

يا محمد، ويا أيها المؤمن إذا عرَّفت الناس بالله عز وجل، وكان همك تعريف الناس بي، وكان همك هدايتهم، وأنت ترضيني وأنا سوف أرضيك، رضي الله عنهم ورضوا عنه، جاء جبريل عليه السلام إلى سيدنا رسول الله قال: يا محمد أبلغ صاحبك أبا بكر أن الله راض عنه، فهل هو راض عن الله؟ فلم يحتمل الصديق هذا الكلام، وهل في الأرض شيء أثمن من أن تكون لك مع الله مودة، مع رب السماوات والأرض، وأن تكون بعينه، وبحفظه، ألا تكفيك هذه الآية:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

منزلة النبي عليه الصلاة والسلام عند الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه: 41]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

أي الملوك تسمي أنفسها خادم الحرمين الشريفين، فهل هناك مقام كمقام الملك، تتشرف الملوك بخدمة عتبته، لا بخدمته هو صلى الله عليه وسلم، ذكره على الأفواه، ألف مليون مسلم يذكرونه ويتأثرون لذكره، لذلك:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

ومِن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى جعله باباً له فأنت باب الله يا محمد، فأيُّ إنسان أتى اللهَ مِن غيره لم يقبل، ولا يُدخل بابُ الله الوحيد إلا مِن جهته، والأنبياء جميعاً يدخلون على الله من باب المصطفى صلى الله عليه وسلم، رحلة الإسراء والمعراج صلى بهم جميعاً، وكان إمامهم ودليلهم، وكان بابهم إلى الله عز وجل.

الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيبنا وإذا بعث لنا همّاً أو غمّاً فلمصلحتنا :

قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ* فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

كان ممكناً أن يقول: فإن بعد العسر يسراً، لكنَّ ربنا سبحانه وتعالى قال:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

بحسب المنطق فإن بعد العسر يسراً، لذلك إن العسر فيه بذور اليسر، قد يكون المرء منحرفاً، ولا يعي على خير، فيأتيه مرض عضال، ويتكلم الأطباء بكلام بإلهام الله عز وجل، أنْ لا أمل، أو الأمل ضعيف جداً، فتضيق النفس، وتضجر، وتيأس، ثم تذكر أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأن الشفاء بيده، فتلتفت إلى الله عز وجل، فإذا التفت إليه أذِن بالشفاء، فهذا المرض فيه بذور الشفاء، والمرض دواء النفس وشفاؤها، فالإنسان المؤمن العاقل لو أن الدنيا ضاقت به فليذكر هذه الآية:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

مع الضيق الفرج، ومع الفقر الغنى، ومع المرض الصحة، إن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيبنا، وإذا بعث لنا همّاً أو غمّاً فلمصلحتنا، ومن أجل أن نُقبل عليه، جاء في الأثر: يا رب ارحمني، يا رسول الله ادعُ الله أن يرحمني، فقال صلى الله عليه وسلم: يا رب ارحمه، فقال الله عز وجل: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كما ولدته أمه.

لا بد من يسر بعد العسر :

قال تعالى:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

فكم من مرض أفضى بالإنسان إلى الهدى، وكم من مرض عضال انتهى بصاحبه إلى الصلح مع الله، والتوبة النصوح، دُعِيَ رجل منحرف إلى الصلاة فأبى، ودُعِي إلى الاستقامة فأبى، ودعاه جيرانه سنوات طويلة فلم يستجب، فأصابه مرض عضال، ثم أرشده الطبيب إلى الصلاة، فلما صلى أذن الله له بالشفاء، هذا المرض أفضى به إلى الصلاة، ويوم القيامة يرى أنه نعمة عظيمة.

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

هذه الآية عظيمة جداً، فأيُّ مصيبة على وجه الأرض نفسية أم جسمية، كمصيبة المال، أو مصيبة النفس، أو مصيبة الجسد، أو قلق، وهم، وحزن، وفقر، وخوف، وضياع فاذكر بها:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العلماء قالوا: المعرفة الثانية غير الأولى، إن للصائم فرحة، إن للصائم فرحة، الصائم هو نفسه، لكن له فرحتان، فرحة حينما يفطر، وفرحة حينما يلقى الله عز وجل، فكلمة فرحة نكرة، له فرحتان، وهذا الصائم واحد.

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العسر معرف بأل، وهذا تعريف الاستغراق، أي كل أنواع العسر، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ماديها ومعنويها، تشمل كل أنواع العسر، التعريف تعريف استغراق، تقول: الحديد في الأرض، وتعني كل أنواع الحديد، فإن مع العسر، قال: يسراً، بتنكير التعظيم، يسراً كبيراً، وصفه بأنه كبير، وبأنه سريع، وبأنه كريم:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العسر الذي أصاب الإنسان في الدنيا له نتيجتان :

قال عليه الصلاة والسلام:

((لن يغلب عسر يسرين))

[الطبراني عن جابر]

فإما أن تكون الثانية تأكيد للأولى:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرَاً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرَاً)

وإما أن يكون اليسر الثاني غير الأول، لذلك بعض العلماء قال: إن مع العسر في الدنيا يسراً في الدنيا، وإن مع العسر في الدنيا يسراً في الآخرة، إن هذا العسر الذي أصاب الإنسان في الدنيا له نتيجتان، يسر في الدنيا، ويسر في الآخرة، وسعادة في الدنيا، وسعادة في الآخرة، قال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرَاً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرَاً)

ما من عبد مؤمن أصابه همّ وقرأ هذه الآية إلا شرح الله صدره:

سيدنا عمر يقول: مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة إلا وجعل الله بعده فرجاً.

كن عن همومك معرضا وكِلِ الأمور إلى القضا

و ابشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى

فلربَ أمر مسخــط لك في عواقبه رضـى

ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكوننَّ معترضــا

الله عودك الجميــل فقس على ما قد مضى

* * *

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنتُ أظنها لا تفرجُ

* * *

اشتدِّي أزمة تنفرجي، إن مع العسر يسراً، فما من عبد مؤمن أصابه هم أو ضيم أو حزن أو غم وقرأ هذه الآية إلا شرح الله صدره:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

كلمة (مع) أبلغ من كلمة (بعد)، أبلغ من إن (بعد) العسر يسراً، مع، أيْ هذا المرض معه الشفاء، وهذا الضيق معه الفرج، وهذه المصيبة معها الهدى، وهذا الخطر معه التعرف إلى الله عز وجل، لذلك يفرح الإنسان.

أوجه معاني تفسير الآية التالية أنك إذا فرغت من الدعوة إلى الله فانصب لذكر الله

قال تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

لهذه الآية ثمانية معان، وأوْجَه هذه المعاني: إذا فرغت من الدعوة إلى الله فانصب لذكر الله، لماذا؟ لأن هذا الذكر بمثابة الشحن لهذه البطارية، فبقدر صلتك بالله ينطلق اللسان، وبقدر ما لك عند الله من قُربي تؤثِر في الآخرين، أما الدعاة الذين ينصرفون إلى الناس وصلتهم بالله ضعيفة فلا يؤثرون فيهم، فإذا فرغت من الدعوة إليه فانصب إلى الصلاة، واتصل بي، واذكرني، وأقبلْ عليَّ، من أجل أن تستمد الطاقة، ومن أجل أن تستمد النور، وتستمد قوة المعارضين، وتستمد الكمال الإنساني، حتى يفتن بك أصحابك:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

هذا المعنى للنبي صلى الله عليه وسلم، سيدنا سليمان أحب (حب الخير) عن ذكر ربه فعاتبه ربه، وسيدنا داود أحب ذكر الله أكثر من العمل الطيب، وجاءه ملكان على شكل متخاصمين، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ*قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 23-24]

سيدنا داود له مع الله وجهة عالية، أراد أن يعود إليها سريعاً فأسرع في الحكم، قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، قال أنا لا أريد أن آخذها منه، بل أريد أن أرعاها له، وأريحه من رعايتها:

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ)

[سورة ص: 24]

إذا دعوت إلى الله فالتفتْ إلى الله بقلبك حتى تستمد منه القوة على توضيح المعاني :

سيدنا داود غلب عليه أنه أميل إلى الصلة بالله أكثر من العمل الصالح، وسيدنا سليمان غلب عليه عمله الصالح على الصلة بالله، وكلاهما عوتب، أما النبي الكريم:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

فرسان في النهار، رهبان في الليل، فإذا دعوت إلى الله فالتفتْ إلى الله بقلبك حتى تستمد منه القوة على توضيح المعاني، وإذا دعوت الناس إلى الله وفرغت من هذا العمل فانصب واتصل بي حتى تستمد مني قوة الاحتمال فهناك معارضون وهناك ضغوط ومغريات.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

فإذا فرغت فانصب، وللمؤمن من هذه الآية نصيب، فإذا كان حديثك عن الله باستمرار وصلتك به ضعيفة، فهذا الكلام لا يؤثر في الناس، وبعد فترة يضعف سحر الكلام، ويضعف الأثر، ويصبح كلاماً معاداً مكرراً، ولكن إذا كانت لك صلة بالله عز وجل، وحدثت الناس فَعَلَ ذلك فِعْلَ السحر.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

هذا للنبي الكريم، ولكل مؤمن صادق، والمعنى الأقل من ذلك: إذا فرغت من الدنيا فانصب إلى ذكر الله.

كلما أتى شيء يهمك في الدنيا فأنجزْه وانتهِ ثم انصب :

الامتحان انتهى فتعال إلى المسجد، هذا المحل أسسته وانتهى هذا التأسيس فالتفت إلى الله عز وجل، الولادة انتهت، والولد سليم ومعافى قم فصلِّ، واقرأ القرآن.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

إنّ الحياة كلها مشاغل، والمعنى الثاني يتناسب مع عامة الناس، كلما أتى شيء يهمك في الدنيا فأنجزْه وانتهِ ثم انصب، فإما أن تأخذه على المعنى الأول في الدعوة بين التعليم والصلة بالله عز وجل، وإما أن تأخذه على المعنى الثاني في عمل انتهى بعد ذلك اذهب إلى الله عز وجل، وانصب إليه:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله و إن فتتوا في حبهم كبدي باقٍ على ودهم راضٍ بما فعلوا

* * *

فما مقصودهم جنات عــدن ولا الحور الحسان و لا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا منـاهم   و هذا مطلب القوم الكـــرام

***

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

من طلب الآخرة أتته الدنيا وهي راغمة :

أحد العارفين بالله اسمه أو لقبه المعرض عن المراد الدنيوي والأخروي:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

بماذا ترغب يا أخي؟ لو شُقَّ عن صدور الناس فهذا في صدره أنْ يملك سيارة، وعندما يمتلكها يكون ملك الجنة، ولكن لم يمتلكها، وذاك في ذهنه أن يتزوج فحسب، وآخر يريد بيتاً له مواصفات محددة، وغيره يريد محلاً تجارياً في الشارع الفلاني، ويكون رائج البيع، فإذا بلغ هذا الشيء فقد انتهت كل مطالبه، قال لي شخص: فلان دخله في الشهر ثلاثون ألفاً، وقال: هذا قليل، قال له صاحبه: كيف قليل؟ فقال له: لأن في الآخرة ليس له شيء، هذا هو الشقاء حقاً، لأن السنوات محدودة وينفد كل شيء:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

ترغب بماذا؟ من كان راغباً في الدنيا تعِسَ وشقي، ملخص الملخص؛ مَن بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يبلغ من الدنيا ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة أدرك نصيبه من الدنيا، ونال من الآخرة ما يريد.

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، كلام بمنتهى الإيجاز، فاطلب الآخرة، واللهِ الذي لا إله إلا هو سوف تأتيك الدنيا وهي راغمة.

إنّ المؤمن يسعد في الدنيا أضعاف ما يسعد الكافر، وتأتيه الدنيا وهي راغمة، اطلب الدنيا تضِعْ منك الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، والشقاء البعيد، لذلك:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

على الإنسان أن يرغب بالله عز وجل :

ما معنى ارغب إلى الله أي أطِعْه، اقرأ القرآن وتفهَّمْه، واحضر مجلس علم، يجب أن يكون مجلس العلم أغلى عليك من أي اجتماع، ومن أي سهرة، ومن أيّة نزهة، ومن أي شيء مقدس، هذا وقت الله عز وجل.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

هل النزهة أغلى عليك من مجلس العلم؟ فيجب على الإنسان أن يرغب بالله عز وجل، فإذا رغب بالله، قال له: اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء. إنّ الله أحب إليك من كل شيء، فلا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفِك النهار كله:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً))

[ورد في الأثر]

تراه من الساعة السادسة مع الهواتف حتى الساعة الثانية عشرة ووصلت البضاعة، ورسائل، وبيع وشراء، وفجأة يأتي ملك الموت، قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ*)

[سورة التكاثر: 1-2]

لذلك :

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً .))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التين 095 - الدرس (1 -1) : تفسير الآيآت 1 - 8 سمو المؤمن إلى أعلى عليين بطاعة الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-04-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين تؤكد أن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين إذا عرف ربه وأطاعه

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة التين.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

قبل الحديث عن معاني الآيات الذي تنطوي عليها هذه السورة لا بد من تعريف عام لهذه السورة، سورة التين تؤكد أن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين إذا هو عرف ربه وأطاعه وعمل الصالحات تقرباً له وإذا ضل عنه وعصاه يهوي إلى أسفل سافلين، فحياة الإنسان إما أن تكون في أعلى عليين وإما أن تكون في أسفل سافلين، لذلك الإمام علي كرم الله وجهه قال: ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

إما أن تكون في أعلى عليين فوق الملائكة المقربين، وإما أن يكون الإنسان الضال في أسفل سافلين دون أحط الحيوانات قدراً.

عطاء الله تعالى يتجلى بخلق التين والزيتون :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

أي خير ما برأ الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

أي شر ما برأ الله:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*)

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

التين هو التين الذي نأكله والزيتون هو الزيتون الذي نعصره، وقد يأكل الإنسان الطعام ولا يفقه ماذا يأكل؟ ولا يعرف قيمة ما يأكل؟ ولا يعرف عظمة الله عز وجل من خلال هذا الذي يأكله، هل نظرت إلى التين؟ إن كل بذرة في التينة يمكن أن تكون شجرة، ما أدق هذه البذرة، فيها رشيم وفي الرشيم حياة، فإذا ذهبت تعد عدد بذرات التينة الواحدة، كل بذرة يمكن أن تكون شجرة، وإذا ذهبت تعد عدد الثمرات التي تحملها الشجرة في العام وتضربها بعدد البذرات، هذا عطاؤنا.

أحد أنواع الكفر المبطن أن نعزو الإبداع للمادة :

الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وعن طريق التوالد والبذور تفضل علينا بنعمة الإمداد، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، النبي صلى الله عليه وسلم فيما تروي الأحاديث أهدي إليه سل تين، فقال: كلوا وأكل منه: وقال: لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم، أي بلا نوى، انظر إلى التينة وهي خضراء قاسية لو تذوقتها لرأيت لها طعماً حريفاً حاداً انظر إليها وقد اصفر لونها وسال عسلها وعذب طعمها وصار كالعسل ولان ملمسها، ونمت في الجبال بلا عناية ولا سقي ولا شيء من هذا القبيل، فهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

ذكر التين وأراد كل فاكهة نأكلها، هل فكرت فيها كيف صممت؟ العلماء أحياناً يقعون في شيء اسمه كفر مبطن، يقول هذه البذرة مبرمجة. قال لي رجل من أهل العلم: أن هذه البذرة مبرمجة بمعنى كل خلية من خلاياها فيها نواة، وفي النواة محفظة فيها تعليمات تسميها كروزومات، تسميها جينات، تسميها مورثات، قال هذا الرجل المتعلم المختص بهذا الموضوع: لو أردنا أن نترجم هذه التعليمات إلى لغة لاضطررنا أن نكتب هذه التعليمات في مجلدات تعادل دائرة المعارف، أي من عشرين إلى ثلاثين مجلد وكل مجلد ألف صفحة.

بعض العلماء قال هذه التعليمات تزيد عن خمسة آلاف مليون أمر، هذه التعليمات في محفظة في نواة، هذه النواة في الهيلولة، وهذه الهيلولة في الخلية.

العالم كلما رأى بذرة يقول لك مبرمجة أي عندما تزرعها تنبت تيناً لخشبها شكل، لأغصانها شكل، لأغصانها لون، للأوراق لون خاص، لملمس الأوراق ملمس خاص، ذات طبيعة خاصة وطبع مميز، لها أوقات نضج، تحتمل الحر والقر، تنبت في المرتفعات والمنخفضات، هذا معنى مبرمجة، فهذه

البذرة تنتج تيناً، وهذه البذرة تنتج زيتوناً، على مستوى الأزهار ترى البصل لونه واحد، ومع هذا هذه البصلة تنتج وردة بيضاء، وهذه البصلة زهرتها حمراء قانية، وهذه البصلة زهرتها حمراء غير قانية أي مبرمجة، هذه البذرة فيها تعليمات، تعليقاً على هذا الكلام الذي يقوله العلماء أضرب مثلاً: لو أردنا أن نبني بناءً واستخدمنا مهندسين من أرقى المستويات، وقلنا لهذا المهندس: ضع لنا مخططاً للأساسات ولهذا احسب لنا نسب الإسمنت والحديد، ولهذا المهندس: ارسم لنا شكل البناء، ولهذا المهندس: هندس المجاري، ولهذا المهندس: هندس الكهرباء: وجمعنا هذه الخرائط الصحيحة الدقيقة التي بذل فيها أصحابها الساعات الطوال والإبداع الرائع ووضعناها فوق بعضها بعضاً كيف يظهر البناء؟ أي بناء هذا، هل تكفي البرمجة، هل يكفي أن يكون معك مخطط تفصيلي دقيق جداً فيه آلاف المعلومات عن البناء حتى يبنى البناء، اجمع هذه الخرائط وضعها في أرض خاوية وانتظر هل يبنى هذا البناء؟ يحتاج إلى مواد، ائتِ بمئات الأطنان من الإسمنت والحديد والبلاط والدهان وكل ما يحتاجه البناء وضع هذه المواد وانتظر هل يبنى البناء، إذاً هل يكفي أن تقول بذرة مبرمجة، هل يكفي أن تقول في هذه البذرة معلومات، هل تكفي التعليمات لتنقلب هذه البذرة إلى شجرة، هل تكفي هذه التعليمات لتنقلب البصلة إلى زهر رائع لا تكفي التعليمات، لا بد مع التعليمات من مواد، ولا بد مع المواد من بناء، لا بد من تعليمات أي مخطط أي برمجة ولا بد من مواد ولا بد من بناء يقوم به، فإذا رأيت فاكهة وقلت: هذه بذرتها مبرمجة، فهذا أحد أنواع الكفر المبطن، أي عزونا الإبداع للمادة.

الله عز وجل إكراماً لنا ورأفة بحالنا ثبت خصائص المواد :

الله عز وجل إكراماً لنا ورأفة بحالنا ثبت خصائص المواد، إذا زرعت بذر الفجل ينبت فجلاً، لو كان في الكون فوضى لوجدت الفجل ينبت الخيار، والخيار ينبت البصل، لكن ربنا عز وجل جعل للبذرة صفات ثابتة، والناس حينما بعدوا عن الله عز وجل ظنوا أن هذه البذرة مبرمجة، مع أن الله سبحانه وتعالى حينما أنبت هذا النبات أنبته على طريقة ثابتة كي نطمئن.

حدثني أخ يعمل في حقل الأزهار قال لي: في بعض الأنواع من الأزهار الغرام الواحد من بذورها يعد سبعين ألف بذرة، البذرة التي هي جزء من سبعين ألف من الغرام فيها رشيم، ومع الرشيم مواد غذائية تكفي لإنباته وإنبات جذوره.

أحضر حبة فاصولياء وضعها في قطن بعد أيام ينبت برعم وجذير، أمسك الفاصولياء تراها فارغة، من أين نبت البرعم والجذير؟ ربنا عز وجل حينما خلق البذرة خلق لها رشيماً وخلق مواد غذائية تكفي لإنبات البراعم، السويق، ولإنبات الجذير، إلى أن تستطيع البذرة أن تأخذ غذاءها من التربة يكون هذا

المستودع الغذائي قد انتهى. في كل بذرة رشيم ومواد ومخطط تفصيلي، أية يد بنت هذا البناء؟ أية يد أنبتت هذا النبات؟

التين له شكل معين، وأوراقه لها شكل معين، وأغصانه لها شكل معين، ولحجم فاكهته حجم معين، وله لون معين، وله طعم معين، وله بذور معينة، وله طباع معينة، وله وقت نضج معين، ربنا قال:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

على جبل واحد تينة وزيتونة، هذه تنضج في الصيف وتلك تنضج في أوائل الشتاء، هذه ذات طعم مر وهذه ذات طعم حلو كالعسل. سبحان الله، بون واسع بين التين والزيتون، قد تزرع تينة إلى جنب زيتونة على أرض واحدة ويسقيها ماء واحد ويعتني بها مزارع واحد ولهذه صفاتها ولتلك خصائصها.

ما من فاكهة على وجه الأرض إلا ولها علامة نضج وهذه من نعمة الله عز وجل :

قال بعض المفسرين: ما أراد الله عز وجل من هذه الآية التين والزيتون فقط، أراد كل ما تأكله، فهذان النوعان والصنفان اللذان ذكرا تأكلهما على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، هل فكرت أيها الإنسان في التين والزيتون، هل فكرت في المشمش، في التفاح، في الكمثرى، في الدراق، في العنب، في البلح، في الموز، في هذا الذي خلقه الله سبحانه وتعالى؟ كل فاكهة لها لون وطعم، لها نكهة، لها قوام، لها قشر، لو أن التين طال ذنبها لسقطت، لكن قصر ذنبها يعين على تماسكها على الشجرة وهذه من حكمة الله عز وجل، لو أن هذه التينة بقيت ذات لون أخضر، لا تعرف أنت أي ثمرة قد نضجت، تقطف ثمرة غير ناضجة لا تؤكل، لكن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا فجعل الثمرة الناضجة صفراء اللون وأعطاك إشارة أخرى وهي نقطة عسل في مؤخرتها، هذه نضجت اقطف هذه ودع تلك، قال ربنا عز وجل:

(وَعَلَامَاتٍ)

[سورة النحل: 16]

ما من فاكهة على وجه الأرض إلا ولها علامة نضج، وهذه من نعمة الله عز وجل حتى البطيخ، الذي يملك حقل بطيخ يجنيه خلال أشهر ثلاثة، كيف يعرف أن هذه البطيخة قد نضجت؟ هل يحملها وهي على أمها ويتفحصها؟ وإذا قطف البطيخ من دون معرفة قد يأتي كله أبيض اللون لا يباع، ربنا عز وجل جلت حكمته جعل على طرف البطيخ حلزوناً إذا كان يابساً فالبطيخة قد نضجت وإذا كان أخضر اللون يدعها على حالها، ما من فاكهة من الفواكه إلا ولها علامة لذلك قال الله عز وجل:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل: 16]

كلمة (علامات) مطلقة، علامة لنضج الثمار والخضراوات والمحاصيل والفواكه والثمار وكل شيء.

المحاصيل لحكمة بالغة جعلها الله عز وجل تنضج في وقت واحد :

ربنا عز وجل جعل هذا التين لا ينضج في وقت واحد، مع أنه تلقى شروطاً واحدة، حراً في وقت واحد، قراً في وقت واحد، سقي في وقت واحد، الظروف المحيطة بالشجرة واحدة، يجب في المنطق أن تنضج الثمرات في وقت واحد، فلو أن هذه الشجرة نضجت دفعة واحدة الإنتاج كله سوف يباع في الأسواق والإنسان لن يستطيع أن يستهلكه في يوم واحد، يستهلك واحد من تسعين من حجمه والباقي يتلف، لكن الله سبحانه وتعالى جلت حكمته جعل نضج التين، والتفاح، والكمثرى، والدراق، والبطيخ بالتدريج.

لو لا أن هناك إلهاً عظيماً لجعل القمح ينضج بالطريقة نفسها، هذه مشكلة، تمسك السنبلة واحدة وَاحدة فترى هل نضجت أم لم تنضج؟ أي يمضي الصيف كله بجني القمح، فالمحاصيل لحكمة بالغة جعلها الله عز وجل تنضج في وقت واحد، فربنا يقول جل من قائل:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

أي هل فكرت أيها الإنسان بهاتين الآيتين؟ يجب على الإنسان ألا يكون كالبهيمة يأكل ويشرب كما تأكل الأنعام، الأنعام تأكل ولا تعرف ماذا تأكل، ولا قيمة ما تأكل، ولا عظمة الخالق فيما تأكل، ولا روعة الخلق، ولا العلم المنطوي بهذه الفاكهة:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

أشياء كثيرة يمكن أن نتكلم عنها في موضوع التين والزيتون ولكن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك، وعلى الإنسان أن يجول فكره في ملكوت السموات والأرض.

الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لنعرفه من خلال الخلق :

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

أي العلماء وحدهم يخشون الله، كلما زدت المخلوقات فكراً زادتك معرفة بالله عز وجل، والأصح من ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لنعرفه من خلال الخلق. قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

فهذه اللام لام التعليل لتعلموا:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ)

هناك تفسيرات كثيرة لآية (وطور سينين)، أن التين والزيتون ينبتان في الجبال، الطور هو الجبل، وسينين هو الجبل الذي فيه أشجار مثمرة، أي الجبل الأخضر منظر جميل وعطاء كريم، في بلادنا جبال كثيرة كلها زيتون، هناك إحصاء قديم من عشر سنوات ونيف فيه عدد أشجار الزيتون خمسة عشر مليون زيتونة. جبال خضراء وفوق جمالها وخضارها تدر على الناس عطاءً كثيراً، ومعنى آخر أن هذا الجبل الذي ينبت هاتين الشجرتين من تربة واحدة قد يكون الجبل كلسياً، قد يغلب على تربته الحديد ومع ذلك ترى طعم الزيتون يختلف عن طعم التين، وبعض المفسرين قالوا الطور من قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح: 13-14]

من الطور والطور مرحلة في النمو، مرحلة في التطور، هذه البذرة لتصبح شجرة تمر في مراحل من مرحلة الرشيم لمرحلة إنبات الرشيم، لظهور الجذير، لنمو الساق، لنمو الأغصان، لنمو الأوراق، لنمو الأزهار، لانعقاد الثمرة، لنضج الثمرة، لحجم الثمرة وتلوينها، هذه الأطوار طور فوق طور، لذلك قال بعض الفلاسفة: البذرة شجرة بالقوة، وبذرة بالفعل.

معنيان مختلفان لكلمة (طور) :

ربنا عز وجل قال:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ)

هذا التطوير في النبات والحيوان والإنسان، فالطفل ينمو، يمشي، يتكلم، يدرك، يحاكم، يفكر، يتذكر، يكبر، تنبت لحيته ويخشن صوته، يصبح شاباً، يزداد عقله، يقل طيشه، ثم يصبح كهلاً، يعقل، يفكر في مستقبله، يتزن في كلامه، أطوار.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح: 13-14]

والأشجار المثمرة تبدأ بذرة ثم فسيلة ثم شجيرة لا تثمر بعد ذلك، تثمر ثم تنمو ثم تعطي عطاءها، منها من يعمر، هذه تعيش ألف عام، هذه تعيش عشرة أعوام، هذه قصيرة العمر وهذه طويلة العمر، هذه الأطوار طواها الله سبحانه وتعالى في قوله وطور سينين.

إما أن نفهم الطور الجبل المبارك الذي تكسوه الأشجار الخضراء، وإما أن نفهم الطور هذا الإمداد الإلهي الذي يجعل الأشياء تمر من طور إلى طور، قبل يومين رأيت الناس متحلقين في أحد شوارع المدينة، اقتربت فإذا إنسان ملقى على الرصيف، سألت: ماذا به؟ قالوا: وقع ميتاً، قبل دقائق كان يمشي ويتحرك ويسمع ويرى ويبصر وكان له محاكمة ونطق وكلام وأجهزة متعددة كانت تعمل دفعة واحدة توقفت عن العمل، فإذا هو جثة هامدة.

ما الذي فقده هذا الإنسان، فقد هذا الإمداد الإلهي، هذا الإمداد الذي يمد الأجهزة بالحركة والعمل، أضرب مثلاً؛ جهاز معقد جداً يعمل على الكهرباء إذا قطعت عنه الكهرباء يقف، يصبح كتلة من حديد. الله سبحانه وتعالى يمدنا بالحياة، والموت توقف القوة الممدة بالحياة فإذا الإنسان لحم وعظم يتفسخ بعد حين.

ثبات خصائص المواد هذه نعمة كبرى ولا يعلمها إلا العالمون :

قال تعالى:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

البلد الأمين مكة المكرمة، وإذا حملنا هذه الآية على أنها مكة المكرمة تكون بعيدة عن السياق العام مع أن مكة مكرمة عند الله عز وجل مشرفة وزادها الله شرفاً وتعظيماً، لكن البلد الأمين إذا راعينا السياق العام هذه الأرض التي نحن عليها، اركب طائرة هل تحس بالأمن المطلق، لا، لعل جهازاً تعطل فيها لا بد من قلق ولو بالمئة واحد، لعل الوقود تسرب من بعض الخزانات، لعل الأشخاص المكلفون بتنسيق الحركة في المطارات غافلون، لعل هناك اصطدام بين طائرتين، وهذا حدث. إنك وأنت على سطح الأرض في طمأنينة بالغة، الأرض لن تصطدم في كوكب آخر، قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

لكل كوكب مسار خاص، الأرض لن يتعطل فيها بعض الأجهزة، لن ينفد الوقود، لن تختل الجاذبية، هناك أمن، هناك أمن على بقائها، وأمن على استمرارها، وعلى حركتها، وعلى طاقتها، والشمس كل يوم تشرق، أنت مطمئن، لولا أن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا وجعل للحديد صفات ثابتة فأحوالنا صعبة، بعد أن أشدت البناء طرأ تعديل على بنية الحديد فوقع البناء. الحديد له صفات ثابتة، الإسمنت له

صفات ثابتة، ثبات خصائص المواد هذه نعمة كبرى ولا يعلمها إلا العالمون، أنت في هذا البلد على هذه الأرض تحتاج إلى الماء، الماء موجود في البحار والينابيع، وفي الأنهار، وفي باطن الأرض، والمياه معدنية فيها نسب من الكلور معينة، ومن اليود معينة، هذه النسب لها علاقة بأجهزة الإنسان الداخلية وبغدده الصماء، حتى أن وحدات التحلية التي صنعها الإنسان لتحلية مياه البحر هكذا بلغني أن المشرفين على هذه الوحدات يضيفون إليها بعض مياه الآبار لأن هذه التحلية تعطينا ماء صرفاً وليس معدنياً وهذا يؤذي بالصحة، تحفر الآبار ويؤخذ منها بعض الماء القليل ويخلط مع مياه التحلية حتى يصبح الماء معدنياً، فأنت إذا شربت كأس الماء من هذا البلد الأمين الذي جعل الله عز وجل كل الحاجات متوافرة فيه.

البلد الأمين أي كل الحاجات موفرة خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها لنا :

أنت بحاجة إلى الهواء قد لا تصبر من دون ماء أكثر من أيام، لذلك الماء موزع في المدن والقرى، لكن الهواء لن تستطيع أن تصبر على فقده إلا دقائق، إذاً هو في كل مكان، الهواء موجود في كل مكان لا يباع ولا يشترى، ولا يقنن ولا يحتكر ولا يستغل لأن حاجتك للهواء مستمرة، فالله سبحانه وتعالى جعله في كل مكان.

أنت بحاجة إلى أن تنام جعل لك الليل أميناً، وجعل المخلوقات كلها تخلد إلى النوم في مثل هذا الوقت. أنت بحاجة إلى ثياب تقيك الحر جعل القطن يمتص العرق، بحاجة إلى ثياب تقيك القر جعل الصوف تتدفأ به. أنت بحاجة إلى طعام فيه بروتين جعل اللحوم، ونوَّعها لك، فتأكل لحم غنم تارة ولحم سمك تارة ولحم طير تارةً أخرى.

أنت بحاجة إلى فواكه ذات ألياف سيليلوزية من أجل أن تحرك أعضاءك، وإلى شيء تمتع عينيك، جعل هذه الأزهار ونوَّعها وعدَّدها وجعلها متباينة الأشكال والألوان، أنت بحاجة إلى بيت جعل لك مواداً تجبلها تصبح سائلة ثم تجف تصبح قاسية من خلقها لك؟ من أعطى للإسمنت خواصه، من أعطى الخواص التي صنع منها الإسمنت؟

أنت بحاجة إلى طفل يؤنس وحشتك ثم يعينك في كبرك فجعل نظام الزواج، تحتاج إلى إنسان تسعد به قال تعالى:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

وهذا البلد الأمين أي كل الحاجات موفرة من طعام وشراب وزينة وكل شيء تريده وكل حاجة تحتاجها، خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها لنا.

الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم :

هذا البلد الأمين، هنا تجاوزنا التين والزيتون، التين والزيتون نموذجين، وطور سينين هذه الجبال الخضراء الجميلة أو هذه البيئة الواحدة، الأرض كل شيء فيها.

أنت بحاجة إلى ليف لتستحم به، يوجد ليف طبيعي له وجه ناعم وآخر خشن، مهما صنع الإنسان من أشياء لتستحم بها، هذا الليف الطبيعي نبات من الداخل خشن ومن الخارج ناعم، أنت بحاجة إلى نباتات حدودية للحدود بينك وبين جيرانك، أنت بحاجة إلى نباتات للزينة، أنت بحاجة إلى شجر ليكون لك مظلة أمام بيتك، هناك أشجار مظلات كأنها مظلة، دائمة الخضرة ذات أوراق لطيفة تتحرك مع الهواء حركة جذابة، وهذا البلد الأمين كل شيء تريده موفر لديك. وأنت في النهاية في أحسن تقويم، أي في أبدع ما يكون، هل تستطيع يا أخي الكريم أن تقترح على الله عز وجل تعديلاً لخلق الإنسان كأن تطول اليدان أو يتغير موضع الإبهام أو الأظافر، هذا الظفر يأتي هنا من أجل أن تمسك الأشياء بقوة، طول المفاصل وكرويتها، العضلات، والأعصاب، والأوردة، والشرايين، لو فتحت اليد ورسمت لرأيت عجباً عجباً، هذا الجذع هذا الرأس كيف يتحرك ويدور؟ من جعل هذا المفصل دائرياً؟ هذا السطح هو المتحرك، والرأس هو الثابت لو كان العكس. مكان العينين، الشعر، الأنف، الفم، الشفتان، الأسنان، منها قواطع، ومنها أنياب وأضراس، لو أن هذه الأسنان تنمو باستمرار، ماذا نفعل؟ من هو القابض؟ نمت ونمت ثم توقفت، من أوقفها عند حدها؟ وماذا نفعل لو أن الله سبحانه وتعالى لم يوقف النمو عند حد معين؟ من جعل هذه الجمجمة ذات مفاصل منكسرة من أجل امتصاص الصدمات؟ من جعل بين الدماغ والجمجمة سائلاً من أجل أن يقي الإنسان ارتجاج الدماغ؟ من جعل هذه الأنسجة حول الدماغ؟ من جعل في الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد؟ من جعل على سطح الدماغ أربعة عشر مليار خلية سمراء من أجل المحاكمة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

من جعل في هذه العين مئة وثلاثين عصية وسبعة ملايين مخروط من أجل أن ترى أدق الأشياء وأجملها؟ من جعل العين تفرق بين ثمانمئة ألف درجة من لون واحد؟

من جعل هذا الأنف يعرف الروائح، وفي الذاكرة أرشيف للروائح يشم هذه الرائحة يقول: انتظر هذه الرائحة كذا، ماذا حصل في الدماغ؟ أن هذه الرائحة عرضت على قائمة طويلة من الروائح واحدة

وَاحدة فلما وصلت إليها قلت هذه كذا، عندك ذاكرة روائح وذاكرة أصوات وذاكرة طعام، الذاكرة شيء عجيب.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

إعجاز الله تعالى يتجلى في خلق الإنسان :

الله عز وجل أعفاك من التنفس والدوران، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إليك التنفس ماذا تعمل هل تنام؟ ينام الإنسان فيموت يجب أن يسهر حتى يتنفس، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إليك ضربات القلب لا نوم، النوم معناه الموت. لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إلينا الهضم تحتاج أربع ساعات تضع المواد الهاضمة والعصارات وكلور الماء، البنكرياس والمرارة تتفرغ خمس ساعات بعد الأكل، إذاً خمس عشرة ساعة لهضم الطعام كل يوم.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

جعلك تنام وترتاح في النوم، جعلك تتكلم، كل حرف سبع عشرة عضلة تسهم في صنعه، وهناك عضلات معقدة تعمل في الكلام.

(الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

جعل الحركة لا إرادية، إذا الإنسان شاهد أفعى في بستان يصفر لونه ويدق قلبه ويزداد وجيب رئته، تفحص الدم تجد فيه مواداً سكرية زائدة، خلال ثوان ما الذي حدث؟ قال: العين رسمت في شبكيتها صورة الأفعى، والعين نقلت هذه الصورة إلى ملك الجملة العصبية الدماغ، والدماغ يملك أرشيف فيقول أفعى هذه، وهذا يسمى الإدراك، العين تحس أما الدماغ يدرك، الدماغ أعطى أمراً إلى ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية وحجمها كالعدسة، هناك خطر، الغدة النخامية أعطت أمراً إلى الكظر هناك خطر تصرف.

المراكز العليا تعطي أمراً صغيراً موحداً أما الدنيا معها تفصيلات، الكظر أعطى أمراً إلى كل الشرايين بتضييق لمعتها لتوفير الدم، الخائف يصفر، أمر ثان إلى القلب ليزداد حتى ينتقل الدم بسرعة، أمر ثالث للرئتين فيزداد خفقانهما حتى تتوافق مع القلب، أمر رابع للكبد يفرز مواد سكرية إضافية في الدم خلال ثوان.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

كل الخلايا في الجلد تتجدد وهذه من نعمة الله على الإنسان إلا خلايا الدماغ :

الله عز وجل خلق مثانة، لولا المثانة لضاعت كرامتنا، كل عشرون ثانية يوجد نقطتي بول، لو كان من الكليتين للخارج مباشرةً يحتاج إلى فوط. ربنا جعل مثانة، جعل حالبين، جعل عضلات، إخراج البول بإرادتك، عضلات قابضة وهي مشدودة إلى أقصى حد أنت مرتاح، هاتان العضلتان فيهما عظمة لا حدود لها.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

هذا عن خلق جسمه، انظر إلى إنسان فقد عقله في الطريق، حدثني أخ عنده رجل مسن فقد تفكيره، قال لي: نربط له يديه حتى لا يأكل من نجسه.

ألا نظرت في الطريق إلى إنسان مجنون كيف يتكلم؟ كيف يتصرف؟ هناك قصص يقشعر لها البدن، تراه صحيح الجسم قوياً ولكنه بلا عقل، فإذا فقد الإنسان عقله فقد كل شيء لأن قوام الرجل عقله.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

تتكلم الكلام المناسب بالوقت المناسب أحياناً تتكلم، أحياناً تسكت، تغضب غضباً مناسباً في وقت مناسب، فعقلك يتحكم في المواقف كلها.

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم عقلاً وفطرةً وجسماً، لو أن الله عز وجل وضع في الشعر أعصاباً حسية لاحتاج الإنسان إلى عمل جراحي في المستشفى عملية حلاقة، لأنها تحتاج إلى مخدر. وكذا شأن الأظافر ليس فيها أعصاب حس، قص أظافرك ولا تحتاج إلى مخدر ولا غرفة تخدير. كل الخلايا في الجلد تتجدد وهذه من نعمة الله على الإنسان، لكن الله حكيم لو أنه طبق هذا على كل شيء وتجدد الدماغ تفقد كل خبراتك ومعلوماتك، كنت طبيباً ونسيت كل شيء لأنه الدماغ تجدد، أما خلايا الدماغ ثابتة لا تتبدل، خلايا الدماغ التي ولدت بها هي كما هي حتى آخر ساعة من حياتك، فيها خبرات، فيها معارف، فيها الذكريات والمعلومات، كيف تنمو خبرة الإنسان؟ ربنا عز وجل جعل الدماغ لا يتبدل والقلب كذلك، وما سوى ذلك كل شيء بجسمك كل خمس سنوات يتجدد، وأشياء تتبدل كل أربع سنوات، الشعر يتبدل كله بثلاث سنوات، أطول عمر لشعرة ثلاث سنوات. أما خلايا الأمعاء تتبدل كل ثمان وأربعين ساعة.

خلقنا الله عز وجل في أحسن تقويم لنكون في أعلى عليين :

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

لماذا خلقناه في أحسن تقويم؟ ليكون في أعلى عليين قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

خلقنا الله عز وجل في أحسن تقويم لنكون في أعلى عليين، فإذا ضل الإنسان عن ربه، عصاه، نسي لماذا خلقه، نسي الآخرة قال تعالى:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

أحقر المخلوقات في الأرض الإنسان العاصي عندما يغفل الإنسان عن الله عز وجل ويعطي لنفسه شهواتها، فيطغى على حقوق الناس ويأخذ ما ليس له ويستعلي عليهم ويبني مجده على أنقاضهم وغناه على فقرهم وأمنه على خوفهم هذا في طريقه إلى مرتبة سفلى، إلى أسفل سافلين هكذا قال الله عز وجل، إذا الإنسان لم يعرف الله عز وجل يرد إلى أسفل سافلين لذلك:

((من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[رواه ابن عدي عن أنس]

((طوبى لمن طال عمره وحسن عمله.))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

موت الفجاءة للكافر نقمة وللمؤمن نعمة :

الذي يقرأ القرآن ويطبقه لا يخرف، هذه ضمانة من الله عز وجل، أنت كمؤمن في صعود إلى أبد الآبدين، الموت نقطة على هذا الخط الصاعد، المؤمن في صعود دائم مكانة ومعرفة ومحبة ونشاطاً، لذلك المؤمن من إكرام الله له قبضه إليه يكون قبضاً يسيراً، يبقى بكامل صحته ثم يتوفاه الله، انتزع من أهله انتزاعاً تألموا له كثيراً، لكن لو تركه الله سبحانه وتعالى في الفراش عشر سنوات أقرب الناس إليه يدعو الله صباح مساء أن يقبضه، وأن يخفف عنه، فقد مكانته وصار عبئاً على أهله. لذلك موت الفجاءة للكافر نقمة وللمؤمن نعمة:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا كذلك، ربنا قال إلا الذين آمنوا هؤلاء خلقوا في أحسن تقويم وهم في أعلى عليين ولن ينزل خطهم البياني أبداً هم سائرون، نحو الأعلى، نحو سعادة أشد، وعطاء أكبر، وأمن أكثر، وسرور وتوازن وما شاكل ذلك.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

أجر غير ممنون أي غير مقطوع، الأجر الذي يعطيه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لا يقطع؟ فكل عطاء ينتهي بالموت ليس عطاءً، فالمال الوفير، والمنزل الفخم، والمكانة الاجتماعية الرفيعة ليست عطاء. فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

الله سبحانه وتعالى أعد للمؤمن عطاء لا ينتهي، خالداً فيه إلى الأبد ولا يمكن أن يحد الأبد بحدود لأنه لا نهاية له. أما الأبد إذا وضعنا رقم الواحد في دمشق وأصفار إلى حلب ووضعناها صورة لكسر قيمته لا نهاية، القيمة هي الصفر، كل عدد مهما كان كبيراً إذا نسب إلى اللانهاية قيمته الصفر.

((أعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

البكاء على الدنيا ضعف في التفكير :

قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

ابك على الآخرة ولا تبك على الدنيا، البكاء على الدنيا ضعف في التفكير. لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، ليس لها قيمة يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

كلمة غير ممنون أي غير مقطوع، عطاء سرمدي أبدي، لا خوف ولا مرض ولا شعور بالحزن، حياة سعيدة إلى ما شاء الله، هذه الحياة نزهد بها ونطمع في الدنيا هذا هو ضعف التفكير، لذلك إن أكيسكم أشدكم للموت ذكراً، وأحزنكم أشدكم استعداداً له ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكن القبور والتأهب ليوم النشور.

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

(ما) بمعنى من أو بمعنى ما، ما الشيء الذي يدعو إلى التكذيب بالدين؟ كل هذا الكون ومع ذلك تكذب بالدين! الله عز وجل له شهادات، خلق هذا الكون أعرفه من الكون، أتكذب بوجوده أم بأسمائه الحسنى أم بوعده أم بناره وهذا الكون أمام عينيك، الشمس والقمر والنجوم والمجرات والليل والنهار والجبال والوديان والبحار وخلق الإنسان كل شيء أمامك فما يكذبك بعد بالدين.

أقصى أنواع التكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا على صورته :

قال تعالى:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

ما الذي يدعوك أن تكذب بالدين، بما وعد الله به، بالجنة والنار، بالحساب الدقيق، بالتوفيق بالدنيا، بالتعسير في الدنيا، هذه الوعود التي وعد الله بها كيف تكذب بها؟ كيف لا تأخذها مأخذ الجد؟ كيف تستخف بها؟ هذه معصية رب يقول لك هذا حرام، تفعله أنت؟

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ هذه السورة قال: نعم، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم فيه معنىً جديد هو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مختاراً وخلقه مفكراً وخلقه متكلماً وخلقه سميعاً وخلقه بصيراً وخلقه حكيماً عاقلاً ومتميزاً ليس هناك إنسان آخر يشبهه وهذه كلها أسماء الله الحسنى. الله سميع وخلق الإنسان بهذه الصفة مع التفاوت الكبير، الله سميع وجعل للإنسان سمعاً لذلك هذا يفسر قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

أنت مخلوق مكرم جداً، أسماء الله الحسنى، الفرد، الله عز وجل جعلك فرداً ليس في الأرض إنسان يشبهك في الشكل ولا في طريقة المشي ولا في طريقة الانتعال ولا في طريقة التكلم ولا في طريقة التفكير نسيج وحدك، تكريم من الله عز وجل. الله يفعل ما يشاء أعطاك حرية الاختيار، الله عز وجل سميع وجعل لك سمعاً تسمع به. وبصير وجعلك بصيراً، الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته، هذا أعلى تكريم، الله سبحانه وتعالى يحكم بين عباده، وكذلك جعل الناس مراتب بعضهم أعلى من بعض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فلذلك أقصى أنواع التكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا على صورته.

النبي الكريم يعد الإنسان الأول في الكون الذي بلغ قمة الكمال الإنساني :

ولقد كرمنا بني آدم، لذلك كما جاء في الحديث الشريف: تخلقوا بأخلاق الله، إذا الله عز وجل أعطانا سمعاً وبصراً، ومحاكمة وبياناً يجب أن تكون أخلاقنا مستمدة من أسماء الله الحسنى، أن نكون رحماء كرماء نعفو. هذه الأسماء الحسنى يجب أن نتمثلها بسلوكنا لذلك النبي الكريم يعد الإنسان الأول في الكون الذي بلغ قمة الكمال الإنساني. ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي:

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّين)

بعضهم قال: من هذا الإنسان الذي يكذبك وقد ظهر الحق؟ ما الشيء الذي يدعو إلى التكذيب:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

بعضهم فسر هذه الآية أن الشمس تحكم الأرض بالجاذبية، والأرض تحكم القمر بالجاذبية، والشمس تبخر الماء، والسحاب تحكمها الرياح، كل مادة لها مادة مضادة ومادة مؤثرة، الكون كله هكذا. الذئب يحكم الغنم لأن الغنم تخاف من الذئب، لخوفها من الذئب تبقى مع القطيع حفظاً لها، والهرة تحكم بعض القوارض رحمةً بنا. من جعل المخلوقات يحكم بعضها بعضاً؟ هو الله عز وجل، هو أحكم الحاكمين، هو الذي أعطى كل شيء ليسيطر به على الشيء الآخر:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

هذا معنى من معاني أحكم الحاكمين، كل شيء يحكم الشيء الآخر والله تعالى فوق الجميع، حكمته ظاهرة في خلقه، وفي تصرفاته، وفي إرادته، وفي كل ما خلق من مخلوقاته.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

الملخص أنك أيها الإنسان تستطيع أن تصل إلى أعلى عليين وتسبق الملائكة المقربين إذا عرفت رب العالمين، وإن غفلت عنه تهوي إلى أسفل سافلين. أي مخلوق خلقه الله عز وجل هو فوق الإنسان الكافر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العلق 096 - الدرس (1- 2) : تفسير الآيات 1 - 7 ، حض الإسلام على العلم والتعلم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-05-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات الأولى من هذه الآية هي أول ما أنزل الله تعالى على نبيه محمد :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة العلق، بسم الله الرحمن الرحيم:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى*إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى*أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى*كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه*سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ*كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

كلمة اقرأ في هذه السورة لها عدة معان، تقول: قرأت الرسالة أو قرأت الكتاب بمعنى اطلعت عليه وعلمت بما جاء فيه، وتقول: قرأت في وجه فلان الغضب أي شعرت به، وتقول: لما وصلت المدينة قرأت أهلها السلام بمعنى أبلغتهم السلام، هذه المعاني الثلاث وردت تحت كلمة اقرأ، والله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآيات الأولى، أول ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لا بد للمؤمن من ساعة يناجي فيها ربه :

كان عليه الصلاة والسلام تأتيه الرؤية الصادقة فهي كفلق الصبح، ثم كان يتعبد ربه في غار حراء الليالي ذات العدد ثم جاءه الوحي في غار حراء.

ما الشيء الذي نستنبطه نحن وهو متعلق بنا من هذا الكلام؟ هل لأحد منا ساعة يخلو بها مع ربه؟ هل لأحد منا ساعة يتأمل فيها ملكوت السموات والأرض؟ هل لأحد منا ساعة ينظر فيها إلى أمر آخرته وماذا أعد لها؟ هل لأحد منا ساعة يفحص فيها عمله، أمنطبق على الشرع أم زائغ عنه؟ هل لأحد منا ساعة يفحص فيها نواياه هل هو مخلص في أعماله أم يبتغي الدنيا بأعماله؟ لا بد من ساعة تخلو بها مع ربك، ولا بد لك من ساعة تناجي فيها ربك، ولا بد من خلوة حتى تكون الخلوة، لا بد من ساعة تأمل، لا بد من تفكر في ملكوت السموات والأرض، لا بد من ساعة تنسى فيها مشاغل الدنيا ومتاعبها وهمومها وأحزانها وأتراحها وكل ما يتعلق بها وتنظر أين كنت وإلى أين المصير؟

إن كان المؤمن له مثل هذه الساعات فلهذه الساعات ما وراءها ولهذه الساعات ما بعدها ولهذه الساعات العطاء الكريم من الله سبحانه وتعالى، أما النبي عليه الصلاة والسلام فلأنه انقطع لله عز وجل وفكر في آياته وأحبه وأقبل عليه وذاب شوقاً إليه وتمنى أن تكون هداية الخلق على يديه فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه الوحي وقال اقرأ.

الرؤية الصادقة أولاً كما قالت السيدة خديجة رضي الله عنها، ثم يتحنث الليالي ذات العدد في غار حراء ثم جاءه الوحي بعد أن استوى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

أي بلغ يا محمد هذا الذي سيتنزل عليك للخلق كافة، أنت رسول الله أنت إذا بلغت الخلق فباسمي، أنت رسولي:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

أحياناً يتكلم السفير باسم دولته إذا رفض شيئاً أو أقر شيئاً أو أثنى على شيء أو ندد بشيء فهذا ليس باسمه الشخصي إنما باسم دولته التي اعتمدته سفيراً ولله المثل الأعلى.

لأن النبي محمد ما ضلّ وما غوى كان نجماً يهدي به الله تعالى الخلق أجمعين :

اقرأ باسم ربك أي بلغ يا محمد ما سيتنزل عليك من ربك، أنت الرسول، وأنت النبي، وأنت المرسل الذي إذا تكلمت فإنما تتكلم باسمي، لذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 1-4]

ما ضل وما غوى، ما ضل بمعنى أنه ما فكر تفكيراً خاطئاً أبداً ولا توهم شيئاً غير صحيح على أنه صحيح ولا وقع في ضلالة ولا في غلطة، جانبه الفكري مسدد دائماً، وما غوى لم يرتكب خطأ في سلوكه، لم يقع في معصية ولا مخالفة ولا في عمل لا إنساني ولا في شيء صغير فيما يتعارف الناس على أنه صغير. لأنه ما ضل وما غوى كان نجماً يهدي به الخلق أجمعين، لأنه ما ضل صاحبكم وما غوى صار لا ينطق عن الهوى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى*ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى*وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 4-7]

اقرأ أي أنت رسولي وبلغ ما سأنزله عليك للخلق كافة، وإذا أردت معنى آخر لأقرأ أي اقرأ ما في الكون من آيات، تعرف على عظمة الله من خلال الكون، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، لو أنك جلست إلى المائدة صباحاً وتأملت في صحونها صحناً صَحناً لوصلت إلى الله من دون أن تشعر.

كأس الماء يحتاج إلى شمس وإلى بحار وإلى سحب وإلى منخفضات وإلى رياح وإلى أمطار وإلى ثلوج وإلى مستودعات وإلى ينابيع وإلى تخزين من جعله لك عذباً فراتاً؟

(اقرأ) بمعنى اطلع على ما في الكون وانظر ما فيه من عظمة الله سبحانه وتعالى :

اقرأ؛ لا يأكل الإنسان كالبهيمة، إذا نظرت إلى ابنك تعلم علم اليقين أنه من نطفة لا ترى بالعين من ماء مهين تستحي به، ومع ذلك صار طفلاً يرى ويسمع ويفكر تسأله فيجيب يتعلم الرياضيات ويتعلم اللغة ويتعلم النحو والصرف، ويفرح ويغضب ويحزن، في أحشائه معدة وأمعاء وبنكرياس وكبد ومرارة وقلب ورئتين وشرايين وأوردة وعضلات وغدد صماء وجهاز عصبي وجهاز لطرح البول وهيكل عظمي وجمجمة ودماغ وخلايا عصبية هذا أمامك.

اقرأ، انظر إلى الأشياء وانظر ما فيها من عظمة الله سبحانه وتعالى، اقرأ بمعنى اطلع على ما في الكون قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

[سورة ق: 6]

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ*أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً*ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

[سورة عبس: 24-26]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ* إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

[سورة الطارق: 5-8]

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ*وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ*وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

[سورة يس: 71-73]

النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله من أحبه فقد أحب الله ومن أكرمه فقد أكرم الله:

الكلمة الأولى (اقرأ) بمعنى بلغ يا محمد ما سينزل عليك فأنت رسولي، والمعنى الثاني اقرأ أو تابع القراءة لأن التفكر أعظم عبادة، لا عبادة كالتفكر، الإنسان عليه أن يقف عند كل شيء:

((أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية وكلمة العدل في الغضب والرضى والقصد في الفقر والغنى وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني وأعفو عمن ظلمني وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة))

[رزين عن أبي هريرة]

هذه الساعات التي نحياها ثمينة جداً لا يعلم قيمتها الإنسان إلا بعد الموت، ساعات محدودة، وأيام معدودة، وأشهر محدودة، سنوات لا تزيد ولا تنقص، فهنيئاً لمن عرف الله في هذا العمر القصير وسعد بقربه إلى أبد الآبدين، والويل لمن ضيع وقته في سفاسف الدنيا وفي ترهاتها وفي القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

هذا يؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله، من أحبه فقد أحب الله، ومن أكرمه فقد أكرم الله، ومن تبع سنته فقد تبع أمر الله، ومن أرضاه فقد أرضى الله، وهذا ينطبق على خلفائه من بعده، إذا أكرم أحد أخاه فإنما يكرم ربه، فكيف إذا كرمت النبي عليه الصلاة والسلام. إذا عزرته ونصرته ووقرته واتبعت سنته وأحييتها ورفعتها بين الناس فهذه محبة وتعظيم لله عز وجل، اقرأ باسم ربك هذا معنى كلمة باسم.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

[سورة النساء: 65]

مقام الربوبية ومقام الألوهية :

هذا هو الإيمان إيمان بالله وإيمان برسوله، إيمان بأن ما جاء به الرسول الكريم هو الحق من عند الله، أما كلمة (ربك) فهناك مقام الربوبية وهناك مقام الألوهية، ولا بد من أن تعرف الله خالقاً وأن تعرفه مربياً وأن تعرفه مسيراً، أما أن تعرف الله خالقاً فليس في الأرض كلها إلا أشخاص قلائل ينكرون أن هناك إله عظيم، فإنكار الوجود قليل، لكن الإيمان المطلوب لا أن تؤمن بالله فحسب بل أن تؤمن به مربياً وأن تؤمن به مسيراً، هناك مقام الخلق ومقام الربوبية ومقام الألوهية.

فالنبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى اقرأ باسم ربك شهادة من الله عز وجل على أنه عرف ربه واتخذ الله ربه، وفرق بين عرفه رباً واتخذه رباً. عرفه رباً فالله سبحانه وتعالى بعد أن خلق الخلق أمدهم بالحياة وأمدهم بالغذاء وأمدهم بالماء وأمدهم بالهواء وأمدهم بالطعام والشراب وخلق لهم كل شيء، فالله خالق وهو رب بمعنى ممد، واختار الله عز وجل محمداً رسولاً لأنه عرف ربه، لم يقل اقرأ باسم رب العالمين بل اقرأ باسم ربك، حينما أضيفت كلمة رب إلى كاف الخطاب فهذا دليل على أن النبي عليه الصلاة والسلام قد عرف الله رباً، اقرأ باسم ربك؛ وهذا سؤال لنا هل عرفنا الرب؟ هل ترى

أنه بسعيك تأكل وتشرب؟ وأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وكفى، وتركهم يأكل قويهم ضعيفهم، أم أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

في تولي أمر الخلق لا يشرك الله معه أحداً :

قال تعالى:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

هذه الآية تكفي، ما لك من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً، أي تولي أمر الخلق لا يشرك الله أحداً معه أبداً فلذلك قال الله عز وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

من هو ربك الممد؟ هو الذي خلق، خلق ماذا؟ بلا مفعول به أي خلق كل شيء بدءاً من المجرات، بعضها يبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية وبعض النجوم أكبر من شمسنا بثلاثين مليون مرة وبعض النجوم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

الذي خلق هذه المجرات التي لا يعلم عددها إلا الله تقدير أولي، مليون مليون مجرة ولا يعلم إلا الله كم في المجرة من نجوم وكواكب، تقدير أولي عشرة آلاف مليون نجم في كل مجرة. وهذه النجوم والكواكب متفاوتة في حجومها وفي بنيتها وفي مساراتها وفي جاذبيتها وفي وظائفها، هذا عن السماء فماذا عن الأرض؟ الأرض وما فيها من ثروات قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

الدولة الفلانية خفضت إنتاجها من النفط من ثمانية ملايين برميل في اليوم إلى ستة ملايين برميل، ما هذه المستودعات وكم حجمها؟ يقول لك: هناك احتياطي لآخر هذا القرن، استهلاك النفط بشكل متزايد وكل بئر من هذه الآبار ينتج ملايين البراميل يومياً.

آيات دالة على عظمة الله سبحانه :

قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق ما في الأرض من ثروات، من معادن؛ الحديد، والنحاس، والفوسفات، والفحم الحجري أحياناً وبعض المناجم يبلغ مئتي كيلومتر:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق ما تحت الثرى من معادن وثروات، من طاقة، وما على الأرض من جبال، هذه الجبال التي لا يعلم عددها إلا الله، أعلى جبل على وجه الأرض لا يزيد لو مثل على كرة قطرها متر لا يزيد واحد سنتيمتر، وأعمق نقطة في سطح البحر لو مثلت على كرة قطرها متر لا تزيد عن واحد سنتيمتر، كل هذه المرتفعات وهذه المنخفضات وهذه البحار أربعة أخماس الأرض بحر، في بعض الأماكن عمق البحر يقدر باثني عشر كيلومتراً، أنواع الأسماك تزيد على مليون نوع، بعض الأسماك تعيش في أعماق البحار، وفي قاع البحار ظلام دامس هذه الأسماك يتألق في ظهرها مصباح كهربائي ينير لها دائرة قطرها ثلاثون متراً فإذا هاجمها عدوها أطفأت النور واختفت، بعض الأسماك بشكل إناء يخرج من هذا الإناء خطوط واستطالات، هذه سمكة إذا مرت فوقها سمكة تخدرها وتفترسها وهي كإناء الزهور:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

الحوت مئة وثلاثون طناً، خمسون طناً لحماً وخمسون طناً دهناً وتسعون برميلاً زيتاً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، ويرضع وليده حليباً ثلاث وجبات يومياً في كل مرة ثلاثمئة كيلو، مجموع الرضعات في اليوم ألف كيلو غرام.

الحكمة من جعل بعض الحيوانات مذللة للإنسان :

اقرأ باسم ربك الذي خلق الحيتان وخلق الأسماك منها المتوحشة كسمك القرش، وخلق الأسماك الجميلة، أسماك زينة من أجل أن تستمتع بها يوجد أنواع لا يعرفها إلا الله، من أجمل من خلق الله هذه الأسماك؟ فإذا ذهبت إلى الحيوانات بعضها مذلل، الجمل والغنم والماعز والبقر حيوانات مجترة خلقت من أجل أن تستفيد من لحمها ووبرها وصوفها ولبنها إذاً لا بد لها من أن تأكل كثيراً، تأكل طوال النهار فإذا راقبتها في الليل تراها يخرج من بعض أجوافها لقمة كبيرة كالكرة وتراها وهي تسير من أسفل إلى أعلى تمضغها ثانية ثم تعيدها إلى جوف آخر، مَن قطع هذه القطعة وجعلها كالكرة أله أيد في

بطنه؟كيف خرجت من جوفه إلى بطنه وكيف عادت في طريق آخر، ومن جعل الجمل مذللاً لو أن الله عز وجل ركّب في الجمل أخلاق الوحوش من يستطيع أن يقتنيه، من جعل الغنمة تخاف ولأنها تخاف يسهل أن ترعاها وتنضم إلى القطيع وتخاف أن تبتعد عنه وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرْقة، فَإنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ - وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية-))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

القاصية البعيدة.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

الغنم والماعز والبقر والجمال هذه حيوانات نركبها ونأكل من لحمها ونشرب من لبنها ونستعمل صوفها ونستفيد من جلودها، وإذا انتقلنا إلى بعض الحيوانات الأخرى كالدجاج تأكل كل شيء وتعطيك أشهى شيء وهي لا تطير فلو طارت لطارت مع بيضها، أطعمتها أنت وباضت عند جيرانك، إذاً هناك حكمة من عدم طيرانها تطير من مكان إلى مكان بالأمتار أما أن تنتقل من بيت إلى بيت لا، ولها مكان تأوي إليه، انظر إلى النباتات المحاصيل، القمح والشعير والعدس والحمص وأنواع لا يعلمها إلا الله بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه، انظر إلى الخضراوات وإلى الأشجار المثمرة، أشجار الزينة، وأشجار الخشب، أشجار الفاكهة أنواع لا يعلمها إلا الله هل فكرت بالذي خلق وصمم وبرمج وخلق المواد وصنعها لك؟!!

لا بدّ للإنسان من جولات في فكره في ملكوت السموات والأرض :

قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق كل شيء، حينما أغفل الله عز وجل المفعول به فهذا يعني أنه خلق كل شيء، كل شيء تراه عينك من خلق الله من إبداعه، من تصميمه، هل ترى من خلق الرحمن من تفاوت، المصنع أحياناً ينتج صناعة ممتازة وصناعة تجارية، هل ترى في صنعة الله عز وجل شيئاً متقناً وشيء أقل إتقاناً قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

[سورة الملك: 3]

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

هذا الفرخ ينمو له في رأس منقاره نتوء حاد يعينه على كسر الكلس، فإذا خرج من بيته تلاشى هذا النتوء وعاد منقاره كما هو، يد من أنتجت له هذا النتوء الحاد؟

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

لا بد للإنسان من جولات في فكره في ملكوت السموات والأرض، والله الذي لا إله إلا هو الآيات التي تدل على عظمة الله وعلى أنه خالق عظيم ومربٍ كريم ومسير حكيم لا تعد ولا تحصى.

الله عز وجل في الآية الأولى عمم الخلق ثم خصّ بالخلق الإنسان لأنه مكرم عند الله:

الله عز وجل يقول:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

آيات كأس الماء آية، قطعة الجبن آية، الزيتون آية، التين آية، العنب آية، هل تستطيع أن تشد عنقود العنب شداً؟ لا تستطيع إلا أن تحركه حركة خاصة له مفصل لولا هذا المفصل لو هب النسيم شديداً أو الهواء شديداً لسقط كل ما على الكروم على الأرض ولكن الخالق الحكيم جعل لهذا العنقود ذنباً محكماً متيناً لا يفصل عن أمه إلا بحركة معاكسة تصميم من هذا؟ من جعل للبطيخ قشرة سميكة؟ ترى شاحنة تحمل الأطنان من البطيخ ومع ذلك الذي في الأسفل كما هو لا يتأثر، هناك تصميم هناك إعداد هناك لكل ظرف معين شيء يواجهه.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

الله عز وجل في الآية الأولى عمم الخلق ثم خص بالخلق الإنسان لأنه مكرم عند الله عز وجل قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

العلق أي قطعة من الدم متجمدة، البويضة تكون في المبيض يدخل إلى الرحم في اللقاء الزوجي ما يزيد عن مئتين وخمسين مليون حيوان منوي تنتقي البويضة أقوى هذه الحيوانات وتفتح له باباً صغيراً فإذا دخلت أقفلت الباب وردت كل الخاطبين، لقحت البيضة، تسير هذه البيضة من المبيض إلى الرحم في عشرة أيام أو ثمانية تنقسم إلى عشرة آلاف قسم ولا يزيد حجمها لو أن حجمها زاد لعلقت، ويكون

الرحم قد هيأ لها فراشاً وثيراً وغذاءً غنياً فإذا علقت في جدار الرحم تسمى علقة لأنها تعلق به وتمد جذورها إليه لتمتص الغذاء ما يقيم به نموها، هذا معنى علق.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته سبحانه :

قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

هذه الخلية التي انقسمت أين العينان فيها؟ أين الأذنان؟ أين اللسان؟ أين القلب؟ أين الرئتان؟ أين المعدة والأمعاء؟ أين الهيكل العظمي والعضلات؟ وأين الشعر؟ أين الجهاز البولي؟ أين الأصابع؟ أين الأظافر؟ علقة خلية منقسمة لو لم يكن هناك إله عظيم لنمت ونمت وصارت قطعة من اللحم متجانسة، كيف اتجهت هذه الخلايا فشكلت القلب، وهذه الخلايا شكلت الدماغ، وهذه الخلايا صارت نسيجاً عظمياً قاسياً؟ من أعطى العظام شكلها وطولها وحجمها ومن جعلها قاسية؟ كيف اتجه قسم من هذه الخلايا فصار عضلات وأمعاء ومعدة ورأساً:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

قد يسأل سائل كيف أفكر في آيات الله؟ نقول له: فكر بالشيء وأصله وفكر بالشيء وعدمه وفكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، وقد يقول هذا السائل: من أين أتيت بهذه القواعد هل هي من عندك؟ أقول لا، من الله عز وجل.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

[سورة القصص: 71]

آيات تحضنا على التفكير بالشيء وعدمه والشيء وخلاف ما هو عليه والشيء وأصله

فكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، هناك ليل ونهار فكر لو أن النهار طال وصار سبعين ساعة، فكر لو أن النهار قصر صار ساعة، فكر لو أن الليل استمر كما هو في القطب ستة أشهر، أو النهار كذلك هذا الشيء وخلاف ما هو عليه باب واسع للتفكر، الله عز وجل حضنا عليه هذه قاعدة أولى.

فكر بالعين لو أنها في مكان آخر لو أنها في الصدر أو في الظهر أو خلف الرأس، أو لو أن هناك عيناً واحدة ترى فيها أطوال الأبعاد الثنائية لا الثلاثية، فكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، هذا باب من أبواب التفكير، فكر بالشيء وعدمه قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك: 30]

تصور الشام بلا ماء ما قيمة هذه الأبنية العالية؟ من يسكنها؟ ما قيمة هذه المدينة التي تتسع لولا نبع الفيجة؟ هذا الشيء وعدمه هذا باب آخر، وهناك آيات كثيرة تحضنا على التفكير بالشيء وعدمه والشيء وخلاف ما هو عليه والشيء وأصله.

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

شخصية، ذكاء، إبداع، محاكمة، ذاكرة، تصور، إحساس، انفعال، خبرات وتجارب؛ شكل قويم، خلق معد من علق، خلق الإنسان من علق، هذا الإنسان الكامل الذي يسمع ويتحرك ويبصر ويشم ويتذوق ويتكلم ويعبر عن أفكاره وانفعالاته ويستمتع ويغضب ويحزن ويضحك ويبكي ويأكل ويشرب ويتنفس، خلق الإنسان من علق هذا أصله قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

فإذا أردت أن تفكر في آيات الله عز وجل واخترت آية من هذه الآيات ولتكن العين مثلاً فكر في إنسان بلا بصر، لو أن الله عز وجل خلقنا بلا عينين ما قيمة الألوان؟ ما قيمة الأزهار والأطيار؟ ما قيمة الزوجة؟ ما قيمة الجمال كله بلا هاتين العينين؟

إذا أردت أن تفكر في آيات الله اختر آية وفكر فيها من زوايا ثلاث :

فكر بالشيء وعدمه وفكر بالشيء وأصله علقة تصبح عيناً فيها قرنية من خمس طبقات وقزحية تتحرك آلياً تصغر وتكبر بحسب شدة الضوء، فيها جسم بلوري ينضغط ويتقلص بحسب بعد الشيء المنظور، وفيها عضلات هدبية، وفيها مائع زجاجي، وفيها خلط مائي بنسب مركزة، وفيها شبكية فيها مئة وثلاثون مليون نقطة دم تصبح هذه العين، وهذه العين ترى الشيء بحجمه الحقيقي ترى الجبل جبلاً، صور جبلاً بآلة تصوير تراه صغيراً أما العين ترى فيها الجبل جبلاً بحجمه الحقيقي. إذا أردت أن تفكر في آيات الله وجلست بعد صلاة الصبح للتفكر وهو أرقى عبادة اختر آية وفكر فيها من زوايا ثلاث؛ الشيء وعدمه كقوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك: 30]

والشيء وخلاف ما هو عليه قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

[سورة القصص: 71]

والشيء وأصله، قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

ثلاثة معانٍ تجمعها كلمة (كريم) :

هذا الإنسان العظيم خلقه من علق، كل أب له أولاد يعرف تاريخ هذا الابن، من انقطاع الدورة الشهرية عند زوجته وبعد تسعة أشهر تضع غلاماً لا يتكلم ولا يمشي ولا يفكر ليس فيه إلا منعكس المص، يمص الثدي. غلام ولد من توه وأمسكته القابلة لتغسله جاء طرف خنصرها على فمه فجعل يمصه، من علمه؟ الآن نزل، كان يأخذ الغذاء من صرته من علمه المص؟ الله عز وجل، هذه الحيوانات كلها من هداها إلى طعامها وشرابها وبناء أعشاشها؟ الله عز وجل.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

هذا الرب العظيم الذي خلق وهو الرب، وهو الأكرم، الكريم الشيء النادر، الشيء العزيز، والكريم الشيء المنزه عن كل نقص، والكريم المحسن، ثلاثة معان تجمعها كلمة كريم، لكن الله عز وجل يقول:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

أكرم من ماذا؟ هل يعقل أن يوازن خالق بمخلوق؟ قال بعض المفسرين: اقرأ وربك الأكرم مهما تعرفت إليه فهو أكرم، مهما عرفت عن كماله فهو أكرم، مهما عرفت عن وحدانيته لا شيء مثله، لا شيء قبله ولا شيء بعده، هو القديم، هو الأبدي السرمدي، ليس كمثله شيء هذا من حيث المعنى الأول.

أما المعنى الثاني مهما تعرفت إلى صفاته وأسمائه الحسنى فالله عز وجل أعظم من هذا وأكرم، مهما تعرفت إلى إحسانه فهو أشد إحساناً اقرأ وربك الأكرم، لذلك المؤمن يسعد بالله عز وجل لأن الله لا نهائي مهما عرفت عنه فهو أكبر من ذلك، لكن الإنسان إذا تعرف إلى شيء وأحاط بشيء مل منه.

بعض عطاءات الله تعالى للمؤمن :

لماذا حياة المؤمن سعادة لا تنقضي لأن أهل الدنيا يتوهمون السعادة في الزواج، بعد الزواج يقضون معظم وقتهم خارج المنزل، كان يظن قبل الزواج أنه سيسعد بهذه الزوجة أيما سعادة بعد سنوات عدة ملَّ منها، وهذه سنة الله في خلقه ألفها وألفته، من ظن أن السعادة بالمال بعد أن يصبح غنياً لا يعود المال مصدر إسعاد له يصبح عبئاً عليه، أما إذا عرف الإنسان الله عز وجل فالله مطلق لا نهائي مهما تعرفت إليه فهو أعظم، وكلما ازددت قرباً ازددت سعادةً لذلك حياة المؤمن كلها شباب، المؤمن لا

يشيخ. قد ينحني ظهره قد يضعف بصره قد يضعف سمعه لكنه لا يشيخ مادام مؤمناً فله نفس الشباب، هذه عظمة الإيمان تلتقي بالمؤمن بالسبعين تراه حيوياً ونشيطاً وذا همة عالية، تلتقي بأهل الدنيا في الستين تراهم انتهوا قعدوا وخلدوا إلى الراحة وتلاشى دورهم في الحياة واحتلوا هامش الحياة بعد أن كانوا في أوجها، لكن المؤمن لا يشيخ أبداً.

رجل من كبار المؤمنين بلغ السابعة والتسعين وله همة الشباب وعزم الشباب وطموح الشباب كان مستقيم الظهر حاد البصر مرهف الأذنين وسيم الوجه سأله أحد تلاميذه: ما هذه الصحة يا سيدي؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً. ألا تحب أن تعيش حياتك كلها في صحة ونشاط وفي مكانة اجتماعية وفي يقظة وأن يرمقك الناس بنظرة عالية، كن مع الله إن كنت معه فهو معك.

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطيك إذا ما منعك

* * *

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

تعرفه ويتخلى عنك، تعرفه ويجعلك بحاجة عبد لئيم، تعرفه وتخرف في خريف العمر حاش لله، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

أكثر من حادثة أن المؤمن يقبضه الله إليه قبضاً يسيراً، لا يكون على أهله ثقيلاً لكرامته على الله سبحانه وتعالى ويترك أثراً بليغاً، لو أن الله أراد تأديبه لأقعده في الفراش ثلاثين عاماً، أعرف رجلاً كان يذهب كل أسبوع إلى مدينة مجاورة ليفعل الفاحشة ثم قعد في فراشه ثلاثين عاماً حتى ملّه أقرب الناس إليه لاقى من أهله غلظة وجفاءً وقسوةً وإهانةً ما لا يحتمل.

من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، متعه بصحته، متعه بقوته، متعه بسمعه، متعه ببصره هذه بعض عطاءات الله للمؤمن.

(علم بالقلم) آية واسعة جداً :

الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، إذا أردت أن تحب نفسك فأحب الله، إذا أردت أن تحب نفسك فاستقم على أمر الله تعش حميداً وسعيداً وتنقلب إلى الله رشيداً.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

أي بذرة من البذار التي تلقى في الأرض فتنبت فيها محفظة تعليمات، هذه التعليمات لو أخذنا الليمون مثلاً، هذه البذرة فيها محفظة، في هذه المحفظة أكثر من خمسة آلاف مليون أمر، بعض هذه الأوامر يحدد هيكل الشجرة، وبعض هذه الأوامر يحدد لون خشبها أملس أو فيه عقد كالزيتون، بعض هذه الأوامر يحدد ثخن جذعها، وبعض هذه الأوامر يحدد نوع أغصانها، وبعض هذه الأوامر يحدد شكل ورقها ولون ورقها وخطوط الورق وحجم الورق، وبعض هذه الأوامر يحدد نوع الزهر ومتى يزهر؟ وكيف يزهر قبل الورق أو بعد الورق؟ وبعض هذه الأوامر يحدد نوع الفاكهة ولونها وحجمها وتصميمها وهيكلها وعددها، خمسة آلاف مليون أمر الله عز وجل، علم بالقلم آية واسعة جداً.

الإنسان حينما تصيب يده جمرة يزيحها سريعاً ما الذي حصل؟ هناك أعصاب حس تلقت الإحساس بالحر والحرق هذا الإحساس انتقل إلى العمود الفقري، في العمود الفقري أمر جاهز بإبعاد اليد إذا أصابها حريق، إذا أنت لست منتبهاً يدك على الطاولة وإنسان في يده دخينة ولامس رأسها طرف يدك دون أن تشعر تسحبها سريعاً، من نقل هذا الإحساس إلى حركة؟ يوجد خط مرسوم جاهز بالنخاع الشوكي يسمونه المنعكس الشرطي كل مؤثر له استجابة، قال علماء النفس: في الدماغ خطوط مرتسمة عليه إذا جاء هذا التأثير تسير السيالة العصبية في هذا الخط فتنقلب إلى أمر حركي.

الحيوان يقوم بأعمال مذهلة يعجز عنها أذكى البشر :

لماذا ضارب الآلة الكاتبة ينظر إلى النص على الورق ويداه على مضارب الحروف دون أن ينظر إليها ماذا يحصل؟ إذا وقعت عينه على الباء هذا النظر إحساس ينتقل إلى الدماغ وفي الدماغ خط تسير به السيالة العصبية فتعطي أمراً بضغط اليد على مكان محدد من الآلة الذي علم، هذه الآية لها تفسيرات كثيرة بعض هذه التفسيرات أن الغرائز الحيوانية كلها منضوية تحت هذه الآية؛ كيف تأكل الطير؟ كيف تبني أعشاشها؟ كيف تحلق في الأجواء؟ كيف يعشش الطير في دمشق وينتقل إلى أفريقيا في الشتاء ويعود من أفريقيا إلى دمشق في حي الصالحية في الشارع الفلاني في الحارة الفلانية في البيت الفلاني في خشب السطح في الليوان؟ كيف اهتدى هذا الطائر؟ الذي علم هذا الطائر يهتدي بالشمس ليس هذا التفسير كافياً يهتدي بمعالم الأرض ليس هذا التفسير كافياً، من يعلم الطائر خط سيره يقطع ستة وثمانين ساعة طيران؟ هناك طيور تسافر سبعة عشر ألف كيلومتر من علمها خط سيرها؟ من علم سمك السلمون الذي يولد في أعالي الأنهار وينتقل من أعالي الأنهار في أمريكا إلى مصباتها إلى المحيط الأطلسي فيكبر ثم يعود ثانية إلى المحيط الأطلسي قرب أوربا إلى سواحل أمريكا فيدخل في النهر الذي جاء منه.

لو كلفت ربان سفينة يقود سفينة من سواحل فرنسا من دون بوصلة هل يصل إلى مصب الأمازون؟ هذا فوق طاقته عمل لا يستطيع فعله، من هدى هذه السمكة إلى زاوية إبحارها بحيث تصل إلى مصب النهر الذي خرجت منه؟ الذي علم بالقلم، كيف علمها؟ كيف أودع فيها خط السير؟ لو نظرت إلى الحيوان، الإنسان عنده فكر وخبرات وتجارب ويتعلم في المدارس لكن الحيوان يقوم بأعمال مذهلة يعجز عنها أذكى البشر.

الكلب مثلاً يملك حاسة شم تزيد مليون مرة عن حاسة شم الإنسان، وهناك كلاب تعرف أماكن الكمأ في الأرض تهدي صاحبها إلى أماكن الكمأ، من علمها؟ من علم الصقر أن ينقض على فريسته في أعالي السماء وهي في البحر؟ كيف يراها؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

الله عالم يحب كل عالم :

المعنى الآخر أن هذه اللغة نعمة كبرى، اللغة وكتاباتها وقراءتها وانتقال الكتب من جيل إلى جيل هو سبب في نقل المعارف هذه نعمة كبرى، هذا كتاب الله بين أيدينا لولا الكتابة لما وصل إلينا، طبعاً هو متواتر تواتراً شفهياً، الكتب، الحقائق، تاريخ البشر، المؤلفات والعلوم، والثقافات، والمعارف، هذه كلها مدونة في الكتب، من علم الإنسان اللغة؟ من علمه النطق؟ من علمه الكتابة؟ ما النص المقروء؟ ما النص المسموع؟ كيف يفهم النص وكيف يعبر عن أفكاره؟

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

نعمة اللغة ونعمة نطقها ونعمة كتابتها ونعمة قراءتها ونعمة نقل المعارف من جيل إلى جيل هذه بالمعنى الضيق، بالمعنى الواسع:

(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

علم بالقلم كل مخلوق، هذا النبات كيف ينمو؟ والبذرة كيف تنمو؟ من أعطاها هذه الأوامر؟ هذه البذرة لون ثمرتها صفراء وهذه لون الثمر أحمر وهذا أخضر وهذا كبير وهذا صغير وهذا حلو وهذا مر وهذا ينبت متأخراً وهذا ينبت تباعاً وهذا سريع العطب وهذا يتحمل التخزين، من علم النبات هذا؟ من علم الحيوان الذي يخرج من بطن أمه ليرعى الحشائش من علمه ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

لذلك إن الله عالم يحب كل عالم، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

هذا الإنسان الذي كان من علق ثم صار إنساناً سوياً هو نفسه خلق ليسعد، خلق ليسمو، خلق ليرقى، لكن بعض البشر يطغى يتجاوز الحد الذي رسم له، كلا إياك أيها الإنسان أن تفعل هذا الفعل:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

الطغيان واسع، يطغى الإنسان على حقوق جاره وعلى حقوق زوجته وعلى حقوق شريكه وعلى حقوق أبنائه وعلى حقوق أصدقائه وعلى حقوق أبويه قد يطغى على الحقوق كلها. الطغيان تجاوز الحد المعقول إلى حد آخر مرفوض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العلق 096 - الدرس (2- 2) : تفسير الآية: 8 - 19، الفرق بين أخلاق المؤمن وأخلاق غير المؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-05-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى علَّم كل الخلائق بدءاً من الخلية :

أيها الأخوة الكرام: وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

فالله سبحانه وتعالى علم، من علم؟ كل الخلائق بدءاً من الخلية، في كل خلية في نواتها محفظة فيها معلومات تربو على خمسة آلاف مليون أمر، من علم هذه الخلية أن تنقسم بهذه الطريقة مروراً بالجراثيم؟ لها طباع؛ لها مضادات، ولها طرائق بالتكاثر والفيروسات كما يسميها العلماء، الفيروسات جراثيم الجراثيم، أي حجم الفيروس بالنسبة إلى الجرثوم كحجم الفيروس بالنسبة إلى الإنسان، كيف عرف العلماء أن هذه الفيروسات كائنات حية؟ من تكاثرها فقط، فالذي علم علَّم كل كائن كيف يهتدي إلى حاجته، الأسماك التي تولد في أعالي النيل كيف ترحل إلى بحر الشمال؟ تنتقل من منابع النيل عبر بعض المنابع الشرقية إلى السودان ومصر ثم تخرج إلى البحر المتوسط وتتجه نحو الغرب إلى أن تعبر مضيق جبل طارق وتتجه نحو الشمال محاذية لسواحل إسبانية تعبر بحر المانش ثم تنتقل إلى بحر الشمال، الذي علم بالقلم علمها كيف تنتقل لهذه المسافات الطويلة، من هدى الطائر في طيرانه؟ الله سبحانه وتعالى، من علم النبات أنه إذا انقطع عنه الماء عليه أن يستهلك ماء الأوراق أولاً ثم ماء الأغصان ثانياً ثم ماء أغصانه الكبيرة ثالثاً ثم ماء الجذع رابعاً ولا يستهلك ماء الجذر إلا في آخر المطاف، لو أن الأمر بالمنطق لوجب أن يستهلك ماء الجذر أولاً لأنه أقرب أنواع الماء إليه، من علم النبات أن يستهلك ماء الأوراق أولاً حفاظاً على ماء الجذر الأمل الوحيد في إعادة الحياة مرةً ثانية.

آيات كثيرة دالة على عظمة الله سبحانه :

الذي علم كل خلية، كل كائن؛ الفيروسات والجراثيم وحيوانات وحيدة الخلية، الفقاريات وكل أنواع الحيوانات، وكل أنواع النباتات، هذه النحلة من علمها صنع هذه المسدسات مِن الشمع مَن؟ وكأنها رسمت بأدوات هندسية، مَن علم النحلة أن ترقص رقصة تشعر صويحباتها أن الزهر على مسافات

بعيدة، ولها حركة أخرى تشعرها أن الزهر على مسافات قريبة، من علمها أن تهوي الخلية، من علم بعض العاملات أن يكن حارسات على الأبواب، من أعطى نحلات هذه الخلية كلمة السر لا تدخل نحلة إلى وكرها إذا لم تكن من هذه الخلية، ولا تدخل نحلة إلا إلى خليتها، وإن لم تكن من هذه الخلية لا يسمح لها بالدخول، من علم النحلات ذلك؟ من علم النحلات أن هناك عاملات لهن مهمات خاصة منهن الوصيفات ومنهن ناقلات العسل ومنهن الحارسات، منهن المنظفات، منهن معدات الطعام للملكة، من علمهن ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

من علم النملة إذا أرادت أن تختزن القمح أن تأكل الرشيم لئلا ينبت القمح في مخزنها وهناك بعض الحبوب فيها رشيمان والنملة تأكل هذين الرشيمين معاً؟ الذي علم بالقلم.

في الكبد خمسة آلاف وظيفة من علم هذه الخلية غير العاقلة أن تقوم بكل هذه الوظائف، الكبد يفرز مادة من أجل تجلط الدم ومادة أخرى هرمونية من أجل تميع الدم وإفراز هذين المادتين بشكل دقيق جداً بحيث يبقى الدم بين التميع والتجلط، فلو نقص بعض الهرمونات التي يفرزها الكبد لأصبح الدم في الشرايين كالوحل تماماً ولو نقص الهرمون الآخر لصار الدم بالشرايين مائعاً كالماء تماماً يسيل كله من جرح بسيط، من أعطى هذه الوظائف للكبد؟ من علمه أن يقوم بها؟ من علمه أن يفحص السميات؟ إما أن يقيدها وإما أن يحلها وإما أن يرسلها إلى خارج الجسم عن طريق الكلية، من علمه ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

القلم رمز الكتابة والكتابة رمز الثبات :

الأرض من علمها في سيرها حول الشمس إذا اقتربت من القطر الأصغر للمسار البيضوي أن تزيد من سرعتها؟ الله سبحانه وتعالى علمها، لا شك أن الجمادات كائنات غير عاقلة فإذا بدا لك تصرف عاقل من جماد فلا بد أن يكون وراء هذا الجماد عقلاً كبيراً، أي إن كنت في مكان مرتفع ورأيت سيارةً تقف عند الإشارة الحمراء وتطلق بوقاً للطفل الذي يعبر أمامها وتنحرف عن الحفرة وأنت في مكان مرتفع تحكم بأنه لا بد لهذه السيارة من سائق عاقل، الحديد لا يدرك إذاً لا بد من رجل سائق، ماهر، عاقل، يسيِّر هذه السيارة هذه الفكرة التي ألح عليها، إن رأيت تصرفاً حكيماً عاقلاً من نبات من حيوان أعجم ما تفسير ذلك لا بد من إله علمه، وتعليم الله سبحانه وتعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

علم كل الكائنات، علم المجرات والكواكب والأرض والشمس والقمر، وعلم جميع الكائنات الأسماك والأطيار، الإنسان، الحيوان، الأجهزة في باطن الإنسان من علمها أن تقوم بتصرفات ذكية؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

القلم رمز الكتابة والكتابة رمز الثبات، فهذه البذرة إذا وضعتها في التربة تنبت أصلها هذا الثبات في القوانين، هذا الثبات توهمه بعض العلماء أن هذه البذرة مبرمجة، لا الله سبحانه وتعالى علمها ولكن تعليمه بالقلم تعليم ثابت، لا يعقل أن تزرع بذرة هذا النبات إلا وينبت أصله، هذا الثبات في الخلق توهمه الناس غرائز وتوهمه الناس في النباتات برمجة، بذرة فيها تعليمات، لكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ولكن تعليمه أخذ وضعاً ثابتاً مستمراً، وهذا الوضع الثابت المستمر كأنه كتابة، لذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 45]

حيثما وردت كلمة (كتب) في القرآن الكريم تعني الثبات، تعني أن هذا قانون لا يمحى ولا يعدل ولا يبدل.

الثبات في الخصائص والاستمرار بها هذا ما تعنيه كلمة (بالقلم) :

قال تعالى:

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

[سورة المجادلة: 21]

بمعنى الثبات قانون دائم، فلذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

هذا التعليم رمز الثبات، أنت مطمئن، أعطى الحديد هذه القوة، وهذه القوة مستمرة فيه، حيثما وجدت الحديد في سطح الأرض فهو صلب، ثبات الأشياء واستمرارها، كل أنواع الحديد في الأرض لها ميزات واحدة، كل أنواع الفولاذ لها ميزات واحدة، كل أنواع النحاس لها ميزات واحدة، وكل أنواع الذهب لها ميزات واحدة.

فكلمة بالقلم أي كل كائن حي بدءاً من أصغر خلية، والخلية كائن معقد، أي بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة؛ تصرفاتها وحركاتها وسكناتها من تعليم الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا التعليم أخذ شكل القوانين المكتوبة.

إذاً علم بالقلم، الكهرباء لها قوانين من قننها؟ الله سبحانه وتعالى، الماء له قوانين، لا ينضغط، والهواء له وزن معين، والماء له وزن معين لا لون له ولا طعم ولا رائحة يتبخر في درجات دنيا من علم ذلك؟ الله سبحانه وتعالى، فهذه آية واسعة جداً يدخل بها خصائص الأشياء، الكون مؤلف من مئات العناصر، كل هذه العناصر من تصميم الله سبحانه وتعالى؛ الذرات، المجرات، الكائنات، والأحياء، النباتات، الإنسان، ملخص الكلام أن كل خلية فيها محفظة وفيها تعليمات تزيد عن خمسة آلاف مليون معلومة، أمر، هذا هو الأمر الإلهي الذي علم بالقلم والثبات في الخصائص والاستمرار بها هذا ما تعنيه كلمة بالقلم.

الله أعطى كل حيوان قدرة على الإبصار محدودة لكنه أعطى للإنسان عيناً وفكراً :

قال تعالى:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

الإنسان له وضع خاص، كل الكائنات علمها الله سبحانه وتعالى أشياء محددة بحسب وظيفتها، فالطائر علمه كيف يطير بسهولة ويسر، البط علمه كيف يسبح، السمك علمه كيف يحيا في الماء وكيف يأكل رزقه، الطفل حينما يولد علمه كيف يلتقم ثدي أمه، لكن كل مخلوق علمه الله أشياء محددة من أعلى مستوى تمشياً مع وظيفته إلا الإنسان أعطاه إمكانية التعلم وأعطاه فكراً، فالإنسان مثلاً له قدرة بصرية محدودة، النسر يفوقه في البصر، عينا الصقر تفوق الإنسان ثمانية أضعاف بدقة الرؤية، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق مع هذه العين فكراً وهذا الفكر استطاع أن يرى المجرات، مرصد بانومار في أمريكا استطاع أن يرصد مليون مليون مجرة مع أن العين المجردة لا ترى إلا بعض الألوف من النجوم، الإنسان أعطاه عيناً ومع العين فكراً، بهذا الفكر وصل إلى المجرات، وبهذا الفكر اخترع الميكروسكوب فرأى الجراثيم، ثم اخترع الميكروسكوب الإلكتروني رأى به الأجسام مكبرة به تسعين ألف مرة، لذلك رأى الإنسان بهذا المجهر العجب العجاب، فالله سبحانه وتعالى أعطى كل حيوان قدرة على الإبصار محدودة لكنه أعطى للإنسان عيناً وفكراً، بالفكر رأى أشياء لا يراها أي مخلوق، الإنسان لا يطير لكنه خلق له مع هذا الجسم الذي لا يطير فكراً فركب الطائرات وطار إلى الفضاء ووصل إلى القمر، هذه الآية:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

تشير إلى هذا الفكر العظيم الذي امتاز به الإنسان على سائر المخلوقات. الإنسان ولد عارياً لكنه بهذا الفكر ارتدى أجمل الثياب والإنسان ليس له عش يأوي إليه ولا وكر ينام فيه ولا مغارة يرقد فيها، ولكن هذا الفكر جعله يبني أجمل البناء ويسكن في أفخم القصور.

لا أدعي أن هذه الإنجازات مقبولة ولكن هذا الفكر شيء عظيم جداً حيثما وجهته أعطاك المستحيل، نقل الصوت عبر العالم، العالم صار قرية صغيرة الآن، أي إنسان بالهاتف يخبر أي مكان في العالم عن طريق هذا الفكر الذي أودعه الله سبحانه وتعالى فينا، نقل الصوت والصورة يمكن أن تشاهد مشهد بطرف العالم الآخر ينقل لك بالوسائط المعقدة.

فضل الله على الإنسان فضل عظيم بهذا الفكر :

إذاً:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

كأن الله سبحانه وتعالى يشير بهذه الآية أن فضل الله على الإنسان فضل عظيم بهذا الفكر، ولا مخلوق امتاز بالفكر إلا الإنسان، مجتمع من الحيوانات ولم ترتفع مجتمعات الحيوانات وترتقي منذ أن خلقت وحتى اليوم هي كما هي.

يقولون إن الإنسان أصله قرد، هل مجتمع القرود ركب طائرات؟ هل اخترع أشياء؟ قال بعضهم: إن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالطبيعة لا بالدرجة.

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

أعطاه هذا الفكر، بالفكر انتقل عبر العالم وركب الطائرات، بالفكر غاص في أعماق البحار، بالفكر بنى محطات استخراج نفط وسط البحار، (علم الإنسان ما لم يعلم)، لكن الله سبحانه وتعالى سوف يخاطب الإنسان ويعاتبه يوم القيامة، يقول له: يا عبدي لقد وصلت إلى الفضاء وغصت في أعماق البحار ونقلت الصوت ونقلت الصورة الملونة واخترعت من الأجهزة ما لا يصدق وكل هذا يحتاج إلى جهد كبير، أعجزت أن تعرفني، هذا الفكر سخرته لخدمة مآربك فأعطاك المستحيل، ولو أنك بذلت مِعشار معشار ما تبذله من أجل الدنيا لعرفتني، أليس موقف الإنسان المعرض عن الله يوم القيامة مخزياً؟!!

انظر إلى أي آلة صنعها الإنسان بالغة التعقيد، مثلاً تاجر يخبر شركة بأقصى اليابان أو بأمريكا الشمالية عن طريق جهاز، إذا ضرب في دمشق على هذا الجهاز حرف الراء، هذا الحرف ينطبع في أقصى مكان في الدنيا على الورق، هذا اختراع ليس سهلاً. الإنسان أمام هذه المخترعات سوف يحاسب

ألم تعرفني؟ عرفت كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى، أخضعت كل شيء للفكر والمنطق، اتجاهك الاجتماعي وسلوكك اليومي أخضعته إلى منطق الإيمان؟ فلذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

النشاط الفكري نشاط مذهل وهذا من فضل الله علينا :

أعظم شيء أودعه الله في الإنسان هذا الفكر، وفكر الإنسان ينتقل به من الجزئيات إلى الكليات، من المحسوسات إلى المجردات، الإنسان بالفكر يصل إلى المفاهيم، ما المفاهيم؟ هذه الشجرة تنبت وتنمو لها أوراق خضراء ولها ثمار، وهذه كذلك من استقراء أنواع الأشجار يصل إلى مفهوم الشجرة، فالإنسان يتخاطب باللغة عن طريق المفاهيم.

تقول: النحاس أي نحاس، لو وضعت قطعة نحاس أمام حيوان هل يكشف ما هذا المعدن؟ الإنسان يعرف ويتصور ويحاكم ويتذكر ويقارن ويقايس، يخترع ويكتشف، يتخيل، هذا النشاط الفكري نشاط مذهل وهذا من فضل الله علينا.

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

والله الذي لا إله إلا هو لا أجد أن في الإمكان أن أعبر عن الحقيقة إلا بيسر يسير جداً، كلمة (علم الإنسان ما لم يعلم) هذا الكون أمامك، هذا الإنسان أمامك ماذا فعل؟ ماذا حقق في الحياة من أشياء لراحة جسده؟ ألا ينبغي أن يعرف ربه؟ قال الله سبحانه وتعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

مع هذا العطاء الكبير ومع هذه الدرة الثمينة التي هي الفكر التي أودعها الله فينا بها نعرف وبها ندرك وبها نشعر وبها نوازن وبها نقارن ونستنتج ونستنبط، ومع هذه الدرة الثمينة التي هي الفكر مع هذا يطغى، معنى يطغى الإنسان أي يتجاوز حده الإنساني. القرآن مجمل والتفسير فيه تفصيلي، وبلاغته في إيجازه، وإعجازه في إيجازه، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

يتجاوز حده مع الناس قد يأخذ ما ليس له، قد ينظر إلى ما لا يحل له، قد يعتدي على شيء ليس في حوزته هذا طغيان، يطغى على جاره، يطغى على زوجته، يطغى على أخوته وعلى أبنائه وعلى من هم دونه، ويطغى على مرؤوسيه، يطغى على أبناء حيه.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن لا يطغى :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

لماذا يطغى؟ لأنه رآه فاستغنى، حينما يرى الإنسان نفسه مستغنياً أي في أوج قوته، في أوج نشاطه، في غناه، إن كان قوياً أو غنياً، شديداً، صحيحاً أو متمتعاً بمكانة اجتماعية يطغى.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

هل يحق له ذلك؟ هل ينبغي له ذلك أن يطغى؟ أن يتجاوز حده الإنساني؟ هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن لا يطغى، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن، مقيد يرى حجمه بالنسبة إلى هذا الكون العظيم، يرى حجمه حينما يرى ربه، عرف نفسه عرف ربه، فالمؤمن لا يطغى يقول إني أخاف الله رب العالمين، لكن غير المؤمن يطغى، يتجاوز الحد المعقول، يتجاوز الحد الإنساني، قد لا تروق له هذه الزوجة فيطلقها لأسباب تافهة هذا طغيان، جعلها مشردة قد تسقط في صحيفته، قد يطمع بالمال فيحمل ابنه على عمل السيئات من أجل تحصيل المال، هذا طغيان.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

في هذه الآية عتاب للإنسان على طغيانه :

لو الإنسان نظر إلى وضعه حينما كان جنيناً، قال تعالى:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ)

[سورة يس: 43]

لو أن هذا الجنين غرق في بطن أمه يد من تستطيع أن تنقذه، الإنسان ما رأى ضعفه حينما كان جنيناً، ما رأى ضعفه حينما خرج من أضيق مكان، ما رأى ضعفه حينما كان طفلاً لا يستطيع تأمين قوته ولا رد الأذى عنه كيف كان مفتقراً لأمه تطعمه وتسقيه وتنظفه وتدفع عنه الحر والقر، الآن طغى بعد أن كان رجلاً، بعد أن قوي عوده، بعد أن كثر ماله، بعد أن عز سلطانه يطغى، ألم يكن نطفة من ماء مهين.

الحقيقة في عتاب شديد؛ الآن تطغى؟ تذكر حينما كنت طفلاً، تذكر حينما كنت جنيناً، تذكر حينما كنت حيواناً منوياً يسعى إلى البويضة، لو لم يصل إليها لما كنت أنت بهذا الحجم الكبير.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

الآن تطغى نسيت أصلك، خرجت من عورة إلى عورة وخرجت من عورة، من ماء مهين يستحي به صاحبه أن يُرى على ثيابه.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

أحياناً يتجبر الإنسان في بيته، يهدد، يتوعد، يشعر الآخرين أن رزقهم في يده إن شاء قطعه عنهم، يشعر الآخرين أن بيده سعادتهم وشقاءهم هذا طغيان، من أنت؟ أنت عبد فقير، ماذا تفعل لو تجمدت نقطة دم في أحد الشرايين في الدماغ؟ إن جاءت نحو البصر فقد البصر، ونحو السمع فقد السمع، نحو الحركة أصبح مشلولاً، نحو الذاكرة فقد ذاكرته، يد من تدخل إلى الدماغ وتحرك هذا الدم دون أن يتجمد:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

لو أصيب الإنسان بشلل ماذا يفعل؟ لو فقد سمعه، لو فقد بصره، لو فقد عضلة المثانة التي تضبط البول كيف يكون حاله بين الناس وفي بيته؟

الإنسان بحسب معرفته بالله يتواضع :

الإنسان العاقل يرى أصله ويرى مصيره، مصيره إلى التراب يكون إنساناً ملء السمع والبصر ثوان ويصبح أثراً بعد عين، صار تحت التراب انتهى، وأُخذَت منه كل حاجاته؛ أمواله المنقولة وغير المنقولة.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

الإنسان بحسب معرفته بالله يتواضع، بحسب معرفته بالله يقف عند حدود الله، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله، هذه تجوز هذه لا تجوز، إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا خوفاً من الله عز وجل ولو أني أستطيع أن أفعل هذا.

مثّل كفار قريش بالمؤمنين حينما قتلوهم، أخرجوه وعذبوه وائتمروا على قتله وحاربوه وفعلوا المستحيل من أجل القضاء عليه فلما مكنه الله منهم وانتصر عليهم وقتل من قتل منهم، قيل له: يا رسول الله مثل بهم، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً. له حدود الإنسان لا يتجاوزها، أرسل خادماً فغاب طويلاً فغضب الرسول الكريم قال له: لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك. يقف عند حدود الله هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه تصح وهذه لا تصح، أدق تعبير للفاجر الكافر أنه إنسان لا يخضع لقاعدة ولا لنظام ولا لقيم.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

حينما يرى نفسه مستغنياً قوياً عتيداً صحيحاً يطغى، أما المؤمن لا يزيده المال إلا تواضعاً، ولا يزيده المال إلا وقوفاً عند حدود الله، ولا تزيده القوة إلا تواضعاً لله، ولا تزيده القوة إلا وقوفاً عند ما أمر الله، وحشي الذي قتل سيدنا حمزة الذي كان من أغلى الناس على قلب النبي عليه الصلاة والسلام ومثل به

وقبض الثمن، قتله مرتزقاً ليس صاحب قضية، قتله بالأجر قتله وأعتق، ومع ذلك حينما نطق بالشهادة حقن دمه، وقال عليه السلام: اجلس خلفي.

حينما دخل مكة كان عليه الصلاة والسلام يستطيع أن يقضي على أهلها قضاءاً مبرماً قال: اذهبوا وأنتم الطلقاء، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن.

دعوة من الله عز وجل إلينا أن نتتبع سلوك المعرضين :

قال تعالى:

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

لكن هذا الطغيان مسجل كله، مسجل على الإنسان كل حركة وسكنة وكلمة وهمس مسجل، والدليل:

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

أيها الطاغي سوف تعود إلينا ونحاسبك عن كل أعمالك واحدة وَاحدة ولن تفلت من يدنا (إن إلى ربك الرجعى). المؤمن يقول إني أخاف الله رب العالمين.

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى* أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعوة من الله عز وجل إلينا أن نتتبع سلوك هؤلاء المعرضين:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعوة الآية انتهت هنا، يظن الإنسان أن لها تتمة، أي أيها الإنسان تفحص هذا الرجل الذي ينهاك عن الصلاة، تفحص سلوكه تراه خائناً، تراه كاذباً، تراه أنانياً، تراه دنيئاً، تراه قذراً، وقد تراه يحب نفسه، تراه غير منصف، تراه مستعلياً، تراه متكبراً ولئيماً، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى تفحص أخلاقه، إذا حاككته بالدرهم والدينار أخذ ما ليس له، إذا تواضعت له ظنه ضعفاً استعلى عليك، إذا جاورته تجاوز معك الحدود، إذا جلست معه كذب عليك، حدثك عن نفسه ما ليس فيها:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هذا الذي ينهى عن الصلاة تتبع عمله لا يمكن إلا أن يكون منحرفاً وشاذاً وخسيساً ولئيماً يحب ذاته ويكره الناس جميعاً.

أخلاق الإنسان الكافر :

قال تعالى:

(أرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

تتبع حياته، انظر علاقته مع زوجته مبنية على الأنانية، إن أصابها مرض عضال قال لها: ماذا أفعل بك أنت عبء علي، يطلقها، إن أعطاها أهلها نصيب من ميراثها أخذه منها وهددها بالطلاق إن لم تعطه إياه، وعندما يأخذه يطلقها.

(أرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

إذا باعك شيئاً وشعر أنك بحاجة إلى هذه البضاعة ضاعف السعر يستغلك أبشع استغلال، يكاد يمص دمك، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) تتبع حياته، تتبع علاقته بزوجته وبأولاده، بزبائنه، بمن هم دونه تجبر، بمن هم فوقه تذلل، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) لؤم مع نفاق مع تملق مع استعلاء مع دناءة، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) لو التقى بزوجة صديقه ينظر لها نظرات شهوانية يغريها، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، تتبع حياته وأخلاقه، سلوكه، قيمه، نشاطه، وعلاقاته الاجتماعية. سيدنا عمر قال: أتعرفه؟ قال: نعم أعرفه، فقال له: هل جاورته؟ قال: لا، قال له: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال له: هل حاككته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، فقال له: أنت لا تعرفه. (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، لو أن الإنسان الكافر أخلاقي لشك في الدين كله.

الفرق بين أخلاق المؤمن وأخلاق غير المؤمن :

قال تعالى:

(أرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّين * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

هو نفسه، إذا قيل لك: الدين غير صحيح، الدين سلوك بشري أساسه الشعور بالضعف، والدين من صنع البشر، لا تسمع هذا الكلام وتتبع سلوك قائله، انظر أين يسهر مساءً؟ وأين يذهب ويأتي؟ تراه منحطاً، سافلاً:

(أرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

انظر أعماله غير مؤتمن، يحل لنفسه كل شيء، تدينه مبلغاً من غير إيصال لا يعطيك شيئاً، تكتب باسمه محلاً من أجل بعض الإجراءات يقول لك: هذا المحل لي، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، تكتب بيتاً باسمه من أجل إجراءات معينة يقول لك: هذا البيت ملكي، تضع عنده أمانة يقول لك: ليس لك

عندي شيء، هذا هو غير المؤمن، لو كان غير المؤمن أخلاقياً، صادقاً، أميناً، عفيفاً لشك في الدين كله. لكن هذه صفات المؤمنين حصراً، العفة والأمانة والصدق هذه للمؤمنين، وما سوى المؤمنين إن كانوا أذكياء يخفون في أنفسهم العيوب الكبيرة فإذا استفزوا ظهروا على حقيقتهم. ربما تلقى رجلاً لا دين له، لبقاً وناعماً ولسانه لطيف يبدو أنه متواضع ما دامت الأمور على ما يريد هذه أخلاقه المصطنعة المزيفة، فإذا استفز بدا وحشاً كاسراً. أما المؤمن هو كما هو.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

الآية التالية فيها إشارة إلى مرتبتين :

اتبع الآن صنفاً آخر قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

انظر المؤمن كيف أخلاقه، وعده صحيح، عنده حياء صادق إذا وعد وفى، وإذا ائتمن لم يخن، إذا حدث صدق، إذا خاصم خاصَم بالحق، إذا دعي إلى العفو يعفو، إذا استرضي يرضى، إذا طلب مالاً له طلبه بالحسنى، إذا كان عليه أداه بالحسنى، علاقته مع بيته مبنية على التواضع، على الإحسان، إذا دخل إلى بيته كان واحداً من البيت دون استعلاء، إن كان له زوجة يحسن إليها، له أولاد يرعاهم، له جيران يحسن إليهم.

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

هذا الشيء بديهي، الإنسان ذو دين تراه عفيفاً، صادقاً، أميناً، جاء جندي بتاج كسرى بكامله وضعه أمام عمر، فقال سيدنا عمر: سبحان الله، ما هذه الأمانة؟ تاج ثمنه ملايين كله جواهر نفيسة يحمله جندي بمفرده ويأتي به من المدائن إلى المدينة، لماذا لم يذهب به إلى القسطنطينية كان عاش ببحبوحة طول حياته، قال له: سبحان الله، فقال سيدنا علي: أعجبت من أمانته لقد عففت فعفوا ولو وقعت لوقعوا:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

عامل مؤمن يحفظ القرش محفوظ لأنه يخاف من الله عز وجل، يحاسب نفسه على الشعرة، ناس يعملون ببعض السلع ترى تساهلاً في تعاملهم، بينما المؤمن منهم ورع يقول لك: هذا ليس لي، المؤمن ورع وصادق وعفيف صاحب نخوة ومروءة، شجاع لا تأخذه في الله لومة لائم لا ينافق ولا يستخذي، لا يخنع ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يحتقر الآخرين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هذه واحدة:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

هذه الثانية، إذا كان على الهدى هو مؤمن أما إذا ارتقى إلى أهل التقوى وصار تقياً، لم يهمه نفسه صار همه الآخرين أن ينجو وينجي الآخرين من عذاب النار. هذه الآية فيها إشارة إلى مرتبتين أرأيت إن كان على الهدى؛ مؤمن، أو أمر بالتقوى، بلغ التقوى وصار يأمر الناس بالخير.

التولي من نتائج التكذيب والتكذيب أحد أسباب التولي :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

كذب بالحق وأدار ظهره له لأن هنا مجاوزة، كذب وتولى لو أنه كذب ولم يتولى لما كذب، علامة التكذيب التولي ومن دلائل التولي التكذيب. نقول لإنسان: لماذا لا تحضر مجالس العلم؟ يقول: مشغول، هذا ظاهره، أما ماذا في أعماقه؟ الدرس لا قيمة له عنده. التولي علامة التكذيب، التولي من نتائج التكذيب والتكذيب أحد أسباب التولي.

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

الله يرى كل شيء، هذه الآية وحدها تكفي، كل إنسان الله يراقبه، يعرف ماذا في نفسه وبأعمق أعماقه يراه، مكشوف أمام الله عز وجل، خواطرك ورغباتك، تكلمت كلاماً مبطناً لك غاية أخرى:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

هذا تهديد من الله عز وجل، يا عبادي أنا مطلع عليكم، على سرائركم، على خواطركم، على ألسنتكم، على قلوبكم:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

نحن مدعوون من قبل الله عز وجل أن نرى بأم أعيننا المعرضين عن الله والمؤمنين:

الله عز وجل قال:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة النحل: 36]

أي اتبع، انظر المؤمن كيف نهايته سعيدة وانظر الفاجر نهايته شقية، انظر الذي يخون الناس في أموالهم نهايته الفضيحة والخسران والفقر انظر الأمين نهايته السعادة والغنى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

انظر نهايته، نهايته فضيحة، الإنسان له أيام معدودة في هذه الأيام إما أن يثبت أنه مؤمن إنساني أخلاقي وإما أن يثبت العكس، إن ثبت العكس فالنهاية وخيمة.

نحن الآن مدعوون من قبل الله عز وجل أن نرى بأم أعيننا هؤلاء المعرضين كيف أخلاقهم؟ وكيف سلوكهم؟ وكيف علاقاتهم الاجتماعية؟ وكيف مصيرهم؟ وهؤلاء المؤمنون أخلاقهم العلية الرضية، صفاتهم الراقية، أمانتهم صدقهم هذه دعوى من الله، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

ورحمة الله تقتضي أن هذا المكذب المتولي وهذا الذي ينهى عبداً إذا صلى لا بد من أن يعالجه الله عز وجل، الإنسان يعطى فرصة.

الله عز وجل يمهل ولا يهمل :

قال تعالى:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

الناصية الرأس، والرأس مركز المحاكمة والفكر:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

السفع هو الضرب واللطم، لا أحد ضربك ولكن خبر مؤلم فكأنك قد لطمت، هذا الذي يتعدى يطغى يتجاوز لا بد من علاج حازم له بقدر الانحراف، الانحراف الشديد يحتاج إلى سفع شديد، لنسفعاً اللام لام التأكيد والنون نون التوكيد الثقيلة، أي هذا المعرض هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، هذا الذي كذب وتولى، لنسفعاً بالناصية لا بد أن نصيبه بمشكلة كبيرة بحجم انحرافه، هنا المؤمن تأتيه أشياء صغيرة، ما من عثرة واختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر، لكن في أشخاص انحرافهم شديد جداً والمصائب التي يقدرها الله لهم كبيرة جداً قد لا يقوون على تحملها قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة: 286]

أحياناً نمرض مرضين جميع أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض وجميع أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض، مرضان متناقضان يقول الأطباء لا نستطيع أن نعطيه أي دواء.

عملية جراحية مؤلمة جداً من دون بنج لأن البنج يتعب القلب، يصرخ ويتألم (لنسفعاً بالناصية)، هناك مصائب فوق احتمال طاقة البشر لماذا ساقها الله للبشر؟ لأن حجم انحرافهم كبير، الإنسان لا يتجبر ولا يطغى ولا يتجاوز حده الإنساني مع أي إنسان، بدءاً بزوجته، معه فرصة، الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

أشد أنواع المصائب أن يرافقها إذلال :

قال تعالى:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

هذه الفرصة يظنها الأحمق أنها لا شيء والله لم يبعث له شيء وهذا منتهى الحمق والغباء، وأن يكون الإنسان في صحة وبحبوحة ومال وفي مكانة اجتماعية وهو منحرف ويظن أن الحياة للأقوى، أنا قوي لا أخاف أحداً، لا هذه فرصة منحت فرصة وبعدها العلاج:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

لا تنسوا لام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة أي حتمية المعالجة لنسفعاً بالناصية. المصائب بأنواعها؛ مصائب النفس، مصائب الأولاد، مصائب القهر، مصائب الذل، هذه المصائب البلاغة في القرآن الكريم شملتها في كلمة واحدة: (لنسفعاً بالناصية)، تحترق يد الإنسان هذا الحرق يؤلمه لكن لو ضربته على وجهه ضرباً مبرحاً أمام الناس هذا الضرب مؤلم ومذل، أشد أنواع المصائب أن يرافقها إذلال، هناك أمراض مؤلمة لكن ليس فيها ذل، الإنسان يصيح منها لكن لا يهان، ربنا عز وجل على قدر انحراف الإنسان:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

أي ضرب على الوجه.

الناصية التي سفعت ناصية كاذبة خاطئة أما الصادق المستقيم فلا يستحق إلا التكريم:

قال تعالى:

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

هذا الوجه لماذا لطم؟ لأنه كاذب مخطئ، ناصية كاذبة خاطئة إذا أراد الله به تأديباً وعلاجاً من يستطيع أن ينقذه من الله؟ لا أحد، قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

كن فيكون، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

قد يكون معه ألوف الملايين وجاءه مرض خبيث لا أمل وآلام لا تحتمل، ماذا يفعل بالملايين هناك والموت حق، لكن قبل الموت عذاب سنوات:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

من يجيرك من عذاب الله؟ إذا كان الله عليك فمن معك؟ هناك مصائب لا قيمة للمال في حلها، أحياناً تنهار سمعته لو دفع مئات الألوف وصمة عار في حقه:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

هذه الناصية التي سفعت ناصية كاذبة خاطئة، أما الصادق المستقيم فلا يستحق إلا التكريم.

إذا قرر الله مصيبة لإنسان

كل الذين يظنهم

أصدقاءه يتخلون عنه ويتركونه :

قال تعالى:

(فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

استجر بمن تعرف، هذا كلام فارغ، إذا الله عز وجل قرر مصيبة لهذا الإنسان كل هؤلاء الذين يظنهم أصدقاءه يتخلون عنه ويعتذرون وينسحبون ويبقى وحده تحت المطرقة الإلهية.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

فليدع هؤلاء الذين هم معه أشداء أقوياء يعينونه، أين هم؟

(سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)

أي:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

[سورة المدثر: 31]

سمعت ببعض الدول المتقدمة جداً في العلم والحضارة والمتخلفة جداً في الأخلاق، جاء مرض على الحمضيات كافحته هذه الدول بالمبيدات، ليس لهذا المرض علاج إلا حرق المزرعة بكاملها، وحدود الحرق مئة وخمسين متراً زيادة عن المزرعة، بعض المزارع في كاليفورنيا تمد العالم بنصف ما يحتاجه من حمضيات وأصيبت بهذا المرض وأحرقت.

هناك أمراض جنسية، الهربز ليس له حل، كل ما تملك الدول العظمى من إمكانات وهذا المرض ليس له حل، وملأ قلوب الناس بالذعر، كلما التقى رجل بامرأة تسأله: أمعك هربز من شدة الخوف والقلق.

عندما يريد ربنا عز وجل أن يذل قوماً لا يحتاج إلى أسلحة :

عندما يريد ربنا عز وجل أن يذل قوماً لا يحتاج إلى أسلحة يبعث جراثيم لا ترى بالعين، قال تعالى:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)

[سورة المدثر: 31]

هذه جنود جرثوم الهربز بأمر الله عز وجل، الكوليرا شيء غريب؛ ينتقل الماء بجسم الإنسان من الأمعاء إلى الداخل، الجرثوم يعكس الآية ينقل كل الماء الداخل للخارج بخمس ساعات يموت.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، وإذا تعطل مركز يحتاج الإنسان كل ساعة حبة من علاج من أجل أن يبقى حياً، مثلاً إذا نمت الساعة التاسعة يجب أن تستيقظ الساعة العاشرة لتأخذ حبة، والساعة الحادية عشرة، وهكذا دواليك، عملية صعبة جداً.

هذا مركز التنفس الآلي هل يشعر به أحد؟ مركز ضبط السوائل فوق الكلية في الكظر إذا تعطل عندها يقضي الإنسان أربعاً وعشرين ساعة بين الصنبور والمرحاض.

أحياناً ينحل دم الإنسان يحتاج كل أسبوع إلى ثلاثين سنتيمتراً من الدم، الكلية تتوقف فجأةً لا حل لها إلا الزرع، ونجاح العملية ضئيل كورتيزون طوال الحياة أو غسيل كلية كل أسبوع مرتين.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

الإنسان كلما حزبه أمر فليبادر إلى الصلاة :

الله عز وجل عنده أدوية لا يعلمها إلا هو، في الجسم مليون مرض وكل مرض يظنه صاحبه أصعب مرض.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه*سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ*كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يسجد لله حين تأتيه نعمة وسماه العلماء سجود الشكر، أحياناً يسجد لله ويسأله حاجة، فالإنسان كلما حزبه أمر ليبادر إلى الصلاة.

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

تشبيه بسيط؛ جندي في ثكنة تلقى أمراً من عريف وتلقى أمراً من لواء، والأمران متعاكسان، عليه أن يطيع من؟ أحياناً يتناقض أمر العبد مع أمر الرب، الله قال: لا تطعه واسجد واقترب، عندما يخاف الإنسان من عبد ويعصي الله عز وجل إيمانه صفر، لا يعرف الإيمان إطلاقاً لأنه خاف من عبد ضعيف لا يقوى على شيء، وعصى رافع السماء بلا عمد، ربنا عز وجل قال:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

أي أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، لا تطعه واسجد واقترب، صل لأن هذه الصلاة أمر من عند الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا تطعه في كل أمر، في العلاقات المالية والشخصية، بالاختلاط، بالطعام والشراب، لا تطعه واسجد واقترب.

آيات التوحيد :

لا تطعه الله نهانا عن هذا اللحم وهذا المشروب وهذه السهرة والحفلة وعندما يخاف الإنسان من مخلوق هذه علامة ضعف إيمانه، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

لا أحد في الأرض شريك مع الله في الحكم قال تعالى:

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

[سورة الأنعام: 57]

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة غافر: 20]

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 55]

هذه آيات التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وهذه الآية واضحة وضوح الشمس، في الصيام، في الصلاة، في مشروب حرمه الله، في حفلة حرمها الله دعيت إليها ضُغِط عليك لا تطعه واسجد واقترب، اذهب وصل فأنت مع الواحد الديان ومع الواحد الذي لا إله إلا هو، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

هذا الإيمان:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القدر 097 - الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1- 7 الانتقال من مرتبة العبّاد إلى مرتبة العلماء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-06-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الناس رجلان عابد وعالم وشتان بين الرجلين :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة القدر وقبل أن نبدأ في شرح هذه السورة وبيان معاني كلماتها وحروفها لا بد من مقدمة لها، الناس رجلان؛ عابد وعالم وشتان بين الرجلين، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَإِن فَضْلَ العالِمِ على العَابِدِ كَفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكَوَاكِبِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء]

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

[أخرجه الترمذي عن أبي أمامة]

((ولفقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد))

[البيهقي عن أبي هريرة]

(لَيلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

أي ألف شهر عبادة، صلاةً، عبادةً، زكاةً، حجاً، عمرةً، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ليلة قدر واحدة خير من ألف شهر، ما كل عالم بعالم، لأضرب على ذلك مثلاً لو أن إنساناً ركب طائرة مثلاً من طهران إلى بيروت ومرت الطائرة فوق دمشق فرأى دمشق حينما يسأل: هل تعرف الشام؟ يقول: نعم أعرفها، إنسان آخر طائرته هبطت في مطار دمشق ومكث في المطار ليلةً في فندق المطار وسئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان ثالث ركب سيارة إلى المرجة ورأى مركز المدينة ثم سئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان رابع أضاف إلى المرجة سوق الحميدية فسئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان خامس أضاف إلى المرجة وسوق الحميدية الجامع الأموي فيسأل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، وإنسان سابع أقام فيها أسبوعاً، وإنسان ثامن تجول في أحيائها القديمة، وإنسان تاسع رأى أحياءها الجديدة، وإنسان تاسع أقام فيها عشر سنوات درس فيها، وفي إنسان ولد في الشام وعرف طباع أهلها وعاداتهم ومداخلهم ومخارجهم وأنماط معيشتهم ومستوياتهم، فيقال له: أتعرف الشام؟ يقول:: أعرفها؛ كل هؤلاء الأشخاص حينما سئلوا: أتعرف الشام؟ قالوا: نعرفها، هل معرفتهم في درجة واحدة. الذي طار فوق دمشق قال أعرفها والذي ولد فيها وعرف مداخلها ومخارجها وطباع أهلها وعاداتهم

وتقاليدهم قال أعرفها وشتان بين المعرفتين، قد تقول لإنسان أتعرف الله يقول لك أعوذ بالله، الله ربنا خالق كل شيء.

الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يريد أن ينقلنا من مرتبة العباد إلى مرتبة العلماء:

كل هذه الأمثلة أردت منها أنه ما كل من قال أعرف الله عرفه، وفرق كبير بين إنسان سمع خطبة تحدث فيها الخطيب عن إله عظيم خالق الأرض والسموات وعنده جنة ونار، وله أنبياء، وبين إنسان يعرج في مراتب القرب، بين هذا وذاك مراتب كثيرة، هناك إنسان إذا نظر إلى أي شيء في الأرض يرى الله عز وجل؛ إن شرب كأس ماء، وإن نظر إلى ابنه، إن أمسك تفاحة، إن نظر إلى عصفور، إن نظر إلى سمكة، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

فالله سبحانه وتعالى في هذه السورة يريد أن ينقلنا من مرتبة العباد إلى مرتبة العلماء، بين العالم والعابد مسافة كبيرة، العابد له درجة لا يتخطاها لو أنه عبد الله ألف شهر أو ثمانين عاماً هو هُو، معرفته هي هِي، مستواه لا يزيد، درجته لا ترقى، مقامه لا يزداد قربه ولا يقل، العابد بذلك تحت خطر أن يقع في معصية لأنه هش المقاومة سريع المأخذ، لكن الذي عرف الله عن طريق البحث الفكري وعن طريق التأمل في آيات الله عز وجل هذا الإنسان لو قطعته إرباً إرباً يقول لك: أحد أحد، هذا الإنسان كل يوم يزداد من الله قرباً، يوماه لا يتساويان إذا تساوى اليومان فهو مغبون لذلك، ولا تظنن أن التدين صوم وصلاة وحج وزكاة وانتهى الأمر، فهذه هي العبادة وإذا كانت العبادة في الماضي يوم كان الناس بخير، يوم كانت الطرقات لا منكر فيها، يوم كان الناس يخشون الله، يومها العبادة ربما كانت تنجي صاحبها، أما اليوم العبادة وحدها لا تنجي صاحبها لأن الفتن على قدم وساق، الفتنة يقظة والدنيا اليوم خضرة نضرة، الدنيا اليوم تغر وتضر وتمر، الدنيا اليوم مغرية لذلك لا تنفع معها العبادة لا ينفع معها إلا العلم، العلم يقي صاحبه من الفتنة.

مرتبة العالِم :

العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى يدعونا في هذه السورة الكريمة إلى أن نترك مرتبة العبادة إلى مرتبة العلم. العبادة طاعة على وتيرة ثابتة لكن العالم في كل يوم يرقى، كلما قرأ القرآن يرقى، كلما تكلم عن الله، يرقى لأنه عقل عن الله شيئاً ثميناً هذا الشيء يرفعه في مدارج القرب. ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

إنّا أساسها (إن) و (نا)، الـ (نا) ضمير جمع الله سبحانه وتعالى أسماؤه فيقول إنا، وفي سورة طه يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

لماذا يقول الله عز وجل مرة إنني أنا الله ومرة يقول إنا أنزلناه في ليلة القدر.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ)

[سورة ق: 43]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

[سورة الكوثر: 1]

قال العلماء: حيثما تكلم الله عز وجل عن ذاته ليبرز وحدانيته فيستخدم ضمير المفرد، وإذا تكلم الله سبحانه وتعالى عن أفعاله يستخدم ضمير الجمع لأن أفعاله يدخل فيها كل أسمائه الحسنى، أي فعل من أفعاله فيه رحمة وفيه قدرة وفيه لطف وفيه حكمة وفيه عدل.

قدسية ليلة القدر لا في الزمن ولكن في المضمون :

أسماء الله الحسنى كلها في أفعاله، لذلك الله عز وجل قال: (إنا أنزلناه)، الهاء تعود على كتاب الله لأن الله سبحانه وتعالى يتحدث عنه فكأنه معروف عند كل قارئ، إنا أنزلنا القرآن، أنزلناه من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، كان هذا في ليلة القدر، هنا نقطة دقيقة جداً، ليلة القدر في رمضان ورمضان شهر قمري والشهر القمري يتداخل مع الشهر الشمسي، فرمضان يأتي في كانون الثاني ويأتي في شباط وفي آذار وفي نيسان وفي أيار وفي حزيران وفي تموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون، أي شهر رمضان على مدار ست وثلاثين سنة يأتي في كل أشهر السنة، وعلى مدار الزمان كله ليلة القدر تأتي في كل يوم، فهل القدسية في زمانها أم في مضمونها؟ إذا قلنا في زمانها ليلة القدر جاءت في كل يوم من أيام العام، فقدسيتها لا في الزمن ولكن في المضمون، ماذا حصل بها؟ هذا الذي يريده الله سبحانه وتعالى.

السؤال الثاني لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ليلة القدر، ولم يقل نهار القدر؟ لأن الليل وقت مناسب للصادقين، للمخلصين، للمحبين، للعاشقين، المنافق يصلي في النهار ولكنه لن يقوم الليل، لا يقوم الليل إلا المحب، إلا من أحب الله، إلا من قام ليناجيه، إلا من قام ليقف بين يديه، إلا من قام ليتذلل على

أعتابه، إلا من قام ليمرغ وجهه في الأرض حباً لله سبحانه وتعالى، الليل هو الوقت المناسب للطائعين، للمحبين، للعاشقين، في الليل يحدث هذا الاتصال وفي هذا الاتصال يحدث هذا التقدير، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: 67]

القدر أن تعرف الله حق المعرفة :

الله عز وجل يمتحن الناس يفتنهم بمعنى يبتليهم، فهم ينقسمون إلى قسمين: قسم عرف الله، وقسم لا يزال به جاهلاً، أن تعصي الله عز وجل فأنت لا تعرفه، أن تؤثر مخلوقاً عليه فأنت لا تعرفه، أن تؤثر مبلغاً من المال على رضاه فأنت لا تعرفه، أن تستهين بأمر من أوامره فأنت لا تعرفه، فالقدر أن تعرفه حق المعرفة لذلك الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران: 102]

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج: 78]

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

ليلة القدر، كلمة (ليل) تعني لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، والقدر يعني معرفة الله عز وجل، أعيد عليكم حديثاً طالما ذكرته لكم: يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال: وماذا فعلت في أصل العلم؟ قال: وما أصل العلم؟ قال: وهل عرفت الرب؟ مثلاً هل عرفت ما عنده إذا أطعته؟ هل عرفت عقابه إذا عصيته؟ إذا الإنسان مشى في الطريق ورأى امرأة سافرة، إذا نظر إليها ماذا تعني هذه النظرة؟ تعني أشياء كثيرة، تعني أنه يستهين بعقاب الله عز وجل، من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم، فإذا غض عن محارم الله، ماذا يعني هذه الغض؟ يعني أنك تعرف ما أعد الله لك من ثواب ومن سعادة ومن أجر ومن نعيم مقيم إذا أنت غضضت عن النساء طرفك.

دعوة هذه السورة إلى أن تعرف الله وإلى أن تقدره :

هذا غض البصر فقط، إذا ترفعت عن المال الحرام ماذا يعني ذلك؟ يعني أنك تعرفه، أما إذا أخذت المال ولم تبال أكان حلالاً أم حراماً، لكان هدفك أن تأكل المال وأن تأخذ كسب الآخرين، وأن تضع لهم عراقيل الأمور في معاملاتهم، وتخيفهم حتى تبتز أموالهم؛ إن فعلت ذلك فأنت لا تعرف الله عز وجل إطلاقاً.

الناس يحسبون من صام وصلى كان مؤمناً، مع أن الصوم والصلاة شيء لا يقدم ولا يؤخر ولا قيمة له إذا كان الإنسان عاصياً.

دعوة هذه السورة إلى أن تعرف الله، إلى أن تقدره، قال: لك يا عبدي إذا عبدتني ألف شهر وعبدتني ثمانين عاماً ولم تعرفني ما أفادتك عبادتي؛ ولا رقت بك ولا سعدت بها، فإذا عرفتني لليلة واحدة لساعة واحدة كانت هذه المعرفة خير لك من كل العمر الذي أمضيته في هذه العبادة الجوفاء.

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

في القرآن الكريم لفظتان (وما أدراك)، (وما يدريك)، إن قال الله: وما أدراك أي أن الله سوف يدريك، وإن قال الله: وما يدريك لا أحد يدريك، لأن هذا من علم الله عز وجل، قال الله عز وجل:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب: 63]

هذه بعلم الله لا أحد يعرفها ولا الأنبياء، لكن قول الله عز وجل:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

سوف يدريك الله عز وجل عن الحاقة.

مقاييس الناس مادية :

هنا يقول الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

مقاييس الناس مادية، إنسان عنده أرض وفتح أمامها شارع وكان اشترى المتر بمئة ليرة وصار المتر بمئة ألف، يقولون: بيته في الجنة، غني وما دري، سعدت ذريته، هكذا يقولون، الناس يقدرون الدنيا، يقدرون المال، يقدرون الجاه والمنصب، يقدرون البيت الفخم، والبستان الجميل، والسيارة الفارهة، لكنهم لو عرفوا الله عز وجل لعرفوا أن معرفة الله عز وجل تسعدهم إلى الأبد وأن الدنيا سوف تنقطع إلى حين.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

أتمنى على المؤمن أن يشمر ليعرف الله فإذا شمر إلى معرفة الله كفاه الله أمر دنياه، تأتيه دنياه وهي راغمة، كأن الله عز وجل يقول: يا عبدي دنياك علي لا تهتم لها، ما دمت تهتم لتعرفني فدنياك علي، ستأتيك الدنيا وهي راغمة.

كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أكن لك كما تريد، إذا سلمتني في ما تريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما تريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

الله عز وجل يقول:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

أي لا أحد يعرف قيمتها وسوف تعرف قيمتها يا محمد.

إذا عرفت الله تبدأ مكاسبك في أثناء الحياة ولكنها تتصاعد إلى ما بعد الموت وتسعد بها:

قال تعالى:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

حياة الإنسان حافلة، فتح محلاً تجارياً، كبَّره، غير نوع عمله، جاء ببضاعة حملها وشحنها، اشترى، باع، حاسب الناس، حتى في الآخر اشترى بيتاً صغيراً، بعد أن سكنه بشهر ونصف جاء الأجل ومن ثم غادر إلى غير رجعة. ماذا استفاد بربكم؟ قال النبي الكريم:

((بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

طبعاً المؤمن ينتظر كل خير، أما النبي الكريم يخاطب أهل الدنيا، الذين أعرضوا عن الله عز وجل، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟!! يأتي ملك الموت عندئذ يعض الظالم على يديه، قال الله عز وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

إنسان اشترى أرضاً ووفّى ثمنها في خمس سنوات، وحصل على رخصة بناء في سنتين، وعلا البنيان في سنة ثم بدأ بإكساء البناء في سنة، بعدما انتهى البناء وصار جاهزاً للسكن جاءت آلة هدمته. يصاب بإحباط منقطع النظير، سبع سنوات حتى رآها قائمة ثم تهدم أمام عينيه قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

لأن الموت ينهي هذه الحياة ومكاسب الحياة، لكنك إذا عرفت الله عز وجل تبدأ مكاسبك بعد الموت، تبدأ في أثناء الحياة ولكنها تتصاعد إلى ما بعد الموت وتسعد بها.

إذا عرفت الله صرت أقوى المخلوقات :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

لماذا هي خير؟ لأن الإنسان يسعد بها، ما الذي يشقي الإنسان؟ الخوف، الخوف يشقيه، إذا قال الخائف: حسبنا الله ونعم الوكيل، قال: الله عز وجل:

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

[سورة آل عمران: 174]

إذا قال الإنسان الذي أصابه غم: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87-88]

إذا قال العبد وقد شعر أن مؤامرة تحاك ضده: وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، فقال الله عز وجل:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 45]

إذا الإنسان خاف من المكر وفوض أمره إلى الله عز وجل يقيه الله سيئات الماكرين، وإذا أصابه غم فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)، وإذا قال الإنسان وقد أصابه خوف: حسبي الله ونعم الوكيل (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله)، فإذا عرفت الله تعرف كيف تدعوه، وتعرف كيف تفوض أمرك له، وتعرف كيف تتوكل عليه، وتعرف كيف تستسلم له، وتعرف كيف تطيعه، وتعرف كيف تناجيه، لذلك ليلة القدر خير من ألف شهر.

إذا

عرفت الله وقدرته حقّ قدره أمدك الله بالملائكة فسددوا طريقك وأسعدوك :

أنت إذا عرفت الله صرت أقوى المخلوقات، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله. هذا معنى قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر)، يصيبك الخير العميم وتسعد في الدنيا والآخرة، لماذا؟ قال تعالى:

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

إذا قدرت الله اتصلت به، فإذا اتصلت به جاءتك الملائكة بتجليات الله عز وجل على قلبك، جاءتك الملائكة بتجليات الله فأسعدتك، وجاءتك الملائكة بتوجيهات الله فسددت طريقك، لا ترتكب خطيئة لا تقع في حماقة لا تقع في غضب مفاجئ من غير مبرر، لا تركن إلى إنسان غير موثوق فيه، فهناك ملائكة تسدد عملك.

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

إنسان مقدم على صفقة، هذه الصفقة غير رابحة يقول لك: تضايقت، مقدم على شيء فيه خير يقول: انشرح صدري.

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

عرفت الله وقدرته حق قدره أمدك الله بالملائكة فسددوا طريقك وأسعدوك ووجهوك وحذروك وأمروك ونهوك، إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من قلبه، إذا أحب الله عبداً عاتبه في منامه، إذا أحب الله عبداً عجل له في العقوبة، هذا معنى (تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر)، إلى أن تصبح حياتك سلاماً في سلام، لا قلق، لا همّ، لا حزن، لا خوف، لا توقع مصيبة، لا مرض، لا خوف، لا يأس، لا قنوط.

عندما يكفر الإنسان بالله أول عقاب يناله أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفسه الرعب

قال العلماء: إن أشد الأمراض فتكاً في النفس هو الخوف، وعندما الإنسان يكفر بالله عز وجل أول عقاب يناله من الله أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفسه الرعب، خائف من سرطان، خائف من حادث، يقول لك: أريد أن أؤمن على حياتي، يحدث معه حادث ويصاب بتمزق بالنخاع الشوكي ويصاب بالشلل، يذهب إلى التأمين ويأخذ مئة ألف ليرة، ما أمَّن؟ ولكن الشلل هذا كيف يؤمَّن عليه؟ لذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

اعرفه واتصل به وعندئذ قد تقول: كأني إنسان آخر غير هؤلاء البشر، إني لا أخاف مما يخافون، ولا أخشى ما يخشون، ولا أقلق لما يقلقون، هكذا ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

هذه من كل أمر، إن كنت تاجراً يوفقك تختار أحسن الصفقات وأربح الصفقات والله عز وجل يصرف عنك الصفقات الخاسرة وإن كنت مزارعاً الله عز وجل يصرف عنك الصقيع. يصرفه عمن يشاء ويوصله لمن يشاء، إن كنت موظفاً الله عز وجل يلهمك الرشاد والسداد تنتزع إعجاب رؤسائك ولك سمعة طيبة وفي خدمة الناس ويبارك الله لك في دخلك على قلته.

ما أقبل عبد على الله إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة :

ما دام الله معك لا تخف أحداً، حياتك سلام، والسلام اسم من أسماء الله عز وجل، إذا الله عز وجل تجلى عليك باسم السلام يصبح عندك طمأنينة. والله الذي لا إله إلا هو لو وزعت على ستة آلاف مليون إنسان لاطمأنوا وما خافوا.

كل بلد في هذا العصر وكل مجتمع فيه أشياء مقلقة له، يقول لك: في بعض البلاد الأجنبية الخوف من مرض جنسي اسمه الإيدز أصاب الناس بالذعر وهم في ذعر مستمر، الخوف من تشمع الكبد، من السرطان، من أمراض القلب جعلهم أشقياء، أما الله عز وجل قال: سلام هي، حياة هذا الإنسان في سلام، سلام في سلام، ينام مطمئناً، المؤمن لا يحتاج إلى حبوب منومة، أهل الدنيا يأخذون هذه الحبوب بكميات كبيرة يدمنون عليها لأن القلق يأكل قلوبهم.

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

كأن يوم القيامة فجر جديد يظهر الحق جلياً واضحاً، فإذا عرفت الله عز وجل وقدرته حق قدره فأنت في سلام وفي بحبوحة وفي يسر وفي أمن وطمأنينة، إذا ذهبت إلى قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام لماذا تحس بالسعادة؟ تفسير علمي لأن أسعد نفس على وجه الأرض منذ الأزل حتى قيام الساعة هو سيدنا رسول الله، فإذا اقتربت منه أو ذكرت اسمه أو ناجيته أو خاطبته أو اقتربت من المدينة المنورة تحس بسرور، هذا نوع من تجلي الله عز وجل، إذا كنت مع الله أسعدك الله وسعد من كان معك ومن حادثك ومن احتك بك ومن عاملك ومن سافر معك ومن جلس معك.

وما أقبل عبد على الله إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة وكان الله له بكل خير أسرع، هذه السور القصيرة شأنها خطير كأن الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تكون أسعد الناس، يجب أن تقول هذه الكلمة التي طالما أقولها: إنني أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني فهو أسعد مني، ويجب أن ترى أهل الدنيا أشقياء خاسرين، ضائعين، شاردين، تائهين؛ ضالين ويجب أن ترى نفسك مهما تكن من أصحاب الدخل المحدود من أصحاب الدخل غير المحدود، من الأزواج الناجحين من الأزواج غير الناجحين، مهما تكن حياتك الدنيا يجب أن تقول أنا أسعد الناس لأنك عرفت الله عز وجل.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ*تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

الطبيب إذا كان مع الله عز وجل يلهمه التشخيص الصحيح والدواء الصحيح، وكل حرفة من الحرف إن كان صاحبها مع الله عز وجل تنزلت الملائكة وألهمته الصواب والرشاد والسداد.

خصوصية العشر الأخير من رمضان :

يا أيها الأخوة الأكارم، نحن الآن مقبلون على العشر الأخير، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أقبل العشر الأخير شدّ المئزر وأيقظ أهله واجتهد في العبادة ما لا يجتهد في غير رمضان، النبي الكريم رقي المنبر فقال: آمين، ثم رقي الدرجة الثانية فقال: آمين، ثم رقي الثالثة فقال: آمين، فقالوا: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: جاءني جبريل فقال لي: خاب وخسر من أدرك رمضان ولم يغفر له إن لم يغفر له فمتى؟ نحن في رمضان، ونحن في العشر الأخير، أي دقق في سلوكك، راقب هل في بيتك مخالفة؟ هل هناك معصية؟ هل تسمع الغناء؟ هل تشاهد مالا يرضي الله عز وجل من البرامج؟ هل تنظر إلى الحرام؟ هل تغتاب أحداً؟ هل تكذب في البيع والشراء؟ هل تغش مسلماً؟ هل تأكل حراماً؟ دقق إذا تقصيت الحلال في كل شيء تجلى الله على قلبك. يقول العبد:

((يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له))

[مسلم عن أبي هريرة]

نحن في مناسبة لا تعود إلى العام القادم، ونحن على أبواب العشر الأخير نريد صيام الخصوص، صيام الجوارح، بل في العشر الأخير صيام خصوص الخصوص، ترك ما سوى الله عز وجل، معنا كتاب الله عز وجل فيه نبأ من كان قبلنا ونبأ من كان بعدنا، في القرآن آيات لما تؤوَّل بعد، فيه قوانين الحياة، فيه مفتاح السعادة، فيه مفتاح الطمأنينة، فيه مفتاح الإقبال على الله عز وجل، فلذلك هذه السورة على صغرها وعلى إيجازها ثلاثة أسطر لكن يجب أن تعرفها، إذا عرفتها نقلت من العبادة إلى العلم، إن صرت عالماً عندئذ كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.

العبادة الصحيحة :

يا خميل مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، إذا انتهى رمضان يجب أن تعاهد ربك على برنامج ديني مكثف، كل المعاصي التي أكرمك

الله بتركها في رمضان يجب أن تستمر طوال العام، إذا أكرمك الله بصلاة الفجر في وقته الصحيح يجب أن تستمر به طوال العام، إذا أكرمك الله بجلسة علم صباحية يجب أن تستمر بها، إذا أكرمك الله بحضور مجلس علم في رمضان يجب أن تستمر بعد رمضان لأن المؤمن عامه كله رمضان، لا يفطر إلا فمه بعد العيد وصوم جوارحه هو هُو طوال العام.

أيها الأخوة الأكارم، كما قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً بعض صحابته قال: يا ربيعة سلني حاجتك؟ فقال: أمهلني يا رسول الله- سؤال كبير، فرصة ذهبية لا تعوض- أبحث عن شيء ثمين أسألك إياه، بعد يومين قال له: يا ربيعة ماذا حصل معك؟ قال له: يا رسول الله ادعُ الله لي أن أكون رفيقك في الجنة، قال: من علمك هذا؟ قال: والله ما أحد ولكنني نظرت إلى الدنيا فرأيتها فانية وإلى الآخرة فرأيتها باقية، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((أعني على نفسك بكثرة السجود))

[صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي]

ملك قال: لابنه اطلب وتمنى، فقال: له أريد أن أكون مدير الجامعة، فقال له: هذا طلب ليس في يدي، هذا يحتاج إلى دكتوراه، أعني على أن أعطيك هذا المنصب بالدراسة، اطلب من الله أن تكون مع النبي الكريم، الطلب سهل، أيستطيع جندي مجند أن يجلس مع هيئة أركان حرب؟ لو سمحوا له يستحي بنفسه لا يستطيع، هل يتمكن ممرض أن يجلس مع رؤساء أطباء القلب؟ لا يقدر، هل يستطيع موظف آلة كاتبة أن يجلس مع رئاسة مجلس الوزراء؟ لا يقدر.

الحياة مستويات، وأنت أيها المؤمن لو قلت: يا رب اجعلني رفيق النبي بالجنة ولم تكن على خطه وعلى طريقه فهذا الدعاء لا يقبل، أعني على نفسك بكثرة السجود، لاشك أن الله عز وجل لو وفقني فبسببكم ولكنكم لو بقيتم تحضرون الدروس وتبدون التأثر ولا تطبقون هذه الدروس لا بد من أن يأتي يوم تقولون هذا الكلام سمعناه كثيراً، أعينوني بكثرة تطبيق كلام الله عز وجل، بإتقان الصلاة، بذكر الله، بالعبادة الصحيحة، حتى تزدادوا تعلقاً بهذه المجالس، تزدادوا تأثراً بها، حتى يقول الإنسان: والله في كل درس أرقى إلى درجة ما كنت أحلم بها من قبل.

معرفة الله عز وجل تمدنا بنشاط منقطع النظير :

أثناء الامتحان ادخل إلى قاعة الامتحان ترى مئة وخمسين طالباً، أمام كل طالب طاولة ويكتب، المظهر واحد لكن المخبأ مختلف، هذا يكتب غلطاً راسب، وهذا يكتب جواباً لا علاقة له، وهذا يخلط الأجوبة، من كل خمسة طلاب طالب يكتب كتابة صحيحة، هذه الكتابة الصحيحة وراءها عام بكامله من

الدراسة، من شهر أيلول لم يضع ساعة، لم يسهر مع أهله مرة دراسة كاملة خلال مدة تجسدت كتابة في ساعتين بشكل جيد.

حضور مجلس علم شيء سهل، عندما يكون أثناء الأسبوع مشغول بقراءة القرآن، مطبق، يغض بصره، يعامل زوجته بالإحسان، بار بوالديه، ما كذب أثناء الأسبوع كله، ما غش مسلماً، ما خان أحداً، عندما يأتي إلى الدرس يصبح هذا الدرس روضة من رياض الجنة، يقول: والله حصل سرور يساوي ملايين، التعب خلال أسبوع تمثل بتجليات من الله على قلب المستمع. وإذا شغل أثناء الأسبوع بالحياة ولم يطبق شيئاً وحضر مجلس علم يقول لك: الدرس حلو تكلم الأستاذ عدداً من النكت الجميلة وضحكنا والحمد لله، ثم يمل ولا يحضر.

تقول: أنا مشغول عندي موعد، عندنا ضيوف، تعبان، معنى هذا لم تعرف ما عند الله عز وجل، لو لك مع واحد مئتا ألف وقال لك: تعال خذها قبل الآذان بنصف ساعة وأنت صائم ماذا تفعل؟ تشعر بنشاط منقطع النظير، تأخذ سيارة أجرة، وأنت تعد المال هل تنام؟ لو أنك ترى ما عند الله من خير وتخشى ما عنده من عقبات لما فرطت بمجلس علم واحد، يقول لك: حضرت مجالس منذ ثلاثين عاماً ولم أتغيب، دليل اهتمام وصدق لذلك هذه سورة القدر هذه سورة عظيمة وأرجو الله أن تكون في قلوبكم لأن فهمها سهل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البينة 098 - الدرس (1-2) : تفسير الآيات 1 - 7. مقدمة في معاني واصطلاحات قرآنية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-05-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف ببعض المصطلحات القرآنية :

سورة اليوم أيها الأخوة الأكارم هي سورة:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وأجد نفسي قبل الحديث عن معانيها آيَة آية مجبراً على التعريف ببعض المصطلحات القرآنية التي وردت فيها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وهم أهل كتاب مؤمنون بالله، والله سبحانه وتعالى قال:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

فكيف يكون أهل الكتاب كفاراً؟ لأن بعض الناس أو معظم الناس يتوهمون أن الكافر هو الذي ينكر وجود الله عز وجل، ولا يعترف بوجوده، ويؤدي بعض العبادات ليصبح مؤمناً، والله سبحانه وتعالى يقول:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

إذًا هؤلاء عند الله كفار، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

أردت في هذا الدرس أن أوضح معنى الإيمان ومعنى الكفر، معنى الإسلام ومعنى الفسوق، معنى العصيان ومعنى الفجور، معنى الذنب ومعنى السيئة، معنى التقوى ومعنى الإحسان، معنى الدين، هذه المصطلحات التي تكثر في القرآن الكريم، إنها كلمات ذات مدلولات دقيقة ومحددة.

1 ـ الإسلام :

أولا: ما تعريف الإسلام؟ الإسلام تطبيق لأوامر الدين، فإذا لم يطبق أحدنا أوامر الدين بنص كتاب الله فقد نفى الله سبحانه وتعالى عنه الإسلام، قال تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

[سورة الحجرات: 14]

هذا الذي غض بصره، وأدى زكاة ماله، وصام شهره، وصلى فرضه، وتحرى الحق، هذا يسمى مسلماً، فإذا أكل مالاً حراماً، وإذا غش المسلمين، وإذا أطلق بصره إلى الحرام فَقَدَ صفة الإسلام، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

فحيثما وردت كلمة (إسلام) فهي تعني الانقياد والاستسلام لأوامر الله عز وجل، فمن كان منقاداً ومستسلماً لأوامر الله عز وجل فهو مسلم.

الإسلام قناعة و اعتقاد و عمل :

كيف ينقاد الإنسان لأوامر الله عز وجل، ويستسلم له قبل أن يعرفه؟

الحقيقة أنه لا بدّ من أن تسبق الإسلام قناعة فكرية، فمن أين تأتي القناعة؟ من إعمال الفكر، فكل واحد منا إذا أقنعه الطبيب أن بيته في الطابق الثالث يضر قلبه، مع أنه اشتراه، وأسسه، وزينه، واعتنى به، إذا اقتنع أن هذا البيت فيه خطر عليه تراه بمحض اختياره يعرضه للبيع، ويبحث عن بيت يناسب حالته الصحية، متى اتخذ هذا الإنسان خطوات عملية؟ حينما اقتنع.

إذا اقتنع الإنسان أن الدخان يسبب له ورماً خبيثاً في رئته، ويسبب له أزمة قلبية، ويسبب له جلطة مميتة، يقلع عن الدخان إذا ثبت له ذلك، فحينما يقنع الإنسان ينطلق نحو العمل، إذا رأيت إنساناً قاعداً لا ينطلق إلى عمل ما فقناعته مغلقة، إذاً لا بد من إعمال الفكر في أمور الدين، لأن الله سبحانه وتعالى حينما فطر الإنسان فطره فطرةً عالية، ومن خصائص هذه الفطرة أنه يحب نفسه، ويبتغي سلامتها، ويسعى إلى رقيها، وينطلق إلى سعادتها، و يحرص على سلامتها، هذا شيء فطري، فحينما يُقنع الإنسان نفسه، أو حينما تتولد في الإنسان قناعة فكرية أن هذا الدين لمصلحته، إنه مجموعة حدود لسلامته، وليس مجموعة قيود لحريته، كما لو رأيت عموداً كهربائياً كتب عليه: " خطر الموت "، ألا تحس بأن المسؤولين عن الكهرباء أرادوا نصح المواطنين؟ وأرادوا حمايتهم من أخطار الموت؟ وأن

هذه اللوحة ليست حداً لحريتهم إنما ضمان لسلامتهم؟ إذا بلغ المنطق بك أن علمت أن كل أوامر الدين لمصلحتك ولسعادتك الأبدية، ولتحيا حياة مطمئنة، حياة طيبة، عندئذ تنطلق إلى تطبيق أوامر الله عز وجل، فلا بد من قناعة فكرية مبنية على المحاكمة والاستقراء، والمقايسة والموازنة، والمقابلة وفحص الأمور، وتفاضلها، وبيان أسبابها ونتائجها، إذا انطلق الفكر، وتولدت القناعة، عندئذ يستسلم الإنسان لأوامر الله عز وجل، فينقاد، ويخضع لها ويطبقها.

ماذا يقابل القناعة الفكرية عند عامة الناس؟ يقابلها الاعتقاد، ما هو الاعتقاد؟ كل شيء سمعته من الآخرين، فإذا عطل كل شخص فكره، وأرهف أذنه،على أن فلانًا قال كذا، و فلانًا قال كذا، والأب قال كذا، والمعلم قال كذا، والخطيب قال كذا، هذا الذي يأتيك من الآخرين دون بحث وتمحيص، دون مقارنة ودراسة، ودون تفكر وتعمق، دون سبر، هذا الذي يأتيك عفواً، ويترسب في أعماقك، سماه علماء التوحيد الاعتقاد.

إن الناس يعتقدون بوجود الله عز وجل، ولكنهم لا يطيعونه، يعتقدون بأن هناك جنة، ولكنهم لا يعملون لها، يعتقدون بأن هناك ناراً، لكنهم لا يتقونها، يعتقدون بأن هناك حسنات وسيئات، ولكنهم يفعلون السيئات، ويقعدون عن الحسنات.

من خصائص الاعتقاد الخطأ والنسيان والشك :

من خصائص الاعتقاد أنه يتصف بالخطأ والنسيان والشك، قد يكون هذا الذي تعتقده صحيحاً ولكنك شاك في صحته، وقد يكون غلطاً ولكنك لا تعرف أنه غلط، وقد يكون صحيحاً، وعرفت أنه صحيح، ولكنه سرعان ما تنساه، فمن صفات الاعتقاد الشك والخطأ والنسيان.

ومن دراسة الناس، وحضورهم مجالس العلم، وحضورهم خطب الجمعة، واللقاءات، والحفلات، وما يقال فيها من خطب، كوّن بعضهم مجموعة أفكار لم يدقق فيها، ولم يستقص صحتها، لم يقابلها، ولم يمحصها، ولم يدرسها، ولم يتأملها، فكوّن معتَقَداً، فهذا المعتقد يكذب، وهذا المعتقد يغش الناس أحياناً، وهذا المعتقِد يحب الدنيا، وهذا المعتقِد لا يتقرب إلى الله عز وجل، ولا يفعل الصالحات، فالاعتقاد الذي هو متواتر عند عامة الناس يقابله عند المؤمن قناعة فكرية مبنية على البحث، والمدارسة، والتحليل، واستقصاء الأسباب والنتائج.

لاحظ نفسك في أمور الدنيا، حينما تقنع أن هذا السبيل لمصلحتك تنطلق للتطبيق، إذا اقتنعت أن هذا البيت يجب أن يباع تعرضه للبيع فوراً، وإذا اعتقدت أن هذه المصلحة فيها أرباح طائلة تنطلق إليها

فوراً، وإذا اعتقدت أن هذا الخاطب مناسب تسأل عنه، وتبلّغه النتيجة، وحينما تتولد عندك قناعات ثابتة في أمور الدنيا ترَى أنك تنطلق إلى التطبيق فوراً.

إن الإسلام يجب أن تسبقه قناعة فكرية، أيهما أفضل البيع والشراء أم الربا؟ هذا الذي محص وفكر لا يقول لك: أنا أضع مبلغاً ضخماً في المصرف، وآخذ فائدة سنوية تكفيني طوال العام، وأستريح من العمل، لو قنع الإنسان أن العمل هو الخير، وأن الربا هو الشر، لترك الربا، واتجه نحو العمل، هذا الذي يؤثر الربا على العمل ليس عنده قناعة صحيحة بأن الدين حق.

2 - الإيمان :

إذاً عند عامة الناس هناك الاعتقاد الذي يتصف بالشك، والخطأ، والنسيان، وعند المؤمنين هناك القناعة الفكرية التي تتولد في النفس، عندما توازن بين الزواج الذي شرعه الله عز وجل وبين السِفاح تجد فرقًا كبيراً بين النكاح والسِفاح، هذا شرعه الله، وهذا نهى الله عنه، وكذلك الأمر بين البيع والشراء والربا، بين إطلاق البصر وغض البصر، بين الأمانة والخيانة، بين الصدق والكذب، بين ما جاء به الدين وما جاءت به القوانين الوضعية، هذه المقايسة ومرحلة الإقناع الفكري تسبق الإسلام، فإذا صحت استسلم الإنسان لأوامر الله، وانقاد لها، فسمي مسلماً، أما الإيمان فشيء آخر، قال تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

حينما ينقاد الإنسان كلياً لأوامر الله عز وجل صغيرها وكبيرها؛ فيما يتعلق بالعبادات، وفيما يتعلق بالمعاملات، وفي كل أمرٍ أمر الله به، إذا استمر على هذه الحالة يكسب شيئاً اسمه الثقة برضاء الله عنه، هذه حالة نفسية رائعة، وفي الأثر: والثقة كنزي، يحس هذا الإنسان أن الله راضٍ عنه، بإحساسه هذا إذا وقف ليصلي يُقبل على الله، ويتوجه إليه، ويتصل به، فإن صحت هذه الصلة فهذا التوجه هو الإيمان، الإيمان من الأمن، إذا أقبلت على الله شعرت بالأمن، إذا أقبلت على الله شعرت بالطمأنينة، إذا أقبلت على الله شعرت بالسعادة، إذا أقبلت على الله شعرت بسمو نفسي لا يعرفه إلا من ذاقه، إذا أقبلت على الله اتكلت عليه، وفوضت أمرك إليه، واستسلمت لحكمه، وصبرت على مصيبته، إذا عرفت الله سعدت، هذه الوجهة إلى الله هي الإيمان، الإيمان وجهة، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[مسلم عَنْ العَبَّاس بْن عَبْدِ المُطَّلِب]

القناعة الفكرية تفضي إلى الإسلام والإسلام يفضي إلى الإيمان :

الإيمان له طعم لا يعرفه إلا من ذاقه، علامة الإيمان أن تكره أن تعود إلى الكفر كما يكره الرجل أن يلقى في النار، علامة الإيمان أن تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، علامة الإيمان الطمأنينة، الأمن، والأمان، علامة الإيمان أنك من سعداء الدنيا.

إن القناعة الفكرية تفضي إلى الإسلام، والإسلام يفضي إلى الإيمان، لكن المؤمن معرض للنكسة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

[سورة النساء: 137]

من علامات قيام الساعة أن يصبح المرء مؤمناً، ويمسي كافراً، يمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، الإيمان وجهة، فإذا اتجهت إلى امرأة ضاع إيمانك، وضاعت وجهتك، وفقدت سعادتك، وضاعت منك كل مكتسبات الإيمان.

القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإما أن تتوجه إلى الله فتكون من السعداء، وإما أن يتوجه المرء إلى الدنيا فتكون من الأشقياء.

3 ـ الفسق :

نعود إلى القسم الآخر: القناعة الفكرية يقابلها عند الناس اعتقاد، والاستسلام لأمر الله والإسلام يقابله الفسق، اسمعوا إلى بعض الآيات المتعلقة بالفسق قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

[سورة الكهف: 50]

ما معنى فسق عن أمر ربه؟ أيْ خرج، فتعريف الفسق الخروج عن أمر الله، أيّ أمر من أوامر الله إذا خرجت عنه فهذا هو الفسق.

آية ثانية، قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 33]

مسلم فاسق، هذا كلام مضحك، كأن تقول: هذه الغرفة منيرة مظلمة، إما أن تكون منيرة، وإما أن تكون مظلمة، إن كان مسلماً فلا يكون فاسقاً، وإن كان فاسقاً فليس مسلماً، قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 33]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

الفسق والإيمان يتناقضان، الإيمان وجهة، والفسق عقبات أمام هذه الوجهة، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

[سورة البقرة: 99]

الفاسق يوجه الآيات توجيهاً يغطي انحرافاته :

حدث عن آية قرآنية أمام عشرة، الذين يكذبون هذه الآية، أو تفسيرها، أو ما تعنيه، أو دلالتها، هم العصاة الفاسقون، المستقيم يقول لك: صدقت ورب الكعبة، هذا هو الحق، غير المستقيم يقول لك: لا أعتقد أن هذه الآية هذا معناها، يحب أن يوجه الآيات توجيهاً يغطي انحرافاته، فإذا قلت له:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

قال لك: الآية تنهى عن النِّسب المرتفعة في الربا، ولكن النسب المعتدلة لم ينه الله عنها في نص هذه الآية.

4 ـ النفاق و الكفر :

من الذي يرفض الحق؟ الفاسق، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

[سورة البقرة: 99]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

[سورة المائدة: 49]

أكثر الناس فاسقون، يصلون، ويصومون، ويزكون، وهم فاسقون، وفسقهم حجاب، وصلاتهم سراب، وصومهم جوع وعطش، وحجهم سياحة، وأعمالهم مرفوضة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة التوبة: 67]

لو كان مستقيماً لما نافق، ولأنه فاسق ينافق، فالفسق من علامات النفاق، والنفاق من لوازمه الكفر.

الفاسق إنسان خرج عن أمر الله فنسي هدفه في الحياة :

قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

[سورة الحشر: 19]

نسوا الله فأنساهم أنفسهم، لماذا نسوا الله؟

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة الحشر: 19]

لأنهم خرجوا عن أمر الله، خرجوا عن أمره فنسوا الله، فلما نسوا الله نسوا أنفسهم، أي نسوا المهمة التي خلقوا من أجلها، نسوا هدفهم في الحياة.

الفاسق لا يهديه الله عز وجل و يتوعده بالعذاب الأليم :

ثم قال تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الصف: 5]

الفاسق لا يهديه الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يتوعد الفاسقين ويقول:

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 145]

يوجد بلاد دمرها الله، وجعل فيها فتنة لا تنقضي، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 145]

المدن التي ضج فيها الفسق رأينا كيف دمرها الله عز وجل.

الآيات التالية تبين خطورة الفسق :

قال تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

أطاعوه على ضلال، لماذا أطاعوه على ضلال؟ إنهم كانوا قوماً فاسقين، ولأنهم كانوا قوماً فاسقين أطاعوا من استبد بهم، هذه الآيات التي ذكرها الله عز وجل تبين خطورة الفسق، فالأصل الاستقامة، والعبادات تُجدي مع الاستقامة، فإذا انعدمت الاستقامة فلا جدوى لهذه العبادات، ورأيتم قوله تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

هذا هو الفسق، الفسق يقابله الإسلام، الإسلام انقياد، والفسق خروج عن أمر الله، الإسلام مبني على قناعة فكرية، والفسق من ثمار الاعتقاد، وليس القناعة، الاعتقاد قد ينتهي بالفسق، أما القناعة الفكرية فقد تنتهي بالإسلام.

الإيمان و الكفر :

الإيمان وجهة إلى الله، ماذا يقابل الإيمان؟ الكفر، الكفر ليس إنكاراً لوجود الله، هل يشك أحدا في أن إبليس كان كافراً؟ لا يشك أحد، ومع ذلك قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

اعترف بالله رباً، واعترف بعزته ليغوينهم أجمعين، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

والذي دعاني إلى هذا الدرس قوله تعالى:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لهم كنائس، ولهم رجال دين، ولهم صلوات، ولكنهم كفروا بالله، أي لم يلتفتوا إليه، بل التفتوا إلى الدنيا وشهواتها، وغاصوا فيها، وخاضوا في ملذاتها، ولم يعنهم ما إن كانت أعمالهم منطبقة على الشرع أم لا.

الإيمان وجهة إلى الله وطمأنينة وسعادة والكفر خوف و قلق و انحراف :

إذاً الإيمان وجهة إلى الله، وطمأنينة، وسعادة، وسمو، يقابله الكفر، ومع الكفر خوف، قال تعالى:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: 2]

ومع الكفر قلق، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

[سورة طه: 124-125]

مع الكفر قلق، ومع الكفر خوف، و مع الكفر انحراف، و مع الكفر شقاء، الناس رجلان بر تقي كريم على الله، و وفاجر شقي هينٌ على الله.

الفسق يودي بصاحبه إلى الكفر :

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة النور: 55]

ما الذي أفضى به إلى الكفر؟ الفسق، أشياء في منتهى الدقة، إن الاعتقاد ينتهي بصاحبه إلى الفسق، والفسق ينتهي بصاحبه إلى الكفر، والقناعة الفكرية تنتهي بصاحبها إلى الإسلام، والإسلام ينتهي بصاحبه إلى الإيمان، ومع الإيمان خطر، الإيمان ذوق، والإسلام تطبيق، لكن الإيمان إذا تصاعد رسخ، وإذا استمر ينقلب إلى تقوى، والتقوى شيء آخر، كما أن الإسلام شيء والإيمان شيء، فالتقوى شيء ثالث.

5 ـ التقوى :

هناك أكثر من مئتي آية تتحدث عن التقوى، ملخصها هاتان الآيتان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال: 29]

أخطر شيء في الحياة ألاّ تملك رؤية صحيحة، من أين تأتي المشكلات؟ من اتخاذ قرار خاطئ، كأن يغضب الرجلُ فيطلق فيشقى، أو يغضب فيقتل، أو يُغرى فيأخذ ما ليس له، عندها كان أعمى، قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج: 46]

إن أخطر شيء في حياة الإنسان أن يكون أعمى القلب، إن كان أعمى القلب فيتقلب من شقاء إلى شقاء، ومن ورطة إلى ورطة، ومن انحراف إلى آخر، ومن عمل سيئ إلى أسوأ، لأنه أعمى، لكن الإنسان إذا امتلك رؤية صحيحة عندئذ لا يسلك إلا الطريق الصحيح، وإن سلك الطريق الصحيح سعد في الدنيا وفي الآخرة.

إن التقوى هي المرتبة التي فوق الإيمان، والتي يتمتع صاحبها برؤية صحيحة، يرى الخير خيراً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه، يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال: 29]

آية ثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن يخاطب، أنت مؤمن، هناك مرتبة أعلى، أنت مؤمن، ولكن عليك أن تتقي الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن معه كفالتان؛ كفالة في الدنيا وكفالة في الآخرة :

التقوى درجات، يقول الله عز وجل في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أي الوضع الأمثل للتقوى.

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن معه كفالتان: كفالة في الدنيا، وكفالة في الآخرة، أن تتقي الله، أن تسلم، وتؤمن، وتتقي الله.

التقوى رؤية صحيحة فيرى العبد فيها الخير خيراً والشر شراً :

يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة فصلت: 30]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

إنها قناعة فكرية تنتهي بالإسلام، والإسلام الصحيح ينتهي بالإيمان، والإيمان العميق ينتهي بالتقوى، والتقوى لا رجوع بعدها، التقوى رؤية صحيحة، يُقذف نور الله في القلب فيرى العبد الخير خيراً والشر شراً.

الهدف من الصيام أن يبلغ الإنسان مرتبة التقوى :

سبب آخر دعاني لتوضيح هذه المصطلحات هو أننا على أبواب رمضان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

ليس في كتاب الله آية أوضح من هذه الآية، الهدف من الصيام أن تبلغ مرتبة التقوى، أن ترى بنور الله، أن ترى الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً والباطل باطلاً، وإذا رأيت الحق حقاً تتبعه، وإن رأيت الباطل باطلاً تجتنبه، إن رأيت الحق حقاً آمنت به، و إن رأيت الباطل باطلاً كفرت به، هذا هو الهدف. شهر رمضان على الأبواب، والهدف الأكبر منه أن تبلغ التقوى، إن كنت مؤمناً، ونفسك في أخذ ورد، وصراع وعناد، وحالتك في مدافعة التدني، إذا انتهى رمضان وكنت من أهل التقوى فحالتك الرؤية الصحيحة ومتابعة الترقي، وشتان بين الحالتين.

6 ـ الإحسان :

التقوى هي مرتبة بعد الإيمان، وقبل مرتبة أخيرة، وهي الإحسان، جاء سيدنا جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عن الإحسان فقال:

((فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

[مسلم عن عمر بن الخطاب]

إذا بلغت مرتبة الشهود، وكان همك الأوحد الإحسان إلى خلق الله فهذه مرتبة الإحسان، أي الفائدة العملية من مرتبة التقوى، هناك مصطلحات لا بد من تحديدها، عرفنا الاعتقاد، وعرفنا الفسق، وعرفنا

الكفر، الفسق معصية، وخروج عن أمر الله، أما الكفر فإعراض عن الله مع الإيمان به، ومع الإيمان بأنه رب، وبأنه إله، وبأنه عزيز.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

7 ـ الشرك :

شيء آخر هو الشرك، الشرك أن تشرك مع الله أحداً، إما أن تشرك نفسك مع الله:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

وإما أن تشرك الآخرين، في الماضي صنماً، أو رجلاً، أو زوجة، أو تجارةً، أو بيتاً، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

الشرك أن ترجو غير الله، أو أن ترجو مع الله أحداً، هناك شرك في الطاعة، من أطاع مخلوقاً في معصية الله فهو المشرك، وهناك شرك في الوجهة، تتجه إلى الله، وتقبل على غير الله أحياناً، وهناك شرك في النية، تنوي بهذا العمل إرضاء زيد أو عبيد، هذا شرك في النية، وهناك شرك في الوجهة، وهناك شرك في الطاعة، وهناك شرك في المحبة، هذه أربعة أنواع للشرك.

آيات الشرك :

أما المشرك فاستمعوا يا أخوة الإيمان إلى آيات الشرك، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

إذا شرب أحد الخمر يقول الناس عنه: يا لطيف، لقد شرب الخمر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

لأنه وضع الثقة في غير محلها، وضع أمله في إنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف: 110]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الزمر: 13]

إن كان النبي عليه الصلاة والسلام هكذا يقول عن نفسه فما بالك بإنسان دون النبي تضع فيه كل ثقتك؟

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

إذا ظن الإنسان أن زوجته تسعده فقد أشركها مع الله عز وجل، ووضع في هذا الإنسان كل ثقته.

من اتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً حبط عمله و خاب ظنه :

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: 116]

إذا كان أحد الأشخاص يمشي في طريق، ودخل في فرع من فروع الطريق، وسار في هذا الفرع خمسمئة كيلومتر، واكتشف بعد ذلك أنه في غير الطريق المرجو، هذا ضلال بعيد، وثمة ضلال مبين، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: 116]

أي اتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً، ووضع فيه كل ثقته، فخاب ظنه، وحبط عمله، ورآه لا شيء، لذلك الله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 72]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

من يظن أن الأمر بيد فلان أو علان فقد ضلّ ضلالاً بعيداً :

بيده الأمر، لا شريك مع الله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده زمام كل شيء، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

[سورة الحج: 31]

عندما يشرك الإنسان فكأنه هوى من السماء إلى الأرض.

(يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

دخلت إلى دائرة لتوقع معاملة، وتوهمت أن الذي يجب أن يوقعها لك هو هذا المستخدم، ووقفتَ على بابه ساعات، ثم فوجئتَ أن هذا المستخدم ليس بيده شيء، لكن الأمر بيد فلان، حينما تظن أن الأمر بيد فلان فقد ضللت ضلالا بعيداً.

(يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

من أطاع غير الله فقد أشرك :

والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

ليسوا نجسين، ولكنهم نَجَس، لأن النجِس يطهر، أما النجَس فهو النجاسة، فهو عين النجاسة.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

إنّ معظم من يدّعي الإيمان هم مشركون، إذا رجوت غير الله، وإذا أحببت غير الله، وإذا خفت من غير الله، وإذا أطعت غير الله، وإذا علقت أملاً على غير الله فقد أشركتَ.

في الأثر: " ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً"، إنه شيء خطير جداً أن يكون الإنسان مشركاً، قد يصلي وهو مشرك، يصوم رمضان وهو مشرك، يحج البيت وهو مشرك، لقوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

إن أشركت هواك مع الشرع فهذا شرك، الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على معصية، إذا أحببت رجلاً عاصياً لله فهذا نوع من أنواع الشرك.

((إنَّ أخْوفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلى أمَّتِي الْإشْرَاكُ باللَّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قمَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجه عن شدادا بن أوس]

هذا هو الشرك، وعلاجه التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

التوحيد علاج الشرك :

إن أحد أسباب العذاب النفسي، والألم، والضيق، والقلق، والحقد، والبغضاء، الإشراكُ بالله عز وجل، فاجعل الهموم همَّاً واحداً يكفك الهموم كلها.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ* إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

فالشرك علاجه التوحيد.

(فَاعْلَمْ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

اعلم وليس قُلْ.

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قالوا: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال]

لا إله إلا الله، لا يسبقها عمل ولا تترك ذنباً، لا إله إلا الله حصن من دخله أمن من عذاب الله، لا إله إلا الله كلمة التوحيد.

((أفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأفْضَلُ مَا قُلْتُ أنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))

[مالك عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ]

(وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

ملخص القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، والشرك يقابله التوحيد.

8 ـ المعصية و الفجور :

شيء آخر: كل خروج عن أمر الله يسمى معصية، وقد يكون العاصي مُصراًّ عليها، وقد يكون مغلوباً على أمره، إن كان هذا العاصي متباهياً بمعصيته فهذا هو الفجور، الفجور أن تعصي الله جهراً.

إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا.

الفجور أن تعصي الله جهراً، والمعصية مخالفة لأمر الله، قد يكون صاحبها متألماً هذا يرجى له التوبة.

رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

9 ـ الإلحاد :

إذاً: هناك فجور ومعصية، أما الذي ينكر وجود الله فهذا لا يسمى كافراً، هذا يسمى ملحداً.

والإلحاد على أنواع: إلحاد في الذات، وإلحاد في الأسماء، وإلحاد في الآيات، إذا أنكرت رحمته إذا قلت: هناك مجاعات في إفريقيا فأين رحمة الله؟ هذا إلحاد بأسمائه، وإلحاد برحمته، إذا قلت: قد يطيع العبد ربه طوال حياته، ثم يضعه في جهنم، وقد يعصيه طوال حياته، ثم يضعه في الجنة، لأنه لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، هذا إلحاد في أسمائه، وإلحاد في عدالته، الإلحاد في الذات أن تنكر وجوده، والإلحاد في الأسماء أن تنكر أسماءه الحسنى.

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

[سورة الإسراء: 110]

بقي شيء:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

[سورة فصلت: 40]

إذا أنكرت عظمة الشمس فهذا إلحاد في الآيات، وهو نوع ثالث من الإلحاد، هناك إلحاد في الذات، إذا أنكرت وجوده، وهناك إلحاد في الأسماء، إذا أنكرت رحمته، أو أنكرت عدالته، أو قلت: إن الله لن ينصر المؤمنين، الله عز وجل قد قوى الباطل، وسيبقيه إلى الأبد، هذا إنكار لأسمائه.

الإلحاد إما أن يكون إنكاراً للذات، إنكاراً للوجود، وإما أن يكون إنكاراً للأسماء، وإما أن يكون إنكاراً للآيات.

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

[سورة فصلت: 40]

هذا هو الإلحاد، وهذا هو الشرك، وهذه هي المعصية، وهذا هو الفجور.

في رمضان: من أفطر في رمضان في الطريق هذا لا يسمى عاصياً أو فاسقاً، هذا يسمى فاجراً، لأنه جاهر بالمعصية.

10 - الذنب :

بقي علينا الذنب، الذنب شيء علق بالنفس، شهوة من شهوات الدنيا علقت بها، أحبَ مالاً حراماً، أو أحبَ الزنى، أو يحبُ الغناء، هذه كلها ذنوب، معنى المغفرة أن يشفيك الله من هذه الذنوب، إذا أقبلت عليه غفر لك، أما المعنى الساذج عند عامة الناس أن الإنسان له ذنوب، والله عز وجل إذا شاء غفرها له، ما معنى غفرها له؟ أي محاها عن اسمه، هي أمراض.

مثلا: هناك مريض معه قرحة في المعدة، والطبيب كتب: فلان معه قرحة في المعدة، هل شفاء هذا المرض يكون بمحو كلمة قرحة عند صفحة الطبيب؟ الآلام قائمة، إذا محوت كلمة قرحة في دفتر الطبيب تبقى القرحة قرحةً، أما إذا جاءها الدواء الناجع، وشفي منها فهذه هي المغفرة.

المغفرة شفاء النفس من الذنوب، ومما علق بها، الذنوب تغفر بالإقبال على الله عز وجل، أما السيئات فتكفّر.

إنّ إنساناً عمل سيئات، وتاب إلى الله توبة نصوحاً، وأحب الله، لكن هذه الذاكرة فيها ذكرى السيئات، إن الذكرى وحدها تعذب صاحبها، لذلك هذا الذي له جاهلية، ثم آمن، وطهرت نفسه، وسمت، ونضجت، إذا مات يفنى جسده، لماذا يفنى جسده؟ كي يُكفر الله عنه سيئاته، لأن هذه السيئات عالقة في الذاكرة، كل منا إن كانت له قبل التوبة جاهلية يذكرها، فإذا خطرت هذه الجاهلية على خاطره تراه يذوب خجلاً.

هذا عن الذنب، والذنب يغفر، والسيئة تُكفر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التحريم: 8]

11 - الدّين :

بقي الحديث عن الدين، ما تعريف الدين؟ هو الشيء الذي تدين إليه، مثال مبسط: لو قلت لكم: لو قال معلم في صف من الصفوف: اثنان زائد اثنان يساوي خمسة، هل يسكت الطلاب؟ يضجون، وإن كانوا مهذبين يرفعون أصابعهم، ويقولون: أخطأت يا أستاذ، اثنان زائد اثنان يساوي أربعة، النفس لا تخضع إلا للحق، فالشيء الذي سمعته خضعت له هذا هو الدين.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

الحق واحد، أيّ إنسان منصف إذا سمع الحق يخضع له، وإنما جاء الدين ليبين لك طريقة استعمال كل شيء.

الدنيا فيها شهوات، فيها نساء، وفيها مال، وفيها متع رخيصة، فالدين يقول لك: تزوج ودع الزنى، اعمل في عمل شريف ودع أكل الربا، ودع الرشوة، ودع السرقة، فكأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملاً، وتبركوا في قراءته، وعصوا فحواه:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ]

إذًا الدين هو الشيء الذي تخضع له، فإن سمعت قصة تظهر أن الله عز وجل ليس عادلاً، نفسك لا تدين لهذه القصة، إذا سمعت أن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى زينب بثياب متبذلة فأحبها، فقال: سبحان الله! هذا مستوى النبي عليه الصلاة والسلام؟ نفسك لا تخضع لذلك، لا تنقاد لذلك، إذًا لا تدين لذلك.

الدين هو الخضوع والنفس لا تخضع إلا للحق :

الدين هو الخضوع، والنفس لا تخضع إلا للحق، فإذا سمعت الباطل نفرت منه وأبته، إما أن تأباه باللسان، وإما أن تأباه بالقلب، قد يأبى الإنسان هذه القصة بلسانه، وقد يسكت، وقد يجاملك، ويأباها بقلبه، ليس من بين الصحابة وهم أغنياء جداً- بعضهم غني كسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا عثمان بن عفان وسيدنا سعد- ليس من بين هؤلاء الأصحاب المحبين الذين قدموا للنبي أرواحهم أحد يقرض النبي عليه الصلاة والسلام إلا يهودي يقرضه، ويماطل النبي في أداء المبلغ، ثم يلتقي به في الطريق، ويمسكه من ثيابه، ويهزه هزاً عنيفاً، هذه القصة ليست من الدين لأن النفس تأباها.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

فالدين شيء ثانٍ، الدين منطق، وعقل، وأشياء صحيحة يقبلها العقل والمنطق، و ترتاح لها النفس، ولكن في الدين أشياء ليست منه، دخيلة عليه، دسها بعض الزنادقة ، لذلك النفس تأباها، فإذا أبتها ظننت أن الدين كذلك، الدين ما تخضع له النفس، قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

علامة أهل الحق أنهم يدعون إلى الله على بصيرة، إذًا أية قصة لا تؤكد عدالة الله عز وجل أو أسماءه الحسنى أو عصمة الأنبياء فليست من الدين في شيء، هذا هو الدين.

معرفة المصطلحات العلمية جزء من المعرفة العلمية :

هذا العرض السريع لبعض المصطلحات القرآنية من إسلام، وإيمان، وتقوى، وإحسان، ومن اعتقاد، وكفر، وإلحاد، وفسق، وشرك، ومعصية، وفجور، هذه المصطلحات تعيننا على فهم هذه السورة التي سوف نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ*رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ* وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ*وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

بقي علينا الحديث عن العبادة، والطاعة، وعن الحمد والشكر، وعن المخلِص والمخلص، وعن العلم والمعرفة، وعن العقل والفكر، وعن النعمة والنعمة، وعن النفس والروح والجسد، وعن الخالق والرب والإله، هذه بعض المصطلحات التي ترد في كتاب الله.

يقولون: معرفة المصطلحات العلمية جزء من المعرفة العلمية، هذه الكلمات يكثر ورودها في القرآن الكريم، فإذا عرفت حدودها الدقيقة، وماذا تعني، فهمت الآيات، أما إذا كنت تحسب أن الكافر هو الذي ينكر وجود الله فكيف يقول الله عز وجل:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لهم كنائس، لهم رجال دين، لهم صلوات، فهناك تلاوات يتلونها، الحقيقة أن الكفر له معنى، والإلحاد له معنى، والإيمان له معنى، والفسق، والإسلام، والتقوى، والإحسان، والمعصية، والفجور، والشرك، والتوحيد، وكل هذه المصطلحات إن شاء الله عز وجل نتابعها في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البينة 098 - الدرس (2-2) : تفسير الآيات 1 – 7 ، قصة إسلام عبد الله بن سلام و بشارة النبي له بالجنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-05-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة بين يدي سورة :

قصة قصيرة بين يدي سورة:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

هذه السورة تلقي عليها قصتنا ضوءاً كاشفاً، الحصين بن سلام كان حبراً من أحبار اليهود، وكان أهل المدينة على اختلاف مللهم ونحلهم يجلونه، ويعظمونه، فقد كان معروفاً بين الناس بالتقى والصلاح، موصوفاً بالاستقامة والصدق، وكان كلما قرأ التوراة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة يتمم رسالات الأنبياء السابقين ويختمها، وكان يستقصي أوصاف النبي عليه الصلاة والسلام وعلاماته، ويهتز فرحاً، لأنه سيهجر بلده الذي بعث فيه، وسيتخذ من يثرب مهجراً له ومقاماً.

يقول الحصين بن سلام وهو يروي قصته بنفسه: << لما سمعت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت أتحرى عن اسمه، وعن نسبه، وصفاته، وزمانه، ومكانه، وأطابق بينها وبين ما هو مذكور عندنا في الكتب، حتى استيقنت من نبوته، وتثبت من صدق دعوته، ثم كتمت ذلك عن اليهود، وعقلت لساني عن التكلم فيه، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه النبي صلوات الله وسلامه عليه من مكة قاصداً المدينة، فعندما بلغ يثرب، ونزل بقباء، أقبل رجل علينا من اليهود، وجعل ينادي في الناس معلناً قدومه، وكنت ساعتئذ في رأس نخلة أعمل فيها، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة، فما إن سمعت الخبر حتى هتفت: الله أكبر، الله أكبر، فقالت لي عمتي حينما سمعت تكبيري: خيّبك الله، والله لو سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك، فقلت لها: إنه والله أخو موسى، وعلى دينه، وقد بعث بما بعث به، فسكتت، وقالت: أهو النبي الذي كنتم تخبروننا أنه يبعث مصدقاً لمن قبله ومتمماً لرسالات ربه؟ فقلت: نعم، فقالت: فذلك إذا، ثم مضيت من توّي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت الناس يزدحمون ببابه، فزاحمتهم حتى أصبحت قريباً منه، فكان أول ما سمعته من قوله: أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام، فجعلت أتفرس فيه، وأتملى منه، فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فيه صدق، ثم دنوت منه، وشهدت أنه لا إله إلا الله و أنه رسول الله، فالتفت إلي، وقال: ما اسمك؟ فقلت: الحصين بن سلام، فقال: بل عبد الله بن سلام، فقلت:

نعم عبد الله بن سلام، والذي بعثك بالحق، ما أحب أن لي به اسماً آخر بعد اليوم، هذا هو اسمي، ثم انصرفت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي، ودعوت زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً، وأسلمت معهم عمتي خالدة، هذه التي قالت قبل قليل: خيبك الله، وكانت شيخة كبيرة، ثم إني قلت لهم: اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم، فقالوا: نعم، ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإني أحب أن تدعو وجوههم إليك- أي زعماءهم- وأن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فإنهم إن علموا أنني أسلمت عابوني، ورموني لكل ناقصة، وبهتوني، فأدخلني النبي عليه الصلاة والسلام في بعض حجراته، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره، فجعلوا يجادلونه بالباطل، ويمارونه في الحق، وأنا أسمع، فلما يئس من إيمانهم قال لهم: ما منزلة الحصين بن سلام فيكم؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا، فقال: أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون؟ قالوا: حاشا لله، ما كان أن يسلم، أعاذه الله من أن يسلم، فخرجت إليهم وقلت: يا معشر اليهود، اتقوا الله، وأقبلوا على ما جاءكم به محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، وإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدقه، وأعرفه، فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، و جاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أقل لك يا رسول الله: إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإنهم أهل غدر و فجور على من يعرفهم.

بشارة النبي الكريم لعبد الله بن سلام بالجنة :

أقبل عبد الله على الإسلام إقبال الظامئ الذي شاقه المورد، وأولع بالقرآن، فكان لسانه لا يفتأ رطباً بآياته البينات، وتعلق بالنبي صلوات الله عليه حتى غدا ألزم من ظله، ونذر نفسه للعمل للجنة حتى بشره بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بشره بها بشارة ذاعت بين الصحابة الكرام وشاعت، وكان لهذه البشارة قصة رواها قيس بن عبادة.

قال الراوي: كنت جالساً في حلقة من حلقات العلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان في الحلقة شيخ تأنس به النفس، ويستريح به القلب، فجعل يحدث الناس حديثاً حلواً مؤثراً، فلما قام قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو عبد الله بن سلام، فقلت في نفسي: والله لأتبعنه، فتبعته، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فقال: ما حاجتك يا بن أخي؟ فقلت: سمعت القوم يقولون عنك لما

خرجت من المسجد: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فمضيت في إثرك لأقف على خبرك، لأعلم كيف عرف الناس أنك من أهل الجنة، فقال: الله أعلم بأهل الجنة يا بني، فقلت: نعم، ولكن لابدّ لما قالوه من سبب، فقال: سأحدثك عن سببه، فقلت: هاتِه وجزاك الله خيراً، قال: بينما وأنا نائم ذات ليلة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني رجل فقال لي: قم، فقمت، فأخذ بيدي، فإذا أنا بطريق عن شمالي، فهممت أن أسلك فيها، فقال لي: دعها، فإنها ليست لك، فنظرت فإذا أنا بطريق واضحة عن يميني، فقال لي: اسلكها، فسلكتها حتى أتيت روضة غناء، واسعة الأرجاء، كثيرة الخضرة، رائعة النضرة، في وسطها عامود من حديد، أصله في الأرض، ونهايته في السماء، وفي أعلاه حلقة من ذهب، فقال لي: ارفعْ عليه، فقلت له: لا أستطيع، فجاءني وصيف فرفعني، فرقيت حتى صرت في أعلى العامود، وأخذت بالحلقة بيدي كلتيهما، وبقيت متعلقاً بها حتى أصبحت، فلما كانت الغداة أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصصت عليه رؤياي، فقال: أما الطريق التي رأيتها عن شمالك فهي طريق أصحاب الشمال.

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[سورة الواقعة: 41]

وأما الطريق التي رأيتها عن يمينك فهي طريق أصحاب اليمين من أهل الجنة.

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[سورة الواقعة: 41]

وأما الروضة التي شاقتك بخضرتها ونضرتها فهي الإسلام، وأمّا العمود الذي في وسطها فهو عامود الدين، وأما الحلقة التي في آخره فهي العروة الوثقى، ولم تزل مستمسكاً بها حتى تموت، قال ربنا عز وجل:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

تفسير البينة ومعناها :

ما هي البينة وما تفسيرها؟ الله سبحانه وتعالى فسرها فقال:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً *فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

فالمفسرون لهم في هذه الآية مذاهب عدة، مذهبهم الأول: أن كلمة:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

بمعنى منتهين عن كفرهم، أو تاركين كفرهم، لم يكن الذين كفروا، من هم الذين كفروا؟ من أهل الكتاب اليهود والنصارى والمشركين، أهل مكة، عبدة الأوثان، وبعضهم قال: والمشركين من أهل الكتاب، لأن اليهود قالت: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وهم مشركون.

على كلٍّ الذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون هم أهل مكة عبدة الأوثان، لم يكن هؤلاء اليهود والنصارى ولا هؤلاء كفار مكة منفكين، بمعنى تاركين كفرهم بمحمد، أو بالدين، أو بالوحدانية، حتى تأتيهم البينة، وتفسير البينة:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

كتاب الله الكريم كتاب طاهر :

النبي صلى الله عليه وسلم حينما جاءهم بَهَرَهم بأخلاقه العلية، بَهَرَهم بمنطقه، بَهَرَهم باستقامته، بَهَرَهم بكماله وخلقه العظيم، فكان النبي صلى الله عيه وسلم بينة لهم على صدقه، وعلى صدق دعوته، لكن النبي صلى الله عليه وسلم هو بينة بأخلاقه واستقامته، وطهره وعفافه، وإحسانه وكرم أخلاقه، ويتلو صحفاً مطهرة، هي بينة أيضاً، وهو القرآن الكريم، سماها ربنا صحفاً مطهرة أي مطهرة من الضلال، ومطهرة من الكذب، ومطهرة من الزيف، ومطهرة من الانحراف، ومطهرة من التناقض، ومطهرة من الخلل، مطهرة من الهوى، ومطهرة من كل ما يشوب كلام البشر، هل يوصف الكلام بأنه طاهر؟ نعم.

قد يؤلف الإنسان قصة قذرة، فإذا قرأها الإنسان ثار كالثور، هذه قصة قذرة، قد يؤلف الإنسان مقالة تدعو إلى الاختلاط، فإذا حدث هذا الاختلاط اختلطت معها الأنساب، كهذا ابن فلان، وهو لا يدري، وهذا ابن فلان، وهو لا يدري، فهل يوصف الكلام بأنه قذر؟ نعم يوصف بأنه قذر، وبأنه نجس، لكن كتاب الله الكريم وصفه الله عز وجل بأنه طاهر:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً *فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

الكتب و الصحف :

ما هي الكتب؟ صحف فيها كتب، أم كتب فيها صحف؟ الأولى أن يقال: كتب فيها صحف، ولكن القرآن صحف فيها كتب، والكتب هي موضوعات، هناك موضوعات في التوحيد، فاعلم أن لا إله إلا الله، وهناك موضوعات في التاريخ، قال تعالى:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

هناك موضوعات في الحكم، هناك موضوعات في المثل، هناك موضوعات في الحقائق الثابتة كأنها قواعد، هناك موضوعات في آيات كونية، هناك موضوعات في أخبار الأولين، هناك موضوعات في آيات منتزعة من واقعنا، موضوعات القرآن كثيرة، ففيه أمر ونهي، وحكمة، وفيه مثل وتاريخ، وفيه آية كونية، وفيه آية تعيشها.

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

هذا موضوع، والكتب أيضاً كتاب الطلاق، وكتاب المواريث، وكتاب معاملة الزوجة، والحقوق الزوجية، ولو تصفحت القرآن الكريم لوجدته منطوياً على كتب، فربنا سبحانه وتعالى وصف كتابه الكريم بأنه مطهر من الزيغ، فيه كتب قيمة، معنى قيمة أي: مستقيمة، لا عوج فيها، وقد وصف الكفار الله سبحانه وتعالى فقال:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأعراف : 45]

الأمور عوجاء، وأيّ تشريع أرضي فيه عوج، لأنه يحقق مصالح أناس على حساب أناس، لكن كتب القرآن الكريم كتب قيمة لا عوج فيها ولا زيغ.

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

كل إنسان له موقف و الرابح من وقف موقف المؤيد للحق :

حينما جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقف الكفار والذين أوتوا الكتاب مواقف عدة، وكل إنسان حينما يبلغه أمر ما يأخذ موقفاً منه، فإما أنه موقف مؤيد، أو له موقف معارض، أو موقف حيادي، والموقف هو اتجاه وفق جهة معينة، ثم الشروع بالحركة، فإذا رأى الإنسان عدواً فإنه يأخذ موقف المدافع، وقد يأخذ موقف المهاجم، وإن رأى صديقاً أخذ موقف الصديق، أو المصافحة والدعوة، فكل إنسان له موقف، قد يأتي الإنسان بحديث، فإما أن تصدقه، وهذا موقف، وإما أن تكذبه وهذا موقف آخر.

سيدنا عبد الله بن سلام أخذ موقفاً، فسعِد بهذا الموقف إلى أبد الآبدين، وأحبار اليهود وهم يعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام نبي أخذوا موقف المعاند، فشقوا بهذا الموقف إلى أبد الآبدين.

وأنت أيها الأخ الكريم، إذا عرض عليك الحق فإما أن تأخذ موقف المؤيد المستمسك، وإما أن تأخذ موقف المعارض الجاحد، وإما أن تأخذ موقف اللامبالي المستهتر، وموقف من هذه المواقف يسعدك إلى الأبد، وموقف آخر يشقي صاحبه إلى الأبد، والحياة كلها مواقف.

قيل عن السيدة عائشة رضي الله عنها: إنها زنت، فأخذ أناس موقف التكذيب من هذا الافتراء، فسعدوا بهذا الموقف إلى الأبد، وأخذ أناس موقف التصديق والشماتة والفرح، فشقوا بهذا الموقف إلى الأبد.

سيدنا الصديق أخذ موقف التصديق حينما بلغه أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أسري به، وعرج به إلى السماء، فسعد بهذا الموقف إلى أبد الآبدين، بينما أبو جهل وأبو لهب أخذوا موقفاً آخر، ونحن في كل عصر لابد لكل واحد منا من موقف إذا عرض عليك الحق، فإما أن تأخذ موقف المؤيد، وإما أن تأخذ موقف المتشكك، وإما أن تقف موقف المعارض المعاند، فهنيئاً لمن وقف موقف المؤيد.

معنى الإكراه وضابطه :

حينما ضاقت على النبي عليه الصلاة والسلام السبل، وحينما ضيق عليه الأحزاب من كل جانب، واجتمعوا لاستئصاله، ونقض اليهود عهدهم ربنا عز وجل قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: 23]

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[سورة الأحزاب: 12]

ظهر كذبهم، إن الحياة كلها امتحانات، قد يضغط على الزوجة أن تسفر، إما أن تقف موقفاً صلباً فتقول لزوجها: طلقني، ولا أسفر، وإما أن تقف موقفاً متساهلاً فتسفر، ثم يطلقها زوجها لسبب آخر. قد يضغط عليك أن تفعل منكراً، فتقول: إني أخاف الله رب العالمين، هذا موقف مسعد إلى الأبد، وقد ترضخ، وتقول: إني لا أستطيع، أنا مكره، لكن ما معنى مكره؟

اتفق الفقهاء الذي يبيح للمرء معه مخالفة الشرع الخوف على الحياة، أو الخوف على أحد أعضائه، فإنْ أكره الإنسان تحت خطر أن يموت، أو أن يفقد أحد أعضائه أن يقول كلاماً لا يرضي الله، فإن قاله فلا تثريب عليه، لأنه تحت وطأة فقدِ حياته، أو فقدِ أحد أعضائه، هذه هي الضرورات التي تبيح المحظورات.

الضرورات تبيح المحظورات :

أما الناس فقد توسعوا في فهم هذه الحقيقة، فجعلوا حياءهم ضرورة، وجعلوا مشقتهم من الصيام ضرورة، يقول لك: عندي امتحان، فهل أفطر؟ قال الله عز وجل:

(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 184]

من لا يطيق الصيام مع السفر والمرض وأفطر فليس عليه إلا القضاء، لكن من أطاق الصيام في السفر أو في المرض وأفطر فعليه فدية وقضاء، قال تعالى:

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 184]

فكلمة: الضرورات تبيح المحظورات هذه كلمة خطيرة جداً، وقد توسع فيها الناس حتى تفلتوا من قواعد الشرع تحت اسم الضرورة، الضرورة هي: فقد الحياة أو فقد أحد الأعضاء، هذه هي الضرورة التي تبيح المحظور، لذلك:

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

سعادة من آمن وشقاء من كفر :

لما جاء النبي عليه الصلاة والسلام أناس صدقوا رسالته، وآمنوا به فسعدوا، وأناس رفضوا فشقوا، أين أبو لهب؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

أين أمية بن خلف، أين سيدنا الصديق؟

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

(فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ)

[سورة الشورى: 22]

أين سيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي؟ في الجنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

وأنت الآن تسمع الحق، فإما أن تؤمن به، وتصدق به، وتعمل به، فأنت من أهل الجنة، وإما أن تقول: هذا كلام سمعنا به كثيراً، والحياة صعوبات وضرورات، والحياة الواقعية خلاف هذا الكلام، وهناك تيار عام، وعلينا أن نمشي فيه، مثلُ هذا الكلام الشيطاني إذا تبنّيته ربما قاد صاحبه إلى النار.

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

معنى مُنْفكِّين حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ:

1 ـ الانفكاك هنا بمعنى الترك :

مما يروى عن هذه السورة حديثٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ:

((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ:]لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا [، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبَكَى))

[متفق عليه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

كاد يصعق، من؟ أنا، من أنا يا رسول الله حتى يأمرك الله وأنت رسوله وحبيبه أن تقرأ علي هذه السورة؟ استنبط العلماء من هذه القصة أن القراءة نوعان: قراءة مدارسة وقراءة فحص، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرأ على أبّي هذه السورة من قبيل التواضع لمن تعلم، تواضعوا لمن تعلمون، على كلٍّ الانفكاك هنا بمعنى الترك، هذا هو المعنى الأول.

2 ـ لن يبلغ الإنسان نهاية عمره حتى تأتيه البينة :

والمعنى الثاني.

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

أي لن يبلغوا نهاية أعمالهم حتى تأتيهم البينة، فلن يبلغوا نهاية عمرهم حتى تأتيهم البينة، وهذا يعني أن الله رحيم بالكفار، قال تعالى:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

[سورة النازعات: 17-19]

3 ـ مهلكين حتى تأتيهم البينة :

والمعنى الثالث:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

بمعنى مهلكين حتى تأتيهم البينة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يهلك إنساناً حتى يعرّفه بالحق، إن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب لا يتركون صفة النبي عليه الصلاة والسلام حتى يأتيهم، قبل أن يأتيهم كانوا معتقدين به، فلما جاءهم كفروا به، وهكذا قال الله عز وجل:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة:89]

قبل أن يبعث كانوا يذكرونه للناس، سيبعث نبي صفته كذا وكذا، فلما بعث كفرتم به، سبحان الله **!!** هذا هو المعنى الثالث.

4 ـ تشبث الكفار بكفرهم :

المعنى الرابع وقد ذكره بعض المفسرين: أن يا محمد، هؤلاء الذين قالوا: إن عيسى ابن الله متشبثون بكفرهم، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة المائدة:17]

ظهور سيدنا المسيح من علامات قيام الساعة :

هؤلاء لم يتركوا كفرهم حتى يظهر المسيح نفسه في آخر الزمان، ويقول لهم: أأنا قلت لكم إني ابن الله؟

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[سورة المائدة:116]

لذلك هناك أحاديث كثيرة تبشر بظهور سيدنا عيسى عليه السلام، وقد قال الله عز وجل:

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

[سورة الزخرف:61]

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

[سورة النساء:159]

إن ظهور سيدنا المسيح من علامات قيام الساعة، فمن أهل الكتاب يؤمن به نبياً لا إلهاً قبل موته، وبعض التفاسير تقول: رسول من الله يعني سيدنا عيسى.

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ*رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

5 ـ البينة هي سيدنا عيسى :

البينة هي سيدنا عيسى، ومتى يبعث هذا النبي الكريم؟ عندما تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيأتي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

فعلى التفسير الأخير البينة هي سيدنا عيسى، وأهل الكتاب أصبحوا يهوداً ونصارى بعد أن جاء سيدنا عيسى.

الخلافات بين الأديان والفرق والملل والنحل من صنع البشر المنحرفين :

هذه الخلافات بين الأديان والفرق والملل والنحل ما أرادها الله عز وجل أبداً، هي من صنع البشر المنحرفين، وهذه العداوات وهذا الحقد بين أهل الأديان و الملل والفرق ما أرادها الله عز وجل، إنها من صنع الشيطان، كلها خلافات ما أنزل الله بها من سلطان، إنها من صنع البشر المغرضين، والدليل قوله تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

العبادة تسبقها معرفة بالله وتنتهي بسعادة كبرى :

هذا هو الدين الصحيح، العبادة، والعبادة طاعة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، أن تقول: العبادة هي السعادة غلط، العبادة تسبقها معرفة بالله، وتنتهي بسعادة كبرى، لذلك قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الحج: 77]

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين، ليعرفوا الله فيطيعوه، فيسعدوا بقربهم له، وهذا يحتاج إلى إخلاص، لذلك: يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل، أخلص دينك.

وفي الأثر: يا عبد الله بن عمر، دينَك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذي مالوا، كل هذه الخلافات ما أنزل الله بها من سلطان، عد إلى ينابيع الدين الأولى، هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عد إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، أو ما صحّ منها، فهي النبع العذب الفرات، ودع الخرافات والأقاويل والترهات التي ابتدعها أهل العصر، لقد أصبح الدين في هذا العصر مستنقعاً آسناً، وأصله نبع صافٍ، عد إلى النبع.

قال سيدنا عمر لبدوي: يا بدوي! بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، فقال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها: إنها ماتت، أو أكلها الذئب، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، فقال هذا البدوي الراعي: والله إنني لفي أشد الحاجة لثمنها، ولو قلت له: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟ هذا هو الدين كله، اليوم يحضر دروس الفقه، والتجويد، والمواريث، والحديث، ويأكل مالاً حراماً، ليس هذا هو الدين، رأس الدين هو النصيحة، ورأس الدين الورع:

((وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

والله لترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة من بعد الإسلام.

قم فصلّ فإنك لم تصل، من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة.

على الإنسان الخضوع لله في كل الأمور :

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين- عبادة لله خالصة لا زيف فيها، ولا رياء، ولا نفاق، ولا خلل- له الدين حنفاء، له الدين أي له الخضوع في كل الأمور، حنفاء أي مائلون عن غيره إليه، مائلون عن الباطل إلى الحق، عن الشهوات إلى الطاعات، عن المحرمات إلى القربات، عن أهل الدنيا إلى أهل الآخرة، عن أهل المتع إلى أهل العلم، عن الوحول إلى الزهور.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

الصلاة تقام، ولها دعائم، من دعائمها الاستقامة، ومن دعائمها العمل الصالح، ومن دعائمها معرفة الله عز وجل، قال تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 177]

وأقام الصلاة وآتى الزكاة.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

الإسلام خلق و قيم و انضباط و أمانة :

الأديان في هذا الزمان تشبه محلات تجارية، لافتاتها براقة، والبضاعة خاوية، ما نفع اختلاف اللافتات؟ أين البضاعة؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 62]

كلهم عند الله سيان، كن واعياً لحقيقة الدين، عازماً لله، مستقيماً على أمره، محسناً للخلق، هذا هو الدين، ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل، وذلك دين القيمة، الدين الصحيح، لو أن الناس فهموا الدين هكذا لعمّ الدين أهل الأرض، لو كان المسلمون في أوربا فقط مسلمين حقاً لعمّ الدين أهل أوربا كاملاً، لو كان المسلمون في كل زمان مسلمين حقاً لما بقي غيرهم على غير ملتهم.

لأن الإسلام شيء عظيم؛ خلق، قيم، انضباط، أمانة، نزاهة، عفة، مروءة، استقامة، ورع، من منا لا يحب أن يكون مثل هذا الإنسان؟ فالمسلم داعية بعمله، لو كان أبكم لهدى الناس بعمله.

الإنسان إما أن يكون فوق الملائكة أو دون الحيوان :

ثم قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

شر البرية أي شر ما برأ الله وخلق، إن الإنسان ركّب من شهوة وعقل، وركب الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسانُ من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

لا يوجد حل وسط، فإما أن تكون فوق الملائكة، وإما أن تكون دون الحيوان، وهذه الآية دليل.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

أحقر حيوان بنظرك تشمئز منه نفسك يكون الكافر أسفل منه، وإذا عرفت الله عز وجل فأنت فوق الملائكة.

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

*** * ***

وفي الأثر: ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن، خلقت السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمن اقترفته عليك.

علامة معرفة الله الصبر على حكمه و الاستسلام له و التوكل عليه :

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

أي خير ما برأ الله وخلق، قال تعالى:

(جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

معنى جنات عدن أي: جنات يستقرون فيها إلى الأبد، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

قال أحدهم: يا رب! هل أنت راض عني؟ قال: يا عبدي، هل أنت راض عني حتى أرضى عنك؟ أنا أرضى عنك إذا رضيت عني، ولن ترضى عني إلا إذا عرفتني.

وعلامة معرفة الله الرضى في قضائه، والصبر على حكمه، والاستسلام لحكمه، والتوكل عليه، هذه علامة الإيمان.

كل من آمن بلسانه وطبق الشرع بجوارحه و خشي الله فهو ناج :

كل من آمن بلسانه، وأعلن الإسلام بلسانه، وطبق الشرع بجوارحه، و خشي الله، و خشع قلبه لله، فهو ناج، قال تعالى:

(ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه)

والقلب لا يخشى إلا إذا كان عالماً، لأن علامة العلم الخشية، ومن نتائج العلم الخشية، ذلك لمن خشي ربه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزلزلة 099 - الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8 مبدأ المسؤولية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-05-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة قال عليه الصلاة والسلام بحقها إنها نصف القرآن :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الزلزلة وقد قال عليه الصلاة والسلام بحقها إنها نصف القرآن، وسورة الإخلاص ثلث القرآن، فما هي هذه السورة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها نصف القرآن؟ والحقيقة أن هذه السورة تحدد مبدأ المسؤولية، العقائد إذا زاغت وانحرفت وتاهت وشردت تخفف من مسؤولية الإنسان، وإذا صحت تحدد مسؤوليته وتضعه أمام واجباته؛ فكل فرقة وكل دين قد سبق حينما ينحرف الناس يتعلقون بعقائد زائغة قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 80]

هذه عقيدة اليهود الزائغة قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

[سورة المائدة: 18]

الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان :

النصارى قالوا: آمن بالمسيح تنجو من عذاب النار، والمسلمون في عصورهم المتخلفة اعتقدوا بهذه العقائد وظنوا أنهم من أمة سيدنا محمد فالجنة مصيرهم، الشعوب والأمم وأصحاب النحل إذا امتد بهم العمر وانحرفوا وزاغت عقائدهم يخففون من مسؤولياتهم ويعزون المسؤولية إلى جهة أخرى، لكن الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان. لذلك أحد الأعراب جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: يا رسول الله عظني وأوجز فقال له: قل آمنت بالله ثم استقم، فقال: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء.

لذلك إما أن تستقم وإما أن تستعد للبلاء، لا يوجد حل ثالث، إله عادل. وجاءه أعرابي آخر فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فقال له: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، فقال هذا الأعرابي: لقد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل.

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه السورة تكفي خالق الكون، الله رب العالمين يقول لك: يا عبدي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره؛ اعمل ما شئت لذلك:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: والله ما أحسنت وما أسأت، كيف ما أحسنت إلى أحد؟ وكيف لم تسئ إلى أحد؟ قال: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلأنفسهم يمهدون، إن فعلت خيراً فهو لك وإن فعلت شراً فهو عليك قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

كل شيء مسجل عند الله عز وجل إن صغيراً أو كبيراً.

كلمة (إذا) في الآية التالية لتحقق الوقوع لا لاحتمال الوقوع :

ربنا عز وجل في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان ولكن متى؟ قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

ما إعراب (إذا)؟ ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه موصول بجوابه مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان، هذا إعرابها المفصل.

ماذا تعني (إذا)؟ تعني حين، سوف، إن، إذا جمعت حين مع سوف مع إن المؤدى إذا، وماذا قال علماء البلاغة عن إذا؟ قالوا: (إذا) لتحقق الوقوع لا لاحتمال الوقوع، فمثلاً إذا قال الله عز وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

عندما قال: إذا جاء نصر الله، لا بد من أن يأتي، إذا زلزلت الأرض زلزالها، هذا اليوم لا بد من أن يأتي، قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 6]

يتمتع المؤمن،

(فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أي هذا الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، فـ (إن) لاحتمال الوقوع بينما (إذا) لتحقق الوقوع، وفرق كبير بين احتمال الوقوع وبين تحقق الوقوع.

إذا جاء نصر الله والفتح، لا بد من أن يأتي نصر الله والفتح، إذا زلزلت الأرض زلزالها، لا بد من أن يأتي هذا اليوم، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، قد تحسنوا وقد لا تحسنوا، فإن لاحتمال الوقوع وإذا لتحقق الوقوع.

لا بد من يوم تزلزل الأرض كلها وهذا يوم القيامة :

لا بد من يوم تزلزل الأرض، طبعاً نحن شاهدنا في الصور أو سمعنا أو قرأنا عن زلزال وقع في الأرض، هذا الزلزال محدود، في مكان محدود، وله نتائج محدودة، منطقة في آسيا، في إيطالية، في الجزائر، في بكين، في الصين الشعبية منطقة محدودة تضطرب، فإذا اضطربت جعلنا عاليها سافلها ومات أناس كثيرون، يقول لك: ضحايا الزلزال مئة ألف والمشردون أربعمئة ألف مثلاً ويبقى الزلزال محدوداً بمكان محدد وزمان محدد وآثار محددة، ولكن هناك زلزال يصيب الأرض كلها في كل قاراتها.

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

زلزالها مفعول مطلق وسمي المفعول المطلق مطلقاً لأنه مطلق، أي زلزالها الأخير أو زلزالها الكبير أو زلزالها العظيم، الزلزال الذي وعد الله به والذي هو نهاية العالم.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة يس:38]

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[سورة التكوير: 1-5]

هذا الوضع لا يستمر أن تستيقظ كل يوم وترى الشمس تشرق ثم تغيب هذا وضع مؤقت؛ لا بد من يوم تزلزل الأرض، وهذا يوم القيامة فإذا زلزلت الأرض زلزالها أي إذا انتهت الحياة الدنيا، وقال بعض المفسرين: زلزالها للتخصيص والتعظيم.

أثقل ما على الأرض الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة :

قال تعالى:

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

أثقل ما فيها الإنسان قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

أنت المخلوق الأول في الأرض، لأنك إنسان أنت حملت الأمانة وتحملت أن تكون من بني البشر وأن تحمل الأمانة التي أبتها الأرض والسموات والجبال.

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

هذه النفوس التي حملت الأمانة والتي جاءت إلى الدنيا فبعضها آمن وبعضها كفر، بعضها وفى بما عاهد الله عليه وبعضها نقض عهده، وبعضها عرف ربه وبعضها أدار ظهره للدين.

الإنسان إن عرف الله فاق الملائكة وإن آثر شهوته هبط إلى مادون الحيوان :

ستخرج النفوس البشرية التي كرمها الله عز وجل والتي خلق الكون كله من أجلها، الذي سخر الكون من أجل الإنسان قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

هذا الإنسان إن عرف الله فاق الملائكة وإن آثر شهوته هبط إلى مادون الحيوان، إما أن يكون خير البرية وإما أن يكون شر البرية، هذا الإنسان الذي جاء إلى الدنيا وأعطاه الله فكراً وأعطاه الله سمعاً وبصراً وبث في الأرض آيات للموقنين وجعل من حوله الآيات تترا وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، هذا الإنسان جاء إلى الدنيا ونسي المهمة الكبرى التي خلق من أجلها.

يوم القيامة تلفظ الأرض البشر من بطنها فيروا أنفسهم في يوم الدين الذي وُعدوا به:

قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

هؤلاء البشر لفظتهم الأرض من بطنها فقاموا وحشروا ورأوا أنفسهم في يوم الدين الذي وعد به الله رب العالمين.

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ)

[سورة المرسلات:38]

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الصافات:21]

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس:52]

(قالوا) وهذا اليوم لا بد من أن يأتي، قالت السيدة عائشة: يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة؟ قال: نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن، إذا الصحف نشرت وعلى الصراط وعند الميزان، في هذه المواطن الثلاث لو وقعت العين على العين لا تعرف الأم ابنها، ولا ابن يعرف أمه فيما سوى ذلك قد تلتقي الأم ابنها فتقول: يا بني جعلت لك بطني وعاءاً وصدري سقاءاً وحجري غطاءاً فهل من حسنة يعود علي نفعها اليوم، فقال: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنما أشكو مما أنت تشكين.

هذه الساعة العصيبة لا ينفع فيها إلا العمل الصالح والاستقامة ومعرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة:27-33]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

هذه الساعة العصيبة التي لا ينفع فيها شيء، لا ينفع فيها إلا العمل الصالح والاستقامة ومعرفة الله عز وجل.

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا*وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا*وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

قال الإنسان: ما الأمر؟ ما الموضوع؟ ماذا حدث؟ هذا يوم الفصل الذي وعدناكم أجمعين، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا*يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

لهذه الآية معنيان، إما أن هذه الزلزلة كأنها حديث الأرض للبشر، أو قد انتهت الدنيا ودخلنا في يوم القيامة هذا معنى، وكأن زلزال الأرض حديث لبني البشر، وكأنها تحدثهم أن الحياة الدنيا قد انتهت وطويت صفحاتها ونحن على مدخل الدار الآخرة:

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

والمعنى الأوجه أن هذه الأرض أحصت على الإنسان كل سكناته وحركاته وأنفاسه وأعماله صالحها وطالحها، خيرها وشرها، وكل شيء فعلته في الأرض سوف تنطق به الأرض.

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة فصلت: 21]

هذه اليد شاهد عليك فعلت كذا وكذا، وهذه العين شاهدة عليك، وهذه الأذن شاهدة عليك، وهذه الرِّجل شاهدة عليك، وكل شيء على وجه الأرض يشهد على الإنسان عمله.

كل شيء على وجه الأرض يشهد على الإنسان عمله :

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا*بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

أوحى لها أن تكلمي، أوحى لها أن حدثينا ماذا فعل فلان؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

الإنسان يجهل أحياناً وهذه هي الأجوبة، حضر نفسك، هذه الأسئلة قبل الامتحان ربنا سبحانه وتعالى سربها لك، هذه هي الأسئلة عن:

((عن عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

هو الذي أوحى لها أن تنطق بكل شيء، هذا المكان جلسنا فيه ساعة من نهار وذكرنا الله عز وجل، هو شاهد عليكم، وفي هذا المكان لا سمح الله ولا قدر جلس أناس وارتكبوا المعصية؛ المعصية سجلت عليهم، وهذا البيت شهد زواجاً مباركاً وشهد زواجاً إسلامياً صحيحاً لا معصية فيه، هذا البيت بأرضه وجدرانه يشهد عليك، وهذا البيت تمت به معاصٍ كثيرة كلها مسجلة لأن ربك أوحى لها، شيء خطير حينما قال عليه الصلاة والسلام: إنها تعدل نصف القرآن، لم يكن في هذا الكلام مبالغ عليه الصلاة والسلام، تضع الإنسان أمام مسؤولية أنت مسؤول، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

الإنسان العاقل علاقته مع الله وحده وكل عمل يقدم عليه لا بد من أن يهيئ جواباً لله:

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة؛ فريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال فيقال: قفوه واسألوه.

هذا الذي يحاسب الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، هل تاه بماله على عباد الله؟ هل ضيع فرض صلاة؟ هل قال جيرانه: لقد أغنيته يا رب فقصر في حقنا، فقال عليه الصلاة والسلام: ومازال يسأل ويسأل.

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت في؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

نصيحة لوجه الله قبل أن تفعل أي عمل هيئ الجواب لله عز وجل يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا ينفع إلا العمل الصالح، إن قال لك الله عز وجل: لماذا ظلمت زوجتك؟ ما تقول له؟ لماذا غششت هذا الزبون ولم؟ لماذا بعته أسوأ ما عندك؟ استحلفك أن تنصحه فإذا أنت تغشه ما الجواب؟ لماذا أخذت معظم المال لك أليس لأخوتك نصيب بهذا المال أمعك جواب؟ أين الجواب والإنسان العاقل علاقته مع الله وحده وكل عمل يقدم عليه لا بد من أن يهيئ جواباً لله عز وجل. فلذلك العاقل من فكر في هذه الساعة وهي لا بد آتية، وكل آت قريب. وكل متوقع آت، وكل آت قريب، العاقل يهيئ الجواب. من أجل أن يأتي بالمال الوفير، ضيَّع دينه وقع في الزنا، عاد من أوربا يتقن اللغة الإنكليزية وقد زنا خمسين مرة، هذا الابن يوم القيامة يقول: يا رب لا أدخل النار قبل أن أدخل أبي قبلي، هو الذي شجعني، هو الذي دفعني، هو الذي أغراني.

جوهر الدين أن الإنسان مسؤول :

لماذا قبلت هذا الزوج لابنتك؟ يا رب لأنه يملك بيتاً ممتازاً وسيارة فخمة، أين دينه؟ ألم يقل لك فلان أنه لا يصلي، ألم يقل لك فلان أنه يشرب أحياناً، كيف تزوجه ابنتك لقد ضيعتها معه؟ أجب إن استطعت:

((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[ابن ماجة عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

لماذا رفضت فلاناً الفقير؟ ألم تعلم أنني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله، أجب، هذه القضية مع الله عز وجل لا يوجد دجل ولا كذب ولا افتراء، يعلم الجهر وأخفى، وسوف يسألك:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24))

[سورة الصافات: 24]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وفِّر وقتك واترك السفاسف واترك القشور؛ تعلق بجوهر الدين، جوهر الدين أنك مسؤول:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلطِنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

هذا هو العقل، العقل أن تهيئ أجوبة للملكين يوم القيامة، قال تعالى:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)

متفرقين لا يوجد تجمعات يوم القيامة ولا جماعات، و لا أحزاب، الناس يأتونه فرادى يوم القيامة، كما خلقناكم أول مرة.

العمل الذي فعلته منذ أن ولدت وحتى الموت مسجل على شريط تراه بعينك :

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)

ما رأيك أن العمل الذي فعلته منذ أن ولدت وحتى الموت مسجل على شريط تراه بعينك.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

بعت بيتاً بيعاً قطعياً وقبضت المبلغ كاملاً وبالسعر المناسب ترفض التنازل، تقول: أريد ستين ألفاً، طلبه منك بعد سنوات ترفض التنازل إلا بعد دفع مبلغ معين، يوجد محكمة إلهية وهذا المال ظلم، عندما بعت البيت ألم تبعه بسعره؟ وألم تقبض ثمنه بالسعر المناسب؟ كله صحيح بعقد أصولي بعد ما أنت بعته بكامل أهليتك الشرعية والقانونية وقبضت ثمنه بالكامل وهذا السعر وقتها مقبول، تفضل وأجب الله عز وجل يوم القيامة.

أحدهم احتاج إلى مئتي ألف وعنده بستان جميل جداً، ولأمر ضروري التقى برجل غني وقال له: أعطني هذا المبلغ وخذ البستان رهناً للمبلغ، فإذا أديت لك هذا المبلغ تعيد لي هذا البستان، قال له: قبلت، نقده المبلغ ودخل إلى البستان رآه جميلاً جداً وسعره ثمانمئة ألف وفيه ما لذ وطاب بعد سنة وسنتين تعلق بالبستان، ورفض إعادته قال: كل واحد أخذ حقه، قال صاحب البستان: هذا البستان يا رجل رهن موضوع عندك سعره ثمانمئة ألف وأنا أخذت منك مئتي ألف، رفض إعادته وقال: البستان بستاني وإن لم يعجبك فهذه المحاكم، هذا الرجل طال به العمر وحينما شعر بدنو وقته جمع أبناءه وأوصى أحدهم أنه إذا مات عليه أن يسير الجنازة من أمام بيت المغتصب وتخرج أنت يا بني وتعطيه هذه الرسالة، وبعد أيام توفاه الله عز وجل وغسل الميت وجهز ووجهت الجنازة وفي هذا الطريق المرسوم مرت أمام دكان المغتصب، والمغتصب أخفى وجهه ودخل إلى الداخل خرج الابن الأكبر إلى صاحب الدكان وقال له: هذه يا سيدي رسالة من والدي كتبها لك قبل أن يموت خذها واقرأها، فتح الرسالة وجد فيها، لقد ذهبت إلى الديان الله رب العالمين وأنا أنتظرك هناك فإن استطعت أن لا تحضر فلا تحضر، وسوف تحاسب هناك، يقولون أن هذه الرسالة كانت كافية وأنه في اليوم التالي ردّ لهم البستان وأخذ المبلغ. من السهل

أن تأكل مال الناس في الدنيا لكن ليس سهلاً بعد الموت أكل مال الناس بالباطل عندما يأتي ملك الموت انتهى الأمر.

لو فعل الإنسان عملاً صالحاً وآخر سيئاً كالذرة لرآه يوم القيامة ولحاسبه الله عليه:

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

كلمة ذرة في العلم الحديث أي ذرة لا ترى بالعين، والآن هناك بعض الأخبار أن الذرة يمكن رؤيتها بالمجهر الإلكتروني هذا خبر قرأته، أما الذرة شيء دقيق دقيق، أي كل مئة مليون مليون ذرة برأس دبوس، لو فعلت عملاً صالحاً بمستوى ذرة فإن هذا العمل سوف تشاهده يوم القيامة، وبعضهم قال: الذرة الغبار، تراه في أيام الشتاء وأشعة الشمس بالغرفة قد ترى في أشعة الشمس ذرات لا وزن لها إطلاقاً عالقة في الهواء، لو فعلت عملاً صالحاً وآخر سيئاً كمثل هذه الذرة لرأيته يوم القيامة ولحاسبك الله عليه. رأيت على المغسلة نملة أنقذتها من أن تغرق وأنت تتوضأ وأوقفت الصنبور وأزحتها ماذا فعلت؟ هذا عمل عظيم، أنقذت نفساً.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

[سورة الأنعام: 151]

فراشة أنقذتها، ابتسامة ابتسمتها في وجه أخ لك مؤمن، تفاحتان أخذت الأصغر وأعطيت أمك الأكبر مسجلة، قطعة لحم في الصحن دفعتها لزوجتك مسجلة، سألك إنسان سؤالاً وأنت في الوضوء فأغلقت الصنبور حتى لا تسرف وبعدها تابعت، النبي صلى الله عليه توضأ من إناء ففضلت فضلة فردها في النهر وقال: ينفع الله فيها قوماً آخرين.

كل عمل تفعله مهما صغر مسجل عليك :

ابنك في الليل كان يبكي وزوجتك متعبة قلت: أنا سأسقيه الماء، والزوجة بقيت نائمة هذا العمل مسجل، في سيارة عامة صعد رجل كبير في السن وقفت وأجلسته.

((ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه))

[الترمذي عن أنس]

جالس في المسجد رأيت خيطاً طوله سنتيمتر على السجادة وهذا بيت الله وضعته في جيبك مسجلة، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

أمام بائع اللبن كم سعر الكيلو؟ أكلت لقيمة صغيرة وما أنت تريد أن تشتري مسجلة، بائع كرز أخذت كرزة واحدة أنت لا تريد أن تشتري لماذا أكلت هذه الكرزة؟ مسجلة مهما دقت، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

وأنت تصف سيارتك انخدشت سيارة صديقك قليلاً ولا يشعر بها، يجب أن تبلغه أو تعطيه شيئاً من المال، لا تقل لم يرني أحد ولكن الله يراك:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

امرأة مومس رأت كلباً يأكل الثرى من شدة العطش فسقته فغفر الله لها، هذه الحيوانات التي ليس لها صاحب يدهسها الناس، ولو كانت غنمة لا يدهسها خوفاً من صاحبها.

ترى في الشارع كلاباً مدهوسة أما كان بالإمكان أن تحتاط، والله عز وجل يحاسبك عنه.

السعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه :

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

هذه الآية تكفي الإنسان وتجعله ينضبط ويستقيم استقامة تامة ويحسب حساباً لهذا اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً، قمت لتصلي وأنت ترتدي ثياب النوم وعندك ثوب أستر وأحل ويستر العورة لوناً وحجماً، كنت تصلي وجاءك هذا الخاطر لك أجر فيه، غسلت رأسك وشعرك مبلول وسوف تصلي هكذا تقف بين يدي الله عز وجل؟ جفف شعرك قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

[سورة الأعراف:31]

عند الصلاة، وأنتم ابحثوا عن أمثلة صغيرة وكبيرة، على مستوى الصغائر يوجد حساب فكيف بالكبائر؟ ولا تقل لهما أف تقول: أنا لم أقل لهما أف ولكن ضربتهما، إذا كانت كلمة أف تحاسب عليها حساباً عسيراً فمن باب أولى ما فوقها. ربنا عز وجل عندما ذكر الذرة من باب أولى ما فوق الذرة، اغتصاب المال، والاعتداء على الأعراض، أكل مال اليتيم من باب أولى أن هذه الكبائر تحاسب عليها، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، الإنسان أحياناً يضيف قطعة حلوى ويحب أن يأكلها ويتذكر ابنه الصغير فيتركها لابنه هذه مسجلة. أي عمل تعمله كبيراً كان أم صغيراً مسجل عليك وسوف تلقى جزاءه يوم القيامة، والسعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه، والبطولة أن تحتاط ليوم القيامة وأنت في الدنيا، وقمة الغباء أن تواجه هذا اليوم العصيب وأنت لا تملك تعديل شيء هذا هو الغباء:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ*يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر: 24-30]

الإنسان يراقب نفسه ويهيئ جواباً ليوم القيامة ومهما دق العمل محاسب عليه، أخذت أنت وأخوك مئة بيضة وقال لك: اقسمها بيننا، فقسمها قسمة ضيزى، هذه الكبيرة لك والصغيرة له، هذه خيانة، كمؤمن إما أن تقسم بالعدل وإما أن تضع له الكبيرة وأنت محاسب على هذا العمل. لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، اجترأت على الله عز وجل، لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العاديات 100 -الدرس (1-1): تفسير الآية:1 - 8، تهديد ووعيد لجحود الإنسان وإعراضه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-06-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تبين أن الإنسان إن لم يقابل نعم الله بالشكر والطاعة فقد خسر خسراناً مبيناً:

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة العاديات.

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً *فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً*إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ *وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ*وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

هذه السورة من جزء عم أو من الأجزاء الأخيرة التي تقرع مسامع الإنسان حول آيات الله العظيمة، وتبين أن الإنسان إن لم يقابل هذه النعم بالشكر والطاعة فقد خسر خسراناً مبيناً، هذه الواو واو القسم، والله سبحانه وتعالى يقسم ولا يقسم، في آيات كثيرة يقول الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

وفي مرات أخرى يقسم قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

[سورة الشمس: 1-2]

المعنى الأول للعاديات هو الخيل :

المفسرون وقعوا في حيرة لماذا أقسم هنا ولم يقسم هنا؟ الحقيقة قد ذكرتها لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى إذا نسب هذا الشيء إلينا يقسم بها لأنها عظيمة بالنسبة إلينا، وإذا نسبها إليه لا يقسم لأنه هو خالقها وهو المحيط بها، فما الكون كله في جنب ذات الله سبحانه وتعالى كن فيكون، مهما بدا لنا الكون غير محدود فالكون محدود في النهاية والله عز وجل محيط به، فربنا عز وجل يلفت نظرنا إلى مجموعة آيات، أكثر المفسرين قالوا: إن هذه الآيات تتعلق بالخيل، قال تعالى:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

كيف تعدو؟ وكيف يخرج منها صوت خاص بها أثناء جريها الشديد؟

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

فإذا سارت هذه الخيل على صخر رأيت الشرر يخرج من تحت حوافرها.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً)

قد تغير هذه الخيل على القوم الأعداء صبحاً.

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً)

قد تهيج الغبار من وراء الخيل.

مجموعة هذه الآيات بهذا السياق آية من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

أي تدخل إلى ساحة المعركة وتحقق النصر، الحقيقة مجموعة هذه الآيات بهذا السياق آية من آيات الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة))

[عبد الله بن مسعود مسند أبي يعلى الموصلي]

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

من آيات الله عز وجل الدالة على عظمته هذا الحيوان الذي سخره الله لنا نركبه، ونعدو به، وننتقل عليه من مكان إلى آخر، ونحارب عليه، وننشر الدعوة عن طريقه، ونفتح البلاد ونحن على ظهور الخيل هذا معنى، ولكن الله عز وجل كلامه كلام معجز بمعنى أن القرآن الكريم حمال أوجه، والقرآن الكريم ليس ملكاً لأحد، وهناك تفسير آخر لهذه الآيات يعطي معنىً متعلقاً بالآيات الكونية.

فالعاديات جمع مفردها عادية، والعادية الشيء الذي يركض ويسرع بالجري وهي هنا السحابة، السحاب الذي تثيره الرياح والرياح آية من آيات الله العظمى.

الهواء مبدئياً، هذا الهواء الذي نستنشقه والذي ينقل الحرارة، هذا الهواء الذي ينقل البرودة، هذا الهواء الذي ينقل الصوت والذي يحقق التوازن عن طريق الضغط الجوي، هذا الهواء الذي يعد وسطاً مرناً في الأرض، هذا الهواء الذي ينقل الضوء، إذا تحرك صار رياحاً، من حرك الهواء؟ هناك الرياح الشرقية وهناك الرياح الغربية وهناك الرياح الشمالية وهناك الرياح الباردة تأتينا من الشرق وهناك الرياح

المثقلة ببخار الماء تأتينا من الغرب وهناك الرياح التي تلطف الجو وهناك الرياح التي تبعث في النفس الانتعاش، هذه الرياح التي تعدو ألم يقل الله عز وجل:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

العاديات لها معنى آخر هي تلك الرياح التي يسوقها الله عز وجل :

العاديات لها معنى آخر تلك الرياح التي يسوقها الله عز وجل، أحياناً تتوقف الرياح ساعات معدودات فتحس أن أنفاسنا ضاقت وأن الجو لا يحتمل وأن الإنسان يكاد يضجر يكاد تضيق به الأرض بما رحبت، فإذا تحرك الهواء بعث النسيم العليل، إذا زادت حركته صار ريحاً فإذا زاد صار رياحاً ثم صار عاصفة ثم صار زعازع ثم صار أعاصير. الله عز وجل ضرب لنا من آياته العظمى الرياح التي تعدو في الهواء وتسرع في جريها لماذا تعدو؟ إنها تسوق السحاب، هذا البخار الذي ارتفع من البحر إلى الجو بفعل أشعة الشمس المسلطة على مياه البحر بخرت هذه المياه وجعلتها سحباً، جاءت الرياح وساقتها إلى البلاد العطشى، ساقتها إلى البلاد التي هي في أمسّ الحاجة إلى الأمطار، هذا السحاب أثارته الرياح حتى أوصلته إلى المكان المناسب، الله عز وجل في آيات أخرى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً)

[سورة الروم: 48]

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الأعراف: 57]

أي هذه آية كبرى وآية عظمى، الله عز وجل يحرك الهواء، إذا حرك الهواء صار رياحاً، هذا الهواء الذي يتحرك يسوق أمامه السحاب، هذا السحاب يسوقه الله عز وجل إلى بلد ميت وينقلب إلى أمطار، تهطل الأمطار، ينبت الزرع، يأكل الناس والحيوان، تستمر الحياة هذه آية كبرى من آيات الله عز وجل.

معنى المعصرات :

العاديات ضبحاً هذه الرياح الشديدة إذا تحركت وعدت وكان لحركتها صوت معروف، دوي الرياح، الله عز وجل جعل هذه السحب ذات كهربائيات، سحب شحنتها الكهربائية موجبة وسحب شحنتها

الكهربائية سالبة، وحينما تحتك هذه السحب المتباينة تنعقد الأمطار بعملية معقدة جداً، نحن هنا نبسط الأمور لنفهمها، كالمدرس الذي يعطي مثلاً واضحاً لكن على حساب الحقيقة العلمية، يقول مثلاً:
الأمطار تشبه إبريقاً من الشاي ملأته ماءً ووضعته على موقد فغلى الماء، تأتي بكأسٍ باردٍ وتضعه في طرف الإبريق، ينقلب هذا البخار المتصاعد من الإبريق إلى قطرات من الماء، هذا هو المطر.
هذا معقول وواضح ولكنه تبسيط مخل للحقيقة، هذه السحب تكون حارة ثم تنتقل إلى مكان بارد تنكمش، حينما تنكمش تنعقد ذرات المطر على مادة كيميائية كبريتية بثها الله عز وجل في سماء المطر، لكل طبقة في الجو وظيفة، وفي الجو طبقة وظيفتها أن تنعقد السحب أمطاراً، لذلك قال الله عز وجل قال:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

[سورة عم: 14]

معنى المعصرات أي انكماش السحب بفعل مرورها في الأماكن الباردة، هذا الانكماش يعقد حبات المطر، فالذي درسه العلماء عن الأمطار شيء واسع جداً ودقيق جداً، لا يحتمل هذا المجال التفصيلات العلمية حول هطول الأمطار، ولكنك إذا شربت كأساً من الماء أو تناولت قطعة من الفاكهة يجب أن تعلم علم اليقين أن الكون كله ساهم في هذا الكأس من الماء.

قدرة الله عز وجل في الكون :

الشمس حجمها معروف مليون وثلاثمئة مرة زيادة عن حجم الأرض، هذا حجمها وأما حرارتها ستة آلاف درجة على سطحها وعشرون مليون درجة في باطنها، وكلمة عشرون مليون درجة يعني لو ألقيت الأرض كلها في الشمس بجبالها وصحاريها وبحارها ومحيطاتها وكتل الثلج في قطبيها، لو ألقيت الأرض كلها في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة. معنى عشرون مليون درجة أنك إذا ألقيت الحديد في الشمس لرأيته بخاراً، من منكم سمع أن للحديد بخار؟ نظرياً هناك بخار للحديد، كل عنصر الله عز وجل خلقه ينتقل من مرحلة إلى مرحلة إلى مرحلة، أن يكون صلباً مرحلة، إذا رفعت الحرارة حينما ترفع الحرارة ذرات الحديد تتباعد عن بعضها، فإذا تباعدت أصبحت مرنة، إذا تباعدت أكثر أصبح سائلاً، إذا تباعدت أكثر أصبح غازاً، لذلك الأجسام لها ثلاث حالات، حالة الصلابة وحالة الميوعة وحالة الوضع الغازي، وبين هذه الحالات حالات ثانوية، الحرارة لها علاقة بابتعاد الذرات بعضها عن بعض، لذلك أحياناً الضغط يشابه التبريد، إذا ضغطنا الهواء يصبح سائلاً، هذا الغاز الذي تشعلونه في البيت اسمه غازاً، لو رججت هذه الاسطوانة لشعرت أن فيها سائلاً، كيف صار سائلاً؟ هذا الغاز حينما ضغطته صار سائلاً، لو ضغطته أكثر لصار قطعاً جسماً صلباً.

الحديد لو سخنته لصار سائلاً، بالعكس لو سخنته أكثر لصار غازاً، لو رفعت الضغط عن الأجسام لغلت وأصبحت سائلاً، هذا موضوع فيزيائي معقد، هذه الذرات التي خلق الله عز وجل منها العناصر لها قوانين بالغة في التعقيد، الحرارة تؤثر في حركتها فالحرارة تباعدها عن بعضها. الشمس حرارتها عشرون مليون درجة، وهذه الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة، وتقدير العلماء أنها سوف تبقى متقدة إلى خمسة آلاف مليون سنة قادمة هذا عطاؤنا، هذه قدرة الله عز وجل، لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة، بيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق.

ما قولك أن نجماً في السماء اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما. برج العقرب معروف يظهر في الربيع على شكل عقرب بداخله يوجد كوكب متألق جداً وأحمر اسمه قلب العقرب هذا النجم يتسع إلى الشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذا شربت كأس ماء يجب أن تعلم أن الشمس لها نصيب في صنعه، الشمس سلطها الله عز وجل على مياه البحار فتبخرت وأصبح بخار الماء في الجو وجاءت الرياح فساقت بخار الماء وجعلته سحباً الله عز وجل قال:

(وَالْعَادِيَاتِ)

لم يقل والعادية ضبحاً، والعاديات لأن الرياح أنواع، يوجد رياح باردة، ورياح مثقلة ببخار الماء، ورياح جافة، ورياح خفيفة، ويوجد نسيم وهواء، وهناك ريح، ورياح وأعاصير وزعازع، وهناك أنواع منوعة في حركتها واتجاهها، ويوجد جنوبية وشمالية وشرقية وغربية، وفي رياح موسمية ورياح مدارية ورياح دائمة ورياح ثابتة أنواع منوعة.

القرآن حمَّال أوجه وهو ليس ملك أحد :

قال تعالى:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً)

هذه الرياح التي تسوق بخار الماء وتجعله سحباً كثيفة، إذا الإنسان نظر إلى السماء ورأى السحب هل يرى أن يد الله عز وجل وحدها تصنعها، وأنها إنما تسوق هذه السحب من أجل أن نشرب كأس الماء، وأن نأكل الخضراوات والفواكه والمزروعات، وأن نحيا نحن وأنعامنا. الله عز وجل قال: هذا الرعد والبرق، الرعد صوت البرق حينما تنظر إلى السماء في الشتاء وترى السماء ملبدة بالغيوم، والغيوم متحركة، وبعدئذ ترى برقاً يلمع، وبعد البرق تسمع هزيم الرعد، ما هذا الذي حصل؟ سحب مشحونة بشحنة إيجابية وسحب مشحونة كهربائياً بشحنة سالبة، من احتكاك هذه السحب تنعقد الأمطار هذه:

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

هذا الذي تراه في السماء واضح، وهذا التفسير لا يمنع التفسير الأول أن تقول أن العاديات هي الخيل، فإذا سارت على الصخر انعقد الشرر من تحت حوافرها، القرآن حمال أوجه، والقرآن ذو وجوه، القرآن ليس ملك أحد.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً)

فإذا انعقدت هذه السحب أمطاراً على الأراضي العطشى فأنبت الله بها النبات لنأكله، وأنبت للحيوان نباتاً تأكله، واستمرت الحياة، ولولا هذه السحب وتلك الشمس التي سلطها الله على البحار، ولولا أن من خصائص الماء التبخر، ولولا أن من خصائص الهواء أن يحمل الماء، ولولا أن الرياح من فوائدها أنها تسوق السحب، ولولا أن هذه السحب منوعة في شحنتها، ولولا احتكاك السحب بعضها ببعض لما انعقدت الأمطار، وإذا انعقدت الأمطار هطلت على البلاد العطشى.

بلدنا دمشق معدل أمطارها السنوي معدل يسير؛ مئة وخمسين ملم، ربنا سبحانه وتعالى في مطلع الشتاء ساق السحاب وهطلت أمطار على مستوى القطر، في هطول واحد زادت كمية المطر عن مئة ملم، أي ثلثي أمطار الموسم في وسط سوريا، كانت الأمطار مخيفة انتهت إلى فيضانات، ودمرت مدينتين وسط سوريا، الله عز وجل حينما يسمح للأمطار أن تهطل وحينما تنهمر السماء بماء المطر لا يعلم إلا الله مقدارها.

المطر قد بني على قوانين علمية بالغة الدقة لكن مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل:

الإنسان أحياناً حينما يفكر تفكيراً بعيداً عن الله عز وجل يقول لك: يحصل تبدلات في الشرق الأوسط بسبب هناك تصحر وهناك خط المطر ينتقل من مكان إلى آخر كلما توقع الإنسان شيئاً جاءت الأحداث فخيبت ظنه وأكدت أن الأمطار بيد الله عز وجل.

الله عز وجل ثبت أشياء وحرك أشياء، دوران الأرض حول نفسها ثابت، لا يوجد إنسان يقلق لعدم شروق الشمس، ودورة الأرض حول نفسها ثابتة، وإشراق الشمس ثابت، هناك أشياء ثبتها الله عز وجل لماذا؟ من أجل أن نرتاح ويكون النظام ثابتاً، وصار في تقويم وأشهر وأسابيع وسنوات، الله عز وجل لحكمة بالغة ثبت هذه الأشياء وثبت أشياء كثيرة، تأخذ بذرة بطيخ وتزرعها تنبت بطيخاً.

لكن إذا زرعت البطيخ وأنبت خياراً هذه مشكلة، الله عز وجل ثبت قوانين البذور وثبت دورة الأرض حول نفسها، وثبت دورتها حول الشمس، إلا أن المطر جعلها بيده. مثلاً سيارة من أحدث طراز بالغة التعقيد لكن مفتاح التشغيل بيد صاحبها، كل هذه الأجهزة معطلة إلى أن يضع المفتاح في مكانه ويحرك

كلها تعمل. والمطر قد بني على قوانين علمية بالغة الدقة لكن مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل، لذلك كان دعاء الاستسقاء قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف 96]

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ: 17]

قيمة الاستغفار :

يقولون مياه الفرات قليلة قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

[سورة نوح: 10-12]

دخل رجل إلى الحسن البصري وقال له: يا إمام إن زوجتي لا تنجب أولاداً، فقال له: استغفر الله، دخل عليه أناس آخرون قالوا: يا إمام إن السماء لا تمطر، فقال: استغفروا الله، دخل عليه أناس يشكون الفقر، فقال لهم: استغفروا الله، فقال أحد الحاضرين: عجبنا لك يا إمام كلما جاءك رجل تقول له، استغفر الله، فقال له: اقرأ قوله تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

[سورة نوح: 10-12]

إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك :

يا رب ما مقامي عندك؟ كأن الله عز وجل يقول لك: يا عبدي ما مقامي عندك؟ هل تنتهي إذا نهيتك؟ هل تأتمر إذا أمرتك؟ هل تحافظ على الصلاة؟ هل تخشى أن تقع في الحرام؟ هل تحرر دخلك من الشبهات؟ إذا أردت أن تنظر مقامك فانظر فيما أقامك.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك، فهذه السحب التي ساقتها الرياح المنوعة وهذه السحب المنوعة بشحنتها حينما انعقدت أمطاراً صبت على الأرض العطشى صباً، فالمغيرات وهطول الأمطار شيء واضح كالصبح، لكن الناس حينما بعدوا عن الله عز وجل قالوا: منخفض جوي متمركز فوق قبرص ومنخفض آخر معاكس. عندما الإنسان ترك الله عز وجل وتكلم بالمنخفضات هذه المنخفضات لم تغنه من الله شيئاً. المؤمن يرى أن الله عز وجل ساق هذه السحب وساق هذه الأمطار.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً)

الأمطار حينما تهطل ما هي إلا أشهر أو أسابيع حتى ترى الأرض مخضرة، اهتزت وربت، انظر إلى الربيع سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه أراد أن يصف مصر إلى سيدنا عمر، قرأت هذا الوصف في كلمات بليغة قال: يا أمير المؤمنين مصر طولها مسيرة شهر، وعرضها عشر، يخطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات، فإذا هي يا أمير المؤمنين عنبرة سوداء، أرض خصبة، إذا هي درة بيضاء فيضان النيل، ثم هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء. وصف بليغ طولها وعرضها ونهرها وثلاث أحوال فيها، من حالة الجفاف إلى حالة الفيضان إلى حالة خروج النبات.

عالَم البذور عالَمٌ لا ينتهي يمثل كرم الله عز وجل :

ألق نظرة على مكان في الربيع؛ الأرض كلها خضراء، الأرض كلها أزهار، سبحان الله كيف جعل الأزهار على طرف الطريق، من ألقى البذور في هذا المكان بالذات؟ إذا خطط طريقاً في بستان بعد سنة أو سنتين ينبت على أطراف الطريق أنواع من الأزهار من أجل أن تؤنس المار، من أجل أن تدعوه ليسبح الواحد القهار. فهذه المياه المباركة تثير البذور، هذه البذور سماها الله نقعاً، والنقع هو الغبار، وكل شيء يوقع في الماء يسمى نقعاً، وهذه الأرض المحتوية على بذور وحينما تهطل الأمطار في سوريا انطلق في السيارة من مدينة إلى أخرى، دع الأراضي الزراعية جانباً، الأراضي غير المزروعة من أين نبت الحشيش؟ من ألقى بذوره في الأرض؟

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

في كل مكان ألقى الله بذوراً، أنا أذكر في بعض السنوات من دمشق إلى حمص كان الطريق كله أخضر اللون، هذا الطريق أرض قاحلة، حينما جاءت الأمطار غزيرة جداً أنبتت الحشيش، هذا الحشيش أين بذره؟ بذره مدفون في الأرض، فهذه الأمطار الغزيرة المباركة حركت هذه البذور، وعالم

البذور عالم لا ينتهي، عالم يمثل كرم الله عز وجل، لو أن الله عز وجل خلق الأرض وخلق عليها مليار مليار طن بندورة ووضعت في طريقة تحفظ من التلف وجاء البشر وتوالدوا وأكلوا، فلما انتهت هذه الكمية ماتوا جوعاً، الطريقة المثلى التي تجعل الإنسان يأكل مادام حياً هي طريق البذور. نبات البطيخ يحمل سبع عشرة بطيخة من بذرة واحدة. ومن نصف غرام بذر بندورة ينتج نصف طن بندورة، هذا عطاؤنا.

لولا الماء لما نبت الزرع ووظيفته أنه وسيط :

الخضار كلها لها بذور، إذا دفنتها في الأرض ورويتها بالماء نقعت به فتحرك الرشيم، الرشيم كائن حي له مواصفات لحياته يحيا من عشر إلى ثماني وثلاثين، هذا الرشيم موجود في البذرة والبذرة هي غذاء للرشيم، إذا نقعته في الماء انتعش وأثير وبدأ ينمو مستهلكاً المواد النشوية في البذرة؛ ماذا يفعل؟ ينبت له سويق وينبت له جذير، لكن سرعة الجذير أسرع من السويق من أجل أن يتمكن من امتصاص المواد الغذائية في التربة، فإذا نبت السويق ونبت الجذير، والجذير انتهى بأشعار ماصة، والأشعار الماصة انتهت بقلنسوة ذرة صغيرة، وهذه الذرة تأخذ حاجتها من التراب قد تأخذ البوتاس، قد تأخذ الكبريت، قد تأخذ الحديد، من علم هذه الشعرة التي لا ترى بالعين أن تأخذ سبع ميكرونات حديد، ثمانية فوسفور، وأربعة كلس، من علمها أن تأخذ النسب الضرورية محلولة بالماء، ولولا الماء لما نبت الزرع، والماء وظيفته أنه وسيط، لذلك الله عز وجل قال:

(َأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

الماء مهمته أنه تحل به جميع المواد في التربة، يأتي الجذير ويأخذ من هذا الماء الذي حلت به المواد حاجته، أنت تزرع هذه التفاحة وتراها في الموسم القادم أزهرت ثم عقدت ثمراً صغيراً، مثل حبة المسبحة، ومن ثم كبرت، ومن ثم أصبحت تفاحة كبيرة لها لون شهي لون أصفر بخد أحمر، فيها طعم حلو، وفيها حديد، وفيها فوسفور، قوامها يتناسب مع الأسنان، ليس قاسياً وليس هشاً، ولها قشرة ذات حجم مناسب، ورائحة مناسبة، وطعم مناسب، ونكهة مناسبة، وطريقة حفظ مناسبة، القشر تعليب إلهي، ويبقى شهرين على الشجرة وفي الثلاجات أربعة أشهر تقريباً بفضل هذا القشر، من فعل هذا؟ الله سبحانه وتعالى حينما صب الماء على هذه الأرض وحلت في الماء مواد التربة وجاء الجذير بتوجيه من الله سبحانه وتعالى وامتص المواد المناسبة. ضربت مثلاً: أحضر ثمرة تفاح وأجاص ودراق ومشمش وكرز وتوت وعنب، لا تستطيع أن تقول هذه تفاح طعمتها تفاح اشرح طعم التفاح لا تستطيع، من ذاق عرف، اشرح طعم المشمش تقول ثمر حلو والتفاح حلو والتوت حلو والتين حلو والإجاص حلو

والدراق حلو والعنب حلو والتمر حلو، هل تستطيع أن تشرح لنا كتابة الفرق بين طعم التفاح وطعم الإجاص؟ من وضع هذه النسب الدقيقة جداً؟ من أعطى هذه الفاكهة نكهتها؟ من أعطاها شكلها ولونها وحجمها ووقت قطافها؟ من أعطاها طبيعة تخزينها؟

على الإنسان أن يعرف المنعم ليشكره :

قال بعض العلماء: لو أن هذه الأوامر أردنا أن نكتبها كتابة لصار عندنا مجموعة تضاهي الموسوعات العلمية الكبرى، الموسوعات الآن ثلاثون مجلداً توضع على رف بعرض الغرفة، وكل مجلد ثمانية آلاف صفحة ورق رقيق وحرف صغير. لو أن هذه المحفظة وما فيها من أوامر أردنا أن نكتبها كتابة لضاهت الموسوعات العلمية الكبرى، الهواء ينقل الصوت وينقل الحرارة، المكيف ينقل الهواء بارداً والمدفئة تنقل الهواء ساخناً، والهواء ينقل الصوت وينقل الضوء، الغرفة مضيئة وليس فيها شمس، الهواء يحقق ضغطاً على الإنسان ويعمل توازناً، إذا صعد إنسان في الجو يخرج الدم من آذانه لأنه ارتفع الضغط عنه، والطائرة التي ترتفع في الهواء آلاف الأقدام تضغط ثماني أضعاف حجمها من الهواء وهي على الأرض، وهذه الآية:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً *فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً*إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

ومع كل هذا الإكرام الإنسان جاحد لكل هذه النعم، عليك أن تعرف المنعم لتشكره، أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق لك هذه النعم الشمس والقمر والأرض وما فيها والبحار والرياح والسحب وهذه المستودعات من المياه والينابيع والأنهار والأمطار المنصبة والثلوج والنباتات أنواع منوعة وأشجار زينة وأشجار مظلات وفي نباتات حدودية ونباتات للخشب، منها زان وحور وسنديان وسويد وبلوط هذه كلها نباتات من أجل الخشب إلى جانب النباتات المثمرة.

هناك حكمة بالغة الذي يملك بستاناً ينبت الكرز يقطفه ويبيعه، ثم ينبت المشمش يقطفه ويبيعه، ثم ينبت الدراق يقطفه ويبيعه، ثم ينبت الإجاص، وهناك برنامج فيه برمجة لو أن الله سبحانه وتعالى أنبتها في وقت واحد لتعذر على الفلاح أن يقطفها. من جعل النضج في تسلسل؟ هذه يد كريمة وعليمة، ومع هذا:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

تطعم الكلب رغيف خبز يحرك ذنبه شكراً لك، إذا أطعمت هرة تمسحت برجليك شكراً لك، وهذا الإنسان يجلس على المائدة يأكل ما لذ وطاب ويقول: دفعت ثمن هذه المائدة مبلغاً كبيراً، أحمق، لو أن الله ما خلق هذه المواد أنت الذي تملك ورقاً لا قيمة له.

الله عز وجل خلق الأنعام وذللها لنا :

الذي يسير في الصحراء ركب ناقة وضل به الطريق، ونفد زاده، ونضب ماؤه، وكاد يموت عطشاً وجوعاً، وحينما اشتد به الجوع وأخذ منه كل مأخذ ويئس من النجاة وأيقن بالموت وضاقت نفسه وجعل يبكي، ألفى عن بعد شجرةً فاشرق في نفسه نور من الأمل، هرع نحو الشجرة فرأى إلى جانبها بركة ماء فشرب منها حتى ارتوى، ثم تولى إلى الظل وحانت منه التفاتة، فرأى إلى جانب البركة كيساً مملوءً وهو على وشك الموت جوعاً، فسر به سروراً عظيماً وهو يحسب أن فيه خبزاً، ولكن يا للأسف لقد فتح الكيس فلم يجد إلا لآليء فقال: وا أسفاه هذه لآليء. أي ما قيمة اللآليء إذا حرمت الطعام والشراب، في بريطانيا يهودي ثري ريتشارد، كان يقرض الحكومة البريطانية، مستودعات الذهب عنده كبيرة جداً، ومرة دخل إلى مستودع من مستودعاته وبقدرة قادر ولحكمة حكيم انغلق الباب وراءه، والباب محكم الإغلاق، صاح لا أحد يسمعه، عاش يومين ثم مات، قبل أن يموت جرح أصبعه وكتب على الحائط: أغنى رجل في العالم يموت جوعاً، مات في قلب سبائك الذهب، ما قيمة الذهب إن لم يكن هناك كأس ماء أو قليل من الطعام؟ وعندما يقول الإنسان:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ*وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ*لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

[سورة يس: 71-73]

الأنعام خلقها لكم وذللناها لكم، انظر الغنمة ما أودعها، ولم يضع الله سبحانه فيها أخلاق الذئب أو أخلاق الضبع أو أخلاق الخنزير.

يجحد الإنسان نعمة الله سبحانه وتعالى مع كل الفضل و الإكرام :

قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

مع كل هذا يجحد الإنسان نعمة الله سبحانه وتعالى، مع كل هذا الفضل ومع كل هذا الإكرام والنعم المتعددة الإنسان يجحد نعم الله سبحانه وتعالى ولا يرى فضل الله، مع كل هذا لا يصلي ولا يقرأ القرآن لا يغض بصره عن محارم الله، لا يقول: هذا حلال وهذا حرام:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

كأن الله سبحانه وتعالى يعجب كيف يجحد هذا الإنسان الفضل؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه   ذاك لعمـــــري في المقال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعــته   إن المحـــــب لمن يحب يطيع
أيا غافلاً تبدي الإساءة والجهل   متى تشكر المولى على كل ما أولى
عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها   كأن العيناء حولـــــة أو عميا
لأنت كمزكوم حوى المسك جيبه   ولكنه المحروم ماشمــــه أصلا

* * *

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

شهيد لها معنيان؛ أي هذه الآيات واضحة، من منكم لم ير المطر، لم يحس بالرياح، لم ير البحر والسحاب، لم ير الينابيع والأنهار، لم ير هذه الأشجار والنباتات؟ هذا فضل الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

هذه النعم بادية للعيان، هذه النعم يراها كل إنسان لا تخفى على أحد، ألم يرَ الإنسان أنا خلقناها له؟!!

بعض نعم الله سبحانه على عباده :

نِعَم الله تراها كل يوم صباحاً، مثلاً بيض مسلوق وهذا الموضوع موضوع للتفكر قائم بحد ذاته، هل فكرت بالدجاج وكيف أنتجت هذه البيضة التي هي غذاء كامل؟ والدليل أنها تصبح فرخاً، والفرخ له جهاز عظمي وأجهزة كاملة، حيوان كامل مكمل من هذه البيضة، إذاً هي غذاء كامل، في البيضة ثمانية عشر فيتاميناً، وثمانية عشر شبه معدن، ومئتا نوع من أنواع المواد، البيضة تدرس عاماً دراسياً في كلية الزراعة، موضوع الدواجن موضوع معقد جداً، ويوجد على الطاولة كأس حليب، هل فكرت الحليب من أين جاء؟ واللبن قال تعالى:

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

[سورة النحل: 66]

هل فكرت أن وليدة البقرة تحتاج إلى كيلو من الحليب وهي تعطي ثلاثين كيلو من الحليب، معنى هذا أن الحليب لك، وموضوع بجانب الحليب كأس من الشاي، الشاي نبات من خلقه؟ وتضع ملعقة سكر، من خلق الشوندر؟ رغيف خبز كان قمحاً، صمم القمح على أنه غذاء كامل، زيتون إذا فكرت صباحاً في طعامك تذوب محبة لله عز وجل، تأتي الظهر هناك نوع آخر من الأطعمة كله يدل على عظمة الله وأن عليك أن تشكر هذه النعم السابغة.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

ألم تر النعم؟ جاء ولدك وقال لك: بابا، كان نقطة من ماء مهين صار طفلاً يتكلم ويضحك يداعبك أحياناً ويقلدك أحياناً، وجعله الله سبحانه وتعالى في البيت مثل الملك يبعث البهجة في كل أفراد الأسرة هذه مودة من الله، لو جعل شخصيته مثل الكبار لا يتكلم، يحقد ويتكبر على والديه عندها لا يطاق الطفل، من الذي يربيه؟ تأتي الظهر وترى زوجتك جالسة قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

ترى البيت نظيفاً مرتباً الطعام جاهز:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

كلمة (إنه على ذلك لشهيد) لها معنيان :

عندك غرفة تنام فيها، وغرفة جلوس، حمام، مطبخ، تملك مفتاح بيت:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

تريد أن تزور مريضاً تأخذ معك باقة ورد من خلقها؟ اللون الأحمر في الزهور أجمل لون في الأرض يبعث في النفس البهجة، ضع وروداً اصطناعية لا تؤثر بك، أعطوا الحمار وردة فأكلها، الحمار الذي أعطاه إياها، هذه للإنسان وليست للحمار.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

هذه النعم يشهدها تحت سمعه وبصره، يعيشها كل يوم صباحاً وظهراً.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

هذه الآية لها معنيان، وكلمة (إنه على ذلك لشهيد) أيضاً لها معنيان، المعنى الأول أن هذه الآيات تحت سمعه وبصره يشهدها، المعنى الثاني أنه يشهد على نفسه أنه جحود وإنه على ذلك الجحود لشهيد، لا يصلي يكذب ويغش الناس، يتكبر ويسبب للناس متاعب كثيرة ويستعلي على الناس، وإنه على جحوده لشديد، أول معنى شهيد لهذه النعم والمعنى الثاني شهيد على جحوده.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

الفرق بين الرزق والكسب :

الإنسان أحياناً يحب مصلحته، هنا الخير والمال قال تعالى:

(إنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْن)

[سورة البقرة: 180]

يحب المال، أحياناً في مجلس علم ينام أما عندما يعد خمسمئات لا ينام يمسكها خوفاً من أن تكون اثنتين.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

عند وجود المال والبيع والشراء ينسى أن يأكل:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

مع أن المال في خدمته، والإنسان من جهله صار في خدمة المال، صار عبداً للمال، والعلماء فرقوا بين الرزق والكسب، الرزق المستهلكات أما الكسب ما عندك من أموال هذه ليست لك، عندما يدفن الإنسان في التراب كفنه من الخام الأسمر لأن الأبيض غالي الثمن وعليه قليل من القطن:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

الخير لها معنيان المال أو المصلحة :

الإنسان يحب المال مع أنه قد يكون سبب شقائه، قد يكون فيه طغيانه، قد يطغى في المال وقد يشقى في المال. لذلك الميت حينما يموت ترفرف روحه فوق النعش تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، وأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي.

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت في ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

المعنى الآخر للخير أنه يحب مصلحته، يحب السلامة، يحب النجاة، يحب كل شيء ممتع في الدنيا، انطلاقاً من هذا الحب لو أن الإنسان أحب نفسه لأطاع الله سبحانه وتعالى، لأن الخير كله في طاعة الله

سبحانه وتعالى، والسعادة كلها في طاعة الله، والطمأنينة كلها في طاعة الله، والفوز كله في طاعة الله، والفلاح كله في طاعة الله، والنجاح، فإذا أحببت نفسك وكنت مفرطاً في حب ذاتك استقم على أمر الله. لكن الإنسان يتوهم أن المال هو كل شيء، المال شيء والنبي الكريم قال:

((خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

الإنسان يحب المال وقد يطغى بالمال :

الإنسان يحب المال وقد يكون حتفه في المال، يحب المال وقد يكون شقاؤه في المال، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، يجوز أن تكره ضيق الدخل.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

قد تكون بالدخل المحدود مؤمناً فإذا زاد الدخل فسقت وخرجت عن أمر الله وعصيت الله سبحانه وتعالى واستعليت على الخلق. هذا الذي جمع المال الحلال وأنفقه في الحلال يقال: قفوه واسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ قال عليه الصلاة والسلام: وما زال يسأل ويسأل تركته يسأل ولم تنتهِ الأسئلة. الإنسان لا يتمنى قال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: 32]

لعل الخير كله في الدخل المحدود، لعل الخير كله في هذه الحياة المتواضعة، بهذا البيت، بهذه الزوجة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، الإنسان يحب المال وقد يطغى بالمال لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((بادروا إلى الأعمال الصالحة ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنًى مُطْغِياً...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ماذا قال قارون؟ قال الله تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ*فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ*وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ

لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ *فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص:78-81]

الله سبحانه وتعالى ترك الأعمال ووصل إلى النوايا :

معظم الناس يتحدثون عن بيت كبير لفلان فيقولون: ما هذا البيت؟ هذا القول كأنك قلت: يا ليت لي مثله، الإنسان يتمنى فضل الله، يتمنى رضاء الله، يتمنى طاعة الله قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ*أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)

أفلا يعلم هذا الذي يحب المال إذا بعثر ما في القبور، وخرج الناس لرب العالمين بعثوا؛ كل أعمالهم مسجلة عليهم، ومسجل عليهم نواياهم، والنوايا أبلغ لأنها مبعث العمل، والعمل أساسه النية، والإنسان يفكر بشيء ثم ينطلق إلى العمل، الله سبحانه وتعالى ترك الأعمال ووصل إلى النوايا.

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

المقطع الأخير مقطع تهديد ووعيد :

قال الله سبحانه وتعالى:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء:17]

خبرة الله سبحانه وتعالى بنوايا الإنسان يوم القيامة تكفيه حساباً دقيقاً، لذلك الإنسان في الآخرة يود لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، ولو أن له ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم شفاعة ولا يؤخذ منهم عدل. هذا اليوم الرهيب؛ يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يعطي كل ذي حق حقه، لمثل هذا اليوم فلنعمل، قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

لذلك هذه السورة إن شئتم أن تفهموها على أنها الخيل وما يتبعها هذا فهم صحيح ومعظم التفاسير جاءت بذلك، وإن شئتم أن تفهموها على أنها آيات كونية متعلقة بالرياح والسحاب والمطر وإنبات المزروعات، وهذه النعم التي لا تحصى التي أنعم الله بها علينا، والإنسان بعد كل هذا كنود، يحب المال، يعرض عن الله عز وجل، والمقطع الأخير مقطع تهديد ووعيد، قال تعالى:

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ*إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القارعة 101 -الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1 - 8 الميزان.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

القارعة بمَعْناها اللغوي ليستْ مقْصودة في هذه الآية :

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة القارعة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ*يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ*فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*نَارٌ حَامِيَةٌ)

القارعة وردتْ ثلاث مرات، في قوله تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

لو فَتَحْنا قواميس اللغة ومعاجِمَها، القارعة أنْ تَقْرَعَ أيْ تضْرب شيئاً صُلْباً بِشَيْءٍ صلب، هذا هو المعنى المُعْجمي واللغوي وهو بالتأكيد أنَّ الله لا يُريده، لو أنَّ الله سبحانه وتعالى يُريدُ المعْنى اللغوي لما قال:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ)

في هذه الآيات الثلاث الأولى إبْهامٌ وتَهْويلٌ وتعْجيز :

قد أقول لكم الجِدارُ وما الجدار وما أدراكم ما الجدار، لا يُمْكِن أنْ تعنِيَ هذه العبارة الجدار، قد أُحَدِّثُكم عن جدار الصوت وعن طائِرَةٍ أسرع من الصوت، وهذه طائرة تجْعل أمامها جِداراً ثمَّ تخْتَرِقُهُ فَيَحْدُثُ دَوِيٌّ كبير، قال علماءُ التفْسير: في هذه الآيات الثلاث إبْهامٌ وتَهْويلٌ وتعْجيز، فحينما قال الله تعالى: القارعة، شيءٌ مُبْهَمٌ، معْنى القارعة اللُّغَوي لا يرْقى لأنْ يكون من كلام الله عز وجل، لا بد أنَّ الله سبحانه وتعالى يريد شيئاً كبيراً جداً، أكثر من أنْ تضرب شيئاً صُلْباً بِشَيْءٍ صُلب؛ فحينما جاءَتْ القارعة مُبْهَمَة كان إبْهامُها باعِثاً لنا لِطَرْحِ السؤال؛ جاء السؤال: ما القارعة؟ تَهْويلٌ ثمَّ جاء التعْجيز، وما أدْراك ما القارعة؛ أيْ إنَّ أحداً على وَجْهِ الأرض لا يستطيع أنْ يُدْريك ما القارعة، لماذا؟ لأنها من أمور الغيب، الإنسان محْجوب عن الماضي بالزمن، ومحْجوب عن المُسْتقبل بالزمن، فهذا المكان الذي نحن فيه لا ندْري قبل ألف عام من أقام فيه؟ هل كان بُسْتاناً؟ هل كان بيْتاً؟ هل كان طريقاً؟ هل كان

ساحَةً؟ فنحن محْجوبون عن الماضي بحاجز الزمن، ولا ندْري بعد ألف عام ما سَيَكون بهذا المسجد! هل سَيَبْقى مسْجداً يَؤُمُّهُ المُصَلُّون، ماذا يحْصل ونحن محْجوبون عن عالم المُستقبل بحاجزِ الزمان؟ ونحن محْجوزون عن الحاضِر بحاجز آخر وهو المكان؟ نحن الآن في دمشق لا ندْري ماذا يجْري في مكة! ولا ندْري ماذا يجْري في المدينة! لا ندْري ماذا يجْري في القُطْبين! فالإنسان أمام ثلاثة حواجز، حاجز المكان يحجزه عن الحاضر وحاجز الزمان يحجزه عن الماضي والمستقبل، وما دامت القارعة وهي يوم القيامة من الأمور الغيبية التي لم تحدث بعد فإن أحداً من بني البشر لا يستطيع أن يخبرنا عنها إلاّ الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه وتعالى خالق الزمان والمكان، والزمان والمكان لا يحجبان عن الله شيئاً لأنهما من خلقه، إذاً القارعة شيء مبهم، ما القارعة؟ سؤالٌ مُثير يبعث الاهتمام، وما أدراك ما القارعة تعجيز.

ومن أسماء يوم القيامة القارعة، الحاقّة، الطّامَّة، الصَّآخَّة، يوم الفصل، النبأ العظيم، هذه كلُّها من أسماء يوم القيامة، والقارعة أحد هذه الأسماء، ولكل شيء من اسمه نصيب.

الحكمة من جعل كلمة (القارعة) كلمة مبهمة :

لِمَ سمَّاها الله القارعة؟ لأنها تقرع الإنسان، قال تعالى:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 52]

تصيبه بالذُّهول، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

أي ضربٌ شديد مُفزع مُخيف تُصعَق له النفوس، تَقرع الإنسان فتصيبه بالذُّهول، تقرع السماء فتصيبها بالانفطار والانشقاق، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

وقال:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)

[سورة الانفطار: 1]

تقرع الجبال فتَنسِفُها نسفاً وتدُكُّها دكاً، تقرع البحار فتفجِّرُها، وتقرع النجوم فتَنكدِر، تقرع الشَّمس فتُكَوَّر:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

أحد أسماء يوم القيامة، لكنه لشِدَّة الهول وعِظَم المُصيبة، ولِفَظاعة الخَطبِ، ولأنها تَدُكُّ كل شيء، وتبيِّن معالم كل شيء، وتبطل كل القوانين، وتحلُّ كل التماسكات، وتعطّل كل الزمن، وتجعل الشمس تتكوَّر، والنجوم تنْكدر، والسماء تنْفطر، والبحار تُفَجَّر، وتجعل الأرض تُشَقَّق وتُدَكّ، والإنسان يسْعى، جعلها مبهمة.

القارعة هنا لها معنى اصْطِلاحي وهو يوم القِيامة تَقْرَعُ كُلّ شيء وتُصيبه بالذهول:

ذكرتُ قبل قليل أنَّ هناك معنىً لُغوياً ومعنىً اصْطِلاحياً، فالقارعة بِمَعْناها اللغوي ليستْ مقْصودة، مثلاً كلمة " نَحْو" تقول ذهَبْتُ نحو المدينة، فكلمة نحو لها معنى لُغَوي، ولكنَّ علماء اللغة استعملوا هذه الكلمة كَمُصْطَلح؛ علمُ قواعد الكلام فإذا قلْتُ تعَلَّمْتُ النحْو هنا تُقَدِّرها بالمعنى الاصْطِلاحي، الحجُّ هو القصْدُ فإذا قال الله عز وجل:

(فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

فالحجُّ هنا له معنى آخر، وهي العبادة التي تعْني الذهاب إلى البيت الحرام والطواف حَوْلَهُ والسعْي بين الصفا والمروة، والوُقوف بِمِنى ومُزْدَلَفة وغيرها، فالحجّ له معنى لُغَوي واصْطِلاحي، فَقَرَعَ بِمَعنى ضَرَبَ، العَبْدُ يُقْرَعُ بالعصى والحرُّ تكْفيه الإشارة، لكنَّ القارعة هنا لها معنى اصْطِلاحي وهو يوم القِيامة تَقْرَعُ كُلّ شيء وتُصيبه بالذهول، وتُبَدِّلُ معالم الكون، تُعَطِّل علاقاته، وتُبْطِلُ قوانينه:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

أضيق دائِرَة هي المُشاهدات ثم المسْموعات ثم الخواطر :

ثمَّ قال تعالى:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

قبل أنْ نشْرح هذه الآية نَقِفُ مرَّةً ثانِيَة عند مَدْلولات الألْفاظ، ربنا عز وجل قال:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

[سورة الرعد: 35]

لماذا قال الله عز وجل مثلُ الجَنَّة؟! لأنَّ الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي قال:

((قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

وفي الحديث تَرْتيبٌ منطِقي، الإنسان له مُشاهدات محْصورةٌ في دائِرَة، وله مسْموعات وهي أشياءُ سَمِعَها، لكنَّ دائرة المسْموعات أوْسَعُ بِكَثيرٍ من دائرة المشْهودات، المُشاهدات ما شاهَدْتَهُ أنت لكنَّ المسْموعات ما شاهَدْتَهُ أنت وما شاهده غيرك فَسَمِعْتَهُ أنت، لكِنَّ دائِرَة ثالثَة هي دائِرَةُ الخواطر وهي واسِعَةٌ جداً؛ قد تُشاهِد إنْساناً، طوله مِتْرَان، وقد تسْمعُ أنَّ إنْساناً في القارة الفُلانِيَّة طوله مثران ونِصْف! هذه مسْموعات، وقد يخْطر في بالِكَ إنْسانٌ طولُهُ ثلاثة أمْتار، فكما تُلاحِظون أنَّ أضْيَقُ دائِرَةٍ هي دائِرَةُ المُشاهدات، والتي بعْدها دائِرَةُ المسْموعات، والتي بعْدها دائِرَةُ الخواطر، الآخرة شيءٌ لم يقع بعْدُ قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدْسي:

((قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم :

ربُّنا عز وجل إذا أراد أنْ يُعَرِّفَنا عنه، يُعَرِّفُنا بالجنَّة، وما فيها من فواكِه فقال: فواكه وهم مُكْرمون، قال: عِنَبٌ ورُمان، قال: نخيل وأعْنابٌ ورُمان، فَثَمَّة أسْماء فواكه في الدنيا، هذه الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم، لها طعْمٌ آخر بِحَيْثُ ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، من الآيات التي تعْني هذا المعْنى قوله تعالى:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 25]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:" ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم "، قد يكون في الجنة تُفاح ولكن تُفاح الجنَّة له طعْمٌ آخر لم نُشاهِدْهُ ونسْمع به ولم يخْطر على بالنا ولم نتذَوَّقْهُ بعْد، ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، أعْدَدْتُ لِعِبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالله عز وجل يسْتخدِمُ كلمات نسْتعملها في كلامنا ولكنّ المدْلول الإلهي لِهَذه الكلمات ليس المدْلول الذي نفْهَمُهُ نحن، لا بد من فَهْمٍ آخر لِكَلمات الله عز وجل. قال تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ*يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

الحقيقة أنَّ مشاهد يوم القِيامة كثيرة؛ من هذه المشاهد أنَّ الله سبحانه وتعالى خَبيرٌ بأعْمالنا، ويُرينا أعْمالنا، ويُنْطق أيْدينا وأرْجلنا وجلودنا علينا، وبل يُنْطق الأرض كلها بما فعَلْنا، وهذا مشْهَدٌ من مشْهَدِ يوم القِيامة.

هذه السورة اخْتَصَّتْ بِمَشْهَدٍ واحدٍ من مشاهِدِ يوم القِيامة وهو الميزان :

الحِسابُ مشْهد، والجزاءُ مشْهد، والميزانُ مشْهَد، هذه السورة اخْتَصَّتْ بِمَشْهَدٍ واحدٍ من مشاهِدِ يوم القِيامة وهو الميزان، كيف توزنُ أعْمال المرْء في هذا اليوم العظيم، يوْمَ يكون الناس، هؤلاء البشر الذين هم أكْرم المخْلوقات، والذين كَرَّمَهُم وخلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسْبَغَ عليهم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَة، هؤلاء البشر الذين قال الله تعالى في حَقِّهم:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

هؤلاء البشر الذين سُخِّرَتْ لهم السماوات والأرض يوم القِيامة يكونون كالفراش المَبْثوث وهي صورة، لماذا شَبَّهَهُمْ الله تعالى بالفراش؟ قالوا: لأنَّ الفراش أضْعَفُ المخْلوقات، وقالوا أيْضاً: لأنَّ الفراش من أغْبى المخْلوقات فَهيَ تُلْقي بِنَفْسِها في حَتْفِها، في الضوء فتموت، الذين ضَيَّعُوا الأمانة، هؤلاء الذين نَسوا الله في الدنيا، وعَصَوْهُ، يوم القيامة يكونون كالفراش المَبْثوث، والمَبْثوث المُنْتَشِر، والمُتَفَرِّق، وهو الذي ليس بينه وبين الآخرين علاقة قال تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[سورة الأنعام: 94]

فالإنسان يوم القيامة ينْسلخ عن كُلِّ علاقاته الدُّنْيَوِيَّة إنْ كانَ مُنْتَمِياً إلى جماعة ينسلخ منهم، وإنْ كانَ قَوِياً ينْسلخ من قُوَّته، وإنْ كان ذا شأنٍ ينسلخ من شأنه، وإنْ كان ذا مالٍ ينسلخ من ماله، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، فراشٌ مَبْثوثٌ.

الله سبحانه وتعالى يسْحَبُ أمْدادهُ من الجبال التي كانت في الدنيا فَتَغْدو كالعِهْن المنْفوش:

ثم قال تعالى:

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

الحقيقة الله عز وجل ضرب لنا مَثَل الأشياء الضخمة الصُّلبة والمُتماسِكَة الشامخة في حياتنا، وهي الجبال، الجبال تبعث في النفس الوَقار، ولها سُلوكها ووقارُها، والإنسانُ يُعَظِّمُها أحْياناً، هذه الجبال المُترادِفَة في الدنيا ذَرَّاتُها صُلْبة، الله سبحانه وتعالى يسْحَبُ أمْدادهُ منها فتَغْدو كالعِهْن المنْفوش، العِهْن الصوف الملون الذي انْفَصَل عن الغنم، والمنْفوش، قد تجد على ظهْر الغَنَمَة صوفاً مُتَكَتِّلاً يأتي الإنسان فيُفَرِّقهُ:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ)

قال تعالى:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 52]

الفرق بين كلمة (وما أدْراك) وكلمة (وما يُدْريك) :

الله سبحانه وتعالى إذا قال: وما أدْراك، معْنى ذلك أنه سَيُدْريكَ هو! ولا أحَدَ في الأرض مُؤَهَّلٌ كي يُدْريك لكنّ الله وحْده يُدْريك، أما إذا قال الله سبحانه وتعالى: وما يُدْريك هذا من شأن الله سبحانه وتعالى، لا أحدَ يدْريك والله لن يُدْريك، مثلاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

[سورة الشورى: 17]

وقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة لقمان: 34]

وقال:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

[سورة عبس: 3]

معنى ذلك أنَّ هذا من اخْتِصاص الله تعالى.

(وما أدْراك) تعني أن أيَّ إنْسانٍ لا يسْتَطيعُ أنْ يُدْريك ولكنَّ الله يُدْريك :

لكنَّ الله تعالى قال:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

الله سبحانه وتعالى أدْرانا ما الحاقة، وقال:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

[سورة المدثر: 27]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ)

[سورة المرسلات: 14]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

[سورة الانفطار: 17]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[سورة المطففين: 19]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ)

[سورة البلد: 12]

وما أدْراك ما العَقَبَة، وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

[سورة الطارق: 19]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

[سورة القدر: 2]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

[سورة الهمزة: 5]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ)

[سورة القارعة: 10]

في آخر هذه السورة، فَحَيْثُما وردت: وما أدْراك، تعني أن أيَّ إنْسانٍ لا يسْتطيعُ أنْ يُدْريك ولكنَّ الله يُدْريك.

الإنسان ينْبغي أنْ يقول (إنْ شاءَ الله) إذا أراد أنْ يفعل شيئاً في المُسْتَقبل :

أما إذا قال تعالى:

(وَمَا يُدْرِيكَ)

[سورة الأحزاب: 63]

كان ذلك معنى آخر ،وهو أنه تعالى سوفَ يُدْرِك:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

القارعة تكون:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ)

قال تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

الإنسان ينْبغي أنْ يقول إذا أراد أنْ يفعل شيئاً في المُسْتَقْبل: إنْ شاءَ الله، وبناءً على قوله تعالى:

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً)

[سورة الكهف: 23]

كُلُّ حَدَثٍ يقعُ في المستقبل لا بد له من خمسة عناصر وهذه العناصر لا يمْلِكُها الإنسان:

بعض العلماء قال: الأحداث لها خَمْسُ مُقَوِّمات: الفاعل والمفْعول والمكان والزمان والسبب والقوَّة، مثلاً إذا قلتَ: إنَّني غداً سأذْهَبُ للطبيب الفُلاني، يجب أنْ تقول: إنْ شاء الله، لماذا؟! لأنَّ بقاءَك إلى اليوم الثاني ليس بيدِكَ، فقد يأتي غداً وأنت تحت التراب، وقد يأتي غدٌ والطبيب تحت التراب، فالفاعل الذي هو أنت لا تمْلِكُ حياتك إلى الغد، والطبيب الذي أنت ذاهِبٌ إليه لا يمْلِكُ حياته إلى الغد، والمكان الذي فيه الطبيب قد يُصيبُهُ زلزال فَيَجْعَلُهُ رأساً على عَقِب، والزمان قد ينْقطِع، وأما السبب فإن أراد الإنسان أنْ يذهَبَ إلى الطبيب لِيُعالِجَ ابنه، فإذا مات ابنه انْعَدَمَ السبب، وأما القوَّة فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُمِدُّ الإنسان بالقُوَّة فكَيْفَ يذْهَبُ إلى الطبيب؟! فَكُلُّ حَدَثٍ يقعُ في المستقبل لا بد له من الفاعل والمفْعول والمكان والزمان والسبب والقوَّة، وكُلُّ هذه العناصر الخمسة لا يمْلِكُها الإنسان، فإذا قال: سأفْعَلُ هذا غداً فقد أساء إلى عقيدَتِهِ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من عَدَّ غداً من أجَلِهِ فقد أساء صُحْبَةَ الموت))

[تخريج السيوطي عن أنس]

فالعزْمُ على فِعْل الشيء دون قوله إنْ شاء الله فقد أساء صُحْبة الموت، هذا الكلام سُقْتُهُ على قول الله سبحانه وتعالى على قوله تعالى:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

القضاءُ في الدنيا قد يخطئ لذلك لا علاقة له بقضاء السماء :

الآن دخلنا في صُلْب السورة، وهو مُتَعَلِّقٌ بالميزان قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

لما السيِّدة عائِشَة قالت: يا رسول الله، أيَعْرِفُ بعضنا بعْضاً يوم القيامة؟! قال: نعم، يا أُمَّ المؤمنين إلا في ثلاثة مواضِع، إذا الصُّحُفُ نُشِرَت، وعند الميزان، وعلى الصِّراط.

لماذا لم يقل الله عز وجل: فأما من ثقُلَ ميزانه؟! وقال:، لِمَ جاءتْ كلمة موازين بالجمْع ولم تأتِ بالمُفْرد؟! قد تضْطر لِوَزْن الذهب، وهناك ميزانٌ خاصٌ للذهب، إذا كان هناك مِرْوَحة توقِفُها لأنَّ ضغْط الهواء قد يُسَبِّب رُجحان كَفَّة الذهب والذَّهب غال، فللذهب ميزانه، ولكن إذا وَزَنْتَ شيئاً بالكيلوغرامات لا تحْتاج إلى تَوْقيف المِرْوَحَة، ولا إلى ميزان حساس، هناك موازين إنْ وَضَعْتَ ورقةً وكَتَبْتَ اسمك عليها وزْنُ المِداد يُرَجِّحُ الكَفَّة، هذا ميزانٌ حساسٌ، هناك ميزانٌ أشَدُّ حساسِيّة بحَيث لو وَضَعْتَ يدك على الكَفَّة وَهَبَطَت بها، هذا الهُبوط الخفيف يُسَبِّبُ هُبوط الكَفَّة، وهناك ميزانٌ لو وَضَعْتَ عليه مئة كيلوغرام لا يتَحَرَّك، وهو ميزان السيارات الضَّخْمَة، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

معنى ذلك أنَّ كُلُّ عَمَلٍ له ميزانٌ خاصٌ به، السَّبَقَة لها ميزان، والذكاءُ له ميزان، مُعامَلَتُك لِوالِدَيك لها ميزان، علاقتك بزَوْجتك لها ميزان وكذا بأوْلادك، كَسْبُكَ للمال له ميزان، كيفَ أنْفَقْتَهُ؟ له ميزان، وكذا وَقْتُك والعمل الصالح وعلاقتك بالجار، كلُ هذه لها ميزان، لذلك ربنا عز وجل قال: ثقُلَتْ موازينه، ومعنى ثقُلَت أيْ ليس هناك حاجَة لِوَزْن الحسنات ثمّ لِوَزْن السيِّئات! بل توضَعُ الحسنات في كَفَّة والسيِّئات في كَفَّة فإذا رَجَحَتْ السيِّئات - لم يقُل الله عز وجل رَجَحَتْ بل خَفَّتْ ومعنى ذلك الأصل الحسنات، والحديث عن الحسنات فقط إما أنَّها راجِحَة وإما أنها خفيفة، أو كأنَّ الحسنات هي كُلُّ شيء، إما أنها كافِيَة لِتَسْعَد بالجنَّة إلى الأبد وإما أنَّها خفيفة ليستْ كافِيَة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام حينما أمر أحد الصحابة رضْوان الله عليهم أنْ يَدَعَ الجِهاد معه وأنْ يُلازم أمَّهُ وأباه وقال: صابر الله في برِّهِما، أي برُّ الوالِدَين عَمَلٌ يرجحُ في الميزان وثقيلٌ وله قيمته، هِدايةُ الناس عَمَلٌ ثقيل له قيمته، يا عَلِيّ لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، خيرٌ لك مما طلعَتْ عليه الشمس، خيرٌ

لك من حمر النَّعم، لماذا قال الله تعالى: ميزان، واسْتَخدمها؟ الإنسان أحْياناً قد يُقَيِّمُ شيئاً، سيِّدُنا رسول الله قِمَّةُ البشر وسيِّدُ ولد آدم ومع ذلك لو جاءَهُ خصْمان وكان أحدهما ألْحن من الآخر فلن ينجو من عذاب الله، هذا القضاءُ لا علاقة له بقضاء السماء.

القاضي بشر ويجْتهدُ أنْ يُصيب لكنَّ ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل:

القاضي بشر ويجْتهدُ أنْ يُصيب لكنَّ ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل، يَرْوي التاريخ أنَّ قاضِياً تَوَجَّهَ إلى أحد الخلفاء وقال: يا أمير المؤمنين، أريدُ أنْ تُعْفِيَني من منْصِبِ القضاء! فقال الأمير: ولم؟ وليس في الأمةِ من هو أعْدل منك! فقال: والله لقد شاع بين الناس أنَّني أُحِبُّ الرُّطَبَ، وفي أحد الأيام طرق الباب رجلٌ وقدَّمَ لِخادِمي طبقاً من الرُّطَب، وجاءني بها في بواكيرها - إذْ الفاكِهَةَ التي تأتي في وقتها مُحَبَّبة جداً! فقال: ممن هذا؟! فقال الخادمُ رجُلٌ في الباب، فقال: صِفْهُ لي فلما وصَفَهُ له، عرف أنَّ هذا الرجل له قضِيَّةٌ عنده فَرَدَّ الطبَقَ، وفي اليوم التالي جاء الرجُلان إلى مَجْلِس القاضي فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اسْتَوَيَا في نظري - الخصْمان - على الرغْم من أنِّي رَدَدْتُ الطبق، فَكَيْفَ بي إذا أخَذْتُهُ! فهذا هو الإنسان مهما كان ميزانه حَسَناً قد لا يسْتطيعُ تقْييم الحق مئة بالمئة، سيِّدُنا داوود حينما جاءَهُ مَلَكان على شكل رَجُلَيْن يخْتصِمان إليه، قال أحدهما:

(إنَّ هَذَا أخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيهَا وعَزَّنِي فِي الْخِطابِ)

[سورة ص: 23]

هذا النصّ دقيقٌ جداً، كلمة: لي تِسْعٌ وتِسْعون نعْجَة، هذا الكلام لا علاقة له بحَيْثِيات الدعوة، كان يجب أنْ يقول: إنَّ هذا أخي يُريدُ أنْ يأخذ نعْجتي، له كذا وكذا، كلُّ هذا الكلام خارج الموْضوع، إذا أراد فلانٌ من الناس أنْ يغْتَصِبَ شيئاً، فَهَل تدخُلُ في حَيْثِيات الدَّعْوة أمْلاكُهُ؟ لا علاقة لِهذا بذاك، الاغْتِصابُ اغْتِصابٌ سواء كان المغتصِب فقيراً أمْ غنِياً! مع أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَل قال: إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتِسْعون نعْجة ولي نعْجةٌ واحدة، هذا الكلام طرق مسامِعَ سيِّدنا داوود، فأدْخَلها في حَيْثِيات الدَّعْوة وقال:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 24]

هذه أمْثلةٌ صارِخَةٌ.

الحياةُ الدنيا إنما جِئنا إليها من أجل العمل الصالح :

رسول الله يقول:

((إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ وَإِنَّمَا أنَا بَشَرٌ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكُونَ ألْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ قَضَيْتُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أخِيهِ فَإِنَّمَا أقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً))

[مسلم عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

البشَرِيَّة لها عواطف تأخذ وتعطي، وهذا القاضي لما قال: ما استَوَيا في نظري، ربنا عز وجل قال: ميزان، والميزان حديد والحديد لا يتأثَّرُ بالعواطِف، فهذا الميزان لا يأخذ بالحجم، ولا يتمنى أنْ تكون هذه القِطْعة أوْزَن من هذه، ربنا عز وجل لما قال: ميزان، معنى ذلك أنَّ تقْييم الأعْمال يوم القِيامة من الدِّقة المُتناهِيَة بحَيْث أنَّهُ لا مثيل له في الأرض، أعْمالكَ كُلُّها صغيرُها وكبيرُها، جليلُها وحقيرُها، خاصُّها وعامُّها، فلو وضع النجار عِوَضَ البراغي مسامير يُحاسَب على هذا العمل الخَفِيّ، فالنجار له ميزان، والحداد له ميزان، وصاحِبُ المصْلَحَة له ميزان، والدهان له ميزان، وكُلُّ صاحب صَنْعَةٍ له ميزان يُحاكم فيها، الطبيب يُحاسب حِساباً غير حِساب المُحامي، لم يقُل الله عز وجل: فأما من ثقلت سيِّئاته! السيِّئات ليستْ داخِلَة في الحِساب إطْلاقاً، الشيءُ الداخل في الحِساب هو الحَسنات، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ *)

[سورة العصر]

من هذه الآية يتَّضِحُ أنَّ هذه الحياةُ الدنيا إنما جِئنا إليها من أجل العمل الصالح، وهذا العمل سوف يُقَيَّم تقْييماً مُتناهِياً في الدِّقة، العمل يُقَيَّمُ بنِيَّةِ صاحِبِه ولِهَدَفِه، بمِقْدار ما أزاح من وقْتٍ ومن جُهْدٍ وخِبْرة.

إذا عَبَّر الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفْعول فهُناك عِلَّة كبيرة :

الشيءُ الغريب أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: عيشَةٌ راضِيَة، ولم يقُل مَرْضِيَّة! لماذا؟ راضِيَّة اسمُ فاعِل، الأصْلُ أنْ تقول في كلامك: أنا راضٍ عن هذا البيت، أما أنْ أقول هو راضٍ عنِّي فهذه ليس لها معْنى، فَلِماذا لم يقُل المولى عز وجل: فَهُوَ في عِيشَةٍ مَرْضِيٌّ عنها؟ هذا الموضوعُ مُعَقَّد، فقد قال بعضُهم: قد يُسْتَخْدَمُ اسم المفْعول مكان اسم الفاعل، تقول جريح وهو بمَعنى مَجْروح، وكذا قتيل وطريح فهذا في اللغة وارِدٌ، وكذا وارِدٌ أنْ نسْتخدم اسم الفاعل مكان اسم المفْعول، قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

[سورة الماعون: 5]

فَهؤلاء البشر الذين يتجلى الله عليهم بإمْدادِهم كيفَ هم غافِلون عن هذه الصلاة؟! من معاني هذه الآية أنَّ هؤلاء البشر جميعاً الله هو مُمِدُّهُم بإمْدادِهِ وتَجَلِّياته وروحه وهم عن هذه الصِّلَة غافلون، لكنَّ بعضهم قال: لا يمكن أنْ نستخدم اسم الفاعل مكان اسم المفعول ولا اسم المفعول مكان اسم الفاعل إلا لِعِلَّةٍ كبيرة، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)

[سورة الإسراء: 45]

فكلمة مسْتور لها معنى ساتِر، وقالوا: الحِجاب الكثيف المُؤَلَّفُ من طَبَقَتَين ساتِرٌ ومَسْتور، فلما عَبَّر الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفعول فَهُناك عِلَّةٌ كبيرة.

يوم القِيامة كل المخْلوقات التي خلقها الله تعالى تُسْهِمُ في إمْتاع المؤمنين :

قال تعالى:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)

[سورة الإسراء: 45]

هناك آية أخرى قال فيها ربنا تبارك وتعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

[سورة النساء: 57]

فهذا الظِلّ ظليلٌ أمْ مُظَلَّلٌ؟! كذلك هنا المعنى نفسه ظِلٌّ فوق ظِلّ، فصار الظِلّ الأوّل مُظَلَّلٌ أيضاً، من باب المُبالغة وهذا تَوْجيهٌ. بعْضُهم قال: لا، العيشةُ نفسُها راضِيَة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة الإسراء: 44]

فالنفسُ البشَرِيَّة نفْسٌ والنبات نفس والجماد نفس، يُؤَكِّدُ هذا المعْنى قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

فهذه الأشياءُ تُسَبِّح، لماذا عيشَةٌ راضِيَة؟ قال: الإنسانُ في الدنيا قد يأكل اللُّقْمَة وهي تلعَنُهُ لأنَّهُ ليس أهْلاً لها، وقد يدْخُلُ بيْتاً وهو يلْعَنُهُ لأنَّهُ كافِرٌ وجاحِدٌ بِنِعَم الله عز وجل، لكنَّ الله سبحانه وتعالى سَخَّر له هذا البيت وهذا الطعام، وسَخَّر له هذه الدابَّة، وهذه الكأس من الماء، لكن يوم القِيامة هذه المخْلوقات تُسْهِمُ في إمْتاع المؤمنين.

المؤمن يوم القِيامة يأكل اللُّقْمة وهي راضِيَةٌ عنه لأنَّها تعْلمُ أنَّهُ يسْتحقها :

تعلم أنّ هذا المؤمن له حياة مملوءَة بالطاعات، وأنَّهُ يسْتحِقُّ هذا النعيم، فَهيَ بهذا راضِيَةٌ عنه، فالمؤمن يوم القِيامة يأكل اللُّقْمة وهي راضِيَةٌ عنه لأنَّها تعْلَمُ أنَّهُ يسْتحقها قال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كان يعْرف حجراً بمَكَّة يُسَلِّمُ عليه، ودخل إلى بُسْتانٍ فرأى جَمَلاً فلما رآهُ الجمل ذَرفتْ عَينا الجمل بالدُّموع، فمَسَحَ جِفْنَيْه وقال: من صاحب هذا الجمل، فقالوا: فتىً من الأنْصار، فقال: آتوني به، فلما جاؤوا به قال: ألا تتَّقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها فإنَّهُ شكا إلَيَّ، وحينما انْتَقَل عليه الصلاة والسلام إلى المِنْبر حَنَّتْ إليه النخلة، حتى أنَّها سُمِّيَتْ الحناء ونص الحديث:

((أَنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ))

[النسائي عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ]

وهي الآن في المقام النبوي الشريف مِنْبرهُ صلى الله عليه وسلَّم رَمْزٌ لِهَذه النخلة التي قُطِعَت، وكانت تَحِنُّ إليه، كان عليه الصلاة والسلام حينما يصعد المنبر يضعُ يده على النخْلة، فَكُلُّ شيءٍ تسْتَهْلِكُهُ يُسبِّحُ بحَمْدِه، لذلك بعض العارفين قال: إذا الإنسان جلس ببُسْتان ووجد حشيشاً ثمَّ قطعه كان ذلك إثْماً إذْ يقول لك الحشيش: لِمَ قطَعْتني؟! لو أنَّ خروفاً أكَلَني لكنت سعيداً، إنني خُلِقْتُ من أجل الخروف كي يقْتاتَ بي ولِكَي تقْتات أنت بالخروف! قد تقطعُ زَهْرَةً، لو بلغَتْ حساسِيَّتُك هذا المُستوى لَخَشيتَ أنْ تدوس على زَهْرة لأنَّها نفسٌ تُحاسِبُك، لو تركْتَ في صحْنك حَبَّة رزٍّ لعاتَبَتْكَ لأنها نفْسٌ، سيِّدُنا حنظلة رآه سيِّدنا الصديق يبْكي فقال له: ما لك يا حنظلة تبكي، فقال: نافق حنْظلة، فقال الصِدِّيق ولِمَ؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن مع الجنَّة كهاتَيْن، فإذا عُدْنا للأهل لَهِيَتْ قلوبنا! لو بقيتم على الحال لصافحتكم الملائكة، المعنى الأول بالعيشة الراضِيَة أنَّ الإنسان يوم القِيامة هذا الذي يأكله نفوس، يستحق أنْ يأكل هذا الإنسان هذا الطعام وهو راضٍ عنه، أما في الدنيا قد يشرب هذا الإنسان هذا الماء وهو يلْعَنُهُ، وقد يأكل الطعام النفيس وهو يلْعَنُهُ لأنَّهُ يكفر بربِّه، قال تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 29]

معنيان لقوْل الله تعالى (فهُو في عيشةٍ راضِيَة) :

سيّدنا أنس سئل: يا إمام أتَبْكي السماء؟ قال: نعم، ما دامت هنا لم تبْكِ على هؤلاء لا بد أنَّها تبْكي على أناسٍ آخرين، ربنا عز وجل عندما قال:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 29]

قال عليٌّ مَوْضِعان: موْضِعٌ في السماء ومَوْضِعٌ في الأرض يبْكِيان على المؤمن، مصْعَدُ عمله في السماء، ومُصلاهُ في الأرض يبْكِيان عليه، فالسماء تبْكي، بعض المُزارعين ينهى عن سلخ الغصن لأنها نفْس لا بد من قصِّه قصّاً نِظامِياً، في بعض التجارب وضعوا جهازاً حساساً للرطوبة وُضع على غصن نبات، جاء إنسان ومَزَّق نباتاً أمامه فإذا بعقْرب الجهاز يتحرَّك دَلَّت على أنَّ هناك حياةٌ للنبات لم يكْتشفوا حقيقتها بعد، فقوله تعالى:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 21]

هذا الشيءُ الذي يتنعَّمُ به يوم القيامة نُفوسٍ راضِيَةٌ عن المؤمن، والمعْنى الآخر أنَّ الإنسان في الدنيا قد يكون في نعيمٍ مُقيم لكن يُداخِلُهُ قلقٌ عمي لا يفْتأ حتى يُفارق هذا البيت، أو أن يُفارق هذه الزوْجة، أو يبيْع هذه السيارة، هذا القلق يُدَمِّرُ سعادته، أما ربنا عز وجل لما قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 21]

أيْ هذا الشيء الذي معه في الجنَّة راضٍ عنه، ومعنى راضٍ عنه أنَّهُ مٌلازمٌ له، ولا ينْفكُّ عنه، ليس مُسَخَّراً بل هو مُلازماً لهذا الإنسان طوْعاً، وهذا هو معنى قوْله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

بركات الجنَّة وبركات النار :

مثلاً - ولو أنَّ الإيداع بالمَصْرف غير وارد - إذا إنسان أوْدَعَ لَيْرَتَين في مصرف ثم غاب سَنَتَيْن ثمَّ رجع فأراد كشْفَ حِسابه فإذا به يجد أن حِسابه اثنتا عشرة لَيْرة، أما لو أوْدَعَ الإنسان مئتي ألف كلّ يوم ثمَّ غاب عشر سنوات فإذا أراد كشْفَ حِسابه بعد العَوْدة، أعْطَوا له دَفْتر كشْف حساب لأنَّه لا تكْفي ورقة لِعَدِّ ما ترك وما ربح! للإنسان عملٌ كبير بالدنيا يودِعُهُ صدقات، زكاة، إعانة مريض، خِدْمة إنْسان، أحْسَنَ لِزَوْجَتِهِ وأوْلاده وجيرانه، هذه أعْمال ضَخْمة وثقيلة يوم القِيامة، قال تعالى:

(فأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ)

كلمة أُمّ مَبْعَثُ الحنان، مَلْجأ وملاذ وهذه من بلاغة القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

[سورة الكهف: 29]

فَأُمُّه التي يأوي إليها ويَحْتمي في كَنَفِها ويرْتاحُ في حِجْرِها هي النار، فأُمُّهُ هاوِيَة، يَهْوي بها، لما بلغ أنَّ النبي علم أنَّ بعض المُنافقين تُوُفِي قال: الآن استقرَّ في جَهَنَّم حجرٌ كان يهْوي منذ سبعين خريفاً، لذلك قالوا: بركات الجنَّة وبركات النار قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

[سورة النساء: 145]

اِفْتَرَشَ الأرض والْتَحَف بالسماء:

مُشَرَّدٌ يهْوي إلى هَمِّه إذا أوى الطَّيْرُ إلى وَكْرِهِ

*** * ***

(فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*)

هذه الأمّ التي يأوي إليها هي نارٌ حامِيَة! لو أنَّ إنْساناً قال لك: هذه المِقلاة ساخنة كان معنى ذلك أنَّ حرارتها مئة وخمسون، أما إذا إلهٌ عظيمٌ قال لك: نارٌ حامِيَة فهي على قُدْرَتِه، وهذه صورةٌ دقيقة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكاثر 102 -الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8 علم اليقين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة اليوم سورة التكاثر، وقد تجاوزنا سورةً أو أكثر لأن لموضوعها علاقة برمضان.

التكاثر كلمة مطلقة تعني التكاثر من حطام الدنيا ونهايتها القبر :

أيها الأخوة المؤمنون، الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

التكاثر كلمة مطلقة، تعني التكاثر في جمع المال، وتعني التكاثر بالأولاد، وتعني التكاثر من حطام الدنيا، أي رغبة الجمع والاستزادة والتفوق والافتخار والمباهاة، هذه الرغبة التي تتولد في أهل الكفر والعصيان، وأهل الفسوق والنفاق، هذه الرغبة الملحة ما نهايتها؟ نهايتها القبر.

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ)

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي.))

[ورد في الأثر]

هذا التكاثر على إطلاقه، في جمع المال، في المباهاة بالأقران والأولاد، في جمع حطام الدنيا، في التسابق على شهواتها:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

هذه وقائع، الإنسان يسعى ليلاً نهاراً، يُفاجأ بالموت ولم يحسب له حساباً، هذه الساعة ساعة عظيمة، يوم يحس الإنسان بالخسارة الكبرى.

الله أرسل هذا الإنسان إلى الدنيا لمهمة عظمى لكنه نسي المهمة واشتغل بالتافه :

قال تعالى:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ)

لو أب وضع ولديه في مدرسة من أعلى مستوى، وهذه المدرسة مقامة على شاطئ بحر، والطلاب جميعاً منصرفون إلى تلقي العلم والمعرفة ونيل أعلى الشهادات بينما ولدان أو طالبان ذهبا إلى شاطئ

البحر وجمعا الأصداف، وفي المساء تنافسا وتناقشا على عد هذا الحصى الذي جمعاه، يقول لهما الأب: ألهاكم جمع الحصى والصدف عن الدراسة والعلم، كأن الله سبحانه وتعالى أرسل هذا الإنسان إلى الدنيا لمهمة عظمى، هذا الإنسان نسي المهمة واشتغل بالتافه، اشتغل بجمع الدرهم والدينار، اشتغل بالحطام، فربنا عز وجل يقرر حقيقة.. يا أيها المعرضون، يا أيها الشاردون، يا أيها الضالون.. ألهاكم التكاثر، انشغلتم بالمال وجمعه، انشغلتم بالدنيا وزينتها، انشغلتم بمباهجها عن هدفكم الكبير وعن المهمة التي خلقكم من أجلها.. حتى زرتم المقابر، سبحان الله الإنسان أحياناً يعد لكل شيء عدته إلا الموت، يحسب لكل شيء حسابه إلا ساعة اللقاء، يفكر في كل شيء إلا الرحيل عن هذه الدنيا.

هنا المفسرون وقفوا عند كلمة: حتى زرتم، الإنسان إذا زار بيتاً لا بد من أن يرتحل عنه، يزوره ثم يرتحل عنه، فاستنبط العلماء أن الإنسان إذا دخل في القبر لا بد من أن يرتحل عنه إلى جنة أم إلى نار، لذلك قالوا: القبر دهليز الآخرة، النفق الذي يوصل من الدنيا إلى الآخرة، فربنا سبحانه وتعالى اختار هذه الكلمة بالذات:

(حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

الإنسان السعيد من جعل ساعة اللقاء ماثلة أمامه وأعدّ لها عدتها :

والله الذي لا إله إلا هو ساعة الموت كالصاعقة على الإنسان إن لم يعد لها عدتها، لكن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن هذه الآية، أن الذي يسعى لرزق ولحاجة أساسية لا ينطبق عليه هذا الكلام، يعني الذي يسعى للنماء، لجمع المال، للجمع على إطلاقه للاستزادة، للتكاثر، للاستعلاء، هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ* كَلَّا)

(كلا) هذه في الكلام أداة ردع ونفي، الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون الهدف من خلق الإنسان جمع الدرهم والدينار، الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون التكاثر هو الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، قال الله عز وجل بدافع الرحمة والعطف والحنان: كلا.. لم تخلقوا لهذا، لم أخلقكم لهذا، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان طفلاً كان إذا دعي إلى اللهو يقول: لم أخلق لهذا، عرف مهمته، والطالب المجتهد إذا دُعي إلى سهرة تافهة، أو إلى نزهة رخيصة، أو إلى تمضية ساعات في الطريق، أو إلى تمضية يوم في مكان سخيف، إذا دُعي إلى هذا يرى مهمته الأساسية في تحصيل العلم وفي نيل الشهادات، لذلك

يقول: لا، ربنا عز وجل يقول: كلا، أداة ردع ونفي كأن الله سبحانه وتعالى يقول: كفاكم تكاثراً، دعوا هذا الطريق، لأنه طريق مسدود، طريق ينتهي بالخسارة، طريق ينتهي بالدمار:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

دع هذه الآية وانظر لواقع الناس، هذا الذي جاءه ملك الموت، هل كان يحسب له حساباً؟ فكر في كل شيء إلا ساعة الموت، فكر في كل شيء إلا ساعة اللقاء، فالإنسان السعيد من جعل ساعة اللقاء ماثلة أمامه، إذا جعلها أمامه ماثلة أعد للموت عدته، أرسل ماله أمامه فسره اللحاق به، عمل الصالحات فاشتاق إلى لقاء الله، اشتاق إلى لقاء الله لأن عمله طيب.

من علامة معرفة الله الشوق إلى لقياه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الجمعة: 6]

الذي عرف الله حق المعرفة، والذي قدره حق قدره ما علامة ذلك؟ أليس لهذا علامة مادية ظاهرة؟ ما علامة الجد والاجتهاد؟ النجاح في الامتحان، فإذا رسب الطالب فهذا الذي يدعيه خطأ، أصبحت دعوى.

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاك

* * *

كل إنسان يدعي أنه يعرف الله، هل من علامة واضحة تؤكد أنه يعرفه؟ قال أحد الأخوة الأكارم: طاعة الله علامة معرفته، قلت والله جميل، فعلاً طاعة الله أكبر دليل على أنك تعرفه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيـع

* * *

من علامة معرفة الله الشوق إلى لقياه، هذه علامة صارخة، لأنك إذا عرفت رحمته وإذا عرفت ما عنده من فضل، وأن تجليه يملؤك سعادة اشتقت إليه وذكرت هذه الآية:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الجمعة: 6]

من علامة أنك تعرفه أنك ترى وحدانيته :

لو لاح لك شبح الموت هل تقول مرحباً بلقاء الله وعلى الدنيا السلام أم ترتعد فرائصك وتقول لا أريد أن أموت في هذا الوقت؟ هذه علامة، فالشوق إلى لقاء الله علامة معرفته، وطاعته علامة معرفته، وشعورك بأن الله يراقبك علامة معرفته، وهو معكم أينما كنتم، أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المجادلة: 7]

ومن علامة أنك تعرفه أنك ترى وحدانيته:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

علامات أخرى لمعرفة الله سبحانه :

إذا خفت من يد آثمة فيد الله فوقها، إذا خفت من يد معتدية فيد الله فوقها، قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

علامة معرفته أن توحده، وأن تشتاق إلى لقياه، وأن تطيعه، وأن تحس أنه يراقبك، فأحيي ما شئت من ليالي رمضان، إن عصيته فكل هذا الإحياء لا قيمة له، لأنك لا تعرفه، وقد تحصل لك هذه الليلة في أي

يوم من أيام السنة، في الساعة التي تحس أنك يجب أن تطيعه، ويجب أن تؤثره على كل شهواتك، في اللحظة التي ترى أنه كل شيء وأن لا شيء سواه، وأنه بيده مقاليد الأمور، وأنك إذا طلبت رضاه فقد طلبت كل شيء، وأنه إذا فاتتك الجنة فقد فاتك كل شيء، هذه اللحظة التي ذكرها القرآن ليلة القدر:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[سورة القدر: 3]

الإنسان الآن مخير بين أن يعرف فيسعد أو يتجاهل فيشقى :

معنى كلام ربنا عز وجل: كلا لم أخلقكم لهذا، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

بلا حساب:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

سوف، الآن لا تعلمون، الآن أنتم جاهلون، ربنا يخاطب أهل الدنيا، من ألهاهم التكاثر، من انغمسوا فيها، كلا سوف تعلمون، الآن لا تعرفون لكنكم سوف تعرفون، ألا يحصل هذا مع الأب وابنه؟ يصر الابن على شيء يراه الأب خطأً، يقنعه دون جدوى، يزجره دون جدوى، يردعه دون جدوى، ينصحه دون جدوى، إذا ضاقت به الحيل واستيأس منه يقول هذا الأب: سوف ترى، الأيام وحدها تريك خطأك، وفعلاً بعد أن يقع الابن ويدفع الثمن غالياً ويندم ولات ساعة مندم، يقول لأبيه: صدقت لقد عرفت الحقيقة ولكن متى بعد فوات الأوان.

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

نحن الآن مخيرون؛ إما أن نعرف ما يجب أن نعرفه الآن وإما أن تكون هذه المعرفة حسرةً في قلوبنا، إن عرفنا ما يجب أن نعرفه الآن هنيئاً لنا، وإن كابرنا وتجاهلنا الحقائق، ووضعنا رأسنا في الرمال فسوف نعلم الحقيقة، إن معرفة الحقيقة ستكون حسرةً في قلوبنا، إن معرفة الحقيقة ستكون عبئاً علينا بعد أن كانت في خدمتنا، المعرفة سوف تكون عبئاً علينا:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

متى؟ عند الموت.

مناسبتان خطيرتان نعلم بهما الحقيقة؛ عند الموت ويوم يقوم الناس لرب العالمين :

أعرف رجلاً كان منغمساً في الدنيا إلى قمة رأسه، لم يترك متعة من متع الحياة إلا وانغمس فيها، جاءه مرض خبيث في السابعة والثلاثين من عمره، كل ليلة يقضيها في مجلس إنس وطرب، ليس في حياته شيء حرام، كل شيء مباح له، وله دخل كبير، وبيت فخم، وبيت في المصيف، وسيارة فارهة، وصاحب طرفة، وظل خفيف، لما علم أن مرضه عضال، وأنه آخر عهده بالدنيا، بدأت تأتيه نوبات هستيرية، يقول: لا أموت، لا أريد أن أموت، إلى أن جاءه ملك الموت حقاً ليقبض روحه، فصاح صيحة لم يبق في البناء كله أحد إلا فزع منها، هذه ساعة النزع:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِر*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

متى؟ عند الموت، ربنا عز وجل قال:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

مرةً ثانية متى؟ يوم القيامة، هناك مناسبتين خطيرتين تعلمون بهما الحقيقة، الأولى عند الموت والثانية يوم يقوم الناس لرب العالمين:

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

فهذه سوف للمستقبل، يا حبذا لو نعلم الآن، يا حبذا لو نعلم الآن علم اليقين، لو نعلم الحقيقة كاملة، لو نعلم حجمنا الحقيقي، لو نعلم المهمة التي خُلقنا من أجلها، لو نعلم كم عند الله من خير، كم عنده من سعادة، كم عنده من عذاب أليم لمن عصاه وظلم نفسه.

في هذا الكتاب قوانين أشد دقة وثبوتاً وحتميةً ووقوعاً من قوانين الفيزياء والكيمياء:

قال تعالى:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

كلا.. كأن الله يردعنا، إلى متى أنتم غافلون؟ إلى متى أنتم سادرون؟ إلى متى أنتم تائهون؟ إلى متى أنتم شاردون؟

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ *كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ)

أيها الأخوة الأكارم، أحب أن أقول لكم شيئاً، هذا الدين دين الله وخالق الكون، أليس في الأرض حتمية الحدوث؟ قوانين الرياضيات، قوانين التجاذب الفلكي، قانون ثابت، قوانين السقوط، قوانين التمدد، القوانين التي اكتشفت في الذرة، في المجرة، في الفيزياء، في الكيمياء، في الرياضيات، في الطبيعيات، في الجيولوجيا، هذه القوانين التي استنبطها العلماء من ظواهر علمية بعد أن حللوها واستقرؤوها

واستنبطوها، إنها تأخذ شكل القانون، أي علاقة ثابتة بين متحولين، هذه القوانين من صنع الله، وهذا الدين دين الله، لا بد من أن يكون في الدين قوانين لا تقل حتمية وثباتاً ودقة وضرورة عن قوانين الفيزياء، كيف أن كل معدن يتمدد بالحرارة، كيف أن كل جسم إذا تركته يسقط بسرعة حسبها الحاسبون، كيف أن للضوء قوانين وللعدسات محرق وللأشعة استقامة، تنكسر في الماء، كيف أن لكل شيء قواعد ثابتة. والله الذي لا إله إلا هو في هذا الكتاب قوانين أشد دقة وأشد ثبوتاً وأشد حتمية وأشد وقوعاً من قوانين الفيزياء والكيمياء ولكن الناس لا يعلمون.

لو اطلع الإنسان على دقة الحساب يوم القيامة لرأى كل معصية جحيماً وكل مخالفة ناراً:

قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

لو إنسان طلب إليه أن يحلل دمه، والتحليل أثبت أن هناك تزايد مخيف في كريات الدم الحمراء، هذا التزايد يأخذ شكل مرض خبيث، المريض لم يشعر بعد بشيء، طبيعي، لا يزال طبيعياً، لكن له تحليلات دورية، أحد هذه التحاليل أثبت هذا التزايد السريع، يطّلع الطبيب على هذا التحليل فيرى مصير المريض في القبر بعد أشهر، قد يهمس في أذن أولياء المريض انتهى، المريض مريض حكماً، أما هو الآن صحيح، يتكلم ويتحرك ويأكل ويشرب ويضحك ويمزح ويعمل وينتج، لكن الطبيب رأى مصيره، هذا مرض خبيث لا شفاء منه والتزايد سريع ولا بد من الموت وأقصى مهلة ثلاثة أشهر، وكثيراً ما تأتي هذه التوقعات صائبة، فربنا عز وجل قال:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

لو أن أحدنا يطلع على دقة الحساب يوم القيامة، يطلع على أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئاً:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

لو بلغ يقين الإنسان هذه الدرجة لرأى أن كل معصية جحيماً، وكل مخالفة ناراً محرقةً.

إن بلغ الإنسان علم اليقين عرف كل شيء :

هذا الذي يأكل أموال اليتامى إنما يأكل في بطنه ناراً وسيصلى جحيماً، لا يعلم ذلك الآن، لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم، هذا الذي لا يصلي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم. هذا الذي ينظر إلى الحرام ولا يبالي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم فهي المشكلة علم اليقين، هات علم اليقين وخذ كل

شيء، إن تملكت علم اليقين تملكت كل شيء، إن بلغت علم اليقين عرفت كل شيء. هذا الذي يقرب النار من البنزين، قبل أن ينفجر البنزين الذي يراقبه من بعد ويعرف أن هذا بنزين، وهذا نار، يتوقع توقعاً حتمياً جازماً أن حريقاً سينشب، علم قوانين:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ)

سائق سيارة في منحدر شديد، اكتشف فجأةً أن المكبح قد انقطع وفي نهاية هذا المنحدر منعطف خطير حاد، يعلم علم اليقين أنه انتهى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، تقول له زوجه: لمَ تتشهد، ماذا حصل؟ يقول لها: المكبح قد انقطع، تقول له: لكن لا بأس علينا، هو علم النتيجة الحتمية التي لا بد منها، فهذه المشكلة، مشكلة معرفة، بين الكافر والمؤمن مشكلة معرفة، لأن الكافر يحب نفسه أيضاً، الكافر حريص على سعادته، الكافر حريص على سلامته، لأن هذه فطرته هكذا فُطر عليها، هكذا خلقه الله عز وجل يحب نفسه، يحب السلامة، يحب الخير، يحب الاستزادة، يحب العلو، يحب النفع، بين المؤمن والكافر المعرفة فقط:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ)

لو علم أكثر كفار الأرض ما علمه النبي الكريم لآمن إيمانه ولأحب الله حبه، ولاستقام استقامته، ولعمل للآخرة عمله.

الاستدلال الفكري هو علم اليقين وهو أثمن ما يملكه الإنسان :

قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ)

يوم القيامة:

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

(*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

هنا عندنا عين اليقين وعندنا علم اليقين، إذا الإنسان رأى دخاناً خلف الجدار، يستنبط بالفكر السليم أنه لا دخان بلا نار، وأن هذا الدخان وراءه نار، هذا علم اليقين، هذا علم الاستدلال، من منا لا يصدق أن في البناء خطوطاً داخلية للكهرباء، هو لا يرى إلا مروحة تدور، وثريا متألقة، وأسمنت، وطلاء، هل منا واحد لا يعتقد اعتقاداً جازماً أن تحت هذا الطين الأسمنتي خطوط الكهرباء، هل يُعقل أن تدور هذه المروحة بلا شيء، يقيننا بوجود خطوط داخلية يقين قطعي، هذا هو الاستدلال الفكري، هذا هو علم اليقين.

إذا رأيت آثار عجلة سيارة على طريق ترابي، بالمئة مليون سارت على هذا الطريق سيارة، وقد تعرفها أنها شاحنة من عرض الآثار، وقد تعرفها أنها صغيرة من عرض العجلة، هذا هو علم اليقين، هذا هو الفكر البشري، الاستدلال أثمن ما تملكه أنت.

طبيب قال لي، لو عثرنا على هيكل عظمي فقط نعرف أنه امرأة أو رجل، قلت: كيف؟ قال: من حجم الحوض ومن حجم الجمجمة، أي كل حياتنا على الاستدلال قائمة، العلوم كلها استدلالية، فربنا عز وجل يقول:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

هذا علم اليقين.

علم اليقين وعين اليقين :

قال:

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

هذا الذي رأى الدخان خلف الجدار تقدم به المشي وأطل خلف الجدار فرأى لهب النار، لهب النار عين اليقين، مهندس رأى شرخاً عرضياً في البناء، فقال: هذا البناء خطر لا بد من أن يقع، هذا علم اليقين، بعد أن وقع عين اليقين. معلم خبير رأى طالباً مهملاً، قال: هذا الطالب لا ينجح هذا علم اليقين، حينما تصدر النتائج رسب في صفه هذا عين اليقين، توقعه علم اليقين ورسوبه عين اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

قال بعضهم: نعمة الصحة، العينان والأذنان والأنف واللسان والقلب والرئتان والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد والطحال والجهاز العظمي والجهاز العصبي والتناسلي والبولي والدموي والقلب، كله يعمل بانتظام هذه نعمة كبرى، قال: هذا النعيم.

نعمة الأمن تنام مطمئناً وأنت آمن، لماذا لم تعرف الله عز وجل؟ لا أحد يسألك، لا أحد يلاحقك، لا أحد يتوعدك، أنت مطمئن، نعمة الأمن تُحاسب عليها، نعمة الصحة تحاسب عليها، نعمة الفراغ، أنت صحيح معافى تنام ست ساعات بعد الظهر، ليس عندك شيء، تسهر إلى الثانية ليلاً في الكلام الفارغ، هذا الوقت الفراغ سوف تُحاسب عليه، لماذا ضيعته هكذا؟ نعمة الوقت تحاسب عليها، نعمة الصحة تحاسب عيها، نعمة العينين تحاسب عليها، نعمة الأذن، بدل أن تحضر مجلس علم وتتعرف إلى الله عز وجل أطلقت الغناء لأذنيك، فطربت وأطربت وضيعت عمرك سدى، الغناء ينبت النفاق، إذاً الأذن من النعيم.

نِعَمُ الله تعالى سوف نحاسب عليها يوم القيامة :

العين نعيم، الأذن نعيم، اللسان نعيم، هذا اللسان طليق يتكلم، أؤمر بالمعروف وانه عن المنكر، نعمة اللسان، يقول لك: لا أستطيع الوقوف، الصحة نعمة كبيرة، لا يوجد آلام ديسك ولا آلام رأس ولا آلام معدة ولا آلام كبد ولا أمراض خطيرة، صحيح معافى، هذه نعمة كبرى تُحاسب عليها، ماذا فعلت بها؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

إذا علمت علم اليقين، عندئذ ترى أنك تُسأل عن النعيم، نعمة الزوجة؛ لك زوجة لماذا تنظر إلى هذه المرأة في الطريق، عندك زوجة أنت محصن، لماذا تغازل هذه المرأة؟ لك زوجة، هل أنت محروم؟ لا، عندك أولاد، لماذا تهملهم؟ لماذا لا تربيهم تربية صالحة؟ والله هذه الآية لو عقلناها حقاً، ولو عرفناها حق معرفتها لغيرت حياتنا رأساً على عقب، لخلقت فينا انعطافاً خطيراً في حياتنا:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

بعضهم استنبط من هذه السورة أن على الإنسان أن يزور القبور، أي إذا أتيح لك أن تشاهد نزع إنسان فافعل، إن أتيح لك أن تشاهد ميتاً يُغسل فافعل، إن أُتيح لك أن تشاهد ميتاً وُضع في قبره وكُشف عن وجهه فافعل، إن أتيح لك أن تزور المقبرة فافعل، هؤلاء الذين في القبور ألم يكونوا في الدنيا في بيوت، ولهم زوجات، ولهم أهل، ولهم محلات تجارية، ولهم أرباح، ولهم أصحاب، ولهم نزهات، أليسوا كذلك؟ أين هم الآن؟ النبي الكريم إذا زار البقيع يقول: سلام عليك دار قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن اللاحقون، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العصر 103 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، سورة اليوم هي سورة العصر ؛ نقرأ سورة العصر في الصلاة، سورة قصيرة تمرُّ على الألسنة يكثر ذكرها و تكثر قراءتها وسماعها ؛ وما تنطوي هذه السورة من الخطورة من المعاني بحيث لو عقلناها وفهمناها و عرفنا أبعادها لانقلبت حياتنا رأسًا على عقبٍ.

يقول الله سبحانه وتعالى: والعصر؛ يقسم بالعصر ؛ وما العصرُ ؟ قال بعض العلماء: هو عصر النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بل قال بعضهم: إنه عصر النبي بمعنى عمره، هذا العمر الثمين ؛ ثلاث وستون عاماً كان من نتائجها أنها قلبت وجه البشرية ؛ نقلت البشرية من الشّقاء إلى السعادة و من الضّلال إلى الهدى و من الرذائل إلى الفضائل، من الظّلمات إلى النور، من الحضيض إلى الدرجات العُلى، عمُرٌ ثمين، فإذا قاس الإنسانُ عمرَه بعمر النبي، ماذا فعل ؟ اشترى بيتًا، واستلم محلاً تجاريًا، ثم توظف، ولكن لو قِستَ إنجازاتك التي فعلتَها أو حقّقتها بما فعل النبي عليه الصلاة والسلام في هذا العمر الثمين لاحتقر كلٌّ منا عملَه، فالبشرية جمعاء هدايتها في صحيفة النبي عليه الصلاة والسلام، أرسله للناس كافّة لا يكُنْ الإنسان خمولاً بل يجب أن يكون طموحاً، لا يكن قنوعًا في الدنيا بدخلٍ يسير وبيت واسع و زوجة تَرُوقُ له، سيدنا عمر رضي الله عنه أدخل شاعراً السجنَ لأنه هجا رجلاً وقال له:

دع المكارمَ لا ترحل لبُغيَتِها   واقعُدْ فإنك أنت الطعم الكاسي

دخل صاحب هذا البيت السجنَ لأنه أهجى بيتٍ قالتهُ العربُ فأما الآن فيُعَدُّ شعار كلّ إنسان، إذا حقّق الإنسان دخلاً يسيراً و بيتاً مُريحاً و مركباً وطيئاً و محلاً تجاريًا رائجاً فعلى الدنيا السّلام، فإذا جاء ملَكُ الموت يُقال له: ماذا فعلتَ في الدنيا ؟ ماذا فعلتَ من أجلي ؟ هل واليتَ فيّ وليًا ؟ وهل عاديتَ فيّ عدوًّا؟ لذلك النبي عليه الصلاة والسلام عرف كيف يستغلُّ العصر، كيف يستغلُّ حياته و كل وقت من أوقاته وكل ساعة من ساعاته، كل دقيقة من دقائقه، لذلك العمر الثمين أثمر هدًى وصلاحًا للبشرية جمعاء، المعنى الآخر من معاني العصر، يعني لو دقّقتَ في هذه الحياة لوجدتَ أن أثمن شيء هو الزمن، لو قلنا أن إنساناً ما، أو زيدًا من الناس سيعيش أربعاً وسبعين عاماً، اضربْ هذه الأعوام في الأيام واضربها بالساعات واضربها بالدقائق يصبح معك رقمٌ كبير، هذا هو عمر الإنسان ؛ لو يعلم الإنسانُ أنّ كل دقيقة من حياته إذا ذكر الله فيها ارتقى عند الله في جنة عرضها السموات و الأرض وإلى أبد الآبدين، لذلك فإن أشدّ أنواع الحسرات يوم القيامة ساعةٌ مضت هدرًا لا جدوى منها، فانظر إلى حياتنا كيف نقضيها سهرةٌ إلى الساعة الواحدة في كلام فارغ، لا أمرٌ بمعروف ولا نهيٌ عن منكر و

لا تذكير بالله ولا فهم لكتاب الله ولا فهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث فارغ لا طعم له ولا جدوى منه و لا فائدة منه هذه الساعات الخمس كيف أمْضَيْتها ؟ وهذا الشهر كيف أمْضَيْتَهُ ؟ هذا اليوم كيف أمْضَيْتَهُ ؟ وهذا العمر كيف أمْضَيْتَهُ ؟ عَن ابْنِ مَسْعُودٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ))

[رواه الترمذي]

بعضهم قال: ما مضى فات والمُؤَمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها ماذا تَمْلِكُ أنت ؟ لا تمْلِكُ إلا شيئاً واحِداً، هذه الساعة التي أنت فيها، الذي مضى مضى ؛ إنْ خيراً فَخَيْر، وإنْ شراً فَشَرًّا، ضَيَّعْتَ الوقت أمْ لم تُضَيِّعْهُ ؛ الحديث عن الماضي تضْييعٌ للوَقْت ولا جَدْوى منه ؛ يا لَيْتني كنت مؤمناً ! مضى، ويا لَيْتني قدَّمْتُ لِحياتي ! مضى، يا لَيْتَني عَرَفْتُ الله باكِراً ! مضى، يا لَيْتَني أنْفَقْتُ من مالي ! ما مضى فات، والمُؤَمَّلُ غيب سأفْعَلُ كذا، من يدْري أتَصِلُ لِهذا اليوم أو لا تصِل ؟ في أوَّل الصَّيْف سأَقْرأُ القرآن، حينما أنْتَهي من الفَحْص سأَحْضُرُ مجالِسَ العِلْم ؛ هذا كلامٌ فارغ، أنت لا تمْلكُ أنْ تصل لِهذا اليوم، ولا يمْلِكُ هذا اليوم أن يصِلَ إليك لا تمْلِكُ ماذا يُفْعَلُ بك ولا بي، ولك الساعة التي أنت فيها لا تمْلِكُ إلا هذه الساعة، فإذا قُلتُ لكم إنَّ أثمَنَ ما في الحياة الوقتُ! لا أُبالِغ الإنسانُ بضْعَةٌ أيامٍ كلما انْقضى يومٌ انْقضى جزْءٌ منه جَلَسْتَ لِتَقْرَأ قِصَّة ما فائِدَتُها ؟ القِصَصُ كلها موْضوعٌ واحد ؛ وصْفٌ للعلاقات البشَرِيَّة، قد يكون هذا الوصْفُ مُبْتَذلاً فهيَ القِصَصُ الرخيصة وقد يكون أدَبِيًّا ولكنَّ الفِكْرة لا تزيدُ عن علاقَةٍ تَمَّتْ بين شَخْصَيْن وانْتَهَتْ بالوفاق أو الفِراق، ولكن لو قرأتَ آيَةً قُرْآنِيَّة ورأيْتَ ما فيها من سعادَةٍ وصِحَّة لِمَن طَبَّقَها، ثمَّ طبَّقتها سَعِدْتَ بها، لو وَعَظْتَ إنْساناً بآيَةٍ فأخَذَتْ منه مَأخَذاً بليغاً وانْطَلَقَ في تطْبيقِها لَسَعِدْتَ وأسْعَدْتَ، لذلك ربنا عز وجل أقْسَمَ بالزَّمَن لأنَّ أخطر شيءٍ في حياتك هو الزمن، فالله عز وجل خلقنا لِسَعادَةٍ أبَدِيَّة، هذه السعادة التي تبْدأ من يوم القِيامة وليس لها نِهاية فيها فُرْصَة أعْطيتَها في الدنيا مجْموعة دقائِق وساعات وأيامٍ وأشْهُرٍ وسنواتٍ إذا عَرَفْتَ كيف تعرف الله فيها وكيف تسْتَقيمُ على أمْرِهِ وكيف تتقَرَّبُ منه كانت تلك الأيام والساعات والشهور زاداً لك إلى الأبد، لذلك قبل أنْ تسْتَهْلِك الوقت اسْتِهْلاكاً رخيصاً، قبل أنْ تسْتَهْلِكَ الساعات، وقبل أنْ تقول سأذْهَبُ معكم إلى هذه النُّزْهة هؤلاء من ؟ هل يُرْضيهم الحديث عن الله عز وجل ؟ اِذْهَبْ معهم إذاً، لا يُرْضيهم ذلك دَعْهُمْ ولا شأنَ لك بهم، قبل أنْ تقول سآتي لأسْهر معكم هل هم من الذين يُحِبُّون الله ورسوله، وهل يُرْضيهم الحديث عن الله ؟ لا إذاً لا شأنَ لك بهم، هذه الساعة ثمينة تَعَلَّم فيها آية، اُدْعوا إلى الله، كُنْ آمِراً بالمعْروف ناهِياً عن المنْكر قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

يُقْسِمُ الله تعالى بمُطْلَق الزمن، لأنّه أثْمَنُ ما تمْلِكُه ما مضى فات والمُؤَمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، أو يُقْسِمُ الله سبحانه وتعالى بعُمُر النبي الثمين الذي ما ضَيّعَ منه ثانِيَة، في بعض الإحْصاءات أنّ كُتُبَ الحديث تَضُمُّ ما يزيد عن مئة ألف حديث، ما نطقَ كلِمَةً إلا حقّاً، ما من إشارة ولا عبارة، ولا إقرار، ولا مُلاحظة حتى مُزاحهُ صلى الله عليه وسلّم كان لا يمْزَحُ إلا حقّاً، كانَ يُوَجّه ولم يسكت عن باطل، ولم يدَع فُرْصَةً إلا أمر بالمعْروف ونهى عن المنكر، نحن كلامنا إذا تَكَلّمْتَ طوال النهار فما هو الكلام الذي تسْتَفيد منه ؟ وما هو الكلام الذي يُمْكِنُ أنْ يُذاع ؟ كُلُّهُ كلامٌ فارغ، النبي صلى الله عليه وسلّم كُلُّ كَلِمَةٍ قالها في حياته الخاصّة وفي حياته مع أصْحابه هي قانون، مبْدَأٌ ثابت وقاعِدَة أساسِيّة في الحياة اسْتَغَلّ عُمُرَهُ الثمين واسْتَغَلّ الليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزّمِّلُ (1) قُمِ اللّيْلَ إِلّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلاً (4) إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنّ لَكَ فِي اَلنّهَار سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُر اسْمَ رَبّكَ وَتَبَتّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

[المزمّل: الآية 1-8]

واسْتَغَلّ النهار، وآيات الكون قال هِلال خير ورشد، ذكّرنا أنّ هذا الهلال له وظيفتان وظيفةٌ مادِيّة يُضيءُ لنا بالليل، ووظيفة إرْشادِيّة يُعَرّفُنا بربّنا سبحانه وتعالى، فإذا قِسْنا أعْمارنا بعُمُر هذا النبي الكريم نَجِدُها تافهة ورخيصة ولا قيمة لها، لذلك نُمْضيها كيفما اتّفَق، والله الذي لا إله إلا هو لو عَرَفْنا يوْمَ القِيامة، وهذا نعْرِفُهُ ؛ لو عَرَفْنا قبل فوات الأوان قيمة الزّمَن -بِشَكْلٍ مُطْلَق - لما هَدَرْنا منه ثانِيَة، ولما ضَيّعْنا منه دقيقة، ولما غَفَلْنا عن الله عز وجل، أحْياناً يغْفل الإنسان عن ربّه عز وجل ؛ أُسْبوع أسْبوعين وهو غافل ؛ أكل وشُرْب ونوم ومزاح وسهَرات، من يضْمنُ لي أنّني أعيش إلى الشهْر القادِم؟ من عَدّ غداً من أجَلِهِ فقد أساءَ صُحْبَة الموت كلام الله وكلامُ ربِّ العالمين، وكلام رافِع السماوات بِغَيْر عمَدٍ، كلام الخالق، يقول سبحانه وتعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

يقول لك: يا أخي هذا معه مئة مليون ! هذا خَسْران ؛ وبَيْتُهُ من أفْخم البيوت و أولاده كثر كُلُّهُم أطِباء ومُهَنْدسون وله... هكذا قال ربنا عن الإنسان الضال والعاصي والجاهل والذي ما عرف الله وما عرف الهدف من خلقه خاسِرٌ ورَبِّ الكعْبة، فإما أنْ نُصَدّق أو لا نُصَدّق، لكن إنْ لم نُصَدّق فَسَوْفَ نُصَدّق، هذا

امْتِحانٌ لنا، هل لك رؤْيا مُطابقة لِهذه الرؤيا؟ هل ترى إنساناً مُتَفَوِّقاً في هذه الحياة دخْلُهُ كبير ويشْغل منصباً رفيعاً ويده طولى في الحياة ؛ هل تراهُ خاسِراً ؟ هل تراهُ خاسِراً خسارَةً كُبْرى لأنه ما عرف الله؟ هل عندك تصوُّر بإنسانٍ نال أعلى الشهادات و نال أعلى مكانة اجتماعية ثمّ رأيتَه لا يُصلي هل تعُدُّه خاسراً ؟ واللهِ لقد قابلتُ إنساناً يحمل شهادتي دكتوراه ؛ دكتوراه في العلوم و دكتوراه في الآداب و يحتلُّ منصباً علميًّا رفيعاً جدًّا، وفي نظري كبير فقال لي: أنا لا أُصلِّي ولكن أمّي وبنتها تصلّيان، واللهِ الذي لا إله إلاّ هو بهذه الكلمة هبط من نظري إلى الحضيض، لا تُصلي ! ماذا درستَ إذاً ؟ هذا الذي درستَه آيات باهرات، لذلك الله تعالى قال:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

الغِنى ينتهي بالموت، و المكانة الرفيعة تنتهي بالموت، بالقبر ذهبوا وتركوه وفي التراب دفنوه، ولو بقوا معه ما نفعوه، فلو رافقته عشرون مركبة محملة بالزهور لما أفادته، هذا شيءٌ لا يقدّم ولا يؤخر، والعصر إنّ الإنسان لفي خسر، فالإنسان بين عَشِيَّةٍ وضُحاها يصير خبراً، يكون إنساناً ملءَ السمع والبصر ؛ له أعداء، له أصدقاء وهناك من يخافه، وهناك من يرْجوه، وهناك من يطمع بماله، فإذا جاءه الموت صار أثراً بعد عين، كان السيّد فلان فأصبح المرحوم فلان، و لم يأخذ معه إلا أعماله ؛ فالإنسان لما يتغافل عن ساعة اللِّقاء؛ يجْهَلُها أوْ يتجاهلها فسوف يُحِسُّ بمَدى خسارته، وغَبْنِهِ ضيّعَ شيئاً كثيراً، هذه السورة يقرؤها الناس ولو فَقِهوا معْناها لانْقَلَبَتْ حياتهم، ولَغَيَّروا خَطَطَهُم في الحياة، ولَتابوا وأصْلَحوا وتَصَدَّقوا، ولاسْتقاموا، وصَلَّوا، ولَصاموا، وفعلوا الخير، والعصْر كلام ربِّ العالمين يُقْسِمُ لكم إنّ الإنسان الكافر إنسانٌ خاسِرٌ، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15))

[الزمر: الآية 15]

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56))

[الزمر: الآية 53-56]

لما الإنسان تأتيه ساعة اللِّقاء ويُحِسُّ أنَّه صفر اليدين، ليس له عمل صالح وعليه سيّئات ومعاصٍ، ساعتئذٍ يواجه الحضرة الإلهية ؛ يواجه أسئلته لماذا فعلتَ كذا ؟ لماذا عصيتَني ؟ لماذا ظلمتَ فلاناً

وبغيتَ على حقه ؟ قال تعالى: والعصر إن الإنسان لفي خسر خاسرٌ، خاسر خسارة بيّنة واضحةً صارخة، إن رأيتَ أهل الدنيا خاسرين فأنتَ مؤمن، وإن رأيتهم أذكياء قد ملكوا الدنيا بأطرافها و عرفوا كيف يعيشون و عرفوا كيف يكسبون المال و كيف ينفقون وكيف يتنزّهون و كيف يسكنون فأنت خاسر، إنهم يُحقِّقون أرباحاً كثيرة وينفقون على أهليهم نفقات كبيرة ويأكلون ما لذّ و طاب ويسكنون في البيوت الفاخرة ؛ إن رأيتهم كذلك فلا تصدِّق هذا الكلام، قد تقول: صدق الله العظيم ؛ ويقولها الناس جميعاً ولكن و اللهِ الذي لا إله إلاّ هو إن لم تكن لك رُؤيةٌ تطابق هذا الكلام فأنت من الخاسرين فلو قلتَ في نهاية القراءة: صدق الله العظيم، و تصوُّراتِك تُكَذِّبُ هذا الكلام فأنت لا شيء قال تعالى:

(إنّ قارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76))

[القصص: الآية 76]

هؤلاء الذين يفرحون بالدنيا لا يُحبُّهم الله سبحانه وتعالى، لماذا لايحبُّهم؟ لأنهم سُخفاء، لأنهم ضيّقوا الأفق، فإذا كنتَ أبًا ولك ولدٌ ذكيٌّ نجيبٌ ووضعْتَه في غُرفةٍ راقية و رأيتَه يفرح بلعبه ويُهمل دروسَه وكتبَه وامتحاناتِه تستصغرُه وتحتقرُه، أهذا الذي يفرحك، إن رأيتَه يبكي لشيء سخيف فقده ويضحك لشيء أسخفَ منه مَلّكَه و لا يأبَهُ للدراسة و للعلم فإنك تحتقره، لذلك قال تعالى: لا تفرح إن الله لا يحبُّ الفرحين وقال تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77))

[القصص: الآية 77]

القصة معروفة ؛ قال تعالى

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79))

[القصص: الآية 79]

يكثر حديث الناس عن الأغنياء، أتعرف كم سعر بيت فلان ؟ كذا مليون ؛ تعرف كم مساحته ؟ كذا متر، ما هذا الكلام ؟ أليس لكم حديث آخر ؟ هل تعرف كم كلّفتْهُ هذه الرحلة إلى أوروبا ؟ كذا ألف ليرة، هذا حديث اليوم، عن البيوت و السيارات و الولائم و الأعراس والفنادق، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إلّا الصّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81))

[القصص: الآية 79-81]

والعصر إن الإنسان لفي خسر، اُنظرْ إلى التاريخ ؛ أين فرعون ؟ قال تعالى في حقِه:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

[يونس: الآية 90]

أين نمرود ؟ أين هؤلاء الطُغاة ؟ أين هؤلاء الكفَّرة الملحدون الذين أنكروا وجود الله عز وجل و سعَوْا في الأرض فساداً، أين هم ؟ هم رهائن أعمالهم، لذلك يقول الله عز وجل: والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أربع صفات إذا توافرت في حياتك فأنت من الرابحين و لستَ من الخاسرين، معرفةٌ وعملٌ و دعوةٌ وصبرٌ، إلا الذين آمنوا فحضور مجلس عام ليس تضييعاً للوقت ولكنه استثمارٌ له، و لما يحضر الإنسان مجلس علم فهو تحت بند إلا الذين آمنوا، أو حضر خطبة فهو تحت بند إلا الذين آمنوا، أو قرأ كتاب الله فهو تحت بند الذين آمنوا، إذا فكَّر في آيات الله و في الشّمس و في القمر في أذنه، في المولود الصغير من خلقه و من كوّنه و من صوّره؟ كيف كان نطفة ثم علقة فمُضغةً فإنساناً سويًا، إذا فكَّر في كأسِ ماء، في الحليب، في البيضة، في البحار، في الجبال، فهو تحت بند الذين آمنوا، صراحة يجبُ أن تكون حياتكُم مُقنَّنةً فوق هذه البنود، عندك أربعة بنود، بند الذين آمنوا، كل أنواع المعارف الدينية من فقه إلى حديث إلى قرآن إلى معرفة بالله إلى قراءة موضوع علمي استعظمتَ الله من خلاله إلى دعوة إلى الله إلى إقناع الناس و تذكيرهم بآيات الله، فكل نشاط علمي فكري معرفي استدلالي، تأمُّل، تفكُّر، فأنتَ تحت بند الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ؛ فإذا أدّيتَ حقّكَ كزوج فتحْتَ بند الذين آمنوا وعملوا الصالحات كسبتَ قوتَ يومك من طريق مشروع، أحضرتَ لأهلك طعامهم و أمّنْتَ لهم كِساءهم، أخذتَ مريضهم إلى الطّبيب و أمّنْتَ له الدّواء، هذا عملٌ صالح و لو كان لأسرتك، أطعمتَ فقيراً، أو أعنتَ ضالاً، أو علّمتَ جاهلاً،أو شفعتَ لمؤمن عند إنسان تعرفه فحُلّتْ مشكلتُه، أمَطتَ الأذى عن الطريق، وقفتَ لامرأة عاجزة بسيارتك، أنت تحت بند "عملوا الصالحات " فباب العمل الصالح واسعٌ جدًا، إنكم لن تسَعُوا الناس بأموالكم فسعُوهم بأخلاقكم، فإذا أمطتَ الأذى عن الطريق كُتبت لك صدقة وإذا أرشدتَ ضالاً كُتبت لك صدقة، فأبواب اللأعمال الصالحة مفتوحة أعلاها الدعوة إلى الله، و هي صنعة الأنبياء، و لكنك لن تنال أعلاها إلاّ إذا فعلتَ أدناها، يجبُ أن تخدم الناس في كل حاجاتهم، لن تنال أعلى الأعمال إلاّ إذا قبلتَ أن تفعل أدناها، يجب أن تقف للعاجز وتقدّم كل ما تملك للناس من إمكانيات و خبرة و معرفة و معلومات، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات البند الثاني، وتواصوا بالحق، فيجب أن ينطق هذا اللسان بالحق و يدعوَ إلى الحق وأن لا يُحابي أحداً ولا ينافق ولا يداهن و لا يتملّق، وأن لا يقول شيئًا لستَ قانعًا به ويجب أن لا يسكتَ على باطل، إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، يجب أن تكون صادقاً جريئاً؛ هذا اللسان لا تأخذُه في الله لومةُ لائمٍ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تُقرِّب أجلاً، و تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لو كان في النفس خللٌ واحتاجت إلى المُعالجة فيجب أن تصبر وتدعُوَ غيرك أن يصبر، يجب أن تصبر على معالجة الله عز وجل، انظُر إلى الإنسان الراشد إذا ذهب إلى طبيب الأسنان و بدأ الطبيب بحفر سِنِّه و يبدو أن المُخدِّر لا يناسبه ، عنده مرض السكر ؛ و بدأ بحفر سِنِّه و عندما وصلت الآلة إلى العصب و شعر بآلام لا تُحتملُ تراه لا يتحمّل و يمسك الكرسيَ بشدّةٍ بالغة حتّى يتحمّل الألم، هو قنوع أن هذا الألم لمصلحته وأن الطبيب يعمل بخبرة فائقة و أن هذا لابد منه، و أن هذا الألم لن يدوم، هكذا حالة المؤمن مع الله عز وجل، إذا ابتلاه الله بالفقر أو الضيق أو فقد ابن، أو فقد شيء ثمين أو ضيِّقَ عليه أحد الناس، لا يرى الناس، ولكن يرى ربَّ الناس ويرى أن الله سبحانه وتعالى يعالجه، لذلك فهو يصبر على معالجة الله له و يدعو غيره كي يصبر، هذا معنى، و المعنى الآخر؛ و تواصوا بالصبر ؛ الصبرعن المعصية و الصبر على الطاعة، هذا صبر، قد تصبر على الاستيقاظ باكراً و على كظم الغيظ.
هذه السورة كمعنى فهو سهل و هي من السور التي لا تحتاج إلى تفسير ولكن البطولة أن تملكَ رُؤيةً تنطبقُ على هذه الرُؤيةِ فالله يقول: إن الإنسان لفي خسر، أنت ماذا ترى ؟ إذا كنتَ مع صديق على مقعد واحد في الدِّراسة و شاءت المقادير بهذا الصديق أن يصبح من كبار الأغنياء و أن تكون أنت مُوظّفًا ذا دخلٍ محدودٍ لا يكفيك دخلُك نصفَ الشّهر ؛ وفي ضائقة شديدة و كنتَ مُطيعاً لله عز وجل و هذا الصديق عاصٍ لله، يعني إذا خطر ببالك أن هذا الصديق مُرتاح في حياته، يُعطيه الله، فهذه السورة لستَ في مُستواها و لو عرفتَ معناها، البطولة لا أن تعرف معنى السورة، بل أن تكون في مستواها، أن تُحِسّ بغِنَى الإيمان، بكى سيدنا عمر قال له: يا عمر لماذا تبكي ؟ قال: كسرى مَلِكُ الفرس ينام على الحرير و أنت رسول الله تنام على الحصير ! قال: يا عمر أمَا ترضى أن تكون لهم الدنيا و لنا الآخرة، يا عمر إنما هي نُبُوّةٌ وليست مُلكاً " هل أنت قانعٌ بما أعطاك الله ؟! قانعٌ بصحّتك، بدخلك، بزوجتك بأولادك، قانعٌ ببيتك، هل ترى أن الدنيا مُؤَقّتةٌ، لا تحتاج إلى كل هذا الإعداد، سنةٌ ونصف بعد ما اشتغل في بيتين كسّر كل متاعه وبناءه، هدّم جهدَ العمال، غيّر الترتيبات كلها و جاء بالإضاءة المخفية والتدفئة المركزيّة و جاء بترتيب الغرف على النظام الأمريكي و جاء بالمناظر الطبيعية، حينما انتهى البيت و بقيَ دَرَجُ البناء جاءه مَلَكُ الموت، سبحان الله لم يرتَحْ بعدُ، حان الأجل ؛ قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

منذ أسابيع عِدّة كنتُ في سهرة و كان معنا أخٌ كريم، اليوم بُلِّغْتُ نبأ وفاته رحمة الله عليه، قبل أيّام كان من أهل الدنيا و الآن من أهل الآخرة، قبل أيام كان يأكل ويشرب مثلنا والآن ليس له إلاّ زادٌ واحدٌ وهو العمل الصالح، دُعيتُ إلى تشييع جنازة أخ من الذين آتاهم الله الدنيا ؛ فالرجل كان صالِحاً ؛ يُصلي ويصوم ويحْضر الدروس، وأحد أهل العِلْم في جنازته قال: كان أخوكم مُؤَذّن، أنا قلتُ: لا يُذْكر من عمل العبد إلا ما كان للآخرة، فلا يذكر كيف كان بَيْتُه، ولا أثاث بيْتِه، ولا كيف كان عمله، فلما تكون أعمال الإنسان طَيِّبَة فهذا هو الذكِيّ، وهذا هو الغنِيّ الغِنى والفقر بعض العرْض على الله، دائِماً اسْأل نفْسَكَ هذا السؤال: ماذا فعلتُ من أجل الله، قال عليه الصلاة والسلام: هل عَرَفْتَ الربّ ؟ قال: نعم، فقال: ماذا صَنَعْتَ في حَقِّهِ ؟ والله سؤالٌ يَقصمُ الظهْر، سلْ نفْسَكَ هذا السؤال: هل تعْرفين الله ؟ تقول لك: نعم إنّهُ خالق الكون، ماذا فَعَلْتِ من أجْله ؟! في بيتك مخالفات و تقصير و معاص، الزوْجة تفعل ما تشاء و لا رادع، والبنت تائهة، والدّخْل فيه شُبهة، ما هذه المَعْرِفَة ؟ قال: هل عَرَفْتَ الربّ: قال نعم، قال: فماذا فَعَلْتِ من أجْله ؟! هذا هو السؤال المطْروح، هل وَلَيْتَ منه وَلِياً ؟ لا، هل عادَيْتَ فيه عَدُوّا ؟ لا، إذاً أنت لا تعْرفُهُ، سيّدُنا عمر قال له: هل سافَرْتَ معه فقال: لا، فقال له: هل جاوَرْتَهُ ؟ فقال: لا، فقال له: هل حاكَكْتَهُ بالدِّرهَم والدِّينار ؟ فقال: لا، قال عمر: فأنت لا تعْرفُهُ، أقول لكم قِياساً على هذا الحديث ؛ إنْ كان لك معْصِيَة ولا تدْري عِظَمَها فأنت لا تخافه ولا ترْجوه، هناك عذابٌ في الدنيا يشيب له الولْدان، رجُلٌ ملءُ السمع والبصر يبْكي كالأطْفال، وأنّهُ هو أضْحَكَ وأبكى، يُسَلِّطُ عليه امْرأة لا ترْحَمُهُ فَيَعْجَز، تقْسو عليه في الكلام والمُعاملة ؛ يبْكي، وتتَخَلى عنه ابنته، ويغيب عنه ابنه، أقرب الناس إليه يتَهَرّبون منه، يجْعلونه يبْكي، فإذا كُنْتَ لا ترْجو رحمته، ولا تخافُ عذابه فأنت لا تعْرفُهُ، لا تخافُ النار فأنت لا تعْرفُه، ألا تخْشى في الدنيا من مَرَضٍ عُضال ! بادِروا بالأعْمال الصالحة فماذا ينْتَظِرُ أحدكم من الدنيا؟ ها هي أمامكم وأخبار من فيها عندكم، لي قريبٌ أخْبروني أنّهُ أُصيب بالفالِج ؛ ذهَبْتُ إليه رأيْتُهُ يبْكي بُكاءً مُرّا، بادِروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ هل تنْتظرون إلا فقراً مُنْسِياً، أحْياناً الفقْر الشديد يُنْسي الإنسان ربّهُ و آخِرَته، أو غِنىً مُطْغِياً أو مرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفَنِّداً، أو موْتاً مُجْهِزاً، أو الدجال فَشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظر، أو الساعة والساعة أدْهى وأمَرّ، لو قضى الإنسان حياته في طاعة الله، والعمل الصالح ؛ مرْحَباً بالموت حبيبٌ جاء على شَوْقٍ، واكَرْبَتاهُ يا أبتي فقال: لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم، غداً نلْقى الأحِبّة مُحَمّداً وصَحْبَه.

والله ساعَةُ اللِّقاء للمؤمن هي عُرْسٌ، فإذا الإنسان عمِلَ جاهِداً حتى اشْترى غُرْفَة للنوم، ثمّ خطب، ثمّ تزوّجَ فهل في يومِ عُرْسِهِ ينْزَعِج ؟!! يقول لك: تعبتُ هذه السنين من أجل هذه الساعة، وحال المؤمن كُلُّهُ تعبٌ، والدنيا تعَبٌ ؛ دَعْوَةٌ إلى الله يخاف أنْ يزيغَ قلبه، وأن يكون في عَمَلِهِ تقْصير، وفي بيْتِهِ خللٌ، أو أنْ يصاب الشِّرك، أو اضْطِرابٍ بالإخْلاص، أو أنْ يكون من المُقصِّرين مع أوْلاده ومع زوْجَتِه أو

إخْوانه، أو أن يكون عِلمُهُ أكثر من عمَلِه، حياته كُلُّها قلَقٌ فجاء الموت، وكُشِفَ له مقامه عند الله عز وجل وكان الله راضياً عنه، حينها يسْعَدُ سعادةً ما بعْدَها سعادة، الشيءُ الذي يُضْحك أنّ أهله يبْكون وهو يضْحك، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

[يس: الآية 26]

المُلَقِنُ يُلَقِنُ كلاماً للمَيّتِ هو في الحقيقة لنا: اللهم أبْدِلْهُ أهْلاً خيراً من أهْله وبيْتاً خيراً من بيْته، فهذا حال المؤمن إذا كان مؤمناً يُبْدِلُهُ الله كلّ شيءٍ خيراً، قال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

[النحل: الآية 32]

وقال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

[الحاقة: الآية 2]

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[الذاريات: الآية 15-16]

وقال تعالى

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28))

[الطور: الآية 28]

ساعات اللِقاء هي ساعات الفَوْز بالجنّة، و البعد من عذاب جَهَنّم، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

[آل عمران: الآية 185]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38))

[التوبة: الآية 38]

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

[النساء: الآية 77]

والله حقائق صارخَة إذا فكّر الإنسان فيها وجعلها نُصْبَ عَيْنَيْه سَعِدَ في الدنيا والآخرة، فهذه سورة قصيرة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

دائِماً راقِبِ الزمن ؛ من أمْضى عُمُرَهُ بالنوم أتى يوْمَ القِيامة مُفْلِساً، فقُمْ نحْوَنا في الليل لا تخْشى وحْشَةً؛ سِرْ إلى بيوت الله واسْتَيْقِظ ؛ دَع الفِراش الوثير قال تعالى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16))

[السجدة: الآية 16]

المؤمن لا يأمن من النوم خوفاً من ضياع صلاة الصبح وإذا كان نامَ مساءً للعاشِرَة فإنّهُ يخاف أن يفوته وقت المغْرب دائِماً خائِف على الصلاة، وهذه هي حال المؤمن قال تعالى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16))

[السجدة: الآية 16]

هذه السورة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

غَنِيّ و قوِيّ و تحْتلّ منصباً رفيعاً أو شهاداتك عُليا، و مكانتك رفيعة في المجتمع فأنت في خُسْرٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " لذلك عندك في ذِهنك أربعة بُنود ؛ هذا العمل تحت أي بند ؟ تحت إيمان أو كفر، كُلّ عملٍ تقومُ به ؛ تحت أيّ بُنْدٍ يأتي، إذا كان ينْضَوي تحت أحد هذه البنود ؛ اِفْعَلْهُ، أما إذا كان لا ينْضَوي تحت أحد هذه البنود فلا تفْعَلْهُ، وقتُك أثمن منه، بعالَمِ التِّجارة ؛ يقول لك: هذه الصّفْقة رابحة إذا كانت ستعطي ربحاً كبيراً تسارع إليها و تدعها إذا كان الربح ضئيلاً، لماذا لا تكون الإنسانُ في أعمالك للآخرة كدقتك في تجارتك !

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

هذه السورة يجب أنْ نعْقِلَها، دائِماً ضَعْها في ذِهْنِك، وكُلّ عَمَلٍ صَنِّفْهُ تحت أيّ بُنْد ؟ إذا لم يكن له مكان في البنود السابقة فَدَعْهُ ؛ جلوسك مع زَوْجَتِك عملٌ صالح، وجلسْتَ مع أوْلادك ؛ هذا عملٌ صالح، دَعَوْتَهُم إلى الله، وآنَسْتَهُم ؛ هذا كُلُّهُ عملٌ صالح، كسِبْتَ رزقاً ؛ هذا عملٌ صالح نَصَحْتَ في عملِك، هذا

عملٌ صالح، ودَعَوْتَ إلى الله، وأمَرْتَ بالمعْروف، ونَهَيْتَ عن المنكر، وصلْتَ رحِمك ؛ كُلٌ هذه الأعمال طَيّبَة تَعلَّمٌ، ودَعْوَةٌ إلى الله، وصَبْرٌ على الطاعة، وعن المعْصيَة، وعلى المعالَجَة إنْ كنت كذلك فأنت رابِحٌ، وإن كنت غير ذلك فأنت خاسِرٌ ولا يعْرفُ ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول، ولا تعْرفُ هذه الحقيقة إلا عند ساعة اللِقاء، عندها تعْرفُ ما إذا كنت خاسِراً أم رابِحاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الهمزة 104 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-06-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: 1-9]

قالوا: هذا الوَيْل الهلاك والشقاء والخسارة، وقالوا: واد في جَهَنَّم ؛ من أشَدِّ أوْدِيَتِها عذاباً، هذا وعيدٌ من الله عز وجل، والوعيد يُؤخذ على الذي يوعِدُ، لأنَّه إنْ قال لك إنسانٌ سأُريك فخوفك بمقدار قدرته ؛ قال:

زعم الفَرَزْدق أنْ سَيَقْتُل مَرْبعاً أبْشِر بطُول سلامةٍ يا مَرْبَعُ

الكلام يُؤخذ على قائِلِهِ لا على نَصِّهِ، قائِلُ هذا الكلام ربُّ العالمين يقول للكافر: وَيْلٌ، أيْ الشقاءُ والهلاك، وكُلُّ أنواع البلاء سوف ينْتظر هذا الإنسان، أيُّ إنسان ؟ ويل لِكُلِّ همزةٍ لُمَزة، الهُمَزَة كأنْ تقول فُلان ضُحَكَة أيْ يضْحك على الناس، فإن قُلتَ: فلانٌ ضُحْكَةٌ يعني يضْحَكُ عليه الناس ووجْهُ فُعَلة أو فُعْلَة من صِيَغ المُبالغة ؛ كثيراً ما يضْحك على الناس ويسْخَرُ منهم، وإنْ قُلتَ: ضُحْكَة أيْ كثيراً ما يفْعَلُ أفْعالاً شنيعة تُسَبِّبُ أنْ يضْحك عليه الناس، فُعَلة يكون الضّحِكُ منه، أما فُعْلة يكون الضّحِكُ عليه، الآن هُمَزَة هو الذي يعيب الناس ؛ يعيبُ عليهم بيوتَهُم، ولِباسهم، ودَخْلَهُم، كم يُعْطونك بالشّهْر ؟ فإذا قال: ألف، يقول له: وهل هذه تكْفيك !! لأنّ دخْلَهُ هو كبير ؛ فاحْتَقَرَ هذا الدّخْل، إذا الإنسان يعْرف الله عز وجل وراضٍ بربِّه تكْفيه هذه الألف ؛ ويل لِكُلِّ همزةٍ لُمَزة.

قال العلماء في الفرق بين الهُمَزَة واللُّمَزَة ؛ أقْوالٌ كثيرةٌ أشْهَرُها: أنّ الهُمَزَة هو القتات؛ الذي يوقِعُ بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما روي عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَذَا يُبَلِّغُ الْأُمَرَاءَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّاسِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ قَالَ سُفْيَانُ وَالْقَتَّاتُ النَّمَّامُ))

وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

[رواه الترمذي]

وقالوا: اللُّمَزَة هو العَياب الذي يعيبُ على الناس استِعْلاءً بما عِنْدهُ، وقالوا: الهُمَزَة هو الذي يطْعَنُ في الوَجْه بوَقاحة، واللُّمَزَة هو الذي يطْعن في الغَيْبَة، وقالوا: الهُمَزَة الذي يسْتَخْدِمُ العَيْب يعيبُ الناس بلَفْظِه، واللُّمَزَة يعيبُ الناس بحَرَكَتِه، يُقَلِّدُهم ويجْوي أنفه عنهم، وقالوا: الهُمَزَة هو العَيْب، واللُّمَزَة وسيلَتُهُ فهذا الذي عيبُ على الناس حاجاتِهم ؛ دَخْلَهُم أشْكالهم، أسْخَرُ شيءٍ أنْ يسْخر إنْسانٌ من شَكْلِ إنسان ؛ هذا خَلْقُ الله عز وجل ؛ هل هو الذي خلق نفْسَهُ، هذا سوءُ أدَبٍ مع الله، رُبَّ أشْعَثَ أغْبر ذي طمْرَيْن لو أقْسَمَ على الله لأبَرَّه ؛ الأحْنف بن قيْس كان قصير القامة أسْمر اللّون، مائل الذّقن، غائِر العَيْنَين، ناتئ الجَبهتين، ضَيِّق الكَتِف قالوا:

ليس شيءٌ من قُبْح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنَصيب.

وكان مع ذلك سَيِّد قوْمِه، إذا غَضِب غَضِبَ لِغَضْبَتِهِ مئة سَيْفٍ لا يسْألونه فيما غَضِبَ، الإنسانُ يُقاسُ بعِلْمِه وعملِهِ وأخْلاقه ؛ هذا هو مِقْياسُ الرجل فهذا العَياب يعيبُ على الناس أشْكالهم و ألْوانهم وأحْجامهم وبَيْتَهُم وأثاثهم ويل لِكُلِّ همزةٍ لُمَزة ؛ هناك سَبَب، ما هو الذي يدْعو هذا المعيب إلى أنْ يعيب الناس ؟! يسْتَعْلي عليهم لأنه صاحبُ مالٍ وغَنِي قال تعالى:

(الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2))

[الهمزة: الآية 2]

جَمْعُ المال غير كسْبِ الرِّزْق، قد يكسب الإنسانُ رزْقاً وهذا عملٌ طَيِّب وهو أحد أنواع العِبادة لكنَّ الإنسان أحْياناً يتجاوز الحدّ المعْقول إلى جمْع الجمْع، عندئِذٍ يُصبْح البخل ؛ جمع مالاً وعَدَّدَهُ معنى عدَّدَهُ أيْ أعَدَّهُ لِشَيْخوختِهِ ؛ صاحب دار سينما اشْتغل طول حياته في جمْع المال، وجاءَهُ مرضٌ خبيث ؛ له ابن أخت وكان تلميذي ؛ صار يبْكي بُكاءً مُرًّا ويقول: أعْدَدْتُ هذا المال لِخريف عُمري و هأنذا أموت ولم أسْتَفِد من عُمُري ؛ قال: الذي جمع مالاً وعَدَّدَهُ، من معاني عَدَّده أعَدَّهُ لِشَيْخوختِه، وأعَدَّهُ لِمَلَذاته وافْتَخَر به أنا عندي كذا وكذا قال تعالى عن قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(78))

[القصص: الآية 78]

وعَدَّهُ كلَّ يوم، غلق الباب وفتح الصندوق وعَدَّدَ الذهب... وأمعن النظر فيها ثمَّ أغلق الصندوق ؛ هذا شأنُ البخلاء الذي جمع مالاً وعدَّدَه إما أنَّهُ أعَدَّهُ لِشَيْخوختِه، أو حَسَبَهُ كلّ يوم، كي يبْعَثَ في نفْسه الطمأنينة ؛ أنا غَنِيّ وأنا عندي مالٌ لا تأكله النيران، الذي جمع مالاً وعَدَّدَه، هذا يَحْسَبُ أنَّ ماله أخْلده ؛ الدراهِم مراهم

إذا كنت في حاجةٍ مُرْسِلاً   فأرْسِل حريصاً ولا توصِهِ

وهذا الحريص هو الدِرْهم، يقول لك: الدرهم يَحُلُّ لك كل شيء، عنده المال كلّ شيء، يحْسَبُ أنّ ماله أخْلده ؛ من معاني أخْلده أنّهُ لن يموت ومادام غَنِياً فلن يموت !!، ومن معانيها الأخرى أنّ المال يُطيلُ العُمر، لا تظهر عليه علائم الشيخوخة ؛ أكلٌ وشُرْبٌ وراحة ووسائِل حديثة وسيارة، يحْسَبُ أنّ ماله أخْلده.

هذا المال لا بد أنْ تتْرُكَهُ وأن يتْرُكَكَ، لابد من أنْ يفْتَرِق عنك، حتى أنّ بعض علماء اللغة قال: ماله ؛ أيْ ليس له، ما نافِيَة فهو ليس له، ولأنه ليس لك إلا ما أكَلْتَ، يقول أحد الأعراب وهي قِصّة مُتَرْجَمَة كان يقْطع الصحْراء على ناقةٍ عليها زاده وطعامه، وبعد مُدّةٍ نفد طعامه وشرابه وأيقن بالهلاك فأبصر عن بُعْدٍ شجرةً فأشْرق في نفسه نورٌ من الأمل، وهُرع إلى الشجرة فإذا إلى جانبها برْكَة ماء، فَشَرِبَ منها حتى ارْتوى ثمّ تولى إلى الظِلّ وحالَتْ منه الْتِفافة فإذا بِجانِبِ الماء كيس، فَسُرّ به سُروراً عظيماً وهو يَحْسَبُ أنّ فيه خُبْزاً ولما فتح الكيس وصاح يا للْأسف ! لم يجد فيه إلا لآلىء ؛ كان على وَشَكِ الموت فهو يريد خبزاً لا لآلىء ؛ الشيء الثمين هو الطعام والشراب مادامت الصحة طَيّبَة وعندك قوتُ يَوْمِك فأنت في أكبر الغِنى، إذا الإنسان معه مئات الملايين و أصيب بهبوط مُفاجِىء في وظائِف الكِلْيَتَين ؛ ما العِلاج ؟ العلاج غسيل الكِلْيَتين، كل أسبوع مَرّتَيْن وإلا يموت، الحل الثاني زرْع كِلْيَتَين تحتاج آلاف الليرات ! يحْسب أنّ ماله أخلده، ربنا عز وجل يقول كلاّ أداة ردْع وزجْر ؛ إنّ المال لن يُخْلِدَك في الدنيا، وظِلٌ زائِل، وعارِيَةٌ مُسْتَرَدّة، قال تعالى:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37))

[الحاقة: الآية 29-37]

فلذلك الإنسان إذا ظنّ أنّ المال هو كُلُّ شيء فقد وقع في ضلال مُبين قال تعالى:

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4))

[الهمزة: الآية 3-4]

تأمّلْ كلمة لَيُنْبَذَنّ؛ أحياناً الإنسان يرمي علبةً فارغةً أو باحتقار و بغير خجل، أمّا إذا كان في جيبه شيء ثمين فإنه يخاف عليه الشيء السخيف في الطريق تدوسه و لا تُبالي، كغلاف علبة سيجارة مثلاً أنظُرْ إلى النبذ ؛ استعلى على الناس و احتقرهم فاحتقره الله عز وجل هذه بتلك ؛ همزة لمزة، عيّار لمّاز، مُستعلٍ مُتكبّرٌ ؛ كلاّ ليُنبَذَنّ، كلامٌ بليغٌ كلاّ لينبذنّ، ليتَهُ يُنبَذُ وكفى، لكن ينبذ في الحطمة، الحطمة نار تُحطِمُه تحطيماً ؛ تحطِم كبرياءه، وما أدراك ما الحطمة نار الله، أُضيفتْ النار إلى الله، إذا قلتَ نار زيدٍ فهي نار معروفة ضئيلة، نار الفُرن ألفٌ وخمس مئة درجة، لكن قال نار الله، لذلك النبي عليه

الصلاة والسلام دعا على أبي جهل و قال: **" أكله كلبٌ من كلاب الله "** ما كلاب الله ؟ قالوا السَّبُع، لما النبي الكريم نسبَ الكلبَ إلى الله، معناه أن الكلب غيرُ عادي كلبٌ مُخِيف، نار الله المُوقدة التي تطّلِع على الأفئدة، تحرق الجِلدَ والعضلات و تحرقُ العظام إلى أن تصل إلى القلب الذي هو مناط التكليف مناط الخير، مناط الشر هو الذي ينوي السوء، وينوي الباطل، وهو الذي يُوقِع بين الناس، قلب غير سليم، نار الله الموقدة التي تطّلِع على الأفئدة إنها عليهم مُؤْصدة.

أيها الإخوة الأكارم، قال تعالى:

(نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7))

[الهمزة: الآية 6-7]

هو الذي يوقع بين الناس قلبٌ غيرُ سليم.

ثمّ قال تعالى:

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8))

[الهمزة: الآية 8]

في بعض التفاسير مُسَلّطة، أحياناً هناك نارٌ كثيفة جداً بِشَكْل حُزْمة، فهذه مُخيفة، تراها فيها اِنْدِفاع.

ثمّ قال تعالى:

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 9]

أيْ مُرَبَّطون، ومُكَبّلون، فلا يسْتطيعون أن يفْلتوا منها، فمعنى قوله تعالى:" في عمدٍ مُمَدّة أيْ أنَّهُم مُحاطون بها، ولن يسْتطيعوا الخُروج منها، قال تعالى:

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8))

[الهمزة: الآية 8]

أيْ مُسَلّطة، وهم مُرَبوطون ومُقيّدون:

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 9]

ويلٌ لِكُلِّ هُمَزة لُمَزة، والله هذه السُّوَرُ القصيرة ينْخلعُ القلب لها، نحن نقْرؤُها كثيراً، قالتْ له إنَّها قصيرة، فقال لها: يا عائِشَة، لقد قُلْتِ كلاماً لو مُزِجَ بِمِياه البحْر لَأفْسَدَتْهُ أنظر إلى كلام الناس الآن، يُقَيِّدون الإنسان بِلَوْنه وطوله و شكله ! ماذا تفْعَلُ أنت ؟! هل أنت مُراقب؟ قال تعالى:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2))

[الهمزة: الآية 1-2]

كأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يتحَدّثُ عن قيمةٍ كُبْرى من قِيَم الدنيا، وهي المال، فالدراهِم كالمراهم ! كذا يُقال، الإنسان بِأُروبا قيمتهُ بِقيمَة دراهمه في البنك، الناس يقولون: إذا لم يكن معك قِرْش

فأنت لا تُساوي قِرْشاً ! قِيَمُ الدنيا هذه يجبُ أنْ تُحَطَّم ! سلمانُ منا أهل البيت ونِعْم العبدُ صُهَيْب لو لم يخَفِ الله لم يعْصِهِ، ورُبَّ أشْعَثَ أغْبر ذي طِمْرين، مدْفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه، وأهْلاً بِمَن خَبَّرَني جبريل بِقدومه ! قال أوَمِثْلي ؟! فقال: نعم يا أخي، خامِلٌ في الأرض عَلَمٌ في السماء، لا تنْظر إلى الدَّخْل، وأنَّك لا تمْلِكُ بيْتاً، فقد تُوُفِّيَ صلى الله عليه وسلّم وهو لا يمْلِكُ إلا سبْعَةَ دراهم، قبل أنْ يأتيهِ النَّزْعُ الأخير قال: ما ظنُّ محمّد بربِّه، إنْ ماتَ وهو عنده هذه الدراهِم؟ أنْفِقُوها، الآن تجد الواحد فينا يموت ويتْرك مالاً لا يُعَدّ ! فالإنسان لما يموت تُرَفْرِفُ روحُهُ فوق النَّعْش، تُخاطبُ أهْله فتقول: يا أهْلي يا ولدي، لا تلْعَبَنَّ بكم الدنيا كما لَعِبَتْ بي، جَمَعْتُ المال مما حلَّ وحرم، فأنْفَقْتُهُ في حِلِّهِ وفي غير حِلِّهِ فالهناءُ لكم والتَّبِعَةُ علي، فقال عليه الصلاة والسلام: ما من أحدً إلا وَمَلَكُ الموت يقف في بيْتِهِ خمْس مرات، فإذا رأى أنَّ العبْد انْقضى أجَلُهُ وانْقطَعَ رِزْقُه، ألْقى عليه غَمّ الموت فَغَشِيَتْهُ سَكَراتُهُ، فَمِن أهْل البيت الضاربة وجْهَهَا، ومن أهْل البيت الصارخة بوَيْلها، يقول هذا الملك: فيمَ الجَزَع ؟! ومِمَ الفزَع ؟ ما أذْهَبْتُ لِواحِدٍ منكم رِزْقاً، ولا قَرَّبْتُ له أجَلاً، وإنَّ لي فيكم لَعَوْدَةَ والعَوْدة، حتى لا أُبْقي منكم أحَداً، فوالذي نفسُ محمد بيَده لو يرَوْنَ مكانه ويسْمعون كلامه لَذَهِلوا عن مَيِّتِهم، ولَبَكوا على أنْفسهم، فهذه السُّوَر الصغيرة يجب أن نعْقِلَها، وأن نفْهَمَها، أبْعادُها خطيرة، ومراميها بعيدة ودقيقة، قيمة المال، سورة اليوم هي عن قيمة المال، يا عائِشَة إذا أردْت اللُّحوق بي لِيَكْفِكِ من الدنيا كَزادِ الراكب، ولا تسْتخلقي ثوْباً حتى ترْقَعيه، وإياكِ ومُخالطة الأغْنياء، إذا دخلتَ على الغَنِيّ تجد حالك لا تمْلك شيئاً من الدنيا ! يقول لك هذه الثُّرَيَّة ثمنها ثلاثون ألف ليرة منذ ثلاثين سنة! أما الآن فلا ثَمَنَ لها طبعاً لا بد أن تفهموا أيها الإخوة أنَّنا نقصد بالأغنياء غير المؤمنين، أما المؤمن الغنيّ فتشْتهي أن تكون مثله، فليس الفقير الصابر بأصبر من الغنيّ الشاكر فَحَبّذا المال أصون به عِرْضي، وأتَقَرَّبُ به إلى ربّي، فالمؤمن الغنيّ سَموح ويَحُلُّ مشاكل الناس.

تعليق صغير على هذه السورة، الله تعالى قال:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1))

[الهمزة: الآية 1]

فالله سبحانه وتعالى يَتَوَعَّدُ هؤلاء، فَلَو أجْرَيْنا مُوازنة بين أن يتَوَعَّدَ إنسانٌ إنساناً ؛ إذا قال لك إنسان سوف ترى ما سَأَفْعَلُ بك، وجاءَكَ الوعيد من الله هل يسْتويان ؟! إذا قالها الإنسان كان هناك لدينا ثلاث احْتِمالات: الاحتمال الأول: هو اِحتِمال أنْ لا يعيش هذا الإنسان، قد لا يسْتطيعُ هذا الذي تَوَعَّدَك أنْ يعيش لهذا الوقت الذي تَوَعَدّكَ فيه.

والاحتمال الثاني: قد يعيش لِهذا الوقت ولا يمْلكُ القوّة يفْقِدُها.

والاحتمال الثالث: قد يبْقى حياً قوياً ولكِنّكَ أقوى منه، فيَتَوَقّف ! لكن إذا تَوَعَّدَك الله سبحانه وتعالى، فهُوَ حيٌّ قويٌّ قاهِر، حيٌّ على الدوام وقاهِر على الدوام، وقويٌّ على الدوام، ووعيدُهُ حقّ ولا محالة واقِع، فالإنسان إذا تَلَقى التَّهْديد فإنَّهُ يَزِنُ هذا التهْديد بالإنسان المُهَدِّد، أما الله خالق الكون.
النقْطة الثانِيَة: أنّ الله سبحانه وتعالى لما قال:

(نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الّتِي تَطّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 6-9]

بالإضافة إلى شِدّتِها، أيْ أنّ لا أحد في الكون يسْتطيع إطْفاءَها ولا أنْ يُنَجّيَكَها، فهذا إذا كان بين الناس ويقول لك أحدهم لا أستطيع أنْ أتَدَخّل
لِقُوّة فُلان، فكَيف بِقُوّةِ الله ! فالله تعالى قال:

(نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الّتِي تَطّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 6-9]

أرجو أنْ تكون هذه السورة في قُلوبكم وفي أذْهانِكُم دائِماً، لأنّ الإنسان إذا خاف اسْتقام، وإذا عَرَفَ الله تعالى اسْتقام، وإذا عرف أبْعاد هذه
السُّوَر هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفيل 105 -الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1- 5 قصة أصحاب الفيل والحكمة منها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

جعل الله تعالى سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة :

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

إنّ الله سبحانه وتعالى في سورة الهمزة:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ*الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ)

توعّد الكفار بعذاب النار، فجاءت سورة الفيل تأكيداً لهذا الوعيد، وإن الذي توعده الله سبحانه وتعالى الكفار يوم القيامة لا شك واقع، لأن نوعاً من الهلاك حصل لقوم اجترؤوا على حرم الله عز وجل فأهلكهم الله عز وجل، فجعل سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام وُلد بعد خمسين يوماً من حادثة الفيل، فحينما جاء أبرهة الأشرم من الحبشة ليهدم الكعبة، كان النبي صلى الله عليه وسلم في بطن أمه، وبعد خمسين يوماً ولد النبي عليه الصلاة والسلام، والخطاب موجَّه للنبي عليه الصلاة والسلام، فكيف يقول الله عز وجل لشيء لم يره النبي عليه الصلاة والسلام:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر :

بعضهم قال: (ألم ترَ) هنا بمعنى (ألم تعلم)، وما دامت (ألم تر) بمعنى (ألم تعلم)، فلِمَ عدل الله تعالى عن قوله: (ألم تعلم) إلى قوله: (ألم تر)؟ الحقيقة أن الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

أول شيء يتلقاه الإنسان من العالم الخارجي الأصوات عن طريق الأذن، ولذلك أكثر الآيات القرآنية التي تتحدث عن السمع والبصر بدأت بالسمع لأن السمع يسبق البصر، ولو أن مولوداً ولد لتّوه وسمع صوتاً لتحرك، لكنك لو وضعت يدك أمام عينيه فلا تطرفان إلا بعد ثلاثة أيام، فالمعلومات التي تستقيها عن طريق السماع تكون أولاً، ثم المعلومات التي تستقيها عن طريق البصر، وهذه المعرفة سماها العلماء المعرفة الحسية، فإمّا هو شيء سمعته أو شيءٌ أبصرته، ومع أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر إلا أن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، بمعنى أن الشيء الذي تشاهده لا يحتاج إلى برهان، لكن الشيء الذي تسمعه يحتاج إلى دليل، يحتاج أن تقول لصاحبه: صادق أو كاذب، فصار أعلى درجة من ثبوتيات الحقائق ما شاهدته بعينيك. سيدنا علي رضي الله عنه يقول: " بين الحق والباطل أربعة أصابع". بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: شاهدت، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

الإنسان تميَّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية:

المفسرون قالوا: الأفئدة هي العقل، أو هي الدماغ، أو هي الفكر، فَأَدَ الشيء بمعنى ربطه، والإنسان عنده مدركات حسية، فمنها ما رآه بعينيه، وما سمعه، وما ذاقه بلسانه، وما شمه بأنفه، وما لمسه بيده، فهذه مدركات حسية، وعنده معارف استدلالية، هذه المدركات الحسية تعطيه المواد الأولية، ومنها يستنبط المعلومات والحقائق.

لذلك فالإنسان تميَّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية، وهذه التي سماها ربنا سبحانه وتعالى علم اليقين، أما عين اليقين فمشاهدة الشيء، فمن حيث التسلسل هناك سمع، وهناك بصر، وهناك استدلال، فقد ترى دخاناً، فتقول: لا دخان بلا نار، فتستدل بالدخان على النار. ومن حيث الثبوت واليقين فالمعرفة التي حصلت عن طريق الرؤية تقع في قمة هذه الحقائق، فهل يُعقل أن يكون إخبار الله عز وجل عن حادثة الفيل أقلَّ رتبة من الرؤية؟ وهذا يعني أنك أيها الإنسان إذا أخبرك الله بشيء فيجب أن تتلقفه وكأنك تراه لثبوته، لذلك ربنا عز وجل عدل عن قوله تعالى "ألم تعلم، ألم تُخبر، ألم تسمع"، قال سبحانه: "ألم تر"، لأن الذي يخبرك الله به من حيث اليقينُ والثبوتُ والتأكيدُ هو بمرتبة الرؤية:

(أَلَمْ تَرَى)

بقيت هذه (لم)، فيعربونها حرف جزم ونفي وقلب، أمّا أنها حرف جزم فلأنها تجزم الفعل المضارع، وأما أنها حرف قلب فلأنها تقلب زمنه من الحال أو الاستقبال إلى الماضي، أيْ أما رأيت في الماضي، واللهُ سبحانه وتعالى أخبر نبيه عما فعله بأصحاب الفيل، وموضع الفيل بعد قليل أفصِّل فيه، فهذه (تَرَ) فعل مضارع، وحينما دخلت عليها لم قلبت زمنه إلى الماضي، وأنت يا محمد يجب أن ترى، أو لقد رأيت، أو ألم تر، فهذه الهمزة همزة استفهام، وهذا الاستفهام استفهام إنكاري، والاستفهام الإنكاري فيه نفي، والفعل مسبوق بحرف نفي فصار نفي النفي إثباتاً، فنفيُ النفي إثباتٌ:

(أَلَمْ تَرَى)

أيْ لقد رأيت.

الله سبحانه وتعالى إذا روى قصة فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة وعلى مدى الأجيال:

القصة كما ترويها الكتب أن ملك الحبشة كان نصرانياً، أراد أن يبني في عاصمة ملكه صنعاء كعبة كالتي في مكة المكرمة، وأراد أن يصرف الناس إليها، وأن يصرف الناس عن مكة إلى صنعاء، فسمع بهذا أحد الأعراب ممن كان في مكة، فجاء إلى صنعاء وقعد في هذا البيت الكعبة المزعومة، بمعنى آذاه، فحينما بلغ ملك الحبشة هذا الحدث غضب، وأرغى وأزبد، وقال: لآتين الكعبة ولأهدمنَّها، فجهز جيشاً كبيراً جراراً، وتوجه نحو مكة المكرمة.

القصة طويلة فيها إضافات، قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة، فساق لهدم الكعبة جيشاً قوامه الأفيال، وجعل في مقدمتهم فيلاً عظيماً، ولما وصل إلى ظاهر مكة طلب زعيمها، وكان عبد المطلب زعيم مكة، وكان قائد هذا الجيش أبرهة الأشرم قد استولى على مئتي ناقة لعبد المطلب، فلما التقى أبرهة الأشرم بعبد المطلب لم يحدِّثه إطلاقاً عن غزو الكعبة وعن هدمها، بل قال: أريد أن ترد علي إبلي، فأبرهة الأشرم عجب أشد العجب، أنا أتيتُ لهدم كعبتكم، ولهدم مقدساتكم، ولهدم دينكم، ولهدم مكان حج العرب إليكم، وتقول لي: ردَّ علي إبلي!! فلما واجهه بهذا العُجب، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للكعبة رباً يحميها، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم طيراً أبابيل، أيْ طيراً ضعيفة، رمتهم بحجارة فأبادتهم عن آخرهم، كما أن الفيل الكبير الذي تقدم الجيش أبى أن يتقدم نحو الكعبة، وعاد إلى صنعاء، وحينما كان يوجَّه نحو صنعاء يمشي، وإذا وُجِّه نحو الكعبة توقف:

((عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَ اللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ

بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيراً لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ...))

[البخاري عَنْ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ]

الحقيقة هذه قصة، ولكن القرآن الكريم إذا ذكر قصة فينبغي أن تكون لها مدلولات كبيرة باقية على مر الأزمان والأيام، وما جاء في القرآن الكريم من قصص ليست مجردَ رواية حدث، ولا إملاء وقت فراغ، ولا إمتاع سامع، هذه كلها أهداف رخيصة لكتَّاب القصص، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا روى قصةً فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة، وعلى مدى الأجيال.

إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرةً بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون :

أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي على الكعبة التي هي بيت الله الحرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 69]

هذا بيت الله عز وجل، فلما أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي عليه تولى الله ردَّه، وبالمناسبة ما هو معروف أنّ النار تحرق السكين، والسيف يقطع، وهناك حوادث تقع دائماً، فالله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل حدث علةً، خلق الكون، وخلق له قوانين وجعل له سنناً ونواميس، أيْ قواعد، فتجري الأفعال وفقها وخلالها، ولكن الله سبحانه وتعالى أحياناً يحرق بلا نار، مثلاً، هناك موت بسبب توقُّف القلب والنبض، والجملة العصبية كفَّت عن العمل، وهناك أسباب كثيرة للوفاة، وقد تحدث وفاة بلا سبب، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

إنّ هذا الفعل منسوب لله عز وجل، وهذا الفعل خلاف النواميس الطبيعية، أن تقول: إن هذه الطير معها جراثيم الجدري، وقد أصابت هذا الجيش، فهذا فعل الله المباشر، ولا يخضع لقوانيننا، ولا يخضع لنواميس الكون، وكيف أن البحر صار أرضاً تحت أقدام سيدنا موسى، فأيُّ قانون هذا؟ وكيف أن النار كفَّت عن إحراق سيدنا إبراهيم؟ قال عز وجل:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

ما يحدث في العالم دائماً له قواعد وله قوانين وله مبادئ وسنن ونواميس، ولكن أحياناً حينما تنسب الأفعال تُنسب إلى الله عز وجل، على أنه مسبب الأسباب، لكنك إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرةً بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون.

جعل الله عز وجل إهلاك أصحاب الفيل درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان :

علماء التوحيد قالوا: النار لا تحرق إلا بإذن الله وإرادته، وجمعوا عقيدتهم هذه بكلمة (عندها لا بها)، أي عند وجود إرادة الله عز وجل في الإحراق فإنّ النار ستحرق، وإذا أراد الله عز وجل أن يحرق إنساناً أتته النار فأحرقته، هذا شيء ألِفه الناس جميعاً، وهؤلاء الذين أرادوا أن يهدموا بيت الله الحرام، كأن الله سبحانه وتعالى لو ألْهَمَ قريشاً أن تقاتلهم، وأن تنتصر عليهم لبدا ذلك أمراً طبيعياً، غزوة رُدت، وحرب انتهت، ولكن الله سبحانه وتعالى تولّى بنفسه إنهاء هذه الحملة وسحقها وإحباطها، لأن هؤلاء اعتدوا على بيته، وهذا بيت الله الحرام، لذلك جعل الله عز وجل هذا الإهلاك درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

العلماء قالوا: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام ولد في عام الفيل، وكان من الطبيعي أن هناك أناساً عاصروا هذا الحادث، ولما وُلد النبي صلى الله عليه وسلم كان عمرُ بعضهم يزيد عن السبعين، فهذا لما كان عمره عشرين سنة رأى هذا الحادث، وبعضهم كان يزيد عن الثمانين، وثمّة رجلان من قريش حينما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام كان عمرهما يزيد على مئة وعشرين عاماً، فحينما كانوا في الستين رأوا هذه الحادثة، فلو أن هذه الحادثة لم تقع، أو وقعت بغير هذا الوصف، لردَّها هؤلاء الذين عاصروها: وقالوا: محمد يكذب، لكن الله عز وجل وهو أصدق من قال روى شيئاً رآه أناس بأم أعينهم:

(أَلَمْ تَرَى)

أي عام الفيل، وحادثة الفيل من الأشياء التي استيقنها الناس قبل النبي وبعده، لذلك قال الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ)

لمَ لم يقل: ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟ لمَ جاءت كلمة " كيف "؟ المقصود أن تقف عند الكيفية، كيف أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولكن كن فيكون وفق الأسباب.

هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس :

إذا طلب إنسان من الله الغنى، فهل يستيقظ صباحاً فيرى مئة ألف تحت وسادته؟ لا، يلهمه عملاً يدر عليه مالاً، ومع تتابع الأيام والشهور يصبح غنياً، فأغناه وفق النواميس، ووفق السنن والقوانين التي وضعها الله عز وجل، وهذا شيء نعرفه جميعاً، لكن هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس، مثلاً: يتزوج الرجل امرأة وينجب مولوداً، فالله جعل رحماً، وجعل مبيضين، وجعل أنبوبين، وجعل حيواناً منوياً، وجعل هذا الحيوان يسبح في سائل، وسخّر مئتين وخمسين مليونَ حيوان يتجه نحو المبيض، والمبيض فيه بويضة، والبويضة تختار أقوى هذه الحيوانات، يدخل هذا الحيوان البويضة فيلقحها، ثم تنقسم البويضة عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، وهناك إذا وصلتْ تلتصق به، وتبدأ الخلايا تنقسم، ويزداد حجمها، فينشأ تخطيط أولي للدماغ، ثم للأحشاء، ثم للأعضاء، ثم للقلب، وهكذا يكبر الجنين حتى يبلغ تسعة أشهر وعشرة أيام، ثم يخرج إلى الدنيا، هذا النمط الذي خلقه الله عز وجل، وهذه سنة الله في خلقه، وهذا هو الناموس الأكبر، وهذا هو النظام بالتوالد، ولكن سيدنا آدم خُلق بلا أب ولا أم، خلافاً لهذه القاعدة، وسيدنا عيسى خُلق بلا أب، والسيدة حواء خُلقت بلا أم، وقد يكون الإنسان متزوجاً، ويجعله الله عقيماً، هذه الحالات كلها، أب وأم لا أولاد، أب بلا أم، أم بلا أب، لا أب ولا أم، هذا ذكر واضح للحالات كلها، أمّا نحن جميعاً فمن أب وأم، وفق النواميس والقوانين والحقائق، لكن الله عز وجل لحكمة يراها خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق حواء بلا أم، وخلق سيدنا عيسى بلا أب، وجعل من الناس عقيماً، مع أنه تتوافر فيهم شروط الخلق، فلماذا؟ كي تعرف أيها الإنسان أن التزاوج وحده لا يكفي لإنجاب الأولاد، بل لا بد من مسبب الأسباب، وهو الله سبحانه وتعالى، لذلك قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

الظاهر والباطن، الظاهر الذي يظهر لك، والباطن أحياناً يحدث الشيء بلا سبب، فمن هو السبب؟ الله سبحانه وتعالى، لذلك في موضوع الطب بعض الأبحاث تذكر أنّ هناك الشفاء الذاتي، حيث الطب يقف عاجزاً عن تفسير هذا الشفاء، كيف شفي؟ لا نعلم، حصل شفاء ذاتي، والأصح أن تقول: يد الله أحدثت هذا الشفاء بلا دواء، وربنا عز وجل قادر على أن يشفي بدواء وأن يشفي بلا دواء، حتى العلم، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

في هذه السورة وعيد لقريش ومعاتبة لها وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام :

أحياناً هذا العالِم يعطيه ربنا طرف الخيط، يقول لك: حدثٌ إبداعي يتسلسل من مقدمة إلى نتيجة إلى حقيقة، وهذا الكشف تم عن طريق مقدمات وأسباب وأدلة وملاحظات، وما شاكل ذلك، وأحياناً تتكشف الحقيقة كاملة بلا مقدمات، إذاً هنا في هذا الموضوع أفعال الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب وفق نواميس الكون، يغني بأسباب ويفقر بأسباب، يعطي بأسباب ويمنع بأسباب، يصح جسم الإنسان بأسباب ويمرض بأسباب، وقد يمرض بلا سبب، ويصح بلا سبب، وقد يغتني بلا سبب، لكن هذا لا يفعله الله عز وجل إلا لحكمة بالغة، ليعلمنا شيئاً، فكذلك لو أن قريشاً وقفت في وجه أبرهة الأشرم وحاربته وانتصرت عليه لما كانت آية من آيات الله، حرب كما هي الحروب، لا بد من فريق ينتصر على فريق، ولكن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه سحق هذه الحملة، لأنها اجترأت على بيته الحرام، وعلى البيت العتيق الذي إذا دخله الإنسان شعر بالأمن والراحة، قال تعالى:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

كأن في هذه السورة وعيد لقريش، ومعاتبة لها، وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام، أي يا محمداً لا تخف فأنت رسولي، وهذا البيت بيتي، وسابقاً جاء أبرهة الأشرم ليهدمه فانتقمت منه، فلا تقلق، إني ناصرك، وإني معك، هذا معنى.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

1 ـ المعنى الأول أن الذين يعارضون النبي ويكيدون له يجب أن يتعظوا بأصحاب الفيل:

هؤلاء الذين يعارضونك ليطفئوا نور الله عز وجل، هؤلاء الذين يكيدون لك، يكيدون لإخراجك من بيتك، ليقتلوك، ليثبتوك، هؤلاء يجب أن يتعظوا بأبرهة الأشرم، وبأصحاب الفيل، هذا المعنى الأول.

2 ـ الله تعالى يعتب على الذين حماهم الله من غزو أبرهة ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه:

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يعتب على هؤلاء الذين حماهم الله عز وجل من غزو أبرهة، ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه عليه الصلاة والسلام:

(أَلَمْ تَرَى)

المقصود كيف؟ أي كيف تمّ ذلك؟ هل يُعقل لطائر، بحسب القوانين المألوفة، والنواميس المعروفة، والسنن المطبقة، أن طائراً يحمل حجراً، ربما لا يتمكن من حمله لكنه يسحق جيشاً بكامله، وأي طائر أبابيل، هذه الطيور لا تطير وحدها، لخوفها وقلقها وضعفها، فلا تطير إلا مجتمعة، وهذه الطيور ألقت الحجارة على هذا الجيش فجعلته كعصف مأكول:

(أَلَمْ تَرَى)

الشيء الذي أقف عنده أيضاً، بعد أنْ قلنا: إنّ (ألم) هي نفي النفي، ونفي النفي إثبات، لقد فعل ربك بأصحاب الفيل، وكلمة (ألم تر) تعني إخبار الله عز وجل من أعلى مستوى في اليقينيات، فيجب أن تأخذه كأنك تراه، فاعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك.

كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً :

إنّ كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً، لذلك ربنا عز وجل يستخدم الفعل الماضي أحياناً بدلاً من الفعل المستقبلي، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة المائدة:166- 177]

هذا شيء لم يقع بعد، إذ قال الله تعالى:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

[سورة الزمر: 73]

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة الزمر: 73]

إذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد وهو تحقق الوقوع :

كل هذه المشاهد ساقها الله عز وجل بالفعل الماضي، وإذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد، وهو تحقق الوقوع، وما وعد الله به كأنه وقع، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

إذا كان الواحد منا مؤمناً ونرجو أن نكون جميعاً كذلك، وهو ينتظر وعد الله بالجنة فكأنه دخل الجنة، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

صحابي جليل لشدة إيمانه بكلام ربه، قال: " وكأني بأهل الجنة يتنعمون وبأهل النار يتصايحون بعد أنْ قال له النبي: كيف أصبحت؟ فأجابه ذلك الجواب، فقال له: عبد نور الله قلبه بالإيمان، عرفت فالزم، عندما ترى إنساناً لا يدرس، كأنك تراه سائراً في مؤخرة الركب في المجتمع، وهو لا يزال طالباً، ولكن حاضره يدل على مستقبله.

معنى الرب :

إذاً كلمة " ترى " تعني يجب أن تأخذ إخبار الله عز وجل وكأنك تراه، ونفي النفي إثبات، أي لقد رأيت، لم ير النبي ولكن الله أخبره بهذا، وليس في الأمة كلها من يستطيع أن يقول لا، لم يحدث هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر معمرين رأوا بأم أعينهم ما فعله الله بأصحاب الفيل، وبعدها قال:

(أَلَمْ تَرَى)

الكيفية، تدخل مباشر من دون أسباب، لأن هذا البيت بيته والله تولى بنفسه حفظه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

أما كلمة (ربك)، لم يقل ربنا عز وجل ألم تر كيف فعل الله، أو فعل الإله، أو فعل القوي، قال: ربك، أي أنت في رعايته، وأنت في حفظه، فإنك بأعيننا، فكلمة رب توحي بالعطف والمودة والرحمة، فالرب هو المربي، وهو الممد، وهو الذي يصرِّف الأمور، وهو الذي يحلُّ المشكلات، هذا هو الرب.
قد نستخدم في حياتنا اليومية كلمات، نقول: رب أسرة، ما معنى رب أسرة؟ أينساها بلا طعام؟ إذا مرض الابن أيتركه مريضاً؟ لا، بل يأخذه إلى الطبيب، وينفق على الأسرة من ماله ويرعاها، يرعى أجسامها ونفوسها بالتوجيه، ويقدم لها حاجاتها صيفاً وشتاءً وربيعاً وخريفاً.
هذا معنى الرب، فالمفهوم الصغير رب الأسرة رب البيت، لكنّ رب العالمين هو الذي يرعى كل مخلوق، ويقدم له ما يحتاج من طعام وشراب وكساء، ويقدم له ما يحتاج من توجيه وعناية وإرشاد ومعالجة.

كيد الله إحباطٌ لكيد الكفار وتآمرهم :

سمّى عمل هؤلاء الذين قدِموا مكة ليهدموها كيداً، فقال:

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

ما هو الكيد؟ عندنا شيئان في الحياة، عندنا مواجهة، وعندنا كيد، فالإنسان إذا كان قوياً جداً وواثقاً من قوته لا يكيد، بل يواجه عدوه رأساً، فمن الذي يكيد؟ إنه الضعيف، يدبر مؤامرة، وخطة للتغلب على عدوه القوي، لذلك ربنا قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

كيد الله سبحانه وتعالى ليس من نوع كيدهم، هم لضعفهم يكيدون، ولكن الله سبحانه وتعالى يدافع عن عباده المؤمنين، فيكيد لهم خطة معاكسة تفشل خطتهم، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 30]

فكيد الله إحباطٌ لكيدهم وتآمرهم، ليس لك أن تقول: الله ماكر، ولا كائد، هذا تدبير يقابل كيدهم ومكرهم:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ)

[سورة آل عمران: 54]

الله تعالى دفاعاً عن أوليائه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم ويفشلها:

إنّ الله سبحانه وتعالى دفاعاً عن أوليائه وعن أحبابه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم، فتصبح هذه الخطة محبطة فاشلة، وهذا الذي عناه الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

لقد رسم أبرهة خطة لهدم الكعبة، وتحويل الناس إلى صنعاء، وكأن هذه الكعبة من صنع قريش، وأنها تأتيهم بالمكاسب، وما شابه ذلك.

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

معنى تضليل: أي ضاع عنهم هدفهم، ولم يحققوا مرامهم، كيف جعل كيدهم في تضليل؟ لقد أرسل عليهم طيراً أبابيل، أيْ ضعاف الطير، أحياناً يموت الإنسان من ضربة قوي، ولكنْ إذا مات من ضربة ضعيف فيكون مع موته إهانة، هناك مثل عربي يقول: لَوْ ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي، أيْ لو لطمته أَمَةٌ جارية لتألم، أهذه تلطمني؟ ولو أن ذات سوار لطمتني، أيْ لو كان حرةً لهانت المصيبة، أما أنْ تلطمني جارية فهذه المصيبة كلها. أحياناً الإنسان تدهسه سيارة قمامة، مشكلة، ولو كانت غيرها لهان الخطب، فهذا مع الدمار إهانة.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ)

أضعف أنواع الطير، ولو أن الله سبحانه وتعالى سلّط عليهم صقوراً جارحة مخيفة، لو سلط عليهم وحوشاً كاسرة، لكان الأمر مقبولاً، لكنْ:

(طَيْراً أَبَابِيلَ)

لقد ماتوا على أتفه سبب.

عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره فليس ثمة طائش عند الله كله صائب:

قال تعالى:

(تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

قال بعض المفسرين: الحجارة من سجيل هي كل حجر من طين قاس، وبعضهم قال: من سجيل مسجَّل عليها اسم من تقتله، وإذا قسنا على هذا فليس هناك قذيفة طائشة أبداً، لعله أصابته قذيفة طائشة، طائشة عندك أيها الإنسان أمّا عند الله فليس ثمة طائش كله صائب، كله يصيب الهدف تماماً، بحسب الخطة التي رسمت له، لذلك حتى في الحروب الحديثة، قنابل وصواريخ، شيء طائش، قذف عشوائي، أمّا عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

هذا من الأدب القرآني، العصفُ روثُ البهائم، فإذا أكلت الدابة تبناً خرج منها بعض قطعه الصغيرة في روثها، وهذا منتهى الضعف والإهانة:

(فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

أي كطعام أكل، وظهر في البراز، وظهر في الروث.

البلاء عامٌّ والرحمة خاصة :

قال تعالى:

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

في القرآن آية مشابهة، فسيدنا إبراهيم جاءته رسل الله عز وجل:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ*لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[سورة الذاريات: 31-34]

مسومة أي كل حجر عليه اسم صاحبه، هذه تقتل فلاناً، وهذه فلاناً، حتى لا يقول أحد: واللهِ هذا شيء يحير، يذهب البلاء بالطائع والعاصي، لا، البلاء عامٌّ، والرحمة خاصة، قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ* وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

[سورة الذاريات: 35-37]

كل شيء وقع في الكون هو خير :

أول عملية أُخرج المؤمنون والمسلمون، ثم تم الهلاك والدمار، لا خطأ عند ربنا عز جل، ولا قذف عشوائي، ولا طائش، ولا خطأ، ولا صدفة، مرة أراد إنسان أن يتوظف فطُلب منه شهادة صحية، فحص شعاعي، ذهب إلى مكان الفحص وفحص صدره، بعد يومين، أخذ النتيجة فإذا هي سلبية، معه بوادر مرض السل، فأعلم أهله، وابتعدوا عنه، وعزلوه، الطعام وحده، صحنه خاص به، وكذلك المنشفة، فهذا الإنسان انزوى، وشعر بالدمار، وشعر بمصيره الأسود، فتألم، وبكى يأس من الحياة، وبعد ذلك أشرق في نفسه بصيص الأمل، لعل الله يشفيني، فتاب إلى الله، وصلى، وذهب أبوه إلى المشفى مرةً ثانية، فإذا بموظفي المشفى كانوا قد أعطوه نتيجة رجل آخر، وهو معافى أصلاً، لكنهم أخطؤوا معه، فخطؤهم معه عند الله صواب، لأنه ردّه إليه بهذه الطريقة، فالإنسان يخطئ، والله لا

يخطئ، حتى إنّ خطأ الإنسان يُوظف لمصلحة إنسان آخر، فليس عند الله خطأ، فإذا أخطأت فإنّ الله لا يخطئ، فحينما سمح الله لهذا الحدث أن يقع فهو خير، أي حادث، وما دام وقع فهو خير، لكن ليس خيراً مطلقاً، بل هو خير نسبي، فتح البطن وشقه، وإزالة الصفراء، هذا ليس خيراً مطلقاً، لكنه خير نسبي، لمن يشعر بآلام الزائدة، ولمن يصيح طوال الليل، فخير له أن يُفتح بطنه، وأن تُستأصل هذه الزائدة، أو هذه الذائدة في التعبير الآخر، فهذا خير نسبي، أما المطلق فألاّ يحتاج لهذه العملية، فكل شيء وقع في الكون هو خير، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 26]

العطاء خير والمنع خير، والعز خير والذل خير، وكله خير بخير، والله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا خيراً.

الحكاية الربانية درس بليغ فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه :

قال تعالى:

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

هذه السورة القصيرة بل هذه القصة الموجزة هذه يسمونها حكاية، لأنه حدث واحد، هذه الحكاية الربانية درس بليغ إلى نهاية المطاف، فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: 67]

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل: 79]

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّق الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في أيدي الله أوثق منك بما في يديك، لماذا فعل ربك ذلك بأصحاب الفيل؟ ولماذا جعل كيدهم في تضليل؟ ولماذا أرسل عليهم طيراً أبابيل؟ ترميهم بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة قريش 106-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 نِعَمُ الله على خلقه .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

سورتا الهمزة وقريش قال بعضهم إنهما سورة واحدة :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)

هذه اللام متعلقة بهذه الأفعال:

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ*فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

لهذه السورة معنيان؛ المعنى الضيق؛ قريش القبيلة التي منها النبي عليه الصلاة والسلام، كانت تعيش حول البيت الحرام، وكانت لها مهابة بين العرب، لأن بيتها يُحج إليه من قِبَل العرب جميعاً، ولذلك كانت تجارتها آمنة، هي في واد غير ذي زرع، من أين تأكل إذاً؟ من التجارة، لها رحلة إلى اليمن شتاءً ورحلة إلى الشام صيفاً، وقد ألفت هاتين الرحلتين، وكانت هاتان الرحلتان سبباً في الرزق الوفير، وفي رخاء العيش التي تنعم به قريش، فلو أن الله سبحانه وتعالى مكن أبرهة من هدفه، وسمح له أن يهدم الكعبة، وأن يتحول الناس إلى صنعاء لذهبت مكانة قريش، ولخسرت تجارتها، ولماتوا جوعاً، لكن لأنهم يعيشون حول هذا البيت ويرعونه دافع الله عنهم، لذلك بعضهم يقول: إنهما سورة واحدة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ* لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1))

الحكمة من ردّ الله تعالى أبرهة الحبشي عن بيت الله الحرام وعن قريش :

لتألف قريش رحلتيها، وتنعم بهما، وتبقى موقرة مهابة بين قبائل العرب، هذه اللام هي في الأساس لام التعليل، لكن في حالات نادرة لا تكون هذه اللام لام تعليل، بل لام المآل، مثلاً قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص: 8]

هل يعقل أن يلتقط فرعون هذا الغلام ليقضي على ملكه؟ مستحيل، لكن الذي حصل أن هذا الغلام قضى على ملكه، إذاً هذه اللام من باب المآل والعاقبة، وليست لام التعليل، هو بوعيه وعقله وفكره واختياره لا يفعل هذا، ولكن الذي حصل أن هذا الغلام قضى على ملكه، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص: 8]

فأبرهة ما فعل ما فعل إلاّ عن رغبة في الكيد لبيت الله، لكن الله سبحانه وتعالى حينما رده عن قريش، وقريش وقتها لا تستحق النصر من الله عز وجل، فالذي حصل لو كانت قريش مؤمنة بالله لكانت هذه اللام لام التعليل، بل لأن قريش وقتها كانت وثنية تعبد الأصنام من دون الله، ويأكل قويها ضعيفها، لم تستحق النصر، والذي حصل أن الله عز وجل حينما رد أبرهة عن الكعبة المشرفة كان من نتيجة هذا أن قريش بقيت على مكانتها، وحافظت على منزلتها، حتى إن قبائل العرب بعد حادثة الفيل كانت تسمي قريشاً أهل الله، وأهل حرمه، صارت مُهابة يخاف الناس أن يعتدوا عليها، وأصبحت لها هيبة كبيرة، وأصبحت تجارتها رائجة، وقوافلها آمنة، فلا يجرؤ أحد على أن يعتدي عليها.

كل ما في الأرض يألفه الإنسان لأنه صُنع خصيصاً له وليس محض صدفة :

قال تعالى:

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ)

بعضهم قال: الإيلاف مصدر الإلفة، وقريش قَرَشَ الشيء أي تجمع، في الكون آيات باهرة ومجتمعات بشرية، وهذه المجتمعات موفورة لها كل حاجاتها، هذه نعمة من الله عز وجل. الهواء موجود، والماء موجود، الطعام موجود، والمحاصيل موجودة، والخضراوات موجودة، والفواكه موجودة، والأزاهير، والرياحين، والمعادن، وأشباه المعادن، والفيتامينات، والكائنات الصغيرة المجهرية، والبكتريا، وديدان الأرض، والشمس والقمر، والإنسان أَلِف هذا، لأنّ الكون مصمم وفق حاجاته فألفه، إذا لبس الإنسان معطفاً بقدره، ضعف حجمه مرتين، يقال له: شيئاً فشيئاً تألفه، لكن الواقع أنه ما يُؤلف معك ما دام كمه طويلاً وعريضاً، أما إذا كان مخيطاً وفق جسمك فتألفه، فالألفة ليست ناتجة بالصدفة، بل هي ناتجة من أن هذا الشيء صُنع لهذا الشيء.

أنت بحاجة للطعام، جُعل لك الطعام طيباً طعمُه، طيبة رائحته، جميل منظره، وهو قوام حياتك، من جعل التفاحة فيها عناصر يحتاجها الإنسان؟ من وضع في الماء الكلور؟ من وضع في الماء مواد تستعين بها الغدد على القيام بوظائفها؟ هذا الماء ألفته أنت، وعندما يحلُّون مياه البحر فليست صالحة للشرب، لأن البحر لم يُخلق للشرب، فلما يحلّونه يضيفون معه مياه الآبار، لأن مياه الآبار فيها بعض

المعادن، يقال: مياه معدنية، فربنا عز وجل جعل في مستودعات المياه في الجبال صخوراً معدنية، تنحل بنسب محدودة جداً، تكفي لحاجة الإنسان. فأنت ألفت الماء، وألفت الغذاء، وألفت اللحم، وألفت الخضار، وألفت الفواكه، وكان هذا الهواء مناسباً لك، والحرارة مناسبة، يقال: حول معدلها، فوق معدلها، دون معدلها، ليست مئة تحت الصفر، لا بل هي خمس وثلاثون، أو حواليْ عشرون، أو خمس عشرة، وقد ترتفع إلى أربعين درجة، فالجو تألفه، والطعام تألفه، والماء تألفه، وكل ما في الأرض تألفه لأنه صُنع خصيصاً لك وليس محض صدفة. ولنضربْ لذلك مثلاً؛ في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين، لأن حليب الأم ليس فيه حديد، فبطحال كل مولود كمية من الحديد تكفيه عامين، إلى أن يأكل من الطعام الآخر، نقول: الحديد ألفه، لأن الله خلقه خصيصاً له.

سورة (قريش) لها معنيان :

1 ـ يمكن أن نأخذ الآية بمعناها الضيق عن قريش ورحلتيها إلى اليمن والشام :

هذه السورة إما أن نأخذها على قريش بمعنى أن هذه القبيلة التي كانت حول الكعبة، والله حينما رد أبرهة عن بيته العتيق وقر لها طمأنينة وأمناً ومهابة، وبقيت على رحلتيها الصيفية والشتوية، وحققت عيشاً رغداً، ولأن قريش في المستقبل سوف ترعى هذا البيت، هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أن الذي نألفه ليس محض صدفة وإنه خُلِق خصيصاً لنا :

والمعنى الآخر؛ أن هذا الذي تألفه، أتألف النوم على فراش غير الصوف لا ترتاح عليه؟ على إسفنج مثلاً، فهو حام، والقطن يتلبد، أما الصوف فخاص بك، أتألف في الصيف ثياباً صوفية؟ تحتاج إلى قطن، والقطن تألفه، أتألف ماءً ساخناً للشرب؟ والله جعل ماءَ الينابيع بارداً، فربنا عز وجل خلق كل شيء كي تسعد به، وتألفه، وجعل لك الطعام من حيوان تألفه، ولا تخاف منه، فهل الغنم يخيف؟ فمن جعلها مذللة لنا، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس: 72]

الدجاج، الغنم، البقر، الماعز، سبحان الله، الجمل كبير ولا يخافه الإنسان، وقد يقوده طفل، ويجعله يبرك، أو يجعله يقف، لكن عقرباً صغيراً لا تألفه، واللهُ خلق حيوانات مخيفة أيضاً، وهذا الذي تألفه ليس محض صدفة، إنه من صنع الله عز وجل، وإنه خُلِق خصيصاً لك أيها الإنسان.

الفصول وما فيها من نعَم وما فيها من فواكه وثمار كلها إكرام من الله عز وجل :

هذه الفصول الأربعة؛ من صيف وشتاء وربيع وخريف، الصيف موسع، لأن الربيع قليل، والشتاء موسع، والشتاء له طعام خاص وله عادات، والبيت محبب للإنسان، والثياب الداكنة محببة، والمعاطف كلها للشتاء، لكن السهرات في الصيف، وفيه تحب الثياب الرقيقة الخفيفة، والثياب البيضاء الناعمة، لكنك في الشتاء تحتاج إلى صوف سميك، وإلى معطف، ومدفأة، ودثار، ولحاف، أمّا في الصيف فيكفيك مسبل خفيف، وفي الصيف طقس معيَّن، وجو خاص، ومناخ، وفواكه، وثمار، وعادات، وتقاليد، إنّ الله نوَّع الحياة، آخر الصيف الناس يملون منه، وينتظرون الشتاء بفارغ الصبر، وفي آخر الشتاء يملونه، وينتظرون الصيف بفارغ الصبر.

رحلة الأرض، دورانها حول نفسها، دورانها حول الشمس، كونها عمودية تحت الشمس، أو مائلة، وصيف وشتاء، طبعاً يمكن أن نأخذ الآية بمعناها الضيق عن قريش، ورحلتيها إلى اليمن والشام، وعن أن الإنسان خُلق، أنّ الله خلق له ما يألفه من كل شيء.

هناك طعام، ولحم خفيف، ولحم طير مما يشتهون، ولحم ثقيل، ولحم يؤكل مشوياً، ولحم يحتاج إلى طبخ، وأنواع الفواكه، وأنواع الثمار، وأنواع الخضراوات، الإنسان خُلق يألف زوجه، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

الإنسان يألف أولاده، ويألف بيته، يألف حيه، ويألف صنعته، وهذه الألفة ليست مجرد صدفة، إنها خلق مركّز من الله عز وجل، وهذه الفصول وما فيها من نعَم، وما فيها من فواكه وثمار، كلها إكرام من الله عز وجل، فإذا فكرتم بهذه النعم أصبح عندنا جواب:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*)

البيت كل شيء فيه، فيه مكان للنوم، مكان للراحة، مكان للجلوس، مكان للطعام، مكان للاستحمام، البيت كناية عن مكان فيه كل حاجاتك، وكأن هذه الأرض بيت كبير، إذا فكرتم في هذه النعم ماذا تنتظرون؟

توافر النعم يجب أن نعرف الله بها :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

تصور حالة الإنسان من دون خضار، عندما قلَّ محصول البندورة قليلاً خفت قبل شهرين، فإنْ شاهد أحدهم مع الآخر كيس بندورة، ينظر إليه بطرف عينه، ويتساءل: من أين أتى به؟ وكأنه شيء ثمين جداً. وربنا عز وجل بعد ذلك جعل كل شيء متوافراً، وتوافر النعم هذا يجب أن نعرف الله بها، والنبي كان يدعو ويقول: اللهم عرفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، إذا زالت نعرف قيمتها تماماً، وإذا انقطعت المياه في الخزانات عندئذ تعرف قيمة الماء، وحينما تشرب كأس الماء، وتفتح الصنبور، وتغسل يديك بماء طاهر نقي بارد عذب فرات، هل تقول الحمد لله رب العالمين؟ سيدنا عمر كان يقتدي بالنبي عليه الصلاة السلام في كثير من أحواله، فمرةً أكل خبزاً وزيتاً وملحاً خشناً، وبعد أن انتهى قال: آتونا بالشراب، أسقوه سُويقاً، ماءً وشعيراً، فبعد أن انتهى قال: الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وسقاني فأرواني.

ماذا نأكل نحن؟ على أثر طعام خفيف هل تقول: الحمد لله الذي أطعمني؟ وهل ترى أن هذه المائدة مائدة الله عز وجل؟

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

الذي حماه، والذي رد عنه كيد الكائدين، والذي جعلكم آمنين مطمئنين، ويُتخطَّف الناس من حولكم:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

العبادة علة الخلق :

أتعادون النبي عليه الصلاة والسلام، وقد رد الله كيد الكائدين عنكم، وحمى بيتكم، وجعل لكم هذه المهابة، هذا عتاب من الله عز وجل، وإذا فهمنا الإيلاف وقريشاً، والتجمع، والصيف، والشتاء آيات من آيات الله عز وجل، وإذا فكرتم بهذه الآيات:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

ليعبدوه، وليطيعوه، فما هي العبادة؟ هل تقول: إن العبادة هي الطاعة؟ قد تطيع المرأة زوجها، وليست راضية بهذه الطاعة، قد يأمرها أن تغطي وجهها وهي غير مقتنعة بهذا، هذا اسمه إذعان، طاعة مع إذعان، وقد يطيع الجندي قائده، وقد يطيع الفتى سيده، وليس في الطاعة رضى أو قبول، ولكن العبادة

تعني شيئاً آخر؛ طاعة لله بعد معرفة به، إذا عرفت الله عز وجل أطعته طاعة المحب، وطاعة المستسلم، وطاعة الراضي، وطاعة الذي يرى أن في هذه الطاعة مكسباً كبيراً:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

والعبادة ينتج عنها السعادة، لأنك إذا أطعت الله عز وجل أقبلت عليه، وإذا أقبلت عليه سعدت بقربه، فكلما ذكرت كلمة العبادة في القرآن الكريم فتعني أن هذه العبادة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، وهي طاعة ذاتية، طاعة مع طواعية وليس مع إكراه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

فجعل الله تعالى العبادة علة الخلق، العبادة أن يعرفوني.

من معاني العبادة الطاعة التامة والإسلام ليس فيه حل وسط :

ربنا عز وجل قال:

(فَلْيَعْبُدُوا)

إما هؤلاء الذين فكروا في هذه الآيات، فالفاء رابطة لجواب الشرط، أو أنهم قريشٌ، فالمقصود بهذه الآية قريش التي كذبت النبي عليه الصلاة والسلام، ومن معاني العبادة مثلاً؛ تلقيت عشرة أوامر، أطعت اثنين منها، فأنت في هذين الأمرين طائع، وفيما سوى ذلك عاص، لكن العبادة لا تُسمى عبادة إلا إذا أطعت الله في كل أوامره، من دون استثناء، لذلك قالوا: ليس في الإسلام حل وسط، إما أن تأخذه كله أو أنْ تدعه كله، لأنك إذا أخذت بعضه لم يعطك شيئاً، كالعلم، لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، هذه مشكلة، يقولون: لا تكن متزمتاً، دقة على الحافر ودقة على النافر، هذا كلام العوام، والإسلام ليس فيه حل وسط، لأن الإسلام مثل القالب، إما أن تكون الآلة مضبوطة أوْ لا، وليس من حالة ثالثة، فلذلك قال الله عز وجل قال:

(فَلْيَعْبُدُوا)

ومن معاني العبادة الطاعة التامة، فما الذي يحصل إذاً؟ إنسان يحضر مجلس علم سنة وسنتين، وقد يستمر سنوات عدة، وهو مقيم على بعض المخالفات، مقطوع عن الله، محسوب على أهل العلم، طالب علم، وهو لا يحقق من نتائج العلم شيئاً، هذه المخالفات تحجبه عن الله، وبهذا الحجاب عن الله عز وجل لا يذوق طعم الإيمان، ولأنه لا يتذوق طعم الإيمان يصبح ملولاً، ويقول: واللهِ شيء سمعناه كثيراً، لكنه إذا طبق الأوامر الإلهية تطبيقاً تاماً عندئذ يقطف الثمار، فإذا قطف الثمار سعد بدينه، وأثمر دينه سعادة وطمأنينة ورضى وتوكلاً وصبراً وعفواً، وصار إنساناً كامل الصلة بربه، هذا الإنسان حتى لا يضيع

وقته عليه أن يعلم أن الحلول الوسطية غير موجودة ولا بد من تطبيق الإسلام بأمانة وإخلاص، فيسعد سعادة المؤمنين.

يجب أن نعرف الآمر قبل أن نعرف الأمر :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا)

العبادة هي الطاعة التامة المبنية على معرفة بالله عز وجل، كيف تريد أن تطيع أمر الله عز وجل وأنت لا تعرفه، فالذي يحصل أنْ يقال له: هذه حرام فيقول: حط بالخرج، هذه نهى عنها ربنا، فيقول: لا تدقق، فهذا لا يعرف الله حقاً، أما لو عرفت الله عز وجل لأطعته، لكنك إذا تلقيت أمره قبل أن تعرفه فلن تطيعه، فإنك ترى الشهوات أغلى عليك من الله عز وجل، أنا أترك هذه من أجل آية قرآنية، الله غفور رحيم..

إذاً يجب أن تعرف الآمر قبل أن تعرف الأمر، والنبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة عرَّف أصحابه بالله عز وجل، فلما عرفوه جاءهم التشريع، فإذا عكسنا الآية حققنا فشلاً ذريعاً، إذا علمنا الناس أحكام الدين قبل أن نعرفهم بالله عز وجل احتالوا عليها؛ يقول أحدهم: أنا والحمد لله دفعت زكاة مالي، كيف؟ والله أخذت كيلو خبز ووضعت داخل رغيف خمسة آلاف ليرة، وأعطيت الخبز لفقير، والفقير بعد ذلك باعني هذا الخبز بعشر ليرات، الحمد لله الزكاة وصلت، يحتالون على الزكاة كما يحتالون على أكل الربا، يقول: أنا أبيع شاياً، أضع صندوق شاي أمام المحل، يأتي زبون فيشتريه ديناً بألف ريال، ويسجله عليه، بعد ذلك يبيعه إلى صاحب المحل نقداً بثمانمئة ريال، باع واشترى، فعندما تُعلِّم الناس أوامر الله عز وجل قبل أن تعرفهم به احتالوا عليها كما فعل اليهود.

يقول الأخ: أريد أن أرى زوجة أخي، فما هي الطريقة، سهلة، خذ بنتاً صغيرة من بنات الجيران عمرها سنة، في سن الرضاع، واجعل زوجة أخيك ترضعها، واعقد عقداً على هذه البنت الصغيرة، فتصبح زوجة أخيك حماتك بالرضاعة، أي أم زوجتك، بعد ذلك طلقها في اليوم الثاني، الحماة تحرم على التأبيد، فتدخل على بيت أخيك متى شئت، ويمكن أن تسكنوا في بيت واحد، صار إطلاق البصر والاختلاط والربا كله مباحاً عن طريق الحيل الشرعية، لماذا صار هذا؟ لأنهم تعلموا الأمر قبل أن يعرفوا الآمر، تعلموا أمر الله وأحكامه الشرعية قبل أن يعرفوا خالقهم أنه سميع بصير، مطلع على قلوبهم وعلى خواطرهم، وعلى نواياهم وعلى خططهم، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تفوته شاردة ولا واردة، ولو عرفوا الله حق المعرفة لما احتالوا على شرعه.

الجوع وحده آية كبرى من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

أما قوله تعالى:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ)

معنى أطعمهم أيْ خلق لهم أنواع الطعام والشراب، ولكن الإنسان لو لم يشعر بالجوع ماذا يحدث؟ أحياناً السيارة ينقصها الماء فيسخن المحرك، ولولا وجود إشارة أمام السائق تشير إلى ارتفاع الحرارة لاحترق المحرك، فيضطرون لوضع عدادات، الآن الأحدث يضعون عداداً ناطقاً، يقول: انتبه ارتفعت الحرارة، فالإنسان عنده أجهزة أدق من ذلك، فإذا جاع ولو كان منهمكاً في العمل يشعر بالجوع، ولولا إحساسه بالجوع لمات جوعاً، ولم يدر لماذا مات. وجود الإحساس بالجوع آية، وكذا الإحساس بالعطش، أنت بحاجة للماء، فالله سبحانه وتعالى لإتقان صنعته خلق لدى هذا الكائن دوافع داخلية للطعام والشراب، منها الإحساس بالجوع، وأحد وسائل تخفيف الشهوة للطعام دواء يؤثر على أماكن الجوع في الدماغ، فلا يجوع الإنسان، ويبقى عشر ساعات دون طعام، لأنّ مركز الإحساس بالجوع تخدر، فمن خلق هذا المركز في الإنسان؟ والجوع أيضاً معه لذة الشبع، ولولا الجوع لما أحسسنا بلذة الطعام الطيب، لكن إذا لم تكن جائعاً لم تشعر به. وأطيب أكل ما كان على الجوع، فكن جائعاً وكل ما تشاء، وكن جائعاً تجدْ أي طعام طيباً، وإن لم تكن جائعاً فلن يعجبك أنفس الطعام، فالجوع وحده آية كبرى من آيات الله عز وجل، ومن دون إشعار أنّ الماء ارتفعت حرارته في السيارة فيحترق المحرك، فيسبِّب خسارة بعشرة آلاف ليرة، لكن بهذه المشيرة تعرف أن الحرارة ارتفعت، وإذا لم تنتبه لها، وأنت تتكلم مع راكب احترق المحرك، الآن صنعوا جهازاً صوتياً يسمعك؛ أن انتبه فقد ارتفعت الحرارة، في الإنسان أعمق من ذلك، لا تحتاج إلى إبرة ولا عداد ولا جهاز صوتي، يقول جائع، سأموت من الجوع، فمن جعل الإحساس بالجوع؟ وهل تدري أيها الأخ الكريم أنك إذا شعرت بالجوع، وفحصنا دمك فحصاً دقيقاً، فليس فيه نقص إطلاقاً في كل المواد الغذائية، بدليل إذا جاع الشخص جوعاً شديداً وبلغه نبأ مؤلم جداً، ويحتاج إلى ركض، فهذا الشخص تنشأ عنده طاقة عجيبة، وينسى جوعه، إذاً الجوع نقصٌ في المخزون، فعندما ينقص مخزون الطعام في الكبد يشعر الإنسان بالجوع، لكن الدم بحالة تامة، وبحالة كاملة من توفر المواد الغذائية، إذاً الجوع وحده آية.

نعمة الشبع والأمن هما الحياة كلها :

قال تعالى:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

العلماء قالوا: نعمة الشبع والأمن هما الحياة كلها:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ]

إذا كان لأحدنا قوت يومه لا أكداس المؤن بل قوت يومه، وكان آمناً في سربه، ما عليه دعوى، ولا ملاحقة، ولا شيء من هذا القبيل، معافى في جسمه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

نعمة الشبع والأمن هما الحياة بكاملها، فإذا حاز الإنسان هاتين النعمتين فليكن لله شاكراً، وله حامداً.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الماعوون 107-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 7 حقيقة الدين وأنواع الرياء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (الدين) في هذه الآية هي مركز الثقل :

سورة اليوم هي سورة الماعون، وتبدأ بقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الآية الأولى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

في هذه الآية مركز ثقل كلمة الدين، ماذا تعني كلمة (الدين)؟ آلة معقدة جداً، حاسب إلكتروني، الشركة الصانعة ترسل معه كتيباً صغيراً فيه طريقة استعماله، لو أن إنساناً اشترى هذا الحاسب، ودفع ثمنه مئات الألوف، هناك حواسب إلكترونية يزيد ثمنها عن عشرين مليوناً، لو أن جهازاً من هذه الأجهزة اشتراه إنسان ما، ولم ترسل له الشركة التعليمات، كيف يستعمله، سوف يستعمله بجهل، لا بد أن يعطبه، فهذه النشرة التي ترافقه لها شأن خطير، ربما لا تقل قيمة عنه، لو استعمله الإنسان من دون هذه النشرة لأصابه بالعطب، وإن لم يستعمله جمّد ثمنه، فماذا عليه أن يفعل؟ عليه أن يستقدم هذه النشرة، ليقرأها ملياً، بشكل دقيق دَقيق يتبصر بمعلوماتها، ويتبع إرشاداتها، هذه النشرة التي ترافق الجهاز المعقد الصنع، هذه النشرة تشبه إلى حد كبير الدين، لو أن هناك ثلاث مواد مسحوقة بيضاء؛ ملح، ومنظف، وسكر، المواد جميعاً مفيدة، لكن نشرةً تقول لك: استعمل الملح في الطعام، واستعمل السكر في الشاي، واستعمل المسحوق الأبيض في تنظيف الصحون، فماذا فعلت هذه النشرة؟ أمرتك أن تضع كل شيء في مكانه الصحيح، كل شيء نافع، لو وضعت السكر في الطبخ لما استسغتَ أكلَ هذه الطبخة، ولو وضعت الملح في الشاي لمَا استطعتَ أنْ تشربه، ولو وضعت السكر لتنظف به الصحون لما أفادك شيئاً.

حقيقة الدين :

إذاً الدين منهج رباني، جاء ليبين وجه استعمال كل شيء، هذه حقيقة الدين، نشرة تفصيلية مبنية على علم وخبرة، سطرتها الشركة الصانعة لهذا الجهاز، ربما لا تقل هذه النشرة قيمةً عن الجهاز نفسه لأنك لو استعملت الجهاز من دون هذه التعليمات لأصبته بالعطب، وإن لم تستعمله لجمدت ثمنه، إذاً لا بد من قراءة النشرة، إتباع ما فيها حرصاً منك على سلامة الجهاز. إن كنت أيها الإنسان تحرص على جهاز له ثمن ما، قل أو كثُر، ألا تحرص على نفسك، هذه النفس التي ركب الله فيها ميولاً ونوازع وطموحات، وجعلها مِنْ فكر ونفس، وروح، وشهوات، وحاجات، هذا الكائن المعقد لا تعقيد عجز بل تعقيد إبداع، هذا الكائن ألا يحتاج في حركته إلى منهج؟ هذا المنهج ماذا يقول لهذا الكائن؟ افعل ولا تفعل، لأن هذا المنهج يضمن سلامة هذا الكائن.

لو أنك كنت في طريقك في بعض الأماكن ووجدت عموداً من الكهرباء كُتب عليه (خطر الموت ابتعد)، هل ترى أن هذا الأمر هو حجز لحريتك، أم أنه ضمان لسلامتك؟ هذا هو الدين. ينطلق الدين من مصلحة الإنسان، ويستهدف سلامته، ويستهدف إسعاده في الدنيا والآخرة، فقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

كلمة الدين في هذه الآية مركز الثقل، الدين ما دانت له النفوس، ومتى تدين النفوس إلى شيء ما؟ إن كان واقعياً، وإن كان منطقياً، وإن كان صحيحاً، وإن كان مفيداً، ومتماسكاً، لا خلل فيه، ولا تناقض ولا خطأ ولا سخف فيه، النفس الإنسانية لا تخضع إلى فكرة ما إلا إذا كانت صحيحة، وواقعية، ومنطقية، وخيِّرة، ومتماسكة، فإذا قال الله عز وجل: (أرأيت الذي يكذب بالدين)، أي بهذا المنهج الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لعباده، كما قلت قبل قليل: كل شيء على وجه الإطلاق خلقه الله عز وجل، إنما خلقه لخيرنا، ولكن الشر من أين يأتي؟ من سوء استعمال هذه الأشياء، إذا وضعت السكر في الطبخة فإن هذا شر، إن نظفت الصحون بالسكر فإن هذا شر، إن وضعت المنظف في الشاي، فإن هذا شر، مع أن هذه المواد الثلاث البيضاء نافعة ولها قيمة، جاء الدين ليقول لك: ضع السكر في الشاي مثلاً، والمنظف استعمله لتنظيف الصحون، والملح في الطعام، لقد جاء الدين ليضع كل شيء في مكانه الطبيعي، قال لك: تزوجْ ولا تزن، اكسب المال الحلال ولا ترابِ، قل قولاً حسناً ولا تقل قولاً سيئاً، عامل أهلك بالإحسان ولا تعاملهم بالفظاظة، جاء الدين ليقول لك: افعل هذا، ولا تفعل هذا.

النفس المريضة ترفض حقائق الدين لأنها تتعارض مع شهواتها :

إذاً الدين منهج مِن عند الخالق، مِن عند الخبير، مِن عند الذي يعلم السر وأخفى، مِن عند مَن خلقك، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

ليس في الكون كلام أرقى من كلام الله، لأنه من عند الخبير العليم، إذاً هذا الدين الذي تدين له النفوس، والنفوس السوية الصحية تدين له، كلما قال النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً قال له سيدنا الصديق: صدقت يا رسول الله، وأنت إن كنت صادقاً في طلب الحقيقة، فإنك تحس أن حقائق الدين هي غذاء لروحك، كلما اطلعت على آية كريمة، أو على منهج رباني، أو على سنة مطهرة تقول: صدق الله العظيم، صدق النبي الكريم إن هذا لهو الحق المبين، هذه مواقف النفس الصحيحة، أما النفس المريضة فإنها ترفض حقائق الدين، لا لأنها ليست صحيحة، بل لأنها تتعارض مع شهواتها، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة القصص: 50]

إن لم تحصل استجابة للدين فلعدم الاستجابة تفسير واحد، وهو أن هذه الحقائق تعارضت مع شهوات النفس، لذلك رفضت، لا لأنها باطلة، بل لأنها كما توهمها صاحبها تحد من شهواته ونوازع نفسه.

إذا طبقنا النهج الإلهي في حركة هذه النفس في الحياة فنحن من السعداء :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

بهذا المنهج الإلهي الذي من عند الحكيم الخبير، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي ما ترى فيه من تفاوت، ولا تناقض، ولا خلل، ولا نقص، ولا ضعف أبداً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

فلو أننا اطلعنا على نشرة صادرة عن معمل يصنع أجهزة إلكترونية معقدة، بحسب المنطق تقول: هذه النشرة يجب أن تُتَّبع لأنها من المعمل، وصممها مهندسون كبار، وسطرتها أقلام خبراء بهذه الآلة، فاستعملها على الوجه الفلاني ولا تستعملها على الوجه الفلاني.

إذا اشترى شخصٌ مكيفاً يقول لك الصانع: إذا أطفأته فلا تشعله فوراً، ترى نفسك متأدباً مع هذه التعليمات، إذا كان المكيف ثمنه باهظ، وأنت حريص على أن يؤدي وظيفته طوال هذا الصيف، فترى نفسك من دون شعور تنفذ تعليمات الخبير بحذافيرها، إن اشتريت مكيفاً، وإن اشتريت مكواة، أو أيَّ جهاز أو آلة من الآلات، ترى نفسك بدافع حب السلامة، حب سلامتها حريص على تطبيق تعليماتها تطبيقاً حرفياً، يا سبحان الله، أأنت أثمن أم هذه الآلة؟! أهذه النفس الإنسانية أثمن أم هذه الآلة؟ هذه الآلة لا بد أن تتركها في يوم ما أو أن تتركك، لكن هذه النفس هي نفسك، هي ذاتك تحيا بها إلى الأبد إما في شقاء دائم أو في نعيم دائم، فإذا طبقت هذا النهج الإلهي في حركة هذه النفس في الحياة، فأنت من السعداء، وإذا خالفت هذا المنهج فالذي يخالفه يكون من الأشقياء.

حينما تدين لهذا الدين دينونتك له إما بسبب استنتاجك المنطقي أو بسبب تجربتك الفعلية:

ربنا عز وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

ما هو التكذيب بالدين؟ هو التكذيب بهذا المنهج الإلهي، وكما قلت قبل قليل: كأنه نشرة تعليمات، يقول لك المنطق: لا بد أن تكون صحيحة، لأن هذا الجهاز المعقد البالغ الإتقان لا بد من أن صانعيه على مستوى عال جداً من الفهم والخبرة، فتعليماتهم صحيحة، إنك تدين لهذا المنهج استنتاجاً منطقياً، فإذا خالفت التعليمات وقعت في خطأ، وتعطل الجهاز، إنك الآن تدين له مرةً ثانية يقيناً نابعاً من التجريب، فحينما تدين لهذا الدين، دينونتك له إما بسبب استنتاجك المنطقي، أو بسبب تجربتك الفعلية، قد تدين له انطلاقاً من أن هذه النشرة لا بد أن تكون صحيحة، استنتاج منطقي وقد تدين له إثر مخالفة لهذه التعليمات، ودفع الثمن باهظٍ، عندئذ تدين له يقيناً نابعاً من التجربة.

والآن النفوس السليمة الصحيحة المعافاة، الفكر المنطقي ماذا يقول؟ هذا كلام الله رب العالمين، هو العليم الخبير، هو الذي يجب أن يُسمع كلامه، هو الذي يجب أن يعبد، فهذا المنطق يقول لك: أطع الله، إن قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة:278]

إذا نهانا عز وجل عن الربا أنت كمؤمن انطلاقاً من المنطق السليم، هذا كلام الله رب العالمين، ولا بد أن يمحق الله عز وجل الربا، والذي لا ينصاع لهذا الأمر لا بد أن يحاربه الله ورسوله، هذا انصياع مبني على استنتاج منطقي، لكن الإنسان إذا خالف تعليمات الدين ودفع الثمن باهظاً، عندئذ يقول يا ليتني لم أفعل، لقد صدق الله العظيم، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور:30]

الدين هو الشيء الذي تخضع له النفس :

لو أن الإنسان أطلق بصره، وشعر بالشقاء الزوجي، ونشأت هوة كبيرة بينه وبين زوجته كرهها وكرهته، وكانت حياتهما شقاقاً وبغضاء ومشاحنة، وقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور:30]

عندئذ يدين لهذه الآية، لا دينونة استنتاج منطقي، بل دينونة يقين تجريبي، هذا هو الدين، لكن الذي أرجوه أن تخضع له بناءً على استنتاج منطقي، قبل أن تضطر أن تخضع له بناءً على تجربة يقينية.

هذا الذي يفعل السيئات، ويبتليه الله بالمصائب، وقد تسحقه المصائب يقول: ليتني لم آكل الربا، ليتني لم أفعل كذا وكذا، ليتني اتقيت الله عز وجل في زوجتي، ليتني ليتني، عندئذ يقول لك: لا بد أن يكون هذا الدين صحيحاً لأنني عاينته بنفسي. هذا هو الدين؛ الشيء الذي تخضع له النفس خضوع استنتاج منطقي، أو خضوع يقين تجريبي.

الحقيقة إنْ شئت أن تعترف بها فلك، وإن شئت ألاّ تعترف بها فعليك، ولو أننا قلنا لك: الأجسام التي تسقط في الهواء تتسارع، هذا قانون، إلا إذا كان هناك مقاومة للهواء، أي وجود مظلة، فأنت بالطائرة وهناك قانون للسقوط، فأنت حر، تحب أن تسقط بغير مظلة أو تسقط بمظلة، من دون مظلة تنطبق عليك قوانين السقوط، فتصل إلى الأرض محطماً، وإذا تأدبت مع قوانين السقوط، وصدقت بها، وأكبرت مكتشفيها، ونزلت بمظلة وصلت إلى الأرض سالماً، فالقوانين هي هي، العبرة لديك أنت، إما أن تؤمن بها فتسلم، وإما أن تستخف بها فتهلك.

الدين حقائقه ثابتة في كل مكان وزمان :

قانون السقوط مثلاً، إمّا أنْ تؤمن به، وأنه يوجد تسارع، وأن حجم الإنسان لا يستطيع أن يقاوم تسارعه في السقوط، ولا بد له من مظلة تحجز كمية كبيرةً من الهواء تجعله يسقط بسرعة ثابتة، وإما ألاّ تؤمن بهذا فتتكسر أضلاعك. إذاً الدين هو هو، فإذا عصى رجل ربَّه فما ضرَّ اللهَ شيئاً، إلا أنه آذى نفسه فحسب.

أحياناً يحب الإنسان أن يعاند، فيقول لك: لا أريد أن أصلي، وأريد أن آكل مالاً حراماً، كل مالاً حراماً، وقوانين الله ثابتة، قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم:44]

خمسة من كن فيه كن عليه، البغي والمكر والخداع، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة البقرة:142]

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال:30]

الدين حقائقه ثابتة، في كل مكان وزمان، تؤمن به أو لا تؤمن به، تستخف به أو لا تستخف به، لك أو عليك، مثل قانون السقوط، فأنت حر، يقول: هذا كلام كله خرافة، أنا سوف أنزل ولن يصيبني شيء، تفضل وانزل، تحب أن تنزل من دون مظلة فتفضل وانزل، هذه قوانين مطبقة في كل أجواء الأرض، إذا أردتَ أن تتأدب مع مكتشفيها، فاعمل موازنة دقيقة، وانزل بمظلة، وستصل إلى الأرض سالماً، هذا مثل، ولله المثل الأعلى.

الدين قواعد من صنع خبير عليم :

هذا الدين قواعد من صنع خبير عليم، أنت حر، إنْ تطبقها فالخير لك، إنْ تؤمن بها فلك، إنْ تعظمها فلك، تأخذها مأخذ الجد فلك، تقول: هذا من عند الله، فالعاقبة الطيبة لك، تقول: حُط بالخرج، فالوبال عليك، تقول: الله عز وجل لا يدقق معنا، فهذا عليك، ليست القضية سيحاسبك أو لا يحاسبك، أضربُ مثلاً، إذا ركب سائقٌ شاحنة وزنها عشرة أطنان، ومر على جسر وليس في الطريق أحد، وكُتِب على الجسر: "الحمولة القصوى خمسة أطنان" ثم نظر أهناك شرطة فتخالفني أو لا، ليس الموضوع مخالفة، بل الموضوع أنك إذا مررت ستسقط أنت والسيارة، وتغرق في النهر هذا نظر سخيف، هذا الجسر حمولته خمسة أطنان، وحمولتك عشرة أطنان، فإذا مررت على هذا الجسر سوف تسقط أنت والسيارة. رأى أحدهم خطّاً كهربائياً " توتر عالٍ"، أريد أن أضع يدي على الأسلاك، ثم نظر أهناك مَن يخالفني؟ ليس الموضوع مخالفة، بل التيار هو الذي يخالفك، تمسك فتصبح فحماً خلال دقائق، الموضوع: قوانين ثابتة، هذا التيار قويّ، وهناك تيارات كهربائية تجذب على بُعد ستة أمتار، فإذا اقترب إنسان من بُعد ستة أمتار سحبته وصار فحماً فوراً، فإذا فهمت الدين هذا الفهم؛ قوانين ثابتة، حقائق كلية، علاقات ثابتة، صحيحة مطبقة، تطبيقها لك ومخالفتها عليك، وأنك سوف تحاسب نفسك بنفسك، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:30]

قال: يا رب قد عصيتك ولم تعاقبني، قال له: يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي، عندما يعصي الإنسان ربَّه يُحجب بحجاب، ويصبح في قلق، وضيق، وشرك، وتبرم، وضجر، ويأس، وتشاؤم، هذه أعراض الإعراض.

فإذا استقام أقبل، وإذا أقبل صارت لديه ثقة، وعنده طمأنينة، وشعر بالأمل، وشعر أنه إنسان مهم عند الله عز وجل، يمشي على الطريق الصحيح، هدفه واضح، لو أن الموت جاءه وهو مصيبة المصائب عند الناس لرآه مكسباً، وساعة اللقاء.

التكذيب بالدين نوعان؛ تكذيب لفظي قولي وتكذيب عملي :

لذلك الدين مجموعة الحقائق، المنهج التفصيلي، التوجيه الرباني، الذي يقول لك: افعلْ هذا، ولا تفعل هذا، إذا صدقته فلك، وإن طبقته فلك، والله سبحانه وتعالى جعل الدين ضمانات لسلامتك، وليس الدين كما يفهمه بعض الناس حجز لحريتك، وبعضهم سامحه الله فهم قوله تعالى:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

[سورة المزمل:5]

أن الدين أعباء شديدة، ليس أعباء، الدين مجموعة ضمانات لسلامتك، إذا قال الله لك: غض بصرك، فهذا لك، تسعد بزواجك طوال حياتك، إذا قال لك: حرر دخلك من الحرام فخيره لك، ويبارك الله لك فيه، وإذا قال لك: اصدق، فمن أجل مكانتك الاجتماعية، قال لك: كن أميناً، فمن أجل أن تكون غنياً.

((الأمانة غنىً))

[كنز العمال عن أنس]

إذاً (الدين) كما قلت لكم هذا مركز الثقل بالآية، أما قوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

الحقيقة التكذيب بالدين نوعان؛ تكذيب لفظي قولي، وتكذيب عملي، فأما التكذيب اللفظي فقلما نسمعه بآذاننا في العالم الإسلامي، بالألف واحد ممّن يقول لك: الدين باطل، معظم الناس مؤمنون، الآن أنت بحركتك اليومية، في البيت، في الطريق، بعملك، بالسوق، مع أصدقائك، مع جيرانك، مع أقربائك، تقول له: الدين، يقول: نعم والله على العين والرأس، الجنة، الله يطعمنا إياها، لكن العبرة ليست هنا هذا التكذيب القولي نادر، لكن الشيء المنتشر هو التكذيب العملي.

من باب الطرفة، أحياناً أكون داخلاً إلى المسجد، وشخص خارج منه وقت دخولي، يقول: أستاذ، الله يبارك لنا فيك، طيب لِمَ أنت خارج؟ احضر الدرس، إذا كنتَ قابضاً كلامي بشكل صحيح فادخل واحضر الدرس، لا هو خارج وهو يثني عليّ، هذا تكذيب سلوكي، باللسان ليس ثمة ألطف منه، أثنى

ثناءً عطراً، لأنه خارج من الدرس معناها هذا الدرس ما قابضه. فالتكذيب العملي أبلغ وأخطر لأن التكذيب القولي تناقشه أما العملي يسكتك.

ليس التكذيب الخطير أن تقول هذا الدين باطل بل التكذيب ألا تطبقه :

أعوذ بالله، الجنة حق، والنار حق، والدين حق، وهذا كلام ربنا، أعوذ بالله من كل ضلالة، إذاً فلمَ لا تطبقه؟ تخالفه بسلوكك اليومي، تخالفه بالبيع والشراء، تخالفه بعلاقتك مع زوجتك، تخالفه بعلاقتك مع أولادك فلِم لا تطبقه؟!!

لذلك التكذيب الخطير ليس أن تقول: هذا الدين باطل، هذا لا يقوله إلا القلة من الناس، التكذيب الخطير ألا تطبقه. مثلاً؛ لو زرت طبيباً ناشئاً، وأعطاك وصفة، وأنت أحببت بذكاء اجتماعي أن تشجعه تصافحه، وتقول له: أنا أشكرك وأمتن عليك كثيراً، وإن شاء الله أريد أن آخذ الأدوية، وأشفى على يدك، لكنك اتبعت وصفة غيرها، وقلت في نفسك: هذا طبيب جديد، وقد لا يفهم، فعدم شرائك هذه الوصفة مع أنك أثنيت على علمه نوع من أنواع التكذيب بعلم هذا الطبيب، هذا التكذيب خطير.

قال لك الله عز وجل: الربا حرام، تقول: واللهِ نحن مضطرون، عصرنا كله ربا، هذا تكذيب؛ تكذيب بالقرآن الكريم، أنا مضطر أو أصير في الطريق؟ الآمر ضامن، والآمر هو الله، وهو ضامن، ما عند الله لا ينال بمعصيته، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى ".

فكل إنسان يخالف كلام الله عز وجل، من دون مجاملة مكذب بهذا القرآن، فلو أن نشرة رافقت آلة غالية، لحرص على سلامتها، ولنفذ تعليمات المصنع تنفيذاً دقيقاً، وربما كانت هذه الآلة أغلى عليه من نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين)

هذا الذي يكذب به، ولا يعبأ بأمره ولا بنهيه، بعضهم قال: لمجرد أن تخالف كلام الله فأنت مكذب به، انطلاقاً:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عن صُهَيْبٍ]

المقصود من كلمة (أرأيت) :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين)

وضحنا كلمة (الدين) ووضحنا كلمة (يكذب)، فماذا تعني كلمة (أرأيت)؟ هذه (أرأيت) تختلف عن:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

الله سبحانه وتعالى أخبرك عن حدث تاريخي وقع وأنت لم تره، فإخبار الله سبحانه وتعالى هو أعلى درجة يقينية، فيجب أن تستقبل ما أخبرك الله به كأنك تراه، هذا معنى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

أما هذه الآية فلها معنى آخر، هذا الذي يكذب بالدين يعيش بيننا، قد يكون للإنسان جار، يكذب بالدين تكذيباً عملياً وليس تكذيباً قولياً، نساؤه كاسيات عاريات، ويوم الجمعة في المسجد، يقول لك: صلاة الجمعة فرض، وأعوذ بالله أنْ يجحدها جاحد، ما هذا الكلام، قد يأكل الربا، ويدفع الصدقة، هذا مكذب بالدين، فربنا عز وجل قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هذا الذي يكذب بالدين هل ترى معاملته؟ هل ترى سلوكه؟ هل ترى مواعيده؟ هل ترى إتقانه لعمله أم عدم إتقانه؟ هل ترى غشه للناس؟ هل ترى كذبه عليهم؟ هل ترى مماطلته؟ هل ترى استعلاءه؟ هل ترى دناءته؟ هذا الذي يكذب بالدين.

التكذيب من صفات الذي يكذب بالدين :

هناك تلازم قطعي يسمونه أعلى أنواع الترابط، ترابط وجودي، مثلاً، السيارة تسير والسير للسيارة صفة مترابطة مع وجود السيارة، فإذا ألغيت السير ألغيت السيارة، هذا ترابط وجودي أعلى أنواع الترابط.

الطائرة تطير، إذا ألغيت الطيران لم تبق طائرة، يعبر عنها علماء اللغة:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

هذه (كان) للترابط الوجودي، فمن صفات الباطل الثابتة أنه زائل، فإذا قلت: إنه دائم لم يكن باطلاً، بل صار حقاً:

(وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة النساء: 134]

السميع والبصير اسمان من أسماء الله مترابطان مع وجوده، الله موجود إذاً هو سميع، هذه (كان) ليست فعلاً ماضياً ناقصاً، هذه فعل تام بمعنى وجد، فربنا عز وجل يبين في هذه الآية أن الذي يكذب

بالدين من صفاته الثابتة التكذيب، ليس له موعد صحيح، مصلحته فوق كل مصلحة، يكذب، ينافق، يدجل، يتحايل، ويخادع، ويستعلي، ويحب ذاته، ويبني مجده على أنقاض الآخرين وغناه على فقر الآخرين:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

انظر إلى أخلاقه الدنيئة، انظر إلى أنانيته، وإلى صفاته الخسيسة، وإليه وهو في الوحول؛ وحول الشهوات، وانظر إليه وهو يؤثر نفسه على الآخرين.

الذي يكذب بالدين له أخلاق صارخة كالشمس :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

معناها الذي يكذب بالدين له أخلاق صارخة كالشمس، صارخ، يتحايل، يكذب، إن شاركك في شيء أخذ معظم الربح له، قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)

[سورة ص: 23]

غير المؤمن يرى هذا المحل قد اشتغل، وشريكه ضعيف، بوثيقة الفروغ اسمه غير موجود يحتال عليه ويضعه خارج الشركة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هكذا يعمل. إن كان في وظيفة، وفيها موظف مستقيم يوشي به، ويفتري عليه افتراء باطلاً حتى يزيحه عن مكانه ليجلس مكانه:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

إن ذهب معك نزهة فلا يؤدي شيئاً من النفقات، يحب أن يكسب من دون أن يساهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

وإن فتح نافذته ورأى نافذة جاره مفتوحة ينظر لعل امرأة تمرُ فيراها.

بعض صفات المكذّب بالدين :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

ينهش أعراض الناس، وإن صار محامياً يأكل حقوقهم، تكون القضية خاسرة تماماً فيقنع الموكّل بأنها رابحة، يقول: من الآن إلى خمس سنوات يفرجها الله، ويسحب منه أموالاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين)

الإنسان المكذب بالدين سواء كان مدرساً، أو طبيباً، أو تاجراً، أو مهندساً، أو صانعاً، أو صاحب مصلحة، أو موظفاً، له صفات كريهة، يأخذ ما له وما ليس له، يحب أن يحيا وحده وللناس الموت، هذا الذي يكذب بالدين، يحل مشاكله فحسب أما الناس فلهم مشاكلهم، وهذا شأنهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين)

انظر إلى أعماله، وإلى مواعيده، وإلى مزحه السخيف، وإلى نظراته الخبيثة وضحكته الساخرة، وإلى جيرانه المنزعجين منه، انظر كيف يغتاب الناس، ويسخر منهم، وينهش في أعراضهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

ظاهر، فاترك الكلام أنت، أحياناً أقول: قد تؤمن بالدين متأثّرا بسلوك رجل مؤمن صادق قبل أن يقول لك كلمة واحدة فأخلاقه تدعوك للإيمان، تراه صادقاً عفيفاً.

الحكمة من اختيار ربنا عز وجل هاتين الصفتين في الآية التالية :

المؤمن عفيف عن المطامع وعن المحارم، خجول، صاحب حياء، صاحب وعد، يحب الخير ولا يستعلي على أحد، متواضع، هذا هو المؤمن، أما هذا الذي يكذّب بالدين فربنا عز وجل قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

لماذا اختار ربنا عز وجل هاتين الصفتين فقط؟ قال:

(يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِين)

لو أنّ إنساناً ترك مساعدة إنسان عادي فهذا خطأ وتقصير، لكن إذا ترك مساعدة يتيم فهذا ليس له أحد، مهيض الجناح، فتركُ مساعدة الناس خطأ، لكن ترك مساعدة اليتيم خطأ كبير، ليته ترك مساعدته بل هو يدُعُّه، ويزجره، ويضربه، ويعنفه، وهذا ليس إنساناً عادياً، لكنه يتيم، لم يدُعه فحسب بل عنّفه، وربنا عز وجل ذكر لنا مثلاً حادّاً، خلاصته رجل ارتكب الفاحشة في المسجد، وفي رمضان مثلاً، الفاحشة ذنب كبير، وفي رمضان أكبر، وفي المسجد أكبر، ربنا عز وجل يضعنا أمام مثل حاد، يتيم لا أب له ولا أم، مهيض الجناح، مكسور الخاطر، ضعيف فقير، لا يدعه فحسب بل يعنفه، يعني ذلك أنه ليس في قلبه رحمة:

((لا تُنزع الرحمة إلا من شقي))

[أحمد عن أبي هريرة]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو نفسه، ولا أحد غيره، هناك آية أخرى قبل أشهر مرّت معنا، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق]

انتهت الآية، أين الباقي؟ المعنى ما تم، بل تم يا أخي، أي أيها الأخ الكريم، انظر إلى هذا الذي ينهاك عن الصلاة، انظر إلى سلوكه، إلى معاملته، إلى شهواته المنحطة، إلى مزحه المنحط، إلى علاقاته البهيمية مع الآخرين، إلى نظراته الشيطانية، إلى خداعه، إلى مكره، انظر إليه، سلوكه ينبئك عن عقيدته، وهذا يكفي.

كل إنسان يكذب بالدين لا بد أن تظهر منه معاملة سيئة :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

انظر فإذا كان مؤمناً تُسر منه، تراه صادقاً، كريمَ النفس، جزيل العطاء، عفيفاً، حيياً، وقوراً، كلامه ثمين، بعيد عن اللغو، وعن المهاترات والفحش، صادق الوعد، أميناً، مخلصاً، هذا هو المؤمن قطعاً.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو نفسه وليس أحداً سواه، فلا يمكن أن ترى إنساناً له معاملة طيبة إلا وفي قلبه خير، وكل إنسان يكذب بالدين لا بد أن تظهر منه معاملة سيئة، لكن أحياناً هؤلاء الذين كذبوا بالدين على شيء من الذكاء، فقد ينتزعون إعجابك بإنسانيتهم المزيفة.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

* * *

يتتبعون أموراً دقيقة جداً في حياتهم اليومية، ويتغافلون عن حقوق الشعوب بأكملها، مجاعات يصنعونها هم بأيديهم، ويندمون ويرفعون أصواتهم بأشياء تافهة، مخالفات طفيفة في مجتمعهم. فقد يكون هذا المكذب بالدين على شيء من الذكاء، لذلك يبدو لك إنسانياً، لكن إذا تضاربت مصالحه مع سلوكه كشّر عن أنيابه، فإذا هو وحش مفترس، تأكد هذا الناعم اللطيف اللبق حضاري كما يقال لك، لكنه يتظاهر في المناسبات بصورة زائفة، هذا الإنسان لو أن مصالحه تضاربت مع مصالحك لانقلب وحشاً كاسراً.

من يبخل بكلمة فهو أبخل البخلاء :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

عندما لا يطعم الإنسانُ المسكينَ قد يكون فقيراً، لكن منتهى البخل أنه لا يحض على الطعام أحداً، ربما لا يكلفه هذا إلا كلمة يقولها، ولكن لا يقولها أبداً، فلا يحب الخير، ولا يحب أن يجري الخير على يديه. أعلى أنواع البخل أنه يبخل بكلمة، من يبخل بالدرهم والدينار فهو بخيل، أما من يبخل بكلمة فهو أبخل البخلاء.

سألك رجل: بالله من أين الطريق إلى حمص؟ لا أعرف، إذا قال لك: أقرضني عشرة آلاف، وقلت: ليس عندي، فهذا معقول ألاّ تقرضه، أما أعطنا رغيفين من الخبز، وعندك رغيفان تريد أن تأكلهما مع أهلك، فأنْ تقول: ما عندنا واللهِ فهذا وارد، لكن من أين الطريق الفلاني؟ وتجيب: لا أعرف، فهذا منتهى البخل، ومنتهى الشح، وهذا إنسان مرذول حقاً، قال ربنا عز وجل:

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

كلمة لا يقولها، ويبخل بها:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الآية التالية آية دقيقة لها معان كثيرة :

الويل وعيد من الله عز وجل، وعيد للمصلين المتساهلين، هذه الآية دقيقة جداً، فيها وقف قبيح، إذا قُرئ فويل للمصلين، فوَقفَ، فهذا وقف قبيح، لأن المصلي لا ويل له، المصلي هنيئاً له، ولكن أكمل الآية، هنا يوجد (لا) أيْ لا تقف:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الآية دقيقة جداً لها معان كثيرة:

1 ـ الذي سها عن أداء صلاته أي مكلف بها وسها عنها :

أحد هذه المعاني؛ الله عز وجل سمى هذا الذي كُلف بالصلاة مصلياً، لا لأنه يصلي، لكن لأنه مُكلف بالصلاة، كأن تقول: هذا الطالب لا يجتهد، وهو ليس طالب علم، ولكن اسمه الاجتماعي طالب، هذا

الطالب لا يدرس أبداً، فليس بطالب علم، اسمه عند أبيه طالب، واسمه في السجلات طالب، الطالب فلان، فلما ربنا عز وجل قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

يقصد أن هؤلاء الذين كُلفوا بالصلاة، وهم يعلمون أن الصلاة فرض عليهم، ومع ذلك عن صلاتهم ساهون، بعض المفسرين حمد الله كثيراً على أن الله عز وجل قال:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

ولم يقل في صلاتهم ساهون، وبينَ (عن) و(في) مسافة كبيرة جداً، فقال بعض العلماء: عن صلاتهم ساهون، أي سهوُ تَرْكٍ وقلةُ التفاتٍ، فلو أن الله عز وجل قال: في صلاتهم ساهون، هذا سهو يعتري المصلي أحياناً إما لانشغاله بفكرة لديه أهم من الصلاة، كما فُسر هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو هي وسوسة الشيطان، هذا نأتي عليه بالتفصيل بعد قليل.

أولاً؛ المصلي في هذه الآية المكلف بالصلاة، أو الذي يصلي ولا يتصل بالله عز وجل يؤدي أشكال الصلاة، حركاتها، أقوالها، أفعالها، تكبيراتها، تسليمها، وهو لم يتصل بالله عز وجل، قلبه ساه ولاهٍ.

بعضهم عرف الصلاة بأنها: أقوال وأفعال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، فإذا فعلها الإنسان سقط الوجوب، وإن لم يحصل المطلوب. ولكن ربنا عز وجل يقول:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

المعنى الأول؛ هذا الذي سها عن أداء صلاته، مكلف بها وسها عنها.

2 ـالذي أداها شكلاً :

والمعنى الثاني؛ هذا الذي أداها شكلاً، وقف ليصلي وجميع مشكلاته اليومية مرَّت في خاطره، قال لي مرةً رجل: وأنا أصلي رفعت أصبعي، وأنا واقف، ما هذا؟ بالصلاة لم تمر معي، قال: فإذا هو يقرأ التحيات وهو واقف! يقرأ التحيات وهو واقف، فوصل إلى أشهد ألا إله إلا الله فرفع أصبعه، هذا نوع من أنواع السهو في الصلاة:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

3 ـالمصلي الذي لم يرجُ لها ثواباً وإن تركها لم يخش على تركها عقاباً :

بعضهم فسر هذا المصلي؛ المصلي الذي لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش على تركها عقاباً، هذا تعريف آخر للمصلي الذي سها عن صلاته،

4 ـ الذين يؤخرونها عن أوقاتها :

وبعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الذين يؤخرونها عن أوقاتها، وقد جاء في بعض الأقوال: أنه من أخر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره، ولا يهنأ لا بسهرة ولا بجلسة بعد الغداء، لم يصلِّ الظهر، أكل ولم يستطع الصلاة، وهو جالس وخائف أن يدخل وقت العصر، ومن قصة إلى قصة أذّن العصر فشعر بضيق، لأنه سها عنها وأخرها عن وقتها فشعر بضيق.

دخل إلى البيت مساءً، وقد وُضع طعام العشاء فتناوله، ولم يصلِّ العِشاء، بل أخّرها حتى صارت الساعة الثانية عشرة، وقد عمل إحدى عشرة ساعة، فصار متعب، ومال إلى الراحة، وصار الفراش له محبباً، لم يصل العشاء فصلاها كنقر الديك:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

5 ـ الذين لا يتمون ركوعها وسجودها :

بعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الذين لا يتمون ركوعها وسجودها، يركع ولا يطمئن، ويسجد كنقر الديك، وعندئذٍ تقول لصاحبها: ضيعكَ الله كما ضيعتني، قال: تُلف كما يُلف الثوب الخلق ثم يُضرب بها وجهه وتقول هذه الصلاة: ضيعك الله كما ضيعتني.

6 ـ الذي لا يقرأ بها ولا يذكر :

وبعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

أي لا يقرأ بها ولا يذكر، مِن عشرين سنة يصلي بآية واحدة، لم يحفظ غيرها، لم يعُد لها معنى، بل أفرغت من فحواها، لكن إذا قام الإنسان ليصلي، وقد قرأ عن الصلاة، فنوّع في القراءة، احفظ من القرآن، احفظ جزء عمَّ واقرأه بالتسلسل، ولما تغيِّر السور تسمع من الله كلاماً جديداً، فهذا درس بليغ لك.

7 ـ المنافقون في صلاتهم

سهوهم ليس سهوَ وسوسة بل سهوُ ترك والتفات عن الله:

بعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

تنطبق على قوله تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: هم المنافقون في صلاتهم. كما قلت قبل قليل، سهوهم ليس سهوَ وسوسة، بل سهوُ ترك والتفات عن الله عز وجل، وأما سهو المؤمنين؛ فقد يسهو المؤمن، ما الدليل؟ وجود أحكام سجود سهو في الفقه، هناك أحكام مطولة حول سجود السهو، سهو المؤمن بالصلاة، لكن سهو المنافق عن الصلاة شيء آخر.

السهو في الصلاة :

الشيخ محي الدين قال: السلامة من السهو محال، لكن هناك سهو المنافقين وسهو المؤمنين، سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه يقول: ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من كتاب الله، ولا صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، إذاً سيدنا سعد كان رجلاً في صلاته.

لكن يطالعنا الآن قول غريب قليلاً، يقول قائل: قد يسهو الرجل في صلاته، لأنه يتدبرها ويعقلها، قرأ القرآن في الصلاة فاستغرق بمعانيه، وذابت نفسه محبة لله عز وجل، قرأ وأطال، وقرأ أول ركعة والثانية والثالثة، فنسي كم ركعة صلى، هذا سهو من تدبرها وعقلها.

ذهب رجل ليطوف حول الكعبة، وله شيخ، قال له: يا بني طف، طاف ورجع، فقال: يا بني كيف حالك، قال له: والله طفت بالبيت، ولم أطف برب البيت، هذا أول طواف له، أنا من أين أمر ومن أين أبدأ؟ من هنا، ماذا أصنع؟ ماذا قال الفقهاء في هذا الوضع؟ ارتبك، هنا الميل، هنا كذا، قال: طفت بالبيت ولم أطف برب البيت، قال له: أعد الطواف، فلما طاف المرة الثانية، لم يعد يدقق بالأماكن، حدث له استغراق، فدعا إلى الله عز وجل، وانهمرت دموعه، فقال سائلاً نفسه: كم شوطاً طفت أنا؟ لقد نسي

كم شوطاً، قال له: كيف حالك يا ولدي؟ قال: طفت برب البيت ولم أطف بالبيت، قال: أعد الطواف، في المرة الثالثة جمع بين عدد الأشواط وبين وأماكن الطواف، وبين الوجهة إلى الله عز وجل، قال له: كيف حالك يا ولدي، قال: طفت بالبيت وبرب البيت.

أحياناً الإنسان بسبب استغراقه في آيات القرآن الكريم، يتأثر بالسورة، قرأ قصة في الصلاة تفاعل معها، نسي كم ركعة صلى هذا سهو مشروع، لذلك شُرع له سجود السهو.

قال: هذا الذي يتدبرها ويعقلها وليس همه بأعدادها، هذا كأنه يأكل اللب ويدع القشر، قال: وقد يسهو الإنسان في صلاته بسبب وساوس الشيطان، أو حديث النفس.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم سها مرةً في صلاته، يمكن أنه تصنَّع السهو من أجل أن يعلمنا سجود السهو، وبعضهم فسر سهوه فقال: كان يسهو في صلاته لفكرة أعظم منها، استنباطاً من قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

الروح من الله و من يعزو هذه لنفسه فهو مشرك :

إذا ورد في السنة المطهرة أن النبي سجد للسهو، هو لا يسهو عن الله أبداً، فقد ينشغل به عنه وقد ينشغل بفكرة أهم من الصلاة عن الصلاة نفسها، هذا سهو الأنبياء، والمؤمن يستغرق في الآيات فينسى كم ركعة صلى، أما المقصر فيسهو فيها، وقد يأتيه حديث النفس أو تأتيه وسوسة فيسهو فيها ولكن المنافقين والكفار يسهون عنها، وثمة فرق بين يسهون بها، ويسهون عنها.

ومعنى آخر بهؤلاء المصلين، عندما تشغل آلة على الكهرباء، ولتكن مسجلة تصدح مثلاً بالقرآن، إذا ذهبت إلى مأخذ الكهرباء وسحبت الخيط ماذا يحصل؟ ينقطع الصوت فجأةً، ماذا فعلت؟ قطعت عنها الإمداد، إذاً كان هناك إمداد كهربائي، هذه القوة الكهربائية جعلت الدواليب تدور والشريط يتحرك، والرأس يلقط الصوت ويكبره، فهذه المسجلة التيار موصول بها، إذا وسعنا المعنى؛ كل مخلوق فيه نبض، أو فيه حياة، أو حركة، فالله سبحانه وتعالى يتجلى عليه بالروح، فلو أن الله سبحانه وتعالى قطع إمداده لحظة لمات المخلوق، فهذا الذي تأتيه قوة الله المحركة وهي الروح وهو غافل عنه، يقول لك: أنا، من أنت؟ أنت كلمة زل فيزول، لو قطع الله عنك الإمداد ثانية لأصبحت جثةً هامدة، هؤلاء الذين يتجلى الله عليهم تجلِّيَ إمداد لا تَجَلِّيَ رحمةٍ، حياتهم قائمة بالله، ولولا أن روح الله فيهم لما تحركوا، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أمدهم بالحياة لما عاشوا، هؤلاء كيف يسهون عن هذه القوة المحركة، ويقول أحدهم: أنا وأنا، من أنت؟ أنا، أنا سأفعل، أنا سأترك:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

هذا المعنى بعيد، لكن دقيق جداً، كل إنسان يتحرك، ويتكلم، ويمشي، ويفكر، ويكتب، ويذهب، ويعمل، ويصنع، فيه حياة، والحياة روح، والروح من الله عز وجل، فلما ينسى الإنسان هذه القوة الممدة ويعزوها لنفسه فهو مشرك، وكأنه غفل عن هذه الصلة.

الرياء وأنواعه :

بعضهم سأل هذا السؤال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الحقيقة أن الويل لا لواحد من هؤلاء، بل للصفات الثلاث مجتمعة:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الآن إلى المراءاة، قال بعضهم: هناك من يصلي طاعة لله عز وجل، وهناك من يصلي تقية، فقد يكون الرجل متواجداً بمجلس، كل من فيه من المؤمنين، وأذن المغرب، ومضت ساعة، وإذا ما صلى المغرب يُتهم بالنفاق فقام وصلى، ولكنه صلى تقية، هؤلاء الذين يراؤون، لم يصلِّ طاعة لله عز وجل، صلى تقية، صلى لئلا يُقال عنه منافق:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

فتعريف الرياء، طلب ما في الدنيا بالدين، هذا هو الرياء، هناك رياء بالتصرفات، يظهر بمظهر الحليم الوقور، لكن إذا خلا فله تصرفات شاذة، وضرب وشتم، وأعمال لا تليق بالمؤمن، لكن أمام المجتمع يأخذ دور الحليم الهادئ الوقور، يفكر، فهذا نوع من أنواع الرياء بالتصرفات، بالسمت، وهناك نوع بالثياب، الآن غير وارد هذا الشيء أما قديماً كان الصوفيون يلبسون الصوف، فكان يرتدي ثياب صوفية خشنة ليُقال عنه صوفي، فهذا رياء بالثياب، وهناك رياء بالقول، طوال جلوسه يقول: أستغفر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله رب العالمين، كلمات يرددها حتى يقال عنه: ولي، هذا أيضاً رياء، وهناك رياء بالعبادات، يصلي ليُقال عنه مصلٍّ، ويصوم ليُقال عنه: صائم، وهكذا.

أنواع الشرك :

هذا الرياء من أين يأتي؟ أتى من الشرك، وقال العلماء: الشرك على مراتب؛ أعظمها أن تشرك في الاعتقاد، أن تعتقد أن مع الله إله آخر، وقالوا: هذا هو الشرك الذي لا يغفر الله لصاحبه قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء: 84]

هذا أعظم أنواع الشرك، هناك شرك آخر أن تعتقد أن زيداً من الناس مستقل بفعله عن الله وهو يفعل ما يريد، هذا شرك كبير أيضاً، وهذا هو شرك الأفعال، فلا فاعل إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا قابض إلا الله، ولا باسط إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله.

إذا اعتقد أن فلاناً بيده الحول والطول، وهو مستقل بأفعاله عن الله عز وجل، وهو يفعل ما يشاء، وإذا قال لك شخص: أنا أفعل بك ما أفعل، وصدقت هذا الكلام، ورأيت أنه يفعل بمعزل عن الله عز وجل فهذا شرك خطير.

النوع الثالث: شرك في الطاعة، أن تطيع غير الله خوفاً منه وشرك بالعبادة، أن تصلي لغير الله، أو أن تطيع الله لغير الله، هذا شرك بالعبادة، وهناك شرك بالنية، وهناك شرك في الوجهة، وإن الشرك لظلم عظيم، والشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

وقد رُوي: أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، ألا إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجر، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله.

سئل عليه الصلاة والسلام عن الشهوة الخفية، فقال: الرجل يتعلم العلم يحب أن يُجلس إليه، فإذا جلس الناس إلى عالم وشعر بنشوة وبمكانة كبيرة وبشأن عند الناس، والناس رحبوا به، وبجلوه، وعظموه، فهذه شهوة خفية، وهذا شرك، وهناك موضوع آخر عن الرياء.

دواء الرياء و درجاته :

قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

أحياناً الإنسان يعمل عملاً من أساسه يبتغي به غير الله، دخل به مشركاً وخرج به مشركاً، أي أحب أن يعمل وليمة له منها مقصد يريد أن يسترضي رجلاً يخاف منه، أقام له وليمة، وتكلّف لها، فهذا العمل من أساسه نوى به إرضاء فلان ليتقي شره، فهذا أوضح أنواع الرياء.

هناك رياء أقل من ذلك، بدأ بعمل صالح، في أثناء العمل الناس أثنوا عليه، انبسطت أساريره، وشعر أنه في موطن اعتبار، فعمل أعمالاً زائدة عن العادة حتى يثنوا عليه أكثر فأكثر فخرج منه مشركاً، دخل به مخلصاً خرج منه مشركاً، كان بشيء صار بشيء.

هناك درجة أخف، دخل به مخلصاً وخرج به مخلصاً، ولكن الناس أثنوا عليه فسُرَّ، سكت ارتاح، وصار بحاجة للمديح، إن شاء الله العمل أعجبكم؟ نعم والله، الله يجزيك الخير، ثم رأى آخر، إن شاء الله هذا العمل أعجبكم؟ نعم والله، صار يستجدي المديح، دخل به مخلصاً، وخرج به مخلصاً، ثم ركن إلى المديح، فهذا شرك مخفف، ورياء مخفف.

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

أنْ يبدي للناس ما ليس في نفسه:

(يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

[سورة البقرة: 9]

سئل أحد الصالحين؛ ما دواء الرياء؟ أجاب بكلمة واحدة، قال: كتمان العمل. صل قيام ليل واكتم ذلك، لا تحدث به أحداً، ادفع صدقة واكتم ذلك، لا يجرؤ الشيطان عندئذ أن يقول لك: إنك مراءٍ، لم تتكلم لأحد، لم يدر أحد، افعل الصالحات ولا تذكرها لأحد، هذا هو دواء الرياء، أكرر: قيل ما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل.

لا مراءاة في العمل إن كان فريضة :

لكن هناك عمل لا يكتم الصلاة، أيُعقل ألا أصلي؟ كنت مع أناس في نزهة أفلا أصلي؟ قال العلماء: لا رياء في الفرائض، يجب أن تصلي وهذا ليس رياء إطلاقاً، ولن تحس به أساساً. يُقال يوم القيامة لأهل الرياء: صمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك، وقد قيل إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة.

سئل بعضهم: منذ كم دخلت البصرة، فقال: منذ عشرين عاماً، وأنا صائم، قال: سألتك عن شيء واحد فأجبتني عن شيئين، هذا الرياء، أخي الاسم الكريم، الدكتور فلان، قلنا لك الاسم لا نريد الشهادة، تُسأل عن شيء وتجيب عن شيئين:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

صلى رجل أمام جمع، فقيل له: ما أحسن صلاتك، قال: وأنا صائم أيضاً:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

قال بعضهم: لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل إذا كان فريضة، وفي الأثر: "لا غمة في فرائض الله"، لا خفاء فيها، رجل سجد في المسجد سجود الشكر فأطال، فقال له أحد العارفين: بالله لو كان هذا في بيتك لكان أحسن، أما هنا فصار فيه نوع من الرياء.

للماعون أربعة عشر معنى :

قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

هذه دقيقة جداً، قال المفسرون يمنعون زكاة أموالهم، للماعون أربعة عشر معنى.

أولاً: زكاة المال، والذي يمنعها يمنع الماعون، وثانياً: قال بعضهم في هذا الموطن لو خفيت الصلاة لما صلوها لقد ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها، فمنع الماعون منع الزكاة. المعنى الثالث: منع المال عن مستحقيه، بشكل مطلق، منع الصدقة منع المال عن مستحقيه، بقي للمشتري معك تتمة وأنت تتجاهل، موظف على الصندوق، على الهاتف، على الكهرباء، دفعت له مثلاً مئة، والمبلغ ثمانية وتسعون ونصف، يتغافل عنك، وتخجل أنْ تطالبه.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

قال بعضهم: الماعون اسم جامع لمنافع البيت، عندك سلم، عندك شاكوش، عندك كرسي، طاولة، المؤمن يعير يحب الخير، هذا جاره، عنده ضيوف، عنده سبعة ضيوف وعنده خمسة كراسي، يريد كرسيين، يجيبه: ليس عندنا.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

هذا باب من أبواب الخير كبير، ولكن رجلاً طلب أنْ يستعير سلّماً، قال له: والله كتفي يؤلمني، قال: أنا سأحمله، قال: لا، من أجل إرجاعه، فأنت لا تعيده، فإذا استعار الإنسان شيئاً فليرجعه ولا يبقِه عنده.
بعضهم قال: الماعون العارية، الشيء المعار أيضاً، وقال آخرون: مطلق الماعون الأولى حاجات البيت الأساسية، وبعضهم قال: مطلق الحاجات، وقيل: الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، أي هذا البيت فيه شجرة ليمون، صار عندهم من العرف أن يُطرق الباب لطلب ليمونة، هكذا كان قديماً، شجرة تحمل أربعمئة ليمونة، ما في إنسان طرق الباب إلا أعطوه ليمونة، توفيت هذه العجوز، زوجة الابن أول ما طرق الطارق الباب طردته، الليمونة يبست في السنة الثانية، هذه حقوق الجيران، يمنعون الماعون، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وقال بعضهم: الماء فقط، فالماء لا يمنع.

وبعضهم قال: الماعون هو الحق، ومن منع الحق أهله فقد انطبقت عليه هذه الآية، وبعضهم قال: منافع الأموال، كرجل عنده بستان يمرُّ فيه نهر، ويجلس الناس ساعة يستظلون بأشجاره، فمنعهم، ووضع شريطاً شائكاً، لا يدع أحداً يأتي، ما خسر شيئاً، ولكن لا يريد خيراً.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

منافعُ أموال، منافع أرض، شجرة لها ظل، جلس رجل تحت ظلها، فلا يدعه، دخل شخصٌ إلى بستان، ولا شيء به، أحب أن يجلس ربع ساعة فلم يدعه، بل أخرجه، منافع الأموال مطلقة، بعضهم قال: الماعون هو المعونة، الذي يمنع المعروف بين الناس، فهو إنما يمنع الناس أن يعين بعضهم بعضاً، هذا مانع للماعون، وبعضهم قال: ما لا يحل منعه، كالماء والنار والملح.

عندما يسيء الإنسان لصاحب المعروف يكون قد أساء للدين ومنع بذلك المعروف

رجل ركب جواداً في الصحراء، رأى رجلاً ينتعل الرمال المحرقة، فأشفق عليه، دعاه لركوب الجواد معه، وهذا الذي دعاه لركوب الجواد لصٌّ من لصوص الصحراء، وما إن امتطى ظهر الفرس حتى دفع صاحبها أرضاً، وعدا لا يلوي على شيء، فقال صاحب الفرس: يا هذا قد وهبت لك هذه الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

شاهد رجلٌ شخصاً مقطوعاً فأركبه في السيارة، فإذا معه حشيش، صادروا السيارة، فهل يُركب أحدٌ أحداً بعد هذه الحادثة؟ أبداً.

المعنى الدقيق خلاف كل هذه المعاني، إذا أسأت لصانع المعروف منعت المعروف، أركبك في سيارته أتحمل معه بضاعة ممنوعة؟ فالسيارة صادروها له، وسجنوه.

شاهد رجلٌ جريحاً، فأخذه إلى المشفى، فأوقفوه خمسة أيام، ليس لي علاقة، لم يسعف أحداً بعدها في حياته، فكل إنسان يسيء لصانع المعروف يمنع الماعون، أعارك كتاباً، والله ضاع مني، هل يعير مرة أخرى؟ يحلف يميناً معظماً أنه لن يعير كتاباً لأحد ما دام حيّاً.

كل إنسان يتلقى معروفاً ويرد بالإساءة، أو يسيء لصاحب معروف صاحب هذا المعروف لن يفعل خيراً أبداً، من الذي منع الماعون؟ هذا الذي أساء.

المعنى الدقيق أنك إذا رددت على معروف بإساءة، أو إذا أسأت لصاحب معروف فإنك منعت الخير بين الناس، قال: إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

أجمل ما في الحياة التعاون، فإذا فعل الإنسان خيراً شكَّ الناسُ فيه، ماذا تريد مني؟ لا أريد منك شيئاً، والله، لأن الناس تعودوا ألاّ يفعلوا خيراً. فعندما يسيء الإنسان لصاحب المعروف، يكون قد أساء إساءة بالغة للدين، ومنع بذلك المعروف.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكوثر 108-الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 -3 عطاء الله للنبي الكريم وللمؤمنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-07-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أسماء الله الحسنى كلها تدخل في أفعاله :

قال تعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ تدخل فيها أسماؤه الحسنى، فكل فعل من أفعاله فيه رحمة ولطف وحكمة وقدرة وغنى، وأسماؤه الحسنى كلها تدخل في أفعاله قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة الإسراء: 14]

إنني (أنا)، يأتي الحديث عن ذاته بضمير المفرد، والحديث عن أفعاله بضمير الجمع، (إنا)، أما كلمة أعطيناك، الكاف للخطاب، والنبي عليه الصلاة والسلام هو المقصود بهذه السورة.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ.))

[مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعرِّفهم بذاته وإذا عرفوا ذاته سعدوا به :

كلمة (أعطينا) من قِبَل الله عز وجل تعني شيئاً عظيماً، ولو قلنا: الملك أعطى فلاناً، فلو لم تتابع الجملة، ما دمت تقول: الملك أعطى فلاناً فلا بد من أن يكون العطاء كبيراً، وهل يُعقل أن يعطي المِلِكُ قلم حبر، ليس معقولاً، أقل شيء بيت وسيارة، فلما ربنا عز وجل يقول: (إنا أعطيناك) معنى هذا العطاء كثير، لذلك (الكوثر) ورد فيه تفسيرات عدة، أحد هذه التفسيرات " النبوة "، وهذا عطاء ما بعده

عطاء، لأن هؤلاء الأنبياء صفوة الخلق، والنبي عليه الصلاة والسلام في رأس القائمة، سيد الأنبياء والمرسلين، بعضهم قال: القرآن، إنما أُنزل عليه، وبعضهم قال: أصحابه الكرام، هؤلاء الرجال العظام الذين خصهم الله بالنبي الكريم، بعضهم قال: الحكمة، ويؤكد هذا قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

بالحكمة تعرف أن الدنيا زائلة، فتسعى للباقية، وبالحكمة تعرف لماذا خُلقتَ في هذه الدنيا، فتسعى للجنة، قبل أن أفصل في موضوع الكوثر لا بد من تمهيد يسير.

إنّ الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء، ثم شاءت إرادته أن يخلق الخلق، لماذا خلقهم؟ بادئ ذي بدء، سؤال كبير، ما من إنسان فيه ذرة من عقل يقوم بعمل ما إلا وله هدف، فإذا قمت من مكانك إلى مكان آخر، يبدو أن الصوت ضعيف فغيرت مكانك، إذا جلست في مكان معين، ويبدو أن هذا المكان فيه هواء، فما من إنسان فيه ذرة عقل يتحرك حركة إلا ولها سبب، ولن يتحرك حركة بلا هدف، فإذا كان المخلوق الضعيف لا يتحرك إلا بهدف، فالله سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق، وحينما خلق المجرات، مثلاً مليون مليون مجرة، وهذا أحدثُ رقمٍ تقريبي لعدد المجرات، في كل مجرة مليون مليون كوكب، وبعض المجرات تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، وهذا الكون الكبير بمجراته وبأرضه وبشمسه وبقمره، وهذه الأرض وما فيها من مخلوقات وحيوانات ونباتات وتضاريس وجبال ووديان وصحارى وسهول وبحار وينابيع، إذاً الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعرِّفهم بذاته، وإذا عرفوا ذاته سعدوا به.

الإنس والجن قبلا الأمانة وتحملاها :

قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

الله عز وجل خلق الخلق، كل هذا الذي تراه أعينكم مخلوقات؛ الجبل مخلوق، الماء مخلوق، النبات مخلوق:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

فربنا عز وجل عرض عطاء غير متناهٍ، عطاء كبيراً جداً، بل هو أعظم عطاء عرضه على الخلق كلهم، فأبوا، والملائكة خافوا من الأمانة، فملّكوا أنفسهم لله عز وجل، يسبحون له لا يفترون، والحيوانات خافوا من الأمانة، طلبوا الدنيا من دون مسؤولية، فكان لهم ما أرادوا، يعيشون لشهواتهم من دون حساب، وأما الإنس والجن فقد قبلا الأمانة وتحملاها، فما هي الأمانة؟ عطاء لا حدود له، ولكن له ثمن باهظ، فما هو الثمن الباهظ؟ أن يأتي الإنسان إلى الدنيا، وقد ركبت فيه الشهوات وأعطي الفكر، وخلق الله الكون كي يتعرف إليه.

الميزة التي أعطاها الله للإنس والجن يقابلها عذاب لا نهاية له إذا خانوا الأمانة :

كونٌ يعرِّفه بالله، وفكرٌ هو أداة المعرفة، ونفسٌ فيها شهوات تعينه على الرقي إلى الله عز وجل، فبالفكر يَعرفُ، وبالشهوة يرقى، فإذا فكر في الكون عرف الله، فإذا آثر رضاء الله على شهوته ارتقى إلى الله، فسبيل السعادة الأبدية غير متناهية، أن يُركّب في الإنسان شهوة وفكر، وكون دال على أسمائه الحسنى، فإذا جاء الإنسان إلى الدنيا وفكّر في الكون وعرف الله عز وجل، واستقام على أمره، وآثر ما يرضي الله على ما يرضي شهواته ارتقى، فإذا جاء يوم القيامة سعد بهذا العمل إلى الأبد، فما هو العمل؟ قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

أنت أيها الإنسان مخلوق عُرضت عليك الأمانة وقبلتها، ومعنى قبلتها قبلت أن تأتي إلى الدنيا، وقد رُكّبتْ فيك الشهوات، ومنحت الفكر، وسخر الله لك ما في السماوات والأرض لخدمتك، ولأجل أن تعرف الله من خلال خلق السماوات والأرض، فمن فكّر في الكون، وعمل الصالحات تقرباً إلى الله استحق هذا العرض الثمين، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

التكليف يعني كل المخلوقات، كل بني البشر والجن تحملوا الأمانة، وقد أتيح لهم أن يسعدوا سعادة ما بعدها سعادة، هم قمة الخلق.

رُكّب الإنسان من عقل وشهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإنْ سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام حمل الأمانة، وأداها حق الأداء، وجاء إلى

الدنيا فعبد الله عز وجل، وتعرف إليه، وأطاعه فسعد به، لذلك نقول في الصلاة على النبي: اللهم صل على سيدنا محمد، اللهم صل على أسعدنا محمد، إنه أسعد خلق الله قاطبة بمعرفة الله عز وجل، فلأنك إنسان إذاً أنت ممّن حمل الأمانة، وأنت الآن في فرصة، إما أن تسعد بها إلى الأبد، وإما أن تشقى بها إلى الأبد، طبعاً هذه الميزة الكبيرة التي أعطاها الله للإنس والجن يقابلها عذاب لا نهاية له إذا خانوا الأمانة.

عطاء الله في الدنيا :

كل ميزة يقابلها مسؤولية، فما دام الله عز وجل أعطى الإنس والجن أرقى سعادة، فقد أعدّ لهم أرقى سعادة، إنْ هم تنكّبوا سبيلها فسوف يحاسبهم أشد حساب، في حياتنا الدنيا مُنِح الإنسان صلاحية كبرى، له مظهر فخر، يقابل هذا الفخر أنه إذا لم يحسن استخدام هذه الصلاحية يُحاسب حساباً عسيراً، وكذلك إذا قصر في حق الله عز وجل، شقي شقاوة أبدية.

فيكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام جاء إلى الدنيا ليعرّفنا هذه الأمانة، وليعرفنا الغاية من خلقنا، خُلقنا لماذا؟ جيء بنا إلى الدنيا لماذا؟ ما هو أثمن ما في الدنيا؟ قال الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الآن أقف وقفة يسيرة عند عطاء الله في الدنيا، هذا الذي يعطيه الله لإنسان في الدنيا لا يُسمى عطاء، أبداً، لأنه ينتهي بالموت، المال ينتهي بالموت، والجاه العريض ينتهي بالموت، والرفاه الشديد ينتهي بالموت، والمنزل الفاخر ينتهي بالموت، وكل مباهج الدنيا يأتي الموت ويضع لها حداً، إذاً هذا ليس العطاء العظيم، هذا ليس عطاء الله سبحانه وتعالى، هذا يؤكده حديثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

إن هذه الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، يا بني ما خير بعده النار بخير، أي ما هو الشيء الثمين جداً عند الناس، دخْلُه مليون كل يوم، تُحل كل مشاكله، أيخاف من ارتفاع الأسعار إذا كان دخله كل يوم مليوناً؟ ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه وتعالى.

لو كُشف الغطاء لكانت السعادة الكبرى أن تعرف الله :

إذا ظننت أن الله سبحانه وتعالى إذا منح فلاناً مالاً، وإذا ظننت أن هذا عطاءً من الله عز وجل فأنت في ضلال مبين، هذا ليس عطاءً، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة: 126]

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مذْموماً.))

[ورد في الأثر]

هذه الجلسة لو كُشف الغطاء لكانت السعادة الكبرى أن تعرف الله، أن تعرف لماذا جاء بك إلى الدنيا، وأن تعرف أثمن ما فيها.

كل إنسان يرى شيئاً في الدنيا ثميناً؛ هذا يرى المال أثمن ما في الدنيا، وذاك يرى المتع الرخيصة أثمن ما في الدنيا، هذا يرى الشأن الكبير في الحياة أثمن ما في الدنيا، هذا يرى حيازة الشهادات العليا، أن يُقال له: دكتور مثلاً، الباحث الكبير العلامة، يشعر بالخدر حينما يسمع هذه الكلمات، هذا يرى هذا اللقب العلمي أثمن ما في الدنيا، لذلك يسعى إليه ليلاً ونهاراً.

تعريف العبادة المختصر :

إذا عرفت أثمن ما في الدنيا حقيقة وسلكت السبيل الصحيح فأنت أسعد الناس، فكم من إنسان أمضى حياته في عمل ظنه مسعداً فإذا ظنه يخيب به فيراه طريقاً مسدوداً، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)

[سورة البقرة: 103-106]

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

ربنا عز وجل خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، خلقنا لنعبده، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 56-58]

أي لنعرفه فنطيعه فنسعد بقربه، هذا تعريف العبادة المختصر، ثلاث مراحل؛ تعرفه أولاً، وتطيعه ثانياً، فتسعد بقربه ثالثاً، وهذا هو الهدف.

أقوال في معنى كلمة (الكوثر) :

حينما يأتي الإنسان إلى الدنيا ويعرف الهدف، يركز جهوده كلها في جهة واحدة، فيحقق نجاحاً كبيراً، وقد تقول عن إنسان: إنه ضائع، أي لا يعرف لماذا جاء إلى الدنيا، وقد ورد في الأثر: المنافق كالناقة ربطها أهلها ثم أطلقوها، فلا تدري لم عقلت ولا لم أطلقت، فربنا عز جل يسلّي نبيه ويطمئنه، ويَعِده بالخير الكثير.

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

ما هو الكوثر؟ بعضهم قال: نهر في الجنة، وقد ورد هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام، وبعضهم قال: الحوض يوم القيامة، وبعضهم قال: القرآن الكريم، وبعضهم قال: النبوة، وبعضهم قال: أصحابه الكرام، وبعضهم قال: رفعة الذكر في السماء والأرض " لا إله إلا الله محمد رسول الله " قرن اسمه مع اسم الله عز وجل، في الأذان وفي الصلاة وفي عبادات كثيرة. وبعضهم قال: نور في قلب النبي عليه الصلاة والسلام دله على الله وقطعه عمن سواه، وبعضهم قال: الصلوات الخمس. والأصح من هذا كله؛ أن كلمة الكوثر تعني الخير الكثير، كل هذا الذي ذكرته مجتمعاً وشيء آخر لا نعرفه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

وبعضهم قال: الحكمة، لقوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

إذا عرفت أن في هذا البناء كنزاً يغنيك إلى آلاف السنين، فهذه المعرفة أثمن من الكنز، لأنك عرفت الكنز بها، هذه الحكمة، فالحكمة تعرفك أن الله أثمن من كل شيء، فإذا عرفته عرفت كل شيء وإذا فاتَك فاتك كل شيء، تعرف هذا بالحكمة، وتعرف أنه من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً، وبالحكمة ترى أن الله سبحانه وتعالى وحده يستحق المحبة، ولا شيء في الأرض يستحق معه المحبة.

الحكمة هي عطاء الله الكبير للأنبياء :

الآيات التي ذكر الله بها عطاءه الكبير للأنبياء:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: 22]

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص: 76]

مفاتيحه فحسب، لا يستطيع سبعة رجال أشداء أن يحملوها، فكيف بالكنوز نفسها، لمن أعطى الله هذا؟ لقارون، وماذا أعطى الأنبياء والمرسلين؟ الحكمة، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الجمعة: 2]

فلذلك إذا أوتيت طرفاً من الحكمة، لا أقول: الحكمة بكاملها، إذا أوتيت طرفاً منها فقد فُقْتَ الناس كلهم، وليس في الأرض من هو أسعد منك إلا أن يكون أتقى منك.

السعادة تأتي بالحكمة لا بالمال :

إذا شعرت أن فلاناً العاصي أعطاه الله مالاً وحرمك من هذا العطاء فأنت لست مؤمناً، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص: 79-81]

يعبر عنها الناس الآن بقولهم: فلان هنيئاً له، لديه بيت لا يوصف، وله محل فروغه ثلاثة ملايين، عنده فندق دخله اليومي خمسة آلاف، عنده أرض تضاعفت ثلاثين ضعفاً، عنده مزرعة إنتاجها في السنة خمسمئة ألف، عنده أرض زرعها من المادة المعينة فربحت مليوناً، ترى أن الناس يسيل لعابهم على هذه الأرقام، وهم لا يعرفون الله عز وجل، وليتهم عرفوا الله سبحانه وتعالى، فمن عرفه فقد عرف كل شيء، ومن جهله فقد جهل كل شيء، هذه السعادة، هذه تأتي بالحكمة، وحضور هذه المجالس يعلمك الحكمة، تعبر مسالك الحياة على بصيرة، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

القرآن حمّال أوجه وإعجازه في إيجازه :

ربنا عز وجل قال:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

ماذا أعطاه؟ أعطاه كل شيء تقول: نبوة، نعم نبوة، سعادة لا توصف كذلك صحيح، حكمة ما بعدها حكمة كذلك صحيح، نهر في الجنة صحيح، الحوض المورود صحيح، القرآن مطلق يحتمل معان كثيرة، القرآن ذو وجوه، القرآن حمال أوجه، إعجازه في إيجازه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الآن إذا أُعطي رجل مِن كل شيء؛ مالاً كثيراً، وجاهةً، بيتاً، مزرعة، بيتاً في المصيف، زوجة، أولاداً، يقول: نال من كل شيء بطرف، وجمع أطراف المجد، هذا في الدنيا، فربنا عز وجل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام وقال له:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

النبي عليه الصلاة والسلام فسر هذا الكوثر، فقال: الخير الكثير، وكلمة كثير من الله كثير، كلمة أعطيناك من الله تعني عطاءً كبيراً، ليس معقولاً مِن ملك أنْ يعطي قلم حبر، أنعمنا عليك بقلم، لا تصح هذه مع ملك، عطاء الكبير كبير، عطاء العظيم عظيم.

دائرة المسموعات لا حدود لها ودائرة الخواطر لا نهاية لها :

يروى أن امرأة وقفت بباب أمير تسأله حاجة، فأعطاها عطاءً كثيراً، فلامه بعض جلسائه، قالوا: أيها الأمير إنه يرضيها القليل، وهي لا تعرفك أنك كريم، فأجابه إجابة تُسجل بماء الذهب، قال: إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى لها إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

هذه الآية تؤكد مدلول القصة آنفة الذكر، إلا قليل:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

العظيم يقول لك قليل:

((أعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ما لا عين رأت، دائرة المشاهدات محدودة، لكن دائرة المسموعات كبيرة جداً، فأنت لم تر إنساناً وزنه ثلاثمئة كيلو، لكنك سمعت أو قرأت في كتاب أن وزنه ثلاثمئة كيلو، وأنت لم تر بناء مئة وطابقين رأيت في محيطك أربعين أو ثلاثين طابقاً أما حسب مسموعاتك فموجود، فدائرة المشاهدات محدودة جداً لكن دائرة المسموعات واسعة جداً، كل حدث يحدث في الأرض الآن مهما بدا غريباً يصل إلى أسماعنا، وإن كانت دائرة المسموعات لا حدود لها فدائرة الخواطر لا نهاية لها، قد يخطر لك بناء من ألف طابق، هذا خاطر، قد يخطر لك أن دخلَ فلانٍ مئة ألف مليون في اليوم، فهذا خاطر غير محقق، انظر إلى الحديث كم هو دقيق:

((أعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الحياة كلها مدرسة جئنا إليها لنعرف الله عز وجل ونستقيم على أمره :

خُلقت لهذه الحياة، وأنت في الدنيا في مدرسة فيها من كل شيء من أجل أن تعرفه:

((عن قتادة أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبو داود عَنْ قَتَادَةَ]

في الدنيا وسائل إيضاح، فيها كتب، هذا الكتاب المقرر، وكل كلمة بهذا الكتاب يقابلها وسيلة إيضاح، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

[سورة الغاشية: 17-]

الإبل موجودة، السماء موجودة، الجبال موجودة، الأرض موجودة:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

[سورة الشمس: 1-2]

أنت في مدرسة، وهذه الحياة كلها مدرسة، جئت إليها لتعرف الله عز وجل، وتستقيم على أمره، وتفعل أفعالاً تقربك إليه، وتخالف فيها شهواتك التي أودعها الله فيك، فإذا جاء وقت اللقاء سعدت بقربه إلى الأبد، هذا هو سر الخلق، وهذا هو الهدف الكبير من خَلق الإنسان.

تمام النعمة الهدى :

قال تعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إنّ هذه النعم فيضٌ من الله، لكن العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، فالهدى واحد والمال صفر، فصاروا عشرة، ومع الهدى زواج، صفر ثان، فهو مهتدٍ، وله دخل يعيش به وله زوجة، الأولاد صفر ثالث، الشأن العالي في المجتمع صفر رابع. الآن لو حذفت الواحد لكان كل الذي أمامه أصفار، لذلك:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آَخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 25-29]

سُميت نَعمة لِما فيها من ترف وضياع، وليست نِعمة، لكن النِّعمة المجردة من الترف وهي المطية لمرضاة الله سبحانه:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً *وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح: 2-3]

الصلاة من لوازم النعمة :

المهتدي يسمى المال عنده نعمة:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ*كلا)

[سورة الفجر: 15-17]

وهذه المقولة ليست صحيحة، ليس عطائي في الدنيا إكراماً، إنه ابتلاء، وليس حرماني إهانة، إنه معالجة، كلا، فالله سبحانه وتعالى نفى أن يكون عطاؤه في الدنيا إكراماً، إذا أعطاك المال وأنفقته في وجوهه الصحيحة فقد ابتلاك الله به، واستعملته فيما يرضيه، فانقلب الآن المال إلى نعمة كان ابتلاءً

فصار نعمة، أعطاك الله زوجة فعرّفتها بربها وحجبتها عن الأجانب، وعرفتها أمر دينها، فسعدت بها وسعدت بك الآن أصبحت الزوجة نعمة:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

إنسان هذا قوله، وهذه مقولته، وليس هذا صحيحاً،

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ)

إذا أصيب رجل في صحته، أو أصيب في دخله، أُتلفت بعض بضاعته، احترق محله التجاري، فَقَدَ أحد أولاده، هذا ليس إهانة إنه معالجة،

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ*كلا)

(كلا) أداة ردع وزجر ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، عطائي ابتلاء، وليس حرماني إهانة، حرماني دواء، هذا هو المعنى.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

من لوازم النعمة، ولئلا تُحجب بالنعمة عن المنعم صَلِّ، وكلمة (صل وانحر) هي الدين كله، وهناك آية مشابهة لها.

جوهر الدين الصلة بالله عز وجل والإحسان إلى الخلق :

إنّ جوهر الدين صلة بالله عز وجل، وإحسان إلى الخلق، هذا هو الدين كله، فإن عرفته اتصلت به، فإذا سعدت بقربه تشكره، وشكره الإحسان إلى خلقه، لأنّ الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فجوهر الدين اتصال بالخالق، وإحسان إلى الخلق، إلى الخلق ليس للمسلمين فحسب بل للخلق قاطبة، انظر إلى هذه الآية ما أجملها:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

لربك اجعل هذه الصلاة خالصة له، لا رياء فيها ولا سمعة:

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

إذا صلى عبدي صلاته في السر كصلاته في العلانية فهذا عبدي حقاً، لأنه مخلص، يصلي في السر كما يصلي في العلانية، يقبل على الله في السر كما يقبل عليه في العلانية.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أوجَهُ التفسيراتِ لهذه الكلمة؛ وانحر الأضاحي، فذَكَرَ الجزءَ وأراد الكل، ذكر عملاً صالحاً من هذه الأعمال الكثيرة، وأراد بها مطلق العمل الصالح، كقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

قد يسأل سائل: لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هاتين الإساءتين بالذات؟ لأن الإساءة الأولى تمثل أشنع عمل، فلو منعت خيرك عن إنسان لكان هذا إساءة، ولو منعتها عن يتيم فهي أبلغ إساءة، لو آذيت اليتيم كان أبلغ وأبلغ ثلاث مراحل، أن يدع اليتيم، يزجره، يعنفه يدفعه بيده، الآن إلى الفقرة الثانية.

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الماعون: 3]

أي العمل الصالح مهما خف إلى أن أصبح كلمة ومع هذا يضن بها، لا يفعلها، مهما خف العمل الطيب لا يفعله، ومهما كان العمل السيئ قبيحاً يفعله، فليس المقصود يحض على طعام المسكين، بل المقصود أنه يمتنع عن فعل الخيرات مهما قلّت، ويفعل السيئات مهما كانت فظيعة.

لو طلبنا لقاء الله عز وجل فالثمن محدد والباب مفتوح :

كذلك:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أي اتَّصل بالله، وافعل الخير تقرباً إليه.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

إذا رجوت لقاء إنسان، يقال لك هذه الأسبوع مشغول، والذي بعده عنده سفر، والذي بعده يقال لك: عندنا ثمانون إنساناً ينتظرون فانتظر معهم، هذا إنسان، أما لو طلبت لقاء الله عز وجل فالثمن محدد، والباب مفتوح.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

تعريف الدين كما ورد في القرآن الكريم :

قال بعضهم: هذه الآية تلخيص القرآن كله، (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلي)، ماذا يوحى إلي؟ (أنما إلهكم إله واحد)، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لا رازقَ ولا معطيَ ولا رافعَ ولا خافضَ ولا معزَّ ولا مذلَّ إلا الله، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الوجوه كلها:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: 54]

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة غافر: 20]

(وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

هذا هو الدين، وهذا كل دين..

فحوى الديانات كلها قول (لا إله إلا الله) :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

هذا فحوى الديانات كلها، أفضل كلمة قلتها أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله.

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلَا تَتْرُكُ ذَنْباً))

[ابن ماجه عن أُمِّ هَانِئٍ]

((لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي))

[كنز العمال عن عليّ]

هذه كلمة التوحيد أخطر كلمة في الدين، هي الدين كله، فاعلم - ليس فقل - أنه لا إله إلا الله، بل اعلم.

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الطبراني عن زيد بن أرقم]

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية الله إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

قال تعالى:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

هذا الدين كله، فإذا كانت صلاة الرجل شكلية وليس له عمل صالح، فكل أعماله غير مجدية، يقول: تعلّمنا هذا العلم، يقال له: تعلمته لتباهي به الناس، خذوه إلى النار..

المحافظة على الصلاة أن تكون على جادة الاستقامة :

ألفنا هذا المؤلف الفلاني، هذا المؤلف دقيق فيه فهرس أعلام، وفهرس للموضوعات، وفهرس أماكن، وفهرس أزمنة، وفهرس للآيات وللأحاديث، وله مقدمة وفصول وقرَّظه كثير من الأدباء والعلماء، وتجليده جيد، وتباهيت به، لكنه لم يكن عملاً يُرجى به وجه الله.

الدين صلة بالله عز وجل، وإحسان إلى الخلق، فكل شيء ينتمي لهذين الشيئين فهو مجدٍ ومثمر، وكل عمل بعيد عن هذين الجوهرين فهو عمل لا جدوى منه، كأنه خسارة.

أحد كبار العلماء توفي ترك مئة مؤلف، رآه تلميذه في المنام، قال له: يا سيدي ماذا فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، هذه الصلة، ألك صلة بالله عز وجل؟ إذا وقفت بين يدي الله، هل تشعر أنك أقبلت عليه؟ أما هذه الصلاة الشكلية، قال له: قم فصل فإنك لم تصل، إقامة الصلاة لا أن تقول الله أكبر، أن تقيم هذه الصلة: حافظوا على الصلوات، إنْ أذّن ذهبنا إلى المسجد، ليس هذه المحافظة، المحافظة أن تكون مستقيماً بين الصلاتين، حتى إذا جاء وقت الصلاة وقفت وأنت مقبل على الله ولست خجولاً منه سبحانه وتعالى، هذه المحافظة على الصلاة أن تكون على جادة الاستقامة.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أيْ افعل الخيرات من أجل أن ترقى في الدنيا والآخرة، لأنه كل إنسان جاء إلى الدنيا ولم يعمل صالحاً فليس عند الله مقبولاً، يا رسول الله إن فلانة تذكرُ أنها تكثر من صلاتها، تكثر، ليس تصلي، ما معنى تكثر؟ أي لها قيام ليل، ضحى، أوابين، وصدقتها، ليس الزكاة، زكاة وصدقة، وصيام، غير أنها تؤذي جيرانها، قال: هي في النار.

بني الإسلام على خمس، هل تسمى هذه الدعائم هي الإسلام، لا، هذه دعائم الإسلام، وليست هي الإسلام.

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

المعنى الحقيقي للإسلام :

الإسلام بناء آخر؛ لما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فماذا قال له؟

((قال: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قوماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ))

[أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

هذا هو الإسلام، الإسلام صدق، والإسلام عفة، والإسلام أمانة، والإسلام ورع واستقامة، والإسلام عمل صالح، هذا الإسلام، أما الصلاة فليست هي الإسلام، بل هي إحدى دعامات الإسلام، يقوم عليها الدين، هل المدرسة بناء؟ ليست بناء، ولا مقاعد، ولا سبورة، ولا كتباً، إذاً ما هي؟ المدرسة علم، قد ترى مدرسة، ولكن ليس فيها علم، ليس فيها مدرسون، بناء مدرسة وغرف صفوف، ومقاعد وسبورة وغرفة إدارة وملعب، وليس فيها مدرسون، لا نسمي هذا البناء علماً، العلم شيء آخر، العلم مدرس دخل الصف ألقى محاضرة علم، فيها الطلاب، فالإسلام غير الصلاة، قم فصل فإنك لم تصل:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[أحمد في كتاب الزهد]

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

حجوا قبل ألاّ تحجوا، قد يأتي زمان يحج الإنسان ويرجع كما ذهب، يبقى مقيماً على معاصيه.

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

لئلا تُحجب بالنعمة عن المنعم صلِّ، لئلا تكون جاحداً لهذه النعمة صلِّ، ومن أجل التقرب إلى الله عز وجل انحر، هذا هو الدين.

الأشرار عصيٌّ بيد الله عز وجل :

هناك أحاديث للنبي عليه الصلاة والسلام فيها جوامع الكلم، وفي الأثر الموقوف:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[كنز العمال من قول عليّ]

إنّ الدين كله في هذا الحديث، لا تخف من إنسان، لا شيء يخيف إلا الله، هذا المخيف بيد الله عز وجل.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

ولذ بحمانا و احتم بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنــا

* * *

الخلق الشريرون بيد الله عز وجل، إما أن يرخي لهم الحبل ليصلوا إليّ، وإما أن يبعدهم عني، علاقتي مع الله عز وجل. إذا تلقى رجل ضربة بعصاً، فهل يتشاجر مع العصا، إذا فعل يكون أحمق، فهؤلاء الأشرار عصيٌّ بيد الله عز وجل، هذه أدوية في صيدليته، فيها أدوية منوعة، الشريرون أدوية في هذه الصيدلية، أحياناً لا بد له من إنسان شرير ليخيفه، ويأكل له ماله، فقد يكون ماله حراماً، قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 90]

كل شيء يحدث بقضاء من الله وقدر :

قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد: 22]

التفسير الوجيه لهذه الآية: إن كل إنسان له عند الله صفحة هي سِجِلُّ أحواله، دخله، إقباله، صلاته، طهارة نفسه، علاقاته الاجتماعية، فيها هل له معاصٍ أم لا معاصي له، فربنا عز وجل بناءً على هذه الصفحة، وعلى هذا الكتاب يرسل له مصيبة.

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد: 22]

قبل أن تنزل المصيبة، هناك دراسة مستفيضة حول حالة الإنسان، من قبل أن نبرأها، فما قُضِيَ للإنسان أنْ يأتيه فلا بد أن يأتيه، لأن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم، اطلع على قلبه فرأى انحرافه، فقدّر له ما يرجعه، وهذا تفسير مبسط للقضاء والقدر، القضاء من الحكم، والقدر من التقدير، فربنا عز وجل اطلع على هذا الإنسان فحكم بإعراضه، فقدر له ما يرجعه إليه، كل شيء بقضاء من الله وقدر:

((والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهم والحزن))

[ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي هريرة]

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

القضاء هو الحكم والقدر هو التقدير والقضاء والقدر دائماً لمصلحة الإنسان :

ربنا عز و جل كل يوم هو في شأن، اليوم نظر لهذا الإنسان فرآه مقبلاً فقدر له إكراماً، وإن رآه معرضاً قدَّر له معالجة، فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، والقضاء والقدر دائماً لمصلحة الإنسان، بيده سبحانه الخير كله:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران:26]

الإعزاز خير والإذلال خير، العطاء خير والمنع خير، هذا تفسير قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

الظاهرة النعم والباطنة المصائب، نعم باطنة، إذاً:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الذي تفضل به الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم لا نستطيع أن نحيط به إطلاقاً، نحن نفكر أن القرآن أحد العطاءات، النبوة أحد العطاءات، الحكمة أحد العطاءات، نهر في الجنة أحد العطاءات، الحوض المورود أحد العطاءات، وهناك عطاءات لا نعلمها، لا يعرف النبي إلا النبي، نحن دونه، لا نحيط بما أعطاه الله سبحانه وتعالى، لكن يكفيه:

((سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قَالَ: أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إنه باب الله الأوحد، وما من مخلوق في الكون يستطيع أن يدخل على الله عز وجل إلا من باب رسول الله، أي امرئ أتاني من غيرك فلا يدخله، والأنبياء جميعاً يدخلون على الله من باب النبي عليه الصلاة والسلام.

الآية التالية لرسول الله ونحن لنا منها نصيب :

النبي الكريم هو سيد الأنبياء والمرسلين، صلاته بالأنبياء في الإسراء دليل رفعة مقامه:

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

هذه الآية لرسول الله ونحن لنا منها نصيب، فإذا استقمت استقامة تامة، وعملت أعمالاً طيبة، شعرتَ بشأن لك عند الله لا يعرفه إلا من ذاقه، وشعرت بطمأنينة عجيبة، لا قلق ولا خوف في حياتك، ولا حقد ولا شعور بالحرمان، هذه مشاعر الناس الساحقة لهم، أنت في منجاة منها، هذه بعض الكوثر، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

إحساس المؤمن أن له عند الله شأناً:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

هذا المقعد، أنت مؤمن، مطيع لله عز وجل، تؤثر جانب الله، لا تعصي الله، محب لله، قائم على أمر الله، هذا الشعور وحده كوثر، أنت لك نصيب من هذه الآية، ولكن:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

* * *

المؤمن موعود من الله عز وجل بعطاء لا حدود له :

إنّ كل آية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام فللمؤمن منها نصيب بقدر إيمانه، واستقامته، وعمله الصالح، وبقدر إقباله وورعه، وبقدر زهده وحبه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

أحد الصحابة قرأ هذه الآية في قيام الليل حتى أذان الفجر، وهو يعيدها ولم يشبع منها:

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)

[سورة الكهف: 102]

هذا الكوثر، أنت مؤمن موعود من الله عز وجل بعطاء لا حدود له، يبدأ في الدنيا، فلا تقل: هو بعد الموت، وهذا يطول، بل يبدأ في الدنيا، لكنْ لمن؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف]

هكذا قال رسول الله، هو الآن في الجنة، والمؤمن في جنة، لو اطلعت على قلب المؤمن لرأيت فيه سعادة لو وزعت على أشقياء الأرض لأسعدتهم، لأنه مع الله.

إذا زار المسلم الحجرة النبوية الشريفة، يقول لك: بكيت نصف ساعة، لماذا بكيت؟ هذا مما فاض من أنوار رسول الله عليك، صار لك صلة به.

الجنة اتصال حقيقي ومباشر بالله عز وجل :

إذا جلس مع رجل ذي مكانة عالية، إيمانه عال، ليس علمه فحسب، يقول لك: شعرت بسرور، وشعرت بنفس متفائلة، ذهب عني الضيق، وانزاح عني القلق، وتلاشى لديّ التشاؤم، وفارقتني السوداوية، ونبتُ الإحساس بالضياع، فماذا صار لك؟ أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكر الله بهم:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

((إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: كثرة تلاوة كتاب الله تعالى، وكثرة الذكر لله عز وجل))

[كنز العمال عن عبد الله بن عمرو]

أنت عندما تصير لك وجهة إلى الله عز وجل تعرف معنى هذا الكلام، فالمؤمن في سعادة في الدنيا، ولو سكن بيتاً ضيقاً، ولو لم يكن له أولاد، ولو كان دخله قليلاً، لكنه في سعادة لأنه موصول بالله عز وجل، موصول بأصل السعادة، فلما يتصل الإنسان بمخلوق أعطاه مسحة من الجمال، أو كان له ابن جميل الصورة، تراه يقول لك: نحن مسرورون به كثيراً، سهرنا إلى الساعة الثانية عشر، فهذا مخلوق له مسحة من الجمال، فكيف إذا اتصلت بصاحب الجمال؟ إذا جلست بمكان على سفح جبل أخضر، والبحر أمامك، والنسيم العليل، فلعلك تقول: واللهِ مثل الجنة، فكيف إذا اتصلت بصاحب الجمال، مبدع المكان والجمال؟

الإنسان في الدنيا يتصل بمخلوقات الله عز وجل، التي أسبغ الله عليها مسحة من جماله، فيظن أنه قد سعد بها، لكن الجنة اتصال حقيقي ومباشر بالله عز وجل، ينظر المؤمن إلى الله عز وجل في الجنة نظرة يغيب بها خمسين ألف سنة من نشوتها، ففي بقلب أهل الجنة سرور لا يعلمه إلا الله إلى الأبد، لا خوف، ولا حزن، ولا قلق، ولا نقص يعتريه، ولا شيء يبعث فيهم الهم والحزن.

إرضاء الله والنبي واحد فهما شيئان يلتقيان في شيء :

قال تعالى:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

[سورة الزمر: 73]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ المقطوع من هو؟ من أبغض النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا أبغضه؟ لأنه أبغض الله سبحانه وتعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 62]

هذه آية ورد سياقها على خلاف اللغة، السياق النحوي يقتضي أن تكون: والله ورسوله أحق أن يرضوهما، لأنه مثنى، الله قال: يرضوه، وهذا من إعجاز هذه الآية، لأن إرضاء النبي عليه الصلاة والسلام هو إرضاء لله، وإرضاء الله عز وجل هو عين إرضاء النبي، وإرضاء الله والنبي واحد، فهما شيئان يلتقيان في شيء.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 62]

ليس بين الخلق وبين الله قرابة إلا طاعتهم لله عز وجل فالقرابة هي الطاعة :

قال تعالى:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ هذا الذي أبغض النبي عليه الصلاة والسلام لماذا أبغضه؟ لأنه أبغض الله سبحانه وتعالى. أحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحِبوني بحب الله، وأحِبوا آل بيتي بحبي، قيل: من هم آل البيت؟ قال: كل تقي من آل البيت، أنا منسوب، ما نسبتك؟ ثمانية عشر جداً، أنا أقصر منك، أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، انتهت، ليس ثمة مبدأ أحلى من الإسلام فلا تفرقة، والخلق كلهم عيال الله، والناس سواسية كأسنان المشط، قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم لله عز وجل، القرابة هي الطاعة:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

أين أبو لهب؟ أين ذكره؟ قُطع ذكره، وأصبح في الأذلّين:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

[سورة المجادلة: 20]

العاقبة للمؤمن :

أين أبو جهل؟ هؤلاء الذين كذبوا النبي، هؤلاء الذين عادوه، هؤلاء الذين تآمروا عليه، أين هم الآن؟ في أسفل سافلين، لمن العاقبة؟ واللهِ الذي لا إله إلا هو، آية كلما أقرأها يقشعر بدني منها:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

هذه هي، العاقبة للمؤمن، الكافر يصول ويجول وينقصم، أما المؤمن فله العاقبة في الدنيا والآخرة، في الدنيا ترى حياته مباركة؛ زواجه مبارك، وفي بيته، وفي مستقبله، وفي خريف عمره، يقضي خريف

عمره كأجمل أيام حياته، يزداد عقلاً، ويزداد حلماً، يزداد إقبالاً ومعرفة بالله عز وجل، ويزداد شأناً، المؤمن خطه البياني صاعد، ولا يقف ولا ينحني ولا ينزل أبداً، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، ويبقى الخط صاعداً. إذا أخذت خطاً بيانياً لمؤمن فالموت نقطة عليه، وهو صاعد ولا ينزل أبداً، أما غير المؤمن فقد يكون خطه البياني صاعداً صعوداً حاداً، ثم يهوي إلى الأسفل وإلى الحضيض، قال تعالى:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

الذين عادوا الدين أين هم؟ الذين حاربوا الله ورسوله أين هم؟ الذين أرادوا أن يطفئوا كلمة الله أين هم؟ في القبور يعذبون، والمؤمنون في روضات الجنات، لذلك:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

الناس أحد رجلين برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيِّن على الله :

هذه يجب أن تبقى في ذهنك أبداً، العاقبة لك أيها المؤمن في الدنيا والآخرة، حياتك غالية على الله عز وجل، الناس أحد رجلين؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله، فحياتك غالية على الله، وزواجك غالٍ على الله، فينتقي لك الزوجة المناسبة التي تسعدك في الدنيا، وتعينك على أمر دينك، وينتقي لك أولاداً إما أن ترقى بتربيتهم، وإما أن تسعد بهم، في الحالتين، إذا لم يكونوا كما تريد ترقى بتربيتهم، وإذا كانوا على ما يرام تسعد بهم، وقد ترقى بهم ثم تسعد بهم، والله أعلم.

ينتقي لك عملاً شريفاً، بدخل حلال نظيف، وله مكان عالٍ عند الناس، فإذا عرفته عرفك فأكرمك، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك فيما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

هو المقطوع، والأغرب من ذلك سيدنا عكرمة من نسل أبي جهل، أليس كذلك؟ أحبَّ النبي، وأخلص له وباع نفسه في الحق، رغم أنه من نسل هذا العدو الماكر، فابنه تبع النبي، وكره أباه، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كريماً، قال:

((جاءكم عكرمة مسلماً فإياكم أن تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

[كنز العمال عن عبد الله بن الزبير]

إكراماً لابنه نهى أصحابه عن سب أبيه، أبي جهل، وقال: سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، أمية بن خلف، أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، هؤلاء الصناديد الذين كفروا وعارضوا وحاربوا وائتمروا، وعاكسوا وعطّلوا عقولهم، أين هم؟ الإسلام في الأوج، القافلة تسير والكلاب تعوي، وما ضر السحاب نباح الكلاب، السحاب في السماء فلو أن الكلاب نبحت ساعات طويلة، فالسحاب هو السحاب لا يتوقف سيره، والإسلام هكذا، إذا أردت أن تعارضه كأنك تصب الزيت على النار يزداد تأججاً واتقاداً وقوةً وصلابة، فلذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

مقطوع، مقطوع الخير، مقطوع الذكر، التاريخ يطويهم، يهملهم، يحتقرهم، والتاريخ حكم عدل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكافرون 109-الدرس (1-1): تفسير الآيآت: 1 -6 التمايز. .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

تعْريف الكُفار :

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة الكافِرون، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

قد يتساءل بعضُ الناس عن سِرِّ هذا التَّكْرار؟ وقد يبْدو لأوّل وهْلة أنَّهُ تَكرار مع أنَّهُ ليس في كتاب الله سبحانه وتعالى تَكْرار، فلِكُلِّ آيةٍ معْنى، ولو دقَّقْنا في الفُروق الدقيقة بين هذه الآيات المُتماثِلَة في الظاهر، لَوَجَدْنا هناك فُروقاً تقتضي معانيَ مُتغايِرَة، على كُلٍّ قبل الحديث عن التَّكْرار فلا بدَّ من تعْريف الكُفار قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

أما كلمة (قُل) فماذا تعْني؟ أحْياناً يُصْدِرُ مُديرُ مُؤَسَّسة قراراً فَيَكون في مُقَدّمة هذا القرار: إنَّ مدير مُؤَسَّسة كذا بناءً على كذا وكذا يُقَرِّر ما يلي؛ هذا القرار صادِر عن هذه المؤسَّسة ومُديرها، أحْياناً يأتي قرار من رئيس الوُزراء، مُدير هذه المؤسَّسة لا يقول ولا يفْعل شيئاً إلا أنَّه يُحيل هذا القرار للتعْميم، فهذا من مُسْتوى أعْلى، فما سَيَقولُه النبي عليه الصلاة والسلام في شأن الكُفار ليس من عِنْده؛ هذا مِن قِبَل الله وهو من أعلى مصْدر وهو الخالق.

الذي سَيَأتي في هذه السورة ليْس من عند رسول الله إنَّهُ من عند الله سبحانه :

كَلِمَة (قُلْ) في قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

وفي قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1]

هذه السُّوَرَ الأخيرة التي تُفْتَتَحُ بـ (قُل) أيْ هذه لَيْسَت من عِنْدك، إنما هي من عندي، فَشَتَان بين أنْ يصدر قرارٌ من مدير المؤسَّسة، وبين أنْ يأتي قرار من أعلى مصْدر في الدوْلة، حينها ليس على المدير

إلا أنْ يُعَمِّمَ هذا القرار، ويُبَلِّغُه من يلْزَم، لكن حينما نقول: نُحيلُ إليكم مَرْسوم رئيس الوُزراء، أصبح هناك وضْعٌ ثانٍ أكبر مما يُتَوَهَّم – طبْعاً هذه الأمْثِلَة للتَّوْضيح – فهذا الذي سَيَأتي في هذه السورة ليْس من عند رسول الله؛ إنَّهُ من عند الله سبحانه وتعالى، وما مُهِمَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام إلا التبْليغ، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

ما معنى كلمة الكافر؟ كلمةُ كَفَرَ؛ مِن معانيها الكَفْرُ، أيْ الغِطاء، والكُفْر الإعْراض، فالإنسان إذا كان في عمى عن حقيقة ما فهو كافِرٌ بها، فإذا غفل الإنسان عن نِعَم الله فهو كافِرٌ بها، وإذا أدْبر واسْتَكبر، وإذا ولى ظَهْرَهُ للدنيا، وأعْرض عن الله عز وجل فهو كافر، هناك من يكْفر من الخلق بالله خالقاً، وقليل ما هم، وهناك من يكْفر برَبِّ العالمين؛ يكْفُر بتَرْبِيَتِه، لا يرى أنَّ الله سبحانه وتعالى يُمِدُّ كُلَّ مخْلوقٍ بما يحْتاج إليه؛ من طعامٍ وشرابٍ وهواءٍ، وتوفير الحرارة والرطوبة وأنواع المعادن وأشْباهها، وأنواع الفيتامينات، والكائِنات الحَيَّة، والأمْطار والسَّحاب؛ هذا كُلُّهُ تَرْبِيَة الله سبحانه وتعالى، خَلَقَنا وخلَق هذا الجَوَّ المُناسب، وخلق الحرارة المُناسِبَة، وخلق الهواء والماء؛ كُلُّ هذا من باب التَّرْبِيَة، لذلك هناك من يكْفر بالله مُرَبِّياً يرى أنَّ الحياة تجْري هكذا وحْدها، وأنَّ الإنسان يعْمل ويكْسب الطعام ويأكل، وحينما يغْفل الإنسان عن ترْبِيَة الله عز وجل فَهُوَ كافِرٌ بها.

الكُفْر هو الإعْراض :

هناك من يكْفر بالله مُسَيِّراً وإلهاً، فلا يرى أنَّ الأمور بيَدِه، وأنَّهُ لا حركة ولا سَكَنَة، ولا عطاء ولا منْع، ولا رِفْعَة ولا خفْض ولا رزْقَ إلا بيَد الله سبحانه وتعالى، لا يرى ذلك! إذاً هناك كفْرٌ بالألوهِيَّة، وهناك كُفْر بأسْماء الله الحُسْنى، فقد يُعايَن بعض الأخْبار السَيِّئة؛ كوارث وفيضانات ومجاعات في العالم؛ تراهُ يشْمَئِزُّ قائِلاً: إنَّ الحياة كُلُّها قسْوة وشقاء، والأغْنِياءُ وَحْدَهُم السُّعداء، والفقراء مسْحوقون؛ فهذا كُفْرٌ بأسْماء الله الحُسْنى، وكُفْر بحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِه وعدالَتِهِ، فالكُفْر أنْ تكون في عَمًى عن حقيقةٍ ما، فإذا كان شيء أمامي فإما أنْ أضَعَ بيني وبينه سِتاراً فأنا لا أراه وإما أنْ أنْصَرِفَ عنه فأنا لا أراه، فإما أنْ تكون الغشاوةُ سَبَب الكُفْر وإما أن يكون التَوَلِّي سبب الكُفْر، وعلى كُلٍّ يُخْطِئ من يظُنّ أنَّ الكافر هو الذي يُنكِرُ وُجود الله سبحانه وتعالى! ذلك هو المُلْحِد، فالإلْحادُ إنْكارُ وُجود الله، فهناك إلْحادٌ بوُجود الله، وهناك إلْحادٌ في أسْمائه، وهناك إلْحادٌ بتَصَرُّفاته، فهناك مَن يقول: الإنسان خالق أفْعاله، كالمُعْتزلة الذين يقولون: الإنسان خالق أفْعاله، هذا إلْحادٌ في تَصَرُّفاته، فلْنَدَع الإلْحاد جانِباً، فالكُفْرُ إعْراض، لِنَضْرب مَثَلاً، قد يكون الطالبُ في الصَفّ، وأمامه مُدَرِّس ملء السَّمْع والبصر، إنْ تلَهى عن دَرْسِه، وشُغَل عن

شَرْحه، والتَفَتَ إلى أشْياء سخيفة، مُعْرِضاً عن عِلْمِهِ، فهذا كافرٌ بِمُدَرِّسِه، مع أنَّهُ يملأُ سمْعَهُ وبصرهُ، فالكُفْر هو الإعْراض، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

يُنْفِقون أموالهم، وهم يُصَلُّون، وقد كفروا بالله ورسوله.

سورة الكافرون هي سورة حَسْمٍ :

الكُفْر تضيقُ معانيه حتى يُظَنَّ أنَّ الكافر هو المُلْحِد، وتَتَّسِعُ مَدْلولاته حتى يشْمل كُلَّ منافق، قال تعالى:

(الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة التوبة: 67]

المنافقُ يُصَلي ويصوم ويَحُجّ ويُزَكي، لأنَّهُ أعرض عن الله عز وجل واشْترى بآياته ثَمَناً قليلاً، وأدار ظَهْرهُ للدِّين، والْتَفَتَ للدنيا فجعلها أكبر هَمِّهِ، ومَبْلَغَ عِلْمِه، فمن أصْبح وأكبر هَمِّهِ الدنيا، جَعَلَ الله الفقْر بين عَيْنَيْه، وشَتَّتَ عليه شَمْلَهُ، ولم يُؤْتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصْبح وأكبر هَمِّه الآخرة جعل الله غِناهُ في قلبِهِ، وجمع عليه شَمْلَهُ وأتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَة، نعوذ بالله من الكفر وأسبابه، فالكُفْر البُعْدُ عن الله عز وجل، والإعْراضُ عنه تعالى، والكُفْر الالتفاتُ إلى الدنيا، وأنْ تكون الدنيا مالِئَةَ قلبك، وشاغِلَةَ بالك، هذا كُلُّهُ من معاني الكُفْر، فالكافرون لا يلْتَقون مع المؤمنين والحلُّ الوَسَط مُنعدم! لا وجود لأنْصاف الحُلول في الإسلام، والسَّيْر إلى نِصْف الطريق بهَذه الكلمات الحديثة، هذا لا مكان له في الإسلام، فالكُفْرُ هو الكُفْر، والإيمان هو الإيمان، وهو لا يلْتَقي مع الإيمان، فلا ترْقيع ولا تطْعيم ولا تداخل ولا حلَّ وسَط ولا لِقاءات ولا تعاوُن، لأنَّ الكافر له طريقتُهُ وتفْكيرهُ وقِيَمُه المُنْحَطَّة، وله شَهْوانِيَّتَهُ ومُيوله الدنيئة، وله مصالِحُه وأنانيَّتَهُ، مُتَعَلِّقٌ بالدنيا ولا يرى سِواها، ولا يعْرِف الأخلاق ولا القِيَم ولا المَعاد، الدنيا عنده هي كُلُّ شيء! فكَيف يلتقي هذا الإنسان بإنْسان آخر يرى الآخرة هي كُلُّ شيء، والدنيا كُلُّها لا تعْدِلُ عند الله جناح بعوضَة، ويرى العَمَل الصالح هو الغِنى الحقيقي، ويرى أنَّ مَحَبَّة الله هي كُلُّ شيء، وأنَّ طاعَتَهُ هي الفَوْز العظيم، يرى أنَّ الحياة مُؤَقَّتة، وأنَّهُ في الدنيا كَعَابِر سبيل أو مُسافر، ويرى أنَّهُ غريب فيها، فهذا الإنسان كيف يلْتقي مع ذاك؟ كيف يلْتقي الصحيح مع المريض؟ لا بد أن يمْرض هذا الصحيح! إذا كان هذا المريضُ مُصاباً بِمَرَض سارٍ، فلا بدّ أن يُعْدِيَهُ، فالله عز وجل جعل الحسْم والمفاصلة، فهذه السورة هي سورة حَسْمٍ، فيا أيها الكفار لا نلْتقي معكم لا من قريبٍ ولا من بعيد، لا في أشْياء صغيرة ولا في أشْياء كبيرة، لا يُمْكن أنْ نتعاون لأنَّ تفاوُتاً كبيراً ومُفارقة

حادَّة بين مُنطلَقاتِنا ومُنطلقاتِهم، وبين أهدافِنا وأهْدافهم، وبين وسائِلِنا ووسائِلِهم، وبين قِيَمِنا وقِيَمِهم، وبين طُموحاتِنا وطُموحاتهم.

العُبودِيَّة لله هي قِمَّةُ الكمال البشري :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

أما العبادة، فقال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

هِيَ عِلَّةُ خلْق الله تعالى للبشر، خلقنا لِنَعْبُدَهُ ولا نعْبده إلا إذا عرفْناه، وإذا عرفناه عبدْناه، وإذا عبدناه سَعِدْنا بِقُرْبه، خلقنا لِيُسْعِدنا، فالعبادة شيء ثمين جداً حتى قال بعضهم: إنَّ أعلى مقامٍ يبْلُغُه الإنسان في الأرض أنْ يكون عَبْداً لله؛ أشْهد أنْ لا إله إلا الله وأشْهد أنَّ محمَّداً عبْده ورسوله، فالعُبودِيَّة لله هي قِمَّةُ الكمال البشري، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

ما معنى هذه الآية؟ يبْدو أنَّ هذا من باب المعاني المُطْلقة، لكِنَّنا إذا أردْنا أن نُقَيِّد هذه السورة بِأسْباب نُزولها، فقد ورد في بعض التفاسير أنَّ المُشْركين جاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام وقالوا له: يا محمَّد، هَلُمَّ فلْنَعْبُد ما تعبد، وتَعْبُد ما نعْبُد! – مُشاركة وأنصاف حُلول – ونَشْتَرِك نحن وأنت في أمْرنا كُلِّه، فإنْ كان الذي جِئْتَ به خيراً مما في أيْدينا شارَكْناك فيه وأخَذْنا بِحَظّنا منه، وإنْ كان الذي بِأيْدينا خيراً مما بِيَدِك كنت قد شَرِكْتنا في أمْرنا، وأخَذْتَ بِحَظّكَ منه، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

إذا أردْنا أن نأخذ هذه السورة كَتَوْجيهٍ إلَيْنا نحن فلا بُدَّ من التمايُز :

إذا أردنا توْجيهَ هذه الآيات بِحَسَبِ نُزولِها، فَهُناك لِقاءٌ تمَّ بين كبار المُشْركين وبين النبي عليه الصلاة والسلام على أن تكون بينهما هُدْنَة وتَعايُشٌ سِلْمي - كما يقولون -نَعْبُد ما تعْبد وتعبدُ ما نعبد! تَوْجيهٌ آخر مما توحي به هذه السورة، أنَّهُ لا يسْتطيعُ الواحدُ منا أنْ يصِلَ إلى الإيمان الحق إلا إذا تَمَيَّزَ عن الكفار، فما دام يعيشُ معهم، ويحْضُر نَدَواتِهم، ويذْهَبُ معهم إلى مُتَنَزَّهاتِهم، ويُعامِلُهم ويُحِبُّهم

ويُحِبُّونه، ويأخُذ منهم ويُعْطونه، ويُشاركُهم بأمواله، ويُزَوِّجُهم ويتَزَوَّجُ منهم، عندئِذٍ لن يكون مؤمناً، فلا بدَّ من التمايُز، ولا بد للمؤمن أن يكون في حيِّزٍ مُسْتَقِلّ، لأنَّ له عاداتُه وقِيَمُهُ وورَعُهُ وطُموحُهُ، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

إذا أردْنا أن نأخذ هذه السورة كَتَوْجيهٍ إليْنا نحن فلا بُدَّ من التمايُز، قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

قد يذهب إنْسانٌ وزَوْجَتُهُ لِيَجْلسَان في مَقْهى حيثُ الغناء والاخْتِلاط ويُقَدَّمُ المَشْروب وزَوْجَتُه مُحَجَّبَة حِجاباً شَرْعِياً! هذا المكان ليس لكما أنت لك مكانٌ آخر قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

هذه السورة فيها تَوْجيهٌ حَيٌّ يَنْبُض بالحياة :

أنت لا يُمْكِنُكَ أنْ تسْتسيغَ هذه الجَلْسَة؛ في السَّهرات والندوات واللّقاءات والولائِم، دُعِيَ أُناسٌ إلى فُندق كبير مُخْتلط، وكلّفهم هذا مليونين، ورواية أخرى نصف مليون، المُهِمّ أنّ بعض الأُسَرٌ ذَهَبَتْ إلى الحفل، فإذا لم تتَمَيَّز عن الكُفار في كُلِّ نمطِ حياتك فأنت منهم؛ بيْتٌ مَكْشوف يُطِلُّ على الجيران؟! أنت مُسْلم فلا بدّ أنْ تضع حِجاباً ساتِراً، وبَيْتُ المُسلم يبْدو واضِحاً ومُسَتَّوَراً ومتميِّزاً، وهذا في عروس مع زوْجَتِه أمام خمسين امرأة، يقول: أحْرَجوني، وخِفْتُ أنْ يظنُّوا بيَّ الظنون! وأنَّ فيَّ عَيْباً، أنا لا أجلسُ على هذا الكُرْسي، وهذه الجِلسَة حرام، هل هذا الذي يفعله الناس دينٌ أم شَرْعٌ مُنَزَّل؟ تقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سُلْطان، لا يبْلغ الإنسان درجة الإيمان حتى يضَع تحت قَدَمِه كُلَّ التقاليد والعادات التي تُخالِفُ الشَّرْع، ضربْتُ هذه الأمثلة لأنَّ بعضُهم يظنُّ أنَّ هذه السورة رَدٌّ من الله تعالى على المُشْركين في مكة فحسب، ولكِنَّها قُرْآن، وتُتْلى إلى آخر الزمان، معنى ذلك فيها تَوْجيهٌ حَيٌّ يَنْبُض بالحياة، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

بعد قليل سوف آتي على التفْصيلات، أما الآن أريد أنْ أصِل إلى أنَّ مِحْور هذه السورة أنَّ الكُفار شيء والمؤمنين شيء آخر، هؤلاء لهم عالم وهؤلاء لهم عالم آخر، وهؤلاء في وادٍ وأولئك في وادٍ آخر، لا يلْتَقِيان؛ فلا تعاوُن ولا تقْريب وجْهات نَظَر، هذه أنْصاف حُلول، وتَرْقيعٌ، وهذا كُلُّهُ مُسْتحيل، إنْ صاحَبْتَهُ خالطَكَ مع زَوْجَتِك على أساس أنَّها مثل أُخْتِه، وهذا زور وبهتان! وإنْ ذهَبْتَ معه إلى النُّزْهة

حَدَّثْكَ عن الأغاني وعن الناس، وإنْ كَلَّمْتَهُ عن الربا قال لك: معْقول مبْلَغُ كهذا لا أضَعُهُ في البنْك! أين تفْكيرُك؟ صَعْبٌ أنْ تُشارك الكافر وأنْ تُزَوِّجَهُ ابْنَتَك، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

لذلك ما على الإنسان المؤمن إلا الاتصال بأهْل الإيمان، ولِيُعامِلْهُم وحْدَهُم، قال تعالى:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 24]

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) و(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) أربعة معانٍ من هذا التَّكْرار :

قولـه تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

1 ـ المعنى الأوَّل تَكْرار التَّعْظيم والتَّهْويل :

المعنى الأوَّل: لا أعبُدُ ما تعْبدون، فلا أعبُد أصْنامكم، فهذا هو المعنى الذي كان قائِماً عند نُزول هذه السورة، وإذا وَسَّعْنا هذا المعنى فَكُلُّ ما يعْبُدُهُ الناس من دون الله في العُصور اللاحِقَة يدْخُل في هذه الآية فقد يعْبدون الدِّرْهَم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَالدِّرْهَم وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

من أجْل ألاّ تنكمش ثِيابَهُ لا يصَلّي حتى يعود مساء إلى البيت! تَعِسَ عَبْدُ الفَرْج، وتعِسَ عبدُ البَطْن، سَواءٌ أكان المعنى الأوَّل، وهو أنَّ هذه الأصْنام؛ اللات والعُزى، ويغوث، ويعوق، ونسْراً التي كانت تُعْبَدُ من دون الله في الجاهِلِيَّة، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وكذلك في الجاهِلِيَّة الثانِيَة أنْ يُعْبَد الدِّرْهم والدينار من دون الله، وأن تُعْبد المرأة من دون الله، الشَّهَوانِيُّون يعْبُدونها أيْ يخْضَعون لها فيما تأمر، قال عليه الصلاة والسلام:

((إذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

إنّ الدِّرْهم والدِّينار يُعْبدان من دون الله، والمرأة في عُصور الشَّهْوة والفِتَن تُعْبد من دون الله، وقد يعْبُدُ بعضُنا بعْضاً، وقد يتَّخِذُ بعضُنا أرْباباً من دون الله، ويَكْفي أنْ ترى أنَّ فُلاناً الفُلاني بِيَدِهِ أمْرُك ورزْقُك وتحْطيمُكَ، فأنت بهذا قد عَبَدْتَهُ وأنت لا تدْري، لذلك قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

لا من الأصْنام القديمة ولا من الشَّهَوات الحديثة، (ما) هنا على قول بعض المُفَسِّرين اسم موصول، أيْ لا أعبُد الذي تعْبدون، وكذا قوله تعالى:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

لا يُعْقَلُ أنْ تعْبدوا ما أعبُدهُ إذْ لو أنَّكم عَبَدْتُموهُ لكَفَّكم عن شَهَواتكم ولسْتُم بتاركيها! أحْياناً يتَكَلَّفُ الإنسان أنْ يُناقِش إنساناً شَهَوانياً، أنا أقول له: لا تُناقِشْهُ، إلههُ شَهْوَته، فلن يَدَعَها من أجلك، بمعنى ذلك أنَّهُ لا يكفُّ عن شَهَواتِهِ كُلِّها، وبالتالي لا ينْضَبط، إذاً:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

فلا يتَحَمَّل هذا المُشْرك أن ينقطع عن بعض شَهَواتِهِ، هذا المعنى الأوَّل.

2 ـ المعْنى الثاني أنَّ نَفْيَ الإمْكانِيَّة أبْلَغُ من نَفْيِ الحَدَث :

المعنى الثاني: قوله تعالى:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

فما الفرق بينهما؟ لا فرق! قال بعض المُفَسِرين: هو التَّكْرار، وهو تَكْرار التَّهْويل والتعظيم، وقال بعضُهم الآخر: (لا أعبُدُ) هذا فِعْلٌ مُضارع، ولا أنا عابِدٌ هذه اسمُ فاعل، وشَتَانَ بين الكلمتين، فإذا قلتَ: لا أعبد، فأنا أنْفي عن نفْسي فِعْل العِبادة، ولكن إذا قلت: ولا (أنا عابد)، فأنا أنْفي عن نفْسي إمْكانِيَّة العِبادة، كأن تقول: فُلانٌ لم يسْرِق، فأنت هنا نَفَيْتَ عنه فِعْلَ السرقة، أما إذا قلتَ: ما هو بِسارِق فقد نَفَيْتَ عنهُ إمْكانِيَّة السَّرِقة، فلا يُعْقَلُ أنْ يسرِق، فاسمُ الفاعل أشَدُّ في النَّفْي من الفِعْل المُضارع، فله معنى الاسْتِمْرار، مثلاً أنا أكتب، يُمْكن أنْ أكْتُبَ مَرَّةً في حياتي، فيُقال: أنا أكتُب، فعل مُضارع، أما أنا كاتب، فهيَ تعْني أنَّ مِهْنتي الكِتابة، فربنا عز وجل قال:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وفي الثانيَة:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

فلا أعبد آلِهَتَكم، وليس عندي إمْكانٌ إطْلاقاً أنْ أعْبُدها، لا أعبُدها ولن أعْبُدها! فالإمْكانِيَّة مُنْعَدِمة، فالأوَّل نَفَيْنا به الفِعْل، وفي الثاني نَفَيْنا الإمْكانِيَّة؛ هذا معْنى آخر من معاني التَّكْرار.

3 ـ المعنى الثالث لا أعبدُ أصْنامكم ولا أتعبّد بطريقتِكم :

المعْنى الثالث: قوله تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وقوله:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

(ما) الأولى اسم موصول، أيْ لا أعبدُ الذي تعْبدون، و(ما) الثانِيَة مَصْدَرِيَّة، أيْ ولا أنا عابدٌ عبادَتَكم، فكيف أصبح المعنى؟ أيْ: أنا لا أعبد الذي تعْبدونه، وليْسَتْ عبادَتي كَعِبادَتِكم؛ فلماذا وكيف؟! عبادتي فيها صِدْقٌ وإخْلاص، أما عِبادتكم ففيها الشِّرْك والنِّفاق، نَفَيْنا أنْ نعبدَ ما يعْبدون، ونَفَيْنا أنْ نعبد آلِهَتَهم كَعِبادَتِهم بإشْراكٍ ونِفاقٍ ودَجَلٍ، وما سِوى ذلك.

4 ـ المعنى الرابع لا أعبُدها الآن ولن أعْبُدها في المُسْتَقْبل :

وهناك معنى رابع: وهو قوله تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

إنّ أكثر الناس إذا نظروا إلى شَخْصٍ تَدَيَّن يقولون: دَعْهُ بعد سَنَتَيْن يعود إلى ما كان عليه! لا يعرفون أنَّهُ سَيَزْداد تَدَيّناً، وأكثر الناس إذا وَجَدوا شَخْصاً تَدَيَّن وحَرَّرَ دَخْلَهُ، وحضر مجالس العِلم، والتَزَمَ بالشَّرْع يقولون لك: هذا ثَوَران عاطفي، وسَيَعود إلى ما كان عليه! والحياة سَتَجُرُّهُ إلى المتاعب، فهذا هو المعنى الرابع، الآن:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وإن كنتم تطْمَعون أنْ أعبُدَ آلِهَتَكم في المُسْتَقْبل فاطْمَئِنوا من الآن فلن أعْبُدَها، أصْبَحَ لدينا أربعة معانٍ من هذا التَّكْرار؛ الأوَّل تَكْرار التَّعْظيم والتَّهْويل، والمعْنى الثاني: أنَّ نَفْيَ الإمْكانِيَّة أبْلَغُ من نَفْي الحَدَث؛ إنْ قلتَ: فلان لم يسْرق، وفلان ليس بسَارِق، والمعنى الثالث: لا أعبدُ أصْنامكم، ولا أتعبّد بطَريقَتِكم، فَطَريقَتي فيها إخْلاص، وطريقتِكم فيها نِفاق، والمعنى الرابع: لا أعبُدها الآن، ولن أعْبُدها في المُسْتَقْبل،

فأين هو التَّكرار؟! (ما) تَخْتَلِفُ؛ ففي الأولى مَوْصولة بمَعْنى الذي، والثانِيَة مَصْدَرِيَّة؛ ولا أنا عابِدٌ عِبادتكم، أيْ طريقَتَكم في العِبادة، فثمّة فرقٌ بين أن تكون (ما) اسم موصول، وبين أنْ تكون مَصْدَرِيَّة، وثمة فَرْقٌ بين الفعل المضارع (أعْبُد) وبين اسم الفاعل (عابِد)، والنَّفْيُ بالاسم أبْلَغ من النَّفْي بالفِعْل، وفَرْقٌ بين الحال والاسْتِقْبال، وتَكْرار تعْظيم، وهذا هو وَجْهُ تَكْرار هذه الآية مَرَّتَيْن، قال تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وقوله تعالى:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

ما دام الكافر قد خَطَّ طريقه نحو الشَّهوات

فهو لن يعْبُد الله عز وجل ولن يُخْلِصَ له :

ثمَّ قال تعالى:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

ما دام الكافر قد خَطَّ طريقه نحو الشَّهوات، وانْغَمَس فيها إلى قِمَّة رأسِهِ، وأصَرَّ عليها، وجعلها أكبر هَمِّه ومَبْلَغَ علمه، وقاتل من أجْلِها، وقد يُقْتَلُ المرء في سبيل شَهْوَتِه، فما دام كذلك فهذا لن يعْبُد الله عز وجل، ولن يأتمِرَ بأمْره، ولن ينْتَهيَ بنَهْيه، ولن يسْتقيم على أمره، ولن يُخْلِصَ له، ثمَّ قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

فلا بدَّ من التمايز، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 57]

الحَلُّ الوَسَط لا وجود له ولا بدَّ لنا من التَّمَايز :

الحَلُّ الوَسَط لا وجود له، فلا بدَّ لك أنْ تتَمَيَّز، فإذا كان للمرْء أصْحاب من أصْحاب الجاهِلِيَّة فَعَلَيْه أنْ يقْطعهم واحداً واحداً، فإذا بقِيَ على مَوَدَّتِهم فأغْلب الظنّ أنهم سيسْحبونه إلى طرَفِهم، ولا بدَّ أن يسْحبوه، يقولون لك: لا زلتَ صغيراً، عندما تكْبر اِلْتَزِم، ولم يعلمون أنه مَن بلغ الأربعين ولم يغلب خيْرُهُ شَرَّهُ فلْيَتَجَهَّز إلى النار، ومن شَبَّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيءٍ حُشِرَ عليه.

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فقراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

لذلك من كان صادِقاً في طلَب الحقّ، أنتم تستَمِعون إلى الحقّ، فالاستِماعُ شيء والتَّطْبيق له شيءٌ آخر، الاسْتِماعُ شيء وأن تكون مؤمناً حقاً شيءٌ آخر، العُمْرُ ثمين، هذا الذي يسْتمعُ إلى الحقّ له حِسابٌ خاص، فإذا تَعَلَّمَ عِلماً فهُوَ حُجَّةٌ عليه وليس له، الذي ألاحظه أنَّ الله عز وجل يُعامل هؤلاء الذين يسْتمعون إلى العِلم، ويتَعَلَّمون الحقائق، يُعامِلُهم معامَلَة خاصَّة، ويُعاقِبُهُم عِقاباً أليماً؛ لماذا؟ أنتم تعرفون فكَيْفَ تنْحرفون؟! فهذا الذي يفعل السوء بجَهالة تَوْبَتُهُ سَهْلة، أما هذا الذي يفْعَلُ المعاصي ويُقَصِّر ولا يُطيع الله تعالى؛ وهو يعْرف فهذا عِقابُه عند الله كبير، لذلك:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

فلا بدّ أن تتَمَيَّز! ولا تَقُل: هذه نُزْهَةٌ مُغْرِيَة لن تفوتني! وفيها اخْتِلاط، أنت بهذا أذْهَبْتَ دينك، ومن علامات قِيام الساعة أنَّ الإنسان يُمْسي مؤمناً ويصبح كافراً، لِسَبَبٍ تافِهٍ تجِدُهُ ترك الدِّين، فحبّذا لو قرأ هذه السورة:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

هذه السورة من أجل كُلِّ زمان ومكان فهي تَحضُّ على التمايُز :

حَدَّثني أحدهم أنَّهُ دُعِيَ لِطَعامٍ نفيسٍ، حَفْلَة كبيرة، وكان فيها مَشْروب، فقال: إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين، وما وَجَد أكْلاً يأكُله إلا القليل؛ فهذا وِسامُ شَرَف، وهذا هو المؤمن لا يخْتَلِطُ مع المُشْركين، لا في احْتِفالاتِهم، ولا في مُتَنَزَّهاتِهم، ولا في جَلْساتِهم، ولا في مُزاحِهم، ولا في عاداتِهم، ولا في تقاليدِهم، لقد أصبح المسلمون وللأسَف أشَدَّ تَعَلُّقاً بالأعْياد الأجْنَبِيَّة كَعيد الميلاد، وبالتقاليد الأجْنَبِيَّة، وبأنْماط

الطعام والشراب، فهذه الأصول المُتَّبَعة في كُلِّ المُناسبات أكثر اِلْتِصاقاً بالأجانب منهم بدينهم الحنيف، مع أنَّ كُلَّ هذا حرام! وهناك أمرٌ خطيرٌ جداً؛ من هَوِيَ الكَفَرَة حُشِرَ معهم، ولا ينْفَعُهُ عَمَلُه شيئاً، ولو كان يُصَلّي، لقد أصْبَحَ الناس ينسِبون لأنفسِهم سوء الفَهْم، ويُزَكون الأجانب، قائِلين: هؤلاء يفْهمون، وليسوا كَحالِنا، وانظُر إلى الأبْنِيَة والحدائِق والمِترو، لا بدّ لنا من خمْسين سنة حتى نُصْبِح مِثْلهم، فهذا التعْظيم الكبير للكَفَرة يجْعَلُهُ يُحْشَر معهم، أحْياناً يأتي منْدوب شَرِكَة فَيَطْلُبُ الخَمْر فَيُقَدَّم له حُجّة: إنَّ مصالِحي مرْبوطةٌ معه، أين الدِّين؟! قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان قبل أنْ ينام يقرأ هذه السورة، ويَخْتُمُ نهارَهُ بهذا المَوْقِف، والتَّنَزُّه منهم ومن عاداتِهم الذميمة، وهناك أشْخاصٌ مُعْجبون بالنوادي والصالات الفُلانِيَّة، فَهُناك أماكن فيها أُبَّهة - كما يقولون - ورفاهَة، فهذا ليس لك، الفُنْدق الفُلاني يقدّم لك ثمانين صَحْناً بِثمانين ليرة فحسب! لكن هناك نِساء كاسِيات وعاريات، فهذه السورة من أجل كُلِّ زمان ومكان فهي تَحضُّ على التمايُز، فأنت لك مكانك المُناسب من مُتَنَزَّهات وسَهَراتِك البريئة، ولك حديثك الدّيني، لكَ تَرْتيبات خاصَّة فإياك أنْ تخْلِط هذا بهذا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النصر 110-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 -3 نعي الرسول الكريم. .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه السورة نَعْيُ النبي عليه الصلاة والسلام :

السورة الثانِيَة هي قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

يُرْوى أنَّ سَيِّدنا عمر كان يُعَظِّمُ سيِّدنا ابن عباس وكان غُلاماً، عندنا أربعة عبد الله وكلهم صحابة، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزُّبَيْر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضِيَ الله عنهم:

((وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي أَوْ عَلَى مَنْكِبِي شَكَّ سَعِيدٌ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ))

[أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

مَرَّةً دعا عمر رضي الله عنه كُبَراء القوْم وسألهم عن هذه السورة، ويَبْدو أنَّهم لم يرْتاحوا لِتَعْظيم أمير المؤمنين لابن عباس، وهو فتىً صغير؛ يسْتشيرُهُ ويسْألُهُ في حَضْرَتِهِم، فعاتَبوهُ مَرَّةً فقال لهم: ما تقولون في هذه السورة؟ قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

فقالوا جميعاً: إنَّ الله سبحانه وتعالى يُبَشِّرُ نَبِيَّهُ بالفَتْح والنَّصْر، فقال عمر حينها: قُل يا ابن عَباس؟ فقال: في هذه السورة نَعْيُ النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما أُنْزِلَتْ عليه هذه السورة شَعَر بِدُنُوِّ أجله :

يُرْوى أنَّ سيِّدنا عمر بن عبد العزيز دخل عليه وَفْدٌ، وكان من الحِجاز، يتَقَدَّمُهُم غُلامٌ لا تزيدُ سِنُّه عن إحْدى عشرة سنة، فَغَضِبَ سيّدنا عمر، وعدَّ هذا إهانَةً له - طبْعاً دخل هذا الغُلام لِيَتَكَلَّمَ عنهم - فقال: اِجْلس أيها الغُلام، ولْيَقُم من هو أكبر منك سِناً، فتَبَسَّمَ هذا الغُلام وقال: أصْلَحَ الله الأمير، المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ؛ قلبِهِ ولِسانِه، فإذا وَهَبَ الله العَبْد لِساناً لافِظاً وقَلْباً حافِظاً فقد اسْتَحَقَّ الكلام، ولو أنَّ الأمْر كما تقول: لَكَان في الأمَّة من هو أحَقُّ منك بهذا المَجْلِس!

ويُرْوى أنَّ أحَدَ الخُلفاء الأمَويِّين دخل عليه وَفْدٌ من البادِيَة يَتَقَدَّمُهُ غُلام، فَغَضِبَ أيْضاً، فقال الأمير لِحاجِبِهِ: ما شاء أحَدٌ أنْ يدْخُل عليَّ إلاّ دخل، حتَّى الصِّبْيان؟! فقال هذا الصَبِيُّ الناشئ: أصْلَحَ الله الأمير، إنَّ دُخولي عليك لم يُنْقِص من قدْرك ولكنَّهُ شَرَّفَني، أيُّها الأمير، أصابتنا ثلاثُ سنين؛ سَنَةٌ أذابَتْ الشَّحْم، وسَنَةٌ أكَلَت اللَّحْم، وسنةٌ دَقَّتِ العَظْم، وفي أيْديكم أمْوال، فإنْ كانت لله فعلامَ تَحْبِسونها عن عِبادِهِ، وإنْ كانت لكم فَتَصَدَّقوا بها علينا، وإنْ كانت لنا فعلامَ تمْنَعوننا إياها، فقال هذا الخليفة - وأظنُّه هشام بن عبد الملك -: ما ترك لنا هذا الغُلام في واحِدَةٍ عُذْراً، فقوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

لقد انْتَهت مُهِمَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام، والعظماء لا يأكلون لِيَشْبَعوا مثلنا، بل يعيشون لِرسالَةٍ عظيمة، فإذا أدَّوْها انْتَهَتْ مُهِمَّتُهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما أُنْزِلَتْ عليه هذه السورة شَعَر بِدُنُوِّ أجله، فأسَرَّ إلى فاطِمة الزهْراء وقال لها: لقد دَنَتْ مَنِيَّتي، فَبَكَتْ، فقال لها: أنتِ أوَّلُ من يلْحَقُ بي فَضَحِكَتْ!

تَوَفّى عليه الصلاة والسلام ولم يُبْقِ من الدنيا شيئاً :

النبي الكريم هكذا فسَّر لنا هذه السورة؛ وهو أنَّ أجَلَهُ قد دنا واقْتَرَب، وحان مَوْعِدُ اللّقاء، لذلك:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أبي بَكْرٍ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فعَلِمَ هذا الصِدِّيق أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يَنْعى نَفْسَهُ، يَرْوي التاريخ أنَّ رجُلاً وقف وقال له: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم! قال: أين ومتى؟ فقال: في الوَقْت الفُلاني، كَلَّفْتني أن أُعْطِيَها لِفَقير، فقال له: يا فُلان أعْطِهِ هذه الدراهم، ثمَّ قام واحِدٌ ممنْ يسْمع هذا الكلام وقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنِّي مُنافقٌ كذاب! فَوَقَفَ عُمَرُ غاضِباً، وقال: وَيْحَكَ يا رَجُل فَضَحْتَ نفسَكَ، فقال عليه الصلاة والسلام: دعْه يا عمر، فإنَّ فُضوح الدنيا خير من فُضوح الآخرة، فاللَّهُمَّ ألْهِمْهُ الصِّدْق والرشاد،

ولقد تَوَفى عليه الصلاة والسلام ولم يُبْقِ من الدنيا شيئاً، وقال له مرة وقد جاء بكل ماله: يا أبا بكر، ماذا أبْقَيْتَ لِنَفْسِك فقال: الله ورسوله - هذه أكبر ذخيرة - قال تعالى:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 197]

أما الآن فتجد المرءَ عند الوفاة ترك أموالاً منقولة وغير منقولة ودولارات وسيارات وبُيوتاً، وأين هو؟! في القَبْر.

إذا عَزَوْتَ النصرْ لِغَيْر الله فأنت مُشْرك :

(إذا) في قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

(إذا) أداةُ شَرْط تُفيدُ تَحَقُّقَ الوُقوع، أيْ إنَّ نصرْ الله تعالى والفتح لا مَحَالَة آتٍ، أما إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 6]

فهذا مع استعمال (إنْ) قد يأتي، وربما لا يأتي، أما قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

فلا بدّ أن يأتيَ نصرْ ُ الله والفَتْح، الآن قوله:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

إذا عَزَوْتَ النصرْ لِغَيْر الله فأنت مُشْرك، قال تعالى:

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[سورة الروم: 1-3]

عَزْوُ النَّصرْ في لحْظةٍ من لحَظات حَياتِك إلى غير الله فهذا هو الشِّرْك بعينه، فهو الذي ينْصر، وهو الذي يخْذل.

الله تعالى وَعَدنا بالاستِخلاف والتمكين في الأرض والأمن شَرْط عِبادَتِه :

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

لكن نصْرُهُ ليس جُزافاً قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

[سورة محمد: 7]

عَمَلِيَّة مَشْروطة، فإنْ نَصَرْتُموهُ بِطاعَتِكم له، نَصَرَكم النصر الحقيقي، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة النور: 55]

الاسْتِخْلاف والتمْكينُ في الأرض، وعدمُ الخوف والشُّعور بالأمن، ثلاثة وُعودٍ قطعها الله على نفسه إنْ عَبَدْناه، فإنْ لم نَعْبُدْهُ فهُو تعالى في حِلٍّ من هذه الوُعود الثلاثة، فالله تعالى وَعَدنا بالاسْتِخلاف والتمْكين في الأرض، والأمن شَرْطَ عِبادَتِه.

الإيمان بعد النَّصْر سَهْلٌ وأجْرُهُ قليل لكنَّهُ في زَمَن العُسْرة بُطولة :

هذا النَّصْر هو نصْرُ الله، أما قولهُ: والفتْح، الإنسان قد ينْتَصِر لِأيام ثمَّ ينْهَزِم، أما نصْرُ الله عز وجل فهُوَ مُسْتَقِرّ، فالفتْح هو اسْتِقْرار النَّصْر، فأنت قد تتقدَّم وتفْتَحُ هذه البِلاد، وكلمة (فَتْح) تعْني فَتْح مكَّة بِكُلِّ تأكيد، لكنَّها مُطْلَقَة، قال تعالى:

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح: 3]

أما اليهود فلا ينْتَصِرون إلا بِحَبْلٍ من الناس، فلا بدّ لهم من دَعْم ومَعونات، لكِنَّ الله سبحانه وتعالى نَصْرُهُ مُؤَزَّرٌ، وعجيب، وعزيز، لا خِذْلان بعْدهُ. قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

في الحقيقة من السَّهْل أنْ تُؤْمِن إذا عَمَّ الإسْلام الأرض، وإذا أصبْح الإسْلام قوِياً، لكنَّ البُطولة أن تؤمن في ساعة العُسْرة، فأجْرُ الذي يُؤْمن وكُلُّ العالم ضِدَّ الإسْلام؛ هذا له أجْرٌ كبيرٌ، فَمَتى أقْبل الناسُ عليه؟ (إذا جاء نصْرُ الله والفتْح)، عندها ترى الناس يدْخُلون في دين الله أفْواجاً، لذلك بعض المذاهب الفِكْرِيَّة حينما كانت ضعيفة، فالذين اعْتَنقوها حالَ ضعفها وفي بدايتها كانت لهم مكانة كُبْرى، فإذا أصْبَحَتْ قويَّة فإنَّ الذين يدْخُلون فيها لا قيمة لهم، فاعْتِناقُ المذْهب وهو في ضَعْفِهِ؛ هذا إيمانٌ كبير، لذلك هؤلاء الذين اتَّبعوا النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العُسْرة؛ كسيّدنا الصدِّيق لهم مكانتهم في الإسلام، فأبو

سُفْيان أَسْلم ودخل الإسْلام ووقف على باب عُمَر ساعات طويلة فلم يُؤْذَن له، وبِلال وصُهَيْب يدْخُلان بلا اسْتِئذان فَعَظُمَ ذلك عنده، وعاتَبَ عمر بن الخطاب، وقال: زعيمُ قُرَيْش أبو سُفيان يقِفُ في بابك ساعاتٍ طِوالاً، وبِلال وصُهَيْب يدْخُلان بلا اسْتِئذان! فقال له كلمة واحدة: وهل أنت مثلُهما؟! هؤلاء اتَّبَعوه في ساعة العُسْرة، واضْطَهَدَهُم المُشْركون وعذَّبوهم، وكانوا يَضَعون الصَّخْرة على صدْر بلال ويقول: أحَدٌ أحد، جاء الصدِّيق واشْتراهُ من أُمَيَّة بن خَلَف، وقال له: والله لو دفَعْتَ به درْهما لَبِعْتُكَهُ، فقال له الصدِّيق: أما إنك لو طلبْتَ مئة ألف لَأعْطَيْتُكَها! نَقَدَهُ الثَّمَن، ووضَعَ يدهُ تحت إبْطِهِ؛ رَمْزَ الأخوة في الدِّين، مع أن بلالاً عبدٌ حَبَشي، وسيّدنا الصدِّيق من كُبراء قُرَيْش، ورغم هذا قال: هذا أخي في الله، فكان الصحابة إذا ذكروا الصدِّيق قالوا: هو سيِّدُنا وأعْتَقَ سَيِّدنا، وكان سيدنا عمر يخْرج إلى ظاهر المدينة لاسْتِقْبال بلالِ الحَبَشي إذا قدِم من سفر، لذلك فإنّ الإيمان بعد النَّصْر سَهْلٌ، وأجْرُهُ قليل، لكنَّهُ في زَمَن العُسْرة بُطولة.

إنْ أصبح المعْروف منكراً والمنكر معْروفاً فهذا زَمَنٌ صَعْبٌ:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَتَى إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْمَقْبَرَةِ فَقالَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا أخواننا، قالَ: فقالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا بإخوانك؟ قالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابي وَأخواني الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فقالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ مِنْ أُمَّتِكَ بَعْدُ؟ قالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ بُهْمٍ دُهْمٍ أَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا؟ قالُوا: بَلَى، قالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، ثُمَّ قالَ: أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً سُحقاً))

[أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

كيفَ بكم إنْ أصبح المعْروف منكراً والمنكر معْروفاً، هذا زَمَنٌ صَعْبٌ، فلذلك قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نبيهاً، فلما انتهى المَجْلس قال: من الرجل؟ فقال عَدِيُّ بن حاتم - ملِكٌ من ملوك الغساسِنَة الشامِيِّين - فانْطَلق به ورَحَّب به إكْراماً له، وفي الطريق اسْتَوْقَفَتْهُ امْرأةٌ ضعيفة، فَوَقَفَ معها كثيراً يُكَلِّمُها في حاجَتِها، فقُلت في نفسي - القائل عديّ -: ما هذا بِأمْر ملِك! فلما دَخَلْتُ بيْتَهُ، دَفَعَ إليَّ وِسادَةً من أدَمٍ مَحْشُوَّةً ليفاً، ويبْدو أنَّه ليس في بيْتِهِ غيرها! وقال: اجْلس عليها، فقلتُ: بل أنت، فقال: بل أنت، فَجَلَسْتُ عليها وجلس هو على الأرض فقال: إيهِ يا عَدِيَّ بن حاتم، ألَمْ تكُ

رُكوسِياً؟ فقال: بلى، فقال: أوَلَمْ تسِرْ في قَوْمِك بالمِرْباع، فقال: بلى، فقال: فإنَّ ذلك لم يكُن يَحِلُّ لك في دينك! فقال عَدِيّ: حينها علِمْتُ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسل يعْلَمُ ما نجْهَل، ثمَّ قال لي: إيهِ يا عَدِيَّ بن حاتِم لَعَلَّهُ ما يمْنَعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين أنَّك ترى أنَّ المُلْك والسُّلْطان في غَيْرِهم! وأيم الله، لَيوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالمرأة البابِلِيَّة تَحُجُّ البيتَ على بعيرها لا تخاف - من بابل إلى مَكَّة كُلُّها تُصبح للمُسْلمين - ثمَّ قال له: ولعَلَّهُ يمْنَعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين ما ترى من حاجَتِهم - أيْ فُقَراء - وَأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ المال أن يفيضَ فيهم حتى لا يوجد من يأخُذهُ، في عَهْد سيّدنا عمر جيء بالغنائِم، ووُضِعَت على الأرض، ووقف فارسان طويلان وأمْسَكا بَيَدَيْهما رُمْحَيْهما، ورفعا رُمْحَيْهما ورُمْحَ أحدهما كُلُّهُ ذهبٌ وفِضَّة. سيّدنا عمر بن عبد العزيز، في عهْدِهِ جمع الزكاة، وأذاع في الناس: إنَّهُ من كان فقيراً فَلْيَتَقَدَّم لِيَأخذ حاجَتَهُ، فلَم يتَقَدَّم أحد، ثمَّ قال: من كان مُغْرماً فَلْيَتَقَدَّم، فلم يتقدَّم أحدا! فلقد مَرَّ على الأمَّة الإسلامِيَّة حينٌ من الدَّهْر اكْتفى الناس.

ثمَّ قال لِعِديّ: ولعلّ ما يمْنعك من دُخولٍ في هذا الدِّين: ما ترى من كَثْرة عَدُوِّهم- من كُلِّ حدْب وصوب- وَأيْمُ الله، لَيُوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالقُصور البابِلِيَّة مُفَتَّحَة للعَرَب، فقالوا: لقد عاشَ عدِيّ بن حاتِم حتى رأى بابل مُفَتَّحَةً للمُسْلمين، وحتى رأى المرأة تَحُجُّ على بعيرها لا تخاف، وحتى رأى أنَّ المال قد فاض فيهم.

إنْ آمنتَ بالله واقتَنَعْتَ بالإسلام وطَبَّقْتَهُ في زَمَنِ الإسْلام فيه ضعيف فأنت البطل :

حينما يأتي نصْر الله والفتْح فالإيمان بالله سهْلٌ جداً، ولكنَّ البُطولة أنْ تؤمن بالله والأعْداءُ كُثُر، وأن تؤمن بالله والأموال في أيديهم قليلة، وأنَّك ترى الملك والسلطان في غيرهم، إنْ آمنتَ بالله واقْتَنَعْتَ بالإسلام، وطَبَّقْتَهُ في زَمَنِ الإسْلام فيه ضعيف، فأنت البطل:

ليس من يقْطع الطرُق بطلاً إنما من يؤمن بالله البطل

* * *

(إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

قبل أنْ نخرج من هذه الآية:

((روى أحمد في المسند عَنْ جَارٍ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ سَفَرٍ فَجَاءَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُ عَنِ افْتِرَاقِ النَّاسِ وَمَا أَحْدَثُوا فَجَعَلَ جَابِرٌ يَبْكِي ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجاً))

[أحمد عن جابر رضي الله عنه]

ففي رمضان لا ترى من هو صائِم، مُعْظمُهم يأكلون، والمطاعِم مفتوحة، كما دخلوا فيه أفْواجاً يَخْرجون منه أفْواجاً، طبْعاً المُلْهيات والفِتَن والاختِلاط وكَسْب المال الحرام؛ هذا أمْرٌ شاع بين الناس، فإذا شاع الكَسْبُ الحرام والاخْتِلاط فماذا بقِيَ من الدِّين؟ فما هو الانْحِلال؟إنّه كَسْب مالٍ بالحرام، وانْحِلال أخْلاقي، فإذا توافر هذان الوَصْفان ماذا بَقِيَ من الدِّين؟ الصلاة لا قيمة لها، الصِّيام الشَّكْلي لا قيمة له، الحجُّ والعمرة أفرغا من مضمونهما، وأصبح الناس هَمُّهم الدِّرْهم والدِّينار، وهَمُّهم بطونهم، وفروجهم، وشَهواتِهم، قال تعالى:

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المسد 111-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 5 خسران الدنيا والآخرة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

من تصدّى لأهل الحق سيخسر الدنيا والآخرة وهذا هو مصير أعداء الله :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

سورة اليوم سورة المسد، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

الجو العام لهذه السورة يُبيِّن أن الإنسان إذا ضل عن سبيل الله، ونصّب نفسه عدواً لدين الله، وأراد أن يُطفئ نور الله، وتصدى لأهل الحق، وأراد بهم كيداً، فما مصيره في الدنيا؟ وما مصيره في الآخرة؟ مصيره في الآخرة أنه سيصلى ناراً ذات لهب، ومصيره في الدنيا الإخفاق والخسران، فكأن الله سبحانه وتعالى من خلال هذه القصة القصيرة، وهي حدث واحد، حيثما ذكر الله سبحانه وتعالى قصةً أو حدثاً أو ذكر اسماً، فيجب أن نعلم علم اليقين أن هذه القصة ليست مقصودةً بذاتها، وأن هذا الاسم ليس مقصوداً بذاته، إنما المقصود أمثال أبي لهب، الذي انتهى منذ أمد بعيد، لكن كل إنسان تصدى للحق، أو وقف في وجه الإسلام، أو أراد أن يطفئ نور الله، أو تصدى للدعاة إلى الله عز وجل، عاداهم، وأراد بهم كيداً، إنه سيخسر مرتين، سيخسر الدنيا، وسيخسر الآخرة، هذا هو الجو العام، هذا هو مصير أعداء الله.

هذه السورة ذات خصوص وعموم :

المقصد الكبير الثاني في هذه السورة أنه خسر حياته بعد أنْ خسر المعركة، فأبو لهب عمُّ النبي عليه الصلاة والسلام.

أولاً: من تصدى لأهل الحق فخسر الدنيا والآخرة، وفي الأثر: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

قد يسأل سائل، لماذا هذا العداء؟ ما له وللنبي صلى الله عليه وسلم، لمَ ناصبه العداء؟ لمَ وقف في وجه دعوته؟ لِمَ جعل نفسه عقبة كؤوداً في وجه الإسلام؟ لماذا؟

أحدنا قد لا يفهم لماذا يفعل هذا أبو لهب، ولكن أبا لهب يفعل هذا لأنه توهم أن دنياه في خطر، ما دام النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، هكذا توهم، فحفاظاً على دنياه، حفاظاً على ماله، حفاظاً على مكانته الاجتماعية ناصب النبي صلى الله عليه وسلم العداء، وجعل من نفسه ترساً للباطل، وعقبة في طريق الحق، لذلك ربنا عز وجل في سورة قصيرة لا تزيد عن سطرين بيَّن لنا أن كل إنسان يقف موقف أبي لهب يكون مصيره في الدنيا الإخفاق والخسران، ومصيره في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير، فالذي يقرأ القرآن ويظنه كتاب تاريخ فقد ضل ضلالاً مبيناً.

هذه السورة ذات خصوص وعموم، فعلى العموم نحن المقصودون منها، وعلينا أن نتعظ منها، لأن أبا لهب أين أبو لهب؟ طواه الردى، وصار حديثاً، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون: 44]

سبب نزول سورة المسد :

لكن الإنسان ينبغي أن يستنبط من هذه السور القصيرة العبرة، أمّا مناسبة هذه السورة فقد روى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَال:

((لَمَّا نَزَلَتْ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ))

[البخاري عن ابن عباس]

تروي كتب التفسير هذه القصة سبباً لنزول هذه السورة، وتروي الكتب قصة أخرى، وهي أن أبا لهب التقى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا محمد ماذا أُعطى إن آمنت بك، عملية مساومة، قال: كما يُعطى المسلمون، قال: وما لي عليهم من فضل؟ قال: وأي شيء تبغي؟ قال: تباً لهذا الدين حينما أكون أنا وهؤلاء سواء، فنزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

وقيل: حينما كان يجتمع الوفود في مكة للحج، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقف فيهم خطيباً، ويقول: " اشهدوا أنه لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله تفلحوا " وكان أبو لهب يقف وراءه، فحينما ينتهي من قوله يقول له: لا تصدقوه إنه كذاب ساحر، تباً له وتعساً. فنزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

تروي كتب التفسير قصةً رابعة، وهي أن أبا لهب كاد يرمي النبي صلى الله عليه وسلم بحجر، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه وأفشل خطته، ونزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أربعة معان لكلمة (تبت) :

الجو العام لهذه السورة أن كل إنسان تصدى للحق، وأراد إطفاء نور الله، وأراد أن يكيد للمسلمين وللدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فإنه سوف يبوء بالخسران المبين في الدنيا والآخرة. تبَّت بمعنى خسرت، والخسارة مؤلمة، حينما يعقد الإنسان صفقة ويجلبها ويعرضها ويبيعها ويحصل ثمنها خلال سنة، ويجري حسابات دقيقة، ثم يجد نفسه لم يربح منها شيئاً، يشعر بألم لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا إذا لم يربح، فكيف إذا خسر الألوف أو مئات الألوف؟ فكيف لو خسر الملايين؟ كيف لو أخذ ماله كله؟ الشعور بالخسارة شعور مؤلم، ربنا عز وجل يقول: تبت يدا، تبت بمعنى خسرت وبمعنى خابت وبمعنى هلكت، وبمعنى ضلّت، أربعة معان لكلمة تبت:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

بعضهم قال: هذا دعاء عليه من الله سبحانه وتعالى، وبعضهم قال: هذا تقرير، وسواء كان دعاءً أو تقريراً فالخسارة تحققت له.

قد تقول مثلاً: أطعمك الله، وأنت تريد بهذا أن الله قد أطعمك وسقاك وكفاك، هذا تقرير، وقد تقول للسائل: أعطاك الله، وأنت بهذا تريد الدعاء، فبعضهم فسّر (تبت) على أنه دعاء من الله عز وجل، وبعضهم فسرها على أنها تقرير، وكونها تقريراً أرجح لأن الضعيف وحده هو الذي يدعو على خصمه.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

المعنى الأوجه أنه عجز عن تحقيق مراده، هذا الذي يتصدى للسحاب في السماء، ويدعوه أن يقف فهل يقف له؟ شيء مستحيل، هذا دين الله سبحانه وتعالى فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصره، فهل يستطيع إنسان ما مهما علا شأنه وكبرت قوته أن يحول بين الدين وبين البشر، فالمعنى الثاني التقريري أوجه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أي خسر خسراناً مبيناً، وعجز عن تحقيق مراده، والقافلة تسير والكلاب تعوي، الذي يركب سيارة، ويتصدى له كلب في الطريق، هذا الكلب يقفز قفزات سريعة يظن أنه يحول بين هذه السيارة وبين المسير، لكنها تبقى ماضيةً في طريقها، والكلب يعوي ثم لا يلبث أن يسكت، فمعنى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أي إنه عجز عن تحقيق مراده، وفشل إن صَحَّ التعبير، بل إنه أخفق وخسر، خسر هذه المعركة التي تصدى لها، وخسر نفسه، بل خسر شيئين، أولهما خسر هذه المعركة، لقد خاض مع النبي صلى الله عليه وسلم معركة، وأراد أن يعيقه عن نشر هذه الدعوة أراد أن يحول بينه وبين نشر الهدى، لقد خسر هذه المعركة، وثانيهما خسر أيضاً حياته.

يَدَا الإنسان كناية عن الإنسان نفسه هذا من المجاز العقلي نريد الكل ونذكر البعض :

أما كلمة يدا:

(تَبَّتْ يَدَا)

رجل أراد أن يحفّظ القرآن لإنسان بدوي، والبدو يعرفون العربية بالسليقة، ولا يعرفونها بالنحو، فأحب القارئ أن يقطّع آيات السورة إلى أجزاء صغيرة، فقال له: تبت يدا، قال له: تبت يدان، لأن الاسم المثنى إذا أضيف إلى كلمة تحذف النون، فإذا قلت: تبت يدا، فهذه خلاف اللغة، أما تبت يدا أبي لهب فهي الأصح.

(تَبَّتْ يَدَا)

اليدان هنا كناية قرآنية عن الذات:

(بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)

[سورة الحج: 10]

أيْ هذا ما قدَّمتَ أنت:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

[سورة المائدة: 64]

هذه كنايات القرآن الكريم، فقد يكني القرآن الكريم عن الإنسان بيديه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

لأنه يعمل بيديه، ويعطي بيديه، ويبطش بيديه، ويحسن بيديه، فيَدَا الإنسان كناية عن الإنسان نفسه، هذا من المجاز العقلي، نريد الكل ونذكر البعض.

علماء التفسير لهم في سبب تسمية أبي لهب بكنيته مذاهب شتى :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أما أبو لهب فمبدئياً إذا الإنسان نادوه باسمه لا يتأثر، لأن الله عز وجل قال: يا يحيى، يا زكريا، يا عيسى بن مريم، لقد نادى أنبياءه أكثرهم أو كلهم بأسمائهم، وذكر هذا الإنسان الضال المضل بكنيته:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

ولكن علماء التفسير لهم في سبب تسمية أبي لهب بكنيته مذاهب شتى.

أولاً كان اسمه عبد العزى، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينسب العبودية لغيره في كتابه، مستحيل أن يذكر الله سبحانه وتعالى اسماً فيه تُنسب العبودية لغيره، إذاً صُرف النظر عن ذكر اسمه عبد العزى لهذا معنى.

المعنى الآخر أن كنيته كانت أشهر من اسمه، فالمتنبي أشهر من اسمه، والجاحظ كذلك، فكنيةُ أبي لهب أشهر من اسمه، أما لماذا سمي أبا لهب؟ فتروي الكتب أن له وجنتين متألقتين كأنهما لهب في خديه، وهذا دليل الجمال، كان جميلاً، وكان يميل إلى البياض والحمرة، فكان يُكنى أبا لهب، فربنا ذكره بكنيته، وكنيته تتناسب مع مصيره، أبو لهب مصيره إلى اللهب، وأبو لهب سيصلى ناراً ذات لهب، هذا توجيه آخر.

وشيء ثالث، أن الاسم عند العرب أشرف من الكنية، لكننا الآن نحن تواضعنا على أن كلمة أبا فلان أليق من أن تقول له يا فلان.

الأنبياء جميعاً ناداهم الله بأسمائهم إلا النبي عليه الصلاة والسلام :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

[سورة مريم: 7]

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي)

[سورة المائدة: 116]

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

[سورة آل عمران: 144]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

الأنبياء جميعاً ناداهم الله بأسمائهم إلا النبي عليه الصلاة والسلام.

كرَّم الله سيدنا محمداً فلم يخاطبه باسمه بل خاطبه بمهمته وبمقام النبوة والرسالة :

ليس في القرآن كله آية واحدة نادى بها الله سبحانه وتعالى نبيه يا محمد، لكنه ذكره باسمه على سبيل الخبر، أما كيف خاطبه:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

[سورة المائدة: 67]

لقد كرَّم الله عز وجل سيدنا محمداً فلم يخاطبه باسمه، بل خاطبه بمهمته، وبمقام النبوة، وبمقام الرسالة، يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، وبقية الأنبياء جميعاً خوطبوا بأسمائهم، وهذا لا يمنع أن يتحدث الله سبحانه وتعالى عن رسوله باسمه:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

الدنيا هي الفرصة الوحيدة للتعرف إلى الله عز وجل فالدنيا مزرعة الآخرة :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

إذا فهمنا تبت يدا أبي لهب بمعنى الدعاء فتب تفيد التحقُّق، أيْ إنّ الله سبحانه أعطاه مالاً مثلاً، وقد أعطاه مالاً حقّاً، ثم حرمه الله المال وأنْ يسعد به:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

وإذا حملنا الأولى على أنها تقرير، فالثانية على أنه خسر المعركة التي خاضها، وخسر المعركة كلها دنيا وأخرى. أول معنى خسر المعركة التي خاضها مع النبي عليه الصلاة والسلام.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أيْ عجز وفشل وأخفق في تحقيق مراده، هذا المعنى الأول، (وتب) وخسر حياته كلها، خسر الدنيا، وهي أثمن ما عند الإنسان، الإنسان في الدنيا يرقى، وفي الدنيا يتعرف إلى الله، الدنيا هي الفرصة الوحيدة للتعرف إلى الله عز وجل، والفرصة الوحيدة للاستقامة على أمره، وللعمل الصالح، لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة، فلا تلعنوا الدنيا، لماذا؟ لأن الإنسان يرقى في الجنة عن طريق الدنيا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن))

[رواه الديلمي عن ابن مسعود]

يمتطيها للآخرة، بالدنيا يصل إلى الآخرة، والدليل قوله تعالى متحدثاً عن أهل الجنة حينما يدخلونا يقولون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

[سورة الزمر: 74]

لولا الدنيا لما كانت الآخرة، ولولا الدنيا لما كانت الجنة، ولولا أن الله سبحانه وتعالى خلقك في الدنيا وأعطاك فكراً وكوناً لما عرفته، ولولا أنه أعطاك مالاً فأنفقته في طاعته لما ارتقيت إليه، ولولا أنه زرع في نفسك شهوات فكففت عن محارمه لما شعرت أنك منه قريب.

على الإنسان ألا يلعن الدنيا لأن كل سعادته الأبدية تبدأ من الدنيا :

بهذه الشهوات التي أودعها الله فيك ترقى، وبهذا الفكر الذي وهبه الله لك ترقى، وبهذا المال الذي أعطاك الله إياه ترقى، وبهذا الأسلوب أسلوب الزواج وإنجاب الذرية ترقى بأولادك، وترقى بزوجتك، وإن كان لك عمل فأتقنته ترقى، وإذا نصحت المسلمين ترقى، بعتهم سلعاً جيدة بأسعار معتدلة ترقى، صدقتهم ترقى، وضعت لقمة في فم زوجتك ترقى، أدَّبت ولدك ترقى، لاعبت ولدك ترقى، كيفما تحركت رقيْت، إن كنت مؤمناً كيفما تحركت، فهذا كله عمل صالح مسجل في صحيفتك.

يوم القيامة يطّلع الإنسان على أعماله الصالحة، فيرى أن كل حركة وكل سكنة، وكل نظرة، إذا نظر الإنسان إلى أخيه نظرة ود رفعه الله بهذه النظرة، إذا نظر الإنسان إلى والديه ـ نظر فقط ـ نظرة رحمة رفعه الله بهذه النظرة، إذا حنا على زوجته، رفعه الله بهذا الحنو، إذا أطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب، هذا كله في الدنيا، هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض متوقفة على الدنيا، لذلك هذا الذي يلعن الدنيا لا يعرف شيئاً:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا فَقَالَ لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ]

لا تلعن الدنيا، كل سعادتك الأبدية تبدأ من الدنيا، وثمنها الدنيا، والبحث يطول، في الدنيا تتعرف إلى الله، كيف تعرفه، لو لم يخلق لك شمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وأنهاراً وطعاماً وشراباً وفواكه وأزهاراً ونباتات وأشجاراً، كيف تعرفه؟ كيف تعرفه لو لم يخلق لك من صلبك ابناً يشبهك تحبه ويؤنسك؟ كيف

تعرفه لو لم يخلق لك من نفسك زوجة تسكن إليها، وجعل بينك وبينها مودة ورحمة؟ كيف تعرفه؟ لا تعرفه إلا في الدنيا.

أولُ (تَبَّ) خسر المعركة و(تبَّ) الثانية خسر حياته :

كيف تتقرب منه؟ بالدنيا، ببذل المال، بالخوف منه، بالخوف من مال حرام، فبالترفع عن المال الحرام ترقى، وأخذ المال الحلال ترقى به، وإنفاق المال الحلال ترقى به، وغض البصر عن محارم الله ترقى به، والنظر إلى زوجتك ترقى بهذه النظرة، جبرت خاطرها بهذه النظرة، هناك أشخاص لؤماء، يبذلون كل مودتهم لغير زوجاتهم، فإذا دخل البيت صار عبوساً قمطريراً، هؤلاء يحاسبون، هذه مَن لها غيرك؟ لماذا المودة البالغة لأختها؟ لماذا اللطف الشديد لقريباتها؟ لماذا النعومة خارج المنزل والفظاظة والغلظة داخله؟ أبواب الجنة كلها في الدنيا مفتحة، فإذا أتقنت عملك ترقى به، وإذا نصحت المسلمين ترقى، وإذا اعتدلت بالسعر فلم تسهم في رفع الأسعار والتضييق على الناس ترقى، وإذا نفذت وعدك ترقى، وفي كل حركة من حركاتك، وكل سكنة من سكناتك، قال تعالى:

(وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة: 121]

فهذه في الدنيا، أولاً: تَبَّ وخسر أبو لهب المعركة مع رسول الله،، والدعوة انتشرت، والإسلام عمّ الأرض، والنبي صلى الله عليه وسلم رفعه الله إلى أعلى عليين، وسقط أبو لهب في وحل الدنيا، وكان ذكره قميئاً يبعث الاشمئزاز والاحتقار، لقد خسر أبو لهب المعركة مع النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه الخسارة ليست بشيء، إنه خسر دنياه التي هي فرصته الوحيدة لسعادته الأبدية:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أولُ (تَبَّ) خسر المعركة، و(تبَّ) الثانية خسر حياته، فإذا انتقل إلى الدار الآخرة سيصلى ناراً ذات لهب، هذا مصير كل من يعادي الحق، وكل من يضع نفسه ضد الدين أو ضد الهدى الإلهي.

التعبير بالماضي من قِبَلِ الله على شيء لم يحدث بعدُ إنما هو من باب تحقُّق الوقوع:

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

أما كلمة (تبت) بالماضي، فلما نزلت هذه السورة كان أبو لهب حياً يُرزق وربما استهزأ بها، أنا خسرت!! مال عريض، وجاه كبير، وزعامة في قريش، فكيف خسر؟ قال العلماء: إن التعبير بالماضي من قِبَلِ الله عز وجل على شيء لم يحدث بعدُ إنما هو من باب تحقُّق الوقوع. إذا نظر شخص إلى ابنه وهو يهمل دراسته، ولا يبالي لا بوظيفة يكتبها، ولا بدرس يحفظه، ولا بدوام يباشره، فبحسب خبرة الأب يقول: خسر ابني، والابن لا يشعر بهذه الخسارة إلا بعد حين، فالله سبحانه وتعالى رآه معرضاً، معادياً، مبغضاً، فقال: (تبَّت)، وظن أبو لهب حينما تُليت عليه هذه السورة أو بلغت مسامعه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يهجوه بالشعر، فقال: أقُلتَ فيَّ شعراً، فقال سيدنا الصديق رضي الله عنه: لا والله، ما قال فيك شعراً، النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول شعراً، لقد ظنه شعراً.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أصبحت واضحة، المعنى الأوجَه؛ تبَّت الأولى: خسر المعركة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتبَّت الثانية: خسر حياته كلها، وهي أثمن شيء عند الإنسان، وفرصة وحيدة لا تعوض.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

المال شيء ولكنه ليس كل شيء :

الإنسان أحياناً يتوهم أن المال كل شيء فيسعى له ليلاً ونهاراً:

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي .))

[ورد في الأثر]

هذا ما يفعله معظم الناس، يتوهمون أن سعادتهم كلها بالمال، وأن المال هو كل شيء، وأنه عصب الحياة، ومادة الشهوات، وأنه من ملك المال ملك كل شيء، وأنه من خسر المال خسر كل شيء، والدراهم مراهم، هكذا يتوهم الناس، فإذا لهثوا وراء المال وبلغوا خريف العمر ووجدوا أن المال لم يحقق لهم ما كانوا يتوقعون من سعادة، عندئذ يكون الشعور بالخسارة الكبرى، المال شيء ولكنه ليس كل شيء، سيدنا أبو ذر قال: حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي. شعور الإنسان في خريف العمر حينما يحبط عمله، وحينما يخفق في مسعاه، وحينما يشعر أنه أمضى حياة كلها شقاء في شقاء، وأن المال لم يسعده، وأنه أتعبه كثيراً وسبَّب له عداوات خطيرة عندئذ يعض على يديه، ويقول: يا ليتني لم أفعل هذا.

يقول الله عز وجل لعبده:

((أن عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم - يسأل عبد آخر - أعطيتك مالاً فماذا صنعت في ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

ترى المؤمن يتوفاه الله عز وجل، ولكن أولاده في رعاية الله، وفي حفظه الله، وفي توفيقه، وقد لا يدع لهم مالاً كثيراً، ولكنه ترك لهم سمعة طيبة يعيشون بها بين الناس، أما أبو لهب فما أغنى عنه ماله وما كسب، ماذا يفعل المال؟

مرة كنت عند طبيب، جاءه هاتف، ولشدة ارتفاع الصوت بالهاتف سمعت الذي يخاطبه، قال له: يا دكتور نبعثه إلى أيِّ مكان تريد، وقدِّر المبلغ، وندفع، قال: واللهِ لا أمل له، سرطان مستفحل، لو استأصلناه ينمو بعد أسبوعين ليس عندي حل، وبقيت كلمة: ندفع المبلغ مهما كان، وإلى أي مكان في العالم نأخذه.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

أفضل كسب الرجل ولده :

المال لا يجدي شيئاً، هو شيء وليس كل شيء، إذاً أبو لهب ظن ماله يحميه من مغبة أعماله السيئة، ولكن المال لا يحميه، كان أبو لهب يقول: إن كان ما يقوله حقاً - إذا كانت الآخرة حقاً، وفيها جهنم - إن كان ما يقوله هذا الرجل - أي رسول الله - حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، وسأدبر أمري، أدفع مالاً في الآخرة وينقذني، هذا في الدنيا، تخرج بكفالة في الدنيا فحسب، هكذا كان يقول: إن كان ما يقول هذا الرجل حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فربنا أجابه:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي عَنْ عَائِشَةَ]

فكلمة (كسب) هنا تعني الولد:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

لقول النبي عليه الصلاة والسلام، أفضل كسب الرجل ولده، والنبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى الصدقة الجارية:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فالولد الصالح صدقة جارية، لذلك أفضل كسب الرجل ولده، أي أعظم عمل تقوم به أن تعتني بولدك، فإذا اعتنيت به وكان خليفة لك يدعو إلى الله من بعدك، كان عالماً، كان ديِّناً، كان إنساناً طيباً صالحاً، فإنه ذخر لك من بعد موتك.

من معاني الآية التالية أن الإنسان لا ينفعه ولده ولا ماله :

وما كسب مِن ولدٍ، بعض المفسرين قال: وما كسب أيْ مِن ولد، وولد الرجل من كسبه، وقد كان العرب في الجاهلية يعتزون بالمال والولد لذلك قال: إن كان ما يقول هذا الرجل حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فقال الله عز وجل:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

هذا معنى، أي لا ينفعه ولده ولا نفعه ماله، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 19-33]

كسب الإنسان لا ينفعه إذا جاء الموت إلا ما كان على تقوى :

بعضهم قال:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(ما) هنا نافية، أيْ لم يغن عنه ماله ولا أولاده، وبعضهم قال: (ما) استفهامية، ما أغنى عنه ماله؟ أم أغنى؟ أنتم احكموا في هذا الأمر، وبعضهم قال: ما أغنى عنه ماله وما كسب، (ما) في الآية مصدرية،

بمعنى ما أغنى عنه ماله وكسبُه، وقد تكون (ما) موصولة بمعنى: الذي كسب من عمل، صار المال شيئاً والعمل الطيب شيئاً آخر، عمله في الدنيا، الناس يعملون، هذا يؤسس مثلاً محلاً، وذاك يؤسس مصنعاً صغيراً، وآخر يقيم حقلاً، وغيره يعمل مشروعاً زراعياً، ثم يأتي الموت، وهذا كله من كسبه، ولا ينفعه إلا ما كان على تقوى.

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

قال لي شخص: بلّغوا صاحب شركة ضخمة أن أرباحنا هذه السنة بلغت خمسة ملايين، تبلّغ هذا صباحاً، وفي الساعة الخامسة مساءً تُوُفِّيَ:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

الآن يجب أن ينتبه، فمنجزاته في الدنيا لا تغني عنه شيئاً، لو فرضنا أنّ مهندساً أشاد أعظم بناء، فهذا البناء لا يشفع له عند الله، ولو فرضنا أنّ محامياً استطاع أن ينتصر في أعقد قضية، فهذا الانتصار في هذه القضية إن لم يكن في الحق فلا قيمة له عند الله، وقد يبلغ الرجل أعلى درجة، ويبلغ شهرة عريضة، وقد يكون غنياً كبيراً، هذا (أَنَسيف) الذي كان من أغنى الناس على الأرض، كان عنده أساطيل تجارية، وعنده جزر وكلها مِلكه، ومع ذلك ألم يأته الموت؟ وحينما توفي ماذا أخذ معه:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

ربنا عز وجل جعل الموت موعظة بليغة :

الحقيقة أن ربنا عز وجل جعل الموت موعظة بليغة، كان من الممكن أن نُخلَق جميعاً دفعة واحدة، ونموت جميعاً دفعة واحدة، وبهذه الطريقة لا يتعظ أحدنا بأحدنا، لكن هذا النظام الإلهي، أن أناساً يولدون، وأناساً يكبرون، وأناساً يموتون، الموت موعظة بليغة.

إنسان دُعِي إلى وليمة، والوليمة الساعة الثانية والنصف ظهراً، وفي الساعة الثانية كان عنده ثريا يجب أن يركّبها، في أثناء تركيب الثريا تكهرب فأغمي عليه، والذي أقام الوليمة انتظر، والطعام جاء ساخناً من المطعم، فقال: تفقدوه، فإذا هو في المشفى، دخلوا فإذا هو قد فارق الحياة، هذا الطعام الذي أُعِدّ له لم يُتَحْ له أن يأكله، بل لم يُتَحْ له أن يأكل منه لقمة واحدة. دخلنا في معنى آخر، منجزات الإنسان في الدنيا، إن كان حقق نجاحاً في التجارة، وإن كان حقق نجاحاً في الصناعة، وإن كان حقق نجاحاً في العلم، أخذ شهادة بورد، وإن كان حقق نجاحاً في كسب المال، وإن كان حقق نجاحاً في بناته، زوّجهم إلى أشخاص من وجهاء المجتمع، أصهارُهُ من الدرجة الأولى، وإن كان حقق نجاحاً في كل منحى من مناحي الحياة، وجاءه الموت وكان علمه سيئاً:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

إذاً لنجعل هذه الآية في بؤرة ذاكرتنا، الخلاصة إذاً: أنه تبت يدا أبي لهب، أخفق في مسعاه، وخسر حياته كلها، وحينما يموت سيصلى ناراً ذات لهب، أحياناً ارتفاع الحر فيه موعظة، قالوا: مرَّ القطر بمرتفع جوي، فالحرارة فوق معدلها، الناس لا ينامون الليل، وقال لي شخص: واللهِ ما استطعت أن أنام البارحة، خرجت إلى الشرفة الساعة الواحدة فما رأيت حركة ولا نسمة، فربنا عز وجل إذا رفع الحرارة قليلاً ضجّ الناس، تُرى ما هذه النار ذات اللهب؟

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

إذا أطاعت امرأةٌ زوجها في معصية فشأنها شأنه ومصيرها مصيره والعكس صحيح :

الحر لا يطاق إذا بلغ درجته أربعين أو أكثر، وتصل درجة الحرارة بمكة إلى تسع وأربعين، واثنين وخمسين درجة، بل أكثر من ذلك، هذا الحر الشديد ليس بشيء أمام حر جهنم.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة: 81]

إذا كان عند الإنسان مكيف في الدنيا فلن يكون له ذلك في الآخرة:

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

قال لي رجل: أنا عندي خمسة مكيفات، واحد بغرفة الضيوف، وآخر بغرفة النوم، ومكيف بالمطبخ، ومكيف بالصالون، وغير ذلك، ولكن ليس في الآخرة مِن مكيف، فإذا كان من أهل الدنيا العصاة فسيصلى ناراً ذات لهب.

(وَامْرَأَتُهُ)

أما كلمة (وامرأته) فينخلع لها القلب، إذا طاوعت امرأةٌ زوجها في معصية فشأنها شأنه، ومصيرها مصيره، والآية موجهة إليها:

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

وإذا طاوع الزوجُ امرأتَه في معصية فسيصلى ناراً ذات لهب معها، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والمرأة التي تقول لزوجها: لا أعصي الله وافعل ما شئت، طلقني إذا شئت، إنه لن يطلقها، وسوف يكرمها، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ]

إذا آذيت أولياء الله عز وجل فأنت في حرب مع الله فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم:

اعلمْ أنّ دين الرجل مؤلف من مئة ألف فقرة أو أكثر، فنظرُ الريبة يُحاسب عليه، وحلف يمين كاذبة يُحاسب عليها، ورفع السعر يُحاسب، وإنْ أخفى العيب فسيحاسب عليه، أو باعه تقسيطاً بسعر أغلى يحاسب، وهناك أكثر من ألف أو ألفي علاقة محرمة في البيع والشراء، وإذا دخل إلى البيت فقبَّل ابناً وما قبَّل الثاني فسيُحاسب، وإذا حكَّموه وظلم فسيُحاسب، فدينُ الرجل معقد جداً، فيجب أن يكون دقيقاً في معاملاته، وفي بيعه وشرائه، وفي جواره، وفي حديثه، وفي نظراته، أما المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها، فإذا أطاعته في معصية انطبقتْ عليها هذه الآية:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

يروي التاريخ أن لأبي لهب أولاداً ثلاثة، الأول معتب والثاني عتبة، وقد أسلما وتبعا النبي عليه الصلاة والسلام، وخدماه خدمة راقية وأحباه، وأما عتيبة فجاهر بإيذائه وعداوته للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان زوج ابنة النبي فطلقها كي يغيظه بها، اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام، فلما يتصدى الإنسانُ للأنبياء، ومن آذى لي ولياً آذنته بالحرب، هذا يدعو إلى الله اتركه، دعه وشأنه، فإذا آذيت أولياء الله عز وجل فأنت في حرب مع الله، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ عارضه عتيبة، وجاهره وناصبه العداء، وطلق له ابنته ليغيظه بها، فدعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام.

العلاقات في الإسلام أساسها المبادئ لا العلاقات الشخصية :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، وعمه أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ]

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْه))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

العلاقات في الإسلام أساسها العلاقات المبدئية، أساسها المبادئ لا العلاقات الشخصية، ولا العلاقات النَّسَبية، ولا التجمعات الإقليمية، هذا كله في الإسلام مرفوض:

((سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ أخوانكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[البخاري عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ]

الإسلام الحقيقي :

هذا هو الإسلام، الإسلام جعل الناس سواسية كأسنان المشط، سيدنا أسامة بن زيد كان شاباً لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، وكان أسود اللون أفطس الأنف، وكان حِبَّ رسول الله، وكان يسمى بين الصحابة الحِبَّ ابن الحِب، كان هو حِبَّ رسول الله، أي محبوب رسول الله، وكان أبوه كذلك، لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش، وتوفي ولم يُرسل هذا الجيش، فتابع سيدنا الصديق أمر إنفاذ الجيش، وفيه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، كبار الصحابة كانوا جنوداً تحت إمرته، وهو لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، والصحابة تكلموا، فقالوا: ما هذا؟ هذا يقودنا؟ رفعوا أمرهم إلى سيدنا عمر، وسيدنا عمر كان ذكياً، تبنَّى رأيهم ليسمعهم رد الصديق، فما كان من

سيدنا أبي بكر رضي الله عنه إلا أن أمسكه من لحيته وكادت تنخلع بيده، وهزه هزاً عنيفاً، وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أجبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام، أتمنعني أن أنفذ جيشاً جيَّشه رسول الله، واللهِ لينفذن يقوده أسامة، وخرج سيدنا الصديق وهو الخليفة الوقور، خرج يمشي وأسامة راكب على ناقة، لم يحتمل أسامة هذا الموقف، قال: واللهِ يا خليفة رسول الله لتركبنَّ أو لأنزلن، فقال: والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليَّ أن تغبرَّ قدماي ساعة في سبيل الله، وسار بركابه، فلما وصلا إلى مكان تجمع الجيش استأذنه بعمر، أتأذن لي بعمر ليكون وزيراً معي، هذا الإسلام. إنّ اللون لا قيمة له، والأصل لا قيمة له، ومكان الولادة لا قيمة له، وكذا مكانة الأبوين، لا قيمة إلا قيمة واحدة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات: 13]

من علامات المؤمن أدبه الشديد مع الناس ومن علامات غير المؤمن تكبره واستعلاؤه:

يا سعد لا يغرنَّك أنه قد قيل خال رسول الله، الخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لا أعتقد أن هناك صحابياً جليلاً سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعه سعد في بعض المعارك:

((عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَدِّي أَحَداً غَيْرَ سَعْدٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي أَظُنُّهُ يَوْمَ أُحُدٍ))

[متفق عليه عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما قال النبي عليه الصلاة والسلام لأحد: فداك أبي وأمي إلا لسعد.

((أَقْبَلَ سَعْدٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

كان عليه الصلاة والسلام مرحاً، وكان ودوداً مع أصحابه، يعرف قيمتهم واحداً وَاحداً:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ قَالَ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ومرة دخل سيدنا أبو بكر فما وجد مكاناً ليجلس فيه، فسيدنا علي رضي الله عنه أزاح له، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، وأثنى على سيدنا علي، وعلى سيدنا أبي بكر في آن واحد، كان إذا دخل عليه سعد يقول هذا خالي، خال بعيد المرتبة، أروني خالاً مثل خالي، ارم سعد فداك أبي وأمي، ما هذا المقام؟ هل بعده من مقام، قال له عمر: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله ـ إياك أن تُغَرَّ بها ـ فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له، إياك أن تستعلي على أحد، إياك أن ترى نفسك خيراً من أحد، كلهم عباد الله، هذا الذي تحتقره قد يكون مقامه عند الله عز وجل أضعاف مقامك، من علامات المؤمن أدبه الشديد مع الناس، ومن علامات غير المؤمن تكبره واستعلاؤه، يقول: أنا وأنا، قالها إبليس فأهلكه الله.

أربع كلمات مهلكات وعلامة الإيمان التواضع :

أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، قال إبليس:

(أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ)

[سورة الأعراف: 12]

فأهلكه الله عز وجل، وقالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

[سورة القصص: 78]

وقالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

[سورة الزخرف: 51]

فأغرقه الله في البحر:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

وقال قوم بلقيس:

(نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[سورة النمل: 33]

أربع كلمات مهلكات، فعلامة إيمانك التواضع، وهذا الذي أمامك عبد من عباد الله، فلا تدري قد يكون له عند الله شأن غير شأنك، فتأدَّب مع الناس.

((عَنْ أبِي مَسْعُودٍ قالَ: أتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عَنْ أبِي مَسْعُودٍ]

تقييم البشر من شأن الله وحده :

إذاً وصلنا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عتيبة بالهلاك فأهلكه الله، فيا أيها الإنسان لا تستعدِ، ولا تكن عدواً للحق، ولا تهرف بما لا تعرف، فتقول: فلان مبطل، تأكَّدْ من هذا الكلام؟ لمَ نقلت كلام لستَ متأكداً منه لا تصم الناس بالباطل، ولا تكفِّر أحداً، فمن كفَّر الناس فهو أكفرهم، قل: لا أعلم، أنا أتبع هذه الطريقة، أقول: هذا من شأن الله وليس من شأن البشر، لأنّ تقييم البشر من شأن الله، والدليل قوله تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ)

[سورة المائدة: 118]

هذا ليس من شأني، ما قولك بفلان؟ لا علاقة لي، أنا عليَّ بنفسي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة: 105]

أنا لستُ مكلفاً بتقييم الناس، فلان على الحق أم على الباطل؟ لا أدري والله، إن كان مطبقاً لكتاب الله فهو على الحق، ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

علامة المؤمن أن كاهله ليس عليه شيء :

قال تعالى:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

قالوا: حمالة الحطب أي حمالة الذنوب، الحطب هنا كناية عن الذنوب، حينما يفعل الإنسان أعمالاً سيئة، يؤذي إنساناً، يغتصب مالاً، يسبب خراب بيت إنسان آخر، أو دمار أسرة، فيفرق بين أم وابنها، وبين أخ وأخيه، وبين زوجة وزوجها، يجعل إنساناً يفلس، أو يورطه في ورطة كبيرة، أو يسبب له مرضاً خبيثاً على أثر صدمة آلمته، فهذه كلها أعمال كأنها أحمال فوق ظهره، المؤمن خفيف، ينام مساءً ولا أحد متعلق معه بحق، فلو أنّ نملة داسها لم يكن عليه أنْ ينام الليل، فقد سبَّب موت مخلوق، فعلامة المؤمن أن كاهله ليس عليه شيء، ما أكل مالاً حراماً، لا آذى إنساناً، ولا سبَّب شقاء أسرة، ولا دمار

مستقبل فتاة، فإذا خبَّب امرأةً، أو أفسد فتاة قضى معها شهوته وانصرف، لكنها أصبحت مومساً، وصارت هي وذريتها وذرية ذريتها إلى جهنم، أرأيت هذا الجيل؟ جيل من الفتيات المومسات هذه في صحيفته، ويوم القيامة يكشف له عن ذلك، انظر هذه التي قضيت شهوتك منها، دمّرتها في ساعة، وكان يمكن أن تكون أمّاً صالحة ولها زوج ولها أولاد وأصهار، فأفسدتها وجعلتها زانية. مثلاً امرأة التجأت إلى إنسان فراودها عن نفسها، يبدو أنها طاوعته، فقال لي شخص: إنها كانت تضع على وجهها حجاباً بعد ذلك نزعته، وصار بعد ذلك من دون شيء، وبعد ذلك أصبحتْ تدير الآن بيتاً للدعارة، مَن السبب؟ هذا الذي أفسدها، هذا العمل عندما ينكشف في الآخرة فمضاعفاته لا حصر لها، يمكن أن يلقى الزاني ثمانمئة ألف ساقطة في صحيفته، هذا صار عبئاً عليه:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

أتستطيع أن تحمل كل هذه الأحمال، تكذب وتغش وتحلف يميناً باطلة، وتؤذي إنساناً، وتورط آخر في ورطة، أين أنت سائر، القضية خطيرة جداً، فإذا أشقيت أسرة يكفي أنْ تفسد علاقة بين زوجين، فإذا طلقها كنتَ أنتَ سببَ تعاسة للأطفال.

علامة المؤمن أنه ينام مطمئناً، قالوا: في أوربا فندق مكتوب عليه، إذا ما ارتحت في النوم فالذنب ليس في الأثاث، إنما هو ذنب ضميرك الذي يعذبك.

المرأة على دين خليلها :

علامة المؤمن أنّ بالَه مرتاحٌ، لم يبن مجده على أنقاض الآخرين، ولا سعادته على شقائهم، ولا جمع ماله على إفقارهم، ولا بنى أمنه على قلقهم، بالعكس، فهو مصدر خير ومصدر سعادة للناس وطمأنينة، فلا يخيف أحداً، المرعبون في النار.

((عن عَائِشَةَ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ فَقَالَ: أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ))

[متفق عليه عن عَائِشَةَ]

إنّ الخير بيدي والشر بيدي، فطوبى لمن قُدر على يديه الخير، والويل لمن قدر على يديه الشر، فإياك أن تكون أداة بيد شرير، لذلك هذه حمالة الحطب من معانيها كل ذنب حطبة، هذا الحمل سوف يسحق صاحبه، هذا أول معنى من معانيها، والمعنى الثاني: كلمة امرأة بعضهم يرى أنها مشتقة من المرآة، المرأة على دين خليلها، الآن أنت وحدك صلِّ بإتقان، صل الصبح حاضراً، بعد أسبوع تستيقظ زوجتك معك، فإذا نمت إلى ما بعد طلوع الشمس بقيت هي نائمة، وإذا كنت ورعاً رأيتها ورعة، تكلَّمْ أنت على

النساء تتكلم هي على الرجال، كُفَّ عن الغيبة، استحتْ أن تغتاب، هذه الحقيقة ثابتة المرأة على دين خليلها، إنْ رأتك ورعاً تكن ورعة، شريفاً شريفة، لا تنظر فهي لا تنظر، عندك رحمة ترحم، كلامك قاس تقسو بكلامها، تسب أهلها تسب أهلك، المرأة على دين خليلها، فلينظر أحدكم من يخالل.

فكلمة (وامرأته) مرآة له، فهذا المعنى الثاني، حمالة الحطب، كانت هذه أم جميل، سموها العوراء، وأم قبيح وليست أم جميل، هذا الاسم لا يليق بها، كانت عوراء، وسماها المفسرون أيضاً أم قبيح:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

أي تحمل هذه الأوزار والذنوب التي سوف تحرقها في النار.

المرأة في الحساب كالرجل :

إذا أحضر الإنسان إلى بيته وقود بنزين مثلاً، وابنه بالخطأ أشعله فانفجر، يكون هذا الإنسان قد جلب إلى بيته شيئاً أحرقه، والذي يأكل مال اليتيم، والذي يأكل الحرام، والذي يأكل الربا، أو الذي يوكله، الذي يغصب أموال الناس، والذي يغشهم في البيع والشراء، الذي يبخسهم بضاعتهم، إن باعوا أطروا، وإن اشتروا ذموا، مَن يفعل هذا فإنما:

(يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

هناك معنى آخر من قوله تعالى:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

أي المرأة في الحساب كالرجل.

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ*فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

[سورة آل عمران: 194-195]

للمرأة دور خطير :

المرأة في الحساب هي والرجل على حدّ سواء، إذا قال ربنا عز وجل: إن المسلمين، فالمقصود من هذه الكلمة المسلمون والمسلمات، لماذا قال في بعض آياته في القرآن الكريم:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 35]

هذا إشعار من الله على أن المرأة تحاسب كالرجل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، المرأة لها دور خطير:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

(وامرأته) فهي التي دعمته وأعانته ورضيت بفعله.

كلمة (حمالة الحطب)

لها أربعة معان :

1 ـ تحمل ذنوباً لا تستطيع حملها سوف تحرقها في نار جهنم :

أما حمالة الحطب فتعني مشاءة بالنميمة، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ))

[مسلم عن حذيفة]

((إياكم والنميمة ونقل الحديث))

[كنز العمال عن ابن سعد]

وإن النمام ليعمل في الساعة ما لا يعمله الساحر في شهر، إنّ الساحر لا يستطيع أن يفسد بين الناس كما يفعله النمام، ونار الحقد لا تخبو ولا يدخل الجنة نمام، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذلك كلمة حمالة الحطب، أي توقع بين الناس عن طريق النميمة والكذب. أولاً: تحمل ذنوباً لا تستطيع حملها سوف تحرقها في نار جهنم.

2 ـ توقع بين الناس العداوة والبغضاء :

ثانياً: توقع بين الناس العداوة والبغضاء.

3 ـ تؤذي النبي عليه الصلاة والسلام :

ثالثاً: كانت تضع في طريق النبي عليه الصلاة والسلام الشوك كي تؤذيه، وقال بعض المفسرين: وكان هذا الشوك يأتي تحت أقدامه ألين من الحرير، وهي تريد أن تؤذيه، ولكن الله يحميه.

من هي هذه أم جميل؟ بل أم قبيح؟ قال: هي أخت أبي سفيان، وعمة سيدنا معاوية، فهي من نسل وجهاء قريش، ومن النساء الشريفات في قريش، لكن لا تغني عنها عراقتها ولا أصالتها ولا نسبها، اسمها أروى بنت حرب.

بنو إسرائيل أصابهم قحط، فدعا موسى ربه فقال: يا رب عبيدك، فقال الله عز وجل: إن فيكم عاصياً نماماً، فالمطر لم تهطل، والسماء لم تمطر وفجأة هطلت المطر، فقال: يا رب كيف حدث هذا؟ ـ والخبر بما معناه ـ فقال: لقد تاب، قال: ومن هو، قال عجبت لك يا موسى أأستره عاصياً وأفضحه طائعاً، أي إذا تاب انتهى الأمر، فباب التوبة مفتوح قال عليه الصلاة والسلام: " لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يربي ماله بالربى، فقيل كيف جمع الله عز وجل بين المشاء بالنميمة وبين الربا وبين القتل، فقيل: وهل القتل، أو الربا إلا بسبب النميمة والكلام الفظيع،

إذاً حمالة الحطب، كناية عن أنها تمشي بالنميمة وتوقع بين الناس، أو أنها ترتكب الذنوب التي سوف تحرقها أو أنها وهذا هو المعنى الثالث تؤذي النبي عليه الصلاة والسلام.

4 ـ كانت بخيلة تلم الحطب وتجمعه مع أنها غنية :

والمعنى الرابع أنها كانت بخيلة تلم الحطب وتجمعه مع أنها غنية، أربعة معان لكلمة حمالة الحطب، وكانت تزين صدرها بعقد جميل جداً، مأخوذ من الودع فالله سبحانه وتعالى قال:

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدِ)

أيْ وفي جهنم سوف يكون مكان هذا العقد الجميل حبل من مسد. حين يريد الإنسان أنْ يزين نفسه فلا يزين جسمه بل ليزيِّن قلبه، لأنه إذا زين جسمه فهذا الجسم آخرته إلى الدود، وإلى التراب، فلو أنّ الإنسان نظر إلى ميت حديثاً لرآه منفوخاً، أحيانا يزيلون الدود عن الميت بسماكة خمسة سنتمترات، فمهما اعتنيت بجسمك وتعطرت واغتسلت، وهذا شيء مطلوب للنظافة، لكن إذا كان عملُ الإنسان سيِّئاً واعتنى بجسمه فكل هذه الزينة سوف تنتهي إلى النار، فهذا العقد الثمين الذي كان يزين صدرها أصبح في الآخرة في النار:

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدِ)

يقودها إلى النار، وبعضهم فسر هذا الحبل بأنه أعمالها تسوقها إلى النار. وبعد، فبئس الرجل أبو لهب، وبئست امرأته أم قبيح حمالة الحطب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإخلاص 112-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 صفات الألوهية وأسماء الله الحسنى .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-08-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن أنزل أثلاثاً

وقد جمعت سورة الإخلاص أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الإخلاص، ووالله ما تهيَّبْتُ شرح سورة تهيُّبي لشرح هذه السورة، كيف لا وهي تعدل ثلث القرآن، كيف لا وهي تتحدَّث عن الله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

لهذه السورة أسماء عديدة؛ سورة الإخلاص، سورة التوحيد، سورة التَّجريد، سورة التفريد، سورة الجمال، هذه كلها أسماء لهذه السورة العظيمة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سنة الفجر سورة الكافرون وسورة الإخلاص، و قد قيل: إن القرآن أُنزل أثلاثًا، ثلاثة أنواع، أو ثلاثة أقسام، ثلثٌ منه أحكام، وثلث منه وعدٌ ووعيد، وثلث منه أسماء وصفات لله عز وجل، وقد جمعت سورة الإخلاص أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ.))

[رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

طائِفةٌ من الأحاديث الشريفة التي تُبَيِّنُ عظمَةَ هذه السورة :

((أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ فَقَرَأَ بِهَا افْتَتَحَ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ بِسُورَةٍ أُخْرَى مَعَهَا وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى فَإِمَّا أَنْ

تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، قَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِهَا فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَهُ أَفْضَلَهُمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: يَا فُلَانُ مَا يَمْنَعُكَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ أَنْ تَقْرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ ثَابِتٍ وَرَوَى مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَقَالَ: إِنَّ حُبَّكَ إِيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَجَاةُ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: يَا عُقْبَةُ احْرُسْ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ قَالَ: ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ: فَأَقْرَأَنِي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ قَالَ: يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَاهُنَّ وَلَا تَبِيتَ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ قَالَ: فَمَا نَسِيتُهُنَّ مِنْ مُنْذُ قَالَ لَا تَنْسَاهُنَّ وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّى أَقْرَأَهُنَّ قَالَ عُقْبَةُ: ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ))

[أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

هذه طائِفَةٌ من الأحاديث الشريفة التي تُبَيِّنُ عظَمَة هذه السورة، وكيف أنَّها تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن.

سورة قُلْ هو الله أحد الله سورةٌ تَصِفُ الله سبحانه وتعالى وتَصِفُ أحدِيَّتَهُ وصَمَدِيَّتَهُ:

بَقِيَ السؤال: ما وَجْهُ هذه العَظَمَة أو أين تَكْمُنُ هذه العَظَمَة؟ أقول وبالله المُستعان: إنَّ سورة قُلْ هو الله أحد الله سورةٌ تَصِفُ الله سبحانه وتعالى، وتَصِفُ أحدِيَّتَهُ وصَمَدِيَّتَهُ وأنَّهُ لا مثيل له، ولِهذا الكلام تفْصيلات، ربنا عز وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

جواباً لسؤال بعض الكفار الذين سألوا النبي عليه الصلاة والسلام قائِلين له: يا محمَّد، صِفْ لنا ربَّك؟! أمِنْ ذهب؟ أم من نحاس؟ فنَزَل قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

لِهذه:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

وجاءَهُ جماعَةٌ أُخْرى وقالوا له: يا محمَّد اُنْسُب لنا ربَّك؟ فَنَزَلَ قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

وبعض المفَسِّرين على أنَّ هذه السورة نَزَلَتْ عدَّة مرات، حينما اتَّحَدَتْ المناسبة نزلَتْ عِدَّة مرات، بعضُهم يقول: إنَّها مَكِّيَّة، وبعْضُهم يقول: إنَّها مَدَنِيَّة.

كَلِمَةُ (هو) إذا عادَتْ على ما بعْدها فَهِيَ ضميرُ الشأن :

قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ)

(هو) يُسَمِّيها علماء النَّحْو والبلاغة ضَمير الشأن، لأنَّ الضمائِر كُلَّها تعود على ما قبلها، تقول: جاء زيْد، وأكل طعامَهُ، فالهاء ضمير يعود على زَيْد، وأيُّ الضمائر على الإطْلاق المُسْتَتِرة والمتَّصِلَة والمنفصِلة حيثما ذُكِرَتْ تعود على ما قبلها، إلا ضميراً واحِداً في اللغة، هو هذا الضمير: قلْ هو، ضميرُ الشأن يعود على ما بعْدَهُ، فقال بعض العلماء: ضمير الشأن هو الخبر الحقُّ الصادِق، وهو يعود على الذي لا يغيبُ عن الأنْظار أبداً، ويعود على الشيء الذي لا يخْفى على أحَدٍ، وهو يعود على الله سبحانه وتعالى، قُلْ هُوَ - مثلاً - نبأٌ عظيم، قال بعضُ الشعراء:

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ   فلا يُغَرَّ بطِيبِ العَيْش إنْسانُ

هي الأمور كما شاهَدْتها دُوَلٌ   من سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمانُ

وهذه الدارُ لا تُبْقي على أحَدٍ   ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

* * *

كَلِمَةُ (هو) إذا عادَتْ على ما بعْدها فَهِيَ ضميرُ الشأن، الشيءُ العظيم والذي لا يسْتطيعُ أنْ يُنْكِرَهُ أحدٌ، والذي لا يخْفى على أحدٍ دون أنْ تعود على شيءٍ قبلها، فَهُوَ ضميرُ الشأن، أيْ يعود على شيءٍ عظيم لا يخْفى على أحدٍ، قل هو نبأٌ عظيم، قل هو الله أحد.

هي الأمور كما شاهَدْتها دُوَلٌ   من سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمانُ

* * *

وكلمة (قُلْ) أيْ أمْرٌ إلهي للنبي عليه الصلاة والسلام أنْ يُبَلِّغَ من حَوْلَهُ ممن يدْعوهم إلى عبادة الله، أنْ يبلِّغهم هذا النص بِحَرْفِيَّتِه، لأنَّ الحديث القدسي:

((إنَّ روح القُدُس نفث في رَوْعي أن لن تموت نفْس حتى تسْتكمل رزقها))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة]

روحُ القُدُس نفَثَ في رُوع النبي عليه الصلاة والسلام، فَنَطَقَ بما نفَثَ به روح القُدُس فكان الحديث القُدْسي، لكنَّ القرآن الكريم بكَلِماته وحُروفِهِ وترْتيب سُوَرِهِ وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه وتفْصيلاته وجُزْئِياته من الله سبحانه وتعالى نصاً ومعْنىً، يُؤَكِّد هذا المعنى سورة:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

فضل أسماء الله الحسنى :

أما كلمة (الله) فقال العلماء: هذا اسم عَلَمٍ على واجب الوُجود، وواجب الوُجود هو الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى له أسْماءُ أفْعال، وله أسماءُ ذات، وبعضهم يقولون: له صِفات، والحقيقة الصِّفَةُ تُكْتَسَب، مثلاً: فُلانٌ كريم، وكَرَمُ فُلان مُكْتَسَبٌ من الله عز وجل، فَهُوَ في الإنسان صِفَة، ولكنَّ كَرَمَ الله عز وجل ذاتِيٌّ في ذاته عز وجل، فهو اسم من أسْماء الله الحُسْنى، لذلك قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

وتقول: فُلانٌ غَنِيّ، فَهَذِهِ صِفَة، فإذا قُلْتَ: الغَنِيّ وعَرَّفْتها وأطْلَقْتَها فهِيَ اسم من أسماء الله، الغَنِيّ والقدير والسميع البصير والحق والعدْل والحكيم وقد جاء في بعض الأحاديث الشريفة:

((إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة إِلَّا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ))

[الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

معرفة كل اسم من أسْمَاء الله الحسنى معرفة وافية طريق دخول الجنَّة :

إياكم أنْ تفهموا أنَّهُ من قرأها أو من حفِظَها أو من عَدَّها ورَتَّبَها دخل الجنَّة، بل من عَرَفَ كُلَّ طَرَفٍ منها وهنا مَوْطِنُ الشاهد، ماذا تعرف عن اسم اللطيف؟ وماذا تعرف عن اسم الرحيم؟ وماذا تعرف عن اسم القويّ؟ وماذا تعرف عن اسم الغنيّ؟ وماذا تعرف عن اسم الحكيم؟ لو سألنا أحداً من الناس: ماذا تعرف عن اسم الحكيم؟ قال: أيْ الحكيم حكيم، فربنا حكيم! معنى ذلك أنَّهُ لا يعرف شيئاً! فلو ذكر لنا آيةً تُؤَكِّدُ حِكْمَتَهُ، وآية ثانية، وثالثة، ورابعة، ومضى من الوقت ساعة وساعتان وثلاثُ ساعات وهو يحدِّثك عن الحكيم فهذا قد عرف طرَفاً من اسم الحكيم، يجب أن تَعْرِف كل اسم من أسْمَائِهِ الحسنى معرفة وافية حتى تَسْتَحِقَّ دخول الجنَّة.

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة إِلَّا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لذلك الله عز وجل قال:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة : 31]

قِيل في تفسير هذه الآية: الأسماء كلها هي أسماء الله سبحانه وتعالى، لأنَّه عَرَفَها، وتعلَّمَهَا، وأقْبَلَ عليها، وهفَتْ نفْسُه إليها، قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

[سورة طه: 116]

لأنَّه أعلى منْكُم، لقد تعرَّف إلى أسماء الله الحسنى، وهذا واجبٌ علينا أن نتَعَرَّف إلى أسمائه الحسنى.

آيات كونية دالة على لطف الله تعالى وجماله :

اسم (اللَّطِيفِ) مثلاً هل عنْدَكَ دليل على لُطْفِ الله سبحانه وتعالى؟ قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

أي هذه الجبال الشَامِخَة الرَّاسخَة التي تَظنُّها لِرُسُخوها ولضخَامَتِها وشمُوخِها سَاكِنة إنَّما هي متَحَركة تَمُرُّ مَرَّ السَحَاب، والسَحَاب يَمُرُّ بلا صَوْت، هذا من لُطْفِ الله عز وجل، بخلاف مُحَرِّك صغير ليَوَلِد الطاقة الكهربائية فإنه يُزْعِج المَّارة، والمُشْتَرين، والبائِعين، أو طائرة تَحْمِل ثَلاثمئة رَاكِبْ تَملأ الدُنْيا صَخَباً وضجيجاً، فمن أسماء الله اللَّطِيف، بينما هذه الجبال، وهذه الأرض تَمُرُّ مَرَّ السَحَاب ثلاثِين كيلو

متراً في الثَّانية الواحِدة، ففي الدقيقة ثلاثون كيلو متراً ضرب ستِّين، الحاصل ألف وثَمَانُمئة كيلو متر في الدقيقة، ففي الساعة ضرب سِتِّينْ، أرقام مُدْهِلة! ودون أن تسمع أدنى صوت، هذا من اسم اللَّطيفْ، والطفْل الصغير حينَما يُغَيِّر أسْنَانَه يَدُ الله اللطيفة تعمل، فهذه السِّنّ تَذُوبُ جُذُورها شَيْئاً فشَيْئاً حتّى تُصْبِح السِّنُ مُتَحَرِكةً، ثم تخْتَلِط معَ لُقْمَة الطعام من دُون مُخَدِر، ومن دُونِ ألَمٍ شَديد، هذا اسم الله اللَّطيفْ، والهواء يؤَكِد اسم الله اللَّطِيفْ، والماء كذلك لا لونَ له ولا طَعْمَ ولا رائِحَة، اسم الله الجميل، إنّ الله جَمِيل، خلَق الجَمال، والأزْهار، والأطْيَار، والأسْماك، والأشْجار، أشْجار الزينَة، الألوَان، زُرْقَة البَحر، زُرْقَة السَماء، وكلها جمال ساحر أخّاذ تؤكد اسم الله الجميل. من أسماء الله القَّويْ، هذا له أرضْ التي نحن عليها ما وَزْنُها؟ خَمْسَة آلاف مِليار مِليار طُنْ، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الزمر: 67]

فلو اجْتَمَعُ سُكَّانُ الأرض كُلِهِمْ على زَحْزَحَة جبل قاسيون هل يَسْتَطيعون؟ قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

آيات أخرى كونية دالة على اسم الواسع واسم الغنيّ والقويّ :

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الزمر: 67]

لذلك ماذا تَعْرف عن اسم القَّويْ؟ هذه الأرض بِضَخامتِها وبِجِبالها وصحاريها وسُهولِها وبِحارِها، الماء مثلاً لا ينْضَغِط، فلَو وضعت الماء في مُكَعَّب، وفوق المُكَعَّب مِكْبس لا يسْمح بِتَسَرُّب الماء، فلَو وضَعْتَ على هذا المِكْبس مئة طن لم ينْضَغِط الماء ولو ميليمِتْراً واحداً! قالوا: هناك منطقة في الكَوْن وفي الفضاء اسْمُها الثقوب السَّوْداء، لو دَخَلَتْها الأرض لأصبَحَتْ بحجم البيْضة لأنها تنضغط، وزْنُها كَوَزْن الأرض، خمْسَة آلاف مليار مليار طنّ، والمليار تِسْعَة أصفْار، ستة أصفْار المليون، والمليار ألف مليون، ومليار مليار تسعة وتسعة، وخمسة آلاف فيها ثلاثة أصفار، أي واحدٌ وعشرون صفراً أمامها خمسة، هذه الأرض بِضَخَامتِها إذا دخَلَتْ إلى المناطق السوْداء في الكون تُصبح كالبيضة بالضبْط في

حجْمها، ويبقى لها وزْن الأرض، ما هذه القِوى الهائِلة التي تضْغط الأرض، مع أنَّ الماء وحْدَهُ لا يسْتطيع البشر جميعهم أنْ يضْغَطوه! هذا طَرَفٌ عن اسم القَوِيْ.

وطرفٌ عن اسم الغَنِيّ، فهذا عطاؤُنا كثير كثير، وعلينا أنْ نُقَنِّنَ في الماء مهما كثُر وفاضت الأنهار، وهذا واجب ديني ووطني، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتوَضَّأ في بُسْتان ففضَل من الإناء فضْلة فرَدَّها في النَّهْر، وقال عليه الصلاة والسلام: " ينْفَعُ بها الله قوْماً آخَرين"، فالتقْنين واجبٌ وطَني وديني، نَهْر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعَّب في الثانِيَة، والمَجرَّة الواحدة فيها ألف مليون مليون كوْكَب أو نجْم، والعلماء بأحْدث رقم قدَّروا أنَّ هناك مليون مليون مَجَرَّة! اسم الواسع واسم الغنيّ والقَوِيّ، فهذه البطيخة مثلاً كُلُّ بذْرة يُمْكن أنْ تكون نبات بطيخ، وفي كُلِّ نبات سبْع عشرة بطيخة تقريباً، هذا عطاؤُنا، والبذور عالم قائِمٌ بذاتِه، فماذا تعرف عن اسم القويّ والغنيّ والحكيم والقدير والرحيم العَدْل الحَكَم؟

((إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مئة إلَّا وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الأسْماءُ الحُسْنى جُمِعَتْ في اسمٍ واحدٍ هو الله وهو عَلَمٌ على واجب الوُجود :

لا بد أنْ تشْهَدَ طَرَفاً من رحْمَتَه حتى تعرف اسم الرحيم، ولا بدّ من أنْ تشْهَدَ طرَفاً من لطْفِهِ حتى تتيَقَّنَ من اسم اللَّطيف، هذه الأسْماءُ الحُسْنى جُمِعَتْ في اسمٍ واحدٍ هو الله، وهو عَلَمٌ على واجب الوُجود، والأسْماءُ كُلُّها أسْماءُ صِفات، لكِنَّ كلمة الله هي اسم الذات الأعْظم، لذلك: "قُلْ هو الله"، فكَلِمَةَ الله جَمَعَتْ الأسْماء الحُسْنى كُلَّها، فماذا عَرَفْتَ عنها؟ وماذا عرفْتَ عن المانع؟ فَلو أنَّ هذه الأسْنان ظلَّتْ تنْمو فماذا يحْدُث؟ ينْكسِرُ الفكّ، ولو أنَّ هذه العِظام ظلَّتْ تنْمو ماذا يحْدُث؟ مرَضٌ خطير اسمُهُ العَمْلَقة، أنْ يُصْبح الإنسان عِمْلاقاً، ولو أنَّ هرمونات النمو تَوَقَّفَتْ عن العمل، يُصبحُ الإنسانُ قزَماً، فهو سبحانه المانع القابض والباسط، مَن أَمَدَّ هذه العِظام بالنُّمو؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أوْقَفَها عند هذا الحدّ؟ الله سبحانه وتعالى، فأسْماء الله سبحانه وتعالى لا بد أن تأخذ من حَيِّز عقولنا وتفكيرنا اهْتِماماً كبيراً، ويجبُ أن نتعَرَّفَ إليها كُلَّ يوم، من أحْصاها دخل الجَنَّة، إذا أحْصَيْتَها سَعِدْتَ بها، وإذا أحْصَيْتها عَرَفْتَ الله سبحانه وتعالى،" قل هو الله أحد "، فكلمة (الله) تعني هذه الأسْماء كُلَّها، اسمُ الحكيم مثَلاً، ماذا تعرفُ عن حِكْمَتِهِ؟ جعل لك عَيْنَيْن، ولم يجْعَلْهُما واحدة، لو أنَّ هناك عَيْناً واحدة لَرَأَيْتَ بُعْداً واحِداً، لَرَأَيْتَ الأشْياءَ مُسَطَّحة، ولكنَّك بالعَيْنَيْن تراها بأبْعادٍ ثلاثة، ترى الطول والعرض والعُمْق، جعل العَيْنَيْن في مغارةٍ تقيهما التَّلَف، في مَحْجَر العَيْن، جعل فوقهما حاجِبَيْن، وفوْقهما رُموشاً، وجعل لهما جَفْنَيْن، والجَفْنَان يمْسحان هذه الطَّبَقَة الشفافة، ويُعَقِّمانها من كُلِّ مادَّةٍ غريبة، ولئلا يلْتَهِبَ الجَفْنان جعل لهما

رُموشاً، وجَعَلك ترى الألوان الدقيقة، مئة وثلاثون مليون عُصَيَّة ومخْروط في شَبَكَة العَيْن، وهذه العَيْن جعل مُدَّة انْطِباع الصورة جزءاً من خمْسين من الثانِيَة، فأنت بها ترى الأشْياء مُتَّصِلة لا مُنْفَصِلة، ومن جعل هذه الأذن وعَتَبَة للسَّمْع، ولو أنَّ هذه العَتَبَة انْخَفَضَتْ لما نِمْتَ الليل، صَوْتُ ارْتِطام الهواء على وَجْهك لا يجعلك تنام الليل، قال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

فهذه العَتَبَة لا تقِلُّ ولا تزيد، اسمُهُ الحكيم، من جعل الشعْر على رأسِك؟ ولم يجْعَل فيه أعْصاباً حِسِيَّة؟ الحكيم، لو أنَّ في الشَّعْر أعْصاباً حِسِيَّة لوَجَب أن تذهب للمستشفى لِتَحْلِقَ رأسك إذْ تحْتاج إلى تخدير، فالله اسمُهُ الحكيم، ومن جعل هذه العِظام وهذه المفاصِل، ولولا هذا المفْصل الذي في اليد كيف تأكل؟ ومن جعل هذه التجْعيدات في جِلْد الأصابع؟ لولاها لما أمْكَنَكَ أنْ تثْنِيَ أصابِعَك، ومن جعل هذا الجلْد على عقد الأصابع مُخَطَّطاً؟ من أجل أن تُحْسِنَ مسْكَ الأشْياء، ومن جعل الشَّعْر ينْبُت في الأنف إذْ له وظيفة خطيرة ولا ينبت في الفم؟ اسمه الحكيم، ومن جعل طول اليَدَيْن بهذا الطول المُناسب؟ اسمه الحكيم، ومن جعلهما مُتساويتينْ؟ فالخياط يأخذ طول يَدٍ واحدة، اسمه الحكيم، ومن جعل لك الهضْم مُيَسّراً من دون أنْ تشْعُر؟ ومن جعل هذا الغذاء مُتناسباً في قِوامه ولونه وطعامه ومضْمونه وطعْمه، فاسمُ الحكيم اسمٌ واسِع جداً، ولا بد لنا أنْ نُفَكِّر في هذا الاسم؛ اسْمُ الحكيم واسْم الجامع والمانع والباسط والقابض والرافع والخافض والمُعزّ والمُذِل.

إذا كان الله معك فَمَن عليك؟ وإذا كان الله عليك فَمَن معك؟

* * *

التعمق في أسْماء الله الحُسْنى سبيل السعادة :

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

قد ترى رَجُلاً يبْكي وهو ملء السَّمْع والبصر، فَمَن أبْكاه؟ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

[سورة النجم: 43]

قد تضيق الأمور وتضيقُ حتى تنْفجِرَ بالبُكاء، وأنت رجُلٌ ولك أوْلاد وزَوْجة، وقد تتيَسَّرُ الأمور حتى تضْحك، فَمَن أبْكاك؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أضْحَكَكَ؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أعْطاك؟ الله سبحانه

وتعالى، فلو تَعَمَّقتَ في أسْماء الله الحُسْنى لَسَعِدْتَ بها، فيكْفي أن تقول: الله الرحيم، والله العَدْل، ولو عَرَفْتَ عدالته لذهلت، كان أحدهم يطوف حول الكعْبة ويقول: ربِّ اغفر لي، ولا أظنُّ أنَّك تغْفر لي، فقالوا: يا هذا ما أشَدَّ يأْسَكَ من رحْمَة الله! فقال: ذَنْبي عظيم، فقالوا له: وما هو؟! فَحَدَّثَهُم عن ذنْب عظيمٍ جداً، دخل بيتَ رجل وقتله وولده وسلب ونَهَب، وأعْطَوْهُ فيما أعْطَوْهُ دِرْعاً ذَهَبِيَّة عليها بَيْتَين من الشِّعْر، فلما قرأهما وقع مغشيّاً عليه:

إذا جار الأمير وحاكِمــاهُ و   قاضي الأرض أسْرف في القضاء

فوَيْلٌ ثمَّ وَيْلٌ ثمَّ وَيْـــلٌ   لِقاضي الأرض من قاضي السمــاء

* * *

أسماء حسنى أخرى عن عظمة الله وعدالته :

هل تخاف الله سبحانه وتعالى؟ وهل تخاف عَدَالة الله سبحانه وتعالى؟ هل تخاف حكم السماء؟ وهل تخاف أن يقول لك أحدٌ: أشْكوك إلى الله؟ وهل تعرف ماذا تعني عدالة الله سبحانه وتعالى؟ قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

وهل تعرف عن اسمه: الجبار؟ والقهار؟ وماذا تعرف عن غِناه؟ كيف أخْشى الفقْر، وأنا عبد الغَنِيّ، إذا أعْطى أدْهَش، وهو يُعْطي بِغَيْر حِساب، اُنظر إلى السماوات والأرض وما فيها من كواكب ونجوم، جعلها زينةً للسماء والدنيا، نُجوم ومَجَرات من أجل أن تكون زينةً لك في الدنيا، اسمه الغنِيّ، لذلك الحديث يطول عن أسماء الله الحُسنى وحَبَّذا لو تَتَبَّع كُلُّ أخ كريم اسْماً من أسْماء الله الحسنى، وجاء على هذا الاسم بِآيةٍ من الكون، على اسم اللطيف والودود والرحيم، هذه الأزْهار لِمَ خُلِقَت؟ لِتُأكل! لا والله، لِتُشاهَد وتُشمّ، فهذه مَوَدَّةٌ مِمَن؟ من الودود قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

[سورة البروج: 14]

أنواع الفواكه مصدرها من اسم الودود، أما القمْح فهو من اسم المُقيت، الله المُقيت، هناك غِذاءٌ أساسي تقْتاتُ به، وهناك غِذاء ثانوي تتفكَّهُ به فهو من اسم الودود، إذْ يتَوَدَّدُ لك، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

معنى كلمة (أحد) :

من الآن فصاعِداً، كلما سمعتَ كلمة الله فإنّما تعْني الأسْماء الحسنى كُلّها، لأنَّ الأسْماء الحُسنى كُلّها جُمِعَتْ في كلِمَة (الله)، اسمُ الله الأعْظم، يا الله يعني يا رحمن، يا رحيم، يا قوي، يا لطيف، يا حَكَم، يا قدير، يا مُقْتَدِر، يا مُعِزّ، ويا رافع، يا مُعْطٍ، "قل هو الله" أعرفتُم الله تعالى؟ واللهِ لو مَضَتْ السِّنون ما عَرَفْنا طرَفاً من اسمٍ من أسْماء الله الحُسْنى! لكن أخْذُ القليل خيرٌ من تَرْك الكثير، لا يَحُدُّهُ حادٌّ ولا يُحيطُ به مخْلوق، نحن مخْلوقون ولكنَّ الله هو الخالق.

الآن كلمة (أحد) لا تعني واحداً، فالواحد شيءٌ، والأحدُ شيءٌ آخر، تقول: هناك قلَمُ واحِدٌ على هذه الطاولة، قد يكون هناك شيءٌ آخر، ونظارَةٌ واحِدة، أما أحد فَهِيَ تعْني أنَّهُ واحِدٌ ولا شيء معه، ولا شيءَ سِواه، هذا قوْلٌ، فكَلِمَة أحد تعني أنَّه واحدٌ من جهة، ولا شيء معه من جِهَةٍ أُخْرى، وكلمة (أحد) تعني أنّه ليس كمثله شيء، أما كلمة (واحد) فهي تعْني أنَّهُ لا شريك له، فالله رحيم، وليس هناك مخْلوقٌ يرحم كالله عز وجل، هو وحده الرحيم والقويّ واللطيف، فلا قويَّ معه ولا لطيف غيره، فَهُو أحَدٌ في أسْمائِه، هو رحيمٌ وليس معه رحيمٌ آخر، وَقَوِيٌّ وليس معه قَوِيٌّ آخر، وقديرٌ وليس معه قديرٌ آخر، كلمة (أحد) تعني واحِداً في أسْمائِه، أسْماؤُهُ حُسْنى، وهو أحَدِيٌّ في أسْمائِه، لو كان معه جِهاتٌ أُخْرى تسأله وتسأل غيره، ولكنَّهُ أحدٌ لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ولا شيء مثله، ولا شيء مُقارب له، هذا معنى كلمة (أحد)، "قل هو الله أحد" لذلك لا يجوز أن يوصَفَ مخْلوقٌ في الأرض بِكَلِمَة أحد، كلمةُ (أحد) لا يُوصف بها إلا الله سبحانه وتعالى.

شيء آخر، وهي أنَّ كلمة أحد إذا تأمّلتها تيقَّنْتَ أنْ لا مَوْجود إلا الله، ولا فاعل في الكون إلا الله، هذه حقيقة يجب أن تُشاهِدَها فإن شاهَدْتَها سَعِدْتَ إلى الأبد، وإن لم تُشاهِدْها شَقيتَ إلى الأبد، فإذا قطعْتَ آمالك من غيرِهِ وُجوداً وفِعْلاً، ماذا ينقطِعُ مع هذه الآمال؟ تنقطِعُ العلائِق والرغائِب، وتُخْلِصُ الوجْهة لله سبحانه وتعالى، وتكون بهذا ممن صَفَتْ نفسُه، وممن رأى الله في كُلِّ شيء، وإذا رأيْتَهُ في كُلِّ شيء سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في كُلِّ شيء، وهذا هو الذي قاله الصُّوفِيون: لا بد من التوحيد، والفرق بين المؤمن وغيره أنَّ المؤمن لا يرى إلا الله، ولا موْجود سِواه، ولا أحد معه، هو الرب والإله والمُتَصَرِّف والمُعْطي والمُغْني والمُقيت والرزاق والمُعِزّ والمُذِلّ والحكيم والعليم، هو الحكيم ولا حكيم سِواه، وهو الرؤوف ولا رؤوف سِواه، وهو المُتعالي ولا مُتعالِيَ سِواه، هذا معنى الأحَد، فكلمة أحد تعني أنَّهُ أحَدٌ في أسْمائِه، وأسْماؤُهُ كُلُّها حُسْنى، فـ (قُل هو الله أحد) تعْني أنَّهُ واحِدٌ في أسْمائِه.

الصَّمَد يغْني الذاتي :

ثمَّ قال تعالى:

(اللَّهُ الصَّمَدُ)

هذه الأسْماء ليسَتْ مأخوذة عن سِواه، ذاتِيٌ في أسْمائِهِ، أحَدِيٌّ في أسْمائِه، فهذه الأسماء الحسنى، التسْعة والتسْعون اسماً التي ذكَرْناها قبل قليل، الله سبحانه وتعالى واحِدٌ فيها، وَصَمَدٌ فيها، معنى أحَدٌ أيْ لا يُشْرِكُهُ فيها أحد، رحيمٌ ولا رحيمَ سِواه، أما الصَّمَد فَرَحْمَتُهُ من ذاته ولَيْسَتْ من غيره، فإذا كان الإنسان صاحب منصب، وله سُلْطة وحَوْل وطَوْل ولكن بِكِتابٍ بسيطٍ يصدر عمَّن هو أعلى منه يعْزِلُهُ عن هذا المنصب! فهل هذا صَمَدٌ؟ لا، هو مُفْتَقِرٌ لِمَن هو فوْقه كي يُقِرُّهُ على منصبِهِ، فهذا لا يُسَمى صَمَداً، لكنَّ الله تعالى وُجوده صَمَديّ، ليس مُفْتَقِراً لشيءٍ آخر، مثلاً الإنسان، هل هو صَمَدٌ؟ لا، هو مُفْتَقِرٌ للهواء، فلَو حُرِمَ الهواء لمات، ومُفْتَقِرٌ للماء فلو مُنِع عنه لمات، ولو مُنِعَ عنه الطعام يموت كذلك، فهل هو صَمَدٌ؟ لا، يفْتَقِرُ إلى زَوْجَة وإلى أوْلاد، فمعنى الصَّمَد يغْني الذاتي، وهناك معانٍ أُخْرى سَوْف أُحَدِّثُكم عنها بعد قليل، فالإنسان - كما قلتُ آنفاً - إذا عرف أحَدِيَّة الوُجود وعرف الفاعِلِيَّة تَحَرَّرَ من الرَّغْبة، والرغْبَة أصْل قُيودٍ كثيرة، الطَّمَعُ أذَلَّ رِقاب الرِّجال، وتَحَرَّر من الرَّهْبة وهي أصْل قُيودٍ كثيرة، فإذا تَحَرَّر من الرغبة والرَّهْبة صارَ حُراً وعَبْداً لله، كُنْ عبْد الله فعَبْدُ الله حُرٌّ، أما الكافر فهو عَبْدٌ لِشَهْوَتِهِ، وعَبْدٌ للدِّرْهم والدِّينار، وعَبْدٌ للخميصة، وعبْدٌ لِفَرْجِهِ وبطْنِهِ، أما عبد الله فَهُوَ مُتَحَرِّرٌ مِن كُلِّ قَيْدٍ سببُهُ الخوف أو الطَّمَع، لأنَّك إذا رأيْتَهُ أحَداً في وُجودِهِ وفاعِلِيَّتِهِ قطَعْتَ الآمال ممن سِواه.

إذا شَهِدْنا أحَدِيَّة الله واسْتَغْرَقنا بها سَعِدْنا في الدنيا والآخرة :

مَعْنى (أحد) دقيقة جداً، كم هناك من قِوى تبْدو على السَّطْح وهي كُلُّها لا تعْني شيئاً، وليس إلا الله، هناك قُوَّتان عظيمتان تمْلِكان سِلاحاً نَوَوِياً، فبِحَسَبِ الظاهر أنَّ مصير العالم بيَدِهِما، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

هو القَوِيّ، قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

إنْ رأيْتَهُ أحَداً في أسْمائِهِ ورُبوبيَّتِه وصفاته وفي وُجوده وألوهِيَّتِه وفي تَصَرُّفِهِ وغِناه قطَعْتَ الآمال عمن سِواه، وتَحَرَّرْتَ من القُيود التي أصْلُها الرغْبة والرَّهْبة، وهذه هي حال الكَشْف! شَهِدْتَ الله في كُلِّ شيء.

وفي كُلِّ شيء له آيةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدٌ

* * *

فإذا شَهِدْتَ أحَدِيَّتَهُ واسْتَغْرَقْتَ بها سَعِدْتَ في الدنيا والآخرة، أيْ مفتاحُ السعادة كُلِّها أنْ تشْهَدَ أحَدِيَّتَهُ، وأنْ تشْهَدَهُ واحِداً لا مثيل له، ولا مُشابِهَ له، ولا شريك له، ولا مُقارب له، فإذا شَهِدْتَ هذه المُشاهَدَة ملكْتَ حالاً لا يعْرِفُها إلا من ذاقها، هذه الحال هي الطمأنينة، إنَّ الله يُعْطي الصِحَّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقِهِ، ولكِنَّهُ يُعْطي السكينة بِقَدَرٍ لأصْفِيائِه من المؤمنين، السكينة التي في قلب المؤمن طمأنينة لو وُزِّعَت على أهْل الأرض لكَفَتْهُم، فلا يرى إلا الله عز وجل، ولا يخاف إلا من الله، ولا يرْجو إلا الله، ولا يرْغب إلا فيمَا عند الله.

شَرَفُ المؤمن قِيامُهُ بالليل وعِزُّهُ اسْتِغناؤُهُ عن الناس :

جاء ملِك إلى الكعبة المشرَّفة يطوف، فطَلَب أحد علمائِها الكبار، فلما الْتَقى به قال: سَلْني كُلَّ حاجة، فقال: والله إنِّي أسْتَحي أنْ أسْألها غير الله وأنا في بَيْتِ الله، لكني أقول: اِحْمِني من النار، فقال له الملك: هذه لا امْلِكُها، فقال له: إذاً ليس لي عندك حاجة، سيّدنا أبو حنيفة دخل على المنصور، فقال له المنصور: يا أبا حنيفة تَغَشَّانا، أيْ زورنا، فنأنسَ بك ونتبارك بك، أنت الإمام الأعظم، قال: ولِمَ أتَغَشَّاكم وليس لي عندكم شيء أخافُكم عليه؟! وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء، معنى أحد ألاّ ترى إلا الله، وبه تصيرُ عزيزاً، فإن رأيْتَ مع الله أحداً فلا بدَّ أن تخاف منه، ولا بدّ أن ترْجوه وتُنافق له، أما إنْ رأيْتَ الله عز وجل وليس معه أحد كنت عزيزاً، وعلامة المؤمن عِزَّته، وشَرَفُ المؤمن قِيامُهُ بالليل، وعِزُّهُ اسْتِغناؤُهُ عن الناس، أحْياناً الإنسان يُعَلِّق آماله بزَوْجَتِهِ فإذا به يخيبُ ظنُّه، ويُعَلِّق آماله بابنه فإذا به يسافر ويتزوَّج ويتجنَّس ويبْقى بأوروبا! فهذا ما رأى الأحَدِيَّة، إنما رأى ابنه هو المُعِين، إذا رأيْتَ الله سبحانه وتعالى أحداً ولا شيء معه فهذه رؤْية عميقة، وبهذه العَيْن ترى معه آلاف الشُّركاء، فلان وفلان، لكنَّك إذا رأيْتَ الله وحْدَهُ تَحَرَّرْتَ من كُلِّ قَيْد، قَيْد الذُلِّ والخوف والطَّمَع والمُداهَنَة، وإذا رأيت أحَدِيَّتَهُ وحْده فلن تُطيع معه جِهَةً أُخْرى، لا طاعة لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَة الخالق، وإذا عَرَفْتَ أحَدِيَّتَهُ اتَّجَهْت إليه وحْدَهُ، إقْبالكَ عليه لا على جِهَةٍ أُخْرى، وَمَوَدَّتُك إليه لا إلى سِواهُ، ورَغْبَتُك إليه لا إلى سِواه واتَّجَهْتَ إليه وحْده، كما أنَّك إنْ وَحَّدْتَهُ تلَقَّيْتَ عنه الشَّرْع والقِيَم والتَّصَوُّرات والأُسُس، إذْ لا مصْدر

آخر لك، أما المُشركون فيرون العالم الفُلاني والكتاب الفُلاني والمؤلّف الفُلاني، أنت لك مصدر واحد للحقائق هو القرآن الكريم والسنَّة المُطهَّرة، الحلال ما أحلَّهُ الله، والحرام ما حرَّمَهُ الله، فإذا عرفت أحَدِيَّتَهُ تلقَّيْتَ عنه القِيَم، والشرائع، والنُّظم، والمقاييس، تقيس الناس بمِقْياس الأخْلاق، ومِقْياس العِلْم، أما إذا تَلَقَّيْتَ المقاييس عن بني البشر تقيسُهم بالمال والقوَّة، فأنت إذا عرفت أحَدِيَّته تَلَقَّيْت عنه كُلَّ شيء، وقبلْتَ شَرْعه، ووسِعَتْك السنَّة، ولم تستَهْوِكَ البِدْعة، وإذا عرفْتَ أحَدِيَّتَهُ تَحَرَّكْت في الحياة لِتَتَقَرَّب منه فقط، وعبدْتَهُ وحْدَهُ، واتَّجَهْتَ إليه وحْده، وتلقَّيْت عنه الشرائع والمقاييس والنظم، وما يجوز وما لا يجوز، وتَحَرَّكْتَ لِتَعْمَلَ تقرُّباً منه فحسب لا لِسِواه، وأحْسَنْتَ إلى الخلق تعْبيراً عن حُبِّك له فهذه هي نتائِج الأحَدِيَّة، ونتائِج قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

في نفْس المؤمن عِزَّة لا يعْلَمُها إلا الله وهذه العِزَّة أتَتْهُ من التوحيد :

ليس معه شريك ولا نظير، وبالمعنى الدقيق للرحمة لا رحيم سِواه، سيِّدنا يعقوب ماذا قال؟ قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 86]

فإذا جلس الإنسان إلى غَنِيٍّ يشْكوهُ ألَمَهُ وضيق ذات يدِهِ، فإنه ورد:

((من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله، ومن تضعضع لغني لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله))

[أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس]

لو رأيْتَ أحَدِيَّتَهُ لم تُذِلَّ نفْسَكَ لِسِواه، إلى الله أشْكو بثِّي وحُزْني.

ويُعابُ من يشْكو الرحيم إلى الذي لا يــرْحَمُ

* * *

فالعِبْرة أنْ ترى أحَدِيَّتَهُ ولا سِواه، أما بالنظْرة القاصِرة فهُناك آلاف مُؤَلَّفة من الشركاء، عندها كُلُّ إنسانٍ إنْ تكلَّم معك كلمتين خفتَ منه، أمَّا إذا رأيْتَ أحَدِيَّتَهُ اِعْتَزَزْتَ بِعَظيم، في نفْس المؤمن عِزَّة لا يعْلَمُها إلا الله، وهذه العِزَّة أتَتْهُ من التوحيد، وما تعلَّمَت العبيد أفضل من التوحيد، لذلك الإخلاص ليس أن تذهب إلى صَوْمَعَةٍ وتعبد الله هناك، هذا لا يريدهُ الله سبحانه وتعالى، هذا اسمه اِنْعِزال وانْسِحاب وهُروب من الحياة، أما إذا خُضْتَ غِمار الحياة، وكنت خليفة الله في الأرض، وطَبَّقْتَ شرْعَ الله،

وامْتَثَلْتَ أمْرَهُ، وانْتَهَيْتَ عما نهى، وسِرْتَ بِنُوره، وأقَمْتَ ميزانه، فقد حقَّقتَ إنْسانِيَّتَك في الأرض، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 30]

يُقيمُ الحق، ويعْدِل بين الخلق، يرْحم الضعيف ويُوَقِّرُ الكبير، هذا هو الإنسان الذي استخلفه الله سبحانه.

من لم يتَّصِف بالكمال والأحَدِيَّة والصَّمَدِيَّة لا يكون إلهاً :

قال بعضُهم في قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

ما معنى الصَّمَد؟ قال: إنَّهُ المُسْتَغْني عن كُلِّ أحد، والمُحْتاجُ إليه كُلُّ أحد، والصَّمَد المقصود في الرغائِب، والمُسْتعان عند المصائِب، وهو يفْعل ما يشاء ويحْكم ما يريد، وهو الكامل الذي لا عَيْب فيه، وهو الذي لا أحد فوقهُ.

فالله سبحانه وتعالى أحَدِيٌّ في أسْمائِهِ، صَمَدِيٌّ فيها، فلا أحَدَ يُشارِكُهُ فيها، وأسْماؤُه نابِعَةٌ من ذاته، وليْسَت من جِهَةٍ أُخْرى، هذا هو معنى قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

تسعةٌ وتِسْعون اسماً، واحِدٌ فيها صمَدِيٌّ فيها، بعضهم قال: من لم يتَّصِف بالكمال والأحَدِيَّة والصَّمَدِيَّة لا يكون إلهاً، فالأصْنامُ التي عبدها الجاهِلِيُّون من دون الله، أو الأصْنامُ البَشَرِيَّة التي يعْبُدها الناس من دون الله، هذه الأصْنام ليْسَتْ كاملة، وليْسَت أحَدِيَّة، وليْسَتْ صَمَدِيَّة، فلا يجوز أنْ تُتَّخَذَ آلهة! لكن الله سبحانه وتعالى هو الإله، لأنَّهُ كاملٌ في أسْمائِهِ، وَحْدانِيٌّ فيها، وصَمَدِيّ، فأَحَدِيَّتُهُ الموجِبَة للتنزُّه عن شائِبة التَّعَدُّد والتركيب، فالسيارة مثلاً مؤلَّفة من أجْزاء، فما دامت مكوّنة من أجْزاء فهي ليْسَت صَمَدِيَّة، فإذا حَذَفْتَ المُحَرِّك وقفت، أو نفد البنْزين وقفت! لأنَّها مُرَكَّبَة، فلا يجوز على الصَّمد ترْكيب ولا تجْزيء، والصمديَّة اسْتِغْناؤُه الذاتِيّ عمَّن سِواه وافْتِقار جميعُ المخْلوقات إليه في وُجودِها وافْتِقارها له في سائِر أحْوالِها.

عِلَّةُ الوِلادة لا تجوز على الله سبحانه وتعالى :

بَقِيَ قوله تعالى:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

إنّ الله سبحانه وتعالى قديم ولا شيءَ قبلهُ، فلو أنَّهُ وُلِد لكان هناك شيءٌ قبله، ولكنه لم يَلِد ولم يُولَد، فالإنسانُ يلِدُ غُلاماً ليُعينَهُ إذا كبر، وليَكُون اسْتِمراراً بعد موتِه، أمّا الله تعالى فهو حَيٌّ باقٍ على الدوام، فعِلَّةُ الولادة لا تجوز على الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

لا شيء قبله ولا شيء بعده، وقوله تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(كُفُواً) أي الزَّوْجة، فلا جهة تُماثِله، ولا جهة أكبر منه كان منها، ولا جهة أصغر منه هو قبْلها، طبْعاً هذا تفْسيرٌ للصَّمَد، ربنا عز وجل قال:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

وقال تعالى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

[سورة الأنبياء: 26]

وقال تعالى:

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الأنعام: 101]

أيُّ تفْسير للقرآن يجْعل أسْماء الله ليْسَت حُسْنى تفسير مرْفوض :

وفي صحيح:

((لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ))

[مسلم عَنْ أبي مُوسَى]

فمعنى لم يلِد أي لا شيء بعده، ولم يولد أيْ لا شيء قبله، وقوله تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

أيْ لا شيء كان قبله، ولا شيء سَيَكون بعده، ولا شيء سَيَكون مُمَاثِلاً له، بأيٍّ نوع من أنواع المُماثلة، فهذه سورة الإخْلاص، وهي سورة التجْريد، وسورة التوحيد، من قرأها وعرف أبْعادها، وعرف كلمة (الله) الاسم الجامع للأسْماء الحُسْنى، وعرف طرَفاً من أسْماء الله الحُسْنى، وفكَّر فيها، وبحث عن شواهِد لها في الكون، فمن أحْصاها دخل الجنة، ومن عرف ذلك اسْتَحَقّ دُخول الجنَّة، وعرف أنَّ هذه الأسْماء كُلُّها حُسْنى، فأيُّ تفسير للقرآن يجْعل هذه الأسْماء ليْسَت حُسْنى فَهُوَ مرْفوض، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

الله سبحانه أحد في أسْمائِهِ وصَمَديٌّ في أسْمائِه ولا شيء قبله ولا شيء بعده :

((عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: مَرِضَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ فَبَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ وَقَالَ هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أُبَالِي وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى بِيَدِهِ الْأُخْرَى جَلَّ وَعَلَا فَقَالَ هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أُبَالِي فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ))

[أحمد عَنْ أَبِي نَضْرَةَ]

هذا الحديث تفْسيرُهُ الظاهِريّ لا يليق بِحَضْرة الله تعالى، إنما له تفْسيرٌ آخر، فظاهِره يشير إلى أنه قبل أنْ يُخْلق الكافرُ خلقهُ شَقِياً، وقدَّر عليه المَعْصِيَة، فلما عصى حاسَبَهُ وأدْخَلَهُ جهَنَّم خالِداً فيها! وهذا لا يليق بالله تعالى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

هذا التفسير لا يليق بالله عز وجل، لكن الله علِم بعلمه الأزليّ أن هؤلاء صالحون، وهؤلاء سيكونون كفاراً وللنار.

إذاً يجب أنْ تعرف أنَّ أسماء الله تعالى حُسْنى، وأنَّه أحد في أسْمائِهِ، وأنَّهُ صَمَديٌّ في أسْمائِه، وأنَّهُ لا شيء قبله ولا شيء بعده، فإذا أيْقنْتَ بهذا انْقطَع رجاؤُك عمن سِواه، واتَّجَهْتَ إليه، وعَبَدْتَهُ وحْدَهُ، وأخْلَصْتَ له وحْده، فَسَعِدْتَ بِقُرْبِهِ، وقد خُلِقْتَ لِيُسْعِدك، وهو الهدف من خلْقِك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفلق 113-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 الشر والسحر والحسد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-08-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث شريفة وردت عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها :

أيها الأخوة الأكارم، سورة اليوم هي سورةُ الفلق، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ))

[البخاري عن عقبة بن عامر]

((أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ))

[مسلم عن عقبة بن عامر]

((اقْرَأْ يَا جَابِرُ، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ اقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَقَرَأْتُهُمَا فَقَالَ اقْرَأْ بِهِمَا وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا))

[النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

أحاديث كثيرة وردت عن النبي عليه الصلاة والسلام تتحدَّث عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها، أمَّا كلمة:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

فالفعل (قُلْ) تحَدَّثنا عها في الدَّرس الماضي على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ أن يقول نصَّ هذه الآية، وأن القرآن الكريم من عند الله حرفاً بحرف، وحركة بحركة، ونصّاً بنصٍّ، وترْتيباً بتَرْتيب، وكُلُّ شيء في القرآن الكريم إنما هو مُنْزل من عند الله بنَصِّه.

كلمة (الْفَلَقِ) ذهب العلماء في تفسيرها مذاهب شتى :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

في هذه الآية مركز ثِقَل، وهي كلمة (الفَلَق)، فقد ذهب العلماء في تفسيرها مذاهب شتى، ولكنَّ أرجح هذه التأويلات والتفسيرات أنَّ (الفَلَق) هو الكون كُلُّه، كان الله ولم يكن معه شيء فخلق الكَوْن، أي ظهر الكون، فالكون هو الفلق، والسماء تنشَقُّ عن المطر، والمطر هو الفلق، والأرض تنشَقُّ عن النبات، والنبات هو الفلق، والمرأةُ تلِدُ طِفْلاً، والطفل هو الفلق، والشجرة تُنْبِتُ بُرْعُماً، والبُرْعم هو الفلق، والبُرْعم يُنْبِـتُ زَهْرَةً، والزهرة هي الفلق، والزهرة تنْعَقِدُ ثَمَرَةً والثمرة هي الفلق، وأنثى الحيوان تلِدُ ومَوْلودها فلق، كُلُّ شيءٍ خرج إلى حَيِّز الوُجود، كان غائباً عنا فَظَهَر، اِنْشَقَّ فَظَهَر هو الفلق، لكنَّ بعض المُفَسِّرين قالوا: سورة الفلق اِسْتِعاذة بالله سبحانه وتعالى من شَرِّ ما خلق، وسورة الناس اِسْتِعاذة بالله سبحانه وتعالى من شرِّ الوسواس الخناس، والشيء الذي تُخْطِئ فيه فَيُصيبُك، فثمن خطئِك أنْ تستَعِيذ منه بسورة الناس، فالأشْياء التي تُصيب الإنسان، والتي لا يستطيعُ الإنسانُ دَفْعَها كالتي تُسَمَّى قضاءً وقَدَراً اِسْتَعذ منها بسورة الفلق، والأشياء التي هي من أعْمال الإنسان، ومن أخْطاء الإنسان، والتي تُسَبِّبُ متاعب للإنسان فَلْيَسْتَعِذ منها بسُورة الناس، على كُلِّ معنى(أعوذ) ألْتَجِئُ وأحْتَمي وأسْتَغيثُ وأسْتَنْجِد وأستجير، كُلُّ هذه المعاني مُستفادة من كلمة (أعوذ)، نقول: عاذَ الطِّفْلُ بأُمِّه، أيْ اِلْتَجأ إليها، واحْتَمَى بها، وأوى إليها، ورجا عندها الأمل، اِحتمى بها من أعْدائِهِ ومن وَحْشٍ مُخيف، فَسُبْحانه وتعالى له مخْلوقاتٌ شِرِّيرة ومخْلوقات من نوع الجَماد، الصواعِق والبراكين والزلازل والأمراض، ومخاطر من نوع الإنسان، إنْسانٌ شِرِّير يُحِبُّ لك الأذى ويُحِبُّ أنْ يوقِعَ بك.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

أطِعْ أمْرَنا نرْفَع لِأجْلك حُجْب ... نا فإنا منَحنا بالرِّضى من أحَبَّنا

ولُذ بِحِمانا واحْتَمِ بِجَنابِنـا ... لِنَحْميك ممِّا فيه أشْرار خَلْقِنـا

* * *

الله سبحانه وتعالى أراد بكَلِمة الفلق الكَوْنَ كُلَّهُ :

أكرِّر معنى أعوذ أي أحْتَمي، وألْتَجِئ، وأطلب الأمن والسلام، أحْتَمي وأسْتَغيثُ وأسْتَنْجِد، والفلق كما قلت قبل قليل الكون كُلُّه، وكُلُّ شيءٍ تنْطوي عليه عيْنُك فإنما هو الفلق.

قال بعضهم: الفلق هو الصبح، لكنَّ الفلق أعمّ من الصبح، في الاسْتِعاذة هناك المُسْتَعيذ، والمُستعاذ به، والمُسْتَعاذ منه، فالمُؤمن مأمور أنْ يستَعيذ والمؤمن مُتواضِعٌ لله عز وجل وليس في قلبه كِبَر، يخاف عذاب الله وبطْشَهُ، يسْتعيذ بالله فهُو مُسْتعيذ، وأخْطار الحياة من شَرِّ ما خلق يُسْتعاذ منها، والله سبحانه

وتعالى يُسْتعاذ به، فلما يستَعيذ الإنسان بغَير الله فقد أشْرك، إنْ اسْتعاذ بقُوَّتِه، أو استعاذ بقَرابته فقد أشْرك، إنْ احتمى بماله، وقال: المال هو كُلُّ شيء فقد أشْرك:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

طبعاً الفلق على وَزْن فَعَل، كَقَوْلِك قَصَص، بِمَعْنى مَفْعول، أي مقصوص، فَكُلُّ شيء أظْهره الله تعالى على حَيِّز الوُجود هو الفلق، فكأنَّ سبحانه وتعالى أراد بِكَلِمة الفلق الكَوْنَ كُلَّهُ، كُلُّ ما وقَعَتْ عليه عَيْنُك وما لم تقع، وكُلُّ ما رأيته وما لم تره، وكُلَّ ما أحْسَسْتَ به وما لم تُحِسّ به إنما ينْطوي تحت كلمة الفلق، فَخالِقُ الفلق ربُّ الفلق، وهو وحْدَهُ أهْلٌ أنْ تسْتعيذ به لأنَّهُ القوِيّ المُبْدِع الخالق، وهذا الذي تخاف منه هو بيَد الله الذي بيَده ملكوت كلِّ شيء، قال تعالى:

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

الله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أنْ تسْتعيذ به :

قال تعالى:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

فالله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أنْ تسْتعيذ به، وإذا اسْتَعَذْتَ بِمَخْلوقٍ دونه فقد وَقَعْتَ في الشِّرْك، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بي من دون خلقي أعرف ذلك من نِيَّتِهِ فَتَكيد له أهل السماوات والأرض إلا جعَلْتُ له من بين ذلك مَخْرَجاً، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بِمَخْلوقٍ دوني أعرف ذلك من نِيَّتِه إلا جَعَلْتُ الأرض هَوِياً تحت قدَمَيْه، وقَطَّعْتُ أسباب السماء بين يَدَيْه، فاسْأل نفسك هذا السؤال: إذا ألَمَّتْ بك مصيبة فأنت تسْتعيذ بِمَن؟ أتَفْزَعُ إلى قريبٍ لك من ذوي الحول والطول! أتفْزَعُ إلى واسِطَةٍ تُرَجِّحُ المَوْقف! أتفْزَعُ إلى مالك تدْفَعُهُ للناس؟! أم تفْزَعُ إلى الله عز وجل؟ كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ بادر إلى الصلاة، ومن علامة الإيمان أنْ تسْتعيذ بالله عز وجل، وتلجأ إليه، وأنْ تكون في حِماه وظِلِّه، فقُل أعوذ برَبِّ الفلق، هذا أمرٌ مُوَجَّهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فَمَن أنت؟! وإنَّ الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المُرْسلين. مما يُؤَكِّدُ هذا التفسير ويَدْعَمُهُ قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

[سورة الأنعام: 95]

آيةٌ أُخْرى، وهي قوله تعالى:

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة الأنعام: 96]

مُجَرَّد أنْ تسْتعيذ بغير الله فقد أشْرَكْتَ :

الله سبحانه وتعالى وَحْدَه أهلٌ للاستِعاذة به إنْ كنت مؤمناً به، وإذا اسْتَعَذْتَ بسِواه فإنَّ في إيمانك خَلَلاً، وفي إيمانك شِرْكاً، قال تعالى:

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

[سورة يوسف: 103]

وقال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

بِمُجَرَّد أنْ تسْتعيذ بغير الله فقد أشْرَكْتَ، لذلك فالدعاءُ النبوي الشهير إذا أقْدَمَ المرءُ على عملٍ قال: " اللهمّ إني تَبَرَّأتُ من حَوْلي وقوّتي والتَجَأتُ إلى حَوْلك وقُوَّتِك يا ذا القوة المتين "، وكلما لاحَ لك شَبَحُ مصيبة وتَوَهَّمْتَ من إنسانٍ قوَّةً وأنَّهُ يُريدُك بهذه القوّة فقُل:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

أليس النبي عليه الصلاة والسلام قُدْوَةً لك في هذا؟ من علامة المؤمن الاسْتِعاذة بالله تعالى، وهناك من يرى لِنَفْسِهِ شأناً كبيراً، وأنّه أكبر من ذلك، هذا هو الكِبْر، والمُتَكبِّر دواؤُهُ القَصْم، وما من مُتَكَبِّر إلا قصَمَهُ الله عز وجل.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

الشَّرُّ طارئٌ والأصل هو الخير :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

هنا نقطة دقيقة جداً أتمنى أنْ تكون واضِحَةً لدَيْكُم، الله سُبْحانه وتعالى لا يخْلق شَرّاً، وإذا سأل سائِلٌ من الذي خلق الشَرّ – طبْعاً في العَقيدة السليمة: آمنْتُ بالقَدَر خيره وشَرِّه – ولكنَّ الشرّ كَشَرٍّ ما مَبْعَثُهُ؟ كُلُّ شيء خلقه الله سبحانه وتعالى خيرٌ لنا، ولكن من أين يأتي الشرّ؟ حينما يغفل الإنسان عن الله تعالى، وتتحَرَّكُ شهواته كي تُرْوى، وبِتَحَرُّكِهِ لِشَهَواته من دون بصيرة من الله عز وجل ومن دون هُدى يقعُ له الشرّ، إذاً متى يصْدُر الشرّ من الإنسان؟ إذا غفل عن الله عز وجل، فهُوَ تعالى أمره ألاّ يغفل عنه، سيارة مُنْدَفِعَة ما دام فيها سائِق ماهر وحكيم، والأدوات كلها بيَدِهِ، وتحت سَيْطَرَته، ومعه ضَوْءٌ كاشِف

يكون الخير، وتنْقُلُه إلى مُبْتغاه، أما إذا كان سائِقُ السيارة مُدْمِنَ خَمْرٍ، قد يقعُ الحادث المُفْجِع، وإذا انْطَفَأ مصْباحه يقع الحادث كذلك، فالشَّرُّ طارئٌ والأصل هو الخير، فالإنسان إذا أقبل على الله عز وجل كانَ خَيِّراً، فإذا حُجِبَ عن الله عز وجل، وانْقَطَع عنه وأعرَض، وكانت في نفسه شهَوات من دون هُدى من الله عز وجل هنا يقعُ الشرّ، فلا يصْدُر الشرّ من الإنسان إلا إذا تحَرَّك وهو في عَمى، أما إذا تحَرَّك لِقَضاء حاجاته وشَهَواته وَفْقَ ما أمر الله عز وجل، وَوفْقَ الهُدى الإلهي فلا يقعُ الشَرّ، يتَزَوَّجُ فَيَقَعُ الخير، يسْكُنُ إلى زَوْجَتِه وتسْكُنُ إليه، ويُنْجِبُ أوْلاداً أبْراراً، يُرَبِّيهم على حُبِّ الله ورسوله، وله عملٌ ينْفَعُ به المسلمين، فأيُّ حَرَكَة تتحَرَّكُها وَفق المنهج الإلهي فأنت في خير، لأنَّ هناك نقطة دقيقة وهي مع أنَّهُ شرِّير بحُكْمِ بُعْدِه عن الله عز وجل، وانْقِطاعه عنه، وبِحُكْم العمل الذي وقع فيه، فهذا الإنسانُ الشِرِّير ليس طليقاً، بل هو بيَد الله عز وجل، يسوقه لِمَن يسْتحقّ أنْ يوقِعَ الأذى به، الظالم سوط الله ينْتقم به ثمَّ ينْتقم منه، إذاً قال بعضُ علماء التوحيد: إنَّ الشرَّ ليس له وُجودٌ إلا في النُّفوس، أما في العالم المادِّي فإنَّ شرّ الإنسان يُوَظِّفُه الله تعالى في مصْلَحَة الإنسان، فهذا السارق يُحِبّ أن يسرق، والسَرِقةُ شرّ ورَغْبَةٌ في الحُصول على المال من دون هُدىً من الله عز وجل، هذه السرقة شرّ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى آخِذٌ بيَد السارق، يسوقه إلى مالٍ حرام فيُؤَدِّبُ به المسْروق؛ هذا هو الشّرّ الذي يصدر عن الإنسان.

أنواع الشرور :

أما الشرّ الذي يصدر عن الحيوان فحينما يتجاوَزُ حُدوده يقع، فالأفعى حَيَوانٌ نافِعٌ إذا بَقِيَتْ في باطن الأرض، فإذا خَرَجَت تُصْبِحُ شرِّيرة، وأُمِرْنا بِقَتْلها، وكذا العَقْرب، وعلى مُستوى الإنسان إذا غفل عن الله عز وجل، وانْقَطَعَ، يُصْبِحُ شِرِّيراً، وَشَرُّهُ مُقَيَّد لا يسْتطيع أنْ يوقِعَ أذاهُ إلا بمَن يشاؤه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الشرّ الصادر عن الإنسان، وقد أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بقَتْل الفَوَيْسِقات؛ الفأرة والعَقْرَب والحَيّة، لأنَّها تجاوَزَتْ حُدودها، أما إذا تتبَّعْتَها إلى وَكْرها فَقَتْلُها حرام، لأنها تُقَدِّمُ خِدْمَةً ثابِتَة، فقد اكتشف العلماء أنَّ هذه الحيوانات التي تعيش في باطن الأرض لها دَوْر خطير في تَهْوِيَة التربة، وفي إنْبات المزروعات، أما الشرّ الصادر عن الجمادات ففي سوء اسْتعمالها، فالله سبحانه وتعالى خلق المواد كلَّها، فإذا اسْتعملتها في غير مَوْضِعِها كمن يضع السكر في الطبخ! والملح في الشاي! والمنظِّف في الطبخ! والوَقود في الحليب! فسوءُ اسْتعمال المواد يُسَبِّبُ ضَرَراً، فكما تُلاحِظون أنَّ الشرّ طارئ، وهو سَلْبي، وليس إيجابياً، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

الخنزير مُحَرَّمٌ أكله، لكنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لِوَظيفَةٍ، والضبعُ كذلك، لتنْظيفُ البَرِيَّة من الجِيَف، لأنّ هذه الجيفة إذا ماتت تملأُ الفضاء بريحِها الكريهة، فتأتي مثل هذه الحيوانات فتُريحُنا منها، أما أنْ تأكلها فهي شرّ، فكُلُّ أنواع الشرور إما أن تنْتج عن غفلة من الإنسان، وقد أُمِرَ أنْ يكون مع الله سبحانه وتعالى، وإما أنْ تنتُجَ عن تجاوز الحيوان حَدَّهُ، أو اسْتِعماله في وَظيفَةٍ لم يُخْلَق لها، كأن تأكله وقد حَرَّمَ الله تعالى أكْلهُ، أو أن تستخدم المواد التي خلقها الله عز وجل كلها لِمَصْلَحة الإنسان، أنْ تسْتَخْدِمها في غير مَوْضِعِها، فهذا هو الشرّ.

التملك لا يكون إلا بعد التذليل :

رَبُّنا عز وجل قال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

طبعاً من شرِّ ما خلق على معنى أنَّ هذه المواد إذا أُسيء اسْتِخْدامها، وهذه الحيوانات إذا تجاوزَتْ حَدَّها، وهذا الإنسان إذا غفل عن الله يُصْبِحُ مُؤْذِياً، وقد تأتي النكبات والزلازل والبراكين والفَيضانات والأوْبِئَة والأمراض، كل هذا من شرّ ما خلق:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

هناك نقطة صغيرة تتعلق بالحيوانات، فمثلاً الجمل مُذلَّل، والغنم مُذلَّل، والبقر مُذلَّل، والدجاج مُذلَّل، والإنسان يأنسُ بها، ويرْتاحُ لها، ويقْتَنيها، ويَتَمَلَّكُها، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)

[سورة يس: 71]

من معاني هذه الآية: متى تَمَلَّكوها، وتنافَسوا على تَمَلُّكِها؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذَلَّلها لهم، أما الضبعُ والذِّئب والحيَّة والعقرب، هذه لم تُذلَّل، فهل تُملَّك؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

فكأن الله سبحانه وتعالى بتذليل بعض الحيوانات، وعدم تذليل البعض الآخر أراد أن يُعرِّفنا نعمة التذليل، لولا أنه ذَلَّل هذا الحيوان، ولولا أنه ترك هذا الحيوان مُخِيفاً لَما عرفتَ نعمة التذليل، نعمة التذليل ندركها من وجودِ حيوانٍ غير مُذلَّلٍ، ولذلك التملك لا يكون إلا بعد التذليل:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

أيَّةُ سيِّئَةٍ على الإطلاق مهما كانت صغيرةً فمن نفسك :

هناك حيوانات غير مذللة، فلدغة عقرب وأفْعى قد تُميتُ الإنسان، هناك حيوانات مُفْتَرِسَة الماءُ قد يُغْرِقه، وبعض الأدوية قد تُفْقِدُهُ الحياة، وبعض الأعْشاب قد تُفْقِدُه الحركة:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

شيءٌ آخر أُحِبُّ أنْ تَقِفوا عنده وَقْفَةً مُتَأَنِّيَة، سأقْرأ على مسامِعِكم طائِفَةً من الآيات الكريمة، القرآن كما يقول عُلماؤه قَطْعِيُّ الثبوت، قطْعِيُّ الدلالة، فَقَطْعِيُّ الثبوت أنَّ القرآن كلام الله تعالى قَوْلاً واحِداً، وقَطْعِيٌّ الدلالة أنَّ المعنى المُستفاد من هذه الآية حقيقة ثابتة يقينِيَّة لا مجال لِرَدِّها، اِسْتَمِعوا قوله تعالى:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ِ)

[سورة النساء: 79]

سَيِّئَةٍ نكِرَة وهو تنْكيرُ شُمول، فأيَّةُ سيِّئَةٍ على الإطلاق مهما كانت صغيرةً ومهما كانت كبيرةً، ومهما كانت مُباشِرَة أو غير مُباشِرَة، مُؤلِمَة أو طفيفة الألم، وما أصابك من سيِّئَةٍ فَمِن نفْسِك، فَمَن وجد خيراً فَلْيَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفْسَه، وهل تسْتطيع إنْ كنت مؤمناً بالله وبِكِتابه الكريم أنْ تقول: إذا أصابَتْكَ مُصيبة، وأنا ماذا فَعَلْتُ؟!

آيات قرآنية تؤكد أن الشر من عند الإنسان :

اِسْمَع الآية:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ِ)

[سورة النساء: 79]

قَوْلاً واحداً، آيةٌ ثانِيَة، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

آية ثالثة، قوله تعالى:

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

ما مِن عَثْرةٍ أو اخْتِلاج عِرْقٍ ولا خَدْش عودٍ إلا بما قَدَّمَتْ أيديكم، وما يعْفو الله أكثر:

((قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ قَالَ قُلْ اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السماوات وَالْأَرْضِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ قَالَ قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هناك دِقَّةٌ بالغة في أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، لم يقُل عليه الصلاة والسلام: اللهم إنِّي أعُوذُ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَان ومن شَرِّ نفسي، فلما قدَّمَ شَرَّ النفس على شَرِّ الشيطان أكَّدَ أنَّ كل شيء بيده، وأنّ الدواب كُلَّها بيَد الله عز وجل، وأنّ كل دابةٍ آخِذٌ بناصيِتِها، وأنَّهُ إذا أطْلق دابَّةً من هذه الدواب لِتُصيبَ إنْساناً ما بأذى فبِسَبَبِ شرٍّ في نفْسه، وهذا الدعاءُ تعْليمي لنا، اللهم إنِّي أعوذ بك من شَرِّ نفْسي ومن شَرِّ كلِّ دابَّةٍ أنت آخِذٌ بناصِيتها، لذلك ورد: لا يخافَنَّ العبدُ إلا ذنْبه، ولا يرْجُوَنَّ إلا ربَّهُ.

إذا اسْتَحقَّ العبدُ مُعالَجَةَ سَلَّطَ الله عليه من لا يرْحَمُهُ :

إذا رَجَوْتَ الله سبحانه وتعالى، وإذا خِفْتَ الله تعالى خافَكَ كُلُّ شيء، وإذا لم تخَفِ الله تعالى أخافك من كلِّ شيء، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المائدة: 11]

فحينما يكون الإنسان مع الله عز وجل يَكُفُّ عنه أيدي الأشرار، وهناك شيءٌ في التَّوْحيد يُسَمُّونه التَّسْليط، وهو من الله عز وجل، فإذا اسْتَحقَّ العبدُ مُعالَجَةَ سَلَّطَ الله عليه من لا يرْحَمُهُ، وإذا اسْتَحقَّ إكراماً كفَّ الله عنه يد الأشرار، لذلك قال بعض العارفين:

أطِعْ أمْرَنا نرْفَع لِأجْلك حُجْب   نا فإنا منَحنا بالرِّضى من أحَبَّنـا

ولُذْ بحِمانا واحْتَمِ بجَنابنــا   لِنَحْميك ممّا فيه أشْرار خَلْقنـا

* * *

تَذَكَّر أنَّك إذا لم تسْتَقِم على أمر الله، ولم تلْتجِئ إليه، ولم تسْتَعِذ به، فالأشْرار كثيرون، والجهات التي تُخيفُ الإنسانَ عديدة، فمَصادِرُ القلق والخوف بالحياة الدنيا لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، وإذا عرَفْتَ الله سُبحانه وتعالى، واسْتَقَمْتَ على أمره، والتَجأتْ إليه، واسْتَعَذْتَ به دَخَلْتَ في أمْنٍ، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

الأصل هو الخير أما الشرّ فهُوَ طارئ، الخير إيجابي يحْتاجُ إلى خالق، والشرّ سَلْبي ناتِجٌ عن غفلة الإنسان، أو عن تجاوُز الحيوان، أو عن سوء اسْتِخْدام الجمادات، والشَّر عِلاجي، وهو بيَد الله عز وجل، آمنتُ بالقَدَر خيره وشَرِّه من الله عز وجل.

الحكمة من خلق الشر والخوف في الأرض :

شيءٌ آخر:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

لماذا خلق الله سُبحانه وتعالى أشْياء تُخيفُنا؟ سؤال، لماذا خلق الأفعى والعقرب، وأشْخاصاً مُخيفين شرِّيرين؟ قال علماء التوحيد: لو لم يجْعل الله سبحانه وتعالى في الأرض مصادر للخَوْف لاسْتَغْنَيْتَ عنه، وبهذه الأشياء المُخيفة تبْقى مُلْتَجِئاً إليه، وإذا التَجَأتَ إليه سَعِدْتَ بقُرْبه، من أجل أنْ يُسْعِدَك، فالطّفْل إنْ ترك أُمَّه شقِيَ، فإذا كان هناك حيوان مُخيف للطفل في الطرف الآخر، فهذا الطفل يبْقى مع أمِّه، فهذه الأشْياءُ المُخيفة التي بثَّها الله في الأرض من حيوانات، وجمادات، وأشْخاص شِرِّيرين، وأشياء مزعجة، تَصْنَعُ الوِجْهَة إلى الله، والالتِجاء إليه، وتحملك على أن تلوذَ به، وتحْتمي بحِماه، وتُقْبِلَ عليه، وتسْتَعيذَ به:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

حِكْمَةٌ بالغة، فلولا وجود مخْلوقاتٍ شِرِّيرة في الأرض لاسْتَغْنى الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، ولو نام أحدكم بِخَيْمَة فإنه يخْطُر بباله عقْرب، أو حَيَّة، فيقرأ آية الكرسي كي يحفظه الله تعالى، فلو لم يكن هناك خطر لنام مثل الحيوان، أما هذه الأشياء المُخيفة تدْعوه للالْتِجاء إلى الله - طبعاً بصورة عامة لا يوجد عند الإنسان حياتٍ بالبيْت، لكن هناك أشياء مُخيفة تُشابِهُها - لو جاءَتْكَ ورقة صغيرة: تعال إلى عندنا بعد أسبوع، لن تنام ذلك الأسبوع خَوْفاً من هذا الاسْتِدْعاء، فالأشياء المُخيفة هي في خِدْمَة الإنسان، صار الشرُّ إذاً نِسْبياً، يا ترى لو أُصيب الإنسان بالزائِدَة والتَهَبَتْ ألَيْسَ شقُّ البطن، ونُزول الدم منْظَراً يدعو للخَوْف، ومع ذلك هذه العملِيَّة من أجل راحَتِهِ، ألَيْسَ حقْرُ السنِّ مُؤلماً، من أجل راحَةٍ أكبر منه فصار الشرّ نِسْبياً.

إيتاءُ المُلك ونَزْعُ المُلك والإعْزازُ والإذْلال كُلُّها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمُعالج:

الآية الكريمة:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء، وقوله: وتنْزِعُ الملك ممن تشاء، بنَظَر الناس شرّ، وتُعِزُّ من تشاء خير، وتُذِلُّ من تشاء شرّ، لكن إيتاءُ المُلك ونَزْعُ المُلك، والإعْزازُ والإذْلال كُلُّها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمُعالج، وعند الذي خلقك للآخرة، وعند الذي أعدَّ لك ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَت ولا خطر على قلب بشر، وعند الذي خلقك من أجْله، فآثَرْتَ أنْ تكون من أجل عباده، فأذاقكَ الله بأسَهُم، فإما أنْ تكون عَبْداً لله، وإما أنْ تكون عَبْداً لِبشرٍ لئيم، فاخْتَرْ! ولا بد من العُبوديَّة، إما أنْ تكون عَبْداً لله، فَعَبْدُ الله حُرٌّ وعزيزٌ وكريم، وإما أنْ تكون عبْداً لِعَبْدٍ لئيم، واللهِ والله مرَّتَيْن لَحَفْرُ بئْرَيْن بإبْرَتَيْن وكَنْسُ أرض الحِجاز في يوْمٍ عاصِفٍ بريشَتَين، ونقْلُ بَحْرَيْن زاخِرَيْن إلى أرض الصعيد بمِنْخَلَيْن، وغَسْلُ عَبْدَيْن أسْوَدَيْن حتى يصيرا أبيَضَيْن أهْوَنُ عليَّ من طلب حاجَةٍ من لئيمٍ لِوَفاءِ دَيْن، إما أنْ تكون عَبْداً لله، أو عَبْداً لِبشرٍ لئيم؛ إنْ أحْسَنْتَ لم يقْبل، وإن أسأتَ لم يقْبل، إنْ رأى خيراً دَفَنَهُ، وإن رأى شَرّاً أذاعه:

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

من هؤلاء، ولعَلي أتيْتُ على بعض النواحي الدقيقة في هذا الموضوع، الشرّ نِسْبي، هو عندك شرّ، أما عند الله فهو خير، كما أنَّ الطّفل يبْكي ويضْطرب إذا علِمَ أنَّ الطبيب سَيُعْطيه إبرة، مع أنَّ هذه الإبرة لِصالِحِه ولِتَسْكين ألَمِه، وإزالةِ الالتِهاب، فَعِنْدَ الطفل هذه الإبرة شرّ، أما عند الأب فهي خير.

المصائبُ نِعَمٌ باطِنَة :

اليسر إيجابي، وأما الشرّ فهو طارئ، والشرّ ناتِجٌ عن غفلة، وتجاوز حُدود، وعن سوء اسْتِعمال، لذلك قال بعْضهم في قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[سورة لقمان: 20]

المصائِبُ نِعَمٌ باطِنَة، رَجُلٌ أُصيبتْ ابنته بِمَرَضٍ عُضال، بذل من أجل عِلاجها المُستحيل، فباع بيْتَهُ، وبعد سَنَواتٍ طويلة فكَّر ساعَةً، وقال: لو أنَّني تُبْتُ إلى الله لعَلَّ الله يشْفِيَها، فبدأ يُصلي هو وزوْجَتُهُ، حَجَّب زوْجَتَهُ، وابْتَعدا عن المُنكر، فَشَفاها الله عز وجل، فَبَيْعُ بَيْتِهِ، وهذه السنوات الستّ التي أمْضاها في ألمٍ لا يُحْتَمل من جراء مرضٍ عضالٍ أصاب ابنتَه، ثمَّ انْتهى هذا كُلُّهُ بهُداه، واصْطِلاحه مع الله سبحانه وتعالى، أيُعَدُّ هذا المرض شرّاً؟ أيُعَدُّ بيْعُ بيْتِهِ شرّاً؟ لا والله، ولو أنَّ تاجِراً اِحْتَرَقَ متْجَرُهُ، ثم تاب عن التعامل بالربا، كما قال أحدهم: والله اِحْتَرَقَ لي مليونين من البضاعة، وكان احْتِراقُ هذه البضاعة سبباً لِتَوْبَتِهِ، وترْكِهِ الرِّبا، أيُعَدُّ هذا شراً؟ لا والله، لكنّ الله سماهُ شراً بِحَسَبِ مفْهومِنا نحن، وبِحَسَب مصطلحنا بيننا:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

الإعراضُ ظُلمة وأكبر هؤلاء المُعْرِضين هو الشيطان :

ثمَّ قال تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

قال بعضُهم: الغاسِق هو الليل، وقال بعضهم: الشيطان، لماذا هو غاسِق؟ لأنه مُظْلم، ولأنَّهُ بعيدٌ عن الله تعالى، فبُعْدُهُ عن الله تعالى أوْقَعَهُ في ظُلمة، وإذا أقْبَلْتَ على الله عز وجل صِرْتَ في نورٍ، قال عليه الصلاة والسلام:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

الإعراضُ ظُلمة، وأكبر هؤلاء المُعْرِضين هو الشيطان، في ظلامٍ دامِس، وفي غَسَقٍ:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

ثمَّ يعْني الشيْطانِ إذا وقب، ومعْنى وَقَب أيْ دخل في الوَقْب، والوَقْب الكُوَّة، وهي كِنايَةٌ عن صَدْرِ الإنسان، فإذا دخل الشيطان في الإنسان فالعِياذ بالله! قبل أيامٍ عديدة اثنان في حالة سُكْرٍ شديد أرادا أنْ يفْعَلا الفاحِشَة بِغُلامٍ، فاخْتَلفا، فأطْلَقَ أحدهما النار على الآخر بالمُسَدَّس، فأرْداهُ قتيلاً، وأُخِذَ الثاني إلى السِّجْن، أنا قلتُ: هذا من عَمَلِ الشيطان، وهذا هو "من شرِّ غاسِقٍ إذا وقب "، هؤلاء الذين يُعْدِمونهم في الساحة العامة كُلَّ يومٍ أو يَوْمَيْن، من هم؟ هؤلاء دخل فيهم الشيطان فَسَوَّل لهم ارْتِكاب جريمَةٍ، أو سَرِقة حانوتٍ، أو قتْلَ إنْسانٍ، أو سَرِقة مركَبَةٍ، أو اغْتِصابَ فتاةٍ، فكان مصيرُهم ما كان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

إذا قُلتَ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) نجوت منه :

في مُقدِّمة هذه الشرور الشيطان الغاسِق إذا وَقب، إذا دخل في نفْس الإنسان جَعَلَهُ شِرِّيراً، يُحِبُّ شَهْوَتَهُ ولو كانت على حِساب الآخرين، يُحِبُّ قضاء لَذَّتِهِ ولو أدَّتْ إلى تحْطيم امرأة وجَعْلِها مُومِساً، يُحِبُّ اكْتناز المال ولو كان سلْباً أو سَرِقَةً، يحِبُّ أنْ يحْيا ويموت الناس، ويأكُلَ ويجوع الناس، يُحِبُّ أنْ يبْنِيَ مَجْدَهُ وحياته على موتِهم، أنْ يبْني أمْنَهُ على قَلَقِهِم، أنْ يبْني مَجْدَهُ على ذُلِّهم:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

لكن معك سِلاحُ ضِدَّ الشيطان، وهو فعالٌ جداً، إذا قُلتَ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كان السلاح الخطير تُصَوِّبُهُ عليه فتَجْعَلُهُ يَهْمَد، إذا قُلتَ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نجوت منه، وربُّنا قال:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأعراف: 200]

وقال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

[سورة المؤمنون: 97]

إنْ ألمّ بك خاطِرٌ خطيرٌ، ولا يُرْضي الله، كأنْ تأخُذ شيئاً ليس لك، أو أن تَحْتال، أو أنْ تُدَلِّس، أو أن تخْدَع، أو تُخْفي عَيْبَ البضاعة، أو تكذِب في رأسمالك، أو تُزَوِّر، فاسْتَعِذ بالله من الشيطان الرجيم، لأنّ هذه وساوِسُ الشيطان الذي دخل إلى صَدْرك، فقُل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا دَخَلْتَ إلى بيْتٍ، وَسَوَّلَتْ لك نفْسُك أنْ تُلْقي نظْرةً على من فيه من دون أنْ يكون مُباحاً لك هذا، لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، يسوِّل له فِعْلَ المُنْكر.

على الإنسان أنْ يُعينَ أخاهُ على الشيطان وليس أنْ يُعين الشيطان على أخيه :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

وفي رؤوس الأشرار شرُّ غاسِقٍ إذا وقب، الآن هناك مَعْنيان: المعنى الأول: الشيطان إذا دخل إلى نفْس الإنسان. والمعنى الثاني: إذا دخل الشيطان إلى نفْس شخص آخر يُصْبِحُ وحْشاً يكاد ينقض عليك، وبطاشاً ومُؤْذِياً ومُجْرِماً، فاسْتَعِذ بالله أنْ يدخل الشيطان إلى صَدْرك فيُوَسْوِس إليك، واسْتَعذ بالله أنْ يدْخُل الشيطان إلى صَدْر إنسانٍ آخر تتعامل معه فينْقلب أمامك شِرِّيراً، قال تعالى:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

[سورة القصص: 15]

هذه مُشاحنة بين القِبْطي والإسْرائيلي، هذا من عمل الشيطان، الشيطان دخل بينهما، فلذلك الإنسان عليه أنْ يُعينَ أخاهُ على الشيطان، وليس أنْ يُعين الشيطان على أخيه، فإذا غضِبَ أخوك فاسْكُت، فإذا رَدَدْتَ عليه بِكَلِمَة قاسِيَة أعَنْتَ الشيطان عليه، فإذا سَكَتَّ أعَنْتَهُ على الشيطان، رَجُلٌ تلفَّظ بِكَلمات قاسِيَة بِحَقِّ صحابيٍّ جليل، ما فعل هذا الصحابي شيئاً إلا أنْ قال: غفر الله لك إنْ كُنتَ مُخْطِئاً، وغفر الله لي إنْ كنتُ مُخْطِئاً، علاقتك مع زوْجَتِك، ومع أوْلادك، وجيرانك، وأصْحابك، وزُملائِك، أعِنْهُم على الشيطان، ولا تُعِن الشيطان عليهم، إذا اسْتَفْزَزْتَهُم، وقَسَوْتَ معهم، وأخَذْتَ حقَّهُم فقد أعَنْتَ الشيطان عليهم، أما إذا تسامَحْتَ معهم وأحْسَنْتَ إليهم فقد أعَنْتَهم على الشيطان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

السحر والتخاطر النفْسي :

ثمَّ قال تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

النفاثات هي النفوس الساحِرَة، والسِّحْرُ أصْلُهُ التمْويه بالحِيَل والتَخايُل، كالسراب تراهُ ماءً، وهو انْعِكاسٌ شُعاعي على الأرض، سَحَرْتُ الصبيّ أيْ خَدَعْتُهُ، وأصْلُهُ الخفاءُ والصَّرْف، فإذا صَرَفْتَ إنْساناً عن شيءٍ فقد سَحَرْتَهُ، وأصْلُهُ الاسْتِمالة، قالوا: محمدٌ صلى الله عليه وسلم سحر أصْحابه، أي مالوا إليه، والسِّحْرُ أنْ تُؤخَذَ بِلُطْفٍ، والسِّحْرُ عند بعض المذاهب الإسلاميَّة خِداعٌ لا أصْل له، وعند الشافِعِي رضي الله عنه وَسْوَسَةٌ وأمْراض، وعند الأحْناف حقٌّ، وله حقيقة، ولكن هناك أشْياءٌ حتى الآن طبيعتها بَقِيَتْ مجْهولة، دَرَسْنا شيئاً في عِلْمِ النفْس اسمه التخاطر، امْرأةٌ في إيطاليا وهي في مطْبَخِها رأت ابنها وهو في باريس، قد دهَسَتْهُ سيارة فصرخَت، رأتْهُ بِأمِّ عَيْنَيها، بعد أيامٍ ثلاثة جاء جُثْمان ابنها إلى البيت، مع تقْريرٍ يؤكِّدُ الدقيقة التي رأتْهُ فيها يُدْهَس، سماها عُلماءُ النفْس التخاطر النفسي، وهذا قائِدُ جيْشٍ في العِراق قال: أسْمَعُ صوتَ أمير المؤمنين يُحَذِّرُني، الجبلَ الجبلَ، هذه وَقَعَتْ كيف؟ لا نعْرف، العِلْمُ عاجِزٌ عن تفْسير هذه الخاطِرة التي سماها العُلماء التخاطر النفْسي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

وقال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

فالتخاطر معْلومٌ ومجْهول، هو حدثٌ وَقَعَ، ولكنَّ تفسيرهُ مجْهول، كذلك السِّحْر، فالأحْناف قالوا: هو شيءٌ حقيقي، ولكنَّ طبيعته مجْهولة، والإمام الشافِعي قال: هذه وساوِسٌ وأمْراض، وبعض الفرق الإسلاميَّة قالوا: وهْمٌ لا أصْل له، لكنَّ النبي الكريم استْعاذ بالله من هؤلاء الذين يسْحَرون، هناك أشْياء دقيقة سَأورِدُها لكم في هذا الموضوع.

لا يستْطيعُ الساحر أنْ يضُرَّ أحداً إلا بإذْن الله :

هناك من السِّحْر ما يُكَفِّرُ صاحِبَه، ومن فعل السِّحْر لِيَصْرِفَ الناس إليه فهذا كُفْرٌ، وبعضُ المذاهب الإسلاميَّة أباحَتْ دمَ هذا الساحِر لأنَّهُ يُضَلِّلُ الناس، ويصْرِفُهم عن الحقيقة الكُبرى إلى نفسه، وربنا عز وجل قال:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 102]

لماذا كفروا؟ يُعَلِّمون الناس السِّحْر، قِصَّة سخيفة يَرْويها اليهود نفاها الله تعالى، فلا يسْتطيعُ الساحر أنْ يضُرَّ أحداً إلا بإذْن الله، فالساحِر لا يسْتطيع أنْ ينْفذ بسِحْرِهِ إلى إنْسانٍ إلا إذا كان غافِلاً عن الله سبحانه وتعالى.

العلاقات الإنسانيَّة المتينة يأتي الساحر فَيَفْصِمُ بينها ويُحِلُّها ويجْعَلُها واهِيَة :

إذا قال الإنسان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

بطل السِّحْر، ومعنى النفاثات في العُقد، هذه العُقَد المتينة، العلاقة الزوْجيَّة عُقْدة، وعلاقة الأخوة عُقْدة، وعلاقة الشَّريكَيْن عُقْدة، وعلاقة الأبُوَّة عُقْدة، وعلاقة الجوار عُقْدة، والسيّدة عائِشَة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام مرَّةً: كيفَ حُبُّكَ لي؟ قال: كَعُقْدة الحبل، فكانت تقول له من حينٍ لآخر: كيف العُقْدَةُ؟؟ فيقول لها: على حالِها، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

فهذه العلاقات الإنسانِيَّة المتينة يأتي الساحر فَيَقْصِمُ بينها، ويُحِلُّها، ويجْعَلُها واهِيَة، فالخِلافُ الزوْجي يقع بِسَبَبِ زوْجَيْن غافِلَيْن عن الله عز وجل، ويأتي السِّحْر فَيَقْطَعُ هذه الصِّلَة.

الحسد نوعان :

الآية الأخيرة، هي قوله تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

1 ـ حسد مذموم :

قال العلماء: الحسدُ مذْمومٌ ومحْمود! هو مذْمومٌ إذا تمنَّيْتَ زوال النِّعْمة عن أخيك المُسلم، وأنْ تتحَوَّل إليك، هذا هو الحسد:

قل لِمَن بات لي حاسِداً   أتَدْري على من أسأتَ الأدَبَ؟
أسأتَ على الله في فِعْلِه   إذْ لم ترْضَ لي ما وَهَــبَ

* * *

إصْبر على حسد الحسود   فإنَّ صبْرَكَ قاتِلُــه
فالنـارُ تأكُلُ بعضهــا   إنْ لم تجِد ما تأكلــه

* * *

هذا هو الحسدُ المذْموم، لماذا؟ لأنَّهُ تسْفيهٌ للحق سبحانه وتعالى على إنْعام نِعْمَةٍ ظَنَنْتَ صاحبها لا يسْتَحِقُّها، هذا شِرْكٌ بالله، وكُفْرٌ به.

2 ـ حسد محمود :

وأما المحْمود فما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

إذا حَسَدْتَهما فهذا هو الحسد المحْمود، ولكنَّ العلماء سَمَّوْهُ غِبْطَة، وسماهُ الله تعالى مُنافَسَة، فقال تعالى:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

وقال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

فَسَماهُ الله مُنافِسَة، وسماهُ النبي غِبْطَة، وفي الأثر عن الفضيل بن عياض: المؤمن يغْبِطُ والمنافق يحْسُد، قال عليه الصلاة والسلام:

((العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر))

[أبو نعيم في الحلية عن جابر]

فَلَن تتأثَّر بالسِّحْر ولا بالحَسَد - مرَّةً ثانِيَة - إلا إذا كنت غافِلاً عن الله تعالى فإذا تَلَوْتَ قوله تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

فلن يصل إليك شِرِّير، ولا شيطانٌ يستطيع أنْ يدخل في صدْرك، ولا ساحِرٌ أنْ يؤثِّر فيك، ولا حاسِد يمكنه أنْ يحْسُدك.

حال الحاسد :

ثم إنّ الحاسِد أبْغَضَ النِّعْمة على غيره، وفي هذا شكّ منه في حِكمة الله سبحانه وتعالى، والحاسِد ساخِطٌ لِقِسْمة الله تعالى، وضادَّ فِعْلَ الله، ولم يسْتَسْلم له، وخَذَلَ أوْلِياءَ الله عليه فَحَسَدَهم، وذَمَّهُم بدل أنْ يَدْعَمَهُم، والحاسِد أعان الشيطان على أخيه، ولا ينال في المجلس إلا الندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا اللعنة، ولا ينال في الخلوة إلا الجَزَع والغَمّ، ولا ينال في الآخرة إلا الحُزْن والاحْتِراق، ولا ينال عند الله إلا بُعْداً ومَقْتاً، وقال عليه الصلاة والسلام: ثلاثة لا يُستَجابُ دُعاؤُهم: آكل الحرام، ومُكْثِرُ الغيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حسَدٌ للمسلمين، وقال بعضهم: أوَّلُ ذنْبٍ عُصِيَ الله به في السماء هو الحسد قال تعالى:

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف: 12]

وأوَّلُ ذنْبٍ عُصِيَ الله به في الأرض أنَّ قابيل حسد هابيل، فَنَعوذ بالله من الحسد، ونسْأله المنافَسَة والغِبْطة في الطاعة، والاسْتِقامة وحِفْظ كتاب الله، فهذا هو المطْلوب، فَهَذه السورة اِقْرأها قبل أنْ تنام، ولن تر مناماً مُخيفاً:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الناس 114-الدرس (1-1): تفسير الآيات1 - 6 الاستعاذة بالله ووسوسة الشياطين .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس وسورة الفلق هما المُعَوّذتان اللتان حضّ النبي على قِراءَتِهما مِراراً وتَكْراراً:

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة الناس وهي آخر سورة في كتاب الله، وسورة الناس وسورة الفلق هما المُعَوّذتان اللتان حضّ النبي صلى الله عليه وسلّم على قِراءَتِهما مِراراً وتَكْراراً.

وفي الدرس الماضي، في سورة الفلق تَوَجَّهَتْ الآيات إلى أنَّ الإنسان إذا خاف عَدُوّاً، وخطراً قريباً، وشَبَحَ مُصيبةٍ، وأشْرار الناس فَلْيَسْتَعِذ برَبِّ الفلق، والفلق هو الكون، ويُمْكِنُ أنْ تُوَجَّه آيات اليوم توْجيهاً آخرَ إضافةً إلى ما تحْتَمِلُهُ أيْضاً من تَوْجيهات السورة السابقة.

فالنبي صلى الله عليه وسلّم والكمال الذي ظَهَر منه، وعَقْلُهُ الراجح، وحِلْمُهُ الذي لا حُدود له، وشَجاعَتُه: أنا النبي لا كذب، أنا النبي لا كذِب، أنا ابن عبد المطّلب، ورأفَتُهُ، ورحْمَتُهُ، ورِفْقُهُ بالحيوان، وعطْفُهُ على الإنسان، ورجاحَةُ تفْكيره، كيف كان أباً ناجِحاً، وقائِداً ناجِحاً، وسِياسِياً مُحَنَّكاً، وأخاً كبيراً للمؤمنين، كيف جمع هذه الصِّفات من الرحمة إلى العِلم، إلى الحِكْمة والحِلم والتواضع والفِطْنة والذكاء، إلى قُوَّة الحدْس، وإلى إشْراق النفْس، وإلى دِقَّةِ النظَر ورجاحة الرأيْ، حتى إنَّ الله سبحانه وتعالى وصَفَهُ وصْفاً ينْفردُ به، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

ولم يُقْسم الله سبحانه وتعالى بِعُمُر نَبِيٍّ إلا بعمره صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

العِياذُ بالله عز وجل هو سببٌ لِكُلِّ مكْرُمَة :

ولم يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام إلا بِقَوْله: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، فَهُناك دلائل كُبْرى في كتاب الله تُبَيِّنُ عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلّم، وقد يسأل سائِل: من أين جاءَت هذه العَظَمَة؟

ومن أين جاء هذا الخُلُق العظيم؟ ومن أين جاء هذا الحِلمُ والمروءة والرحمة والحِكمة والتواضع؟ فكان الجواب: قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس)

أنا كذلك لأنَّني عُذْتُ برَبِّ الناس، فهذا الخُلُقُ العظيم وهذه النفسُ المُشْرِقة والعَقْلُ الراجح والصِّفات النامِيَة إنما اشْتَقَّها النبي عليه الصلاة والسلام من الله سبحانه وتعالى عن طريق الاتِّصال به تعالى والعِياذِ به، فكلمة أعوذ مُضارع ماضيها عاذ ومصْدَرُها عِياذ وعَوْذٌ، فالعِياذ بالله عز وجل هو سببٌ لِكُلِّ مكْرُمَة.

والآن فإنك ترى أنّ الصورة قد انْقَلَبَتْ من وصْفٍ للنبي عليه الصلاة والسلام إلى طريقِ سالِكٍ إلى الله عز وجل، فَكُلُّ واحِدٍ يسْمَعُ هذا الكلام إذا أراد الخُلُق الرفيع والمقام المحْمود عند الله، وإذا أراد أنْ تكون له سعادته الأبَدِيَّة، وأن يكون حليماً كريماً ومُتواضِعاً وجريئاً وصاحِبَ مُروءة، حكيماً وذكِياً وفَطِناً فالطريق أنْ يتَّصِل بالله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس)

فلا تعْجبوا:

((أدَّبَني ربي فأحْسن تأديبي))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

هُناك دلائل كُبْرى في كتاب الله تُبَيِّنُ عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلَّم :

في السورة الماضِيَة وُجِّهَت الآياتُ على أساس أنَّك إذا خِفْتَ من مخْلوق شِرير، أو إذا بدَتْ لك مُصيبة أو شبَحُ مصيبة، أو خِفْتَ مرَضاً عُضالاً أو جُرْثوماً فتاكاً وعَدُوّاً قهاراً، إذا خِفْتَ من أمْثال هؤلاء فقُلْ أعوذ برَبِّ الفلق، اليوم هذا الكمال العظيم، وهذا الخُلُق العظيم، الرِّفْعَة العالية، والثبات على المبْدأ، وهذه السعادة التي لا توصَف، لو بقيتُم على الحال التي أنتم فيها عندي لصافَحَتْكُم الملائِكة، ولزارَتْكُم في بُيوتِكم، فَمَن مِنا لا تسْتَهْويهِ أخْلاق النبي عليه الصلاة والسلام؟ ومن منا إنْ كان صادِقًا فعليه أنْ يذْهب إلى الحرَم النبوي الشريف ويقف أمام حُجْرَتِهِ الشريفة ولا يبْكي؟ ما الذي جَمَعَكَ به؟ فأنت لم ترَهُ! بعد ألف وأربعمئة عام تقِفُ أمام حُجْرَتِهِ فَتَبْكي، أليس لأنَّهُ على خلُقٍ عظيم، ألَيْس لأنَّ رحْمته وسِعَتْ أُمَّتَهُ كُلَّها؟ أليس لأنَّهُ كان نَبِيَّ هذه الأمَّة؟ أليس لأنَّهُ لم يقُل شيئاً بِلِسانِهِ إلا طَبَّقَهُ في سُلوكِهِ؟ يكْفيهِ بعضُ المواقف! ففي رحلة العمُر التي انتهت عند الحديبية كانت الرواحل ثلاثمئة، والجُنود أكثر من ألف فما الحيلة؟! فقال عليه الصلاة والسلام وهو قائِدُ الجَيْش: لِيَتَناوَبْ كُلُّ ثلاثةٍ على راحِلة، وأنا وعَلِيٌّ وأبو لُبابة على راحِلة، فلما جاء دَوْرُهُ في المَشْي قال له صاحِباهُ: يا رسول الله اِبْقَ راكِباً، فقال

عليه الصلاة والسلام - وهو نَبيُّ هذه الأمَّة كلماتٍ لو أعَدتُها آلاف المرات لا أشْبَعُ منها: ما أنا بأغْنى منكما عن الأجْر، ولا أنتما بأقْوى منِّي على المَشْي! وكان النبي عليه الصلاة والسلام مع أصْحابِهِ في نُزْهَة، فقال أحدهم: عَلَيَّ ذَبْحُ الشاة، وقال الآخر: عليَّ سَلْخُها، وقال الثالث: وعَلَيَّ طبْخُها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعَلَيَّ جمْعُ الحَطَب، فقال له أصْحابُهُ: يا رسول الله نكْفيكَ ذلك، فقال: أعلم ذلك، ولكِنَّ الله يكرهُ أنْ يرى عَبْدَهُ مُتَمَيِّزاً على أقْرانه! قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

ما هذا التواضع؟! دخل مكَّة مُطَأطِئ الرأس تواضعاً لله عز وجل.

خلق النبي الكريم مع أزواجه وأصحابه :

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ – تكلم ما في نفوسهم - أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ

الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

ما هذا الموقف الحكيم؟! كيف ألّف قلوبهم وجمعهم عليه وكيف أزال من أنفسهم الألمَ؟ كيف أرضاهم؟! كيف أكرمهم؟! ما هذا الخُلُقُ العظيم؟ وهذا شأنه مع أزواجه الطاهرات، ومع أصحابه الكِرام، وكلُّ صحابيٍّ كان يظنُّ أنّه أقربُ الناس إليه، عرفَ قدرَ أصحابه، يقول لأحدهم: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، ويقول له إذا دخل عليه: هذا سعدُ هذا خالي أرُوني خالاً مثلَ خالي، ويقول لِأحدهم: واللّهِ يا معاذ إنّي لأحبُّك، ويقول عن سيِّدنا أبي بكرٍ: لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ، ما دعوْتُ أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كَبوةٌ إلاّ أخي أبا بكرٍ، ويقول عنه: ما طلعتْ شمسٌ بعد نبيٍّ على أفضلَ من أبي بكر، ويقول: ما ساءني قط فاحفظوا له ذلك، ويقول: تسابقْتُ أنا وأبو بكر فكُنَّا كهاتين، عرف قدرَه عليه الصلاة والسلام.

ما من صحابيٍّ إلا وأعطاه النبيُّ حقَّه ووصفَه وصفاً دقيقاً وهذا من عظمة خلقه :

يقول عليه الصلاة والسلام: لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر، يا عمر ما سلكتَ فجّاً إلاّ سلك الشيطانُ فجّاً غيرَ فجِّك، أمّا سيدُنا عثمان:

((عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعاً فِي بَيْتِي كَاشِفاً عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ))

[مسلم عن عَائِشَةَ]

سيدنا عليٌّ قال فيه عليه الصلاة والسلام: أنا مَدِينةُ العلم، وعليٌّ بابُها، سيدنا أبو عبيدة قال فيه:

((أمينُ هذه الأمَّة))

[متفق عليه عن أنس]

سيدنا خالد قال فيه:

((نِعم عبد الله خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله))

[البخاري عن أبي هريرة]

ما من صحابيٍّ إلا وأعطاه النبيُّ حقَّه، ووصَفه وصفاً دقيقاً، ما هذا الخلُق العظيم؟! ما هذه الصفات العالية؟! ومكانة هذه النفسُ السَّامية؟! من أين جاء بهذا كلّه؟

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

لأنه التجأ إلى الله عز وجل واتَّصل به واشتقَّ من كماله واقتبس من أسمائه الحسنى، قال الله تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

جاءت رب الناس ملك الناس إله الناس تخْصيص تشْريف وتكْريمٍ لِهذا الإنسان :

وصْفٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وسِرٌّ لعظمة النبي عليه الصلاة والسلام وطريقٌ لأن تكون عظيماً بنوعٍ من أنواع العظمة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام، فهل تحبُّ أن تكون رحيماً حقيقة؟ هناك من يتظاهر بالرحمة أمام الناس، وهو ينطوي على قلبٍ قاسٍ كالحجر، هناك من يحكم حكماً عادلاً لِيُقال عنه عادل ولو خلا إلى نفسه لم يحكم هذا الحكم، لذلك إذا أردتَ أن تكون أخلاقياً حقيقةً، وأخلاقك أصيلة فلتكنْ نابعة من الإيمان لا من الذكاء، إنَّ هذا طريقُه الاِتصالُ بالله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

ربُّ الناس، و ملك الناس، وإله الناس جُمِعتْ في قوله تعالى:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

[سورة الزمر: 6]

وقال تعالى:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)

[سورة المزمل: 9]

عندنا سؤالان: لماذا ربُّ الناس مع أنَّهُ رب العالمين؟ ولماذا ملكُ الناس مع أنَّهُ مِلِكُ المُلْك كُلِه؟ ولماذاَ إله الناس مع أنَّهُ إله العالمين؟ لأنّ هذا تخْصيصَ تشْريف للإنسان، هو رب العالمين، ولكن في هذه السورة جاءت رب الناس ملك الناس إله الناس، تخْصيص تشْريف وتكْريمٍ لِهذا الإنسان.

الله سبحانه وتعالى لأنَّهُ ربُّ العالمين وَجَبَ أنْ يكون عليماً بِخَلْقِهِ وخبيراً بهم :

لماذا التَّكْرار؟ هو تَكْرار تَوْكيد، فما معنى ربُّ الناس؟ وما معنى مِلِكُ الناس؟ وما معنى إله الناس؟ الربُّ أيها الأخوة الأكارم هو المُربي، ولا يتَّضِحُ معنى الربوبيَّة إلا بِمَثَلٍ نضْربه: لو أنَّ مُزارعاً زرع فسيلةً، زرع نباتاً فَعَليه أنْ يسْقيه، وأن يُمِدَّهُ بالسماد، وإذا ظهر عليه مرضٌ فعليه أنْ يُكافِحَ هذا المرض بالمُبيدات، وعليه أنْ يعرفَ طبْعَ النبات، أيُحِبُّ الشمْس الساطعة؟ أم الشمس المُخَفَّفَة؟ أم ظلاً ظليلاً؟ أتَكون السُّقيا كُلَّ يوم؟ أم في الأسْبوع مَرَّتان أو مَرَّة؟ فَسَقيُ هذا النبات وتَقْليمُهُ، وتسْميدُهُ، ونقلُهُ من

مكانٍ لآخر، ومُكافحة أمْراضِهِ هذا نَوْعٌ من الترْبيَة، فماذا تحْتاجُ التَّربية؟ إلى العِلْم، ما مِن مُرَبٍّ إلا وهو عليمٌ بِطَبيعَة الذي يُرَبيه، ماذا يحْتاج؟ وماذا يُصيبُهُ؟ وكيف تُكافَحُ هذه الأمْراض؟ ما طبيعة هذا النبات؟ فالله سبحانه وتعالى لأنَّهُ ربُّ العالمين وَجَبَ أنْ يكون عليماً بِخَلْقِهِ وخبيراً بهم، وفَرْقٌ دقيق بين العِلْم والخِبْرة فقد تكون عالِماً ولَكِنَّك لا تسْتطيع أنْ تتنبَّأ بما سَيكون، وقد تصْنَعُ هذه الأداة، ولكن لا تعرفُ أين نِقاطُ ضَعْفِها، عند الاسْتِعْمال تبْدو لك نِقاط الضَّعْف فَتُقَوِّيها، فأنت لا تمْلكُ الخِبْرة الكافِيَة، معنى الخِبْرة: الحقائِق المُسْتَمَدَّة من التجارب الطويلة، لكنَّ الله سبحانه وتعالى عِلْمُهُ أزَلِّي، وخِبْرَتُهُ أزَلِيَّة، فلا بدّ أن يكون ربُّ الناس عالِماً، ولا بدّ أن يكون ربُّ الناس خبيراً بهذه النَّفْس، ولا بدَّ أن يكون قديراً وغَنِياً وحكيماً، فقد تَصُبُّ على نبْتَةٍ ماءً بقوة فَتَكْسِرُها! تقول: هي تحتاج إلى الماء! نعم تحْتاج إلى الماء ولكن إلى ماءٍ خفيف، لا بد من أنْ يكون عليماً وخبيراً وقديراً وحكيماً، ولا بدَّ أن يكون إشْرافُهُ مُسْتَمِراً، فلَوْ غاب صاحبُ هذه الفسيلة، وسافر ثمَّ عاد، قد يجِدُها ماتَتْ لِسَبَبِ غِيابِهِ عنها، فلا بد من إشْرافٍ دائِم، فالإشْرافُ الدائِم والغِنى والقدرة والحكمة والعلم والخبرة هذه بعض الأسْماء التي لا بد من توافُرِها في المُرَبي، فإذا قلت:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

فَرَبُّ الناس هو الذي يُمِدُّهُم بحاجاتِهِم فإذا احْتَجْتَ إلى الهواء فَنِسْبَةُ الأكْسجين إلى غاز الفَحْم نِسْبَةٌ مدْروسة، فَلَو زاد هذا الغاز على حِساب ذاك الغاز لاختَلَّ التوازن في الأرض، فلو زاد الأكْسجين لاشْتَعَل كُلُّ شيءٍ في الأرض، ولو زاد غاز الفحْم لاخْتَنَقَ كُلُّ شيء، ولكن هذه النِّسْبَة دقيقة، وكيف أنَ النبات يُعْطينا الأكسجين في النهار، ويسْتهلكُ غاز الفحم، وكيف أنَّ الإنسان يُعْطي الأكْسجين للنبات ليلاً ويستهلكُ غاز الفحْم وكذا.

بعض نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

أمَدَّنا الله تعالى بالهواء وبالماء الذي لا طعْمَ له ولا لوْنَ له ولا رائِحَة له، وهو يتبَخَّر في الدرجة الرابعة عشرة، فإذا تَجَمَّد قلَّتْ كثافتُه، على خِلاف عناصر الأرض كُلِّها، فلو أنَّه كعناصر الأرض إذا تَجَمَّد تقلّص وانكمش وزادَتْ كثافته لانْتَهَت الحياة على سطْح الأرض، وأعْطانا الهواء بِنِسَبٍ ثابِتَة، وأعْطانا الماء بِنِسَبٍ مِثالِيَّة، جعله عذْباً فُراتاً، وفي البحر جعله ملْحاً أُجاجاً، وَحَوَّل مياه البحْر المالِحَة إلى مياهٍ عَذْبَة عن طريق الأمْطار، ففي بعض البُلْدان العَرَبِيَّة هناك وِحْدات تحليل، كُلُّ مترٍ من الماء يُكَلِّف ثلاثة ريالات، ومع هذا لا يصْلُحُ للشرب، لأنها مِياهُ لا تُناسِبُ الإنسان، فلا بدّ من خلْطِها بمِياه الآبار حتى يصْلُحَ للشُّرْب، أمَدَّنا بالهواء والماء والنبات، فَلَو لم يكن النبات لما عاش الإنسان، لو ألْقَيْتَ

نظْرَةً على النبات لَوَجَدْتَ نباتات بمِحاصيل، وخُضْراوات شتْويّة وربيعيَّة وصيْفِيّة وخريفيَّة، والمحاصيلُ تُقطَفُ دفْعةً واحدة وهي قِوام غِذاء الإنسان، وكذا الأشْجار قد تسْتفيد من ثمرها أو من ظِلّها أو من جِذْعِها أو من أزْهارها أو من أوْراقِها فهذا النبات بشَتى أنْواعِهِ، وأمَدَّنا بالحيوان قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)

[سورة يس: 71]

ألْقِ نظْرَةً على طِفْلٍ يقود جَمَلاً، واتْلُ هذه الآية:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس: 72]

أما العقْرب فليس مُذَلَّلاً وكذا الأفْعى، فالرجل إذا رأى عَقْرباً قفزَ من مكانه، وصرخ بأعلى صَوْتِهِ، أما الطفْل فَيُمْسِكُ جملاً ويقودُهُ، فهو سبحانه وتعالى أمَدَّنا بالحيوان، هناك حيوانات نأكلُ لُحومِها، وأخرى نرْكَبُها، ونَحْمِلُ عليها أثقالنا، وتلك نسْتفيدُ من جُلودِها، وهذه تَحْرُسنا، وهناك التي تُنَظِّفُ الأوْساخ، أنواعٌ لا يعْلَمُها إلا الله، هناك أسْماكٌ نتَغَذى منها، ونسْتَمْتِعُ بمَنْظرها، وأسْماك زينة، فهذا سمكٌ شَفاف، والآخر أسْود فاحِم، والرقيق والمُسَطَّح، وله الأجْنحة، وله ذَيْلان وشاربَان، أنواعٌ لا يعْلَمُها إلا الله، لماذا خُلِقَتْ هذه؟! من أجلْ أن تستمتِعَ بها، أسْماك تأكل منها، وهذه تسْتفيد من أحْشائِها من كَبِدِها، حِيتان، أسماك صغيرة، الأطيار أنْواع منّوعة.

بعض

نماذِج الربوبيَّة وما يُمِدُّنا الله به من حاجات :

ما معنى ربُّ العالمين؟ أي أمَدَّنا بِكُلِّ هذا، حياتنا فيها هواء وماء ونبات وأسماك وأطْيار، ثمَّ هناك جبال مثل الخزانات للمياه، ومِصدَات للرياح، أوتاد في الأرض، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ)

[سورة المرسلات: 27]

وكذا الودْيان، بيت زراعي دون مُقابل، تجد البيت يُكَلِّف أربعين أو خمسين ألفاً! وذات بيئة مَحْمِيَّة، تزرع فيها خضراوات مُبَكِّرة، وتربحُ منها أرْباحاً طائِلَة، وكذا الغيران، والسهول، والجبال كلُّ هذه لها فائِدَة، فما معنى ربُّ العالمين؟ أمَدَّنا بِكُلِّ هذا! ثمَّ سخَّر لنا الشمس وما فيها من حرارة، فلو انْطَفَأت فجأةً لانْتَهَت الحياة على سطْح الأرض، ولأصْبَحَت الأرض كَوْكباً جليدياً حرارته مئتان وخمسون تحت الصِّفْر، أمَدَّنا بالقمر، وبالبحار المُلَطِّفَة للأجْواء، فلولا الماء على سطْح الأرض لأصْبَحَتْ حرارة المكان الذي يرى الشمْس مئتين وخمسين فوق الصِّفْر، أصبحت وإلى جانبهِ في الظلّ مئتين وخمسين

تحت الصفْر! كما هي الحال في القمر، فإذا وقف الرائد الفضائي في الشمْس كانت الحرارة مئتين وخمسين فوق الصفر، وإذا وقف تحت الظلّ كانت الحرارة مئتين وخمْسين تحت الصفر، لأنَّ الهواء والماء المُلَطِّفين للجوّ منعدمان، فالماء والهواء أجْهزَة تكييف رائِعَة جداً للأرض، أمَدَّنا بالأنهار والبُحَيْرات، معنى الرَبّ المُمِدّ بالنعم، لكنَّ المُمِدّ يجب أن يكون عالِماً وخبيراً وحكيماً وغَنِياً وقديراً ومُشْرِفاً إشْرافاً دائِماً، وأنت تقول في الصلاة: الحمد لله ربِّ العالمين، والله الذي لا إله إلا هو لو بَقِيتَ السنوات الطّوال تتحَدَّثُ عن نماذِج الربوبيَّة، وما يُمِدُّنا الله به من حاجات لما انتَهَتْ هذه الأيامُ والسنوات.

الجنين وخلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته سبحانه :

الجنين في بطْن أُمِّهِ من يُمِدُّه بالغذاء؟ ومن خلق له المشيمة ليأخذ الغذاء منها ويأخذ الدم عن طريقها! وفيها هرْمونات تُشْرف على الأجْهزة الداخِلِيَّة، فالمشيمة وحْدَها تكادُ تكونُ دِماغاً، ونُخاعاً شَوْكياً، وَكَبِداً، وجهاز تَصْفِيَة الدم، ورئتين، وقلباً، ومُسْتَوْدعاً للغذاء، هذه كُلُّها المشيمة، فَمَن كَوَّن هذا الجنين في بطْن أُمِّه؟ إذْ يحْتاج إلى بوتاسْيوم وكالِسْيوم، فهذا الوَحَم تعْبيرٌ عن حاجَةِ الجنين، قد يحْتاج الجنين إلى مادَّة البوتاسيوم، فَتَشْتَهي الأمُّ أكْلَة مُعَيَّنة، لقد حار العُلماء في هذه الظاهرة، حالة المرأة الحامل عجيبةٌ جداً، تشْتهي أكَلات نادرة لا علاقة لها بالمَوْسِم، هذا الذي تشْتهيه تعْبير عن حاجة الجنين في بطْنِها، تدبير ربّ العالمين سبحانه وتعالى، فهذا الجنين لا يسْتطيع أنْ يتَكَلَّم ويقول: ينْقُصُني بوتاسْيوم! الله سبحانه وتعالى يخْلق حاجَةً في نفْس الأمِّ لِهذا الطعام، فَتَأكُلُهُ فَيَذْهَبُ إلى الجنين مُباشَرَةً، بِمُجَرَّد أن ينْزل الجنين إلى الأرض - هكذا قال الأطباء - تأتي جلْطَة فَتُغْلِقُ الثُّقب الذي بيْن الأُذَيْنَيْن، ربنا عز وجل حِكْمَتُهُ بالغة، فما دامت الرئتان مُعَطَّلتين في بطْن الأم، والتنفُّس مُعَطَّل، كيفَ يُصَفَّى الدم؟ عن طريق المشيمة، فَدَوْرَةُ الدم الصغْرى من الأُذين الأيْسر إلى الأذَيْن الأيْمن دوْرَة مُغْلَقة، هناك فَتْحَة بين الأُذَيْنَيْن كَشَفَها عالِمٌ اسمُهُ بوتال، ثم قالوا: هذا ثُقب بوتال يمُرُّ بِهِ الدم من أُذَيْن إلى آخر، أما الطريق نحو الرئتين فمُغْلق، والرئتان مُعَطَّلتان، وبِمُجَرَّد أنْ يولد الجنين وينزل إلى الدنيا تأتي جلْطةٌ فَتُغْلِقُ هذا الثُّقب بين الأُذَيْنين، فَيَتَحَوَّل الدم إلى الرئَتَيْن، ويسْتنشِقُ الوليد الهواء ويتنفَّس، وهل تستطيع أنْ تصِلَ يَدُ الإنسان إلى هذا الثُّقب وتُغْلِقَهُ بِعَمَلِيَّة، هذه العَمَلِيَّة تحْتاج إلى سبعين أو ثمانين ألف ليرة، واحْتِمال نجاحِها بالمئة ثلاثون، ترْكيب قلْب صِناعي، وربْطُ الأوْرِدَة والشرايين بالقلب الصناعي، وفَتْحُ القلب، وخياطة هذا الثقب، ثمَّ إغْلاقه، ثمَّ تمْسيدُه، فإما أنْ ينبُض أو لا ينْبض! فإذا لم ينْبض يكون الأمر: عَظَّمَ الله أجْركم، لقد مات الغُلام! يدُ من تأتي فَتُغْلِقَ هذا الثقب؟! الله عز وجل حكيم، وإذا لم يُغْلق هذا الثقب

يمْشي الطّفل مستقبلاً ثلاثة أمْتار ثمَّ يقع! لأنَّ الدم يخْتار الطريق الأيْسَر، وهذا الداء اسمه الزَّرَق، وهو نادر! وأصبح طريق الرئتين طويلاً عليه ما دام هناك ثقباً، ويموت غالِباً في الثالثة عشرة من عُمُرِه أو أكثر، لي صديق تَوَفَّت ابنته بهذا المرض، الزَّرَق، فمن يربي هذا الجنين وهو في بطْن أُمِّه؟ وحين نزل إلى الدنيا فإذا به يجدُ حليباً مُعَيَّراً، حتى قال بعض العلماء: تعْيِيرٌ لِكُلِّ وَجْبَة، فلو حَلَّلنا حليب الأمّ في كُلِّ وَجْبَة لَوَجَدْنا عيارات خاصَّة به! ساخِنٌ في الشتاء، وباردٌ في الصَّيْف، ومُعَقَّمٌ تعْقيماً كامِلاً، فيه مناعة الأم، ويُهْضَمُ في أقلَّ من ساعة قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

حسب تفْسير بعضِهِم.

أرْجَحُنا عقْلاً يعوذ بالله سبحانه وتعالى وكلما قلَّ عقْلُ الإنسان عاذ بغير الله :

الله عز وجل يقول:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

هذا الربُّ العظيم الذي أمَدَّ الإنسان بِكُلِّ ما يحْتاج؛ بالماء والهواء والطعام والشراب، والنبات والحيوان، والشمْس والقمر، وبالجبال والصحارى، والوِدْيان والأنْهار، وأمَدَّهُ بالبَنين، هذا الذي يسْتَحِقُ أن تعوذ به، وأن تحْتمي به، وتلْجأ إليه، وأن تسْتنصِرَهُ وتحْتمي بِحِماه لا أن تحْتمي بِحِمى إنْسان، فالإنسان ضعيفٌ لا يسْتطيعُ أنْ يَحْمِيَ نفْسَهُ، لذلك أرْجَحُنا عقْلاً يعوذ بالله سبحانه وتعالى، وكلما قلَّ عقْلُ الإنسان عاذ بغير الله، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بي من دون خَلْقي أعْرِفُ ذلك من نِيَّتِهِ، فَتَكيدُهُ أهْلُ السماوات والأرض إلا جعلتُ له من بين ذلك مخْرجاً، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بِمَخْلوقٍ دوني أعْرِفُ ذلك من نِيَّتِهِ إلا جعَلْتُ الأرض هَوِياً تحت قدَمَيْه، وقطَّعْتُ أسْباب السماء بين يَدَيْه، عُذْ بِرَبِّ الناس، وفي الطائِف قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أشْكو إليك ضَعْفَ قُوَّتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمُني، أم إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أمْري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي))

[الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر]

فلك مع الله مواقف، فهل تسْتعيذ به إذا خِفْتَ مخْلوقاً؟ وهل تلجأُ إليه وتحْتمي بِحِماه؟ إذا أردْتَ أن تكون أقْوى الناس فَتَوَكَّل على الله، إذا أردْتَ أنْ تكون أكْرم الناس فاتَّق الله، وإذا أرَدْتَ أنْ تكون أغْنى الناس فَكُن بما في يَدَي الله أوْثَقُ منك بما في يدَيْك، ربُّ الناس الذي رَباك في بَطْنِك، يدُ من امْتَدَّت فأغْلَقَتْ هذا الثُّقب، ولولا أنَّها أغْلَقَتْ هذا الثُّقب لَكُنتَ في عِداد الموْتى وأنت صغير، قال تعالى:

الله عز وجل مالكٌ ومَلِكٌ :

شيءٌ آخر، وهو أنَّ كُلَّ عُضْوٍ في جَسَدِك يحْتاج إلى مواد خاصَّة، فقد قالوا: أقْسى مادَّة على سطْح الأرْض الألْماس، لأنَّها عبارة عن فَحْمٍ صافٍ تَعَرَّضَ لِضَغْطٍ مُنْقطِع النظير، وحرارة تَفُوق الخمسة آلاف درجة، حرارة عالية جداً وضغط عالٍ فصار هناك ألْماس، وبعد الألْماس تأتي ميناء الأسْنان، لِوُجود مادَّة الكلور، التي لو نَقَصَتْ لسَقَطَتْ الأسْنان كُلَّها، فَمَن وفَّر هذه المادَّة؟ الكلور، فهو مُهِمٌّ جداً، وأحْياناً يُضيفونه للماء من أجْل سلامة الأسْنان، وهذه الغُدَّة الدَرَقِيَّة تقوم بأخْطر دَوْر في الإنْسان وهو الاسْتِقْلاب، تَحَوُّل الغِذاء إلى طاقة، تجد شَخْصاً نشيطاً جداً ويأكل أكلاً جيِّداً، وقِيامُهُ رشيق، حينها تكون الغُدَّة الدَرَقِيَّة في أعلى نشاط لأنَّها تُحَوِّل الغذاء إلى طاقة، وهذا الاسْتِقْلاب يحْتاج إلى مادَّة اسْمُها اليود فالسَّمك يحْتويها وكُلُّ طعامٍ مُسْتَخْرَجٍ من البحْر فيه اليود، وكذا البِنْكِرْياس هناك مادَّة اسْمُها الأنسولين، من وَفَّرَها في غِذائِنا؟ ما معْنى الربّ؟ المُمِدُّ، الذي مَدَّ الغُدَّة الدرَقِيَّة باليود، وأمَدَّ البِنْكرياس بالأنْسولين، والأسْنان بالكلور، والعِظام بالكِلْس، والأعْصاب بالفسْفور، والدَّمَ بالحديد، شيءٌ عجيبٌ جداً، فمن أمَدّ الإنسان بهذا الغِذاء المعْدني؟ العدس فيه الحديد، والتفاح كذلك، ومعنى الحديد أملاح الحديد وليس الحديد المُرَكَّب، فَرَبُّنا عز وجل هو الربُّ، ومعنى الربُّ هو المُمِدّ، فإذا أصابك مكْروهٌ فقُل: أعوذ بِرَبِّ الناس، ولا تقل: ابن أخي وصاحِبِي! هذا نوعٌ من الشِّرْك بالله عز وجل، ثمَّ قال تعالى:

(مَلِكِ النَّاسِ)

قال بعضُ العلماء: المَلِك، هو الذي يحْكُم ولا يمْلِكُ، والمالك هو الذي يمْلِكُ ولا يحْكم، والله مالكٌ ومَلِكٌ، بعضُهم يقرأ في الفاتحة: مَلِكِ يوم الدِّين، والآخر مالك يوم الدِّين، فالله مالكٌ ومَلِك، وبعضهم قال: المَلِكُ هو الذي يمْلِكُ العُقَلاء يأمرهم وينْهاهم، والمالِكُ هو الذي يمْلِكُ الجمادات، وعلى كُلٍّ معنى مَلِك بِأَوْسَع معانيها: الله الذي يمْلِكُ سَمْعَك وبَصَرَك وقلبك ودِماغَك، ومن يمْلِكُ عَدُوَّك؟ الله سبحانه وتعالى، فمَعْنى المالك أنّه حُرُّ التَصَرُّف في ملكه، وفي ملك الله لا يسْتطيع هذا المخْلوق أن يتَحَرَّك إلا بِأمْر الله إنْ شاء قَبَضَ وإن شاء أطْلَقَ، إنْ شاء أمَدَّ وإنْ شاء منع عنه الإمْداد.

معنى المَلِك والمالك هو الذي بِيَدِهِ مقاليد الأمور :

معنى المَلِك والمالك هو الذي بِيَدِهِ مقاليد الأمور، أحْياناً شركة تحْوي ثمانين مُوَظَّفاً، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُوَقِّعَ لك إلا المُدير العام، إما أنْ يكتب "مُوافق "، أو " غير مُوافق"، ولله المَثَلُ الأعْلى، فالمَلِكُ هو الذي

يمْلِكُ كُلَّ شيء، أعْضاءَكَ وحواسَّك وأجْهزَتَكَ وزَوْجَتَكَ وأعْداءَكَ وأصْحابَكَ وجيرانَكَ وخُصومَكَ ومُنافِسيك، القِوى الطبيعِيَّة كما يُسَميها بعضُ الناس، فالرِّياح من يمْلِكُها؟ الله سبحانه وتعالى، إذا أثارَها بسرعة ثمانمئة كيلو بالساعة تُدَمِّرُ كُلَّ شيء، هناك أعاصير بأمْريكا لا تُبْقي في المدينة شيئاً، ومن يمْلِكُ الأمْطار؟ الله سبحانه وتعالى، في إفْريقْيا سَبْعُ سنوات بلا أمْطار، وعندي صُوَرٌ تُظهر كيف تموت الحَيوانات بعَرْض الصَّحْراء! جفافاً، كان الفُراتُ يفيضُ علينا، ويطوف ويُدَمِّر القُرى، أمّا الآن فقد أصبح كنَهْر برَدى! فَمَنْ يمْلِكُ الماء؟ الله سبحانه وتعالى، مالكُ الماء والأمْطار والرياح، ومن يمْلِكُ دَوْرة الأرض حوْل نفْسِها؟ الله سبحانه وتعالى، ومن يمْلِكُ هذا الشيء الذي أمامك؟ الله تعالى، كلمة مالِك تعني أنَّ الأمر بيَدِهِ، هذا مملوك والله هو المالك، فالإنسان إذا علِم أنَّ الله ملِك، فإذا نظر إلى عَيْنَيْه ووجَدَهُما كبيرتين دَعْجاوَيْن، فقال: ما أجْمَل هاتين العَيْنَيْن، فَهُوَ أحْمَق إن لم يحمد الله، لأنَّ الله هو مالك العَيْنَيْن! فإذا سَلَبَ الله منهما نورهما فقَدَ بَصَرَهُ، فالله هو المالك لهذا السَّمْع والقُوَّة، تجد الواحد بكامِل قِواه فإذا به يصاب بالشلل، فالله هو المالك للقوّة، والدعاء النبوي:

((ومتِّعْنا اللهم بأسْماعِنا وأبْصارنا وقُوَّتنا ما أحْيَيْتنا واجْعَلْهُ الوارِثَ منا))

[الترمذي عن ابن عمر]

من يمْلكُ هذا العَقْل؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا اخْتَلَّ فأقْربُ الناس إليه يَتَوَسَّطون كيْ يُدْخَلَ مشْفى المجانين، يُصْبِحون خائِفين منه، مع أنَّهُ هو الذي رَتَّبَ البيْت، ومعه شهادات عُلْيا، وأبٌ لأولاد، إلا أنَّهم لا يريدونه! صار عِبئاً على أسرته، أحدهم أخذ دكتوراه بالجيولوجيا، وجاء لِبَلَده مع زوْجَةٍ فِرَنْسِيَّة، وتَمَتَّع بمَنْصَب رفيع جداً، وأعْطَوْهُ سيارات وبيوتاً، فإذا به يفْقِدُ بَصَرَهُ! فزارَهُ صديق وقال لي: إنه يقول: والله أتمنَّى أن أجْلس على الرصيف، وأتَكَفَّفَ الناس، وليس على ظَهْري إلا هذا الرِّداء، وليس عندي شيءٌ في الدنيا، ويَرُدُّ الله لي بصَري، من هو مالك البصر؟ قد يكون المرءُ رفيع الإيمان، فليس معْنى فقْدِ البصر أنَّ الشخْص إيمانه ضعيف! هذا بِعِلْمِ الله، فالذي يفْقِدُ بَصَرَهُ يرْقى بِفَقْدِ بَصَرِهِ إذا صبر، فالبصر نِعْمَة، وفَقْدُهُ نِعْمَة، هذا إذا تَعَمَّقْتَ في التوحيد، لأنّ كُلَّ شيءٍ بيَدِه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ))

[البخاري عن أنس]

كلمة (مُسَيِّر) تعْني الحركة وكلُّ شيء يتَحَرَّك فَهُوَ بيَدِ الله :

ثمَّ قال تعالى:

(مَلِكِ النَّاسِ)

أما الإله فهو المُسَيِّر، تحْريك الأفلاك بيَده تعالى، وكذا تحْريك الأرض والشمْس والقمر، وكذا حركة القُلوب، فإذا خَطَّط الإنسان قلبه، ورأى الشريط الطويل يقول الطبيب: حركة مُنتظَمَة، وحركة الأمْعاء والعَضَلات كذلك، وحركة عَدُوِّك بيَد الله، فكلمة مُسَيِّر تعْني الحركة، وكلُّ شيء يتَحَرَّك فَهُوَ بيَد الله، قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

هناك مجموعة آيات وأحاديث، منها حديثُ ابْن عَبَّاسٍ قال:

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابْن عَبَّاس]

((عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ))

[أبو داود عَن ابْن الدَّيْلَمِيِّ]

آيات قرآنية تؤكد أن المشيئة بيَد الله :

قال تعالى على لسان هود مخاطباً قومه:

(وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 54-55]

وقال تعالى:

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

وقال تعالى:

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

إنّ المشيئة بيَد الله، فإذا شاء أنْ يكون هذا عليَّ كان، هذا الشيء المُخيف بيَد الله، فإذا شاء الله له أنْ يصِلَ إليَّ فهُوَ يصِل، فأنا أخافُ منه ولا أخافُ منه، أخاف منه إذا شاء الله له أن يُؤذِيَني، ولا أخاف منه إذا لم يشأ الله له أن يؤذِيَني، لذلك الأفعى كما قال المُوَحِّدون: تلْدَغُ عندها لا بها، أيْ عند إرادة الله لا بها، فهِيَ لا تلْدَغُ، وكذا العقرب إلا إذا شاء الله، قال تعالى:

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

كُلَّ شيءٍ في الأرض مبْعَثُهُ وَسْوَسَةُ الشيطان وهناك ثلاثة مصادِر للوَسْوَسَة :

ثمَّ قال تعالى:

(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

قال بعضُ المُفَسِّرين إنّ كُلَّ شيءٍ في الأرض مبْعَثُهُ وَسْوَسَةُ الشيطان، فالشيطان يُوَسْوِس، وبعضُهم قال: هناك ثلاثة مصادِر للوَسْوَسَة: الأوّل كما قال تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق: 16]

أحْياناً النفسُ المُنْقطِعَة عن الله عز وجل أمَّارةٌ بالسُّوء مصْدر داخِلي بحْت، وهناك وَسْوَسَة من شيطان الإنْس، وهناك وَسْوَسَة من شيطان الجنّ، ثلاثة مصادِر.

الدعوة لِكُلِّ شيء يُغْضِبُ الله عز وجل هي من وَسْوَسَة الشيطان الإنْسي :

أما ربنا عز وجل فقال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

[سورة الأنعام:112]

هناك شياطين الإنس وشياطين الجنّ، فشَياطين الإنْس يقولون لك: أين وَضَعْتَ مالك؟ بالبَيْت، غَفَرَ الله لك، ضَعْهُ في البنْك وترْبَحُ الفائِدَة! هذا شيطان، ويقول لك مثلاً: هناك حفْلةٌ بالفُنْدُق الفُلاني، فيه مناظر بهيجَة جداً، اخْتِلاط ونِساء فهذا شيطانٌ كذلك، بل وكُلُّ إنسانٍ دعاك للمَعْصِيَة وزَيَّنها لك فَهُوَ شيطان، وهذه حقيقة، إنْ كان اخْتِلاطاً أو خمْراً أو ربا أو سرقة أو أكْل مالٍ حرامٍ أو كسْباً غيرَ مشْروع، ثمَّ يقول لك: الناس كُلُّها هكذا! فهذا هو الشيطان الإنْسي، لذلك قال بعضهم: ومن شياطين الإنْس المَشاؤون بالنَّميمة، ومن شياطين الإنْس بائِعو الشَّهَوات، فإذا فَتَح دار سينما مثلاً، أو داراً لا تُرْضي الله عز وجل، أو فتَحَ محَلاً يبيعُ فيه أشْرِطَة غير مشْروعة، فَهُوَ شيْطان إنْسي، فالدعوة لِكُلِّ شيء يُغْضِبُ الله عز وجل هي مِن وَسْوَسَة الشيطان الإنْسي، والنبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن شيْطان الإنْس نهْياً قاطِعاً فقال:

((يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟ قال: قلت: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم، هم شر من شياطين الجن.))

[عوف بن مالك عن أبي ذر]

هذا الذي يُقْنِعُك بالمَعْصِيَة ويُزَيِّنُها لك، ويُفَلْسِفُها لك، ويُعْطيها شكْلاً مَنْطِقِياً هو شيطانُ الإنْس. هذا الوسْواس له صِفَة وهي أنَّهُ خناس، بِمُجَرَّد أنْ تقول: أعوذ بالله خَنَسَ، فَهُوَ شيطان يُوَسْوِس، لكِنَّك إذا اسْتَعَذْتَ بالله خَنَسَ، فالصِّفَة المُلازِمَة له أنَّهُ يخْنُس، قال تعالى:

(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

الوَسْواسُ الخناس :

الموضوع الدقيق هنا موضوع الوَسْواسُ الخناس، قال عليه الصلاة والسلام:

((الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم إذا ذَكَرَ الله خَنَس وإذا غفل وَسْوَسَ له.))

[أخرجه البخاري تعليقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما]

إذا شَعَرَ الإنْسان بالوَسْوَسَة معنى ذلك أنَّهُ غافِل، وإذا كان يَقِظاً معنى ذلك له السلامة، كأنْ يقول أحدهم لابنه - وقد دُعِيَ لِحَفْلة لا تُرْضي الله -: اِذْهَب ولا عليك وتَعَرَّف على الناس واخْتَبِر الحياة، وتَعَرَّف على المعْصِيَة كي تجْتَنِبَها، فهذا هو كلام الشيطان، مع أنَّ ظاهِر الكلام منْطِقي: اُدْخُل مُعْتَرَكَ الحياة وجَرِّب، ولا تَكُن غَبِياً:

((الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم إذا ذَكَرَ الله خَنَس وإذا غفل وَسْوَسَ له.))

شيءٌ آخر، قال تعالى:

(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الحشر: 16]

وقال تعالى حكاية عنه:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة إبراهيم: 22]

النِّسْيان والنعاس والخوف والتَّذْكير بأمور ماضِيَة وحاضِرَة هذا كُلُّه من عَمَل الشيطان:

إنّ الشيطان أحْياناً يُوَسْوِسْ لك أموراً قد مَضَتْ بأنْ يُذكِّرُكَ بِسَفَرٍ مضى عليه خمْسُ سنوات بالتفْصيل، وتشاجرتَ مع ابن عَمِّك منذ عشْر سنوات، يأتي ويُذَكِّرُك بالحادِثَة، وكيفَ تحداك؟! وماذا قلتَ له؟ وماذا قال لك؟ كُلُّ هذا في الصلاة، فهذا فيما مضى، ويُوَسْوِسُ كذلك فيما سَيَأتي، غداً سَتُصْبِح صاحب مَحَلٍّ تِجاري، وتشْتري سيارة، وتقتني بيْتاً، وتقيم مَصْيَفاً، وتشْتري أرضاً يكون لك فيها مسبح ومسكن كبير، كُلُّ هذا في الصلاة، اشْترى وبنى وزرع وأثمر!! ثمَّ ينْسى إنْ كان واقِفاً في صلاته أم قاعِداً، وقد يقول أشْهد أنْ لا إله إلا الله وهو واقف! وأما في الحاضِر فيُوَسْوِسُ له بالمَعْصِيَة، اِفْعَل وانْظر، ولا تدع هذه النَّظْرة تفوتُك، تَمُرُّ امْرأةً بالطريق فيَقول له: تَعَرَّف على مُواصَفات الجمال كي تخْطُب! فالشيطان يأتي للإنسان من تفْكيره، ومبْدأ عقْلِهِ وقِيَمِهِ. ثمَّ مسألة النِّسْيان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأنعام: 68]

فهُوَ يُنْسيكَ العمل الصالح، وعَد أُخْتَهُ أنْ يُعْطيها كُلَّ شهْر مئة ليرة، فإذا جاء المَوْعِد أنْساهُ الشيْطان، يُمْضي أوَّل سبت وثانيه وثالثه ورابعُهُ ولم يُعْطِها شيئاً، الطالب يكون عنده دَرْس، فيَقول له الشيطان: تمهّل قليلاً فالأسْتاذ لن يأتِيَ الآن، فإذا ذَهَب الطالب وَجَد الحِصَّة في آخِرها، فالنِّسْيان من الشيْطان، والنُّعاس كذلك من الشيْطان، فقد قيل: النعاس في مجْلِسِ العِلْم من الشيْطان، في أثناء الدرْس ينعس ويتثاءب، فإذا انتَهى نَشُط وسَهَر إلى الساعة الواحدة ليلاً! والخوف كذلك من الشيطان، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 175]

يُقابل الوَسْوَسة الإلْهامُ فالغافل يُوَسْوَسُ له أما المؤمن فيُلْهَم :

النِّسْيان والنعاس والخوف والتَّذْكير بأمور ماضِيَة والتي ستأتي والحاضِرَة، هذا كُلُّه من عَمَل الشيطان، إلا أنَّه لا يمْلِكُ على ابن آدم سُلْطاناً، ويُقابل الوَسْوَسة الإلْهامُ، فالغافل يُوَسْوَسُ له، أما المؤمن فيُلْهَم، قال ربنا عز وجل:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 257]

كان مُسْتقيماً فانْحَرَف، وهذه كانت مُسْتقيمة فأصْبَحَتْ سافِرَة، وهذا كان تعامله حلالاً فصار حراماً، قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

[سورة القصص: 7]

وقال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[سورة النحل: 68]

هذا وَحْيُ إلْهام، تجد المؤمن مُسَدَّداً، اسْتِقامة وعملاً طَيِّباً، لدينا فرق بين الوَسْوَسَة والإلْهام وهو فرق عِلْمي، كُلُّ ما يأمر به كتاب الله والسنّة المُطَهَّرة إذا جاءَكَ خواطِر من هذا الموضوع فهي خواطِر من المَلك، وكُلُّ ما نهى عنه الله في الكتاب والسنّة إذا جاءَتك خواطر من هذا الموضوع فهُوَ من الشيْطان، فالمِقْياسُ إذاً الكتاب والسنّة ولا مِقْياس ثانٍ لذلك، فالذي يتوافق معهما هو إلْهام، والذي يتعارض معهما وسْواس من الشيْطان.

المنافق يمْشي مع الشيْطان إلى آخر الطريق بخِلاف المؤمن :

آخر شيء المؤمن إذا جاءَهُ شيْطانٌ - وقلّما يأتيه - لا يسْتَرْسِل معه، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

أما المنافق فيمْشي مع الشيْطان إلى آخر الطريق بخِلاف المؤمن، فحينما يشْعُر بالوَسْوَسَة الشيْطانِيَّة يقول: أعوذ بالله من الشيْطان الرجيم. ثمَّ قال تعالى:

(الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

((وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

طوال الليل سباب وشجار وصِياح لأنَّهُ لم يُسَلِّم، وكذا إذا لم يذْكر الله عند الطعام، تَجِدُهم ما شَبِعوا! فإذا دخل الواحد منا بيتَه فعليه أنْ يُسَلِّم، كي يذْهب الشيطان.

ملخص سريع لسورة الناس :

ثمَّ قال تعالى:

(مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

الآن رفيق السوء شيْطانُ الإنْس، وحاشِيَةُ السوء شيْطان الإنس، والنمام من شياطين الإنْس، وبائِعُ الشَهوات من شياطين الإنس، والدعوة إلى الربا من وسْوَسَة شياطين الإنْس، والدعوة إلى الزنا بِكُلِّ أنواعه من وسْوَسَة الشيطان، وكذا الدعوة إلى الخمْر والمَيْسر والاخْتِلاط. كُلُّ معْصِيَة دُعِيَ إليها، مع فَلسَفَتِها، وجعْلِ الكلام مُنَمَّقاً عليها، فهذا من شياطين الإنس. فهذه السورة أصْبحت بِمَجْموعِها:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

(قل أعوذ برب الناس)، عَرَفْنا ما معنى الرب؟ (ملك الناس)، أي بِيَدِهِ ملكوت كُلِّ شيء، (إله الناس)، أي المُسَيِّر، (من شر الوسواس الخناس)، أي بِمُجَرَّد أنْ تقول: أعوذ بالله يَخْنس، (الذي يُوسوسُ في صدور الناس)، أي في النفْس، (من الجِنَّة والناس).

والحمد لله رب العالمين

الفهرس